



المجلد العشرون

الحرم سنة ١٣٦٨

١٢
٢٢٢٢٢
دور

مجلة الأزهر



تصَدَّرَ شَرْيَاعِي مَشِيخَةُ الْجَامِعِ الْأَزْهَرِ الشَّرِيفِ

مجلة الأزهر

المجلد العشرون

مدير المجلة

ورئيس تحريرها

محمد فريد حجازي

الاشتراك السنوي { ٤٠ لمصر والسودان
٥٠ لخارج القطر المصري

ثمن المبدد ٤٠ ملها

إدارة المجلة : بديوان الإدارة العامة للأزهر والمعاهد الدينية بالقاهرة

مطبعة الأزهر

١٩٤٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

السنة العشرون لمجلة الأزهر

الحمد لله على تواتر آياته ، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه ، محمد وعلى آله وصحبه وأوليائه .

أما بعد ، فإننا نفتتح بهذا الجزء من مجلة الأزهر سنتها العشرين ، مناقحة عن الإسلام ، مقومة للأخلاق ، داحضة للشبهات ، ناصرة للسنة ، ميمنة للبدعة ؛ وما نجمده من إقبال القراء عليها ، وإعجاب أولى البصير بها ، يشجعنا على المضى بها قدما على السمت الذي توخينا .

وقد جرينا أخيرا على طريقة عادت على قرائها بالفرائد الجزيلة ، وهي الاستكثار من كتابة العلماء الأزهرين ، كل في الفرع من العلم الذي يقوم بتدريسه ، أو ما يمت إليه بسبب ؛ فأصبحت مجلة الأزهر تمثل الجامعة الأزهرية بكل معاني هذه الكلمة . وليس هذا بقليل ؛ فإن العالم الإسلامي كله يتطلع الى ما يدرس في الأزهر ، ويتوق لأن يقرأ لاهله ما ينفعهم في عقائدهم وعاداتهم وسيرتهم ؛ فيجد في مجلة الأزهر مطلبته ، وكانت أعز عليه من كل مأمول .

لا جرم أن مجلة الأزهر لسان الأزهر الناطق ، وعقله المدبر ، وصوته الرنان ، يصل إلى سمع كل مسلم في أقصى الأرض ؛ فإن كان لا يفهمها إلا من درس العربية ، فزبدتها تترجم لهم بلسانهم ، يقوم بذلك رجال منهم أسعدهم الحظ بالشخص إلى مصر ، والالتحاق بالأزهر ، وأخذ العلم عن شيوخه الموقرين .

وليست مجلة الأزهر مقطوعة الصلة بأية ناحية من نواحي العالم ، وما يدور فيه مما يختص بالدين على وجه عام ، وبالإسلام على وجه خاص ؛ فإن من موظفيها

من حذفوا اللغات الأجنبية ، فهم متصلون بالعالم الاجنبى وينقلون عن مجلاته وجرائده ما يجدونه فيها من البحوث القيمة ، أو ما يستحدث من الشبهات العلمية والفلسفية فيدحضونها . وهذا من أمس الأعمال بحاجة النشر في هذا العصر الذى اشتدت فيه مناهضة الماديين للدين .

هذا موقف مُشكر لله على ما هدى القائمين على الدين إلى إيجاده ، وقد تابع على الأزهر شيوخ أجلاء في هذه العشرين سنة الأخيرة ، لحظيت منهم جميعا بالتأييد التام ، نخص بالذكر منهم حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشناوى شيخ الأزهر الحالى ؛ فهو عظيم العناية بها ، شديد الرغبة في ترقيتها .

وإذا ذكرت مجلة الأزهر ، وجب رفع واجب الشكر والإخلاص لحضرة صاحب الجلالة الملك المعظم فاروق الأول ؛ فهو حفظه الله يحبوها برعايته السامية ، ويخصها بعنايته العالية ، لا زال ملكه وطيد الأركان ، ودولته سامقة البيان ، بفضل الله وكرمه .

محمد قريش ومحمد

الجامع الأزهر

يحتفل بأول السنة الهجرية

احتشد جم غفير من عليّة القوم يتقدمهم معالي رئيس الديوان الملكي وجمهرة من علماء أعلام، ووجهاء وكبار الموظفين، وطلبة أزهريين، فلما أدوا صلاة العصر نهض حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشناوى شيخ الجامع الأزهر، فألقى خطابة جامعة ألمّ فيها ببند من تاريخ ظهور الإسلام، وما أوجده في العالم من نظام ووثام، وما أثمرته تعاليمه من مدنية فاضلة، وعمران عالمي، لا تزال آثاره قائمة الى اليوم؛ وألمّ بما لحضرة صاحب الجلالة الملك المعظم فاروق الأول في جمع كلمة العرب، وطلب الى الله أن يديم هذه النهضة المباركة، لتؤتي ثمراتها في العالم. كل ذلك ببيان شائق، وعبارات بايعة، تقبلها السامعون بالإعجاب والإكبار. وهذا نصها :

بسم الله الرحمن الرحيم .

الحمد لله الذى افتتح بالهجرة الشريفة النبوية أولى صفحات إعزاز دينه القويم، ونصر بها نبيه إمام المجاهدين، وقدوة المهتدين . صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهديه .

إخوانى وأبنائى المسلمين :

تسعد الأيام بما تتمخض عنه من أحداث عظام ؛ وإنه ليوم مبارك الطلعة ، خليق أن يتخذ المسلمين عيداً ؛ ذلك اليوم الذى هاجر فيه الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة المكرمة ، الى المدينة المنورة ، فيتذكرون فيه من صفات الرسول صدق الإيمان ، وقوة المزيمة ، ونفاذ البصيرة ، وكال الشجاعة ، وغاية الإيثار .

لقد أجمع خصوم الرسول صلى الله عليه وسلم أمرهم على أن يتخلصوا منه ،

وزئى لم شيطانهم أن فى ذلك إطفاء لنور الله ، الذى آن له أن يشرق على الكون فيضيئه ، ويبتتوا قتل الرسول صلى الله عليه وسلم فى ليلة معينة ، بطريقة معينة ، يتفرق بها دمه الطاهر فى القبائل ، فتحار قبيلته فى النار له ، لأنها لا تقوى على معاداة القبائل كلها ، إن هى شئت الحرب عليها جميعا ، ولا هى تعرف أى قبيلة قتلت الرسول فتشار له منها ؛ وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أحيط بما اعتمده المتآمرون ، إذ أطلعه الله على مكرهم ، وعلى الليلة التى حددوها لتنفيذ جرمهم ، فقابل الرسول ذلك الفضل من الله بشكر عميق ، وإيمان كامل ، وقلب سليم ، لا ينفذ اليه فرق ولا جزع ، ونفس مطمئة مياة لا يبلغ رسالة ، حتى إذا التف المتآمرون بدار الرسول صلى الله عليه وسلم ، وراحوا يتباهون بما اتووه ، ويتفاخرون بما عسى أن تضفيه عليهم قبائلهم من المدح والثناء ، لقاء شنيع صنعم ، إذ بالرسول صلى الله عليه وسلم يخرج من داره ، فيغشيه الله ، فلا يصرون .

ويمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى منزل أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وكانا قد تواعدا على اللقاء به ، بعد أن أذن الله لرسوله بالهجرة الى يثرب ؛ فرافقه الصديق فى يوم أبلغ أغر ، ويصبح المتآمرون ويدخلون دار الرسول يبعون تنفيذ ما يبتوا النية عليه ، فلا يجدون فى مضجعه إلا عليا كرم الله وجهه ، متشحا رداه ، معرضا حياته فى سبيل صاحب الدعوة ، وحامل الرسالة ، فيقيه الله مكر الماكرين ، ويحفظ حياته وحياة الرسول الأمين ، ليتم نعمته على العالمين .

وما كاد الرسول صلى الله عليه وسلم يخرج ليلا من مكة مع الصديق رضى الله عنه ، ميممين شطر الغار ، حتى أحاط الصديق بالرسول ، فيسبقه مرة ، ويمشى خلفه مرة ، ويسير عن يمينه تارة ، وعن يساره أخرى ؛ فلما استوضعه الرسول جليلة الامر ، أجابه : أذكر الرصد فأكون أمامك ، وأذكر الطلب فأكون خلفك ، ومرة عن يمينك ، ومرة عن يسارك ، لا آمن عليك . فلما بلغا الغار تقدم أبو بكر فاستبرأه ، ودخل الرسول صلى الله عليه وسلم .

وكان من أمر المشركين أن تابعوا الرسول والصديق ، فلم يفوزوا بما أرادوا ، بل رجعوا على أعقابهم خاسئين ، واقتلبوا الى أهلهم خاسرين ، وأتم الله نعمته

على رسوله صلى الله عليه وسلم ، ووصل هو وصاحبه الى المدينة المنورة ، تخف المسلمون لاستقبال الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكثيرون فرحوا بقدومه ، وحيوه تحية النبوة . قال البراء : ما رأيت الناس فرحوا بشيء كفرحهم برسول الله يوم جاء المدينة . وقال أنس : شهدته يوم دخل المدينة ، فإرأيت يوماً قط كان أحسن ولا أضوأ من يوم دخل المدينة علينا .

هذا هو صدق إيمان الرسول ، ومضاء عزمه ، وقوة احتماله في سبيل الدعوة الى الحق ؛ وهذا هو وفاء صحبه ، وتفانيهم في نصره . فاذا أحيينا نحن المسلمين ذكرى الهجرة المحمدية ، فإنما نتمثل الرسول صلى الله عليه وسلم ، في قوة إيمانه ، ونفاذ بصيرته ، ومبلغ وفائه في سبيل نشر الدعوة لدين الله ، فقد مكن الله للمسلمين بهجرة الرسول صلى الله عليه وسلم وهجرتهم من مكة الى المدينة : فألّف بين قلوبهم ، فكانوا وحدة قوية متماسكة ، ووجهة متراصة ، أزعجت المشركين في مكة ، وطوحت بأطماع اليهود في يثرب ، ودخلت قبيك الأوس والخزرج في دين الله ، فتآخوا ، واتحدت كلمتهم ، وزال ما كان بينهم من عدااء سابق دام عشرات السنين ، وسامهوا في إعلاء الإسلام ، ونشر لوائه ؛ ثم قضى المسلمون على الدس والغدر والفساد والكيد والخبث والتفاق ، وحاربوا اليهود وغلّبهم على أمرهم ، وأجلّهم من المدينة وما جاورها من القرى ، وتتابع الوحي الإلهي على الرسول الكريم صلوات الله عليه ، حتى شمل جميع مظاهر الحياة : من العبادات والمعاملات ، ومحاسن الأخلاق والآداب ، ونظام الأسرة والقضاء والمواثيق ، والحروب والمعاهدات ، وغير ذلك من كل ما يكفل للمسلمين - إذا هم عملوا به - حياة سعيدة في الدنيا والآخرة .

هذه خواج تخاطر في النفس ، كلها جاءت الهجرة أو ذكرت ؛ ولكنها اليوم تستدعي تأملاً أعمق ؛ فقد جاء عيد الهجرة والمؤمنون في شرف الجهاد ضد الذين يريدون أن يخرجوهم من ديارهم ، ولكن الله من على المؤمنين فوحد قلوبهم ، وجمع كلمتهم على مقاومة هذا العدوان ، وسيكتب لهم يادته تعالى النصر المؤزر ، والفوز المبين ، بفضل تأخيمهم وتماسكهم ؛ ومهما طاللت المحنة فإن الله ناصر دينه ، معز لمعباده المؤمنين ؛ وليكن لنا أسوة في رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد صبر حتى ظفر ، وجاهد حتى انتصر .

إخواني وأبناء المسلمين :

إن دينكم حق كره ، وخير كله ، فاستمسكوا بعروته ، وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تفرقوا ، فإن يد الله مع الجماعة ؛ وإن خير ما أوصيكم به في هذه الذكرى المباركة أن تتقوا الله ، وتصلحوا ذات بينكم ، وتبصروا كتابه ، وتعملوا بهديه ؛ فإن الأمة الإسلامية عاشت عزيزة مهيبة ما تمسكت بكتاب الله ، وعملت بسنة رسوله عليه الصلاة والسلام ، ولم يصبها الانحلال والضعف إلا حين تنكبت طريق الهداية ، وأعرضت عن سبيل الحق . هدايا الله ولياكم سواء السبيل .

اللهم فاطر السموات والأرض : تولنا بلطفك ، وامنحنا رضاك ، ووفقنا للاهتمام بهدى نبيك الكريم ، وأصلح أمرنا . اللهم انصر عبادك المجاهدين في سبيلك ، وأدمم بعونك ، وأيدم مجتهدك ؛ واشمل بحمايتك ورعايتك ، صاحب الجلالة ، ولانا الملك المعظم الملك فاروق الأول . اللهم اشرح صدره ، ويسر أمره ، وآته سؤله ، وأتله ما يتغنيه للإسلام والعروبة من خير وعز وكرامة . اللهم أحبه حياة طيبة مباركة تعم بنفعها البلاد والعباد .

وإني وإخواني وأبناء الأزهريين ، نرفع إلى مقام جلالة أسمى آيات الولاء والإخلاص والتهنئة ، والشكر ؛ ونسأل الله تعالى أن يعيد هذا العيد السعيد على جلالاته باليمن والفتح المبين ، وأن يوفق رجال الحكومة إلى ما فيه الخير العميم . كما نبعث بتهنئتنا الخالصة إلى إخواننا المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها بالعام الهجري الجديد ، ضارعين إليه تعالى أن يعيده على المسلمين والعرب ، وقد ثبت الله أقدامهم ، وحقق آمالهم ، وظفروا بالنصر المبين .

ونسألك اللهم يا واسع الفضل والإحسان : أن تتفقد برحمتك ورضوانك الراحل الكريم ، مولاي الملك العظيم ، صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول . اللهم أجعله في أعلى عليين ، مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

بين معترك الفلسفات والانقلابات

لم توزع عقول البشر بين الفلسفات المختلفة ، والمذاهب المتعاكسة كما هي الحال في هذا العصر . وما يزيد الأمر خطراً أن هذا التوزيع لم يقتصر على الجماعات المختلفة فتجتمع كل منها حول كلمة جامعة ، ولكنها تناولت الأفراد أيضاً فأصبح بين طوائف الأمة الواحدة من الإحن والحزازات مثل ما بين الجماعات ، فترى في الأمة الواحدة حروباً تشب نيرانها بين تلك الطوائف ، تدوم حيناً ثم تهدأ لتعود الى تأججها تارة أخرى أشد ضراوة مما كانت .

لقد قام الاجتماع منذ أن خلق الله العالم الانساني الى عهد غير بعيد ، على الرُّبُط الجامعة التي يقدسها أفراد كل هيئة ، كرابطة الدين ، ورابطة الوطنية ، ورابطة الجنس ، ورابطة اللغة ، ورابطة التقاليد والعادات ، ورابطة الغايات والمُثُل العليا الخ ، فنبئت كل هذه الرُّبُط في العهد الأخير بالوهن ؛ فعادت الفلسفة على رابطة الدين خللت محلها المادية المحضنة ، وسطت المنازعات الاقتصادية على رابطة الوطنية فأرهقتها ، حتى إنك لتجد المتعذبين بمذاهب اقتصادية متطرفة يعطفون على من هم على شاكلتهم من أبناء الأمم المختلفة ، ضارين صفحاً عما بين تلك الأمم من خلافات سياسية ، ومنازعات اجتماعية . أما رُبط التقاليد والعادات والمُثُل العليا فقد ضعفت حتى لم يبق لها تأثير في قلوب الأمم ، وحلت محلها اندفاعات هوائية لا ترتكز على شيء مما كانت تعباً به الجماعات وتحرص عليه . فإذا تأملت في مجموع الأمم من هذه الزاوية ، أيقنت أن الوحدات الاجتماعية في حالة تحلل مستمر ، وألبيت رُبطها في دور تراخٍ تدريجي . ولذلك لو تأملت لتجد الكلمة الجامعة التي يجب أن تصوى هذه الجماعات تحت علمها ، لما اهتديت الى خيال منها . فهل سينتهي العالم على هذا النحو الى القوضى المطلقة من كل مثل أعلى يرضى الجانب الروحي الذي لا تجرد منه نفس بشرية ؟

يقول الغزلة من أهل السذاجة : نعم ، ويقول المفكرون الراضون في العلم : لا .

وحجة الأولين أن هذه المنازعات القائمة بين طوائف الأمم ستنتهى بشيوع الإلحاد المطلق ، وبداعى سلطان جميع الأصول الاجتماعية العتيقة ، وحلول أصول أخرى محلها تكتونها المصالح الوقتية ، بعيدة عن كل تأثير من عقيدة دينية أو نزعة حزبية .

وحجة الآخرين أن هذه المصادمات الواقعة بين طوائف الأمم ستفضى الى إضعافها واختلال نظمها ، وستريها رأى العين أن الحياة البشرية لا تقوم إلا على أسس من التقاليد المحترمة ، والنظم المقررة ، لا على النفسيات الثائرة ، والاندفاعات الجارفة ، والمذاهب المتطرفة . ولا تهذب تلك التقاليد والنظم إلا على سنة الترقى التدريجى ، قائمة على الارتقاء الأدبى ، والسمو الخلقى ، على النحو الذى نشأ عليه ما نحن فيه من رقى صورى ومعنوى ، حصلناه تدريجيا فى أجيال كثيرة متعاقبة ، لا ما فيه بعض الأمم اليوم من التناحر بين طوائفها ، والتنازع بين عناصرها ، جريا وراء تحسين أجور ، أو وصول الى ولاية حكم ، أو قلب نظام مجتمع رأسا على عقب ، فى العهد الذى فيه تربص الأمم ببعض دوائر السوء مثلهم فى هذا كمثل أهل دار اشتد بينهم التنافس على توزيع الحجرات وتأنيثها ، وهى مهددة بالانهيار عليهم ، وهم يصطرون فى داخلها !

نعم إن ارتقاء أدوات الحكم فى حياة الأمم كثيرا ما جئرت إلى ثورات عنيفة ، وإراقة دماء غزيرة ، ولكن هذه القلاقل كانت بعيدة عن حوافظ الاجتماع ، ومعاهد الأخلاق ، وأصول الآداب المنفق عليها بين الناس كافة ؛ وأما التى تشب فى هذه الأيام بين طوائف الأمم ، والتى لا تزال فى دور الاختبار ، فتتوجه إلى إسقاط الأصول الأولية للمعتقدات ، وإلى القواعد الأساسية للاجتماع ، وإلى الوطنان الفطرية للآداب ! وقد وجدت الدعايات القوية لدعاة هذه المذاهب مكانا فسيحا من أئدة العامة ، وانضاف اليها بعض المتعلمين ، فتجد فى صميم كل أمة أو زاعا منهم ينتقدون كل ما تقع عليه أعينهم من القيود ، ويقومون على كل توجيه يصدر إليهم من المهيمنين على النظم الاجتماعية ، ويتمنون لو حان الوقت ، وسنحت لهم الفرص لتحطيم كل هذه التقاليد الإنسانية العامة ، ليتأدوا منها إلى الوجود السعيد ! وأى شيء هو الوجود السعيد ؟ هو أن يملأوا من جميع التقاليد ، ويتحرروا من كل

القيود ، زاعمين أنها تقاليد وقيود قررتها البشرية في عهد جاهليتها من دين وأخلاق وآداب لم تحملها عليها الحاجات الجسدية ، ولا الضرورات الاجتماعية ، ولكن الخيالات الذهنية ، والخرعيلات الوهمية !

فلو انحلت أمة تحت تأثير هذه الدعايات والقلاقل ، استحال عليها أن تأتلف على أصل جامع غير ما يؤلف بين جماعات البهائم العجم ، وهي دون ما تتطلبه الحياة البشرية ، لأن لها فوق ما تشعر به من الحاجة الى المأكل والمأوى مطالب روحية وأدبية ، إن حبت عنها حطمت جميع ما تحاط به من الحواجز ، وبرزت نائرة مناهضة لا تستطيع أن تقفها أكبر قوة في الأرض . وما ذلك إلا لأنها تستمد قوتها من صميم الروح البشرية ، وكل ما كان مصدره الروح فلا بد من تعلبه على جميع الحوائل المادية . فالدين والأخلاق والآداب ، وكل ما اشتق من هذه الينابيع الثلاثة ، مقومات طبيعية للحياة الإنسانية ، بدليل أنه لم تشاهد إنسانية مجردة منها .

نعم إن هذه المصادر العلوية قد يختلط في ثمرتها - بسبب شوائب الطبيعة الجثمانية - الحق بالباطل ، والصالح بالفاسد ، ولكنها تتجرد من باطلها وفاسدها بتأثير ناموس الترقى على مدى الزمان ، كما هو مشاهد في تاريخ الحياة البشرية في أجيالها المتعاقبة . فما يحاوله مشيرو القلائل من المعاصرين باسم الشؤون الاقتصادية ، والنظم الحكومية ، والطبقات الاجتماعية ، من حذف الدين وكل ما يقوم حائلا دون المراسى الأدبية والغايات المثالية للإنسانية ، مما يهوه على خلالات العالسة المادية ، لا يعود على جماعاتهم إلا بالوبال . لا سيما وقد فاتهم أن الحكمة الدنيوية ، والمبادئ الأدبية ، والدوافع المثالية ذات التأثير الكبير في النفوس ، هي العوامل التي تبعد بالإنسانية عن مستوى الحيوانية ، وترتفع بها الى أعلى ما توجه اليه ميولها العلوية ، وأن تعطيل هذه العوامل يفضى بالإنسان الى ما هو أسفل من الحالة البهيمية ؛ لأن الحياة الحيوانية مقودة بما طبعها الله عليه من الميول والمحاولات ، لا نستطيع عنها حولا ، خلافا للإنسان فإنه موكول الى إرادته واختياره ، فإن لم يحكم لإرادته عقل واضح ، وتسلط على ميوله الشهوانية شكيمة أدبية قوية ، وتنهك في نزعاته عقيدة راسخة ، اندفع تحت تأثير رغباته وميوله اندفاعا جونيا ينزله الى أسفل دركات البهيمية ، ولا يغنيه العلم ولا الفلسفة المادية في هذا الدهور شيئا . وهذا دليل محسوس على أن الميول

الفطرية للدين ، ولتعلق بعالم ما فوق الطبيعة والبحث فيه ، وإحياء العرائز
الآدية العليا في النفوس ، هي ميول إلهية بثها الحق سبحانه وتعالى في النفوس
البشرية لترفعها عن حضيض الحيوانية إلى أرقى مراتب الحياة الإنسانية . وأما
صورة واضحة للفرق البعيد بين الأمم التي تأخذ بالدين والعلم معا ، وبين التي
تصدف عن الدين وتأخذ بالعلم والفلسفة المادية . الأولى تمثل الأمة الإسلامية
في إبان نشأتها واشتغالها بنشر رسالتها ، والثانية تمثل الأمم الأوروبية في -روها
الحديثة . كانت الأولى لا تقتل غير المحاربين ، وتحسن معاملته المأسورين ، وتحترم حياة
النساء والولدان والمهرى ورجال الدين وخدم المقاتلين ، ولا تهدم دورا ولا معابد ،
ولا تحرق أشجارا ولا مزارع ؛ وهؤلاء كانوا لا يعرفون بين المحاربين وغيرهم ،
فكانوا يرسلون بطائراتهم تهدم الدور على رؤس أهلها الوداعين ، ويحرقون المدن
التي يسكنها الملايين ، غير رامين إلا إلى تعجيز أعدائهم بكل الوسائل التي تخطر
ببال الإخصائيين .

فإذا انتهى الأمر إلى هذا الحد فقد آذنت المدينة بالزوال ، وإذا اعتبرت
القضايا الذرية من الأسلحة المشروعة فعلى العالم كله السلام .

أليس يبدو جليا من هذه المقارنة أن الدين وما يتصل به من فوحات
واكتشافات تؤيده وتحببه إلى النفوس ، هو العامل الوحيد الذي يهدب الإنسانية ،
ويرقي بها إلى الأوج الأعلى من السكال ؛ وأن العلم الطبيعي والفلسفة المادية
وإن أوصلا الإنسانية إلى أرقى ما بتصوره الخلق من الرقي المادي ، والإبداع
الصوري ، فلا يوصلانه إلى كالة الأدبي ، ولا إلى سموه المعنوي ، فهو بحاجة ماسة
إلى شبكة تصده عن الاسترسال في سوء استعمال سلطانه على العالم الأرضي .

فإذا بقيت الحال على ما هي عليه من ترقى العلم في استكشاف الأسلحة
الفتاكة ، وبقيت النفوس مجردة من المعائد الروحية الملتزمة للوحشية البشرية ،
فإن الحياة الإنسانية تصبح مهددة بالفناء على أشنع حال ؛ ولكن قيم الوجود
سبحانه وتعالى قد أعد لهذا الأمر عدته ، فلي تمضي بضعة عشرات من السنين حتى
يدين العلم للدين الحق ، على شرط العلم نفسه ، أي بالدليل المحسوس .

محمد فريد وجرى

البعوث في الاسلام

- ٢ -

أفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ طه الساكت

مبعوث الأزهر إلى مكة المكرمة

عن أبي موسى رضى الله عنه قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بعث أحدا من أصحابه في بعض أمره قال : « بشرُوا ولا تنفَرُوا ، وبشَرُوا ولا تمسَرُوا . وعن سعيد بن أبي بردة عن أبيه عن جده أن النبي صلى الله عليه وسلم بعثه ومعادا إلى اليمن فقال : « بشرُوا ولا تمسَرُوا ، وبشَرُوا ولا تنفَرُوا ، وتطاولوا ولا تختلقوا . قلنا في المقال الماضي : إن هذين الحديثين احتويا على ثلاث خصائص عليهن أمر الدين كله ، ولذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يأمر أمته بهن ، ولا سيما بعوته ، ومن كان في موضع القدوة من الأمة . وتكلمنا على الخصلة الأولى منهن وهي التيسير والتسهيل على الناس في العلم والعمل ، والإرشاد والدعوة ، في غير إمراط ولا تمريط . ولا نعلم إذا قلنا إن هذه الخصلة هي الأساس الأول للخصالتين الأخريين ، ولذا أشاعها النبي صلى الله عليه وسلم في كل شأن ، وأكد طلبها في كل أمر ، وقال لأصحابه وهم خيرة أمته حينما ثاروا على الأعرابي الذي يال في المسجد : « فإيما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين » (١) .

أما الخصلة الثانية فهي التبشير - ضد التنفير - وهو : تسكين الناس (٢) وإحبارهم بالأخبار السارة التي يظهر أثرها على الشرة . والتبشير من أعظم الوسائل إلى ترويح النفوس وإزالة همومها ، والخيولة بينها وبين القنوط واليأس ولن نجد أعون للداعي بعد توفيق الله تعالى ، من بشارة طيبة ، يفتح بها أذاما صمًا وأهيا عميا وقلوبا غلغا . وكَم من نفوس كانت مستعدة للهدى والخير لولا أن ابتليت بأناس متفزين ، يقتطعون الناس من رحمة الله ، ويمعدوهم من فضله ورضاه : أولئك الذين يحسمون الصنائع ، ويكفرون بالكبائر ، ويشهدون في الأمر والنهي ، كأهم حراس على أبواب الجنة ، لا يدخلها أحد إلا أن يفتحوا له ، أو كأن مفاتيح الرحمة بأيديهم فلا تمال أحدا إلا أن يرضوا عنه : وكأهم نسُوا أو تناسوا أن رحمة الله غلبت

(١) وتقدمت قصته في المقال السابق .

(٢) في إحدى الروايات المتفق عليها « سكروا » بدل « بشروا » . فلذا أمرنا بالتنفير بالتسكين .

غضبه ، وأنها وسعت كل شيء ، وأن من أسرف على نفسه حتى ملأ الأرض خطايا ثم لقي الله تائباً لا يشرك به شيئاً ، لقيه الله بالمغفرة ؛ ومهما يكن من أمر المسرفين فإن عفو الله أعظم من جرمهم ، ورحمته أوسع من ذنبهم ، ولا يئس هبد من روح الله وفي قلبه ذرة من إيمان ، إنه لا يئس من روح الله إلا القوم الكافرون .
وليس المراد أن يقتصر الداعي على التبشير ، دون أن يقر به بالإندار إذا دعت الحاجة إليه ؛ بل لا بد منهما جميعاً ، وإن كان لكل مقام ما يناسبه ؛ وقد بمت الله التبيين مبشرين ومنذرين . ولولا البشارة لأهلك الناس اليأس والقنوط ؛ ولولا النذارة لأهلكهم النفي والغرور ؛ فكلهما سلاح لا غنى عنه ، وطب لا بد منه ؛ ومن أجل ذلك لم يه النبي صلى الله عليه وسلم عن الإنذار وإن كان كذلك خلاف التبشير . على أنه من اليسير على من دعا إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ألا يكون في إنذاره غليظاً مفظماً ، اللهم إلا إن دعت إلى ذلك ضرورة لا يحصى عنها ؛ وآخر الدواء الكي^(١)

وهنا أمر يجدر بنا أن ننبه عليه ؛ وهو أن كثيراً ممن يتصدون للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله عز وجل ، يبالغون في التبشير والإنذار ، فيسبون النواغل بالفرائض ، والصغار بالكبائر ، ويذكرون لأقل الأعمال أعظم الجزاء ، معتمدين في شططهم هذا على أكاذيب مسطورة ، وأحاديث موضوعة لا سند لها من كتاب الله تعالى ولا سنة رسوله صلى الله عليه وسلم . وحق على الولاة أن يأخذوا على أيدي هؤلاء ، ويحولوا بينهم وبين الدعوة ، فإنهم يفسدون أكثر مما يصلحون ، إلا أن يتوبوا إلى الله سبحانه ويتعلوا شرائط الدعوة ومنهجها ، ويقتدوا بالائمة والسلف ، وتكون لهم بصيرة تيرة تهديهم سواء السبيل . وفي كتاب الله عز وجل وما صح عن رسوله صلوات الله عليه غنى وكفاية . على أن في هذا الصحيح ما تعجز النفوس الضعيفة عن حله وفهمه^(٢) ؛ فليكن الحديث فيه بمقدار ، مع إحاطته بالإيضاح والحسنة ، والتمهيد له بالإعداد والإيقاظ . وفي مثل هذا يقول سيدنا علي رضي الله عنه : « حدثوا الناس بما يعرفون ؛ أحببوا أن يكذب الله ورسوله ، وأقال ابن مسعود رضي الله عنه : ما أنت محدثاً قوما حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة^(٣) .

(١) كترائب الأحاديث ، وأحاديث السمعات ونحوها .

وأما الخصلة الثالثة فهي التطاوع والتوافق، ضد التحالف والتنازع. وفي التوافق قوة وألفة، وفي التحالف والتنازع ضعف ونفرة. وقد كان المسلمون سادة العالم وملوك الدنيا وخلفاء الله في الأرض، إلى أن دب فيهم ديب الخلاف والتفرق، فبدلوا من بعد أمهم خوفاً، ومن بعد قوتهم ضعفاً، ومن بعد هزم ذلاً، ولولا أن الدين عند الله هو الإسلام لما كان لسلطانهم في الوجود ظل، ولا لشأنهم في الأمم ذكر. كان العرب في الجاهلية أمماً متفرقة، وأحزاباً متقطعة، وأقواماً متناحرين متافرين، لا كلة تجمعهم، ولا رابطة تربطهم؛ حتى أرسل الله رسوله بالهدى ودين الحق، لجمعهم تحت لواء التوحيد وراية الإسلام، وألف الله بين قلوبهم فأصبحوا بنعمته إخواناً، وكانوا على شفا حفرة من النار فأنقذهم منها... ولم يزالوا متمتعين بنعمة الوحدة والأخوة، حتى فرقهم الأهواء والمطامع، وعضوا بنان الندم، ولات ساعة مندم!

على أن بما شرع الله لهم من هذه الفرائض حوافز عملية تناديهم بالوحدة وتدعهم إلى الوفاق والألفة، وتبب بهم في كل فرصة أن يرجعوا إلى دينكم واستاروا بسيرة الصالحين من أسلافكم، تعزوا وتسعدوا، وتظفروا وتفلحوا، وتكونوا كما كنتم من قبل خلفاء الله في الأرض.

تلك هي الحصال الثلاث التي كان يوصي بها النبي صلى الله عليه وسلم بوعه، وهي كما ترى سبيل السعادة لمن استمسك بها، واهتدى بهديها.

هذا، وقد كان بعث صلوات الله وسلامه عليه معاذاً وأبا موسى إلى اليمن سنة عشر قبل حجة الوداع؛ وقيل سنة تسع عند منصرفه من تبوك؛ وقيل سنة ثمان عام الفتح. وأياً ما كان الأمر فقد بعثا بعد أن علا شأن الإسلام، وبدد نوره سحج الظلام، وكانت اليمن إذ ذاك محلّاقين^(١) فكان معاذ والياً على النجود وما تعالى من البلاد، وكان أبر موسى والياً على التهام وما انخفض منها. ومع بعد الشقة بينهما فكانا يتزاوران ويتعاونان، ويسأل كل منهما صاحبه عن عمله وعبادته ليتأسسا في الخير ويتسابقا إليه؛ وكأما يتناحجان ويتشاوران، فإذا تازعا في شيء ردوه إلى الله ورسوله؛ فيتوافقان ويتطاولان. وجله القول أنهما كانا قدوة صالحة لمن دعا إلى الله على بصيرة وهدى.

(١) الخلاف وفكوره والأطام: واحد.

تحويل القبلة

من بيت المقدس الى الكعبة

لفصيلة الأستاذ الجليل الشيخ الطيب حسن النجار
المدرس في كلية أصول الدين

قال الله تعالى ، قد نرى تقلب وجهك في السماء ، فلنولينك قبلة ترضاها
فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره ؛ وإن
الدين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم ، وما الله بغافل عما يعملون . .
من القبوضات الإلهية ما جعل الله به الإنسان من جمال الصورة ، وما ركر
فيه من المواهب السامية ، لا سيما هبة العقل .

أكرمه بذلك من بين خلقه ، وفضله على كثير من خلق تفضيلاً ، ولقد
كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير
من خلقنا تفضيلاً .

إنها وأيم الحق هبات جليلة ، لا تكون إلا من صنع مدبر حكيم ، ومن نسج
عليم خبير ، يجب يازاتها أن يغفر بنو آدم إلى الأذقان سجداً ، وأن يؤديوا واجب
الطاعة لمعلمين مقضى رموسهم ، لا يرتد طرفهم عن التوجه إلى جنابه الأقدس ،
اعترافاً بفضل مديها ، وإذعاناً لأمر مهيها . لذلك كان تكليف الصلاة أمراً لازماً
في دين جميع الأنبياء ؛ قال الله تعالى : أولئك الدين أنعم الله عليهم من البين من
ذرية آدم ومن حملنا مع نوح ، ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل ، ومن هدينا وإحتينا ،
إذا تلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً ، :

ولما كانت فطر المكلفين المعتمدين استمالة الجهة على الله تعالى تقتضي عدم
التوجه إلى جهة مخصوصة في الصلاة ، أمرهم على خلاف ما تقتضيه فطرهم ، اختياراً

لم وابتلاء ، ليميز الخبيث من الطيب ، والمطيع من العاصي ؛ كما ابتلى الملائكة بالسجود لآدم حيث جعله قبله لسجودهم .
وإنك تعلم أن المقصد الاسمي من الصلاة حضور القلب وكال الخشوع ، واستحصال عظمة الله ، حتى كأنه يراه فيمتلئ قلبه هبة من جلاله ، ويفنى ظله أمام تجليانه ، ويذهب شبح الدنيا ومغرياتها بمشاهدة أنواره ؛ وإن ذلك لمقام الخائفين ، ووسام المحسنين . فالصلاة صلة بين العبد وربّه ، تنهيه عن الفحشاء والمكر متى أداها على وجه الإحسان الذي يتوجه بأحد التاجين . تاج المشاهدة والمراقبة ، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم . الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

ومن هنا يحلق بك أن تلس بيدك السر في أن بعض المصلين لم تنهم صلاتهم عن الفحشاء والمكر ، وقد قال الله تعالى : إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمكر ، وذلك لأنها صلاة عارية من الروح المطلوبة ، ومن الحكمة التي من أجلها شرعت .

وإن أطف ذريعة وأقوى وسيلة لبذل القلب وبخضع ، ويلاحظ جلال الله وعظمته ، هو استقبال جهة معينة في الصلاة . وإذا ما اختصت جهة بمزيد شرف كانت أولى ، وإن أشرف بقعة بين أديم الأرض ، وأظهر مكان يكون قبله يتوجه إليها في الصلاة : هي الكعبة : قال الله تعالى : إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدياً للعالمين . فيه آيات بينات مقام إبراهيم ، ومن دخله كان آمناً . وليس هناك من بيت يشترك فيه جميع الناس إلا إذا كان موضوعاً للطاعات والعبادات ، لأن سائر البيوت كل واحد منها يختص بواحد .

شرف الله هذا البيت بتخطيط الملائكة له ، ووضع رسمه ، وأوحى إلى أبي البشر آدم بنائه ، فوضع أساسه على أبعد عمق من الأرض ، ومن أعظم الصخور حجماً وصلابة ، فتفنى الأجيال ولا يفنى ، وتنتار الراسيات ويبقى . وكان آدم يحج إليه وأولاده جيلاً بعد جيل إلى أن كان طوفان نوح عليه السلام . وبعد أن عاض ماء الطوفان صار ربة يعرف حرمتها ومزيد شرفها المصطفون الأخيار تطوف ، حولها الملائكة ، وتعبد الله عندها .

وكفه ، ومخالفة اليهود الذين كانوا يقولون إنه بحالفا في ديننا ثم إنه يتبع قبلتنا ، حتى روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لجبريل : « وددت أن الله صرمني عن قبلة اليهود إلى غيرها ، فقال له جبريل : « أنا هبء مثلك ، وأنت كرم على ربك ، فادع ربك وسله . »

ثم ارتفع جبريل ، وجعل الرسول يديم النظر إلى السماء رجاء أن يأتيه جبريل بالذي سأل ربه .

أقسم الله ليكون عند ما سأل ، وليجيبه إلى ما طلب ، فوعده بقوله : « فلتولينك قبلة ترضاها ، أي لتعطيك ما اشرب اليه عقق وأشرب حبه في قلبك ، من استقبالك الكعبة . أو فلتجعلك تلى سمها . والاول من قولك وليته كذا إذا صيرته واليا له ، والثاني من قولك أوليته إياه أدنيت منه . وما قصد الرسول ذلك وأحبه عن سخط في التولي إلى بيت المقدس وبجرد هوى النفس ، والشهوة الطبيعية في التولي إلى الكعبة ؛ وإنما ذلك كان منه عليه السلام لمقاصد دينية ، وأغراض سامية ، وافقت مشيئة الله تعالى ، فأروى غلته ، وأدخل عليه السرور والابتهاج بهذا الوعد . ألا وإن وعد الله محتوم الوفاء ؛ لذلك تجدد الإيجاز بما وعد جاء مرتباً عليه ومفرعاً فأمر بالتولية إلى الكعبة بقوله : « قول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره . »

الشطر له محامل ؛ والمراد به هنا الناحية والجهة . والمتبادر من لفظ المسجد الحرام : المسجد الذي فيه الكعبة . والحرام : المحرم فيه القتال ، أو الممنوع من الظلة أن يتعرضوا له .

بأمر الله تعالى نبيه عليه السلام ، وأمره أمره ، ولأمره أن يجعل الكعبة قبلة له ، فيتوجه يديه إلى ناحيتها وجهتها حال تأديته الصلاة لربه ، سواء أكانت مرسماً نفلاً ، وسواء أكان المعلى بالمدينة أو بمكة أو بأي مكان وجد فيه . وفي التعبير بالوجه ما يشير إلى أنه المعيار والأصل في التوجه . وفي ذكر المسجد الحرام دون الكعبة ما يؤيد بكفاية مراعاة جهة الكعبة . وإن ذلك لمبلغ اللطف بعباده والتيسير عليهم ، لأن البعيد عن مكة يمتدح عليه إصابة عين الكعبة ، وما جعل عليكم في الدين من حرج ، وإن الدين يسر لا عسر ، ولذلك لم يقع خلاف بين العلماء في أن الكعبة قبلة كل أفق ، وإن من عاينها فرض عليه استقبالها ، ومن غاب عنها عليه أن يستقبل جهتها ، فإن خفيت عليه فيستدل على جهتها بكل وسيلة تهدي إليها .

• يتبع •

دعائم الاستقرار

في التشريع القرآني

تمة البحث

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد محمد المدني
المفتش بالأزهر

وأما مجيء التكليف في حدود الاستطاعة الشرعية ، وهو ما يمر عنه أهل الشرع ، بنفي الحرج ، فهو أصل من الأصول المقطوع بها ، ولا خلاف عليه بين علماء الشريعة ، ويدل عليه في القرآن الكريم آيات ؛ منها قوله تعالى : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » ، يريد الله أن يخفف عسكم وخلق الإنسان ضعيفا ، « لا يكلف الله مئسا إلا وسعها » ، فيما راحة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، « الدين يقيمون الرسول الذي ألقى الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم » .

وقد علمنا الله جل علاه أن مدعوه بقوله « ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به » .

وقد سرى هذا المبدأ من الكتاب الكريم إلى السنة المطهرة ، وطبع الله عليه الرسول صلوات الله وسلامه عليه ؛ فهو يقول « بعثت بالحيمة السمحة » ، ويروي الرواة في شمائله عليه الصلاة والسلام أنه ما خُير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما ، « وقد سئل عن الحج : أفى كل عام ؟ فقال : « لو قلت نعم لوجبت . ذروني ما تركتكم » ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة مسائلهم

واختلافهم على أنبيائهم . . وروى عنه أنه قال : أعظم المسلمين في المسلمين جرماً من سئل عن شيء لم يحرم على المسلمين لحرم من أجل مسأله . وأنه قال : . إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحد حدوداً فلا تعتدوها ، وحرم أشياء فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة بكم من غير نسيان فلا تبحثوا عنها . .

إلى غير ذلك مما يدل على أن الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه ، قد تأثر أعظم التأثير بمنهج التشريع القرآني فيما أمر به أو بيته أو ركن إليه ، وفي بيان هذا الأصل وغيره يقول ابن القيم : إن الشريعة مبناه وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد ، وهي عدل كلها ، ورحمة كلها ، ومصالح كلها ، وحكمة كلها ، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور ، وعن الرحمة إلى ضدها ، وعن المصلحة إلى المفسدة ، وعن الحكمة إلى العبث ؛ فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل . فالشريعة عدل الله بين عباده ، ورحمته بين خلقه ، وظله في أرضه (١) . .

ويقول أبو إسحاق الشافعي في كتابه الموافقات (٢) : إن وضع هذه الشريعة المباركة حيفة صمعة سهلة ، حفظ فيها على الخلق قلوبهم ، وحجبها لهم بذلك ، فلو عوملوا على خلاف السباح والسهولة ، لدخل عليهم فيما كلفوا به ما لا يخلص به أعمالهم ؛ ألا ترى إلى قوله تعالى : . واعلموا أن فيكم رسول الله ، لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ، ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان ، أولئك هم الراشدون ، فضلاً من الله ونعمة ، والله عليم حكيم . .

فقد أخبرت الآية أن الله حبب إليها الإيمان بتيسيره وتسهيله ، وزينه في قلوبنا بذلك ، وبالوعد الصادق بالجزاء عليه ، وفي الحديث : عليكم من الأعمال ما تطيقون ؛ فإن الله لا يمل حتى تهلكوا . .

والأمثلة الدالة على رعاية هذا الأصل في التشريع القرآني كثيرة مشهورة . منها : أن الله شرع الصيام ورتخص في الفطر للسافرين والمرضى : . ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر ؛ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر . .

ومنها : أنه كلفنا بالوضوء وال غسل من الجنابة ، وشرع التيمم عند فقد الماء أو عدم القدرة عليه . . . فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ، ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ، ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون . .

ومنها : أنه أمر الأزواج بأن يتمتعوا زوجاتهم . على الموسع قدره ، وعلى المقتر قدره ، متاعا بالمعروف . ورسم في شئون الولايات نهجا لا ضرر فيه ولا ضرار . وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، لا تكلف نفس إلا وسعها ، لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده . .

ومنها : أنه حرم أشياء في حال السعة ، وأباحها في حال الضرورة . وإنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله ، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه ، إن الله غفور رحيم . . ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدى محله ، فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك . . ومنها : أنه يعطى الطبائع حضا ، ولا يلزم بما يتأفرها ، فالطبيات مباحة ، وزينة الله التي أخرج لعباده مباحة ، والرهانية متنوعة ، واعتزال النساء في المحيض واجب ، والرفث إلى النساء ليلة الصيام - حلال ، والرجال قوامون على النساء ، وللدكر مثل حظ الأنثيين ، ومواعدة المطلقة بالزواج أثناء العدة محرمه ، والجمع بين الاختين ممنوع ، وحرام على الرجال التزوج من الأم أو الأخت أو العمة أو الخالة أو البنت أو أبة قريبة بالنسب أو الرضاع في الزواج منها امتهاا لها ، وحرام على الرجال زواج الإمام إلا في حال الضرورة ، والرهن مشروع ، والمعسر منظر ، وهكذا . . .

وقد أنبنى على هذا الأصل الذى جاء به القرآن الكريم والسنة المطهرة كثير من الفروع الفقهية ، فالسلطان أحق بالإمامة ، وصاحب البيت أحق بالإمامة ، والذى ينسكح امرأة جديدة يجعل لها سبعا أو ثلاثا ثم يقسم بين أزواجه ، وإمامة العبد والأعرابي ومجهول النسب مكروهة . والتعنى بالقرآن مستحب ، وحسن الصوت بالأذان مستحب ، وتطيب المساجد وتنظيفها سنة ، والاعتسال يوم الجمعة والتطيب فيه سنة .^(١) . الخ .

وقد يقلب الواجب الحتم حراما ويمنع الناس منه إذا ترتب على فعله حرج أو أذى أو فتنه ؛ ومن ذلك أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب ، ولكن إذا كان إنكار المنكر يستلزم ما هو أنكر منه وأبغض إلى الله ورسوله فإنه لا يسوغ إنكاره وإن كان الله يبعث ويعتق أمهه ، وهذا كالإنكار على الملوك والولاة بالخروج عليهم ، فإنه أساس كل شر ، وفتنة إلى آخر الدهر . وقد استأذن الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم في قتال الأمراء الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها وقالوا : أفلا نقاتلهم ؟ فقال : لا ، ما أقاموا الصلاة ، وقال : من رأى من أميره ما يكرمه فليصبر ولا ينزعن يدا من طاعته . ومن تأمل ما جرى على الإسلام في القن السكار والصغار رأها من إصاعة هذا الأصل وعدم الصبر على منكر ، فطلب إرثائه ، فتولد منه ما هو أكبر منه ؛ فقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يرى بمكة أكبر المنكرات ولا يستطيع تغييرها ، بل لما فتح الله مكة وصارت دار إسلام ، عزم على تغيير البيت وردة إلى قواعد إبراهيم ، ومنعه من ذلك مع قدرته عليه خشية وقوع ما هو أعظم منه وعدم احتمال قريش لذلك لقرب عهدهم بالإسلام ، وكونهم حديثي عهد بكفر ؛ ولهذا لم يأذن في الإنكار على الأمراء باليد لما يترتب عليه من وقوع ما هو أعظم منه .

فإنكار المنكر أربع درجات : (الأولى) أن يزول ويخلفه ضده . (الثانية) أن يقل وإن لم يزول بحملته . (الثالثة) أن يخلفه ما هو مثله . (الرابعة) أن يخلفه ما هو شر منه . فالدرجتان الأولىان مشروعتان ، والثالثة موضع اجتهاد ، والرابعة محرمة . فإذا رأيت أهل العجور والفسوق يلعبون بالشطرنج كان إنكارك عليهم من عدم الفقه والبصيرة ، إلا إذا نقلتهم منه إلى ما هو أحب إلى الله ورسوله ، كرمي الشباب ، وسباق الخيل وبحو ذلك . وإذا رأيت الصاق قد اجتمعوا على هو ولب أو سماع مكاء وقصدية ، فإن نقلتهم عنه إلى طاعة الله فهو المراد ، وإلا كان تركهم على ذلك حيرا من أن تفرغهم لما هو أعظم من ذلك ، فكان مام فيه شاغلا لهم من ذلك . وكذا إذا كان الرجل مشغلا بكتب المجنون ونحوها ، وحفت من قلبه عنها انتقاله إلى كتب البدع والضلال والسحر فدعه وكتبه الأولى . وروى عن ابن تيمية أنه قال : « مررت أنا وبعض أصحابي في زمن

التائب يقوم منهم يشربون الخمر ، فأسكر عليهم ، فقالت له : إنما حرم الله الخمر لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، وهؤلاء يصدون الخمر عن قتل النفوس وفساد الذرية وأخذ الأموال فدعهم ،^(١)

من هذا يتبين أن التكاليف كما روعيت فيها طاقة الفرد في الواجبات العينية وأمثالها ، لوحظت فيها أيضا طاقة المجتمع في الواجبات الكمائية وأمثالها ؛ فلو كان الأمر بإزالة المنكر باقيا في الحالات التي تقدم ذكرها ، لوقع المجتمع منه في شر عظيم ، ولاحتمل منه ما لا طاقة له بإحتماله ؛ ولكن الشرع لم يكتف حينئذ بإسقاط الواجب رحمة بالعباد ، وتخفيفا عنهم ، وإنما منعهم من القيام به كراهية أن يقعوا في حرج أشد ، فهي رحمة بما هو محتمل الوقوع من الحرج ولو ظنا .

وينبغي أن يعلم أن الشارع لم يقصد إلى إلغاء كل نوع من أنواع المشاق ، فإن المشقة إذا لم تكن خارجة عن المعتاد ، وإنما وقعت على ما تقع المشقة في مثلها من الأعمال العادية ، فإن الشارع لا يقصد رفعها ، وفي ذلك يقول القرافي في كتابه الفروق : إن المشاق قسمان . أحدهما لا تنفك عنه العبادة كالوضوء والغسل في البرد ، والصوم في النهار الطويل ، والمخاطرة بالفسخ في الجهاد ونحو ذلك ، فهذا القسم لا يوجب تخفيفا في العبادة لأنه قرر معها ؛ وثانيهما : المشاق التي تنفك عنها العبادة ، وهي ثلاثة أنواع : نوع في المرتبة العليا كالخوف على النفوس والأعضاء والمنافع فيوجب التخفيف ، لأن حفظ هذه الأمور هو سبب في مصالح الدنيا والآخرة ؛ فلو حصلنا هذه العبادة لثوابها لذهب أمثال هذه العبادة . وموع في المرتبة الدنيا كأدنى وجع في إصبع ، فتحصيل هذه العبادة أولى من درء هذه المشقة لشرف العبادة وخفة المشقة . والنوع الثالث : مشقة بين هذين النوعين ، فأقرب من العليا أوجب التخفيف ، وأقرب من الدنيا لم يوجب ، وما توسط يختلف فيه لتجاذب الطرفين له^(٢) .

ومن هذا يتبين معنى قولهم ، إذا ضاق الأمر اتسع ، وهذه المشقة توجب التيسير ، وهذه الضرورات تبيح المحظورات ، ونفهم لماذا تسقط الذنور إذا

صادمت أمراً ضرورياً أو حاجياً في الدين ، كن نذر المشى الى مكة فلم يستطع ، أو نذر ألا يتزوج ، أو لا يأكل الطعام ، أو نحو ذلك .

ولقد يعيب بعض المتشدقين أنواعاً من العقوبات جاءت بها الشريعة كالحجود والقصاص ، ويقولون إنها تكاليف شاقة ، فإن قطع يد السارق ، ورجم الزاني أو جلده ، والقصاص من سن بسن ، ومن عين بعين ، ومن نفس بنفس ، أحكام شاقة على العباد تنافي مع الرحمة ، وتشبه أحكام الأمم المتأخرة المتوحشة ، ولا تليق بأمة متمدينة .

وقد غاب عن هؤلاء أن هذا هو الطريق العملي الوحيد الذي به يبرأ المجتمع من أمثال هذه الجرائم ؛ فثله كمثل الدواء المر الشع الذي يتوقف عليه شفاء المريض من مرضه ، فليست الرحمة في أن تترك المريض بذاته حتى يقضى عليه ، رفقا به من أن يتجرع الدواء ؛ ولكن الرحمة هي أن تجرعه هذا الدواء ليحيا ويبقى في سلامة وعافية ؛ وكما لا يقال إن الطبيب بوضعه الدواء قد أساء الى المريض ، لا يقال إن الشارع بوضعه هذه العقوبات قد أساء الى المجتمع أو شق عليه ؛ فإن الشارع هو الطبيب الأعظم ، فهو يصف الدواء عالماً بما فيه من مرارة ، ولكنه يعلم الى جانب ذلك ما فيه من فائدة ، ويوازن بين الألم الوقتي والراحة الطويلة ، فيختار أنفعهما لمن يحبه . وشبه بهذا ما روى في الحديث القدسي « ما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض نفس عبدی المؤمن : يكره الموت وأنا أكره مساءته ، ولا بد له من الموت » .

قال الشاطبي « لأن الموت لما كان حتماً على المؤمن ، وطريقاً الى وصوله الى ربه ، وتمتعه بقربه في دار القرار ، صار في القصد اليه معتبراً » .

بهذا كله يتبين أن التشريع القرآني الذي ابني عليه التشريع الإسلامي ، قائم على الدعائم الضرورية التي لا يستقر تشريع إلا عليها ، وأنه مناسب للطبيعة البشرية غير منافر لها ، فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، ٩

شعراء الازهر

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الجواد رمضان
المدرس بكلية اللغة العربية

ابراهيم محمد السيد نجا

ولد في بلدة دمنهور البحيرة ، في ١٩ من فبراير سنة ١٩١٨ ، وتخرج في كلية
اللغة العربية سنة ١٩٤٦ - ١٩٤٧ ؛ واشتغل بالتدريس في مدارس ووزارة المعارف ؛
فهو ... حرس الله شبابه وأمتع به - في غرة ربيع حياته .

عرفته - لأول مرة - في الفرقة الهائية في الكلية ، ولفتنى إليه هدوء وحياء
بالغان ، ونظرات نوافذ يستددها حيناً بعد حين ، فتعطر الهدف ، وتستوقف
النظر ؛ وقدمه إلى " إخوانه فقالوا : شاعر ؛ قلت : وإن غايه لمخايل الشاعر ،
ولأن لم يكنه اليوم فيكونه غدا ؛ ثم استشدته ، فاستجيا ، واعتذر ، ووعد ثم
مطل ؛ ولجأته يوماً ، وقد أطرق وأطال الإطراق ؛ فبم تفكر أيها الشاعر ؟
لعل طيف فلانة - وذكرت اسماً - شاكك ، فحاولت النوم لتصيده ؛ فذعر ،
واحمر ، وقال : " والنبي أنت تعرفها ياسى الشيخ ؟ " ، وكأت عاصفة من الضحك
لم أتيقن بعدها : أكان الضحك منه لأننى خدعته ، في فترة ذهول خيالى " لم يتحقق
معه ما قلته ؛ أم كان الضحك منى أما لانه - ففش لى ، ففش شاعر ١٩ .

وشعرُ هذا الشاب ، مزاجٌ من نسبات الفجر ، و نفحات الزهر ، ونشوات
الحر ، ونفقات السحر ؛ وهل هؤلاء جميعاً من الأثر ، ما يفعل بالالباب
مثل قوله (١) :

(١) مجلة الكاتب المصري ، عدد مارس سنة ١٩٤٧

أنا طيفٌ يقطع الأيام حُزنانَ شقيًّا
أسترح الحزنَ وأغنى دمعَ عيني يدبًّا
ومشاعُ الشمسِ يُؤذيني ويُفتني مُقلتبًا
ليبقى ما كنت طيفًا ، لبقى ما كنت حبيًّا !

أنا قيثارةٌ أنعمَ قائلُ لا أهني !
عبتَ اليأسُ ياوتاري وأنعمي وفنى
أيها اليأسُ ، ألا تذهبُ بالاحزانِ عني ؟
إنني أفتيتُ آمالي ، فخذها . . . ثم كسفي !

لا ، لا - يا بني - لا تفتس ، فإنه لا يأس مع الحياة ، ولا حياة مع اليأس :
وتغنّ ورجّع ، ثم غنّ ورجع ، فألك بلبّ عمرد أظلته براكير الربيع وإن
الذي لا يشجيه عمرك بأبرهم - لاحم : وإنك حين تناجي اليأس ، وتعرض
عليه أحزانك ، وآمالك ، ليأخذهما معا ، ويدحك وحذك ، غير جاد : ومن
أنت ، وما أنت إذا مضت عك الآمال والآلام ؟ لا شيء ! ولو أنك - يا بني -
حدّدتَ من طمعك الأشمعي ، الذي أنطقك بقولك :

أنا روح هائمٌ بينَ عيونٍ وهودٍ
حالمٌ بالنشوة الكبرى من الحب الفريد
إتها إشراقه العمر وإشعاعُ الوجود
ليتها تحرق روحي ، ثم أخيا من جديد !

أجل : لولا هيامك بين العيون والهود ، مفتشاً - ياخيبت - عن حبيب فريد ،
كأنك في سوق الرقيق ، تنشد جارية تصطفها على عينك ، لاستبدلت الطرب
بالحزن ، والرجاء باليأس ، ولوقعت أنعمك على قيثارة المني والشباب والآمل
بالاسم ، لا على قيثارة اليأس ، وزفرات الانين : والحب - يا بني - لا يفتش عنه ،

ولكنه يأتي مصادفة وانفاقا ، فأنت لست بانسا ، ولككك جوعان العاطفة : أشبع الله قلبك ، وأقر جوارحك ! ...

وشاعرنا الشاب ، يلتقي بالشاعر الكبير ، الأستاذ محمود حسن إسماعيل ، ويمجى معه في عان ، ويلزمه في قران . ولا ريب أن الذي يقرأ قوله في هذه القصيدة :

أَنَا لَحْنٌ وَالْهَاطَاتُ مَشْبُوبُ الْبُكَاءِ
جَاءَ مِنْ قَبِيلَةِ اللَّهِ إِلَى هَذَا الْفَضَاءِ
هُوَ فِي الْفَجْرِ حَنِينٌ ، وَأَتَيْنُ فِي الْمَسَاءِ
لِيَتَى عَدْتُ لِفَيْتَارِكَ يَا رَبِّ السَّمَاءِ !

أقول . إن الذي يقرأ هذا عُفْلا من نستة الى صاحبه ، يقادر الى ذهنه أنه للأستاذ محمود إسماعيل : وهو خيال غير شرقي ، وغير مقبول . وأقل غرابة من هذا : « عناق الظل والنور » في قوله (١) .

حَيَاتِي كُلُّهَا حِلْمٌ بِأَفَقٍ غَيْرِ مَنْظُورٍ
تُذْرِيعُ طَيُورَهُ سَحَرًا عَنْقَ الظِّلِّ وَالنُّورِ
نَعِيشٌ بِهِ كَمَا تَنْهَوِي مَعَ الْأَمْلاكِ وَالْحُجُورِ
يَرُفُّ الْمُبُّ سَاحِرَةً إِلَى أَحْضَانِ مَسْحُورٍ !

ومن خياله الرائع المؤلف في هذه القصيدة ، قوله :

أَنَا الْمَحْرُومُ لَكِنِّي أَغْذِي بِالْخَيَالِ دُمِي
ظَهَمْتُ وَلَمْ أَجِدْ مَاءً فَهَامَ إِلَى السَّرَابِ فِي
وَعْنَيْتُ الْجَمَالَ ، فَلَمْ أَجِدْ إِلَّا حَصْدِي نَفْسِي
فَعْنَى الْبَاسُ فِي قَلْبِي عَلَى قَبِيلَةِ الْإِلَامِ

(١) من قصيدة « الرسالة الأولى » ، نشرت في مجلة الرسالة عدد ٧٣٤ .

أنا الحيراني في الدنيا كطير حل عن قنينة
بهينجُ الفجرُ صوته ويذكي الليل من شجنه
هينجُ هشتك الحاني ترُدّه إلى وطنه
ويكفيك الذي لاقى من الحرمان في دمه

ومثله قوله من قصيدة أخرى (١) :

مَنْ لَبَّاكِ لَيْسَ يَرَقَا دَمْعُهُ وَوَحِبٌ ضَيَّعَ الْعَمَرَ انْتِظَارًا
طالما نحنُ إلى الماضي الذي غاب خلف الأفقِ عه وتواري
آه - يا قلبي - كفاما حسيرةً وكفانا - أيها القلب - عنارًا
طوى الماضي ، فيا قلب انتدُ عَبَسًا تَطْلُبُ للماضي انتشارًا
لم يَعدْ ماضيك إلا دِكْرًا فاحس في الماضي حنينًا وادكارًا

وهي قصيدة تذكرنا بأنفاس مهيار الديلمي .

يبد أن شاعرنا أبحج أسلوبا ، وأطبع خيالا ، من شاعر الخيال البكر الأستاذ محمود اسماعيل ، في الأعم الأغلب ، وإن جمعتما مشابهة كثيرة في المذهب الشعري . والعيب الذي آخذة على شاعرنا ، أنه يكثر من نظم القصائد ذوات القوافي المتعددة ، وهو عندى ضعف ، أو - بالحرى - سمة من سمات عجز الشاعر ، من نظم القصائد ذوات وحدة القوافي ، مهما قام له من المادير ؛ وتعويد النفس أن ترضى بأيسر الحظين ، وهو ليس من طباع المحول

وقد عاجل شاعرنا الموشح ؛ وأجاد في موشحة الرسالة الرابعة ، التي منها (٢) :

لا تسألني إذ نكون معا هنالك في سميلة
تريقتي مستغرقا في الفكر آونة طويلة ؛
ماسر هذا الفكر ، ما تلك الخيالات الجميلة ؟
إني - وحبك - لست أدرك سره حتى أقوله
إني على رغي أفكر ، ليس لي في الفكر حيلة

(١) من قصيدة : إليها . . . نشرت في مجلة الرسالة عدد ٧٢٥ .

(٢) مجلة الرسالة عدد ٧٦٥ .

أنا زورق في لجة الأفكار لا بدري سبيله
 حيرانَ يَتَحَسَّسُ دُونَ مَا جَذَوَى عَنِ الشَّطِّ الْأَمِينِ
 فبحق ما بيني وبينك من هوى ، لا تسألني

لا تسألني : هل تراك تقول هذا الشعر عني ؟
 أتراك ترفعه إلى ، وتستمدد الوحي مني ؟ .
 إني من الغيد الملاح الفاتكات أخذتُ فني
 من كل فارعة القوام ، وكل بارعة التثني
 إن حدثت ، لحدثها في الروح لحن أي لحن
 وإذا بدت ، فكأنها ، لجر الربيع بدا يغني
 يا منبقي أنا بلبل يشدو على كل النضون
 فحق ما بيني وبينك من هوى لا تسألني

ومنها :

لا تخرجيني بالسؤال ، فقد يحترق الجوابُ
 ما كل شيء في الضمير يُبين منتهى الخطاب
 ومن الأمان ما بينه ، الحياء والاضطراب
 وأرى العيون لها حديث ليس يخطئه الصواب
 تبدي السرائر مثلاً يبدو من الكأس الشراب
 فتعرف بالروح روعي ، وافهم لغة العيون
 وبحق ما بيني وبينك من هوى لا تسألني

وقد صر ، بعد طول المطاف ، بهواه المنشود ، فأخذ يتغنى به في قصيدته :
 « من هي ... ؟ »^(١) .

كنت من قبل هراها حائرا بين الفواني
لا أرى الروح الذى أبهى عنه فى زمانى
ذلك الروح الذى يدعو روحى وكيانى
والتفتينا فتعارفنا ، كأننا تنوء ما
ونشأنا فى ربا الحب ، وفى ظل التدانى
وشربنا الصغو خرا فى كتوس من حنان

سألتى ذات يوم وعراها ما هراها :
من تراها ألهمتك الشعر محسراً ، من تراها ؟
قلت : يا أحلام أبهى ، وبأسر مناهما
أنت أغنية حب وأنا شعري صداها
أنت فى صحراء عمرى روضة طاب شذاها
وأنا الببليل يحيا شاديا فوق رباها

كل حرف فى قصيدى مهجة تهفو إليك
كل لحن فى نشيدى لطفة تحسو عليك
إن أفراح شبانى تنبعها النامى لديك
وصبايات فؤادى سرها فى ناظريك
وأزاهير غرامى عطرها فى وجنتيك
وحياتى - يا حياتى - كلها ملك يديك

أما بعد ، فإنه يلزنى أن أباهى بهذا الشاعر الشاب ، الذى أنتظر له مستقبلا
شعريا ممتازا ؛ ولكنى أنتم عليه عواطفى ، وأختار رأيي ؛ بيد أن ديوان أشعاره
يجلنا . الكاتب المصرى ، والرسالة ؛ أكبر المجلات العربية فى الشرق ؛ ولا
يكاد يخلو عدد من أولاهما ، من قصيدة له ؛ فليتبع هذا الديوان ، كما تتبعته ،
كل من غامر فى رأي ما غامرنى ، حتى يحكم بعد امتحان وعيان .

فأما أنا ، فقد تكلمت ... ٩

فلسفة القرآن

والحياة الآخرة

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد يوسف الشيخ
المدرس بكلية أصول الدين

يجزم الأستاذ العقاد في مقاله : الحياة الآخرة ، من كتابه « الفلسفة القرآنية » ، بأن العذاب في الحياة الثانية للآثمين جميعاً ، تطهير وتكفير ، ثم ينتهي الأمر بهم جميعاً ، بعد ما قطعوا مراحل التطهير والتكفير ، إلى حظيرة الرضوان .
قال الأستاذ في آخر مقاله : « إن العذاب تطهير وتكفير ، وإن الأنفس جميعاً تتلاقى في حظيرة الرضوان » .

يجزم الأستاذ بأن ذلك شريعة القرآن الكريم ، ثم استشهد على هذا التلاقى وتلك النهاية الرضوانية ، كما قضت به شريعة القرآن الكريم ، بما يكاد يكون إجماعاً من مفسري الكتاب المبين ، بأن عذاب الآخرة ينتهي إلى الغفران ، وأن الخلود والأبد في الآيات الكريمة ، يراد بهما الزمان الطويل .

قال الأستاذ في مقاله : « فهذا المعنى ملحوظ في تقدير العذاب الذي يبتلى به المذنبون بعد الموت ، كما قضت به شريعة القرآن الكريم : فإن المفسرين كادوا أن يجمعوا على انتهاء عذاب الآخرة على الغفران ، وأن الخلود والأبد يفيدان الزمان الطويل ، ولا يفيدان البقاء بغير انتهاء » .

ونحن نشكر على الأستاذ كلا الأمرين جميعاً : فليس في القرآن الكريم ما زعمه من الغفران لجميع الآثمين ، وليس في كلام المفسرين شهادة بهذا الشمول وذلك العموم . وإنه لياخذك العجب البعيد إذ ترى جمهور المفسرين على العكس مما زعمه الأستاذ العقاد ؛ فلقد يكاد ينقذ إجماعهم ، بل حكى بعضهم الإجماع ، على أن خلود الجحيم الذي كتبه الله سبحانه على المكذبين بآياته ، إنما هو خلود الأبدية الذي لا ينقطع ، وأنه الامتداد الذي لا ينتهي .

وإني أستمع من آيات الخلود وما عول عليه المفسرون في بيانها وتفسيرها ،
 ترى مبلغ تجنى الاستاذ العقاد على التفسير والمفسرين .
 في القرآن الكريم إحدى وثلاثون آية في خلود الكافرين في دار الجحيم .
 أول آية منها في سورة البقرة ، قوله تعالى : « قلنا اهبطوا منها جميعا فإما
 يأتينكم مني هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا
 وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .
 تلك أول آية في كتاب الله تعالى تحدثت عن الكافرين والمكذبين بآياته
 وعما أعد لهم من الجزاء ، فقصت بأنهم من أصحاب النار وأنهم فيها خالدون . ولقد
 عنى المفسرون هنا فيما عتوا بمسألة الخلود في الآية الكريمة ، وأن المراد منه ماذا
 حتى يتقرر مبدأ تحمل عليه جميع آيات الخلود : أمر الابدية اللانهاية ، أم المكث
 الطويل وإن لم يعقبه غفران وتلاق في حظيرة الرضوان ، كما يتمنى الاستاذ العقاد ؟
 ١ — قال الطبري في تفسيره جامع البيان في تفسير القرآن الجزء الأول
 صفحة ١٩٦ : « أولئك أصحاب النار ، يعنى أهلها الذين هم أهلها دون غيرهم
 المخلدون فيها أبداً إلى غير أمد ولا نهاية ، كما حدثنا سعيد بن يزيد ، وحدثنا به
 حقه بن ستان البصرى ، قال حدثنا حسان بن مصر ، قال حدثنا سعيد بن يزيد ،
 وحدثنا سوار بن عبد الملك العبدي ، قال حدثنا بشر بن المفضل ، قال حدثنا أبو مسينة
 سعيد بن زيد ، وحدثني يعقوب بن ابراهيم وأبو بكر بن عون ، قالوا : حدثنا
 إسماعيل بن علية عن سعيد بن يزيد عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري قال قال
 رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون
 فيها ولا يحيون ، ولكن أقواما أصابتهم النار بخطاياهم أو بذنوبهم فأماتهم
 إماتة حتى إذا صاروا لخما أذن في الشفاعة » .
 ٢ — وقال أبو السعود في تفسيره إرشاد العقل السليم الجزء الأول
 صفحة ١٩٥ في تفسير الآية : « والخلود في الأصل المكث الطويل ، وقد انعقد
 الإجماع على أن المراد به الدوام » .
 ٣ — وقال القاضي البيضاوى في تفسيره أنوار التنزيل وأسرار التأويل
 الجزء الأول صفحة ١٤٦ : « إن عذاب النار دائم ، وإن الكافر فيه مخلد ، وإن
 غيره لا يخلد فيه ، بمفهوم قوله تعالى « هم فيها خالدون » .

٤ - وقال الألوسي في تفسيره روح المعاني الجزء الأول صفحة ٢٠١ :
« والخلود هنا الدوام على ما انفقد عليه الإجماع » .

٥ - وقال الرازي في تفسيره مفاتيح الغيب الجزء الأول صفحة ٣٩٥ : لما
وعد الله تعالى متبع الهدى بالآمن من العذاب والحزن ، عقبه بذكر « من أعد
له العذاب الدائم فقال » والذين كفروا وكذبوا بآياتنا ، سواء كانوا من الإنس
أو من الجن فهم أصحاب العذاب الدائم » .

٦ - وقال المحلى في تفسيره الجلالين الجزء الأول صفحة ٤٥ : أولئك
أصحاب النار هم فيها خالدون : ما كثون فيها أبدا لا يفون ولا يخرجون » .

٧ - وقال ابن كثير في تفسيره الجزء الأول ١٨٤ في معنى الخلود في الآية
« هم فيها خالدون » : أى خالدون فيها لا يحيد لهم عنها ولا يحيص ، وساق شاهدا
على ذلك حديث الطبري السابق ، ثم أسدده لمسلم من حديث شعبة عن أبي مسلمة .
٨ - وقال البيهقي في تفسيره معالم التنزيل صفحة ١٤٨ : هم فيها خالدون .
لا يخرجون عنها ولا يموتون » .

٩ - وقال الخطيب في تفسيره السراج المثير الجزء الأول صفحة ٥٠ : هم فيها
خالدون . ما كثون فيها أبدا لا يخرجون منها ولا يموتون فيها » .

١٠ - وقال النيسابوري ، في تفسيره ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان
الجزء الأول صفحة ٢٥٩ على هامش الطبري : « والذين كفروا ، لجحدم مولاهم
« وكذبوا بآياتنا » لإثباتهم حكما لهم بحسب مشتهام وهوام ، أولئك أصحاب
النار . ملازموها دائما سرمدا ، سواء كانوا من الإنس أو من الجن ، أعادنا الله
تعالى منها بيمين فضله ، وجسيم قوله ، ٥١ » .

هناك مفسرون سكتوا عن تفسير الخلود في تلك الآية اكتفاء وإحالة
على تفسيره في آية قبلها هي قوله تعالى « ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون » .

١١ - قال الزمخشري في كشافه الجزء الأول صفحة ٤٤ : الخلد : الثبات
الدائم والبقاء اللازم الذي لا ينقطع ، قال الله تعالى « وما جعلنا لبشر من قبلك
الخلد أفان مت فهم الخالدون » .

١٢ — وقال القرطبي في تفسيره الجامع لأحكام القرآن الجزء الأول صفحة ٣٣٠ بعد أن شرح الآية وقد وصل إلى آخرها ، وم فيها خالدون ، وباقي ألفاظ الآية تقدم معناها والحمد لله تعالى - يريد أن شرح الخلود قد سبق في آية قبل هي قوله تعالى : ولم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون ، قال هنا صفحة ٢٤١ : « والخلود البقاء ومنه جنة الخلد ، وقد تستعمل مجازا فيها يطول ، ومنه قولهم في الدعاء : خلدا لله تعالى ملكه أى طوله » .
وقال زهير :

ألا لا ترى على الحوادث باقيا ولا خلدا إلا الجبال الرواسيا
وأما الذى فى الآية فهو أبدي حقيقة .

١٣ — وقال فى تفسير المنار الجزء الأول صفحة ٢٨٨ : أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ، قال : تقدم تفسير الخلود فى آخر الآية (٢٥) ثم قال : « أولئك الكافرون المكذبون البعداء هم دون متبعي هداى ، أصحاب النار وأهلها ، هم فيها خالدون لا يظعنون عنها » .

وقال فى تفسير الآية (٢٥) : « وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ، ولم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون ، قال : « والخلود فى اللغة طول المسك ، ومن كلامهم : خلد فى السجن . كما فى الأساس . وفى الشرع : الدوام الأبدى ، أى لا يخرجون منها ولا هى تنقضى فيزولون بزوالها ، وإنما هى حياة أبدية لا نهاية لها » .

هذه آراء جمهرة من أعلام المفسرين تمثل عصورا مختلفة ، بل حكى بعضها الإجماع على أن الخلود الذى تحدث به آيات الوعيد فى شأن الكافرين بالله تعالى المكذبين بآياته إنما هو خلود الأبدية التى لا تنتهى والامتداد الذى لا يتقطع ، وهذا ما اعتد به المنسكمون وعلماء العقائد الإسلامية فى مقرراتهم العلمية كما وعينه فى مقالنا السابق .

نعم هاك آيات من الكتاب المبين حمل بعض المفسرين فيها الخلود على المسك الطويل لاعتبارات فى موضوع هذه الآيات ، لكن ليس فى هذا ما يسعف الأستاذ ، بل فيه الحجية التى تهدم ما زعمه . وسيكون ذلك موضوع مقالنا التالى .

الاعتراف بالجميل

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الرحيم العدوي
شيخ معهد فزاد الاول بأسيوط

الاعتراف بالجميل خلق نبيل ، يجمع شتات كثير من خصال البر ، كالوفاء والمروءة ، والإحسان ، والشجاعة ، والصبر . فهو الصورة الناطقة بما كن في نفوس الناس من شيم حسنة ، وهو صدى ما يتردد بين جوارحهم من كريم السجايا . ثم هو بعد ذلك وسيلة قريبة للتبوع ، بما فيه من حسن تقدير وتقدير ، وسبيل معبد للإجادة والإحسان فيما يباشره الناس من أعمال .

أما المعترف بالجميل فلست أدري من أى ناحية أعجم عوده وقائه لا تلين لعامز ، ولا من أى جهة أسبر غوره وقد جمع أمهات الفضائل ، ولم جوانب الأحاسيس النبيلة . فهو حامل لواء التعاون ، وهو زعيم أهل الوفاء . هذا ما دام حيا ، حتى إذا انحدر الى بطن التاريخ كان أحدوته عذبة الممات ، وبجلائع السطور والصفحات ولم لا يكون كذلك وهو يعترف بالجميل لأنه جميل ، ويقوم بشكر الصليعة لأنها صنيعة ، لا يعمى من وراء ذلك معناه ، ولا يترقب شهرة وجاها ، طابت سريره ؛ وحسنت نواياه ، فلا يداجي في تهديره ، ولا يدارى ولا يخالف مجرّه مظهره . أما الذين يقدرون صنائعك لتكون همزة الوصل لإدراج الخير عليهم ، ويحمدون المعروف ليسلس قيادته لديهم ، ويخضعون عند الحاجة ويتهبون عند الاستغناء ، فهم تجار جشعون ، يبيعونك اليوم ما يقبضون ثمنه غدا ، وهم في المجتمع حشرات خطيرة يسرى دأبها سريان السم في الأجسام ، وجراثيم وبيلة تفكك بالاعتلاق فكك معضلات الأدواء .

هذا إذا لم يكبح جماحهم ولم يؤخذ على أيديهم . قال رجل من أهل البصرة للحسن البصري : لم يأت الدهر بمثلك ، ولا أظن أنه يجود بمثلك الى يوم الدين . فقال الحسن البصري : ه أمافق أنت ا وهل تدري علام أغلق بابي .

وإن دل هذا على شيء فإنه يدل على أن طريق الاعتراف بالجميل وعمر على كل من لم يكن ذا خلق كريم، وأن سيئه شائنك إلا على من راض نفسه على المكارم؛ ذلك لأنه كما قلنا عنوان الشجاعة والصبر والصراحة في القول والإحسان في العمل والمروءة وحسن الذوق.

وبعض الناس لم عقول ولكنهم لا يمتدنون بها إلى حقائق الأشياء، ولا يعرفون ما يرجع بالخير على نفوسهم، ولم عيون ينظرون بها ولكن بمنظار مصغر لا يكشف عن الأمور كما هي، ولم ألسنة قوالة في غير حق جواله في كل باطل، ولكنهم جبناء في مواطن الجدة، عيون في مواطن الحق، خرس في مظان الكلام. وإذا كان الله قد صدقته داته وسميت صفاته، قد طلب منا أن نرد التحية بأحسن منها أو بمنثلها حيث يقول: «وإذا حييت بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها». أفليس ذلك تهريرا لمبدأ العرفان بالجميل؟ أو ليس ذلك أدبا إلهيا أدب به عز وجل عباده الصالحين، ليسود المجتمع الحب والسلام والتعاون؟

وإني لأعجب لذلك الشخص الذي يكدر في الحياة ويتحمل متاعها ولا يتبرم بمشقاتها وآلامها ثم تضعف نفسه عن شكر على صنعة يمليه الذوق، واعتراف بجميل تحتمه المروءة.

ولست أدري حوافزه في ذلك ولا دوافعه. فإن كان الترفع بالنفس والاعتداد بها عن طريق الكبرياء، فما عرف حق نفسه ولا أحسن إليها. وإن ترفعا يدفع الخير ويجمع الود، ويزدري بالمروءة، لجدير به أن يكون وليد الحسد وخبث النفس، ككبرياء إبليس حزمه الجنة، وجعله من المطرودين. ولا عجب فالحسد داء وبيل، وشر مستطير، وعنوان الفساد والبغي وهو أول ذنب عصي الله به في السماء، وأول ذنب عصي به في الأرض؛ فأما في السماء لحسد إبليس لأدم؛ وأما في الأرض لحسد قابيل لأخيه هابيل. ولذا يقول بعض المفسرين في قوله تعالى حكاية عن أهل النار: «ربنا أرنا الذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين»؛ إن المراد بالجن إبليس وبالإنس قابيل.

وإن كان الدافع لعدم الاعتراف بالجميل، استصغار الصنعة، فقد أخطأ المرمى وجاوز الهدف؛ فليس ثمة صنعة مهما قلّت ولا معروف مهما دق وصغر، بأضعف من أن يقابل بكلمة شكر أو عبارة تشاء.

وله ليؤاني حقا أن أرى في هذه الحياة أشخاصا يعيشون على حساب الغير ولكنهم مع الأسف الشديد لا يعترفون لهم بحق ، ولا يقرون لهم بمعروف ، يمتدنون أن كل ما يقدم لهم من خير ، وما يسدى إليهم من صنائع البر ، حتم لازم على من قدمه ، وفريضة محكمة على مسديه ، كأن الناس جميعا مسخرون في خدمتهم ، أو أرقاء يعملون بإشارتهم . وما دام هذا الضعف موجودا بين بني الإنسان فيسلفون منه عتا ، ويصيبون منه حرجا .

وبعد ؛ فإن عرفان الجليل خلق النفس الكبيرة ، رضى هؤلاء أم أبوا ، وصفة الأقوياء في الإيمان ، اعترف هؤلاء أم أنكروا .

يقول بعض العرب : والله لقد سمعت تغريد الأطيار على غصون الأشجار ، وسمعت خفق العبدان وأصوات القيان ، فاطربت من صوت قط طربى من ثناء حسن بلسان حسن على رجل أحسن ، ومن شكر حمر لمع حمر ، ومن شفاعة محتسب لطالب شاكر .

وكانت الفرس تقول : الشكر أفضل من النعمة ، لأنه يبقى وتلك تفتى .

وضرب الحجاج أعناق أسارى أتى بهم ، فقال رجل ممن قدم للقتل : والله لن كنا أسانا في الصنعة ، فإ أحسنت في المكافأة فقال الحجاج : أف لهذه الجيف أما كان فيهم من يحسن مثل هذا ! وكف عن القتل .

ومن أروع الصور في عرفان الجليل ما فعلته نائلة بنت المرافصة زوجة عثمان ابن عفان رضى الله عنه رعاية للوفاء وحفظا للعشرة : طلبها معاوية بعد موت عثمان فردته ، ثم قالت : ما يعجب الناس مني ؟ قالوا : ثايبك . فكسرت ثايبها ، وبعثت بها الى معاوية .

وقريب من هذا ما فعله بعض أبناء الملوك من غسان مع البرامكة بعد نكبتهم ؛ فقد كان يذهب الى خريات دورم في ظلام الليل وقد نامت العيون فيسبكهم ويرثيهم بالآليات الشعرية التوايف ، فوشي به الى المسأون ، فلما مثل بين يديه قال له المسأون : ما الذى فعله معك البرامكة حتى استوجبوا منك كل هذا ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إن للبرامكة عندي أياذى خصرة ، إن شئت حدثتك ببعضها ، فلما قص عليه قصته أمر بإخلاء سبيله وإرجاع ما صودر له

من ضياع مع إعفائها من الخراج . فبكى الغساني ، فقال المأمون : ما يبكيك وقد أحسنا إليك ؟ فقال : أبكي البرامكة لأنهم يحسون الى أحياء وأمواتنا . فقال المأمون . وكيف ذلك ؟ قال : لو لم أذهب الى دورم من كانت يعلم أمير المؤمنين بي ؟ فقال المأمون : اذهب فابكهم ونحن معك .

أما صلة الاعتراف بالجميل بمبادئ الإسلام ، فهي الصلة التي لا تجارى . فقد أكثر القرآن الكريم من الحث عليه ، وبالغ في طلبه في صور شتى وأساليب متنوعة ، تارة تصرّحاً ومرة تلميحاً .

استمع إليه وهو يقول : « وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لازيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابى لشديد » .

ويقول : « وإذا أُحْيِيتُمْ بتحية خيوا بأحسن منها أو ردوها » . ويقول من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ، الى غير ذلك مما لا يحصى العدد ، ولا يأتى عليه الاستقصاء .

وكان الرسول الكريم يقول لعائشة : هيه أيتها افتنشه قول زهير بن جباب ارفع ضعيفك لا بمر بك ضعفه يوما فتدركه العواقب قد نما يحزيك أو يثنى عليك وإن من أثنى عليك بما فعلت فقد جرى فيقول نعم يا عائشة : لا شكر الله من لا يشكر الناس ؛ يقول الله عز وجل : عدى لم تشكرنى مالم تشكر من أجرى بالنعمة على يديه .

وقد نعى القرآن الكريم على من كفر بالنعمة وغط الحقوق ، وصوره لنا في صور ممقوتة وألوان مزدراة ، حيث يقول : خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين . ويقول : وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض وبأى بجانبيه وإذا مسه الشر فذودعاء عريض ، ويقول : لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية : جنتان عن يمين وشمال : كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، بلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل نخط وأثل وثمى من صدر قليل . ذلك جزيناهم بما كفروا وهل يجازى إلا الكفور . . ويقول : وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على نسر من شيء ، قل من أنزل الكتاب الذى جاء به

موسى نورا وهدى للناس يجعلونه قراطيس يدونها وتخفون كثيرا، وعلم ما لم تعلموا أتم ولا آباؤكم، قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون .

ويقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه في حديثه عن النساء : أريت النار فإذا أكثر أهلها النساء، ثقيل. ولم يا رسول الله ؟ قال: يكفرن، قيل: أيكفرن بالله ؟ قال: لا، يكفرن العشير، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم رأت منك بذرة قالت ما رأيت منك خيرا قط .

وبعد ، فإن نعم الله علينا مترادفة لا تزول ، وآلاءه علينا لا تحصى ولا تعد : وكتبنا السمع والبصر والفؤاد ، والمال والبن والجاء والسلطان ، ونحرم لنا ما في الكون من حيوان وجماد ؛ قبل قتنا بشكر هذه النعم ، أو قدرنا هذه الآلاء ١٤ .

وبين أيدينا ملوك وأمراء وقواد وزعماء أسدوا إلى أهم كل خير ، ورفعوا رأسها عاليا ، وقدموا لها كل ما يقع تحت قدرة البشر من وسائل العزة وأسباب السعادة ، فهل رأينا من يقدر ذلك مخلصا ، أو يقوم بواجب الشكر احتسابا ١٥ ؟ ولولا صفحات في التاريخ يشع سناها للقدوة والتأسي ، لذهب خبر تلك الآثار ، وانطوى مع الليل والنهار .

ونحن في العصور الحديثة حدث بين ظهرائنا صناعات نافعة ومشروعات مفيدة ، يحى أصحابها بكثير من راحتهم في سبيل إسعاد أمتهم ، فهل رأينا تشجيعا ملبوسا ، أو تقديرا لهذه الأمور محسوسا ؛ تقديرا إيجابيا ، وتشجيعا عمليا ، يدفعنا إلى الأمام ، ويمهد أطوار تقدمها بالجاء والمال واليد واللسان ، قبل رأينا من يفعل ذلك قياما بواجب الوطن ، واعترافا بمجهود المواطنين ١٦ ؟ يعقل الخجل لسانى حين أقول : لا ١٧ .

فالهم اهد قوسى إلى الصراط المستقيم ، وهيء لهم من أمرهم رشدا ١٨

أبوذر الغفارى

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ أبو الوفا المراغى
مدير المكتبة الأزهرية

عَلِمَ من علماء الإسلام ، وخصيصة من أبرز شخصياته ، وصحابي من جلة صحابة رسول الله ، يتردد اسمه كثيرا على ألسنة المحدثين ، وفي كتب الحديث ، لكثرة ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لجمعت له كل العاصر التي يجب توافرها في العظيم ، فكان عظيما . وهو أحد أولئك الرجال الذين حفلت بمناقبتهم وعامد كُتب السيرة والتاريخ ، فكانوا شهداء على فضل الإسلام في خلق الشخصيات وتكوين الرجال .

واسمه على المشهور : جندب بن جنادة بن سفيان بن عبيد الغفارى ؛ ينتهى نسبه الى نزار ؛ وغفار قبيلة من كنانة .

يشارك العظماء في كثير من الفضائل التي تكون شخصياتهم ، ويمتاز كل منهم بقدر منها يكون في صورته الألوان البراقة التي تلفت الأنظار وتبهر الأنصار . وكذلك كان أبو ذر ؛ فقد امتاز بقدر من المضائل جعله كما قال النبي صلى الله عليه وسلم وحيدا ؛ فقد روى أن النبي عليه السلام قال : « يرحم الله أبا ذر ؛ يعيش وحيدا ، ويموت وحيدا ، ويحشر وحيدا » .

ويصيق مجال القول عن إحصاء فضائله ، ورسم صورة كاملة تلم بنواحي عظيمته ، وتجمع أطراف المجد من سيرته . وحسبنا أن نشير الى ما امتاز به أبو ذر من المحامد ليكون ذلك بمثابة الألوان البراقة ، ليرز صورته واضحة قوية ، كما كان في حياته واضحا قويا .

يمتاز أبو ذر في نظرنا بخصال ، أهمها : الفطرة ، وصفاء الطبيعة ؛ والصبر على احتمال الأذى في سبيل العقيدة ؛ ووجه للبركة والبحث عن الحقيقة ؛ وزهده في الدنيا ، وانصرافه عن مغرياتنا .

وتجلى فطرته في انصرافه عن عبادة الأوثان ، وإقباله على عبادة الله قبل الإسلام : روى عبد الله بن الصامت قال : قال لي أبو ذر رضي الله عنه : يا بن أخي صليت قبل الإسلام بأربع سنين . قلت له : من كنت تعبد ؟ قال : إله السماء . قلت : فأين كانت قبلك ؟ قال : حيث وجهني الله عز وجل . ويتجلى ذلك أيضا في مبادرته إلى الإسلام ، فقد كان رابع أربعة أسلموا قبله .

ويكشف لنا عن قوة عقيدته وتحمل الأذى في سبيل ما يؤمن به ، ما جاء في قصة إسلامه : فقد روى عنه أنه قال : أقمت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة فعلمني الإسلام وقرأت من القرآن شيئا ، فقلت : يا رسول الله إني أريد أن أظهر ديني ؛ فقال رسول الله : إني أخاف عليك أن تقتل ، قلت : لا بد منه وإن قتلت ؛ قال : فسكت عني ، فجلثت وقريش حلق يتحدثون في المسجد ، فقلت : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . فانتفضت الحلق فقاموا فضربوني حتى تركوني كأنني نصب أحمر - يعني أنهم أسالوا دمه فاحمرت ثيابه - وكانوا يرون أنهم قتلوني ، فأفقت فجلثت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى ما بي من الحال ، فقال لي : ألم أنك ؟ قلت : يا رسول الله كانت حاجة في نفسي فتضيتها . فأفقت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : الحق بقومك فإذا بلغك ظهوري فأتني .

وروى عن أبي ذر أنه قال : بينا أنا واقف مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لي : يا أبا ذر : أنت رجل صالح ، وسيصيبك بلاء بعدى . قلت : في الله ؟ قال : في الله . قلت : مرحبا بأمر الله ! .

ووجه للبركة والبحث عنها والتقصي فيها ، عالمنا ومتعلما ، يبدو لنا في حرصه على صحة النبي صلى الله عليه وسلم وكثرة مسأله ووفرة ما روى عنه من الحديث ؛ فقد روى عن أبي ذر واحد وثلاثون مائتا حديث . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذني أبا ذر إذا حضر ، ويقتطعه إذا غاب .

ومن أمثلة حبه للبرقة وتفصيه عنها، ما روى عنه أنه قال : دخلت المسجد وإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس وحده، فجلست إليه، فقال : يا أبا ذر إن للمسجد تحية، وإن تحيته ركعتان فقم فاركعهما . قال : فقممت فركعتهما ثم عدت فجلست إليه، فقلت : يا رسول الله إنك أمرتني بالصلاة فما الصلاة ؟ قال : خير موضوع، استكثر أو استقل . قلت : يا رسول الله فأى الأعمال أفضل ؟ قال : إيمان بالله عز وجل، وجهاد في سبيله . قال : قلت : يا رسول الله فأى المؤمنين أكملهم إيماناً ؟ قال : أحسنهم خلقاً . قال : قلت : يا رسول الله فأى المؤمنين أسلم ؟ قال : من سلم الناس من لسانه ويده . قال : قلت : يا رسول الله فأى الهجرة أفضل ؟ قال : من هجر السيئات . قال : قلت : يا رسول الله فأى الصلاة أفضل ؟ قال : طول الفتوت . قال : قلت : يا رسول الله فما الصيام ؟ قال : فرض مجزئ وعند الله أضعاف كثيرة . قال : قلت : يا رسول الله فأى الجهاد أفضل ؟ قال : من عمر جواده وأهريق دمه . قال : قلت : فأى الصدقة أفضل ؟ قال : جهد من مقل يصير إلى فقير .

وكا كان حريصاً أن يعرف ويتعلم، كذلك كان حريصاً أن يعرف ويعلم جريئاً في تعليمه وفتواه .

روى عنه أن رجلاً أتاه فقال : إن مصدق عثمان أزدادوا علينا — أى المحصلين للصدقة — أنغيب عنهم بقدر ما أزدادوا علينا ؟ قال : فف مالك وقل : ما كان لكم من حق نخذوه، وما كان من باطل فنذروه، فما تعدوا عليك جعل في ميزانك يوم القيامة ؛ وعلى رأسه فتى من قريش : فقال : أما نهاك أمير المؤمنين عن الفتيا ؟ فقال : أرقب أنت على ؟ فوالذى نفسى بيده لو وضعت السيف هنا ثم ظننت أنى منفذ كلمة سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن تحتزوا رأسى — أى تقطعوا — لأنفذتها ! وكان كما قال صاحب الحلية : أول من تكلم في علم البقاء والنقاء .

أما انصرافه عن الدنيا وإقباله على الآخرة، فقد بلغ فيه الذروة، وأوفى على العاية، وكان له في ذلك مذهب عرف به وروى عنه وهو أنه يحرم على الإنسان أن يدخر من المال ما زاد عن حاجته . وقد شبه لذلك بعيسى عليه السلام . وقد ذهب بعض الكتابين إلى أن هذا المذهب يتفق وبعض المذاهب الاجتماعية الحديثة، ولكنه

لا يتفق وروح الشريعة الإسلامية التي تبيح ادخار المال مهما كان بشرط أداء حق الله وحق الفقير فيه ، كما تبيح الفتح بطيات ما أحل الله . وقد يكون هذا من أبي ذر مبالغة في الزهادة .

وقد دعا أبو ذر إلى مذهبه هذا بالفعل والقول ، ولم يكن ممن قال الله فيهم : « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم » . وكان التخصن في كل شيء أسلوبه في الحياة .

روى عبد الله بن خراش قال : رأيت أبا ذر بالربذة في حلة له سوداء وتمته امرأة سمحاء ، وهو جالس على قطعة جوارق ، فقيل له : إنك امرؤ ما يبقى لك ولد ، فقال : الحمد لله الذي يأخذهم في دار الفناء ويدخرهم في دار البقاء . قالوا : يا أبا ذر لو اتخذت امرأة غير هذه ؟ قال : لأن أزواج امرأة تصنعني أحب إلى من امرأة ترفعني . فقالوا له : لو اتخذت بساطا ألين من هذا ؟ قال : اللهم غفرا أخذ مما خولت ما بدا لك .

بعث إليه أمير الشام بثلاثمائة دينار وقال له : استعن بها على حاجتك ، فقال أبو ذر للرسول : أرجع بها إلي ، أما وجد أحدا أهون على الله منا ؟ ما لنا إلا ظل تتوارى به ، وثلة من غنم تروح علينا ، وغادم لنا تصدقت علينا بخدمتها ، ثم إنني لأتخوف المصل .

ومما روى عنه في الدعوة إلى مذهبه : أنه وقف مرة عند الكعبة فقال : هلموا إلى الأخ الناصح الشفيق ! فاجتمع عليه الناس ، فقال : رأيتم لو أن أحدكم أراد سفرا أليس يتخذ من الزاد ما يصلحه ويلبغه ؟ قالوا : بلى ، قال : فسفر يوم القيامة أبعد ما ترون ، فخذوا له ما يصلحكم ، قالوا وما يصلحنا ؟ قال : حجوا حجة لمقامهم الأمور ، صوموا يوما شديدا حره لطول النشور ، صلوا ركعتين في سواد الليل لوحشة القبور ، كلبه خير قلوبها أو كلبه سوء تسكت عنها لو قوف يوم عظيم ، تصدق بمالك لملك تنجو من عسرها .

اجعل الدنيا مجلسين : مجلسا في طلب الآخرة ، ومجلسا في طلب الحلال ، والثالث يضرك ولا ينفك لا تريده . اجعل المال درهين : درهما تنفقه على عيالك من حله ،

ودرهما تقدمه لآخرتك ، والثالث يصرك ولا يفعلك لا تريد . ثم نادى بأعلى صوته : يا أيها الناس ! قد قتلكم حرص لا تدركونه أبداً ١١ .

ومن كلامه في ذلك أيضاً ، في المال ثلاثة شركاء : القدر لا يستأمرك أن يذهب بخيرها أو شرها من هلاك أو موت ، والوارث ينتظر أن تضع رأسك ثم يستاقها وأنت ذم . فان استطعت ألا تكون أعجز الثلاثة فلا تكون .

وقد ظل أبو ذر هلي أسلوبه هذا طول حياته ، لم تتعلق نفسه بشيء من مفاتن الدنيا . وقال : إني لأقربكم مجلساً من رسول الله يوم القيامة ، وذلك أني سمعته يقول : إن أقربكم مني مجلساً يوم القيامة من خرج من الدنيا كهينة ما تركه فيها ، وإنه وافقه ما مسكم من أحد إلا وقد نشبت بشيء منها غيري .

ولقد كان في وفاته غريباً ، كما كان في حياته غريباً ؛ فقد خرج مع أمه إلى فلاة لحضرته ميتة ، فبكى أمه ، فقال لها : ما يبكيك ؟ فقالت : أبكي أنه لا يد لي بتكفينك ، وليس لي ثوب من ثيابي يسعك كفاً ، وليس لك ثوب يسعك كفاً ... قال : لا تبكي فإني سمعت رسول الله يقول لنفر أنا منهم : يموتن منكم رجل بفلاة فتشهده عصابة من المؤمنين . فالتفت أن مررت به عصابة من المؤمنين فقال : أنشدكم الله والإسلام أن يكفني رجل منكم ما كان أميراً ولا نقيباً ولا عريفاً ولا بريداً ، فلم يوجد منهم كما شرط إلا فتى من الأنصار قال : يا عم أما أكفك ، لم أصب مما ذكرت شيئاً ، وفي ردائي هذا وفي ثوبي في عييتي معي من غرل أمي حاكهما لي . قال : أنت فكفتني ، فكفته الأنصارى .

وصدق في أبي ذر ما قاله رسول الله : يرحم الله أبا ذر يعيش وحده ، ويموت وحده ، ويحشره وحده .

ودفن بالربذة سنة إحدى وثلاثين من الهجرة .

هذه صورة جد موجزة لأبي ذر ، رسمتها بأبرز ما ذكر في سيرته من المناقب .

رحم الله أبا ذر ، ورضي الله عنه وأرضاه ، ووفقنا لترسم خطاه ١٢

مسئولية الاطباء

لحضرة الأستاذ الدكتور أحمد محمد إبراهيم
القاضى بمحكمة المنيا الوطنية

وإذا قام الطبيب بعمل لا صلة له بمقتضيات العلاج ، وكان ذلك عمدا ، فإن
مسئوليته تكون عمدية ، ويترتب منه إن كان القصاص ممكنا .

والشريعة الدراء تبيح للأطباء الاجتهاد فى علاج الامراض ، فلا يسأل الطبيب
لو خالف بعض آراء زملائه متى كان رأيه يقوم على أساس سليم ؛ وهذا الحكم
واضح من الحالة التى سبق ذكرها ، حيث قيل بعدم صمان الجراح لو قام بجراحة
لفتاة سقطت من السطح رغم قول بعض الجراحين بأن إجراء الجراحة يسبب
موتها ، وقد قيد عدم الصمان فى هذه الحالة بأن يكون الشق معتادا غير فاحش
وخارج الرسم ؛ وبمعنى آخر : اشترط لجواز إجراء الجراحة أن يكون لها
أساس طبي .

ونلاحظ فى مذهب أى حنيفة أن القاعدة هى أن الطبيب لا يسأل متى لم يتجاوز
الموضع المعتاد ، ويدللون ذلك بأن الهلاك ليس بمقارن للعمل ، وإنما هو بالسراية
بعد نسل العمل ، والتحرز عنها غير ممكن ؛ لأن السراية تنبئ على قوة الطباع وضعفها
فى تحمل الألم ، وما هو كذلك مجهول ، والاحتمال عن المجهول غير متصور ،
فلم يمكن التقييد بالمصلحة من العمل لئلا يتقاعد الناس عنه مع مساس الحاجة (١) .

وظاهر من هذا التعليل أنهم يرجعون عدم المسؤولية الى جهل الأطباء لقدرة
الجسم على احتمال العلاج ، وما دام من غير المتيسر على الأطباء معرفة هذه القدرة

فمن غير المقبول أن يسألوا عن أشياء يستحيل عليهم معرفتها . وهذا التعليل كان من الممكن قبوله وقت أن وضع هذا الحكم : أما اليوم وقد تقدمت العلوم الطبية تقدماً باهراً ، فأصبح من المتيسر إلى حد كبير معرفة إلى أي مدى يستطيع الجسم تحمل علاج معين ، أو إجراء جراحة معينة . وقد ساعد على ذلك إلى حد كبير تقدم علوم التحليلات الكيميائية والكشف بالأشعة عن الأجزاء الداخلية للجسم . ويرتب على هذا التقدم في العلوم الطبية ، أن مسؤولية الأطباء واجبة متى أجروا جراحة ، أو وضعوا علاجاً لا يحتمله جسم المريض ، أو حالته الصحية .

ثالثاً : يشترط أن يكون تدخل الطبيب بناء على رضا المريض أو إذن وليه

إن كان قاصراً أو من في حكمه . فليس من حق الأطباء أن يتولوا علاج الناس بغير رضاهم ؛ فلو أراد شخص أن يستقي مريضاً بغير علاج ، فلا يمكن إرغامه على أن يعالج نفسه ^(١) ؛ هذا فضلاً عن أن من حق المريض أن يختار الطبيب الذي يعالجه ؛ فالتفقه بين الطبيب والمريض عامل من أهم العوامل التي تساعد على الشفاء .

ويرتب على ذلك أنه لو أجرى طبيب عملية جراحية بغير رضا المريض فإنه يسأل عن فعله . ولكن ما نوع هذه المسؤولية ؟ هل يسأل مسؤولية عمدية أم غير عمدية ؟ .

ذهب بعض الفقهاء إلى أن الطبيب في هذه الحالة يستوى بأي فرد عادي ، فيسأل عن فعله مسؤولية عمدية ، فلم يكن من الجائز له أن يجري هذه الجراحة مادام لم يطلب منه ذلك ، وحكمه في ذلك حكم أي شخص عادي أجرى جراحة لآخر ، أي يسأل عن فعله مسؤولية عمدية ، فيعاقب بعقوبة المجرم العمد .

وذهب آخرون إلى أن المسؤولية في هذه الحالة تعتبر غير عمدية ، ويعتبر الطبيب مخفئاً ، لأنه لم يحصل على رضا المريض بإجراء العملية الجراحية .

وهناك رأي ثالث يقرر أن الطبيب لا يصح سؤاله في هذه الحالة إلا إذا ارتكب خطأ فاحشاً في عمله . ومعنى هذا الرأي أن الشرط الأخير من شروط

(١) يستثنى من ذلك بعض حالات الأمراض المعدية حيث تمنح القوانين إطلاع الصحة عما لتولى علاج المرضى وعزلهم عن مخالطهم ، ولا يوجد في نواحي التشريعية ما يمنع من هذا الإجراء .

عدم المسؤولية غير لازم ، بمعنى أن من حق الطبيب أن يعالج الناس ، وأن يجري لهم الجراحات بغير رضاهم .

وفي الشريعة الإسلامية لا بد من الحصول على رضاء المريض أو وليه إن كان قاصراً أو من في حكمه ، وهذا الشرط واضح من أن الصلة بين الطبيب والمريض تحكمها أحكام عقد الإيجار ، ومعلوم أن قيام العقد يستلزم توافق إرادتين : إرادة الطبيب وإرادة المريض أو وليه . ورغم وضوح ضرورة هذا الشرط من القواعد العامة فإن فقهاء الشريعة يشترطون ذلك صراحة لتفي المسؤولية عن الطبيب ^(١)

وقد نص في مذهب الشافعي على أنه إذا كان على رأس بالغ عاقل سلعة لم يجرز قطعها بغير إذنه ؛ فإن قطعها بغير إذنه فمات وجب عليه القصاص ، لأنه تعدى بالقطع . وإن كانت على رأس صبي أو مجنون لم يجرز قطعها ، لأنه جرح لا يؤمن معه الهلاك ؛ فإن قطعت فمات ، نظرت : فإن كان القاطع لا ولاية له عليه وجب عليه القود لأنها جناية تعدى بها ؛ وإن كان أباً أو جداً وجبت عليه الدية ؛ وإن كان ولياً غيرهما ففيه قولان : أحدهما أنه يجب عليه القود لأنه قطع منه ما لا يجوز قطعه ؛ والثاني : أنه لا يجب القود لأنه لم يقصد القتل ، وإنما قصد المصلحة ؛ فعلى هذا يجب عليه دية مغلفة لأنه عمد الخطأ ^(٢) .

وواضح مما تقدم أن مسؤولية الطبيب إذا باشر العلاج بغير إذن ، تكون مسؤولية عمدية ، فيقتضيه متى كان القصاص ممكناً . ولم نجد في غير مذهب الشافعي تحديداً واضحاً لمعنى الضمان الواجب على الطبيب إذا أجرى جراحة بغير رضاء المريض أو وليه ، وهل المقصود من الضمان القصاص أم الدية ؟ ومع ذلك فإننا نعتقد أن المقصود بالضمان القصاص ؛ لأن فعل الطبيب في هذه الحالات عمدي ، ولا يوجد ما يسوغه ، أو ما يسقط القصاص عنه .

ويستثنى فقهاء القوانين الحديثة من ضرورة الحصول على إذن المريض أو وليه ، الحالات التي تستوجب الإسعاف العاجل ، والتي لا يمكن فيها انتظار

[١] المتن ٦ ص ١٢١ ، الشرح الكبير ٦ ص ١٢٤ ، المذهب ٢ ص ٣٠٦ ، الهداية والسياسة ٧ ص ٢٠٩ .

[٢] المذهب ٢ ص ٣٠٦ .

الحصول على هذا الرضاء ، لما في ذلك من خطر بليغ يعود على المريض . فلو نقل شخص إلى إحدى المستشفيات مغمى عليه لمرض أو نتيجة إصابة جنائية ، فإن الأطباء يقومون بالواجب عليهم نحو علاجه ، رغم أنه لم يوافق على أن يقوموا بعلاجه ، بل ولم يؤخذ رأيه في ذلك . والواقع أنه في هذه الحالات قد لا يفيق المريض إلا بعد أن يبدأ في علاج سبب الإغماء ، وقد لا يشعر أحد من أهله بما حدث له ، فكيف يمكن اشتراط ضرورة الحصول على رضاء أو الإذن من وليه .

والحجة التي يستند اليها فقهاء القوانين الحديثة في إعفاء الأطباء من المسؤولية في مثل هذه الحالات ، هي أن الطبيب حين يقوم بعلاج شخص هذه حاله ، إنما يدفع خطراً عن شخص عاجز عن تعارف مصلحته . فالإعفاء يقوم على أساس نظرية تسمى نظرية الضرورة ، وهي تعني من العقاب الشخص الذي يقوم بفعل معاقب عليه حماية لنفسه أو لنفس غيره من ضرر محقق .

ولم نجد فيما رجعتا اليه من كتب الفقه الإسلامى من تعرض لهذه الحالة ، وبتين حكما : ومع ذلك فإننا نعتقد أن حكم الشريعة فيها هو ضرورة إعفاء الأطباء من المسؤولية من أعمالهم التي يؤدونها في الحالة التي يستحيل فيها على المريض أن يبدى رأيه في العلاج ، فإذا كان من الواجب ضرورة الحصول على إذن المريض ، فإن ذلك يجب تقييده بحالة ما إذا كان ذلك ممكناً . هذا فضلا عن أن الشريعة توجب على الناس التعاون والتعاقد ، ويجب على كل مسلم وجد آخر في خطر أن يمينه وأن يساعد على النجاة ، ولا توجد مساعدة ألزم من معالجة الطبيب لشخص تستوجب حاله عاجل العلاج . ونذكر أخيرا أنه بما يساعد على القول بالإعفاء من المسؤولية ، القاعدة الشرعية التي تقرر أن الضرورات تبيح المحظورات .

حول «مسئولية الأطباء»

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد علي النجار
المدرس في كلية العربية

— — —

كتب الأستاذ المذكور أحمد محمد إبراهيم القاضي بمحكمة الدنيا الوطنية في مجلة الأهرام^(١) مقالة سماها «مسئولية الأطباء» عرّص فيه للمسئولية ورجعها في القوانين الوضعية وفي الشريعة الإسلامية . والمقال يهيم عن اطلاع واسع ، والمعية وزكاته تنقضى القارى الإعجاب والتناء .

وقد بدا لي في المقال تعقبات أنشرها فيما يلي :

١ — يذكر الأستاذ في ص ٨٩٧ أن كتب الفقه الإسلامى لم تعرض بصورة واضحة للفرق في المسئولية بين من حصل على شهادة دراسية لممارسة أعمال الطب ومن لم يحصل على هذه الشهادة . وهو يذكر بعد ذلك أن الفقهاء نصوا على أنه يحجر على المنتطب الجاهل ولا يمكن من معالجة الناس . وأقول : ألا يكنى هذا في إيضاح الفرق بين الصنفين : العالم بالطب ، والجاهل به ؟ ولا محالة أن مقياس العلم بالطب يختلف باختلاف العصور . وقد كان المقياس في العصور الغابرة استفاضة إصابة الطبيب ، أو أن يشهد طبيباً من أهل الصناعة وذوى البصر بالطب لأمري^٢ بأنه أهل للممارسة أعمال الطب . وأريد هنا أن الأصل في هذا التفريق قوله^(٣) صلى الله عليه وسلم : « من تطب ولم يعرف الطب فهو ضامن » .

٢ — ويذكر الأستاذ أن قصر ممارسة أعمال الطب على من درسوا قواعده لم تعرف بطريقة رسمية في الدول الإسلامية المختلفة . ويبدو أن هذا الحكم ليس على إطلاقه : فإننا نرى في كتاب^(٤) إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، للقفطى أن الخليفة العباسى المقتدر أمر طبيبه سنان بن ثابت بن قرة الحمراني أن يمتحن

(١) جزء ذى القعدة ١٣٦٧ (٢) هذا الحديث رواه أبو دلود وقنعدي وابن ماجه . وانظر حاشية الرمل على شرح الروض في فروع الشامية ج ٤ ص ١٦٦ (٣) ص ١٣٠ طبعة التاجي .

أطباء بغداد في وقته ، وأن يمنح من يرضاه في هذه وعمله إجازة لما يصلح أن يتصرف فيه من الطب (وترى من هذا أنه كان في هذا العهد أطباء اختصاصيون). وقد كان هذا الأمر من المقتدر على أثر غلط طيب في العلاج أفشى إلى مهلك المريض . وما يذكر أن المقتدر أمر بحتبه أن يراعى ذلك فلا يأذن في العلاج إلا لمن يحمل إجازة من سنان . وكانت وفاة سنان سنة ٣٣٩ هـ .

٣ - ويذكر الأستاذ أن عدم مسؤولية الأطباء عن أعمالهم ليست محل خلاف من أحد . وهو يريد العالمين بالطب . أو الذين يحرمون الشهادات الدراسية في اصطلاح العصر الحديث . وهذا صحيح في الفقه الإسلامي إذا أريد المسؤولية الجنائية ؛ فأما المسؤولية المالية أو استحقاق الدية أو الارش فليس الأمر هكذا على إطلاقه . فعند الفقهاء أن الطبيب العالم إذا أخطأ في العلاج - بأن عالج بغير ما يقرره الطب - فإن الدية أو الارش يقضى به ، وتعتبر هذه الجنابة جنابة خطأ؛ فالدية فيها عتفة على العاقلة . وهذا إذا كان العلاج يادى المريض كما هو فرض المسألة . ولا بد أن يكون الآذن أملاً للإدس ؛ بأن يكون حراً بالعماء عاقلاً . وهو يادى نفسه ولن له الولاية عليه كالصبي والبد . نعم هناك حالة تسقط فيها المسؤولية المالية أيضاً مع الخطأ ؛ وذلك إذا اذن المريض في علاج معين ؛ كأن يقول له : أعطنى هذا الدواء ، أو شق لى هذا العضو . وما يذكر هنا أن خطأ الطبيب يكون باعترافه ، أو بشهادة رجلين من دوى البصر بالطب .

وأسوق إليك كلام الفقهاء في هذه المسألة ، وهم يملون لما نحن فيه بالعصد والحجامة الختان . والنصوص الآتية من كتب القروع في فقه الشافعية :

١ - في المهاج وشرحه للجلال المحلى : « ومن حجم أو فصد يادى من يعتبر إذنه فأقضى الى تلف لم يضمن ؛ وإلا لم يفعله أحد ، . وكتب القليوب عليه : « (قوله لم يضمن) إن كان عالماً ولم يحطىء : أو قال المريض له : داوى بهذا الدواء مثلاً ؛ فإن أخطأ أو كان غير عالم بالطب ضمن مطلقاً ، .

ب - وقال الشهاب الرملى في كتابته على شرح الروض : « ولو أخطأ الطبيب في المعالجة وحصل منه التلف ، وجبت الدية على عاقلة ، .

ج — وقال الشافعي رضي الله عنه في الأم ج ٦ ص ١٦٦ : « وإذا أمر الرجل أن يحجمه أو يحنّ غلامه أو يبيطر دابته ، فلتفروا من فعله ؛ فإن كان فعل ما يفعل مثله مما فيه الصلاح للفعول به عند أهل العلم بتلك الصاعقة فلا ضمان عليه ، وإن كان فعل ما لا يفعل مثله من أراد الصلاح وكان عالماً به فهو ضامن » .

د — وقال الشافعي في الأم أيضاً ج ٦ ص ١٦٨ : « والوجه الثاني الذي يسقط فيه العقل - يريد الدية - أن يأمر الرجلُ به الداءُ الطيبُ أن يبط^(١) جرحه أو الاكئة^(٢) أن يقطع عضواً يخاف مشيها إليه ، أو يفجر له عرقاً ، أو الحجام أن يحجمه ، أو الكاوي أن يكويه ؛ أو يأمر أبو الصبيّ وسيد المملوك الحجام أن يحنّته ، فيموت شيء من هذا ، فلا عقل ولا مأخوذة^(٣) إن حسنت بيته إن شاء الله تعالى . وذلك أن الطيب والحجام إنما فعلاه للصلاح بأمر المفعول به » .

٤ — وفي ص ٨٢٠ يتحدث الأستاذ عن أساس انعدام المسؤولية عند الفقهاء ، فيذكر أن الأساس عدم هو رضا المجنى عليه ؛ إذ رأى جمهور الفقهاء أنه لو قال شخص لآخر : اقتلني أو اجرحني ، ففعل ، لا يقتص منه لرضا المجنى عليه . والأستاذ لا يرضى هذا أساساً لعدم المسؤولية ، وأن الأخذ به يستدعي عدم التفريق بين الطبيب العالم والجاهل المدعى لهذا العلم . والواقع في العقه أن إذن المريض في العلاج يشعب إلى حالتين .

١ — الحالة الأولى : أن يكفل المريض الأمر إلى الطبيب يعالجه بما يراه ، وهذا هو المألوف فيمن يعرض نفسه على الطبيب ؛ وهذا الإذن إنما يسمع به المريض لمن يراه أملاً للعلاج قيناً أن يسلم إليه نفسه ، فكأن الإذن مشروط بعلم الطبيب وحسن درايته ؛ فأما الجاهل الذي يدلس على المريض ، فإن إذن المريض له كلاً إذن ، ورضاءه لم يقع الموقع فلا عبء به ، فنتج المسؤولية إذن لانعدام الرضا الحقيقي الذي هو أساس انعدام المسؤولية .

وعلى هذا فالأخذ بهذا الأساس يقتضي التفريق بين الطبيب العالم وغيره من متعاطي الطب والمدعين له . وليس الأمر كما يذكر الكاتب الفاضل .

(١) أي يحنّ . (٢) أي الحكّة .

(٣) هذه الكلمة يقالها في الاصطلاح الحديث المسؤولية ، وهي التي بالمعنى المراد من المسؤولية فإن سأل المرء قد يكون بما لا تبعة به ، أما المأخوذة فأنما تكون بما فيه مؤاخذة وتبعة .

ب - والحالة الثانية : أن يؤم المرء بعض الأطباء ، فيطلب إليه أن يفعل فعلا مينا من أعمال الطب ، فهذا لا مسئولية فيه ؛ لأنه إنما فعل فعلا مأذونا فيه بمن يملك الإذن ، فكان الفعل منسوب الى المجنى عليه ، فينجو الجاني من المأخوذية .

هـ - وترى صاحب المقال يعرض للفقهاء في حكم ذكره ، فيقول : « ونحن لا نعلم ما يقول جمهور الفقهاء : من أن الرضا بالقتل أو الجرح يسقط القصاص ، . وكان عليه قبل هذه المخالفة أن يتعرف ما دفع جمهور الفقهاء الى هذا الحكم الذي لا يرضاء . والفقهاء دُفعوا الى هذا بأشياء جاءت في الشريعة : ذلك أن القصاص أو الدية حق للورثة كما هو معروف . وقد عرض لهم هذا السؤال : هل هذا الحق للوارث ابتداء وبالاصالة ؟ أو هذا الحق في الاصل للمجنى عليه ، ثم ينتقل الى ورثته لما لم يمكنه استيفاؤه ، كما ينتقل الى الوارث مال المورث وتركته ؟ ورأى الفقهاء في أحكام الشريعة أن ديون المالك بالجناية ورصاياه تقضى من الدية قبل توزيعها على الورثة ، فاستنبطوا من هذا أن الدية يملكها المجنى عليه أولا كالأموال التي يملكها بكسب يده سواء ، ثم تنتقل الى ورثته ؛ ولو أن الدية كانت ملكا للوارث ابتداء ما قضى منها ديون الميت ؛ وإذا ثبت هذا الحكم في الدية ثبت في نظيرها وهو القصاص ؛ وإذا ثبت أن هذا الحق يثبت للمجنى عليه ابتداء ، فن البين أنه إذا أذن في الجناية عليه الموجبة لهذا الحق ، لم يكن له شيء . ورى الفقهاء لا يقفون عند القول بعدم المسئولية القضائية ، فتراهم يحدرون من الإقدام على الجناية مع الإذن بها ، ويذكرون أنه لا ثم يفسق صاحبه . وبحسب المؤمن هذا رادعا له وزاجرا .

وكان يحسن بالكاتب أن يذكر أن في الفقه رأيا آخر في مسألة الإذن التي تتكلم فيها يرى المأخوذية القضائية ؛ لأن الإذن وقع على شيء محرم ، فكان على المأذون أن يرتدع عنه ولا يفسق مع الآذن ؛ ويمثل لذلك بما إذا أذنت الأمة في الرق بها مثلا ؛ ويجب الآخذون بالرأى الأول وهم الجمهور بأن مسألة الرق يدخل فيها حق الله تعالى ولا يملك الآذن الزول عنه ، بخلاف ما هنا فإن الدية أو القصاص من حق العبد ، فأما حق الله فورا ذلك يستوفى من العبد بالعذاب إن لم يتأوله عفو الله .

وإني اختتم كلمتي بالثناء على الكاتب الفاضل والإعجاب بمقاله الجميل .

مطالعات في الجبرتي (٣)

العلماء سفراء وقادة

فضيلة الأستاذ محمود الشرفاوى

وأينا في الفصلين السابقين كيف كان علماء الأزهر في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين - حيث أرخ الجبرتي لمصر تاريخه الفريد [عجائب الآثار في التراجم والأخبار] - هم السفراء والقادة، في وقت لا يستطيع أحد فيه أن يظهر بأى معارضة أو مخالفة لرغبة المماليك أو الباشا، الذى كان يلى حكم مصر بالاسم تارة، وبالفعل تارة، من قبل الدولة العلية .

سفراء عند قوم يشك كل إنسان منهم في كل إنسان، ويتم كل جار جاره، ويوقع أهل كل بيت منهم بين بعضهم وبعض، ويتوجس كل أخ من أخيه . وقادة بين قوم يقتل منهم الواحد والعشرة في أقل سبب وبلا سبب، وتهدم أموالهم وتقتل نساؤهم وأولادهم، ثم يحمى الناهب والقاتل والسالب كثيرين يقولون له : أحضت ، أنت سيدنا ونحن ملك يمينك (١) .

واليوم نرى فيما كتبه الجبرتي صوراً أخرى من هذه السفارة والقيادة، فيها من الدلالة وفيها من العبرة ما يشرف الأزهر، ويرفع قدر ذلك النفر من رجاله الذين كانوا وحدهم رجالا، بل أبطلالا بين رجال ذلك الزمان .

ولم يكن علماء الأزهر هؤلاء يصبرون على ضيق يال أمتهم معها يكن مصدره . فهم يعارضون المماليك لا يخشون لهم بأساً، وهم يعارضون رجال الدولة لا يخشون لهم ولا لدولتهم بأساً، وهم يعارضون نابليون ورجاله رغم غلبتهم على مصر ودخولها بالفتح ؛ تلك المعارضة الفسوية الدائبة المشرقة التى كان لها أكبر الأثر في النهاية

(١) انظر عددي ربيع الأول وربع الثاني لسنة ١٣١٧ من مجلة الأزهر .

العاجلة التي انتهت إليها عهد الحملة الفرنسية على مصر، كما كان لها أكبر الأثر فيما لقبه نابليون وقواده في مصر من العناء والجهد والمشقة. ولعلنا في فصل قادم نلخص عن الجبرتي أيضا مقتل كليبر بيد سليمان الحلبي الأزهرى، ومحاكمة هذا الشاب على يد الفرنسيين.

أما اليوم، فحديثنا عن الشيخ عبد الله الشرقاوى، وعن الشيخ شمس الدين أبي الأنوار.

عند ما دخل نابليون مصر بعد هزيمة المهالك، أخذ يسمى لتخفيف المقاومة الشعبية التي يلقاها من المصريين، فكان مما فعله إنشاء الديوان، ليكون كجلس نيابي يمثل أهل الرأى في مصر؛ ويتعرف منه نابليون رغبات أهل مصر؛ وجعل الديوان في آخر مراحل حكمه مكونا من أربعة عشر عضواً، منهم خمسة من المشايخ، هم: الشيخ الشرقاوى، والمهدى، والصابى، والبكرى، والعبوى؛ واثنين من التجار المسلمين هما: المحروقى، وأحمد محرم. والأعضاء السبعة الباقون من نصارى القبط والشوام، و (ميخائيل كحيل، ورواحه الإنجليزى، وبودنى، وموسى كافر الفرنساوى، ومعهم وكلاء ومباشرون من الفرنسيين).

وكان هذا المجلس يسمى المجلس المخصوص، أو الديوان الديوى، لأنه دائم الاجتماع.

وهناك مجلس آخر يجتمع عند الاقتضاء، وهو مجلس شعبى، لأن أعضائه كان أكثرهم مشايخ حرف،^(١).

وكان الشيخ عبد الله الشرقاوى رئيسا للمجلس المخصوص بأمر من نابليون. كان الشيخ الشرقاوى في رياسته للمجلس المخصوص، وفي علاقته بنابليون وكبار رجاله، يمدح حرجا أى حرج.

وكذلك كان كبار المشايخ ورجال الأزهر؛ فهم يكرهون نابليون والفرنسيين، ما في ذلك شك؛ ويعلمون أن المصريين يكرهونه ويكرهونهم أيضا. ولذلك كثيرا ما كانت تقوم الثورات من سكان القاهرة ضد نابليون، وخاصة

(١) ص ٣٨ جزء ثالث من الجبرتي في حوادث شهر رجب سنة ١٢١٣

من سكان الحسبية والأزهر . وكان المشايخ على النوام يُتهمون من الفرنسيين بأنهم يشتجعون الفتنة إن لم يكونوا محرضين عليها . وكان الشيخ الشرقاوى يرى أن يدفع عن مصر ما يستطيع دفعه من شر نابليون ورجاله ؛ ولذلك قبل رئاسة المجلس المختص ، وظل زما طويلا متصلا بالفرنسيين ، ليدفع من أذاهم بقدر ما يستطيع . وقد أمر الشرقاوى بأن يقفل الجامع الأزهر وتُسَرَّ أبوابه بعد مقتل كبيره ، لأن الفرنسيين كانوا يفتشون في داخله عن الأسلحة ، ويتهمون الأزهريين بالعمل على الثورة ، وإيواء العناصر الخطرة على الفرنسيين . وأقفل الجامع الأزهر فعلا ، وسمرت أبوابه ، بأمر شيخه الشيخ الشرقاوى ، حرصا على حياة أهله وسلامتهم^(١) .

وقد أراد نابليون أن يضع الشرقاوى في وضع يُظهره بمظهر الرضا عن حكم الفرنسيين لمصر ، ومظهر الصداقة لهم ، بأن يظهر له صداقته وتقديره بالإنعام عليه . وأراد - إن هو استطاع توريط الشرقاوى - أن يورط بقية المشايخ ، حيث لا يستطيعون أن يرفضوا ما قبله شيخهم . وجعل نابليون هذا التكريم الخطر للشيخ الشرقاوى علنيا ، حتى يخرجه ويشهر به ، ويظهره بمظهر الصديق أو التابع في وقت واحد ؛ ولكن الشيخ لم يمكن القائد الفاتح من مكره وكيدته ؛ بل رده إليه ، ولم يقبل خلع نابليون ، حتى استشاط غضبه ؛ ولم يستطع أن يقدم الى بقية المشايخ ما كان قد أعد لهم من الخلع .

يقول الجبرتي في حوادث شهر ربيع الأول من سنة ١٢١٣ ما يلي : « وفيه - أى في اليوم العشرين من هذا الشهر - طلب صارى عسكر بونا بارت المشايخ ، فلما استقروا عنده نهض بونا بارت من المجلس ، ورجع ويده طيلسانات ملونة بثلاثة ألوان ، كل طيلسان ثلاثة عروض أبيض وأحمر وكحلى ، فوضع منها واحدا على كنف الشيخ الشرقاوى ، فرمى به الى الأرض وامتنع وتغير مزاجه ، وانتفع واحتد طبعه ، فقال الترجمان : يا مشايخ أنتم صرتم أجابا لصارى عسكر ، وهو يقصد تعظيمكم وتشريفكم بزيه وعلامته ، فإن تميزتم بذلك عظمتكم العساكر والناس ، وصار لكم منزلة في قلوبهم . فقالوا له : لكن قدرنا يصعب عند الله وعند

إخواننا من المسلمين ١ . فاغتاظ لذلك - يعنى نابليون - وتعمك بلسانه ، وبلغ عنه بعض المترجمين أنه قال عن الشيخ الشرفاوى : إنه لا يصلح للرياسة ، ^(١)

• • •

وفى ترجمة الوفيات التى ذكرها الجبرقى فى سنة ١٢٢٨ يترجم لرجل اسمه الشيخ شمس الدين محمد أبو الانوار بن عبد الرحمن المعروف بابن عارفين ، ^(٢) ثم يقول فى ترجمته . إن حسن باشا الجزائر لى عد ما قدم إلى مصر على رأس القرن ، وخرج الأمراء المصريين ^(٣) إلى الجهة القبلىة ، واستباح أموالهم ، وقبض على نسائهم وأولادهم ، وأمر بإزالة سوق المزاد ويجمع زاعما أنهم أرقاء لبيت المال ، وفعل ذلك ، فاجتمع الأشياخ وذهبوا إليه ، فكان المخاطب له المترجم ، قائلا له : أنت أتيت إلى هذه البلدة وأرسلت السلطان إلى إقامة العدل ورمع الظلم كما نقول ، أو لبيع الأحرار وأمهات الأولاد وهتك الحرم ؟ فقال : هؤلاء أرقاء لبيت المال ، فقال : هذا لا يجوز ولم يقل به أحد . فاغتاظ غيظا شديدا وطلب كاتب ديوانه وقال له : اكتب أسماء هؤلاء وأخبر السلطان بمعارضتهم لأوامره ، فقال له السيد محمود البوفرى : اكتب ما تريد ، بل نحن نكتب أسماءنا بخطنا . ١ فألحم وانكف عن إتمام قصده .

وكان ابراهيم بك الكبير قد أودع عند المترجم وديعة ، وكذلك مراد بك أودع عد محمد أفندى البكرى وديعته ، وعلم ذلك حسن باشا ، فأرسل عسكريا إلى السيد البكرى ، فلم تسمع المخالفة وسلم ما عنده ، وأرسل كذلك يطلب من المترجم وديعة ابراهيم بك فامتنع من دفعها قائلا : إن صاحبها لم يمت وقد كتبت على نفسى وثيقة فلا أسلم ذلك ما دام صاحبها فى قيد الحياة . فاشتد غيظ الباشا منه وقصد البطش به ، لحماة الله منه ببركة الانتصار للحق ، فكان يقول : لم أر فى جميع الممالك التى ولجتها من اجترأ على مخالفتى مثل هذا الرجل ، فإنه أحرق قلبى ، ^(٤)

(١) ص ١٧ جزء ثالث من الجبرقى .

(٢) عين محمد على هذا الرجل تقياً للأشراف بطل السيد عمر مكرم .

(٣) الأمراء المصريون من الممالك .

(٤) ص ٢٠١ من الجزء الرابع من الجبرقى .

الارادة الانسانية

قوتها والحاجة إليها

بقلم الدكتور محمد والى خان — تـمـريـب الـاسـتـاد عـمر طـلـعت زهـران

يمكننا أن نقرر عموماً أن بعض الناس أقوى الإرادة جداً ، ولكن معظم الناس ليسوا كذلك . والشخص القوى الإرادة يعتقد أنه إذا صمم رأيه على تحقيق غرض ما ، فإن عليه حتماً أن ينجح في تحقيقه . ويميل مثل هذا الشخص الى احتقار غيره من تقصصهم هذه القوة ، إذ أنه لا يفهم تماماً هذا الضعف الذى يفتاب الكثيرون .

فإذا ما ارتبط هذا العزم بالدين ، فإن الشخص القوى الإرادة يميل غالباً الى الاعتقاد بأن ما يريد هو ، إنما يريد الله ، وإن وجدت مواطن ضعف فى أخلاقه فإنه زعيم بأن يتغلب عليها بعزم أقوى . وإنه ليدعو الضعيف والخائف الى التماسك ، غير متنبه إلى أن ذلك إنما يدعو الى ضعف أكثر وخوف أشد ، وإلى شعور أكثر بالإثم .

وقليل من الناس يحفظون بهذا الثبات ، فهم يعرفون جيداً مواطن الضعف فيهم ، ويعرفون قوة عاداتهم واتجاهاتهم ، وحتى لو حاولوا اتباع ما يظنونه حقاً ، فإن دوافعهم تسير بهم فى اتجاهات جـد مختلفة . وهم لا يستطيعون التصميم على رغباتهم ، أو أن يتغلبوا بقوتهم الخاصة على خوفهم المستعير ، أو أن يحطموا قوة العادات التى أنشئت فيهم . وقد امتلأت ذاكرات معظم الناس بذكريات الحلول التى توصلوا إليها ، ولم يوفقوا الى تحقيقها .

إن الإرادة الإنسانية هى ذلك الجزء من الشخصية التام التنظيم ، والذى يدفع المرء دائماً لتحقيق الأغراض التى تمنها نفسه . وفى كثير من المسائل الصغيرة من أمور الحياة اليومية نجد أن الإرادة الإنسانية ذات أثر ، ولكن فى أعماق الشخصية الإنسانية توجد عرائز ودوافع لم تدخل بعد فى مجال النشاط المظم للفرد ، وقد تكون هذه الغرائز والدوافع فى نزاع مع الإرادة ، ويبدو كأنما يوجد مركزان فى الشخص الواحد ، يرمى كل تحقيق رغبات مختلفة .

ومثل هذا النضال يجب أن يثبت فيه : فإما أن تصير الإرادة هي آلة الدوافع الخفية ، فتسمر بالغرور وحب السيطرة : وإما أن تصير آلة للروح وقوة الله ، تعمل في إنسان قد وهب شخصيته لله في الحب والعمل .

والإسلام ، يعتقد في القوة الطبيعية للإرادة الإنسانية لتحقيق الأغراض الصحيحة للنفس . وهو لا يؤمن أن الإنسان يستطيع — بمجرد أن يصمم رأيه — أن يصبح كما ينبغي أن يكون . والإسلام دين تفاؤل فيما يختص بقدره الناس على الاستجابة لأي نداء يوجه خاصة إلى الإرادة : بل إنه يؤمن أن الإنسان يحتاج إلى الخلاص والمساعدة ، وأن الله قد أمده بالمصادر الضرورية لحاجاته . ويجب ، قبل أن تتحرك الإرادة ، أن يكبح الخيال ، وأن تثار المحبة .

والإسلام إنما يخاطب قلوب الناس وولاهم ، أكثر مما يخاطب عزائمهم : فالإسلام كلما كان أكثر تأثراً ، كان أقوى عزماً .

إن المسلم ليدعو الله ، بخضوع وخشوع ، خمس مرات في كل ليل ونهار ، أن يُنهض عزائم المؤمنين ، فالإسلام لا يفترض أنهم سينهضون عزائمهم بأنفسهم أو يكتفونوا بحلولاً جديدة بقوتهم الخاصة .

وهو الله ، الذي يستدعي حباً للناس ، حين يعرف هؤلاء فصل الله ورحمته ، يستسلمون لجلاله : يقودهم ويحكم قلوبهم ، فإن إراداتهم تستطيع أن تبين في الحياة عن نفس قد كل تنظيمها : انسجاماً ، وثباتاً ، وتكاملاً .

حنين حنين

مدح ربيعة الراقي يزيد بن حاتم الأزدي وهو والي مصر فاستبطاء ربيعة ، فشنخص إليه من مصر وقال :

أراني ولا كفران لله راجعا بحنين حنين من نوال ابن حاتم

فبلغ قوله يزيد بن حاتم ، فأرسل في طلبه ، فلما دخل عليه لأمه على ما قاله فيه ، وسأله هل قال غير ذلك البيت ؟ فقال ربيعة : لا والله ! فقال الأمير : لترجعن بحنين حنين مملوءة مالا . وأمره أن يخلق نعليه ، ومثلت له مالا .

المعاملات في الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية

لحضرة الأستاذ صالح بكير
المدرس بكلية أصول الدين

نبدأ الآن بحثاً جديداً موضوعه الالتزامات والعقود في الشريعة الإسلامية
والقوانين الوضعية .

هذا الموضوع له أهمية كبرى ، حيث إن مصر سفت لها قانوناً مدنياً حديثاً
استمدت أحكامه من القوانين الأجنبية معتقدة أن تلك القوانين الأجنبية كافية
في تحقيق ما تقتضيه ظروف البلاد من اجتماعية واقتصادية وأخلاقية وغير
ذلك . وزعم واضعو هذا القانون أنهم استمدوا بعض الأحكام من الشريعة
الإسلامية ، ومعنى هذا عدم كفاية الشريعة الإسلامية لما تقتضيه ظروف الزمان
والمكان ، مع أن الأمر عكس ما ذهبوا إليه . ولذا قام جماعة من كبار رجال
القانون وألقوا لجنة منهم ومن بعض علماء الأزهر لدراسة هذا الموضوع
(كفاية الشريعة الإسلامية) ، فعملت نموذجاً لمشروع قانون مدني حديث استمدت
جميع أحكامه من الشريعة الإسلامية ، فجاء متمشياً مع ما تقتضيه الحياة الاجتماعية
والاقتصادية الحديثة ، وقد كان هذا النموذج في كتاب العقد ، لأن نظرية العقد
هي الأساس لجميع المعاملات المدنية ، وإليها ترجع أحكام العقود الخاصة .
وقد^(١) صادف اللجنة في طريقها صعوبات ومشاق ، لأن كتب العقد

(١) ولا يفوتني في هذا المقام أن أنوه بإيجاز بما قامت به اللجنة من عمل ،
ويان ما قام به كل عضو منها ، ليال كل ذي حق حقه :
كانت تجميع اللجنة أولاً لتناقش الموضوع لتعرف الفكرة القانونية ، وذلك
بإشراف سعادة الدكتور صادق بك فهمي المستشار بمحكمة النقض والإبرام =

الإسلامي لم تضع نظرية عامة كاملة للالتزامات والعقود (كما في القوانين الوضعية وكتبها) : لذلك كانت ترجع اللجنة الى جميع أبواب الفقه وتستخلص القواعد العامة التي تنظم جميع أنواع العقود الخاصة ، وذلك بعد بحث وتنقيب وتحليل على دقيق ، لجاء النموذج كاملا وافيا بالعرض ، ومصيا للهدف ، وحاز رضا كثير من رجال القانون والعلم .

== الوطنية ، ثم يقوم كل عضو بالبحث في كتب فقه مذهبه عن الاحكام والنصوص الخاصة بالموضوع ، ثم تجتمع اللجنة ثانية للبحث والنقاش في تلك النصوص والاحكام على ضوء الفكرة القانونية ؛ وبعد الانتهاء والانتهاى الى رأى ، تحال الفكرة لصياغتها صياغة قانونية الى فضيلة الشيخ يس سويلم ، ثم تراجع معه ومع باقي الأعضاء بإشراف سعادة صادق بك فهمي . وقد استمر عمل اللجنة هكذا نحو المائتين والخمسين جلسة كانت كل جلسة تستغرق أكثر من أربع أو خمس ساعات متواليات . ولما أن تم النموذج أعيدت مراجعته بنفس الطريقة حتى أخذ وضعه النهائي . وكانت اللجنة مكونة من جميع مذاهب الفقه الإسلامي ، فكان عن المالكية فضيلة الشيخ يس سويلم الذي كان له القسط الاوفر في هذا العمل ، وعاونه في كثير من الاحيان بالبحث عن النصوص كل من فضيلتي الشيخ عبد القادر خليف والشيخ أحمد علي . وكان عن الشافعية فضيلة الشيخ علي البولاق ، وشاركه فضيلة الشيخ لإمام حسين وفضيلة الشيخ ابراهيم الجار . واقتصر عمل الشافعية على نحو النصف من هذا النموذج .

وكان عن الحنابلة فضيلة الشيخ علي هبة المجيد ، وقد أبلى بلاء حسنا في كثير من المسائل المعقدة التي برهنت على غزارة علمه . وكان قد قام فضيلة الشيخ عبد اللطيف السبكي بجزء كبير في هذا العمل عند الابتداء في عمل هذا النموذج . وكان يمثل الحنفية فضيلة الشيخ الطيب التجار الذي برهن بعمله هذا على غزارة مادته العلمية وحسن استنتاجه وبراعته في البحث والنقاش ، وكنتُ أشاركه في عمله (باعتباري حنفي المذهب) بجانب ما كنت أقوم به من تحضير اللواد وتدوين للنصوص وترجمة الى اللغة العربية لما يحتاج اليه من أبحاث قانونية حيث كنت أتولى أيضا عمل السكرتارية الفنية العلمية .

==

وقد طبع هذا النموذج طبعتين : إحداهما قامت بها نقابة المحامين الوطنيين ، والآخرى قامت بها جماعة اتحاد الهيئات الإسلامية ، ووزع ، ونقدت جميع نسخه . ونحن في أبحاثنا هذه سنجل هذا النموذج أساساً لنا في مقالاتنا ، ونبين مصادر فصوصه ، مع مقارنة ذلك بالقوانين الوضعية ، خصوصاً قانون مصر الحديث الذى سيدأ فى تنفيذه فى ١٥ أكتوبر سنة ١٩٤٩ عند انتهاء أجل المحاكم المختلطة . وستكون مقالاتنا هذه موجزة ، لأن المقام لا يتسع للتفصيل .

== وكان سعادة الدكتور صادق بك فهمى روح اللجنة ، فباشراً كه وإشرافه ونقاشه وشرحه للأبحاث القانونية ونصحه وإرشاده ، تمكنت اللجنة من تحقيق ما ترى إليه ، فكان هو العامل الأساسى لظهور هذا العمل الجليل الى الوجود . كما أنه هو الذى قام بعمل التمهيد لهذا النموذج الذى يتبن فيه الأسس العلمية والفنية لعلم القانون المقارن ، وما يجب اتخاذه لعمل تشريع جديد لمصر وبلاد المسلمين كافة ، كما أبار بجلاء ووضوح تفوق الشريعة الإسلامية على التشريعات الأخرى . وقد كانت اللجنة على اتصال ببعض أعضاء الهيئة المدنية لمحكمة النقض والإبرام الوطنية عن طريق الدكتور صادق بك فهمى للاستشارة بعلمهم وأفكارهم ، ولا نسى أن نذكر ما قام به سعادة مختار بك بحيت رئيس استئناف أسبوط سابقاً من مساعدة قيمة ومفضل ونصح وإرشاد لاشتراكه فى بعض المواد ، كما نذكر بالشكر الجزيل فضيلة الشيخ العترى من هيئة كبار علماء الأزهر لما أبداه من اشتراك ومعاونة قيمة .

وكان يسود أعضاء اللجنة روح الإخلاص والمحبة والتفانى فى العمل حيث كان جل هدفهم هو إثبات كفاية الشريعة الإسلامية ، ووجوب العمل بها ، غير ناظرين إلى أى اعتبار آخر .

ونذكر بمزيد الشكر ما قام به فضيلة الشيخ حمودة غرابية من تصحيح التجارب ، ومراقبة الطبع والتوزيع بالاشتراك مع الدكتور صادق بك فهمى . ولما أن تم طبع هذا النموذج جاء صورة رائعة لأحدث تشريع يتبنى مع ضرورات الزمان والمكان ، مضاهياً أحدث التشريعات إن لم يفقها صياغة وعلماً وقناً . ويعتبر هذا النموذج هو المؤسس الأول لنظرية كاملة للعقد فى الفقه الإسلامى . وقد نقدت جميع نسخه ، إذ تهاقت عليه الكثير من رجال العلم والقانون .

والآن نبدأ بتعريف الالتزام:

لم تعرض كتب الفقه الإسلامي لتعريف حقيقة الالتزام وماهيته، وإنما ذكرت له أحكاماً، كما أن مؤلفات القوانين الوضعية لم تضع له تعريفاً خاصاً وصحيحاً مبنيًا على أسس، لأنك إذا نظرت إلى تعريفات هذه المؤلفات، خصوصاً فيما هو مدون باللغة العربية وجدت اضطراباً وعدم انضباط، إذ تجد عبارتها مائعة غير منطقية، وليست متمشية ومبينة على أسس علمية، وذلك لعدم معرفة مؤلفي هذه المؤلفات للتواعد العلمية للتعريفات (القول الشارح)، فاضطررنا إزاء ذلك أن نحاول بقدر طاقتنا وضع تعريف للالتزام يصح اعتباره مؤقتاً حتى يقوم البحث العلمي الصحيح لوضع تعريف على صحيح له.

الالتزام - الالتزام في اللغة: مشتق من لزم الشيء يلزم لزوماً بمعنى ثبت ودام، ومنه ألزمته أي أثبته وأدومته، ولزمه الماد وجب عليه، ولزمه الطلاق وجب حكمه وهو قطع الزوجية، وألزمته المال والعمل وغيره فألزمه، ولازمت الغريم ملازمة، ولزمته ألزمه أيضاً. تعلققت به (انتهى من المصباح الخير).

وبذلك يتضح أن الالتزام يفيد وجوب الشيء، كما يفيد وجود علاقة ورابطة بين الملتزم والملتزم له. وإذن يمكننا تعريف الالتزام بأنه، وجوب الوفاء بأمر. ثم إن سبب الوجوب قد يكون قولاً أو فعلاً أو كفاً وامتناعاً. والمراد بالفعل معناه الأعم، فيشمل الكتابة والإشارة وغير ذلك من ظروف وأحوال تحف بها الفرائض. وحكم الالتزام: وجوب الوفاء بما ألزم به، فإن امتنع الملتزم عن الوفاء نشأ للملتزم له حق إكراه وإجبار الملتزم على الوفاء بما ألزم به. ووسيلة الإكراه هي القوة والسلطان اللتان يخشاهما الملتزم الباكل. وقد يستوفي الملتزم له حقه بنفسه. وكان قديماً يتولى الملتزم له بنفسه إجبار الباكل، ولكن الأمور تطورت وأصبحت توجد الآن طرق رسمها القانون لإجبار الملتزم الباكل على تنفيذ ما ألزم به.

وسائل الإكراه قديماً وحديثاً: قديماً كانت السلطة التي يتمتع بها الدائن (الملتزم له) ضد مدينه (الملتزم) عبارة عن سلطان مطلق على شخص المدين، فكان للدائن الذي يتمتع مدينه عن الوفاء بما ألزم به أن يستولى على هذا المدين ويحتفظ به بحبيته عنده، أو يتصرف فيه رقيقاً، يبيع أو غيره، أو يستخدمه لديه.

بل قد ذهب حقه إلى أكثر من ذلك ، فكان له حق قتله كما يشاء ، ولو كان للدين
 غراماء متعددون جاز لهم قتله وتقطيع جسده وتوزيعها بينهم كل على حسب نصيبه .
 ثم تطلعت ونقصت هذه السلطة فألغى القتل ثم السجن ، وأصبح للدائن حق
 استخدام مدينه لمدة يستوفى بها الدائن حقه . ثم تطورت الامور شيئاً فشيئاً إلى
 أن أصبح حق الدائن في القانون المرنسى القديم قاصراً على طلب حبس المدين
 الذى لا ينى بدينه ، والحبس كان بسجون الحكومة . وهذا ما يسمى « بالإكراه
 البدنى » . وقد ألغى الإكراه البدنى فى فرنسا بالنسبة للديون المدنية والتجارية
 بقانون صدر فى أوائل منتصف القرن التاسع عشر . ولكن لا يزال هذا الإكراه
 قائماً فى تحصيل الغرامات الناتجة من الجرائم الجنائية . والحال كذلك فى مصر .
 فالإكراه البدنى لا يكون إلا بالنسبة للغرامات الجنائية ، وكذلك بالنسبة للنفقات
 التى يحكم بها من المحاكم الشرعية . وفيما عدا هذا الطاق الضيق الذى يجوز فيه
 التنفيذ بالإكراه البدنى ضد المدين أصبحت سلطة الدائن قاصرة فى الوقت الحاضر
 على حق التنفيذ على أموال المدين دون التعرض لشخصه .

الإكراه البدنى فى الشريعة الإسلامية : أجازت الشريعة الغراء هذا النوع
 لضرورته ، ولكونه وسيلة ناجحة لإجبار المدين الناكل على الوفاء بما التزم به ،
 ولكن بشروط معينة ، هى أن يكون المدين ذا يسار وقدرة على الوفاء بما التزم به ،
 وأن يكون غافلاً ، وأن تقوم البيئة على هذين الشرطين ، وأن يصدر أمر الحبس
 من القاضي ، وأن يكون الحبس فى سجون الحكومة .

ويلاحظ أن الحبس لا يعتبر إيفاء للدين ، وإنما هو وسيلة لإجبار المدين
 الناكل وإدغامه على الوفاء بما التزم به .

وقد انتقد بعض كبار رجال القانون بفرنسا إلغاء الإكراه البدنى فى الديون
 المدنية والتجارية نظراً لكثرة تحايل المدينين الناكلين على تهريب أموالهم بشق
 الطرق والوسائل حتى لا يصل الدائن إلى حقه ، وتمنى الأخذ بقاعدة الشريعة
 الإسلامية . وإن الظروف ستجبر الناس يوماً ما على الأخذ والعمل بالقاعدة
 الشرعية ، وإن غدا لناظره قريب ٥

بَابُ الْأَسْئَلَةِ وَالْفَتَاوَى

التطوع للجهاد في سبيل فلسطين

حضرة صاحب الفضيلة الشيخ الكبير مفتي الديار المصرية .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ما حكم الإسلام في التطوع بالنفس والمال للجهاد في سبيل فلسطين العربية ؟ وهل يعتبر التطوع بنفسه مجاهداً ؟ وإذا قتل في المارك التي تدور هناك يعتبر شهيدا شرعا أم لا ؟ وما حكم من يحول دون ذلك أو يفتي بحرمته هذا العمل بحجة أن العرب باعوا أرضهم لليهود ولا يستحقون المساعدة ؟

أحمد محمد علي الشراقي
من بلدة حوض نجيب شرقية

الحمد لله ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده .

والجواب : أن الجهاد بالنفس أو المال لإتصاص فلسطين واجب شرعا على القادريين من أهلها وأهل الدول الإسلامية التي تحاول الصهيونية اليهودية بقوة السلاح إقامة دولة يهودية بفطر من أعز أقطارها الإسلامية العربية ، وهو فلسطين ، لا تملكها غصب ، بل للسيطرة على دول الإسلام كافة والقضاء على عروبها وحضارتها الإسلامية . ومن تكس عن القيام بهذا الواجب مع الاستطاعة ، أو خذل عنه ، كان آثما . غير أنه يجب الآن في الجهاد بالنفس ، وقد تنوعت أساليب الحرب ، أن ينضم المجاهد للنظم التي تضعها دول الجامعة العربية للجهاد حتى يحقق النصر المأمول . والله المستعان .

مفتي الديار المصرية
حسين محمد مخلوف

تشابه مقاصد القرآن

لعضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد المتعال الصعدي

المدرس بكلية اللغة العربية

قال الله تعالى في الآية ٢٣ من سورة الزمر: « افقه نَزَلَ أَحْسَنُ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا تَقَشُّعُثُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ » ، فوصف القرآن بأنه كتاب متشابه ، وجعل هذا صفة مدح له ؛ وذلك لأن القرآن يشتمل على أنواع من الأوامر والنواهي والوعود والوعيد والمصص والمواعظ ، وما إلى هذا من الأنواع التي يشتمل عليها ، وتكرر في كل سورة من سورته ، وكلها أنواع متشابهة المقاصد ، متقاربة الأغراض ، لا تخرج عن الوظيفة الدينية للقرآن ، ولا تحيد عن الغاية الدينية التي نزل من أجلها ، لانه نزل لتشريع العقائد والأحكام ، فيجب أن يقف عند حدودها ، وأن يكون كل ما فيه من أوامر ونواهي ، ووعود ووعيد ، وقصص ومواعظ ، وغيرها ، متصلا بها ، فلا يقصد منه غير هذا من بيان مسائل التاريخ أو الطب أو غيرها من العلوم ، لأنه لم ينزل لغرض من هذه الأغراض ، وإنما نزل للأغراض السابقة التي لا سبيل إلى معرفتها إلا بالوحي ؛ أما هذه الأغراض العلية فإنها تعرف بالمثل ، ولا تتوقف معرفتها على الوحي ، فلا يصح أن يحلظ بينها وبين الأغراض السابقة في كتاب ديني كالقرآن أو غيره .

وقد حددت الوظيفة الدينية للقرآن في فاتحته ، وهي أول سورة منه ، فقال : تعالى فيها « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » ، الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، إياك نعبد وإياك نستعين ، اهتدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين . .

وهو في هذا يبين أنه يراد من القرآن الهداية إلى صراط مستقيم ، وهو الدين الذي بعث به النبي صلى الله عليه وسلم . والكتاب يقرأ من فاتحته ، فهي التي تحدد المقصود منه ، وتبين الغرض الذي يريد تحقيقه . وقد توالى سور القرآن بعد هذه الفاتحة ، فسارت في هذا الغرض الذي حدد فيها ، ولم تحد سورة منها عنه ؛ وبهذا تشابهت سورته في أغراضها ومقاصدها ، كما تشابهت أوامره ونواهيه وما إليها مما اشتمل عليه .

فلم تُعلن سورة من سور القرآن بتدوين تاريخ الخلق مثلاً ، أو تازيح شعب من الشعوب ، أو تاريخ رسول من الرسل ، فتنسب في هذا أسلوباً تاريخياً يقصد منه الإطلاع ، ومعرفة الأخبار ، ويراد منه الكشف عما يحمله الناس منها ؛ لأن هذا ليس في شيء من وظيفة الكتب السماوية ، ولا يتوقف أمره على تنزيل سماوى ، حتى يزل به وحى من عند الله تعالى ، وإنما هو أمر في متناول البشر ، يصلون إليه بعقولهم ، ويعرفونه باجتهدهم وبمحسهم .

وقد يقال إن القرآن قد جاء فيه كثير من أخبار الماضين ، وقد نزلت فيه سور تكاد تكون مقصورة على أخبار رسول من الرسل ، ومن هذا سورة يوسف وسورة طه ، فالأولى مقصورة على أخبار يوسف عليه السلام ، والناية تكاد تكون مقصورة على أخبار موسى عليه السلام .

والجواب أن القرآن لا يقص علينا أخبار الماضين كما يقصها المؤرخون ، لا يريدون منها إلا إفادة العلم بها ، وكشف المجهول منها ، وإنما يقصها ليستخلص منها العظة الدينية التي تدخل في وظيفته ، وليكون منها تذكرة نافعة لنا في دنيانا وأخرانا ، فلا يقص منها إلا الأخبار التي يمكن أن يستخلص هذا منها ، فيختارها اختياراً دون غيرها من الأخبار التي لا يقصد منها إلا الفائدة الإخبارية التاريخية . ومنها تختلف وظيفة الكتاب المنزل عن الكتاب التاريخي ، فالكتاب المنزل إذا ذكر أخبار قوم من الماضين يذكرها تنفاً من هنا وتنفاً من هناك ، فيختارها اختياراً يوافق غايته الدينية ، أما الكتاب التاريخي فيذكرها كاملة غير مقصورة ، ويرتبها ترتيباً يوافق ترتيبها في حوادث الزمن .

ويندر أن يقع في القرآن قصة ترتب حوادثها ذلك الترتيب الزمني ، ولا يكاد هذا يجاوز عدد أصابع اليد من السور ، ومن نذا قصة يوسف عليه السلام ، فإنها مرتبة ترتيباً زمنياً يتبدى من صفه الى أن وصل أمره في مصر إلى ما وصل إليه ، ولكنها لا يذكر فيها مع هذا إلا ما يدخل في باب العظة والعبارة ، فيحذف فيها ما عدا ما يدخل في باب التاريخ المحض ، ولا يقصد منه إلا المعرفة والاطلاع ، لتوسيع الثقافة التاريخية ، وزيادة الثروة العلمية .

ولهذا كله امتاز القرآن من بين الكتب بأنه الكتاب الذي يقرأ ويتلى ، وتكرر تلاوته وقراءته ، فلا يمل ذلك قارئه وتاليه ، لأنه يتلوه للعظة والتذكيرة ، والإنسان كثيراً ما يعتريه النسيان ، وتفتقره العظة ، فيحتاج إلى تكرير ما يحفظه ويذكره ، لتستمر له أسباب العظة والتذكير ، وتنبأ له وسائل السعادة في دنياه وآخرها ، لأنه يكرر ذكر خالقه وما له عليه من حقوق ، وهي حقوق ترجع إلى تهيئة وسائل تلك السعادة له ، ليعيش في الدنيا رغيد العيش ، محباً لكل من تربط به صلة قرابة أو دين أو وطن أو إنسانية أو حيوانية ، وبهذا ينال السعادة في آخرها كما نالها في دنياه ، لأن الدنيا قطرة الآخرة .

ولهذا كله امتاز القرآن بهذا الاسم من بين الكتب ، لأن القرآن مصدر قرأ يقرأ قرأاً وقراءة وقرآناً ، فتعرف حقيقته من عنوانه ، وتذكر وظيفته من اسمه . وقد يما قالوا : إن الكتاب يقرأ من عنوانه .

فإذا أردنا أن نوازن فيما امتاز القرآن به من ذلك كله وبين التوراة الموجودة الآن ، وجدنا أن التوراة تشتمل على خمسة أسفار :

١ — سفر التكوين ، وهو يشتمل على التاريخ القديم ، من بدء الخلق إلى موت يوسف عليه السلام .

٢ — سفر الخروج ، وهو يشتمل على تاريخ خروج بني إسرائيل من مصر ، كما يشتمل على كثير من المسائل التشريعية والطقوس الدينية .

٣ — سفر اللاويين ، وهو يشتمل على الطقوس الدينية الخاصة بتقديم القرابين ، وعلى طقوس الكهنة من أبناء هارون .

- ٤ — سفر العدد، وهو يشتمل على تاريخ خروج بني إسرائيل من سيناء الى شرق الأردن، وعلى بعض الرسوم الخاصة بالطقوس والعبادات.
- ٥ — سفر التثنية، ويراد منه تثنية الشريعة أى إعادتها مرة ثانية لتطهير طقوسها.
- وإذا تركنا التوراة الى الاناجيل الاربعة الموجودة الآن، نجد لها تمص في أسلوب التوراة، وهى: إنجيل متى، وإنجيل مرقس، وإنجيل لوقا، وإنجيل يوحنا؛ والاربعة لا يقصد منها إلا تدوين تاريخ المسيح عليه السلام، فتذكر فيها سيرته الى نهايتها، وتدون فيها أفعاله وأقواله.
- ولا شك أن التوراة والاناجيل تجمع في هذا بين وظيفة المشرع والمؤرخ، وهما وظيفتان لا تشابهان بل تتبايان، لأن الوظيفة الأولى إلهية، والوظيفة الثانية بشرية، ولها وسائلها التى تعتمد عليها من المشاهدة والرواية، بخلاف وظيفة التشريع، فإنها تعتمد على الوحي من الله تعالى؟

الملاحظة

- قال الله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون؟ كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون».
- وقال عمر بن الخطاب: كانوا يفعلون ولا يقولون، ثم صاروا يقولون ويفعلون، ثم صاروا يقولون ولا يفعلون.
- وقال عبد الرحمن بن أم الحكم لعبد الملك بن مروان في مواعد وعدها إياه ففعلها بها: نحن الى الفعل اخرج منا الى القول، وأنت بالإنجاز أولى منك من المثل، واعلم أنك لا تستحق الشكر إلا بإنجازك الوعد، واستتمامك المعروف.
- وقال عبد الصمد بن الفضل الرقاشى لحسان بن ديسم والى الرى:
- أحاله إن الرى قد أجهفت بنا وضاق علينا رحبها ومعاشها
وقد أطمعتنا منك يوما بحبابة أضاعت لنا برقاً وأبطأ رشاشها
فلا غيمها يصحو فيش طامعا ولا ماؤها يأتي فيرى عطاشها
- وقال حكيم: خلف الوعد ألام من البخل، لأن من لم يفعل المعروف لزمه دم اللؤم وحده، ومن وعد وأخلف لزم ثلاث مذمات: مذمة اللؤم، ومذمة الخلف، ومذمة الكذب.

الرضا بالقضاء

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ علي رفاعي

المفتش بإدارة الرعظ

ينبغي أن يعلم أن الرضا عن الله في كل ما يفعله بالعبد ليس معناه ترك العبد للأسباب الموصلة الى ما يريد؛ بل الأخذ في الأسباب من جملة الرضا عن الله . فإنه سبحانه هو الذي أمر بالعمل وبمزاولة الأسباب ، مع الجد والنشاط وأخذ الحيلة والحذر؛ فإن وصل المرء الى مطلوبه فذلك من توفيق الله وإعنته ، وإن لم يصل فليسلم بالقضاء ، ولعلم أن الحيرة فيما اختار له من هو أعلم بمصالحه من نفسه التي بين جنبيه ، وهو العليم الخبير . وقد يظن العبد الخير في شيء وهو شر محض في الواقع ونفس الأمر ، كما يظن الشر في شيء وفيه كل الخير ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون . . . ولذلك كان المؤمن القوي ، وهو العامل بأوامر دينه والواقع من أن ربه لا يفعل إلا ما فيه مصلحته ، خيراً وأحب الى الله من المؤمن الضعيف الذي يجرع من الحوادث تزل بساحته فتتزعزع أركان عقيدته .

فترى المؤمن القوي إذا نزل به مهم أخذ في مدافعته مستعيناً بحول الله وقوته ، فإن عجز عن دفعه ولم يستطع له رداً ، لم يجلس جلسة الحزين الذي يقول : لو أني فعلت كذا لنجوت ، ولو فعلت كذا لم يحصل كذا ؛ ولكنه ينسى ما فات ، ويرجع الى إيمانه وثقته بالله ، فيقول : قدر الله وما شاء فعل .

وقد جرت عادة الله في خلقه أن جعل منهم سعداء وأشقياء . ترى ذلك في الجمادات والنباتات والحيوان والإنسان ؛ فهذا حجر يضرب بالأس ليكسر ، وآخر يتمنى الملوك أن يزيئوا به أيديهم ؛ وهذا نبات تشاق النفس لتشم عقيقه ، وهذا آخر يتحاشى المرء ريحه ؛ وهذا حصان يفتق على خدمته مئات الدنانير ،

ويوضع عليه من باهى الحلل ما يكون زينة للناظرين ، وترى حصانا آخر يجر عربة محملة بالانفال ينوء به حملها ، فوق ما يناله من أذى مساقفه ؛ بل إن في الكلاب ما يأكل مع العطاء ، ويتحلى بسلاسل الذهب ، ويتبذل في فيه ، ومنها ما يضرب بالحجارة ويهلك جوعا .

وإذا انتقلت الى من كرمه الله على عموم مخلوقاته وهو الإنسان ، رأيت الغنى والفقر ، والصحيح والسقيم ، والمبتلى والمعافى ، والعتيم ومن له أولاد ، ومن ينعم برأديه ومن فقد أحدهما أو كليهما ؛ بل رأيت الدكى الفطن وقد ضرب الفقر قبته عليه ، والعبي الجاهل والغنى يسير بين يديه .

فعل تاهت العقول فيه ، وتحيرت منه الأبواب . ولو تأمل المرء في هذا كله لعلم أن الله في ذلك حكما وشتوا ، مرجعها نظام الكون وحسن التدبير للعباد . فلو خلقوا جميعا أغنياء لما وجد التعاون ، وقد شاء الله أن يحمل بعضهم لبعض سخرى ، ليقوم الفقير بمعاونة الغنى في تجارته وزراعته ، ويقوم الغنى للفقير بما يسد خلته ويدفع عنه ألم العاقبة .

ولو وجد الناس جميعا أسحاء لما عرفوا مقدار نعمة الصحة . ومن الحكم الطبية في هذا ، الصحة تاج على رهوس الأسحاء . لا يراه إلا المرضى ، وقل مثل ذلك في كل الفروق الموجودة بين بني الإنسان . ولو كشف العطاء عن المرء ، لعلم أن ما هو فيه خير له مما يتطلع اليه ويتمنى حصوله لنفسه ؛ إذ الذى حاطه برعايته وهو في بطن أمه ، ورباه طفلا ، وأسبغ عليه نعمة ظاهرة وباطنة ، وهو أعلم بما فيه خيره ومصلحته ، هو الذى وضعه هذا الوضع .

فيجب التسليم له والرضا عنه في كل ما يفعله به ؛ والرضا فوق الصبر ، فقد تذكره الشيء ينزل بك ولكنك تعتصم بالصبر فتأجل أجر الصابرين .

ولكن الرضا أن ترى كل ما يفعله بك جيلا ؛ وأن من أحبه مولاه ابتلاء ليظهر للناس مكنون سره ، وهل هو من المؤمنين الراضين عن الله ، أو من المؤمنين الذين يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم . ولينبت ذلك في نفسك ويقر في قلبك . استمع معى الى قول النبي الكريم صلى الله عليه وسلم : إذا أحب الله عبدا ابتلاه ، فإن صبر اجتبه ، وإن رضى اصطفاه . يزيدك يانا أن الشكوى للمخلوقين

من الخالق سبحانه وتعالى ، وإظهار السخط وعدم الرضا عن فعل الله بالبعد ، يخرج بالبعد من حظيرة المؤمنين الصادقين . ترى ذلك واضحاً في قول الله تعالى في الحديث القدسي : إني أنا الله لا إله إلا أنا ، فمن لم يصبر على بلائي ، ولم يشكر نعمائي ، ولم يرض بقضائي فليطلب ربا سواي . .

والصبر على البلاء والرضا بالقضاء هو ثمرة الإيمان ونتيجته ، إذ من وقر في نفسه أن له ربا كريماً عليماً بما يفعله وما يضره ، وأنه أرحم به من الوالدة بولدها ، أيمن أن ما هو فيه خير له مما يتشوف إليه ، وأن من الخرق والجهالة أن يظهر السخط ويشكو الخالق سبحانه لعبيده . بل عليه أن يلجأ إلى ربه في كل ما ينزل به ، كما فعل يعقوب النبي عليه السلام حين فقد ولديه : فقد قال كما يحدثنا القرآن الكريم : إنما أنشكو بشئى وحزنى إلى الله . .

ويعجبني في هذا المقام أن أذكر لك ما قرأته في بعض الكتب ، من أن الله سبحانه وتعالى قال : يا يعقوب أتدرى لم فرقت بينك وبين ولدك يوسف ؟ قال : لا يا رب ، فقال : لأنك قلت لإخوته : وأخاف أن يأكله الذئب وأنت عنه غافلون ، لم خفت عليه الذئب ولم ترجى له ؟ ولم خفت من غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظي ورعايتي له ؟ أتدرى يا يعقوب لم رددت عليك ولدك ؟ قال : لا يا رب ، قال : لأنك قلت : هسى الله أن يأتيني بهم جميعاً . .

فانظر أيها المؤمن بنور قلبك إلى هذه المحاورة الطريفة ، تر أن ربك النبي يحب أن تلجأ إليه في كل شأنك ، وتكل إليه جميع أمرك .

وقد در من أشد عن الله سبحانه . سلم الأمر تجدنا نحن أولى بك منك . . وقد أسلفت لك أيها القارىء الكريم أن الرضا عن الله في كل ما ينزل بك هو ثمرة الإيمان ، بل هو الإيمان على التحقيق .

وأحب أن تستمع إلى السؤال الآتي وجوابه لتزداد إيماناً وإشراقاً ونوراً ، حتى يشرح صدرك وتستريح نفسك ، ويطمئن قلبك لكل ما يفعل الله بك : سأل النبي صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه فقال : ما أنتم ؟ قالوا : مؤمنون . فقال : وما علامة إيمانكم ؟ قالوا : نصبر عند البلاء ، ونشكر عند الرخاء ،

ونرضى بمواقع القضاء . فقال صلى الله عليه وسلم . « مؤمنون ورب الكعبة » .
وفي رواية أخرى قال : « حكاه علما كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء » .
ويأخذ بجماع القلوب ما يروى في بعض الأحاديث القدسية من قول
الله تعالى « إني أنا الله لا إله إلا أنا ، فمن لم يصبر على بلائي ، ولم يشكر نعماتي ،
ولم يرض بقضائي ، فليطلب ربا سواي » .

قد وضع أمام نظرك أمر أنت تسكره ، ولكنه لو كشف عنك الغطاء لرأيت
جميل فعل الله فيما أنكرت .

فقد جرى الإنسان على أن يقيس حسن الأشياء وقبحها على عقله المحدود ،
وفكره المكدود . وأين عقلك عن لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ؟
وسع كل شيء علما ، وهو السميع البصير . ولتدرك ذلك وتفهمه ، أقص عليك
من كتاب الأربعين (للإمام الغزالي) القصة الآتية ، وهي فيما أحسب تثير
أمامك طريق الرضا والتسليم لله رب العالمين :

روى أن نبيا كان يتعب في جبل ، وكان بالقرب منه عين ماء ، فاجتاز بها
فارس وشرب ، ونسى عندها صرة فيها ألف دينار ، وجاء آخر فأخذ الصرة ، ثم جاء
رجل فقير على ظهره حزمة حطب ، فشرب واستلقى ليسريح ، فرجع الفارس
في طلب الصرة فلم يرها ، فأخذ الفقير فطالبه وعذبه فلم يجد عنده ، فقتله . فقال
النبى : إلهي ما هذا ؟ أخذ الصرة ظالم آخر ، وسلطت هذا الظالم على هذا الفقير
حتى قتله . فأوحى الله إليه اشتغل بعبادتك ، فليس معرفة أسرار الملك من شأنك .
إن هذا الفقير كان قد قتل أبا الفارس فكنته من القصاص ، وإن أبا الفارس
قد كان أخذ ألف دينار من مال أخذ الصرة مردته إليه من تركته .

وبعد ، فعقيدة القضاء والقدر ، تدعو الى الشجاعة والتضحية والاستبسال
في الدفاع عن الدين والوطن . ويرحم الله القاتل : وكل شيء بقضاء وقدر ،
وكل مقدور فما منه مفر . ٩

العصر العظيم في تاريخ العالم

• كنفشيوس - جوتامو بودا - زرتشت - فيثاغوراس ، من وجهة نظري تأليفية
تأليف : ف . ستانكا . تعريب : الأستاذ عمر طلعت زهران

• محاضرة خارج المنهج الدراسي ألفت في جامعة هامبورج في التاسع عشر
من ديسمبر سنة ١٩٤٦ . ويجب أن ينظر الى ربط أصل نظريات هؤلاء الأربعة
باستخدام الحديد والاستغلال السياسي كفرض يحتاج الى فحص ونقد .

- ٢ -

إن كلمة « شعور » حين تنسب الى كنفشيوس ، تبدو غريبة غير عادية ، ولكن
هذه الكلمة في أنقى وأسمى معانيها إنما تأخذ مكانها الحق إذا طبقت على تعاليم
جوتامو بودا ، التي تمتلئ من بدايتها الى نهايتها بأعقق المشاعر الإنسانية النبيلة .
وقد ولد جوتامو في الإقليم الجنوبي لسفوح الهملايا ، وكما أن جبال الهملايا تتضام
بجانبها أعلى جبال العالم ، فكذلك تعاليم بودا تتضام بجانب جمالها وعظمتها
وعمقها كل نظم التفكير الإنساني الأخرى ، وهي ليست فوق البشرية وإن كانت
بشرية ، وبشرية جدا ، ولكنها على أية حال تسمو على المثل الأعلى للتفكير الأوروبي .
وكانت العائلة عد كنفشيوس هي نقطة البدء لنظريته الأخلاقية والسياسية ،
وعلى العكس نجد أن جوتامو يبدأ حياته بهجره لعائلته . وهناك أسطورة معروفة
شائعة هي أن أميراً ألقته منظر المرض والشيخوخة والموت ، فقرر أن يبحث
عن الخلاص من ألم الحياة ، فترك في ظلام إحدى الليالي قصره الملكي الباذخ
وعائلته الحبية ليبدأ حياته جَوَّاب آفاق ، فقيراً يحيا حياة راهب سائل ؛ وهي أسطورة
تعد من أروع ما كتب في الأدب العالمي ، وضعت بصورة بسيطة سهلة لها أثر

لا ينسى ، تبدو كأنها قصة خيالية للأطفال ، تظهر فيها أعماق المعاني ، وتناول مباشرة وبصراحة مأساة حياتنا . وما هو معنى الحياة إذا كانت الشيخوخة والموت المحتوم في انتظارنا ؟. ويعتقد بوديو الشمال أن هذه الأسطورة جزء من حياة جوتامو نفسه . أما أهل الجنوب فيعتقدون أنها من رواية جوتامو عن أحد البوذات الأربع والعشرين الذين عاشوا قبله . وعلى أية حال فإن هذه الأسطورة تبين لنا الدوافع الحقيقية لأبحاث وتعاليم جوتامو ، إن لم يكن عن طريق ترجمة حياته ، فمن الطريق البسيكولوجي .

ونجد في محاولة البحث عن الخلاص من الألم والموت ، نقطة الخلاف الثانية مع كنفشيوس ، الذي كان يرفض حتى الكلام عن الموت .

وتقص علينا الأساطير أن جوتامو لم يعرض المشكلة للبحث لحسب ، ولكنه استطاع أن يجد لها حلاً نهائياً . ونعرف من سيرته أنه اتبع طريقين للبحث عن الحقيقة : طريق مخفى ، وطريق صريح : وحاول جوتامو أول الأمر أن يتبع سبل العقيدة المتوارثة والزهد كما كانت العادة في الهد آنذاك . وأمضى جوتاموس سنين طويلاً يروض نفسه على أقصى أنواع الرهد والتقص ، المصحوب بأحر العبادات ، مما كاد يودي بحياته جوعاً . وتحول جسمه إلى كومة من العظام والجلد الناصف حتى شارف الموت ، ومع ذلك فإن هذه الرياضة الجسدية لم تجعل روحه يصل إلى الحقيقة .

ومن هنا عرف جوتامو أن هذا الطريق خداع كاذب ، فأقنع عن صومه الخفيف ، واختار لنفسه طريقاً آخر : هو طريق التأمل العميق والتفكير النقدي . وكان ترك هذه العقائد المتوارثة لا يقل أهمية عن هجره عائلته وبيت آبائه وأجداده ، لأن ذلك كان يمي تقص الدين القديم ومبادئه ، براهما ، وغيره من الآلهة القديمة . ولا يوجد عند البوذية — مثلها في ذلك مثل الكنفشيوسية — تفكير نظري عن كائنات فوق الطبيعة ، لا بالآلهة ولا الإله . فهم جوتامو أن مشكلة الحياة تتمثل في الروح الانساني ، فهو وحده الذي يستطيع أن يشفي غليلنا . ويروي لنا قانون الشمال أنه في هذا اليوم الجديد ووسط عاصفة ترأر ، في ليلة حالكة الظلام ، كان جوتامو يجلس تحت الشجرة المقدسة غارقاً في تأملاته

إذ مر بمراحل الحكمة الأربعة ، كلها ، ووصل أعلى وآخر المعارف ، وهكذا صار المستيقظ ، أو العارف ، أو البوذا . ولكن قانون الجنوب يفص هذه القصة نفسها مع شيء من التمييز يجعلها أقرب إلى الحقيقة : كانت التأملات بين الحفول النضيرة والأشجار المزهرة ، ولم يكن وصوله للحقيقة في مثل هذا الوقت القصير ، بل لقد استمر شهوراً أو سنين .

ويمتد أن جوتامو قد وجد طريق الخلاص من كل آلام الحياة ، من الشيخوخة ومن الموت . ولكن ما هو هذا الطريق ؟ . إن نحن قرأنا كتب البوذية يدهشنا أننا لا نجد حلاً واحداً فقط ، بل نجد حلين على الأقل : أحدهما تراه البوذية النظرية المتوارثة هو الحل الصحيح ، وهو أن الألم والحياة توأمان ، وعلى ذلك فإن منبع الألم إنما يوجد في تعلقتنا بالحياة ، وفي الظلمة اللاشعورية المظلمة غير العقلية أى الرغبة في الوجود ، فيكون التخلص من الألم هو بالتغلب على هذا الظلمة وتحطيم القيود التي تربطنا بالحياة ووآد الرغبة في الوجود . ويمتد الموت في حالة واحدة هي ألا تولد من جديد . فالعالم الأكبر هو : انحلال إلى لا شيء ، الاختفاء الأبدي ، حالة النرفانا ، دون ولادة جديدة ، ومن ثم دون موت آخر .

وهذا النظام من نظم التفكير الذى يبدو في الحقائق الأربعة السامية ، يمثل أبعد أنواع التشاؤم في فهم الحياة البشرية ، ويمثل ذروة اليأس وخيبة الأمل الإنسانى . وعلينا أن نلاحظ أن البوذية تفوق الفلسفة الأوربية في هذا المضمار . ويكفى أن نقرأ النصوص التي تبين نكران الحياة ، لتحقيق قوتها الغالبة التي لا تقاوم . وإن الإنسان ليقف حائراً مبهوراً الانفاس أمام اليأس الكلى المدمر الذى يشيع في تلك النصوص ، يقف حائراً إن هو لم يجد فيها ترياقاً لهذا السم الروحاني القاتل : ففي نصوص أخرى لجوتامو بل في النص الواحد يتبين الفرد خطوطاً من الدور تنحصر عن فهم آخر للعالم ، ليس هو النكران ، بل هو تأكيد الحياة ، تقدير أعلى وعناية أكبر بالحياة ، ليست هي الحياة الإنسانية لحسب ، بل وحياة الكائنات الأخرى أيضاً . ويفسر لنا هذا الفهم المتعارض ، الأشياء الثمينة في الطريق القويم ، و النظريات الأخلاقية العشر^(١) .

وقد يسأل الفرد مدهشاً : أى هذين العهدين للحياة هو الأصح ؟ ولن نجد جواباً شافياً لهذا السؤال فى النصوص نفسها . فالذى فى هذه النصوص هو التحذير من العهم الخاطيء . وفى أحد هذه الخطب الجميلة مثل جوتامو تعاليمه بشعبان ، فإذا ما قابل صياد الثعبان وأمسك به من جسمه أو من ذنبه ، فإن الثعبان سيقف ويلدغ صائده فيموت أو يقاسى أشد الألم ، ولماذا ؟ لأنه أمسك بالثعبان بطريقة خاطئة . وقد يناهل الثعبان صائد آخر فيمسكه بمصا خاصة تضغط على رأسه وتجبره على البقاء على الأرض ، فلا يستطيع الثعبان أن يلدغ صائده ، فليس يخاف الموت أو الألم . ولماذا ؟ لأنه أمسك بالثعبان بطريقة صحيحة . وهنا يعترضنا سؤال من أهم الأسئلة فى التاريخ الإنسانى : هل أخذت البوذية النظرية المتوارثة نظرية جوتامو أحذاً صحيحاً ؟ إن فتور البوذية الحالية المظلم الذى حل محل عظمة ذبورها السابقة ، يصطرننا الى الشك الجدى فيها . ولندع هذا السؤال الى حين .

كما نبحث

الرأى العصرى

الجلال الحر والحسب	أبر والاحسان يُفتصب 111
نحن فى عصر شمائله	تُجل ما تلهو به الشعب
الهدى فى حبه خفى	والحجا فى طوعه صخب
عزت الرضى فلا أنف	يعطف المولى ولا أدب
عزة السامى برقه	حين ساد العود لا الخطب

هذه الآراء لينة	دون رأى الحر مُنتخب
شر ما فى الراى من ترف	أه كالحسن يُستلب
حسب خطاه على شره	أصل فضائه عجب
ضل رأى ظل يمكنه	عسجد الشارين والرتب
ويلنا للحق ساحره	كميون الفيد ينتقب

« السيد »

دراسة جديدة في البلاغة العربية :

أسرار الفصل والوصل

بين المفردات والجمل

لمضية الأستاذ الشيخ أحمد محمد سلو

المدرس بالأزهر

أحكام المفردات

(١) الاتحاد في المفردات :

١ — الفاعل : مثل قام محمد : الصلة مستفادة من لفظ قام ، ولفظ محمد جاء لبيان فاعل ذلك القيام : فالصلة في اللفظين واحدة : اللفظ الأول يفهمها ، والثاني يفهم فاعلها والمتصف بها .

و، اقل في ذلك يقال في المفعول والظرف .

٢ — المبتدأ والخبر : مثل محمد قائم : قائم تفيد الصلة ، ومحمد هو الموصوف بتلك الصلة : فالمسألة هنا كما تقدم .

نعت الخبر أو الخبر المتعدد :

إذا قيل : محمد شارب ماش فليس معنا في : شارب ماش ، إلا صلة واحدة هي الإخبار بمجموع هذه الصفات ، أو بعبارة أخرى : الخبر هو الكلمة الأولى وكل كلمة بعدها صفة لما قبلها . وكان المراد اتصاف المبتدأ بهذه الأوصاف دفعة واحدة . ولا يشكل علينا أن نطلق مرة أخرى ، فنقول : محمد شارب وماش فإننا في هذه المرة لم نراع أن ماش صفة لشارب ، وإنما راعينا أن نحبر مرة

بشارب ، ثم نخبر بنجر آخر وهو ماش . وكان المراد تكرار الصلة وهي الإخبار ، وصح حيثئذ أن يكون وقت شربه غير وقت مشيه .

يدلنا على هذا قولهم ، الرمان حلوا حامض ، ، فلا يصح ذكر الواو ، لأنه لا يصح اعتبار تفرقها . فالمراد أن الطعمين بمنزلة : فأتبع ذلك طعما جديدا وهو المزوجة ، فلا بد من اعتبار حامض صفة لحلو حتى تبرز الصفات .

وجاءت الواو في قوله تعالى : ، هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، لأنه تعالى راعى أن مظهر أوليه ليس هو مظهر آخريته ، ومظهر كونه ظاهرا ليس هو مظهر كونه باطنا ، فلم يعطف لكان الآخر صفة للأول ، والباطن صفة للظاهر ، فينشأ عن ذلك اتحاد المظهر ، وليس هو المراد .

ومثل هذا وإن كان الاتحاد والتكرار في التبع لا الخبر ، قوله تعالى . عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات قانتات ثابتات عابدات ساجدات نيات وأبكارا . فانظر كيف راعى سبحانه وتعالى الدقة التامة في تعبيره ، فحذف حرف العطف في الألفاظ الواقعة على ذات واحدة للدلالة على اتحاد الوصف بمدلولها ، وأن الزوجات المسلمات ليست غير الزوجات المؤمنات ، وهكذا إلى آخر الصفات ، وأن المراد الوصف بها كلها دفعة واحدة ، كما أخبرنا بحلو وحامض دفعة واحدة : فحذف حرف العطف يدل على اتحاد الوصف .

وجاء بالواو بين الصفتين اللتين لا يمكن اجتماعهما في ذات واحدة للدلالة على تعدد الوصف ؛ فإن الثيب لا يمكن أن تكون بكرا ؛ ولذلك جاء بالواو لتلا تكون أبكار صفة لثيبات ، فينشأ عن ذلك الاتحاد كما في الألفاظ المتقدمة ، فكأنه قال : أزواجا نيات وأزواجا أخرى أبكارا . فتعدد الوصف وتكراره مرة بثيبات وأخرى بأبكار هو التكرار المقصود .

وإذا تبعت بنية المتحدثات لا تجد لها إلا كذلك : الصلة واحدة لم تتكرر ، وهذه الألفاظ اللاحقة لم تنجى إلا لبيان أحدث أو الذات .

٣ - بيان الحدث :

المفعول المطلق : مثل ضربت محمداً ضرباً . فعند ما نقول : ضربت ، احتمال ذلك الحقيقة والمجاز ، فنجىء ضرباً لئيبين أنه حقيقة وليس فيه تهوؤ ، ولم يقد اللفظ الثاني ضرباً جديداً ، وإنما جاء ليشرح ويوضح المراد من اللفظ الأول : وكما يقال في هذا يقال في ضربته مرتين ، الى آخر أنواع المفعول المطلق .

المفعول لأجله : مثل : قت إجلالاً لك : الصلة هنا هي القيام ، تعميم من اللفظ الأول بمطوقه ، ومن الثاني بطريق اللارم من باب ذكر السبب وإرادة المسبب . وسنعود الى مثل ذلك في ، وما أبرئ نفسي ، الخ .

٤ - بيان الذات :

يكون بيان النوع ، وذلك في التمييز .

وهكذا نجد في كل التوابع تمة لمتبوعاتها ، ولا تفيد تكرار الصلة ، والحال كالمعت .

(ب) التكرار في المفردات :

تقدم تعريف التكرار والتثيل له ، غير أني أنه ما الى أن واو المفعول معه كواو العطف تدل على تكرار الحكم : فإن قلت : سرت والبيل ، فالعنى : سرت مصاحباً البيل : فهذا تعدد الحكم على معنى المعاملة ، فتحققت من جانبك بالتزامه حين سيرك ومن جانبه بامتداده .

أحكام الجمل

العبرة بالصلة حذفاً للواو وذكرها ، ولا عبرة كما ذكرنا أولاً بالخبرية أو الإنشائية : فإذا كانت الصلة واحدة حذفنا حرف العطف ولو اتحدنا خبراً وإنشاء : وإذا كانت متكررة عطفاً ولو اختلفا خبراً وإنشاء .

وانظر كيف أجاز النحويون عطف الخبر على الإنشاء ومنعه البلاغيون ، وأرى أن من العبث أن يوجد رأى لأهل اللغة يستند على الوارد ، ورأى آخر يخالفه لأهل

البلاغة لا يستند إلا على مجرد قواعدها كان يجب أن تخضع للوارد، لا أن يخالف الوارد من أجلها. وهل يرد كلام في القرآن وفي فصيح القول ثم تحكم البلاغة بخلافه؟ إذن فأى بلاغة هذه؟

فقد ورد . حسبي الله ونعم الوكيل ، وقوله تعالى : « ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق » وجوز مسيويه . هذا زيد ومن عمرو ؟ وإذا قلت : اسمع يا فلان ، ذهب على ، وأحصر الكتاب ، فقد عطمت الإنشاء على الخبر ، لأنهما اشتركا في طلب السمع والألغات إليهما . ولا يعترض بأن المسموع هو اللفظ ، واللفظ من حيث هو لا يحمل معنى الإنشائية والخبرية ، إذ لا يعقل أن يراد اللفظ وحده خاليا من معناه ، بل إن اللفظ لم يؤت به إلا لما يحمله من معنى ، فهما جملتان اشتركتا في أن المتكلم يوجههما إلى المخاطب فتلقاهما الأذن صوتا ، والذهن معنى .

الاتحاد في الجمل :

ما يقال في المفرد من أعداد الأنواع فيه ، يقال في الجملة التي تحمل محل المفرد كالجملة الخبرية الخ .

ثم هلينا أن تأتي بأثلة لجميع الأنواع من كمال الانقطاع الخ ونشرح اندراجها في القاعدة الجديدة ، وقيل أن نشرح في ذلك نشير إلى أن السبب لعدم تفهيم إلى قاعدتها هو أنهم لم يراعوا الدقة التامة في الفروق بين التعبيرات وما يترتب على حذف حرف أو ذكره من اختلاف في المعنى كما سيأتي في شرح . وما أبرىه نفسى ، الخ ، ولم ينتبهوا إلى أن الجملتين المتجاورتين فيما ظنوه مختلفاً من هذه الأمثلة الآية ترميان إلى هدف ومعنى واحد ، إحداهما بطريق الصراحة والأخرى بطريق التأويل ، ولكنهم اكتفوا بظاهر اللفظ ووجدوه مختلفاً خبراً وإنشاء ، فذهبوا إلى ما ذهبوا إليه مما حاد بهم عن الصواب . والحقيقة أن في كلا المتجاورين معنى واحداً يفيد اللفظ الأول في شيء من العموم ، ويفيد الثاني خصوصاً بعض الأوصاف ، وإن كان ذلك كما ذكرنا بطريق التأويل والحذف ؟

« يتبع »

أبو طالب بن عبد المطلب

لفصيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الحميد محمود المسلوت
المدرس في كلية اللغة العربية

رجل من أكرم الرجال، وأقوام عزيمة، وأصلهم شكيمة، وأنفذهم مضاء،
وأشدهم ذكاء، وأبدهم همة، وألمهم حكمة.

آزر رسول الله صلى الله عليه وسلم في بدء دعوته، ووقف إلى جانبه إبان محنته،
لم تلن قناته، ولم يتزلزل ثباته، ولم يُضمف من نصرته لإجماع العرب على حربه
ولإطباقهم على مقاطعته.

كان أبوه عبد المطلب راجع العقل، شديد الفكر، واضح الرأي، شديد المهابة،
تخشاه قريش وتعظمه، وكان يعرش له حول الكعبة، فيجلس ويجتمع إليه رؤساء
قريش، ولا يستطيع أحد أن يجلس على فراشه أو يظأه بقدمه.

وفد مع قومه على سيف بن ذي يزن، فكان المقدم فيهم، الناطق بلسانهم،
وخطب بين يديه خطبة بليغة فأعجب به حين تكلم، وقال له: أيهم أنت؟ قال
عبد المطلب بن هاشم. قال ابن أختنا^(١)؟ قال: نعم، فأدناه وقربه وأقبل عليه
وعلى القوم وقال: مرحبا وأهلا، وناق ورحلا، وملكاً رجلاً، يعطى عملاً
جزلاً: قد سمعنا مقالتكم، وعرفنا قرابتكم، فلكم الكرامة ما أقمتم، والحباء إذا
رجعتم، ثم ومب لم ولعبد المطلب هيات جزلة.

وكان عبد المطلب كذلك شديد الإيمان بالله، عظيم الثقة به، عادلاً منصفاً،
يكره الظلم والجور، ويمقت الطغيان والعدوان، ويأمر أولاده بالعدل وترك البني،
ويحشم على مكارم الأخلاق، وينهاهم عن دنيئات الأمور، وكان يقول: لن يخرج
من الدنيا ظلوم حتى ينتقم منه وأصبيه عقوبة، إلى أن هلك رجل من أهل الشام
تسامع الناس بظلمه ونفيه ولم يروا مظهرًا من مظاهر الانتقام لحقه في دياره، فقيل

(١) كانت أم عبد المطلب يمانية.

في ذلك لعبد المطلب، ففكر وقال : والله إن وراء هذه الدار دارا يمرى فيها المحسن بإحسانه ، ويعاقب المسيء بإساءته .

ولما قدم أبرهة الحبشي بجيشه وقيته لهدم الكعبة ، تخوف الناس واضطرب الجميع ، وملكهم الوجع والهلع . ولكن عبد المطلب ظل ساكن النفس رابط الجأش ، يمثل صدق إيمانه وشدة ثقته بربه في قوله وقد أمسك باب الكعبة :

لا تُهمّ إن المرء يمسح رحله فامسح رحالك
لا يغلبن صليبهن ومخالم أبداً بحالك
جروا جموع عيالم والفيل كي يسبوا عيالك
عمدوا حماك بكيدهم جهلا وما رقبوا جلالك
إن كنت تاركهم وقبـلـتـنا فأمر ما يدالك

وقد قابل أبرهة بعد ذلك وتقدم لديه بعظمة الرؤساء وشهامة الرجال فسأله عن طلبته : قال له : ليس لي ولقوى طلب لديك إلا أن تردوا إلينا ما أخذتم من الإبل . فدهش أبرهة وقال له جئت تسكنني في شأن البيت أو في شأن الإبل ؟ فقال عبد المطلب : أنا رب الإبل ، أما البيت فله رب يحميه .

ورث أبو طالب عن أبيه سماحة النفس ، ورحمة القلب ، ومهابة الرؤساء ، وقوة الإيمان ، فكان أحد الدين سادوا في الجاهلية مع الإقلال . فقد شهر عنه أنه كان قليل المال ، الأمر الذي اضطره إلى ترك السقاية لآخيه العباس ، والذي جعل أباه عبد المطلب يشفق لحاله حين عهد إليه بالقيام على محمد بن عبد الله بعده ، ويورد أن يشرك معه في ذلك أحد إخوته وهو الزبير ، لولا إباءه وترفعه . وقبل أن تجتمع القلة والسيادة إلا لمثل أبي طالب ، ومن هم في سمو روحه ونبل خلاله .

وإن المدارس لخلال هذا الرجل ليأخذ العجب الشديد حين تقاطعه من سجاياه تلك الحصانة النفسية التي أبعدته عن الدنيا ، وصرفته صرفاً شديداً عن الصغار ، وأكسبته على قلة ماله ورقة حاله سيادة ورياسة وتقديماً في قومه وعشيرته ؛ فقد حرم على نفسه الخمر كأييه ، إيماناً به بجرمها على العقل ، وامتثالاً لكرامة الرجال . وهو أول من سن القسامة في الجاهلية في دم عمر بن علقمة ، ثم جاء الإسلام فأقرها . وكان أغر ميمون القبية ، يبعث في النفوس دائماً الثقة وحسن المأل .

شهد بعض أيام الفجار ، وكان يحصرها معه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يومئذ غلام ؛ فإذا حضر أبو طالب هزمت قيس ، وإذا لم يحضر دارت الدائرة على كساة . ولما رأت ذلك كساة رغبت إلى أبي طالب ألا يغيب عنهم ، ففعل .

واستغل بالتجارة في الجاهلية ، فكان مثال الصدق وحسن المعاملة وشدة القناعة . وقد حبه الرسول صلى الله عليه وسلم في أسفاره ، وقد شاهده أحد الكهان معه في بعض رحلاته ، فقال : إن هذا الغلام سيكون له شأن في تاريخ العالم ، وأخبر أبا طالب أنه يخشى عليه عدوان اليهود وكيدهم ، يخاف عليه ويرجع به .

ولما مات أبوه ورث عنه السقاية والرفادة ^(١) كما نهض مكانه في كفالة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، فبذل له من ذات نفسه وشدة عطفه وبره ما يدل على طبع أميل في الخير عريق في البر والرحمة . كان يخصه بأحسن الطعام ولا يأكل إلا معه ولا ينام إلا إذا كان إلى جانبه ، ولا يسافر لتجارة إلا كان في صحبته .

ولا شك أن هذه الرعاية العظيمة كان منشؤها ما تجيش به نفسه من خواجج الرحمة ويحاط قلبه من عواطف البر والحنان . وإن كل مسلم ليحس في قرارة نفسه الحب والإكبار لهذا الرجل الذي وقف كالصخرة العاتية لا يفزع منها عدوان على رسول الله ولا صد لدعوته ولا تعويق عن أداء رسالته ، وطالما حاولوا أن يصدوه عن حماية محمد ومنعه ، تارة بالإقناع والملاية ، وطورا بالوهيد والتهديد والمقاطعة ، فأجدت معه حيلة ، ولا نفعت لديه وسيلة .

ويشاء الله مع هذا الحب العظيم لمحمد ، ومع تلك الرعاية والحياطة ، ومع ما لاح له من الآيات واتضح من العلامات ، ألا يدخل في هذا الدين ؛ وذلك من أعاجيب القدر . ولقد أثر عنه أنه كان يقول :

ولقد علت بأب دين محمد من خير أديان البرية ديناً

(١) السقاية : سقيا الطحيج أيام الموسم حتى يتمرقوا ، وكانوا يصمون حياتنا من آدم توضع هذا الكعبه وينقل إليها الماء العذب من الآبار وربما تذف فيها التمر والزبيب . والرفادة : طعام المحتاج أيام الموسم

ورأى ولده علياً ذات يوم يصلي فسأله ماذا يصنع ، فلما نبأ قال له : أما إن محمداً لا يدعوك إلا إلى خير فالزمه . وافتقد الرسول ذات ليلة فلم يجدّه ، وكان يخشى أن تقتله قريش ، فخرج ومعه ابنه جعفر يبحثان عنه حتى وجداه في بعض شعاب مكة يصلي وعلى عن يمينه ، فلما رآهما على هذه الحالة عليه التأثر فبكى وقال لولده جعفر : تقدم وصل جناح ابن عمك . فأسلم جعفر في الحال . وكان إذا رأى النبي صلى الله عليه وسلم أحياناً يغلبه البكاء ويقول : إني إذا رأيتك ذكرت أخى . وكثيراً ما كان يخاف عليه إذا هرب مضجعه ، فكان يقيمه ليلاً من منامه ، ويضع ابنه علياً في مكانه .

ومع هذا كله فلقد دعاه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الدين ، وكان شديد الحرص على إسلامه توافاً إلى أن يسمع منه كلمة يشهد له بها عند الله ، ولكنه امتنع وقال : يا ابن أخى إني لا أستطيع أن أفارق ديني ودين آبائي وما كانوا عليه ، ولكن واقه لا يخلص إليك شيء تكرهه ما بقيت .

وظل كذلك على رأيه وموقفه حتى عند موته ، إذ طلب منه الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقول كلمة يلتقي بها ربه فامتنع وقال : لولا أن تقول العرب إن أبا طالب جزع عند الموت لأقررت بها عينك .

ولعل موقفه هذا وتمسكه بدين الأشياخ هو الذي جعل لصهرته محمد فقيماً وعظماً من شأها ، وجعل لها خطرها وجلالها بين القوم . فقد كان إعزازه للنبي وحفاظه عليه ووقوفه إلى جانبه باسم العصية لا باسم الدين ، وبحافز من القرابة لا من المشاركة في العقيدة . وهذه ناحية لعلها توحى إلى البعض أن يشاركه فيها أو حتى على الأقل يفضى عنه تقديرها في نفسه . والله في خلقه شئون .

وطالما فرع إليه رؤساء قريش قائلين : إن ابن أخيك قد سب آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا ، وحلل آراءنا ، فإما أن تكفه عنا أو نخلى بيننا وبينه . ولكنه كان يصرفهم بالقول اللين ، إلى أن استفحل شرهم ، وعظم طغيانهم ، واشتد غيظهم ، فطلبوا من أبي طالب إما أن يكفه أو يشاركونه وإياه حتى يهلك أحد الفريقين .

ها يقف أبو طالب في موقف محير مجهد : هؤلاء قومه قد توعدوه بالإجماع على حربه وعداوته ولا طاقة له بذلك ، وهذا ابن أخيه الذي يعلم أنه يدعو إلى الحق وإلى طريق مستقيم في حاجة إلى النصرة والمساعدة ، وهو لهذا لا يستطيع خذلانه ، ولا تطيب نفسه بإسلامه .

وأخيرا وبعد لحظات تراكت فيها همومه وتزاحمت آلامه ، بعث إلى محمد وقال له : يا ابن أخي إن قومك جاءوني وتكلموا في شأنك ، فأبى علي وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق . فظن الرسول أن عمه ملّ من نصرته وضجر من حمايته وضعف عن القيام بدونه ، فأطرق هنيهة ثم قال : والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه ... ثم عليه التأثر فاستعبر باكيا وقام من لدنه . هنا تعال على أبي طالب بواعث الرحمة وعواطف البر والحنان فيناديه ثانية فيقبل ، فيقول له : يا ابن أخي اذهب فقل ما أحببت ، هو الله لن يصيبك منهم أذى ما حيت ١ .

وكان هذا موقفا جديرا بأن يُحفظ عليه رجال قریش ويثير نائرة أئمة الكفر ، ولكنهم عرضوا عليه أمرا عليهم يستبقون مودته ويحفظون صلته : جاءوا إليه بمارة بن الوليد وكان أنهدقى وأجمل شاب منهم ، وقالوا له : حذ عمارة هذا فهو لك وأسلم إلينا محمداً لنقتله فإنما هو رجل برجل . ولكنه يلتفت إليهم هازما ساخرا مستخفا بهذا التفكير السقيم والرأى العليل ، ويقول : يا معشر قریش واقفوا ما أنصتموني : تعطوني إياكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه ١ هذا واقف ما لا يكون أبدا . فقال له صديقه المطعم بن عدي : يا أبا طالب ما أراك تزيد أن تقبل من قومك شيئا . لعمرى لقد جهدوا في التخلص مما تكره ، وأراك لا تصفهم . فنظر إليه أبو طالب عاتبا وقال : والله ما أنصفوني ولا أنصفتي ، ولكنك قد أجمعت على خذلاني ومظاهرة القوم علي فاصنع ما بدا لك . وما يدخل أبو طالب في صراع عنيف وجهاد مرير مع قومه ، يصاولهم بإيمانه ويقينه ، ويقارعهم بلسانه وبيانه ، ويحمل منهم ما ترو به العصبة أولو القوة ، لا يضعف ولا يتردد ولا يتعادل . ومنفصل ذلك إن شاء الله في المقال التالي ؟

مدرسة النقد الادبي

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ عبد السلام أبو العجا سرحان
المدرس بكلية اللغة العربية

مقاييس النقد الادبي .

نشأت مدرسة النقد الادبي كما أسلفنا في العصر الجاهلي ؛ وكان عمادها الاول الذوق الادبي الخالص ، ثم اتسمت أرجاؤها بتوالي الايام وتعاقب الحقب . وطبعي أن تعدد فيها الآراء إلى حد التضارب ، لأن الادواق متباينة ، والعوامل المختلفة من سياسية ودينية واجتماعية تؤدي عملها في صحت وسكون ؛ ولهذا كان من الصعب وضع مقياس أدبي واحد على وجه الدقة ، يرجع إليه في الحكم على الآثار الادبية ، وإن وجد هذا المقياس جدلاً فمن المستحيل إمكان الموازنة بين آلاف الشعراء وآلاف الآلاف من الآيات الشعرية ، حتى نعرف من أشعر الشعراء ؟ وما أمدح أو أهمل أو أغزل بيت قاله العرب ؟ الخ ، كما يحلو لكثير من العلماء والنقاد أن يفعلوا .

وإذا كان من المتعذر - كما يقول الآمدي (ص ١٧٨ موازنة) - أن يحكم بين عشرة آلاف جارية مختلفة الاجناس والالوان والجواهر ، فأشد إحالة أن نحكم بين مثلها في العدد ، أو أكثر منها ، من الآيات الشعرية ، أو الشعراء .

فهذه الناقد من أشق المهام ، خصوصاً إذا تحرى الإنصاف والعدالة ؛ وقليل ما هم أولئك المصفون . وقد اتجهه النقاد اتجاهات مختلفة ؛ وتأثروا بعوامل كثيرة خارجة عن ميزان النقد الادبي ، ووقفوا تحت مؤثرات نفسية وسياسية ودينية ، وتجهتهم توجيها بعيداً عن الحق والصواب .

وبالبحث المنصف يلنس لبعضهم عذراً إذا أغضى - في نقده - عن بعض المآخذ ؛ فللشعراء ألسنة حداد تمرق إهاب أي ناقد يتعرض لهم سوء . وقد ذكرنا فيما سبق كيف جابه حسان التابعة بقارص السكلم لأنه فضل عليه الالهني ؛ فبالك بالامر في العصور التوالي ، حيث اشتد النقد ، وولع الشعراء في أعراض الناقد . وقد فطن عمر لهذه الحاجة ؛ فلم يتول حكماً بين الشعراء وكل ذلك إلى حسان كما تقدم . وهما جرير كثيراً من الناس لاهم فضلوا عليه الفرزدق . وحادثة بشار

مع الاخفش حين نقده معروفة مشهورة، [٣ ص ٢٠٩ أعاني دار الكتب]، وكذلك مجاوزه لسيويه حين لم يستشهد بشعره [ص ١٤٠ رسالة الغفران] . وقد سئل أبو عبيدة . أي الرجلين أشعر : أبو نواس أم ابن أبي عبيدة ؟ فقال : أما لا أحكم بين الشعراء الأحياء ؛ فقبل له : سبحان الله : كأن هذا ما تبين لك ؛ فقال : أنا ممن لم يتبين له هذا [ص ٩٠ عمدة] .

وقال المتوكل لحدويه القديم : أيهما أشعر ؟ يعني مروان بن أبي حفصة ، وعلى ابن الجهم - وكان مروان أثيراً عند المتوكل - فقال : يا أمير المؤمنين طرحتني بين لحي أسدين . قال : لتقولن اقال : أعزفهما بالشعر أشعرهما ، فقال المتوكل : يا علي قد حكم عليك ، قال : علم رأيك فيه مساعدك . [ص ٩٧ جمع الجواهر] .
وكلام المتوكل هذا يدلنا على تأثير العلاقات الخاصة في النقد . ومن الشاق على ناقد متدين أن ينصف شاعراً ما جئنا خليعاً ولو كان شعره في أعلى الطبقات ، وصعب على الشر تجريد أنفسهم عن الأهواء الشخصية والنزعات السياسية والدينية ؛ فالبشر هم البشر ، وسيظلون كذلك الى يوم المآب .

ويعجبني في هذا المواطن قول السيوطي : فأما الاختيار الذي يراه الناس للناس فشهوات ؛ كل يستحسن شيئاً . [٢ ص ٢٩٢ مزهر] وقوله في مكان آخر بعد أن سرد آراء كثير من النقاد فيمن هو أشعر الناس . وهذا يدل على اختلاف الأهواء وقلة الاتفاق [٢ ص ٢٩٩ مزهر نقلاً عن ابن رشيق ١ ص ٨٠ عمدة] .
ومن آثار ذلك تناقض النقاد في حكمهم على الأثر الأدبي الواحد ؛ سأل المهدي المفضل الضبي عن أمدح بيت قالته العرب ، فقال : قول الخنساء :

أغر أبلج فأنتم الهداة به كأنه عظم في رأسه نار
فاستحسن ذلك منها . ثم جاء ابن الرومي فاستهجن هذا المعنى بقوله :

هذا أبو الصقر فردا في محاسنه من نسل شيان بين الضال والسم
كأنه الشمس في البرج المنيف به على البرية لا نار على علم
وقالوا : أمدح بيت قالته العرب قول زهير :

تراه إذا ما جئته متعبلاً كأنك تعطيه الذي أنت سائله

وعابه بعضهم بأن فرح الممدوح بعرض بيله ليس شأن كبير المهمة [١ ص ٢٩ ديوان المعاني] . والمثل في ذلك كثيرة .

ومن آثار ذلك أيضا جرأة النقاد على تعيير بعض الكليات لغدات تلوح لهم :
قال الأصمعي : قرأت على حلف الآخر بعض شعر جرير ، فلما وصلت إلى قوله :
فيالك يوم حيرة قبل شره تميب واشيه وأقصر باطله

قال : ويحه ! ما ينفعه خير يؤول إلى شره ؟ فقلت : هكذا قرأته على أبي عمرو
ابن العلاء . قال صدقت ، وكذا قال جرير ، وكان قليل التفتيح لالفاظه ، وما كان
أبو عمرو ليقرئك كما سمع . ثم قال : الأجود أن يكون ، خيره دون شره ،
فأروه كذلك ، وقد كانت الرواة قديما تصلح أشعار الأوائل ، فقلت : واه
لا أرويه إلا كذلك [١ ص ٣٥١ ديوان المعاني ، ص ١٢٥ موشح] .

وقد خطأه ابن رشيد في هذا الإصلاح [٢ ص ٢٣٦ عمدة] وقال :
إن الشاعر أراد أنه كان ليله في وصال ثم فارق حبيبه نهارا ، وخلف جعله لم يفارق
فغنى عليه المعنى .

والمعجب من هذا أن يناقض الناقد نفسه ، فيصدر حكما ثم ينقضه بعد ذلك
اتباعا لشهوته ! أشد جحظة أمام الأصمعي قوله :

هل إلى نظرة إليك سيل فيروى الصدى وبشي الغليل
إب ما قلّ منك يكثر عندي وكثير ، تحب القليل

فقال : لمن تشدني ؟ قال : لبعض الأعراب ، فقال والله هذا هو الديباج
الحسرواني ! قال إنهما ليلتهما ، فقال : لا جرم والله إن أثر الصنعة باد عليهما !
[ص ١٠ ، موازنة] .

أما اختلاف النقاد في أشعر بيت أو أشعر شاعر ، فذلك بحر لا ساحل له ،
وليس له مقياس إلا الأذواق المختلفة والاعتبارات المتباينة ؛ قال ابن رشيق :
« والشعراء أكثر من أن يحاط بهم عددا ، ومنهم مشاهير قد طارت أسماؤهم ،
ولكل واحد منهم طائفة تفضله وتعصب له ، وقلبا يجتمع على واحد . [١ ص ٧٦
عمدة] وقال ابن عبد ربه : « وهذا مما لا يدرك غايته ولا يوقف على حد منه » .
والشعر لا يفوت به أحد ولا يأتي منه بديع إلا أن ما هو أبدع منه ، وفيه در
القاتل : « أشعر الناس من أبدع في شعره . [٦ ص ١٢٣ العقد الفريد] .

تقرير عن كتاب الفرقان

مرفوع الى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر
شيخ الجامع الأزهر

أصدر حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد ءأمون الشناوى شيخ الجامع الأزهر قراراً بتأليف لجنة من حضرات أصحاب الفضيلة الاساتذة : الشيخ محمد محمد المدنى المفتش بالأزهر ، والشيخ محمد هلى النجار المدرس بكلية اللغة العربية ، والشيخ عبد الفتاح القاضى المدرس بمعهد القراءات — لبحث كتاب « الفرقان لابن الخطيب » الذى ألفه محمد محمد عبد اللطيف أئندى ، وإبداء الرأى فيه .

وقد وضمت اللجنة هذا التقرير ورقعته الى فضيلة الأستاذ الاكبر .

بسم الله الرحمن الرحيم :

حضرة صاحب الفضيلة مولانا الأستاذ الاكبر شيخ الجامع الأزهر .
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أما بعد : فقد قنا - تنفيذاً لأمر فضيلتكم - يبحث كتاب « الفرقان لابن الخطيب » الذى ألفه محمد محمد عبد اللطيف أئندى ، ومراجعة تقرير شيخ المقارىء عنه ؛ وقد عقدنا لذلك عدة جلسات ، وانهينا إلى التقرير الآتى :

مقدمة

فى مثل هذه الأيام من العام الماصى تسامع الناس أن ناشأ فى إحدى البيئات العلمية المدية ، رى القرآن بقول باطل ، واجترأ عليه بما لم يجترئ به أحد من قبل ، فرغم أن ما به من القصص ما هو إلا تمثيل وخيال لا حقيقة له ؛

ولم يقف في ذلك عند قصة أو قصص بعينها ، ولكنه طرد هذا الشأن في كل ما قصه القرآن الكريم ، سواء في ذلك ما جاء عن الأنبياء والرسل والامم ، وما جاء عن غيرهم ؛ ثم لم يقف عند القصص القرآني ، بل طرد هذا الحكم — الحكم بالتخييل والتخييل — على غيره مما جاء في الكتاب الكريم من أوصاف ونسب ، ماضية كانت أو مستقبلية ، زاعماً أن القرآن ليس فيه ما يدل على أن حوادث هذه القصص تلتئم مع الواقع الفعلي أو لا تلتئم ، وأن هذه النسب والأوصاف تصدق أو لا تصدق ، وإنما هو أسلوب قصده به غرس فكرة وراء ما تدل عليه الألفاظ بمعانيها اللغوية المعروفة ، أو مشايعة للواقع النفسي الذي كان سائداً عند المعاصرين استعلالاً لمعلوماتهم وإن لم تكن صحيحة في سبيل الدعوة التي جاء بها .

اجترأ هذا الناشئ على القول بهذه الفرية ، وأن يرى بها أقدس ما يقدمه المسلمون ، وهو كتاب الله ، بما يزلزل عتيدة الناس فيه ، ويشككهم في معانيه ومرامييه . وقد أثار هذا العمل الجريء نائرة المؤمنين ، واستنكره كل ذي عقل وتبصر ، وتكاتف أهل الدين والدولة على درء شره وإطعام فتنه .

واليوم — يا صاحب الفضيلة — ينبت نابت آخر ، فيجترئ على زعم باطل وفرية منكرة ، وعدفه الذي يرى إليه هو هدف صاحبه من قبله . كتاب الله .

غير أنه لا يتحدث عن معانيه ومرامييه ، ولكن عن رسمه وألفاظه وتلاوته ؛ فيشكك المسلمين في ذلك كله ، ويوهمهم أن كتاب الله لم يكن موضع تحقيق ودقة في كتابته وأدائه وروايته ، وأن ما توارثوه من ذلك إن هو إلا خطأ وضلال مبين .

ومن العجيب أن صاحب الفرية الجديدة ، لم ينبت كسابقه في محيط على ، ولم يعرف له أثر يدل على التفكير والبحث والرغبة في معرفة الحق ؛ ومع ذلك تعرض لشأن من أدق الشئون المتصلة بكتاب الله ، فألف ما سماه " الفرقان لابن الخطيب " . وفي هذه النبة إيهام للقراء بأن هذا الكتاب لعالم قديم من علماء المسلمين يعرفه الناس بالدقة والبحث وشدة المعارضة وقوة التفكير . وقد اغتر بذلك فعلا كثير من القراء ، فاشترؤا الكتاب على هذا الظن ، ثم تبين لهم أنه ليس لابن الخطيب ، وإنما هو لمحمد محمد عبد اللطيف احندي .

وإذا كان الكتاب كما يقولون : يقرأ من عنوانه ، فإن نسبة هذا الكتاب إلى جانب عنوانه ، أداة على ما تتجاوز عليه نفس كاتبه من رغبة في الإيham والتضليل .



وأول ما يجب أن نسجله عن هذا الكتاب ، أنه ليس بحثاً علمياً على الطريقة الاستدلالية التي تعتمد الدرس والموازنة ، والاستنتاج الصحيح ، وإنما هو كتاب تضمن مجموعة من الآراء المردودة ، والأقوال الباطلة في روايتها أو معناها ، والمذاهب البائدة التي لم يعد أحد من المسلمين يركن إليها أو يعبأ بها ، والتي ليس لها أن تهض في وجه ما يبطلها مستنداً إلى التواتر وإجماع المسلمين .

رأى المؤلف هذه الآراء المردودة المذكورة في كتب العلماء الذين تعودوا تسجيل كل شيء يصل إليهم ، احتفاظاً بإحاطة من نواحي التاريخ العلمي ، لحفظها في كتابه مستدلاً بها على ما يستحسنه في رسم المصحف أو تلاوته ، دون أن يأق بمجديد من عنده ، اللهم إلا التهم على مقام الأهمجاء رضي الله عنهم ، وعلى القراء الذين نقلوا إلى المسلمين كتابهم قلاً متواتراً بهيئته وقراءاته في ضبط وتحرر ودقة هي مصرب الأمثال ؛ وكأنما لم يكفه ذلك ، فصور المصحف المتواتر في الأمة جيلاً بعد جيل ، مزيجاً من الأخطاء الفاحشة ، والمتناقضات المتباينة في الهجاء والرسم ، تلك الأخطاء التي جاءت بها كثنته الأولى سقيمة الوضع غير محكمة الصنع (ص ٥٧) . كما تخيل لقراء أن القراءات السبع المتواترة إنما جاءت من اختلاف رسم المصحف والتباس هذا الرسم على القراء (ص ١٢٢) إلى غير ذلك .

تحدث المؤلف في كتابه عن عدة موضوعات ، ونحن نتكلم عن أهمها ، مبينين ما في حديثه عنها من خطأ وزيف .

أولاً - رسم المصحف

تناول المؤلف موضوع رسم المصحف بكثير من التحليل ، وقرر أنه يجب كتابته حسب القواعد الإملائية الحديثة ، وأرتكب في سبيل تبرير ذلك عدة أوارار ما كان ينبغي له أن يجرى على ارتكابها :

(١) منها أنه روى الصحابة الذين كتبوا المصحف بالعجز والخطأ والضعف في الرسم ، وصوّروهم للناس كتبة ضعفاء غير خبيرين بما يملون ، رسمو المصحف كما تأتت لم على غير هدى ، حتى وقعوا في كثير من الأخطاء المتنافضة .

(٢) ومنها أنه عقد فصلاً بعنوان : لحن المكاتب في المصحف ، زعم فيه أن بالمصحف لحناً ومخالفة للقواعد العربية ، ومثل لذلك بقوله تعالى : إن هذان لساحران ، والمقيم الصلاة والمؤتون الزكاة ، إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون ، فأصدق وأكن من الصالحين .

وقد ساق المؤلف في ذلك روايات عن عائشة وسعيد بن جبير وأبان بن عثمان ، وكلها روايات مردودة أو ضعيفة ، ليس لذى رأى أن يمارض بها ما ثبت بالتواتر جيلاً بعد جيل إلى يومنا هذا : وقد بين العلماء الأوجه الإعرابية لهذه الألفاظ وأمثالها ، كما يبدو المعاني البلاغية المستفادة منها .

وجاء في هذا الفصل أيضاً أن بالمصحف تغييراً في الكلمات ، نتيجة تحريف الهجاء : فمن ذلك ، والذين يؤتون ما آتوا ، بدل ، والذين يأتون ما آتوا ، وقد علق المؤلف على ذلك بأن الأولى هي القراءة المشهورة ، وأن أحداً من القراء لم يورد القراءة الثانية مع وثوق روايتها عن عائشة ، وهي من في قريها . وقد جعل أو تجاهل أن القراء الذين أجمعوا على قراءة ، يؤتون ما آتوا ، قد استندوا إلى تلقى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ثابت بالتواتر ، وأن رواية عائشة هذه إن صححت فهي رواية آحاد لا يثبت بمثلها القرآن .

ومن ذلك ، حتى تستأنسوا ونسلوا على أهلها ، بدل ، حتى تستأذنوا ، و ، أفلم يأس الدين آموا ، بدل ، أفلم يتبين الدين آموا ، و ، وقصى ربك ، بدل ، ووصى ربك ، وروى عن ابن عباس أنه قال في ، حتى تستأنسوا ، : إنما هي خطأ من الكاتب ، وفي ، أفلم يأس ، : أظن أن المكاتب قد كتبها وهو ناص . وفي ، وقصى ربك ، أن الواو قد التزقت بالصاد ، كما روى في الأخيرة عن الضحاك : إنما هي ، ووصى ربك ، ، وكفلك كانت تقرأ وتكتب ، فاستمد كاتبكم فاحتمل القلم مداداً كثيراً ، فالتزقت الواو بالصاد .

وروى عن ابن عباس أيضاً أن الواو في قوله تعالى ، ولقد آتينا موسى

وهرون الفرقان وضياء ، زائدة ، ومكاتها قوله تعالى ، الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم ، يريد بذلك أن تقرأ : والذين قال لهم الناس .

وروى عنه أيضاً أنه كان يقرأ : مثل نور المؤمن كشكاة ، بدل ، مثل نوره كشكاة ، . ولا شك أن مثل هذه الروايات لا يعبأ بها ، وليس لها قيمة أمام تواتر المصحف ، وأنه لم يكن المعول عليه في رواية كلام الله هو الكتابة ، وإنما المعول عليه هو التلقي بالمشافهة .

وقد قال أبو حيان : إن من روى عن ابن عباس أنه قال ذلك - أى تستأذنوا بدل تستأنسوا - فهو طاعن في الإسلام ملحد في الدين ، وابن عباس يرى من هذا القول .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن الأنباري في المصاحف ، وابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس ، أنه فسر تستأنسوا ، فقال : أى تستأذنوا بمن يملك الإذن من أصحابها ، يعنى أصحاب البيوت .

وإذن فهذا تفسير لا قراءة .

ويقول أبو حيان أيضاً في شأن ما روى عن ابن عباس من قراءة ، أفلم يتبين ، بدل ، أفلم يأس ، : بل هو قول ملحد زنديق . وقال الزعزعي ، ونحن ممن لا يصدق هذا في كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وكيف يخفى هذا حتى يبقى ثابتاً بين دفتي الإمام (أى المصحف الإمام) ، وهو مصحف عثمان ، وكان متقبلاً بين أيدي أولئك الأعلام المخاطبين لدين الله المهيمنين عليه ، لا يغفلون عن جلالة ودقائه ، خصوصاً عن القانون الذى إليه المرجع ، والقاعدة التى أقيم عليها البناء . هذا والله قرية ما فيها قرية ، ١ .

وقد استفاضت الروايات عن ابن عباس أنه كان يقرأ : وقضى ربك ، . وفي هذا دليل على أن الرواية المنسوبة إليه من التصاق الواو بالصاد ، رواية ملفقة لا أصل لها . قال أبو حيان في البحر : والمتواتر هو ، وقضى ، وهو المستفيض عن ابن عباس والحسن وقتادة ، بمعنى أمر . وقال ابن مسعود وأصحابه بمعنى « وصى » .

هذا والقاعدة العامة في مثل ذلك ، أن يقال بأن هذه الروايات مهما كان
سندها صحيحا فإنها مخالفة للتواتر القاطع ، ومعارض القاطع ساقط مردود .

ولا ينبغي لمسلم يحترم القرآن ويؤمن به ولا يداخله الرب فيه ، أن يسوق مثل
هذه الأقوال المردودة ؛ فإن هذا من عمل أعداء الإسلام قديما ، وقد استغله أعداء
الإسلام حديثا من المستشرقين والمبارقين ، طمعا في أساس الدين ، وتوهينا لثقة
المؤمنين بكتاب ربهم ؛ ودون ذلك خرط الفتاد ، لو كانوا يملكون .

ولا ندرى ماذا يريد المؤلف برده هذه الروايات وأمثالها في كتابه : أريد
أن يطلب الى المسلمين إصلاح كتابهم وتقويم لحفه ، فيكتبوا ، والصابئين ،
والقيسين ، ، فأصدق وأكون ، ، تستأذنوا وتسلبوا ، ، ووصى ربك ،
و ، يأتون ما أتوا ، وأمثال ذلك على مقتضى الروايات التي ساقها ، أم يريد منهم
أن يستمروا على ما في المصحف مما نحكم عليه هذه الروايات بأنه خطأ من الكاتب
أو لحن في القواعد ؟ وكيف إذن يطمس المؤمن الى كتاب ربّه وقد داخله الشك
في نقله وروايته ؟ ثم ما علاقة هذا كله بوجوب كتابة القرآن بالرسم الحديث ،
والفرض أن الإملاء الحديث ، والإملاء القديم ، في مثل هذه الكلمات
الملحونة أو المبدلة سواء ١٩

لقد أساء المؤلف أيما إساءة في هذا الفصل الى المسلمين في أقدم ما يقدمونه ،
ولم تفده هذه الإساءة فيما أراد إثباته أية فائدة علمية في بحثه الذي هو بصدده
من وجوب كتابة المصحف بالإملاء الحديث .

ولو كان المؤلف في إيراد أمثال هذه الروايات حسن الية مصفا للعلم
والبحث ، لعلق عليها بما يعيد أها روايات مردودة ، أو ذكر كلام العلماء عنها ؛
ولكنه يرويها ويعلق عليها في هوامش كتابه بما يفيد رضاه عنها ، وميله إليها ،
في الوقت الذي يتنكر فيه لما تلقاه المسلمون بإجماع وتواتر وقبول . فيا لله للعلم
والدرس والبحث !

(٣) وقد عقد المؤلف فصلاً آخر بعنوان « ما غديره الحجاج في المصحف » يخرج منه القارىء بأن الحجاج قد جاء الى مصحف عثمان فوجد فيه أخطاء في مواضع عدتها اثنا عشر موضعاً ، هي :

- ١ - لم يتسنه وكانت في المصحف « لم يتسن »
- ٢ - شرعة ومنهاجا « شرعة ومنهاجا »
- ٣ - يسركم في البر والبحر « ينشركم »
- ٤ - أنا أنبئكم بتأويله « آتيكم بتأويله »
- ٥ - يقولون الله « يقولون الله »
- ٦ - يقولون الله « يقولون الله »
- ٧ - من المخرجين « من المخرجين »
- ٨ - من المخرجين « من المخرجين »
- ٩ - معيشتهم « معاشهم »
- ١٠ - غير آسن « غير ياسن »
- ١١ - فالذين آمنوا منكم وأنفقوا « فالذين آمنوا منكم واقفوا »
- ١٢ - وما هو على الغيب بضنين « وما هو على الغيب بظنين »

ويلاحظ أن في هذه المواضع التي يزعم أن الحجاج غيرها ، مواضع نقرأ بالقراءتين ، ومواضع لم يقرأ أحد من القراء بها .

والقارىء يفهم من هذا أن مصحف عثمان ظل بهذه الأخطاء والمسلمون عنها ساكتون إلى زمن الحجاج ، وهو زعم لا دليل عليه ، ولم يستدع المؤلف إلى أحد من القدماء أو المحدثين ، وإنما اكتفى بأن يسوقه هكذا بقوله « قد غير الحجاج في المصحف الذي كتب في عهد عثمان رضي الله عنه اثنا عشر موضعاً ^(١) ثم سردها كأن الأمر في ذلك حقيقة مسلمة مشهورة لا يحتاج إلى إسناد . » يتبع ،

(١) هكذا كتبها [اثنا عشر] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

معهد ديني جديد بالمنصورة

تبرع آل الشاوي الكرام بالمنصورة ، بمقطعة أرض كبيرة ليقام عليها معهد ديني جديد لمديرية الدقهلية والأقاليم المجاورة لها ، واكتنبت لتشييده معهم أعيان الدقهلية ووجهاؤها .

وفي يوم الاثنين الحادى والعشرين من شهر المحرم سنة ١٣٦٨ ، الموافق الثانى والعشرين من نوفمبر سنة ١٩٤٨ ، احتفل آل الشاوي ووجها المنصورة بتوقيع عقد الهبة ، ودعى إليه حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشاوي شيخ الجامع الأزهر ، وسعادة مدير الدقهلية ، وافتتح الاحتفال بترتيل آيات من القرآن العظيم ، ثم نهض فضيلة الأستاذ الأكبر فألقى كلمة قيعة ذكر فيها ترابط الإسلام والعلم ، وقيمة العلم في الإسلام ، وشكر لأهل المنصورة أريجبتهم الدينية وتبرعهم السخي لإقامة المعهد الجديد ، ودعا لحضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول بالنصر والتأييد ، ونوه بتشجيعه القائمين بالمشروعات الجديدة وخاصة الدينية والثقافية منها ، فكان لهذه الكلمة البليغة الوجيزة أجمل وقع في قلوب المستمعين . ونحن ننشر هذه الكلمة في مجلة الأزهر حفظاً لها ، وبزولا على رغبة القارئ .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أبدع هذا العالم وأحكمه صنعا ، وأعطى كل شيء خلقه ثم هدى . سبحانه لا نحصى ثناء عليه ، عظمت آلاؤه ، وجلت نعمائه . والصلاة والسلام على الرسول الأعظم ، سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين ، وعلى آله وأصحابه الذين اعتصموا بمجلى الله المتين ، وصراطه المستقيم ، والناجين لم ياحسان الى يوم الدين .

أهل وعشيرتى :

السلام عليكم ورحمة الله .

وبعد ، فإن خير ما أتوجه به اليكم في هذا الاجتماع المبارك ، الذى دعت اليه حفاوتكم بالعلم ورغبتكم الصادقة في نشره ، أن أهيب بكم جميعا أن تستسكوا بهذه المروة الوثقى ، التى جعلها الله رائد نبيه ، وأس دينه : ألا وهى العلم .

وفضل العلم على الأمم والشعوب، فضل غير منكور؛ فهو أس الحضارة وال عمران، وأول مقومات المدنية، ومناط الحياة الاجتماعية؛ ما تمسكت به أمة إلا رفقت، وما أقبل عليه فرد إلا عز وبلغ الأوج. وقد فضل الله العلم وأشاد بذكره، ورفع من قدر أهله؛ قال تعالى: «هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون». وقال عز شأنه: «يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات». وقال صلى الله عليه وسلم: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»، وإنما أنا قاسم والله يعطي، ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يصرم من خالفهم حتى يأتي أمر الله». وقال صلى الله عليه وسلم: «من تنفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحققهم الملائكة، وذكّروهم الله فيمن عنده، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه». وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «إذا مررتهم برياض الجنة فارتعوا، قيل: وما رياض الجنة؟ قال: مجالس العلم». ولا شك أن العلم حياة الإسلام، وعماد الدين.

ألقمهم اشرح صدور المؤمنين للعلم، وأعظمهم على نشره، وقوّ به دعائم هذه الأمة.

أهلى وعشيري:

حين تلقيت دعوتكم الكريمة لحضور هذا الاجتماع الرائع الذي أردتم به نحية العلم في شخصي، وحرصتم على أن يكون ميداناً تنبفون فيه إلى الخير، وتتنافسون فيه على الجود للعلم، تازعنى عاطفتان: أولاهما عاطفة الفخار بأهلى لإقبالهم على التبرع لهذا المشروع الجليل. مشروع إنشاء معهد ديني إسلامي كبير يليق بهذا الإقليم الزاهر، وهذا البلد الأمين، ذي التاريخ المجيد. أما الثانية فعاطفة التقدير لهذا الإقليم الطيب الذي أنبت رجالاً عاملين مصلحين، باذلين أموالهم وأنفسهم في سبيل الخير، وإعلاء كلمة الدين.

ومن يلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى، وإلى الله

عاقبة الأمور.

إخواني وأبنائي :

إن هذه الروح الطيبة المباركة ، وتلك الأريحية المشكورة ، سنبقى لكم في ثبوت الأيام ، ذكرى عاطرة خالدة يتجدد بها ماضى هذه المدينة العظيمة التي كانت دائما مهيطة العلم ومثابة الخير .

وفي صفحات التاريخ القريب ، الذي قد لا يذكره أكثركم ، أن مساجد المنصورة منذ حوالي خمس وأربعين سنة ، كانت عامرة بحلقات الدروس ، تدير فيها على منهاج الأزهر المعمور ، وتبج خطواته ؛ ففي مسجد سيدى المواقى وسيدى ربحان ، كان الطلاب يجتمعون حلقات حلقات يتلقون العلم على علماء الدين بالمنصورة ، وكلهم من الصفوة علما وخلفا ، وكان على رأسهم في مسجد سيدى المواقى المرحوم المبرور الشيخ الحيارى ، وفي مسجد سيدى ربحان ، المعفور له الشيخ السمودى .

وكانت هذه الدروس تُعَدُّ الطلاب للالتحاق بالجامع الأزهر ، إذا ما انضجوا وتفتحت أذهانهم ، ومن هذه الحلقات التي كانت تزدهم بها مساجد المنصورة تخرج كثير من العلماء وأهل الرأي في مصر .

ولم تكن دراسة العلم مقصورة على هذين المسجدين ، بل كان هناك أيضا في مسجد سيدى يس معهد صغير أنشأه المرحوم هلى بك القريعى لصغار الطلاب ، وما يزال موجودا حتى اليوم ، وقد جمل له في وقفه أرزاقا للدرسين والطلاب تساعد على طلب العلم ، ثم جاء المعفور له محمد الشاوى باشا ، فأنشأ مسجده ومعهد ، وجعل لها في وقفه أرزاقا للدرسين والطلاب تعيينهم على أداء مهمتهم . واليوم تبرع خلفاؤه الأجلاء المحترمون بأرض مساحتها سبعة آلاف متر لبنى عليها معهد ديني إسلامي كبير يتسع لطلاب مديرية الدقهلية ومراكى سمود وطلخا وشربين وبلغاس وبيلا . أسأل الله لهم ولئن يسهمون في بناء هذا المعهد حسن الثواب .

ولا يغوتى أن أتوه بما بذله ويبدله سمادة الاستاذ حسين بك رأفت مدير الدقهلية من مجهود في هذا السبيل . ولا غرو ، فقد تعودى كل جهة يتولى أمرها أن يجعل نصب عينيه السعى في إنشاء معهد ديني إسلامي فيها ، وهذه سنة حميدة وتوفيق من الله عظيم . نسأله سبحانه أن يثيبه ، ويجزيه خير الجزاء .

تلك صفحة التاريخ القريب مشرقه بوار العلم ، وهذه صفحتكم تريدون بها وصل ما خطه آباؤكم ، ووضع لبنته أسلافكم .

وفقكم الله إلى ما أنتم بسيله ، وأعانكم على نشر العلم وتوسيع مده ، وشرح صدوركم للحدود والسخاء في هذا المضمار ، لتستحقوا رضا الله ورضوانه . ألا إن السخاء من الإيمان ، والإيمان في الجنة .

إخواني وأبنائي :

إننا اليوم في عالم وظروف تستدعي من كل فرد أن يبذل ما في وسعه لصرة العلم والدين ، حتى تكمل البلاد قوتها وعزتها : وإن الدول اليوم لتتسابق في حلبة العلم ، فما أحرانا وديننا دين العلم والظفر في ملكوت السموات والأرض أن نلبي داعي الإيمان موقنين بتوفيق الله .

أهلي وهشيري :

إن كل السبل أمامكم ميسرة لتعملوا على نشر العلم : فالأزهر المعمور على أتم الاستعداد لمدمكم بالعلماء المدرسين والكتب النافعة ، إذا ما خطوتم الخطوة الأخيرة في سبيل إتمام ما بدأتم ، فأقمم بناء المعبد وأكملتم أناته . ولتعلموا وليعلم سائر أبناء الوطن أني لا أخص المنصورة وحدها بهذا الوعد ، بل عد الأزهر الشريف بفضل الله مزيد من العون لكل جماعة في أي إقليم من أقاليم وطننا العزيز ، تعقد العزم على رفع منار العلم ، تقيم له مكانا مؤثرا ينسج لطلبته ويليق بمكانة العلم .

ولست في هذا إلا مترسما توجيه وعناية مولانا حصرة صاحب الجلالة الملك المعظم ، فاروق الأول ، الذي يحرص على العلم وتشجيع العاملين . أعزه الله وحفظه وشرح صدره ، ويسر أمره ، وأعلى ذكره ، وآتاه سؤله ، وأبقى ذخرا للإسلام والمسلمين ، والعلم والدين . آمين .

ونبتل إلى الله بقلوبنا وبصدق نياتنا أن ينصر عباده المجاهدين ، ويطهرهم على أعدائهم الطاغين الباغين ، ويعدم بمعوتهم ، ويؤيدهم بمجده ، ويثبت أقدامهم ، ويحقق آمالنا وآمالهم ، ويمنحهم نصره الذي وعد به من يجاهد في سبيله ، فهو خير الناصرين .

والسلام عليكم ورحمة الله ٥

المسلمون في هذا المعترك العالمي

صورنا في الجزء السابق من هذه المجلة حالة العالم الغربي في معترك الحياة في هذا العصر ، وبيننا طبيعة العوامل التي تورطهم فيها ، ونظراً لأننا مرتبطون بهم اقتصادياً وعلياً ، فإنه يهنا من أمرهم ما يهم المترابطين ؛ فأما من الناحية الاقتصادية فإن تأثيرها ينحصر في قلة الواردات وغلاء البضائع الأجنبية ، وتذبذب أثمان محصولاتنا ، وليس كل هذا بالامر السهل ، ولكنه مما يسهل احتياله ، ويؤمل زواله . أما ما يجب أن يكثر له أشد الكثرات ، وتراقب آثاره مراقبة دقيقة ، فهو التطور العلى الذى تحدته الأعصاب المنتجة هناك من وضع المبادئ المتطرفة ، وبناء الأصول الشاذة ، وسرياتها البنا من طريق ما نقرأه من جرائدهم ومجلاتهم ، وما يترجم في جرائدنا من أفعالهم وأقوالهم ، فتأثر بها النابتة الإسلامية وتشب متشعبة بها أيعما تشعب ، ظنا أنها مقررات عليية ، وتجديدات اجتماعية ، فتعمل على أن تجرى على سنتها لتلحق بالقافلة الانسانية في سعيها الخيث نحو المسئل العليا .

والذى على مراقبي الحالات الاجتماعية ، والتغلبات التصورية في العالم من المسلمين أن يبدوا لأقوامهم أفت هذه الحالات والتطورات الداعمة إلى الانقسامات والمصادمات بين طوائف العالم الغربي ، ليست ثمرات العلم ولا الحكمة التي يجب أن يحرص على الأخذ بها الناس والجماعات ، وإنما هي ثمرات مذاهب إلحادية تأدروا تحت تأثيرها إلى فوضى نفسية وخلقية ، زعت السلام والطمأنينة من القوس ، ودفعتها الى فوضى وانحلال يضران بالنظام العام الذى يجب أن يسود الجماعات ، ليتفرغ كل عامل إلى عمله ، ويحقق أقصى ما يمكن من الخير لنفسه ووطنه ، من حيث يجب أن يلتبس من قبله .

نعم إن هذه الانقلابات التي فشاهد عليها الحياة في أوروبا ليست بشجرة العلم، وكفى أن تكون كذلك لتؤدي إلى شر ما ينتظر منها، وليس شيء أكبر من الحروب الطاحنة التي تشنها هذه الأمم على نفسها، وتجر إليها خلاقات يتكامل المطلق البدائي بحلها، لا القابل الهادمة والحارقة، ولا الوسائل المحطمة والحارقة. وبلى هذا الشر المستطير فيها ما عليه أكثر أممها من الانقسامات والتحزبات والإضرابات عن الأعمال، والاضطرابات الداخلية. والذي هو شديد الوقع على النفوس أن هذه الأحوال المرتبكة لا توجد لها حلول تلج الصدور عليها، وترتاح النفوس كافة إليها، فلا الاشتراكية المتطرفة والمعتدلة، ولا أحزاب اليمين واليسار مما يفيد في الحد من هذه الشرور شيئاً.

وما دامت هذه القلائق ليست بشجرة العلم فهي إذن ثمرة الخلال الحيوانية التي شرعت الأديان لا تزعجها من الشخصية الانسانية، فيكون الدين والعلم حرباً على هذه الخلال، ومتى اجتمعا في أمر فلا يعقل أن تقف دونه عقبة، إلا أن هذا الانتقال الخلق لا بد له من زمان يتطور فيه.

فلو كانت أوروبا تعنى بالاصول الخلقية التي تدرسها في جامعاتها، وتقف عند حدودها أياً كان مرماها، لدفعت عن الفلسفة المادية التي تقدرها بشدة قوية، ولكنها لا تستطيع أن تقف عند حدودها، حتى في هذا العصر الذي بلغ العلم فيه أشده، فأقامت بذلك أروع الجميع على أن الانسانية في حاجة ماسة إلى الدين، ولا نستطيع أن نستبدل به الفلسفة؛ لأن الأمر يتعلق بتربية شعور نفعاني، وتمييز حس وجداني، يكون من القوة بحيث يتغلب على الطبيعة الحيوانية في الجبلية الانسانية. وقد عجز العلم عن أداء هذه المهمة إلى هذا العهد، رغمًا عن وصوله إلى مدى بعيد من الألفية، بل يشاهد أنه كلما ازداد سرياً ما في سرائر الطبيعة، واكتشف أسراراً جديدة، زاد قسوة وغشمية، وامتناعاً وجرية، حتى قرر الذين ييدم استخدام هذه المخترعات المهلكة للبشرية أن حرباً أو حربين أخريين تأتيا على العمران العالمي، وتجعله كأن لم يكن بالأمس.

كان هذا الاعتبار من العوامل النفسية التي دفعتنا إلى دراسة المسألة الدينية من الناحية الاعتقادية، واستكثارنا على صحة الدين من الأدلة العلمية، وسيكون هذا دأب الذين يغارون على كرامة الانسانية من الأجيال المقبلة.

وفي نظرنا أنه يجب على المشتغلين بالدين أن يجعلوا هذا الاعتبار من أهم ما يدفعهم إلى المثابرة والدؤوب على ما هم عليه من الاشتغال به، وخاصة من ناحيته العقيدية، واثقين أن أدله العلمية أصبحت مواتية لهم لباء صرحه الفهم على أصول تولد اليقين في أعنى القوس البشرية، وتوجب القبول لدى أعصى العقول القوية.

لقد مضى الزمان الذى كان ينظر فيه إلى المشتغلين بالدين من هذه الناحية بأنهم يمجدون أنفسهم بلوغ غاية وهمية، وبأنهم يفتنون أيامهم لإيجاد حركة رجعية، بعد أن سادت الفلسفة المادية على العقول سيادة مطلقة. وهم في الواقع بهذا الاعتبار يحافظون على الانسانية من التلاشى بإيتاء النفوس بمكلماتها الأدبية، ويدفعون شره الذين يعملون على حرمانها من عواملها الروحية.

وبما يؤيد هؤلاء العاملين أنهم في جهادهم هذا لا يدفعون كلاماً بكلام، وإنما هم يدحضون نظريات إلحادية بأدلة علمية، مرتكرة على البحوث النفسية التي ملأ نورها الخافقين، ولم يعد أمرها خافياً على أحد. ولست أقصد بذلك ما يشتغل به الآلاف من أهل العلم اليوم لإثبات عالم الأرواح والاتصال بهم، ومحاطبتهم، ولكى أقصد ما قرره العلوم التجريبية نفسها من وجود العقل الباطن في الإنسان، ومن تدهور أكبر النظريات الفلسفية التي بنوها على تعلق العقل بالمخ، والحياة بالدم، والذاكرة بالصور الذهنية؛ وما أسسوه من الآراء على أصل الكون، والجوهر الفرد، ونشوء الأحياء وتطورها الخ الخ مما أصبح لدى الذين تابعوا التطور العلمى أشبه بأفانيس العجائز.

لم يتوصل من وصل من العلماء إلى درجة اليقين في الدين من دراسة خاصة فيه، أو مما كتبه بعض ممنه، ولكن من أدلة دائية لهم مترعة من الفروع العلمية التي كانت من نصيبهم. فعرب لك مثلاً يعطيك فكرة على ما تقصده مما نقول. قيل يوماً للعالمى الأشهر (نيون) الانجليزى: هل تستطيع أن تقيم دليلاً حسيماً على وجود الله؟ فقال: نعم. من المحقق أن الحركات الحالية للكواكب لا يمكن أن تنشأ من مجرد فعل الجاذبية العامة، لأن هذه القوة تدفع الكواكب نحو الشمس، فيجب لأجل أن تدور هذه الكواكب حول الشمس، أن توجد يد إلهية تدفعها على الخط المماس لمداراتها. هذا صحيح لأننا نعلم أن الكواكب

كلها معلقة في الفراغ وهي لا تتقارب حتى تكون كتلة واحدة ، لأنها تتجاذب من جميع جهاتها . فإذا انجذب كوكب الى آخر منه من ملاسته جذب كواكب أخرى له من كل النواحي . هذا معقول ، ولكن هذه الكواكب مع انجذاب بعضها لبعض تتحرك في مدارات مقدرة لا تعداها . فما الذي يعطيها هذه الحركة الدائرية المنتظمة لبعضها حول بعض إن لم تكن يد الله تفعل ذلك ؟

أما وقد ثبت كل هذا وأصبح حقيقة محسوسة لكل ذي بصيرة ، فعلى المسلمين أن يمتصموا بحكمة كتابهم ، وسنة رسولهم ، وسيرة سلفهم ، ويعملوا على توحيد كلمتهم ، والجرى على تعاليدهم ، ليكونوا بمنجاة من العلل الاجتماعية ، والأدواء الخلقية ، والفتن السياسية ، لا سيما وهم يرون بأعينهم أن أعرق الأمم في المدنية ، وأرقاها في الثقافة العلمية ، تعجز عن تفرق الكلمة في مجتمعاتها وتنازع الأحزاب في بلادها ، عن تأليف حكومة لتصريف الشؤون الداخلية والخارجية .

وإذا نصحن بالاعتصام بحكمة كتابنا ، وسنة رسولنا ، وسيرة أوائنا ، فأننا إنما ندعو للأخذ بأرقى النظم الاجتماعية . ألم تلك نتيجة ما قاموا عليه من تلك النظم أن أصبحوا كالجسم الواحد من الترابط والتماسك ، آتاهم الظفر على أعدائهم والسمعة في منليكاتهم ، والنظام في حكوماتهم ، والعوق في معلوماتهم ، حتى استحقوا أن يكونوا خلفاء الأرض بعد العارسيين والرومانيين ، ومن سبقهم من الصينيين والهنديين والبابليين واليونانيين الخ ؟ .

العقبة الكأداء أمام المسلمين في هذه الناحية هي أنهم يأخذون فيما يأخذونه من النظم الأوروبية وجوب فصل الديانة عن الحكومة ، وهي عقبة كأداء شديدة التعلق بالعقبة المصرية لا يطبق أحد أن يعيرها سمعا . ونحن لا نود بها نكتبه في هذا الصدد أن يكون الأمر على ما يتحمله المعترضون ، فيمتدروا ما نكتبه ترشعا من عقلية رجعية ، فلا بد هنا من بيان وجيز لهذا الأمر سنأني عليه في العدد المقبل .

محمد فريد ومردى

الإخلاص

لقضية الأستاذ الشيخ عبد الرحيم العدوي
شيخ معهد فؤاد الأول بأسوط

الإخلاص : هو العروة الوثقى المأمورُ بها على السنة الانبياء والمرسلين .
وهو الوسيلة لصحة الإيمان والأعمال جميعا ، بل هو السر العظيم الذي استودعه
الله قلوب أوليائه المقربين ، أولئك الذين تعلبوا على نفوسهم الأمانة ، وملكوا
زمام شهواتهم الجامحة ، فلم يكن لها عليهم من سلطان .

والإخلاص : تصفية الأفعال والنوايا من الشوائب والمكدرات ؛ يقول الله
تعالى : وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين . . ويقول : ألا لله الدين
الخالص ، أى الذى خلا من الشوائب وتنزه عن النقائص .

وسميت سورة قل هو الله أحد ، بسورة الإخلاص ، لأنها خالصة في ذكر
صفات الله وحده فلم تعرض لذكر جنة ولا نار ، ولا أمر ولا نهى ، ولا وعد
ولا وعيد ، فكانت بحق سورة التوحيد .

أما المخلصون فيقول الله فى وصفهم : إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا
بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين ، وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً
عظيماً . . فالتوبة أول مقام من مقامات التقرب الى الله ، والإخلاص آخر تلك
المقامات . ويقول الرسول الكريم ، ثلاث لا يَفُضِّلُ عليهن قلب : رجل أخلص
العمل لله ، والنصيحة لولاة الأمور ، ولزوم جماعة المسلمين ، فإن دعوتهم تحيط
من ورائهم . .

وقد ثبت بالآثار أن الإخلاص وسيلة لإجابة الدعاء ونيل الرغائب ؛ فقد قال
الرسول الكريم لحاله سعد بن أبى وقاص ، حبيبا أظهر دالة ، واعتقد أن له فضلا
على من دونه من صحابة رسول الله ، إنما نصر الله هذه الأمة بضعفائها ودعوتهم
وإخلاصهم وصلاتهم . . ولسمو مكانة الإخلاص وعزة شأنه يحدثننا الرسول عنه

فيقول : يقول الله تعالى ، الإخلاص سر من سرى استودعته قلب من أحببته من عبادى ، . ويقول على رضى الله عنه : لا تهتموا لقلة العمل ، واهتموا لقبول ، فإن النى قال لمعاذ بن جبل ، أخلص العمل يحرك منه القليل ، .

ولأن الإخلاص خلق عسير على النفوس الدشرية ، لأن للشياطين مداخل كثيرة يصلون منها إلى إفساد الضمائر ، ورجها فى مهاوى الرياء والنفاق ، كتب عمر الى أبى موسى الأشعرى يقول : من خلصت نيته كفاء الله مايبه وبين الناس ، . وقال بعض الصالحين ، طوبى لمن صحت له خطوة واحدة لا يريد بها إلا وجه الله ، .

ويقول النبى صلى الله عليه وسلم ، أول من يسأل يوم القيامة ثلاثة . رجل آتاه الله العلم ، فيقول الله له : ما صنعت فيما عليت ؟ فيقول : يارب كنت أقوم به آتاء الليل وأطراف النهار ، فيقول الله : كذبت ، وتقول الملائكة : كذبت ، بل أردت أن يقال فلان عالم ، ألا فقد قيل ذلك ؛ ورجل آتاه الله مالا ، فيقول الله له : لقد أنعمت عليك فإذا صنعت ؟ فيقول : يارب كنت أتصدق به آتاء الليل وأطراف النهار ، فيقول الله : كذبت ، وتقول الملائكة : كذبت ، بل أردت أنه يقال فلان جواد ، ألا فقد قيل ذلك ؛ والثالث رجل جاهد فى سبيل الله فضل ، فيقول الله له : لقد جاهدت ليقال فلان شجاع ، ألا فقد قيل ذلك ، ثم قال الرسول لأبى هريرة : يا أبا هريرة أولئك أول خلق تستمر بهم جهنم يوم القيامة ، ولما سمع معاوية هذا الحديث بكى بكاء شديدا ، وقال : صدق الله تعالى إذ يقول ، من كان يريد الحياة وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبينسون ، .

وإذا علما أن الإخلاص يتصل بالنوايا والقلوب ، وأنها كثيرا ماتخالطها الشوائب وتفسدها المكدرات ، فقد يشبه التكلف بالإخلاص ، وتأديب النفس بالعلم بالزين به للناس ، وقد يلتبس الاختيار بالاختيار ، وقد يضع المرء بغل يؤديه فرضا يفقده فيرديه . كما تشير إليه الآية الكريمة : يأبى الذين آمنوا استجيروا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحبيكم ، واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون ، .

إذا علنا هذا فلا غرابة إذا رأينا كثيرا من الناس لا يفهمون معنى الإخلاص على حقيقته ، فيرون أن من شأب عمله بعض البواعث الأخرى

من حظوظ النفس ومتعها يسمى مخلصاً حقاً، وليس كما يفهمون؛ فثلاً: ذلك الذي يصوم بقصد التقرب إلى الله، وبقصد إصلاح المعدة بالحيّة: أو يجمع لقصد العبادة وليصح جسمه، أو ليهرب من عدوه؛ أو يطلب العلم لله وللحصول على العيش بواسطته؛ أو يجاهد الله وليبرن على أعمال الحرب؛ كل أولئك لم يصلوا إلى كمال الإخلاص. ولذا قيل: من سلم له من عمره لحظة واحدة خالصة لله فقد نجح. وما ذلك إلا لئلا يلهو الإخلاص وعسر تنقية القلب عن الشوائب والشواغل، فلا يصل إلى كمال الإخلاص إلا من وقفه الله.

أما الذين يغفلون عن هذه الدقائق ويظنون أنهم قد أعدوا للآخرة ما ينجيهم من أهوالها، ناسين ما لا بد منه في الأعمال من إخلاص النية وسلامة الطوية، فأولئك يروون في الآخرة بعض حسناتهم سيئات، وهم المرادون بقول الله عز وجل: «وبدا لهم من الله ما لم يكتفون».

ولكن من لطف الله ولسماحة الشريعة الإسلامية، لم يحرموا الثواب، وإن لم يصلوا إلى منزلة المخلصين الكاملين؛ لأن الله يقول: «فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره»، ويقول: «إن الله لا يظلم مثقال ذرة»، وإن تلك حسنة يضاعفها، فلا يمكن أن يحرم هؤلاء ثواب قصد الخير مهما قل أو ضعف.

وأما الآيات والآثار التي تدل بظاهرها على حرمان هؤلاء من الثواب، وأن شوب العمل بغيره يحبط للعمل، فيجب تأويلها على وجه يتفق مع قواعد العدل التي رسمها القرآن، ودعمت أسسها السدة الكريمة.

مثل قوله تعالى: «فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً». وما ورد في الحديث القدسي: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك». فمثل هذه الآثار لا تناقض ما قلناه، لأن المراد بها من لم يقصد إلا حظوظ الدنيا، أو كان الغالب على نواياه ذلك، فإن غير هذا لا يتفق مع سماحة الدين ودفع الحرج عنهم.

على أن تلك الشواغل النابتة لا ينفك عنها الإنسان، فينبغي قصر تأثيرها على

نقصان الثواب ، وهذا لا يمنع أن نصح لمن يتلى بمثل هذه الشواغل أن يكون على حذر ، ليصل الى درجة المخلصين الكاملين .

وبعد ، فينبغي لمن وقف على مكانة الإخلاص ، وعرف سمو منزلته ، أن يسعى في تحصيل مقوماته ، ويجتهد في الحصول على أسبابه : من العقيدة القوية ، والاستقامة الثابتة ، التي هي جماع كل خير ، ومصدر كل سعادة ، وملتقى جميع الفضائل ، فيكون صادقا في القول ، فلا يخبر بغير الواقع ، وإذا أراد كمال الصدق فليترك المعارض .

فإن اضطر الى المعارض فطريق صدقه أن يكون نطقه لله ، وأن تكون معارضه وفق ما يأمر به الدين ، كما قال أبو بكر رضي الله عنه حينما سئل عن النبي في بعض أحياء العرب وقت أن كان النبي يعرض نفسه على القبائل لينشر دعوته ويكثر أنصارها ، قال أبو بكر عن النبي : إنه رجل يهديني السبيل ، ففهم السائل أنه دليل يعرف مسالك الطرق ، ويعلم نجودها وسهولها ، وما أراد أبو بكر إلا أنه يرشدني الى طريق الخير ، ويهديني الى سبيل الرشاد .

وبالجملة يصدق في كل المواضع : في الخوف والرجاء والصبر ، وسائر نواحي السلوك . ومن وسائل الإخلاص أيضا حسن الخلق ، وبقظة الصмир ، ومراقبة النفس ومحاسبتها على أعمالها ، فيشعرها المرء بما أعد الله في دار الجزاء من حساب وعقاب ، ويذكرها بقوله تعالى : ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ، لتوقن النفس بمراقبة الله لها في حركاتها وسكناتها ، وأن الله للناس بالمرصاد ، يعلمه المحيط ، وملائكته الكرام الكائنين ، ياقضهم الحساب ويطلبهم بمشق الذرة من النوايا والطويات . فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب ، حَفَ في القيامة حسابا ، وحضر عند السؤال جوابا ، وحسن مقلبه ومآبه . ومن قصر في المحاسبة وترك الحبل على الغارب للنفس الأمارة ، دامت حسراته ، وطالت في القيامة وقفاته .

فليحافظ على سلامته من الدغل ، ويحفظ جوارحه من التردد والكسل ، حتى لا يأتي يوم الضراعة ، قليل البضاعة . فلتكن جوارحه خدما مطيعة مسخرة في طاعة الله والبر بعباد الله ، وما دام يراقب ربه ويخشاه ، ولا يعول في الوجود على سواه ،

لا يخشى في الحق لومة لائم، ولا يابى لكلام الناس، ما دام على هذا السن فهو بخير، وفي طريق السداد يسير؛ فالله وحده هو العليم بخفايا الخنايا، والخير هو اجس النفوس.

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل خلوت ولكن قل على رقيب

قال عبد الله بن دينار: خرجت مع عمر بن الخطاب يريد مكة فزلنا ليلا في بعض الطريق طلبا للراحة، فاعتمر عليه راع من الجبل، فقال عمر: أيها الراعي بعي شاة، فقال الراعي: إنها لسبيدي وأنا مملوك. فقال عمر: فقل لسيدك أكلها الذئب. فقال الراعي: وأين الله؟ فبكى عمر، وفي العدد ذهب فاشترى الراعي من سيده وأعتقه، وقال له: لقد أعتقتك هذه الكلمة في الدنيا، وأرجو أن تعتقك في الآخرة.

هكذا كان حال المسلمين في العصور الأولى، عصور الخير والور: يفهمون معنى الإخلاص، ويعملون للإخلاص؛ ولذلك غيروا مجرى التاريخ، وحولوا سيرة الوجود. ومن يوم أن ترك الناس فصيلة الإخلاص، وعاشوا في ظل الرياء والفاق، واستمروا سياسة الملق، ضعف فيهم حب التصحية، وفقدوا الصراحة في القول والعمل، وسدت أمامهم أبواب العزة والمجد، وحرموا ميل الرغائب والأمانى، وخاصة الأمانى الروحية، والرغائب المعنوية. من راحة البال، وأطمئنان الصمير، وسكون النفوس.

وبعد، فإن الإخلاص دستور عام لكل الناس، لو ساروا على نهجه وترسموا خطاه، لصلح حال الأمة، وساد بنوها، وعاشوا عيشة الهناء والرغد، لا تزعمهم الشدائد، ولا تقض مضاجعهم الأزمات والوائب.

فالجندي لو أحلص النية وعلم أنه إذا حرص على الموت توهب له الحياة، كما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه، أو تذكر سورة الأحراب، وعلم ما كان عليه المسلمون الأول من الصبر والثبات في مواقف الشدة والخرج، حتى أشاد القرآن بذكرهم ونطقت به الآيات حيث يقول: من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر، وما بدلوا تبديلا، أقول: لو علم الجندي كل ذلك لدافع عن الحرمات فتجى الأمة من حسن بلائه أطيب الثرات.

والتاجر الصرّع لو أخلص لبلاده، ورحم بني وطنه في وقت شدتهم، لرضى

بالرج القليل ، ولم يعد الى احتكار الاقوات وإخفاء الارراق ، فبلاقي الناس ما يلاقون من ضيق وعنت .

والعامل والصانع لو أحلصا ، لكثرت الإنتاج ، وعم الخير والإسعاد .

ولو أخلص الرؤساء لسارت البلاد في طريق الإصلاح ، وسعد بنوها بالفلاح والنجاح ؛ ولو أخلصت بطاتهم لكان للسجن ما يستحق من تقدير ، فكم كفايات حرمت حقوقها بسبب البطانات ، وكم عطلت مشاريع لأنها لا توافق مزاج هؤلاء المتزلفين . والتاريخ مملوء بمجانيات هؤلاء الوسطاء إذا صاحبهم علة الراعي ، ولم تسكج جماعهم بقطة الرئيس .

دخل أحد العلماء على سليمان بن عبد الملك فقال له سليمان ما حال القدوم على الله ؟ فقال العالم : أما المحسن فيلقى جزاء إحسانه ، وأما المسيء فيود لو تسوى به الأرض . فقال سليمان : إذا كان الأمر على ما وصفت فما بالنا نكره الموت ونحب البقاء في هذه الحياة ؟ فقال العالم : اعفني يا أمير المؤمنين من الجواب . فقال سليمان : لا ، قل وأنت آمن ، فقال : لأنكم عمرتم دياركم وغربتم آخرتكم ، فتكروهون أن تنقلوا من العمار الى الخراب . فقال بعض من بالمجلس من بطانة سليمان : يا هذا لقد نفست على أمير المؤمنين مجلسه . فقال سليمان : دعه فإنه رآنا في غفلة فأراد أن ينهنا . فن لنا بحكمة سليمان بن عبد الملك ليرد عنا كيد المنافقين ويحول عنا ملق المرانين . ولو أخلصت المرأة الى رب الأسرة لامتلاجر البيت سعادة وأنسا ، ولعاشت الأسرة عيشة الرخاء والامن .

ولو أخلص الأغنياء في هذه الايام المصيبة لما رأيناهم على مام عليه من الشح ، وعن كشب منهم إخوانهم في الوطن يرزحون تحت آلام الفقر والمرض . فكم من صدور ملأتها الحاسي ، وكم من أحشاء عز عليها الآسى ، فضائق الدنيا بهم على رحبها ، ولمسوا يؤس الحياة وبين ظهرانهم أتراب لا يسعفون منهم مملوفا ، ولا يملون غصة باتس محروم .

اللهم أنت وحدك مقلب القلوب : أدقهم خلاوة العطف والرحمة ، وهبي لهم من أمرهم رشداً ؟

تحويل القبلة من بيت المقدس الى الكعبة

لفضيلة الأستاذ الشيخ الطيب حسن النجار
المدرس في كلية أصول الدين

بعد أن أمر الله تعالى باستقبال البيت الحرام حال الصلاة بقوله : « قول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » ، كما وضعنا ذلك في المقال السابق ، يتبين أن فريق اليهود والنصارى يعلمون أن أمر التحويل إلى الكعبة هو الحق لا غير ، لمشاهدتهم ما هو مسطور في كتبهم من أنه عليه الصلاة والسلام يصلي إلى القبلتين ، وليس ذلك ابتداء من تلقاء نفس محمد : « وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم » ، الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وما كان منهم لم يكن قائماً على أصل ينبغي لعاقل أن يركز عليه ، وإنما هو العناد والمكابرة وعى البصيرة : « وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون » ، قال السدي : « وأرسل فيهم » ، ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب ، الآية ، وقوله تعالى : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم » ، الآيتين ، قال : أي يعرفون أن قبة البى الذي يبعث من ولد اسماعيل قبل الكعبة ، كذلك هو مكتوب عندهم في التوراة ، وهم يعرفونه بذلك كما يعرفون أبناءهم ، وهم يكتمون ذلك وهم يعلمون أنه الحق ، انتهى .

ثم قرر الله سبحانه وتعالى الأمر بالتولية إلى الكعبة حيث قال : « ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وإنه لالحق من ربك » ، وما الله بما فعل عما تعملون ، مرتباً عليه أنه تعالى يشهد أن ذلك حق ، وشهادة الله تضاهل أمامها كل شهادة ، وأنه مجاز كئلا على عمله .

ثم كرر الأمر بالتولية ثلاثة بقوله : « ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة » ،

لتنقطع بذلك حجته، ويذهب ما تعلقوا به من شبهة تصحومها وحاضوا غمارها . فأنت ترى حسن هذا التكرار وجماله ، وما أفاده كل أمر بما علق عليه . ونظير هذا في القرآن كثير ؛ من ذلك قول الله تعالى : فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمسا قليلا ، فويل لهم مما كُتبت بأيديهم ، وويل لهم مما يكسبون ، وقول الله تعالى : فبأى آلاء ربكما تكذبان . . . وكان الله تعالى يقول .

أولا : الزم هذه القبة فإنها القبة التي كست ترصاها وترغب فيها .

وثانيا : الزم هذه القبة لأنها قبة الحق لا قبة الهوى .

وثالثا : الزم هذه القبة فإن لزومك إياها يقطع حجة اليهود ، ويذهب بها أدواج الرياح .

وأنت خير بأن ذلك يفيد تأكيد أمر القبة فضلا تأكيد ، فضلا عما تفيد الآية الأولى من الأمر بالدوام عليها في جميع الأمكنة ، والثانية من الدوام عليها في جميع الأزمنة والامكنة . والثالثة في جميع الأزمنة مع الإشعار بأن هذا لا يصير مندوخا بعد .

ولقد كان في ذلك قطع حجة المناوئين لرسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب ، واستئصال لشأفتها ، واحتجاج اليهود بأن المنعوت في التوراة من أوصافه أنه يحتمل إلى الكعبة ، واحتجاج النصارى بأنه يدعى ملة إبراهيم ويخالف قبلته . ولكنهم مع ذلك أصروا على ما هم عليه ، واستكبروا عن الرجوع إلى الحق بعد ما ظهرت لهم مخاييله ، استكبارا وعادا ، كما حكى الله ذلك عنهم بقوله : ولئن أنيت الذين أتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك ، وما أنت بتابع قبلتهم ، وما بعضهم بتابع قبة بعض . .

وأما الذين ظللوا من أهل مكة الذين يقولون : رجع محمد إلى قبة آبائه ويوشك أن يرجع إلى دينهم ، فهم قوم معاندون لاحجة لهم فيها يأبسون ، قتل الحُرَّاصون الذين هم في غمرة ساهون . . . وبقدر ما كان لهذا الأمر بتلك الطوائف من صاعقة الحزى وتناثر آمالهم بين طيات العواصف ، بقدر ما كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم ووليجه من الابتهاج وتفوق ظلال النعماء . تلقى الرسول صلى الله عليه وسلم

أمر التوجه إلى الكعبة بغير ما يتلقى به الرجل فلذة كبده بعد طول الغيبة وبعد الشقة ، فأفاض عليه ما ينال العين مهابة وجلالا ، والقلب بهجة وجورا : وأزل بجماعة الكفر هزة عيفة قضت عليهم مصاجعهم ، وردعت نفوسهم ، فأرغوا وأزهدوا ، وصالوا وجالوا ، وأفاضوا في مكر الحديث .

فقال المسلمون . سمعنا وأطعنا وآمنا به ، كل من عند ربه . وهؤلاء هم الذين هدى الله ولم يكن كبيرة عليهم . وقال المنافقون : ما بالهم كانوا على قبلة ثم تركوها . وقال المشركون : نخير محمد في ديبه وبوشك أن يرجع إلى ديننا كما رجع إلى قبلتنا ، وما رجع إليها إلا أنه الحق . وقالت اليهود : خالف محمد قبلة الأنبياء قبله ولو كان نبيا لكان يصل إلى قبلة الأنبياء . وقال قوم : مرة ما هنا ، ومرة ما هنا ، لو كان محمد على يقين من أمره لما تغير رايه وإنهم يقولون منكراً من القول وزورا ، ويمتملون بهتانا وإثماً مينا .

فجهلهم الله سبحانه وتعالى وسفه من أحلامهم بقوله : سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ؟ قل لله المشرق والمغرب ، يهتدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

قال خفاف العقول الذين يعدلون عما ينفعهم ويرفع منزلتهم ، إلى ما يضرم ويهوى بهم إلى مكان صحيح : أى شيء صرف محمدا ومن معه عن قبلتهم التي كانوا يستقبلونها في صلاتهم وهى بيت المقدس ؟ قل لهم يا محمد . الامكنة كلها لله ملكا وتصرفا ، فيأمر بالتوجه إلى الجهة التي اقتضتها مشيئته ، وما على المخلوق إلا أن يطيع خالقه ، دون ما أوحاه إليه ضميره ، وما سولته له نفسه وهواه .

فاليهود أطاهاوا هوى أنفسهم واتخذوا جهة المغرب قبلة لهم ، زاعمين أن موسى كان في جانب المغرب فأكرمه الله بروحه وكلامه ، كما قال الله تعالى ، وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر . .

والنصارى اتخذوا جهة الشرق قبلة لهم اتباعا لهوام ، زاعمين أن مريم مالت إلى جانب الشرق ، كما حكى الله ذلك بقوله ، واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا . .

والمؤمنون اتخذوا الكعبة قبلة لهم امتثالاً لأمر ربهم . لا ترجيحاً لبعض

الجهات على البعض . يهdy الله من يشاء هدايته الى السبيل الحق ، فيوجههم الى بيت المقدس مدة حيث اقتضت حكمته ذلك ، ثم الى الكعبة حيث يعلم المصلحة في ذلك . وكان من الخير لهم لو عدم اثاره من عقل أن يستنبطوا بهدى الله ، فيؤمنوا بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والدين ، ويتجنبوا الخوض في حديث القبله . ولكنها البصيرة قد عميت ، فإنها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ، فرغت كل طائفة أن البر هو التسويعه الى قبلتها ، فرد الله عليهم بأنه ليس البر ما أنتم عليه لأنه منسوح ، ولكن البر ما بينه الله واتبعه المؤمنون حيث قال : . ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والدين ، الآية . ولكنهم سدوا دونه ثوبا ، وطورا عنه كشحا ، وأخذوا يصلون بيد جذا ، ويرفعون عصيرتهم بما يطوح بهم في طخية عمياء ، مع أن ما أزل الله تعالى أجدى عليهم وأنفع ، ومعين ماؤه لا ينضب : . وإذا قيل لهم اتبعوا ما أزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا . .

ثم قال الله تعالى : . وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا . .

بشر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بأنه كما جعل أمة تنتهج الطريق الحق بهدايته فتوجه الى البيت المحرم ، جعلها أمة وسطا بين طرفي العلو والتقصير ؛ لم تغل غلر النصراني حيث وصفوا المسيح بالالهية . وإذا قال الله يا عيسى بن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ؟ قال سبحانه ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق ، الآية ؛ ولم تقصر تقصير اليهود حيث وصفوا مريم وعيسى بما تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق له الأرض وتخسر له الجبال هدا . قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا . يا أخت هرون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا . .

فهي أمة حيرة عادلة مزكاة بالعلم والعمل ، اختصها الله بتلك الصفاة الحميدة لتشهد على الأمم بأن أنبياءهم قد بلغوا الرسالة إليهم طبقا لما علوه ، ويكون الرسول شهيدا عليها ، فيزكها ويشهد بمداتها .

روى أن الأمم يوم القيامة يحمدون ببلوغ الأنبياء عليهم السلام ، فيؤتى بأمة محمد صلى الله عليه وسلم فيشهدون ، فتقول الأمم . من أين عرفتم ؟ فيقولون : علمنا ذلك بإخبار الله تعالى في كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق . فيؤتى عند ذلك بمحمد صلى الله عليه وسلم ويسأل عن حال أمته ، فيركبهم ويشهد بعد التهم . .

ثم بين الله سبحانه وتعالى الحكمة في تحويل القبلة إلى الكعبة بقوله ، وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه . .

قضى الله وحكم أن تكون قبلة المسلمين صخرة بيت المقدس بعد الهجرة استجلاباً لمودة اليهود وترغيباً لهم في أن يدخلوا في دين الله ، وتأليفاً للأَنْصار الذين يعتمد الرسول عليهم في نصرته . وما مضى على هجرته صلى الله عليه وسلم سبعة عشر شهراً حتى امتشرت الدعوة الإسلامية في تلك البقاع ، ورفرف علم الإسلام ، وقامت شواهد صدق الرسول ، وحلّت أعلام نبوته في قلوب من صفت نفوسهم ، فقويت شوكة الإسلام واعتز جانباه ، وعاد به من حافوا صولته وتبنيوا بطشه ، فقضى الإسلام لبائته ، وجنى شهي الثمرات ، وتمت له الحكمة المنشودة من التوجه إلى بيت المقدس . فأمر بالتوجه إلى الكعبة ، ليميز المؤمنون الذين أشربوا حب الإيمان فلك عليهم قلوبهم وقادهم إلى امثال أوامره ، من الذين لم يعد الإسلام حناجرهم ، ولم يجد الإيمان له محلاً في قلوبهم ، ليكون الرسول على يمينه من أمرهم ؛ يعرف من يكون موضع ثقته فيتخذونه عوناً صالحاً لإعلاء كلمة الله ، ومعولاً هادماً وسلاحاً ما ضيا تفرق أعداء الدين ، ويأخذ الحيلة من لبث ثوب الإسلام على سبيل الاستمارة ، فيأمن غوائله ، ويرد كيده في محره . وإلى هذا يشير الله بقوله ، وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه . .

يرى بعض العلماء أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يصلي بمكة إلى الكعبة ، ثم أمر بالصلاة إلى بيت المقدس بعد الهجرة تأليفاً لليهود ، ثم حول إلى الكعبة . وعلى هذا فعنى الآية : وما جعلنا القبلة التي تحب أن تستقبلها ، الجهة التي كنت عليها أولاً بمكة وهي الكعبة ؛ أي ما رددناك إلى التوجه لمكة في حال الصلاة إلا امتحاناً للناس وابتلاء لهم ، ليميز المخلص في الإيمان عن هو على شفا جرف

المسئولية الأدبية

تفضيلة الأستاذ الشيخ منصور رجب
المدرس بكاية أصول الدين

فرقنا في مقال سابق بين المسؤولية القانونية والمسئولية الأدبية ، بأن الإلزام في الأولى آت من سلطة خارجة عن ذات الشخص ؛ تلك هي سلطة القانون الذي يحرم ، والدولة التي تعاقب ؛ وفي الثانية آت من سلطة داخلية في ذات الشخص ؛ تلك هي سلطة الضمير الذي يحرم ويعاقب ؛ وعرفنا أن الإنسان مسئول أدبياً عن أعماله جميعها من ألفها الى يائها ، أمام الله ، وضميره ، وبني جنسه ؛ وليس الأمر كذلك في دائرة القانون الوضعي ، ما دام أنه لا يشمل إلا المسائل العمومية التي

مار ، ينكص على عقبيه فيرتد عن الإسلام عند تحويل القبلة . وعلى هذا تكون الآية الكريمة سبقت لبيان الحكمة في جعل الكعبة قبلة .

ويرى بعض العلماء أن هذه الآية قد سبقت لبيان الحكمة في جعل بيت المقدس قبلة . والمعنى عليه : وما جعلنا القبلة التي كنت عليها قبل وقتك هذا وهي بيت المقدس إلا لنعامل الناس معاملة المحتجن والمختبر ، ونميز للرسول من يتبعه من لا يتبعه وينفر منه . وهذا هو المروى عن ابن عباس حيث قال . كانت قبلة الرسول بمكة بيت المقدس ، إلا أنه كان يجعل الكعبة بينه وبين بيت المقدس . . .

ولقد حكى الله سبحانه وتعالى ما كان منهم إزاء تحويل القبلة ، بأن الأمر كان عظيمًا عليهم وشاقًا على نفوسهم ، بقوله « وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله » أي والحال والشأن كان تحويل القبلة شديد الوقع على نفوسهم ، ذهب بآمالهم الى مهب الرياح ، وطلوح بآبارهم في أعماق الثرى ، فأظلم الجوا أمامهم ، واكتمرت وجوههم ، إلا من خلق الله الهداية في قلوبهم ، وامتزج الإيمان بنفوسهم مهدام الى حكمة الأحكام وإن لم يهتدوا الى خصوصية تلك الحكمة بعينها ، فتيقنوا بذلك أن السعيد الفائز من أطاع ربه الحكيم ، وأن الشقي الخاسر من عصى ربه العليم .

تنظم أعمال الإنسان من جهة علاقته بغيره من الناس ، وتمنع أن يؤذى الناس بعضهم بعضا ؛ واقترحنا التوسع في القانون بفرض عقوبة على من يخالف بعض القوانين الأخلاقية المتعلقة بالإحسان إذا امتنع القادر عن مساعدة المحتاج وتسبب عن هذا الامتناع ضرر ؛ ودعونا الى تقوية الروح الدينية في نفوس الأفراد ؛ فقد سد الدين الفراغ الذي لم يستطع القانون أن يسده ، وأمر بأشياء لم يستطع القانون أن يأمر بها . فهو للجبايات والدول حاجة وأكثر من حاجة .

واليوم نعود الى هذا الموضوع من نواح أحر بسطاً له وإيضاحاً . ولما كانت الصلة بين الإرادة الإنسانية وما يصدر عنها من الأفعال ، وبين القانون الملزم الذي يسأل الإنسان عن مخالفته ، لما كان ذلك هو المحور الأساسي الذي تدور حوله المسؤولية ، لزم الكلام أولاً على هاتين المسألتين : القانون الاخلاقي ، والإرادة الإنسانية ، بما ينير لنا الموضوع في شيء من الإجمال .

القانون الاخلاقي ، والإرادة الحرة ، هما اثناهما مصدر علم الاخلاق ومفتاحه . غير أن القانون الاخلاقي الذي يلزمنا ، والذي هو في ضميرنا ، والذي هو يتأجج عقولنا ؛ هذا القانون نحن نحمله ، ولكنه ليس إيانا ، مادام أنه قانون يلزمنا .

أما الإرادة الإنسانية فهي على ضد ذلك : هي نحن نحن ، وهي شخصنا ، وهي التي تقوم ماهيتها ، وهي على الجمله الإنسان بما له وما عليه ، حتى إن بعض الذين تكلموا في الرق الطبيعي قال : إن الرقيق شخص ضعيف الإرادة يكون في كنف شخص قويها يدبر أمره ويرعى شأنه ، وعلى أي اعتبار تنقل قول ، بار تلي سانتيلير ، عن القانون الاخلاقي والإرادة الحرة ، من مقدمة كتاب الاخلاق الى فيقوماخوس أرسطوطاليس ، قال :

« حينما يريد الإنسان أن يختبر نفسه ويدخل في أعماقها ، فهناك المشهد الكبير الوحيد الذي يكتشفه فيها : عند العكسة في بعض الأفعال التي فعلها ، بل التي ينوي فعلها ، يسمع في أعماق عقله صوتاً يمدحه تارة ويلومه أخرى . ومن المستحيل عليه أن لا يلقى اليه سمعاً . ونظراً الى أنه يحمل في نفسه هذا الصوت فلا يستطيع أن ينكره ، ولا أن يلزمه الصمت . متى اشتهر بأمره يشعر بأنه عمل صالحاً ، ومتى عقه يشعر بأنه عمل سيئاً . وإنما في هذا التردد بين الطاعة وبين العصيان تنحصر كل

حياته الأخلاقية فاصلة في حال، وردة في الحال الأخرى. ولأن يسل الإنسان نفسه إلى خدمة هذه الأوامر الداخلية، ويخلص لتنفيذها في جميع امتداداتها من غير أدنى اعتبار للأشياء الخارجة، وأن يكون دائما مستعدا لأن يضحي لها بكل الضحايا التي تقتضيها: ذلك هو القانون الأعلى الذي يشعر الإنسان بالخضوع له، ولو أنه لا يعرف إلا نادرا أن ينفذ مع التخرج أحكامه الصارمة. ذلك هو المثل الأعلى الذي لا ينال، والذي تتطلع إليه أنظار نفس الإنسان. وإن كان يحيد عنه في الغالب إلا أن مرجعه إليه على الدوام. ذلك هو الأمر الواقع المسلم به الذي هو بسيط وجليل معا، والذي يكون الأخلاقية كلها.

وقد يكون من الخير هنا أن نقول: إن قانون الضمير هذا أو قانون الأخلاق الذي وصفه بارتلى سانتليير بهذه الكلمة قال عنه النبي صلوات الله عليه ما يأتي: روى الحافظ أبو نعيم في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١): أن أبا ثعلبة الخشني قال: قلت: يا رسول الله أخبرني ما يحل لي وما يحرم علي، فصعد إلي صلى الله عليه وسلم وصوب، فقال: «البر ما سكنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم ما لم تتركه النفس، ولم يطمئن إليه القلب، وإن أفنأك المفتون».

وقال بارتلى، عن الإرادة: «إن الإنسان حيال هذا القانون الذي يناجي ضميره مناجاة علو وقدرة في بعض الأحيان، يشعر دائما أنه يستطيع مقاومته، فعينا يوصيه هذا القانون أن يلزم العدل في فعله، وعينا يركي العقل هذه الوصية، فالإنسان قادر على أن يرفض تحت مسئولته هذه الصالح القوية الحققة. ذلك لأن له بجانب ذكائه وعقله ملسكة أخرى أقوى منهما بوجه ما، لأنها تستطيع دائما — متى شامت — أن تكسر نير طاعتها للعقل. تلك هي الإرادة التي لا تخضع لشيء إلا لنفسها. وعرف الإرادة بأنها القدرة التي يستعملها الإنسان للتصميم على وجه أو على آخر من غير أن يقدر شيء في الدنيا على إكراهها ما دامت لا تقبل هي نفسها ذلك الإكراه» انتهى قول بارتلى.

فبناء على ذلك، وحيث إن الإرادة الحرة هي التي تنفذ هذا القانون أو تخالفه. فأساس المسئولية والدعامة التي عليها تتركز، هي الحرية. وما الحرية إلا الممكنة

الطبيعية التي بها يستطيع الإنسان عمل ما يريد، ما لم يمتعه مانع من قبوة جبرية أو من قانون . إذن ليس الفرد مسئولاً إلا عن الأعمال التي أرادها بملء حريته ، أو التي لم يردّها ولكن كان من الممكن الاحتياط لها حين كان في انتباهه واختياره . ولهذا السبب لا يسأل الإنسان عن جماله أو بشاعته ولا عن ذكاته أو غباوته ، كما لا يسأل عن مولد ليس له فيه اختيار .

ومن هنا جاءت الشرائع والقوانين تشترط في الفعل الذي يقع التكليف به أن يكون ممكناً ، قال تعالى : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » روى الشوكاني في كتابه « إرشاد الفحول الى تحقيق الحق من علم الأصول » أنه ثبت في الصحيح أن الله سبحانه قال عند هذه الدعوات المذكورة في القرآن « ربما لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به » : قد فعلت . وقال : إن هذه الآيات ونحوها إنما تدل على عدم الوقوع لا على عدم الجواز . على أن الخلاف في مجرد الجواز لا يترتب عليه فائدة أصلاً . وهناك شرط ثان للمسئولية ، وهذا الشرط يتعلق بالمحكوم عليه ، وهو المكلف : ذلك هو التمييز بين الخير والشر ، إذ بدونَه تعدم المسئولية . فلا مسئولية إداً على الحيوان ، ولا على النبات والجماد ، لعدم الفهم ، ولا مسئولية على المجنون الذي فقد حرية الإرادة بفقد الإدراك ، ولا على الصبي الذي لم يميز .

وتختلف المسئولية بحسب درجة تلك الحرية وذلك التمييز تبعاً للأسباب الموجبة لها . مثلاً القانون المدني يلزم الوطيين بمجرد نشره ، ولا يقبل عذر أحد مدعيها جهله . أما القانون الأخلاقي فهو يلزم فقط من يعلم به . ومن ذلك ترى أن المسئولية الادبية تزداد كلما ازداد علم الإنسان ومعرفة ، فكما ازدادت معارفه ، عظمت مسئوليته ، وكما ترقى الانسان في المدنية وتقدم في العمران ، تعاظمت مسئوليته وربما ما يتعلق بها من ثواب أو عقاب .

وللمسئولية الادبية مظهران : مظهر الفضل ، ومظهر النقص . ولما كان عمل ما لا يعد خيراً في نظر الاخلاق إلا بالية ، أوحى الله إلى نبينا وإلى جميع الانبياء عليهم السلام أن الأعمال بالنيات ؛ قال تعالى : « وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ

مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، وَالْإِخْلَاصَ : النية . وقال صلوات الله عليه : ، إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى ، .

روى البدر العيني في كتابه عمدة القارى شرح صحيح البخارى (١) أن أبا بكر ابن داسه قال . سمعت أبا داود يقول : كتبت عن النبي عليه الصلاة والسلام حسنة ألف حديث انتجت منها أربعة آلاف حديث وثمانمائة حديث في الأحكام ، فأما أحاديث الزهد والفضائل فلم أخرجها . ويكنى الإنسان لدينه من ذلك أربعة أحاديث : . الأعمال بالنيات ، . الحلال بين والحرام بين ، . ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه ، . ولا يكون المرء مؤمناً حتى يرضى لآخره ما يرضى لنفسه . . وقد نظم طاهر بن مقفوز الأحاديث الأربعة في بيتين لا بأس من ذكرهما هنا قال :

عمدة الدين عدما كُلت أروع من كلام خير البرية :
اتق الشبهات وازهد ودع ما ليس يعينك واعلم بنه

وحيث إن الفضل والقص يتعلقان بالناحية الباطنة للإنسان ، وهذه الناحية الباطنة خافية على نظرها الضعيف - جل الله الذي تفرد بأسرار القلوب - ، وليس من المحال أن عملا عليه كل ظواهر الفضيلة يكون غاية في الشر بماله من الأسباب القوية الخفية التي اقتضته ، فإني أكرر الدعوة وألح في وجوب تهوية الروح الدين في نفوس الأفراد ليشعروا بالمسئولية الادبية الملقاة عليهم : تلك المسئولية الخطيرة التي تتطلب منا في هذا العصر المعقد أن نساهم في بناء جبل جديد يشعر أفرادنا بالتراحم الأخوى بينهم ، عاملين على تهوية أنفسهم بتكاليف الفضيلة الشاقة ، وبالمثابرة على جهود طويلة مغلصة .

المقياس الادبي للشاعر

لفضيلة الأستاذ الشيخ حامد هوني

المدرس في كلية اللغة العربية

للشاعر مبدأ يتجسم فيه ، وتنبجلى عنده شخصيته وعظمته ، وعليه تتوقف كرامته ومعزته : ذلك هو ما تأنيه شاعريته من عبقرية في عالم التصوير والتعبير هذا المبدأ هو مقياسه الصحيح ، وإن هالك منه مبدأ ساقط في خلفه أو عقيدته .

خذ المنفى من شعراء العرب مثلاً ، واعرض أمامك شعره ، ثم ارجع الى نفسك ، وتأمل مشهد الجبال الرائع فيه ، ومكان العبقرية الساحرة من كلامه ؛ فإنك ترى قد نسيت غلوه في مديحه ، وقذعه في هجائه ، وتماديه في كبريائه ، ونفته في أوصافه ، وتجسم لك منه جمال خفي ، هو شخصيته الادبية المتمثلة في بيانه الساحر ، وشاعريته الخلاقة .

فليس المنفى الذي نكرمه ، وبجل شعره ، مداحة سيف الدولة أو كافور ؛ ولا هو ذلك الروح الطمّاح الفخور ، ولا هو ذلك الهتّاج المقدّع ، ولا هو ذا الالف المحشو صلفاً وكبراً ؛ بل هو تلك الشرارة المنبعثة من توقد ذهنه واقتداح فكره ؛ هو شاعر الحياة في عصره ، ومصدر روعة الجبال بحكمته وأمثاله لأبناء دهره .

وخذ المعري مثلاً ، وادرس شعره ، ثم قف وتأمل مدى تأثيره ، وسل نفسك بعد ذلك : لماذا يُجلّ الأديباء أبا العلاء ؟ ولأى شيء يقدرسونه ؟ وما هي القوة الدافعة إلى الإعجاب به ؟ وعلام ذاع صيته بين أديباء عصره وغير عصره ؟ لامرأ أنك إذ تنظر اليه جملة ، تتغاضى عن تكلفه ولزومه ، وتناسي مرارته في تشاؤمه وانتقاده ، و تنصى الطرف عن تطرفه وتعاليه في اعتقاده ، ويتلفاك منه ما يملؤك روعة وجلالا ، وينفث فيك سحراً حلالاً .

فبدؤه في الحياة والوجود ، واعتقاده في الإنسان والمُمران — إن صح

ما يقولون - مبدأ هو الأمر ، وقد يهيج بنا شعور الكراهية له ، والزراية به ، ولكنا مع ذلك لا يسعنا أن نتكر على الشاعر عبقرته ، ولا يثدينا عن أن تقدم اليه بالتجلة والإكبار ، ورفع أبصارنا اليه كما نرفعها الى علم في رأسه تار .
فما المعرى الذى نثبه به وشعره هو ذلك الزائع العقيدة ، المحرف عن الجادة ، المتناقض في رأيه ، ولا هو ذلك الملحد القاتل :

إذا كان لا يحظى بررفك عاقل وترزق مجنوناً وترزق أحقاً
فلا ذب يارب السماء على امرئ رأى منك ما لا يشتهي فترندقا
بل هو ذلك البعيد العور ، المتوهم الدكاه ، المتفقد الخاطر ، الشديد التعق في المعاني ، والتصورات الفلسفية : هو ذلك المعكر البعيد المرمى ، الذى يحاول يديع تصورات ، ورائع خيالاته ومبتدعاته ، أن يخترق الحجب إلى ما لا تدركه العقول ، وحسبك هذا سبباً لإكرام الشاعر ، وتقديسه وإكباره .
بهذا المقياس الأدبي نقيس شخصية شاعرنا الكبير ، شوق ، في كل جيل ، وفي كل زمان . فها هو ذا في مظاهر ديوانه : متداحة ، مدام ، وطى ، محب ، حكيم ، كما هو شأن الكثير من شعراء عصره ؛ ولكن التأمل في شعره يرى فيه إبداعاً في المعنى ، وبراعة في التصوير ، هما حقيقتا التى تميزه عن الكثيرين ، ومقياسه الذى نقيسه به .

فليس هناك ميزان نزنه به سوى الزعة الأدبية السامية ، التى ضرب الشاعر على أوتارها ، فهزت الشرق العربى من أقصاه إلى أقصاه .

فما شوق في تاريخ الأدب ذلك اللعوب اللاهى تحت كرمه ابن هانيه (١) ، ولا ذلك المتداحة المدام في بلاط عباس الثانى ، بل هو ذلك الروح الشرقى ، مُهيباً بالشرقين إلى تسنم ذروة الإبداع والابتداع في عالم الأدب والشعر العربى ، دافعاً بهم إلى الأمام .

ولو التفتنا الى وقتنا الحاضر ، وأردنا أن نرسم صورة أحد من أفذاذ شعرائه ما استطعنا الى ذلك سبيلاً ، دون أن نحاول الوصول الى المجرى المعكرو منه ، أو الروح الأدبى فيه ، من غير نظر الى ما وراء ذلك ؟

(١) اسم أصله على منزله ، وكثيراً ما كان يفتح على موال ابن هاني الشاعر الأندلسى .

السيد الجرجاني

٧٤٠ - ٨١٦ هـ

لعضيلة الأستاذ الشيخ علي محمد حسن العماري
مبعوث الأزهر الى المعهد العلمي بأم درمان

لا يكاد يذكر اسم سعد الدين التفتازاني حتى يطوف بالخواطر اسم السيد الشريف ، وقد أصبح من العبارات المألوفة عند دارسي علوم البلاغة والكلام ، أن يقولوا : السعد والسيد ؛ فن هو السيد الجرجاني ؟

نشأته : هو علي بن محمد بن زيد الداعي ، بينه وبينه ثلاثة عشر أباً ، ولد في قرية قريبة من (سراياذ) بين همدان وبغداد ، وتلذذ لسعد الدين ، وأخذ شرح المفتاح للقطب عن ابن مؤلفه مخلص الدين ، وقدم القاهرة ، ودرس بها ، ثم خرج الى بلاد الروم ، وقدمه السعد للشاه ، فظهر نبوغه واشتهر عليه ، فعيّن أستاذاً في شيراز ، حتى افتتح تيمورلك شيراز ، فأرسله الى سمرقند ، فبقي بها مدة حياة تيمور ، ثم عاد الى شيراز . ومع ما كان له من عظيم المسكنة في بلاط تيمور فقد لقي من عنات الأيام ، ومن قسوة الدهر أحداثاً ، جعلته يحجر بالشكوى ، ويبتزم بعيشه ، فلا ينسى أن يتحدث عما لقي من صروف الزمان ، وخطوب الحداث ، ولا يرى بدا من أن يذكر أنه ابتلى في آخر عمره بالرحلة الى ما وراء النهر .

مؤلفاته : ألف في كثير من العلوم ، باللغتين العربية والفارسية ؛ ألف في الفقه والنحو والتفسير والكلام والفلسفة والفلك ، وألف في علوم البلاغة : (١) شرح المفتاح . (٢) علم المعاني والبيان ، وهو شرح للقصم الثالث من معاني العلوم ، وهو مخطوط منه نسج بالمكتبة الأزهرية . (٣) حاشية على المطول لسعد الدين ، وهي مشهورة ؛ وكثير من مؤلفاته شروح وحواش على بعض الكتب ، وبعضها كتب موصوعة ، وقد انتفع الناس بمؤلفاته ، واعتبروه حجة في كل هذه الفنون ؛ ومؤلفاته مشهورة في كل فن ، يحتج بها أكابر العلماء ، ويقولون

منها ، ويوردون ويصدرون عنها ، وهي كثيرة المعاني ، واضحة الالفاظ ، قليلة التكلف والتعقيد الذي يوقع فيه عجمة اللسان ، كما يقع في مصنفات كثير من المعجم . والسيد يميل الى التحقيق الدقيق ، ويعنى بنقد العبارة . ولعل ولعه بالتعمق في البحث وتصفية الأسلوب هو الذي دعاه الى كتابة كثير من الحواشي ، والتعليقات على المؤلفات .

منزلة العلية : من علماء الشرق الانداز في عصره ، وقد كان إماما في جميع العلوم العقلية ، وكثير غيرها ، متبحرا في دقيقتها وجليلها ، وسار ذكره ، وطار صيته في الآفاق ، وقد كان العلماء في عصره يفتخرون بالأخذ عنه ، والانتساب إليه ، ثم صار من بعدهم يفتخرون بالأخذ عن تلامذته . وقد قدما في ترجمة للسعد أن علماء المعجم كانوا يعدون من مفاخر كبار علمائهم أن يكون رأيهم مع السيد أو مع السعد .

ونستطيع أن نتبين المحي الاصيل للسيد الشريف في البلاغة إذا نظرنا نظرة فاحصة في كتبه ، ولكننا نجد من كلامه هو شاهدا نكتفي به الآن . فإما نتبين منهجه في التأليف والتحقيق من هذا الذي ذكر . ونحب أن نقول قبل أن نذكر هذه العبارات : إن هذه المدرسة (مدرسة السعد والسيد) ، والمدرسة التي كانت قبلها الى عهد السكاكي ، والمدارس التي جاءت بعد ذلك ، كانت كلها مطبوعة بطابع واحد لا يشذ عن ذلك إلا أفراد : ذلك الطابع هو الذي يصوره السيد في العبارات التي سنقولها ، وهي قصر من مقدمته للحاشية التي كتبها على المطول . على أننا ذكرنا آنفا هذه الطريقة عند ما نقلنا قول العلامة ابن خلدون فيها . قال السيد : « وعساك إذا تأملت فيها متمسكا بذيل الإصاف ، ومتجنباً عن مسلك الاعتساف ، ظفرت بما تستعين به على تحقيق أصول من البلاغة في مواضع شتى ، وتسلق الى فروعها كما تحب وترضى ، وانكشفت لك مطالب جلية من عبارات القوم قد زل عنها أدهان أقوام تاموا فيها ، خصوصا في مباحث التعريفات ، وتحقيق أقسام الوضع ، ومعنى الحرف ، وأنواع الدلالات ، وفي الكشف عن زبدة التعريض ، وحقائق الاستعارات ، فهذه كلها مباحث منطقية ينظر إليها السيد وجميع علماء البلاغة في عصره وفيما بعد عصره ، نظرا خاصا . ولا غرو فيإمامهم أبو يعقوب السكاكي يعد علم المطلق مكملا لعلوم البلاغة .

لكنه في مقدمة كتابه (المعاني والبيان) مجده ينهج نهجا نظنه بعيدا عن طريقة هؤلاء ؛ فهو يقول بعد الحديث عن أصحابه الذين طلبوا إليه أن يشرح القسم الثالث من المفتاح : نمل عليهم ما يجهلون من الضلال ، ويحظيهم بأجل نوال ، في عبارات موضحة بلا إملال ، وإشارات موفقة بلا إخلال ، تشيد فيه قواعد القوائد ، ونمجد فيه موائد العوائد ، معرضين عما لا طائل في رده ، ولا حاصل في نقده ، ومقتصرين على تلخيص الصواب ، وتمييز القشر من اللباب . وهي وعود - وربي - حلوة جميلة ، ولسكنا لا نجدد يخرج في تلك العبارات ، وهذه الإشارات ، عن التحقيقات اللفظية ، والمباحث المطقية .

على أني لاحظت على هؤلاء الاعلام ، أنه ما من مؤلف إلا يبتدىء تأليفه بالثناء على نفسه ، والامتداح لها ، وبيان ما حصله من العلم ، وما وقف عليه من التحقيق ؛ وهذه صفة لا تزال من لوازم العلماء ، وهي نقص كبير ؛ غير أن ما وقع فيه السيد الشريف كان أبعد عن جادة الاعتدال ، فقد رأيت يتقص من سبقوه إلى شرح المفتاح ، وهو - بطبيعة الحال - يعني شيخه السعد ، وشيخ السعد القطب ؛ فقد ألف السعد شرح القسم الثالث من المفتاح في مدينة سرخس سنة ٧٨٦ هـ . وبعد بتسع سنوات ألف السيد شرحه لهذا القسم ؛ وقد ذكرنا أن السيد قرأ شرح المفتاح للقطب في بدء دراسته . ثم تراه يقول في مقدمة هذا الشرح : « حتى ابتليت في آخر العمر ، بالارتحال إلى ما وراء النهر ، فوجدت هناك أقواما عطشى الأكباد ، يحومون حول الكتاب ولا يهتدون إلى موارده سبيلا ، وآخرين منحرفين عن السداد قد غاضوا إلى لججه بلا إرشاد ، فلم يجدوا عن فرائده دليلا ، وكأروا في حل تراكيبه ، والكشف عن نكت أساليبه ، متكئين على شروح أكثرها جروح ، وأمثلها مدحول ومجروح ، لا ترى فيها لفيل شعاع ، ولا لليل دواء ، كسراب بقية يحسب الظمآن ماء ، قد اتخذوها مسارح أنظارهم ، ومطارح أفكارهم ، فقلنا يأهل الكتاب لستم على شيء تفخون بلا ضرام ، وتسمنون بلا أورام ، تضيعون الأعمار ، ولا تستضيئون الأنوار ، ونحسبون أنفسكم تحسنون صنعا ؛ فلمعمرى ما أتم إلا كباسط كفيه إلى الماء أو كنازح من البئر بلا رشاء ، بل كطالب للترقى إلى السماء . فهذا التجريح الآليم ، والهجوم العنيف على أسانئته لا يرضينا حتى في هذا العصر الذي أصبح من فصائل العالم فيه

أن يتنقص غيره من العلماء . ثم إذا تأنى وجدناه بعد ذلك يطيل في الثناء على نفسه ، ويسموها إلى مكان رفيع مما لديه تنصا في العلماء ، فيقول عن أصحابه : « فأتيناهم من آياتنا الكبرى ، فطلعت أعينهم لها خاضعين ، فقالوا آمنا بما جاءنا من الحق المبين ، فردنا من لدنك علماء ، وهيب لنا من أمرنا رشدا » . ولو لا أن أكون عابا ، ثم للعلماء خاصة — كما يقول الجاحظ — لوصفت هذا الكلام بما هو أهل له ، ولكن يضيق صدرى ولا يطلق لساني !

مناظرته مع أستاذه : لعل مناظرته مع السعد من أشهر المناظرات العلوية ، وقد كان لهذه المناظرة صدى عال في عصرهما ، ودوى مرتفع ، واختلاف في شأنها بين العلماء ، وبقى لها هذا الشأن زما طويلا بعد عصرهما ، حتى ألفت فيها الكتب ووضعت الرسائل لترجيح رأى أحدهما : ويغلب على ظني أنه جرت بينهما أكثر من مناظرة ، ولكن رويت لنا مناظرتان حدثتا في مجلس تيمور ، كان موضوع الأولى (كون إرادة الانتقام سببا في العضب ، أو العضب سببا في الانتقام) ، وكان موضوع الثانية (اجتماع الاستعارة التبعية والنتيلية في كلام صاحب الكشف في قوله تعالى أولئك على هدى من ربهم) . وقال الشوكاني في كتابه (الدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع) ما يأتي : « وجرت بينهما المناظرة المشهورة في قوله تعالى : « حتم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة » . ومن هنا رجحت أنه جرت بينهما مناظرات لا مناظرتان فقط .

وفي المناظرة الأخيرة تجمعت أسباب ، وتظاهرت في جانب السيد ، فاستطاع أن يصرع خصمه ؛ من هذه الأسباب ما هو سياسي ، ومنها ما هو على . ونجملها فنقول . كان السيد في هذا الوقت في سن الخمسين ، بينما كان السعد في حدود السبعين ، وقد حلت به العلل والأمراض ، وذهب عنه الإخوان والأنصار ، يحدثنا هو هذه الحال الاليمية حين شرع يشرح القسم الثالث من المعتاح ، وكان ذلك منذ خمس سنوات ، فيقول . « لكن لم أجد في نفسي حركة لشبهة ، بل حردة مستشيطه ، لما رأيته قد أخذت السن من قواي ، وذهب مع الركب هواي ومناي ، وقد آدن الكفيل بالرحيل ، ولم يبق عي إلا القليل ، مع ما ميت به من انقراض من كنت أراجعه من الفضلاء الذين تفسحت في هذا الباب خطاهم ، والآدكياء الذين تنفست في ميادينه مدام » . ومن مفارقه الإخوان الذين كان الواحد منهم يسمع مني

الكلمة فيضعها على رأسه ، ويمض عليها بأضراسه . . ومن الخطأ البين أن يغفل الباحث في مثل هذه الملاحظات عامل السن ، وضعف القوى ، والحالة النفسية ؛ فإن هذه الملاحظات تحتاج إلى سعة الخيلة ، وقوة العارضة ، وإجادة (التبريج) أكثر مما تحتاج إلى رزاقه العالم ، وعبقريته النابغة . وعندى أن البديع الحمداً في كان يعتمد في ملاحظته مع أستاذه الخوارزمي على أمور أهمها هذا الفارق في السن . يضاف إلى ذلك أن مكانة السيد السياسية كانت أقوى من مكانة السعد ، ويقال إن وزيراً من وزراء تيموركات ضلعه مع السيد ، بل يقال ما هو أبعد من ذلك ، وهو أن هوى المحكمين في الملاحظة كان مع السيد ، ولا ننسى مطلقاً هذا الفارق الذي أفرنا إليه آنفاً ، من أن السيد كان فصيح اللسان ، ناصع المقالة ، طيب الحديث ، في حين كانت في السعد لكتنة في اللسان ، وبجمة في الأسلوب .

كل هذه كانت مقدمات طبيعية لانتصار السيد . على أننا نشك في كثير مما لاس هذه الملاحظات ، فإن من مصادرها ذات الأهمية كتب السيد نفسه ، ونحن لم نر ما كتبه السيد في امتداح صبه ، والإشادة بنبوغه حتى استخدم الآيات القرآنية في هذا السيل ، استخداماً لا نحمده له ، فلا يبعد عندي أن يكون اساق في تاريخ هذه الملاحظات وراء عاطفة حب النساء التي ظهرت أماراتها فيما كتب عن نفسه .

ومما يكن من شيء فإن هذه الملاحظات لم تعد على العلم بمائدة ؛ فقد دارت حول مما حكات لفظية ، لا طائل تحتها ، وهي إلى الجدل أقرب منها إلى لباب العلم . على أن الحق الذي كان بين المتناظرين حملها على كثير من التحامل ، فلم يبد على هذه الملاحظات حب الحقيقة أو خدمة العلم ، في حين أنها عادت على السعد بحمران عظيم ، فيما حدث المؤرخون ، فقد قالوا : إنه لما غلب كد ومات في العام التالي .

وقد كتبت في هذه الملاحظات مجموعة من البحوث ، ألف الشوكاني رسالة خاصة سماها (الطود الخفيف ، في الانتصار للسعد على الشريف) . وفي دار الكتب المصرية رسالتان مخطوطتان في هذا الموضوع ، الأولى (ممالك الخلاص في ممالك الخواص) لطا شكبرى زاده ، والأخرى في تحقيق الاستعارة التمثيلية ، ونقل ما جرى فيها من البحث بين السعد التفتازاني والسيد الشريف الجرجاني .

وهناك رواية تقول : إن الجرجاني سأل سعد الدين سؤالا محرجا في جمع من العلماء والأمرء فلم يعرف جوابه فبات لساعته ، وكان له حفيد عالم هو شيخ الإسلام أحمد بن يحيى بن محمد عرف فيما بعد سبب موت جده ، فصمم على الأخذ بثأره بنفس الطريقة ، فانتهر فرصة وجود الجرجاني في حفل كبير ، وألقى عليه سؤالا عويضا كانت نتيجته أن خر الجرجاني صريعا . وقد تأكد عندى أن هذه حرافة ، لأن الحفيد توفي سنة ٩٠٦ هـ وهما طال عمره فلن يدرك السيد إلا طفلا ، اللهم إلا إذا كانت جرت هذه القصة مع حفيد آخر من أحفاد السعد غير هذا المشهور ، وسواء أكانت أسطورة أو كان لها ظل من الحقيقة ، فإنها تدل على ما كان يشغل أذهان الناس من أمر هذه المناظرات والمنافسات بين العالمين الكبار .

مقارنة . تكاد تتشابه حياة هذين العالمين في كثير من فصولها ، ويكاد يكون وصفها لخالها ولأهل زمانها ، ولاندراس العلم في عصرهما ، يكاد يكون هذا الوصف صورة واحدة ، وإن كنا نرجح أن السيد فلد السعد في هذا ، كما أنه أخذ كثيرا من تعبيراته .

شكا السعد دهره ، ودم أيامه ولياليه ، في عبارات لطيفة ، في مقدمة كتابه (الإصباح) المشهور بالمطول ، فقال : . . . وحين فرغت من تسويد هذه الصحائف ، بتلك اللطائف :

رماى الدهر بالأرزاء حتى فزادى في غشاء من نبال
فصرت إذا أصابنى سهام تكشّرت النصال على النصال
وذلك من نوارد الأبحار بتفاقم المصائب في العثار والإخوان ، عند تلاطم
العتن في بلاد حراسان ، لا ميا :

ديار بها حل الشباب نمامي وأول أرض مس جلدى ترابها
فلقد جرد الدهر على أهلها سيف العدوان ، وأباد من كان فيها من السكان ، فلم
يدع من أوطانها إلا دمه لم تنكلم من أم أوى ، ولم يبق من -ربها إلا قوم يلدح عفى .
كان لم يكن بين الحبور إلى الصفا أنيس ، ولم يسمر بمسكة سامر
والى الله المشتكى من دهر إذا أساء أصر على إساءته ، وإن أحسن ندم عليه
من ساعته ، ثم ألجأتني فرط الملل ، وضيق البال ، إلى أن تلفظت أرض إلى أرض ،
وتجرتني من رفع إلى خفض . . .

وهكذا يجده يردد أمثال هذه الشكايات ؛ كما يجد السيد يتحدث عن نفسه شاكيا أيضا ، وإن كان في ذلك أحفض صوتا ، وأهدأ نفسا ، وأخف شكاية . وكلاهما يذم الناس في عصره ، ويضيق بجهلهم وحسدكم درعا ، وفي ذلك يقول السيد بعد أن مهد لشرح القسم الثالث من المفتاح ، هدية مني إلى كل ذكي جبل على الإنصاف طبعه ، وعصم على الاعتصام نفسه ، وقليل مام ، وإن أكثرهم — كما ترى — إما على قلوبهم أكة فلا يكادون يفقهون حديثنا ، أولئك كالأنعام بل هم أضل سبيلا ، أو يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ، فإذا جاءهم ما عرفوا كفروا به ، وأرادوا نليسا وتديسا ، أولئك حزب الشيطان ، ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون . ويقول السعد في وصف أخلاق الناس : . وإلى الله أنصرع في أن ينفع به المحصلين الدين هم للحق طالبون ، وعن طريق العناد ماكبون ، وغرضهم تحصيل الحق المبين ، لا تصوير الباطل بصورة اليقين ، وهذا — لعمري — موصوف عزيز المرام . قليل الوجود في هذه الأيام ، فلقد غلب على الطباع اللدد والعماد ، وفشا الجدل والحسد بين العباد ، ولئن فاتني من الناس الشاء الجميل في العاجل ، خشي ما أرجو من الثواب الجزيل في الآجل ، وما توفيق إلا باقة عليه توكلت واليه أنيب .

ويتصل بهذا نظرتهما إلى من سبقهما من المؤلفين والعلماء في عصرهما . فالسعد يتعرض لمؤلاه ، ولكن في رفق وأدب ، يتحدث عن المفتاح فيقول : . ترى بعض متعاطيه قد اكتفوا بما فهموه من ظاهر المقال ، من غير أن يكون لهم اطلاع على حقيقة الحال ، وبعضهم قد تصدوا لسلوك طرائقه من غير دليل ، فأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل . أما السيد فانه يمرض لمؤلاه ، ويمكن في صف وقسوة وسخرية لاذعة ، وحسبك ما نقلناه عنه آنفا في هذا الشأن .

وقد عرفت دون شك من ترجمة الرجلين ما جعرا به من اندراس العلم في زمانهما ، أما الأسلوب فاما نجد السيد أنصع أسلوبا ، وأصنى ديباجة ، وأبعد عن الأصباغ اللغوية ، حتى السجع نفسه لا يكاد يلتزمه ، والمحازات البعيدة ، والاستعارات المردولة ، كلامه ينمأ عن ذلك كله ، مع سلاسة ويسر ، ولبس ، وسهولة ، وهو — كما رأينا — مغرم بالاقبال من القرآن الكريم ؟

عود الى حديث الفطرة

للمصيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد المدني
المفتش بالأزهر

في عدد من أعداد مجلة الأزهر الفراء كتبت بحثاً مختصراً بعنوانه : فطرة الله ،
بيّنت فيه أن الاعتراف بالخالق والإيمان بوجدانيته هو الأصل والفطرة التي
فطر الله الناس عليها ، وأن مظهر ذلك هو العقل الإنساني الذي لا يسهه حين
يتدبر الدلائل ، ويرى هذا الكون البديع ، إلا أن يعترف ويؤمن بصانعه القدير^(١) .
ولو أن الفطرة الإنسانية ظلت كما هي ، وظل الناس جميعاً معترفين بربهم ،
مؤمنين به إيماناً صحيحاً على أنه الإله الواحد القادر العادل الذي لاسلطان لاحد
مع سلطانه ، ولا فرق في عدله ورحمته وألوهيته بين إنسان وإنسان — لاجدت
هذه الفطرة السليمة على العالم كله خيرات وبركات ، ولما تولد كثير من ألوان
الشرور والفساد التي عرفها البشر ، فحملوا منها أعباء ثقالا ، وذاقوا بها آلاماً
مريرة ؛ ذلك بأن عقيدة التوحيد هي أرسخ العقائد التي تنبئ عليها كرامة الإنسان ،
وتجعله يشعر في نفسه دائماً أنه كائن حي سام ، ليس كغيره من هذه الكائنات التي
تسام الخسف ، وتسحر للأقوياء والمسلطين ، وأن له في الحياة رسالة كريمة اختاره
الله لأدائها ؛ هي عمارة هذا الكون ، والانتفاع بما خلق الله فيه من شيء .

ولكن هذه الفطرة الصافية لم تلبث على صفائها ، ولم يزل بها أهل الأهواء
والشهوات من الرؤساء والكهنة وأمثالهم حتى كدروها وأفسدوها ؛ فكل من
قرأ تاريخ الأمم ، وتابيع أطوار العقائد فيها ، يبدو له في وضوح وجللاء أن هدين
الصنفين من الخاصة قد تأمروا على العامة في كل شعب ، فأخذوهم سواء السبيل ،
ليتخذوهم عبيداً لهم ، وآلات مسخرة ، تتحرك متى يشاءون ، وتقف متى يشاءون ،
وتعمل ما يرسمون ، وتترك ما لا يريدون ، دون أن تعرف لنفسها حقاً ، أو تدرك
لماذي سحرت هذا التسخير .

(١) المجلة التاسع عشر من مجلة الأزهر ، جزء ربيع الأول سنة ١٣٢٧ .

تأمر هذان الصنفان من الخاصة على الشعوب ؛ فأما الرؤساء فقد اصطفوا الكهنة وأمثالهم يعدقون عليهم العطاء ، ويمنحونهم كثيرا من ألوان السلطان والنفوذ ، ليقودوا لهم العامة ، ويسلسوا لهم هذا القياد . اصطنعوا الكهنة وأمثالهم بمن زعموا أن لهم اتصالا بعالم الغيب ، ونسبة خاصة الى القوة القاهرة المدبرة للكون ، وتظاهروا أمام الناس بأنهم خاضعون لهم ، منفذون لما يشيرون به ، قائمون في ذلك بما يحل عليه الآلهة المقدسون بوساطتهم ؛ وهكذا تظاهروا أمام الشعوب بأنهم حماة العقيدة ، وصدقهم هذه الشعوب ، ففعلوا باسم هذه الحماية ما أرادوا ، واستعلوا بها ما استعلوا ، والناس ههنا عافلون !

وأما الكهنة وأمثالهم ، فقد لذت لهم هذه السلطة الغيبية التي زعموها لأنفسهم ، والتي دأب لها الناس من حكام ومحكومين ، إما عن تصنع وخبيث ودهاء ، وإما عن عقيدة وثقة واطمئنان ؛ لذت لهم هذه السلطة التي جعلت لهم مكانا رفيعا ، ونفوذًا مطاعا ، وجلبت لهم من المافع الخاصة ما لم يكونوا ليدركوه لولاها ، فاستمرروا ذلك ، وحافظوا عليه ، وأمعنوا في تضليل الناس ، ولفتهم عن مقتضى الفطرة ، وبذلك اقتسموا مع الرؤساء السيطرة والمنافع ، وتحالف الجميع على أن يظل لكل منهم نصيبه ، لا يحاول الآخر أن ينقصه أو يمسه من قريب أو من بعيد . ومضت على ذلك حزب ودهور ، غلغ الناس على الأوهام والخرافات صفة المعتقدات الحققة ، وتوارثوها كأنها حقائق مسلمة لا تقبل الجدل ولا المراء ، وخفت كل صوت من أصوات المعارضة لها ، والنقد لما فيها ، والتفيه إلى فسادها ، خوفا من غضب هؤلاء المتأمرين ، وتجنبيا لانتقامهم السريع القاطع ، فاحبط بذلك شأن الإنسان ، وفقد كرامته ، واستنام إلى المتأمرين عليه ، لا يقاومهم ، ولا يسألهم ، ولا يشك فيهم ، ولا يعتقد أن وراء ما يقولون قولا ، أو غير ما يحكون حكما ، وكان من آثار ذلك أمران خطيران :

أولهما : أن السبل تشعبت بالناس ، فترققوا في العقائد ، وانحرفوا عن إدراك الواقع الصحيح فيها ، فصار منهم من يعبد الكواكب ، ومنهم من يعبد الأحجار ، ومنهم من يعبد الأشجار ، ومنهم من يعبد أنواع الحيوان ، وبهذا أصبح الجنس الواحد أجناسا مختلفة ، قطعت بينهم الأسباب ، واقتربت السبل ، وأباحت عرى التعاون والتوافق .

الأمر الثاني : أن التواء الإنسان عن معتضى الفطرة ، وإرتطامه في ظلمات الشرك والوثنية ، جر عليه ألوانا من الفساد والشر ، فكار فريسة الجبل والظلم ، وأصبحت القوة هي القانون المطاع ، كما هو الشأن بين وحوش الغاب ، وليس للأخلاق موازين ، ولا للفضائل مقاييس ، ولا للشرف قيمة ، ولا للحياة الطيبة مُثُلٌ تحذى أو تراد ؛ وما لهذا خلق الإنسان ، ولا بهذا استحق خلافة الله في الأرض ، ولا لهذا استحق بو آدم التكريم على سائر ما خلق الله

فلم يكن بد من هداية الله ، تكفله وتهذيبه وتقرب له السبيل ، وترسم له الصراط المستقيم ، وتبصره بقيمته وكرامته ، وتخرجه من الظلمات إلى النور . وبذلك كانت الرسالات الإلهية ، فأوحى الله ما أوحى إلى عرج واليبين من بعده ، حتى ختمت الرسالات بأشرف رسالة وأكملها ، وأبقاها على الأيام . رسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

° ° °

ترى هل طال الأمد على الناس ، ففسوا ما ذكروا به ، وقست قلوبهم ، فهم يعودون إلى لون آخر من ألوان الانحلال ، وفقد الكرامة الإنسانية ، والتعاضد والتقاطع ، لاختلاف الأفكار ، وتعدد المازع والمقائد ؟

لقد انبثق نور الإسلام من الجزيرة العربية في عهد محمد وخلفائه ، فلم تبق عين في العالم إلا شهدت هذا النور ، وانتفعت أوتنيأت للانفخاع به ، ولوظل المسلمون على ما كانوا عليه في ذلك العهد مؤمنين بكتاب ربهم ، وسنة رسولهم ، حاملين لواء هذه الدعوة الكبرى إلى العالم شرقه وغربه ، لكان للناس اليوم شأن غير هذا الشأن المضطرب ، ولما كانت المذاهب الطائفة ، والأفكار المتصارعة ، والنظم التي تعيش حيناً ثم تموت ، ويضطرب بها العالم حين تعيش وحين تموت ، بل لتحقيق الحلم الانساني الجليل في حكومة واحدة تدر شأن العالم كله ، وتنفسم في عدل ويسر ما أودعه الله كل قطر من أقطار الأرض كما هو شأن الأمة الواحدة ؛ فما كان الإسلام إلا خلاصة رسالات الله وصفوتها ، وما كان الإسلام إلا دينا عاما للبشرية في مشارق الأرض ومغاربها ، يوم أرسل به الرسول العربي ، ويوم دق به على أبواب العالم في شخص دولتي العرس والروم ؛ وإنه لكذلك حتى يقوم الناس لرب العالمين .

ولكن المسلمين وقفوا به ، وكأثوا عن دعوته ، وصار حطهم منه الاتساع اليه ، فلم يعد العالم يصير هذا الور الساطع ، ولم يعد يسمع عنه إلا الدعاوات السيئة التي يذيعها عنه خصومه ، والطامعون في بلاده .

إن المسلمين لمستولون عن هذا التراث العظيم : لم ناموا عنه ، ولم وقفوا به ، ولم فكسوا عن الدعوة اليه حتى يعم الأرض ، ويكون كما أراد الله دين البشر عامة ؟ إنهم مستولون عن ذلك ، ومستولون عن السبب الذي أمضى بهم اليه ، ولم يزل عقلاؤهم وكبار مفكرهم يلخصون هذا السبب في كلمة واحدة هي : التفرق ؛ كل شعب من شعوب المسلمين عاكف على نفسه ، مشغول بما عنده ، وكل طائفة من طوائف هذه الأمة الواحد تنظر الى الطائفة الأخرى كما ينظر الغريب الى الغريب ، أو كما ينظر العدو الى العدو ، فهؤلاء شيعة ، وهؤلاء أهل سنة ، والشيعنة تفرق الى كذا وكذا ، والسنة تفرق الى كذا وكذا ؛ تخطوا أمرهم بينهم ذرا ، كل حزب بما لديهم فرحون .

ومن المحال أن يوجهوا الى العالم دعوة إلى دين الله الحق ، وهم عنه متخاذلون ، وفيه مختلفون . وماذا يقولون لو قال لهم الناس : أي دين تدعوننا إليه ؟ أدين أهل إيران ؟ أم دين أهل مصر ؟ أم دين أهل العراق ؟ أم دين أهل الحجاز ومكة ؟ أم دين أهل اليمن ؟ بل ماذا يقولون لهم إذا قالوا : أصلحوا أنفسكم بهذا الدين أنفسكم أولا ، ثم ادعوا إليه غيركم ؟ .

سيظل العالم بعيدا عن هدى الله ما ظل حملة هذا الهدى عنه غافلين ، وفيه مفرطين ؛ وسيظل أهل الإسلام ضعفاء عن حمل لوائه ، عاجزين عن تجلج نور ما داموا في حلاقتهم متورطين . وفي ظلمات عصياتهم متخبطين .

وإذا كانت الرسالات الإلهية قد أنقذت البشرية في أطوارها الأولى من التعصير المفسدين الذين تأمروا عليها ، فإن للعالم لأملا في فئة من المصلحين تتمخض عنهم بلاد الإسلام ، فيصلحون ما أفسد الدهر ، ويرأبون ما أنأت يد النفقات ؛ فقد تأذن الله ليمش في هذه الأمة بعد حين من يحدد أمر دينها ، ويميد إلى هذه الدعوة شبابها . وصدق الله العظيم : « فسيقولون من يعيدنا ؟ قل الذي فطركم أول مرة ، فسيقولون إليك رموسهم ويقولون : متى هو ؟ قل عسى أن يكون قريبا ؛ يوم يدعوك فستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلا » .

الركن الشرعى للجريمة

في الشريعة الاسلامية والقوانين الوضعية

للمحاضرة الأستاذ الدكتور أحمد محمد إبراهيم
القاضى بمحكمة النيا

لا جريمة ولا عقوبة بغير نص :

من المبادئ الأساسية اليوم في كل التشريعات الجنائية ، مبدأ يقضى بأنه لا جريمة ولا عقوبة بغير نص . ويقصد بذلك أن الشخص لا يعاقب عن فعل أثناء إذا لم يكن معاقباً عليه في ذلك الوقت ، كما أنه لا يعاقب عليه بعقوبة أشد من العقوبة التي كان يمكن أن يعاقب بها وقت ارتكاب الفعل . فإذا لم يكن الفعل الذى قام به معاقباً عليه ثم صدر قانون يحرمه بعد ذلك ، فلا تجوز محاكته بعد صدور القانون الجديد . وكذلك إذا كان الفعل معاقباً عليه بعقوبة ما ثم صدر قانون لاحق يشدد العقوبة ، فلا يمكن معاقبة الجاني إلا بالعقوبة التي كان معمولاً بها وقت ارتكاب الجريمة .

هذا المبدأ هو ما جعله علماء القانون ركناً من أركان الجريمة ، وأطلقوا عليه اسم : الركن الشرعى للجريمة . وقد نص الدستور المصرى على هذا المبدأ في المادة السادسة منه ، فهي تقضى بأنه لا جريمة ولا عقوبة إلا بناء على قانون ، ولا عقاب إلا على الأفعال اللاحقة لصدور القانون الذى ينص عليها . وكذلك تنص المادة الخامسة من قانون العقوبات على أنه يعاقب على الجرائم بمقتضى القانون المعمول به وقت ارتكابها .

ولم يعمل بمبدأ شرعية الجرائم والعقوبات إلا منذ الثورة الفرنسية حين قررت حقوق الإنسان ؛ أما قبل ذلك فكان سلطان القاضى واسعاً . كان من

حقه أن يعاقب على الأفعال التي يرى العقاب عليها ، وأن يقدر العقوبة التي يراها
هو مناسبة للجريمة .

والحكمة من تقرير هذا المبدأ هي أن يكون الأفراد على بينة من الجرائم
التي يعاقب عليها القانون ؛ فإذا ارتكب شخص بعد ذلك جريمة من هذه الجرائم
نقد وجب عليه أن يتحمل نتيجة ما جرت يده . هذا فضلا عن أن علم الناس
بالجرائم وعقوباتها يكون رادعاً لهم عن ارتكابها . ويضاف إلى ما تقدم أن
هذا المبدأ يمنع تعسف القضاء وبإتي سلطات الدولة ، فلا يمكن أن يعاقب شخص
على ما يباح لسواه ، كما لا يمكن أن يعاقب بمقوبة تختلف عن العقوبة التي
يعاقب بها غيره .

ويؤخذ على هذا المبدأ أن المشرع لا يمكنه أن يحدد كل الأفعال التي يجب
اعتبارها جرائم ؛ ولذلك كثيراً ما يستطيع المجرمون أن يتحايلوا على نصوص
القانون ويأتوا أفعالاً في منتهى الخطورة ، ومع ذلك تقف الدولة عاجزة إزاءهم
لأن نصوص القانون لا تنفع لعقاب هذه الأفعال . ولهذا السبب صدر في ألمانيا
سنة ١٩٣٥ قانون يعطى القاضي إذا رفع إليه فعل ارتكب ، وفيه أساس بالمجتمع
الألماني دون أن يطبق عليه نص جائي - سلطة اعتباره جريمة وتوقيع العقاب
على فاعله . وقد بدأ علماء القانون الجنائي يعدون النظر في هذا المبدأ ، وقد كان
محل بحثهم في بعض مؤتمراتهم الدولية لمعرفة مبلغ حاجة المجتمع إليه ، ووجه عجزه
عن حماية مصالحه .

وقبل أن نفصل إلى بحث ما إذا كان هذا المبدأ معمولاً به في فقه الشريعة
الفراء أم لا ، يجب أن نذكر أن الشريعة الإسلامية هي آخر الشرائع ، وواجب
العمل بأحكامها في كل زمان ومكان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . ولهذا
نجد أن الله سبحانه وتعالى قد وضع الأحكام التي لأصلاح المجتمع إلا بها ، والتي
لا يجوز أن يكون هناك خلاف على تحريمها ، وترك ما عدا ذلك لينظمه المشرع
في كل دولة حسب حاجاتها . ولقد قدرت آيات الأحكام في القرآن الكريم
بحوالى مائتي آية من مجموع آياته التي تبلغ حوالى ستة آلاف آية .

قد يقال لأول وهلة : إن الشريعة الإسلامية لا تعرف مبدأ شرعية الجرائم والمقوبات ، لأنها تعطى القاضي سلطة التعزير في الجرائم التي ليس فيها حد مقدور ، ولم تحدد له هذه الجرائم ولا عقوباتها ، بل تركت ذلك لاجتهاده وتقديره .

وبحسب عن هذا بما سبق ذكره من أن الشريعة الإسلامية لا بد من أن تساير الزمن في تطوره ، وأن تلاحق المجرمين مهما تفسوا في محاولة الحرب من نصوص القانون ؛ كما أن القاضي مقيد بالأصول العامة للشريعة لا يستطيع أن يحدد منها ، فلا يجوز له أن يستحسن القبيح ، ولا أن يحرم المباح . هذا فضلا عن أن هذا المبدأ قد صار محل بحث العلماء ، ولو أن الشريعة نصت على هذا المبدأ وجعلته لازما ، لاستحال الرجوع عنه فيما لو أثبت الزمن عدم إمكان تطبيقه على وجه مطلق .

وإذا كانت الشريعة لم تضع هذا المبدأ أو نص عليه ، إلا أنه ليس في أحكامها ما يتنافى معه . وفي هذا المعنى قال الأستاذ الشيخ المراعى رحمه الله في كلمة افتتاح أعمال اللجنة التي عهد إليها وضع قانون جديد للأحوال الشخصية : « نعم إنه وإن كان تخير الأحكام حسا وعمل به من قبل ، إلا أن ترك الحرية لتقصاة مختارون ، يعدو في الحقيقة قوانين الدولة الواحدة والامة الواحدة ، ويجعل الناس حيارى لا يدرون على التحديد أو التقريب النانون الذي يطبق على أقصيتهم عند التنازع . وقد شعر الناس قديما بصير ذلك ، وبوجوب اتباع قانون واحد يسرى على المملكة الواحدة ، فمن الواجب أن يتخير القانون ، وأن يحمل القضاة على اتباعه الخ .^(١) »

وقد تعرض أستاذنا المرحوم الشيخ أحمد بك إبراهيم لهذا الموضوع فقال : « قدما أن التعزير ليس فيه تقدير ، بل هو مفوض إلى رأى القاضي ، وكذا نوعه . وقد أوردنا ما قيل في تحديده بالنسبة لطبقات الناس ، على رأى بعض الفقهاء .

(١) القضاء في الإسلام لأستاذ مشرفه ص ٧٩ .

و بعض الملاحظات : و الآن أقول : إن القاضى بهذه السلطة الواسعة يحل محل الشارع فى اختيار نوع العقوبة وتقديرها ثم يقضى بما يراه . وبهذا تكون العقوبة التى يقضى بها أقرب إلى العدل ، إن لم تكنه ، إذا كان القاضى حسن التقدير . موافقا عالميا بمنزل عن الهوى . أما لو وضعت قواعد لمقادير العقوبات وأنواعها ووزعت على الجرائم على حسب اختلافها ، وقيد المشرع القضاء بما يشرعه له من ذلك ، لكان فى هذا نبوة عن الدقة فى تقدير العقوبة ، لأن حادثتين من نوع واحد ، كاعتداء بضرب أو شتم من شخص على آخر ، محال أو يندر جدا أن تنشأ من جميع الوجوه ، فكيف يكون الجزاء فى كل منهما واحدا ؟ قد يقال إن قواعد العقوبات لها طرفان حاشا عقوبة الأعدام : بجاهد القاضى وبما يقتضيه ، وبما تفتح إليه نفسه ويرضى ضميره ، يقدر العقوبة داخل حدود قاعدتها : وبهذا يقل الاضطراب ولا تنزع مسافة الخلاف بين عقوبات الجرائم التى من نوع واحد وغوارفها قليلة . ويجب أن هذا بأن الطريق الأول هو الأعدل إذا سیر فيه السير القويم ، ولكن هيات ! ففى رأى أن التقيد بالقواعد هو الطريق الأسلم ، كما لا يخفى . فإن قيل : إذا كان الأمر كذلك فلم لم يضع الشارع الإسلامى قواعد لضبط العقوبات التعزيرية ؟ أقول : إن ترك الشارع وضع قواعد لذلك من حيث النوع والمقدار والتوزيع ، لموعين الحكمة والصواب ، ودليل على أنه عليم حكيم يريد ما هو الصالح والأصلح لعباده فى شئونهم الدنيوية فى كل زمان ومكان ؛ فلو وضع لذلك قواعد لوجب العمل بها على جميع من یدین بالإسلام حتى يوم القيامة . ومعلوم أن المجتمع الإنسانى لا يستقر على حال من التغيرات تحت تأثير العوامل المختلفة من داخله ومن خارجه ، فكان من مقتضى الحكمة والرحمة بالناس أن يراعى هذا فى التشريع بالنسبة لأحكام الشئون الدنيوية ، فيترك لأهل كل عصر ما يرونه الأصلح لهم ، مع الاحتفاظ بقواعد الدين الأساسية التى هى خير أساس لباء الأحكام الصالحة فى جميع الأزمنة والأمكنة . أمر بالعدل والإحسان ، ونهى عن أن يظلم الناس بمصهم بعضا ، وأن يأكل بعضهم أموال بعض بالباطل ، إلى غير ذلك من القواعد التى يجب الاعتماد عليها على الدوام^(١).

(١) أحكام المرأ فى الإسلام ص ٥٥٥ ، ٥٥٦ بحث منشور بالسنة السادسة من مجلة قانون والاقتصاد

من هدى الاسلام:

من أين لك هذا ؟

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد المنعم النمر
المدرس بمعهد القاهرة

أشرت في كلتي السابقة تحت هذا العنوان إلى الأهل الذي لا يمكن أن يبي عليه التشريع الحكيم لمحاسبة الموظفين عن مصدر أملاكهم ومن أين جاءت لهم ، وهذا الأصل هو مصادرة الرسول هدية أعطيت لبعض عماله وضمها للأموال العامة . ومعنى هذا أن الرسول قد اعتبر كل مال اكتسب بسلطان الوظيفة زيادة عن المقرر لها من الدولة ، إنما هو من الأموال العامة التي لا يحل للفرد امتلاكها . وفي هذا يقول الرسول عليه السلام صراحة : من استعملناه على عمل ورزقناه رزقا ، فما أخذ بعد ذلك فهو غلول ، (خيانة) . والأخذ طلبا هنا من الشعب بسلطان الوظيفة ، كما تشير الحادثة التي قبل بثأرها هذا الحديث .

وأريد في هذه الكلمة التي وعدت بها ، أن أسرد بعض الحوادث والأحكام التي بناها الخلفاء على هذا الهدى النبوي الكريم . وإنما نجد في تاريخ عمر رضى الله عنه مكانا خصبا للاستشهاد بما يكفيها ويقتنا بأن هذا المبدأ بدأ إسلامي . ولقد قبض الله للمسلمين عندما اتسعت رقعة بلادهم وفتحت عليهم الأمصار ومدت لهم الدنيا أذرعها ، قبض لهم الله عمر صاحب العقلية التشريعية الفريدة التي استطاع بها أن يواجه الحوادث الجديدة بتشريعات حكيمة ، لا تزال للآن موضع نظير التشريع الإسلامي ، ومبعث دهش كبار المشرعين في العالم كله . واتفق وقف عمر رضى الله عنه بين المسلمين وبين الانحدار للدنيا ، فكان من هذه الوقفات المشهودة وقفته لعماله الكثيرين يحاسبهم ويكشف من أحوالهم ما يجعلهم دائما تحت سمعه

وأنصره ، ويأخذهم بالحرم والعدل حتى يكونوا مثلاً لعيرهم ورسلاً لرحمة وإرشاد ، فلا يزعمون بسططان الولاية على المسلمين ، ولا يستغلونهم ليلقوا خيراتهم .

والهدايا دائماً هي الباب الذي ينفذ منه المعرض ليصل إلى غرضه عند الحاكم ، وهي اللفظ الخداع الذي يجره به على العقول فتضرب العاية لصاحبها ، ويتهرب الحاكم وراء لفظها الشفاف ، ويتستر ويخدع نفسه ليقبل الجريمة ١ . وهي في حد ذاتها مباحة ، ولكنها فقط بين الاحباب والاقارب والاصدقاء ، تمكننا للروابط القديمة ، وتميزنا للصدقة ، وتوكيدا للود ، وقد يندب الشرع لها ويحث على تبادلها لهذه المعاني الكريمة الفاضلة . أما إذا تجاوزت هذه المعاني وقصد بها تحقيق مآرب خاص فإنها تكون قد خرجت عن المعنى الذي أيعت من أجله وتكيفت بتكييف خاص بها ، ودخلت في باب الرشوة المحرمة . واعتقد أن من السهل على الانسان في الغالب التمييز بين هذا وذاك بحسه وفطرته .

ولتلك المعاني الكريمة قيل الرسول عليه السلام وخلعوا به بعض الهدايا حتى حدث لعمر رضى الله عنه حادثة حملته على أن ينبه على عمله ويكتب اليهم مشدداً في وجوب رد الهدايا وفي عدم قبولها من أفراد الشعب : فقد أهدى رجل لعمر رضى الله عنه نخلة جزور ، فقبلها ، ثم ساقته ظروفه الى أن يحاصم رجلاً أمام أمير المؤمنين ، فقال لعمر رضى الله عنه : يا أمير المؤمنين اقض بيننا قضاء فصلاً كما يفصل الرجل من سائر الجورور . وأمير المؤمنين كيس فطن ، فتنبه إلى ما يريد الرجل من هذا الكلام ، وعرف منه أنه يريد أن يراعى في حكمه تلك الهدية التي أهداها إليه قبل ذلك ، والتي أشار إليها إشارة خفية على غير أمير المؤمنين ، فيحكم له مراعيًا دلال المهدى على المهدى إليه ، ويحيد عن الحق تحت تأثير الهدية التي مال بها الرجل عن المعنى الشريف منها . وهنا يحس أمير المؤمنين الخطر الذي يستهدف له الحق والعدل من الهدايا فيصدر حكمه أولاً في هذه القضية على الرجل صاحب الهدية ، لأنه لم يكن صاحب الحق ، وإلا لما لجأ لتأثير هديته يستجدي من أجلها ، لا من أجل العدالة ، الحكم له . وبعد أن أصدر الحكم كتب إلى عماله ونوابه في الأمصار يحذوهم وينبههم ويضع الهدية من أفراد

الشعب الى حكماءه موضعها ، وبكشف لهم عما يقصده الناس منها ، وبين لهم على هذا الاساس حكمها ، فيقول لهم في كتابه : « إياكم والهدايا فإنها من الرشا » ، ولكن كيف يقبل عمر رضى الله عنه الهدية بعد الذى حدث عن الرسول مع العامل الذى قبلها ؟

لقد قلت فيما سبق : إن الهدية في ذاتها مباحة ، بل قد يبحث الشرع على تبادلها لتسكين الروابط بين الاصدقاء وذوى القربى ، فلعل قبول عمر لهدية الرجل لصلته له به من الود والصداقة ، وإن كان الرجل قد مال بها عن غرضها الشريف ، وكشف نفسه أمام أمير المؤمنين ، فكان ما كان .

وقد أخذت منا الهدايا وقتا كثيرا ، ولا بأس ، فهى الخطر الناعم المذموم الذى يقضى على الحق والعدل ، وإن كان هناك أبواب أخرى غيرها تمتلئ منها جيوب الحكام .

فلنعرض بعد ذلك الدستور الاسلامى الذى أخذ به عمر عماله على الامصار ، فاستقام العدل في الدولة ، وتوفر للفرد البسيط الامن والاطمئنان ، وإذا كان رضى الله عنه قد أخذ نفسه بالزهد والتشفي فإنه كان يؤثر ذلك أيضا في عماله ، ويختار - في الغالب - من الاكفاء أكثرهم زهدا وورعا وتقشفا ، ثم لا يدعم مع ذلك - لما ظهر منهم وعرف عنهم ، بل اتخذ يده وبينهم دستورا ونظاما ، فكان يحصى أموالهم قبل أن يقبلوا أعمالهم في ولاياتهم ويعرفها ، ثم يرصد أحوالهم ويعرف ما راد من ثرواتهم بوساطة مفتش ماليه ، محمد بن مسلمة ، ، ويشاطروهم هذه الزيادة التي طرأت على ثرواتهم بعد أن تولوا الحكم ، ولعله لم يعتمد الى مصادرة الزيادة كلها أخذا بالاحوط : لما كان يدعيه بعض الولاة بل كاهم من أن الزيادة تنج عن تشبيل أموالهم ، أو أنها تنج أفراسهم ومواشيهم ، فكان يقسم الزائد مناصفة بين الوالى وبين بيت المال .

وقد حدث ذلك لكثير من ولاته ، نذكر منهم عمرو بن العاص والى مصر ، وأبا هريرة عامله على البحرين ، وسعد بن أبى وقاص ، وغالد بن الوليد .

فقد علم أن عمرو بن العاص والى مصر قد تغيرت حاله وروثه بعد أن ولى الحكم ، فأكثر من المتاع والرفيق والآنية ، واقتنى كثيرا من الحيوانات ، فلما خوطب في شأن هذا من أين له ؟ دافع عن نفسه بأن أرض مصر أرض خصبة يحسن فيها الزرع وتنمو بها التجارة ، كما أن هذه الزيادة أثمان خيل تنامت وسهام اجتمعت ، وأنه كان يبق من محصاته ما ساعده أيضا على إيجاد هذه الثروة الطارئة ، ومع كل هذه الأضرار لم يسلم عمرو بن العاص من حساب عمر ، فقد أرسل له مفتش ماله ، محمد بن مسلمة ، فأحصى أمواله وعرف الزائد عما كان له حين ولى الحكم وقاسمه فيه .

أما أبو هريرة عامله على البحرين فقد اجتمع له مال كثير ادعى أنه تجمع له من نتاج خيله ورج تجارته . فقال له عمر رضى الله عنه : انظر رأس مالك ورزقك نفذه ، واجعل الباقي في بيت المال . واشتد على أبي هريرة حتى تحاشا بعد ذلك أن يلى عملا له ، وقال ردأ على هذه المبررات التي اتخذوها . إنما بعناكم ولاية ولم نبعثكم نجارا . ومرة رضى الله عنه ببناء يبنى بحجارة وجص فقال : لمن هذا ؟ فذكروا له عاملا على البحرين . فقال : أبت الدراهم إلا أن تخرج أعناقها ... وشاطره ماله .

كانت هذه سياسة عمر مع جميع عماله لم يعلت منهم أحد مهما كانت سابقته ومهما بلغ بلاؤه وجهاده في سبيل الإسلام ؛ فبعد بن أبي وقاص ، وعمرو بن العاص وعالدين الوليد ، وم فواد الدولة الإسلامية الجديدة ، حاسبهم عمر وشاطرهم أموالهم ، ولم يشفع لهم أنهم أسسوا للإسلام هذه لامبراطورية الواسعة التي تدفقت منها الأموال على المدينة ، وأقاموا على كواهلهم بناءها الشاح .

وعمر في هذا كله يرى إلى غرض واحد وسياسة حكيمة ، هي أن يحول بين المسلمين ، وفي مقدمتهم الولاة ، وبين الإغراق في النعيم الذى أقبل عليهم من كل جانب بعد أن كانوا محرومين منه ، وأن يحجرهم من الوقوع فيما خافه الرسول عليهم من بعده ، أن تقع عليهم الدنيا خزايتها فيقتربوا إلى الاغتراف منها والوقوع في محارمها .

ولعل هذا الغرض هو الذى كشف عنه عمر نفسه حين بلغته شكوى أعلام قريش من حجزهم فى المدينة فقال : ألا وإن قريشاً يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده ، ألا فأما وابن الخطاب حى ملا : إني قائم دون شعب الحرة آخذ بمحلاقيم قريش وُحجّزَ هنا أن يتهاوتوا فى النار .

وبعد ، فهذا هو مبدأ محاسبة المالك من أين ملك ، أو مبدأ المصادرة كما يطيب لبعض المؤرخين والمشرعين تسميته ، وضع الرسول أساسه ؛ وتوسع فيه ونظمه عمر ، أبو التشريع بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، طبقه على الولاة خوفاً على رعيته من الظلم والاستغلال ، وحفظاً لكيان الدولة الإسلامية من الانهيار والانهلال ، فبقيت الدولة حتى آخر عهده سليمة قوية البنيان .

ونستطيع نحن إذا أردنا لأمرنا صلاحاً ، ولدولتنا هوضاً ، ولأمرائنا الاجتماعية دواءً ، أن نقبس هذا التشريع الإسلامى لمعالجته أخطر داء لشكوه منه وثن ، ونطبقه على جميع موظفى الدولة صغارهم وكبارهم ، لنقصى على الفوضى التى تسيطر على جميع مرافق الدولة من هذه الناحية ، ونقتل فى النفوس روح الجشع والاستغلال ، ونربي فيها روح العفة والزهدة والعمل والسكد ، أداءً للواجب ، وإرضاءً لله .

وبستطيع كذلك أن تتوسع فى هذا التشريع بما لا يخرج عن الهدف الذى جعل من أجله ، وهو إشاعة العدل والاطمئنان فى النفوس ، فنجعله تشريعاً عاماً يحاسب فيه الأفراد كالموظفين عن مصدر ثرواتهم ، فوقف بذلك جشع الأوصياء ونحارب به أولئك الذين يكونون ثرواتهم من طرق لا يقرها دين ولا يرضاها ضمير ، ثم يطاولون على الشرفاء ، ويقتلون معانى الجد والرجولة والوفاء فى نفوس المجدين الأوفياء .

بهذا نهض ، ونعيد لها عمريّة فى أمنها ، وطمأنينتها وعدالتها

فهل من مذكر ١٤ . نرجو ... والله ولى التوفيق .

المصلح الاجتماعي

لعصيلة الأستاذ الشيخ ابراهيم علي أبو الحشب
المدرس بكلية الشريعة

قيمة المصلح الاجتماعي في الأمة لا يدرك سمو خطرها ، وعظم شأنها ، وضرورة الحاجة اليها ، إلا من يعرف معنى الإصلاح ، ويفهم لزومه للهوض . وعلى قدر الإحساس بذلك كله يضع المصلح نصب عينيه رسالته التي يجب أن يؤديها ، وأهدافه التي يرمى اليها ، فلا ينحرف قيد شعرة ، ولا يميل مثقال حبة من خردل . ولأن هؤلاء الدين يוכל اليهم القيام بهذه المهمة لا يكونون من الرجال المألوفين ، أو الأفراد المعبودين ، بل من أولئك الذين يدبر مثاهم ، ويقول - عادة - وجود من على شاكلتهم - كان حسابهم عسيراً ، ومواقفتهم شديدة ، والنظر الى سلوكهم من الأشياء التي يحسب لها ألف حساب . ولا تزال الأجيال المتعاقبة ، والجماعات المختلفة ، في العصور القديمة والحديثة ، "تتقوّل" على الداعية المرشد ، والقائد المزعّم ، بما لا تقول به على غيره من سواد الشعب ، ودماء الناس . ذلك لأنه في نظرها القدوة التي تتبع ، والمثال الذي يحتذى ، والمصباح الذي عنه يكون الإشعاع الهادي ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حي عن بينة . . والذي عرف عن العرب - مع جاهليتها الجاهلة - أنها كانت تثق سمراءها ، وتختار زعماءها ، وتصطفى من تعهد اليهم أمر التحكيم في الخصومة ، أو الفصل في النزاع الفاسم ، بحيث لا يكون فيهم جف ، ولا يوصفون بفهاة أوعى ، وهم مع ذلك كله أصحاب سيرة حميدة ، وماض مجيد .

وقد رأينا القرآن الكريم يتصدى لذلك في موضعين اثنين هما في الواقع أهم ما يتميز به المصلح ، وتقوم عليه دعائمه كقائد يأخذ بيد شعبه الى الصراط المستقيم : الموضع الأول : ما تسميه الأساليب الجديدة للترقية « بالقدوة » ويشير الى هذا في آيتين . أتأمرون الناس بالبر وتفسون أنفسكم ، والآخرى . كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون . . والموضع الثاني يتعلق بالاستعداد الشخصي ونعرفه من خبر موسى عليه السلام إذ أرسله ربه الى بني إسرائيل ، فلم ير أن يكون

ذلك دور أن يُعزّزه بمن يتحمل عنه مؤنة البراعة في المطق، والتدب في الخصومة، والإحاطة في الحجّة، وأخى هرون هو أفصح من لسانا فأرسله معي ردّه يصدقني إن أحاف أن يكذبون، ولا شك في أن هاتين صفتان من الصفات التي تقوم في المصلح الاجتماعي مقام النجاع الشوكي للإنسان، وهما وإن كانا ليسا كل شيء إلا أنهما أم الأشياء التي لا بد من توفرها ولا غنى عن وجودها.

وهما من الصفات التي بكل إحداها غيرها حتى يتمسر الانفصال، ويتمذر الانفراد، فلا حسن الأسوة وحده يكفي لأن يكون المصلح مطمح الانظار، ومحل الاعتبار ومناط التقدير، ولا فصاحة المطلق - كذلك - تكون الدعامة التي يقوم عليها الاحترام. وفي كثير من الأحوال نرى الفقر من إحدى تلك الصفتين مزرية معيبة، حتى ليفر الناس من الداعية، ويفضوا من حول المصلح؛ ثم ينسبون له الفشل، ويصفونه بالإخفاق، ولكن براعة اللسان وفصاحة البيان وقوة الحجّة، واستقامة المطق، أشبه بالسلاح ذي الحدين يستعمله صاحبه في الخير والشر على السواء؛ ولذلك نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن استعمال ذلك في تحويه الحقائق، وقلب الاوصاف، إذ يقول: إن أنقض الرجال إلى الله الألد الخصم، وفي حديث آخر للرجل الذي يعول على الحق في حجة دور أن يكون الحق في جانبه ليكسب القضية، فإنما هي قطعة من النار.

وما أظن أساليب الدعوة إلى الإصلاح بلغت في عهد من عهود التاريخ ما بلغت في عصرنا الذي نعيش فيه؛ لأنه إذا كان معول القدماء في الهداية والإرشاد على الخطابة في المتدييات والمحافل، فإننا الآن نكتب في الصحف والمجلات، ونحدث في المذياع، ونستخدم الوعاظ في المدن والأرياف، ومع هذا كله نشعر بالقصور الفاضح في سلوكنا الأدبي، أو نشاطنا الاجتماعي؛ ذلك لأننا نحتاج إلى الإيمان العميق الصحيح فيما ندعوا إليه. ولعلنا لا نكون مباليين إذا قلنا إن قادة الفكر، وحملة المشاعل، هم علة العلل في هذا النقص، لأنهم لا يعملون الدعوة أكثر من د وظيفة، يرزقون منها، وآلة يتكسبون بها، وترى الإيمان بصوابها، والاعتقاد في أحقيتها، وما شابه ذلك كله، حديث خرافة؛ ولهذا فإن العلاج إذا ابتدأ من هذه الناحية يبتدىء من الرءوس لا من الأرجل، ويصيب الأهداف الصحيحة... ولكنني أعتقد أننا لا نصل إلى ذلك في يوم من الأيام مادمتنا غير قادرين على مجابهة الحقائق، ومواجهة أصل الأمراض. هذان الله ووفقنا إلى الصراط السوي، إنه تعالى سميع مجيب.

بَابُ الْأَسْئَلَةِ وَالْفَتْوَى

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتي :

١ — قال الله تعالى في كتابه الكريم : « إن الله وملائكته يصلون على النبي »
كيف صلى الله على نبيه وهو عبد له ؟

٢ — قال الله تعالى : « إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة
أيام ثم استوى على العرش » ما معنى الاستواء ؟ أرجو الإفادة .

محمد علي قشير

الجواب

الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله
وصحبه وسلم ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد ، فتفيد اللجنة :

عن السؤال الأول : بأن أحسن ما قيل في معنى صلاة الله سبحانه وتعالى
على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم : أنها الثناء عليه ، وتعظيمه ، والإشادة بذكره .
فعني قوله تعالى « إن الله وملائكته يصلون على النبي » ، أنه تعالى وملائكته
يثنون عليه ويعظمونه ، ويشيدون بذكره ويكرمونه ، وهذا المعنى لا يتنافى
مع عبودية النبي صلى الله عليه وسلم لله عز وجل كما هو واضح .

وأما الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم التي أمر بها المؤمنون في قوله تعالى
« يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسلياً » ، فمعناها أن يسألوا الله سبحانه وتعالى
دوام الثناء عليه ، وإظهار فضله وشرفه .

أما عن السؤال الثاني : فقد أجاب عنه حضرة صاحب الفضيلة رئيس
لجنة الفتوى حينما كان مفتيا للديار المصرية بحجاب تختاره اللجنة ، وها هو ذا نص
السؤال الذى عرض على فضيلته والجواب عنه :

سأل محمد عبد الرازق عرض بالآتى :

ما قول علماء الإسلام وحماة الشريعة المحمدية أدام الله مجدهم وأعلى كلتهم
فيمن اعتقد في صفات الله وأفعاله ؛ كاستوائه على عرشه ، وفوقيته ، وغير ذلك
بما ذكر في القرآن أو السنة الصحيحة الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
ظواهر الآيات والأحاديث ، وأن تفسيرها هو ظاهرها ، مع اعتقاد التنزيه ونفى
المماثلة والتشبيه للحوادث ؛ هل هو مصيب في اعتقاده هذا ، أو مخطئ ؟ وإذا
كان مصيبا فما حكم من قال له : إن امرأتك طلقت من أجل اعتقادك هذا ؟ .

أجاب

اطلعنا على هذا السؤال ، ونقيد بأنه متى آمن الإنسان بأن الله سبحانه وتعالى
منزه عن كل ما يوجب نقصا أو حدوثا ، وحمل ما جاء في الآيات الكريمة من
مثل قوله تعالى : الرحمن على العرش استوى . على ظواهرها ، بمعنى أن المراد بها
ما يليق به سبحانه وتعالى ويناسبه ، مع تنزيهه سبحانه وتعالى عما تستلزمه إذا نسبت
إلى الحوادث من الجسمية والتعيز والمهاسة وغير ذلك . فليس عليه شيء ، بل هو
قد اتبع سبيل السلف الذين يحملون هذه الآيات وما ورد عن النبي صلى الله عليه
وسلم في الأحاديث على ما يليق به سبحانه وتعالى ، مع تنزيهه عن كل ما يوجب
نقصا ، أو يقتضى حدوثا . قال الكمال بن الهمام في المسيرة : الأصل الثاني :
أنه تعالى استوى على العرش مع الحكم بأنه ليس كاستواء الأجسام على الأجسام ،
من التمكن في المهاسة ، والمحادة ؛ بل بمعنى يليق به هو سبحانه أعلم به . وحاصله
وجوب الإيمان بأنه استوى على العرش مع نفي التشبيه . فأما كون المراد أنه
استيلاؤه على العرش ، فأمر جائز الإرادة ، إذ لا دليل على إرادته عينا ؛
فالواجب عينا ما ذكرنا . . . إلى أن قال . وعلى نحو ما ذكرنا كل ما ورد

بما ظاهره الحسية في المشاهد ، كالأصبع والقدم واليد . فإن اليد ، وكذا الأصبع وغيره ، صفة له تعالى ، لا بمعنى الجارحة ، بل على وجه يليق به ، وهو سبحانه أعلم به .

وقال الحافظ ابن حجر في شرحه على البخاري ما نصه :

وقال البيهقي : منهم من قال : العين صفة ذات كما تقدم في الوجه ، ومنهم من قال : المراد بالعين الرؤية ، فعلى هذا ف قوله ، ولتصع على عيني ، أى تكون برأى منى ، وكذا ف قوله ، واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا : أى برأى منا ، والتون للتعظيم . ومال إلى ترجيح الأول ، لأنه مذهب السلف . إلى أن قال فقلا عن ابن المنير : ولاهل الكلام في هذه الصفات ، كالعين والوجه واليد ، ثلاثة أقوال : أحدها : أنها صفات ذات أثبتها السمع ولا يهتدى إليها العقل . والثاني : أن العين كناية عن صفة البصر ، واليد كناية عن صفة القدرة ، والوجه كناية عن صفة الوجود . والثالث : إمرارها على ما جاءت مقوضا معاها إلى الله تعالى . ثم قال : وقال الشيخ شهاب الدين السهروردي في كتاب العقيدة له : أخبر الله في كتابه ، وثبت عن رسوله : الاستواء ، والنزول ، والنفس ، واليد ، والعين ، فلا يتصرف فيها بتشبيه ولا تعطيل ، إذ لولا إخبار الله ورسوله ما تجاسر عقل أن يحوم حول ذلك الخفى . قال الطيبي : هذا هو المذهب المعتمد ، وبه يقول السلف الصالح .

وقال غيره : لم ينقل عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا عن أحد أصحابه من طريق صحيح التصريح بوجوب تأويل شيء من ذلك ولا المص من ذلك ، ومن المحال أن يأمر الله نبيه بتبليغ ما أنزل إليه من ربه ، ويزل عليه ، اليوم أكلت لكم دينكم ، ثم يترك هذا الباب ، فلا يميز ما يجوز فسبته إليه بما لا يجوز ، مع حضه على التبليغ عنه بقوله ، ليلخ الشاهد العائب ، حتى قلوا أفعاله وأقواله وأحواله وصفاته وما فعل محضرته ، فدل على أنهم اتفقوا على الإيمان بها هل الوجه الذى أراده الله منها ، ووجب تزيهه عن مشابهة المخلوقات بقوله تعالى ، ليس كمثلهم . . . فن أوجب خلاف ذلك بعدم فقد خالف سيلهم . وبالله التوفيق . انتهت عبارة الحافظ ، رحمه الله ، والمحمد لله .

وأما الاختلاف في كون حمل هذه الآيات وما نبت وروده عن رسول الله على ما يليق به سبحانه وتعالى ، مع تزويه سبحانه تعالى عن كل نقص ، من قبيل حمل اللفظ على خلاف ظاهره ، أو على ظاهره ، بخلاف لفظي : إذ من قال : إنه على خلاف ظاهره ، نظر إلى أن الظاهر ما هو المعبود في الشاهد . ومن قال : إنه حمل اللفظ على ظاهره ، نظر إلى أنه إذا نسب إلى الله ، كان المراد به ما يليق به سبحانه وتعالى ، كالعلم : فإنه إذا نسب إلى الحادث كان الظاهر منه تضرعاً يقوم بالنفس ينقسم إلى ضروري ونظري : وإذا نسب إلى الله سبحانه وتعالى كان الظاهر منه صفة كمال هي مبدأ الانكشاف لا مماثلة بينها وبين علم الحوادث ، وغير ذلك من الصفات : فكذا يقال في الاستواء والوجه واليد والأصبع والنزول والفوقية وغير ذلك : فإنه يراد بها ما يليق به سبحانه وتعالى ويناسبه بما لا يقتضي نقصاً أو يستلزم حدوثاً .

ومن هذا يتبين أن من اعتمد في صفات الله تعالى وأفعاله كاستوائه على حرشه ظاهر الآيات والأحاديث بالمعنى الذي قلناه ، مع اعتقاد التزويه ونفي المماثلة والتشبيه للحوادث ، مصيب في اعتقاده . ومن قال : إن أمراته طالق من أجل اعتقاده فهو مخطئ . جاهل بمذهب أهل الحق . والله سبحانه وتعالى أعلم ؟

رئيس لجنة الفتوى

عبد المجيد سليم

القائد الحكيم

قال العتيبي : جاشت الروم وغزت المسلمين براً وبحراً ، فاستعمل معاوية على الصائفة (هي الغزوة في الصيف) عبد الرحمن بن خالد بن الوليد . فلما كتب له عهده ، قال له : ما أنت صانع بعدي ؟ قال : أتخذه إماماً لا أعصيه . قال : اردد علي عهدي . ثم بعث إلى سفيان بن عوف العامري فكتب له عهده ، ثم قال له : ما أنت صانع بعدي ؟ قال : أتخذه إماماً أمام الحزم ، فإن خالفه خالفته . فقال معاوية : هذا الذي لا يكفكف عن عجلة (أي لا يُرد) ، ولا يُدفع في ظهره من خور ، ولا يضرب على الأمور ضرب الجمل التغال (أي البطيء الحركة) .

من طرائف القرآن الكريم

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الغنى عوض الراجحي

مبعوث الأزهر لتدريس علوم الدين

بكلية المقاصد الإسلامية

في صيدا - لبنان

الألفاظ أوعية المعاني ، ولكل معنى لفظ يدل عليه ، ويمُبر عن طريقه الى الذهن ، والألفاظ بما تحمل من المعاني ثروة بين الجميع على سواء ، لا يمن لمنكلم معنى يريد التعبير عنه إلا وفي ألفاظ اللغة ما يسفقه ويكنى لطلبته .

وقد كان ذلك مدعاة أن لا يفضل كلام كلاماً ، أن لو كان الأمر على ذلك في الألفاظ المجتمعة كثره في الألفاظ المفردة ، لكن لما كان اجتماع الألفاظ مجالا لخصائص وزيادات تحدث في أصول المعاني ، كان تفاصيل الكلام بحسب تفاوته في اشتغاله على هذه الخصائص والزيادات ، فلا يزال الكلام يترق بها الى أن يبلغ حد الإعجاز أو ما يقرب منه ، ولا يزال يسفل بفقدانها الى أن يلتحق عند البلغاء بأصوات العجاوات وإن كان صحيح الإعراب .

ولم يقتصر القرآن الكريم في طلاوته وبلوغه حد الإعجاز على أدائه المعاني بعبارات مشتملة على أعلى هذه الوجوه والخصائص المعروفة التي بها يطابق الكلام مقتضى الحال مع فصاحته ، بل إنه أتى في هذا الباب شيء عجيب طريف لا يتأتى في غيره إلا صانعة له أو اقتباساً منه ؛ ذلك هو تمكين المعنى بوضع الجملة وحس الكلمة ، وهيته التراكيب وأجراسها الصوتية ، وفواصل الآيات ومقاطعها ، حتى ليناسب التعبير مع المعبر عنه ، وتساعد الجمل والكلمات بوضعها وكيفياتها على تصوير المعاني وتجميعها .

انظر مثلاً الى قوله تعالى في سورة الرحمن : أن لا تطغوا في الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ، ولا تحسروا الميزان ، . الطغيان في الميزان : الزيادة فيه ، والإخسار له : النقص منه ، وبين الزيادة فيه والنقص منه طريقة وسطى هي إقامته بالقسط . الجلة الأولى نهى عن الطغيان ، والجلة الأخيرة نهى عن الإخسار ، والجلة الوسطى أمر بالقسط : وفي مجيئها وسطى في الوضع مع أمرها بالطريقة الوسطى موافقة الوضع للنعى ، ومحاذاة في صورة التعبير لصورة المعبر عنه . وقريب منه ما في سورة هود من قول شعيب لقومه : ولا تنقصوا المكيال والميزان ، إلى أراكم بخير ، وإلى أخاف عليكم عذاب يوم عبط . ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، حيث وقعت جملة الأمر بالقسط في المكيال والميزان وسطى بين جملي النهى عن النقص منه .

وانظر مثلاً آخر : قول الله سبحانه في سورة الشورى : يخلق ما يشاء : يهب لمن يشاء إناثاً ، ويهب لمن يشاء الذكور ، أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ، ويجعل من يشاء عقيباً ، كيف جاء لفظ الإناث والذكور على التكرير في سائر الالفاظ إلا في موضع واحد وقع فيه تعريف الذكور . بأل ، . قد يقال : إنها الفاصلة . نعم ووراء الفاصلة سر آخر : حجر الأساس ، وجيب الزاوية في هذا الوجود ، هم الذكور : الرسالات ، العلم ، الملك ، قيادة القافلة الإنسانية - يدور الأمر في ذلك كله على كاهل الذكور . خلق الله آدم قبل حواء ، الرجال قوامون على النساء ، للذكر في الميراث مثل حظ الأنثيين : لا بدع بعد ذلك أن يكون الذكور أعرف من الإناث ، وأن يكون التعريف في هذا اللفظ خاصة للإشارة إلى ما ذكر من متعلقات مدلوله .

وانظر مثلاً آخر : قول الله في سورة الانعام الآية (٩٩) : والزيتون والزمان مثبهاً وغير متشابه ، ، والآية (١٤١) من السورة نفسها : ، والزيتون والزمان متشابهاً وغير متشابه ، لم يخرج العبارتين في الآيتين - وهما لمسى واحد - على ألفاظ واحدة هي ، ولكنه أخرجها على ألفاظ متشابهة كأنها هي . فالألفاظ واحدة إلا ما كان في التركيب الأول من الاشتباه بدل التشابه ، والاشتباه غير التشابه في التلفظ ونظام الحروف ، لكنه عينه في الأصل والمعنى يدل على المقابلة بينهما .

وهذه المعايير اللفظية أوجدت شبيها بين اللفظين في تركيب واحد، وشبيها آخر بين التركيبين في الآيتين؛ فكانت الكلمات الدالة على تشابه الزيتون والزمان نفسها متشابهة؛ فكان ذلك من تصوير التعبير بصورة المعبر عنه، ومحاذاة في الصورة اللفظية للصورة المعنوية.

وانظر مثلاً آخر: إلى الكلمات الأربع « انا قلتم » في قوله تعالى في سورة التوبة « يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله انا قلتم الى الارض » . و « أنلزمكموها » في قوله تعالى في سورة هود « قال يا قوم أرايتم إن كنت على يمينه من ربي وآتاني رحمة من عنده فستبسط عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون » . و « يصطرحون » في قوله تعالى في سورة فاطر في أهل النار « وهم يصطرحون فيها ربنا أخرجنا فعلم صالحا غير الذي كنا نعمل » . و « مصيطر » في قوله تعالى في سورة العاشية « فذكر إماما أنت قد ذكر لست عليهم بمصيطر » . كيف أن الكلمة الأولى بما فيها من إبدال وإدغام واجتلاب همز الوصل توصلا للتطوق بالساكن وثقلها في الطوق، بعد ذلك كله كانت أبرع وأبداع تصوير لهذا الثقل المراد تصويره، ثقل البطء الذي عليه مثل الجبال من الكسل، فلا يخف لما يؤمر به . هذا التصوير الذي لم يكن ليكون لو كان التعبير على الأصل بقوله « تناقلتم » .

وكيف أن الكلمة الثانية بكثرة حركة الضمة فيها^(١) وتكرار بعض حروفها، كانت حير تصوير لما يكون من الثقل على الملم بشيء مؤله كاره؛ هذا التصوير الذي لم يكن ليكون لو كان التعبير بقوله « أنلزمكم إياها »^(٢) .

وكيف أن الكلمة الثالثة بلفظ جرسها وقوة منقطعها وحروفها، كانت خير تصوير لقوة الصراخ المبعث عن شدة الهول والفرع من أهل جهنم؛ هذا التصوير الذي لم يكن ليكون لو كان التعبير بقوله تعالى « يصرخون فيها » .

وكيف أن الكلمة الرابعة كما ابتدأتها تصور بقوة جرسها وغلف حروفها هيمنة المسيطر على المسيطر عليه؛ هذا التصوير الذي أعان عليه إبدال السين صاداً

(١) الضمة أثقل الحركات .

(٢) ظاهر كلام النحاة أن الفصل والوصل في هذا الضمير جائزان على سواء .

كما أبدلت تاء الافتعال في سابقتها طاءً ، والطاء فيها من القوة والغلظ ما ليس في السين والتاء ..

وانظر مثلاً آخر : قوله سبحانه وتعالى : في سورة البجم ، ألكم الذكر وله الأنثى . تلك إذا قسمة صبيئ ، فإن الكلمة الأخيرة في أصلها وحشية عسيرة ثقيلة على اللسان ، لكن بجيئها هذا المجيء جعل لها من الروعة والروني ، ما جعل الرافعي (١) يقول فيها ، كانت غرابة اللفظ أشبه الأشياء ملاممة لغرابة هذه القسمة التي أنكرت ، وكانت الجملة كلها كأنها تصور في هيئة النطق بها الإنكار في الأولى والتمك في الثانية ، وكان هذا التصوير أبلغ البلاغة ، وخاصة في اللفظة العربية التي تمكنت في موضعها من الفاصلة ، ووصفت حالة المتمك في إنكاره من إمالة اليد والرأس بهذين المتدين فيها إلى أسفل وإلى أعلى ، وجمعت إلى ذلك كله غرابة الإنكار بمرابيتها اللفظية ،

وقريب منه قوله تعالى : في سورة آل عمران ، فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانقضتوا من حولك . ، فإن النحاة يقولون إن ، ما ، زائدة أي في الأعراب ، فيظن من لا يصر له أنها كذلك في النظم ، وبقيس عليه ، مع أن في هذه الزيادة لونا من التصوير لو حذف من الكلام لذهب بكثير من حسنه وروعته ، فإن المراد بالآية تصوير لين الربي لقومه وأر ذلك رحمة من الله ، فجاء هذا المد في ، ما ، وضعا لفظيا يؤكد معنى اللين ويفحمه ، وفوق ذلك فإن لهجة النطق به تشعر بالنعاطف وعناية لا يبدأ هذا المعنى بأحسن منها في بلاغة السياق ، ثم كان الفصل بين الباء الجارة ومجرورها وهو لفظ ، رحمة ، مما يلفت النظر إلى تدبر المعنى ، وينبه الفكر على قيمة الرحمة ، وذلك كله طبيعي في بلاغة الآية كما ترى (٢) .

وانظر مثلاً آخر إلى القرآن كله نظرة إجمالية تتفحص فيها مدبه تارة ومكيه أخرى ، فإنك واجد أن لكل قبيل في أغلب أمره مسحة تعلب عليه وظاهرة تنظمه . فالمدني طويل السور طويل الآيات ، هادي الأسلوب رقيق العبارات ، لين الفواصل والمقاطع ، وذلك أنسب شيء بما يتضمنه من الأحكام الشرعية والقوانين العقبية

والمطارحات العلية ، مع أهل الكتاب . والمكي قصير السور ، قصير الآيات ، عفيف الأسلوب ، قوى الفواصل والمقاطع ، ألقاظه شديدة الجرس ، يجمعه قوى صاحب كأنه موج يهدر ؛ وذلك أنسب شيء . بما تضمنه من النذر القارعة ، والزواجر الرادعة ، والمواعظ الجامعة ، التي يقتضيها حال أهل مكة ، أهل العباد والجنود ، وقساوة القلب وجفاف الطبع . ومن عجيب أن اللفظ يكون واحداً في معنى واحد في قصة واحدة ، فيرد في سورة البقرة المدنية على جهة التخفيف ، ويرد في سورة طه ، المكية على جهة التشديد ؛ فيقول تعالى في السورة الأولى قصة آدم ، فن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، ويقول تعالى في السورة الثانية قصة آدم أيضاً ، فن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى .

وانظر مثلاً آخر - هذه الفواصل (١) القرآنية التي تنوعت فيها ، واختلفت فيها الصنيع بين السورة والأخرى ، وبين آيات السورة الواحدة . أما السورة الواحدة ذات العاصلة الواحدة ، فإنك تجدها وفاصلتها بمقطعها وجرسها الصوتي ، أنسب شيء . بمصاها ، وأسرع خطورا بالبال إذا ذكرت السورة ، أو ذكر بعض آياتها ، حتى لتعتقد في قرارة النفس الحافظة عملية من التداعى والارتباط بين السورة وفواصلها ، بل بين سائر الآيات والفواصل فيها . هذه سورة الناس تقرؤها فتكاد تصور لك بجرسها وفاصلتها وتكرر حرف السين فيها ، هذه الوسوسة التي سبقت السورة لتصويرها . وسوسة الخناس ، الذي يوسوس في صدور الناس ، من الجنة والناس (٢) . وهذه سورة القمر تقرؤها فتعطيك بجرسها وفواصلها والتزام حروف الراء الساكنة فيها ، ما تعطيك بمعانيها من تهديد أهل مكة وإنذارهم وقرع العصا لهم مراراً ومرات (٣) .

أما السورة الواحدة ذات القواصل المتنوعة في آياتها ، فغالباً ما يكون هذا التنوع عند تنوع المعاني وانتقال الكلام من غرض إلى غرض ، ومن طريقة

(١) الفاصلة : كلمة آخر الآية كفاية لقصر وغرابة السجع .

(٢) راجع كتاب التصوير القوي في القرآن للأديب سيد قطب .

(٣) راجع السور ذات "عاصمة الواحدة" كالكوثر والاحلام والنبيل والشمس والقدر والفتح

والمرسلات والجن .

إلى أخرى، كما يرمز بتغير الفاصلة إلى تغير ذلك.. فهناك سور بدأت بقسم مقسم به ومقسم عليه، ولا يخفى ما بين الآخرين من تنوع، غالباً ما تكون الفاصلة في المقسم به غيرها في المقسم عليه، لاسيما إذا كان في القسم طول والسورة أيضا طويلة، كما كان عليه الحال في السور. الذاريات، الطور، الصافات، المرسلات، النازعات، العاديات. أما إذا كان في القسم قصر أو كانت السورة قصيرة، فغالباً ما تكون الفاصلة في المقسم به وعليه واحدة، كما كان عليه الحال في السور: النجم، الضحى، الشمس، التين، العصر، البلد.

وهذه سورة ص. تستمر فيها الفاصلة على وتيرة متشابهة حتى الآية ٦٧، فتتغير فيها الفاصلة إلى وتيرة أخرى حتى ختام السورة، وفي هذا القدر الأخير يتمحض الحديث عن قصة آدم، وشيء قليل من التنبيه إلى ما في القرآن من حق وعظمة.

وهذه سورة غافر، ترى فيها الفاصلة على وتيرة واحدة من الآية ٢٤ إلى الآية ٥٥، وترى هذه الآيات خاصة بالحديث عن رسالة موسى إلى فرعون وهامان وقارون، وما أجابوا به وما آل إليه أمرهم، وما قبل هذه الآيات وما بعدها من السورة غير متخصص لا في موضوعه ولا في فاصله.

وهذه سورة نوح وإن كانت كلها في قصة نوح، إلا أنها من الآية الخامسة فيها إلى نهايتها خلت الكلام لحكاية رفع نوح الأمر إلى ربه، يشكو إليه قومه واستكبارهم، ويستزل عليهم السخط والغضب، ويدعوه أن لا يذر على الأرض منهم دياراً، وإلا أضلوا عباده ولم يلدوا إلا فاجراً كفاراً، فكان كله ذا فاصلة واحدة، فيها قوة وشدة جرس مناسبة لحال غضبه على قومه.

وهذه سورة الزاغات من الآية ٥ إلى الآية ٢٦ فاصلة تكاد تكون واحدة متميزة عما قبلها وبعدها في نفس السورة، تتميز الآيات نفسها بتخصيصها للحديث عن موسى وفرعون.

وهناك سور أخرى كثيرة، فيها ذكرته هنا مثال لها يحتذى، ومنوال ينسج عليه، وكفى.

نواحي الإعجاز في أخلاق الرسول

- ٣ -

لعنينة الأستاذ الشيخ أحمد شاهين

سئلت عائشة رضي الله عنها عن أخلاق الرسول فقالت : « كان خلقه القرآن » .
ومن قبلها قالت خديجة أم المؤمنين يوم نزل عليه الوحي أول مرة بحراء فجاءها
وعليه رجفان من الروح وقص عليها حديثه ، ثم قال : « لقد خشيت على نفسي » ،
قالت خديجة : « كلا والله لا يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ،
وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق » ، وتصدق
الحديث . فأما مقالة خديجة هذه فإنها تدلنا على ثقها الراححة بزوجها العظيم ،
ورعاية الله له بما أوتي من سمو النفس ، ومكارم الأخلاق ، وطهارة الفطرة . وقد
نوهت في قولها بما تفرد به من دون قومه من خلال : كالإيثار ، والمواساة ، والرفق
بالضعفاء والمساكين ، والسخاء ، بلا رياء ولا سمعة .

هاته وما إليها من الخلال الزكية ، قد فطره الله عليها ، وامتنان بها على أقرانه
منذ نعومة أظفاره واشتهر بها في قومه : لأنها ستكون فيما بعد من أبرز القيم
والمبادئ في شريعته الخلقية الخالدة ، ومن ثم لا يجد الباحث في السيرة النبوية
تناقضا ما بين سلوكه عليه السلام قبل البعثة وسلوكه بعدها ، وهكذا البيون
جميعاً قد فطرهم الله على خلال الخير ، وكالات النفس قبل أن ينهضوا بالدعوة إليها .
وإن دراستنا لحياة الرسول قبل البعثة وتحليلها في ضوء العلم المجرد ، تحملنا على
ترجيح القول بأن عصمة الأنبياء ليست خاصة بما بعد البعثة . كما ذهب إليه العلامة
الرازي ، بل هي عصمة مصاحبة لهم منذ تفسموا نسيم الحياة . بل وقبل أن يخرجوا إلى

الحياة : لأن العوامل والظروف المكيفة للشخصية الإنسانية تسبق زمن الميلاد بكثير ، وتتسلسل مع السلالات بفعل الوراثة : فحياطة الإنسان المختار لأمانة النبوة من عوامل السوء ومؤثرات الفساد ، متحففة في السلالة التي ينحدر منها قبل وجوده بمراحل . وهذا هو مغزى الآية الكريمة : إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ، وقوله : إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ... الخ ، ، وقد أسلفنا في بحثنا الأول سد هذا الرأي من التاريخ ودليله من العلم . وناهيك بذلك رداً مخجلاً على أمثال الطالب المخدوع الذي لقنه شيعة في الجامعة أن يقول في رسالته (الفن القصصى في القرآن) : : الانبياء أبطال ولدوا في البيئة وتأدبوا بأدابها ، وعالطوا الأهل والعشيرة وقلدهم في كل ما يقال ويفعل ، وآموا بما تؤمن به البيئة من عقائد وعوائد ، وعبدوا ما تعبدوا من إله الخ ، . وأما عائشة أم المؤمنين ، أما تلك الصديقة الفقية ، فقد أوجزت وأعجزت ، وصورت الجانب الخلقى من حياة الرسول الأعظم تصوراً محكماً باهراً في كلمة وجيزة . ولن ترى كهاته الكلمة تفسيراً جلياً محكماً لقوله تعالى . وإليك لعلى خلق عظيم . ولو أن عائشة قالت : كان مثلاً أعلى في السخاء والوفاء ، والحياء ، والعفة . وأنه بلغ من النبيل أقصاه ، وأوفى من الحلم على متناه ، وأنه بلغ القمة في كيت وكيت من المحارم ، وانتهى إلى العاية في كذا وكذا من الفضائل ؛ ثم ذهبت تعدد ونصف ، ما بلغت بالإسهاب والإطناب وأسلوب التفصيل والاستيعاب ، ما بلغت بهاته الكلمة البليغة الخالدة . ذلك بأن القرآن الكريم وهو الدستور السامى الجامع قد احتوى من القيم والمثل والمبادئ السامية . وخلال الخير ، ما لا يمكن إحصاؤه أو استقراؤه ، ولكنه قد ظهر على حقيقته وتجلي بأسمى معانيه لعين أم المؤمنين في أخلاق زوجها الكريم .

ومنا تكشف لنا عائشة عن ناحيتين اثنتين راتعتين من نواحي الإعجاز في أخلاق خاتم النبيين : أولاها المطابقة التامة بين أخلاقه وسلوكه ، وبين كافة ما جاء به من الآداب والتعاليم الخلقية ومبادئ السلوك الفاضل ؛ وهذه المعجزة الخلقية مما يمتاز به النبي على العبقري المصلح : إذ عهدنا بكل عبقري صاحب مذهب مثالى أو دعوة إصلاحية أن يؤمن بمذهبه ويخلص له

إلى حد التعانى في سبيله أو الفناء، ولكنه لا يستطيع التزام حدوده في سلوكه الخاص والعام بصفة دائمة وبدون تكلف وكأى من زعيم سعى في الناس بدعوة حتى فلما انتهى إلى غايته من السلطان وأصاب ضلائله من المجد، تكرر لها، فكانت وسيلة لاعاية.

وخذ لذلك مثلاً، نابليون بونابرت، فقد انبعث في الآفاق وشعاره مبادئ الثورة الفرنسية الثلاث، الحرية، والإخاء، والمساواة، فلما ساد في قومه وظهر على الممالك من حوله، أثر الاستبداد، ولم يتحرج عن أساليب الظلم والاستعباد. وهذا الفيلسوف الروسي الاشتراكي، ليون تولستوى، فقد تفانى في سبيل دعوته حتى نزل عما ملك من الضياع الشاسعة، والأموال الطائلة، وفرقها فيمن حوله من الفلاحين الفقراء بالتساوى، ثم نزل يعمل في الحقول ليكسب القوت مثلهم بعمل اليدين وعرق الجبين؛ ولكن أثر عن تولستوى، بعد، أنه كان يتجهم وتأخذه علام الغيظ الكظيم والنزرة المكبوتة حينما يحمل نفسه ويقبل على العمل. ولا ريب أن هذه الطاهرة إنما هي أثر معركة عنيفة في قرارة نفسه بين مبادئه وعواطفه وشهواته.

وهذا ما يتزده عنه صاحب الوحي، لأن مبادئه جزء من ذات نفسه، وصفات فطرية في طبيعته، لا يضيق بها حيناً ولا يتكفأ أبداً. ومن هنا افرق النبي عن العبقري بقاء صفحته من الهفوات والمآخذ، ومن ثم كان سلوكه أحد مصادر شريعته وتعاليمه.

وثانية النواحي الخلفية: المعجزة التي أظمرت بها عائشة رضي الله عنها، هي تمام فضائل الرسول وبلوغه حد الكمال في كل الفضائل. وبهاته المعجزة الباهرة استدل بعض قادة الفكر الإسلامى من السلف على صحة دعوة خاتم النبيين، في تصانيفهم القيمة.

قال الأبيحي في المواقف عند الكلام على النبوات: «المسلك الثاني وهو الاستدلال بأحواله قبل النبوة وحال الدعوة وبعد تمامها، وأخلاقه العظيمة، وأحكامه الحكيمة، وإقدامه حيث يحجم الأنطال. ولولا ثمنه بعصمة الله إياه من الناس لا تمتع ذلك عادة، وأنه لم يتلوّن حاله وقد تلونت به الأحوال من أمور من

تبعها علم أن كل واحد منها ، وإن كان لا يدل على نبوته ، لكن مجموعها مما لا يحصل إلا للأنبياء ، فلا يرد ما يحكى عن أفاضل الحكماء من الأخلاق المعجبة التي جعلها الناس قدوة لأحوالهم في الدنيا والآخرة ، اهـ .

وقد احتج الشريف الجرجاني على هذا الكمال الخلق المعجز بحجة من التاريخ ؛ فذهب إلى أن حصومه الذين ناصبوه العداء لو وجدوا في خلقه منمرا لشهروا به وهجوه بألسنة حداد ، لكنهم لم يفعلوا ، بل اتهموه بالسحر والشعوذة والتعلق بالآوهام .

قلت : والعلم اليوم يؤيد الإيجي فيما ذهب إليه ؛ لأنه قد بين لنا أن الفضائل والملكات لا تعرض للنفس الانسانية إلا على تفاوت بحيث لا ينبغي للإنسان أو يشارف الغاية إلا في فضيلة بعينها أو ملكة وحدها . واستعرض من شئت من أبطال التاريخ ، تجد أنهم إنما برزوا في ناحية ، وتفوقوا في فضيلة واحدة أو فضائل محدودة على تفاوت بينها ، حتى ذهب بعض الباحثين في علم النفس إلى أن نبوع الإنسان المفرط في ناحية إنما يجيء من نقصه في ناحية أخرى . فإذا صح هذا فهل تكون عظمة محمد التاريخية وكاله الانساني من قبيل العبقريات كما يرى بعض المحدثين ، أو هي من نوع المعجزات كما نعتقد نحن ؟ سوف نرى ؟

دالة الشعراء

مدح جرير الحجاج بن يوسف بقصائد قال في بعضها :

دعا الحجاج مثل دعاء نوح فأسمع ذا المعارح فاستجابا
فقال له الحجاج : إن الطاقة تعجز عن المكافأة ، ولكنني موفدك على
أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ، فسر إليه بكلامي هذا ، فصار إليه ، ثم استأذنه
في الإنشاد فأذن له ، فأنتشه قصيدة قال منها :

أستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح
فكان الأمير متكئا فاستوى جالسا ، ثم قال : من مدحنا منكم فليمدحنا بمثل
هذا أو ليسكت أو أمر له بمائة ناقة كلها سود الحديق ، وبثمانية من الرعاء . وكان
بين يديه صحاف من الفضة . فقال له جرير : والمطلب يا أمير المؤمنين ١ وأشار
إلى صفحة منها فبذها إليه بقضيب كان في يده وقال له مداعبا : خذها لانفتك ١ .

كافحوا الفقر

لفضيلة الأستاذ الشيخ فهد سالم المليجي

المدرس بمعهد القاهرة

لهج الناس حكومة وشعباً بمكافحة الأعداء الثلاثة التي هي : الفقر والجبل والمرض ، فخداني ذلك على أن أدلي برأيي في هذا الموضوع . ولكني أرى أن العدو الوحيد والحصم اللدود ، هو شيء واحد ، وهو : الفقر . فإن الفقير إذا مرض لا يجد دواء ، وإذا أراد التعلم لا يجد ما يكافئه به معلمه . فالعدو الأصلي هو الفقر ، ولو أنهم عالجوا الفقر وحده لكفاهم الخصمين الآخرين ، فإن الفاقة أعدى أعداء الإنسانية ، وهي التي تبطش بالآساد فتذها ، وتسطو على الكى فتبدل شجاعته جناً ، وهزته دلاً ، وصلابته ليناً ، وتصير الخلق الكريم ذمياً ، وتبعث من العدل ظلاماً ، ومن الإحسان جرماً . فليت النفوس تنجس إلى علاج الفقر ؛ فإن ذلك أبقى على الإنسانية ، وأمنع للجموع .

وعلم الله ذلك قبل علنا فشرع في دينه علاجاً لو اتخذناه نبراساً لا متدياً إلى الصراط السوى المستقيم ؛ ذلك العلاج ، هو مشروع الزكاة ، فلو أخرج الناس الفضل من مالهم وزرعهم ما نضاعى أحد جوعاً ، ولوجد الفقير بغيته ، والمسكين حاجته ، وفتحت لهم في الحياة سبل قيمة ، وأطمأنت نفوسهم . وليت الحكومات ترحم الشعب فتجبي الزكاة من أغنيائه وتوزعها على فقرائه بالتسلسل المستقيم ؛ فتعطى كل فقير حاجته تربط بين قلوب الأغنياء والفقراء برباط متين هو رباط الإحسان والرأفة والرحمة ، فليس شيء أحب إلى القلوب من الإحسان ؛ يفرس الحب في شغافها ويستعبد لها ، وهو نوع من التعاون على البر والتقوى الذي أمرنا الله به ، فقال : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » .

فإخراج الزكاة لإحسان إلى الأغنياء ، والفقراء . أما التقى فإنه يحصن ماله بإخراجها ، ويظهر قلبه ، ويذكر نفسه ، وينجو من عذاب أليم . خذ من أموالهم

صدقة تطهرهم وتزكهم بها ، وهي ركن من أركان الإسلام يقوم عليه ، ويتم به .
فن أدى الزكاة فقد قوم دينه ، وكل إسلامه .

ولقد تعد الله ما نذى الزكاة بقوله : « وويل للشركيين الذين لا يؤتون الزكاة
وهم بالآخرة هم كادرون » . فإذا أخذت الزكاة من الأغنياء صلح حالهم ،
واستغادت أمورهم ، ونمى مالهم وزرعهم ، واستمر يسارهم ، ووقاه الله شر
الآفات ، فاهلك مال في بر ولا بحر إلا سبب منع الزكاة . فالزكاة شكر لله على
ما أعطى من العلم وأخرج من الأرض . يقول الله تعالى : « أفرأيتم ما تخشون
أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون » . لو نشاء لجعلناه حطاما فظلمت تفكهمون . إما
لمعمرون بل نحن محرومون ، وشكر النعمة يؤد بزيادةها ، كما أن كفر النعمة يؤذن
بزوالها ، وإد فرض الله الزكاة سن أقوم السبل في سعادة الأمة ، وازدهارها ،
ويمكن لها دينها الذي ارتضى لها ، ويدل لها عزاً ، وخوفها أمناً ، وشفاءها سعادة .

أيها المشرعون !

خذوا بسبيل الزكاة تفلحوا ، فإنه سبيل الاعتدال : طهر من رجس المذاهب
المتطرفة ، وبرى من جنح الرأسمالية ، وخلص من إفراطها ، فخرج من بين فرت
ودم لها حالها سائعا للشاربين . التشريع الإسلامى يفتح أبواب الرجاء للفقراء ،
ويضئ السبيل للأغنياء . فقد يصبح الفقير من خيرة الأثرياء سنة الله التي قد
خلت في عبادته ، ولن تجد لسنة الله تحويلا .

فإلى ملوك الأمم ورؤسائها ، وإلى الشعوب وقوادها ، أوجه مشروع الزكاة ،
ففيه سمادتها وبقاؤها ، وعزها واثراؤها ، يرحمكم من في السماء . إنكم مسئولون عن
هذا الشعب بين يدي الله . ارحموا دين الإسلام فإن الشوعية معناها (اللادينية) .
ارفعوا هذا الكابوس عن البلاد والعباد ، تهجروا وأممكم من عذاب اليم . استغنوا
عن المصالح التجارية . انقضوا ما يذكركم ويهيم من العهود بذلك أجدى على الأمة
من فوائد تجنبها ، ولذات تجتليها . « ومن يطع الله ورسوله وبحس الله ويتقه
فأولئك هم الفائزون » .

ونسأل الله التوفيق للأمة الإسلامية والحكومة المصرية حتى تتخذ سبيل الله ودينه
نبراسا مصيئا في ظلمات الحياة ، فهو نعم المولى ونعم النصير ، وهو المستعان في وضع

نظام للزكاة أستخلصه من روح الشريعة الإسلامية ، وأقدمه للحكومة المصرية رجاء أن يوصفها الله إلى الأخذ به ، والسير على منهاجه . فأقول وبالله التوفيق :

الباب الأول في كيفية إخراج الزكاة :

المادة الأولى : شرط الزكاة : الاسلام ، ملك العصاب ملكا تاما ، والحرية ، ومضى الحول في العين والماشية ، والخلو من الدين في العين ، واستواء الزرع .

المادة الثانية : تحجب الزكاة من الأغنياء جبرا عليهم وتصرف للفقراء .

المادة الثالثة : تؤخذ الزكاة وهي ربع العشر أي $\frac{2\frac{1}{2}}{100}$ من ملك نصابيا من الذهب وقدره أحد عشر جنيها مصريا وسبعة أثمان الجنيه المصري وهو (اثنا عشر جنيها إجمليزيا وثمان) أي (١١٨٧٥٥ قرش) ألف ومائة وسبعة وثمانون قرشا ونصف قرش ، إذا حال عليها الحول في حياته ، ولا دين عليه .

المادة الرابعة : يؤخذ من ملك نصابيا من الفضة وقدره (مائتي درهم) ربع العشر $\frac{2\frac{1}{2}}{100}$. وهي تساوى بالقروش المصرية (٥٢٩ $\frac{1}{2}$ قرش) بالشروط المقدمة .

المادة الخامسة : يلاحظ أن وثائق الذهب كالذهب ، ووثائق الفضة كالفضة ، يسرى الحكم عليها كالأوراق المسالية .

المادة السادسة : تعتبر قيمة الذهب في غيرها من العملة الجارية كالقروش المعدنية أو النحاسية ، رعاية لحق الفقير .

المادة السابعة . تقوم عروض التجارة على التاجر بالثمن الحاضر عند الحول وتخرج الزكاة منها أو أثمانها بحسب الثمن الحاضر .

المادة الثامنة : تشمل عروض التجارة : الحيوان ، والطعام ولو لم يرك كالفاكهة والأسلحة والمعادن وكل ما يتجر به .

المادة التاسعة : يضم ربح التجارة على التاجر من أصل المال ، وحوله حول أصله .

المادة العاشرة : إذا كان على المالك دين ينقص المال به عن مائتي درهم من الفضة أو عشرين دينارا من الذهب ، سقطت عنه الزكاة .

المادة الحادية عشر : إذا وجد أحد ركازا من دفين الجاهلية ذهباً أو فضة عملة أو غيرها ففيه الخمس ويصرف في المصالح :

١ - العامة (إذا احتاج استخراج الركاز إلى نفقة كثيرة كان فيه ربع العشر وهو كالزكاة مصرفاً) .

٢ - (إذا لم يعلم أنه من دفين الجاهلية ألحق به) .

٣ - (إذا علم أنه من دفين المسلمين فيه ربع العشر ورد الباقي إلى مالكه أو وارثه إن علم) .

٤ - (وإن لم يعلم مالكه فهو كاللقطة يعترف عاماً ثم يكون لواجده) .

المادة الثانية عشرة : إذا حاز الرجل حلياً أو سبائك من الذهب أو الفضة أصدماً لعاقبة الدهر، يؤخذ منها الزكاة بالشروط السابقة، إلا السن والآنف ومقبض السيف وحلية المصحف .

المادة الثالثة عشرة : إذا حازت المرأة سبائك من الذهب أو الفضة بلغت فصاً ، أخرج عنها الزكاة . أما حلي المرأة للزينة لا زكاة فيه (عند مالك) .

المادة الرابعة عشرة : تؤخذ الزكاة من مال الصبي إذا أحرز النصاب ومضى عليه الحول ويطالب بها وليه .

المادة الخامسة عشرة : تؤخذ الزكاة من مال المجنون والسفيه بالشروط السابقة ويدفعها القيم عليه .

المادة السادسة عشرة : ما استخرج من مناجم الذهب والفضة يؤخذ منه ربع العشر في الحال إن وجد بملكه أو بأرض ليست بملوكة وكان مسلماً ، وإلا قدر بالاجتهاد .

المادة السابعة عشرة : مناجم الحاس والمعادن التي تطبع بالنار ، فيها الخمس ، ومصرفها مصرف الغنمة والباقي للاستخراج إن كان بأرضه أو أرض غير مملوكة . فإن أعدت للتجارة كانت كمروض التجارة .

المادة الثامنة عشرة : لا يصح استثناء مسلم من إخراج الزكاة مهما عظم ؛ لأنه قانون شرعي .

المادة التاسعة عشرة : ومن ملك آنية من فضة أو ذهب سواء كان ذكراً أو أنثى أخرج زكاتها متى بلغت فصاً ، والعبارة بالميزان . « يتبع »

من أسرار القرآن الكريم

لفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد الشرباصي

المدرس بمحمد القاهرة

القرآن الكريم ، والذكر الحكيم ، والكتاب المبين ، والنور الهادي إلى صراط العزيز الحميد ؛ هو هدية السماء إلى الأرض ، ومائدة نزلت من الملائكة لتغذية العقول والقلوب والأرواح ، وشرعة العليم الحكيم للعباد في كل زمان ومكان ، ودستور أحكت آياته فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وسبيل لا تزيف به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ونبراس يهدي إلى الرشد ، ويعضد إلى الحق والخير والبر ، من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هُدى إلى صراط مستقيم .

وكتاب إلهي رباني هذه بعض صفاته ، وتلك طائفة من سماته ، لا بد أن يكون له من الأسرار ما لا يتناهى ، ومن المعانيب واللطائف ما لا يحصى ، ومن الحكم والرموز ما لا يستقصى ؛ وأى عبد عاجز يستطیع أن يحصى أسرار خاتمي بعض صفاته أنه الأول والآخِر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم ؛ ويقال في شأن كلماته : « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ، ولو جشأ بمثله مدداً » ؛ ويقال فيها : « ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام ، والبحر ينحدر من بعده سبعة أبحر ، ما نفدت كلمات الله ، إن الله عزيز حكيم » . ولكننا إذا عجزنا عن الإحصاء والاستقصاء فلا أقل من أن نسعد قلوبنا ، ونقاسي نفوسنا ، ونعلو بأرواحنا ، ونجلب الخير كل الخير لديننا ودنيانا ، بأن نحاول الوصول إلى ما يدخل في نطاق الطاقة البشرية من أسرار هذا الكتاب اللذي القدسي الذي تحيا به الأجسام والأفهام ، وتستضيء به بوره الخواطر والنواظر ، ويحرر من هيئته وخشيته العباد والجماد : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله ، وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » .

« ولو أن قرآنا سُيِّرَ به الجبال أو قُطِّعت به الأرض أو كلم به الموتى » .
قال بعض المفسرين : إن الجواب هو : لكان هذا القرآن .

أول أسرار هذا الكتاب المجيد وأعظمها ، وأشدّها في النفوس تأثيراً ، وعلى القلوب سيطرة ، أنه كتاب عربي مبين ، لا تعاوِذ فيه ولا تمائم ، ولم يتكون من ألعاز ورموز خفية ، بل تكوّن من نفس الحروف التي بها يتكلمون ، ومن نفس الألفاظ التي يرددون ، والذين أنزل عليهم هذا الكتاب هم فرسان البلاغة وأساطين الكلام ، ودهاقين القول وأمرأء البيان ، يقرءونه أو يسمعونّه فتجذب اليه نفوسهم ، وتحقق له أفئدتهم ، وترتجف من وقعه أبدانهم ، والكثير منهم لم يؤمن به بعد ، وينظرون إلى أجزائه فإذا هي سهلة ميسورة ، وإلى معانيه فإذا هي ساطعة سطوع شمس الضاحية ، ويخيل إليهم من شدة ضيائها وانتشار أنوارها واحتشاد أشعتها ، أنها على مدى اليد منهم ، يستطيعونها إذ يحاولونها ، ولكنهم يفرغون جهدهم ، ويستقصون وسائلهم ، ويجمعون جموعهم ، يرومون إليها وصولاً فلا يستطيعون ، ويطلبون منها دنواً فلا يقدرون :

هي الشمس مسكنها في السماء رمز الفؤاد عزاءً جميلاً

فلن تستطيع إليها الصعود ولن تستطيع اليك النزول ١١

وهكذا صدقت كلمة الله : « قل لن اجتمع الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » . . بل لا يستطيعون ما دون ذلك : « أم يقولون افتراء ، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ، . . بل لا يستطيعون أقل صور المعارضة : « وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين » .

ومن أسرار القرآن الكريم أنه يستعمل الكلمة الجامعة الحاوية لكثير من المعاني ، الصالحة للعديد من التفسيرات ، مما لا يناقض بعضه بعضاً ، بل مما ترتضيه العقول وتطمئن به القلوب ، وتصلح به أحوال الذين أنزل إليهم في مختلف العصور والدمور ، والبيئات والمجتمعات ، وأنت حين تتابع هذا الطريق ، وتستحضر في نفسك طائفة من هذه الكلمات الجامعة الشاملة المحيطة التي تفتح

أمام قارئها أو سامعها آفاقاً عريضة وسبعة ، ستمجيب عجباً لا ينتهى . وتستطيع أن تأخذ على سبيل المثال كلمات : العصر ، والصلاة الوسطى ، والكوثر ، والنازعات ومن شر غاسق إذا وقب ، لتعرف حين تدرس معانيها كيف يفسح أمامك المجال ، وتتدفق بين يديك ماهل العلم وبابيع المعرفة ، مما يسهل الشديد ، ويسر المسير ، ويكثر السبل ١١ .

ومن أسرار القرآن الكريم الإيجاز ، وحذف ما ليس برئيسى ضرورى فى الموضوع ، والاكتفاء بزموس الحوادث وأمهات العبارات ، ولست أدري ماذا كان يكون حجم المصحف الشريف لو أن الحق تبارك وتعالى اتبع فيه سبيل الإتيان بالمألوف والمعروف ، إذن لكان المصحف المجيد فى عشرات من كبار المجلدات والاسفار ، وإذن لثق على الأمة حفظه والإحاطة به وجمع أطرافه فى صدورهم ؛ ولكن الله وهو الذى لا يكلف نفساً إلا وسعها ، منح الأمة هذا الدستور فى هذا القدر الوجيز ، ومع ذلك لم يدع كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها ، وصدق الحق إذ يقول : ما فرطاً فى الكتاب من شيء . . . ولك أن تأخذ هنا على سبيل المثال قوله تعالى : « وقال الذى نجا منها وأذكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون ، يوسف أيها الصديق ... » ، فبين كلتى : « فأرسلون ، ويوسف ، كلام طويل مقدر ، تفهمه العقول البينة والقلوب الواعية ، ولذلك ستر ولم يذكر . وأن تأخذ أيضاً قوله تعالى : « فقل هل لك إلى أن تزكى ، وأهديك إلى ربك فتخشى ، فأراه الآية الكبرى ، فبين كلتى : « فتخشى ، ، « فأراه ، كلام كثير لا يلزم ذكره . وإن كانت النفس تلمحه ، إذ الأصل : « فقل هل لك إلى أن تزكى ، وأهديك إلى ربك فتخشى فذهب موسى ، ومعه أخوه هارون ، وقالوا لفرعون قولاً ليلاً ، ودعوا إلى عبادة الله ، فاستنكر فرعون واستكبر ، وطالب بالدليل والبرهان ، أو لج فى العناد والمجدال ، فأراد موسى أن يقنعه عن طريق المعجزة ، فأراه الآية الكبرى ، وهى انقلاب العصا إلى حية تسمى ١١ .

ومن أسرار القرآن الكريم أن الله عز وجل لم يجعله أبواباً مستقلة ، ولم يفصل بين أجزائه بفواصل عملة ، بل جعله مثاقى تشعير منه جلود الذين آمنوا ، وصاغه كالحلقة المفرغة لا يدري أين طرفاها . ولعل بعض الغافلين يعجب حين

يرى الأسلوب القرآني في السورة الواحدة وهو يقتل من العبادات الى المعاملات الى الاخلاق الى العقائد الى القصص ، وهكذا ، ويحيل له أن ذلك لا يلائم كمال التقسيم - تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا - ولكن الواقع أن الله سبحانه وتعالى بذلك الأسلوب قد أراد أن يلفت المسلمين الى أن القرآن كل لا يتجزأ ، وأحكامه بجمرة لا يتبعض ، وأوله كآخره ، وأدناه كأقصاه ، ومن أراد أن يأخذ منه شيئا فليأخذه كله ، فكله دواء وشفاء ، وكله نور وضياء ١١... وهذا بطبيعة الحال سيجعل المسلمين يعنون بسائر أجزاء القرآن حينما يطلبون منه جزءا خاصا ، لأنهم لا بد لهم من المرور بسائر الاجزاء لكي يصلوا الى ما يريدون ...

ومن أسرار القرآن الكريم : أنه يعرض قصص الانبياء والمرسلين في صور مختلفة ، وبأساليب متعددة ، فتارة يعرضها مختصرة موجزة ، وتارة يعرضها في مساواة وتوسط ، وتارة يسهب في مواقفها ووقائعها وبعض . وقد أراد القرآن من ذلك الوصول الى الغاية في التذكير والتبصير ، والتبشير والتحذير ، والوعيد ؛ وأراد أيضا أن يجد كل طائفة ما يناسبها ، وأن يجد الداعية لكل ظرف ما يلائمه ، ولو وقف المرشد مثلا بين قوم أميين خالين ، أو ظلة جبارين ، أو عامين جاهلين ، وأراد أن يقص عليه قصة موسى عليه السلام مثلا ، لكان واجبا عليه أن يأتي من القصة الطويلة العريضة بما ورد في الاعراف ، وطه ، والقصص ، وأشباهاها ؛ ولكنه حين ينكم مع قوم متقفين متعلمين ، ستكفيه القصة موجزة مختصرة مركزة في مثل قول الحق عز من قائل : « وهل أتاك حديث موسى ، إذ ناداه ربه بالوادي المقدس طوى ، اذهب الى فرعون إنه طغى فقل هل لك الى أن تزكى ، وأهديك الى ربك فتخشى ، فأراه الآية الكبرى ، فكذب وعصى ، ثم أدبر يسعى ، فحشر فنادى ، فقال أنا ربكم الاعلى ، فأخذه الله منكم الآخرة والاولى ، إن في ذلك لعلبة لمن يخشى ، ومن هنا تعرف السر في تكرير القرآن الكريم لعرض القصص النبوية في صور مختلفة .

وأخيرا إن أسرار القرآن كما قلت فيض لا يفيض ، ومدد لا ينتهى ، وسبيل لا تدرك غايتها ، وقد ذكرت لك منها ما يصلح أساسا للسير ، أو مفتاحا للباب ، وانه نفحات يتعرض لها المخلصون فيصلون منها الى ما يشاؤه الحق لهم كفاه إخلاصهم ، فأتى ذلك في الدلاء ، ولا تنسى من صالح الدعاء ١١... .

ياجارة الغار...!!

لفضيلة الأستاذ كامل محمد مجلان

المدرس بمعهد القاهرة

[روت بعض السَّير قصة الحامة في الهجرة . ومطلق الإعجاز
لا ترتفع إليه العقول . وفي الإيمان به ما يطمس القلوب ...
وتلك انتفاضة العاطفة في موكب الذكرى الباقية] :

ياجارة الغار :

أسعدني بالهديل فهذا موكب الذكرى ... وطربني عن فيان اليراعة غرق
في خضم النور ، وشراعي عصفت به معجزات بكل الطرف في إشرافها ، ويرتد
القلب متفلا بالحنين ، والشوق .

ياجارة العار :

في شوق الى أغرودة مسكوبة من شرفات الخلود ، ونحني سحرها الموقع على
أوتار واهن من فرط الصوت ...
إني ظمئى إلى رنين مقبوس من حفيف أجنحة الملائكة ، ووسوسات
حلى الحور .

ياجارة النار :

صمتك الوداع ، وأمنك الهاجع ، واطمئناك العاقى ، وعشك المهدى ، والطلعة
الحانية بأكف صارعة : والصحراء ... الصحراء من ورائك ، والعار من أمامك ،
وعين الله يطفى ... إنها ترعى وكفى ...
كل هذا (يا حامة) يحملنى على قوادم الاحلام ، وخوافي الإعجاب ...

ياجارة الغار .

بأنه إلا حدثنى عن ترفيف الملائكة وكيف حفت بالغار ... ؟ وإلا
كشفت عن ريشك المنسوج بأنامل القدرة التى طيرتك إلى وكر النبوة ، تبين عشا ،
وتهدمين مكر ، وتهزتين بالقافلة المعتالة الضالة ، وتمصفين بالزوبعة الفتاكة ...

فإذا الذي يشوى الحقد كبده يسلم ساقيه لرمال الصحراء ، ويشكفيء ناكصا على عقبيه ، تاركا جوارك الآنس ... يا حمامة .

يا جارة الغار :

كيف سمعت النبي وهو يقول لصاحبه : لا تحزن إن الله معنا ... وبماذا أجبته العطشى الى الدم البريء وقد حيل بينهم وبين ما يشتهون ؟ ... ؟

وكيف التف حولك الجلع ؟ ثم دارت أقدامهم على باب العار . ولو أراد الله لجعل من خيوط العسكوت لم أغللا فاسطاعوا مضيا ولا يرجعون .

يا جارة العار :

بماذا ناجيت الليل ، وأى تحية نفست بها للصباح ؟ وهل ثجاك سكون الدجا ، وشعلتك كدراى السماء ؟ أم عفوت فى لجج الاحلام التى ترقصك على أعواد الجنة الموعودة .

يا جارة الغار :

كنت دحامة السلام ، وما نطقى حرفا ، ولا خططت عهدا ، ولا صدعت برأى ، ولا افتر ثعرك عن بسمه ، ولكذك أغمدت سيوفاً مشرعة ، وحقت دما لو سالت منه قطرة لانفطرت الارض وحررت الجبال هذا .

يا جارة الغار :

بين (مكة والمدينة) رفعتك القدرة معلما يفرق بين النار والنور ، وبين الباطل والحق ، وبين الضلال والهدى ، وعلى مدجياحيك اثنان كان الله ثالثهما .

وبذلك لقيت أكرم منزل ، وهبت عليك نفحات الجنات ، على حين يرى الجاهلون جوارك حفرة مهجورة : تعالى (العار) عما يصفون ! .

يا جارة العار :

شاهدت مصرع الباطل ، وشهدت انتصار الحق ، وسبرت صحوة الطغيان وترايل سراجه ... وحزبت للباس الامثال ... وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشمرون .

يا جارة الغار :

فى جوارك ولد الإسلام ، وفى ظل مدرجك كنبت صفحة سطرها رعاية الله . وتمت نعمة أنعمها على عباده الذين ورثوا الارض ، ونعم أجر الجاهدين .

العدالة في الاسلام

من عدالة أمير المؤمنين أبي عبد الله المهدي

لفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد علي منصور

من علماء الأزهر الشريف

هو أبو عبد الله المهدي محمد بن أبي جعفر المنصور ؛ ولد سنة ست وعشرين ومائة ، ورباه المنصور تربية حسنة ؛ ولما شب وتآدب ، وجالس العلماء ، وبلغ مبلغ الكمال ، روضه والده على الخلافة ، فأتمره على طيرستان وما والاها ، فباشر أعمالها بحزم برهن على أهليته ، وعزم نطق بجدارته . ولما أحس أبوه بدنو أجله أوصى المهدي عند وداعه وصية من لا يؤمل اللقاء ؛ وكأنه بذلك كان ينمى نفسه ، فلم يدع في وصيته شيئا من الخير يمكن الإحاطة به إلا تقدم إليه فيه ، وزوده بأمور جملة بها ، واستخلف الله عليه ؛ ثم عهد إليه بعد ذلك بالخلافة ، فكان العهد إليه عن خبرة ، وحقيقة نظر في مصالح الأمة . وكان أبا جعفر بترويضه المهدي وولي عهده على أمور الخلافة وأعمالها ، كان ينظر لمصالح هذه الأمة في مماته نظره لها في حياته ، مما سيذكر له بكل ثناء وتقدير حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

تولى أبو عبد الله المهدي الخلافة سنة ثمان وخمسين ومائة ، بعهد من أبيه المنصور بعد موته يثر ميمون ؛ فاستأنس بوصية والده ، بعد أن دربه على الخلافة ، وجعله خليفا بالإمارة بما ولاء قلبها من الأعمال .

ولقد كان أمير المؤمنين المهدي عادلا منصفا ، تقيا زاهدا ، سياسيا حازما ، جوادا ممدوحا ، عييا إلى الرعية ، حسن الاعتقاد ، مثالا للساحة ، وقوة في مكارم الاخلاق ، وكان عصره عصر خير وبركة على الإسلام والمسلمين .

وحسبنا أن نذكر في هذا المقام شيئا من عدالته وإنصافه؛ وأما ما جاءه الله به من الصفات الحميدة الأخرى ، فقد تعطرت بأريجها كتب التراجم ، وزينت بها صفحات أسفار التاريخ .

لما حل البريد إلى المهدي نبأ وفاة والده أبي جعفر بيثر ميمون ، ووصيته له بالخلافة ، كان وقتذاك بغداد ، فخطب الناس وقال : إن أمير المؤمنين عبد دعى فأجاب ، وأمر فأطاع — وهنا اغرورقت عيناه بالدموع — ثم قال : قد بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم عند فراق الأحبة ؛ ولقد فارقت عظيمي ، وفقدت جسيما ؛ فمعد الله أحسب أمير المؤمنين ، وأستعين به على خلافة المسلمين .

أيها الناس : أسروا مثل ما تعلمون من طاعتنا نهيكم العافية ، واخفضوا جناح الطاعة لمن نشر معدته فيكم ، وطوى الإصر عكم ، وأهال السلامة عليكم ، من حيث رآه الله مقدما ذلك . والله لأتير عمرى بين عقوبتكم ، والإحسان عليكم !!

ما أجل البر بالوالدين !! وما أعظم الإحسان إليهما !! لقد جمعت أول خطبة لأمير المؤمنين المهدي شيئا كثيرا من التنويه بالعدل والإنصاف ، وبالمنافع والمقاصد الخيرية . فاستهلها بإظهار تأثيره بالفجعية ، وأبان أن ضلاله ضلال خو وانعطاف ، وأن سلطان الخلافة لم ينسه حق الأبوة .

ونقّب المهدي عن أحسن ما توصف به الرعية ، وطلب تحقيقه ، فقال : « أسروا مثل ما تعلمون من طاعتنا نهيكم العافية ؛ لأن الأمة أقبح ما تكون وفي صدرها دخل ، سواء أكانت تسره للأفراد أم لأولياء أمورها والقائمين بشؤونها . ثم طلب منهم خفض الجناح ، وقرنه إلى نشر العدالة فيهم ، وطوى الإصر عنهم . وما أجل ذلك في معاني الحكم بالعدل ، والملك بالحق ورفع لواء الإنصاف !! ولقد روى العلامة ابن سابق قال :

ركب المهدي ذات يوم ، وسار في موكب يطوف أهم شوارع بغداد ، وبينما هو على هذه الحال ، صاح به رجل من أفراد الرعية ، وقال :

قل للخليفة: حاتم لك غائن تخف الإله وأعفنا من حاتم
إن المفيف إذا استعار بخائن كان العفيف شريكه في المأثم

فاهتم أمير المؤمنين بهذا الأمر ، وأمر أن يؤثق إليه بكل عامل يسمى حاتماً ،
وأدخلوا عليه واحداً واحداً ، بعد أن استوقفهم ، وشرع يناقش كلا منهم على
أفراد ، حتى اهتدى الى صاحب الخيانة ، وعرف له ، نقاضاه وأنصف المظلومين
منه ؛ ثم أمر بعزله وحجسه جزاء خيائته .

ولقد بلغ من عدالة أمير المؤمنين أبي عبد الله المهدي أنه جعل له أياماً
مخصصة ، يجلس فيها لوضع العدل في نصابه ، وإنصاف المظلوم من الظالم .
وكان إذا جلس هذه المجالس يقول : « أدخلوا على القضاة : فلو لم يكن ردى
للظالم إلا الحياء منهم لكني . ١١ »

ولقد رأى القضاة العدل مجسداً في أمير المؤمنين ، فذهبوا مذهبه ، ولم يحيدوا
عن الإنصاف قيد شعرة ؛ لأن الناس على دين ملوكهم ، حتى لقد أنصفوا أفراد
الرعية من أولياء العهد ، والمرشحين للخلافة .

قال العتيبي : تنازع إبراهيم بن المهدي ، وابن بختيشوع الطيب بين يدي أحد
ابن أبي دؤاد (١) ، في عقار يناحية السواد (٢) : فأرْبى (٣) عليه إبراهيم ، وأعطاه ،
فأحفظ (٤) ذلك ابن أبي دؤاد فقال :

« يا إبراهيم : إذا نازعت في مجلس الحكم امرأ ، فلا أعلن أنك رفعت عليه

(١) أحمد بن أبي دؤاد قاض من نصاب الباسيين ، وكان غزير الأدب ، جم المروءة ، بدولا
للمعروف ، معوا للجهل . وكان مؤلفاً لأهل الأدب من أي بلد كانوا ؛ وكان قد ضم منهم جماعة
يسمونه بـ «عنا مات حنروا يبابه» ، ولما طلع سريره تقدموا إليه وأبوه بأبلغ عبارات التي
حوثها كتب الأدب . ومثله ابن أبي دؤاد من المعتمدين وأوراق مكبه ، بحيث كان إبراهيم الزرارة
وربما تقدم عليهم — توفي سنة ٢٤٠ هـ .

(٢) سواد المدينة : قرأها .

(٣) أرْبى عليه : زاد عليه .

(٤) أحفظه : أغضبه ؛ والحفظة : الحجة والسحب .

صوتا ، ولا أثمرت ييد . وليكن قصدك آمناً ^(١) وريحك ساكنة ، وكلامك معتدلاً . ووف بمجالس الخليفة حقوقها من التعظيم والتوقير ، والاستئذان والتوجه الى الواجب ؛ فإن ذلك أشبه بك ، وأشكل بمذهبك في عندك ^(٢) وعظيم خطورك . ولا تعجلن فرب عجلة تهب ربثاً ^(٣) والله يعصمك من سخط القول والعمل ، ويتم نعمته عليك كما آتمها على أبويك من قبل ، إن ربك حكيم عليم .

فقال إبراهيم : « أصلحك الله ، لقد أمرت بسداد ، وحضضت على رشاد ؛ ولست عائداً لما يئلم ^(٤) مروءتي عندك ، ويسقطني من عينك ، ويخرجني من مقدار الواجب الى الاعتذار . »

« فهأنذا معتذر إليك من هذه البادرة اعتذار مقر بذنبه ، معترف بجرمه . ولا يزال الغضب يستفزني ^(٥) ببوادره ، فيردني مثلك بحله ؛ وتلك عادة الله عندك ، عندنا منك . وقد جعلت حق في هذا المقارلا بن بختيشوع . فليت ذلك يكون وافياً بأرش ^(٦) الجناية عليه ، ولم ي تلف مال أفاد موعظة ؛ وحسبنا الله ونعم الوكيل . ١١ »

فأى عدل وراء هذا العدل ؟ وأى دين أو ملة أعظم من هذا الدين الإسلامى الخفيف ، الذى رفع الاتغال عن بنى الإنسان ، وأحسن إليهم المعاملة ، حتى ترامت عليه أهل المال الأخرى ، يبتغون فضلاً من أهله ؛ فوجدوا فيه العدل والإنصاف ، والمساواة والإخاء ، حتى فى التفاحى مع المسلمين بل وأولياء العهد والمرشحين للإمارة بين يدي قضاة المسلمين ١٢

(١) الأمم من الأمر : الوسط

(٢) المعتد : الأصل .

(٣) الريث : الابطاء والمقدار .

(٤) ئلم الاناء : كبره من حرمه .

(٥) استقره : استخفه وأزعجه

(٦) الأرش : البية ، وما يحيط بموضعها .

الشعر في العهد الأيوبي

من شعراء الأسرة الأيوبية

لعضيلة الأستاذ رياض هلال

المدرس بكلية اللغة العربية

سبق في حديثنا عن تشجيع الأيوبيين للشعر والشعراء أن أشرنا إلى أنه كان من بين الأسرة الأيوبية شعراء عالجوا صناعة الشعر وكان لهم منها نصيب ، وسنحاول في هذا المقال أن نترجم لبعض هؤلاء الشعراء ذاكرين لهم شيئا من شعرهم ندل به على مبلغ شاعريتهم ، ومدى ضعفها أو قوتها ، فنقول :

(١) شرف الدين ^(١) عيسى ابن الملك العادل سلطان الشام الحنفى الفقيه الأديب ، ولد في القاهرة سنة ٥٧٨ هـ ، ^(٢) وحفظ القرآن وبرع في الفقه ، وشرح الجامع الكبير في عدة مجلدات بأعانة غيره ، وله شعر كثير ، وكان عديم الالتفات إلى التواميس وأبهة الملك : يركب وحده ثم يتلاحق به محاليكه . مدحه جماعة من الشعراء المجيدين . ويشكك ابن خلكان فيما نسب إليه من شعر ، فلم يثبت منه شيئا . توفي سنة ٦٢٤ هـ ، بدمشق . وعما نسب إليه قوله وقد مرض بالحمى :

زارت محصة الذنوب وودعت تبأ لها من زائر ومودع
باتت تماقنى كأتى حبا وميبتها ومقيلها فى أصلعى
قالت وقد هزمت على ترحالها : ماذا تريد ؟ قلت : ألا ترجعى

وهذه الأبيات تذكرنا بأبيات المتنبي فى الحمى لما اتابته فى مصر وهى التى يقول فيها :

وزائرى كأن بها حياء فليس تزور إلا فى الظلام
بدلت لها المطارف والحشايا فعافتها وباتت فى عظامى

ولشاعرنا يتحدث عن استعدادة لملاقاة الشتاء ، وما جمع له من عدة وعناد :

هجم الشتاء ونحن بالبيداء فدفعت شرته بصوت غناء

(١) ترجم له شعرات الذهب ، وعقد الجمان ، ووميات الأعيان . (٢) فى مرآة الزمان سنة ٥٧٦ هـ

وذكر أنه كان نازلاً ببابلس وفي معسكره بهاء الدين بن القيسراني ، فأرسل إلى ابن القيسراني شيئاً من ثمار قيسارية ، فكتب إليه ابن القيسراني :

يأيها الملك المعظم والذي أصحت له الدنيا تزف عروساً
أوليتني نعماً إذا أظهرتها للناس أظهر حاسدوها بوساً
فليهنك اليوم الذي قد أطلعت فيه الكتوس كواكباً وشموساً
فكتب إليه المعظم :

يا من تفرد بالفضائل دانبا أبدا يؤسس مجده تأسيساً
لازلت في درج المكارم راقياً تعلمو وربحك بالثنا مأنوساً
فكتب إليه البهاء مجيباً :

مدح بمدح يستطاب ولا أرى ما بين ذين دراهماً وفلوساً
فأمر له المعظم بقماش وذهب قيمته ألف دينار . وفي شعر البهاء ما يفيد مشاركة المعظم الأيوبي له في صناعة الشعر وقيامه له في المساجلة والمجاتنة .

(٢) الأشرف موسى^(١) : أبو الفتح موسى ابن الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب من ملوك الأيوبيين ، مدحه أعيان شعراء عصره ، وخلصوا مدامحه في دواوينهم ، منهم شرف الدين بن عنين ، والبهاء السنجاري ، وراجع الحلي ، والكمال بن اليميني . توفي سنة ٦٢٨ هـ . ومولده سنة ٥٧٧ هـ .

كتب يعزى عن الأمير علي ولد الخليفة الناصر لدين الله :

حليفة الله اضطرب واحتسب فما وهى البيت وأنت العماد
أنت سماء طلعت زهرها لا يقص الأقول^(٢) منها هداد
ولا يضر البحر يوماً إذا ما سال من أنجاه^(٣) واديه واد

ودخلت الشمس من بعض « شبائك » القصر ، فوقعت على غلام له كان قائماً في خدمته ، ولم يستطع أن ينحاز إلى الظل ، فلما رآه أنشد :

(١) ترجم له ثر الجان . (٢) في الأصل : الأقل . (٣) في الأصل : نحو .

وغصن بان قلوب الناس في خطر من فعل مقلته إن مال أو خطرا
 راعته شمس بدا من حرها لبت في صحن وجهه فانحاز مسترا
 فقلت حسبك لا تخش اجتماعهما فالشمس لا ينبغي أن تدرك القمر
 ولهذا الشاعر نزوات شعرية في معان لا تلتق مع منهج مجلة الأزهر الفراء
 فأثرنا الإغضاء عنها برغم ما حوت من شعر قوى وأدب وصين .

(٣) الأجد مجد الدين ^(١) الأيوبي بن قرخشا بن شاهنشاه صاحب بعلبك ؛
 كان أديبا شاعرا ، وله ديوان شعر ؛ قتل سنة ٦٢٨ هـ ومن شعره :

حيّ عني الحمى وحيّ المصلى وزماناً بالرقتين تولى
 كان أعلى الأوقات في النفس قدرا فتلاشى زمانه واضمحلا
 بت والبرق لا أمل دموعي عند إيماضه ولا البرق ملا
 مستهاما ألقي الغرام بحمم منذ أبلاه هجركم ما أملا
 ذا عليل من حرقة البين والهجر بغير افتراقكم لن يلا
 أيها الناظرون ذا قريض دق في صنعة القريض وجلا
 يتمشى على السباك افتخارا ثم يضحى منه عليكم مطلا
 وبعض إلى من ليس يدرى صنعة الشعر أن يكون مدلا
 بقريض إذا كسا الشعر عزا قائله كساه هونا وذلا
 وتراه بفخر بشعره وقوته ، وينى على من ليس يحسن صناعة الشعر ، أن يدل
 ويتبجح بشعر لا تشرفه نسبتة إليه ، لضعفه وعدم غنائه . وحق له أن يفخر إذ كانت
 جملة شعره التي تحت أيدينا — وفي الفوات منها كثير — من الشعر القوي . أسلوبا
 ومعنى ، وإن كان أكثرها في معاني الصبايات والمعانيات ، لأنه يمثل عصره
 وما فيه من بجون وهو .

(٤) تاج الملوك مجد الدين أخو صلاح الدين ، كان أديبا شاعرا ، روى له
 صاحب مرآة الزمان كثيرا من شعره ، ومنه في نيل مصر وأيامه فيها :

شربت من الفرات ونيل مصر أحب إلى من شط الفرات
 ولى في مصر من أصبو إليه ومن في قربه أبدا حياقي

(١) ترجم له عقد الجمان وقوات الوفيات .

قلقت وقد ذكرت زمان وصل تمادى بعمده روح الحياة :
أرى ما أشتيه يفسر منى ومن لا أشتيه إلى يانى
قال صاحب شذرات الذهب : وله ديوان صغير ، توفى سنة ٥٧٩ هـ

(٥) الكامل فاضل الدين ^(١) بن محمد الأيوبي ، وله :

ترى تسمح الدنيا بما أنا طالب فلى عزيمات دونهن الكواكب
وإن يكن الناعى بموتى معرضا فأى كريم مابعته النوادب
ومن كان ذكر الموت فى كل ساعة قرينا له هانت عليه المصائب
وما عجبي إلا تأسف ساعة على ذاهب من قالة وهو ذاهب
وتراه نحا منحى الجدى والوعظ فى شعره وذلك غريب منه ، لأن سمة العصر
كانت إلى اللهو أميل وبالجمون أشبه .

(٦) قرخشاى بن ^(٢) شاهنشاه بن أيوب أبو سعد عو الدين والد محمد الدين
السابق ، توفى سنة ٥٧٨ هـ ومن شعره فى دمشق :

دمشق سقاك الله صوب غمامة فما غائب عنها لدى رشيد
عسى مسعدا أنى أبيت بأرضها بل إننى — لو صبح لى — لسعيد
وله فى الحكمة والموعظة :

إذا شئت أن تعطى الأمور حقوقها وتوقع حكم العدل أحسن موقعه
فلا تصنع المعروف فى غير أهله فظلك وضع الشيء فى غير موضعه
وقرخشاى هذا هو الذى امتدحه ابن سعدان بعدة قصائد .

وحبك أن ابن سعدان سلكه مع الفسزردى فى قرن ، وإن كان ذلك صنيع
الشعراء العالين .

وبعد ، فذلك لمحات دوال على شاعرية الأسرة الأيوبية ، وأن كرديتها لم تكن
لتحول بينها وبين صناعة العربى الصميم الذى يمتنع الشيخ والقيصوم .
وستكلم فى عدد آت — إن شاء الله — عن شاعر بنى أيوب ونأثرهم غير مدافع ،
فإلى لقاء قريب ؟

(١) ترجم له ترجمة الأنام . (٢) ترجم له شذرات الذهب ومرآة الزمان والنجوم الزاهرة .

الحياة الانسانية

والعدل الإلهي

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد المنعم خفاجي

المدرس بكلية اللغة العربية

العدل الإلهي أمر بديهي تجزم به العلسات الدينية عن يقين وإيمان لا يجد الشك إلهما سيلا ؛ وهو مع ذلك من الضروريات في عالم التفكير الفلسفي الحديث ، أو من الإيجديات في قاموس العقل البشري المظلم ، ولا يستسيغ مفكر أن يتصور مصير الحياة الانسانية وحاضرها ، وحياة البشر ونظامهم في عالم مقفر من عدالة السماء ، بل لا تستطيع أن تفهم كيف كانت تقوم الحياة البشرية ويستقيم نظام الوجود كله بدون هذا العدل السماوي الشامل . ونحن لا نؤمن بأن الله عادل لحسب ، بل بعد له ورحمته جميعا ؛ فبالعدل يسير العالم الإنساني لأهدافه العظيمة المنشودة ، وتستمر نواويس الوجود تؤدي عملها كاملا في سبيل خدمة البشر وسعادتهم ؛ وبالرحمة - التي لا تتنافى مع قوانين العدل الإلهي العظيم - تسعد الإنسانية ، ونحيا حياة كريمة متجددة فيها الأمل والرجاء .

والذين يثيرون مشكلة الشقاء الإنساني يجب عليهم ألا يكلفوا أنفسهم عناء البحث عن العدل الإلهي ؛ لأن هذا العدل هو الآن وقبله فوق مثار الشكوك والأوهام ، وخاصة بعد أن فضح العقل البشري هذا النضوج الباهر في عصر الكهرباء والذرة . أما هؤلاء المفكرون الذين تثير مظاهر الشقاء في الحياة الإنسانية شكوكهم في رحمة الله ، فيجب عليهم أن يفرقوا بين نوعين من الرحمة : رحمة تتنافى مع هذه النواويس المنظمة المسيطرة على الكون والحياة والتي فرضتها عدالة الخالق العظيم ، وهذا النوع لا يصح أن يقال له على الحقيقة رحمة بل هو ظلم جائر يسير بالحياة الى التخبط والظلام ، لا إلى السعادة والرفاهية المنشودتين ؛ والنوع الثاني من الرحمة هو مالا يتنافى مع هذه القوانين التي تحتّمها العدالة ، وهو

في قانون المدنية الحديثة أول واجب على الإنسان المهذب ، وأكرم صفات الإنسانية الكاملة في الرجل الذي يتسم بسمت المدنية والخلق الكريم ، فما بالك به إذا في جانب المسيطر الأعظم على الوجود والحياة ؟ وكيف يمكن أن يقال إنه من صفات الكمال في البشر دون الله ؟

وإذا كانت عدالة السماء قد وهبت للإنسان حريته في الحياة ، وأمدته بجميع العناصر الآدية اللازمة لتكوين شخصيته الإنسانية ، ولمساعدته على الكفاح في الوجود ، وعلى الانتصار في معركة الوجود الطاحنة ؛ بعد أن أمدته بجميع الوسائل التي تساعد على فهم الحياة فهما كاملا ، وعلى أتمح السبل الموصلة إلى السعادة فيها . أفنقول إن ما يصيب الإنسان — بسبب نفسه أو بسبب المجتمع الذي يعيش فيه — من شقاء وآلام ، نتيجة لهذه الحرية الموهوبة ، هو ظلم وجور من الله ، لأنه حد من قوته ، ولم يعمل بمقتضى قدرته العظيمة القادرة على إسماع الحياة والناس ؟ كلا فذلك منطق لا يستقيم ولا يمكن أن يقوله إنسان يجب أن يصل إلى الحقيقة الأبدية وحدها .

يمكننا أن نحدد الشقاء تحديدا تاما ، وأن نفهم أسبابه ، وأن نرى إلى أي حد نستطيع التوفيق بين عدل الله ورحمته ، ووجود الشقاء الكثير في هذه الحياة .

أما الشقاء فقد عرض له المفكرون والفلاسفة من قديم بالبحث والتحديد ، ونحن لن نتوسع في التعريف ، ولن نذهب إلى ما يصح أن نذهب إليه من أنه كل ما يعرض حياة الفرد أو الجماعة الإنسانية أو نظام الوجود الإلهي الذي فطر الكون عليه للخطر والآلام ، ولن نذهب إلى إنكار الشقاء الذي يحيط بالأفراد والجماعات مدعين بأنه تضحية يستوجبها العمل في سبيل حفظ وبقاء الحياة الإنسانية نفسها ؛ بل سنقواضع جدأ في مدلول هذا الشقاء ، ونسير على ما سار عليه الأستاذ علي آدم — صاحب مقالة « مشكلة الشقاء » التي نشرتها الثقافة^(١) — فترى أنه الكوارث والآلام التي تحمل بالناس .

وإذا حططنا أسباب هذا الشقاء الإنساني الذي نرى مظاهره الفادحة كل ساعة و يوم بأعيننا وبصرنا ، يمكننا أن نرجعها إلى ثلاثة أشياء :

الأول : ما كان السبب فيه الناس أنفسهم ، كالفقر الذي عرض نفسه للفقر بلمبه القمار ، وكالعاكف على تعاطي المخدرات الذي يجلب على نفسه شقاء المرض بعكوفه على المخدرات ، وكالذي يلقي بنفسه في الهر ليتحرر من هموم الحياة ، أليس هؤلاء جميعاً ومن شابههم يستحقون هذا الشقاء الذي جرّوه على أنفسهم بأيديهم ؟ وكيف يمكننا أن نقول إن هذا الشقاء يتنافى مع عدل الله ورحمته ؟

ومن حسن الحظ أن صاحب مقالة « مشكلة الشقاء » لا يمارض في هذا ، ولا يرى بينه وبين عدالة السماء ورحمتها منافاة .

الثاني : ما يكون السبب فيه المجتمع نفسه : فالفقر شقاء ، ولكن إذا كان هذا الفقر ناشئاً عن سوء الأوضاع الاقتصادية عند جماعة أو أمة ، أو سببه عدم استغلال هذه الجماعة أو الأمة لمراقبها الاقتصادية استغلالاً صحيحاً ، أفلا يكون هذا الشقاء الذي نزل بهم عدلاً من السماء ، بل رحمة من الله بالناس ، لأنه أراهم ما يترتب على مخالفة الدين أو حكم العقل والتفكير من أضرار وشقاء ؟

والحياة البشرية وحدة تامة ، ومن ضروريات العدالة أن توزن بموازين عادلة سليمة ، وإلا فكيف يستقيم نظام الحياة ؛ فإذا لاقت جماعة أو أمة نتائج إهمالها أو جهلها أفيكون ما يحيق بها من أثر ذلك من الشقاء ظلاً وجوراً من الله ؟

وكذلك الحرب ؛ أليست جناية ما يترتب عليه من شقاء هي من عمل المجتمع نفسه الذي لم يحكم القوانين ونظام الله العادل في العلاقات بين جماعاته وأمه ، فترك شريعة العدالة الانسانية الى نظام الغابة وشريرتها . وكذلك الشقاء الذي ينزل بالناس نتيجة للأمراض التي يصابون بها . أليس سره أن هؤلاء الناس أو الحكومة المسئولة عنهم قد أهملت في العمل على محاربة المرض وعلاجه والوقاية منه ؟ ومثل ذلك الآلام التي تصيب الأطفال من فقر ومرض وسواهما ؛ أليس مرجعها الى إهمال الآباء وجاهلهم وتعميرهم في حقوق الأبناء ؛ ولنفرض أن رجلاً توفي وترك طفلاً صغيراً ، ولم يترك له شيئاً من مقومات الحياة ، أليس الأب مسئولاً

عن إهماله الذي كان منه في حق طفله حين لم ينظم حياته تنظيمًا اقتصاديًا كما يبعث على الطمأنينة والثقة بأنه أدى واجبه نحو ابنه ؟ ولنفرض أيضا أن رجلا سار في الطريق فأخطأ سائق سيارة فقضى على حياته ، أليس هذا الشقاء مبثوثا خطأ رجل من المجتمع وعدم حذره في سبيل المحافظة على حياة الناس وفي سبيل أداء واجبه كاملا ؟ وقوانين الوراثة تعمل لنا تعليلا واضحا كيف تنتقل الأخلاق والأمراض وغيرهما من الآباء الى الأبناء على مر العصور .

ولإهمال المجتمع أو خطؤه لا يستلزم أن يكون كل إنسان في المجتمع قد صدر منه الإهمال أو الخطأ ، ولا أن يكون مسئولاً عنهما ، بل يكفي أن يحيد فرد عن السبيل فيحيق الشقاء بكثير من أفراد المجتمع أو بالمجتمع جميعا ، لأن الحياة قائمة على التعاون والعمل المشترك لخدمة الإنسانية والجماعة البشرية والسير بها قدما في سبيل الخير والأمن والسلام والرفاهية ، فإي صدر عن فرد قد تشقى به أمة .

الثالث : مالا يمكن معرفة السبب فيه ، كسفينة هبت عليها أعاصير عاتية فغرقت بركابها ؛ وكبركان ثار فدمر مدينة ، وكصاعقة زلت من السماء فقتلت على جماعة ، وغير ذلك من مظاهر الشقاء الذي لا تفهم الحكمة فيه ولا أسبابه المحيطة به .

ومن البدهي أن غفلنا أقصر في هذه الحالات عن إدراك كنه إرادة الله وحكمته ورحمته وعدائه ، فقد يكون السبب في بعضها حكمة بعيدة لا يعلمها إلا الله كما ترمز إليه قصة الخضر مع سيدنا موسى ، وقد يكون السبب في بعضها الآخر حفظ السكون نفسه والعمل على بقاء الحياة ، فتضحي عدالة الله بفرد في سبيل مجتمع ، أو بالجماعة في سبيل الوجود نفسه ، فقد تدمر المواد المنتهية المتصاعدة من فوهة البركان قرية ولسكها ربما لو لم يفجر البركان لوقعت نكبة أرضية تقع صحبة لها قارة بأسرها : والحياة نفسها مجموعة من التضحيات ، فنحن نموت لبعثنا جيل جديد ، وبعض الكواكب الكونية تتلاشى ليبقى نظام الوجود سليما . وكرات الدم في حرب شعواء يعني بعضها فيها في سبيل بقاء البعض الآخر القادر على تزويد الجسم بالحياة ، وهكذا تضحي إرادة الله بالضعيف ليبقى القوى فيعمر الكون ويكون خليفة الله في أرضه ، وتزدهر حياة البشر ، ويصبحوا أهلا لأن يعيشوا في الحياة .

وفلسفة الدين تقوم على بحث الرضاء الروحي والطمأنينة النفسية في قلوب المؤمنين ، وعلى أن يفوض الناس أمورهم في مثل هذه الأحوال لله ، وعلى الإيمان الكامل بعذابه ورحمته وبالحياة الآخرة التي يجازى فيها على ما عملوا من حسنات أو سيئات . وفي مثل هذا يطيب للفكرين أن يقرؤا بعجز عقولهم عن فهم حكم الله العظيمة في الحياة ، وإلا كانوا كالطفل الذي يحكم على أعمال الفيلسوف .

نتؤمن بمقولنا وقلوبنا جميعا ، فالعقل وحده قد يبحث على الشقاء الروحي ، وقد لا يوصل الإنسان إلى الهدف المنشود ، كالرجل الذي يعتمد على رجله وحدهما في السير على سطح الماء ، والقلب وحده قد يكون مثار الطمأنينة والعبرة واليقين ، ولكن أليس مما لا يليق بكرامة الإنسان الأدبية وهو خليفة الله في أرضه ، أن يلقي عقله وفكره ، وأن يفهم الحياة ونواميس العدالة الإلهية العظيمة ، فهما آليا محدودا لا يتعدى نظرات الحيوانات السائمة إلى الكون العظيم .

لقد عرض الأستاذ آدم ، مشكلة الشقاء ، عرضا فكريا ولكن عرضه لا يخلو من طرفة وإعمال للدقة في البحث فيما أثاره من مشكلات ، وترك للواجب المقدس فيما كان يجب أن يحافظ عليه من أدب مع الله في بحثه عن عدائه ورحمته . وكيف نفهم الحياة ، وتخصيصتنا فيها ، والرسالة العظيمة التي خلقنا لأدائها كاملة في سبيل السير بالحياة قدما إلى المثل العليا والأهداف العظيمة المرتجاة ، إذ لم نفهمها على أنها وحدة تامة أو جسم واحد يتحرك في تعاون وإنسجام ودقة نظام لغاية مشتركة ، ولتجديد المستمر في سبيل الإنسانية وحضارتها وتقدمها وسعادتها ؟ وهل يمكن أن نقول : المرأة قد شقيت حين خلقت امرأة ولم تخلق رجلا ، وأن مجارى البول في الإنسان تشق وكان الأولى بالله أن يسعدنا بأن نكون مسكانا طاهرا يجرى فيه دم الحياة كالقلب تماما ؟ كلا إن شقاءها سعادة للجماعة التي تعيش فيها ، وإن تفسيرنا المحدود لبعض مظاهر الشقاء في الحياة الإنسانية قد يكون صوابا لو أعطينا قوات أخرى تساعدنا على فهم ما خفي وراء عقولنا من مظاهر الوجود ؟

الاسباب الداعية

إلى جمع طرق كل حديث من أحاديث صحيح البخارى

١ - منزلة صحيح البخارى من كتب الدين :

قال الإمام الشوكانى : « اعلم أنه قد اتفق من يعتمد به من أهل العلم أن السنة المطهرة مستقلة بنشرىح الأحكام ، وأنها كالقرآن فى تحليل الحلال وتحريم الحرام ، وقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ألا وإنى أوتيت القرآن ومثله معه ، أى أوتيت القرآن وأوتيت مثله من السنة التى لم يطق بها القرآن » (١) .

قال آئمة العلم والصحيح ما اتصل منده بنقل العدل الضابط عن مثله وسلم من شذوذ وعلة » (٢) .

قال النووى رحمه الله تعالى : « والصحيح أقسام : « أعلاها ما اتفق عليه البخارى ومسلم ، ثم ما انفرد به البخارى ، ثم ما انفرد به مسلم » .

وأول من اعنى بجمع الصحيح أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخارى ، وتلاه صاحبه وتلميذه أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابورى ، فيها أصبح كتب الحديث (٣) .

والبخارى أرجح ، لأنه اشترط فى إخرجه الحديث فى كتابه هذا أن يكون الراوى قد عاصر شيخه وثبت عنده سماعه منه ، ولم يشترط مسلم الثانى ، بل اكتفى بمجرد المعاصرة ، ومن هنا يفصل لك النزاع فى ترجيح صحيح البخارى على مسلم كما هو قول الجمهور (٤) .

فهو أول كتاب ألف فى الصحيح المجرّد . اتفق جمهور العلماء على أنه أصح الكتب بعد القرآن الكريم (٥) .

وقد ذكر الحافظ ابن حجر أن عدة ما فيه من الأحاديث بالمكرر ٧٣٩٧ (٦) .

(١) إرشاد الفحول ص ١٢ (٢) قواعد التحديث ص ٥٦ (٣) المصدر السابق

(٤) استصار علوم الحديث ص ٨ (٥) مفتاح السنة ص ٣٩ (٦) مقدمه فتح البارى ص ٤٦٨

وبغير المكرر من المتن الموصولة ٢٦٠٢ حديثاً، ومن المتن المتعلقة المرفوعة ١٥٩ لجميع ذلك ٢٧٦١^(١).

٢ - طريقة البخارى في تأليف الجامع الصحيح :

قال الحافظ أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسى فيما رويناه عنه في جزء سماه :
 « جواب المتنعت ، : اعلم أن البخارى رحمه الله كان يذكر الحديث في كتابه
 في مواضع ، ويستدل به في كل باب بإسناد آخر ، ويستخرج منه بحسن استنباطه
 وغزارة فقهه ، معنى يقتضيه الباب الذى أخرجه فيه ، وقبلها يورد حديثاً في موضعين
 بإسناد واحد ولفظ واحد ، وإنما يورده من طريق أخرى لمعان تذكرها ، والله
 أعلم بمراده منها : فمنها أنه يخرج الحديث عن صحابي ثم يورده عن صحابي آخر
 والمقصود منه أن يخرج الحديث عن حد الغرابة . وكذلك يفعل في أهل الطبقة
 الثانية والثالثة وهلم جرا الى مشايخه . فيعتقد من يرى ذلك من غير أهل الصنعة
 أنه تكرار ، وليس كذلك ، لاشتغاله على فائدة زائدة . ومنها أنه صحح أحاديث
 على هذه القاعدة يشتمل كل حديث منها على معان متعارفة ، فيورده في كل باب
 من طريق غير الطريق الأولى ، ومنها أحاديث يروها بعض الرواة تامة ويروها
 بعضهم مختصرة ، فيوردها كما جاءت ليزيل الشبهة عن ناقلها . ومنها أن الرواة
 ربما اختلفت عباراتهم لحدث راو بحديث فيه كلمة تحتل معنى ، وحدث به آخر
 فعبر عن تلك الكلمة بعينها بعبارة أخرى تحتل معنى آخر ، فيورده بطرقه إذا
 صححت على شرطه ، ويفرد لكل لفظة باباً مفرداً . ومنها أحاديث زاد فيها بعض
 الرواة رجلاً في الإسناد ونقصه بعضهم ، فيوردها على الوجهين حيث يصح عنده
 أن الراوى سمعه من شيخ حدثه به عن آخر ثم لقي الآخر لحدثه به فكان يرويه على
 الوجهين . فهذا جميعه فيما يتعلق بإعادة المتن الواحد في موضع آخر أو أكثر .

وأما تقطيعه للحديث في الأبواب تارة ، واقتصاره منه على بعض أخرى ،
 فذلك لأنه إن كان المتن قصيراً أو مرتبطاً ببعضه ببعض وقد اشتمل على حكيم
 فصاعداً ، فإنه يعيده بحسب ذلك مراعيًا مع ذلك عدم إخلاله من فائدة حديثه

وهي إirاده له عن شيخ سوى الشيخ الذي أخرجه عنه قبل ذلك كما تقدم تفصيله ،
فستفيد بذلك تكثير الطرق لذلك الحديث . وربما ضاق عليه مخرج الحديث
حيث لا يكون له إلا طريق واحدة ، فيتصرف حينئذ فيه ، فيورده في موضع
موصولا وفي موضع معلقا ، ويورده تارة تاما وتارة مقتصرا على طرفه الذي
يحتاج اليه في ذلك الباب . فان كان المتر مشتملا على جمل متعددة لا تعلق لإحداها
بالأخرى فإنه يخرج كل جملة منها في باب مستقل ، فرارا من التطويل ، وربما نشط
فساقه بتمامه . فهذا كله في التقطيع ^(١) .

وأراد أيضا أن يفرغ جهده في الاستنباط من حديث رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، ويستنبط من كل حديث مسائل كثيرة جداً . وهذا أمر لم يسبقه اليه
غيره . غير أنه استحسن أن يفرق الأحاديث في الأبواب ، ويودع في تراجم
الأبواب سر الاستنباط ^(٢) .

٣ - آفات هذه الطريقة والصعوبات التي فيها .

وقال مسلم بن قاسم القرطبي ، وهو من أقران الدارقطاي ، في تاريخه عند
ذكر مسلم . ولم يضع أحد مثله ، وهذا محمول على حسن الوضع وجودة الترتيب
وسهولة التناول ، فإنه جعل لكل حديث موضعاً واحداً يليق به يجمع فيه طرقه
التي ارتضاها واحتار ذكرها وأورد فيه ألفاظه المختلفة ، بخلاف البخاري فإنه
يذكر الطرق في أبواب متفرقة ، ويورد كثيراً من الأحاديث في غير الأبواب التي
يتبادر إلى الذهن أنها تذكر فيه . وقد وقع بسبب ذلك لئس من العلماء أنهم نقوا
رواية البخاري لأحاديث هي موجودة فيه حيث لم يجدوها في مظانها السابقة
إلى الفهم .

وقال الإمام السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار على أن المراجعة
في صحيح البخاري في مكان من الصموية لا يمر فيه إلا من عالجها ، فإن الحديث
الواحد قد يوجد في عدة أبواب منه بألفاظ مختلفة ، فن وجد غلطا في حديث
منهما كان عليه أن يراجع جميع رواياته فيها ليتمكن الجزم بالصواب .
ومن لم يدق النظر في اختلاف الروايات والرواة والألفاظ فربما جعل الصواب

(١) مقدمة فتح الباري ص ١٢ ، ١٣ (٢) شرح تراجم صحيح البخاري لدهلوي ص ٢٠٢

(٣) توجيه النظر ص ١٣٣

خطأ . وضرب لذلك مثلا ، ثم قال : فليثل هذا الاختلاف في الروايات لا يحزم المصحح بأن كل ما رآه حتى "المعنى محرف ويراجعه ، ولا بأن كل ما رآه جلي "المعنى هو الصحيح من الروايتين أو الروايات ، بل لابد من النقل واستقصاء الروايات عند المراجعة ، وذلك من العسر بمكان .

فمن نرى الحفاظ وكبار المحدثين وشراح دواوين السنة يفسون بعض الروايات أحيانا ، أو يغفلون ذكرها في مواضعها . فهذا الحفاظ ابن حجر — وناهيك بسعة حفظه — قد ذكر في شرحه الحديث أبي قلابة الخ ما قال .
٤ — الحاجة إلى ضم أطراف كل حديث وجمع طرقه ورواياته المختلفة :

قال الحفاظ في الفتح : « إن بعض الرواة يختصر الحديث ، وإن المتعين على من يتكلم على الأحاديث أن يجمع طرقها ثم يجمع ألقاظ المتن إذا صحت الطرق يشرحها على أنه حديث واحد ، فإن الحديث أدنى ما عسر بالحديث . وأوضح منه ما قال السدي رحمه الله تعالى :

« وفي هذا تنبيه على أنه لابد للبستل بالحديث من تتبع رواياته ، فيستدل بملاحظة جميع الروايات ، فإن أمكن الترجيح أو التوفيق فذلك ، وإلا فيطرح خصوصية الروايات ويستدل بالقدر المشترك بينها ، ضرورة أن تعدد الروايات إنما يكون من تعبير الرواة ونقلهم الحديث بالمعنى وإلا فعلوم أن تمام الروايات المختلفة ليست من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث واحد ، فلا استدلال بكل رواية على حدة عند الاختلاف في حديث واحد مشكل .

وقال مولانا شاه ولي الله الدهلوي : وقد تختلف صيغ حديث لاختلف الطرق ، وذلك من جهة نقل الحديث بالمعنى . فإذا جاء حديث ولم يختلف النقات في لفظه كان ذلك لفظه صلى الله عليه وسلم ظاهرا ، وأمكن الاستدلال بالتقديم والتأخير والوار والفاء ونحو ذلك من المعاني الزائدة على أصل المراد .

وإن اختلفوا اختلافا محتملا ، وهم متقاربون في الفقه والحفظ والكثرة ، سقط الطهور ، فلا يمكن الاستدلال بذلك إلا على المعنى الذي جاموا به جميعا .
وجهور الرواة كانوا يعتنون بزموس المعاني لا بجواشها .

(١) مقدمة مجموعة الأحاديث الجديدة ص ٦ ، ٧ (٢) نراس الساري في أطراف البخاري ص ٣

(٣) حجة الله البالغة ج ١ ص ١١١

العصر العظيم في تاريخ العالم

« كنفشيوس - جوتاموبوذا - زردشت - فيثاغوراس ، من وجهة نظر تأليفية

تأليف : ف . ستانكا . تعريب : الأستاذ عمر طلعت زهران

« محاضر خارج المنهج الدراسي أقيمت في جامعة هامبورج في التاسع عشر من سبتمبر سنة ١٩٤٦ . ويجب أن ينظر الى ربط أصل نظريات هؤلاء الأربعة باستخدام الحديد والاستغلال السياسي كغرض يحتاج الى فحص وتمحيص . . .

- ٥ -

بحث جوتامو في المعرفة عن طريق الخلاص من الألم . أما زردشت فكان أكثر قوة ، فقد أراد أن يتغلب على الألم وعلى كل ما هو شر في العالم ، وأن يحطم ويفي منابه ، وإذا كان كنفشيوس هو تجسد العقلية ، وجوتامو هو تجسد « الشعور الإنساني » ، فإن زردشت كان تجسد « الإرادة الإنسانية » ، فلم يحتضن العائلة ، ولم يحتاج الى أن يعوض في التأمل العميق ، وكل ما كان يريد هو أن يعمل . فإن العمل هو المحور الذي يدور حوله العالم . لم يكن زردشت مفكراً ولا بحتاً ولا طالب معرفة ؛ كان يمتلك قوى التخيل والتعبير كان « معلماً » . لم يكن بحاجة الى متابعة ودراسة ، فله يطلق الوحي الشعري والرؤيات السماوية والإلهام الإلهي ، وكان يعرف أن العالم قد خلق بقوة مبدئين هما الخير والشر . أما المبدأ الأول فكان يدعى « أورمزد » ، أو بدقة أكثر « أهورا ماردا »^(١) ، أي السيد ، الأبيض ، وأما الآخر فاسم « أهريمان » ، أو بدقة أكثر : « أنجرا مانيو »^(٢) ، أي الروح « الشرير » . والمبدأ الأول يصدر عنه النور والحياة وكل ما هو جميل مشرق ، حتى نافع ، صادق مخلص ، داع للسلام . وأما الآخر فيخلق الظلام والموت ، والمرض

Ormuzd, Ahura Mazda. (١)

Ahriman, Angra Maniu. (٢)

والآلم ، وكل ما هو كئيب شرير ، مؤذ خداع ، قبيح غامض . وكلتا القوتين في نضال دائم إحداهما ضد الأخرى في سبيل حكم العالم ، وأن عمل الإنسان وشعوره في حياته هو أن يشترك في هذا النضال ضد الشر . ولم يكن هذا النضال حرباً دموية محزنة ، لا ، فإن زردشت كان ضد الحروب ، كان داعية للسلام . فإن تجدد الخير ، أهواً مازدا ، كان يدعو إلى إلقاء الحسام وترك السلاح ، واضطر أتباعه أن يقسموا : « لا نعلن حرباً ، ولا نهب القرى » . لقد كان النضال من جانب أخلاق ، وطريق هذا النضال يعودنا إلى الفكر الطيب والسكلم الطيب والعمل الطيب ، كما تقول الزردشتية . وأول ميادين هذا النضال كان العمل الخالق المنتج الذي يمد البشر بالثروة والخير والرخاء . وليس لدين من الأديان مثل هذه النصوص التي تختص بعمل الإنسان ، معجدة للعمل باعتباره مصدر النعمة والسرور .

وعلى الرغم من هذه الثنائية الأساسية في النظر إلى العالم . كان زردشت ، بالنظر إلى طبيعته الشيطنة ، متفانلاً . وهو ، في رغبته الدافقة للعمل ، وفي نشاطه كان يملؤه الأمل والاعتقاد بأن يوم النصر الأخير لابد آت ، حيث ينمحي الشر ، ويبقى الخير يحكم العالم بمفرده ، وإذا ذلك يصل الإنسان إلى الكمال ، ويحيا العالم في عصره الذهبي حين تنشأ « المملكة الفاضلة » ، « المملكة المرغوبة » ، « المملكة الرعية » ، « وحيث لن توجد رياح صرصر عاتية ، ولا أمراض ولا موت ، وحيث تملأ الأرض بالناس والحيوانات الأليفة » . وحيث تنتشر في كل مكان نيران السرور ، فلا يوجد بين الناس حكام ولا سائلون ، ولا أعداء ، ولا محادعون يحاولون السير بهم في طريق الشر . وهنا يشرق شعور النشاط الخاسي ، والبطولة الحقة ، محاولاً تحقيق الأعمال السامية العالمية Universal والدينية Cosmic .

وقد رأينا فيما تقدم من عرض للنظريات أن كل واحد من الحكماء الثلاثة له شعار خاص ، هو « العائلة » عند كسفثيوس ، و « الخلاص من الآلم » عند جوتامو ، و « العمل » عند زردشت . ومن السهل أن نجد شعاراً مماثلاً عند فيثاغوراس ، هو بلا ريب « التوافق » Harmony .

تقرير عن كتاب الفرقان

- ٢ -

ونعود فنسأل : ما الذى يريده المؤلف من هذا كله ؟ إنه فى غير موضوع الذى يدعوا اليه من كتابة المصحف بالرسم الحديث ، وفيه ما فيه من محاولة تشكيك المسلمين . وقد بما أرجف بعض أهل الإلحاد بمنزل ما أرجف به ، وحاولوا تشكيك المسلمين فى كتاب ربهم ، ولكنهم يأموا بالفشل ، واستحقوا غضب الله ،

حكى الإمام أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار بن محمد الأنبارى ، قال : لم يزل أهل الفضل والعقل يعرفون من شرف القرآن وعلو منزلته ما يوجب الحق والإنصاف والديانة ، ويفنون عنه قول المبطلين ، وتمويه الملحدين ، وتحريف الزائعين ، حتى نبغ فى زماننا هذا زائع زاع عن الملة ، وهجم على الأمة بما يحاول به إبطال الشريعة التى لا يزال الله يؤيدها ، ويثبت أسسها ، وينمى فرعها ، ويحرسها من معائب أولى الخيف والجور ، ومكائد أهل العداوة والكفر ؛ فزعم أن المصحف الذى جمعه عثمان رضى الله عنه — باتفاق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على تصويبه فيما فعل — لا يشتمل على جميع القرآن ، وأن عثمان والصحابة رضى الله عنهم رادوا فى القرآن ما ليس فيه ، وأن المصحف الذى فى أيدينا اشتمل على تصحيف حروف مفسدة مغيرة ، وقال : لى أن أخالف مصحف عثمان كما خالفه أبو عمرو بن العلاء قراء ، إن هذين ، وهما صدق وأكون ، الخ . ثم قال : وفى قوله تعالى : إنا نحن نزلنا الذكر وإما له لحافظون ، دلالة على كفر هذا الإنسان ؛ لأن الله عز وجل قد حفظ القرآن من التغير والتبديل والزيادة والنقصان ؛ وفى هذا الذى أتاه توطئة الطريق لأهل الإلحاد ليدخلوا فى القرآن ما يحلون به هرا الإسلام ، وينسبونه الى قوم كهؤلاء القوم الذين أحال هذا بالباطل عليهم ، وفيه إبطال الإجماع الذى به يحرس الإسلام ، ونبياته تقام الصلوات ، وتؤدى الزكوات ، وتجرى المتعبّدات ... الخ . . انظر تفسير القرطبي ج ١ ص ٨٩ وما بعدها .

وهذا يبين أن المؤلف فيما يزعمه ويردده سلفاً ، ولكنه سلف غير صالح !
 (٤) وما يؤخذ على المؤلف أيضاً : أنه بعد أن حكم على رسم المصحف العثماني بأنه كان عن خطأ من كاتبه وقصور ، زعم أن العلماء الذين عللوا لرسم المصحف قد أتوا بتعليلات شاذة عقيمة ، وترهات كثيرة ، وتمحلات غير مقبولة ، وأنهم - مع هذا - وقفوا أمام بعض المتناقضات في رسم المصحف حائرين مشدوهين لم يستطيعوا أن ينتحلوا لها عذراً ، أو يحيروا عنها جواباً (ص ٥٨) ، وأن كل ما قيل في الدفاع عن الرسم القديم والجدال حول صحته لا يخرج عن كونه لموا وعثا يجب أن تصان أعمال العقلاء وأقوالهم عنه (ص ٦٥) .

(٥) وقد عقد المؤلف فصلاً بعنوان : التناقض الموجود في رسم المصحف ، ذكر فيه أن المصحف به كلمات من نوع واحد ولكنها كتبت على صور مختلفة مثل : لا اذبحته ، و لا اذبحه ، كتبت الأولى بألف بعد لا ، وكتبت الثانية بدون هذه الألف : ومثل : وعثو ، بدون ألف ، و : أتوا ، و : دعوا ، بالألف ؛ ومثل : من نبأ المرسلين ، حيث كتبت بزيادة ياء بعد همزة : نبأ ، في حين أنها كتبت في موضع آخر بدون هذه الياء ، وهو قوله تعالى : من نبأ موسى . ومن ذلك أيضاً : قال : نكتب أحياناً بألف ، وأحياناً دون ألف ؛ ومثل ذلك : إحساناً ، و : إصلاحاً ، الخ .

والمعروف أن علماء الرسم تتيبوا أمثال هذه المواضع وعللوا لها بما يعرف منه أن هذا مرجعه إلى ما في الكلمة من قراءات يحتملها الرسم ، أو ما فيها من قراءة واحدة تستدعي أن تكتب بصورتها التي لا تحتمل ما سواها ؛ وقد نقل المؤلف نفسه بعض ذلك في مثل : قال ، حيث كتب في بعض المواضع بالألف وهي المواضع التي قرئت فيها قال فقط ، مثل : وإذا قال إبراهيم . . . وإذا قال موسى لقيته ، أما المواضع التي يقرأ فيها قال أو قل فقد كتبت فيها بدون ألف ثم وضعت المدة تنبئها على قراءة الألف كما في قوله تعالى : قال أولو جثكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ، و : قال رب اسكن بالحق . . . ومع نقله لهذا فإنه يتعقب بما يزعم أنه يبطله ، والله يعلم إنه لمن المبطلين .

وقد سار المؤلف على طريقته ، فاختر من الأقوال ما يؤيد رأيه في ذلك ، ولم

يعبأ بما رد به العلماء على تلك الأقوال ؛ شأن المتعصب لفكرة لا يريد أن يفتح عينه إلا على ما يزيدها وبروجها ، وليس هذا شأن المصنفين من الباحثين .

ويحسن بنا في هذا المقام أن نورد فتوى ذات شأن من علماء أجلاء ، هم أعضاء لجنة الفتوى بالأزهر في موضوع رسم المصحف ، وبها يتبين القول الفصل في هذا الباب :

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الشريف اقتراح خاص بطبع المصحف الكريم على كيفية خاصة ، أساسها أن يكون بالرسم الكتابي العادي المتبع الآن بالأزهر الشريف وفروعه وجميع المعاهد العلمية بمصر والبلاد العربية الإسلامية وغير إسلامية .

وقد أجابت اللجنة في هذا الموضوع بما نصه :

« وأما طبع المصحف الكريم على قواعد الرسم الكتابي العادي المتبع الآن ، فاللجنة ترى لزوم الوقوف عند المأثور من كتابة المصحف ومجائه ؛ وذلك لأن القرآن الكريم كتب به وقت نزوله على النبي صلى الله عليه وسلم ، ومضى عهده صلى الله عليه وسلم والقرآن على هذه الكتابة لم يحدث فيها تغيير ولا تبديل ، وقد كتبت به مصاحف عثمان ، ووزعت على الأمصار لتكون إماما للمسلمين ، وأقر أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عمل عثمان رضي الله عنه ، ولم يحالعه أحد فيما فعل ، واستمر المصحف مكتوبا بهذا الرسم في عهد بقية الصحابة والتابعين وتابى التابعين والأئمة المجتهدين في عصورهم المختلفة ، ولم ينقل عن أحد من هؤلاء جميعا أنه رأى تغيير مجاه المصحف عما رسم به أولا الى تلك القواعد التي حدثت في عهد ازدهار التأليف والتدوين في البصرة والكوفة ، بل ظل مصطلح القرآن قائما مستقلا بنفسه ، بعيدا عن التأثير بتلك القواعد .

« ولا ريب أنه وجد في تلك العصور المختلفة أناس يقرءون القرآن ولا يحفظونه وهم في الوقت نفسه لا يعرفون من الرسم إلا ما وضعت قواعده في عصر التأليف والتدوين ، وشاع استعمالها بين الناس في كتابة غير القرآن ، ولم يكن وجود هؤلاء مما يبعث الأئمة على تغيير رسم المصحف بما تفضى به تلك القواعد .

« قال العلامة نظام الدين اليسانورى فى كتابه « غرائب القرآن و رغائب الفرقان » ما نصه : « وقال جماعة من الأئمة : إن الواجب على القراء والعلماء وأهل الكتاب أن يتبعوا هذا الرسم فى خط المصحف ، فإنه رسم زيد بن ثابت ، وكان أمين رسول الله صلى الله عليه وسلم وكاتب وحيد » .

« وجاء فى الإتحان للإمام السيوطى ما نصه :

« وقال أشهب : سئل مالك : هل يكتب المصحف على ما أحدثه الناس من الهجاء ؟ فقال : لا ، إلا على الكتابة الأولى . رواه الدانى فى المنع ، ثم قال : ولا يخالف له من علماء الأمة . وقال فى موضع آخر : سئل مالك عن الحروف فى القرآن مثل الواو والالف : أترى أن يعبر من المصحف إذا وجد فيه كذلك ؟ قال : لا ، قال أبو عمرو : يعنى الواو والالف المزيدتين فى الرسم المعدومتين فى اللفظ ، نحو « أولوا » .

وقال الإمام أحمد : يحرم مخالفة خط مصحف عثمان فى واو أو ياء أو ألف أو غير ذلك » ..

وقال البيهقى فى شعب الإيمان « من يكتب مصحفا ينبغي أن يحافظ على الهجاء الذى كتبوا به تلك المصاحف ، ولا يخالفهم ، ولا يغير عما كتبوه شيئا : فإنهم كانوا أكثر علما ، وأصدق قلبا ولسانا ، وأعظم أمانة منا ، فلا ينبغي أن نظن بأنفسنا استدراكا عليهم ، اهـ .

« وقد جاء فى فقه الحنابلة ما يؤيد نقل السيوطى فى الإتحان عن الإمام أحمد بن حنبل .

« وجاء فى حواشى المنهج فى فقه الشافعية : إن كلمة « الربا » تكتب بالواو والالف ، كما جاء فى الرسم العثمانى ، ولا تكتب فى القرآن بالياء أو الألف ، لأن رسمه سنة متبعة .

« وجاء فى المحيط البرهانى فى فقه الحنفية : إنه ينبغي ألا يكتب المصحف بغير الرسم العثمانى .

« على أن قواعد الإملاء التى حدثت فى عهد التأليف والتدوين لم يتفق عليها واضعوها ، بل اختلفوا فى رسم كثير من الكلمات ، كما هو مدون فى مواضعه :

وهي بعد ذلك عرضة للتغيير والتبديل ، وقد صارت اليوم موضع شكوى وتعكير نظراً لما فيها من كتابة أحرف لا وجود لها في اللفظ ، وترك أحرف مطوق بها ؛ فلا ينبغي والحالة هذه أن يخضع القرآن في رسمه لهذه القواعد المختلف فيها ، والتي هي عرضة للتغيير والتبديل .

و أما ما يراه أبو بكر الباقلاني من أن الرسم العثماني لا يلزم أن يتبع في كتابة المصحف ، فهو رأي ضعيف ، لأن الأئمة في جميع العصور المختلفة درجوا على التزامه في كتابة المصاحف ، ولأن سد ذرائع الفساد مهما كانت بعيدة ، أصل من أصول الشريعة الإسلامية التي تبنى الأحكام عليها ؛ وما كان موقف الأئمة من الرسم العثماني إلا بدافع هذا الأصل العظيم ، مبالغة في حفظ القرآن وصونه .

و أما ما ذكره صاحب الاقتراح من أن كثيراً من المتعلمين لا يحفظون القرآن ولا يحسنون قراءته في المصحف ، لعدم معرفتهم الرسم العثماني ، فالجنة ترى - سهيلاً للقراءة على هؤلاء - أن ينبه في ذيل كل صفحة على ما يكون فيها من الكلمات المخالفة للرسم المعروف .

و على أن الأمر أمون مما يتصوره المقترحون للتغيير ؛ لأن رسم المصحف العثماني لا يخالف قواعد الإملاء المعروفة إلا في كلمات قليلة معدودة ، ومع ذلك فليست هذه المخالفة مما تحدث شيئاً من اللبس على القارئ المتأمل ، لأنها إما بحذف حرف ، كحذف الالف في : بسم الله الرحمن الرحيم ، أو زيادة حرف ، كزيادة الواو والالف في : أولوا ، أو إبدال حرف من حرف كرمم ، الصلوة ، بالواو بدلاً من الالف ، أو وصل ما حقه الفصل ، مثل وصل : إن ، بما الموصولة كما في قوله تعالى : إنما نعدون آلات ، أو فصل ما حقه الوصل كفصل : في ، الجارة من : ما ، الموصولة ، مثل : في ما فعلن في أنفسهن . . وواضح أن مثل هذا لا يشقبه هل أحد أن ينطق به صحيحاً .

و وإن من يطلع على التعريف بالمصحف الذي أشير إليه فيما سبق ، يستطيع أن يعرف تلك الكلمات بسهولة ، واه أعلم .

رئيس لجنة الفتوى

٥ من ذي الحجة سنة ١٣٥٥

محمد عبد اللطيف الفحام

١٦ من فبراير سنة ١٩٣٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

من الرجل العالمى منهما؟

قام في الولايات المتحدة الامريكية رجل دعا إلى وجوب قيام حكومة واحدة للعالم أجمع ، مادام غرض الناس واحدا ، وغايتهم من الحياة واحدة ، وهى العيش بسلام مطمئنين على أموالهم وأولادهم ، لا يتحيقهم ظالم ، ولا يتهمهم متحكم ، أحرارا في عقائدهم وآرائهم وطريقة حفظ الأمن في ربوعهم ، فلا داعى لأن تعدد حكوماتهم الرئيسية ، فإن بتعددتها تتولد الحزازات ، وتنشأ المفاصات ، ويجر ذلك إلى المعاكسات والمماحكات ؛ ذلك الرجل هو (جارى ديفز) وقد لقب بالرجل العالمى .

وقبل نحو ألف وثلاثمائة سنة ، ظهر فى صميم بلاد العرب رجل صاح بالعالم كله : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » . وعمل على شاكلته فأخذ يدعو الناس سرا إلى عقيدته ، ويستهو بهم إلى حقيقته ، حتى تبعه رجال يستطيعون أن يدافعوا عن وجودهم ، ولكنه لم يقبل أن يعرضهم للقاء المحقق ، حكمة باهرة ! فأمرهم بالصبر ، فلما عز عليهم ، أمرهم بالهجرة ولم يعرضهم للتلاشى ، وهم أركان الدولة المستقبلية ، وأعلام السكامة الجامعة .

استمر محمد على هذه الحال حتى لم يبق في قوس الصبر منزع ، فاتفق مع أهل المدينة على الهجرة إليهم ، ولكنه اتخذ من التحوطات حتى لا يفشو هذا السر ما أمكنته الحيلة ، ثم أرمع الهجرة في جنح الليل المظلم حتى لا يدركه أعداؤه فيبطلوا تدبيره ، ولم يستصحب من أصحابه إلا رجلا واحدا يثق به كما يثق بنفسه ، فلما أدركه نور الصباح لجأ إلى غار يدعى حراء ، قيل كان من الوحشة ، وصعوبة المدخل ، بحيث يمر على أحرأ الناس أن يقتحمه . و انتهى دليل أعدائه إلى ذلك الغار وأشار إليه ، فلم تسمع نفس أعدى أعدائه بأن يزوج نفسه فيه . فلبثوا مليا ينظرون إليه ، ثم ينظر بعضهم إلى بعض حتى شتموا ، فرجعوا أدراجهم خائبين . ولما اطمأن محمد وصاحبه على نفسيهما خرجا يذرعان الصحراء درعا ، قاصدين المدينة ، حتى بلغاها بعد لآلى ونصب . فقام لهم أهلها باحتفال رهيب .

بلغ محمد مأمه بين ظهراني قوم حالفوه على أن يحموه من أعدائه ، ويحموا دينه الذي جاء به ، فأخذ يدبر أمر الدعوة العالمية التي أرسل بها إلى الناس كافة ، نعم إلى الناس كافة ، وينص القرآن : وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ، بشيرا للذين يقبلون الدين العالمي ، ونذيرا للذين يرفضونه .

كان أول ما شرع فيه محمد من السير في هذا العمل المدهش أن أعد كتباً وأرسلها للإمبراطرة والقيصرة والزعماء المعروفين في زمنه ، كإمبراطور الرومان ، وشاهنشاه المعجم ، وملوك اليمن والعراق وغيرهم . ولكن أهؤلاء كانوا هم العالم كله ؟ إن مال بعضهم للوجه السلبي ، قلنا له : إن الرومانيين كانوا على اتصال وثيق بالجماعات الأوروبية باعتبار أن إمبراطوريتها كانت في وسطها . وكان الفرس في مكان من آسيا يشرفون على التركستان والهند المتصلتين بالصين ، وعلى الأناضول وجميع من يعاملهم من صنوف الأمم .

أما أفريقيا فكانت خيرة عالمكما جزءاً من الإمبراطورية الرومانية كقصر وشمال أفريقيا كله ، إلا ما انحط من جماعات السودان فكانوا إذ ذاك لهم شأن يفتنيهم عن الدعوات العالمية .

عقل مرتب ، قائم على أصول اجتماعية مقررة ، وملاحظ فيه ناموس التطور ، حتى انتهى في عصرنا الحاضر إلى غايته القصوى ، وأصبح في درجة البدهيات العقلية .

فأما أنه مرتب نقصد بدأ بالدعوة السرية في أمة لم تعرف ملحية الرأي ، ثم ترقى فأبلغ إلى عشيرة الداعى ، ومنها إلى سواد الأمة ، ثم تعداها إلى الخارج ، فترك فيها أثراً لا يكاد يدرك . فإذا حدث بعد هذا العمل الأولى ؟

دأب محمد على الدعوة العالمية ، مخاطباً الناس كافة ، لا العرب خاصة . فقرر للناس أن الدين واحد لا يتعدد ، أنزل على أول النبيين كما أنزل على خاتمهم ، وأن الذين آمنوا ببعض الأديان وكفروا ببعض الآخر هم ضالون مضلون ، فالدين واحد كوحدة الإنسانية في صفات أفرادها الطبيعية والنفسية ، وفطرهم الأدبية والخلقية ، وأغراضهم المادية والمعنوية ، ومراميمهم الجسدية والمثالية . ومتى كان الأمر كذلك فقد وجب أن لا تكون للبشرية إلا ملة واحدة ، فيحدث بينها من التعاطف والتراقد ما بين الإخوة الأقربين ، فلا يشور بعضهم على بعض ،

ولا يحنى بعضهم على بعض ، بل يعيشوا إخوانا مترافين ، وهو أقل ما يجب للإنسانية الكريمة من التعاطف والتساعد ، ليسوع الغايات القصوى التى ادخرها الله للإنسانية فى أدوارها الراقية .

لم يقف جهد محمد عند هذا الحد ، ولكنه تعداه إلى ما هو أبعد مدى ، وأعظم تأثيرا فى النفس ^(١) ، وذلك بأنه قرر أن الدين الذى أتى به ليس بدين جديد ولكنه الدين الأول الذى أنزله الله على الأنبياء كافة ، ليكون نورا وهدى للناس كافة :

« وشرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعهم إليه ، الله يجتبي إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب . وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ، ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم ، وإن الدين أوروثوا الكتاب من بعدهم لنى شك منه مريب . فذلك فادع (أى فلو حدة الدين فادع) واستقم كما أمرت ، ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم (أى لا حاجة ولا خصومة) الله يجمع بيننا وإليه المصير . »

وفى آية أخرى :

« قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا ، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما هم فى شقاق ، فسيكفيكم الله ، وهو السميع العليم . »

وفى آية أخرى :

« إن الدين فرقا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شيء . »

وفى آية أخرى :

آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته

(١) اقتضى الطراز الأدبى الذى استرنا أن نكتب به مقالنا فى هذا الشهر أن نفضل الصلاة والتسليم على النبي كلما ذكر حلافا لمادتنا ، وأن نقسب إليه أمورا كلف أن يفرجها على الناس ، وليس هو الذى فرجها من تلقاء نفسه ، فترجو القارىء أن يلاحظ ذلك ويتلص لنا عفوا .

وكتبه ورسله ، لا تفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير . .

ومما يجب لفت النظر إليه أن الإيمان الذي يعتد به محمد هو الإيمان برسول الله أجمعين ، وبما أنزل إليهم من الكتب جمعا لا الإيمان ببعضهم وبعضها والكفر ببعض الآخر .

ومما هو أدعى إلى الإكبار ، وأدل على الغرض السامى الذى قصده الإسلام أن من شروط هذا الدين الأولية أن من أبى أن يؤمن برسالة رسول أو نبي من الرسل والأنبياء الذين أرسلوا للأمم السالفة لا يعتبر مسلما مهما كانت درجة إيمانه بمحمد ، ويحصد في النار مع الكافرين : « إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ، ويقولون تؤمن ببعض ، وكفر ببعض ، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا . أولئك هم الكافرون حقا ، وأعدنا للكافرين عذابا مهينا . »

فالدين الذى أرسل به محمد هو دين الإنسانية أجمع ، لا دين أمة من أممها ، وشروط الدخول فيه أن يؤمن بأنبياء الله ورسله كافة ، لا يفرق بين أحد منهم ، فكما أن الإنسانية وحدة لا تجزأ تترابط أجزاؤها مع مرور الأزمان ، وتقوى صلاتها تبعا لزيادة التبادل بينها ، كذلك ديارتها وحدة روحية لا يجوز التخالف فيها ؛ فالمسلم أخو المسلم وشريكه في الحياة ، وإن كان بين وطنيهما بعد المشرقين ، وبين لتيهما تناقض الصدين . فإن كان قد كتب للبشر أن تكون لهم حكومة واحدة . فلا سبيل إليها إلا هذا السبيل ، وإلا فإن كل ما يبذل في سبيل إيجادها من بحث لا يعمدو أن يكون كلاما في كلام ، لا يلبث أن تسامه النفوس ، وتنبو عنه الاسماع لظهور استحالته للبيان . نقول هذا ونحن نعلم أن خضوع العالم كله لحكومة واحدة ، وهو على ما هو عليه من عوامل التفرق ، من المحالات العقلية ، ولكننا كتبنا ما رأيت لدل على أن الإسلام دين عالمي في كل ما يرى إليه .

وإذا كان الأمر كذلك فمن الذى يجب أن يدعى بحق « الرجل العالمى » أحمد رسول الله أم المستر (جارى ديفو) ؟

محمد فريد وجري

محمد رسول الله

«مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ، تَرَاهُمْ رُكَّعًا
سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ، سِيَّاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ . ذَلِكَ
مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ ، وَهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ .»

هذه الآية الكريمة ترتبط بقوله تعالى في الآية السابقة : «وكنى بإله شهيدا» .
فهي قضية مستقلة مستأنفة لبيان المشهود به : فقد بينت أن المشهود به هو رسالة
محمد صلى الله عليه وسلم ؛ ولم يشأ الله تعالى أن يؤكد هذه النسبة الشريفة بأي نوع
من أنواع التأكيد ، بل ساقها مساق المسلمات مع أنها من أخطر القضايا النظرية
لمساسها بصميم الإيمان والعقيدة ، ضرورة أن الإيمان لا يكون إلا بالاعتراف بها
واعتقادها ، والإدعان والتسليم بها مع الإيمان بوحداية الله — إذانا بأنه ينبغي
أن تكون هذه النسبة الكريمة فوق مستوى الشبهات والشكوك والريب ، فضلا
عن الإنكار ؛ لكثرة ما قام عليها من البراهين القاطعة ، والحجج الساطعة ،
والمعجزات الباهرة ، التي تجعلها بعد النظر فيها في مقام البدييات والمسلمات .
ولولا أن سبيل في هذا المقام هو تفسير الآية الكريمة لذكرت للقارىء هذه الأدلة
القاطعة على رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، أو شيئا منها ، وهل من سبيل
إلى الشك والارتياب بعد هذه المعجزة الخالدة : معجزة القرآن الكريم ؟

ويجوز أن تكون مرتبطة بقوله تعالى في الآية السابقة : «هو الذي أرسل
رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله» . فكأن سائلا يقول : من هو
هذا الرسول العظيم الذي أرسله الله بالهدى ودين الحق ؟ فقال تعالى : هو «محمد
رسول الله» ، فلا تكون الجملة الكريمة مستقلة ، بل يكون الاسم الشريف خبرا
لمبتدأ محذوف ، ورسول الله نعتا ، أو بدلا ، أو عطف يان ؛ وفصلت الجملة ولم
تعطف على ما قبلها لوقوعها منها موقع الجواب من السؤال . وإضافة «رسول» ،

إلى الله ، فيها من التشريف له صلى الله عليه وسلم ، والتبويه برفعة شأنه ما لا يخفى على ذي ذوق سليم ؛ إذ رسول الملك يعتز ويزهو بهذه الإضافة في محاسن العادات ، فأياها ، و محمد رسول الله ، ؟ وإشار التعبير بلفظ الجلالة هنا ، وهو العلم الدال على الذات الاقدس ، دون التعبير بالرحمن أو الرحيم مثلاً أو غيرها من الصفات الكريمة ، لقصد إيقاع الرعب والمهابة في قلوب المخاطبين ، ليسارها الى اعتقاد رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، فينالوا بذلك سعادة الدنيا والآخرة .

وإن تعجب فمجب سأل هؤلاء الذين أعمت العصية بصائرهم ، وأشرىوا في قلوبهم حب الدنيا ومناصب الرياسة ، فلم يظفروا في المعجزات وخوارق العادات ، ولم يصدقوا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم وخصوصاً أهل الكتاب (التوراة والإنجيل) الذين قرأوا ما جاء فيهما بخصوص رسالته صلى الله عليه وسلم ولم يؤمنوا به .

أبطن هؤلاء أنهم يكفروهم بمحمد لم يكفروا بكتابينهما ، وقد أنكروا آيات منهما ؟ أتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟ ي أهل الكتاب ما كان محمد بدءاً من الرسل ، وما جاء إلا بما هو مصدق لما معكم . ولكن ما الحيلة فيمن ختم الله على قلبه وسمعه ، وجعل على بصره غشاوة ، فلا حول ولا قوة إلا بالله .

ولما بين الله تعالى أن رسوله الذي أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، هو محمد صلى الله عليه وسلم ، وشهد بذلك وكفى بآفة شهيدا ، نسي بذكر أصحابه ، وأشاد بصفاتهم المعجبة التي ذهبت مذهب الامثال ، لرفعة شأنها ، وسموها ، وغرايتها ، والتي ذكرها في التوراة والإنجيل فقال .

« والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم » .

ما أروع التعبير بالموصول هنا ، وما أعظم الشرف والفصل المعبومان من قوله « معه » ، أتريد أن يكون لأصحاب محمد من الفضل والرفعة والسمو والنبل أكثر من أن يكونوا هم أصحاب محمد وهم معه .

وروعة الموصول في هذا المقام لأنه يشعرك ابتداء ومن أول الأمر بأن صفات أصحاب محمد الآتية بعد ذلك ، والتي وقعت خبراً عن هذا الموصول ، من أجل الصفات خطراً وأعظمها أثراً ، استأهلت أن تذهب مذهب الامثال

في التوراة والإنجيل . وإن شئت تعبيراً اصطلاحياً بلاغياً فالموصل هنا للإيمان إلى وجه بناء الخبر ؛ نظير ذلك للتقريب .. وقه المثل الأعلى - قول الشاعر :

إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتاً دعائمه أعز وأطول

فقد قالوا إن الموصل وصلته في البيت يشعرا بأن الخبر من جنس الرفة ، ولكن الموصل في الآية ، والدين معه ، لا يشعرك بجلال شأن الخبر فحسب ، بل هو أعظم أثراً وأبعد غوراً ، لدهاب الخبر في الآية الكريمة مذهب الأمثال في الكتابين . ويرى ابن عباس رضي الله عنهما ، أن المراد بالذين معه أصحابه الذين حضروا معه غزوة حنين فقط ، بقرينة أنها نزلت عند انصرافه صلى الله عليه وسلم من حنين . ويرى الجمهور أنهم جميع أصحابه لا فرق بين من حضر منهم حينئذ ومن لم يحضر .

وه أشداء ، جمع شديد ، وه رحماء ، جمع رحيم .

والمعنى : أن فيهم عطفة وشدة على أعداء الدين ، ورحمة ورقة على إخوانهم المؤمنين ، ونحوه قوله تعالى في آية أخرى : أدلة على المؤمنين أعزة على الكافرين . .

قال الحسن رضي الله عنه : بلغ من تشدد الصحابة رضي الله عنهم هلى الكفار أنهم كانوا يتحززون من ثيابهم أن تقترب من ثيابهم ، ومن أبدانهم أن تمس أبدانهم ؛ وبلغ من تراحمهم فيما بينهم أنه كان لا يرى مؤمناً إلا صالحه وعاقبه . ولم يكن ذكر هذين الوصفين (الشدة والرحمة) وكذلك الصفات الآتية مجرد الإعلام والإخبار بأنها صفات الصحابة رضوان الله عليهم الدالة على فضلهم ودرجته شأنهم فحسب ، ولكن لا جمل أن يتأذى المسلمون بعدم فهم على اختلاف طبقاتهم وعصورهم ، ولذلك عنى العلماء والأئمة بذكر الأحاديث والآثار الواردة في معنى التراحم في هذه الآية الكريمة ، فلم يخلطوا في أن المصاحفة من التراحم . واختلصوا في المعاقبة ، فكرها أبو حنيفة إلا عند القدوم من سفر ، ورخص فيها أبو يوسف وغيره .

واستدل أبو حنيفة بما أخرجه الترمذي عن أنس قال : سمعت رجلاً يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم يا رسول الله : الرجل ما يلي أخاه أينحنى له ؟ قال : لا ، قال : أفيلزمه ويقبله ؟ قال : لا ، قال : أياخذ بيده ويصالحه ؟ قال : نعم . وزاد رزين في حديث أنس هذا بعد قوله . ويقبله ، قال : لا ، إلا أن يأتي من سفره . وجواز المعاقبة عند القدوم من السفر مأخوذ أيضاً من حديث عائشة رضي

الله عنها فيما أخرجه الترمذى وحسنه قالت : قدم زيد بن خالد بن حارثة المدينة ورسول الله في بيتي ، ففرع الباب فقام إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم يجر ثوبه فاعتقه وقبله . ولا أريد أن أطيل في ذكر الروايات ، فهي كثيرة لا يتسع لها المقام ، وإنما أردت أن أبين غاية الأئمة فيما يبين معنى التراحم .

فإن قال قائل : إن الاتصاف بالشدّة والرحمة أمر عادي في الناس لا غرابة فيه ، فكيف كان مضرب المثل في التوراة والإنجيل ؟

قلت : إن الغرابة ليست في الشدّة والرحمة لذاتهما ، ولكن في بلوغهما الحد الأقصى في الصحابة رضوان الله عليهم ؛ فهم قد بلغوا أقصى حد الشدّة على الكفار ، وأعلى درجات الرقة والرحمة على المؤمنين ، وهو أمر يخالف العادة إلى حد ما ؛ ذلك لأن الرجل إذا علبت عليه الشدّة لا يكون رحيمًا إلا في أحوال نادرة لا حكم لها لتغلب طبع الشدّة عليه ؛ وكذلك إذا عرف بالرقة والرحمة قلّ أن يكون شديدًا ؛ أما إذا كان شديدًا جدًا في بعض الأحوال ، ورحيمًا جدًا في بعضها ، كان غريبًا حقا فيما جرت به عادة الناس ، وهذا هو وجه الغرابة في الوصفين . والشأن في ذلك الشأن في الصلاة ، وهو الوصف الثالث المذكور في قوله تعالى .

ترام ركعًا سجداً : سواء ؛ إذ معنى هذا الوصف . ترام مصلين ؛ فأنت ترى

الصلاة أمرا عاديا في المؤمنين ، ليست من الغرابة بحيث يضرب بها المثل ، لكن إذا التفتنا إلى التمييز بالمصارع . ترام ، الدال على التجدد المستمر ، وإلى الإطلاق وترك تحديد الوقت في . ركعًا سجداً ، الدال على أنهم كثيرو الصلاة جدا في جميع الأوقات حتى عرفوا بذلك واشتهروا به ، فلم يتركوا نافلة ، راتبة أو مطلقة ، فصلا عن الفريضة ؛ ولم يتركوا ليلة بدون تهجد وصلاة ليل ، فهم يصلون بالليل وبالنهار ، وفي الحصر والسفر ، وفي الصحة والمرض .

أقول : إذا تفهنا لكل ذلك ، وهو مفهوم من الآية ، علمنا وجه الغرابة في صلاتهم التي استأهلت أن تكون مضرب المثل . ويرشح لذلك ويؤيده قوله تعالى : يتنوّون فضلا من الله ورضوانا : الدال على غاية الإخلاص في هذه العبادات الكثيرة ، التي لم تكن رياء ولا نفاقا - حاشاهم - بل رجاء فضل الله ورضوانه ؛ فإن العادة جرت بأن الرجل إذا أكثر من العبادة كثرة خارجة عن المألوف

في العادة ، كان في موضع الشبهة واتهامه بالعاية ، فبرأهم الله من ذلك بقوله : « يبتغون » .
فغايتهم منها أشرف العايات وأرفعها شأنًا ، وهي ابتغاء فضل الله ورضوانه . ويقرب
هذا المعنى ويميزه فصل الجملة من سابقها لوقوعها منها موقع الجواب من السؤال ،
فكان سائلا قال : ما هي غايتهم من هذه الصلاة الكثيرة الخارجة عن حد
المألوف ؟ فكان الجواب « يبتغون فضلا من الله ورضوانا » .

وما أجل وأبدع التعبير بقوله في هذا المقام « فضلا » فإنه يرهف وجدان
السامع ، ويشعره بمعنى من أرفع المعاني شأنًا ، وهو أنهم لا يرجون من عبادتهم
الغريبة هذه أجرا ، بل يعبدون الله لأنه الله ، ولأنه يستحق العبادة لذاته ؛ فإن
منهم الرضوان فذلك فضله ؛ وهي أرقى أنواع العبادات على الإطلاق
في الإسلام ، لا يقدر عليها إلا خواص خواص المؤمنين ، وهم طبقة الصحابة
رضوان الله عليهم ؛ فعباداتهم غريبة خارجة عن المألوف ، وغايتهم منها كذلك .
ألا تكفيك هذه القرابة في مضرب المثل ؟

« سيأثم في وجوههم من أثر السجود » :

أي علامتهم في جباههم من أثر السجود . وللعلماء في هذه العلامة أقوال ،
أشهرها : أنها نور يظهر على وجوههم في الدنيا والآخرة ، إلا أنه في الآخرة يكون
أكثر وضوحا .

ودليله ما أخرجه الطبراني في الأوسط والصغير وابن مردويه بسند حسن
عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : سيأثم
في وجوههم من أثر السجود : النور يوم القيامة .

« ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل » :

آثر التعبير باسم الإشارة الدال على البعد إيذانا بعلو شأن المشار إليه وبعد
مزلته في الفضل . و « مثلهم » أي وصفهم المعجيب الشأن الجاري في القرابة بحرى
المثل . وفي « التوراة » حال من مثلهم ، والعامل فيه معنى اسم الإشارة ، وأعاد كلمة
« ومثلهم » لتأكيد القرابة وزيادة تقريرها . وفنسا الله للاقتداء بهديهم ، والتأسي
بهم . إنه سمع مجيب .

الاسلام

دين العلم والعمل

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد المدني
المفتش بإدارة المعاهد الدينية

— —

أودع الله كل فرد من أفراد النوع الإنساني قوتين ، هما أساس جدارته بالخلافة عن الله في الأرض ، وعمارة هذا الكون ، وعليهما قام كل دين سماوي كلف الله به الإنسان ، بل كل نظام عرفته الأرض له صلة بهذا المخلوق الممتاز على سائر ما خلق الله :

هاتان القوتان هما : القوة العاملة ، والقوة العاملة . وكلتاها فطرية مركوزة في الطباع ، مقترنة بالحياة ، تولدان مع الوليد ، وتموتان مع الميت ، وليس للمرء فيهما حيلة ولا اختيار .

فأما القوة العاملة فأعنى بها استعداد الإنسان لأن يفقه الأشياء بفهمه ، ويدركها بعقله ، سواء أكانت إدراكات تصورية ، أو إدراكات تصديقية ، كما يقول أهل المطلق : لا تجد إنساناً حياً إلا وعنده هذا الاستعداد : فالمرء يدرك منذ يولد ، ويصاحبه هذا الإدراك في جميع مراحل حياته ، ولا يتخلى عنه بقطاً أو نائماً ، صحيحاً أو مريضاً ، كاملاً في عقله أو ناقصاً أو مجنوناً ؛ غير أن الإدراك يختلف صحة وفساداً ، وقوة وضعفاً ، وثباتاً واضطراباً .

وأما القوة العاملة فهي القدرة على استخدام الجوارح والأعضاء البدنية في توجيه شيء ما ، على نحو من الإيجاب أو السلب ؛ فتأثير الفاعل في شيء من الأشياء إيجاباً فعلً ، وامتناعه عن التأثير مع قدرته على محاولته فعل ؛ ولا يوجد حي من الأحياء إلا وفي قدرته عمل شيء ما ، والامتناع عن شيء ما ؛ ولو فقد الإنسان هذه القدرة فقد تماماً ، ولم يكن مستطيعاً . الفعل ، على صورة من الصور لما كان إلا مبنياً على الحقيقة لا على التخييل .

واللذة في عمله ، كما له لذة في عمله ؛ فأية حاجة لا يجد فيها هاتين اللذتين يصرف عنها ، وينفر بطبعه منها ؛ فلو تصورنا مذهباً من المذاهب لا يهتم له إلا أن يوجه أصحابه إلى النظر الدائم ، والتفكير المتواصل ، والتغلغل في آفاق البحث عن الحقيقة ، أو مذهباً على العكس من ذلك يوجه إلى العمل الآلي ارتجالاً على غير هدى ، وبلا ضابط من تفكير أو تدبير ؛ لكان كلا المذهبين باطلاً ، لمخالفاته للطبيعة ، وخروجه عن الفطرة .

ولكن بجانب اللذة في العلم والعمل ، كلاً فيهما ؛ فلم الأباطيل ، وتصور الاوهام ، وامتلاء الذهن بما لا ينفع ولا يفتى ، تضيق للقوة العاملة وإفسادها ؛ إذ ينتهي الأمر بها إلى أن يصير الإنسان كالحبوان الأعجم ، لا يميز الصحيح من الفاسد ، ولا الجليل من القبيح . وقل مثل ذلك في الأعمال ، فإن فعل الشرور وارتكاب الآثام ، وتوجيه القوى إلى الهدم والفساد ، من شأنه أن يجعل الإنسان نوعاً من الحيوانات الضارية التي تنق ويختاط من شرورها .

لذلك لم يكن بد من تزويد هاتين القوتين في الإنسان بزيادة ، وتوجيه كل منهما الوجهة الصالحة التي تحقق بها العناية المقصودة من استخلاص الإنسان ، وتسليطه على هذا الكون ، وتمكينه من الانتفاع بما فيه من قوى ، والاعتبار بما يرشد إليه من عظمة خالفه وكأله ، مع ضمان حصوله على أكبر قسط من اللذة العسية ، والسعادة الروحية والعملية ، التي يتطلبها بطبعه .

والإسلام هو أكل وأسمى ما عرفته الجماعة البشرية من الأديان والنظم ، في تلبية هذه الفطرة ، والقيام على صلاحها والإصلاح بها .

لقد اعطت القوة العاملة قبل الإسلام إلى درجة ضئيلة ، فكان العقل الدشري يكر الإله ، ويعبد الأصنام ، ويؤمن بالخرافات ، ويقر الخزعبلات ؛ فهذا شيطان يلهم الشعر ، وتلك هامة تنادى ليلاً ونهاراً أن اسقوني ، وهذه كعب أرنب تقى العين ، وتحشى من الجن ، وهذا عراف يحبر بالعيب ، ويستخير النجوم والكواكب ، وتلك دماء بشرية تشفى من الكلب ، وهذا ساح أو بارح يتحكم في الغادير والرائحين ، ويقرر مصير المسافرين أو المقيمين ... وهكذا .

كما انحطت القوى العاملة ، فانتهكت الحرمات ، واضطربت نيران الحروب ، واهتدى الأقوياء على الضعفاء ، وامتلات الأرض بالشر والفساد ، ولم تبق للأموال حرمة ، ولا للدماء حرمة ، ولا للأعراض حرمة .

فلما جاء الإسلام جاهد هذا الفساد في التاحيتين جهادا عظيما ، واتصر
 في جهاده انتصارا لم يظفر به دين ولا نظام من قبله : كان أكبر همه يوم جاء أن
 يخرج الناس من ظلمات الجهل إلى نور الحق والعلم ، فيصلح في الإنسان الملكة
 العالة : دعا إلى الإيمان بالله واحد قادر متصرف لا سلطان لأحد مع سلطانه ،
 متصف بكل كمال ، منزّه عن كل نقصان ، يقضى فضله وإحسانه بإرسال
 الرسالات إلى الناس هداية وإصلاحا ، وتهضى حكته وعدله بأن يبعث الناس بعد
 الموت إلى دار أخرى يلاقون فيها جزاء ما قدموا من خير أو شر ، فمن يعمل مثقال
 ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ، ، ودعا إلى اطراح الآوهام ،
 ورفض الخرافات ، والتحلل من سلطان أهل الدجل والشعبدة ، والنهوض بالأسباب
 الصحيحة للحياة الراسية الطيبة : فلما آمن الناس بذلك ، ودانت له عليه العقول ،
 وخضعت القلوب ، وذاق الناس لذة الحقيقة ، وأعرضوا عن الآباطيل والترهات ،
 جاء دور الإصلاح العملي ، فمن لم هذه الشريعة الواضحة السمحة التي تكفل
 لهم الأمن والسلامة ، وتوفير لهم أسباب السعادة ، وتستل من أيديهم عوامل الشر ،
 وتقيم فيهم وبهم عالما فاضلا راقيا ، وتلبى فطرهم ، وتعترف بحاجاتهم وعلاقاتهم .
 وبهذا جمع الإسلام بين إصلاح القوة العالة ، والقوة العاملة في الإنسان ،
 ورسم لها سياسة توجيهية صالحة لكل زمان ومكان .

لم يحجر الإسلام على العقول ، ولم يحل بينها وبين الدراسات والتأملات :
 ولكنه طلب من الناس أن يفرقوا بين ما هو عقيدة ، يجب الإيمان بها ،
 والتسليم لله في شأنها ، وبين ما هو نظريات ، ترجع إلى اجتهاد المجتهدين ، وبحث
 الباحثين : فبينما هو يحكم الآيات ، ويقطع بالبيات في أمر الآلوهية والرسالات
 واليوم الآخر وما يتصل بذلك من حقائق ، ولا يقبل فيما ربا ، ولا تزلزلا ،
 ولا يسمح فيها بخلاف ، نراه يترك ما عدا ذلك من المعلومات النظرية ، فلا
 يوجه في شأنها إلى نواح معينة ، وإذا تناول أو مس شيئا منها تناوله ، أو مسه
 بعبارة صالحة للتدبر وإعمال الفكر ، لتكون مجالا لذوى النظر ، ونظاقا لأرباب
 العقول ، يصلون فيها بمجهودهم إلى ما يرجح عندهم ، دون أن يلزمهم برأى معين .
 فكل علم أو نظر لم يتعلق به من الشارع قول محكم مقطوع به ، ولا يصادم أصلا

من أصول الإيمان ، فالأمر فيه أمر اجتهاد وبحث ، ولا يُلزم الإسلام بالسير فيه ، ولا بالانصراف عنه ؛ فمن رأى أن يوجه فكره وقلبه ودراسته وتأملاته إلى شيء من ذلك ليرضى شغفه العلى ، ويصل إلى معرفة الحقيقة في أمر من الأمور ، فله ذلك ؛ ومن رأى أن ذهنه عن أمثال هذه الدراسات والتأملات في كلال فانصرف عنها ، واكتفى بما لا بد من علمه واعتقاده بتكليف الله ، فله ذلك ؛ ومن أداء اجتهاده ، وأفضى به نظره إلى حكم معين لا يصادم عقيدة مقطوعا بها ، فله أن يطمئن به قلباً ، وله أن يدعو إليه غيره بالحجة والبرهان ، ولغيره أن يوافقه على ما رأى ، أو يخالفه فيه ، دون أن يذف أحدهما الآخر بكلمة الكفر أو الفسوق أو الزندقة ، أو ما إلى ذلك من أَلِفاظ التفريق بين المؤمنين .

هذه الحرية الفكرية الواسعة ، يكفلها الإسلام لمعتقيه ، ويفتح بها أمام العقول أوسع مجال للنظر والبحث والتعمق ، ويرضى بها الزعة الإنسانية إلى العلم والمعرفة ؛ ولكن أقواما يغفلون عن منهج الإسلام فيحطلون بين العقائد ، و بين المعارف ، فترام يجمعون بين الأمور القطعية التي يجب على كل مؤمن بالله أن يعتقدها ويصدقها ، والأمور الاجتهادية التي لم يرد بها نص قاطع يكون التزامه إيماناً ، ورفضه كفراً ؛ يجمعون بين هذا وذاك في الحكم ، ويسوون بينهما في التامح ، وقد أفضى ذلك بالمسلمين إلى التفرق بالمذاهب ، والاختلاف بالعصيات ، مع أنهم أمة واحدة ، ذبها واحد ، وكتابها واحد ، ورسولها واحد . وصرنا نرى جماعة من المسلمين ينتحون ناحية ، ويتخفون لهم شعاراً خاصاً ، ومساجد خاصة ، ويعتقون أفكاراً معينة يرونها هي الحق ، ويرون الإيمان بها واجباً ، ويرون كل مخالفهم في أمرها كافرين أو مشركين .

وهذا لعمري هو أصل الداء ، وأساس البلاء ، وهو السبب في انقسام المسلمين منذ عهد بعيد إلى معتزلة وسنية ، وجبرية وقدرية ، وشيعية ورافضة ، وهو السبب أيضاً في انقسامها الحاضر إلى سبكية ووهابية ، وطوائف تهمس الأولياء ، وأخرى تعتبر تقديسهم شركاً وخروجاً على الله .

إن حالة المسلمين الحاضرة تدعو إلى الكف عن مثل هذه الخلافات النظرية التي فرقهم ، وإلى إنارة القوة العاملة فيهم ، فإنه لاخير في علم بلا عمل . وإن علماً يؤدي إلى الشتات ، ويشير الضمائن والبراع ، ويقطع الأواصر بين المسلمين ، فهو علم خير منه الجهل ، لو كانوا يعلمون ؟

مستولية الاطباء

لمحرمه صاحب الفضيلة الشيخ عبد العزيز المرأغى
الإمام الخاص للمحضرة الملكية

تبعيت باهتمام تلك المقالات التى يكتبها الأستاذ الدكتور أحمد محمد إبراهيم القاضى بمحكمة الدنيا الوطنية، ورجوت المزيد من هذه الأبحاث فى هذا الموضوع وفى غيره على النهج الذى نهجه الفاضل الباحث، فذلك — فى نظرى — الطريق الوحيد لعرض الأبحاث الشرعية على المعنيين بدراستها من رجال القانون الوضعى الذين لا يعنون أنفسهم بالجسرى وراء تلك الأبحاث فى مظانها من كتب الفقه؛ ورجوت أيضاً أن يعنى القوامون على الفقه الإسلامى من رجال الأزهر بقراءة هذه الأبحاث ومناقشتها، فالمساجلة والاختذ والرد فيها تكفل لنا نوعاً من الحياة، والبعث للأراء الفقهية التى لا ينكر أحد ما فيها من غناء، وما بها من ثروة. نعم تتبعت باهتمام تلك المقالات، وكنت على أن أكتب فيها معلقاً على مايقوله الدكتور المحترم، ولكن ظروف الحياة ليست فى ملك العيىن، حتى قرأت تعليقاً للأستاذ المحترم الشيخ محمد على النجار حول المقال الأول من مقالات القاضى الفاضل: فبه ذلك منى ما كنت على عزم عليه.

وإنى أطمئن السيدى تفاضلى على أن ما رجواه موجود فى كتب الفقه؛ وثقوى من البحث يدل السيدى على ما يرغبان.

أثار الدكتور الفاضل فى عدد ذى القعدة سنة ١٣٦٧ مسألة التطبيق فى النظام الحديث وفى الفقه الإسلامى، وقال ما نصه: « وهذه التفرقة بين من حصل على شهادة تخول له ممارسة الأعمال الطبية وبين من لم يحصل عليها، لا يمجدها واضحة فى كتب الفقه الإسلامى. ومرد ذلك — فيما نعتقد — أن قاصر بممارسة أعمال الطب على من درسوا قواعده لم تعرف بطريقة رسمية فى الدول الإسلامية المختلفة، . وعلق الأستاذ النجار على هذه العبارة بأن الفقهاء نصوا على أنه يحجر على المتطبب الجاهل، ولا يمكن من معالجة الناس؛ وذلك كاف فى الفرق

بين الصفتين . ثم ذكر الاصل في التفريق بالحديث الذى رواه ، وبعبارة نقلها عن كتاب آحبار العلماء للقمطى الخ ما ذكره الاستاذ التجار فى هدد المحرم سنة ١٣٦٨ .

ومن الخير أن نذكر أن عبارة الدكتور الفاضل فى عدد دى الحجة والمحرم ناطقة بالمرق الذى يريده الاستاذ المحترم ، كما ستعرض لذلك فيما بعد ؛ أما أن الفقهاء لم يعرضوا لهذه التفرقة فقد عرض لها كل من كتب من علماء الفقه الإسلامى على تعدى الاجير وزيادته على ما طُلب منه ؛ ولكن قبل أن نعرض لعبارات الفقهاء نقل للأخ المحترم العبارات الصريحة فى الفرق بين من يحمل شهادة ومن لا يحمل :

قال العلامة محمد بن محمد بن أحمد القرشى المعروف بابن الأُخوة الشافعى ، فى كتابه معالم القرية فى أحكام الحسبة ، المطبوع فى مطبعة دار الفنون فى كبرج سنة ١٩٣٧ (الباب الخامس والأربعون فى الحسبة على الاطباء والكحاليين والجراحين والمجترين) بعد كلام طويل فى الطب ولزومه ، والآسى على قلة القائمين به من المسلمين - : « والطبيب هو العارف بتركيب البدن ومزاج الاعضاء والأمراض الحادثة فيها ، وأسبابها وأعراضها وعلاماتها ، والأدوية النافعة فيها والاعتياض عظام يوجد منها ، والوجه فى استخراجها وطريق مداواتها بالتساوى بين الأمراض والأدوية فى كلياتها ، ويخالف بينها وبين كلياتها ؛ فمن لم يكن كذلك فلا يجعل له مداواة المرضى ، ولا يجوز له الإقدام على علاج يخاطر فيه ، ولا يتعرض لما لا علم له فيه . وفى حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من تطيب ولم يُعلم منه طب قبل ذلك فهو ضامن » . ويبغى أن يكون لهم مقدم من أهل صاعتهم ؛ فقد حكى أن ملوك اليونان كانوا يجعلون فى كل مدينة حكما مشهورا بالحكمة ثم يعرضون عليه بقية أطباء البلد فيمتحنهم فمن وجده مقصرا فى علمه أمره بالاشتغال وقراءة العلم ، ونهاه عن المداواة . ويبغى إذا دخل الطبيب على المريض سأله عن سبب مرضه وعما يجد من الألم ، ثم يرتب له قانونا من الأشربة وغيره من العقاقير ، ثم يكتب نسخة لأولياء المريض

بشهادة من حصر معه عبد المريض ؛ وإذا كان من الغد حصر ونظر إلى دانه ونظر إلى قارورة^(١) وسأل المريض . هل تناقص به المرض أم لا ؟ ثم رتب له ما ينبغي على حسب مقتضى الحال ، ويكتب له نسخة ويسلها لأهله ؛ وفي اليوم الثالث كذلك وفي اليوم الرابع وهكذا إلى أن يبرأ المريض أو يموت ، فإن برى من مرضه أخذ الطبيب أجرته وكرامته ، وإن مات حصر أولياؤه عند الحكيم المشهور وعرضوا عليه النسخ التي كتبها لهم الطبيب ، فإن رآها على مقتضى الحكمة وصناعة الطب من غير تفريط ولا تقصير من الطبيب قال : هذا قضى بفروع أجله ؛ وإن رأى الأمر بخلاف ذلك قال لهم : خذوا دية صاحبكم من الطبيب فإنه هو الذي قتله بسوء صاعته وتفريطه . فكانوا يحتاطون على هذه الصورة الشريفة إلى هذا الحد ، حتى لا يتعاطى الطب من ليس من أهله ، ولا يتهاون الطبيب في شيء منه . وينبغي للمحتسب أن يأخذ عليهم عهد أبقرط الذي أخذه على سائر الأطباء ؛ يحلفهم أن لا يعطوا أحدا دواء مصرا ، ولا يركبوا له سحما ، ولا يدكروا للنساء الدواء الذي يقطع الأجنة ، ولا للرجال الذي يقطع النسل ، ولبعضوا أبصارهم عن المحارم عند دخولهم على المرضى ، ولا يمشوا الأسرار ، ولا يهتكوا الاستار ، ولا يترفضوا لما ينكر عليهم . وينبغي للطبيب أن يكون عنده جميع آلات الطب على الكمال ، ... الخ .

ثم بدأ يذكر ما يمتحن فيه الكحال والجراح والمجبر والفصاد والحجام ، وما يجب على المحتسب محوم من التأديب والمنع الخ ما ذكره من الأشياء التي تعتبر مقياسا للطبيب إن عداه "عد" جاهلا يحرم من مزاولته فيه ، ويؤدب على النحو الذي نص عليه في سلطة المحتسب .

فلعل الأخفاضل - بعد هذه العبارة الطويلة - يظمن إلى أن الفقهاء قد عرفوا بالتحديد الفرق بين الطبيب العالم والطبيب الجاهل . تلك العبارة التي نقلناها لابن الأخوة عبارة فقيه شافعي يحدد ما يقوم به المحتسب نحو الأطباء من جعل كبير أو قبيب لهم يكون المرجع فيما يتعلق بشأنهم ، ومن أخذ الموائيق عليهم

(١) لعل المراد القارورة التي يكون بها البول ليتعرف سير المرض من لونه ، أو لديها قارورة الدواء .

بقراءة عهد أبقرط الذى لا يزال قسماً يأتلى به الأطباء حتى اليوم عند خروجهم من حياتهم العلمية إلى حياتهم العملية ، ومن مواد الامتحان ، ومن أسرار المهنة ، إلى غير ذلك من التفاصيل الموجودة في هذا الكتاب ، والتي لا أريد أن أمل القارىء بذكرها .

وقريب من ذلك ما نصر عليه في كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة للإمام عبد الرحمن بن نصر الدين عبد الله الشيرازى في (الباب السابع) وصاحب صبح الاضنى وغيرهم . وقد نقل المرحوم الدكتور أحمد عيسى بك في كتابه (تاريخ البيمارستانات في الإسلام) صورتين لإجازتين في الطب منحت إحداها لعقصاد ومنحت الأخرى لجراح .

أما الإجازة الأولى - : هذه صورة ما كتبه الشيخ الاجل عمدة الأطباء ومنهاج الالباء الشيخ شهاب الدين بن الصايغ الحنفى رئيس الأطباء بالديار المصرية ، إجازة للشاب المحصل محمد عزام أحمد تلامذة الشيخ الاجل والكهف الاحول الشيخ زين الدين عبد المعطى رئيس الجراحين على حفظه لرسالة الفصد ... ثم ذكر الإجازة ووظيفة المنحاز ، وأنه كان مساعداً لشيخ طائفة الجراحين بالبيمارستان المصورى الخ ما ذكر في الكتاب المشار إليه .

أما الثانية : فهي إجازة صادرة من رئيس الجراحين بدار الشفاء المصورى للشيخ شمس الدين محمد القيم الجراح وفي آخرها - : فاستحرت الله تعالى وأجزت له أن يتعاطى من صناعة الجراح ما أتقن معرفته ليحصل له النجاح والفلاح ، وهو أن يعالج الجراحات التي تبرا بالبط ، ويقطع من السان ما ظهر له من غير شرط ، وأن يفصد من الاوردة ويتر الشرايين ، وأن يقطع من الأسنان الفاسدة الموسمين الخ ، بتاريخ صفر الخير سنة إحدى عشرة وألف (سنة ١٦٠٢ م) .
والناظر في الإجازتين يعلم أن الإجازة كانت إما على أساس رسالة لطالب الإجازة قدمها ونوقش فيها ، أو على التعليق على رسالة لمن سبقه حققها وعلق عليها تعليقا يفيد العلم إفادة محققة (على حسب التعبير الحديث) . وذلك هو نوع رسائل الدكتوراه في أيامنا الحاضرة ؛ ومن الظريف أن مانح الإجازة الاولى هو أحد ابن مراح الدين الملقب شهاب الدين المعروف بابن الصايغ الحنفى ، كان رئيس

الحنفية بمصر، ومدرسهم بالبرفوقية؛ وكان مع ذلك رئيس الأطباء، وكانت له بنت واحدة تولت مشيخة الطب مكانه عند وفاته.

ولعل الدكتور الفاضل يسأل : ماهي النتائج التي تترتب على مخالفة الطبيب لهذه الأشياء التي نص على وجوب تحلي الطبيب بها ؟ والجواب : أن النتائج إن كانت جنائية فقد نص العقباء عليها ، وإن كانت غير ذلك فهي داخلة في نطاق الأشياء التي يملكها المحتسب ، ويملك العقوبة بها من الناحية التأديبية . والأخ الفاضل يعلم اتساع نطاق السلطة التي يملكها المحتسب كحاكم إداري وسياسي وراه سلطة القاضي . ويرجع في ذلك إلى المنشور الذي ولي به المحتسب ، فهو يملك ما تملكه أية هيئة إدارية اليوم ، أو ما تملكه نقابة الأطباء بلوائنحتها ورسومها .

أو لا يكفي هذا المقدار في بيان حدود المسؤولية للطبيب ، والفرق بين العالم والجاهل ؟ وهل الظلم التي سنت اليوم للأطباء تعدو هذه الخطوط التي ذكرها صاحب كتاب معالم القرية في الحسية ؟

لا نظن ذلك . والقاضي الفاضل يستطيع أن يقرر تلك الخطوط العامة بما سن للأطباء اليوم من نظم . وقد قال القاضي برهان الدين إبراهيم بن فرحون المالكي في كتابه تبصرة الحكام في أصول الاقضية ومناهج الاحكام ، عد الكلام على ضمان الصناعات والأطباء : « وإن كان الخائن غير معروف بالختن والإصابة فيه وعرض نفسه ، فهو ضامن لجميع ما وصفنا في ماله ، ولا تحمل العقالة من ذلك شيئا ، وعليه من الإمام العدل العقوبة الموجهة ؛ بصرب ظهره ، وإطالة سجه .

والطبيب والحجام والبيطار فيما أتى على أيديهم بسبيل ما وصفنا في الخاتمة ١ هـ .

أليس ذلك النوع من العقوبة كافيا لمنع الطبيب الجاهل من ممارسة المهنة ، وكافيا في التنظيم للهن الطبية فوق ما ذكره ابن الأخوة ؟ وبذلك يكون الفقه الإسلامي كالتقوانين الوضعية ، نظم كيفية ممارسة مهنة الطب ، وقصرها على الأشخاص الحاصلين على مؤهلات يجوزون بها امتحان زعيمهم وتقييمهم كما يقول ابن الأخوة ، ويكون ذلك نصا لا استنتاجا من قواعد الشريعة العامة كما يريد الأخ الفاضل أن يأخذها .

وقد ذكر العلامة الخزاعي في كتاب تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية ،

فصولاً في الطب والتطبيب والممارستان في عهده صلى الله عليه وسلم ، ثم عقد فصلاً ترجم له : (باب كون من لا يعرف بالطب لم يكن يباح له أن يعالج الناس) ثم روى الحديث الذي ساقه الأستاذ النجار ، ثم ذكر رواية فيه لأبي نعيم ، من تطيب ولم يكن بالطب معروفاً فأصاب نفسه فادونها فهو ضامن . قال ابن طرخان : هذا الحديث فيه احتياط وتحرز على الناس وحكم سيامي ، مع ما فيه من الحكم الشرعي . ولعل هذا المقدار يرضى القاضي الفاضل كسند لمعرفة الفقهاء السابقين لتنظيم المهنة الطبية .

ثم انتقل الأستاذ الجليل لنقطة مهمة (هي أساس عدم المسؤولية) ، وبعد أن أفاض في مناقشتها قال : « إن أساس انعدام المسؤولية هو رضا المجنى عليه ، إذ رأى جمهور الفقهاء أنه لو قال شخص لآخر : اقتلني ، أو أجرحتني ، ففعل فلا يقتص منه لرضاء المجنى عليه بالفعل ، وحكم الطب في عدم المسؤولية هو حكم الشخص العادي فيها ، لأن الطبيب لا يقوم بعمله إلا بناء على رضا من المريض ... الخ . وقد أثار الأستاذ بعبارة هذه عدة نقط جدية بالبحث .

- ١ — هل قصر الفقهاء عدم المسؤولية على الرضا بحسب ؟
 - ٢ — ما معنى عدم المؤاخذه في عبارة الفقهاء التي نقلها ؟
 - ٣ — ما مقدار وجاهة اعتراضه على رأى الفقهاء وأخذ به النظرية الحديثة ؟
- ثم ننقل للشروط التي ذكرها لإباحة أعمال الطب :

لم يقصر الفقهاء عدم المسؤولية على الرضا بحسب ، بل نصروا على أن تكون الأعمال التي قام بها الطبيب على وفق الرسم ، أى موافقة للقواعد الطبية التي تتبع في كل سادئة على حدتها . ذكر العبدري في كتابه الناج والإكليل لمختصر خليل ما نفسه . قال ابن رشد : يضمن الصانع كل ما أتى على أيديهم من حرق أو كسر أو قطع إذا عملوه في حوائثهم وإن كان صاحبه قاعداً معه إلا ما كان فيه تغرير من الأعمال ، مثل ثقب اللؤلؤ ونقش الفصوص وتقويم السيوف واحتراق الخبز عند الفران والثوب في قدر الصباغ وما أشبه ذلك ، فإنه لا ضمان عليهم فيما أتى على

أيديهم فيه ، إلا أن يعلم أنه تعدى فيها أو أخذها على غير وجه مأخذها ، فيضمن حيثئله ، ومثل ذلك البيطار يطرح الدابة فتبوت من ذلك ، أو الخائن يفتن الصبي فيبوت من ختانه ، أو الطبيب يسقى المريض فيبوت من سقيه ، أو يكويه فيبوت من كيه ، أو يقطع منه شيئاً فيبوت من قطعه ، أو الحجام يقلع ضرس الرجل فيبوت المتلوعة ضرسه ، فلا ضمان على واحد من هؤلاء في ماله ولا على عاقلته في جميع هذا ، لأنه بما فيه التفرير على ذلك الشيء فنكأن صاحبه هو الذي عرضه لما أصابه . هذا إذا لم يخطئه في فعله ، وأما إذا أخطأ مثل أن يسقى الطبيب المريض ما لا يوافق مرضه أو تزل يد الخائن أو القاطع فيتجاوز في القطع ، أو السكاوي فيتجاوز في الكي ، أو يد الحجام فيقطع غير الضرر التي أمر بها ، فإن كان من أهل المعرفة ولم يفر من نفسه فذلك خطأ يكون على الماكلة ، إلا أن يكون أقل من الثلث فيكون في ماله ، وإن كان بما لا يحسن وغر من نفسه فعليه العقوبة . اهـ

وقال في الدر المختار وشرحه : ولا ضمان على حجامة وبراء ، أي بيطار ، وبصاد لم يجاوز الموضع المعتاد ، فإن جاوز المعتاد ضمن الزيادة كلها إذا لم يهلك الخنجر عليه ، وإن هلك ضمن نصف دية النفس . . وقال عشيبة تعليقا على قوله : لم يجاوز الموضع المعتاد . ما نصه : أي وكان بالإذن ؛ قال في الكافي : عبارة المختصر ناطقة بعدم التجاوز وساكنته من الإذن ، وعبارة الجامع الصغير ناطقة بالإذن ساكنة عن التجاوز ، فصار ما نطق به هذا بياناً لما سكنت عنه الآخر ، ويستفاد من مجموع الروايتين اشتراط عدم التجاوز والإذن لعدم الضمان ، حتى إذا عدم أحدهما أو كلاهما يجب الضمان اهـ . وفي العمادية : ولو شرط على الحجامة ونحوه العمل على وجه لا يسرى لا يصح ، لأنه ليس في وسعه ، إلا إذا فعل غير المعتاد فيضمن . .

وسئل عن فصد نائماً وتركه حتى مات من السيلان ، قال : يجب القصاص لأنه قتله بمحدد ، أي وهو قاصد لقتله ، فكان عمداً . وسئل الحلواني عن صبية سقطت من السطح فانتفخ رأسها ، فقال كثير من الجراحين : إن شققم رأسها تموت ، وقال واحد منهم : إن لم تشفوه اليوم تموت وأنا أشقه وأبرئها ، فشقه ثم ماتت بعد يوم أو يومين : هل يضمن ؟ فتأمل ملياً ثم قال : لا يضمن إن كان الشق

يأذن، وكان معتاداً ولم يكن فاحشاً خارج الرسم؛ فقبل له. وإنما أذنوا بناءً على أنه علاج مثلها؟ فقال: ذلك لا يوقف عليه؛ فاعتبر نفس الإذن. قيل له: فلو كان قال هذا الجراح: إن مانت من هذا الجرح فأنا ضامن هل يضمن؟ قال: لا.

فن هذه العبارات جميعها نستنتج أن عدم المسؤولية منوط بالإذن إذا كان العمل معتاداً ولم يتجاوز الرسم المتبع في أمثال هذه العمليات. والقاضي الفاضل نفسه نقل عبارات في عدد ذي الحجة كلها نصوص في الموضوع، فكان من الخير أن يقول: إن عدم المسؤولية مشروط بالإذن إذا وافق عمله المعتاد في أمثاله. ونظن ذلك في غاية الوضوح. وبهذا يظهر الجواب عن السؤال الثاني في معنى عدم المؤاخذه عند الفقهاء. ويبقى من هذا السؤال الكلام على النقطة التي أثارها الباحث المحترم فيمن قال لآخر: اقتلني قتلته. نفي الفقهاء القصاص في هذه المسألة، لأن القصاص يتبنى بالشبهة، والإذن شبهة من جهة نظر الشريعة؛ ولهذا وجبت الدية في ماله، لأن الإباحة لا تجري في النفس، ولولا شبهة الإذن لوجب القصاص، فالمسئولية موجودة لم يعدمها الرضا، وإنما غير وصف المسؤولية للمعنى الذي ذكرناه. وقياس الطبيب على هذه المسألة بحسب قياسا مع الفارق للسبب الذي أسلفناه؛ وبهذا يظهر أن رأى الدكتور الفاضل في سبب الإعفاء في النظرية الحديثة السائدة الآن هو رأى الفقهاء أو قريب منه. فالنظرية السائدة تجعل سبب الإعفاء رغبة المشرع في إباحة بعض الأفعال للأطباء ما دام القيام بواجب المعالجة يستدعيها الخ. وذلك أن من السهل تطبيقه على النظرية الفقهية؛ فالفقهاء أباحوا للأطباء العمل ورعوا المسؤولية إذا كان العمل معتاداً داخل الرسم، وخاصة إذا استدعته حالة المريض، وكان يقصد العلاج الذي لا بد منه؛ ففي شرح الطحاوى قال لآخر: اقطع يدي؛ فإن كان لعلاج كما إذا وقعت في يده أكلة فلا بأس به، وإن من غير علاج لا يحل. ولو قطع في الحالين فسرى إلى النفس لا يضمن، ١٠٥.

إذن فأساس المسؤولية وارتفاعها في نظر الفقهاء، يكاد يكون منطبقاً على النظريات القانونية جميعها التي ساقها الدكتور الفاضل، ورأيه مشتق منها كما أسلفنا. وبذلك نرى أن اعتراضه على الفقهاء ليس قوياً، ونرى أن عبارات الفقهاء فيها الرضا كل الرضا لكل ما ساق من نظريات.

كما نرى من هذه العبارات ، وخاصة الأخيرة منها ، أن الشروط التي ذكرها لإباحة أعمال الطب لا تصطدم مع رأى الفقهاء ؛ فالشرط الأول وهو أن يكون تدخل الطبيب لعلاج المريض ، مأخوذ بالنص من العبارة التي أسلفناها عن شرح الطحاوى قريبا ، وكل ما ساقه الدكتور الفاضل بموع منه الطبيب بنص العبارات التي سبق لإيرادها عن معالم القرية عند بيان الأشياء التي يمنع منها الطبيب . ولعل القارىء لم يبعد به العهد بها . وبقية العبارات التي ساقها الدكتور لا تتفق مع رأينا الذى نقلنا ما يؤيده من نص عبارات الفقهاء ؛ فليس أساس انعدام المسؤولية هو الرضا لحسب ، بل الرضا مع بقية الأشياء التي ذكرناها ، وإن كانت الصلة بين المريض والطبيب صلة عقدية ، لكن العقود كما تعلم يا سيدى يحكمها أعراف المتعاقدين ، ومن العرف هنا أن يكون التطبيب على وفق المعتاد والرسم بعد وجود الإذن والحاجة الى العلاج ؛ وللطبيب الحرية ، ولكن فى داخل نطاق المقيد على ضوء ما اعتاده الناس فى أمثال هذا المرض ، وإلا عد تجاوزه تجاوزا فاحشا لا يمتنع . ونظن أن الشريعة أوسع مدى من هذه الناحية من القانون . نفى الشريعة سلطان القاضى والمحتسب ، وإن تجاوز من نص القانون فلن ينجو من السياسة الشرعية والتميز . كل هذه أمور مسلمة فى كتب الفقه والاحكام السلطانية . وكما يكمل الرأى الذى قال به العقاب فى الحالات التي ارتكبها خارج العقد ، يكفل العقه بصورة أوسع العقاب حتى على أشياء أضيق من هذه التي رأها . وما على الطالب لهذه النصوص إلا أن يرجع لكتب الفقه فى شتى مذاهبها ، وكتب الحسبة ، ليجد الغناء والكفاية .

وموعدنا الحديث المقبل ، لنسير مع القاضى الفاضل فى آرائه التي أوردنا ، ولعله يسير فى أبحاثه الطلية لتنفيد ، ويستثير القراء من مقارنة الفقه والقانون .
فالى الفقهاء .

جمع الأربعينيات في الحديث

لفضيلة الأستاذ الشيخ فكري يس
مدير إدارة البحوث المساعد بالأزهر

وردت أحاديث كثيرة تفيد النهي عن كتابة السنة : ففي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « لا تكتبوا عني غير القرآن » . وفي صحيح البخاري عن ابن عباس « أنه لما اشتد بالنبي صلى الله عليه وسلم الوجع ، قال : « اتوني بكتاب أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده » ، قال عمر : إن النبي صلى الله عليه وسلم غلبه الوجع ، وعندنا كتاب الله حسبا » . وقد وردت إلى جانب هذا أحاديث أخرى ، تدل على أنه قد كتب بعض السنن في عهده صلى الله عليه وسلم ، مثل ما في البخاري من أنه لما خطب صلى الله عليه وسلم عام الفتح في قتيل خزاعة ، وقال : « إن الله حبس عن مكة القتلى ، إلخ ، جاءه رجل من أهل اليمن ، وطلب منه أن يكتب له الخطبة التي سمعها منه ، فقال : « اكتبوا لأبي فلان » . وما في النسائي من أنه كان مكتوبا في الصحيفة التي صح أنها كانت عند علي بن أبي طالب : « المؤمنون تنكحاً دماؤهم ، وهم يد على من سواهم ، ويسعى بدمهم أديانهم ، ألا لا يقتل مسلم بكافر ، ولا دونه في عهده ، من أحدث حديثا فعلى نفسه ، أو آوى محدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » . وما في مسند أحمد من أن عبد الله بن عمرو بن العاص ، قال : كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أريد حفظه ، فنهى قريش ، فقلوا : إنك تكتب كل شيء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورسول الله بشر ، يتكلم في الغضب والرضا : فأمسكت عن الكتاب ، فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « اكتب ، فوالذي نفسي بيده ما أخرج مني إلا حق » .

والظاهر من مجموع هذه النصوص أن هناك تضاربا بين الأحاديث بشأن تدوين السنة وجمعها : ولكن التحقيق أن النهي عن كتابة الحديث إنما كان متجها

إلى كتابته في وقت نزول القرآن ، وإلى وضعه مكتوباً في بيت النبوة مع القرآن ، وذلك خشية الاحتلاط والالتباس به : أما كتابة اليسير من الأحاديث المنفردة ، وكتابة الإنسان لنفسه بقصد الحفظ والمراجعة ، لا بقصد التدوين العلني ، فهذا ما لم يتجه إليه النبي في تلك الأحاديث السابقة .

على أن الذي يعيننا لإثباته من كل هذا التمهيد ، هو أن الحديث على عهد صلى الله عليه وسلم لم تكن له صفة التدوين الفنية التي كانت للقرآن ، ولم يكن له نظام معين ملزم في جمعه وكتابته ، وإنما كانوا يتكاثرون فيه على حفظهم ، وسيلان أذهانهم ، ومضاه قرائحهم ، لأن معظمهم كان أمياً ، والآي في الأغلب أقدر على الحفظ من الكاتب ، إذ ليس له من الوسائل ما يعتمد عليه سوى ذاكرته .

ثم مضى عصر النبوة ، وجاء عصر الخلفاء ، فعرضت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه فكرة كتابة الحديث ، ولكنه ظل يراجع نفسه فيها مدة ، ثم عدل عنها ، روى عن الزهري ، قال : أخبرني عروة بن الزبير أن عمر بن الخطاب أراد أن يكتب السنن ، واستشار فيه أصحاب رسول الله ، فأشار عليه عامتهم بذلك ، فلبث شهراً يستخير الله في ذلك شاكاً فيه ، ثم أصبح يوماً وقد عزم الله له ، فقال : إني كنت ذكرت لكم من كتابة السنن ما قد علمت ، ثم تذكرت ، فإذا أناس من أهل الكتاب من قبلكم ، قد كتبوا مع كتاب الله كتباً ، فأكتبوا عليها ، وتركوا كتاب الله ، وإني والله لا ألبس كتاب الله بشيء .

وعلى رأس المائة الأولى من الهجرة ، عرضت نفس الفكرة لعمر ابن عبد العزيز ، فكتب إلى عامله على المدينة أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري : أن انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو سنته فأكتبه ، فإني خفت دروس العلم ، وذهاب العلماء ، وأوصاه أن يكتب له ما عده عمرة بنت عبد الرحمن الأنصارية ، والقاسم بن محمد بن أبي بكر .

ودكر أبو نعيم في تاريخ أصهار عن عمر بن عبد العزيز : أنه كتب إلى أهل الآفاق : انظروا إلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاجمعوه .

ويقول بعض الباحثين : إنه لم تصل أية مجموعة في الحديث تدل على القيام بأية محاولة في هذا الشأن ، أو تشير إلى أن أبا بكر بن محمد قد قام بعمل

جوهرى فيما كلف به ، ويستظهرون أن وفاة عمر بن عبد العزيز بعد أمره بسنة ، قد تكون حالت بين أبي بكر بن محمد وبين إتمام ما كلف به ، أو أن الوفاة وقعت قبل أن يبعث إليه بما كتب من الكتب .

ولما اتصف القرن الثانى ، أقبل العلماء على جمع الحديث ، وأخذت حركة كتابته تمتد ، ووجد فى كثير من الأمصار الإسلامية علماء يقومون بهذه المهمة ، فوجد فى مكة عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج ، وفى المدينة محمد بن إسحاق ، ومالك بن أنس ، وفى البصرة الربيع بن صبيح ، وسعيد بن هروبة ، وحماد بن سلمة ؛ وفى الكوفة سفيان الثورى ، وفى واسط هشيم بن بشير ، وفى الرى جرير بن عبد الحميد ، وفى الشام عبد الرحمن الأوزاعى ، وفى اليمن معمر بن راشد ، وفى خراسان عبد الله بن المبارك ، وفى مصر الليث بن سعد .

وقد اشتهر من بين هذه المجموعات موطأ مالك ، وكان له شأن كبير عند بعض الخلفاء العباسيين ، روى ابن سعد فى الطبقات عن مالك بن أنس ، قال : ولما حج المنصور ، قال لى : قد عزمت على أن أمر بكتبك هذه التى وضعتها فتفسخ ، ثم أبعث إلى كل مصر من أمصار المسلمين منها بسنخة ، وأمرهم أن يعملوا بما فيها ولا يتعدوه إلى غيره ؛ فقلت : يا أمير المؤمنين ، لا تفعل هذا ، فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل ، وسمعوا أحاديث ، ورووا روايات ، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم ، وداؤوا به ، فدع الناس وما اختار أهل كل بلد منهم لأنفسهم .

وجاء فى كتاب الحلية عنه أيضا ، قال : شاورنى هارون الرشيد فى أن يعلق الموطأ فى الكعبة ، ويحمل الناس على ما فيه ، فقلت : لا تفعل ، فإن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اختلفوا فى المروع ، واتفقوا فى البلدان ، وكل مصيب .

وكانت طريقة هؤلاء فى جمع الحديث طريقة التأليف على الأبواب ، أى مراعاة الأبواب الفقهية مع مزج حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بأقوال الصحابة ، وفتاوى التابعين ، كأن يقول : كتاب الطهارة ، ثم يذكر الأحاديث الواردة فيها ، وملم جرا .

وقد جرى على هذه الطريقة مالك في الموطأ ، وأصحاب الكتب الستة في كتبهم ، وم . البخاري ومسلم في صحيحهما ، وابن ماجه ، وأبو داود ، والنسائي في مسندهم ، والترمذي في جامعه .

وعلى رأس المساتين ، وجدت طريقة تأليف المسانيد ، وهي أن ترتب الأحاديث على حسب الرواة من الصحابة ، فيجمع صاحب المسند في ترجمة كل صحابي ما عنده من حديثه صحيحاً كان أم حساً أم ضعيفاً ؛ قال ابن حجر في شرحه على البخاري : « رأى بعض الأئمة أن يفرد حديث النبي صلى الله عليه وسلم خاصة ، فصف عبد الله بن موسى العبسي الكوفي مسنداً ، وصف مسند ابن مسرهد البصري مسنداً ، وصف أسد بن موسى الأموي مسنداً ، وصف نعم بن حماد الخزاعي نزيل مصر مسنداً ، ثم اقتنى الأئمة بعد ذلك أثرهم ، فقلَّ لإمام من الحفاظ إلا وصف أحاديثه على المسانيد . وقد اتبع هذه الطريقة الإمام أحمد في مسنده الذي سماه الجامع .

ولما كان القرن الثالث ، زادت حركة جمع الحديث ، وألف فيه أم الكتب ، وكانت أصناف المصنفات فيه : الجوامع والمسانيد ، والمعاجم ، والأجزاء وغيرها . والظاهر من أقوال العلماء أن طريقة جمع الأربعينيات ، قد بدأت مع الحركة الأولى لجمع الحديث ، أي حوالي منتصف القرن الثاني ، أو بعده بقليل ؛ فإنهم ذكروا أن أول من عرف بالتصنيف في جمع الأربعين عبد الله بن المبارك ، وهو من تابع التابعين ، وقد ولد سنة تسع عشرة ومائة ؛ وقبل سنة ثمان ؛ وتوفي مصرفاً من الجهاد سنة إحدى وثمانين ومائة ، وله ثلاث وستون سنة ؛ وهو من العلماء السابق ذكرهم عند الكلام على هذه حركة الجمع في الأمصار المختلفة ، وكان أحد الأئمة الأعلام ؛ قال ابن مهدي : الأئمة أربعة : سفيان ، ومالك ، وحماد ، وابن المبارك . وقال أحمد : لم يكن في زمن ابن المبارك أطلب منه للعلم ، وكان صاحب حديث حافظ . وقال ابن معين . ما رأيت من يحدث لله إلا منته ، منهم ابن المبارك ، وكان ثقة عالماً مستتناً صحيح الحديث ، وكانت كتبه التي حدث فيها عشرين ألفاً . ثم ذكروا أيضاً في طليعة المصنفين في هذا الباب عدا ابن المبارك — جماعة كثيرة ، منهم : الطوسي ، والنسائي ، والآجري ،

والأصفهاني، والدارقطني، والحاكم، والسلي، والماليني، والصابوني، والأنصاري والبيهقي، وغيرهم، ولكثهم جميعاً ثبتت تواريخ ولادتهم، ووفاتهم، واشتغالهم بالحديث أنهم كانوا بعد ابن المبارك، وأنه كان أسبق منهم. فدل هذا على أرجحية ما أشرنا إليه من أن طريقة جمع الأربعينيات وجدت في حدود ذلك التاريخ المتقدم.

وكانت الأربعينيات تجمع في موضوعات معينة، كالإلهيات والنبوات، والخشوع والنشر، والمسائل الفقهية، وفي فضل الجهاد والرهدة، وفي الأخلاق والآداب، وفي التصوف، وفي فضائل السور والأعمال والقبائل، وفي الخطب التي كان يخطب بها النبي صلى الله عليه وسلم في نحو جمعة وعيد، واستسقاء وكسوف، وبمعرفة، وعند نزول الأمور المهمة، وقدم الوفود عليه، ونحو ذلك. ومن أهم الموضوعات، التي جمعت فيها جوامع كله صلى الله عليه وسلم، فقد جمع العلماء فيها جموعاً كثيرة من حكمه البالغة: فصف بها الحافظ أبو بكر بن السبي، والقاضي أبو عبد الله القضاعي، وسج على متواليها قوم آخرون، وزادوا زيادات كثيرة، وأملى الإمام الحافظ أبو عمرو بن الصلاح مجلساً سماه: الأحاديث الكلية. جمع فيه الأحاديث الجوامع التي يقال: إن مدار الدين عليها، وما كان في معابها من الكلمات الجامعة الوجيزة، وقد اشتمل هذا المجلس على ستة وعشرين حديثاً. ثم جاء الفقيه الزاهد الإمام أبو ركريا يحيى التتوي، فأخذ هذه الأحاديث التي أملاها ابن الصلاح، وزاد عليها تمام اثنين وأربعين حديثاً، وسمى كتابه: الأربعين. وقد اشتهرت هذه الأربعون التي جمعها، وكثر حفظها، ونفع الله بها، ببركة نية جامعها، وحسن قصده.

وكان بعض من شرح هذه الأربعين قد عقب على جامعها بأنه ترك حديث: «ألقوا الفرائض بأهلها، فما أبقت الفرائض، فلاول رجل ذكر». لأنه الجامع لقواعد الفرائض التي هي نصف العلم، ولأن المؤلف قال في مقدمة أربعينته: «وقد رأيت جمع أربعين أهم من هذا كله، وهي أربعون حديثاً مشتملة على جميع ذلك، أي على جميع أصول الشريعة وقرونها وأحلافها وآدابها، ومقاصدها ووسائلها، فكان ترك هذا الحديث مما لا ينبغي». ثم جاء الإمام ابن رجب الحنبلي، فاستدرك هذا في كتابه: جامع العلوم والحكم في شرح حسين حديثاً من جوامع

السكك ، ورأى أن يضم حديث « ألحقوا المرائض » إلى أحاديث الأربعين التي جمعها النووي ، وأن يضم إلى ذلك كله أحاديث أخر من جوامع السكك الجامعة ، حتى تكمل عدة الأحاديث كلها حسين حديثاً ، فيكون ما رآه ابن رجب على النووي ثمانية أحاديث .

وعما استدرك على بعض جامعي الأربعين أنهم قد يزيدون على هذا العدد الحديث الواحد أو الأكثر ، ومع هذه الزيادة يسمون ما جمعه بالأربعين ؛ وذلك كما فعل النووي في أربعينه ، فإنه قد بلغ بها الاثنين والأربعين حديثاً ، ولم يمنعه هذا من تسميتها « الأربعين » ، وقد أجابوا عن ذلك بأن مفهوم العدد لا يفيد حصراً على الصحيح ، كما قال به جمع من الأصوليين ، أو أن ذكر القليل ، لا ينفي الكثير ، كما قيل به في رواية : صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذ بمخمس وعشرين مع رواية سبع وعشرين ؛ وأجابوا عن النووي بالذات بأن عزمه كان الاختصار على الأربعين ، فعند فراغها عن " له أن يزيد الحديثين الآخرين ، لما فيها من المناسبة ، لأن أحدهما فيه الوعظ بمخالفة الهوى ، ومتابعة الشرع ، ففيه حث على العمل بجميع الأحاديث السابقة ، فكان في تعقيها به تمام المناسبة ؛ وثانيهما من باب الرجاء والدعاء والاستغفار ، والإطعام في رحمة الله ؛ ففيه تأنيس النفس وعدم نفرتها من التشديدات الواقعة خلال تلك الأحاديث السابقة ، بل والحث على الإقبال عليها ، رجاء أن يكون ذلك مكفراً لما فرط منه ، فكان ختم الكتاب به مناسباً أيضاً .

أما أن أصحاب الأربعينيات ، قد آثروا هذا العدد على غيره ، فقد قالوا في وجهه : إن هذا يرجع إلى ما أشار إليه بشر الخافى بقوله : يا أهل الحديث ، اعملوا من كل أربعين حديثاً بحديث ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « أدوا ربع عشر أموالكم من كل أربعين درهما درهم ، أي بشرط بلوغ الدراهم مائة درهم ، إذ لا وجوب في أقل من ذلك . فالأربعون أقل عدده له ربع عشر صحيح ؛ فكما دل حديث الزكاة على تطهير ربع العشر للباقي ، كذلك العمل بربع عشر الأربعين حديثاً ، يخرج باقيها عن أن يكون غير معمول به ، فإثبات هذا العدد على غيره إشارة منهم إلى ذلك ؛ وقد جاء في الحديث الحسن : إنكم في زمان من ترك منكم عشر ما أمر به هلك ، ثم يأتي زمان من عمل منهم بعشر ما أمر به نجا .

تحويل القبلة

من بيت المقدس الى الكعبة

لفضيلة الاستاذ الشيخ الطيب حسن النجار
المدرس بكلية أصول الدين

بعد أن حكى الله تعالى آثار الأمر بتحويل القبلة إلى الكعبة في نفوس كلا الفريقين : فريق الكافرين ، وفريق المؤمنين بقوله : وإن كانت لكبيرة إلا على لذي هدى الله ، - بشر المؤمنين بأن من مات منهم قبل أن تحول القبلة ، وكانوا يصلون إلى بيت المقدس ، سيثيبهم الله على صلاتهم بقوله : وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم .

فكان ذلك جواباً لما جاش في الصدور ، وتبلبلت له الأفكار : اجث كل شبهة من جذورها ، ورد سهم اليهود في نحورهم . ذلك هو أن حتى بن أخطب وأصحابه من اليهود قالوا للمسلمين : أخبرونا عن صلاتكم إلى بيت المقدس ، إن كانت على هدى فقد تحولتم عنه ، وإن كانت على ضلالة فقد دثم الله بها مدة ، ومن مات عليها فقد مات على ضلالة . فقال المسلمون : إنما الهدى فيما أمر الله ، والضلالة فيما نهى الله عنه . قالوا : فما شهادتكم على من مات منكم على قبلتنا ؟ وقد مات قبل أن تحول القبلة إلى الكعبة أسعد بن زرارة من بني الجار ، والبراء بن معرور من بني سلمة ، ورجال آخرون ، فانطلق عشائرم إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله كيف باء إخواننا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس ؟ فأرسل الله تعالى : وما كان الله ليضيع إيمانكم . يعني صلاتكم إلى بيت المقدس ، فلن يفوت عليكم ثواب صلاتكم التي أدبتموها إلى بيت المقدس . وكيف يضيع

عليكم أجر ما أديتم على الوجه الذى شرعه لكم وهو دءوف بكم يحمرل الثواب لمن أحسن عملا ، رحيم بكم لا يدع ما فيه سعادتك ، وما فيه الخير لكم .

وبما تقدم من أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان منشوا الى التوجه الى الكعبة ، ومتطلعا الى نزول الوحي عليه بذلك ، طمعا فى استئالة العرب الى دخولهم فى كف الإسلام ، ومخالفة لليهود الذين يقولون إنه يخالفنا فى ديننا ويتبع قبلتنا ؛ وقد أعطاه الله ما تطلع إليه ، وأشرب حبه فى قلبه ، كما ذكر الله ذلك بقوله : « قد نرى تقلب وجهك فى السماء ، فلتولينك قبلة ترضاها » : قول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره . . فلقى الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه من جماعة المؤمنين أمر التوجه الى الكعبة بالبشر والخبور ، وتلقاه الطوائف المخالفة بكل لوعة وأسى ، وأخذوا يفيضون فى منكر الحديث ، كما حكى الله تعالى ذلك عنهم بقوله : « سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ، قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء الى صراط مستقيم » .

يتبين لك وجهة نظر القائلين إن آية : « سيقول السفهاء من الناس » نزلت بعد الأمر بتحويل القبلة ، فيكون لفظ : « سيقول السفهاء » بمعنى قال السفهاء . وهذا كما إذا عملت حملا فطمن فيه أعدائك ، فنقول : أنا أعلم أنهم سيظعنون . يؤيد هذا ما رواه البخارى عن البراء بن عازب قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب أن يتوجه نحو الكعبة ، فأنزله الله تعالى : « قد نرى تقلب وجهك فى السماء » . فقال السفهاء وهم اليهود : ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ؟ وفردوا به أبى حاتم عنه : زيادة : فأنزله الله « سيقول السفهاء ... » .

ويرى بعض العلماء أن الآيات التى تحدثت عن أمر القبلة هى فى نزولها كما هى فى ترتيب التلاوة ، فليست آية « سيقول السفهاء » متقدمة تلاوة متأخرة نزولا عن آية « قد نرى تقلب وجهك فى السماء » .

وكانهم يرون أن أمر النسخ ليس من الأمور الهية التى تتقبلها النفوس وتستسيغها العقول إذا فوجئت بها وألقيت عليها بدون إعدادها لذلك ، لأن الخروج

عن المألوف إن لم يكن مبنيًا على أساس التوطئة له والتدرج في مراقبه ، يشرّد بالنفوس في مهامه التي ، ويذهب بالعقول الى وعر السيل : فاقضت حكمة الله السامية ، ورحمته البالغة ، أن يهيء النفوس لذلك ، ويعدّها إعدادًا صالحًا لقبول هذا الأمر العظيم .

لذلك أتى أولاً بأنه إذا نسخ آية أتى بما هو خير منها في كثرة الثواب للعامل بها ، أو مثلها : لأن القادر على كل شيء ، المالك للسموات والأرض تصرفًا وتدييرًا ، أعلم بما يتعبد به عباده ، وما فيه الخير لهم .

ثم ذكر سبحانه وتعالى أن له المشرق والمغرب . ففي أي مكان توجه المصلّي فثم وجه الله .

ثم نبه الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه لن ترضى عنه اليهود ولا النصارى ، لما دعا إلى أن المصلحة في التوجه إلى بيت المقدس قد انتمت ، وأن الاستمرار على ذلك لن يكبح جماح نفوس لم تصطبغ بهداية الله وتوفيقه . قل إن الهدى هدى الله ولأنه ليستولى عليك ، ويملك جميع مشاعرك ، جميل ما انتقل إليه من التنويه بشأن سيدنا إبراهيم الخليل صلوات الله عليه ، وما احتف به البيت الحرام من الجلال والمهابة والفضل والشرف . وهذا القدر واف لإعطائك صورة أن بيتنا له هذه القداسة لآحق أن يكون قبلة .

ولقد كان فيما تقدم العلاج الكافي والوسائل المنتجة لتهيئة النفوس المخصصة ، والقلوب السامرة ، لما سيلقى عليها ، فتلقف الأمر بالتولية إلى البيت المحرم بداراء ، وتضطلع بما يوجه الأمر سراعاً .

وما ترى من إعراض ذوى النفوس الجماعية والقلوب الجاحدة ، وإنما هو سفه وطفيلان وخروج عن مستوى العقلاء . وكيف يتصور من جانب هذا الفريق أن تجديه الوسيلة نعمًا ، وأن تصل به المبادئ إلى مقصد :

وما عيب الضياء وقد تجلّى إذا عى المكابر أو تدامى

لم يكن ذلك لأنهم فقدوا الطريق وأعوزهم الدليل : فالآيات ناطقة والدلائل ظاهرة ، وإنما هو العناد والمكابرة ، وكلامهما يعنى ويصم : فلا غرابة أن نطقوا

كفرا، ولا كنت أستمع قبها وسفها . كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، إن يقولون إلا كذبا . . لذلك أخبر الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بما سيكون من أمرهم حينما يوجه إليه الأمر بالتوجه الى البيت المحرم بقوله : . . يقول السفهاء من الناس ، الآية . فتعلمد الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك سلاح الإخبار بأمر مغيب ، وإن دا لإحدى المعجزات التي تؤيد رسالته ، وتنطق بأنه ما يطلق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ، عليه شديد القوى ، فضلا عما فيه من توطن النفس على الأمر قبل وقوعه ، لأن مفاجأة المكروه أشد على النفس وأشق ، وأن إعداد الجواب قبل الحاجة إليه أقطع للخضم .

وله لما يثلج الصدر ويبهج الخاطر ، ما أخبر الله به نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله : . . وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا . : جعل الله طائفة المؤمنين خير الأمم ، كما جعل قبيلتهم خير القبيل ؛ نبيهم خير الأنبياء ، وشرعهم خير الشرائع ، وكتابهم خير الكتب ، وهم شهداء على الناس يوم القيامة ؛ والله يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

ثم كشف الله الغطاء عن الحكمة في أن كانت القبلة بيت المقدس بعد الهجرة بقوله تعالى : . . وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه . الآيات .

ثم أجاب الرسول صلى الله عليه وسلم الى ما تطلع إليه ، وكثيرا ما تشوقه ، من نزول الأمر بالتوجه الى البيت المحرم ، فأزل عليه : . . قد نرى قلبك وجهك في السماء فتتولى قبلة ترضاها ، فول وجهك شطر المسجد الحرام ، الآيات .

فأنت ترى على هذا الرأي كيف كونت الآيات الكريمة سلسلة متصلة اخلفات نزولا وترتيا ، قد أخذت كل حبة من حبات جمانها بحجزة الأخرى ، لا ترى جوهرة ببت عن أختها أو تخطت مكانها ، بل ترى كمال اتصال ، وجمال انسجام ، ومزيد حكمة ، وحرر يارب ، وبراعة تملك على النفس زمامها ، وتأخذ بالآليات .

وأنت بعد ما أوضنا لك سبيل كلا الرأيين السالفين فأى المنهجين منهما

سلكت أو كليهما ارتضيت فلا عليك من بأس ، وإنهما ولا محالة يصلان بك الى قبة الشرف ، وأسمى مقصد ، وهو وجوب التوجه في الصلاة إلى بيت الله المحرم .

وبهذا الأمر انتهت مدة حكم التوجه إلى بيت المقدس بانتهاء الحكمة التي من أجلها شرع ، وما كان لعارض فإنه يزول بزواله ، وحل محله حكم جديد استقبله الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومن معه ، بمن غرس الله في قلوبهم الهداية وسلك بهم مسلك الخير والسعادة ، وفي نفوسهم له لإجلال وإكبار ، وفي قلوبهم له محل ومكان ، يؤمنون بما سيكون له من جميل الأثر ، وما سيتبعه من الفتح المبين . نزل به الروح الأمين على الرسول الكريم ، فكان حدا فاصلا بين مبدأ أقول نجم الشيطان في سماء تلبدت بالأيوم وأنذرت بالويل والثبور ، وبين انبثاق كوكب الإسلام في سماء صافية الأديم ، هاديا الى خير طريق وأقوم سبيل .

نزل الروح الأمين على الرسول صلى الله عليه وسلم بقول الله تعالى : « فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره ، فكان ناسحا لما قبله ، موقفا له عند حده ، معلما حوله محله ، ما بقى على وجه الأرض من بعد الله . بهذا يتضح جليا أن أمر التوجه الى الكعبة في الصلاة هو الباسخ لحكم التوجه إلى بيت المقدس . وهذا هو رأى جمهور العلماء .

ويرى البعض أن التوجه إلى بيت المقدس قد انتهى بقوله تعالى : « والله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله » ، لأنه يقتضى كون المصل غيرا في التوجه الى أى جهة شاء ، فيكون ماسحا لحكم التوجه الى جهة معينة ، ثم انتهى هذا بقوله تعالى : « فول وجهك شطر المسجد الحرام » ، مستندا في ذلك بما روى عن ابن عباس أن أمر القبلة أول ما نسخ من القرآن ، والأمر بالتوجه إلى بيت المقدس غير مذكور في القرآن ، بل المذكور قوله تعالى : « والله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله » ، فوجب أن يكون قوله تعالى : « فول وجهك شطر المسجد الحرام » ناسحا لحكم التخيير .

يتبع

ابن حزم

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الله مصطفى المراغي

مدير المساجد

- ٣ -

ينشأ في المقالين السابقين كيف خلق ابن حزم في سماء المجد حتى بلغ من المناصب ما غبطه عليه أحبابه وحسده عليه خصومه، وكيف عمل على أن يبال مركزاً ممتازاً لم ينله كثير من أترابه ولداته، وكيف هوى الرفعة والسيادة فوصل، وكيف هوى نجمة فنزل، وكيف كان قعيها شافعيًا ثم مجتهداً ظاهرياً، يؤيد قوله بالحجة، لا يتخرج في سبيلها أن يرى مخالفه بأفن الرأي وصحف الدليل وغير ذلك من الألفاظ المقلدة، فبادله خصومه بمثل ذلك، بل أمتروه نهماً ومثالب إن لم يصب منها وإبل فطل.

وقد يستدل بعض الناس على عظمة ابن حزم بكثرة حساده وخصومه، واستفاضة مادحيه وناقديه. وقد يستدل أيضاً على عظمته بكثرة المؤلفات التي تعرضت لترجمته وتوابعه وآرائه؛ فقد كتب عنه ياقوت في إرشاد الأريب، كما كتب ابن القفطي في تاريخ الحكام، والضي في بنية المناس، وعبد الواحد المراكشي في المعجب، وابن خلكان في وفيات الأعيان، وابن خاقان في المطمح، والذهبي في تذكرة الحفاظ، وابن خلدون في مقدمته، كما كتب عنه بعض المستشرقين.

وعندنا أن مقدرة الباحث العلمية تتجلى في المسائل الشائكة التي تزل فيها الأقلام والأقدام. واستمع إليه يتكلم مما أجاز به بعض الأصحاب من ورود حديث صحيح يكون الإجماع على خلافه؛ قال عفا الله عنه:

« وقد أجاز بعض أصحابنا أن يرد حديث صحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم ويكون الإجماع على خلافه. وهذا عندنا خطأ فاحش متيقن لوجهين برهانيين ضروريين:

أحدهما أن ورود حديث صحيح يكون الإجماع على خلافه، معدوم،

لم يكن قط، ولا هو في العالم، فن ادعى أنه موجود فليذكره لنا، ولا سبيل له — والله — إلى وجوده أبداً .

والثاني: أن الله تعالى قد قال: «إنا نحن نزلنا الذكر وإناله لحافظون» فضمون هـ كل من يؤمن بالله واليوم الآخر أن ما تكفل الله عز وجل بحفظه فهو غير ضائع أبداً، لا ينشك في ذلك مسلم، وكلام النبي صلى الله عليه وسلم كله وحى لقوله تعالى: «وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى برحى». والوحى ذكر بإجماع الأمة كلها، والذكر محفوظ بالنص، فكلامه عليه السلام محفوظ بحفظ الله عز وجل ضرورة، «مؤكد كله إلیا لا بد من ذلك»، فلو كان هذا الحديث الذى ادعى هذا القائل أنه مجمع على تركه وأنه منسوخ كما ذكر، لكان ناسخه الذى اتفقوا عليه قد ضاع ولم يحفظ، وهذا تكذيب لله عز وجل فى أنه حافظ للذكر كله، ولو كان ذلك لسقط كثير مما بلغ عليه السلام عن ربه، وقد أبطل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله فى حجة الوداع: «ألا هل بلغت». .

والفاحص لهذه العبارات يميزان البحث الدقيق، ومناظر النقد البرى، يحمى فيها براعة فى التعبير، ودقة فى سوق المقدمات، كما يرى فيها بعض المأخذ التى تطيل على الناقد البحث وتخرجه عما هو بصده من الترجمة إلى طرق أبواب المنطق والسنة والأصول. وكان ابن حزم أحسن بأن فى كلامه هناك قفى على كلامه السابق يدفع لما عساه يتوجه من نقض لبعض مقدماته أو نقد لبعض نتائجها، قال:

«ولسنا نذكر أن يكون حديث صحيح وآية صحيحة التلاوة منسوخين إما بحديث آخر صحيح، وإما بآية متلوة، ويكون الاتفاق على النسخ المذكور قد ثبت بل هو موجود عندما، إلا أننا نقول: لا بد أن يكون النسخ لها موجوداً أيضاً عندما، منقولاً إلينا، محفوظاً عندما، مبلغاً بلفظه نحوها، قائم النص لدينا، لا بد من ذلك. وإنما الذى منعتنا منه، فهو أن يكون المنسوخ محفوظاً منقولاً مبلغاً إلينا، ويكون النسخ له قد سقط ولم يقل إلينا لفظه، هذا باطل عندما لا سبيل إلى وجوده فى العالم أبداً الأبد، لأنه معدوم البتة، فقد دخل — لأنه غير كائن — فى باب المحال والممتنع عندما. .

وفى كلامه تسليم بمبدأ النسخ فى القرآن والحديث، ولكنه شرط لذلك

شروطاً بينها في كلامه آتفاً . ومن الناس من يتارع في مبدأ النسخ ، ومنهم من يرى أن القرآن إنما ينسخ بقرآن مثله ، ومنهم من يخالف ابن حزم في بعض شروطه . ولنا بصدد إبداء الرأي في صواب بعض هذه الأقوال وخطئها ، أو نصر بعض الآراء على بعض ، ولنا نبين منهج رجل عينا بالكلام على حياته واتجاهاته ، وحرصنا ألا نحيد عن الإنصاف والامانة في نقل آرائه ، وألا نتحيز له أو عليه ؛ فإنه يجدر بالمصدرين للتراجم أن يكونوا بمعمل عن تهمة التعصب والتحيز ؛ فقد يدور الباحث أنه يقول حقاً وينقل صدقاً ، ويرى غيره غير هذا الرأي ويرميه بما هو براء منه فلا يتذوق لبحته طعماً .

وماذا عسى أن يتجهج الكاتب في بحث موضوع آخر تعرض له ابن حزم ، وهو موضوع إن لم يرد في خطورته عن الموضوع السابق فهو لا يقل عنه ، وقد ساقه ابن حزم في إسهاب لا يتسع له بحث التراجم . وسكتني بتلخيصه فيما يلي :

قال غفر الله له : « ذكر قوم لا يتقون الله عز وجل أحاديث في بعضها إبطال شرائع الإسلام ، وفي بعضها نية الكذب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإباحة الكذب عليه ، وهو ما حدثنا المطلب بن أبي صقرة قال . حدثنا ابن عباس قال حدثنا محمد بن مسروق القيرواني ، قال حدثنا يونس بن عبد الأعلى عن ابن وهب ، قال أخبرني ثمر بن نعيم عن حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس عن أبيه عن جده عن علي بن أبي طالب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « سيأتي ناس يحدثون عنى حديثاً ، فمن حديثكم حديثاً يضارع القرآن فأنا قلته ، ومن حديثكم بحديث لا يضارع القرآن فلم أقله فإنما هو حسوة من النار » .

وقفي على ذلك ابن حزم بأن الحسين بن عبد الله ساقط منهم بالزندقة .

وساق حديثاً آخر عن ابن وهب قال : أخبرني عمرو بن الحارث عن الأصمعي عن ابن محمد بن أبي منصور أنه بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الحديث عنى على ثلاث ، فأما حديث بلغكم عنى تعرفونه بكتاب الله تعالى فأقبلوه ، وأما حديث بلغكم عنى لا تجدون في القرآن ما تكفرون به ولا تعرفون موضعه فيه فأقبلوه ، وأما حديث بلغكم عنى تشعرونه جلودكم وتشمئذ منه قلوبكم وتجدون في القرآن خلافه فردوه » . قال ابن حزم : هذا حديث مرسل ، والأصمعي مجهول .

ثم ساق أحاديث أخرى بعضها مرسل إلا أن معناها صحيح ولا مطعن في سندها، وبعضها مطعون في رجال سده، وشدد التكثير على حديث رواه المطلب بن أبي صفرة عن ابن مناس عن محمد بن مسرور عن يونس بن عبد الأعلى عن ابن وهب عن الحارث بن نهان عن محمد بن عبد الله العرزمي عن عبد الله بن أبي سعيد عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ما يلعنكم عنى من قول حسن لم أقله فأما قلته . .

قال ابن حزم : الحارث ضعيف ، والعرزمي ضعيف ، وعبد الله بن سعيد كذاب مشهور ؛ وهذا هو نسبة الكذب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه حكى عنه أنه قال : لم أقله فأما قلته ، فكيف يقول ما لم يقل ؟ ولا يستجيز هذا إلا كذاب زنديق كافر أحق . ثم ناقش من روى هذا الحديث مناقشة لم تخل من الإقذاع ، وأورد أمثلة من أصول الفقه وفروعه . وناقش طائفة أخرى تقول بالاكتفاء بالقرآن الكريم مأخذاً للأحكام ، وحكم بكفر هذه الطائفة إجماعاً ، وخلص من الكلام على الكتاب والسنة وما بينهما من توافق أو تناسخ إلى الإجماع قائلاً : « إن الإجماع إنما هو على مسائل يسيرة ، وقد جمعناها كلها في كتاب واحد ، وهو الموسوم بكتاب المراتب » .

وحادى القول : أن ابن حزم نهج منهج الظاهرية في بحوثه الفقهية ، وأنه كان يميل إلى الاجتهاد ، وقد بدل ما في وسعه من بيان لدعم دعاويه وأقواله ، ولم يتعفف عن ذرابة اللسان حين يشتط أو يشتد في تأييد كلامه وتقوية حجته ؛ وهو مسلك تأخذه عليه ، ويأخذه عليه المصنفون ؛ وقد كان سيئاً في حق كثير من الناس عليه ، والتغير منه ، والبعد عنه ، فنظر الناس إلى آرائه بمنظار أسود ، وقل من نظر إليه بمنظار سليم فأخذ الصحيح وترك الزائف . وحسبنا ما كتبناه عنه ؛ ولعلنا أنصفناه فلم نكون في جانب الإفراط أو التفريط ، وهو ما أخذنا أنفسنا به في كل ما نكتب من تراجم .
هذان الله سيل الرشاد ؟

نظرية السببية

بين الغزالي والفلاسفة

لمضية الأستاذ الشيخ سليمان دنيا
مدرس الفلسفة بكلية أصول الدين

عرضت في مقالى السابق ، نظرية المعرفة بين الغزالي والفلاسفة ، لوجهة النظر التى انتهى إليها الدكتور ، جميل صليبا ، فى بحثه الذى نشرته له ، مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ، حول هذا الموضوع ، وناقشها بما هو معروف للقراء .

واليوم أعرض لنظرية أخرى هى ، نظرية السببية ، ، وقد انتهى الدكتور جميل فيها الى أن ، الغزالي ينكر الضرورة العقلية فى مبدأ السببية ، ويعلن بجملة أننا لا نعرف فعل الأشياء الطبيعية بعضها فى بعض ، . وإلى أن ، الغزالي يرى أنه لا يوجد إلا فعل واحد ، وهو فعل الموجود المريد ، .

وساق الدكتور جميل شاهدا على إنكار الغزالي للضرورة العقلية قوله فى التفات ، إن الاقتراح بين ما يعتقد فى العادة سببا وما يعتقد مسببا ، ليس ضروريا عندنا ، بل كل شئتين ليس هذا ذاك ، ولا ذاك هذا ، ولا إثبات أحدهما متضمن لإثبات الآخر ، ولا نفيه متضمن لنفي الآخر ، فليس من ضرورة وجود أحدهما وجود الآخر ، ولا من ضرورة عدم أحدهما عدم الآخر ، مثل . الرى والشرب ، والشبع والاكل ، والشفاء وشرب الدواء ؛ وهلم جرا ، إلى كل المشاهدات من المقترنات فى الطب والنجوم والصناعات والحرف : وأن اقترانها لما سبق من تقدير الله سبحانه ، لحلقها على التساوق ، لا لكونها ضرورية فى نفسها ، .

وساق الدكتور جميل أيضا ، شاهدا على توهم الغزالي لوجهة نظر الفلاسفة

قوله في التهاافت ، وليس لهم دليل إلا مشاهدة حصول الاحتراق عند ملاقة النار .
والمشاهدة تدل على الحصول عده ، ولا تدل على الحصول به ، وأنه لا علة سواه . .
ويبين الدكتور جميل السبب الحامل للغزالي على اقتحام هذه المخاطرة التي
تكاد ترفع الثقة بالعلوم والمعارف ، وتكاد تخلق حول العقل جواً كله إمكانات
وتجوزات ، لا سبيل معه لقطع أو يقين ، قال : أنكر السببية ليترك باب المعجزة
مفتوحاً ، يعلق الأسباب والأفعال كلها بإرادة الله . .

° ° °

لعل ترك باب المعجزة مفتوحاً هو بعض الأسباب التي حدثت بالغزالي
إلى تقرير هذه النظرية ، لا كلها : إذ أن الأشاعرة — الذين يناصرهم الغزالي
بتأليف كتاب التهاافت ، والذين عرفوا هذه النظرية قبل أن يعرفها الغزالي ،
وسموا ، نظرية خلق الأفعال ، وخاصموها بها المعتزلة والفلاسفة ، وكان أساسها
عندهم قوله تعالى : « خالق كل شيء » . . يقررون فيها يروى الشهرستاني عنهم في كتابه
الملل والنحل ، أنه : « على أصل أبي الحسن الأشعري لا تأثير للقدرة الحادثة
في الإحداث ، لأن جهة الحدوث قضية واحدة ، لا تختلف بالنسبة إلى الجوهر
والعرض ، فلو أثرت — بمعنى القدرة الحادثة — في قضية الحدوث ، لآثرت في قضية
حدوث كل محدث ، حتى تصلح لإحداث الألوان والطعوم والروائح ، وتصلح
لإحداث الجواهر والأجسام ، فيؤدي إلى تجويز وقوع السماء على الأرض بالقدرة
الحادثة . غير أن الله تعالى أجرى سنته بأن يخلق عقيب القدرة الحادثة أو تحتها
ومعها ، الفعل الحاصل إذا أراد العبد وتجرده له ، فيسكون خلقاً من الله تعالى ،
إبداعاً وإحداثاً : وكسباً من العبد مجعولاً تحت قدرته . .

ففي هذا التص تجمد روح النظرية التي قال بها الغزالي ولبابها ، وتجمد فضلاً
عن ذلك تعليلاً آخر غير ترك باب المعجزة مفتوحاً : ولكن الذي لا ريب فيه
أن عناية الغزالي بنظرية السببية في كتابه التهاافت ، متجهة أولاً وبالذات ، إلى
جعل باب المعجزة مفتوحاً ، وإلى الرد على الفلاسفة الذين أقفلوه ، أو على الأقل
قصره على دائرة ضيقة لا يقنع بها الغزالي : قال في التهاافت .

« وإنما نخالفهم من جملة هذه العلوم — يعني الطبيعية — في أربعة مسائل :
الاولى : قولهم بأن هذا الاقتران المشاهد في الوجود بين الأسباب

والمحييات ، اقتران تلازم بالضرورة ، فليس في المقدور ولا في الإمكان ، إيجاد السبب دون المسبب ، ولا وجود المسبب دون السبب .

« الثانية : قولهم : إن النفوس الإنسانية جواهر قائمة بأنفسها ... الخ

« وإنما يلزم النزاع في الأولى من حيث إنه يبنى عليه إثبات المعجزات الخارقة للعادة . من قلب العصا ثعبانا ، وإحياء الموتى ، وشق القمر . ومن جعل مجارى العادات لازمة لزوما ضروريا ، أحالوا جميع ذلك وأولوا ما في القرآن ... »
« ولم يثبت الفلاسفة من المعجزات الخارقة للعادات إلا ثلاثة أمور :

« أحدها : في القوة المتخيلة ، فإنهم زعموا أنها إذا استولت وقبوت ، ولم تستغرقها الحواس بالاشتغال ، اطلعت على اللوح المحفوظ ، فأنطبع فيها صور الجزئيات الكائنة في المستقبل ... »

« الثاني : في القوة النظرية العقلية ، وهو راجع الى قوة الخدس ، وصرعة الانتقال من معلوم الى معلوم ، قرب دكي إذا ذكر له المدلول تنبه للدليل ، وإذا ذكر له الدليل تنبه للمدلول من نفسه .

« ويختلف ذلك في جميع المطالب أو بعضها ، وفي الكيفية ، حتى يتفاوت في القرب والبعد ؛ قرب نفس مقدسة صافية ، يستمر حدسها في جميع المعقولات ، وفي أسرع الأوقات ، فهو النبي الذي له معجزة ، من القوة الظارية ، فلا يحتاج في المعقولات الى معلم ، بل كأنه يتعلم من نفسه ، وهو الذي وصف بأنه « يكاد زيتنا يعىء ، ولو لم تمسه نار ، »

« الثالث : في القوة النفسية العملية ؛ فقد تنتهي الى حد تتأثر بها الطبعيات ، وتفسخ ؛ ومثاله أن النفس منا متى توهمت شيئا ، حدمتها الاعضاء ، والقوى التي فيها ، فتحركت الى الجهة المتخيلة المطلوبة ، حتى إذا توهمت شيئا طيب المذاق تحلبت أشداقه ، وانهضت القوى اللاعبة فياضة باللعباب من معاده .

« وذلك لأن الاجسام والقوى الجسمانية ، حلقت خادمة مسخرة للنفس ، ويختلف ذلك باختلاف صفاء النفوس وقوتها ، فلا يبعد أن تبلغ قوة النفس الى حد تخدمها القوى الطبيعية في غير بدنه ... فتتطلع نفسه الى هبوب ريح ، أو نزول مطر ، أو هجوم صاعقة ، أو زلزل أرض لتخفف بهم ، وذلك موقوف

حصوله على حدوث برودة أو سخونة أو حركة في الهواء؛ فيحدث من نفسه تلك السخونة والبرودة، ويتولد منها هذه الأمور من غير حضور سبب طبيعي ظاهر، ويكون ذلك معجزة للنبي عليه السلام .

تلك هي نظرية السببية عند الغزالي، وهنئى بواعثها عده؛ وذلك هو رأى خصومه فيها وفي لوازمها وآثارها، كما يصور كل ذلك كتاب التهاافت، وقد اقتصر الدكتور جميل، وهو يحلل هذه النظرية ويشرحها من وجهة نظر الغزالي، على هذا الكتاب، ولم يرجع الى غيره من كتب الغزالي الأخرى، التي عرضت لهذه النظرية.

وإني أضع أمام نظره هذه النصوص، ليرى رأيه فيها :

قال الغزالي في معارج القدس ص ٦٨ : فالواحد الحق هو الله سبحانه وتعالى، فلا جرم ليس له شيء منظر، لا ذاته ولا صفاته، ويكون التركيب منفياً عنه من كل وجه، قولاً وعقلاً وقدرًا، وما سواه فلا يخلو عن تركيب ما، وإن كان من حيث العقل، لا تركيباً جسمانياً أو متوهمًا؛ حتى إن العقل الذي هو المبدع الأول لا يكون واحداً صرفاً، بل فيه اعتباران، ولهذا صدر منه أكثر من الواحد .

فتبرير الغزالي صدور الكثرة من الواحد، بأن في هذا الواحد اعتبارين، مع جمزمه بأن الواجب ليس فيه كثرة بوجه من الوجوه، يفيد أنه يرى أن الواجب لا يصدر منه أكثر من الواحد .

وقال في نفس المصدر ص ٢٠٣ : والذي يقال من أن العقل مصدر عنه بالإبداع شيء، ليس ادعاء بأنه المبدع، بل نفى به تنزيل الحق الأول أن يفعل بالمباشرة .

وقال في نفس المصدر ص ١٩٨ : اعلم أن مبدأ فعل الآدمي إرادة يظهر أثرها أولاً في القلب، فيسرى منه أثر بواسطة الروح الحيوانى الذى هو بخار لطيف في تجويف القلب، إلى الدماغ، ثم يسرى منه أثر إلى الأعصاب الخارجة من

الدماغ ، ومن الأعصاب إلى الرباطات والأوتار المتعلقة بالعضل ، فينجذب به الأوتار فيتحرك به الإصبع ، يتحرك بالأصابع القلم ، وبالقلم المداد مثلا ، ويحدث منه صورة ما يريد كتابته على وجه القرطاس ، على الوجه المتصور في خزانة التحيل ...

• ومن استقرأ أفعال الله تعالى ، وكيفية إحداثه النبات والحيوان على الأرض بواسطة تحريك السموات والكواكب ، وذلك بطاعة الملائكة له بتحريك السموات ، علم أن تصرف الآدمي في عالمه - أعنى بدنه - يشبه تصرف الخساق في العالم الأكبر : وانكشف له أن نسبة شكل القلب الى تصرفه ، نسبة العرش ، ونسبة القلب الى الدماغ نسبة العرش الى الكرسي ، وأن الحواس له كالملائكة الذين يطيعون طيعا ولا يستطيعون لأمره خلافا . والأعصاب كالسموات ، والقدرة في الأصبع كالطبيعة المسخرة المركوزة في الأجسام ، والمواد كالعناصر التي هي أمهات المركبات في قبول الجمع والتفريق ، والتركيب والتفريق ، وخزانة التخيل كاللوح المحفوظ . فهما اطلع بالحقيقة على هذه الموازنة ، عرف كيفية ترتيب أفعال الله تعالى في الملك والملوكوت .

وقال في نفس المصدر ص ١٩٩ : ... فكذلك فافهم أن جميع أفعال الله تعالى تنقسم إلى هذه الأقسام : متأثر لا يؤثر ، ومؤثر لا يتأثر . فالمتأثر الذي لا يؤثر هو أجسام العالم ، والمتأثر الذي يؤثر هي النفوس ، فيتأثر من العقول ، ويؤثر في أجسام السموات بالتحريك ، وبواسطة تحريك السموات في عالم العناصر - يعنى أن النفوس تؤثر في عالم العناصر بواسطة تحريك السموات - والعقول تؤثر ولا تتأثر ، بل كآلاتها حاضرة معها ليس لها استقلال . فالطبيعة في عالم الأجسام مسخرة للنفس تفعل فعلا ، سواء علمت ما تفعل أو لم تعلم ، كما أن النفس مدبرة للعقل تعلم ، سواء طلبت العلوم أو لم تطلب ، فاتمجت الطبيعة بالتسخير منهاج ما فوقها بالتدبير ، وعبر التنزيل عن ذلك بقوله : « والسما بيناها بأيد وإنا لموسعون ، والأرض فرشناها فقم الماهدون ، ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » . فالنفوس بواسطة الأفلاك معطية ، والعناصر قابلة ، وبين المعطى والقابل نتائج ومواليد : من المعادن والنبات والحيوان والإنسان ، وبين العقل والنفس

ازدواج ، كما بين القلم واللوحي ازدواج ، ومواليدهما الروحانيات ، من العقول والنفوس . .

وقال في نفس المصدر ص ٢٠٢ : « هذا التركيب المشاهد يدل على وجود الحركة المستقيمة ، وتدل الحركة من حيث مسافتها على ثبوت جهتين محدودتين ، مختلفتين بالطبع ، ويدل اختلاف الجهتين على وجود جسم يحيط كالسماء ، وتدل الحركة من حيث حدوثها على أن لها سببا ، ولسببها سببا الى غير نهاية ، ولا يمكن ذلك إلا بحركة السماء حركة دورية ، والحركة الدورية لا تكون إلا إرادية ، والإرادة الجزئية لا تكون إلا مستمدة من إرادة كلية ، والإرادة الجزئية تكون للنفس ، والإرادة الكلية تكون للعقل . فقد ثبت بهذا وجود العناصر القابلة للتركيب ، ووجود السموات المتحركة المحركة للعناصر ، والسموات تدل على محركات هي نفوس سماوية ، والنفوس مستمدة من العقول ، والكل مستند الى الله تعالى ، إبداعا وإنشاء واختراعا وخلقا وإحداثا وتكويناً وإيجادا وإبداعا وإعادة وبعثا . .

وقال في نفس المصدر ص ١٥١ : « فيظهر من تسليم هذه أن الحركات السماوية ، يحرك كل واحد منها جوهر تفساق ، يتعقل الجزئيات . . . ويلزم من ذلك أن يتصور الأمور التي تحدث في المستقبل ، وذلك أنها أمور يلزم وجودها عن النسبة التي بين الحركات المتعلقة عنها بالشمسية ، والنسب التي بين الأمور التي هنا ، والنسب التي بين هذه الأمور وتلك الحركات ، فلا يخرج شيء ألبنة من أن يكون حدوثه في المستقبل لازما لوجود هذه على ما هي عليه في الحال ، فإن تلك الأمور إما أن تكون بالطبع ، وإما أن تكون بالاختيار ، وإما أن تكون بالاتفاق . والتي تكون عن الطبع ، إما أن تكون عن الزوم بالطبع ، إما طبع حاصل منها أولا ، أو طبع حادث منها عن طبع هنا ، أو طبع حادث منها عن طبع سماوي .

« وأما الاختيارات فإنها تلزم الاختيار ، والاختيار حادث ، وكل حادث بعد

ما لم يكن ، فله علة ، وحدوثه بلزومه ، وعلة لما شئ . كائن ههنا على إحدى الجهات أو شئ سماوى ، أو شئ مشترك بينهما .

• وأما الاتفاقيات ، فهي احتكاكات ومصادمات ، بين هذه الأمور الطبيعية ، والاختيارية بعضها مع بعض في مجاريها .

• فيكون إذن الأشياء الممكنة ، ما لم يجب لم توجد ، وإنما يجب لا بذاتها بل بالقياس الى عللها ، وإلى الاجتماعات التى لعل شئ .

• • •

هذه النصوص - إن صح ما أفهمه منها - تعطى القول بنظرية السببية ، فكان على الدكتور جميل وهو يؤرخ لنظرية السببية ، ويحللها ويشرحها من وجهة نظر الغزالي ، أن يرجع الى كل ما له حولها من نصوص في الكتب المختلفة . ولست أدري ما عساه يكون فاعلا ، لو أنه اطلع على هذه النصوص وأدرك معارضتها الواضحة لنصوص كتاب التهافت .

وليت الأمر وقف من الغزالي عند هذا الحد .

لعلك تذكر أيها القارئ ما رواه لنا الغزالي في صدر هذا المقال من أن الفلاسفة لما أقاموا نظرية الأسباب والمسببات على أساس من الصلورة العقلية ، لم يثبتوا للأنبياء من المعجزات إلا ما يتأخى مع هذه النظرية ولا يصطدم معها ؛ ولذلك قصروا هذه المعجزات على الأنواع الثلاثة التى مرت .

ولما كان الغزالي فى كتابه معارج القدس ، قد أخذ فى نظرية السببية ، بوجهة النظر الفلسفية ، لم يكن له بد من أن يسير فى الطريق الى نهايته ، فقرر أن معجزات الأنبياء هى نفس تلك الأنواع الثلاثة التى قال بها الفلاسفة .

قال فى معارج القدس ص ٩٥٠ : « بيان خواص البوة ، ولها خواص ثلاث : ١- إحداها تامة لقوة التخيل والعقل العمل ، والثانية تابعة لقوة العقل النظرى ، والثالثة تابعة لقوة النفس . »

أما عن الخاصية الأولى ، فقد شرحها بما يتفق تماما مع ما رواه هو نفسه فى كتابه : « التهافت عن الفلاسفة » شرحاً وافياً طويلاً ، خلاص منه الى قوله :

« فلنفوس البشرية أن تنقش من ذلك العالم بحسب الاستعداد وزوال المانع ،
وتكون كالمرآة المقابلة للنفس الفلكي ، حتى يقع فيها جميع ما في النفس الفلكي ،
فإلى هذا الحد عظموا أمر الخيال » .

وأما عن الخاصية الثانية ، فقد أفاض في شرحها كذلك ، وخلص منه الى قوله :
« فيمكن إذن أن يكون شخص من الناس مؤيد النفس لشدة الصفاء وكال الاتصال
بالمبادئ العقلية ، إلى أن يقتعل حدسا في كل شيء فيرسم فيه الصورة التي في العقل
الفعال ، إما دفعة وإما قريبا من دفعة ، ارتساما لا تقليديا بل يقينيا مع الحدود
الوسطى والبراهين اللاتمة والدلائل الواضحة » .

وأما عن الخاصية الثالثة ، فقد خلس بعد الشرح الطويل الى قوله . « ولا
تسخر أن يكون من القوى النفسانية ما هو أقوى فعلا وتأثيرا من أنفسنا نحن ،
حتى لا يقتصر عملها على المادة التي رسم لها وهو بدنها ، بل إذا شاءت أحدثت
في مادة العالم ما تصوره في نفسها ، فيتبع ذلك أن يحدث سحب هائلة ، ورياح
وصواعق وزلازل ، ويتبعه مياه وغيون جارفة ، وما أشبه ذلك في العالم ، بإرادة
هذا الإنسان » .



أرأيت الى هذه النصوص وما تعطيه من المشابهة التي تكاد تكون تامة بين
ما يقول الغرالي ، وما يقول الفلاسفة ، في نظرية السبية ، وما يتبعها من لوازم
رغم ما يعطيه كتاب التهافت من المعارضة الصريحة لما يقول به الفلاسفة
في هذه النظرية ١١ .

لعل هذا التعارض بين كتب الغرالي المختلفة ، يسوغ لي أن أقول : إنه من
الضروري الرجوع الى الكتب المختلفة التي عرضت للموضوع الواحد الذي يراد
دراسة لمعرفة رأي الغرالي فيه ، وإن الاختصار في دراسة الغرالي على لون واحد
من كتبه المختلفة ، ليس من العمل العلمي الصحيح .

ولنا إلى الموضوع عودة إن شاء الله فنعرض فيها للنظرية الثالثة التي عرض
لها الدكتور جميل في مقاله ، وننل في ختامها على المهج العلمي الصحيح الذي يجب
أن يدرس الغرالي في ضوءه ، لكي تفهم هذه الشخصية المعقدة ، التي حيرت
الباحثين وأتبعهم ، فهما صحيحا ؟

فلسفة القرآن

والحياة الآخرة

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد يوسف الشيخ
المدرس بكلية أصول الدين

ذكرنا في مقالنا السابق أن الخلود في الجحيم الذي كتبه الله تعالى عقوبة للكافرين به المكذبين بآياته ، إنما هو خلود الأبدية الذي لا يقطع ، وأنه الامتداد الذي لا ينتهي ، وأن ذلك هو ما اعتمدته المتكلمون وعلماء العقائد الإسلامية في مقرراتهم العلمية ، بل ذلك ما نطق به الكتاب المبين في إحدى وثلاثين آية اتفقت الجمهرة من أعلام المفسرين على أن الخلود فيها إنما هو خلود الأبدية .

جزم بذلك الإمام الطبري ، والرازي ، والزمخشري ، والفرطبي ، والبيضاوي ، والنيسابوري ؛ بل حكى الإجماع على ذلك المحقق أبو السعود في تفسيره [إرشاد العقل السليم .

ذكرنا ذلك في المقال السابق دحضاً لما زعمه الأستاذ العقاد في كتابه « الفلسفة القرآنية في فصل الحياة الآخرة » . من أن العذاب في الحياة الثانية تطهير وتكفير ، وأن الأنفس جميعاً تتلاقى في حظيرة الرضوان ، كما زعم أن ذلك شريعة القرآن الكريم مستشهداً على ذلك بأراء المفسرين ، وأنهم كادوا أن يجمعوا على انتهاء عذاب الآخرة إلى الغفران ، وأن الخلود والأبد يفيدان الزمان الطويل ، ولا يفيدان البقاء بعير انتهاء . قصد استبان لك أن المفسرين كادوا أن يجمعوا على عكس ما يزعم الأستاذ ، بل حكى بعضهم الإجماع على أن الخلود في وعيد الكافرين معناه الأبد والسرمد اللذان لا يلحقهما فناء ولا زوال .

نعم هناك آيات من الكتاب المبين ذكر فيها الخلود في عقوبة بعض الآثام ، وقد حملها أهل السنة في احتمال من الاحتمالات لاعتبار خاص في موضوع هذه

الآيات على المكث الطويل . ولعل الأستاذ العقاد حين استشهد على أن مآل الآتين جميعا هو الفقران والثلاثي في حظيرة الرصوان إنما يبنى هذه الآيات وذلك الخلود الذي تضمنته تلك الآيات . أقول : وليس في هذه الآيات أيضا ما يسف الأستاذ في دعواه ، بل سترى فيما نبسطه من الحوار والمجدل بين جماعة السنة وأصحاب الاعتزال في هذه الموضوع وتلك الآيات ، ما يشهد في وضوح بطلان ما ذهب إليه الأستاذ العقاد .

أقول : بعد اتفاق فريق أهل السنة وجماعة الاعتزال ، بل ذلك إجماع المسلمين على خلود المؤمنين في الجنة وخلود الكافرين في النار ، اختلفا في عقوبة الآثم إنما كبيرا ليس بكفر ولا تكذيب ، كالفاتل والزاني ، أم عقوبة الأبد والخلود أم جزاء موقوت ينتهي إلى غاية ؟ جزم الاعتزال بأن عقوبة هذه الكبيرة هو الخلود والنأييد ، وذهب أصحاب السنة إلى توقيتها وتحديدتها بأمد ينتهي عنده صاحبها إلى النجاة .

اتجه هؤلاء المتخالفون صوب الكتاب المبين يحضرون إلى نصوصه ، فتمسك الاعتزال فيما تمسك بآيات من الكتاب :

الأولى : في سورة البقرة قوله تعالى « بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

والثانية : في سورة النساء قوله تعالى « ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين » .

والثالثة : في سورة الجن قوله تعالى « ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا » .

والرابعة في سورة النساء قوله تعالى « ومن يقتل مؤمنا متعمدا جزاءه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما » .

ففي كل آية من هذه الآيات الأربع قرنت عقوبة النار بالخلود ؛ والخلود حقيقة في الدوام ؛ يشهد بهذا قوله تعالى « وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفراس مت فهم الخالدون » فإن الخلد ههنا يمين أن يكون الدوام والسرمد لا المكث الطويل

والإجابة الآية الكريمة الصدق والصواب، فإن كثيراً من قبله عليه الصلاة والسلام قد أطال الله تعالى في أعمارهم ومكثوا مكاناً طويلاً، فألبته يكون الخلد هو الدوام والأبد حتى تصدق الآية الكريمة . هذا ما كان من جانب الاعتزال .
أما أهل السنة والجماعة فحاولوا الإجابة عن هذه الآيات في ألوان مختلفة :
فأجابوا أولاً :

بأن موضوع الآيات ليس هو الآثم بالكبيرة التي ليست بكفر ولا تكذيب كما هو موضوع نزاعنا ؛ بل هو الكافر المكذب ، ولا خلاف يدس ويبتكم في خلوده ؛ فإن النار الخالدة في الآية الأولى إنما كانت جزاء لمن كسب سيئة وأحاطت به الخطيئة ، وما ذاك إلا الكافر ، فإن المؤمن مهما أثم بالمعاصي لم تحط به خطيئته لإيمانه . ويؤيد ذلك ما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس وأبي هريرة رضي الله تعالى عنهم وابن جرير عن أبي وائل ومجاهد وقتادة وعطاء والربيع من أن السيئة والخطيئة هنا هي خصوص الكفر لا مطلق العاصية . وهذا هو رأى كثير من السلف ؛ وهو رأى سليم ينادى به سياق الآيات ، فإن الكلام في شأن الكافرين ؛ قال تعالى : أقتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون . وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به بعد ربكم أفلا تعقلون . أو لا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون . ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى وإن هم إلا يظنون . فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فويل لهم مما كتبت بأيديهم وويل لهم مما يكسبون وقالوا لن نمسنا النار إلا أياماً معدودة قل أتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون . بل من كسب ... الخ ترى في غير جهد أن الآيات الكريمة حديث عن المكذبين الذين بلغوا في الجحود والكذب على الله ابتغاء الثمن الشوطاً بعيداً انقطع معه الرجاء في عودتهم إلى حظيرة الحق والإيمان ، ويدعى للمؤمنين أن لا يطمعوا في إيمانهم بعد ذلك .

وكذلك النار المؤبدة في الآية الثانية إنما تهررت عقوبة لمن تعدى جميع

حدود الله تعالى ، وما ذاك إلا الكافر . ويؤيده ما ذهب إليه الكلبي وابن جريج وحكى عن ابن جبير من أن المراد بمن يعص الخ من لم يؤمن بما فصل في آيات الموارث ، وهذا كافر قطعاً .

وكذلك النار المرمدية في الآية الثالثة إنما كتبها الله تعالى على من عصاه في الأمر بالتوحيد لا في مطلق العصيان ، فإن سياق الآيات إنما كان في أمر التوحيد : ألا تقرأ قوله سبحانه . وأن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحداً ، وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً ، قل إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحداً ، قل إني لا أملك لكم ضرراً ولا رشداً ، قل إني لن ينجيني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً ، إلا بلاغا من الله ورسالاته ، ومن يدع الله ... الخ . وكذلك جهنم الخالدة في الآية الرابعة إنما كتبت عقوبة من قتل مؤمناً ، قيل : لأنه مؤمن ، وإلا فامعنى التعرض لوصف الإيمان وهذا لا يكون إلا كافراً ؟ . وقيل : الآية جاءت في أسلوب المسالمة فمخرج مخرج التعليل في الزجر والتهويل في الوعيد .

فالآيات الثلاث وكذا الرابعة في الاحتمال الأول إنما تحدث عن الكافر وعقوبته ، وليس هذا موضع خصومة بيننا وبينكم ، بل استقر إجماع المسلمين جميعاً على أن جزاء الكافرين بالله تعالى المكذبين بآياته إنما هو العذاب الدائم والنار المؤبدة . أما هؤلاء المؤمنون الذين افترقوا كبيرة لم يتوبوا عنها فلم تعرض الآيات لجرائمهم .

وأجاب أهل السنة ثانياً بأننا نمترض أن موضوع الآيات يتناول الآثم بكبيرة أى كبيرة وإن لم تكن كفراً وتكذيباً ، فلا يتعين أن يكون الخلود فيها بمعنى الدوام والأبد فحسب بل هو المسكت الطويل سواء أكان سرمداً أم لا ، فإن موارد اللغة تعطى هذا الإطلاق سواء أكان معه الأبد كقوله تعالى : أفإن مت فهم الخالدون ، أم لا كقولهم : حبس عخلد ، وعخلد الله تعالى ملكه .

وأهل السنة إذ يتشبّهون بتجريد الخلود عن الدوام والأبدية في وعيد الآثام التي ليست من الكفر والتكذيب في شيء ، إنما يحرمون على تجاوب آيات الكتاب

الى هدف واحد لا يتنافر بعضها مع بعض ؛ فقد نطقت الآية المحكمة ، إن الله لا يعمر
أن يشرك به ويفخر ما دون ذلك لمن يشاء ، وأمثالها بأن الآثام التي دون الكفر
والتكذيب موضع العفو والعفوان ..

ترى في حديث القوم في هذه الآيات الكريمة وجداهم حول ما يفيد
الخلود فيها من معنى الدوام أو المكث الطويل مهما تكن نتيجة الخصومة بين
الاعتزال وأصحاب السنة — ترى في هذا الحديث وذلك الجدل ما يكشف
في وضوح بأن ليس فيها ما يشهد لما زعم الأستاذ العقاد ؛ فإن الأمر في الآيات
يدور حول موضوعها ومن يستحق العقوبة : أهو الكافر فالخلود فيها هو
الابد والسمد بلا نزاع بين سني ومعتزلي بل بين المسلمين جميعا ، ولا شاهد
للأستاذ حيثئذ فيها بل هي الحجة البالغة على بطلان ما زعم ؛ أم موضوعها
عام يقاoul كل آثم إثما كبيرا وإن لم يكن كفرا وتكذيبا ، وعدتذ يتخالف
الاعتزال وأهل السنة ؛ فالاعتزال ما يزال يتشبث بأن الخلود في الآيات هو
الدوام والابد فحسب ، حتى إن عقوبة الزاني هي الخلود لما سمعت قبل من
التوجيه لذلك ، وليس في هذا الرأي أيضا ما يسعف الأستاذ العقاد ، بل فيه الدليل
القوي على فساد ما زعمه .

وأهل السنة حلوا الخلود عندئذ فيها هي المكث الطويل ، سواء كان فيه أبدية
أم لا ، وليس في هذا ما يفيد الأستاذ أي فائدة ؛ فإن أهل السنة إذ يحملون الخلود
على المكث الطويل قد عمموا في هذا الإطلاق حتى وسع التأيد والتوقيت ، فن
كان إثمه الكفر والتكذيب ، كان كعله من الخلود التأيد ، ومن كان إثمه دون ذلك
كان نصيبه من الخلود التوقيت . وأين هذا من دهوى الأستاذ العقاد ، إن مآل
الآثمين جميعا العفوان والتلاقي في حظيرة الرضوان وإن الخلود والابد في (جميع)
آيات الوعيد يكاد يكون إجماع المفسرين على أن المراد به الزمان الطويل ولا يفيدان
البقاء بغير انتهاء ، ٩١

مسئولية الاطباء

لحضرة الأستاذ الدكتور أحمد محمد إبراهيم
القاضي بمحكمة المنيا الوطنية

مصادر النصوص الجنائية :

سبق أن أوضحنا أن التشريعات الحديثة تحدد مقدما الجرائم وعقوباتها . ومصدر النصوص الجنائية في هذه التشريعات هو القانون أو اللائحة حسب الأحوال . والمشرع حين يبين الجريمة ويقدر عقوبتها يفعل ما أدى اجتهاده الى أنه مضر بالمجتمع ومحل بسلامته وبالأمن الواجب أن يرفره لأفراده .

ولو فرضنا أن أحكام الشريعة مُنفت على الحو الحديث ، فيكون مصدر النصوص الجنائية هو القوانين واللوائح التي يصدرها المشرع . ولكن هذا المصدر هو المصدر الظاهر أو القريب ، وإما المصادر الحقيقية هي تلك التي يستمد القانون أصوله منها ، وهي الكتاب ، والسنة ، والإجماع ، والقياس . ومذكر الآن كلمة موجزة عن كل مصدر من هذه المصادر :

القرآن :

القرآن هو كتاب الله الذي نزل به الروح الأمين على قلب الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بلسان عربي مبين لهداية الناس وإخراجهم من الظلمات الى النور ، ولتعبدهم بتلاوته وإعجاز الشر أن يأتوا بمثله . وهو المدون بين دفتي المصحف المبدوء بسورة الفاتحة المحتوم بسورة الناس ، الذي نقل بالواتر كتابة ومشافهة جيلا عن جيل محفوظا من كل تحريف وتبديل . ولا خلاف بين المسلمين في أن

القرآن حجة على كل مسلم ومسلمة ، وأن ما جاء به من الأحكام قانون ملزم واجب أن يطاع ، وأن تمنح أحكامه (١) .

وقد وردت في القرآن الكريم آيات تناولت بيان بعض الجرائم وتحديد عقوباتها ، كما وردت آيات أخرى ذكرت بعض الجرائم دون أن تحدد عقوباتها ، وهناك آيات وضعت بعض المبادئ العامة دون أن تعرض لأي تفصيل . ونذكر فيما يلي بعض هذه الآيات :

الآيات التي تحدد الجرائم والعقوبات :

١ — في الاعتداء على النفس :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقصاصُ فِي الْقَتْلِ : الْمُرُورُ بِالْحَرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى ، فَمَنْ عَنِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّباعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدِّاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ، ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ، فَمَنْ اعْتَدَى بِكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَلَكُمْ فِي الْقصاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . »

« وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصاصٌ ، فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ، وَمَنْ لَمْ يُحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ . »

« وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً ، وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٌ وَدِيَّةٌ مُسَلَّةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا ، فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٌ ، وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَدِيَّةٌ مُسَلَّةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٌ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ ، تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا . »

٢ — في السرقة .

« وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ، فَمَنْ تَابَ بَعْدَ ظِلِّهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ، إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . »

(١) أصول الفقه للشيخ عبد الوهاب خلاف ص ١٨ و ١٩ .

٣ - في قطع الطريق :

« إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، أو ينفقوا من الأرض ، ذلك لهم خزي في الدنيا ، ولم في الآخرة عذاب عظيم ، إلا الذين تابوا من قبل أن تهذبوا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم . »

٤ - في الزنا :

« الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين . »

٥ - في القذف :

« والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا ، وأولئك هم الفاسقون ، إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم . »

آيات ذكرت بعض الجرائم ولم تحدد عقوباتها :

« يأياها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون . »

« قل تعالوا أتتل ما حرم ربكم عليكم : ألا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين إحسانا ، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ، ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لا تكلف نفسا إلا وسعها ، وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبمهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ، وإن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون . »

« ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه » .

« ولا تأكلوا أموالكم بيسم بالباطل وتذّلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون » .

« ويل للطففين ، الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنهم يخسرون » .

آيات تضع أحكاماً عامة :

« وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » .

« من يعمل سوءاً يجز به ولا يجذله من دون الله ولياً ولا نصيراً ، ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون فيها » .

« ألا تَرَوُا وزراً ووزراً أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » .

السنة :

السنة : هي ما صدر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير . فالسنة القولية : هي أحاديثه صلى الله عليه وسلم التي قالها في مختلف الأغراض والمناسبات .

والسنة الفعلية : هي أفعاله صلى الله عليه وسلم .

والسنة التقريرية : هي ما صدر من بعض أصحابه من أقوال وأفعال وأقرها صلى الله عليه وسلم بسكوته وعدم إنكاره أو بموافقته وإظهار استحسانه ، فيعتبر بهذا الإقرار والموافقة صادراً عن الرسول نفسه .

وقد أجمع المسلمون على أن ما صدر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير وكان مقصوداً به التشريع والاقتداء ونقل إليها بسند صحيح يفيد القطع أو القان الراجح بصدقه ، يكون حجة دينية ومصدراً تشريعياً يستنبط

منه المجتهدون الأحكام الشرعية لأحكام المكلفين، وعلى أن الأحكام الواردة في هذه السنة تكون مع الأحكام الواردة في القرآن قانوناً واجب الاتباع^(١).

ومن الأحاديث التي وضعت أحكاماً جنائية خاصة: ما جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: أتى رجل من المسلمين رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في المسجد فاداه فقال: يا رسول الله إني زنيت. فأعرض عنه، فتحنى تلقاه وجهه فقال له: يا رسول الله إني زنيت! فأعرض عنه، حتى ثنى ذلك عليه أربع مرات، فلما شهد على نفسه أربع شهادات دعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أبك جنون؟ قال: لا، قال: فهل أحصنت؟ قال: نعم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اذهبوا به فارجوه.

ومن ذلك أيضاً ما روته السيدة عائشة من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقطع السارق في ربع دينار فصاعداً.

ومنه أيضاً ما رواه مسلم عن أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى برجل قد شرب الخمر فجلده بمجريدتين نحو أربعين. وروى أيضاً أنه عليه الصلاة والسلام جلد في الخمر بالمجريد والنعال.

وقوله صلى الله عليه وسلم: من غشنا ليس منا.

ومن الأحاديث التي تضع مبادئ عامة قوله صلى الله عليه وسلم: لا ضرر ولا ضرار. وقوله: رفع القلم عن ثلاثة: عن الصبي حتى يبلغ، وعن النائم حتى يستيقظ وعن المجنون حتى يفيق. ومنه قوله: إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا. وقوله: من قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد.

تفسير الكشاف للزمخشري

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود النواوي

وكيل معهد فؤاد الأول بأسبوط

نستطيع أن نقسم كتب التفسير القديمة قسمين . نقل وصناعي . ونعني بالنقل : الأثرى الذي يعتمد على ما روى عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، أو التابعين لهم بإحسان ، من أمثال ابن عباس وابن مسعود وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة والسدي : وهؤلاء كانوا ينون أقوالهم على ما سمع من النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وعلى ما يحيط بالنزول من أسباب وزمان ومكان ، وما إلى ذلك مما يلقى ضوءا واضحا على معاني آيات الذكر الحكيم في أولئك الذين هم أهل اللسان والبيان ، وأحق الناس بأساليب القرآن دراية وبصرا . فالتفسير النقلى أو الأثرى أو السلفى يتخذ من أقوال أولئك الأئمة عمدته وإمامه وبرهانه على ما قاله ، ولكنه مع ذلك لا يغفل التوجيه إلى الاستعمال في لسان العرب وما يقصد به ، وما ورد في أشعارهم ، وبيان القراءات التي هي أساس التفسير .

وتفسير الإمام المحدث أبي جعفر محمد بن جبر الطبري المتوفى سنة ٣٢٠ أبدع ما رأيناه من بين هذه التفاسير ، وأجلها قدرا ، وأدق مسلكا وأعذب منطقا وأهدى إلى صواب : فلعمرو الحق لقد شرح الكتاب الكريم شرحا فربه كل القرب من كل نص ، فأبرأ ذمته من عهدة التبيين ، و رضى العقل بما رضى بين خلافاً السلف من المفسرين ، وصحح القل فيما اعتمد عليه من أقوال الصحابة والتابعين وكلام العرب الأولين .

وهو الذى يقول فيه السيوطى : إنه أجمل تفاسير وأعظمها ، فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال وترجيح بعضها على بعض ، والإعراب والاستنباط ، فهو يفوق بذلك على تفاسير الأقدمين . ١ هـ .

وقال النووي : أجمعت الامة على أنه لم يصنف مثل تفسير الطبرى .

واليك مثالا من أسلوبه في التفسير :

« إن هذا القرآن يهتدى للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا ، وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما » : يقول تعالى ذكره : إن هذا القرآن الذى أرسلناه على نبيينا محمد صلى الله عليه وسلم يرشد ويسدد من اهتدى به للتي هي أقوم ، يقول للسبيل التى هي أقوم من غيرها من السبل ، وذلك دين الله الذى بعث به أنبياءه وهو الإسلام ، يقول جل ثناؤه : فهذا القرآن يهتدى عباد الله المهتدين به الى قصد السبيل التى ضل عنها سائر أهل الملل المكذابين به كما حدثنى - قال ابن زيد فى قوله : إن هذا القرآن يهتدى للتي هي أقوم قال : للتي هي أصوب هو الصواب وهو الحق ، وقرأ : ولم نجعل له عوجا قيبا ، يقول مستغنيا ، وقوله ويبشر المؤمنين ، يقول ويبشر أيضا من هدايته من اهتدى به للسبيل الاقصد ، الذين يؤمنون بالله ورسوله ، ويعملون فى دنياهم بما أمرهم الله ، وينتهون عما نهاهم عنه ، بأن لهم أجرا من الله على إيمانهم وعملهم الصالحات كبيرا ، يعنى ثوابا عظيما وجزا جزيلا ، وذلك هو الجنة التى أعدها الله تعالى لمن رضى عمله كما حدثنا عن ابن جريج أن لهم أجرا كبيرا قال الجنة وكل شئ فى القرآن : أجر كبير ، أجر كريم ، ورزق كريم فهو الجنة ، وأن فى قوله أن لهم أجرا كبيرا نصب لوقوع الشارة عليها ، وإن الثانية معطوفة عليها وهكذا ... فهو يورد الآية ثم يشرحها إجمالا ويبين مأخذه من كلام السلف . وعبارته فى الشرح سلسلة عذبة مطبوعة بطابع العطرة الصادقة كأنما يترجم القرآن لكل ناشد وطالب . وفى نهجه هذا الواحدى وابن كثير وغيرهما مع اختلاف يتبع الزمن والتجريد ومبلغ الثقافة ، وما نظن أحدا بلغ مبلغه ولا أتى مأناه دقة ومجودا وسعة ذرع .

ولعلنا نعرض لهذا البحث فى حديث .

وأما التفسير الصناعى فهو الذى يعول على الحرية فى الرأى والاخذ بالقياس ، معتمدا على ما عرف من أسلوب العرب فى مخاطبتها ومسلكتها فى ألفاظها وجملها ، وستتها فى حقيقتها ومجازها غير متوقف على رواية أو نقل ما لم يصادم مسلكه فى ذلك مأثورا عن النبي صلوات الله عليه أو أحد أصحابه من طريق صحيح ، ولا سيما

ما احتمل وجوها من الشرح ولم يجد مرجعا من العقل ، فإنه يحمل تلك الوجوه ويرجح ما ذهب إليه صحابي أو تابعي . وفي الكتاب الكريم كثير جدا مما يحتمل وجوها كثيرة ، وفي المحكم والمتشابه ، وفي ذلك التشابه وجوه من الرأي : أقوال في تصوير مفهومه ومعناه ، وأقوال فيما يصدق عليه أنه متشابه من آي الكتاب الكريم .

وليس هذا مجال التفصيل ، ولكننا بصدد طريقة المفسرين بالصناعة ، ويبان أنهم يمولون في فهم الكتاب على العقل بعد أن يكون المعنى مطابقا لما عهد من أساليب العرب في التخاطب ، وبعد ألا يكون مصادما لقل صحيح ولا خارجا على قاعدة دينية ومبدأ متعارف في الاسلام .

وكأن تفسير الطبري هو العمدة في المأثور فإن تفسير الرعشى هو العمدة في باب الصناعة والمفتاح لما بعده من التفسير الواسعة على علوم البلاغة ، وتق اكمام تلك الازهار ، وفسح المجال للنظار ، وسهل السبل ، وعبد المشارع لاستدرار حصوة الكتاب الكريم ، والاتجاه به صوب الإعجاز العظيم ، فهو خير من يعبر عن سمو الأسلوب وعبقريته في القرآن وكيف أنه سائر العرب في متعارف خطابها ، ولكنه أوفى على الغاية من بلاعتها . وورع السالك في رعاية دقائقها وحكمة وضع كل كلمة من جاراتها ، مما جعل أعناقهم بفصاحته ساجدين ، وكنتم فأنخذلوا راكضين ، مما يشرح حق الشرح هذا الإعجاز الصارح ، قل لمن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا .

رحم الله أبا القاسم لقد غل أعناق المفسرين ووجهم وجهة فتحت أعينهم على نواحي إعجاز الكتاب ، فصار تحقيقا واستقلالا ، بعد أن كان تسليما وتقليدا . على أن سنة التدرج كانت تقضى أن تزايد تلك السواحي بعد ما عتبت سبلها ، ولكن التجديد فيها لم يكن بالشئ ذي الخطر .

على أن أسلوب البيان من بعده لم يصل الى مدى شأوه ولا قارب : فلا الفخر الرازي ولا اليعاقبة ولا أبو السعود ولا غيرهم ممن سلكوا مسلك التعليل

بلغوا مبلغ جاراؤه في البيان العربي الذي ينفذ إلى النفوس نفود الشمس في مابعد الكوى، ولا حاول أن يصل إلى ذلك المدى.

ولقد بلغ من مجهوده العظيم في كتابه أن وضع تلك القواعد المحكمة في علوم البلاغة، وأعلى منارها للسالكين، حتى كان له قصب السبق بعد الإمام عبد القاهر في ذلك المضمار. كان الزحشرى فيما نقله أول من سلك بالقرآن في هذه المسالك فذلل عصيتها، واستفاد أسبها، ولم يكن ذلك لحسب، بل لقد حقق به كثيرا من أصول النحو في أسلوبه المذهب الحلو، ومن مفردات اللغة ينحوي بها منحى فلسفة لغة اللغة وأصول الاشتقاق، ورد بعض الكلمات إلى أصول وجذور تنفرع منها. فالصلاة: ما أصلها، وكيف تكون في تصرفها بما ترجع به إلى أصل واحد؟ والإنفاق ما فعله؟ وكيف قلب في معان تغترف من قلب واحد؟ والرب ما معناه وكيف انجماعه؟ والرب ما أول استعماله، وكيف وصل إلى ما هو معهود فيه؟ والعبادة ما نشأتها؟ وكيف صارت إلى ما صارت إليه؟ وهكذا... على أنه قد جعل الكتاب الكريم مادة لمسائل التوحيد والفقه والتأديب والسلوك. وهذا الكتاب العظيم يحك العلوم، ومعتزك العلوم، ومظهر الثقافة في علوم اللغة والدين. وبقدر اتساع المادة في تلك النواحي يكون التبريز فيه. ولقد قام الدليل من بحوث الرجل على أنه إمام موفق، وباحث محقق، ومبين ذو مطلق وذو دين معرق. وما أحوج دارس الكتاب الكريم إلى كل ناحية من تلك النواحي، وإلى عون ومدد من الحكمين الخبير. ذلك سر نألق بحجم الكتاب بين كتب التفسير واحتفاظه بميزته العليا، مهما تعددت الكتب فيه، فلو أن الأمر لم يكن إلا كما قيل.

فلو قبل بكهاها بكيت حباية بسعدى شفيت انفس قبل التندم
ولكن بكت قبل فبيج لى البكا بكهاها فقلت الفضل للتقدم

لكان ذلك فضلا لآبى القاسم جلالا، ولكن الأمر فوق ذلك بكثير، فليس فضل الزحشرى بتقدمه لحسب، ولكنها القيوضات والثروة التي لم يزاحم في مجموعها، وهي الروح المشرقة الصافية فصحت عليه ذلك الطابع الذى يعد به نسيج وحده. وفي مقال آخر سفسر بعض نواحيه، في بحوثه وكيف سلك بها في تلك النواحي ذات الشأن الخطير. وبالله التوفيق، ومنه المعونة.

بَابُ الْأَسْئَلَةِ وَالْفَتْوَى

الشركة في المواشي

جاء إلى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتي :

ما حكم الشركة في المواشي على الصورة الشائعة بين الفلاحين ، وهي أن يدفع الشريكان الثمن مناصفة ويقوم أحدهما وهو المسمى (القاني) بما يلزم للماشية من أكل وهرب وعناية في نظير أخذ لبنها وسمادها ، والآخر وهو المسمى بالشريك المرفوع ، لا يدفع شيئاً في الفقة ولا يأخذ شيئاً من لبنها وسمادها ؛ وتناجها بينهما نصفين ؟ علماء بلدة زرقان

الجواب

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد ، فقد اطلمت اللجنة على هذا السؤال . وتقيد بأنه قد ذهب كثير من الفقهاء إلى عدم جواز المعاملة على هذا النحو ، لأنها تتضمن مبادلة اللبن وبقية المنافع ما عدا التاج بعوض ، وهو قيام القاني برعاية الحيوان المشترك وإفقاؤه عليه ؛ وهذه المبادلة لا تصح أن تكون من قبيل البيع والشراء ، ولا من قبيل الإجارة .

أما عدم صحتهما فيما فلاّن فيه تملك اللبن الذي سيحصل في المستقبل وهو معدوم حال العقد فلا يصح تملكه بطريق البيع ، لأنه بيع المعدوم ، وهو غير جائز شرعاً إلا فيما يكون من طريق السلم ، وهذا ليس منه . وإذا كان بيع اللبن الموجود في الصرع قبل حلبه قد نهى عنه الرسول صلى الله عليه وسلم مع كونه موجوداً في الصرع ، كان منع بيع اللبن قبل وجوده أولى وأحرى ؛ ولأن فيه جهالة البديلين ؛ لأن اللبن غير معلوم القدر ، وكذا ما ينفقه القاني غير معلوم ، ولا بد في البيع من العلم بالبديلين .

وأما عدم صحتها لإجارة فلا والله من الأعيان فلا يصح أن يكون معقوداً عليه في الإجارة، لأن الإجارة هي تمليك المنافع بعوض، ولهذا لا يصح استئجار الطعام ليأكله ولا الماء ليشربه، ولجأه العوضين أيضاً : ولا بد في الإجارة من العلم بالدليل كالبيع، ولأن المتعاقدين لا يحددان غالباً في هذه المبادلة مدة معينة من شهور أو سنين .

والذي تختاره اللجنة : صحة هذه المعاملة التي جرى بها العرف والتعامل ويشق على الناس تركها ، مختارة أنها من قبيل إجارة أحد الشريكين نصيبه للآخر ، لأنه لا مانع شرعاً من هذا العقد .

وبيان ذلك : أن الله وإن كان عينا فهو من قبيل الأعيان التي يرد عليها عقد الإجارة ، نظراً لتجددها شيئاً فشيئاً ، كشجرة الشجر ، ولبن الفطر : واستئجار الفطر للإرضاع جائز بنص كتاب الله تعالى وبالسنة والإجماع ولم يرد في كتاب الله ولا سنة رسول الله ولم يجمع المسلمون على أن عقد الإجارة لا يرد إلا على المنافع دون الأعيان مطلقاً ، بل ثبت عن الصحابة خلافه ، إذ صح عن عمر رضي الله أن أعطى حديقة أسيد بن خضير ثلاث سنين وأخذ الاجرة فقضى بها دينه . والحديقة هي النخل . فهذه إجارة الشجر لأخذ ثمره . وهو مذهب أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ، ولا يعلم له في الصحابة مخالف . ولذلك اختاره غير واحد من علماء الحنابلة ، منهم شيخ الاسلام ابن تيمية . فإقوله المالمعون أن مورد عقد الإجارة لا يكون إلا منفعة غير مسلم ، ولا هو ثابت بالدليل . وقياس هذه الإجارة على إجارة الخبز للأكل والماء للشرب ظاهر أنه قياس فاسد ؛ فإن كلا من الخبز والماء عين تعدم بالاستهلاك ولا يأتى مثلها ، بخلاف اللبن الذي يحصل شيئاً فشيئاً ويختلف نفعه بعضاً كالتمر في الحديقة . ألا يرى أن الثمر واللبن أجرياً مجرى المنافع والفوائد في الوقف والعارية ومحموها ، فيجوز أن يوقف الشجر لينتفع أهل الوقف ثمره ، كما يجوز أن يوقف الأرض لينتفع أهل الوقف بعقلها ، ويجوز إعارة الشجر كما يجوز إعارة الحيوان وإعارة الدار ، ومنحة اللبن (هي الشاة مثلاً تعار لينتفع المستعير بلبنها) وهذا كله تبرع بتمام المال وفائدته . فهذه الفوائد تدخل في عقود التبرع ، سواء أكانت ناشئة عن عين محبة أم غير

محبسة . وهذا يدل على أن الشارع اعتبرهما من قبيل المنافع ، فتصلح أن تكون مفقودا عليها عقد إجارة .

يوضح ذلك أن الأعيان نوعان : نوع لا يختلف بعينه بمضايل إذا ذهب ذهب جملة : ونوع يختلف بعينه بمضايل كلسا ذهب منه شيء خلفه شيء مثله . والقسم الثاني وسط بين المنافع المحضة والأعيان التي لا تتحدد ، فينبغي أن ينظر في شبهة بأى النوعين فيلحق به . ويؤيد هذا أن الأصل في المفقود وجوب الوفاء بها إلا ما حرمه الله ورسوله ، فإن المسلمين على شروطهم إلا شرطا أحل حراما أو حرم حلالا . فلا يحرم من الشروط والمفقود إلا ما حرمه الله ورسوله . وليس مع المسانين نص بالتحريم البتة ، وإنما معهم قياس قد علم أن بين الأصل والفرع فيه من الفرق ما يبيح الإلحاق . وأما القياس الذي مع من أجاز ذلك فهو قياس صحيح لمساواة المبيع لأصله في المناط .

والخلاصة . أن الإجارة كما تكون على المنافع المحضة ، تكون على الأعيان التي تستوفي شيئا فشيئا من عين أخرى مع بقاء الأصل . وإجارة الظئر وردت على اللبن لأنه من الأعيان التي هي كذلك . وإجارة الشجر كما فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حديقة أسيد بن حضير من هذا القبيل . وقد بين ذلك بأكثر مما قلنا شيخنا الإسلام ابن تيمية في الجزء الثالث من فتاواه ، وابن القيم في كتابيه : زاد المعاد ، وإعلام الموقعين . ومن أطلع عليهما ازداد اطمئنانا إلى صحة ما قلنا .

وأما جهالة البدلين من نفقة الحيوان وعلمته فلا قصر ، لأن الجهالة إنما تفسد العقد لإفضائها إلى النزاع ، والجهالة هنا ليست كذلك . وقد أجاز أبو حنيفة إجارة الظئر بطعامها وكسوتها ، لأن الله سبحانه وتعالى قال : « وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف » لجعل الله تعالى رزق المروض (طعامها) وكسوتها بالمعروف أجرا على الإرضاع وهما غير معلومين . وما هذا إلا لأن الجهالة هنا لا تمنع من صحة عقد الإجارة لعدم إفضائها إلى النزاع ، وحينئذ فكل جهالة في عقد من المفقود لا تفضي إلى المازعة تكون غير مانعة من صحة العقد . ومن أجل ذلك كان من قواعد الفقهاء السلفية أن الجهالة المفضية إلى النزاع هي التي تفسد العقد . وقد عللوا أيضا رأي أبي حنيفة في صحة عقد إجارة الظئر بطعامها وكسوتها بأن

الناس تعارفوا هذا العقد بهذه الصفة ؛ وليس في عينه نص يبطله ؛ وفي نزعمهم عن هذه العادة حرج لأنهم يمدون الظن من أهل بينهم ؛ فالظاهر أنهم يستكفون عن تقدير طعامها وكسوتها كما يستكفون عن تقدير طعام الزوجات وكسوتهن إلى آخر ما قاله السرخسي في المبسوط مما لا حاجة إلى استيعابه . ولا شك أن جهالة البديل فيما نحن فيه غير مفضية إلى النزاع ، لأنه لا يظن بالشريك الفاني أن يقصر في الإنفاق على الحيوان المشترك مع ارتفاعه بثمراته من عمل ولبن وغيرهما ؛ كما لا شك أن الناس تعاملوا هذه المعاملة ، وفي نزعمهم عما اعتادوه حرج ، كما في استئجار الظئر بالطعام ، وليس فيه نعيه نص بمنعه . وقد أجاز الإمام أحمد في أصح الروايتين عنه دفع الشاة أو البقرة أو الناقة لمن يعمل عليها بجزء من درهما ونسلها ، كما نقله عنه ابن القيم في زاد المعاد . وجاء في شرح المنتهى من مذهب الحنابلة أنه يصح دفع الدابة أو التحل ونحوهما لمن يقوم بهما مدة معلومة بجزء مهما . وقد جاء في البخاري في باب أجر السمسة أن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لا بأس بأن يقول : بع هذا الثوب فما زاد على كذا وكذا فهو لك . وعن ابن سيرين أنه قال : إذا قال بكذا فما كان من ربح فلك أو يئني وييك فلا بأس به . ولا شك أن ما زاد على كذا وكذا أو ما كان من الربح ، مجهول ؛ ولكن ابن عباس وابن سيرين أجازا ذلك لما رأياه من أن الجهالة فيه غير مفضية إلى النزاع .

وأما عدم تحديد المدة فلا يمنع من صحة هذه المبادلة التي فيها حاجة وجرى بها تعاملهم ، لأنه إنما اشترط في الإجارة تحديد المدة ليكون المعقود عليه معلوما ، واشترط العلم بالمعقود عليه إنما يلزم فيما تكون جهالته مفضية إلى النزاع ، وما هنا ليس كذلك ، لاتفاق الشريكين على بقاء هذا التبادل بينهما ما دامت الشركة قائمة ، ولأن النبي صلى الله عليه وسلم صح عنه أنه جعل للبرتن أن يأخذ لبن الحيوان المرهون في مقابلة إنفاقه عليه ولم يشترط تعيين المدة . ولا شك أن هذا نوع من المبادلة لم يعين فيه مدة بنحو شهر أو سنة ، لأنه من المعلوم أن المدة محددة بدوام الرهن ، وما نحن فيه من هذا القبيل . ومن أجل ذلك قال ابن القيم في إعلام الموقعين . . وطرد هذا القياس أن المودع والشريك والوكيل إذا أنفق على الحيوان واعتاض عن الإنفاق عليه بالركوب والحلب جاز ذلك كالبرتن . وبؤيد هذا ما قاله الحنفية من أن جهالة المدة في نحو السمسار والمادى والحمام والصكاك

غير ما نفع من صحة عقد الإجارة : فقد نقل ابن عابدين في أول باب الإجارة الفاسدة في رد المختار عن الزاوية ما نصه . « إجارة السمسار والمناذى والخنم والصكاك ، وما لا يقدر فيه الوقت ولا العمل ، تجوز ، لما كان للناس به حاجة ، ويطلب الأجر المأخوذ لو قدر أجر المثل . » ١ .

ويؤيده أيضا ما جاء في المسوط للرخي صفحة ١٦٠ من الجزء السادس عشر ، ونصه . « وكذلك لو أعطاه - أى أعطى داخل الخمار الخماي - فلما على أن يدخل الخمار فيقتل ، فهو فاسد في القياس ، لجهالة مقدار مكته ومقدار ما يصب من الماء ، ولكنه استحسن وجوز لأنه عمل الناس وقد استصوه ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن » (هذا الحديث الأصح وقفه على ابن مسعود) ولأن في اشتراط إعلام مقدار ذلك حرجا ، والخرج مدفوع شرعا . » ١ .

وهذه المسألة لا نعلم فيها خلافا بين الأئمة . ويؤيده كذلك ما قاله بعض متأخري الحنفية من أن المستأجر لأرض الوقف إذا بقى فيها أو غرس ياذن الناظر ومضت مدة الإجارة فللمستأجر أن يستيق الباء أو الغراس بأجر المثل ما دام بناؤه أو غراسه قائما في الأرض ، وليس لذلك مدة محدودة من نحو شهر أو سنة .
والخلاصة : أن هذه المعاملة ليس فيها مانع شرعى ، مع تعامل الناس بها وتعارفهم عليها ، وللباس فيها حاجة ، ولم يوجد نص يحظرها بعينها من كتاب أو سنة أو إجماع ، ولا يترتب عليها ما يترتب على ما حظره الشارع من التصرفات ، من التنازع والشجاء وإيقاع العداوة والبغضاء ، أو الظلم والفساد ، فتكون صحيحة .
وفد ذكر الرخى أيضا في مبحث وقف الموقوف مقصودا ، أن الصحيح أن ما جرى العرف بين الناس بالوقف فيه من المنقولات يجوز باعتبار العرف ، وذلك ككتاب الجائزة ، وما يحتاج إليه من القدر والالوان في عمل الميت ، والمصاحف والكراع (الخيل) والسلاح للجهاد ، فإنه روى أنه اجتمع في خلافة عمر رضى الله عنه ثلثائة فرس مكتوب على أعقابها : « حبيب في سبيل الله تعالى » . وهذا الأصل معروف أن ما تعارفه الناس وليس في عينه نص يبطله فهو جائز . وهذا الطريق يجوزنا الاستصناع فيما فيه تعامل ، لقوله عليه الصلاة والسلام . « ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن . » ١ .

وقد بنى الحنفية على هذا الأصل جواز وقف المقول إذا تعورف ولو بعرف حادث . نعم لم يعتبر بعض الحنفية العرف الخاص ، ولكن يكفي ما قاله بعضهم من اعتباره ، كما أفنى به في دفع القطن لمن ينسجه بجزء منه لتعامل أهل البلد ذلك .

هذا وفي شرح المواق على خليل صفحة ٣٩٠ جزء ٥ أن ابن القاسم روى عن مالك أنه لا بأس باستئجار الخياط المحالط الذي لا يكاد يخالف مستأجره دون تسمية أجر على أن يراضيه بشئ يعطيه إياه إذا فرغ . قال ابن رشد : لأن الناس استعاضوا هذا ، كما يعطى الحمام ، وكما في مسألة الحمام ، وفي الميع منه حرج وغلو في الدين . وفيه أيضا قال سحنون : لو حمت أكثر إيجارات الناس على القياس لبطلت . يريد بذلك أن ما تعامله الناس وتعارفوه ولا يفنى إلى مفسدة لا مانع منه وهو جائز شرعا .

وفيه أيضا : ومن أصول مالك أنه يراعى الحاجيات كما يراعى الضروريات . وقد أورد في هذا الموضوع فروعا ترجع إلى تحكيم العرف والعادة والاعتداد بالحاجة الحادثة وإعطائها حكما يناسبها ما دام ليس في منعها بخصوصها نص من كتاب أو سنة أو إجماع ، وما دام لا يترتب عليها مفسدة . وجاء في الفتاوى الهندية في الباب الخامس عشر من كتاب الإجارة ما نصه : ولا يجوز إجارة ماء في نهر أو قناة أو بئر . وإن استأجر النهر والقناة مع الماء لم يجوز أيضا ، لأن فيه استهلاك العين أصلا . والفتوى على الجواز للعموم البلى .

ومما ذكرنا يعلم أنه لا مانع يمنع شرعا من صحة هذه المعاملة ؛ ولذلك تفتى بجوازها اللجنة ، تيسيرا على الناس ، ودفعاً لما يلزم من الحرج الذي جاء القرآن الكريم بنفيه . قال تعالى : وما جعل عليكم في الدين من حرج ، والحرج قد فسره ابن عباس بالضيق . وقال تعالى : يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر . وقال عز وجل : يريد الله أن يخفف عنكم ، وفي الحديث الشريف : بعثت بالحنيفية السمحة . وقال عليه الصلاة والسلام : إنما بعثت مبشرين لا مبشرين ، إلى غير ذلك من الأحاديث الواردة في هذا الشأن . والله أعلم ؟ رئيس لجنة الفتوى

عبد المجيد سليم

بيان مشيخة الأزهر

في جرائم الاغتيال

في مساء الأحد ٢ من ربيع الأول سنة ١٣٦٨ الموافق ٢ من يناير سنة ١٩٤٩ اجتمع بالإدارة العامة للأزهر والمعاهد الدينية حضرات أصحاب الفضيلة أعضاء جماعة كبار العلماء وكبار العلماء برئاسة حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشناوى شيخ الجامع الأزهر، وقرروا إصدار بيان للامة بمناسبة ما تكرر من حوادث الاغتيال وإراقة الدماء التى عصمها الله، يذكر فيه حكم الشرع، وبوجه فيه النصح للامة بالتزام أوامر الله والكف عن محارمه، وهذا هو البيان :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وأصحابه والتابعين.
أما بعد :

فقد أوجب الله علينا بيان حكم دينه الحنيف، والنصيحة لعامة المسلمين وخاصتهم، أفرادا وجماعات، فيما يفتش الامة من الحوادث الجسام. فندعو المصريين عامة الى امتثال محاب الله تعالى واتقاء محارمه، إذ لا فلاح فى الدين والدنيا إلا بالوقوف عند حدود الله: ومن يمتص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها، وله عذاب مهين.

وننبه بهم كافة الى عرفان ما أجمعت عليه الشرائع من أن من أكبر الكبائر وأعظم المآثم قتل النفس البريئة، وإتھاك حرمة الدم المعصوم ظلما وعدوانا، لما فيه من إشاعة الفساد، واختلال نظام العمران.

وقد جاء في صريح القرآن والسنة من التهديد والإيعاد في أمر هذه الجريمة
السكراء ما يادى بعظم فظاعتها وشدة خطورتها : قال تعالى : « ومن يقتل مؤمنا
متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها ، وغضب الله عليه ، ولعنه ، وأعد له عذابا عظيما » .
وقد كتب الله على بنى إسرائيل ، أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فسادا في الأرض
فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا ، وقال النبي
صلى الله عليه وسلم : كل المسلم على المسلم حرام : دمه ، وماله ، وعرضه ، وخطب عليه
السلام المسلمين يوم النحر بمنى في حجة الوداع فكان مما قاله : « فإن دماءكم
وأموالكم عليكم حرام كحرمه يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا إلى يوم
تلقون ربكم : ألا هل بلغت ؟ قالوا نعم . قال : اللهم اشهد ، فليبلغ الشاهد الغائب
فرب مبلغ أوعى من سامع » .

وقد بلغ من تغليظ الزجر وتشديد العقاب لمن اقترف هذه الجريمة أن قال
ابن عباس حين سئل هل للقاتل توبة : ويحك ! وأنى له توبة ! سمعت نبيكم صلى
الله عليه وسلم يقول : يأتي المقتول يوم القيامة معلقا رأسه بإحدى يديه متليبا قائله
بيده الأخرى تشخب أوداجه دما حتى يوقفا ، فيقول المقتول لله تعالى : رب هذا
قتلى . فيقول الله تعالى للقاتل : تعست ! ويذهب به إلى النار .

وقد أجمع المسلمون على أن من أعان آثما على إثمه كان شريكا له في هذا
الإثم . وفي القرآن الكريم : « وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم
والعدوان ، واتقوا الله ، إن الله شديد العقاب » .

وعن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من أعان على دم
امرئ مسلم بشطر كلمة ، كتب بين عينيه يوم القيامة آيس من رحمة الله » .

وعن البراء بن عازب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كروا للدنيا
وما فيها أهون عند الله تعالى من قتل مؤمن ، ولو أن أهل سماواته وأهل أرضه
اشتركوا في دم مؤمن لادخلهم الله تعالى النار » .

وروى « لو أن رجلا قُتل بالمشرك وآخر رضى بالمغرب لأشرك في دمه » .

هذا حكم الله تعالى فيمن اقترف هذه الجريمة ، أو أعان عليها ، أو اشترك فيها ، أو رضى بها . فكيف يجزى مسلم بعد أن وقر الإيمان في صدره وعرف شرائع دينه ، على اغتيال أخيه وسفك دمه وعدم بنيتة ظلما وعدوانا ، لا يبالى في ذلك حق الأخوة الإنسانية ، ولا حق الرابطة الوطنية ، ولا حق الله تعالى ، وما جاء في كتابه العزيز من الوعيد بالعذاب المقيم والغضب الشديد ، لمن قارف هذه الجريمة الشنعاء .

إن هذه الجريمة لم يخطر الجرائم على المجتمع ، تهدده في كيانه وبقائه ، وفي حريته وتفكيره ، وفي إنشائه وتجديده ، وتندر بالاحلال والماء ، ولذلك كان الجزاء عليها عند الله في الآخرة أشد الجزاء .

لا يستهين بالخلود في النار وغضب المستم الجبار والطرود من رحمة الله إرضاء لنفسه وإثارا لشهوته ، إلا من تجرد من إنسانيته ، وانقلب وحشا ضاريا في إهاب إنسان .

أبناءنا المصريين :

اعتصموا بحبل الله المتين ، واستمسكوا بعُرى الدين ، واعملوا صالحا في الحياة ، ولا يغرنكم باقة الفرور ، وذروا ظاهر الإثم وباطنه ، وطهروا ضمائركم من لوثة الشر ، ولا تتبعوا الهوى فيضلكم عن سبيل الله ، واحذروا مضلة الإغواء ومبادة الإغراء ، واخدموا وطنكم بالعقول السليمة ، والعلوم النافعة ، والآراء السديدة ، والوحدة الجامعة ، واعلموا أن الوقت عصيب ، والموقف رهيب . . واتقوا فتنة لا تصين الذين ظلموا منكم خاصة ، واعلموا أن الله شديد العقاب . . فن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ، وما الله بغافل عما تعملون .

من أخلاق المصطفى صلى الله عليه وسلم :

بعده عن الرّيب

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد التّواب
مفتش الوعظ والإرشاد بالأزهر

للنّيل العليا في الحياة من جلال المظهر ، ونباهة الشّأن ، وقوة الإعداد ...
ما يدفع الناس الى تبصر الهدى في نواحيها ، ويحملهم على تعرف أهدائها
ومراميها ، فإذا تكشفت عن سلامة المبدأ ، ورجاحة الفكرة ، وسمو الغاية ،
كان لها أثرها ، وكان لها خطرهما .

والمثل العليا في القادة والمصلحين ، صحائف مسطورة للدهور والأزمان ،
لها روعتها ، وفيها عبرتها : كلها قواعد ناطقة بالفضيلة والفضل ، عامرة بنبالة
القصد ، وأصالة الرأى ، وبراعة التصوير ، في قوتها حجتها ، وفي وضوحها
برهانها ، وفي كنهها جلالها وجمالها ...

وسيد هؤلاء القادة المصلحين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ؛ سيد في نواحيه
كلها : في عظمتة العسية ، وفي عقيدته الفطرية السليمة ، وفي توجيهه القوى الحكيم .
ولقد عُنى الباحثون في سيرته العاطرة ، بإبراز هذه النواحي المشرقة ،
ليُسلّطوا الناس الى هذه الثروة النفسية الغنية ، فتزخر قلوبهم بما يتألق فيها
من كنوز ، وتغمر نفوسهم بما يتجلى من خلق محمود ، وفضل مشهود .

وإن التمس العظيمة لتبدو مترفة عن الدنايا ، متجنبة سفه الرأى ، وزيف
الهوى ، متعرفة للحق ، تهف به قوية الجانب ، فتية العزم ، في وجوه الرّيب

والشكوك ، نقذفها به قدفعها ، ثم نخلص الى العزة تطلبها ، والى الكرامة نبلغها ،
والى سموات المجد فتحلق فيها ما شاء لها ترفعها الابن ، وغنصرها الطيب ،
وخلقها العظيم . وكذلك كان المصطفى صلى الله عليه وسلم .

نشأ عليه الصلاة والسلام فى وسط غلبت فيه الجبالة والضلالة ، وبيئة
تنازعها الوثنية الخفاء ، والطغيان الذى لا عقل له ، والتقليد الذى لا بصير فيه ؛
ولكنه صلى الله عليه وسلم صدف عن كل طيش ، وأعرض عن كل زيف ، وبنا
عن كل فتون وبجون .

لم يلع فى قول ، ولم يمنح الى ضلالة ، ولم يحل به هوى ، ولم يعدل عن حق ؛
لكننا بادرته طهارة الشائيل ، وعاجلته فضائل الاخلاق ، وماهيكم بالعبادة
السليمة ، تتخذ من المكرمات سياجا ، وبالنص الاية يصوم لها الحق سراجا .

فبالغ وأكثر لن تحيط بوصفه فإين الزبا من يد المناول

وذاع صيت محمد صلى الله عليه وسلم فى قومه ، وهو شاب لم يكتمل بعد
من النبوة ، وعرف عنه ترفعه عن الرجس والدنس ، والفدر والخذاع ، والخيانة
والكذب . وسمعت حديجة بنت حويلد ، ياباته ووفاته ، وأمانته وعفته ، فأرسلت
تطلب إليه أن يتجر فى مالها ، وكانت سيدة فى قومها ، غنية بثروتها وحسبها ،
وشاء ربك أن يكون العنم فى التجارة جسيما ، والرجح عظيما ، فإلبثت خديجة
أن رغبت إلى شريكها فى المال أن يكون شريكها فى الحياة .

وكان قد طلبها للزواج كثير من وجوه قريش وأشرافها ، فأبت عليهم .

ولقد كان لهذا الترفع عن الدنيا ، والتباعد عن موجبات الشكوك والريب
آثره وخطره ، فى إبلاغ الدعوة ، وقيام الحجة ، فلقد دعاهم وتحداهم أن يمدوا له
صلى الله عليه وسلم زلة ، أو يبرموا عنه نقيصة ، أو يأخذوا عليه سفها ، فلم يستطيعوا ،
لا ، بل قد استطاعوا أن يقولوا له : ما جربنا عليك كذبا ، حين قال لهم صلى الله
عليه وسلم : أرايتم لو أخبرتكم أن خيلا بالواذى تريد أن تغير عليكم ، أكنتم
مصدقين ؟ فقالوا نعم ، ما جربنا عليك كذبا ، قال : فإني رسول الله إليكم خاصة
والى الناس كافة . ولقد كان ، بعد بلوغ الدعوة ، وعلو الكلمة ، ذلك التوجيه

الحكيم من الرسول الحكيم ، البعد عن الريب ومظالمها ، وبجانبه الشبهات ، والتعوم حولها .

فإنك تجد في قوله عليه الصلاة والسلام ، دع ما يريك إلى ما لا يريك ، دفع الظنون ، ومخالعة النهم ، والبراءة من كل ما يعيب ويشين . وفي ذلك طهارة النفس ، وتقوية السيرة وعفة الأخلاق ، ثم في ذلك الظفر في الدنيا بالعلمانية تستريح لها المشاعر ، وبالسكينة يطيب بها القلب . . والظفر في الآخرة بأكرم جزاء وأعدل وفاة . يقول النبي الكريم صلى الله عليه وسلم : استنوا لي ستاً من أنفسكم أضمن لكم الجنة : اصدقوا إذا حدثتم ، وأوفوا إذا وعدتم ، ثم أدوا الأمانة إذا اتتمتم ، واحفظوا فروجكم ، وغضوا أبصاركم ، وكفوا أيديكم . .

وبعد ، ففي هذه الصحف الواضحة البيضاء من سيرة الرسول الأكرم : في عمله ، وفي قوله ، وفي توجيهه ، تشرق الأسوة الحسنة التي يجدر أن يحتلها الناس متعشقين نورها وجلالها ، مستفتحين برها وحيرها ، مستهدين رشادها وسدادها ، فأربأوا بأنفسكم - أيها الناس - أن تكونوا ظهورا تمتطيها ظنون السوء ، أو سطورا تمتطيها أيادي السوء ، أو مضغاً تلوكها ألسن السوء ، وتورعوا عن الريب والشبهات ؛ فلقد روى الترمذي عن عطية بن عروة السعدي الصحابي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع مالا بأس به حذراً بما به بأس . . ولقد حدثت أم المؤمنين صفية بنت أبي رضي الله عنها قالت : « كان النبي صلى الله عليه وسلم معتكفاً ، فأنيته أزوره ليلاً ، فحدثته ، ثم قمت لأتقلب ، فقام معي ليقلبنى (تعني ليعودني) . فر رجلاً من الأنصار رضي الله عنهما ، فلما رأيا النبي صلى الله عليه وسلم أسرعاً ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : على رسلكما فإنها صفية بنت أبي . فقالا : سبحان الله يا رسول الله ! فقال : إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ، وإنني خشيت أن يقذف في قلوبكما شر . فأنتم ترون كيف أوضح رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمر ليرفع الريبة ، ويدفع ما قد يكون من سوء الظن ، لتبرأ النفوس من الإثم ، وتطهر الألسن من الاتهام ، فتكون سلامة ، ويكون سلام ؟

خصائص الالتزام

لمحاضرة الأستاذ صالح بكير
المدرس بكاية أصول الدين

ذكرنا فيما سبق أن من خصائص الالتزام إكراه الدائن مدينه على الوفاء بما التزم به هذا الأخير . ونذكر الآن أن من خصائصه أيضا أنه يُنشئ رابطة مؤقتة بين الدائن ومدينه ، وأن مصير هذه الرابطة هو الزوال سواء كان ذلك بطريق الوفاء بالالتزام أو بأي طريق آخر ، وهذا بخلاف الحقوق العينية فإنها مؤبدة .

ومن خصائص الالتزام أيضا إمكان نقله وتحويله من ذمة إلى أخرى ، ويكون هذا بالصرف فيه . وعلة ذلك أن الالتزام رابطة شخصية مالية ، فيجوز حيثئذ انتقال حقوق الدائن والتزامات المدين إلى ورثتهما بعد وفاتهما ؛ كما يجوز للدائن أن يحوّل حقوقه إلى شخص آخر ، بخلاف المدين فلا يحوز له تحويل التزاماته إلاّ برضاء الدائن وموافقته .

أنواع الالتزامات

الالتزام إما أن يكون بإعطاء شيء ، وإما أن يكون بفعل شيء ، وإما أن يكون بالامتناع عن فعل شيء . فالالتزام بإعطاء شيء هو عبارة عن نقل ملكية الشيء أو تقرير حق عيني عليه ، وليس التسليم إلاّ أثراً من آثار انتقال الملكية .

ويلاحظ في نقل الملكية للأشياء المميّنة أنها تنتقل فورياً بمجرد نشوء الالتزام ، وبالنسبة للعقارات ، فكانت الملكية قبل قانون التسجيل سنة ١٩٢٣ تنتقل بمجرد العقد ، ولكن هذا القانون قضى بأن نقل الملكية لا يتم إلا بتسجيل العقد . والسبب في تقرير هذا المبدأ هو منع التزويرات التي فشت في البلاد بشكل

مروع مما أدى إلى ضياع الأموال والحقوق . وسنعود إلى هذه النقطة مرة أخرى .

وقبل الملكية للأشياء غير المعينة لا يتم ولا يتقبل إلا بعد تعيينها بفرز أو عد أو كيل أو قياس ، وما أشبه ذلك .

وأما الالتزام بفعل شيء فهو قيام المدين بعمل شيء في صالح الدائن . وقد يكون هذا العمل ماديا كأن يتعهد المدين لدائته ببناء حائط أو دار . وقد يكون عملا قانونيا كتعهد المؤجر تسليم العين المؤجرة للمستأجر .

وأما الالتزام بالامتناع عن فعل شيء فهو كاللزام المدين بأن لا يقوم بعمل كان له الحق في عمله لولا وجود هذا الالتزام كتقرير المدين بعدم بناء حائط أو دور ثالث فوق منزله .

ونحن إذا رجعا إلى الفقه الإسلامي ، وتبعنا أحكامه ، وجدنا نفس هذه المعاني : فعقد البيع يرد على الأعيان منقولة كانت أو غير منقولة كالعقارات ، ويكون التملك لهذه الأعيان فورا إذا لم يشترط الخيار ، وفي عقد الوديعة يكون موضوع العقد (وهو الالتزام) حفظ الوديعة ، وهو عمل ؛ وفي عقد القرض يكون الموضوع هو استهلاك المال المقرض ورد بدله ؛ وفي عقد الإيجارة يكون موضوعه منافع الأعيان والالتزام بالمحافظة على العين المؤجرة ؛ وفي عقد استئجار الأشخاص يكون موضوع العقد هو عمل الأجير أو الخادم ، وهكذا .

ومن تتبع تلك الأحكام يتضح له أن الحقوق التي تنشأ للشخص من العقود تنتقل لورثته بعد وفاته إذا كانت هذه الحقوق مالية محضة غير متعلقة بشخصه ، كما أن التزاماته تنتقل إلى تركته ، تخاطب بها ورثته بعد وفاته ، وإدلا تركه إلا بعد سداد الديون ، وواضح أن الفقه قد عقد كتابا خاصا للحالة أي لحالة الديون . ومعنى هذا أن الالتزامات يجوز انتقالها وتحويلها من ذمة لأخرى ، وتفصيل هذه الأحكام سيأتي في موضعه عند الكلام على العقود .

تقسيم الالتزامات من حيث آثارها

تقسم الالتزامات من حيث آثارها إلى بسيطة ومركبة وطبيعية :

الالتزامات البسيطة :

تختلف آثارها بالنسبة لكل من الدائن والمدين ، فأما بالنسبة للمدين ، فالأصل أنه يجب عليه الوفاء بما التزم به طبقا لميعاده المتفق عليه ، فإذا لم يف المدين بالتزامه كاملا في ميعاده اعتبر مقصرا ومسئولا عن كل ما يحدث من ضرر ، فتأخره عن الوفاء في الموعد المتفق عليه أو كان وفاؤه غير كامل للالتزام بأن قام بتنفيذ جزء منه فإن هذا لا يعفيه من المسؤولية ، ويطلب بالتعويض (الضمان) وليس على الدائن أن يثبت في هذه الأحوال خطأ المدين إذ عدم الوفاء طبقا للاتفاق كاف في مسؤولية المدين . وعلى هذا لا تبرا ذمة المدين إلا موفاؤه للالتزام كاملا وفقا للشروط المتفق عليها ، أو أن يثبت أن عدم وفائه لما التزم به إنما نشأ من فعل الدائن نفسه ، أو نشأ عن حادث جبري أو قوة قاهرة أو آفة سماوية ليس للمدين دخل في هذه الأشياء .

وأما آثار الالتزام بالنسبة للدائن فليست في الواقع إلا حقوقا يتمتع بها قبل المدين . وسنفصل هذا كله .

آثار الالتزام بالنسبة للدائن :

للدائن عند امتناع المدين عن الوفاء بما التزم به تنفيذ الالتزام جبرا على المدين في الأحوال التي يكون فيها ذلك ممكنا . فإذا كان موضوع الالتزام نقل ملكية عقار مثلا ، وكان العقار موجودا في حيازة المدين ولم يكن قد تقررت عليه حقوق للغير ، فإن امتنع المدين عن نقل ملكية هذا العقار فللدائن حينئذ أن يتحصل على حكم قضائي بتثبيت ملكيته لهذا العقار ثم يستولى عليه بواسطة السلطة العامة تنفيذا للحكم القضائي ، فمثلا إذا باع شخص لآخر عقارا بمقد عرفي (عقد ابتدائي) ولم يسجل هذا البيع فانه طبقا لقانون التسجيل لسنة ١٩٢٣ لم تنتقل بعد ملكية العقار إلى المشتري ، فإذا سجل المشتري عقد البيع انتقلت ملكية العقار إليه ، وإذا لم يسجل فإن البائع يستطيع بيع هذا العقار مرة أخرى ولشخص آخر ، فإذا سجل هذا الأخير عقد بيعه انتقلت ملكية العقار إليه ، وليس للمشتري الأول إلا أن يطالب البائع برد الثمن ،

والتعويض إن حصل له ضرر من فعل البائع ، ولكن إذا امتنع البائع عن القيام بما يلزم لإجراءات التسجيل مع المشتري الأول ، ولم يبيع العقار شخص آخر فللمشتري الأول [الذى نشأ له بمقتضى عقد البيع حق التزام (نقل الملكية) قبل البائع] أن يلجأ إلى القضاء بدعوى يرفعها ضد البائع (وتسمى دعوى صحة العقد ونفاذه) يطلب فيها الحكم ضد البائع بصحة العقد وتثبيت ملكيته للعقار المباع له ونفاذ العقد ، ويقوم هذا الحكم مقام عقد البيع الهائى فيسجل مع عريضة الدعوى طبقا للشروط التى قررها القانون . وبذلك تنتقل إلى المشتري ملكية العقار ، ثم بعد ذلك يستطيع تسلم العقار بالاستيلاء عليه حتى ولو كان بواسطة العامة جبرا على البائع تنفيذاً للحكم .

ويلاحظ أن التسجيل قبل قانون سنة ١٩٢٣ ما كان له أثر إلا نقل ملكية العقار بالنسبة للغير ، إذ أن الملكية قد انتقلت فورا إلى المشتري بمجرد العقد فلم يكن التسجيل إلا نوع إشهار لعقد البيع حتى يعلم به الغير . وسيأتى شرح هذه المسألة في نظرية العقد .

والقانون الفرنسى يقرر نفس القاعدة التى كانت سارية فى مصر قبل قانون التسجيل لسنة ١٩٢٣ أى أن العقد ناقل للملكية بالنسبة للطرفين ، وأما التسجيل فهو إشهار له حتى يعلم به الغير ، وهذا يتفق أيضا مع أحكام العقد الإسلامى التى تقرر أن الملكية الأشياء المعينة تنتقل فورا بمجرد العقد ، وعدول المشرع المصرى عما ذهب إليه كل من القانون الفرنسى ومذهب الاحاف هو لمنع المضار والمفاسد التى كثرت وانتشرت مما ترتب عليها ضياع حقوق الناس وأموالهم ، فقرر مبدأ الجديد لإجبار المشتري على تسجيل عقوده حتى لا تضيع حقوقهم .

ويلاحظ : أيضا أن التنفيذ المباشر لا يتم ويتحقق إلا إذا كان ممكنا . فلو هلكت العين فى يد البائع أو استحوطت أو تقرر عليها حق عيني لاجني يتعارض مع حق الدائن فإن التنفيذ المباشر فى هذه الأحوال لا يكون ممكنا ويتحول حق الدائن قبل المدين فى طلب رد ما دفعه من ثمن مثلا مع التعويض إن كان هناك ضرر وقع للبائع من المدين .

لا ينبغي أن تضيع الحياة

ابتغاء لوسائل الحياة

لفضيلة الأستاذ الشيخ منصور رجب
مدرس الأخلاق بكلية أصول الدين

للإنسان ناحيتان . ناحية معنوية وأخرى جسمانية . فالناحية المعنوية هي صورة الإنسان الباطنة ، أو هي نفسه أو روحه بما لها من معان وأوصاف وخصائص . والناحية الجسمانية هي صورة الإنسان الظاهرة ، أو هي ذلك الجسم الطويل المريض الذي تعتريه الأمراض المختلفة فيموت ويستحيل إلى تراب تدوسه الأقدام .

هذا الجسم حياته قصيرة ، أما تلك الروح غالبة لا تموت . وعالم الطبيعة الذي يعيش فيه الجسم له خيرات ولكنها خيرات خارجية ليست من ذات الإنسان في شيء . وعالم الروح له خيرات داخلية ذاتية من ذات الإنسان ، فالمال والجاه والسلطان خيرات خارجية ، والحق والحرية والعدل والكرامة والفضيلة على العموم خيرات داخلية . ولو عودل بين هذه الخيرات الداخلية التي هي فوق كل ثمن ، وبين تلك الخيرات الخارجية ، أقلت قيمة هذه بالنسبة لتلك . ومع ذلك فإما نرى في واقع الأمر على مسرح هذه الحياة كثيراً من الناس ، بل العالية العظمى منهم ، يضعون بهذه الخيرات الداخلية من غير تردد ، بل ومن غير ألم في سبيل خيرات لا قيمة لها . على أن هذه الخيرات الخارجية بل والحياة نفسها ، تلك الحياة التي لا بقاء لها ينبغي أن يضحى بها قرباناً للاحتفاظ بما هو أسمى منها وهو الخيرات الداخلية ؛ فالعالم الحقيقي هو العالم الذي تعيش فيه الروح ، وهو العالم الذي ينبغي أن نضحى بكل شيء في سبيله ؛ ففيه السكينة والثور ، وفيه الطهر والسلام ، وفيه البهجة والانشراح . ومن الخروج عن حدود المعقول الاستهانة بالخيرات الخارجية من حيث هي خيرات ، فإن منفعتها لا تنحى على أحد ، ولكنها ليست

إلا أدوات لعرض أسمى . ومهما يكن من قيمتها في ذاتها فإنها تصبح عديمة القيمة متى وزنت بالخيرات الداخلية . وبمقدار ما يوغل الإنسان في هذه الخيرات الداخلية يكتسب من القوة ، وتصير الأرض التي يرتكز عليها أكثر ثباتاً وخصباً . ومن هذا العالم الداخلي يستمد الإنسان ذلك الإحساس الشريف العجيب الذي يسمى احترام الذات ، ذلك الإحساس الذي هو كفييل المرء بأن يؤدي له أمثاله الاحترام الواجب عليهم ، والذي يؤديه هو لهم في دوره .

وهذا الإحساس الشريف العجيب الذي يسمى احترام الذات ، لا يستمده الإنسان ، ولا يمكن أن يحصل عليه إلا إذا عرف أولاً نفسه . فعرفة النفس أول ما تنصح به الحكمة . وذلك هو المبدأ الأول لهذه الخيرات الداخلية ، بل هو المبدأ الأول لكل علم وفضيلة ، وقد لفتنا الله تعالى إليه في كتابه الكريم حيث قال :
 « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » .

وقد استجاب لله ولرسوله أناس جثوا في طريق هذه المعرفة ولم يحيدوا عنها فأكرموا أنفسهم بمعرفتها . عرفوا قيمة أنفسهم فوقوا عداها ، ووصلتهم هذه المعرفة إلى الإيمان بالله فسكنت نفوسهم وأطمأنت قلوبهم ، وعاشوا في هذه الدنيا عيشة كلها قوة وكلها أنس وإنسانية ، حتى أصبحوا ولم يخفهم في العالم شيء .
 بأسره ، وأصبحوا وقيمة الكرامة عندهم أغلى من قيمة الحياة .

والنفس العبية بنفسها وبخيراتنا الداخلية سماها الله سبحانه وتعالى النفس المطمئنة ، وناداهم إلى حضرة تشريفا وتكريما فقال : « يا أيها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية ، فادخلي في عبادي وادخلي جنتي » ، وهذه الحياة التي دعا الله النفس المطمئنة إلى مائدتها وصفها حكيم بقوله :

« إن فوق عالم الطبيعة عالما روحانيا نورانيا لا يدرك العقل حسنه وبهائه ، وإن الأنفس الزكية تشاق إليه ، وإن كل إنسان أحسن تقويم نفسه بالتبرى من العجب والتجبر والرياء والحسد وغيرها من الشهوات فقد صار أهلا أن يلحق بالعالم الروحاني ، ويطلع على ما يشاء من جواهره من الحكمة الإلهية ، وإن

الأشياء الملددة للنفس تأتيه حينئذ أرسالا كالألحان الموسيقية الآتية إلى حاسة السمع ، فلا يحتاج الإنسان أن يتكلف لها طلبا . .

ولنترك الآن مسألة . هل الموت بداية لهذه الحياة أولا ؟ فإلا شك فيه والامر الواقع المسلم به ، أن الانسان أمام ضميره يشعر به متعنا لطيفا إذا أطاعه ، ومنتعنا جبارا إذا عصاه . والامر الواقع المسلم به أن صوت الضمير يجعل حياة الانسان جنة إذا هو أطاعه فأخلص للحق ولم يعرف غير الحق ، ويجعل حياته جحيمًا إذا هو حاد عن الحق وانحرف عنه . فالحياة التي لا ينبغي أن نضيعها ابتغاء لوسائل الحياة ، هي حياة الحق ، والحياة في سبيل الحق .

والحق الاول أو الحق المطلق هو الله ، فذلكم الله ربكم الحق . . ومعنى أنه هو الحق المطلق ، أنه حق من جميع نواحيه . فقوله حق . ويوم يقول كن فيكون قوله الحق . . وفعله حق . ما خلق الله ذلك إلا بالحق . وأكلنا أقربنا رتبة إلى الحق الاول ، وهو الله ، والجهة التي يلزم تقدير العس منها إنما هي جهة تذوقها للحق . فهل نحن الآن في هذه الحياة أو أضمتها ابتغاء لوسائل الحياة ؟ أترك الجواب للحضرات القراء . ولقد حرما الأمن والاماني والسكينة والاطمئنان في هذه الحياة لسببين اثنين ، هما اثناهما مصدر ما نراه من بلبلة في الأفكار ، وهما اثناهما مصدر ما نراه من ضعف في جميعتنا الإنسانية .

الاول : نؤمننا عن إصلاح أنفسنا ، وإني أشبه مجتمعا الآن بقوم يستمعون لخطيب أو لمن من المغنين وهم في لعل وضوضاء وجلبة تمنعهم من السماع وتمنع الخطيب أو المغنى من مواصلة خطبته أو غنائه ؛ وهذا اللفظ وهذه الضوضاء والجلبة ناشئة من أن كل واحد من الموجودين يسكت غيره ، فترى هذا يأمر غيره بالإصبات ، وهذا يسخط لهذه العوضى ، وذلك يلعب الجمعية التي بهذا الشكل ، مع العلم بأنه لو أسكت كل واحد نفسه واتباع في ذلك قول القرآن الكريم : ولا تكلفوا أنفسكم . وقوله صلوات الله عليه : « إذا قلت لصاحبك والإمام يحطب يوم الجمعة أنصت فقد لموت ، لو عملوا بذلك لساد السكون وخيم الهدوء فانتفعوا ومكسوا غيرهم من عمله فخرجوا بفائدة .

الثاني : أن كل واحد في مجتمعنا أو أغلبنا لا يحدد على الضبط هدفه في الحياة ويخلص إليه الإخلاص كله ، ويبذل له ما ملك من قوة وما يستطيع من حول ؛ فلو أن العالم تفرع لعله على هذا النحو واجتهد في أن يخرج بفكرة جديدة أو نظرية لم تكن ، غرضه في ذلك خدمة الإنسانية والعمل على توجيهها بالخير أمام هذا التطور الذي لا غالب له ، لأفاد واستفاد .

ولو أن العابد الراهد الذي رضى لنفسه أن يكون عابداً زاهداً ليس إلا ، وفي مكنته ذلك ، لو أنه أخلص لروحانيته في صلاته وصيامه وتبته ولم يأت ما يوجه الشبه إليه ، لو أنه فعل ذلك لكان قدوة صالحة للناس ، ومثلاً أعلى في الجمعية .

ولو أن السياسي أخلص لسياسة ومبادئه ، وأفنى في سبيل ذلك حياته ولم يتلون كل يوم بلون يلبق به الشبه لسارت سفينة في بحر السلامة ، ووصل بمن يهودهم إلى بر الأمن والنجاة .

ولو أن رجل المال والأعمال حدد عمله في تجارته أو زراعته أو صاعته بفع الأمانة بمشروعاته ، وابعد عن ظلم عباد الله الصغار ، لأثرى وسام في تخفيف ويلات الإنسانية المعضية بما يزيد في ثروته جزاء من الله وحياً من الناس له وإقبالاً عليه .

ولو أن الطالب أخلص لدرسه وعلمه وأمته ، بحبه نفسه في سبيل الدرس والعلم وترك ما لا يصبه في مرحلته الأولى لمن يعيه الأمر ، لخرج بعد زمن وكل صفات الرجولة مكتملة فيه ، فأفاد نفسه ووطنه وأمته .

لو أننا أصلحنا أنفسنا وعرفنا ما حق المعرفة لآما بالله ، وبأنه القائم على أعمال الناس وأرزاقهم وآجالهم ، وبأن هذا العالم محكوم منه بقانون شامل عادل ليس فيه استثناء ، ووصلنا ذلك إلى حياة بعيدة عن الألم والقلق والاضطراب .

لو أننا أصلحنا أنفسنا وحددنا أهدافنا في الحياة ، وأخلصنا لهذه الأهداف لرزقنا الله من بعد ضعف قوة ، ولوهبنا من بعد خوف أما وسلاماً ؟

طهارة العرض

لفضيلة الأستاذ الشيخ إبراهيم على أبو الخصب
المدرس بكلية الشريعة

طهارة العرض والشرف من المكملات التي يكمل إحداها الأخرى ، ويُضفي عليه من الجلال والإشراق ما يحس الإنسان معه بضرورة وجوده ، حتى لكانه معدوم أو في حكم المعدوم إذا ما نقصه ، أو لم تنح له المقادير أن يضاف إليه ... وإذا كانت الأشخاص في عالم البشر يفتقر البعض منها إلى بعضها الآخر ليتبادل وإياه المنافع ، ويتعاون معه على الإسعاد والخير ، وكذلك الحيوانات في الصحراء ، والطيور في السماء ... فليس شرف المرء بالعظم الرميم ، ولا بالوفر العميم ، ولا بالجاه والسلطان ، والتطاول في البنيان ، ما لم يحز إلى جانب ذلك طهارة العرض ، ونقاء الصحيفة ، وحسن السمعة . وتلك سنة درج الناس عليها منذ آدم إلى يوم يعثون ، خصوصاً إذا كان الرجل من هؤلاء الذين ينهشون للعظيمة ، ويمدون أنفسهم للمجد ؛ ولذلك لم يضم التاريخ بين جبابته أسماء لابطال من الابطال ، أو فاتح من العاتحين إلا وقد كان من أصحاب الماضي المجيد ، والسلوك الحيد ، والرأي السديد .

والعرب مع جاهليتها الجبلية لم تضع زمامها في يد ملوثة أو تكل أمرها لزيم ، أو تسلم مفادتها لزيم كيفاً انفق ، إنما تقرأ في كتابه أولاً وقبل كل شيء ، فإذا رأت أن حاله فيهم ، وحديثه معهم ، يحملانه من أصحاب الاعراض الناصعة ، والمكانة المرموقة ، فهو الأمر المطاع ، والداعي المحجب ، وإلا أبوا أن ينزلوا على رأيه ، أو ينقادوا لسلطانته ، مهما كان هيله وهيلانه ...

وقد كان هذا رأس مال محمد بن عبد الله عدهم منذ نعومة أظفاره إلى أن صار جلداً قوياً . ومن أثر هذه الثروة الفياضة إدعائهم لحكمه يوم أن اختلفوا على

حمل الحجر الأسود في الكعبة حينما طرح الثوب ووضع فوقه وقال : لتأخذ كل
كل جماعة بطرف ... ولاعتقاده صلى الله عليه وسلم تقدروهم للأشخاص على هذا
الضوء ، لم ينس إذ بعثه الله إليهم خاصة وإلى الناس عامة أن يذكروهم أنه لم يتدنس
بذنس الجاهلية قط ، وأنه كان ينقل في أصلاب الطاهرين من الرجال ،
والطاهرات من النساء ، إلى أن وصل إلى أبيه وأمه ... مع ما عرفوه عنه من
الامانة والصدق ، والعفة والزاهة ، ومجاوبته للظلم ، وكرهيته للاستبداد .

وإذا صرفنا النظر عن مساوئة كبار المشركين الذين خافوا أن يفلت الزمام من
أيديهم فإذا هم وقد تحطت بهم العيون ، ونبت عنهم الأنظار ، وجدنا أن الدخول في دينه
كان أشبه بانسياب الماء في النهر ، وانسباط النور في الظلماء ، يدفعه الشوق اللهب ،
والإحساس الظالم .

والحديث الشريف : « دح ما يريك إلى ما لا يريك » ، يعتبر دستوراً عظيماً
فيما يجب أن يتحلى به المسلم من الصفات العالية ، والشيم الكريمة ، ومن اتقى
الشبهات قصد استبرأ لعرضه ودينه .

وكذلك كان سلوك السلف الصالح فيما يصدر عنهم من الأعمال ، ويتناقله
المتناقلون من جيل الخلال ، فلم يقد أحد منهم مقعد الروية ، أو يجعل نفسه في مواطن
اللوم : وإن كان الله سبحانه وتعالى يعلم ما تكن السرائر وما تخفى الصدور .
والذي يصلح ما بينه وبين ربه لا يعنيه ما بينه وبين العباد ، مهما ظنوا به الظنون
وكالوا له النهم ، إلا أن الورع يقضى على صاحبه أن يحيط سده بالصون ، وسمته
بالزاهة ، وشرفه بما هو الأولى .

وكتب الفقه في باب « الشاهد والقاضى » لا تكتفى بالعدالة وسلامة
الحواس ، بل تضيف إليهما فيما تضيفه ألا يكون مفصوح الحال ، مهتوك السر ،
مكتشف الصيغة . والشاهد والقاضى إذا لم يكن كلاهما مستورا ترددهما ،
ولا ترضى أحدا من الخصمين حكومته . ولا يقصد الفقهاء من وراء ذلك إلا
أن يكون المؤمن طاهر الذيل ، نقي العرض ، لم يتدنس رداؤه بشبهة ، أو يتلطخ
جانبه برية ، والفوم لا يقولون في هذا على الصدق والكذب ، والحق والباطل ،

ولم يعد فيهم من يعظ بقول الله جل جلاله . . . ولولا إدا سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا . . . وتسدروهم لا يخلو من الاتهاب ، وأسأروهم قلما تكون بريئة . والمربي الحازم ، والمدرس الذي يهيم على تلاميذه ، وما شاكل هذا وهذا من كل من يصبر إلى أن يكون في موضع المشرف إذا لم يغرس في القلوب مهابته كان جهده مضاعفاً ، ومحاويلته فاشلة ، وجهاده في غير عدو .

والشخصية في الرجل - وهي كل شيء - لا تكون إلا تلك المعاني التي يهيئ بها نفسه ، ويحيط صورته ، ويحملها كالهالة حوله من الفضيلة والبل ، والزاهة والشرف ، والعزة والإباء .

وإذا كان الزمن حين انعكس بالعالم ، واختلت فيه المقاييس ، جعل الاعتقاد أن العسولة والخنا عماد الرق ، وعدة السبق ، فتلك من الابتلاء الذي هو البوثة التي يصهر فيها الإيمان ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين . . . وإذا استنقوا الجبل ، واستنسر البغاث ، وولدت الأمة ربها ، ووسد الأمر إلى غير أهله ، فإن للذين موازين ، وللدنيا أخرى . ولن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور . . . ٩

غيظ الرشيد

قال يعقوب بن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس : دخلت يوماً على الرشيد وهو متعيط ، فسلمت فلم يرد السلام ، فقلت في نفسي : ذاهية نأد . ثم أوماً إلى جلست ، فالتفت إلى وقال : قد عبد الله بن جعفر حيث يقول :

يا أيها الزاجري عن شيعتي سفها	عمداً عصيت مقام الزاجر الناهي
أقصر فأنك من قوم أرومتهم	في اللؤم فانظر بهم ما شئت أو باه
يزين الشعر أفواها إذا فطقت	بالشعر يوماً وقد يزي بأفواه
قد يرزق المرء لا من فضل حيكه	ويصرف الرزق من ذي الحيلة الداهي
لقد عجبتم بقوم لا أصول لهم	أثروا وليسوا وإن أثروا بأشباه
ما نالني من غنى يوماً ولا عدم	إلا وقولي عليه : الحمد لله

فقلت : يا أمير المؤمنين ومن ذا الذي تحدته نفسه أن يسأى مثلك ؟ قال : لعله من بني أميك وأملك .

في السيرة النبوية

كيف تكتب السيرة؟

لمحاضرة الأستاذ د. السيد ،

الأنبياء والرسل — صلوات الله عليهم كافة — عصمة الخلق ، يدُ السماء على الأرض ، ثمرة الخليقة العظيمة ، وهم على هاتيك صورة العصمة ، وصفُ الجلال والعظمة ، تحيّرهم الله في خلقه تُقاية ، وصاغهم حلية الله .
تلك صفة الأنبياء والرسل ، تعرفتها أعينهم وشعورهم ، قتلت حقدّهم في الصور ورسمتهم في الصور ! كان ذلك بعد جدل وجحود ، فجالدة وجنود ! ثم آمنت بهم - عن بينة - إيماناً راسخاً ، وقام دُولا .

أجل . إن الإيمان بالرسل لم يأت عفواً ، ولا تنجّم عن غيرة وطماعية ، بل نشأ عن جدل يصدّع برهانا ، وحجج تفهق نوراً : إن جلالة الأنبياء مضاء مُرّقة لا تُرعى بطرف الكبرياء ، وشمس وضاءة يبصرها المتكر ويكرها المصغرا .

كالذي طأطأ الشهاب ليطفي وهو أدنى له من التصريم

خطرة جائزة ، وتقدمة بين يديّ لمحة من التقدّم الحق ، أمس بها كلفة خشناء جافية ، لست أدري كيف طفت بها براعة مؤلف السيرة النبوية المحمدية ، صاحب كتاب : « شرح الزرقاني على المواهب اللدنية »^(١) ، رمت هذه الكلمة رتبة النبوة المرفعة بالمعص ، وغزت الشرف المحض !

جاء في كتاب « شرح الزرقاني على المواهب اللدنية » من حديث أزواجه صلوات الله عليه ما يأتي ، عفا الله عن صاحب المواهب ، قال :

(١) نزل هذا عن ص ٢٧ من كتاب « شرح الزرقاني على المواهب اللدنية » المطبوع في المطبعة الأزهرية لسنة ١٣٢٦ الهجرية .

والسادسة:

« ضباعة ، بضم الضاد المعجمة ، وتخفيف الموحدة ، وبالعين المهملة : بنت عامر ، ابن قُوط ، بضم القاف ، وسكون الراء ، وبالطاء المهملة ، ابن سلة ، ابن كعب ، ابن ربيعة ، ابن عامر ، ابن حُصَصَة .

أسلت قديماً بمكة ، وكانت من أجمل نساء العرب ، وأعظمين خلقاً ، وإذا جلست أخذت من الأرض شيئاً كثيراً ، وتعطى جسدها مع عظمه يشمرها ، وأسند ابن الكلبي في الأنساب عن ابن عباس أنها كانت تحت هودبة بن علي الخثعمي ، فبات عنها ، فتزوجها عبد الله بن جُعدان ، فلم يلق بخاطرهما ، فسأله طلاقها ، ففعل ، بعد أن حلفها أنها إذا تزوجت هشام بن المغيرة المخزومي ، تحرماته ناقة سود الحديق !!! ، وتغزل خيطاً يمد بين أنحفبي مكة !!! ، وتطوف بالبيت عمر بانه !!! ، فتزوجها هشام ، ونحَرَ تحنها المائة ناقة !!! ، وأمر نساء بني المغيرة بفزل خيط ، ومده بين الأخشييين !!! ، وأمر قريشاً فأخلوا لها البيت !!! ، قال المطلب ابن أبي وداعة ، وكان لدة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : فتخرجت ، أنا وعبد ، ونحن مُغَلَّامان ، واستصغروا ، فلم نُشَمَّع ، فنظرنا إليها ، فخلعت ثوباً ، وثوباً !!! ، وهي تقول :

اليوم يئدو بَمَصُّهُ أو كَلَّتْ فَا بَدَا مِنْهُ فَلَا أَحِلَّةُ

حتى نزع ثيابها !!! ، ثم فثرت شعرها على ظهرها وبطنها ، فإ ظهر من جسدها شيء !!! ، وطافت بالبيت وهي تقول الشعر !!! .

وولدت له سلة ، وكان من خيار المسلمين ، فلبس مات هشام ، وأسلت هي وما جرت ، خطبها صلى الله عليه وسلم ، إلى ابنتها سلة بن هشام ، ابن المغيرة المخزومي ، من السابقين استشهد بمرج الصفراء سنة أربع عشرة هـ عذاب بن سعد ، أو بأجنادين ، عند غديره ، ومُصَوَّب د فقال : حتى أستأمرها . في حديث ابن عباس المذكور ، فقال سلة : يا رسول الله ، ما عندك مدفع ، أفأستأمرها ؟؟ ، قال : نعم ، فأقامها ، فقالت : الله ، كذا !!! ، أفى رسول الله تَسْتَأْمُرُنِي ؟؟ ، إني أبغى أن أحسر مع أزواجه ، أرجع إليه ، قل له : نعم ، قبل أن يئدوا له ، فقيل للنبي صلى الله

عليه وسلم : إنها قد كبرت ، في حديث ابن عباس ، وقد قيل له — وقد ولي سلة — إن ضباعة ليست كما عهدت ؛ قد كثرت عُضُونُ وجهها ، وسقطت أسنانها من فيها ، فلبا عاد ابها وقد أذنت له ، وأخبره بما قالت ، مكثت عنها صلى الله عليه وسلم ، فلم ينكحها ، رضى الله عنها .

على أنه قد جاء في حديث آخر عن إدة رسول الله ، هذا المحدث عنه ، حين هم الرسول بنكاح ضباعة هذه فذكرها ، أنه قال له : يا رسول الله ، إن ضباعة ليست كمهدكها ، لقد كبرتُ ياتها ، وسقطت أسنانها ، يعنى بمهد يها ، حيث كانا - فيما زعم فقجور - يتسللان ، وهما غلامان ، ويختبان في المطاف ، فينظران إليها حيث تدور عارية بالكعبة ١١١

هذه كلمة السيرة البوية الخشنة الجافية ، لا التعة ولا الكريمة ، فانظر :

كيف تكتب السيرة ١١١

أمنت بالله ، وإلى الله المشتكى ، كأن عصمة الأبياء قبل النبوة وبعد النبوة ، ليست مقنعة صاحب السيرة ، غفر الله له ، بأن النبي صلوات الله عليه ، يجب أن يبرأ فيمتصم من مَعْدرة التطلع أو التسلل ليشهد المعاتل العاريات يُطْفَن حول الكعبة ١١١ ، وقد كان هذا دأب نساء العرب كافة ، لا ضباعة خاصة ؛ أو كأن العصمة ليست بحاجزته أن يلهج - وحاشاه - بالثدي الواعد ، والصدور الفواكك ، وأن تغريه البطالة والشباب ، بالثأيا العذاب ١١١

إن للعرب في جاهليتها ، كما لها في إسلامها ، حياة وتكرما ، وإن لها نزاهة ، وعصمة نفسية خلقية ، قبل أن يكون لها دين وثريعة ، أليس في بعض هذا ما يمصم سيّد العرب كافة ، قبل عصمة دينه ورسالته ، من خش وتبذل ، هما أبعد الخلال من أنبل الأنبياء المطهرين ، قبل الدين ١١١

نكتب بهذا لندكسر ، غير الناسي ، من المسلمين كافة ، بأن نتيهم المطهر كما عرفوه ، وعرفه العالم ، وآمن به ، مزمه في الخيرة الاطهار ، عن عمل الفجار ؟

في ذكرى المولد النبوي الكريم :

محمد رسول الله

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد السلام أبو النجا سرحان
المدرس بكلية اللغة العربية

يا بكر آمنة المبارك بكرها ولدت محنة بسعد الأسعد
نورا أضاء على البرية كلها من يُهدّ للنور المبارك يهتدي
أي سيدي رسول الله :

في مثل هذا الشهر الميمون المبارك سعد العالم بساعة رضا من مولاك أفاض
فيها على الناس من بركاته ، وجبام بالوافر من آلائه ، وجبام بالاجل من نعمائه .
ذاك إذ شرف الوجود بظلمتك ، وعطر الكون بمولدك ، وأضاء ما فيه نور
وجهمك ، وأشرقت عليه أشعة شمسك ، فبحيت بفصلك آية ليل طويل ، وشفت بسرك
أسقام دهر عليل ، ومسحت على الدنيا يد الله فأخرجتها من الظلمات الى النور .
فإذا كان على المسلمين أن يحتفلوا بذكرى مولدك ، ويعيدوها مصدر عزتهم
ومجدهم ، ويعتبروها نعت حياتهم ومشعل نورهم ، فإن على العالم كله أن يطرب
لهذه الذكرى ، ويمجد هذا التاريخ ، ويشارك المسلمين سرهم ومباهجهم في تلك
المناسبة : إذ كانت ولادتك بدء غيث مدرار هطل على الساس جميعا ، وكانت
رسالتك فاتحة عهد جديد حرر الانسانية من رق العبودية ، وأطلق العقول من
عقال الهمجية ، وأهدى البشرية من حياة الذلة والضعفة والهوان .

سيدي رسول الله :

لقد كنت الإنسان الأول ، والديمقراطي الأول ، والمشرع الأول ، كما كنت
المثل الأعلى في خلقك وزعامتك ، وعملك وقيادتك ، وما زال التاريخ يجعل بمداد
الفخر والإعجاب عبقرتك الفذة ، وسيرتك الطاهرة ، وسياستك الحكيمة
في كل الميادين

عرفت للإنسانية حرمتها فكرمتها ، وقدرت للمرأة حقها فأفادتها ، وذكورت الإنسان دائماً بأخيه الإنسان ، ورفعت المسود إلى مقام السيد . وأوصيت بالجار وجار الجار . وارتفعت في معاملتك فوق مستوى الخلاف في اللغة أو الجنس أو الدين .

ولقد أريت الناس لو نأ من الحكم لم يعرفوه ، وأدقتم نوعاً من العدالة لم يألوه ، ففشقوا غير الحرية من رياضك الفصح ، ولبسوا ثياب العزة من منسجك الفصيح ، ورشقوا رحيق الحياة من نبعك الصافي الثرار ، فما وسعهم إلا أن يدخلوا في دين الله أفواجا ، ويتقاذفوا إلى شاطئك الأيمن أمواجا ، حيث عاشوا في ظلالك إخوانا بتور الحق مهتدين .

سيدي رسول الله :

لقد ملكت أعتة القلوب بكياستك ، وجمعت الأشددة حولك بأمانتك ، وقدرت قومك بالفكر السديد والرأي الرشيد ، فاستلكت من المكامن الاضغان ، وألصقت بين الرجال والركبان ، وآخيت بين الأسود والأحمر . فأصبحوا أمة لا تعرف ألقاما وأنسابا ، بعد أن كانوا شيعا متفرقين وأحرابا .

ذاك أن خلقك من نيق على الناس بعيد ، ومن جوهر في نوعه جد فريد . رحمة كله وحزم وهزم ووقار وعصمة وحياء صكرمت فيه فما يخطر السوء على قلبه ولا الفحشاء وليس عجبا بعد هذا أن يتوجك ربك بقوله الكريم . وإنك لملئ خلق عظيم . وهو تاج تفهوا الأشدة نحوه ، وتطلع الفوس إليه .

وافد كنت — مع أميتك — العالم الذي شرف بعلمه العلماء ، وارتفعت به المعرفة إلى غنان السماء ، ولهذا أبيت إلا جهادا في سبيله ، وتكريما لأفراد قبيله ، حتى جعلت من الحقيقة المجاز ، وانقل الأمر إلى دوائر الإيجاز :

كعماك بالعلم في الأسمى معجزة في الجاهلية والتأديب في اليتيم

سيدي رسول الله :

لقد أدبت الرسالة وبلغت الأمانة ، وتركت بعدك دولة شاحنة البيان عزيزة

الجانب ، وخلفت أصحابا رفعوا من بعدك اللواء ، واستقوا طريقتك دون تخاذل
أو استغناء ، شئت الله ملكهم ومكن لهم في الأرض ، وأورثهم أعداءهم وديارهم
وأ أنفسهم وأموالهم ، وأضحوا ذوى دولة لا تغيب عن الشمس عزتها ، ولا تمزب
على النهار رقعتها ، وكانت لخلفائهم وقوادهم الكلمة المسوعة والإشارة المطاعة
والمهابة البعيدة المدى .

ولكن حلف من بعدهم خاف أعمى بصائرهم الهرج ، وران على قلوبهم
الجهل ، وعشى عيونهم لآلاء المادية الزائفة ، وبرجها الخداع ، لحادوا عن سفك
القويم ، وتركوا صراطك المستقيم ، واستبدلوا بشريعتك السمحة وتعاليمك السامية
قوانين من وضع الغرب عرجاء ، ونظما من تأليف البشر نكراء ، فأزال الله
دولتهم وأذل سريعا عزتهم ، وجعلهم بعد السيادة عيدا ، وبعد القيادة من الرعية ،
وحكم فيهم أعداء دينهم ، فأصبحوا في بلادهم غرباء .

وعلى الرغم من هذا ، لا زال المسلمون سادحين في غوايتهم ، عامين في
ضلاتهم ، متكبين سواء الصراط .

فها نحن أولاء نرى المسلمين جميعا عارقين الى الادقان في الموبقات ،
بجاهرين دون خجل بالمحرمات ، تاركين أوامر الله وبواهبه وراءهم ظهريا ، كأن
ليس لهم بالإسلام شأن ، وكأنهم غير المسلمين .

اللهم إنا نعوذ بك من الرضا بما لا يرضيك وترك ما يرضيك ، اللهم وفق
المسلمين الى العمل بكتابك وسنة نبيك ، وأدقهم حلالة الإيمان ولذة الطاعة ،
وأهدم الى صراطك المستقيم .

سيدى رسول الله :

ادع الله أن يظهر نفوسنا ، ويشرح صدورنا ، ويهدينا الى العمل بشريته ، وادعه
أن يعيد هزة الإسلام ويقوى فينا الإيمان ، ويكفينا شر الأصدقاء والأعداء ،
فإنك يا سيدى بالمؤمنين رموف رحيم . ٩

نظر علماء الازهر الى الشعر

- ٢ -

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ محمد كامل الفقى
المدرس بمعهد القاهرة

كما عرفوا أن الخلفاء ارتاحوا للشعر واهتروا له وحضنوا على الحرص عليه وتأديب النشء به . فهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : « رَوُوا أَوْلَادَكُمْ مَا سَارَ مِنَ الْمَثَلِ وَحَسَّنَ مِنَ الشَّعْرِ » . وكتب إلى أبي موسى الأشعري يقول : « مَرَّ مِنْ قَبْلِكَ بِتَعْلَمَ الشَّعْرَ فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى مَعَالَى الْأَخْلَاقِ وَصَوَابِ الرَّأْيِ وَمَعْرِفَةِ الْأَنْسَابِ » .

ويروى أن السيدة عائشة رضى الله عنها كانت تحفظ شعر ليلى وتقول : « رَوُوا أَوْلَادَكُمْ الشَّعْرَ تَعَذِّبُ أَلْسِنَهُمْ » . بل كانوا يجدون تعلمه ضرورياً لفهم القرآن . وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما : « إِذَا قَرَأْتُمْ شَيْئًا فِي كِتَابِ اللَّهِ فَلَمْ تَعْرِفُوهُ فَاطْلُبُوهُ فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ » .

هؤلاء العلماء عرفوا ذلك كله فيما توافد إليهم من التاريخ والأدب ، فهم يعرفون أن موقف النبي صلى الله عليه وسلم من الشعر ، وموقف الخلفاء منه ، لم يكن بفضا كله ، ولا حبا كله ؛ لم يرتاحوا للشعر في كل حال ، ولم يسكروه وينفضوا عنه في كل حال . بل اهتروا لما دعا منه لصرة الدين ومكارم الأخلاق ، وحض على المروءة والوفاء ، والتجدة والاحذ بأسباب الفضائل ؛ وارتاحوا لما كان غزلا عقيفا ، وهوى بريئا ، لا يفضح النساء ولا يكشف العورات ، ولا يتصل بالأعراض ، بل يرى إلى نبل العاية وبراءة الهوى وعفة القصد ، ولا يراد منه امرأة خاصة يكون الحديث عنها قذفا وإغشاشا .

اهتروا لهذا كله ، ولكنهم لم يستمعوا للشعر المفحش ، ولم يطربوا لما تدلّ على ضعة الأخلاق ودناءة الأغراض . فعلماء الازهر الذين هم ورثة الانبياء ، والقائمون على دين الله ، سلكوا طريق الشعر على هذا النهج ، وأباحوا منه لأنفسهم

ما أباحه الإسلام، وحرّموا منه على أنفسهم، أحرّمه الدين : فنظرهم إلى الشعر فيه تقية وتورع، ومن ثم حلا شعرهم — غالباً — مما ينافي هذه المبادئ، ويجد به عن الجسادة .

ومن كانت رسالته بهذه المثابة، ومكانته على هذا الوضع، ونظراته في هذا الائق، لا يسمح لنفسه أن يشب فيفحش، أو يهجو، أو يمدح، يتضع، أو يمعن في الحديث عن المحرمات، والمجاهرة بالدعوة إلى الخمر، وهو العليم بأن ذلك تأثم واستنثار، فإن استجابت نفس بعض منهم لدواعي الشعر، وترنحت أعطائه بهوى ذلك الفن، وانساق في شعره مساق غيره من غير المتحرزين، فإنما ينبغي ما يقوله ويكبه عن اللسان، وما ذلك فيهم إلا أقل من القليل .

ولمّا لا سأل نفسي : هل كان شعراء الأزهر من فطرة غير فطر اللسان؟ وهل خرجوا عن حظيرة البشر فكان لهم إحساس خاص؟ هل يجمدون حيث ترق العواطف، ويقبضون إذ ينطلق الحميا، ويعيدون للجيل إذا أيتّم له فم الزمان؟ هل مكثوا من الخواص والمشاعر فحرموها حسن التعبير، وعاشوا بها دون شرح وتصوير؟

هل حبسوا الخيال أن يطير في مجاليه، والقلب فلم يخفق بحب من يستهويه؟ أيا أفهم أن فريقاً من شعراء الأزهر أحزنهم بعض الناس فامتلات معوسهم بنضاله، فهجوه، وصوروا بعضهم في شعر لادع وهجو مرير . ومنهم من أحب من يجدر بحبه وإجلاله، فأفاض في شرح مكارمه وتصوير خلاله، وخلع عليه من ألماط الرفعة وحلل السكال ما يشاء الشعراء . ومنهم من ترنحت عواطفه لمعانى الجمال، وخفق مؤاده لإشراق القسيات وور الحميا، وحوست روحه حول الخرد العبد والطباء الكئس، وعبر عن ذلك بصور من شعره وألوان من قته . لم يكونوا جهاداً ولا تماثيل، ولم تكن لهم قلوب من الحجارة، ولا عواطف غير عواطف الناس . هم أحبوا كما يجب كل إنسان . وهووا كما تهوى كل روح . واتفقوا مع بعض الخلائق كما يأنف كل خليل مع خليله . ولكن حبهم حب فضيلة ونبيل، وهوام هوى عمّة وشرف، وغزلهم غزل كال محنتهم، وصباية محدرة، يتخيّلونه في مطلع القصائد حياً، ويعبرون به عن شعورهم حيناً آخر .

ولقد كان العلماء والشعراء في حيرة من أمرهم : فدينهم يدفعهم إلى التوقر ، وعواطفهم تحضهم على العزل والنشيب ، وحياة امثالهم تتطلب تجاهل الحب وعدم الانسياق فيه ، وغض النظر . وكبت النفس وترك ذلك لأهل الخلاعة . ولكن ما جريرتهم ، وليس مرد العشق إلى الرأي فيملك . ولا إلى العقل فيدرك ، إنما هو كما قال الشاعر :

ليس أمر الهوى يدر بالراى ولا بالقياس والتدبير
إنما الأمر في الهوى خطرات عذبات الأمور بعد الأمور
لا تدرك الأبصار مداخلة ، ولا تعى القلوب مسالكه ، وهو كما قال القائل
إن لم يكن طرفاً من الجون فهو عصارة من السحر . فسواء أكان صاحبه فقيها
أم دينياً ورعاً ، أم داعراً فاجراً ، فهو إذا مس قابله صرعه وأدله :

لقد كنت ذا بأس شديد وهمة إذا شئت لمساً للثريا لمستها
أتقى سهام من لحاظ فأرشتت بقلبي ولو أستطيع رداً رددتها^(١)

ومن ثم لم يكن لهم بد — على رغم تدينهم — من تصوير عواطفهم ، وشرح وجدانهم بالشعر . ولكن لم يظهر من شعرهم الغزلى (فى أغلب الأمر) إلا ما تقيت صفحته ، وطهر عرضه ، وشرف مفزاه . وعسى أن يكون من ذلك ما يفوله عبد الله فكري باشا ، أحد شعراء الأزهر ، مثلاً إلى حد كبير برادة شعره الدلى ، وبجانبه الإخاش والإسراف ، وذلك حيث يقول :

ما أحبلى يوم اجتمعت بروض أوردتنا ظلاً ظليلاً غصوه
كان فيه الرقيب غير قريب والرمال الخثون نامت عيونه
فبهجرتنا من المدامة فيه بحديث مستعذب مضمونه
إن فى سكرتنا من اللط واللىظ عاء عما تدير يمينه

(١) من مقال للاستاد أحمد أمين بك فى مجلة الشريعة العدد ٣٦٤ بعنوان « إمامان عاشقان » ، ص ١٠٠
و محمد بن دلود الظاهرى ، وعلى بن حزم .

فقد نهياً له لقاء الحبيب في الروض الناضر ، وظل غصونه الظليل ، وليست
هين الرقيب قرية قرى ما عساه أن يكون بين الحبيب وحبيه من هو الهوى
وعيث الغرام ؛ ولكنه كان في صون وتحرز ، ومجرّد سر المدامة ، إلى عذب
حديثه ، وآثر السكر ، من لفظه ولحظه ، على سكر الكأس تدبرها يمينه .

و عبد الله فكّر يباشا ، هو الذي يحدث في شعره بأن أسباب الفتنة
توات له ، وتيسرت له بالمحب مفاتيح تغرى النفس ، ومباهج تحمل معها أواخر
العفة والنصون ؛ ولكنه لم يحاف الشرف ، ولم يأ عن التعفف ؛ وذلك
حيث يقول :

فقلت وقد مال الكرى بهوامها كما مال بالنشوان صرف من الخمر
وماست تزجي ردفا في موزد من اللاذقد وشته بالدر والتبر^(١)
وتسمح عن أجفائها اليوم سحرة فيرفض عنها كل فن من السحر^(٢)
وبتنا كما شاء الهوى في صباية وعفة ثوب لم يزر على وزر

وهذا هو ، رفاة رافع الطمطاوى ، أحد علماء الأزهر وشعرائه ؛ يمثل عفة
العلماء وقناعتهم في الملذات ، ويمرر من الكرام بما يطبل الشعراء الوقوف عنده
وتسريح النظر فيه ؛ وذلك حيث يقول :

فدقلت لما بدا والكأس في يده وجوهر الخمر فيه شبه خديه
حبي نزاهة طرفي في محاسنه ونشوتي من معاني سحر عينيه

فهو يقنع بنزاهة طرفي في محاسن محبوبه عن التمتع بهذه المحاسن . فلا يقبل
فسا ، ولا يهصر عودا ، ولا يذهب مذاهب العشاق ، من الضم والعناق ، ويغنيه
من حبيه النظر الى مواطن جماله ، والنشوة بمغاني سحر عينيه عن كل ما يلتبس
من لذة ومتاع .

(١) اللاد جمع لاذة وهي ثوب حرير أحمر صينى . وشى الثوب نمسه وقشه وحسه .

(٢) السحرة بالضم : السحر الأعلى .

تقرير عن كتاب الفرقان

- ٣ -

ثانياً - القراءات

كما طافت برأس المؤلف فكرة وجوب كتابة المصحف بالرسم الحديث فارتكب في سبيلها كل صعب ، واقتحم كل حى ، طافت بذمته أيضا فكرة أخرى هي وجوب الاختصار على قراءة واحدة ، وأن ما يتناوله القراء من القراءة بالقراءات السبع المعروفة غير جائز ، لأن فيه تضيقاً للقرآن ، وتقييداً لمعانيه ، يتنافى مع قوله تعالى : « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » .

طافت بذهن المؤلف هذه الفكرة فارتكب في سبيل تبريرها هي أيضا عدة أخطاء ما كان له أن يجترأ عليها :

١ - فن ذلك أنه فهم من صنيع عثمان رضى الله عنه حين أمر بكتابة المصحف لجمع الناس فيه على أمر جامع ، أنه بهذا أبطل القراءات ، وأوجب على الناس أن يقرؤوا بقراءة واحدة ، وقد وافقه على ذلك زهاء اثني عشر ألفاً من الصحابة . والذي جر المؤلف الى هذا الفهم ما جاء في الروايات التي ذكرت هذا الشأن ، وخلاصتها كما أوردها المؤلف في (ص ٣٨) : لما كانت خلافة عثمان رضى الله عنه اختلف الناس في قراءة القرآن ، فقدم حذيفة بن اليمان على عثمان وقال له : « يا أمير المؤمنين إن الناس قد اختلفوا في القرآن ، وإن اختلفهم ليوشك أن يكون كاختلاف اليهود والنصارى ، حتى إن الرجل ليقوم يقول : هذه قراءة فلان ، ويقوم الآخر فيقول : هذه قراءة فلان .

وقد أخذ أهل البصرة عن أبي موسى الأشعري ، وأهل الكوفة عن عبد الله بن مسعود ، وأهل دمشق عن أبي بن كعب ، وأهل حمص عن المقداد بن الأسود . وقد كان كل قطر من هذه الأقطار يدعى أنه أهدي سيلا ، وأقوم طريقا ، فغشى عثمان رضى الله تعالى عنه هذا الاختلاف ، وجمع الناس - وكانوا يومئذ زهاء اثني عشر ألفا - فقال عثمان : ما تقولون ؟ لقد بلغني أن بعضهم يقول : قراءتي

خير من قراءتك ، وهذا يكاد أن يكون كفراً : قالوا : فاترى ؟ قال . أن يجمع الناس على مصحف واحد ، فلا يكون فرقة ، ولا اختلاف ، قالوا : نعم ما رأيت . فأرسل عثمان رضي الله تعالى عنه الى حفصة أن أرسلي إلينا بالمصحف ، فننسخها في المصاحف ، ثم زدما إليك ، فأرسلت اليه حفصة بالمصحف ، فأرسل الى زيد ابن ثابت ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن الحارث بن هشام ، وأبي بن كعب ، فقال لهم : انسخوا هذه المصحف في مصحف واحد ، وقال للنفر القرشيين . إن اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت . فاكتبوه على لسان قريش ، فإنما نزل بلسانها . ففعلوا ما أمرهم به عثمان رضي الله تعالى عنه ، حتى إذا نسخوا المصحف في المصاحف - وقد كانت أربعاً - بعث عثمان الى كل أفق بمصحف من تلك المصاحف ، فوجه الى الكوفة إحداها ، وإلى البصرة أخرى ، وإلى الشام الثالثة (١) وأمسك عنده المصحف الرابع : ثم أمر بما سوى ذلك أن يحرق بعد أن استأذن حفصة في حرقها .

وقد علق على هامش الصفحة التي فيها هذا الكلام بقوله : إن أمر عثمان بحرق المصاحف التي تخالف مصحفه في القراءة دليل قاطع على وجوب القراءة الواحدة بقراءة قريش وترك ما عداها وهذا ما نقول به .

فهم المؤلف من ذكر القراءات هنا أن المراد بها القراءات السبع المعروفة لنا الآن ، وفهم من قول عثمان للنفر القرشيين . إن اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء ، فاكتبوه على لسان قريش فإنما نزل بلسانها ، ومن أمره بحرق المصاحف التي تخالف مصحفه في القراءة - أن عثمان أوجب القراءة الواحدة بقراءة قريش ، وترك ما عداها . وسمى المؤلف ذلك دليلاً قاطعاً ؛ وكان على المؤلف قبل أن يسرع بهذا الحكم الذي استنبطه من صنيع عثمان أن يفتن الى أمور :

أولها : ما جاء في هذه الروايات من أن أهل البصرة أخذوا القرآن عن أبي موسى الأشعري ، وأهل الكوفة عن عبد الله بن مسعود ، وأهل دمشق عن أبي بن كعب ، وأهل حمص عن المقداد بن الأسود .

(١) هكذا كتب المؤلف : وأرسا ، و إحداهما ، و أخرى ، و الثالثة ، كأن الحديث عن مؤلفه ، وإنما هو عن المصنف .

فنشأ الخلاف إذن هو هذه القراءات التي انفرد بها بعض الصحابة ، ولم تكن مجمعا عليها ، والشأن فيها يروى آحادا أن يقع الاختلاف عليه ، وأن يقول القائلون فيه : قراءتي خير من قراءتك ، ونحو ذلك .

وقد عقد المؤلف نفسه وصلا عن القراءات التي كان بعض الأصحاب يقرأ بها (ص ١٠) فذكر قراءة عمر ، غير المفصولة عليهم وغير الضالين ، وده الحى القيام ، وده فى جنات يتساءلون يا فلان ما سلكك فى سفر ، وقراءة على ، وآمن الرسول بما أنزل إليه وآمن المؤمنون ، وقراءة أبى ، فما استمتعتم به منهن الى أجل ممسى فاتوهن أجورهن فريضة ، وغير ذلك من قراءات أبى وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير وما جاء فى مصاحف بعض الصحابة كمصحف عبد الله بن عمرو ومصحف عائشة ومصحف حفصة ومصحف أم سلمة .

عقد المؤلف نفسه هذا الفصل : فكان عليه أن يثبته إلى أن عثمان خشى تفرق الناس بهذه القراءات الأحادية ، وهذه المصاحف المختلفة : فذلك كتب المصحف وأثبت فيه ما تواتر عن الرسول صلى الله عليه وسلم دون ما انفرد به الآحاد .

وبهذا يتبين أن عثمان بصنيعه لم يتعرض للقراءات السبع المروية عن الرسول صلى الله عليه وسلم بطريق التواتر .

ثانيا : أن عثمان وكتاب المصحف رضى الله عنهم قد كتبه برسم ملاحظ فيه احتماله للقراءات المتعددة ، وقد اتخذ ذلك فيما بعد ركنا فى صحة القراءة ، حيث قال العلماء فى بيان أركان القراءة الصحيحة : إنها التى يتوافر فيها ثلاثة أركان . موافقتها وجهها من أوجه النحو ، واحتمال الرسم العثمانى لها ، وصحة سندها : فإن خالفت الرسم المجمع عليه فهى قراءة شاذة . وبوضع ذلك الإمام ابن الجزرى حيث يقول : كمالك يوم الدين ، فإنه كتب فى الجميع ، أى فى مصاحف عثمان ، بلا ألف ، وقراءة الحذف توافقه تحقيقاً ، وقراءة الألف توافقه تقديرأ ، لحذفها فى الخط اختصاراً . وقد يوافق اختلاف القراءات الرسم تحقيقاً نحو : تعلمون ، بالتاء والياء ونحو ذلك مما يدل تجرده عن النقط والشكل فى حذفه وإثباته على فضل عظيم للصحابة رضى الله عنهم فى علم الهجاء خاصة ، ومهم ثاقب فى تحقيق كل علم . وانظر

كيف كتبوا الصراط بالصاد الجديدة من السين وعدلوا عن السين التي هي الأصل فنكون قراء السين - وإن خالفت الرسم من وجه - قد أنت على الأصل فيعتدلان ، وتكون قراءة الإشمام عتملة ، ولو كتب ذلك بالسين على الأصل لفات ذلك ، وعدت قراءة غير السين مخالفة للرسم والأصل ، ولذلك اختلف في د بسطة ، الأعراف دون د بسطة ، البقرة ، لكون حرف البقرة كتب بالسين ، والأعراف بالصاد (الإختان ص ٩٥) .

وبهذا يتبين أن كتابة المصحف العثماني لم يقصد بها منع القراءات كما أراد المؤلف أن يزعم ، بل على العكس من ذلك جاءت عتملة هذه القراءات ، حتى جعل العلماء موافقة القراءة للرسم العثماني - ولو احتيالا - شرطاً في صحة القراءة .

ولكن المؤلف يضرب عن ذلك كله صفحا ، ولا يعتمد إلا بما فهمه هو دون ما فهم هؤلاء العلماء ، وأيدم عليه الواقع العملي ، في تلقى الأمة لهذه القراءات المختلفة بالقبول ، بعد كتابة المصحف العثماني .

ثالثا : ما ذكره القاضي أبو بكر في الانتصار من قوله : « لم يقصد عثمان قصد أبي بكر في جمع نفس القرآن بين لوحين ، وإنما قصد جمعهم على القراءات الثابتة المعروفة عن النبي صلى الله عليه وسلم وإلغاء ما ليس كذلك ، وأخذهم بمصحف لا تقديم فيه ولا تأخير ، ولا تأويل أثبت مع تنزيل ، ولا منسوخ تلاوته كتب مع مثبت رسمه ، ومفروض قراءته وحفظه ، خشية دخول الفساد والشبهة على من يأتي بعد » . (الاتقان ص ٥٧) .

كل هذا يدل على أن عثمان لم يبلغ القراءات المروية توازنا عن النبي صلى الله عليه وسلم - وحاشاه - ولكنه ألغى ما يجر إلى الخلاف والتزاع بما هو آحادى أو شرح أو تفسير مظهر قراءة ، وخشى التباس الأمر فيه .

ولو تنبه المؤلف إلى هذا لما وقع فيما وقع فيه .

على أنه ثبت عن عثمان أنه كتب عدة مصاحف لاحظ في رسمها وجسدها القراءات المختلفة ، مثل « تجرى تحتها الأنهار » ، و « من تحتها الأنهار » ، ونحو ذلك .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ذكرى ميلاد الرسول الكريم

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر
الشيخ مأمون الشناوى شيخ الجامع الأزهر

كان مولد الرسول صلى الله عليه وسلم إيذاناً بمطلع فجر جديد على العالم ،
كان الناس يترقبون الخير مع صبحه ، والسعادة والعدالة مع إشراق شمسهِ .
والحق أن العالم في هذه الآونة التي سبقت مولد الرسول وبعثته كان قد
تجمرد عن المعاني السامية التي دعا إليها الرسل والأنبياء قبل بعثة سيدنا محمد
صلى الله عليه وسلم ، وأشرب الناس حب الآثرة ، وأمعنوا في الظلم ، واستهانوا
بالحقوق ، وأسرفوا في الملهذات ، وانصرفوا إلى حياة لا ترضاها العادات والطباع
السليمة ، فضلا عن الشرائع والديانات .

وكانت هالك قوتان ، أو بعبارة أخرى ، دولتان تتنازعان سيادة العالم
والسيطرة عليه ؛ هما دولة الفرس ودولة الروم ، والعالم بين هاتين الدولتين مغلوب
على أمره يتطلع إلى حريته ، وينشد المثل العليا ، ويتحدث باسم العدل والإنصاف ،
ويرنو إلى الخلاص من ظلم أولئك وهؤلاء ، وبني أولئك وهؤلاء ، وامكنه
لا يجد إلى ذلك سبيلا ، ولا إلى الفكاك طريقا .

وبين هذه الغاشية التي كانت تغشى العالم ، وبين هذه السحب الكثيفة
المتراككة التي كانت تحجب النور عنه ، أذن الله أن ينبعث نور الحق من الجزيرة
العربية ، بمولد محمد صلى الله عليه وسلم ، في شهر ربيع الأول من عام الفيل ، الموافق
سنة ٥٧٠ من ميلاد المسيح عليه السلام هل أرجح الأقوال ، ويعتد بعد ذلك
وهو على رأس الأربعين .

ولم ينشأ محمد صلى الله عليه وسلم كما نشأ لداته وأقرانه ، ولم يعجبه ما كان عليه قومه من عبادة الأصنام وتقديس لها ، ولم يرق له ما رآهم عليه من طباع الجاهلية ؛ ولذا آثر ألا يشارك القوم في عباداتهم ، وألا يدنس وجهه بالسجود إلى الأصنام ، أو يشترك معهم في تهديسها .

وكان صلى الله عليه وسلم ينقطع إلى العبادة في غار حراء ، حتى جاءه الوحي وهو في الغار ، إذ نزل عليه جبريل فأقرأه قول الله تعالى : اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم . .

وعند ما جاهر النبي صلى الله عليه وسلم بالدعوة ناصبته قريش العداء ، وجعلت تتكفل بالمسلمين ، ولا تتورع عن إيذائهم .

ولقد تعرضوا للرسول صلى الله عليه وسلم بالأذى ، وكان ذلك لا يريد به إلا تمسكا بحقه ؛ ويوم أن عرضوا عليه الجاه والمال ليكف عن دعوته وليرجع عن تسفيه آلهتهم ، قال : والله لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته . .

وقد ظل الرسول صلى الله عليه وسلم ينافع عن الحق ويدافع عنه ، ويتحمل الإيذاء صابرا ، وكان يقابل عدوان قريش عليه وعلى أصحابه بطلب الهداية لهم : اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون . .

ولما اشتد إيذاء قريش للرسول وأصحابه ، هاجر عليه الصلاة والسلام إلى المدينة بعد ثلاث عشرة سنة قضاها في مكة داعيا إلى التوحيد ، وإلى الإيمان بالبعث والحساب ، وإلى ترك المعتقدات الزائفة التي يدين بها قومه .

وهناك في المدينة وجدت الدهرة أعوانا وأنصارا ، وكتب الله لرسوله النبوة والنصر على المعاندين المكابرين ، وبهر الناس ما جاء به الإسلام من تعاليم ، وما وضع لهم من نظم ، وما كفل لهم من حياة لم يكونوا يتوقعونها ، فدخلوا في دين الله أفواجا ، وآمنوا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم إيماننا امتزج بدمائهم ، وملك عليهم

حواسهم ، وأضحت الدنيا هيئة رخيصة عليهم في سبيل حماية العقيدة والدفاع عن الدين ، ورفرف لواء الإسلام عاليا على البقاع ، وآمن به من كابر ، ودخل فيه من عاهد ، وتمتع بمراياه من تحدّد أول الأمر ، وحاول تفريق الناس عنه والكيد له .

واليوم نسأل الله في هذه الذكرى صلاة وسلاما دائمين لنيه عليه الصلاة والسلام ، ونسأله جل شأنه أن يعز الإسلام ، وأن يعيد إليه سالف مجده ، وأن يرد عنه أعداءه ، وأن يكتب النصر والغلبة للمؤمنين ، وأن يمسكن لهم في الأرض ، وأن يحفظ كنفاته من كل سوء ، وأن يكتب لجيشها الظفر والنصر ، وأن يرد عنها كيد الكائدين ، وأن يبلغها ما تصبو إليه ، في ظل جلالة الملك فاروق الأول ، حفظه الله ورعاه ، وأن يعيد هذه الذكرى على العالم الإسلامي في يسر ورجاء ، وآمن وسلام ، إنه سميع مجيب .

العالم كله

ينشد النهايات المطلقة اليوم

هل الحكومة العالمية تصبح علاجا لأوروبا ؟

العالم كله ينشد النهايات المطلقة اليوم ، وقد كاد يعم هذا الشعور العالى العامة أيضا بسبب ما ألانت الدتايات الفلسفية من جودهم على موروثاتهم ، وتعصبهم لعقلياتهم . فلم يكن العالم في عهد من عهوده أكثر استعدادا للتحقيق والتحصيل منه اليوم . وهذه الحالة العقلية كما هي مقدمة لكل تطور عقلي ، كذلك هي مادعا إليها الإسلام لتجريد العقل للنظر بعيدا عن المؤثرات عليه من الشوائب النظرية والوراثية .

هذه الحالة النفسية أثمرت في العالم العربي تأثيرا شديدا حتى يكاد لا يطاق أن يقوم فيه داع لدين أو مصلح لمذهب ، ولولا ذلك لأصبحت الأمم كلها اليوم تدين بالمذهب الروحي بعد أن استفقد القائلون به كل صروب التحصيل في تحقيق ظواهره ، لا سيما والداعون إليه جلهم من أئمة العلماء ، أصحاب الخبرة الواسعة بكل ما يتصل بهذه البحوث من علاقات بالشخصية الإنسانية ، ويقوى النفس الكامنة ؛ فوقوف الجماعات عن الترامى على هذه البحوث على ما فيها من المعريات ، يدل على مبلغ ما تأثرت به النفوس من النغور من العقائد ، ومن كل ما يتصل بها من شئون ، وهو انقلاب شديد اقتضاه إصراف الذين كانت يدهم مقاليد هذه الأمور في الاستهانة بعقلية الجماهير .

ولكن هذه حالة لا تدوم ، ولا يعقل أن تدوم ، لأنها مجردة من مقومات الدوام ، فلا تزال العقول ظمئة إلى ما يثاج عليه صدور أصحابها من فهم الجماهير التي تحتوشها من كل جانب ، والنفوس قلقلة على مصيرها في مضطرب هذه الفتن التي لم يتبين في كل ما حوّلجت به الحد الذي تقف عنده ، بل الحل الذي تنصافي النفوس بعده .

وهناك مسائل أخرى تتعلق بالأخلاق والآداب ، وكلها مسائل شائكة

لا يعقل بعد كل ما بدل فيها من البيانات والخلول ولم تنته إلى غاية ، أن يوجد لها مدى تقته عنده .

كان الفلاسفة الماضون يقولون : لا يضير الإنسان أن تكون حياته مضطربة فهو صائر إلى التكمل ، حتى ولو أفضى ذلك منه إلى الحروب المزعجة . ولكن لا يستطيع فلاسفة اليوم أن يقولوا مثل هذا بعد ما تبين أن الإنسان يتألم لأن يقاتل أحاه بما يلاشيه ويلاشى الممالك التي كانت تؤويه ، فالجرب المقبلة حتى ولو لم تستعمل فيها القنابل الذرية ستأني على كل عامر في الأرض ، فتجعله بلقما . فإن القلاع الطائرة وما تحمله من القنابل الفتاكة كفيلة بأن تجعل أعمار المدن الأوروبية خراباً يباباً ، في دقائق معدودة .

وإذا جرى الإنسان في آرائه على هذا النحو ، أصبحت هذه الحالة العقلية ديدناً له فلم يقف منها عند حد ، بل ينسحب منها إلى اللا أدبية ، فيصبح أمر الجماعات محل نزاع مستمر ، وتنقسم الأحزاب على نفسها ، وتفرق كلمتها ، فلا تعود تمثل وحدة محترمة ذات رأى له وزن في الشؤون العامة ، كما أصبح عليه الحال في دول أوروبا الوسطى حيث أصبح الخلاف ديدن الأحزاب ، فما يرضى به جماعة تسخط عليه جماعة أخرى ، ولو نفذ على علاته كان خيراً للجماعة من عدم تصيده ، ولكنه يعلق وتدور حوله البحوث ، وتنفق في سبيله الجماعات ، وتقوم من أجله المظاهرات والمعارك .

وقد يشتد السخط لدى بعض الطوائف ، فتعتمد إلى تعظيم المرافق العامة ، وقطع الجسور والخطوط الحديدية على السابلة ، وتعطيل آلات التلفون والتلغراف ، حتى لا يخف بعضهم إلى إغاثة بعض ، معتبرين ذلك كله من الحركات المشروعة التي للشعب أن يعبر بها عن محابه ومكارهه ، وهي وسائل كما ترى لا تدل على عقلية محترمة ، ولا على نفسية متزنة ، بل هي سالة لا يتضح منها متى يتغلب حكم العقل على هذه الحال من غلبة الأهواء ، وثورة الشهوات .

هل لهذه الحالة من التشاؤم والتلاحى بين الجماعات في كل أمة من حد تنقف

عنده ؟

إن هذه الحالة تنافى قواعد النظام في الأحكام ، وتناقض موجبات الاستقرار

في الأمم ، فلا تعيش الأمم في جسورها إلا كما يعيش المريض في جو مضطرب من حالته المرضية ، لا توفق فيه الخير ما ترجوه لنفسها من سير منتظم في شؤونها الداخلية ، وسبيل سواء في علاقاتها الخارجية .

إن من ينظر الى الحالة الأوروبية العامة من هذه الزاوية ، يأخذ العجب من أن يؤول أمر الجماعات المتمدنة الى هذه الحالة المضطربة ، ويعجز أن يرى كيف تعود الى حالتها الطبيعية .

إن الذي يلوح للفكر أن هذه الحالة مقدمة لعهد جديد للعالم ، ولعلاقات جديدة تنشأ بين الأمم ، وبين الجماعات وآحادها . وليس هذا بعجيب ؛ فقد سبقت جميع التطورات الاجتماعية حالات من هذا القبيل ، ظن منها أن التوازن بين أجزاء الشعوب قد بطل ، وأنه لا توجد قوة في العالم تعيده اليه ، على ما كان عليه . ويكون ذلك عادة عقب حدوث حروب طاحنة ، وطروء حوادث عارمة ، وانهكيات صاخبة ؛ فيحدث إذ ذاك لمجموع البشرية مثل ما يحدث للفرد حين تحتوشه الصمومات ، وتحيط به الكوارث ، وتساوره الجوائح من كل المظان ، فلا يجد أجدى في التغلب عليها جميعا من الخضوع لها ، فيلبث معطأنا الرأس لها حتى تمر سراعاً أو بطاء ، ويعود هو الى حياته العادية وقد اكتسب تجارب نافعة ، وحصل معرفة موالية .

يرى المتأمل أن هذا الرأي قد يكون هو الحق ، فإن التشدد البادى من جميع أصحاب المذاهب الاجتماعية لفرض تعاليمها على مجموع خصومهم دون أن يحسبوا لإمكان ذلك حساباً ؛ بالمسألة أولاً ، فإن لم تفد بالقوة ؛ فلنا إن مثل هذا التشدد لا يقدح من كبريائه إلا الانتهاء الى النهاية التي ذكرناها .

ومما يلوح للفكر أيضاً أن ترتفع الأحزاب عن الخضوع لحزب من الأمة ، ويكاد يشيع ذلك حتى لدى الانجليز والأمريكان ، يشعر بأن سلطان الحزب الواحد أصبح لا يكتفى في إخضاع الأحزاب الأخرى ، وأنه لا بد له من صموت عالمي لإحداث هذه النتيجة . إذا كان الأمر كذلك فقد آن وقت تأليف الحكومة العالمية التي رفع عليها في أمريكا (جارى ديفز) . وليس ما يمنع من حصولها إذا كان الإصلاح العالمي يتطلبه ، والاستقرار العام في حاجة اليه .

ولا يقال كيف يتم ذلك ، فإن تخاذل الحكومات عن أداء مهامها ، وتعطل العالم عن أعماله في مختلف البيئات والصاعات ، لثرايط العالم بعضه ببعض في العصر الحاضر ، كل ذلك يقوى القول بضرورة وضع إشراف عالمي على الأمم ، وهذا ذلك تشعر الأعضاء الشاذة من البشرية أنها أصبحت تحت ضغط لا قبل لها بدفعه عنها ، فتتقاد له مرغمة ، ويكون في ذلك فتح جديد للبشرية تتم به تحت جمر من السلام والإخاء والحرية ؟

محمد فريد وجدي

استبقاء الأصدقاء

قال حكيم : معانة الصديق خير من فقده .

وقال أحمد بن أبان :

إذا أنا لم أصبر على الذنب من أخ وكنت أجازيه فأين التفاضل
ولكن أدأويه فإن صح سرفي وإن هو أعيأ كنت فيه تحامل

وقال عبد الله بن معاوية :

ولست يبادى صاحبي بقطيعة ولست بمفشى سره حين يغضب
عليك ياخوان الثقات فإنهم قليل فصلهم دون من كنت تصحب
وما الخدن إلا من صفالك وده ومن هو ذو نصح وأنت مغيب

وقيل لبزر جهر : من أحب اليك : أخوك أم صديقك ؟

فقال : أخى إن كان صديق .

وقال أكنم بن صبي :

القرابة تحتاج الى مودة ، والمودة لا تحتاج الى قرابة .

وقال أبو تمام الطائي :

ولقد سبرت الناس ثم خبرتهم ووصفت ما وصفوا من الأسباب
بإذا القرابة لا تقرب قاطعا وإذا المودة أقرب الانساب

المجاز والكناية في القرآن القرآن والمفسرون

لفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ حامد محسن
عضو جماعة كبار العلماء

يقول الله تعالى في سورة الملك :

« وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ » .

ويقول المفسرون في تفسير هذه الآية : إنها تحمل على أحد تأويلين :

الأول : أن لفظ « رجوما » جمع رَجِمَ ، وهي مصدر أريد به ذات وهو ما يرجم به . وعلى ذلك فالمعنى للآية كما يقولون : أن النجوم المجعولة زينة للسماء الدنيا يكون لها فائدة أخرى غير كونها زينة : تلك الفائدة هي أن الشياطين التي تحاول التسمع الى السماء لتسرق منها — كما يقولون — أخبارا ، ترجم بتلك النجوم لترد بذلك عن التسمع من السماء . هذا هو أول المعنيين .

والمعنى الثاني للمفسرين : هو أن « رجوما » معناها ظنوننا . وعلى هذا يكون المعنى أن النجوم المجعولة زينة ، لها فائدة أخرى هي أن النجوم جعلت لتكون مصدر ظنون للنجمين ، فيربطون بأوضاعها من بعضها ، وظهورها واختفائها ، حوادث تقع في مستقبل الأيام والليالي .

هذا محصل الوحيين اللذين ذكرهما المفسرون في معنى هذه الآية الكريمة ، المأخوذة من رب السماء ضمن القرآن المجيد ، المنزل على أفضل الرسل هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، ليخرجهم من ظلمة الخرافات وفاسد العقائد ، الى نور الحق والرشاد .

ولما لزمنا بكتاب الله عز وجل عن النزول الى ذلك المستوى ، فهو القرآن الحكيم ، تنزيل العزيز العليم ؛ هو الكتاب القيم غير دى العوج ، الهادى الى سواء السبيل . لما لزمنا بذلك الكتاب المقدس عن هذا الخطأ الآثم ، والضلال الاعمى .

واليك أيها القاري الكريم وجه ذلك :

أما أولاً : فلأن هذا المعنى واضح التافى مع ما نعتقده ونشهده : من أن الله متفنن لكل شيء خلقه ، ومحكم بليغ مصنوعاته ، وهو سبحانه العزيز فلا ينال حماه ولا ينتهك حرمة ، الحكيم الذي لا يجرى في وهم أن يداني صنعه خلل أو يتأتى أن يتجه إليها انتقاد ، بديع السموات والأرض : فكيف إذن نسيخ لأنفسنا تصور أن الشياطين تحاول التسمع إلى ما يجرى في السماء من تدبير وما يراد من تصرفات ، فلا يردّها إلا أن تحذف بالشهب وترعى بالنجوم ، وفي ذلك ما فيه من تهوين لحرمة ، واستهانة بإمكان تصرفه وتدييره ، ونزول بديوانه — إن صح في الأذهان ما يصورون — عن دواوين ملوك الأرض . فها هي ذى مصونة محروسة لا يطعم أحد في التسمع لما يجرى فيها من تصرفات ، وما يراد من تدبير ... إذن فكيف نبيح لأنفسنا أن نفهم كهم كهم مكان تصرفه تعالى ، والنزول به إلى هذا الحد ، ولا يكون للسماء من إقفاص خلقها ، ومحكم صنعها ، ومن جلال صانعها ، رادع للشياطين عن تلك المحاولات ! .

لا سبحانك اللهم ربنا ما أحكم صنعك وأتقن خلقك ! أنت بديع السموات والأرض ، العزيز الحكيم .

وأما ثانياً : فإنه مع ما ترى في هذا المعنى من تحاف للحكمة ، وتناف للإلتقان كما بينا — قد بهاه المفسرون على خيال باطل ، وخطأ آثم ؛ فلقد حسبوا أن تدبير الشئون الكونية وتصرفاته في خلقه ، كمثلها مثل ما يجرى في الدواوين من أخذ ورد ، ومشاورات وتبادل آراء . لا لا يأبها الناس ! إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون . يحيط عليه بكل شيء ، وبمقابلة كل شيء ، وحكمة كل شيء ، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، يعلم السر وأخفى ؛ فلا مشاورات ولا مداورات ، حتى يكون هناك خطاب وكلام تسمع إليه الشياطين لتخطف من ذلك خبطة تذيبها قبل وقوعها ، تهدم بذلك ما خطه الله بنفسه من علم الغيب . وعندة مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما في البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب

مبين . . رب سبحانه ، لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا راد لما قضيت .

وأما ثالثاً : فلأن سورة المُلْك ترمي آياتها إلى غاية واحدة ، هي لفت الأنظار إلى بديع آياته ومتنن مصنوعاته ، وما خلق في السموات والأرض من أدلة وبراهين على قدرته ، وحجج قاطعة على وحدانيته ، لتؤمن بربها ، ويعظم قدرته ، وسامى حكمته ، وأنه الواحد الذى لا شريك له ، عن برهان قاطع ، ودليل دامغ .

إن هذه هي الغاية من إنزال الكتب وإرسال الرسل ؛ فإنه لا رقى للإنسانية ولا نظام للبشرية ولا أطمئنان ولا أمن يستتب في الأرض ، إلا أن يجتمع الناس على توحيد الله ، والإيمان بأنه العزيز الجبار .

وأما رابعاً : فإنه مما تأباه العقول ولا يُسيغه الإدراك ، وما يشعر بالعجز عن رد المعتدى : أن يفهم فاهم أن الكواكب التي جعلت في السماء زينة ، وأقيمت في الأفق آية وبرهاناً على ما لله من قدرة باهرة ، وحكمة بالغة وتدبير محيط دقيق ونظام محكم متنن ؛ الكواكب التي أقيمت هداية للناس في البر والبحر ، وجعلت حجة ؛ نعم : إنه مما لا يسيغه إدراك أن يفهم فاهم أن النجوم التي ذلك شأنها وتلك حكمتها ، يُرمى بها المتصمون إلى السماء لاستراق السمع . يافه ! أليس هذا مما يحيل السفه وما يحاكي الحكمة . مما يؤذن بالعجز ، حتى ياتجأ إلى مثل تلك الوسيلة التي هي آخر ما يلجأ إليها سفيه أو معنوه ، والتي لا يبقى معها في السماء زينة ، ولا تبقى بتلك النجوم حجة ، ولا يمكن بها بعد ذلك هداية في بر أو بحر ، ثم تمحى مع ذلك كله آياته التي أقامها للناس على حكمته وقدرته ووحدانيته ١ . وهل عجرت قدرة الله عن رد المعتدين على حرمه إلا بما تبطل به الزينات وتمحى به الآيات وتطفأ به المصابيح ، وهو الذى يسهده ملكوت السموات والأرض ، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ١ . ألا إنك لو تحدثت أن رجلاً رأى لصواصاً أو معتدين بما يزين به بيته وبما يضيئه به ، لما تخيلته إلا سفيهاً ؛ فكيف تسبغ ذلك من الحكيم العليم والخالق العظيم ١ .

هذه هي أوجه البطلان للبنى الأول ، الذى ذهب إليه المفسرون .

وأما الوجه الثاني مما ذكره المفسرون ، وهو أن «رجوما» معناها : ظنوننا ، أى مثار ظنون للتجسسين ، فهو أيضا واضح البطلان ؛ لأنه لا يصلح أن ينتظم في سلك الممن المعنوية ، أو في سلك الممن المادية : فلا هو لفت إلى برهان على عظمته ، ولا تذكرة بنعمة ليُشكر عليها . وباليته ليس هذا ولا ذاك إلا بل هو إلى ذلك شر وباطل وضلال . وإنا لتستقيح من الناس أن يعموا أو يفاخروا بقيق ، فكيف بدى العظمة التي لا تعظم ، والكبرياء التي ليس له فيها مازع . وإلى ذاك وهذا تكون الآية قد نظمت ذلك في سلك آياته ومنه ، بما يزل بالقرآن المعجز بألوهية الذى افقطعت دون بلاغته أساطين القول وفرسان الكلام ، ويزل بقائه عن مستوى العقلاء من الناس .

هذا هو ما قاله المفسرون ، وتلك هي وجوه بطلانه بارزة واضحة ؛ وعلى ذلك وجب أن تفسر الآية بما هي واضحة الدلالة عليه ، وفقا لسابقها وللاحقها ، ووفقا لأغراض السورة من دعوة العقول ولغتها إلى ما لله من آيات على قدرته وجلاله ، وعظمته التي لا تعظم .

اقرأ السورة من أولها ، تر أن الله تعالى بدأها بأن الملك في قبضته لا يجزئه شيء في الأرض ولا في السماء ، بل هو على كل شيء قدير ، وأنه هو وحده مانع الحياة وسالها ، ليخبركم أيكم أدكى قلبا وأبعد نظرا وأوفر عقلا وأهدى سبيلا إلى الحق ، فيؤمن بآفته وكتبه ورسله ، وأنه لم يكلفكم إلا ما في وسعكم ، وأنه حين أوجب عليكم الإيمان به وبما يجب له ويتزده عنه ، أقام لكم على ذلك الآيات ، وأوضح لكم البراهين في السماء والأرض . يقول : الذى خلق سبع سموات طباقا ، ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت ، فارجع البصر هل ترى من فطور... الخ الآيات ، فيوجه بذلك العقول والأنظار إلى ذلك الخلق العظيم : خلق السموات التي هي على هظلمها وسعتها لا ترى فيها متفاوتا ، بل تراء سطحا ليس بين أجزائه نائي أو متطامن ، أو شروخ أو شقوق ؛ الإلتقان الذى لا يتم لصانع في مساحة محدودة الأطراف ؛ ثم هي مع هذا باقية في ذلك النظام والإلتقان على مرور تلك الأزمنة المتطاولة التي لا يقى معها مصنوع من الذهب أو من الفولاذ ، فضلا عن بقائها على جذتها وروثها وجمالها وزينتها ، إذ ليس لأحداث الزمان عليها من سلطان ، كالذى لها على ما تصنعه يد الإنسان .

ثم هو بعد هذا يلفتنا إلى آيات ونعم غير ذلك ، فيقول : « ولقد زينّا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين » . فيشير إلى آيات ثلاث مرتبة وفق طبقات العقول ودرجات المفكرين ، بما يهرك حين تأمل في دقة ذلك الأسلوب وبلاغة هذا الكلام ، ويستدهى من يدركون بلاغة القول انحاءً ويجوداً لبلاغة هذا الكلام .

نبيّه أولاً إلى ما في منظر النجوم البيضاء في السماء الزرقاء من زينة فائنة ، وجمال باهر ، كم آثار شاعرية شاعر . نعم : إنه تزيين لو تبدل فيه أحد اللونين بلون آخر ، أو أحد اللونين باللون الآخر ، فكانت السماء بيضاء والنجوم زرقاء ، لما تم ماتم من زينة فائنة وجمال باهر ؛ وترى أن هذا الجمال مما يدركه جميع الطبقات من الناس على اختلاف إدراكهم ودرجات تفكيرهم ، من عامهم وخاصهم ، فهي نعمة على الجميع .

ثم ذكر بعد هذا نعمة أخرى عبّر عنها بكون النجوم مصابيح ، والمصابيح للإضاءة ، لتشير الآية بذلك إلى نعمة الاهتمام بها في ظلمات البر والبحر ، كما بما تلك النجوم مصابيح بأيدي السارين في البحار والصحارى ، يهتدون بها إلى مقاصدهم . ولا شك أن المتفهمين بها كمصابيح للاهتمام ، أضيق دائرة من المتفهمين بها كزينة .

ثم ترى بعد ذلك أن الآية بعد ذكرها هاتين الآيتين الحسنتين ، والنعمتين المسادتين ، ترقى بالناظرين إلى نائلة معنوية تادى بها العقول وتخطب بها الأفكار ، تنبيهاً إلى ما أقامه الله في سمائه من آية بيّنة ، ودليل ساطع ، وحجة بالغة ، ينقطع بها المجادلون في الله عن مجادلتهم ، وتردّهم عن مخاصمتهم ، فيعبّون بعد الدفع بها في صدورهم عن الخصومة والمجادح في الله تعالى : فإما إيمان واقتناع ، وإما إنكار عن المقاومة وانقطاع .

أما تلك الثالثة فهي ما ذكره تعالى بقوله : « وجعلناها رجوما للشياطين » : أي إن تلك النجوم وما هو عنها من زينة وهدى ، وما هو لها في سيرها من نظام ، وما في شروقها وغروبها من أحكام ، لحجة بالغة واضحة على وجود الله وقدرته ، وعظمته ووحدانيته ، حجة يرجم بها الكافرون الذين بلغوا في كفرهم حدا بعيداً ، حتى استحقوا أن يسموا شياطين .

ففى كون النجوم رجوما للشياطين . أنها حجج واضحة قوية على وجود الله ، وما يجب له من صفات الكمال ، وما ينزهه عنه من شوائب القصور ؛ فإذا دفع بها فى صدور المعاندين فكأنما رجموا بصخور أعينهم عن الكلام ، وأعجزتهم عن الخصام . وذلك مثل ما يقول العرب حين تكون حجة أحد الخصمين قوية لا يستطيع الخصم الآخر معها جدلاً . يقولون ، ألقه حجراً . . وهنا الأمر كذلك فى الآية ؛ فهو كناية بارعة بالغة ؛ إذ أنها تكنى عن قوة الحجة وسطوع البرهان المسكت للمجادل عن الجدل ، بأنها صخور وجنادل يرتى بها المعاندون فلا يستطيعون معها قولاً ، ولا يحاولون لعجزهم جدلاً .

هذا هو معنى جملها رجوما للشياطين . ولا يصح أن يفهم القرآن الكريم ، تنزيل الحكيم العليم ، إلا على هذا الوجه .

أما أولاً ؛ فلما تقدم من بطلان المعنى الذى ذكره المفسرون ، كما يدها آتفا بوجوه عدة .

وأما ثانياً ؛ فلأن هذا ما نجارى به الآية سابقها ، وتكون به درة انتظمت فى سمط المقدم مع أحواتها ، إذ كل ما سبقها من بدء السورة الى تلك الآية إنما هو دعوة للعقل الى النظر فى السموات وما أقيم فيها من آيات ، وإلى إتيان ذلك التكوين وما أبدع فى السماء من زينة ، وما كان عنها من هداية فى ظلمات البر والبحر ، وما كان عنها من هداية العقول إلى بارئها ، لتؤمن به عن يده ، وتوقن بكل كلالته وصفاته عن برهان . ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من سقى عن بينة . .

وأما رابعاً ؛ فإن القرآن الكريم قد أنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم ليكون بشيراً ونذيراً للناس ، فلا يكون فيه من إنذار وتحذير إلا على مخالفة وعصيان يكون فى استطاعتنا أن نقترعها ؛ أما أن يكون وعيد وتحذير على معصية ليس فى استطاعتنا أن نقترعها وهى محاولة التمسك إلى السماء لاستراق أنباء منها كما يقولون ، فذلك ما لا يتصور . وكذلك أن يكون وعيداً للشياطين ذلك الخلق الذى يحصل كنهه ، فهذا أيضاً ما لا يفهم ، إذ ليس بسائق أن يذكر وعيد على معصية إنما يتأتى اقترافها من خلق آخر غير البشر ، له طباع غير طباعتنا ، وحقيقة غير حقيقتنا ، ثم تهجم بين الآيات التى هى لإرشادنا وتوجيهنا لإقناعاً من لوازمه أن يرى

بما يجب أن يتوفر في نظم القرآن الكريم من اتساق وتناسب بين مجمله وأغراضه حتى لا يمس ما يجب أن يكون عليه القرآن من بلاغة أدع لها العرب في عنفوان عنادهم والنهاب نار خصوصتهم . وبجمل ذلك : أن القرآن إنما هو للبشر أنزل على واحد منهم ، فكل ما فيه من وعد ووعيد ، وإنذار وتبشير ، إنما هو للناس ، إنما هو لبني آدم ، ولو سلم على سيل الجدول فقط أن منه ما هو موجه لخلق آخر ، لآبى نظم القرآن أن يضم إقحاما على هذا الوجه الذي يمس في قوة بلاغة القرآن التي كتبت لها وجوه البلاء ، وخرست لها ألسه الفصحاء .

وأما خامسا : فإن الآية التي تلي هذه الآية هي قوله تعالى : « ولذين كفروا برههم عذاب جهنم وبئس المصير » . وإن ما يجب من اتساق وارتباط بين آي القرآن ، وأخذ بعضها بحجز بعض على تأح بينها وتناسب في معانيها تشم به في كل آية ريج أختها التي تليها . إن ما يجب من ذلك لا يتوفر إلا أن تفسر الآية بما فسرناها به : إذ أن المعنى على ذلك يكون : إن الكافرين بما نصبوا في السماء من آيات بينات ، وأقنا أمام أعينهم من براهين قيرات ، لا يسع أولى الالباب لها إلا الإيمان بالله ذي القدرة والجلال ، ولا يمكن للمقول التي لم يشها تعصب أو عناد إلا الإذعان برب السموات والأرض الواحد القهار . إن الكافرين الذين جحدوا تلك الآيات وكفروا بآيات ربهم ، لهم عذاب جهنم وبئس المصير .

وإنه لعل التقيض من ذلك إذا حملت الآية على ما فسرناها به المفسرون : إذ ترى ألا تناسب بين الجملتين ، ولا تأخى بين الآيتين ، ينقطع بينهما النسب ، ولا تمت إحداهما للأخرى بسبب ، مما يفوت به جمال النظم ، وتضيع معه بلاغة القرآن ، إلى ما علمت فيه من محض وبطلان ، مما يجب أن يسان عنه كتاب الله العزيز الحميد ، وأن تنق منه ساحته ، ويصغر عنه أفقه : « الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ، فيسأ لينذر بأسا شديدا من لدنه ، ويُبشِّر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا ما كثر في فيه أبدا » .

وإننا نعد القارئ الكريم أنا سنعرض لكل ما جاء في القرآن مما يتصل بهذا المعنى حتى يصغر أفقه من جهام الأضاليل ، وتقع الأباطيل . نسأله تعالى المعونة والتوفيق .

دراسات في تاريخ الفقه الاسلامي :

منزلة الحديث في الاسلام

لفضيلة الاستاذ الشيخ فكري ياسين
مدير البحوث والثقافة المساعد بالأزهر

نريد من الحديث ، ما يرادف السنة ، وهو مجموع ما أضيف الى النبي صلى الله عليه وسلم قولاً ، أو فعلاً ، أو تقريراً ، أو صفة ، حتى الحركات والسكنات ، يقظة أو سماً . وزاد بعضهم : أو همماً ، أو إيماء .

والصحيح أن الحديث يرادفه الخبر : قال ابن حجر في شرح النخبة : الخبر عند علماء الفن مرادف للحديث ، فيطلقان على المرفوع ، وعلى الموقوف والمقطوع . وقيل : الحديث : ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم ، والخبر : ما جاء عن غيره ، ومن ثم قيل لمن يشتغل بالسنة : محدث ، ولمن يشتغل بالتواريخ ونحوها : إخباري . وقيل : بينهما عموم وخصوص مطلق ، فكل حديث خبر ، ولا عكس . وقيل : لا يطلق الحديث على غير المرفوع إلا بشرط التقييد . وقد ذكر بعض العلماء أن المحدثين يسمون المرفوع والموقوف بالآثر ، وأن فقهاء خراسان يسمون الموقوف بالآثر ، والمرفوع بالخبر .

وقد أجمع المسلمون سلفاً وخلفاً على أن الحديث متى ثبت وصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان حجة في الدين ، ودليلاً من أدلة الأحكام ، ووجب اتباعه ، والرجوع إليه ، والعمل بمقتضاه . وقد نطق القرآن الكريم بذلك في كثير من آياته ، فقال : « وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا » ، وقال : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم » ، والله غفور رحيم . قل أطيعوا الله والرسول ، فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين ، « وقال : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » ، وقال : « فليحذر الذين يخالفون عن

أمره أن تصيهم فتنة ، أو يصيهم عذاب أليم ، ، وقال : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ، ويسلوا تسلياً » ، وقال : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » .

وقال ابن مسعود : لعن الله الواشيات والمستوشيات ، والمتمصصات ، والمتفلجات للحسن ، والمعيرات خلق الله . فبلغ ذلك امرأة من بني أسد ، فقالت : يا أبا عبد الرحمن بلغني أنك لعنت كيت وكيت ، فقال : وما لي لا ألين من لعنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو في كتاب الله ؟ فقالت المرأة : لقد قرأت ما بين لوسي المصحف ، فما وجدته ، فقال : لئن كنت قرأته ، لقد وجدته ، قال تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا » .

وروى عن عبد الرحمن بن يزيد أنه رأى محرماً عليه نياحه ، فنهاه ، فقال : اتقني بآية من كتاب الله تنزع نياحي ، فقرأ عليه هذه الآية .

وروى أن طاوساً كان يصلي ركعتين بعد العصر ، فقال له ابن عباس : اتركهما ، فقال : إنما منهي عنهما أن تتخذنا سنة ، فقال ابن عباس : قد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلاة بعد العصر ، فلا أدري : أتعذب عليهما أم تزجر ؟ لأن الله قال : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم » .

وقيل لمطرف بن عبد الله : لا تحدثونا إلا بالقرآن ، فقال : والله لا نبغي بالقرآن بدلاً ، ولكن نريد من هو أعلم بالقرآن منا ، ، يقصد أب العلم بالقرآن ، هو المعارف بالسنة ، والملم بأسرارها .

وروى الأوزاعي عن حسان بن عطية ، قال : كان الوحي ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويعضره جبريل بالة التي تضر ذلك . فالرسول الكريم لم يكن في كل ما صدر عنه من قول أو فعل أو تقرير إلا صادراً عن الوحي ؛ قال تعالى : « وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى » .

واتفق الأصوليون والفقهاء على أن أدلة الأحكام هي : الكتاب ، والسنة ، والإجماع ، والقياس ؛ واختلف الأئمة بعد ذلك في الاستحسان ، والاستصحاب ، والمصالح المرسلة ، والاستدلال ، فمنهم من اعتبرها أدلة ، ومنهم من لم يعتبرها .

وأدلة الأحكام ليست إلا أصولها ومصادرها التي تستقى منها ، وتؤخذ عنها ،
فالحديث — هل هذا — هو المصدر الثاني من مصادر الأحكام الشرعية العملية :
وهو الذي تلى رتبته في الاعتبار رتبة القرآن الكريم . روى أبو داود والترمذي
عن معاذ بن جبل ، قال : لما بعث الرسول إلى اليمن ، قال : كيف تقضى إذا عرض
لك قضاء ؟ قال : أفصى بكتاب الله ، قال : فإن لم تجد في كتاب الله ؟ قال :
فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فإن لم تجد في سنة رسول الله ، ولا
في كتاب الله ؟ قال : أجتهد رأيي ، ولا آلو . قال : فصر ب رسول الله صلى الله
عليه وسلم صدره ، وقال : الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضى
رسول الله .

وروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كتب إلى شريح القاضي : انظر
ما استبان لك في كتاب الله فلا تسأل عنه أحدا ، وما لم يستب لك في كتاب الله
فانصع فيه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .
وقال عبد الله بن مسعود : من عرض له منكم قضاء ، فليقض بما في كتاب
الله ، فإن جاء ما ليس في كتاب الله فليقض بما قضى به نبيه صلى الله عليه وسلم .
فأنت ترى من هذا كله أن السنة هي الأصل الثاني في إنبات الأحكام بعد
القرآن الكريم .

وقد اشترطوا لقبول العمل بالحديث ، والاحتجاج به ، أن يكون متواترا ،
أو صحيحا ، أو حسنا ، وألا يكون فيه قاذح ، كما إذا خالف الراوى من هو
أحفظ منه ، أو أقص ، أو أكثر ، فإنه حينئذ يكون شاذا ، والشاذ لا يحتج به ،
لأنه من قبيل الضعيف . واختلفوا في العمل بخبر الواحد ، والجمهور على قبوله ،
إذا رواه الضابط عن مثله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد صح عن عمر
العمل بخبر الواحد كما في حديث عبد الرحمن بن عوف في الوفاء وغيره ، وكل
ما كان منه رضي الله عنه أنه كان يحب أن يقتت في بعض الأحيان ، ويطلب
الراوى الثاني ، تبعاً للسياسة التي جرى عليها كبار الصحابة في ذلك العصر من
الرغبة في تهليل الرواية ، والتحذير عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، والتضييق
على الرواة ، خشية انتشار الكذب والخطأ ، ودخولها في حديث الرسول .

وهذا ما حدا به إلى أن يطلب من المغيرة ، وأبي موسى ، وأبي من يقوتهم ، وهم ما هم في الثقة بهم ، ولذلك كان يقول لمن شهد معه راو آخر : إنى لم أنهمك ، ولكنى أحببت أن أثبت .

وفيل لأبي هريرة : أكنت تحدث في زمان عمر هكذا ؟ فقال : لو كنت أحدث في زمان عمر مثل ما أحدثكم ، لضربنى بحففته .

وروى أن عمر حبس ثلاثة : ابن مسعود ، وأبا الدرداء ، وأبا مسعود الأنصارى ، وقال : قد أكثرتم الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان معاوية يقول : عليكم من الحديث بما كان في عهد عمر ، فإنه كان قد أخاف الناس في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهذه السياسة نفسها هي التي جعلت أبا بكر لا يقبل من الأحاديث إلا ما شهد اثنان بأنها سمعاه من النبي صلى الله عليه وسلم ، وحلت عليًا على أنه كان يستحلف الراوى .

• • •

للعديث — فيما عدا ما تقدم — أهمية كبرى في فهم معاني القرآن ، والكشف عن الأحكام المنطوية في نصوصه العامة ، وقواعده السكينة ، والإرشاد إلى الكثير منها الذى لولاه لبقى مجهولاً لنا ، غافياً علينا ؛ فإن عدد آيات القرآن يبلغ نحو ستة آلاف ، يصل المتعلق منها بالأحكام نحو مائتى آية ؛ أما مجموع أحاديث الأحكام ، فيقرب من نحو أربعة آلاف حديث . قال الأوزاعى : الكتاب أحوج إلى السنة من السنة إلى الكتاب .

وذلك لأنها تيسره إما من طريق تفصيل المجل ، وتوضيح المشكل ، وتخصيص العام ، وتقييد المطلق ؛ وإما من طريق النظر إلى مجال الاجتهاد فيما بين الطرفين الواضحين ، أو النظر إلى مجال القياس الدائر بين الأصول والفروع ؛ وإما من طريق التفريع على القواعد العامة المستنبطة من أدلة القرآن المختلفة .

فالقرآن أوجب الطهارة للدخول في الصلاة ، والسنة فصلت ما فى القرآن من إجمال ، وبينت الطهارة بنوعها : المائية والترابية ، قولاً وعملاً .

وشرع الصلاة ، ولكنه لم يبين صريحا أعدادها ، ولا أعداد الركعات ، ولا أعداد الركوع والسجود ، ولم يذكر أوقاتها إلا إجمالا ؛ فجاءت السنة ، ويئت كل ذلك تفصيلا ، وعملا ، فكان عليه الصلاة والسلام يصلي بالناس ، ويقول لهم : « صلوا كما رأيتموني أصلي » ، كما يئنت السنة صلوات لم يوجها القرآن ، واعتبرتها نوافل ، منها ما هو مع الصلوات المفروضة ، قبلها أو بعدها ، ومنها ما ليس معها ، ومن ذلك الصلاة الجامعة في يومى العيدين : الفطر ، والأضحي .

وأوجب صيام شهر رمضان ، والسنة يئنت أن المراد الشهر القمري ، وأن الصيام يكون لرؤية الهلال ، والفطر لرؤيته ، وأن الإفطار عمدا موجب للكفارة ، إلى غير ذلك ، كما يئنت استئان صيام جملة أيام من السنة غير رمضان . وأوجب الحج على من استطاع إليه سبيلا ، وأشار إلى بعض أعماله ، كالإحرام ، والوقوف بعرفة ، والسعى بين الصفا والمروة ، والطواف حول البيت ؛ أما السنة فقد يئنت كيفية الإحرام ومحظوراته ، وحدود عرفة ، ووقت الوقوف ، وكيفية السعى والطواف ، وعدد الأشواط ، وغيرها ؛ وقد حج النبي صلى الله عليه وسلم في السنة العاشرة حجة الوداع ، وبئى للناس كيفية الحج بيانا أوفى ، وقال : خذوا عني مناسككم .

وأشار إلى وجوب الزكاة في آيات كثيرة منه ، ولكنه لم يبين بالتفصيل الأموال الواجب فيها الزكاة ، ولا المقدار الواجب دفعه ؛ فيئنت السنة كل ذلك في كتاب بعث به النبي صلى الله عليه وسلم إلى عمال الصدقات .

ولما نزل قوله تعالى : « وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخط الأبيض من الخط الأسود من العجر » ، أشكل الأمر على بعض الناس ، حتى إن رجالا منهم أخذوا اللفظ على ظاهره ، وحملوه على حقيقته ، فوضع أحدهم تحت وسادته عقالا أبيض ، وعقالا أسود ، ثم نظر فلم يتبين ، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فضحك وقال : « إن وسادك لمريض طويل ^(١) » ثم أوضح له ما أشكل عليه ، وفسره بأن المراد يياض النهار وسواد الليل .

(١) يريد أنه مريض قلنا طويلا ، وهو يدل على متعدي التفكير .

وقال القرآن : « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم » ، ففهم بعض الصحابة أن الظلم المراد منه العموم ، حتى قال : « أئنا لم يظلم ؟ » ، فخصص النبي هذا العام بقوله : « ليس بذلك ، إنما هو الشرك » .

وقال : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما » ، وقد فن لم يحدد فصيام ثلاثة أيام ، ذلك كفارة إيمانكم ، : فجاءت السنة ، وقبّلت الإطلاق في الآيتين ، باليمين في اليد ، وبالمتابعة في الثلاثة الأيام .

وأحلّ الطيبات ، وحرم الخبائث ، ولما كانت هناك أمور مشتبهة تردد بين هذين الأصلين ، يمكن إلحاقها بأحدهما ، بيّنت السنة ما اتضح به الأمر ، فألحقت بالطيبات الضبّ والخبائث (١) والأرب والسك ، وما أشبهها ؛ وألحقت بالخبائث كل ذي ناب من السباع ، وكل ذي مخلب من الطير ، ولحوم الحر الأهلية .

وحرم الربا ، ولما كان التحريم منظورا فيه إلى كونه زيادة في غير عوض ، ألحقت السنة عن طريق القياس كل ما فيه زيادة بهذا المعنى ، فقال الحديث : « الذهب بالذهب ، والفضة بالفضة ، والبر بالبر ، والشعير بالشعير ، والتمر بالتمر ، والمالح بالمالح مثلا بمثل ، سواء بسواء » ، يدا بيد ، فن زاد أو ازداد ، فقد أربي ، فإذا اختلفت هذه الأصناف ، فبيعوا كيف شئتم ، إذا كان يدا بيد .

وحرم الجمع بين الاختين ، وقال : « وأحلّ لكم ما وراء ذلكم » ، فنهت السنة من طريق القياس عن الجمع بين المرأة وعمتها أوخالها ، وقالت : « فإنكم إذا فعلتم ذلك ، قطعتم أرحامكم » ، لأن المعنى الذي من أجله دُمّ الجمع بين الاختين موجودهما ، والعليل يشعر بوجه القياس .

وبيّنت بعض المحرمات من الرضاة بقوله : « وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاة » ، فألحقت السنة من طريق القياس أيضا بهاتين سائر القرابات بالرضاة من اللاتي كن يحرم بالنسب ، كالعمة والحالة ، وبنت الأخ ، وبنت الأخت ، وقالت : « يحرم من الرضاة ما يحرم من الولادة » . ومثل هذا الأحاديث الدالة على أحكام سكّتها القرآن ، مثل : جواز الرهن في الحضر ،

(١) ذهب : دوية تعبه الجرثون ، وتكبره قليلا ، والحباري : طائر فذكر والآش .

وميراث الجدة، والحكم بشاهد ويمين. وصدقة الفطر، والوتر، ورجم الزاني المحصن، والقسماء، والدية على العاقلة.

وقال: «ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل»، و«وعاشروهم بالمعروف»، و«ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا»، و«لا تضاروهن لتضيقوا عليهن»، و«لا تضار» والدة بولدها، ولا مولود له بولده؛ ففرعت السنة على القاعدة العامة التي تستنبط من هذه النصوص، والتي تشبه المصالح المرسلة والاستحسان، وقالت: «لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب من نفسه»، و«لا ضرر ولا ضرار»، و«اتقوا الله في النساء، فإنهن عوان عندكم، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله».

ومثل هذا قوله صلى الله عليه وسلم: «من حام حول الهني يوشك أن يقع فيه»، و«دع ما يريك إلى ما لا يريك»، فإنه معرّج على قاعدة «سد الذرائع» المقرر أصليا في نحو قوله تعالى: «ولا يضربن بأرجلهن ليهل ما يخفين من زينتهن»، وقوله: «ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموا أن تطؤروهم فتصيبكم منهم مرة بغير علم، ليدخل الله في رحمته من يشاء، لو تزلزلوا لعدبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما».

وفوق هذا كله، فإن السنة قد تنسخ حكما ثبت بالقرآن — بناء على مذهب القائلين بنسخ السنة للكتاب — وذلك كحديث: «لا وصية لوارث»، فإنه ناسخ لآية الوصية في سورة البقرة، وحديث: «البكر بالبكر جملد مائة»، وتقريب عام، فإنه ناسخ لآية: «واللاني يأتين الفاحشة من نساءكم».

وهكذا كلما استوعبنا واستقصينا وجدنا أن نسبة السنة إلى الكتاب كنسبة الشرح للشرح، والتفسير للتفسير، ووجدنا أنها قد هدتنا إلى أحكام كثيرة، ما كنا لنهتدي لها بمجرد عقولنا، لولا أن كشفتها لنا الأحاديث الشريفة، وبينتها السنة المطهرة.

ومن هذا كله، يظهر لنا في وضوح وجلالة مقدار فضل الحديث، على الشريعة العراء، ومدى أثره في تكوين الفقه الإسلامي، وإثبات أحكامه.

الإسلام والمسلمون

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد المدني

المفتش بالأزهر

دين الإسلام هو دين الله على لسان كل رسول ، منذ عرفت الأرض هداية السماء ؛ عليه كان آدم ، وبه جاء نوح وإبراهيم وإسماعيل ودأود وسليمان ويعقوب وموسى وهرون وعيسى بن مريم ، ومن قصص الله علينا ومن لم يقص من الأنبياء والرسل ، أولئك الذين آتاهم الله الكتاب والحكم والنبوة ، واجتباهم وهداهم إلى صراط مستقيم .

والدين ما هو إلا العقيدة الصحيحة ، والمعرفة الصادقة المطابقة للواقع ، في أمر الإله الواحد القادر ، وما تفضل به على الناس من رسالات ، وما قصت به حكته من بعث ونشور بعد الموت إلى دار الحساب والجزاء . هذا هو الدين لا يختلف لأنه واقع وحقائق ثابتة ، وإن اختلفت الشرائع وتعددت بحسب اختلاف الزمان واستعداد البشر ، لأنها سياسة المجتمع ، ووسيلة إصلاحه وتنويمه .

وقد جاءت الشريعة الإسلامية بأصول راسخة ومبادئ صالحة لأن تنفي عليها أعظم الحضارات ، وأحدث المذنيات ؛ فهي تسير كل صلاح وخير تتفق ههنا العقول ، ولا تنافي على أي نظام من شأنه أن يأخذ بيد الإنسان إلى الصراط السوي ، والسبيل القويم ، ويكفل له السعادة والطمأنينة ، ويمكنه من القيام بما ندب له من عمارة هذا الكون ، والخلافة من الله في هذه الأرض ؛ ولذلك كانت خاتمة الشرائع ، وكفل الله لها الخلود والبقاء بكفالتهم لكتابه الكريم الذي هو أساسها ، وعمادها ، ونورها الذي لا يخبو ، ومنبعها الذي لا ينضب ؛ وكان التكليف بها عاما لسائر أرباب العقول في كل زمان ومكان ، ناسخا لما سواه

من التكاليف بما يتعارض معه ، وأرسلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيئنا عليه ، فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق . .

بهذا وذاك يعلم أن الهداية الإلهية قد تخلصت وتركزت في الإسلام عقيدة وشريعة ، وأن الرسالة المحمدية هي مظهر الإنعام الكامل من الله على سائر خلقه ، لا فرق بين عربي وعجمي ، ولا بين شرق وغرب ، ولا بين أبيض وأحمر وأسود ، منذ عهد الرسول العربي إلى أن يقوم الناس لرب العالمين ، قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون . .

ومن الواضح أن سنة الله في خلقه لم تجر بخلود أحد من الناس ، ولو كان نبيًا مرسلًا ، حتى يخلد محمد بن عبد الله : ، وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ، ، ولا بأن تمتد الحياة بذى رسالة إصلاحية حتى يضرب في القرون ، ويتنقل على الأجيال والأزمان ، ويباشر بنفسه دعوته ، ويحقق رسالته ؛ ولذلك عاش الرسول العربي العمر الذي يمشيه أوساط الناس ، ثم لحق بربه تاركًا من خلفه رسالته الواضحة المعالم البينة الحدود ، الكاملة الشاملة التي رضيها الله للعالمين ، اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينًا . . وانتقل بذلك أمر هذه الدعوة في حياتها وصونها وإبلاغها إلى كل ذى سمع وعقل وجواب الآفاق بها ، إلى المؤمنين الذين اتبعوا هذا النبي ، وآمنوا بعموم رسالته ، وبأنهم ورثته على شريعته ، وقوائمه على أمانته ، وقد ساروا حينًا من الدهر في هذه السبيل ، يدفعهم الإيمان القوي ، وتقضى لهم تعاليم الرسول وسيرته التي لم تبرح أدهانهم ولم تغب عن عقولهم وقلوبهم ، كل شعب من شعابها ، وكل أفق من آفاقها ، حتى مد الإسلام رواقه في قريب الأرض وبعيدها ، وضرب بجرانه — أو كاد — على كل ما أظله السحاب ، أو أمطرته السماء ، وطرفت الدعوة المحمدية ، أو الدعوة الإلهية ، كل باب ، وأطرق إليها كل سمع ، وفكر فيها كل قلب ، وشغل الناس والدول والملوك بأمرها ، ولقنت العقول عليها وفقها وروايتها ، وشهد العالم على يديها أعظم رجة

فكرية ، بل شهد فيها أعظم موجة تتلعب الثقافات والأفكار والعلوم والمعارف والمعادن والقاليد ، ثم تهمسها وتمثلها وتلائم بينها ، كما تصنع النحل حين تنص من الأزهار والذرات وتأكل من كل الثمرات ، وتسلق سبل ربها دُلا ، ثم يجتني منها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس .

كانت الأمة يومئذ أمة ملك وسيادة ، وعزة ومنعة ، وكان لها القيادة والصدارة ، وكان عليها هو العلم ، ورأيها هو الرأي ، وأمرها هو الحكم ، وكانت الأمم تنبئ إلى ظلها ، وتؤمن بعلمها ، وتهتدي بهديها ، وتنافس في إرضائها والتقرب إليها ، وتعاشى لإغضاها والتمرض لتقمعها ؛ وتلاقى في رحابها المنصات في العلم والصناعة والتأليف والترجمة والهندسة والفن ، وأخصبت العقول ، وزكت الثمرات ، وازدهرت صحائف التاريخ بالمفاخر وألوان المجد وأمثلة العظمة والمبقرية والبوغ في كل ناحية من نواحي الحياة .

تلك كانت حال المسلمين من قبل ، فما حالهم اليوم ؟ لقد أصبحوا غناء كغناء السيل ، عددهم كثير ، وغناؤهم قليل ، لا يؤمنون صديقا ، ولا يرهجون عدوا ، تداعت عليهم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها ، وتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون ، وتعلقوا بالأمم التي قهرتهم ، ونسوا كتاب ربهم ، وهجروا شريعتهم ، وغفلوا عن تاريخهم ، وأصبحوا في كل مكان هم المضطهدين ، وركدت في العلم والفكر ريحهم ، وعفمت عن الإنشاء والاختراع عقولهم ، وطمع فيهم من لا يدفع عن نفسه من شذاد الآفاق ، ووضعاء الأخلاق ، ودخلت عليهم الفتن من سائر الأفطار ، فهم منها في عناء دائم وهم مقعد مقيم ، وخيّل لهم الضعف والذل أنهم قادرون على استرحام أعدائهم لأنفسهم ، فالتمسوا منهم الممدلة والإنصاف ، وشكوا إليهم الظلم والإجحاف ، شكوى الجريح إلى العقبان والرخم ، أو شكوى الشاة إلى الذئب إذا الذئب على الشاة جثم ، وما دروا أن ذلك يصوى بهم ، ويفتح الشمية عليهم ، وأنهم حين يتوسلون إلى مفرسيهم ، يثيرون فيهم كوامن اللذة الحيوانية ، وينبهون منهم غرائز الوحشية والبهيمية ، وأنهم بذلك ينسكبون سعة الله في خلقه ، حيث طمعوا في الإفلات من الأقوياء ، بإظهار الضعف والاستخذاء ، وينسون قول كتابهم « ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب

ولا المشركين أن يزل عليكم من خير من ربكم . . لا يألونكم حبالا ودوا ما عنتم ، قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر ، وإن تمسكم حسنة تؤثم ، وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها .

ولا ينبغي أن نطيل في هذا الحديث المؤسف المؤثر ، لحالة المسلمين ليست في حاجة إلى الكلام عنها ، والإطناج في وصفها ؛ فلننح بالبحث عن أسباب هذا الضعف ، وأسرار هذا التخلف .

وموعدهنا بذلك العدد المقبل إن شاء الله ؟

الاجواد

من الاجواد المعدودين يزيد بن حاتم ، قيل كان ربيعة الرقي قد قدم مصر فأتى يزيد بن حاتم السلي فلم يعطه شيئا ، وشغل عنه ببعض الامر ، فخرج من مصر وهو يقول :

أراني ولا كفران لله راجعا بخني حنين من مال ابن حاتم
فلما بلغ ذلك يزيد سأل عنه فقيل قد رحل ، فأرسل في طلبه فأتى به ، فقال له ماذا قلت ؟ فأئشده البيت . فقال له . قد شغلنا عنك ، ثم أمر بخفيه نخلعنا من رجله ؛ وملئنا مالا . وقال ارجع بهما بدلا من خفي حنين . فقال فيه لما عزله عن مصر وولى غيره :

بكي أهل مصر بالدموع السواجم غداة غدا منها الآخر ابن حاتم
ومنها قوله :

لشتان ما بين البيزدين في الندي	يزيد سليم والأغر ابن حاتم
فهم الفنى الأزدي إنسلاف ماله	وهم الفنى القيسى جمع الدرهم
فلا يحسب التفتام أنى مجوءه	ولكننى فضلت أهل المكارم

الرحمة

عضيلة الأستاذ الشيخ عبد الرحيم العدوي

شيخ معهد فؤاد الاول بأسسوط

الرحمة : انقسامه من نور في ثغر الوجود ، وكوكب دري في تاج الإنسانية ، وصفحة يضاء في تاريخ الجماعات ؛ وهي بشير الخير للنفوس التي عضها الدهر بنابه ، وأصابها بأوصابه . هي كلمة قليلة الحروف ، كثيرة المعاني ، يمر صداها بالآذان فتش للصدى ، ويخترق اسمها أجناف الافة ، فتحنس له طمأنينة دونها طمأنينة الغريب آب إلى وطنه ؛ وتمر بالصدور فتدع فيها انشراحا يفسح أمامها باب الرجاء . وإن قلباً يحمل بين ثيابه هذه العاطفة لقلب خصه الله بخير المزايا ، ومنحه أفضل السجايا .

والرحمة : قد تكون وضاحة الجبين باسمه الثغر ، إذا كان أثرها إيجابياً ينجب الخير ، ويولد البر ، ويسدى المعروف ، ويبص الصديقه ؛ وقد تكون عابسة الوجه كسيرة الخاطر مقطبة الأسارير ، إذا كانت رضا بالقضاء عند المصيبة ، وصبراً في الشدائد والملمات ؛ وهي في هذا الوقت أعز مثالا ؛ لأنها علامة سمو النفس وشاعتها ؛ وأبلغ أثراً عند العقلاء ، لأنها تحمل يدها الإيمان الذي لا يتزعزع ، والعقيدة التي لا تؤثر فيها حوادث الدهر ونكبات الأيام ؛ وفي طيات هذا كثير من خصال البر وخلال الإحسان : الإحسان إلى النفس والإبقاء عليها كادحة في هذا الوجود ما دامت تسبح في مجاهه ، وما ظلت تلاطم أمواجه ؛ وإحسان إلى الناس لأنها إذ ذاك توحى أن التراحم فضيلة بين الأنام ، وأن التواد صلة قوية بين أفراد الجماعات ؛ ولو تراحم الناس كما يقول بعض الأدباء ، لما كان بينهم جائع ، ولا عريان ، ولا مغبون ، ولا مهضوم ، ولا فقرت الجفون من المدامع ، وأطمأنت الجنب في المضامع ، ولحمت الرحمة الشقاء من المجتمع كما يحو لسان

الصباح مداد الظلام . وإليك مثالا بارعا وصورة فاطمة ، لتلك الرحمة الاليفة التي تحمل الصبر ، وتسوق بين يديها الجلود .

كان لآبي طلحة ، وهو من صحابة الرسول ، ولد مريض ، وكان كلما قدم من عمله سأل أمه عنه ، فتصف له حاله : وفي ذات يوم مات الولد وأبو طلحة في عمله : فلما قدم سأل عنه كمادته ، فقالت له امرأته : إنه لم يكن بحال أحسن من حاله اليوم . ثم قدمت له طعامه وشرابه فطعم ، فلما أخذ قسطه من الراحة ، قالت له : يا أبا طلحة ألا تعجب لجيراننا : استودع بعض الناس لديهم وديعة فلما جاءوا يطلبونها غضبوا وسخطوا ! فقال : بئس ما صنعوا ، الوديعة مردودة شاءوا أم أبوا . فقالت له : إن أبك كان وديعة لدينا ، وقد استردها مولى البرايا ومالك الملوك ! . فزاد على أن استرجع . ثم ذهب الى الرسول فأخبره الخبر ، فأثنى على امرأته وبشره بأنه سيولد له أولاد كثيرون . وقد حقق الله بشارته الرسول لآبي طلحة رضى الله عنه ، فولد له عشرة أولاد كلهم حفظ القرآن .

ولعل مثل هذا الصبر الحارم ، وذلك المنطق الحكيم البارع ، هو الذى يعنيه الرسول الكريم حين يقول : « إن لله في أثناء كل محنة منحة » .

فالرحمة كما ترى شعار الروح القوى ، وخلة النفس الكاملة ، وعنوان الإنسانية الفاضلة ، تحوطها نجوى الخير ، وتسوقها روايا الإحسان . فلا غرابة إذا أعجبت الحب الصحيح ، والود الخالص ، وجمال الاحدثة ، وحسن التقدير في هذه الحياة التي لا يظفر امرؤ فيها برضا الجماعة إلا اذا خصه الله برحمته ، ومنحه كمال نعمته . أما صاحب الرحمة فيسكون في دار الجزاء مع النيين والصديقين والشهداء ، والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا .

والرحمة قسيان :

فهى إذا أضيفت الى الله كانت منبع السعادة ومصدر الخير والبركة ، وهى دائمة باقية عامة شاملة . ورحمتى وسعت كل شيء . . وقد صور المصطفى صلوات الله وسلامه عليه سعة رحمة الله بأبلغ تصوير حيث يقول : جعل الله الرحمة مائة جزء . فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءا ، وأنزل في الأرض جزءا واحدا ، فمن ذلك الجزء

يتراحم الخلق جميعهم حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه . . وسمع النبي وهو في صلاته أعرايا يدعو فيقول : اللهم ارحمني وارحم محمداً ولا ترحم معنا أحداً . فقال له الرسول : يا أبا العريب لقد ضيقت واسعا . ورأى صلى الله عليه وسلم امرأة في السبي تحلب ثديها وتسق كلبا سقت حيا ألقفته يطنها . فقال لأصحابه : أنزروا هذه طارحة ولدها في النار ؟ فقالوا لا يا رسول الله . فقال : إن الله أرحم بعباده من هذه بولدها ، فهو سبحانه رحيم بالخلق عامة حتى العصاة يمهلم رجاء التوبة . وفي ذلك يقول القرآن الكريم : « وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فانه غفور رحيم » .

ورحمته سبحانه وتعالى تارة تكون مادية كتسخير السموات والأرض للإنسان والحيوان ، وتيسير الرزق للخلق ، كما تشير له الآيات الكريمة : « فانظر إلى آثار رحمة الله كيف ينجي الأرض بعد موتها . . ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته . . ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » .

وتارة تكون رحمته معنوية ، وهي إذ ذاك أرفع شأنا من الأولى ، وأبلغ أثرا في تكوين الإنسانية . ومن مظاهرها إزال الكتب وإرسال الرسل رحمة بالعباد ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل . ويقول القرآن الكريم في محمد صلوات الله وسلامه عليه « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » . ولعل الحكمة في هذا التخصيص والتشريف أنه خاتم الأنبياء ، وأن شريعته خالدة مؤبدة تعتمد الفطرة وتسائر ما يعلفه الإنسان ، وتظهر فيها آيات التخفيف واضحة جليلة : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » . وقد صح أنه عليه الصلاة والسلام « ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما » .

وإنك لتجد نماذج كثيرة في شريعة محمد صلى الله عليه وسلم هي عنوان الرحمة والتخفيف على العباد : فقد قضت الشريعة بإسقاط العبادة للأعذار كالنحج إذا فقد أمن الطريق ؛ ونقصت من المفروض كقصر الصلاة في السفر ، وأقامت التيمم بالتراب مقام الوضوء ، وما إلى ذلك من مظاهر

التخفيف ودفع الحرج عن الناس . بل إننا لو بحثنا قليلا لوجدنا أن نفس التكاليف محدودة لا إرهاق فيها ولا إغاثات ؛ يقول الله سبحانه وتعالى : يا أيها الذين آمنوا لا نألوأ عن أشياء إن تبدلتم تسؤكم ، ويقول الرسول للأقرع بن حابس حين سأله عن الحج أواجب في كل عام : لو قلت نعم لوجب ، ذروني ما تركنكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة مسألتهم واختلافهم على أنبيائهم .

وبعد ، فقد كان من شرايع الاسلام ما جعله الله تعزفا لما بين جوامع الناس من رحمة وسبراً لغور استعدادهم لحلال البر ؛ كالصوم فإنه ابتلاء للناس في أمانتهم وصدقهم وشجاعتهم ، وهو فوق ذلك امتحان لهم في مقدار ما يحلون بين جوامعهم من مظاهر الرحمة والعطف على الضعفاء والمعوذين .

أما الأراحم بين الناس ، فهو مخلوق كما قلنا جميل ، وعاطفة نبيلة ؛ ومن مظاهره إغاثة الملهوف ، وإغاثة المنكوب ، والرفق بالضعفاء ، حتى بالحيوان الأعجم الذي يبكي بغير دموع ، ويذبح ولا يمين ، والذي عني الرسول بأمر الإحسان إليه والرحمة به ، حتى عند ذبحه والانتفاع به كسمة من نعم الله ، حيث يقول : إن الله كتب الإحسان على كل شيء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبيحة ، وليحد أحدكم شعرته ، وليرح ذبيحته . وإن الله الذي خلق الناس جميعا من طينة واحدة ، هو الذي خاق فيهم غريزة الرحمة وأسكها بين جوامعهم ، يحسون بها وبطبعون عليها ، وتبدو آثارها في صور شتى وأشكال متنوعة . فالرحمة هي التي تجعلك ترحم الأرملة الضعيفة التي سكها الدهر في عالمها ولم يترك لها غير صبية صغار ودموع غزار ، موقنا أن اليد التي تصون الدموع خير من التي تريق الدماء ، والتي تشرح الصدور أفضل من التي تقسم الطهور . والرحمة هي التي تجعلك تمسح دموع اليتيم بما يخفف عنه آلام اليتيم والموز . والرحمة هي التي تجعلك تقضي بمالك وجاهك في سبيل تعليم أولاد الفقراء ونشئتهم تنشئة حسنة ؛ فقد قيل .

كم طوى البؤس فوسا لورعت منبتا خصيا لكأنت جوهر

والرحمة هي التي تجعلك على إنقاذ الفريق مع ما في ذلك من التعرض للخطر

الجسم . والرحمة هي التي تسير بك سراة لتساعد الشيخ الفاني ، وتعين العاجز المسكين .

وقصارى القول وحماة : أن الرحمة هي التي تحمل الشخص على التضحيات في النافع المفيد ، والإيثار في كل الأمور . فها هي ذى أم رموم تضي براحتها وتسهر ليها بجموار طفلها المريض ، تتعهد تطورات المرض ، والفسس والهة ، والقلب خفاق . وهذه عرصة تقوم بواجبها تخاصم السكرى ، وتحالف السهاد ، لتقذف نفوسا مشفية على التلف ، وأرواحا برحتها الاسقام .

وبعد ، فهذه الرحمة على سمو مكانتها لها حدود لا يصح أن يتجاوزها ، ولها أفق لا يجوز أن تتعداه . فعقاب المجرم الجاني وإقامة الحد عليه رحمة حقيقة به ، ورحمة بأمته أيضا ؛ وترك الحد والعقوبة جريمة كبرى : لأن الله يقول : ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله ، ورسوله المكرم يقول : لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

وإن تعجب فعجب لأولئك الذين يخطئون خطأ فاحشا في تفسير معنى الرحمة وتتهم مغزاها الحقيقي ، ويسبون تطبيقها على حوادث الأفراد ، ويضعونها في مواضع لا لزهاها ، لشرف مكانتها وسمو منزلتها ، ويرجون باسمها الجميل في مظان الشر والفساد ، فزاهم ينسبون لفعل من الأفعال صدور عن الرحمة ، والرحمة منه براء .

وأولئك الذين يرون اللص وقد قبض عليه متلبسا بجريمته مساقا إلى المحاكمة ، وإذا بالسفهم تصم آذانك منادية بإخلاء سبيله رحمة به وإبقاء على أطفاله الصغار - يخطئون في فهم معنى الرحمة . وأي رحمة تلك التي تعرض في الأفراد الشر وتمهد لهم سبيل الفساد ؛ إنها رحمة زائفة ، وإنها عاطفة شريرة ، يجب أن يقضى عليها رحمة بالمجتمع واحتفاظا بسمعة الجماعة ، لتسود الطمأنينة وييم الأمان . وأولئك الذين يعطون على المريض بإعطائه الطعام الذي يصره ويقرب ما بينه وبين الموت ، مع علمهم بتحذير الطبيب وإلذاره بسوء العاقبة إن أقدموا على ذلك - لا يسدون إليه عطفًا ورحمة ، وإنما يسيمرون به قدما إلى الفناء . وأولئك الذين يفضون عن هفوات الاطفال في نشاطهم ، ويتركون حبههم على غاربهم بدعوى الرحمة والعطف -

هم مجرمون في حق الأطفال ، وفي حق البلد الذي يعيشون بين جوانبه . والله در
المتنبى حيث يقول :

فقسا لزدجروا ، ومن يك حارما فليقس أحيانا على من يرحم

وعجب أيضا أمر أولئك الذين يقدمون على بعض الأمور التافهة ، فيظنون
أن ذلك من الرحمة ، ولا يدرون ما تلده أفعالهم من صفات الشر وخصال الفساد .
فهذا راكب في الترام يريد النزول فيه على تذكرته لراكب آخر عطفًا منه عليه
ورحمة به وإبقاء على دراهمه ، ولا يشعر أنه جان أثيم حتى على نفسه فتتح لها باب
الحياة ، وجنى على صاحبه ففرس فيه الجرأة على الحقوق وأكل أموال الناس
بالباطل ، ومهد له طريق المران على الكذب والزور ، وحرمه الصدق والأمانة ،
والكرم والجود .

ومرد كل هذا الذي سردنا من الحوادث إلى ضعف الوازع الديني ، ومرض
الصبار ، وطغيان العاطفة على سلطان العقل ، وغلبة الجيول الفاسدة ، والعرائر
الجامحة على نوايا الخير ، وسوء التقدير في الموازنة بين المقدمات والنتائج .

خطب الحجاج يوما في الناس فأطال حتى كاد يفوت على الناس صلاتهم ، فقال
رجل : أيها الأمير إن الوقت لا ينتظرك فأمر به حبس ، فجاء قومه يستشفعون
له وقالوا للحجاج : إنه مجنون ونطلب إخلاء سبيله رحمة به . فقال الحجاج : إن أقر
بذلك أطلقت سراحه . فلما عرضوا هذا الموضوع على السجين رفضه بإباء فقال :
بئست هذه الرحمة ! ماذا أقول : إن الله ابتلىني مع أنه قد عاقبني . فعمطت
مقالته عند الحجاج وخطى سبيله .

هذه كلمة بجلى عن الرحمة ومظاهرها ، وخطأ الناس في فهمها وتطبيقها ، قصدت
بها لإيقاظ الصبار وتبيه ذوى الغفلة ، والخير أردت ، وما توفيق إلا بالله ، وهو
حسبي وذي الوكيل .

تحويل القبلة من بيت المقدس الى الكعبة

لفضيلة الأستاذ الشيخ الطيب حسن النجار
المدرس بكلية أصول الدين

بلغ بما المطاف في المثال الثالث : إلى أن جمهور العلماء يرون أن أمر التوجه إلى الكعبة في الصلاة هو ناسخ لحكم التوجه إلى بيت المقدس ، وأن البعض يرى أن التوجه إلى بيت المقدس قد انتهى بقوله تعالى : « والله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله » ، المنتصى كون المصلي غييراً في التوجه إلى أي جهة شاء ، فيكون ناسخاً لحكم التوجه إلى جهة معينة . ثم انتهى هذا بقوله تعالى : « فويل وجهك شطر المسجد الحرام » .

والآن نعرض إلى معالجة هذا الموضوع بمناقشة الأدلة ، وترجيح ما توفرت لديه أسباب الترجيح ودواعيه ، مع الجمع بين النصوص الواردة في هذا الشأن ، وإزالة ما عسى يتراءى للناظر من تعارض ؛ فنقول :

بالرجوع إلى الصحيحين في باب تحويل القبلة ، نجد الأحاديث متضافرة على أن الرسول صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة كان يصلي إلى بيت المقدس ، حتى نزل قول الله تعالى : « فويل وجهك شطر المسجد الحرام » ، فعلى إلى الكعبة . من ذلك ما روى في صحيح مسلم عن البراء بن عازب ، قال : « حلت مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً ، حتى نزلت الآية التي في سورة البقرة » ، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره ، فنزلت بعد ما صلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فانطلق رجل من القوم فربّنا من الأفسار وهم يصلون فحدثهم ، فولوا وجوههم قبل البيت » .

وما روى عن أنس : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلي نحو بيت

المقدس فزلت ، وقد نرى قلب وجهك في السماء فلذلك قبلة ترضاها ، قول وجهك شطر المسجد الحرام ، ، فر رجل من بنى سلمة وهم ركوع في صلاة الفجر وقد صلوا ركعة ، فنادى : ألا إن القبلة قد حولت . فقالوا كما هم نحو القبلة ، . فهذان النصان يشهدان لما يراه الجمهور من أن الأمر بالتولية إلى الكعبة ناسخ لحكم التوجه إلى بيت المقدس .

وأما قول الله تعالى : ، والله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ، فليس مُساقا للتخير ، كما يرى بعض العلماء : لأن هذه الآية لو سبقت للتخير وكان النبي صلى الله عليه وسلم غيرا ، لما سأل جبريل أن يصرفه الله عن بيت المقدس إلى الكعبة ، وكان يختار الكعبة بدون سؤال .

وإني أسوق إليك معنى الآية ليظهر الحق في ضاحية الشمس ، فيقتلع ما في نفسك من شبهة ، ويبحث جذور كل لبسة . يقول الله تعالى : والله المشرق والمغرب ، وكل الجهات ملكا وتصرفا ، لا يختص به مكان دون مكان ، فإن مُنعم الصلاة في المسجد الحرام ففي أى مكان قلمت تولية وجوهكم نحو القبلة التي أمر بها بقوله ، قول وجهك شطر المسجد الحرام ، فثم وجه الله الذي تصلون إليه وتقفون بين يديه .

على أنك لو رجعت إلى سبب نزولها ، لارتفع الثقاب ، وبان وجه الصواب : فمن ابن عمر أنها نزلت في صلاة السفر والتطاول على الراحة . وقد روى البخاري عن جابر قال ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي على راحلته حيث توجهت ، فإذا أراد الفريضة نزل فاستقبل القبلة ، . وعن جابر في سبب نزولها أنها نزلت في قوم صميت عليهم القبلة فصلوا إلى جهات تبين لهم بدء أنهم لم يصيبوا القبلة .

وأما ما احتج به البعض بما روى عن ابن عباس من أن أمر القبلة أول ما نسخ من القرآن ، والأمر بالتوجه إلى بيت المقدس غير مذكور في القرآن بل المذكور قوله تعالى ، والله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ، فوجب أن يكون قوله تعالى ، قول وجهك شطر المسجد الحرام ، مائتخا لحكم التخير —

فيجاب عنه بأن التوجه إلى بيت المقدس كان بوحى . ويدل على ذلك قول الله تعالى : « و اجعلنا القبلة التي كنت عليها ، أى ما حكمنا وشرعنا لك القبلة التي كنت عليها وهي بيت المقدس ، إلا لتعلم من يتبع الرسول ممن يقلب على عقبيه . وما روى في فتح الباري من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : لما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة واليهود أكثر أهلها يستقبلون بيت المقدس ، أمره الله أن يستقبل بيت المقدس ، فقرحت اليهود ، فاستقبلها سبعة عشر شهراً ، وكان الرسول يحب أن يستقبل قبلة إبراهيم ، فكان يدعو وينظر إلى السماء فزلت ، أى قوله تعالى « قد نرى قلب وجهك في السماء ... الآية » .

فقول ابن عباس : أمره الله . يدل دلالة بينة لا تدع لبساً ولا توهماً على أن التوجه كان بأمر الله وبوحى منه إلى نبيه ، ولم يكن ذلك عن اجتهاد من الرسول عليه الصلاة والسلام .

قد يجرؤ بك حب النقاش إلى أن هذا الحديث يتعارض مع ما تقدم عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي بمكة نحو بيت المقدس والكعبة بين يديه ، وفي رواية : والكعبة بينه وبينه : فنقول : الخطب سهل وأيسر مما توهمت ؛ إذ يمكن الجمع بينهما بأن يكون الرسول لما هاجر أمر أن يستمر على الصلاة إلى بيت المقدس . يؤيد هذا ما أخرجه ابن جرير الطبري من طريق ابن جريج قال : صلى النبي صلى الله عليه وسلم أول ما صلى إلى الكعبة ، ثم صرف إلى بيت المقدس وهو بمكة ، فصلى ثلاث حجج ، ثم هاجر فصلى إليه بعد قدومه المدينة ستة عشر شهراً ، ثم وجهه الله تعالى إلى الكعبة .

فهذا صريح في الجمع المذكور ورفع التعارض المزعوم بين حديثي ابن عباس . وبالنظر إلى ما هما وما تقدم حال الكلام على قوله تعالى « وما جعلنا القبلة التي كنت عليها ، يتجلى لك أن الأقوال التي قيلت في شأن الجهة التي كان يتوجه إليها الرسول في الصلاة قبل الهجرة - ثلاثة :

أحدها : أنه كان يصلى إلى بيت المقدس ، إلا أنه كان يحمل الكعبة بين يديه ، وهذا هو ظاهر ما ورد عن ابن عباس .

ثانيها : أنه كان يصلى إلى بيت المقدس فقط ، وبعد الهجرة صلى إليه سبعة عشر شهراً .

ثالثها : أنه كان يصلى إلى الكعبة ، وبعد الهجرة صلى إلى بيت المقدس سبعة عشر شهراً ، ثم أمر بالتوجه إلى الكعبة .

ولا شك أن هذا القول الأخير يستدعى دعوى نسخ القبلة مرتين .

والقولان الأولان لا يستصحب عليك إرجاع أحدهما إلى الآخر ، بل ذلك على طرف الثام ، وتحت مواقع الأنظار .

هذا ، ولقد اختلفت الرواية في شأن المدة التي صلى فيها إلى بيت المقدس وهو بالمدينة : ففي رواية أنها سبعة عشر شهراً على سبيل الجزم ، وفي رواية أنها ستة عشر شهراً على سبيل الجرم أيضاً ، وفي رواية مالك بين ستة عشر شهراً وسبعة عشر شهراً . وطريق التوفيق بين هذه الروايات هو أن يكون من جزم بأنها ستة عشر شهراً لفق من شهر القدوم وشهر التحويل شهراً وألغى الزائد ، ومن جزم بأنها سبعة عشر شهراً عدّها معاً ، ومن شك تردد في ذلك . وذلك أن القدوم كان في شهر ربيع الأول بلا خلاف ، وكان التحويل في نصف شهر رجب من السنة الثانية على الصحيح ، وبه جزم الجمهور . وهالك أقوال غير ما ذكرنا تعتبر شاذة فلا داعى إلى التعرض إليها ، لذلك أسدلتنا عليها الستار ، وخربنا عنها صفحاً .

وأما الصلاة التي تحولت القبلة عندها ، والمسجد الذي صلى فيه أول صلاة إلى الكعبة بالمدينة ، فقد اختلفت الرواية في ذلك أيضاً : فظاهر حديث البراء بن عازب من البخارى ، أن أول صلاة صلاها الرسول إلى الكعبة بعد الأمر بالتوجه إليها ، هي صلاة العصر ؛ لقوله : وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة البصر . . . وفي رواية أبي سعيد بن المولى أنها الظهر في مسجد بنى سلمة ، وفي رواية أنها الصبح بأهل قُبَاء ، كما في حديث ابن عمر ، على ماسياتى :

والتوفيق بين هذه الروايات هو ما جنح إليه الحافظ ابن حجر في كتاب الإيمان من البخارى ، حيث قال : والتحقيق أن أول صلاة صلاها في بنى سلمة

لما مات بشر بن البراء بن معرور (الظهر)، وأول صلاة صلاها بالمسجد النبوي (العصر)، وأما الصبح فقد صلاها أهل قباء بمسجدهم كما في حديث ابن عمر، قال: «بينا الناس بقباء في صلاة الصبح إذ جاءهم آت فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنزل عليه الليلة قرآن، وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها، وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة».

وهناك روايات في هذا الموضوع يخالف بعضها بعضاً أثبت العلماء ضعفها، لذلك أسدلت الستار عليها، ونصديت لما صح لحسب.

وقد أخذ العلماء من حديث ابن عمر فوائد جلية؛ منها:

١ — أن الناسخ لا يلزم حكمه المكف قبل أن يبلغه وإن تقدم نزوله، فأهل قباء أدوا صلاة العصر، والمغرب، والعشاء، إلى بيت المقدس قبل أن يعلبوا بتحويل القبلة، ولم يؤمروا بإعادتها بعد.

٢ — قبول خبر الواحد ووجوب العمل به، ونسخ ما تقرر بطريق العلم به؛ فقد كانت صلاتهم إلى بيت المقدس بطريق القطع لمشاهدتهم صلاة الرسول إلى جهته، وقد وقع تحولهم إلى الكعبة بحبر الواحد كما هو في حديث ابن عمر. ويرى بعض العلماء أن خبر الواحد لا ينسخ ما علم بطريق القطع، والذي وقع هنا إنما هو لما احتف به من القرآن والمعدات التي أفادت العلم الجازم عدم بصديق ذلك الخبر.

ويرى بعضهم أن خبر الواحد يكو ناسخاً في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم فقط، وكأهم يظرون إلى أن الرسول متى كان بين ظهرانيهم لا يقول عليه أحد ممن تبعه لنيسر الرجوع إليه.

٣ — تعليم من ليس في الصلاة من هو فيها، وأن استماع المصلي للكلام من ليس في الصلاة لا يفسد صلاته.

٤ — أن استدارة هؤلاء القوم إلى الكعبة وهم في الصلاة بدون أن يستأنفوها، يدل على أن المصلي إذا تحرى جهة القبلة ثم تغير اجتهاده وهو في الصلاة فإنه يستدير إلى الجهة التي تغير إليها اجتهاده ولا يستأنف صلاته من جديد.

وقد استبان لك من حديث القبة أن الذين لم يتجاوزوا الإسلام حتاجهم فكصروا على أعقابهم ، وليس الإسلام بهم إلى حاجة « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » .

وأن من تعامل الإيمان في قرارة قلوبهم ثبتت أقدامهم ، فاستضاءوا بنور الإسلام ، وجتوا ثمرات الإيمان ، وفشروا مطارف الحكمة ، وهدوا ما قطن له جبين الدهر .

وأن القائم على أصل صحيح لا تزعزعه هوجاء العواصف ، وإن قل أنصاره ، والقائم على غير أصل تلعب به الرياح ، ولا يلبث أن يزول وإن كثرت أعوانه . فالحق قوى البطش لا تلين له قاة ، يصرع الباطل ويدمغه فإذا هو زاهق ، إن الباطل كان زهوقا . وغير ذلك مما شرف الله به رسوله وأمة ، لجمل لم خير قبة كما جعلهم خير أمة .

ولقد كان من حديث القبة ما يرشد إلى مبلغ كرامة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم عند ربه وعظيم شرفه ، ورفع منزلته ، أجابه إلى ما قرئ به عينا ، وطاب به نفسا ، وتهلل فرحا وبشرا .

وقد ساق الله تعالى له بشارة قوة شكيمة الإسلام وعرة جافبه وإتمام النعمة وكال الهداية بقوله عز وجل « فلا تخشوم واخشون ، ولا تم نعمق عليكم ولعلكم تهتدون » .

واقه أسأل أن يجعلنا ضمن من أتم عليهم النعمة ، وهداهم إلى سواء السبيل ؟

عبادة شاعر

دخل محمد بن عبيد الله على أمير المؤمنين المشوك العباسي في شكاة له يعوده ، فقال :
الله يدفع عن نفس الإمام لنا وكلنا للبايا دونه عرض
فليت أن الذي يعموه من مرض بالعائدين جميعا ، لا به المرض
فبالإمام لنا من غيرنا عوض وليس في غيره منه لنا عوض
فما أبالي إذا ما نفسه سلت لو ياد كل عباد الله وانقرضوا

بين الشريعة والقانون نظرات في توثيق المعاملات المالية

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الطيف السبي
المفتش بإدارة الأزهر والمعاهد الدينية

تمهيد :

راعت الشريعة الإسلامية فيما تناولته من نظم المعاملات أمرين تتمثل فيهما طبيعة الإنسان ، ولها اتصال وثيق بالتعامل بين الناس .

أحدهما — أن المرء قد ينسى ما يجري بينه وبين غيره من أمور تدعو المصلحة يوماً ما الى تذكرها ؛ كأن تشتمل المعاملة على دين أو شرط ، ثم يطول الزمن فيكون الدين أو الشرط عرضة للنسيان .

ثانيهما — أن المرء قد يظلب عليه الطمع فيما لديه من حق لغيره فيجعه ، أو قد ينتقل الحق الى وارث عن مورثه ، أو يتحول الدين عن دمه المدين ويتعلق بالمال المنقول الى وارثه .

وفي كل حالة من تلك الحالات أو ما يماثلها ، قد ينشأ الخلف ، ويثور النزاع ، وتعرض الأموال لأن تؤكل بالباطل من جانب الآخذ أو المعطى ، فلا يكون للثقة بين الناس موضع من نفوسهم ، ولا للظام استقرار بينهم . . وما كان تنظيم المعاملات في الإسلام إلا لقطع المنازعة ، كما هو مشهور على ألسنة العقباء .

راعت الشريعة هذين الأمرين ، فأنت بأنواع من عقود المعاملات لا يراد منها بالذات حصول على المال أو المنفعة بطريق من طرق التبادل ، وإنما قصد منها صيانة الأموال ، وضمان العقود التي شرعت لتحصيل تلك الأغراض أن يعتورها نكول ، أو يحيف بها تلاعب ؛ ومثالها : عقد الرهن ، والضمان ، والكفالة ، والإشهاد الكتابي ، وما الى ذلك ، على ما يأتي . . وعلى هذا تتنوع العقود إجمالاً

الى عقود تعتبر أصولا كمقد البيع والإجارة والسلم ، وأخرى تعتبر فروعا أو تابعة لتلك الأصول كما مثلنا بالرهن والصبايح الخ . وكما صح أن ننظر الى الغرض المقصود من العقد فنسمى عقود التمليك في البيع ونحوه أصول المعاملات ، فقد صح أن نسمى العقود التابعة لها عقود التوثيق للمعاملات ، وإن يكن اصطلاح المؤلفين من الفقهاء جرى على تسمية هذه وتلك بالمعاملات ، وجعلها في التأليف تحت هذا العنوان الجامع ، وبين النوعين تمايز من حيث الغرض الخاص المقصود من كل نوع .

وهذا الاعتبار لا يعمد ولا يختلف عما اصطلاح عليه رجال القانون ، فكذاك صنعوا ، وسموها بأسماء تشعر في وضوح بوجه العرق بين النوعين : فهم يسمون الاصيل من هذه العقود : عقود الالتزام ، ويسمون الأخيرة : عقود التأمينات ، أو طرق إثبات الحقوق .

وإن كانت لم تفرقة دقيقة بين تسميتها عقود التأمينات ، وتسميتها طرق إثبات الحقوق ، فهي في جعلها للتوثيق على نحو ما أجبنا .

وسواء أراعيها الفرق بين عقد وعقد من حيث الاصله والتبعية ، أم لم نراع ذلك ، فكل منها وسيلة الى غرض مشروع ، وكل منها قائم على شروط ضرورية لصحته وترتب الأثر عليه ، وكل منها أمور بصيانته وتنفيذه على الوجه الذي رسم به ، وعدم الاعتراف عن سمته وجادته ، حتى لا يكون ذريعة الى الكسب الخبيث ، وأكل المال بالباطل .

وبشهد لذلك عموم قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ، ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ، ، وقول النبي عليه السلام : المسلمون على شروطهم إلا شرطا حرم حلالا أو أحل حراما . . وغير ذلك من الشواهد كثير .

والذي توجه إليه في بحثنا هذا من العقود هو ما شرع لتوثيق المعاملات . وهما لغة لغوية إلى ما تنفيذه كبة التوثيق : فصاحب لسان العرب يقول : وتيق به اتسمه ، والوثيقة في الأمر إحكامه ، واستوثقت من فلان ، أخذت منه الوثيقة . . . وكذلك ذكر القاموس ، إلى أن قال : والمهدة بصم العين

كتاب الحلف وكتاب الشراء .. ومن هذه العبارات وما اقترنت به من تفصيل نفهم أن الاستيثاق من فلان معناه أخذ الوثيقة منه ، وأن الوثيقة هي العهدة أى هي كتاب الحلف والشراء ، وكل ما يتوثق به العقد ويكون مصونا .

وعلى ضوء ما اقتبسنا يكون « توثيق المعاملات » معناه جعلها محكمة ؛ بأن تكون صحيحة ، مشتملة على الوثيقة التى تصونها من التلاعب ، وتكفل لإنجازها على الوجه المشروع المتفق عليه .

ذلك إيضاح موجز لمعنى توثيق المعاملات يُقرب إلينا الموضوع الذى نحن بصدده .

والفقهاء وإن لم يلتزموا صابطا معينا ، فالمستوعب لكلامهم يكاد يحدد اصطلاحهم على هذا الضابط شاخصا أمام العين حين أمر يفهم للرهن ، أو الضمان ، وحين كلامهم على الإشهاد فى البيع ، والوقف ، والوصية ؛ ففى سياق الحديث عن كل أمر من هذه الأمور يقولون : إبه للتوثيق ، أو لضمان الحقوق ، أو لمنع التنازع ؛ وهكذا .

وفوق ما ذكر أهل اللغة ، وما يستأنس به من عبارات الفقهاء ، فى القرآن الكريم شواهد جمة تقرر أن التوثيق معناه كذلك ، وأنه شرع لذلك .

فإنه تعالى يقول : « واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذى واثقكم به » ، أى العهد الذى أحذه عليكم وثيقة منكم على الوفاء . والقرآن يحكى عن يعقوب عليه السلام قوله لبيه : « لن أرسله معكم حتى تؤتونا ، وثقا من الله لنا » ثنى به ، ويقول : « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا » ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا » ، وهكذا جرى سن القرآن الكريم على الأمر بالوفاء عند ذكر العهد والميثاق ، وعلى التدبير بالذين لا يوفون بالعهد والميثاق . وكتاب الله حافل بنحو هايك الأمانة .

فإذا راعينا أن العهد والميثاق كل ما يجرى بين الإنسان وربه ، أو بين الإنسان والإنسان من توثيق واتفاقات مشروعة ، تبين أن العقود فى المعاملات أيا كان نوعها ، مما يطلب إليها الوفاء به ، وعدم التحيف منه بغدر أو مخالطة .

تاريخ التوثيق :

وتوثيق المعاملات وتنظيم هذا التوثيق ، وإن كانا مما له شأن في سياق التشريع الإسلامي ، فقد سبقتنا اليه على أى وجه من الوجوه شرائع قديمة ، وأخذت تلك الشرائع منه بنصيب ، كما اهتمت اليه بفطرها أم غابرة لم تكن تصدر في أمرها عن دين سماوى .

وقد جاء في كتاب المقارنات والمقالات بين شريعة اليهود والشريعة الإسلامية لمؤلفه العاضل محمد حافظ صبرى ، قوله : وقد وصل الباحثون الى معرفة استعمال الكتابة في المعاملات في الشرق من قبل زمن ابراهيم عليه السلام بنحو الخمسمائة سنة ، الى أن قال : ومن أقدم الأمم استعمالاً للخط في إثبات الحقوق والمعاملات المصريون اقتداء بالسريان ؛ فقد ذكروا أن بعض قدماء الفراعنة أصدر أمراً بوجوب تدوين الحقوق في سجلات الموثقين منعاً للظلم وشهادة الزور ، الى أن قال : وكذلك اليهود من أقدم الأمم استعمالاً للكتابة في المعاملات . وقد أورد المؤلف طائفة من الرواد المسطورة في الكتب العبرية تأييدا لسبق اليهود الى الأخذ بالتوثيق عن شريعتهم .

وإذا كانت بحوث المؤرخين تكشف عن قدم التوثيق ، كما يقول المؤلف وغيره ، فإن القرآن نفسه ليدلنا في تأكيد على أن التوثيق بين الناس كان مشروعاً قبل الإسلام ، وماخوذاً به في عصور مختلفة .

فهذه قصة يعقوب عليه السلام مع أولاده حينما رغبوا اليه أن يرسل معهم أخاه بنيامين الى مصر ، وهو يخشى عليه ماوقع لابنه يوسف ، فيتردد في الاستجابة لهم وهم يلحون عليه حتى يلين لهم أخيراً ، ويقول : لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله لنا ننتي به . قال الألوسى : يريد عليه السلام أن يحلفوا له بالله تعالى ، وإعما جعل الحلف به سبحانه موثقاً لأنه مما تؤكد به العهود وتشدد . اهـ . فلما آتوه موثقهم قال : الله على ما نقول وكيل . حلفوا لآبائهم كما طلب ، فاعطاهم يعقوب وأشهد الله على توثيقهم للوعد باليمين ، ثم استجاب لرغبتهم .

ويحكى لنا القرآن في نفس القصة شاهداً آخر على أخذهم بالتوثيق ، وذلك حينما فقدوا صواع الملك ثم نادى المادى ، نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل

بغير وأما به زعيم . فهذه موعدة يجعل من المال إن يأتي بالصواع المفقود ، أهلها المنادى وضمها والتزم الوفاء بها بقوله : وأما به زعيم : ضامن .

ودلك توثيق في معاملة مالية ، وهذا نص فيما نحن بسبيله .

وكذلك قصة شعيب مع موسى عليهما السلام ، إذ تشارطا على أن يعمل موسى عند شعيب ثمان سنوات أو عشرة ليكون ذلك مهر ابنته ، فبرضى موسى وبوثق العهد على نفسه وعلى صاحبه بقوله : ذلك بيني وبينك ، أيما الاجلين قضيت فلا عدوان علي ، والله على ما نقول وكيل ، قال الألوسي : والمراد توثيق العهد وأنه لا سبيل لاحد منهما الى الخروج عنه أصلا . ١٠ .

فذلك أمثلة تدل في غير شائبة من الخفاء على أن التوثيق بصفة عامة كان ديدنا مشروعا من أحقاب طوال : . لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب . .

فإذا وصلنا الى عصر الإسلام وجدناه يقر التوثيق وينى بتنظيمه ، ويتوسع فيه ، ولعله أضاف الى وسائله الأولى وسائل لم تكن من قبل ، حتى تترى لوسائل التوثيق على تعددها ذكرا في الكتاب والسنة ، وإن اختلف ذكر بعضها عن البعض طولا وفصرا ، أو تفصيلا وإجمالا ، وتأكيذا وغير تأكيد . وهذه آية الدين وما فيها من الأمر بالكتابة والاستشهاد على الدين أو الرهن به ، والإشهاد على البيع ، وآيات أخرى ، وأحاديث مستفيضة في كتب السنة ، جاءت كلها فيما وردت فيه آية الدين ، على ما سيأتي تفصيله .

فإذا كان التوثيق في نفسه قديما ، فهو بالنسبة إلينا مستمد من القرآن والسنة ، ومبدأ تاريخه يبتنا هو عصر النبوة . وحسب المؤرخ للتوثيق في الإسلام أن يقف عند ذلك التحديد المجمل ، كما يقف في كثير من المسائل المتصلة بالتشريع ، دون استرسال أو تعرض لتعيين الشهر أو السنة لكل مسألة ، إذ لم يكن تدوين الوقت الذي نيطت به كل مسألة تشريعية أمرا يحفل به المؤرخون دائما أو يعنى به الأولون كثيرا ، وخاصة في نشأة الحياة الإسلامية التي كانت مطبوعة بطابع البداوة والسداجة ، ولم تأخذ بالنظام إلا رويدا رويدا .

ومن تمام هذا الفصل أن نذكر صورا من التوثيق على عهد الرسول عليه السلام .

ولنا عود إلى ذلك إن وفق الله سبحانه ٤

الميلاد المحمدى

لفضيلة الأستاذ الشيخ أبو الوفا المراكشى
مدير المكتبة الأزهرية

سيدى محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليك : كلما انطوى عام وأقبل عام ، وهل منه هلال شهر ربيع الأول ، شهر تشریف الوجود بميلادك ، وإيدان العالم بدعوتك وإرشادك - أرهفت مشاعر المؤمنين وأقبلوا عليك ، لا لذكرك فقد ذكرك الله وأهل شأنك فى الخلق ، ورفع قدرك بين إخوانك الأنبياء ، ورسله الأصفاء :

أيروم مخلوق ثناءك بعدما أنى على أخلاقك الخلاق
وذكرك المسلمون ويذكرونك كل يوم خمس مرات ، إذ يقولون فى تحيات الصلاة : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، السلام عليك وعلى عباد الله الصالحين ؛ ويتعبدون بذكرك فيما وراء ذلك ، ولكن يلتفتون بقلوبهم وببصائرهم نحو سيرتك الطاهرة ، وتاريخك العاطر ، يستلهمون العبر ، ويستمدون الفكر ، ويفرغون الى صداها مسترشدين ، وإلى نورها مستبينين .

هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لى ضلال مبين . وآخرين منهم لما ياحقوا بهم وهو العزيز الحكيم . ذلك فضل الله يؤتیه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم . . . وابتعث العالم كاه ، وقد أعيت مذاهبه ، وعجبت عليه أموره ، وأزججت الحاديات ، وبهظله الكوارث ، إلى قانونك الإلهى ودستورك السماوى ، يستبرهون من عليهم ، ويستشفون من أدوائهم ، بعد أن عجزت قوانينهم الوضعية ، ودساتيرهم البشرية عن أن تصل بهم إلى هدى ، أو تقضى بهم إلى استقرار ، وبعد أن جمعت تلك القوانين من العالم طوائف تباينت نحلهم ، وتفرقت أهواؤهم ، واختلفت غاياتهم ، وخلوا جميعا من الفضائل الإنسانية ، فلا تراحم ولا تعاطف ولا مساواة ، ولا إغااة ولا صدق ولا وفاء ، يستبد القوي بالضعيف ، ويزدرى الغنى الفقير ... !

سيدى رسول الله :

لقد صارت البشرية إلى مثل الحال التي جتم فيها . دين مبتدع ، وهوى متبع ، وتكاثر بالأموال والأولاد والجاه ، وطبقات يفضل بعضها بعضاً ، وغفلة عن الله وعن اليوم الآخر ، وتكالب على متاع الدنيا وحطامها ؛ فما أشبههم بأهل الفترة ، وما أحوجهم إلى متقد صالح ومعالج مخلص !! وهمل في الوجود إلا علاجك وإصلاحك ، وإلا نورك وهداك ، وإلا ما جئت به من أخلاق وآداب وأحكام وعقائد ، عاجلت بها أمتك ، فوحدتها بعد شتات ، وجمعتها بعد تفرق ، وجعلت لها غاية تهدف إليها ، ومثلاً أعلى تسعى إليه ؛ وعاجلت بها شأها في الدنيا والآخرة فأظلتها سحائب الأمن والاطمئنان . نعم ليس في الوجود إلا علاجك لشفاء البشرية من أوصابها وآلامها ، وإنقاذها مما نزلت فيه وموت إليه .

وكل ما تواصى به الزعماء والقادة في السياسة والاقتصاد والاجتماع والتعليم فردّه إلى شرعك ، ومرجعه إلى دستورك ؛ وكل ما تمخض عنه عقل فرد أو جماعة واستحسنه الأمم والشعوب ، فقد ناديت به ودعوت إليه قبل ذلك بقرون . « ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ، » إن الله بأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون . . يتصايح العقلاء والمفكرون في الأمم بمخطر القوميات على السلام العالمى ، ويمزقون استعمار الحروب إليها ، ويرون ألا سبيل إلى السلام المنشود إلا بإلغاء القوميات والجنسيات ، وتوجيه العالم وجهة واحدة ، تقوم عليه حكومة واحدة ، ويعطى عليه دستور واحد ؛ يخضع الجميع لواجباته ، ويتمتعون بحقوقه ... ولقد نادى محمد عليه السلام بذلك منذ أربعة عشر قرناً ، وأعلن أن العالم كله أمة واحدة لا تفاضل بين أفرادها إلا بالعمل الصالح والعلم النافع ، ولا عبرة بالجناس والألوان ، ويقول في هذا « المسلمون سواسية كأسنان المشط » ، ويقول « المسلمون تكافؤ دماؤهم ، ويسمى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم » .

ولم يكتف بأمر بربط بين أفراد هذه الأمة برباط السلطات والقانون ، بل ربط بين قلوبهم برباط المحبة الخالصة والمودة المتبادلة ، ويقول : « مثل المؤمنين في توادهم وتماطعهم وتراحهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى والسهر ، وجعل أساس تلك الحكومة الشورى الصادقة والانتخاب الصحيح ، لا هذه الشورى الصورية التي يحادع بها سياسة العصر وقائمه .

وتداعى الرعاه والقادة الى الاجتماع لتقرير حقوق الإنسان، وانتدبوا لذلك منظمة خاصة اجتمعت وتشاورت، ثم قررت بعض ما قرره شريعة محمد قبل ذلك بأربعة عشر قرناً. لقد قررت الشريعة الإسلامية أن للإنسان حقوقاً فرضت احترامها، ومن حقوقه أن يكون أما مطعماً على نفسه وعرضه وولده وماله وملكه مهما كثر إذا أدى ما فرض فيه من الحقوق. ومن حقه أن يفكر بل عليه أنه يفكر. أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء. ومن حق المرأة أن تتمتع بما يتمتع به الرجل إلا فيما حرمتها منه طبيعتها، من حقوقه كل ذلك، ولا عبرة فيها بلون أو جنس؛ فقد ألغى الإسلام هذه الفوارق، واعتد بالإنسانية الراشدة لحسب. بأيها الناس إما حلقاكم من ذكر وأنثى وجعلكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عداقه أنفاكم، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى. كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه. هذا بعض ما قرره الإسلام، وهو حين ما تداعى له الرعاه، وعصروا فيه قرائنهم، وأسهروا لياليلهم، وكلفوا له أنفسهم مجهودات مضنية، وحلوا أهمهم نفقات طائلة، وكان يقينهم: لولا العصية العمياء والاعتداد بمذنياتهم المزيفة - أن يرجعوا إلى الإسلام فيقبسوا، ما شاءوا بما يصلحهم ويصلح شعوبهم، ويحبهم ويحب شعوبهم من القى الصلال والهلاك، وينأذى بالعالم إلى وحدة حقيقية طهرت قلوب طوائفها وشعوبها من الضغينة والحقد.

وأيض ذلك يستعص على الشريعة الإسلامية، فقد نجحت في مثل ذلك من قبل، وجمعت من العرب والدين وفارس والترك والبربر أمة واحدة وطنها واحد، وورها واحد، وقبائنها واحدة، وقانونها واحد، وشعار الجميع: إنما المؤمنون إخوة. والمسلم أخو المسلم لا يظله ولا يخذله ولا يحقره. وفي ذلك الجاح يقول شوقي: مخاطباً محمداً صلوات الله وسلامه عليه:

أنيك والاس فوضى لا تبرهم إلا على صنم قد هام في صنم
والارض ملوءة جسورا مسخرة لكل طاغية في الخلق تحتكم
والناس يفتك أفواهم بأضعفهم كاليت بالهم أو كالخسوت بالهم
أخوك عيسى دعا ميتا فقام له وأنت أحييت أجيالا من الرمم
وخير من ذلك كله قوله تعالى: واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فأل
بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا، وكنتم على شفا حفرة من النار فأقذك منها..

مسئولية الاطباء

لحضرة الاستاذ الدكتور أحمد محمد إبراهيم
القاضى بمحكمة المنيا الوطنية

الإجماع .

الإجماع فى اصطلاح الأصوليين : هو اتفاق جميع المجتهدين من الأمة الإسلامية فى عصر من العصور بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم على حكم شرعى ^(١) .
وإذا تحققت أركان الإجماع الأربعة : بأن أحصى فى عصر من العصور بعد وفاة الرسول جميع من فيه من مجتهدى المسلمين على اختلاف بلادهم وأجاسمهم وطوائفهم ، وعرضت عليهم واقعة لمعرفة حكمها الشرعى ، وأبدى كل مجتهد رأيه صراحة فى حكمها بالتول أو بالفعل ، بمتحمين أو منفردين ، وانفقت آراؤهم جميعا على حكم واحد فى هذه الواقعة — كان هذا الحكم المتفق عليه قانوناً شرعياً واجباً اتباعه ، ولا تجوز مخالفته ، وليس للمجتهدين فى عصر قال أن يجعلوه موضع اجتهادهم ؛ لأن الحكم الثابت بهذا الإجماع حكم قطعى لا مجال لمخالفته أو للاجتهاد فيه ^(٢) .
ولم ينعقد الإجماع بهذا المعنى فعلا فى أى عصر من العصور ، والذي سماه الفقهاء إجماع الصحابة لم يكن إجماعاً بهذا المعنى ، وإنما كان اتفاق أكثرهم على حكم الواقعة ^(٣) .

ومما أجمع عليه الصحابة اتفاقهم على حد من قذف الرجل المحصن ، مع أن النص فى الآية لم يتعرض إلا لقذف المحصنات . ومن ذلك أيضا إجماعهم على قتل الجماعة بالواحد .

(١) أصول الفقه للشيخ عبد الوهاب خلاف ص ٢٢

(٢) المصدر نفسه ص ٣٦

(٣) المرجع السابق ص ٣٩

القياس :

القياس في اصطلاح الأصوليين : هو إلحاق ما لا نص فيه بما فيه نص من الحكم الشرعي المنصوص عليه ، لا شترًا كهما في علة الحكم ^(١) .

ويمكن أن نذكر من الأحكام التي تقوم على القياس ، حرمان الموصى له من الوصية إذا قتل الموصي قياسًا على حرمان القاتل من الميراث ، لأن كلا منهما تجعل الشيء قبل أوانه فعوقب بحرمانه . ومن ذلك أيضا تحريم ما أسكر ولو لم يكن من العنب ، مع أن التحريم وارد على لفظ الخمر ، وهو النبيذ المنخذ من العنب . وهناك مصادر تشريعية أخرى ليست محل اتفاق الفقهاء ، وهي : الاستحسان ، والاستصحاب ، وشرع من قبلنا ، ومذهب الصحابي . وعمل دراسة كل ذلك علم الأصول . ولا يفوتنا أن نذكر هنا أن العمل بالقياس محل خلاف أيضا .

تفسير النصوص الجنائية :

يرى علماء القوانين الوضعية أن من الواجب على القاضي عند تفسيره نصوص القانون الجنائي ، ألا يتوسع في تفسيرها ، لما قد يترتب على التوسع في التفسير من العقاب على أعمال لا يشملها النص ، ولم يجزوا للقاضي أن يعمل بالقياس في ميدان القانون الجنائي ، فهما كان وجه الشبه بين الفعل المعاقب عليه والفعل موضوع المحاكمة ، فلا يجوز توقيع العقوبة على مرتكبه ما دام النص لا يشملها .

وفي الشريعة الفراء وضع علماء الأصول القواعد التي تتبع في تفسير النصوص ، وليس من شأننا في هذا البحث أن نبين قواعد التفسير ، ولكن الذي ينبغي ذكره هو قوله صلى الله عليه وسلم : أدرموا الحدود بالشبهات . . فهذا الحديث يضع قاعدة أساسية في تفسير النصوص الجنائية ، وليس المقصود من هذا الحديث عدم العقاب في حالة الشك في ثبوت التهمة لحسب ، بل إنه يعني أيضا عدم جواز التوسع في تفسير النصوص الجنائية حتى تشمل حالات لا يقع لها النص .

ومن الأحاديث الواجب العمل بها في هذا الصدد ، ما رواه الترمذي عن السيدة عائشة رضي الله عنها من أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : . إن الإمام

أن يخطئه في العفو خير من أن يخطئه في العقوبة . . ويعبر علماء القانون عن معنى هذا الحديث بقولهم : إن الشك يفسر في صالح المتهم .

وقد يرى البعض أن هناك خلافا كبيرا بين حكم الشريعة وحكم القوانين الوضعية في كيفية التفسير ؛ لأن القياس من مصادر الأحكام الشرعية في الأحكام الجنائية وغيرها ، وهو ما لا تسلم به القوانين الوضعية . ويرد على ذلك بأن القاضى فى الشريعة - حسب القواعد التى وضعها الفقهاء - يجمع بين سلطانى التشريع والقضاء ، وليس هناك ما يمنع المشرع من أن يقيس حالة على أخرى عند وضع نص جنائى . وإذا صيغت الشريعة صياغة حديثة ، وفصل بين سلطة التشريع وسلطة القضاء ، فإن ذلك يستلزم حتماً أنه لا يجوز للقاضى أن يوقع العقوبة على فعل لم تنص السلطة التشريعية على أنه معاقب عليه مهما كانت خطورته على المجتمع . اللهم إلا إذا أخذ بما ذهب إليه المشرع الالمانى من إعطاء القاضى حق توقيع العقاب على الأعمال الخطرة على المجتمع ، والتي لم يرد نص فى القانون يعاقب عليها .

صفات الصل الجنائى :

ذهب علماء القانون الى أنه من الواجب ان تتوافر فى الصل الجنائى الصفات الآتية :

- (١) أن يكون ساريا على زمان الجريمة .
 - (٢) أن يكون ساريا على مكان الجريمة .
 - (٣) أن يكون ساريا على الشخص الذى ارتكب الجريمة .
- ورجوا الله أن يوفقنا الى بيان هذه الصفات فى بحث آخر .

كلمات

من أشبع أرضه عملا ، أشبعته خبزا . وقالت عائشة : المغزل بيد المرأة أحسن من الرمح بيد المجاهد فى سبيل الله . وقال عمر بن الخطاب : لا تهكوا وجه الأرض فإن شحمها فى وجهها . وقال أبو بكر الصديق لعلام له كان يتجر بالثياب : إذا كان الوب سائبا فانتشره وأمت جالس . وقال عبيد الملك بن مروان : من كان فى يده شئ فليصلحه ، فإنه فى زمان إن احتاج فيه ، فأول ما يبدل دينه .

تفسير سورة البينة

لفضيلة الاستاذ الشيخ عبد الرحيم فرغل البلي
المدرس بكلية الشريعة

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى : « لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة . رسول من الله يتلو صحفا مطهرة . فيها كتب قيمة . وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة . وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، وذلك دين القيمة . إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية . جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، رضي الله عنهم ورضوا عنه ، ذلك لمن خشى ربه » .

ليان ما نزلت السورة لأجله نقول : يدل أهل الكتاب شرائع أنبيائهم بعدم ، وأدخل كل فريق منهم في دينه ما ليس منه ، إما بسوء الفهم ، وإما لإلغام الخصم ، وإما لاستحسان العقل . وكان إلى جوارهم المشركون من العرب وغيرهم ، الذي عبدوا الأوثان ، وأصبح إخراجهم عن عبادتها من أشق الأمور على المصلحين . وكان الجدال والخصام يثور بين أهل الكتاب والمشركين في كثير من الأحيان . وكان أهل الكتاب يذكرون للمشركين أن الله يبعث نبيا من العرب من مكة يقيم الحق وينشر العدل ، ويتوعدونهم بأنه متى جاء نصره واستنصروا به عليهم . وكان المشركون يرتقبونه أيضا ، ويستشعرون ببعثه ، ويقولون لخصومهم : إذا جاء فتح أولي به منكم .

فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم قام المشركون في وجهه وعاندوه ، وقام أهل الكتاب يمارعونه ويذمونه وأن ما جاء به من الدين ليس شيئا جديدا ، بل هو معروف لهم مسطور في كتبهم ، ولا يصح ألا يتركوا ما هم عليه ويتبعوا رجلا ما جاء بشيء أهمل منه . فكان أهل الكتاب من قبل يستفتحون على الذين كفروا بهذا النبي الأي الذي يحدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، وكانوا يبدأ عليه مع المشركين

ففي بيان هذا الحال الذي كان عليه هؤلاء المارقون ، وفي بيان الوعيد على ذلك الخلف الذي كان منهم عند مجيء البينة ، خصوصا بمن أبصر من قبل لأمع الحق ، ثم أغضض عنه عينه وقت ظهوره ، واستغنى منه ثوبه حين سطوعه - نزلت هذه السورة الكريمة .

بيان المعنى التفصيلي :

« لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة : رسول من الله يتلو صحفا مطهرة فيها كتب قيمة » .

« منفكين » : معارقين لما كانوا عليه من الوعد باتباع الرسول عند بعثه وظهوره .

« حتى تأتيهم البينة » : متعلق بمنفكين . و « البينة » صفة بمعنى اسم الفاعل أي المبين للحق ، والمراد بها الرسول صلى الله عليه وسلم ، بدليل تفسيرها بقوله تعالى بعدها : « رسول من الله » إذ التقدير : هي ، أي البينة ، رسول من الله .

« يتلو صحفا مطهرة » صفة للرسول صلى الله عليه وسلم . و « الصحف » جمع صحيفة ، وهي القرائيس التي يكتب فيها ، وهي صحف القرآن الكريم . والمراد بتطهيرها تنزيهاها من الخلط والباطل وحشو المدلسين ، فلذا تبيحت منها أشعة الحق حتى يبرهه طالبيه ومنكروه معا .

ووصفه عليه الصلاة والسلام بتلاوة الصحف المذكورة مع أنه لم يكن يقرأ الكتاب ولا يكتبه ، على سبيل التجوز ، لأنه لما قرأ ما فيها فكأنه قرأها .

وقوله : « فيها كتب قيمة » صفة للصحف . و « الكتب » : المكتوبات .
و « القيمة » : المستقيمة التي لا عوج فيها .

واستقامة الكتب التي في صحف القرآن اشتغالها على الحق الذي لا يميل إلى باطل ، كما قال تعالى : « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » .

والمراد بالكتب القيمة : إما ما صح من كتب الأولين مما حكاها الله عنهم في كتابه ، فإنه لم يأت منها إلا بما هو قويم سليم ، وقد ترك حكاية ما لبس فيه الملبسون ، إلا أن يكون ذكره ليبيان بطلانه ؛ ولهذا لم يجد المجاهدون لرسائله عليه الصلاة والسلام من أهل الكتاب سبيلا إلى إنكار الحق ، وإنما فضلوا عليه سواء . وإما سور القرآن ، فإن كل سورة من سور كتاب قويم ، بحرى أقوم الأحكام ، وأصدق الأنباء .

والمحق الإجمالى :

لم يكن هؤلاء الكافرون معارفين لما كانوا عليه من الوعد باتباع الحق ، والإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم المبعوث في آخر الزمان ، حتى يأتيهم الرسول الذى يبين الحق ، وينزل الصحف المطهرة من الزيف ، المشتملة على الصدق والعدل .

وقد كان ذلك الوعد مشهورا من أهل الكتاب ، حتى إنهم كثيرا ما كانوا يقولون : « اللهم انصرنا بالنبى المبعوث آخر الزمان » . وكثيرا ما كانوا يقولون لأعدائهم من المشركين : « قد أظل زمان نبى يخرج بتصديق ما قلناه ، فنقتلكم معه قتل عاد وإرم » .

وقد كان معروفا أيضا بين المشركين بعد ما شاع من أهل الكتاب واعتقدوا محمته . ويشهد لذلك أنهم قبل بعثته عليه الصلاة والسلام سمى غير واحد منهم ولده محمدا ، رجاء أن يكون هو النبى المنتظر .

ثم قال الله تعالى :

« وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة » .

بيان وجه الربط :

سبق هذا الكلام بعد ذكر الطائفتين من أهل الكتاب والمشركون لمزيد التشجيع على أهل الكتاب خاصة ؛ وذلك ببيان أن ما نسب إليهم من الانفكاك عن الرسول والفرق عنه ، لم يكن لاشتباه في الأمر ، بل بعد وضوح الحق ، وتبين الحمال ، واقطاع الأعذار ؛ وهو السرف في وصفهم بإتيان الكتاب المنبيء عن كمال تمكّنهم من مطالعته ، والإحاطة بما في تضاعيفه من الأحكام والأخبار التي من جملتها ما يتعلق بالنبي صلى الله عليه وسلم وصحة بعثه .

فالاقتصار على أهل الكتاب هنا ، لأنهم أشد جرمًا ؛ حيث علوا الحق وأنكروه .

وقبل : إنما اقتصر عليهم ، لأنه يعلم حال غيرهم بالطريق الأول ، وهذا أنسب .

والمعنى : وما تفرق هؤلاء الكافرون عن الرسول ، وما انفكوا عنه بالإصرار على الكفر إلا من بعد ما جاءهم وبين لهم الحق من الباطل ، والصالح من الفاسد ، وما ذلك إلا لامتلاء قلوبهم بالحسد ، واشتعال صدورهم بنار الحقد وثورة العناد . مع أنهم كانوا قبل مجيئه عاقدين العزم على الإيمان به ، والتأييد له ، والانقياد تحت لوائه .

ولقائل أن يقول : إن كلمة « حتى » في قوله تعالى : « حتى تأتيهم البيعة » لانتهاى الغاية ، فهي تقتضى أنهم انفكوا عن الوعد باتباع الرسول إلى اتباعه بالفعل عند مجيئه ، مع أن الواقع غير ذلك : وأن قوله تعالى : « وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البيعة » يقتضى أن كفرهم قد راد عند مجيئه الرسول .

والجواب : أنت الكفار من الفريقين كانوا يقولون قبل مبعث سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام : لا تفك عما نحن عليه من الوعد حتى يبعث النبي

الموعود به ، غشكى الله عنهم فى الآية الاولى ما كانوا يقولونه ، ثم ذكر الآية الثانية توبيخا لهم وإلزاما . يعنى أنهم كانوا يعدون باتباع الحق إذا جاءهم ، ثم ما فرقهم عن الحق ، ولا أفرم على الكفر إلا بحى . محمد عليه الصلاة والسلام . وحاصله : أن الاولى من باب الحكاية لقولهم ، والثانية من باب التوبيخ والإلزام .

ثم قال الله تعالى :

« وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، وذلك دين القيمة » :

بيان وجه الربط :

وجه الربط أن الآية السابقة ذكرت للتشجيع على الكافرين ، وحي . بهذه الآية لإفادة أنهم بلغوا النهاية فى قبح الافعال ، إذ تفرقوا عن الرسول فى حال أنه لم يأمرهم إلا بما هو صالح لهم فى دينهم ودنياهم ، وبما هو جالب لسعادتهم . وفى هذا من التقريع والتوبيخ مالا يخفى .

بيان المعنى التفصيلي :

« وما أمروا » : الواو الحال ، والضمير فى « أمروا » يعود الى أهل الكتاب . والأمر : طلب الفعل طلبا جازما .

« إلا ليعبدوا » : إلا أداة استثناء ، والسلام فى : « ليعبدوا » بمعنى أن المصدرية ، والباء محذوفة قبلها . والعبادة فى لسان الشرع : كل طاعة لله أدبت على وجه التسذلل ، والنهاية فى التعظيم .

فالمأمور به على هذا هو عبادة الله تعالى ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة . ويكون معنى الجملة : وما طلب من أهل الكتاب على لسان محمد صلى الله عليه وسلم إلا عبادة الله .. الخاء رازى .

« مخلصين » : منصوب على الحال من ضمير « يعبدوا » . و« الإخلاص » هو

أن يأتى العبد بالفعل خالصا لداعية واحدة ، دون أن يكون لغيرها من الدواعي تأثير في إتيانه بها .

وه الدين : هو إدعان النفس لإلهاها مع غاية الخضوع له . والمراد بإخلاص الدين لله : تقيته من أدران الشرك .

« حفظه » : ماثلين عن جميع العقائد الزائفة الى الإسلام .

« ويقوموا الصلاة ويؤتوا الزكاة » معطوف على : « يعبدوا الله » .

وإقامة الصلاة : تعديل أركانها ، من أقام العود إذا عدله ، وذلك بأن يقوموها مستجمعة للفرائض والواجبات ، والسُنن والمستحبات ، مع إحضار القلب هية المعبود .

بهذا الوصف كانت صلاة العارفين ، وعبادة المؤمنين الأولين ، حتى كان أحدهم إذا دخل في الصلاة لا يشعر بما يصيب جسمه من أحداث ، ولا يحس بما يلحقه من آفات ، كل ذلك لإمعانه في مراقبة ربه ، واشتغاله به عن غيره .

أما اليوم فقد أصبحت صلاة الكثيرين مجرد حركات لا تورث خشية الله في القلب ، ولا تبعث هيئته في النفس ، فهى كالجسد الفارغ من الروح ، والجسم المجرد من الحس ، والبيت الخالي من النور . وقد دلت الآثار على أن مثل هذه الصلاة لا تبرىء الذمة ، ولا تقضى عن العبد شيئا .

وإتياء الزكاة : صرفها في مصارفها التي عينها الله في كتابه الكريم ، حتى يضمن المؤتى نقاء المال وطهارته ، ونماءه وزيادته ، وحتى يملأ قلب المحتاج بالعزة ، ويشعره بالمساواة ، ويسد خلته ، ويطرده من عقله فكرة الإجرام ، ونزعة العدوان ؛ وبذلك يذهب من النفس الميل الى الشيوعية ، والسير وراء مزالقتها ، ويعود الى ربوع الأمة ، وأوساط المجتمع ، الهدوء والطمأنينة ، والامن والسكينة ، ويرفرف عليها علم السلام .

« وذلك دين القيمة » :

أى المذكور من إخلاص العبادة للخالق ، وإقام الصلاة ، وإتياء الزكاة ، هو دين الأمة القيمة ، أى المستقيمة السائرة في الطريق السوى الذى لا عوج فيه .

وإنما خص إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة بالذكر من بين العبادات ، لمزيد شرفهما ، ولأنهما يحركان النفس الى الكمال بأداء بقية العبادات .

والمعنى الإجمالي :

إن أهل الكتاب قد تفرقوا عنك ، وصعدوا عن اتباعك ، والحال أنهم لم يطلب منهم على لسانك إلا عبادة الله وتعظيمه ، وإقامة الصلاة على الوجه اللائق ، وإيتاء الزكاة الى مصارفها ، لأنه هو طريق الأمة المستقيمة على سبيل الحق ، وسبيل الرشاد ، وطريق الفلاح . فإذا صعدوا عنك مع أن هذا شأنك ، كان صدفهم لا عن رية في أمرك ، وشك في طريقك ، بل عن أمراض في النفوس ، وأهواء في القلوب ، قوامها الحسد ، وعمادها الكبر ، وأساسها الآثرة والآنانية .

ثم قال الله تعالى :

« إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها ، أولئك هم شر البرية » .

بيان وجه الربط :

لما ذكر سبحانه وتعالى فيها معنى أن أهل الكتاب والمشركين كفروا بآله ، ثم تفرقوا عن رسول الله بعد مبعثه ، وبين شناعة هذا الصنيع منهم ، ووبخهم عليه أشد توبيخ ، شرع يبين بعد ذلك مقراً هؤلاء الكافرين في النار الآخرة . وقد حكم عليهم سبحانه وتعالى في الآخرة بأمرين : كونهم في نار جهنم خالدين فيها ، وكونهم شر البرية .

ومعنى كونهم في نار جهنم : أنهم يصيرون إليها يوم القيامة ، ويشتركون في جفس عذابها ، وإن اختلفوا في نوعه ؛ لأن عذاب أهل الكتاب أشد من عذاب المشركين ، حيث كفروا بعد العلم ، وجحدوا بعد المعرفة . ولذلك بناهم في الذكر ، لأن جنائهم أعظم جرماً ، وأكثر وزراً .

ويرى بعض المفسرين أن عذاب المشركين أشد ، لأن كفرهم أشد من كفر أهل الكتاب ، لأن الشرك ظلم عظيم . ولكن الراجح الأول .

وقوله : « خالدين فيها » حال مقدرة ، أى حال كونهم مقدرًا فيها خلودهم من الله تعالى . وإنما لم يذكر كلمة أبدا ، كما ذكرها في صفة أهل الثواب ، فيما سيأتى ، لتنبه على أن رحمة تعالى أزيد من غضبه . اهـ رازى .

وأقول : لعل عدم ذكرها هنا ، للاكتفاء بذكرها فيما سيأتى ، والحذف من الأول لدلالة الثاني عليه واردة في كلام العرب وإن كان العكس أكثر .

و « شر البرية » معناه : شر الخليقة البشرية أعمالا . وإنما أشار إليهم بكلمة « أولئك » التى أشار بها للبعيد ، لبعد منزلتهم في الشر .

فإن قيل : كيف يكون هؤلاء شر الخليقة البشرية مع أن في كمار الأمم السابقة من هو شر منهم : كفرعون وعافر الناقة وغيرهم ؟

فالجواب : من وجهين : أحدهما أن المراد بالبرية المعاصرون لهم .

وثانيهما : أن المراد أنهم شر بحسب الاعمال . ولا يبعد أن يكونوا بحسب الاعمال هم شر البرية على الإطلاق ، لما أن كفرهم مع العلم بصحة رسالته عليه الصلاة والسلام ، ومشاهدة معجزاته الذاتية والخارجية ، ومع وعد الإيمان به عليه الصلاة والسلام ، ومع إدخالهم الشبه في قلوب من يأتي بعدهم ، هي شر كفر وأقبحه . وكذا سائر أعمالهم من تحريف الكلم عن مواضعه ، وصد الناس عنه عليه الصلاة والسلام ، ومحاربتهم إياه ، هي شر الاعمال وأقبحها .

ثم قال الله تعالى :

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية » - تراؤم عدد ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، ذلك لمن خشى ربه . »

بعد أن بين سبحانه وتعالى مقر الاشقياء ، شرع بين جزاء السعداء على سبيل الاستطراد ، ليكون أنكى للحصم ، وأشد إيلاما .

بيان المعنى التفصيلي :

و آمنوا وعملوا الصالحات . .

و الإيمان : هو التصديق الذي لا مجال للريب فيه ، بكل ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ، بما علم من الدين بالضرورة .

و الإيمان الحق لا يتطوى حقيقته على الأعمال الصالحة ، بل هي زائدة عليه ، لكن مناط النجاة مع السابقين مرتبط بهما ، فلا يجوز لأحد أن يظن سبق إلى الجنات دون أن يؤمن ويعمل الصالحات ؛ لأن الله سبحانه وتعالى يخبر بأن الجنات جزاء المؤمنين العاملين ، والمراد أنها جزاء السابقين منهم .

و الأعمال الصالحة كثيرة لا يتأتى عددها ، ولا يمكن حصرها :

فالانحداد مع المسلمين ، والانضمام إلى صفوفهم ، والاختذ برأيهم . من الأعمال الصالحة التي ترفع شأن الإسلام ، وتزود عنه التاديات ، وتدفع عنه الملمات . وإعانة المجاهدين . من الأعمال الصالحة التي ترفعه عنهم ، وتجدد عزائمهم ، ونحيي في قلوبهم ميت الآمال .

وإعانة اللاجئين بالإيواء وإذهاب العوز : عمل جليل من الأعمال الصالحة التي تزيد في وحدة المسلمين ، وتبني لهم على الاحقاب صرحا مجيدا .

وعارضة المرضى والجبل والفقر : من خير الأعمال الصالحة التي تعلق شأن الأمة وتفرس فيها عوامل القوة ، وتلشر بينها أضواء المعرفة .

والقضاء على بذور الفتن واجتثاث عوامل العوضى : من جلائل الأعمال الصالحة التي تؤمن سلامة الأمة ، وتسير بها في طريق الفلاح سيرا حثيثا .

فإذا عبر القرآن الكريم في هذا الموضع بالتعبير العام ، فإدراكه إلا لأنه يتطوى تحته كل أعمال الخير ، ويندرج فيه كل أسباب السعادة . فسبحان من هذا كلامه ١ .

و البرية ، هنا الخليفة كلها . و الجنات ، مغارص الأشجار و العدن ، الإقامة الدائمة ، من عدت بالبلد إذا توطنته . و الأنهار ، جمع نهر ، وهو جدول الماء العظيم .

ومعنى تجبرى من تحتها الأنهار : تجرى من تحت أشجارها ، أو تجرى من مكان أسفل منها .

والمراد من الجنة ها هنا دار النعيم في الحياة الآخرة ، وهى مما يجب علينا الاعتقاد به ، وأن النعيم والجنة فيها أكل وأوفر من جميع لذات الدنيا ، وأنها دار خلد من دخلها من أهلها لا يخرج منها أبدا ، وهو معنى : خالدين فيها أبدا . ولا يجوز لنا البحث في حقيقتها ، ولا أين موضعها ، ولا كيفية التمتع فيها ، فإن ذلك لا يمله إلا الله .

ومعنى رضى الله عنهم ورضوا عنه : أنه تعالى رضى عن هؤلاء المؤمنين ، أى تفضل عليهم وأحسن إليهم ، لأنهم لم يخرجوا عن حدود الشريعة ، ولم يهملوا العمل بسنة . ورضوا عنه ، لأنهم يحمدون صنيعه فيهم ، وإحسانه إليهم بعبادة الدارين . فإنهم بحسن يقينهم يرتاحون إلى امتثال ما يأمر به في الدنيا فيرضون عنه ، ثم إذا ذهبوا إلى نعيم الآخرة وجدوا من فضل الله ما لا يحل معه للسخط ، فهم راضون عن الله في كل حال .

ومعنى ذلك لمن خشى ربه : أن ذلك الفوز بالنعيم الدائم ، والثواب العظيم ، يكون لمن خاف مقام ربه ، وأخلص العمل لوجهه .

وفى هذا من التحذير من خشية غير الله ، والتفكير من إشراك غيره معه فى الأعمال ما ليس يحنى ، كما أن فيه الترغيب فى تذكر الله تعالى والرهبة منه عند كل عمل من أعمال البر ، حتى يكون العمل مخلصا له من كل شائبة .

نعمذ بالله من أن نشرك معه أحدا ، وسأله أن يطهر قلوبنا بطهارة الإيمان ، وأن يعنى بصائرنا بأنوار اليقين . والله ولى التوفيق ، وهو حسبتا ونعم الوكيل .

لغويات

الخصائص - الخصيصة

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد النجار

المدرس في كلية اللغة العربية

افتخر هذا الجمع ، ولابن جنى كتاب في فلسفة العربية يسمى الخصائص ، وهو أشهر من أن يذكر . وورد في رسالة التريب والتدوير للجاحظ : « وإن هذه الأمور هي خصائصك التي بها تكلف ، ومعانيك التي بها تلج . » وفيها في موضع آخر : « وهل بُدِّدَ الحقيقة من خصائص أسباب ، وأعيان علل ، . وهذا الجمع مع شهرته في الاستعمال لم يرد في معاجم اللغة .

ورقع السؤال عن مفرد هذا الجمع ، وتلست هذا في المعاجم اللغوية التي بين أيدينا فلم أقف على شيء ، كما أهمل الجمع نفسه كما أسلفت .

وكل ما وقفت عليه في هذا أن الزعخشري في مفصله في بحث الفعل قال : « ومن خصائصه دخول قد ، فقال ابن يعيش في شرحه له : « وأما خصائصه لجمع خصيصة ، وهي لوازمه المختصة به دون غيره . » ويبدو أن خصيصة في الأصل خصيص في معنى مخصوص ، ثم ألحقت بها التاء علامة على النقل من الوصفية إلى لاسمية ، كالطبيعة والذبيحة والآكلة . وصروح فعيل في معنى مفعول يراه بعض النحويين قياساً إذا لم يصح من الفعل فعيل في معنى فاعل ، وهذا الشرط متحقق في مسألتنا ، ولا يرى بعض النحويين قياسه أبداً .

ومما يذكر في هذا المقام أن المستعمل في معنى واحد الخصائص ، الخاصة أو الخاصية ، وفي رسالة التريب والتدوير . وما هذه الخاصية التي منعت من هذا المعنى . . وجمع الخاصة الخواص كما لا يخفى .

المطالب تترى علينا ولا نستطيع قضاها

ترى هذا الاستعمال كثيراً ، وفيه يستعمل « ترى » فعلاً في معنى « تتابع » .

وفي مجلة الثقافة ص ١٠ من العدد ٤٢٧ . . ولكننا وقعا والدهشة نعتقد أن السنا،
والاسئلة الى تحمل الشك ترى على شفاها . . والمروف في اللغة أن تكون
هذه الكلمة وصفا : يقال جاءت الخيل ترى أى متتابعة . وللعرب فيها وجهان :
فبعضهم يصرفها فيونها ، فيقال . ترى ، كفى . وبعضهم يمنها الصرف والتنوين
فيقال ترى ، والاول على أن الالف فيها للإلحاق ، والوجه الثاني على أنها للتأنيث .
وقد قرىه بالوجهين قوله تعالى في سورة المؤمنين : . ثم أرسلنا نورا ترى كلنا جاء
أمة رسولنا كذبوه فأتينا بعضهم بعضا وجعلناهم أحاديث ، فيبعداً لقوم
لا يؤمنون . : قرأ ابن كثير وأبو عمرو وقتادة وأبو جعفر وشيبة وابن محيصن
والشافعي ترى محوتا ، وباقي السبعة بغير نون . وترى أصلها وترى ،
أبدلت فيها الواو تاء كما أبدلت في النعمة والنكلة ، وكالتولج من ولج وأصلها
وولج . والتولج كساس الوحش ومثابه . ومن استعمال ترى على وجهها
قول البعري :

أما ترى عود الزمان فعرا ! ترى له طلاقة وبشرا !

أتمه الطواف السحاب ترى وساقط الجنبوب غنا بكرا

وقد ورد في اللغة ترى الرجل ، يترى إذا تراخى في العمل ، فعمل شيئا
بعد شيء ، أى أن يكون بين أوقات العمل فترة . ويبدو أن هذا مقبول وترى .
وقد بدالى تخريج الأسلوب الذى صدرنا به هذا البحث على هذا مع التوسع
في معنى هذه المادة : فإن العمل إذا كان شيئا بعد شيء كان ذا أجزاء متقطعة فبان
فيه التابع ، هذا يتبع هذا ، فأما العمل المتصل فهو عمل واحد ممتد . وعلى هذا
يقرأ ، ترى ، بكسر الراء ويكون فعلا مضارعاً ، كترى . وقد ورد في شعر
أبي تمام الطائي :

إن كان وجهك لي ترى محاسنه فإن فذلك بي ترى مساويه

ولا أعرف وجه الرواية في هذا البيت . فإن قرىه ترى يفتح الراء فالوجه
أن تكون خبراً مقدماً عما بعدها في الشطرين ، ويجوز أن تكون ترى في الشطر
الاول خبراً عن كان ، ومحاسنه مرفوع بها ، وفي البيت الثاني خبراً عن إن ، ومساويه
مرفوع بترى فيه . وإن قرىه ترى بكسر الراء فهو فعل مضارع ، كما سلف .

التسؤل

تكثر هذه الصيغة في هذه الأيام ، فيقال : فلان يتسؤل أى يسأل الناس ويشهد طالبا الإحسان والصدقة : ومن قوانين الدولة المصرية قانون حظر التسؤل . والمعروف في هذا المعنى السؤال وما تصرف منه : فيقال : فلان يسأل : وفي الكتاب العزيز : ، والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم .^(١) وقال عبيد بن الأبرص :

من يسأل الناس يحرّمه وسائل الله لا يخيب
وقد مرّ في مطالعنا أن الشعراء الوافدين على الأمراء ابتغاء جداول
كانوا يسمّون التسؤل ، فعبر بعض أمراء البرامكة هذا اللقب ، ورفعهم
عن موته وذل السؤال ، فقال : سمّوهم الزوّار . فكان ذلك من أياديهم عليهم ،
فوق ما كان يحوم به من جوائز والطف . ويقال في معنى السؤال : فلان يتكصّف
الناس أى يمد إليهم كفه .

وقد بدا لي أن أرد صيغة التسؤل إلى أصل في اللغة : ذلك أنه يقال . سأل
يسال . بالالف اللينة . في معنى سأل ، يسأل : قال - حسن رضى الله عنه :
سالت هذيل رسول الله فاحشة . سالت هذيل بما سالت ، ولم تصب
سألوا رسولهم ما ليس معظيهم . حتى المات ، وكانوا سبّة العرب
قال السبيل^(٢) : . وقوله : سالت ليس على تسيل المرأة في سالت ، ولكنها
لغة . وقرأ نافع^(٣) وابن عامر . سأل سائل لعذاب واقع ، بالالف .

وسأل يسال من باب خاف ، يخاف ، فعينه واو ، بذليل أنه يقال . الرجلان^(٤)
يتساولان . وظاهر هذا أنه يقال عند إسناد سأل إلى صميم الرفع : سئلت ، بكسر
السين ، كما يقال . خفت ، وكذلك ورد مضبوطا ما نظم في كتاب سيويه^(٥) : فقد
قال . . وبلغا أن سالت تسال لغة . . وقد جاء في الفراءوس ما يستوجب الإنكار :
فعينه في سول . . وسئلت أسال بفتحها ، سؤالا بالصم والكسر . لغة في سالت ، .
بين المرووف في إسناد الفعل الأجوف إلى الصمير أن تصم الواو أو تكسر

(١) انظر الفراءوس الأصح ١ ص ١٠١ (٢) انظر الفراءوس الأصح ١ ص ١٠١ (٣) انظر الفراءوس الأصح ١ ص ١٠١

(٤) انظر الفراءوس الأصح ١ ص ١٠١ (٥) انظر الفراءوس الأصح ١ ص ١٠١

وقد ذهب بعض اللغويين الى أن العين في سال ياء ، وأنه يقال : تسابل
الرجلان : قال السبيل : « وإذا كانت سال لغة في سأل فيلزم أن يكون المضارع
يسيل ، ولكن قد حكى يونس - سلت ، تسال ، مثل خفت تخاف ، وهو عنده
من ذوات الواو . وقال الزجاج : الرجلان يتسايلان . وقال النحاس والمبرد :
يتساولان ، وهو مثل ما حكى يونس ، وينكر أبو حيان يتسايلان بالياء ، ولا
يرى فيها إلا الواو : فقد عقب على كلام الزعشرى وقد حكى هذه الصيغة بالياء ،
فقال : « ثم جاء في كلام الزعشرى : وهما يتسايلان بالياء ، وأظنه من الناسخ ،
ولأنما هو يتساولان . فإن توافقت النسخ بالياء فيكون التحريف من الزعشرى .
وقد علمت من سياقة كلام السبيل أن لا تحريف في كلام الزعشرى ، فإنه
يتبع الزجاج .

وأياً ما كان الأمر فالمرجح أن الصيغة من ذوات الواو ، فالتسؤل تفعل منها .
وقد صيغ للتكفف هذا البناء ، ليكون على وزانه ومثاله . وليس من همى أن
أزعم أن هذا صحيح في العربية : فإن هذه الصيغة لم أرها في اللغة ، والصيغ التي
تنشأ بالزيادة مرجعها إلى السماع : ولأنما الذي يعينني أن لها أصلاً في اللغة :
وهذا هو الذي حاولت إثباته في هذا المقال .

جاء فوراً

يفشو هذا الاستعمال ، فيقال : حضر فوراً . والمعروف : أن يقال : جاء
من فوره ، وفي الكتاب العزيز في سورة آل عمران : « أو جاءكم من فورهم هذا ، .
قال الزعشرى : « من قولك : قفل من غزوته ، ورجع من فوره إلى غزوة أخرى ،
وجاء فلان ورجع من فوره . . . وهو مصدر من فارت القيد إذا غلت ، فاستعبر
للسرعة ، ثم سميت به الحالة التي لا ريث فيها ولا تعرج على شيء من صاحبها ،
ف قيل : خرج من فوره ، كما تقول : من ساعته ، لم يلبث . . وفي حديث عظم :
نعمتكم خمسين من الإبل في فورنا هذا .

وقد يبدو تخرج هذا الاستعمال بأن يكون الكلام على تقدير محذوف : فقولهم :
احضر فوراً ، أى حضور فور . وقد عرفت أن ما أثر من كلام العرب ومن على
سنتهم على غير هذا الوجه .

عضد الدين الأيجي

٧٠١ — ٧٥٥ هـ

لفضيلة الأستاذ الشيخ علي محمد حسن العماري
مبعوث الأزهر الى المعهد العلمي بأم درمان

« الإمام الهمام ، والخبر القمقام ، البدر الزاهر ، والبحر الزاخر ، حلال
علوم الأوائل والأواخر ، المعتضد بجبل آفة المتن ، مولانا عضد الملة والدين ،
كما يقول شارح مختصره طاشكبرى زاده .

ولد الأيجي بعد السبعمائة في قرية (أيج) من نواحي شيراز ، وأخذ عن
مشايخ عصره ، ولازم زين الدين تليذ اليبضاوي ، وأخذ عن الشيخ أحمد بن الحسن
الجاربردي ، كما أخذ عنه ثلة من نجباء الطلبة كانوا — فيما بعد — من أكابر العلماء ؛
منهم سعد الدين التفتازاني ، ومحمد بن يوسف الكرمانى ، وقد تلقى على العصد أيام
مقامه في كرمان . ومن تلامذته الضياء القرني . وفي الدرر السكينة في أعيان
المائة الثامنة في ترجمته هذا النص : « كان إماما في المعقول ، قائما بالاصول والمعاني
والبيان والعربية ، مشاركا في جميع الفنون ، كريم النفس ، كثير المال جدا ،
كثير الافضال على الطلبة . وهو شافعي المذهب ، أشعري العقيدة ، من كبار
رجال الصوفية ، وقد تولى قضاء المالكية في أيام أبي سعيد ، ولذلك كان يلقب
بالقاضي . وقد جرت له في آخر حياته محنة مع صاحب كرمان خبسه بالقلعة ،
ومات مسجوبا سنة ٧٥٣ ، وقيل سنة ٧٥٥ ، وقيل سنة ٧٥٦ ، ورأيت في كتاب
البدر الطالع أنه عين مدرسا في شيراز . وهو : عبد الرحمن بن أحمد بن عبد التفار
الشيرازي المشهور بالقاضي عضد الدين .

مكاته وعله :

هو شيخ الطريقة ، وأستاذ الجليل ، وواضع حجر الأساس في المنهج الذي يسمونه « التوغل في المشاحة العقلية ، والتسلل في الحدية والرسبية » . فقد أطال القاضى في ذلك إطالة خرجت عن حد المؤلف ، فعنى بالتعريفات وتحقيقاتها ، واعترض وأجاب ، وصال وجال ، ويكنى أن تنظر فطرة عابرة في أحد كتبه لترى ما حشاه به من هذه (التحقيقات) . ولا شك أن هذا يدل على ذهنية ثاقبة ، وعقلية فلسفية منطقية ، وأفق واسع ؛ كما يدل على فهم دقيق للألفاظ ودلائلها وطرق استعمالها . وقد عاش المضد في النصف الأول من القرن الثامن ؛ وهو عصر طغت فيه الشروح والحواشي ، وأصبح كم العلماء أن يرتبوا المعلومات ، وأن يقبلوا العبارات على كل وجوها ؛ فقد أخذوا نظريات من سبقهم قضايا مسألة ، وإنما كان أكثر همهم في مناقشة المرب . وقد سبق المضد جماعة كانت عندهم هذه العناية مثل قطب الدين الشيرازى المتوفى سنة ٧٩٠ هـ والخطيب القزوينى المتوفى سنة ٧٣٩ هـ وعاصره جماعة مثل محمد بن مظفر الخلخالى شارح المفتاح والتلخيص وقد توفى سنة ٧٤٥ هـ ، وتليده جماعة من أمثال السعد ، وكلمم عنوا بالناحية اللفظية ، ولكن كان المضد أبرز المجملين فيه ، فنسبت الطريقة إليه ، وكان سدتها من بعده تلاميذه .

على أن المضد ليس بالمتخلف في ميدان العلم اللباب . وإنما له في تحقيق المسائل الباع الاطول ؛ فقد قرأ - كما يقول - كل ما وقع تحت يده من كتب في علم الكلام . ونحن نراه يقل كثيرا عن الجاحظ وابن سينا والرازى والباقلانى وغيرهم من أعلام العلماء الذين سبقوه . وسنقل شيئا من قول العلماء في بعض كتبه .

وقد كان له مع أستاذه الجاربردى مواقف مشهورة ، ومن ذلك أنه كتب إليه بـؤال في كلام صاحب الكشف على قوله تعالى « فأتوا بسورة من مثله » ، فأجابه أستاذه بجواب فيه بعض الخشونة ، فاعترضه الأيحيى باعتراضات وتلاعب به وبكلامه ، ولم ير العلماء في عمل الأيحيى بأسا ، لأن أستاذه لم ينصفه حتى يستحق التأديب معه . قال السيوطى في بغية الوعاة : ذكر رماى الطبقات الكبرى ما كتبه لمستفتى أهل عصره فيما وقع في الكشف في قوله تعالى « فأتوا بسورة من مثله » ،

وما كتب الجاربردى عليه ، وما كتبه هو على جواب الجاربردى ، وأطلس الكلام في ذلك . ونقول نحن : ليت الطبقات الكبرى بقيت لنا حتى نرى هذه المساجلة العنيفة بين تليذ وأستاذه ١ . ويقال إن ابن الجاربردى أجاب عن اعتراضات الأبيحى في كتاب له مستقل .

ولعل مما يصح أن نلصق اليه هنا ما نراه من انتصار الأبناء والاحفاد للأباء . وقد سبق أن ذكرنا رواية تقول إن حفيد السمد أنصف له من السيد ، وإنه أخرجته في عدة مواقف انتقاما لجده . فهذه العصية العلية - وإن كانت ربما لجأت إلى الجدل أكثر من عايتها بنصرة الحق - تدلنا على ما كان يشغل أذهان العلماء في تلك الاوقات من المفاست العلية ، والمناظرات الادبية ، حتى يتوارثها الأبناء عن الآباء .

على أن هذه العصية لم تكن عصية النسب فحسب ، بل طالما تعصب تليذ لأستاذه : وفي تاريخ العلوم أمثلة كثيرة نكتفي هنا بواحد منها : حدثوا أن سيويه لما انهزم في مناظرته مع الكسائي في مجلس خالد بن يحيى البرمكى وزير الرشيد ، اعتم ومضى إلى فارس ، وأبى أن يرجع إلى البصرة مقرو ، ثم استقدم تليذه سعيد بن مسعدة الاخفش الأوسط ، وشكا إليه ما أصابه ، فعزم الاخفش على أن ينار من الكسائي قصده في بغداد ، وسأله أمام تلاميذه ، وخطأه في إجابته حتى هم التلاميذ أن يفتكوا به ، ولولاهما الكسائي وكياسته . وعلى كل فالاخفش لم ينل من الكسائي وطرا .

تأليفه ومؤلفاه : عنى عضد الدين - كما أسلفنا - بمنهج المدرسة الكلامية في الأليم ، فكان شيخ شيوخها ، وهو يملك في تأليفه مسالك التحقيق ، ويسمى جهده في طالب التوفيق ، ولا يفوته أن يتحدثنا عن طريقة تأليفه ، فهو يقول في مقدمة كتابه المواقف : « ولم آل جهدا في تحرير المطالب ، وتقرير المذاهب ، وترك الحجاج تبجرت اقتضاها ، والشبه تتضام اقتضاها ، ونهت في النقد والتزييف ، والهدم والترصيف ، على نكت هي يتابع التحقيق ، ونقرتهدى إلى مظان التدقيق ، وأما انظر من الموارد إلى المصادر ، وأتأمل في الخارج قبل أن أضع قلبي في المداخل ، ثم أرجع المهمرى أتأمل فيما قدمت هل فيه من قصور ، وأرجع البصر

كرة بعد أخرى هل أرى من فطور، حافظاً للأوضاع، مشبعاً في مقام الإشباع.. ذلك - لعمري - دستور في التأليف كأحدث الدساتير؛ ولو أن كل مؤلف أخذ نفسه به لجاءنا علم وغير غزير، ولكن المؤلفين يكتفون باللمحة العابرة، والإشارة الفاترة، وحسبهم أنهم مؤلفون!

وقد عني هاية خاصة بعلم الكلام، بل كان ميدانه الذي برز فيه، وقضى أكثر دهره يدرس فيه ويحادل ويؤلف، وهو يأخذ نفسه هذا المأخذ، لأن علم الكلام أفنع العلوم وأجداها، وأحقها بمقد المهمة بها، وصرف الزمان إليها؛ لأنه علم تكفّل بإثبات الصانع وتوحيده، وتزييه عن مشابهة الأجسام، وإثبات النبوة التي هي أساس الإسلام، وبه يترقى الإنسان في الإيمان باليوم الآخر من درجة التقليد إلى درجة الإيقان، ومن واجب العاقل أن يشتغل بالأم عن المهم، وأن يتطلب في دراسته أتم فائدة. وهو يرى أن أفضل ما يشغل به الإنسان نفسه هو أن يفرغ مجهوده للحياة العقلية، لأن الإنسان لا يفضل الحيوان ولا النبات لأنه يشترك معها في النمو والتغذى، بل يشترك مع الجسد في شغل قدر من الفراغ؛ فلا يفضل شيئاً من هذه إلا بالقوة الناطقة، فعليه أن يستعمل هذه القوة في الدراسات العقلية، وأهم هذه الدراسات دراسة علم الكلام، وله كتابان. أحدهما العقائد العضدية، وعليه حاشية للشيخ محمد عبده، وهو يدرس الآن في الأزهر، وعليه شرح للشيخ السمرقندي؛ والآخر «المواقف»، وهو كتاب ذو شهرة واسعة، يقول فيه الشوكاني: «يقصر عنه الوصف»، ويقول صاحبه في وصفه: «كنت هذا كتاباً مقتصداً، لا مطولاً مملاً، ولا مختصراً مخلاً، أودعته لب الآل باب، وميزت فيه الفشر من اللباب، حتى جاء كلاماً لا عوج فيه ولا ارتباب، ولا لجلجة ولا اضطراب، متناسبا صدور وروادفه، متعاقبا سوابقه ولواحقه». وقد وفي هذا الكتاب حقه من البحث والتحليل الدكتور محمد غلاب في مجلة الأزهر، في المجلد الثاني عشر؛ العدين الأول والثاني. وقد شرح هذا الكتاب السيد الشريف الجرجاني، وكتب عليه العلامة عبد الحكيم السيالكوتي حاشية جلية، كما كتب عليه حسن جلبي حاشية أخرى، وهذا الشرح مع الحاشيتين مطبوع في مصر. ومن كتبه المفيدة كتاب شرح مختصر

المتنبي ، ونقلهما ما كتبه العلامة الشوكاني في كتابه البدر الطالع وصفاً لهذا الكتاب : قال : « وله شرح مختصر المتنبي ، وقد انتفع الناس به من بعده ، وسار في الأقطار ، واعتمده العلماء الكبار ، وهو من أحسن شروح المختصر ، من تدبره عرف طول باع مؤلفه ، فإنه يأتي بالشرح على نمط سباق المشروح ، ويوضح ما فيه خفاء ، ويصلح ما عليه مناقشة من دون قصر صريح بالاعتراض ، كما يفعله غيره من الشراح ، وقل أن يفوته شيء مما ينبغي ذكره ، مع اختصار في العبارة يقوم مقام التطويل » .

أما أسلوبه فهو أسلوب متكلم واسع الأفق ، وهو منظم إلى حد بعيد ، ومرتب لكتبه على أبداع مثال ، ولا ينسى في مقدماته سنة العلماء من امتداح طريقتهم ، والثناء على عملهم ، والنهي على مؤلفات من سبقه ، ومراعاة حسن الافتتاح ؛ والاحتفال بالنورية والسجع عنده لازم ؛ فهذه — مثلاً — عبارة له في بعض مقدمات أحد كتبه البلاغية « الحمد لله الذي كشف عن وجوه المعاني يديع البيان فباع الحقيقة والحجاز ، وأدرج أسرار البلاغة في كلامه ليكون من دلائل الإعجاز » . كما لا ينسى أن يتحدث عن نظر أهل عصره إلى العلم الذي يؤلف فيه ، فيقول عن علم الكلام : « وإنه في زماننا هذا قد اتخذ ظهرياً ، وصار طلبه عند الأكثرين شيئاً فرياً ، لم يبق منه بين الناس إلا قليل ، ومطمع نظر من يشتمل به على التدرية قال وقيل » .

كما لاحظنا أنه يلتزم بتقديم كتبه إلى الوزراء والسلاطين ، حتى لقد سمي بعضهم باسم بعضهم ، وهذا شيء معروف في تلك العصور ؛ غير أن الجديد عند المعتمد المبالغة الممقونة في مدح المقدم إليه الكتاب ، فهو يقدم كتاب المواقف إلى « أعظم من ملك البلاد ، وساس العباد » ، من شيد قواعد الدين بعد أن كادت تهدم ، واستبق حشاشة الكرم حين أرادت أن تهدم ، محرز مكارم الأكاسرة بالإرث والاستحقاق ، جمال الدنيا والدين أبي إسحاق » . وهو يطيل في ذلك إطالة عملة ، ثم يختم كلامه بهذا الدعاء « لا زالت الأفلاك متابعة لهواه ، والأقدار متحرية لرضاه » . ولكن هذا الدعاء لا يرضى السيد الجرجاني فيعقب عليه بقوله : هذا دعاء قد شاع في عباراتهم ، لكن الاحتراز عن أمثاله أولى ، إذ فيه مبالغة غير مرضية ! .

وهذا - لعمري - تأدب لطيف من السيد ، ولكن الحق أن هذه عبارات نائية جد النبوة ، لا سيما في مقدمة كتاب ألف في توحيد الله وتنزيهه .

وقد تأثر تلاميذه بهذه السنة ، فترى السعد يقدم المطول الى : ظل الله على الأمام ، مالك رقاب الامم ، حليفة الله في العالم ، عياث الإسلام ، ومغيث المسلمين ، أبو الحسين محمد كرت ، . ويقدم المختصر الى : حصرة من أنام الأنام في ظل الأمان ، وأفاض عليهم بحال العدل والإحسان ، السلطان الأعظم ، مالك رقاب الامم ، ملاذ سلاطين العرب والعجم ، أبو المنظر السلطان محمود بجاني بك خان ، . والسيد الشريف يقدم كتابه شرح المواقف الى : حصرة المولى السلطان الأعظم ، والخسافان الاعلم الاكرم ، مالك رقاب الامم ، من طوائف العرب والعجم ، ملجأ سلاطين العالم بالاستحقاق ، ومفخر أساطين بني آدم في الآفاق ، السلطان المؤيد غياث الحق والدولة والدين بير محمد اسكندر . هذه فقر قصيرة من عبارات طويلة كتبها هؤلاء الفضلاء في تقديم كتبهم ، ومع أن إدخال التعظيم في الألقاب ، والعزو في الخطاب مما أدخله العجم الى العربية منذ دخلوا فيها من زمن بعيد ، إلا أما كما نود أن يقف هؤلاء العلماء عند حد في المديح ، وأن يكونوا قدوة أهل زمانهم في الاعتدال في محاطية السلاطين والأمراء . وما أجل الإمام الكرمانى صاحب شرح البحارى : فقد ذكرُوا في سيرته أنه كان غير مكترث بأهل الدنيا ، ولا يلفت إليهم ، يأبى إله السلاطين في بيته ، ويسألونه الدعاء والصيحة . ومثله من العلماء كثير ، وإنما خصصته بالذكر لأنه تلميذ من تلامذة العبد . كما قدمت .

ولقد أعجبنى أبما إعجاب وصف الإمام المضد لبعض الكتب التي طالعها في زمانه ؛ وإعما أعجبنى هذا الوصف لأنه ينطبق تمام الانطباق على كثير من مؤلفات زماننا ؛ وسنضع هذا الوصف أمام المرورين لعلمهم بمجدون فيه حافزا على استكمال الفص ؛ قال : « وإني قد طالمت ما وقع لي من الكتب المصنفة في هذا الفن - يريد علم الكلام - فلم أرم فيه شفاء لعليل ، أو رواء لعليل ، سيما والهمم قاصرة ، والرغبات فائرة ، والدواعي قليلة ، والصوارف متكاثرة ، فحصرتها قاصرة عن إفادة المرام ، ومطولاتها مع الإسماء ، مدهشة للأفهام .

فهم من كشف عن مقاصده التنوع . وقنع من دلائله بالإقناع ؛ ومنهم من سلك المسلك الشديد ، لكي يلحظ المقاصد من مكان بعيد ؛ ومنهم من غرصه نقل المذاهب والأقوال ، والنصرف في وجوه الاستدلال ، وتكثير السؤال والجواب ، ولا يبالى لإلام المآل ؛ ومنهم من يلفق معالط لترويج آرائه ، ولا يدري بأن النقاد من ورائه ؛ ومنهم من يظفر في مقدمة مقدمة ويختار منها ما يؤدي إليه بادية رأيه وربما يكر بعضها على بعض بالأبطال ، ويتطرق الى المقاصد بسببه الاختلال ؛ ومنهم من يكبر حجم الكتاب بالبسط والتكرار ، ليظن به أنه بحر زخار ؛ ومنهم من هو كعاطب ليل ، وجالب رجل وخيل ، يجمع ما يجده من كلام القوم ، يقله نقلا ، ولا يستعمل عقلا ، ليعرف أغث هو أم سمين ، وسخيف ما ألقاه أم متين . . قلت : وهذا الصنف الأخير كثير عندما ، ومنتشر في بلادنا ؛ وبقى نوع جديد : أولئك الذين يسطون على آراء غيرهم من الباحثين ، ثم ينسبونهم لأنفسهم ويتعاملون بها ، وأكثر المؤلفين من ناشئة جيلنا لا يخرجون عن هذا الفريق . ١

عمله في البلاغة :

للمضد في البلاغة بعض المؤلفات ، ولكن إفادته للبلاغة كانت في ميدان غير ميدان البلاغة نفسها ؛ فليس له في هذه العلوم باع طويل ، والبلاغة قد ارتبطت عليا - منذ زمن بعيد - بعلم الكلام ؛ فإذا أفاض المضد وهو يؤلف في هذا العلم ، أو وهو يدرس لتلاميذه ، في تلك النواحي التي قدما الإشارة إليها ، فإنما يخدم بذلك علوم البلاغة من طريق أخرى ، والبلاغة والكلام علان كانا ميدانا فسيحا للنطق والفلسفة ، ولا سيما بلاغة المعجم ؛ على أن أكثر المؤلفين فيها من زمن قديم كانوا من علماء الكلام ، وحسبنا السكاكي والزمخشري والجاحظ .

فلا شك في أن تلاميذ المضد قد استفادوا من بحوثه المنطقية والفلسفية في كتبه الكلامية ، وقد درسوا البلاغة على هذا الضوء . ولست الآن بصدد بيان مدى نفع هذه الطرق أو ضررها ، فقد قلب فيها ؛ أما كتبه في البلاغة فقليلة الفائدة ، عديمة الجدوى ، وربما كان لها في عصره شأن ، فقد نهج منهج الاختصار ، ويبدو أن الأذهان كانت غير مستعدة للدراسة العميقة في فنون البلاغة ، فسهل عليها الطريق ، كما كان يفعل الخطيب في مصر والشام ، كان يعمل هو في بلاد المشرق ،

والخطيب قد سبقه ، ولكن ظنى أنه لم يطلع على تلخيصه ولا إيضاحه . وواضح
بما كتبنا أن كلا منهما اعتمد على كتب هيد الفاهر ، وعلى مفتاح العلوم بالطبع .
وله في البلاغة :

١ — الفوائد الغيائية : وهو تلخيص للقسم الثالث من المفتاح ، وبمقارنته
بتلخيص الخطيب مجده أحصر منه ، ويبدو اختصاره في إهماله لكثير من
المصطلحات التي تعرض لها الخطيب ، وفي اكتفائه بأمور عامة في مباحث
العلوم ؛ وقد قدم هذا المختصر إلى الوزير الكبير ، غياث الدين محمد بن سلطان
الوزراء رشيد الدين ، ، وصرح في خطبته بالفرض الذي حدا به إلى هذه الطريقة
من التأليف فقال : « هذا مختصر في على المعاني والبيان ، يتضمن مقاصد مفتاح
العلوم ، سميت بالفوائد الغيائية ، تيمنا باسم من ألقى إليه الدهر قياده ، وقام بأمر
الملك بأيد فآداه ، ثم يذكر أنه أراد لهذا الوزير أن يحصل دراسة البلاغة دون
كد ولا عناء ، وأن يحظى في أقصر وقت بإدراك مسائلها ، ومعرفة قواعدها
« فيقتضى منها وطرا في أقصر مدة ، ولا يعرج عليها إلا إناخة راحل مشمر عن
ساق الجدد لتدبر لطائف كتاب الله وفوائده ، والغوص في تيار بحار عويصاته
لا استخراج فرائده . » وإن هذا الصنيع من العصد ليرجع بنا إلى القرن الرابع يوم
ألف الحسن بن أحمد أبو على الفارسي كتاب (الإيضاح) في النحو ، وقدمه إلى
عبد الدولة البويهى فاستغصره عبد الدولة ، وقال : ما زدت على ما أعرف شيئا
وإنما يصلح هذا للصبيان « فضى وصف (التكلفة) وحملها إليه ، فلما وقف عليها
قال : غضب الشيخ وجاء بما لا نفهم نحن ولا هو « ولكن شتان بين عصرين ،
وبين عاهلين . ولا غرو فعصد الدولة كان مشغفا بالعلم ، حتى لقد سأل أبا على
نفسه وهو في الميدان عن ناصب لمستنى ، وجادله في ذلك ، وقال أبو على :
إنه جواب ميداني ، ثم رجع عن رأيه حين رجع إلى كتبه ١ .

وعلى « الفوائد الغيائية » شروح ، أشهرها شرح طاشكبرى زاده ، وهو شرح
حافل ، ثم اختصر زاده هذا الشرح . ومن شرحه الكرمانى ، وسماه (تحقيق
الفوائد) والفنارى ، والجرجاني السيد ، والصفوى وآخرون .

٢ - المدخل : وهو رسالة صغيرة الحجم ، تبلغ خمس ورقات ، اختصر فيها العلوم الثلاثة اختصاراً مخلصاً ، وقد ذكر بعد الديباجة : هذا مختصر في البلاغة وتوابعها ألفته كالمدخل في الكتب المبسطة ، وقد شرحه شيخ الإسلام شمس الدين محمد بن أحمد بن فضل العدني .

٣ - أرجوزة : ذكر في أولها أنها نظم للتختصر ، يعني المدخل ، ، وأنها تضمنت علم المعاني والبيان والبديع ، ولكن الذي رأيته منها نحو العشرين بيتاً ، لم تناول غير مقدمة علوم البلاغة : تعريف البلاغة ، والفصاحة ، في الكلمة والكلام والمشكلم ؛ وذكر العلوم التي يحتاج إليها في دراسة البلاغة : اللغة والنحو والصرف والمعاني والبيان والبديع ، كما هو معروف ؛ ووقف عند ذلك . والأرجوزة في الصفحة ونصف الصفحة من القطع الصغير ، ومطلعها :

قال الفقير عابد الرحمن الحمد لله على البيان
وأفضل الصلاة والسلام على النبي أفضل الأنام
فهذه أرجوزة مثل الجمان ضمنتها علم المعاني والبيان
لخصت فيها ما حوى التحصيل مع ضم زيادات كأمثال السلع
ما بين إصلاح لما قد ينتقد وذكر أشياء عليها يعتمد

ومن هذا نفهم أنها أرجوزة كبيرة ، ولكن لم يوجد منها غير ما ذكرت ، ولعل بعض القراء يعرف شيئاً عن بقية هذه الأرجوزة ؛ فإنها كما يبدو من ابتدائه حاوية مفيدة .

والمدخل والأرجوزة وشرح المدخل في نسخة مخطوطة في مجلد واحد بالمكتبة الأزهرية .

ويندر أن نجد للمصنف رأياً في شيء من المسائل البلاغية ، وربما رجح بعض الآراء كقولها في آخر الفوائد : فأصل الحسن في الكل أن يتبع اللفظ المعنى ، لا المعنى اللفظ ، وإنما هو يترك التكلف .

ولئن كان المصنف لم يترك آثاراً ذات بال في البلاغة ، فقد ترك تلاميذ خدموا هذه العلوم - على طريقته - أجل الخدمات ؟

شعراء الأزهر

السيد حسن القاياتي

رأى الاستاذ البشرى فيه

زَيْنُ الْعِلْمِ الْمُحَضُّ ، وَالْأَدَبِ الْوَفْرُ ، لَفَضِيلَةِ الْأَسْتَاذِ الْأَدِيبِ الْعَالَمِ الْكَبِيرِ ،
الشيخ عبد الجواد رمضان ، الأستاذ بكلية اللغة العربية ، أن ينظم الأديب
الكبير الأستاذ السيد حسناً القاياتي ، في عقد نفثاته الأدبية ، شعراء الأزهر ، ،
فأعجب وأطاب ، وحكم فأصاب ، وإذا شاعره بهذا التنويه شاعر فرد ، حياته
الحُسُلُ ١١١

ثم تخير الأستاذ عبد الجواد أن يجعل حديث الشاعر الفحل الأستاذ محمود
غنيم ، إلى حديث السيد حسن القاياتي ، لبعض المشابه بينهما من الجزالة والركة
- فيما يرى - فاجتلب ذكره معه اجلاباً ، ليسايره به ، ثم يباريه بأدبه ، وضرب
للوارثة المثل ، فاحتمل .

أجل . لقد عقد الأستاذ الموازنة والمباراة بين الأدبيين ، ففضى للشاعرين
معاً بالإبداع السائد البحث ، ثم قصى كذلك بأهما يذهبان بالجزالة والركة معاً ،
يبدآن السيد حسناً القاياتي عنده أشبه بالجزالة من ، غنيم . وتلك ميزته ، وأن
« غنيما » عنده أشبه بالركة من القاياتي ؛ تلك ميزته ؛ فإن أرسى القاياتي جبلاً ، تحدر
« غنيما » نهراً .

ثم عتقب هل أثر الأستاذ عبد الجواد رمضان الكاتب المقتدر ، والفريد
المطرب ، الأستاذ السيد العناني ، فكانت له معه مراجعة ساحرة ، وحوار جزل ،
برز فيه فانتصف ولم يتحلف ، بيد أنه كان من رأى الأستاذ العناني - خلافاً على
صاحبه - أن الشاعرين من واد واحد ، وطرأ في القديم متوحد ، لا تجمل الموازنة
بينهما ، ولا معارضة أحدهما بصاحبه ، وإنما التعارض بمختلفين لامتفقين ؛ هذا

إلى أن الجزالة لدى الأستاذ العناني، هي والرقعة ترُبان، كالحسن والحب عندما يجتمعا، والشفاه وقبل الحدود يلتقيان، وقضى بأن شعر القاياتي كما ذهب بالجزالة، استأثر بالرقعة، كما يتفجر الصخر، عن النهر، وتبسم الصخرة، عن الزهرة. جرى هذا الحوار الأدبي كله بين الكاتبين المحسنين على صفحات مجلة الأزهري، المصممة، ثم وقف كاتب هذه الصفحة الجائزة، بعد آونة متباعدة، على نقشة فاتنة صحارة، للكاتب الكبير الخطير، الشيخ عبد العزيز الشري، برّد الله فيه الخيمة البيان والعروبة، يصف بها بيان السيد حسن القاياتي، فيسرق في تحلية أدبه بالجزالة، والرقعة - معاً - كأنه ليس بينهما عنده وعند الحق فرق.

لقد كان إذن رأى الأستاذ الشري يشهد لزعة الأستاذ العناني، وينصر رأيه الفائق بأن الجزالة والرقعة فرسا رهان، في الإحسان، وأن السيد حساً حريّ وقد ذهب بجزالة حقّة، أن يذهب بالرقعة.

من أجل هذا اقترح، «أرجو أن تفضل صحيفة الدين المثين، والقول المبين، مجلة الأزهري، المصممة، بالإذن في نشر كلمة الأستاذ الشري هذه، لتكون حكماً بين الكاتبين، فيصلاً في الرأيين.

«الطائر المحكي»

كلمة الأستاذ البشري عن السيد حسن القاياتي :

قال الأستاذ البشري :

لونهما للبيان أن يتمثل حلقاً، لما جمع بيان السيد حسن القاياتي، إلا على صورة صاحبه، وفي مثل شكله وكتله، سواء بسواء، ولو لم يكن قد رُئى أن أرى السيد حساً، ثم رأيتُه، بعد أن هملت من بيانه، لتُحْيِلَ إلى أن أتهدي وحدي إلى أن هذا الإنسان، صاحب هذا البيان ١١١

عرفت السيد من صدر أيام الطلب في الأزهري، وسرعان ما امتد بيننا حب المودة، فكان من يوم منجمه - وصل الله في عمره - يرسل الكلام، ويقرض الشعر، إذ شعره وإذ نثره صورة صادقة حق الصدق، لسلاسة نفسه، وجزالة طبعه، وحلاوة خلقه؛ بل إنك لتحصي في بيانه بالحياة الذي تحسه فيه نفسه ١١١

بعد هذا تخضع بيان السيد حسن القاياني، حيث يحلو لتقديرك؛ وضعه في الدرجة الأولى أو ما فوقها، أو تختلف به عنها، فلكل من الناس مذهبه في تقدير أصحاب العنون، ولكنك على أي حال تراك مرغما على أن تقضي بأن بيان السيد حسن إنما هو صورة تامة الصدق لما يعتلج في نفسه، وما يتدسى في أطواء قلبه، وهذا الضرب من أهل البيان كَلُّ قليل ١١١

وهذه المزية، ولك أن تدعوها الموهبة، إنما نشأ في أصلها بالفطرة، وتعم مع الطبع، ما يجدي في خلقها تفكير ولا تهذيب، على أنها ترُبُو وتستحصد بعد ذلك بطول التدريب والتمرين، حتى ما يجد صاحبها فكاكاً من صدق التعبير عما يحبك في نفسه من نزعات الإحساس، وكذلك السيد حسن القاياني.

ولعل بما أبلغ السيد حسناً هذه المنزلة، بعد توفّر الأمر به، أنه نشأ في بيت حسَب، فهو يألف من أن يراني الناس، ويادلهم بما لا يراه حقاً، وأن الله تعالى بسط له في الرزق، فهو غني عن ترهّط الناس بالحق وبالباطل ١١١ طلباً للمنزلة فيهم، والتماساً للمعروف هندم.

هذا إلى أنه رجلٌ رقيق الحس، مهذبُ العاطفة، جميل منزع النفس، ومن كان له كلُّ هذا، فهو أجلُّ محلاً من أن يكذب على عواطفه، ويفترى على ما يحول في صدره من نوازع الوجدان.

يدُلُّك على هذا من بيان السيد، إن كنت محتاجاً فيه إلى بيان، أنك تراه يتفرل، وأكثرُ شعره في الغزل، فيطلع عليك بأرق الكلام، وأعذب، حتى ليخيلُ إليك أنه لا يقول شعراً، ولكنه يفتُ شعراً ١١١ ومع هذا لا ترى في نسيبه عنفاً ولا عربةً بدّة، على نحو ما يصنع متكلمو الغزل من الشعراء ١١١؛ ذلك بأنه ترجم عن حبه تحسب، فلم يتكلف، ولم يتعسّل لاصطياد المعاني النائية، ولم يعتمد المبالغات الثابتة، ليُزيّن بها نظم القريض؛ وإذا كنت ممن يعرفون السيد القاياني وما أوتي من وداعة الطبع، وارتياح النفس، آمنت من قوورك بصحة هذا الكلام.

لذلك ترى مقالاته في مقامات القول المختلفة، فلا ترى على بلاغة النظم

ونصاعة الديباجة ، وإشراق الكلام ، إلا قولاً وادعاءً لئناً ، لا أثر فيه
للصراع ، وخاصة في مقام النقاش والخصام !!!

وإذا كان بعض كرام المتأدين قد تدهم اليوم بجمع طائفة من مقالات
السيد وطبعها ، فإنه بهذا لقد أسدى منه جليلة إلى الأدب ، وعقد الجليل ،
في أعناق الجيل ، والأجيال اللاحقة ، وسوى دخيرة تضاف إلى ذخائرنا ،
وأخرج مَفْخَرَةً تُضَمُّ إلَى مفاخرنا .

أدام الله السيد حسناً القاياتى يَنْبُوعاً صافياً من ينابيع الأدب الصافى .

والسلام عليكم ورحمة الله

« عبد العزيز البشري »

ذكرى

روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه حج ، فلما كان بصنحجان^(١) قال :
لا إله إلا الله العلى العظيم ، المعطى من شاء ما شاء : كنت في هذا الوادى
في مدرعة صوف أرى إبل الخطاب ، وكان فظا يتعبنى إذا عملت ، ويضربنى إذا
قصرت ، وقد أُمِيت الليلة ليس بينى وبين الله أحد : ثم تمثّل :

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته	يبقى الإله ويُودى ^(٢) المال والولد
لم تغن عن هرمز يوما خزائنه	والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا
ولا سليمان إذ تجرى الرياح له	والجن والإنس فيما بينها ترد
أبى الملوك التى كانت نوافلها	من كل صوب إليها وافد يفد
حوض هنالك مورود بلا كذب	لا بد من ورده يوما كما وردوا

(١) حنجان : جبل قرب مكة . (٢) يودى : ينهب

أبو طالب بن عبد المطلب

لفضيلة الاستاذ الشيخ عبد الحميد محمود المسلول
المدرس بكاية اللغة العربية

تحفرت في رغبة شديدة ملحة إلى مواصلة الكتابة في أبي طالب بن عبد المطلب ،
واستخراج مواطن العبر وإبراز مكان العظات من حياته . وما أكثر ما تجلى
فيها من عبر ، وما أعظم ما برز منها من مواظ .

وإني لأشعر في أعماق قلبي بإجلال عظيم واحترام كثير لهذا الرجل —
على أنه مات ولم يستجب لدعوة الرسول ، ولم يملأ بنورها قلبه في رأى الثقات
المحققين — فقد وقف وراء الرسول صلوات الله عليه ، كالصخرة الميعة العانية ،
يذود عنه كيد الكائدين ، ويدفع عدوان المعتدين ، ويناضل خصومه اللئد الضالين ،
دون أن يهن عزمه ، أو تتخلف شجاعته ، أو يتخاذل حرمه ، وطالما بذلوا له ألوانا
من الوعود ، وقدموا إليه بفنون من الإغراء عثله يسلم لهم محمدا ؛ ولكنه كان
يقول لهم : يا معشر قريش اواقه ما أنصفتوني : تعطوني ابنكم أغذوه لكم
وأعطيكم ابني قتلونه . ولقد أثار رده هذا عليهم وموقفه منهم ثارتهم ، وملا
نفوسهم ضغنا وحفيظة ، فتواعدوا وتعاهدوا على الإيقاع بالمسلمين ، وسومهم
الحسف والهوان ، ووثبت كل قبيلة على من فيها من أتباع محمد تعذبهم وتقتلهم عن
دينهم ، وتحاول جاهدة حائرة أن تصرفهم بالقسوة والقطاعة عن هداية الله ونور
رب العالمين .

أرادت قريش بذلك أن توغر صدر أبي طالب وثير حفيظته ، حتى تندفع
الاحداث وتكاثر الوقائع ، ويصبحوا أمامه وجها لوجه . وأدرك ذلك أبو طالب
وهو الرجل الحصيف ، فقام يتألف إليه القلوب ، ويتكثر بالانصار ، حتى يوقع
الرب في قلوبهم ، ويصدمهم عن وجههم .

دعا بني هاشم وبني المطلب ليدخلوا معه فيما هو فيه من مع محمد والقيام دونه،
وغاطب قلوبهم وعواطلمهم ، وباشد قرابتهم وعصبيتهم ، فاحتمعوا إليه وقاموا
معه ، وأجابوه إلى ما دعاهم إليه ، إلا أبا لهب ؛ فقد كانت شياطين السوء التي تتبع
في صدره ، والأصنام التي تعربد في نفسه ، تمنعه من الإصصات لداعي الدين ، أو
عاطفة القربى ، أو خالجة الرحمة .

وعلى الرغم من أن أبا طالب ظل يتألف بافر وُدّه ، ويروض شامس إخوانه ،
ويتوسل إليه بقصائده وأشعاره ، فلم يؤثر عن أبي لهب خير إلا مرة واحدة كان
قد غفل فيها شيطانه وهجعت شروره ؛ فإن أبا مسلمة بن عبد الأسد كان قد استجار
بأبي طالب لما اشتد به أدى القوم وعذابهم ، وهذا الرجل تجمعه بأبي طالب
رابطة القرابة ؛ لأن أمه عذروية . ولما أجاره أبو طالب مشى إليه رجال من بني
عزوم فقالوا : يا أبا طالب ما هذا ؟ منعت عما ابن أخيك محمداً فذلك ولصاحبنا
نعمه منا ؟ قال : إنه استجارني ، وإنه ابن أختي ، وإن لم أمتع ابن أختي لم أمتع ابن أختي .
فأكثروا عليه . وهنا يقوم أبو لهب فيقول : يا معشر قريش لقد أكثرتم على
هذا الشيخ ، وما تزالون تترابون عليه في جواره من بين قومه ؛ والله لتننن عنه
أو لقوم من معه في كل ما أقام فيه حتى يبلغ ما أراد . قالوا : بل نصرف عما فكره
يا أبا هبة . وكان أبو لهب ولهم وناصرهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
فأبقوا على ذلك . وقد استنار هذا الموقف العجيب طمع أبي طالب وأمله في أن
يقوم معه أبو لهب في نصرة محمد والوقوف دونه . فأرسل إليه يحرضه على ذلك
بقوله :

وإب امرأ أبو عتبة عمه لن معزل من أن يسام المظالم
أقول له وابن منه نصيحتي أبا عتبة ثبت سوادك قائما
فلا قبلن الدهر ما عشت حطة تب بها إما هبطت الم واسما

ولكنها كانت هجمة غلبت على شياطين أبي لهب ، ثم استيقظت بعدها أبدا الدهر
فلم تعد تفكر أو يمر بها الوسن . وتمر الأيام وتتابع الحوادث وأبو طالب في
موقفه من حماية الرسول كالجبل الآثم ، لا تنال منه العواصف المروج ، ولا تؤثر

فيه الرياح النكباء وكما عظم أمر محمد وكثر اتباعه وأنصاره ، أوغلت قريش في النكاية واشتطت في العدوان . ولما رأى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أتباعه المضطهدين وأنصاره المعذبين أن يهاجروا إلى الحبشة ، فإنها أرض صدق ، وبها ملك لا يظلم عبده أحد . وانطلق فوج من المسلمين إلى الحبشة وفيهم جعفر بن أبي طالب وزوجته .

فهذا ولده وفلذة كبده ، يفارقه إلى بلاد غير بلاده ، وقوم غير قومه فلا يفتضب ولا يتألم ، بل يؤثر عنه أنه قال قصيدة يخاطب فيها النجاشي ويحضه على حسن جوارم ، واستضافتهم . ولعل هذه القصيدة التي ذكرها ابن أبي الحديد في شرحه لهج البلاغة — إن صحت نسبتها إلى أبي طالب — يكون المقصود بها تنبيه قريش والمهاجرين خاصة إلى كرم النجاشي وسعة صدره ، حتى لا يلجأوا في الشبهة والإيذاء .

أثارت مواقف أبي طالب حفاظ قريش ، وحركت كامن أضعائها ، فاجتمع رهوس الكفر ودعائم الشرك ، وتشاوروا فيما بينهم ، وقال قائلهم : يا معشر قريش إن الإسلام قد اعتز بعمر وحمزة ، وإن أنصار محمد قد أصبحوا من القوة والكثرة بحيث يخشى شرم ولا يؤمن بأسهم ، وهذا الشيخ يحميم وينافح عنهم ، ويقوم دونهم في السراء والضراء ، فتدبروا في الحيلة ، وفكروا في التخلص .

وأخيراً تعاهدوا واتفقوا — وما أكثر ما تعاهدوا واتفقوا — تعاهدوا على أن يكتبوا كتاباً يتعاهدون فيه على بني هاشم وبني المطلب على ألا ينكحوا اليهم ولا ينكحهم ، ولا يبيعوم شيئاً ولا يبتاعوا منهم شيئاً ، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم . فلما تم لهم ذلك انحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب ، فدخلوا معه في شيمه . وفي ذلك يقول أبو طالب .

ألا أبلغا عني — على ذات يئنا —	لؤيًّا ومُحصا من لؤي بن كعب
ألم تعلموا أما وجدنا محمداً	نبياً كومي مُخط في أول الكتب
أفيقوا أفيقوا قبل أن تحفر الزبي	ويصيح من لم يمن ذنباً كذبي الذنب
ولا تدبوا أمر الرشاة وتقطعوا	أو اصبرنا بعد المودة والقرب
وتستطبوا حرباً عواناً وربما	أمر على من ذاقه حلب الحرب

فلننا ورب البيت نُسلم أحدا لعزاء من عض الزمان ولا كرب

ومع ذلك فقد مضت قريش في خطتها ، فأحكمت كتابة الصحيفة والقيام على تنفيذها ، فكث بنو هاشم في الشعب ثلاث سنين تكبدوا فيها من الآلام والمتاعب والجوع والحربان ما يمرض القلب ويحرق الكبد ، وبينك أقوى النفوس جلدأ ومصابة . ثم شامت إرادة الله أن تختلف قريش فيما بينها على الاستمرار في المقاطعة ، وقام من بينهم بعض نمر يطلبون نقض الصحيفة ؛ وأوحى الله إلى رسوله أن الأرضة قد أكلتها إلا ، باسمك اللهم ، فأخبر بذلك عمه أبا طالب فقام إلى القوم من فوره فأخبرهم ، فنظروا في صحيفتهم فوجدوها كما أخبر ، فانتهوا عن القطيعة ونزلوا عما فيها .

وما زال أبو طالب ثابتاً في موقفه من حماية الرسول ، تحسب قريش حسابه ، وتحشى إغضابه ، حتى مات في أوائل السنة الحادية عشرة للبعثة ، وكان موته فائحة ياب من العدوان للشركين ظل مرتجأ طول حياته ، فتوالت على المسلمين بعده أحداث وخطوب ، صبر لها الرسول وتحملها ، إلى أن خرج من مكة في جنح الليل إلى حيث تحصب الدعوة ، وتطل على العالم نوراً وهداية .

كانت لأبي طالب أشعار سائرة وقصائد مذكورة في مدح الرسول وتأييده والدفاع عنه ، وتلك من أسرار النبوة ونفحاتها . ولقد قيل إن عتبة بن ربيعة لما قطع رجل أبي عبيدة بن الحارث بن المطلب يوم بدر ، أشبل عليه على وحرمة ، فاستغذاه منه وحزباً عتبة بسيفيهما حتى قتلاه ، واحتملا صاحبها من المعركة حتى ألقياه بين يدي رسول الله وإن عنه ليسيل ، فقال : يا رسول الله لو كان أبو طالب حياً لعلم أنه قد صدق في قوله :

كذبتم وبيت الله نخلي محمداً ولما نطاعن دونه ونسائل
وتنصره حتى نصرع حوله رذمل من أبنائنا والحلائل

وورد أن رسول الله حين فرغ من قتلى بدر وأمر بطرحهم في القليب ، جعل يقول : يا عتبة بن ربيعة ، يا شيبه بن ربيعة ، يا أبا جهل بن هشام ، يا غلان ، يا غلان ، ويعد أهل القليب : هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً فإني وجدت ما وعدني ربي

حقاً : ثم أخذ يتذكر من شعر أبي طالب بيتاً فلا يحصره ، فقال له أبو بكر : لعله
يا رسول الله قوله :

وإنا لعمر الله إن جدم ما أرى لتلتبسن أسيافاً بالأمائل
فسر رسول الله وقال : إى لعمر الله لقد التبت .

ولقد جاء الى الرسول صلى الله عليه وسلم أعرابي في عام جذب فقال : يا رسول
الله أينك ولم يبق لنا صبر يرتضع ، ولا شارف يجتر ، ثم أنشده أبياتا ختمها بقوله :
وليس لنا إلا إليك فرارنا وابن فرار الناس إلا الى الرسل
فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يحمر رداه حتى صعد المنبر فحمد الله
وأثنى عليه ، ودعا دعاء السقيا ، فأرسل يده إلى نحره حتى زينف السماء بالغيام وجادت
بالمطر ، فضحك الرسول صلى الله عليه وسلم حتى بدت توأجه ، ثم قال لله در
أبي طالب لو كان حيا لقرت عينه ! من ينشدنا قوله ؟ فقام على فقال : يا رسول الله
لعلك أردت :

وأبيض يستقي الغمام بوجهه شمال اليتامى عممة للأرامل
يلوذ به الهلاك من آل هاشم فهم عمده في رحمة وفاضل
قال : أجل ! .

هذه تحية عابرة نقدمها لذلك الرجل الذي أكرم الرسول صلى الله عليه وسلم
وأعزه وحماه ونصره ، في ذكرى ميلاد الرسول الأكرم ، صلوات الله وسلامه
عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين ؟

أسباب المكارم

إذا أنت عصفت المودة صافيا	ولم تر عن وصل الصديق مجافيا
وفيت بالعهد الذي غانه الورى	ولم أر مخلوقا على العهد باقيا
فقد حزت أسباب المكارم كلها	وجددت للعليا رسوما عوافيا

الاعلان عن السلعة

لفضيلة الأستاذ الشيخ ابراهيم على أبو الخشب
المدرس في كلية الشريعة

أصبح الإعلان عن السلعة ضرورة من الضرورات التي يتوقف عليها رواجها ، وعلى قدر النجاح في التتويه بمجودتها وتفوقها على سواها من أمثالها يكون الإقبال الشديد على طلبها ؛ ولذلك صار الإعلان فناً من الفنون يدرس للتلاميذ التجارة في البلاد المتعدية .

وكما يتوقف رواج السلعة الى مدى بعيد أو قريب على التتويه بها ، والإعلان عنها ، يتوقف كذلك على حسن العرض ، وطريقة التوزيع .

ويقول علماء التربية . إن المدرس الحق هو الذي يرزق من حسن عرضه للمعلومات ، ومن طرق إيصالها الى أذهان طلابه ، ما يحملهم على الرغبة فيه والإقبال عليه ، وهم لا يقصدون من ذلك كله إلا أن يجتال الأسانذة للإفادة والتهميم ، بحيث يروون الظماً ، ويحجلون الصدأ ، ويشبعون الهمة المتأججة ، والبهمة المتوقدة . وفي هذا من غير شك إشادة صامتة بأصحاب الكفايات الممتازة ، من سادة لا التواء فيها ولا غموض .

إلا أن في بعض الناس شعاراً شنيعاً الى الظهور لمناسبة أو غير مناسبة ، وهو استجابة لعريضة تسمى بهذا الاسم ؛ ولذلك فإنهم في سبيل هذا الشعار يرتكبون أوحش الأخطاء ، وينهجون مناهج ربما كانت تزرى بهم ، وتسمى إلبهم . ونحن لا ننكر أن الوازع النفسية شيمة النفوس جميعاً ، لا يخلو منها إنسان ، أو يتجرد عنها آدمي ، ولكن الانقياد لها ، والسير وراءها ، وتلبية داعيها الى هذا الحد ، لا يكون إلا في القلوب الميتة ، والصمائر الحربة . وإذا كان الدين الإسلامي يزهد المسلم أن ينفل في المسجد ، ويرغبه أن يتصدق فلا تدرى شماله ما تنفق يمينه ، وينبئ عليه أن يخشى الناس والله أحق

أن يحشاء ، وما شاكل ذلك بما لا يكون همه منه إلا أن يعلن أنه فاضل وغيره مفضل ، فإنه إنما يحارب التواحي المرذولة في هذا النزوع . وقوانين الأخلاق ربما كانت تغفر للإنسان المادى الانحراف في سلوكه ، ملتزمة له المعادير من مداركه المحدودة ، وتعليمه الناقص ، وأنه لم يكن من المنزلة بمثابة تجعله مناط تقليد ، أو موضع اقتداء ؛ والمؤاخذة دائماً أبداً تكون على مقدار المكانة الاجتماعية التي يحتلها الأفراد . وما أظن أحداً يتجه إليه اللوم ، وتعلق به المؤاخذة ويكون حسابه غيراً ، كهؤلاء الذين يتصدون من أهم صدارة القيادة ، ومقدمة الصفوف .

وقد حملت إلينا الثقافات الأوروبية — أخيراً — ألفاظاً مستعذرة ، سماها ناقلوها بأسماء ما أنزل الله بها من سلطان ، ورحنا نعجب بها ، ثم نلوكها بعنوانات حرية الرأي ، أو حرية النظر والفكر ، ولكل جديد لذة — كما يقولون — والحرية حين لا تعتدى على الحق ، ولا تتجاوز حدود المنطق ، وأصول العقائد ، تكون مقبولة محمودة ؛ ولذلك فإننا نرحب بها في الشعر والأدب ، ونسيفها في الدرس للثق والامستفادة ، ومن الناشئة والمبندتين .

أما والحلال بين ، والاحرام بين ، والدين مع هذا التاريخ الطويل العريض قترت نظمه ، وثبتت دعائمه ، وتوطدت أركانه . ومن يتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه . . . فهل يكون من التجديد ، أو حرية البحث والرأى ، أن يتحبط متحبط فيطلع للفنارى بمقال يزعم فيه زعماً ، أو يعلن به دعوة ، خصوصاً حين يفتنر بالمقال أنه من الذين يترشد بهم الحائر ، ويهتدى الضال ، ويتعلم الجاهل .

لقد ألفنا الإلحاد الزائف ، والزيف المزرى ، من أنصاف المتعلمين ، وأشباه المتفقهين ، كما ألفنا أن نقرأ لأولئك الذين رصدوا جهودهم ، ووقفوا نشاطهم ، للقضاء على الصيحات الإسلامية لأهم أعدائهم ، أو على الأقل يتقاضون أجراً على محاربتها ، والكيد لها ، وإن كان في المأثور عن العرب ، تنجوع للحرية ولا تأكل بشديها .

وما ألفنا أن تكون الحيرة من أرباب الهداية ، وأن يكون الغنى في أهل
الرشاد ، والظعن على الدين عن يرتزقون به ، ويأكلون من فئات موائده . ولا أريد
بهذا أن أذكر أسماء ، أو أصف مسميات ، وحسبى أن أقول : إن الشهرة
والإعلان عز السلعة ، حين تنهى إلى هذا الثمن الحقيق ، خير مما الخمول . . .
على أن تلك الأساليب إذ يعرض بها الرجل بضاعته — إن صح أنها من
قبيل حب الظهور — لا تروج إلا في الجماعات العافلة ، والأوساط الجاهلة ،
ولا تعطى إلا على ذوى العقول الصغيرة . وإذا اتسعت المدارك ، وتجاوزت الأمة
طغولها الفكرية ، نبذت ذلك نيد الفم للنواة .

والطاعن على دين محمد صلى الله عليه وسلم ، كساطح الصخرة ؛ والذى يتحدث
عنه بلسان قدر أو يكتب بقلم مجدوخ ، أو يصوره بصورة التقاليد البالية ، والنظم
العتيقة ، لا يكون أول سفيه ، ولا آخر بذي ، فكم طعنت رجاء جبارة طعنان ،
وتحطم على صخرته أساطين بهتان ، وداس في طريقه أو شأبا وزمرا ، وهو هو ؛
يظن الاحق أنه ينال منه ، أو يعتدى عليه ، مادام في ميسوره أن يرور على العقول ،
وأن يمتوّه على الاقتدة ، وأن يكتب ببيان ، أو يطق بلسان ، كما يخيل للصبي
يرى صورة الشمس في المرآة أنه يجعلها قطعاً متناثرة ، وأشلاء متدابة ، وأجزاء
متناكرة ، إذا ما كسر زجاجها : حتى إذا ما محا قلبه ، وعاوده صوابه ، رأى
النور يلاحقه ، والضوء يسبقه ، وأنه إنما كان يحاول المستحيل ، ويجرى
وراء الأباطيل .

وأحب أن أنصح لمن يعتسف هذه المهامه ، أن يمشى على هدى الإيمان ، ونور
المعرفة ؛ وكفاه من الإعلان هذا المقدار . والناس إذا اقرت الاسماء بأسماعهم
إلى جانب الصدق في القول والإخلاص في العمل ، كان ذلك أشرف وأنبل من أن
تفتن بالبرح المفضوح ، والباطل المكشوف . والجندى المجهول مع كمال
الخلق ، وسمو الخلال ، خير ألف مرة من ثابه الذكر إذا كانت نباهته تقوم
على غير أساس ؟

مشكلة الصراع بين الواجب والعاطفة في القرآن

لفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد شامين
من علماء الأزهر الشريف

عد ما تخلص المدركات المعنوية أو المؤثرات الخارجية الى ذهن الإنسان من مسائل الحب المتنوعة ، تعرض له دائماً أحوال ثلاثة متلاحقة متلازمة .
أولها : معرفته لذات الشيء المدرك ؛ وثانيها إحساسه في دخيلة نفسه بلذة أو ألم من جراء هذا الإدراك ؛ وثالثها قيامه بتصرف ما ظاهر أو باطن هو رد فعل للعائتين المتقدمتين .

هكذا تنقسم مقومات الشعور عند الكائن الحي في عرف السيكولوجيا الحديثة . وقد أطلقت على الحالة الأولى : الإدراك ، وعلى الثانية : الوجدان ، وعلى الثالثة : النزوع . وهذا التقسيم جميل ومستقيم ، ومطابق للقرآن نفسه ، كما يظهر من الفقرة الأخيرة من الآية الثامنة عشرة من سورة الكهف ، وهي : لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملت منهم رُعباً .

والحالة الثانية ، أي الحالة الوجدانية : إما أن تعرض للإنسان مؤقناً وسرعان ما تحول وتزول ، كأي غضب الأم الحانية على طفلها المشاكس إذا انتهت أو عاقبت ؛ أو مثل سخط هذا الطفل على تلك الأم ساعة العقاب مثلاً ؛ وهذا هو الانفعال . وإما أن تكون شعوراً دائماً متأصلاً في النفس كما في شعورنا بالمتى أو الخوف نحو المجرمين والأعداء ؛ وذلك ما يسمى في اصطلاح السيكولوجيا ، بالعاطفة . فالعاطفة إذن شعور أليم أو سار ، ثابت مستقر في أعماق النفس حول شيء معين كلما رآته العين أو سمعت به الأذن أو خطر على البال صاحبه ذلك الشعور السار أو المؤلم . على أن العواطف ليست كلها حيراً ولا صواباً في كافة الأحوال ، ولا سيما

هذه نهورها وطفانها ، ثم هي كما تولدها التجربة والمعارف الصحيحة والتربية المستقيمة ، تنشأ كذلك عن التلقين الفاسد والمعرفة الخاطئة والتقاليد السقيمة ؛ لهذا كثيرا ما تنمرد العواطف على الضمير ، وتتصادم مع العقل السليم ؛ وهيك حاكما مطاعا أو قاضيا في محكمة وسبق اليك ابن لك أو قريب عزيز عليك ، وقد ارتكب ما يستوجب العقاب الصارم — حينئذ تراك عرضة لهاته الأزمة النفسية القاسية : أزمة الصراع العنيف في دخيلة نفسك بين عواطف الآبوة الحانية أو المصيبة للدم وحب الصديق والرهبة من القصاص ، وكلها تراغمك على تخليص الجاني من قسوة العقاب ؛ وبين ضميرك المتألم الذي يناديك بأداء واجبك المقدس ، وإدانة الجاني ، ونبذ العواطف والأهراء . هذه أزمة قاسية ، وكل إنسان لابد متعرض لها في هذه الحياة التي هي معركة بين الخير والشر .

ومن هنا كانت مسألة هامة في علم النفس ، ومشكلة معقدة عند الفلاسفة الأخلاقيين ، وقضية مشكلة في عالم الفن والأدب .

فأما علماء النفس فقد قصروا دراستهم على تحليل عناصرها وتشخيص مظاهرها ، والكشف عن نتائجها في السلوك ؛ وأما الفلاسفة فقد بحثوا طويلا عن أفضل الحلول لها ، كما أفاد الفن منها مادة خصبة للإبداع والتصوير وتوضيح خواجج النفس وأسرارها .

ثم كان الفلاسفة والأدباء في استخراج الحلول سواء ؛ فهم الواجبيون أنصار الفضيلة والحقائق ؛ أمثال الرواقية عند قدامي اليونان ، وفلاسفة الإسلام في العصر الوسيط ، ومدرسة كنت في العصر الحديث ، ونظير طاغور وهوجو في دنيا الأدب ؛ ومنهم كذلك النفعيون والمساويين ، وهؤلاء رجحوا كفة العواطف والشهوات تفاديا لآلام الحرمان ، أو تحصيلًا للذة البدنية التي هي في حسابهم العاية المثلى للسلوك ، مثل قورناتية اليونان وفلسفة مل أو هوبز ومن على شاكلتهم من الإباحية أو النفعية ..

ومعجب أن تسرى روح عاطفية من تلك الفلسفة المادية الخاطئة الى التشريعات الأرضية ، ولا سيما في باب الجريمة والعقاب ؛ فما زالت القوانين الوضعية تخفف العقاب ، أو تلغيه ، إذا أطلق أحد الزوجين أو الحييين النار على الآخر فأرداه

قنيلًا ، ما دامت عاطفة العيرة المنجونة ، أو عاطفة الحب العاقي لها دخل في الباعث على الجريمة .

هكذا كانت تلك المشكلة النفسية المعقدة في نظر المسلم والمن والفلسفة والقوانين الأرضية : فما عسى يكون رأى القرآن الكريم فيها ؟

إن منهج القرآن في الدعوة إلى الله يقوم على أساسين ، رئيسيين ، وهما :

(١) الجدل المنطقي والبرهان الدقيق . (ب) الوعظ البليغ المؤثر بالوعد والوعيد ، وتفصيل أنواع الثواب والعقاب فيها وراء هذه الحياة الزائلة بأسلوب رائع بلغ حد الإعجاز في الجمال والبلاغة ، ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هي أحسن ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين .

وهذا المنهج العظيم قد يصح في نظر العلم الحديث من أبرز نواحي الإعجاز في القرآن الكريم ، كما سنبين لك في غير هذا البحث ، وإنما أردنا هنا الإشارة إلى أن هذا المنهج الحكيم كما عني بالعقل ، اعتنى أيضا بالعواطف ، فذهب يقنع العقول السليمة بالحجة والبرهان ، وراح يهز المشاعر ويستوى العواطف بسحر البيان ، وأساليب الترغيب والترهيب الحق .

كما أن القرآن الكريم لم يكلفك عبثا ما كلفتك به الصوفية الوعرة ، والفلسفة المتطرفة ، من الامتنابة إلى الحق لأنه الحق وكفى ، بل لذلك وما يترتب عليه من السعادة والنعيم المقيم الذى يستوى وصفه العواطف الزكية والقنوب المشرفة .. بلى وإن القرآن ليتساح معك أحيانا في إرضاء عواطفك الجامحة إلى أناس ليسوا معك في الاعتقاد والملة ، فهو يسوغ لك الزواج من لا تدين بدينك من أهل الكتاب إذا انعطفت إليها عواطفك ولم تصرفك عن واجبات دينك ، ويرخص لك في معاشره أبويك وطاعتهما ولو كانا على غير دينك ، مادام ذلك لا يتعارض مع واجبات العقيدة المقدسة . واستمع إلى قوله تعالى في الآية الثامنة من سورة العنكبوت . ووصينا الإنسان بوالديه حسنا ، وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما إلى مرجعكم فأبشركم بما كنتم تعملون . وإلى

قوله سبحانه في الآية السابعة من سورة الممتحنة : لا ينهاكم الله عن الدين لم يمتلوكم في الدين ولم يخرجكم من دياركم أن تبرؤم وتسقطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين . أما عند ما ينشئ من هذا الزواج أو تلك العشرة وهاته الصداقة خطرا على الدين ، فإن القرآن يحرمه ويشدد السكير عليه . وفي ذلك يقول في الآية التاسعة من الممتحنة : إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين ، وأخرجوكم من دياركم ، وظاهروا على إخراجكم ، أن تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون .

وحين يتعرض الإنسان في موقف ما لازمة الصراع في نفسه بين الواجب والمواطف المنعقدة ، فالقرآن يفرض عليه نسيان عواطفه وأداء واجبه كاملا غير منقوص . وهناك ما قاله في القضاء والشهادة على النفس والأهل والأقربين : يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالنفس شهادة لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ، إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ، وإن تلووا أو تمروا فإن الله كان بما تعملون خبيرا .

والقرآن الكريم حين يصرب لك الأمثال في تقديم الواجب على العاطفة لا يأتيك بها من نسج الخيال وتصاوير الأحلام ، كما يصح العلافة وأهل العن ، بل يقص عليك من أبناء الرسل مواقف تبهل النفس ، وتأخذ بمجامع القلوب .

فهذا نبي الله نوح عليه السلام ينادي ربه وقد حال الماوج به ، وبين ولده العريق فتحركت في نفسه عواطف الأبوة والشفقة على مصير ابنه العسر ، ومادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين ، وبأنه الجواب من الله تبارك وتعالى يعاتبه على الالتفات إلى عواطفه وهو سبيل القيام بواجبه ، فإذا به معتدرا مستغفرا قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين . قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم ، وإلا تفعلني وترحمني أكن من الخاسرين .

وذاك خليل الله إبراهيم ، يقطع كل علاقة له بأبيه في سبيل دينه . وما كان استعمار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، إني إبراهيم لأواه حلیم . ويؤمر عليه السلام بإخراج زوجته

وولده الرضيع إلى مكان البيت العتيق في البادية الموحشة الرهبة، فيصدع بالامر راضياً مرضياً، ثم يودعهما بهذا الوداع المؤثر الفياض بدواطف الشفقة والحنان والاستسلام التام لقدرة الله سبحانه . وأخيراً يؤمر في صامه بذبح ولده هذا فلا يني ولا يتردد، بل يعصى لأوامر واجبه راضياً مطمئناً، فلما أسلما وتله للجبين وناديتاه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين . إن هذا هو البلاء المبين، وفديتاه بذبح عظيم . وتركنا عليه في الآخرين . سلام على إبراهيم . أجل سلام على إبراهيم، وسلام على إسماعيل، فإنهما المثل الأعلى لأهل الواجب، وأخرى أن يسميا رسولا التضحية والفداء .

وبعد، فإن الحل القرآني لهاته المشكلة قائم على أساس تقويم العواطف جميعها، وتعديل الفرائر، لينتقى الانسجام دائماً أو غالباً بينهما وبين الضمير الحى والعقل السليم، فلا نشق عليهما، ولا تكون إلا حيث يجب أن تكون . وحينئذ يتعارض الواجب مع العاطفة فانترآن لا يعترف إلا بالواجب وحده، ولا يلتفت في سبيل القيام بالواجب بأبوة ولا بنوة ولا أخوة ولا عصبية للدم وما إليها من العواطف المتحركة :

« لا تعبد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم، أولئك كتب وقلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه، ويدخلهم جنت تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها، رضى الله عنهم ورضوا عنه، أولئك حزب الله، ألا إن حزب الله هم المفلحون . »

وسيلة

تعرض رجل للحسن بن سهل، فقال له الحسن : من أنت ؟

قال : أما الذى أحدثت إلى يوم كذا وكذا

فقال الحسن : مرحباً بمن توسل إلينا بنا . ١

حقوق الدائن قبل المدين

لحضرة الأستاذ صالح بكير
المدرس بكلية أصول الدين

بيئنا فيما سبق كيفية التنفيذ المباشر ضد المدين إذا كان موضوع الالتزام إعطاء شيء ؛ والآن نتكلم عما إذا كان موضوع الالتزام فعل شيء .

معلوم أنه لا يمكن إجبار المدين بالقوة القهرية على عمل شيء تعهد به ؛ لأن هذا مستحيل عملاً ويناقى حرية الشخص . وإزاء هذا إذا امتنع المدين عن القيام بما تعهد به جاز للدائن أن يقوم بإجراء العمل الذي كان يجب على المدين القيام به ، ثم يرجع الدائن على مدينه بجميع ما صرفه من المصاريف والتكاليف ، وكذلك التعويضات إن لحق الدائن ضرر من جراء تقصير المدين .

والواقع أن هذا ليس تنفيذاً مباشراً ، بل تنفيذ بمقابل ، لأن التزام المدين يتحول في النهاية إلى الزام بدفع مبلغ من النقود . ويشترط في هذه الطريقة أن يكون العمل من الأعمال العادية التي يصح أن يقوم بها كل فرد ، كالالتزام ببناء دار أو هدمها . ولكن إذا كان العمل الذي تعهد به المدين له صفة شخصية هي أنه لا يمكن أن يقوم به غيره كالتزام طبيب لإخصائي بإجراء عملية جراحية لا يستطيع غيره أن يعملها ، فإن التنفيذ المباشر أو التنفيذ بالطريقة السابقة يكون مستحيلاً ، ويتحول الالتزام ابتداءً إلى تعويض مالي إذا امتنع الطبيب عن إجراء العملية الجراحية التي تعهد بإجرائها .

وإذا كان موضوع الالتزام عن فعل شيء ، فالتنفيذ المباشر لا يكون ممكناً لعدم إمكان مراقبة المدين مراقبة فعالة مستمرة ، ومنعه بالقوة القهرية كلما حاول القيام بعمل ما هو ممنوع منه . وفي هذه الحالة إذا لم يتمتع المدين وقام بالعمل ، جاز للدائن حينئذ الالتجاء إلى القضاء للحصول على حكم بإزالة ما عمله المدين ،

مع الرجوع عليه بالمصاريف والتعويضات إن نشأ عن فعله ضرر للدائن . ومثال ذلك ما إذا تمهد شخص بعدم بناء دور ثالث ولكنه قام وبناء ، فللدائن حينئذ أن يتحصل على حكم يهدم هذا البناء والرجوع على المدين بكافة المصاريف مع التعويض إن وقع للدائن ضرر .

ويلاحظ أنه لا يلجأ إلى هذه الطريقة إلا إذا كانت ممكنة ؛ فإذا كانت غير ممكنة لحق الدائن يتحول إلى تعويض مالى إذا ما قام المدين بالعمل مخالفاً بذلك تعهده بالامتناع عن هذا العمل .

التنفيذ أو الإكراه المالى :

ابتكر القضاء الفرنسى طريقة لإجبار المدين على الوفاء بتعده ؛ وهى فرض غرامة مالية يأمر بها القاضى (وعادة تكون الغرامة كبيرة) عن كل يوم يتأخره المدين عن الوفاء بالتزامه . وبإضافة مثل هذه الحالة يقوم المدين بتنفيذ تعهده خشية أن تراكم الغرامات عليه .

ويلاحظ أن قرار القاضى بهذه الغرامات ليس قراراً نهائياً ، إذ له أن يعيد النظر فيها ثانية ، فله أن يلغىها أو يعدلها أو يقررها تبعاً للظروف والأحوال ، ولكن بشرط أن لا تتجاوز مقدار التعويض والصرر الذى لحق الدائن من جراء تقصير المدين .

وقد طبق القضاء المصرى هذه الطريقة خصوصاً فى دعاوى الحساب والوكالة . وقد أدت هذه الطريقة من الوجهة العملية إلى نجاح كبير فى إرغام المدين على الوفاء بالتزامه .

وقد عللوا قرار القاضى بالغرامة بأنه من الأوامر التى تدخل تحت اختصاصه وسلطانه .

التنفيذ بمقابل أو نظرية التعويض :

التنفيذ بمقابل هو أحد حقوق الدائن قبل مدينه ، وهو عبارة عن مطالبة الدائن مدينه بالتعويض إذا تأخر عن تنفيذ ما التزم به ، أو كان قد نفذ جزءاً منه ولم ينفذ الباقي . فالدائن فى هذه الأحوال بالخيار ، فله أن يتخذ ضد مدينه

إجراءات التنفيذ المباشر إذا كان ممكناً ، أو أن يطالبه بالتعويض ، كما له أن يطالبه به إذا كان التنفيذ المباشر مستحيلاً .

تقدير التعويض : تقدير التعويض إما أن يكون باتفاق الطرفين أو بحكم قضائي . ويشترط لاستحقاق الدائن للتعويض شروط .

(١) أن يلزمه الدائن تنبيهاً رسمياً على المدين بأن يقوم بالوفاء .
(٢) أن يكون المدين قد قصر في الوفاء بالتزامه . ويلاحظ أن تقصير المدين يفترض أنه ثابت لا يحتاج إلى دليل . وحينئذ إذا أراد المدين إبراء ذمته من الالتزام فهو الذي يتحمل عبء إثبات ذلك .

(٣) أن يلحق الدائن ضرر من تقصير المدين . وعلى الدائن إثبات حصول الضرر ، ولكن إذا كان الدين مبلغاً من النقود فإن الدائن لا يحتاج إلى إثبات حصول الضرر ، إذ الضرر يفترض حاصلًا وثابتاً بمجرد تأخير المدين عن السداد في الميعاد المحدد . وما لا شك فيه أن هذا التعويض هو عبارة عن فوائد الدين (دين النقود) ، وقد قدر القانون سعراً معيناً لا يصح تجاوزه .
التعويض الاتفاقي :

قد يتفق طرفا العقد على مقدار التعويض الذي يدفعه المدين في حالة تقصيره ، وهذا هو ما يسمى بالشرط الجزائي : ولا يتدخل القضاء في هذا التقدير ، بل يأخذ بما اتفق عليه المتعاقدان . ولكن لا يجوز للدائن أن يطالب بالتعويض إلا عند عدم تنفيذ المدين لالتزامه الأصلي ، أو عند استحالة هذا التنفيذ ، كما لا يجوز له أن يطالب بتنفيذ الالتزام الأصلي والشرط الجزائي معاً . ولا يستحق التعويض الجزائي إلا بعد التنبيه الرسمي ، وبشرط أن يكون المدين مقصراً في التزامه .
وقد وقع الخلاف فيما إذا كان يشترط لاستحقاق هذا التعويض حصول ضرر للدائن أم لا يشترط ذلك .

ذهب القضاء المختلط إلى وجوب استحقاق التعويض باتفاق بدون إدخال أي تعديل فيه ، بشرط أن يلحق الدائن ضرر ، فإن لم يلحقه ضرر فإن الدائن لا يستحق التعويض .

وأما القضاء المصري فذهب إلى ما ذهب إليه القضاء المختلط مع حق تعديل التعويض بما ياسب الضرر الذي لحق الدائن ، خصوصاً إذا تبين أن الشرط

الجزائي كان شرطاً جائزاً ، وأن المقصود منه لم يكن إلا تهديداً للدائن لإرعاه على عدم التقصير في الوفاء بتمعهده . وهذا كله إذا لم يتم المدين بالوفاء بجميع التزامه ، فأما إذا قام بتنفيذ جزء منه ، فإن كلا من القضاين الوطني والمختلط متفقان على أن للقاضي مطلق الحرية في تقدير التعويض بما يناسب الضرر الذي لحق الدائن بقطع النظر عن الاتفاق .

التعويض القضائي :

إذا لم يتفق العاقدان على مقدار التعويض فإن القضاء هو الذي يكون مختصاً بتقديره ، ولكن مع مراعاة القيود التي قررها القانون . ويلاحظ في تقدير التعويض أنه يشمل الخسائر التي لحقت الدائن والمكاسب التي فاتته والتي كان متوقفاً حصولها وقت إبرام العقد ، بشرط أن لا تكون هذه الخسائر وتعويض هذه المكاسب من فعل المدين وتدليسه ، فإن كانت من فعل المدين وتدليسه ، فإنه يسأل عن جميع ما فات الدائن من المكاسب . ومثال ذلك : شخص شخص حقية بالسكة الحديدية وفقدت هذه الحقية ، فإن السكة الحديدية تكون مثبلة عن قيمة هذه الحقية وما تحويه من أشياء عادية مما يحمله المسافر عادة ، فإذا ما وضع الشاحن في الحقية سبائك ذهبية (وهذا غير معتاد ولا متوقع عقلاً) وفقدت الحقية فإن السكة الحديدية لا تكون مثبلة عن هذه السبائك ، لأنه ليس من المتوقع عادة وعقلاً أن تشحن الحقية التي بها سبائك ذهبية بهذا الشكل .

التعويض القانوني :

إذا كان محل الالتزام مبلغاً من النقود فالتعويض لا يكون إلا عن التأخير في السداد ، ولا يكون إلا مبلغاً من النقود أيضاً .

وقد اعتبر التأخير في السداد ضرراً لا يحتاج الأمر إلى إقامة الدليل عليه ، لأن في التأخير تفويتاً لمكاسب كان يتوقعها الدائن من استغلاله لماله .

ولما كان تقدير التعويض في هذه الحالة من الصعوبة بمكان ، فقد حدد القانون مقداره وسعره ، وجعل لكل من المسائل المدنية والمسائل التجارية سعراً خاصاً بنسبة مئوية لمقدار الدين ، ويلاحظ أن التعويض في النقود هو فوائد الدين عن مدة التأخير في السداد .

العصر العظيم في تاريخ العالم

« كينغشيبوس - جونا موبوذا - زردشت - فيثاغوراس ، من وجهة نظر تأليفية ،
تأليف . ف . ستانكا تعريب : الأستاذ عمر طلعت زهران

• محاضرة خارج المنهج الدراسي أقيمت في جامعة هامبورج في التاسع عشر
من سبتمبر سنة ١٩٩٦ . ويجب أن ينظر الى ربط أصل النظريات هؤلاء الأربعة
باستخدام الحديد والاستغلال السياسي كقروض يحتاج الى فحص وتعميق . .

- ٦ -

كان فيثاغوراس أول من سمى نفسه فيلسوفا في بلاد اليونان ، وبالتالي
في العالم أجمع . والفلسفة عنده هي الكشف عن « التوافق » الداخلي الموجود
في جميع الأشياء في العالم .

وكان أول رياضي في أوروبا كُتِف بالابحاث الرياضية ، وقد ارتبط اسمه
بتقدم هذا العلم ، وما زالت إحدى النظريات تحمل اسمه حتى اليوم ، وأعظم
ما يكتشف هذه النظرية ليس كيانها ، وإنما طريق حلها وتوضيحها الرياضي
الذي كان أساس كل هندسة « اقليدس » . كما علينا أن ننظر اليها باعتبارها من
أعظم اختراعات العقل البشري . وقد أنتج نظريات أخرى من بينها جمع زوايا
المثلث . ولكن الرياضة ككل بأسمائها وأعدادها لم تكن بأى حال عند فيثاغوراس
عملا صوريا ميتا ، أو موضوعا إحصائيا جافا ، وإنما كانت مثلة ومجسدة للتوافق
الحى للعالم . وبما لهذا الرأي كان ينظر الى العدد باعتباره جوهر كل شيء ، ويتفق
هذا الفهم للعالم مع الفلسفة الرياضية العلمية الطبيعية الحديثة .

وكان أول فلكي اتفقت آراؤه عن تكوين الأرض مع الآراء الحديثة ،
فقد عرف أن الأرض هي عالم يتحرك حول محور في الفضاء . وبحث عن توافق

داحلى فى علم نظام الكون واقنع بأن الاجرام السماوية تتحرك بتوافق ، ويتبع
 من حركتها . « موسيقى الاجواء » ، الى لا نسميها لانها مستمرة .

وكان أول طيى ، أو أول طيى نجرى أثبت أن اختلاف الأصوات
 المتوافقة لوتري ما ، ينبى على العلاقات الواقعية لطوله ، وهى حقيقة ظهرت
 عقيدته عن التوافق الداخلى المنحكم فى العالم .

وكان أول شخص فى اليونان علم خلود الأرواح وتناميها ، ووجد فى هذه النظرية
 منبع عقيدته عن التوافق والقراءة بين الإنسان والحيوان ، فبحث عن طريق
 لتحسين العلاقات بين الناس ، ولهذا السبب أنشأ أخوة أتباعه ، وقد كان لها تأثير
 كبير على سياسة كروتونيا وغيرها من مدن إيطاليا ، كان عمله هو إنشاء القضيطة
 التى كانت بداتها عده توافقا للعلاقات الإنسانية . وكان عمله الدليل هو أن نفهم
 التوافق العالمى ، وأن نحققه فى الحياة الإنسانية .

وإذا أكلت دراسات كفسبوس العقلية المبهجة ، وشعور جوتامو الخاد ،
 وإرادة زردشت الدافقة - إذا أكل كل هذا بأبحاث العلماء المحدثين العلية
 ونجاربيهم ، ووجدما كل هذا بمثلا لفيناغوراس فى وحدة جميلة فريدة . ومع شعوره
 للعمل فى سبيل التوافق ، كان مثلاً رائماً ، ونمودجاً كاملاً ، للإغريق الذين لم
 يظهر بينهم شخص جمع بين كل هذه المعارف .

— ٣ —

وعلى الرغم من قصر هذا العرض السريع للحكام الأربعة ، والتزامنا المنهج
 البحث : فإن عظمتهم تبدو واضحة ، تتزع منا التقدير والإعجاب ، بل لو نظرنا
 الى كل منهم على انفراد لحازوا إعجابنا . فكل منهم له نطاقه الخاص ، له ملكته
 الروحية الخاصة ، حيث يحكم بجلال . ولكن هل نصطر لأن نطرح اليهم مفردين ؟
 هلا يمكن أن نجتمعهم وحدة عالية ، كما تتعدد الألوان فى قوس قزح ، أو كما تتعدد
 الأوتار فى آلة موسيقية ، أو آلات موسيقية متعددة فى « أوركسترا » واحد ؟
 لقد لاحظنا أن ثلاثة منهم يمكن أن ننظر لكل واحد فيهم على أنه تجسد لناحية
 من نواحي النفس البشرية : التفكير ، والشعور ، والعمل ؛ وهى نواحي ثلاثة لنفس

بشرية واحدة، لكل منهم طريقة في البحث عن الحقيقة. ولكن مطاق كنفشيوس، وتأمل جوتامو والعريق الفسي، وإلهام رددشت، ومهبج فيثاغوراس العلمي - إنما تمثل جميعاً كل الطرق الممكنة لتحصيل المعرفة، ويمكننا - على العموم - أن نأظر إليها كوحدة لكل قوى العقل البشري.

ونستطيع أن نتناول الموضوع من جانبه الآخر: فإنه يمكننا أن نؤكد أن الفلسفة الأوروبية قد مرت - في مجرى تاريخها - بمراحل مختلفة في نظرياتها عن العالم. ففي اليونان القديمة كانت نقطة البدء هي مركز البحث حول الكون Cosmocentrism، وهي نظرية مبنية على الاعتقاد في وجود القوانين الأبدية التي تحكم العالم. أما في العصور الوسطى فقد تحول مركز البحث حول الكون، هذا إلى مركز البحث حول الإله Theocentrism، وذلك أن الله كان ينظر إليه باعتباره المصدر الأعلى والآخر لكل الموجودات والقوانين. ثم في عصر النهضة، والعصر العقلي فيما بعد، تعبرت هذه النظرية بالنظرية العقلية: وتركز البحث حول الإنسان Anthropocentrism، وقد عورضت هذه النظرية الصلحة عن تركيز البحث حول الإنسان في فلسفة شوبنهاور، وبرجسون، وعلى الأخص نيتشه، عورضت بفهم للناحية اللاشعورية للطبيعة البشرية، ولقواها الداخلية القائمة ومسيراتها^(١).

ومن الطريف أنه في العصر العظيم^(٢) نرى مجموعة عظيمة من هذه الأفكار يمكن إذاعتها بما يحدث من تغيرات، لا في الزمان، وإنما في المكان: ففي اليونان نجد أن نظرية تركيز البحث حول الكون بلغت الكمال في تعاليم فيثاغوراس عن التوافق الذي يتحكم في العالم كله. وسادت في إيران في نفس الوقت نظرية تركيز البحث حول الإلهية، في أظهر صورة لها وهي الثنائية^(٣). أما في الصين فقد تمثلت النظرية العقلية تركيز البحث حول الإنسان، الذي نادى به كنفشيوس وأخيراً في الهند نجد شيئاً للفلسفة الحديثة الاختيارية للعقل

(١) كان هذا التعبير في الرأي نتيجة لمحاورة للاستاذ T. CELMS ألفت بجامعة الطويق، بهامبورج.

(٢) القرن السادس قبل الميلاد.

(٣) يمكن أن نجد نظرية الإلهية هذه في شكلها الموحد في هذا العصر في الولايات اليهودية: يهودا وإسرائيل، حيث كان يوجد المسيح الحقيقي للنظرية الإلهية الأوروبية في العصر الوسط.

الباطن ، وإن كانت في صورة أعمق وأكمل ، تناقش مشاكلها الخاصة بالتأمل في العالم عن طريقين . وفي هذه الحال نجد أن تعاليم هؤلاء الحكماء الأربعة القدامى تشكل بعضها البعض تكميلاً مشتركاً وتكون وحدة سامية . وما كانوا في حقيقة الأمر إلا كآلات موسيقية تعزف في فرقة كبيرة واحدة ، فيصدر عنها توافق صيمفونيا للروح البشري .

ويتوقف توافق وانسجام النغم الذي تعزفه الفرقة على قائدها ولكن من الذي أحكم توافق نظريات هؤلاء الحكماء الأربعة القدامى ؟ من كان القائد ، الذي خلق الوحدة في هذه الصيمفونية ، الروحية العظيمة البشرية ؟ هل لنا أن ننظر إلى التوافق بينهم كجرد صدفة عابرة ، أو كسرحية متقلبة الأهواء من مسرحيات التاريخ ، أو كنتيجة قانونية ، عميقة اجتماعية تاريخية . ويبدو من وجهة النظر البدئية أنه لا يمكن أن تؤمن أن هذا التوافق كان نتيجة لتصادف عارض بسيط . لقد استطاع فيثاغوراس منذ ألفين ونصف من السنين قبل وجودنا ، أن يرى وأن يسمع التوافق ، حتى في خيط ميت ، وفي حرف هندسي لا حياة فيه ، فلم إذن لا نستطيع نحن أن نستكشف قانونية التوافق في أعظم وأعرق ما تم من أعمال الروح البشري ^(١) .

ونستطيع أن نعصد هذه المحاولة الأولى الإلهامية تعصيда قويا بمجدل تاريخي : نقول عامة إن البوذية قد أنشأها جوتامو ، وإن الزردشتية أوجدها زردشت ، ولكن مثل هذه الأحداث العظيمة في التاريخ ، من حيث جوهرها ، كإيجاد دين عالمي جديد ، لا يمكن إسنادها إلى شخص واحد ، مهما بلغ من عظمة ، وإنما يجب أن ننظر إليها باعتبارها عملاً جمعياً لعصر بأكمله ، إن لم يكن لعصور عديدة متعاقبة . ونحن نعلم ، في الواقع وحقيقة الأمر ، أن كنفشيوس قد سبقه فلاسفة غيره كثيرون ، كان أعظمهم شأنًا دلاو - تسي Lao - Tse ، الذي كان لا يزال حياً في بدء نشاط كنفشيوس . بل إن كنفشيوس نفسه قد صاحبه تلامذته خاصة في أيام محنة . وبعد موته حمل أتباعه وتلامذته رسالته ، محافظين بعناية على كل كلمة قالها .

(١) وهي الأعمال التي قام بها هؤلاء الحكماء الأربعة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

في عيد الميلاد الملكي

الكلمة التي أداها حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر
الشيخ محمد مأمون الشناوي شيخ الجامع الأزهر
في عيد الميلاد الملكي السعيد

بسم الله الرحمن الرحيم .

نحمدك اللهم عظمت آلاؤك ، وجلت نعمائك ، وصلى وسلم على سيدنا
محمد الذي أرسلته للناس رحمة ، وعلى آله وأصحابه هداة الأمة .
أيها السادة :

تفرد بعض الأيام والشهور بحظ يُكسبها مهابة وجلالا ، ويخلع عليها
عزا ومجدا ، ويجعلها دائما موضع الحفاوة والتكريم . ولعل أكثر هذه
الأيام روعة وهاء ، وإشراقا ورواء ، هو هذا اليوم الأغر السعيد ؛ إذ جاء الله
بمولد الفاروق العظيم ، وجعله طالع يمن وسعادة ورخاء للأمة المصرية خاصة ،
وللعالم الإسلامي عامة . فذأهل نور الفاروق على البلاد ، وبرغ نجمة في سماء مصر ،
صاحبتة بشائر عظيمة طالما تأقت البلاد لها ، وجاهدت في سبيل تحقيقها ؛ فتودى
بإستقلالها ، وتمتع شعب مصر بحريته ، ونعم بحياة نياية صالحة ، مما جعل النفوس
تستبشر بأمر جلالة ، وتتوسم الخير في كل خطوة يخطوها ، وفي كل عمل يشي به ،
وعمرت قلوب الناس بحبته ، وفاضت إخلاصا ووفاء لجلاله .

ولما تولى عرش مصر بعد المغفور له والده العظيم ، الملك فؤاد الأول ،
طيب الله ثراه ، وجعل الجنة مثواه ، أحاطه الشعب بسياج متين من المحبة والولاء ،

وانطلقت الآلسن تلجج لجلالته بالدعاء أن يسدد الله خطاه ، ويؤيده بروح من عنده ، ويتم على يدي جلالته ما تصبو اليه البلاد من مجد وعزة وسعادة .

وقد استجاب الله دعاء هذا الشعب المحلص لجلالته الوفي لعرشه ، فتمحقت للبلاد أمانها ، واستكملت استقلالها ، وهبت نشطة بفضل توجيه الفاروق العظيم ، تستمد ماضيا مجيدا في الحضارة والعمران . ولا غرو إذ رأينا المصريين عن بكرة أبيهم يتطلعون الى هذا اليوم الأغر ، ويتفانون في الاحتفال به وتمجيده ، ويجعلون منه عيدا وطنيا قوميا ، ولله الملك العظيم فاروق الأول ، مجدد النهضة الحديثة ، واعتزافا بفضلته ومنه التي فاقت العد .

وفي الحق أن أيام الفاروق كلها أعياد ومواسم ، وكلها بفاحر بمعصا البعض ، بما تم فيها من جليل الأعمال التي تعود على البلاد بالخير العظيم ، والنفع العميم . وإن لجلالته في كل يوم مآثر عظيمة ، وتوجيهات سديدة ، وأيادي بيضاء ، متصلة الخلفات . وهو - حفظه الله وأعزه - شديد العناية بالدين ورجاله ، حريص على أن يبلغ بالأزهر المكانة السامية التي تقاسب مع رسالته العظيمة ، وهي نشر تعاليم الإسلام الحنيف ، والدعوة لدين الله ، وربط العالم الإسلامي كله برباط من المحبة والأخوة الإسلامية .

ومن أجل ما يُذكر لجلالته بالعرفان والتقدير ، عنايته المشكورة بالبعوث الإسلامية الوافدة على الأزهر ، وحرصه الدائب على معونتهم ، وتيسير سبل الدراسة لهم ، بما يحجورهم به من عطف مادي وأدبي ، بما الهج ألسنتهم بالحمد ، ودعا الى تنافس أبناء الشعوب الإسلامية المختلفة ، وتزاحمهم على الفوز برعاية الفاروق .

وفي الأزهر بفضل هذه السياسة الحكيمة حوالى ألف ومائتي طالب من هؤلاء ، تجمهم على اختلاف أجناسهم وأوطانهم بحبة الفاروق والولاء لعرشه .

ولم تقف عناية جلالته بالبلاد الإسلامية عند هذا القدر ، بل رغب - حفظه الله - أن توجه البعث من أبناء الأزهر الى جميع الاقطار العربية والإسلامية ، ليسهموا في نشر تعاليم الدين في تلك البلاد ، ويعمقوا على توحيد منهج الثقافة الإسلامية فيها .

وللازهر الآن بفضل هذا التوجيه السامي مبعوثون من أبنائه في الحجاز ،
ومجد ، ولبنان ، والباكستان ، والعراق ، وسوريا ، وأريتريا ، والكويت ،
والسودان ؛ وهو يسيله الى إرسال بعوث جديدة الى الفيلبين ، وسيلان ،
والهند ، وشرق وجنوب أفريقيا ؛ وبذلك تتحقق أمنية جلالة في ربط الأزهر
بالعالم الإسلامي كله .

وهذه العناية بالنعوب الإسلامية يقابلها عناية سامية بنشر التعليم الديني
في البلاد ، والتحكين للأزهر من التوسع في معاهده وزيادتها ، لسد حاجة البلاد
الى التعليم الديني الذي يحرص جلالة أشد الحرص على نشره .

على أن التعليم العام ليس أقل حظاً من عناية الفاروق المعلم ؛ فهو حفظه الله
دائب الاهتمام به والرعاية لشئونه . ولم يشهد التاريخ عهداً أحفل بأعمال الإنشاء
والتجديد من عهد الفاروق ؛ فقد أتمت رقعة البلاد ، وزاد نصيبها من المشروعات
النافعة في كل النواحي الحيوية .

ووجه جلالة مزبدا من العناية للثقافة العامة في البلاد ، فأنتمت به فضل توجيه
جلالة أعمال الوعظ والإرشاد ، حتى عمت جميع مراكز القطر ، مما كان له
الأثر الطاهر في إحياء الشعور الديني ، وإشاعة روح المحبة بين الناس . وشمل جلالة
الفقراء ببره وعطفه ؛ فأمر برعايتهم والعطف عليهم ، وتوفير أسباب التعليم
لأبنائهم ، كما عنى جلالة بتنشيط الحركة العملية بين المتعلمين ، لخصص جوائز
للمتازين والأوائل ، تشجيعاً على طلب العلم ، وحثاً للطلاب على التنافس فيه .

أيها السادة :

إن كل ناحية من نواحي الحياة في مصر قد سعدت بلفتة من جلالة الملك
المعظم أحيتها وسارت بها أشواطاً بعيدة نحو التقدم والرفق ، وكل فرد في مصر
قد ناله من غيثه ونداء ما أُنش في صدره الآمال ، وملأ قلبه بفيض من المحبة
للك الملك الموفق الصالح ، الذي يحرص على رفاهة شعبه ، ويعمل على الهوى به
نهضة مباركة تجعله في مصاف الشعوب العظمى .

لقد عرف جلالته منذ حدوثه حتى ربه وحق شعبه ، فأقبل على بيوت الله عامرا قلبه بالإيمان ، مملوءة نفسه ثقة بالله وتوكلا عليه ، وضرب لشعبه خير مثل في التمسك بدين الله ، والحرص على فرائضه وإحياء سنته .

هذه لمحة من مآثر الفاروق العظيم التي يذكرها الشعب في كل يوم ، ويردد الثناء عليها في كل ساعة من نهار ؛ فقد قفزت مصر في عهده — حفظه الله — الى الطليعة من أمم العالم ، وأصبح لها بمضله مكانة دولية مؤسسة على مجد مؤثر .

وفي هذا اليوم السعيد المبارك — يوم ميلاد الملك الصالح فاروق الاول ، أعمره الله — لا يسعنا ونحن نذكر فيض إحسانه ، ونحس بحليل أعماله ، ونستمتع بحبره وبره ، إلا أن نتوجه الى الله بقلوبنا وبصدق نياتنا أن يحفظ جلالته ذخرا للوطن ، وراعيا للدين وأهله ، وأن يحيه حياة طيبة مباركا فيها .

ولإننا بهذه المناسبة الكريمة نرفع لمقام جلالته أخلص آيات التهنئة والولاء بهذا العيد السعيد ، ضارعين الى الله العلي القدير أن يجعله دائما مصدرا للخير والبر ، وأن يعيد باليمن والبركات أمثال هذا اليوم الاغر المبارك على الامة المصرية الوفية لمرشده ، والعالم الإسلامي المتخافي في محبته .

والسلام عليكم ورحمة الله .



من مزايا الاستقلال

كانت السيطرة الأجنبية قد اضطرت الحكومة المصرية الى إباحة البعاء ، وحصره في نواح من المدن المصرية ، فلما أهل عهد الاستقلال كان أول ما فكرت فيه إلغاء هذه الإباحة ، ومعاينة من يقدم عليها ؛ ثم اضطرت مرة أخرى على مفض الى إرجاء تنفيذ هذا الإلغاء لما بعد الحرب . فلما انتهت الحرب بادرت الى تنفيذ هذا الإلغاء ، وما تمت الإجراءات الضرورية لذلك ، حتى صدر الأمر بتنفيذه ، فوافق ذلك ما كان يرجوه الناس ؛ وما أعلن ذلك الأمر حتى يادر حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشناوى شيخ الجامع الأزهر الى تبشير الأمة به ، بواسطة المذيع ، وأفاض فيما سيكون لذلك من النتائج الحسنة على الآداب ، وعلى توفر كرامة المصريين وحسن سمعتهم بسببه ؛ متوفاً ما ييمن طالع حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الاول بوقوع ذلك الإلغاء في هذه السعيدة . وختم تلك الكلمة الطيبة بالدعاء لجلالته بدوام الإقبال ، وبتهتة الأمة بما حصلت من أسباب الطهر والكمال .

كلمة حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر

بسم الله الرحمن الرحيم .

أحمدك اللهم على جزيل إنعامك ، وسابغ فضلك وإحسانك ، أنت الموفق لقطاعات ، وبعمتك تم الصالحات . وأصلى وأسلم على نبيك ذى الخلق الكامل ، والتعاليم القوية الرشيدة ؛ وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديه ، فأحيا السنة ، وأمات البدعة ، وحارب المنكر والفساد ، والإثم والفجور والعصيان .

أما بعد :

فإني أتقدم الى حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم فاروق الاول ، أعزه الله ونصره ، برفع آيات الولاء والإخلاص ، وبالتهتة والشكر الجزيل ، على هذا

القرار الحكيم ، الذى أُنْجِج صدور المؤمنين ، وأقر عيون المصلحين ، ورفع شأن الفضيلة والكرامة الإنسانية ، وردَّ على المروءة والأخلاق اعتبارهما في هذا البلد الإسلامى العظيم ؛ ذلك القرار هو : إلغاء البغاء .

إن جلالة الملك المعظم — حفظه الله ورعاه — ما زال يوجه ورجال حكومته إلى كل خير وبر ورشاد ، لتسعد الأمة وتنهأ ، وتسير في طريق الرقى والتقدم غير وانية ولا متعثرة . ذلك شأنه — حفظه الله — في كل ناحية من نواحي الإصلاح ؛ وذلك شأنه على وجه أخص في كل ما يتصل بالدين والخلق الكريم .

وإن قرار اليوم لمفخرة لهذا العهد الفاروق السعيد ، حقيق على التاريخ أن يسجلها ، وعلى الزمان أن يلحج بها ، وعلى كل لسان وقلم أن يحمدها ويشكرها .

لقد خطت الحكومة الرشيدة بتوجيه جلالة الملك المعظم هذه الخطوة الحاسمة في سبيل صيانة الآداب ، ورعاية حق الدين والشرف ، وخطت كذلك خطوة أخرى في سبيل تحريم المسكرات ، حيث قررت مع تداول الخمر في المعرض . وإن هذا الروح الطيب ، لجدير بأن يحمد ويشكر ؛ وإنه لكفيل بأن يصل بالأمة إلى مرأى السلامة والاستقامة، إن شاء الله تعالى .

وإذا كان جلالة الملك المعظم جديراً بالشكر والتهنئة على حسن توجهه وسامى حكته وإرشاده ، وكان رجال حكومته جديرين بالثناء والتحية على حسن تهيئهم وسريع استجابتهم لداعى الدين والفضيلة والخلق الكريم ، فإن هذه الأمة المصرية الكريمة لجديرة بأن أزف إليها أطيب التهنئة على ما منَّ الله به عليها من تطهير وتركبة وصون للآداب والأعراض فيها ، ورعاية لأمر الدين والشرف بين أبنائها .

وإذا كان حقاً على المؤمنين أن يقابلوا كل نعمة من نعم الله عليهم بما يليق بها من شكره ، فإن شكر هذه النعمة هو أن يتمسكوا بأهداب الفضيلة ، ويستقيموا على سنن الهدى ، ويتواصوا فيما بينهم بالإقبال على الطيبات وهجر الخبائث والمنكرات ، والتعفف عن الفحشاء والمنكر ، في السر والعلن .

إن الله تعالى حرم الزنا صيانة للأعراض والآنساب، وحفظاً للشرف والخلق،
 ووقاية للصحة أن تصاب بالآدواء والاسقام، قال الله تعالى :
 « ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً » .
 وقال جل شأنه :

« والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر، ولا يقبلون الفس التي حرم الله إلا
 بالحق، ولا يزورون، ومن يفعل ذلك يأتى أثاماً: يضاعف له العذاب يوم القيامة
 ويخسده فيه مهالاً، إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم
 حسنات، وكان الله غفوراً رحيماً » .

ونعى الله تعالى على أهل الجاهلية إتيانهم للفواحش، وإكراههم الفتيات على
 على البغاء ومن يردن المحسن، ونهى المؤمنين عن هذا وذاك بقوله :

« ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن » . ولا تكرهوا فتياتكم
 على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا » .

فالحد لله الذي أزال هذه الوصية عن جنين الأمة وغسل هذه الإهانة للخلق
 والشرف عن هذا البلد الإسلامى الذى يؤمن بالله وكتابه .

ونسأله تعالى حسن الثواب وجميل الجزاء، لحضرة صاحب الجلالة مولانا الملك
 الموفق، على كريم توجهه، وعلى هذا الروح الطيب الذى به فى رجال حكومته،
 وأشاعه فى سائر رعيته : روح الاعتزاز بالدين، والعيرة على الخلق والشرف .

زاده الله وزادهم إيماناً وتينياً، وهداية وتوفيقاً، إنه نعم المولى ونعم النصير .
 والسلام عليكم ورحمة الله ٥

ثبوت الروح علميا

- اجنأ العلم على الروح حتى أنكرها .
- فماتت أمة بأن سمعه هو الذي يقيم على .
- وجمدها الخليل القاطع .

الأستاذ الألماني [كارل هوبرل]

تثبتت عقب أن مال العلم استقلاله ، منذ أربعة قرون ، معارك طاحنة بينه وبين الدين ، فبالغ الأول في الخصومة حتى أنكر الروح ؛ ولما كان إنكارها من الصعوبة بمكان ، لاستحالة تحليل التعقل والتفكير بدونها ، سمح العلم لنفسه تحت قيادة رجال من فطاحله ، أن يتدرع بالفسطاط والعبارات الجوفاء ، وبمناقضة الأصول الأولية للظن الصحيح ، في سبيل المحافظة على موقفه العدائي من الأديان ، ذهابا من أشياعه أنه متى تقرر في الأذهان عدم وجود الروح ، لم يبق للبلل موجب للبقاء ، لأن مهمتها تخلص الروح من سلطان المادة ، وتهيئتها للحياة الطيبة في عالم الملا الأعلى ، حيث السعادة المطلقة ، والنعيم المقيم .

هناشق الدفاع عن الدين على الميمنين عليه ، ولم يبق لهم من سلاح يدفعون به الشبهات التي يثيرها العلم الطبيعي على إنكار الروح سوى العقل ، والعقل وإن كان أداة قسوية في تمييز الحق من الباطل ، والحس من الفبيح في الشؤون الإنسانية ، والمعاملات الحيوية ، إلا أنه لا يفتي شيئا في الشؤون الطبيعية . وحجة الماديين في هذه الناحية قوية ، فإن كثيرا من تعليقات الظواهر الطبيعية التي عللها الأقدمون تعليلا عقليا ، ظهر فسادها بظهور عللها الحقيقية ، فأصبح مما لا يمكن أن يبلج صدر إنسان على علة عقلية ، لاسيما وقد قرر العلم بإجماع آراء قادته أنه لا يصح أن يلحق بالعلم إلا ما ثبت وجوده ثبوتا حسيما ، وفي أحوال تجعل الانحداع بظواهره مستحيلا . فأصبحت الفلسفة العقلية بعد هذا القرار العلمي الإجماعي مما لا يصح الاستناد إليه ولا الاعتداد به . فعلام يعتمد الدين في إثبات صحة العقائد التي تدعم عليها فلسفته إذا لم تستطع إثبات وجود

الروح الإنسانية وجوداً مستقلاً عن الجسد تمام الاستقلال ، وإمكانها القيام
حاصلة على جميع الصفات العقلية ، والحالات النفسية بدونه ؟

هذه دعوى تحتاج ، في رأى العلم ، إلى إثباتها بدليل محسوس ، أى أن تتجرد
الروح من جسدها ، ويتمكن العلم من التحقق من وجودها تحقّقاً حسيّاً ، وكيف
يتسنى ذلك وهي ليست من طبيعة جثمانية ؟ أو أن تمنح شخصية صاحبها خصائص
أرقى من خصائصه المعروفة ، كأن تجعله يتكلم بلغة أو لغات أجنبية ، أو أن يرى
ما لا يمكن أن يراه بعينه المادية ، ويسمع ما لا يسمعه بأذنه الجسدية ، وأن
يتصف بصفات تفوق صفاته الطبيعية ، ولا يستطيع ذلك بل يستحيل عليه
وهو في حالته العادية .

هذه الشروط يعجز المدافعون عن الدين ، بل يعجز أهل الأرض جميعاً
أن يقوموا بها ؛ وإذا كان الشأن كذلك ، فالعلم يتشدد في موقفه ، ويصر على
أن كل ما يقال عن الروح وعالمها من نسج الخيال ، وضعها رجال ليوقعوا بها
العامة في حبالهم ، وأهم هم أنفسهم يعتقدونها لغلبة الجهل عليهم .

هذا التشدد من العلم كان له في العصور الأخيرة ، بسبب انتشار المدارس ،
وزوال الآمية ، آثار بعيدة في نشر الإلحاد في العقول ، وبث سموم الآهواء
في النفوس ، فانتحلت المدنية الإنسانية كل النقائص الخلقية ، وصقلت صقلاً
سطحياً ، وهذبتها تهذيباً تمويهياً ، فأكب عليها الناس إكباباً جنونياً ، فأصبح
الدفاع عن الدين متعذراً ، إلا بين طوائف لم تصل إليها الشبهات العلمية ،
أو وصلت إليها ولكنها تغلبت عليها تعالماً وقتياً .

هل يترك الخالق الحكيم النوع الإنساني الذي قدر له أن يصل إلى أقصى
مراتب الكمال الجسدى والروحى هدفاً لهذه الخيرة ، فينتشر الإلحاد جيلاً بعد
جيل ، ويضعف الدين وأمله ، ويصبحون بانتشار المادية قلة لا يُعْبَأُ بها ولا يؤْبَهُ لها ؟
إذا كما نعتقد أن الدين حق ، وأن الإنسان لا بد أن يدين لحالقه ، ويتوجه
إليه بقلبه ، وأن الحياة الآخرة لا ريب فيها ، وأن الإنسان يؤول إليها بعد الموت
فيحظى بحياة فيها من الجزاء ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب

بشر ! إذا كنا نعتقد أن هذا كله حق ، فلا نستطيع أن نتصور أن الخالق القدير لا يهب لحفظة دينه وسائل يسقطون بها حجج الملحدين على شروطهم التي اشترطوا توافرها في الحقائق .

قلنا كل هذا في مواطنها من كتاباتنا ، وقلنا إن الحق جل شأنه قد تفضل على شيمة الحقائق الدينية بأدلة عيانة مادية عند ما اشتدت حملة الملحدين على الروح والخلود منذ ثلاثة قرون ، في التوسيم المعنطيسي ، وزادها منذ قرن بالبعوث النفسية ، وأصبحت أدلة الدين اليوم حسية لا يمكن نقضها ، وأنت على جميع الشبه العلية فدحضتها وذرتها في ذبول السافيات .

إن هذه البحوث قد انتشرت في أوروبا وأمريكا حتى لم تبق مدينة فيهما لم تدخلها ولم تنتشر بين ربوعها ، وكنا نتوقع أن تحمل بلادنا ، وتثمر مثل ثمراتها في العالم كله ، وقد صدق الله ظننا فأصبحت أمام جمعية للبحوث الروحية في مصر تألفت في دار جريدة المصري في هذا الشهر تحت رئاسة وعضوية رجال من أهل الثقافة العالية ينظر منها أن تكون باكورة لأمثالها من مدن بلادنا ، وأن تنتشر منها إلى سائر بلاد المسلمين .

وإن في هذا المقام مورد بعض ما ذكره في نشرتهم التي وصلتنا منها نسخة ، فإن فيها ما يثبت ما نقول من اهتمام العالم الراقى اليوم في أوروبا وأمريكا بهذه البحوث . فقد جاء فيها :

« تتجه النية في الوقت الحاضر إلى إنشاء جمعية مصرية للبحوث الروحية على غرار جمعيات البحوث الروحية الأوربية والأمريكية ؛ وذلك لكي تيسر موارد البحث الجدى وما تستلزمه مواد هذا البحث من أجهزة وأيد عاملة ومبنى صالح مجهز خير تجهيز .

« والموضوع في الواقع من الأهمية بمكان لأنه يعمل على إثبات تلك الحقيقة الكبرى التي بادت بها الأديان جميعها : « وهي الحياة بعد الموت ، والبرهنة عليها عليا وعمليا .

« وقد أنشأت بعض الجامعات العربية لهذا العلم دراسات وكراسي مثل

جامعات لندن وكمبردج وأكسفورد وبرلين وون وجروتينج وهارفارد وكلاارك وغيرها (١) .

« وقد أصبحت البحوث الروحية تذاع باللاسلكي من محطة الإذاعة البريطانية ومحطات الإذاعة الأمريكية ، وكان من بين المذيعين الأستاذ (هابرلي برايس) أستاذ المنطق بجامعة أكسفورد ، والعلامة الأستاذ برود أستاذ الفلسفة بجامعة كمبردج ، والدكتور تاولس أستاذ السيكولوجيا التربوية بجامعة كمبردج ، ولورد دودنج مارشال الطيران الذي كسب معركة بريطانيا الجوية في الحرب الأخيرة .

« بل لقد أثر تقدم البحوث الروحية في الإخراج السينمائي فاتجه المخرجون في أوروبا وأمريكا إلى إخراج روايات روحية ، تنشر قضايا هذا العلم الحديث ؛ وقد عرض معظمها في مصر ، من أمثال فيلم « الطيار لا يموت » وهو يبحث في الحياة بعد الموت ، و « شبح كنتر فيلد » ويبحث في الأرواح المشاغبة ، و « أنشودة برناديت » ويبحث في العلاج الروحي .

« وقد يكون تكوين هيئة مصرية للبحث الروحي نواة صالحة لإدخال هذه الدراسات في جامعتينا ، أو يكون خطوة عملية في إنشاء معهد للبحوث الروحية على غرار المعاهد الأوربية والأمريكية ؛ وما أجدر مصر - مهد الروحية من قديم الزمان - أن تكون سبّاقة في هذا المصير ، انتهى .

هذا عين ما سبق لنا تكراره كثيرا ، وقد حقق الله ظنا ، وجاء دور بلادنا من الاشتراك في هذه البحوث التي عليها يستند الدين من الأدلة الحسية حيال الشبهات العلية . ولم يبق إلا أن ندعو الحق جل وعلا أن يلهم القائلين بهذه البحوث العون والتوفيق للسير في دراستها بأكل ما هي جدير به من التحقيق والتحصيل .

محمد فريد وجدي

(١) نقول نحن إن معنى دخولها الجامعات أنها أصبحت قسما من الموضوعات التي تشعق أن تمثل بين سواها ما يهم الإنسانية وأن تدرس طيا دراسة أصولية وتمحص تمحيصا دقيقا .

المجاز والكناية في القرآن القرآن والمفسرون

لفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ حامد محسن
عضو جماعة كبار العلماء

يقول الله تعالى : « وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ
وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ » .

قد كتبنا عن تلك الآية في مقال سبق ؛ وإنا قبل أن نسوق الآيات التي تناسب مع آية الملك نريد أن ننبه الى أن تلك الآية لم تعرض فيها القرآن لاستراق سمع ، أو لخطف ، أو لمقاعد للسمع ، كما جاء في آيات الحجر ، والصفات ، والجن ؛ بل الذي جاء في آية الملك أنه عطف على فعل « زيننا » في قوله « ولقد زيننا » فعل « جعلنا » في قوله « وجعلناها رجوما للشياطين » ، فظم الفعلين في سمط واحد ؛ وإن الزينة التي زين الله بها السماء الدنيا وهي المصابيح أي النجوم لاثر لحكمة الله وآية على قدرته تصحب السماء منذ خلقها الله . وإذا كان جعل تلك المصابيح رجوما قد نظم مع التزيين في سمط واحد ، كان ما يقتضيه العطف ونظمهما في جملة واحدة أن يكون جعلها رجوما كذلك هو مصاحب لها منذ خلقها الله ، وأن حملها على الحجة والبرهان هو الحل الذي يصحح نظامها مع ما عطفت عليه من التزيين ؛ إذ أن كونها حججا قاطعة وبراهين واضحة على قدرة الله وحكمته وإتقانه لمعنى يصحب السماء ما صحبها التزيين . أما أن يعطف جعلها رجوما على التزيين مع حملها على أحد المعنيين اللذين فسرهما المفسرون الآية ، وهو أن معنى كونها رجوما هو حذف الشياطين بها حين تحاول الاستراق ، فذلك ما يأتى أن ينتظم مع سابقه في سلك العطف ، إذ يكون الأمر على ذلك أنها قد مضى عليها تلك الأزمان المتطاولة منذ خلقها الله الى رسالة محمد

وهي غير مؤدى بها ذلك الفرض ، ثم جد عند الرسالة أن كان الشياطين يخذفون بها حين يحاولون استراق السمع . ألا وإن كل مخلوق من مخلوقات الله فهو لحكمة ، وهو مؤديها من حين وجوده بالقوة أو بالفعل . سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا .

وعجيب أفك تقرأ قبل هذه الآية قوله تعالى : « الذي خلق سبع سموات طباقا ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت ، فارجع البصر هل ترى من فطور ، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر غاسقا وهو حسير . »

تقرأ تلك الآية فتري أنها تلفتنا إلى آية إقصاء تعالى لما خلق ، فيقول : ارجع البصر هل ترى من فطور ؟ هل ترى من شقوق حتى تكون على يقين من آيات ربك ؟ أى أن السماء خلق بحكم متين لا فطور فيه ولا شقوق حتى يطمع طامع في تماد منها أو تستمع . ترى الآية تلفتنا إلى ذلك في قوة ، ثم تراه مع هذا يميزون في أحد معنيها اللذين ذكرتهما في تفسيرها : تراه يميزون تسمع الشياطين إلى ما بداخل السماء مما يتنافى مع ما تشير إليه الآية من إقصاء خلقه وبديع تكويته .

ولقد كان من الخير ، والآية لم تعرض لخطف ولا استراق ، ألا يحملوها على هذا المعنى ، وأن يقوما في اتجاهها السامى من لفت العقول إلى آيات حكمته ودلائل صنعته ، التي كتبها قدرته ، ورسمتها حكمته في صحيفة الكون ؛ تلك الآيات الناطقة في بيان بأنه الواحد الذي لا تقادر قدرته ولا تسامى حكمته . لقد كان من الخير ألا يمرضوا لذلك المعنى في آية سورة الملك ، ويكنى أن يمرضوا له في مثل سورة الصافات والحجر والجن .

ألا فليسمعوا إلى آية الأنبياء ، وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون ، لسمع إلى تلك الآية حتى نعلم أن مثل ذلك إنما يراد منه لفتنا إلى بين الآيات وواضح الدلائل على بالغ حكمته وعظيم قدرته . غير أن هذه الآية (آية الأنبياء) قد جلت المراد وأوضحت المقاد ، إذ ذيلت بقوله تعالى ، وهم عن آياتها معرضون .

وهناك في آية الملك ذيلت الآية بقوله « وجعلناها رجوماً للشياطين » ، فإذا أنت تأملت ما ذيلت به آية الانبياء وهو قوله « وهم عن آياتها معرضون » ، وما ذيلت به آية الملك وهو « وجعلناها رجوماً للشياطين » ، وجدت الحديث فيهما عن شيء واحد هو آيات الله التي أقامها لعباده في السماء حتى يعبدوه عن يمينه ويقين ؛ غير أنه عبر عنها في آية الانبياء بصريح لفظها ، وكفى عنها في سورة الملك بلوازمها ؛ إذ أن وضوح الآيات وقوة الدلائل من لوازمه ردع المجادلين وإسكات المعاندين ، وكأنهم إذ يواجمون بها إنما يرجعون بها رجما .

وانظر بعد هذا كيف ذكرت الآيات بصيغة الجمع ، وكيف أضيفت إلى السماء ، مما يؤذن بأن جعل السماء سقفاً محفوظاً فيه آيات كثيرة لمن ألقى السمع وهو شهيد .

ففي كونها سقفاً متراعى الأطراف دون سقوط مع تطاول الأزمان ولم تستند إلى عمد أو جدران - في ذلك آية .

وفي زينتها عن صفاء زرقتها وياض كواكبها ، دون أن يمس متعاقب الدهور بهجتها ، أو يخف على تطاول العصور رونقها - في ذلك آية .

وفي شمسها وقرها آية ؛ وفي ثابت نجومها وسائرها آية ؛ وفي اختلاف المشارق والمغارب آية ؛ وفيما ينشأ عنها من ليل ونهار ، وما ينقسم به العام إلى فصول وشهور - آية . إلى غير ذلك من الآيات البينات التي أعرض الناس عنها بما أعماهم من عناد ، أو شغلهم من فتن هذه الدنيا .

أما المعسرون فإنهم في هذه الآية قد ذكروا في تفسيرها أولاً وجبين ، وبدأوا بها استجابة منهم في ذلك لما تنادى به الآية من تنبيه العقول إلى آيات القدرة . نعم إنهم قد ساءروا فيما ذكروه من الوجبين أغراض القرآن السامية ، وجاروا فيها مراميهم من الإرشاد إلى برهان وحدانيته وبديع تكوينه ، إذ قالوا : إن معنى كون السماء سقفاً محفوظاً أنها مع هذه السعة وذلك الترامي قد حفظت من السقوط ، مع أنها لم تعتمد على عمد أو تحمل على جدران ، كما يشهد قوله « الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها » .

والوجه الثاني عما ذكروه أنها محفوظة من أن يعتريها خلل أو يدانيها فساد، أو تمس زينها كرات الدهور، أو يعبث ببهجتها تتابع الأحداث وتتالى المصور. ولقد أصابوا في ذلك أيما إصابة، إذ استجابوا لعظمة القرآن وسمو أغراضه ومراميه: من تطهير النفوس من فاسد المعتدات وأدران الخرافات، وتحسير العقول من ريق التقليد، ودعوتها إلى النظر ليتبينوا آيات الله ودلائل ألوهيته.

غير أنهم مع هذا لم يفتهم أن يذكروا بعد هذين الوجهين ذلك الوجه الذى اعتادوا أن يتناقلوه، فقالوا: إن معنى كونها سقفاً محفوظاً هو حفظها عن استراق السمع منها. قالوا ذلك مع ما ترى من تعبير القرآن المادى بتجنبه ذلك المعنى: تراه يعبر بقوله سقفاً، ويصف السقف بكونه محفوظاً؛ والتعبر بالسقف فيه تحمیل ما يحمل عليه من جدران أو عمد، ليشير بذلك الى آية قدرته من أن هذا السقف المديد الرفيع باق محفوظ من السقوط على مر الأزمان دون أن يحمل على عمد أو جدران. سبحانه ربنا ما أعظم قدرتك وأبلغ حكمتك! سبحانه ما أحقك أن نعبدك ونقدسك مخلصين لك الدين.

ذكر المفسرون ذلك الوجه. وإنا نسألهم: هل أرادوا من كونه محفوظاً عن استراق السمع أن ذلك الحفظ للسماء منذ خلقها الله، أم هو جديد منذ أرسل محمد صلى الله عليه وسلم؟ فإنهم إن أرادوا الأول يكونوا قد ناقضوا أنفسهم، إذ ذكروا في مواضع أخرى أن الحفظ طارىء ولم يكن هذا الحفظ للسماء منذ خلقها الله. وإن أرادوا الثاني وأن الحفظ طارىء فإننا نقول لهم: إن الآية قد عبرت عن الحفظ بصيغة الاسم، ومعروف أنها للدوام والثبوت؛ فالحفظ للسماء ليس جديداً لها، بل هو وصفها منذ كانت عن قدرة الله سماء. وعلى العموم فإن علينا أن يكون بأيدينا حين نقرأ القرآن مصاييح مغازية ومقاصده. وإن القرآن نزل على فترة من الرسل وقد امتلأت رموس الناس بالخرافات والاباطيل، وانحجب عنها نور الوحي ونور الهدى، فراجت الاباطيل وذاعت الاضاليل؛ فلما أشرقت شمس الهداية بإرسال محمد صلى الله عليه وسلم استنارت العقول وأضاءت الآفاق، واستيفظت الافكار وعرفت الحق عن طريق الدليل والبرهان، فأصبح الناس في هدى ونور؛ اللهم إلا شرادهم مغمورة بقوا في ضلالهم يلقون وهم يغفرون من

وجه الحق في آذان الضعفاء من الناس بمض خرافاتهم ، والحجج تلاحقهم ،
والبراهين تداركهم ، ليجدوا لهم في الأرض مهربا ، ولات حين مناص .

ولا يغوتى قبل ختام تلك الكلمة أن أعرض عرضا إجماليا خفيفا لما
يذكره المفسرون وهم بصدد معنى الخطف والاستراق من خلافات :

اختلفوا أولا في حقيقة الجن : هل هي مخلوقات غلبت عليها النارية ، أو غلبت
عليها الهوائية ، أو أرواح شريرة فارقت أبدانها . ثم اختلفوا ثانيا : هل الجن مكلفون
أو غير مكلفين . ثم اختلفوا ثالثا هل النبي أسمعهم القرآن وهو يراهم ، أو هم سمعوه
دون أن يراهم كما تشير آية الجن . قل أوحى إلى أنه استمع فخر من الجن ، الى آخر
الآيات : فعلم باستماعهم عن طريق الوحي . كل ذلك خلافات بينهم إنما جرم
إليها أنهم أحيانا يفعلون الميزان بمقاصد القرآن العالية ومنازله السامية .

اللهم امنحنا هدى ورشادا الى ما أودعت كونك من حكمة ، وأنت فيه من آية ،
أنت ربنا ، عليك توكلنا ، وإليك نيب ٩

حاشية :

فهم بعض الناس أنى اعتبرت استراق السمع من الأساطير . ونأسف إذ ليس
في مقالنا ما يفيد ذلك ؛ إنما الذى أردته أن المفسرين إنما كان ينبغي لهم أن يعرضوا
للاستراق في سورة الحجر والصافات والجن ؛ أما سورة الملك وسورة الانبياء
فالذى ينبغي حلها عليه هو ما حملتها عليه . على أن آية الانبياء قد فسرهما المفسرون
بغير استراق السمع .

وفهم بعض الناس أيضا أنى منعت رسالة الرسول للجن . والذى أريده
أن الرسالة بالاصالة للإنس ، والجن تبع ؛ فاما من مناداته إلا وهى للناس
أو الإنسان ؛ والتكاليف التى جاءت إنما تناسب طبائع البشر ، فلا يكون الجن
إلا تبعاً .

من هدى النبوة

لفضيلة الأستاذ الفخيم فكري ياسين
مدير إدارة البحوث والثقافة المساعد بالأزهر

أخرج البخاري عن المغيرة بن شعبة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
« إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات ، ومنسأ وهات ، ووأد البنات ؛ وكره لكم
قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال » .

هذا الحديث قال عنه العلماء : إنه يعتبر أصلاً في معرفة حسن الخلق ، وهو
تتبع الاحلاق الحميدة ، والخلال الجميلة ؛ وذلك أنه قد تضمن النهي عن جملة
أشياء ، لو عُهد في الإنسان التحرز منها ، والتوق لها ، لكان لذلك برهاناً على
حسن خلقه ، وجميل أدبه ، ودليلاً على قوة استعداده النفسي ، وصلاحيته للتجلى
بمختلف السجایا الكريمة ، والشمم الفاضلة .

وقد ذكر الحديث الشريف في معرض التحريم والنهي ستة أمور ، كل أمر
منها يعد في ذاته من الذنوب الكبيرة ، والأوزار الجسيمة ، وبعدد الابتعاد عنها
والاجتناب لها دعامة من محاسن الصفات ، ومكارم الأخلاق .

فالأمر الأول هو : « عقوق الأمهات » .

والمُعوق : مأخوذ من العق ، وهو : القطع والشق ؛ فهو شق عصا الطاعة
للوالدين ، والمراد به : إبداءهما بأي نوع كان من أنواع الأذى ، قل أو كثر ،
نميا عنه أو لم ينميا عنه ؛ أو مخالفتهما فيما يأمران أو ينهيان ، بشرط انتفاء المعصية
في الكل . وقد ضبط البعض ذلك بوجوب طاعتها في المباحات فعلاً وتركاً ،
وباستجابتها في المندوبات وفروض الكفاية فعلاً وتركاً كذلك .

والمعوق حرام مطلقاً ، سواء كان موجهاً إلى الأمهات ، أو موجهاً إلى الآباء ،

إلا أنه اقتصر على ذكر الأمهات هنا ، إما اكتفاء بذكرهن عن ذكر الآباء ، أو لأن عقوقهن فيه مزيد قبح ، أو لعجزهن غالباً ، ورقة حاطن ، وعظيم احتياجهن إلى الملاحظة والمحاسبة ، أو لما يتفرد به عن الآباء من صعوبة الحمل ثم الوضع ، ثم الرضاع ؛ فهذه الثلاثة تفرد الأمهات بها ، ويشقن في معاناتها ، ثم يشتركن مع الآباء بعد ذلك في شئون التربية ، ورعاية الأولاد . وقد وقعت الإشارة إلى ذلك في قوله تعالى : « ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن ، وفصاله في عامين ، فسوئ بين الوالدين في الوصاية ، وخص الأم بالأمور الثلاثة . وقيل : المراد : أن الأم تستحق على الولد الحظ الأوفر من البر ، وتقدم في ذلك على حق الأب عند المزاينة . وسئل النبي في ذلك ، فقال : أطلع أمك ، فإن لها ثلثي البر . والجمهور على أن الأم تفضل في البر على الأب . وأخرج البخاري في الأدب المفرد ، وأحمد ، وابن ماجه ، وصححه الحاكم : « إن الله يوصيكم بآبائكم ، ثم يوصيكم بأمهاتكم ، ثم يوصيكم بأمهاتكم ، ثم يوصيكم بآبائكم ، ثم يوصيكم بالاقرب فالأقرب . » . فيكون عقوق الأمهات على هذا أقبح من عقوق الآباء ، ويكون تخصيصهن بالذكر إظهاراً لعظم شأنهن في هذا المقام .

والأمهات جمع أمه ، وهي لمن يعقل ، بخلاف لفظ الأم ، فإنه أعم .

والامر الثاني ، هو : « ومنع وهات » .

وقد جاء في رواية . مشعاً ، هكذا بسكون التون ، وألف التون ، وجاء في رواية أخرى . منع ، بسكون التون ، وبدون ألف التون على اللغة الربيعية ، وهي على كلتا الروايتين مصدر منع يمنع . وهات : فعل أمر من الإيثار ، وأصلها عند الخليل آت ، فقلت الألف هاء . والمراد من النهي أن الله تعالى حرم على الإنسان أن يستأثر وينزع عن الغير ما أمر بإعطائه ، وأن تسقط همته ، ويطلب من الناس ما لا يستحقه ، ويسألهم ما لا حاجة له فيه . ويحتمل أن يكون المراد النهي عن السؤال مطلقاً ، وهو ما أشار إليه بلفظ « هات » ، ولكنه ذكره هنا مع ضده وهو المنع ، ثم أعاد ذكره وحده فيما بعد تأكيداً للنهي عنه ، وهو محتمل أن يدخل في النهي ما يكون خطاباً لاثنتين ، كما ينهى الطالب عن طلب ما لا يستحقه ، وينهى المطلوب منه عن إعطاء ما لا يستحقه الطالب ، لتلا يعينه على الإيثار .

والامر الثالث، هو: «وَأَدِ الْبَنَاتِ» .

وَأَدِ الْبَنَاتِ : هو دفنهن بالحياة ، وهي عادة معقونة ، كان أهل الجاهلية يفعلونها ، كراهية فيهن ؛ وكانوا في ذلك على طريقتين : فهم من كان يأمر امرأته إذا قرب وضعا أن تطلق بمحائب حبرة ، فإذا وضعت ذكرا أبنته ، وإذا وضعت أنثى طرحتها في الحفيرة ؛ ومنهم من كان إذا بلغت البنت السادسة طلب من أمها أن تطيبها وتزينها ، ليزور بها أقاربها ، ثم يبعد بها في الصحراء ، حتى يأتي البئر ، فيقول لها : انظري فيها ، ويدفنها من خلفها ، وبطمها . ويقال : إن أول من فعل الواد قيس بن عاصم التميمي ، وكان بعض أعدائه قد أغار عليه ، فأمر ابنه ، فاتخذها لنفسه ، فلما تم الصلح بينهما ، خسرت البنت ، فاختارت زوجها ، فآلى قيس على نفسه ألا تولد له بنت إلا دفنها حية ، فتبعه العرب في ذلك . وكان هناك فريق آخر يقتلون أولادهم مطلقاً ، خشية ما يقصونه من أموالهم ، أو يحجزوا عن الإنفاق عليهم . وقد ذكر الله أمرهم في القرآن في عدة آيات . وإنما خص البنات بالذكر في الحديث ، لأنه كان الغالب من فعلهم ، لأن الذكور مظنة القدرة على الكسب . وكان صمصمة بن ناجية التميمي جدهم الفرزدق أول من فدى المومودة ؛ وذلك أن كان يعتمد إلى من يريد أن يفعل ذلك ، فيفدى الولد بمال ينفق عليه . وإلى ذلك أشار الفرزدق بقوله :

وجدى الذى منع الوائدات وأحيا الوئيد ، فلم يؤد

وقد بقى كل من قيس وصمصمة إلى أن أدركا الإسلام ، ولهما حجة . ولما جاء الإسلام ، أبطل هذه العادة المعقونة ، ونهى عليها في كثير من الآيات والأحاديث ، لما يترتب عليها من انقطاع النسل الذى ينشأ عنه خراب العالم .

والامر الرابع، هو: «قِيلَ وَقَالَ» .

وقع في رواية الأكثر . قيل وقال ، بغير تنوين ، ووقع في رواية غيرهم «قَيْلاً وَقَالاً» ، بالتنوين ، والأول أشهر . وقال الجوهري : قيل وقال اسمان ، يقال : كثير القيل والقول ، مستدلاً على ذلك بدخول الألف واللام عليهما . واستدرك عليه البعض بأنهما لو كانا اسمين بمعنى واحد كالقول ، لم يكن لمعطف

أحدهما على الآخر فائدة . وقال في التفتيح : المشهور عند أهل اللغة فيهما أنهما اسمان معربان ، ويدخلهما الألف واللام . والمشهور في هذا الحديث بناؤهما على الفتح على أنهما فعلان ماضيان ، ويكون التقدير على هذا : ونهى عن قول قيل وقال . وقد تعددت أقوال الشراح في المراد منهما ، فقال البعض : قيل وقال : هو ما يكون من فضول المجالس مما يتحدث به فيها ، كقيل كذا وكذا بما لا يصح ، ولا تعلم حقيقته ، وربما جر إلى غيبة أو نسيمة : أما من قال ما يصح ، وعرف حقيقته ، وأسندته إلى ثقة صدوق ، ولم يجر إلى منهي عنه ، فلا وجه لذهمه . وقال المحب الطبري : في قيل وقال ثلاثة وجوه :

أحدها : أنهما مصدران للقول ، تقول : قلت قولاً وقيلاً وقالاً . والمراد في الأحاديث الإشارة إلى كراهة كثرة الكلام ، لأنها تؤول إلى الخطأ ، وإنما كرهه للبالغة في الزجر عنه .

ثانيها : إرادة حكاية أقاويل الناس ، والبحث عنها ليخبر بها ، فيقول : قال فلان كذا ، وقيل كذا ؛ والنهي عنه إما للزجر عن الاستكثار منه ، وإما لشيء مخصوص منه ، وهو ما يكرمه المحكي عنه .

ثالثها : أن ذلك في حكاية الاختلاف في أمور الدين ، كقوله : قال فلان كذا ، وقال فلان كذا ؛ وعمل كرامته أن يكثر من ذلك ، بحيث لا يؤمن مع الإكثار من الزلل ، وهو مخصوص بمن ينقل ذلك من غير تثبت ، ولكن يقلد من سمعه ، ولا يحتاط له . ويؤيد هذا ما أخرجه مسلم في الحديث الصحيح : « كفى بالمرء إنمّا أن يحدث بكل ما سمع » .

والامر الخامس ، هو : « كثرة السؤال » .

واختلاف العلماء في المراد بكثرة السؤال ، وهل هو السؤال عن المشكلات والمعضلات ، أو السؤال في العلم على سبيل الامتحان والمرء والجهدال ، أو الأعم من ذلك ؟ أو أن المراد به كثرة السؤال عن أخبار الناس ، وأحداث الزمان ؟ أو كثرة سؤال شخص بيمينه عن شئون نفسه ، وتفصيل أحواله ، فإن ذلك مما يكرمه المستول ، ويضيق به كثيراً ؟ أو المراد تكلف المسائل التي

يستحيل وقوعها عادة ، أو يندر جدا ، لما فيه من الشطع ، والقول بالظن ؛ ولأنه لا يغفل صاحبه من الخطأ . وأما ما قيل من أن المراد كثرة السؤال له صلى الله عليه وسلم عن المسائل التي لا حاجة إليها ، كما قال تعالى : « لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤم » ، فذلك خاص بزمان نزول الوحي ؛ ويشير إليه حديث : « أعظم الناس جرما عند الله من سأل عن شيء لم يحرم ، لحرم من أجل مسأله » .

وقيل : المراد بكثرة السؤال سؤال المسال ، فإنه قد ورد ذمه في آثار كثيرة كحديث : « لا تزال المسألة بالعبد حتى يأتي يوم القيامة » ، وليس في وجهه ضرورة لحم ، وحديث ابن عباس : « إذا سألت ، فاسأل الله » . واتفق العلماء على النهي عن السؤال من غير ضرورة ؛ أخرج مسلم في صحيحه : أن المسألة لا تحمل إلا لثلاثة : لذي فقر مدقع ، أو غرم مفرط ، أو جائحة . واختلفوا في سؤال القادر على الكسب على قولين : أحدهما التحريم لظاهر الأحاديث ، والثاني الجواز مع الكراهة بشروط ثلاثة : ألا يلح ، وألا يذل نفسه زيادة على ذل السؤال ، وألا يؤدي المستول . فإن فقد شرط من هذه الشروط حرم . وهذا كله فيما إذا سأل نفسه ؛ أما إذا سأل لغيره ، فالظاهر أيضا أنه يختلف باختلاف الأحوال .

والامر السادس ، هو : « إضاعة المال » .

حمل أكثر العلماء إضاعة المال على الإسراف في الإنفاق ، وفقد البعد بالإففاق في الحرام . والأقوى من هذين الرأيين أن إضاعة المال هي إنفاقه في غير وجوهه المأذون فيها شرعا ، سواء كانت دينية أو دنيوية . والحكمة في النهي عن إضاعة المال أن الله تعالى جعله قايما لمصالح العباد ، ومظليا لشئون حياتهم ، وفي تضييعه تفويت لذلك ، إما في حق مضيعه ، وإما في حق غيره . فتح العبد من التبذير ، والحيولة بينه وبين تبديد الأموال ، إنما هو لتحقيق تلك الأغراض السامية التي نظر إليها الشارع الحكيم .

ويتلخص القول في كثرة الإنفاق وحكمه في ثلاثة وجوه :

الأول : أن يكون الإنفاق في الرجوه المذمومة شرعا ؛ وهذا حكمه المنع .

الثاني : أن يكون الإنفاق في الرجوه المحمودة شرعا ؛ وهذا لا شك في أنه مطلوب .

الثالث : أن يكون الإنفاق في المباحات بالاصالة كالأذى النفس ، وأن يكون على وجه يلقى هرقا بحال الخفق ، ويقدر ماله ، وأن يكون لدفع مفسدة ناجزة أو متوقعة ؛ وهذا قال به العلماء ؛ إنه ليس بإسراف ؛ أما إذا لم يكن فيه شيء من دفع المفسدة ، فالجمهور على أنه إسراف .

وقد جرى البحث في جواز التصدق بجميع المال ؛ ففهم من منع استيعاب جميع المال بالصدقة ، ومنهم من جوزه لمن عرف من نفسه الصبر على المضايقة . وبما لا خلاف في كراهته مجاوزة الحد في الإنفاق على البناء ، والزيادة فيه على قدر الحاجة ، ولا سيما إن أضاف إلى ذلك المبالغة في الزينة والخرقة .

وليس إضاعة المال مقصورة على إفاقه في المعاصي ، وبذلك في ارتكاب الفواحش ؛ بل يدخل فيها أيضا الإهمال في رعايته ، والتهاون في المحافظة عليه ، وسوء القيام على تديره وصيائه حتى يهلك أو يئلف ؛ كما يدخل فيها أن يدفع المال إلى من لم يؤنس منه الرشد ، أو أن يقسم من الأموال مالا ينتفع بجزئه كالجمهرة النفيسة .

وقال بعض العلماء : الضابط في إضاعة المال ألا يكون لغرض ديني ، ولا دنيوي ، فإن انتفيا ، حرم قطعا ، وإن وجد أحدهما وجودا له بال ، وكان الإنفاق لا تقا بالحال ، ولا معصية فيه ، جاز قطعا ؛ وبين الرتبين وسائل كثيرة لا تدخل تحت ضابط . فعلى المرء أن ينظر إليها بالحد والاحتياط ، وأن يلحظ فيها الدقة ، والبعد عن كل ما فيه مظنة إثم ، وأن تكون في حدود الهدى الإلهي الحكيم الوارد في قوله تعالى : « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ، ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواما » .

مسئولية الاطباء

- ٢ -

لمحاضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ عبد العزيز المراغي
إمام حضرة صاحب الجلالة الملك

عرضت في مقالى الماضى للآراء التى أبدأها الدكتور الفاضل أحمد ابراهيم القاضى بمحكمة الميا الوطنية ، وبيّنت أن الفقهاء قد عرّفوا بالتحديد الفرق بين الطبيب البصير والطبيب الجاهل ، وأنهم عرّفوا الإجازات فى شتى صورها ؛ وأوضحت مدى المسئولية التى حددها الفقهاء فى هذه النقطة .

واليوم نريد أن نتابع السير حول الآراء التى عرض لها القاضى الفاضل بعد تلك القطع التى ألمعنا إليها ، ولكن قبل أن ندخل فى صميم الموضوع أحب أن أقدم للباحث المحترم تحديدا أدق بما سلف للطبيب العالم ذكره فى شرح الأزهار فى فقه الزيدية ص ٢٨٣ ج ٣ عند قول المتى : ولا أرش للسراية عن المعتاد من بصير ، : فإذا استؤجر الخائن أو نحوه لحصل مضرة من عمله لم يضمن بشروط ثلاثة :
١- الأول — أن يكون عن سراية ، فلو كان عن مباشرة نحوه أن يقطع حشفة الصبي ، ضمن ، عمدا كان أم خطأ .

٢- الثانى — أن يفعل المعتاد ، فلو فعل غير المعتاد ضمن .

٣- الثالث — أن يكون بصيرا ، فلو كان متعاطيا ضمن .

والمراد بالبصير من يعرف العلة ودوائها وكيفية علاجها ، ويثق بذلك من نفسه ، وأن يكون قد أجاز له مشايخه ، وفعل مرتين فأصاب ؛ فإن أخطأ فى الثالثة فليس بمتعاطى ؛ لا الأخذ من الكتب كما فى سائر العلوم ، ولا يجوز لهم الإيهام بأن الدواء أكثر مما هو عليه . ولو فعل المتعاطى المعتاد مأمورا به ولم تحصل جناية فلا ضمان ، وبغير أمر يضمن ، ولو لم يفعل إلا المعتاد ؛ فإن قطع البصير المعتاد

تثبتت فهلك الصبي بمباشرة سبب ذلك المعتاد ، ففي اليان لا صيان ، وقد وقعت في رجل قطع له طيب فهلك بالمباشرة بالسبب المعتاد ، فأخذ كثير من العلماء بظاهر الأزهار بضمن ؛ وأفتى القاضي محمد بعدم الصيان . .

فأنت ترى من هذه النصوص جميعها أن الأمر وحده لا يكفي ، بل بشرط أن يكون العمل من بصير غير متعاط ، وأن يكون على وفق المعتاد .

وقد عرضنا للكلام حول إسقاط القود بقوله لآخر ، اقتلني ، فقتله . على أن الريدة — مع هذا — لا يرون سقوط القود بالإباحة . قال في شرح الأزهار : الإباحة لا تسقط القود عن القاتل . فإذا قال لغيره اقتلني فقتله ، أو اقتل ابني ، أو اقطع يدي ، ففعل ، لزمه القصاص ، ولا حكم لهذا الإذن ؛ وكذا إذا قال اقتل عبدي أو بهيمتي ؛ بخلاف قوله ادبح بقرتي ، لأن ذبحها يستباح فلا يصمن إن ذبحها .

ولست أرى بعد ذلك فرقا بين رأى الفقهاء والنظريات الحديثة في موضوع مسئولية الأطباء ، بل إن القصاص في مصر وفي فرنسا جرى على ما جرى عليه الفقهاء بتعديل طفيف ؛ فقد حكمت محكمة جبايات الاسكندرية بتاريخ ١٩٤١/٥/٢٥ بذلك ، وقد جاء في الحكم ، والقصاص الحديث على أنه في المسائل المختلف عليها في الطب لا مسئولية على الطبيب متى راعى أصول فنه وأجرى العلاج بإذن المريض . .

ومثل ذلك الأمر في فرنسا . راجع Henri de Bois تعليقا على حكم محكمة السين في ١٩٣٥/٥/١٦ المنشور في دالورز القسم الثاني ص ١٩٣٦/١١ .

فإن كان الماضي العاقل يرى أن الرضا لا يعدم المسئولية بعد ما سقاه له من نصوص الفقهاء ، وبعد ما ذكره هو بما جرى عليه العمل في القضاء الانكليزي وحكم محكمة القضا المصرية ؛ إن كان يرى ذلك فله — مع وافر التقدير — رأيه ؛ وكل ما كنا بسبيل منه إنما هو يبار أن لا خلاف — في رأينا — بين الفقهاء والنظريات الحديثة إلا في حواش يسيرة تستدعيها ظروف الزمان وظروف التفنين وشكل الصياغة وأسلوب الشرح ، وإلا — بربك — أي فرق بين عبارة الزيدية التي أسلفناها وما سبق نقله عن الجمعية والمالكية ، وبين العبارة التي نقلناها عن حكم محكمة الجنايات المصرية وعبارة دالورز ، وهي في جللتها لا تخرج عن روح الحكم الذي سقاه . . ولست أدري كيف رتب القاضي المحترم النتيجة التي ذكرها

بقوله ، وبترتب على الأخذ بهذه النظرية أن رضاه الشخص المعالج يعدم المسؤولية مهما كانت صفة المعالج ، فيستوى أن يكون طليبا ماهرا أو أن يكون شخصا لا دراية له بالمهنة ولم يحصل على أى دراسة في علوم الطب الخ ، ما ذكره في عدد ذى القعدة من مجلة الأزهر ، بعد أن قرأ ما قرأ من عبارات الفقهاء في جميع المذاهب ١٤ ولعله يعدل رأيه في هذه النتيجة بعد أن قدمنا له هذه العبارات الفقهية ؛ والقانونية ؛ وطبعا هو بها أدري وأخبر منا .

عرض الأستاذ المحترم بعد ذلك لموضوع جراحة التجميل ، ورأى أن جراحة التجميل مباحة ، ويجب أن تكون مباحة ، لدى جمهور فقهاء الشريعة ما دام أساس الإعفاء من المسؤولية هو رضاه الشخص المعالج . والفقهاء وإن لم يعرفوا جراحة التجميل بالمعنى الواسع الذى عرفه المحدثون ، فقد عرفوا بمصها وذهوا على حكمه ؛ فقد ذكر الفقهاء في كتاب الكراهية حكم اتخاذ الأنف من الذهب ، ورووا في ذلك حديثا : . أن عرجة بن سعد أصيب أنه يوم الكلاب فأتى ، فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يتخذ أنفا من ذهب . . وقد أخرجه أبو داود في الحاشية ، والترمذى في اللباس ، والنسائي في الزينة عن أبي الأشهب عن عبد الرحمن بن طرفة . . أن جده عرجة بن سعد أصيب أنه يوم الكلاب فاتخذ أنفا من ورق فأتى عليه ، فأمره النبي صلى الله عليه وسلم فاتخذ أنفا من ذهب . الى آخر الطرق التى أخرج بها الحديث . ولست ندرى على التحديد نوع الجراحة التى كانوا يجرونها لتثبيت هذا الأنف ، سواء كان من الذهب أم من الفضة ؛ ولست أجزم هل كان هذا من نوع الجراحة أم من شيء آخر ؛ إنما الذى أجزم به من عبارات الحديث على النحو الذى ذكر أن عملية ما كانوا يعرفونها للتجميل . وفوق هذا كانوا يعرفون نوع المعدن الذى يوافق العضو المقطوع ويستطاع عن طريقه دفع الرائحة التى كان يتأذى منها ، كما يظهر من إسن النبي صلى الله عليه وسلم له أن يتخذ الأنف من الذهب بدل الفضة ؛ لأن الذهب أدفع للعفونة ولكريه الرائحة من العضة . والفقهاء جميعا على إجازة هذا النوع ، وإنما حلالهم في الذهب فقط وهل يباح شد الأنف به أم لا .

ومثل اتخاذ الأنف من الذهب اتخاذ الأسنان به ؛ وقد روى الطبراني في معجمه عن عبد الله بن عمر أن أباه سقطت ثنيته فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يشدها

بذهب . وقد حاولنا أن نتعرف الطريق الذي كانوا يتعمون به أمثال هذه العمليات كما حاولنا معرفة عملية التجميل في الأنف فلم نستطع .

وقد عرض الفقهاء لنوع من جراحة التجميل أيضا ، وهو قطع الأصبع الزائدة ؛ ففي الظهيرية ، إذا أراد الرجل أن يقطع إصبعاً زائدة أو شيئاً آخر ، قال نصير رحمه الله . : إن كان الغالب على من قطع مثل ذلك الهلاك فإنه لا يفعل ، وإن كان الغالب هو النجاة فهو في سعة من ذلك . . وفي خزانة المفتين ، من له سلعة زائدة يريد قطعها إن كان الغالب الهلاك فلا يفعل وإلا فلا بأس به . .

ومن هذه العبارات يمكن القول بأن الفقهاء قد عرفوا النوع الذي عرض له القاضي الفاضل ، وأنهم تسكلموا عليه من ناحية جوازه أو كراهته على أساس غلبة الهلاك أو النجاة .

والطبيب ، على أساس إباحة العمل ورضاء من يريد التجميل ، يطبق على عمله الأحكام السابقة التي بينها عند الكلام على مسألة الحنان والفساد ، من موافقة العمل لما رسمه الأطباء وأهل الذكر في أمثال هذه العمليات .

وانتنا بحاجة بعد هذه النصوص التي نقلناها عن الظهيرية وهن خزانة المفتين للاستنتاج من أحكام الفقهاء التي ذكروها في باب الإمامة من حيث إباحة جراحة التجميل ، على أساس أن الفقهاء قالوا إن الحليلة يشترط في صحة بيعته أن يكون سالماً من العيوب الخلقية . فعباراتهم صريحة في المطلوب .

ويطبق على هذه الجراحة ما يطبق على غيرها مما أذن الفقهاء في إجرائه إذا أمر به المراد إجراء الجراحة له ، أي أن يكون على وفق الرسم ، وألا يحصل فيه تعدد ، إلى آخر ما أشرنا إليه سابقاً .

ثم عرض القاضي الفاضل في عدد المحرم لمسألة قيام الطبيب بعمل لا صلة له بمتعضيات الملاح ، والنتيجة التي وصل إليها الأخ المحترم نتيجة سليمة من الناحية العقلية ، ولكنه عند ما تكلم على مسألة الخطر الناتج عن السراية قال : وهذا التعليل كان من الممكن قبوله وقت أن وضع هذا الحكم ، أما اليوم وقد تقدمت العلوم الطبية تقدماً باهراً ، وأصبح من المتيسر إلى حد كبير معرفة إلى أي مدى يستطيع الجسم تحمل علاج معين أو إجراء جراحة معينة . .

ونحن لا نريد أن تناقش القاضى الفاضل فى هذه النقطة ، لأن المناقشة فيها جدل لا يؤدى لنتيجة إيجابية ، لأن تقدم العلوم أو تقدم فن الجراحة أو التحليل ومعرفة المقدرة الخاصة لكل جسم على تحمل الجراحة ، كل أولئك لم يغير — فى نظرنا — من صلاحية القاعدة الفقهية للتطبيق ؛ فالمهم فى نظر الفقهاء أن تكون العملية على وفق الرسم ، وأن لا يكون فيها تعدد مقصود ، وذلك مسلم فى كل زمن وفى كل عملية على وجهها الخاص بها حسبما يقرره العرف الطبى ، أو حسبما يقرره نقيب الأطباء وزعيمهم عند عرض الأمر عليه كما قال العلامة ابن الأخوة الشافعى فى كتابه معالم القرية فى الحسية الذى سبق أن أشرنا إليه . وهل يستطيع أى طبيب الآن — مع تقدم فنون الطب والجراحة — أن يقول فى أى عملية مهما أعدد لها المعدة من التحليل ومن كشف الأشعة وتشخيص المرض من — الناحية الأكاديمية : إن هذا المرض عدم السراية فيه مضمون قطعاً ؟ وهلا سمع الأخ المحترم بمشرات من الوقائع التى ذهب ضحيتها أناس فى ميعة شبابهم ومضاء فتوتهم — حتى من الأطباء أنفسهم — نتيجة المغالاة فى تقدير قيمة تلك المقدمات الطبية سلفاً ؟ ونحن لا نريد بذلك أن نعمط الأطباء حقهم ، أو أن نشكر فضل الطب ومدى تقدمه ؛ ولكننا بصدد الكلام على قواعد شرعية يجب أن نوضح على قواعد ثابتة وبمظان مضبوطة ، حتى يمكن بوط الحكم بها على النحو الذى رسمه الفقهاء ؛ وما من شك فى أن النتيجة التى وصل إليها الفقهاء منطقية وسليمة من الناحية الشكلية والناحية الموضوعية ؛ وأعلن الدكتور الفاضل يوافقنا على ذلك .

ثم عرض القاضى المحترم لمسألة رضا المريض أو إذن وليه عند إجراء عملية جراحية ، إلى أن قال : لو أراد شخص أن يبقى مريضاً بغير علاج فلا يمكن إرغامه على أن يعالج نفسه ، ويستثنى من ذلك بعض حالات الأمراض المعدية حيث تختم القوانين لإبلاغ الصحة عنها لتتولى علاج المرضى وعزلهم عن مخالطهم . أما القسم الثانى وهو الأمراض المعدية فتصوص الشريعة الإسلامية واضحة فيها ، وهى — فيما نظن — أوسع مدى من القوانين الحديثة ، بل إن أساس الحجر الصحى والكورتينات موجود فيما عمل السلف الصالح ؛ فى الصحيحين عن عبد الرحمن بن عوف قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا كان الوباء

بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها فراراً منه ، وإذا سمعتم به في أرض فلا تقدموا عليها .

وقد رجع عمر بن الخطاب بسبب هذا الحديث لما خرج إلى الشام وعلم أن الوباء قد وقع بها ، وأن عمر حذاه وانصرف . قال أبو الحسن بن طرخان الحموي في الأحكام البوية : وفي نهيه صلى الله عليه وسلم عن الدخول للأرض التي حلها الطاعون فاندثان : إحداهما لئلا يستنشقوا الهواء الذي قد عفن وفسد فيمرضوا ، والثانية لئلا يجاوروا المرضى الذين قد مرضوا بذلك فتضاعف عليهم البلية ، وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : من التقرف التلث ، وفسر بأنه ملابسة الداء ومدانة المرضى . وبالمجمل قوله لا يقدموا عليه إثبات للحظر والنهي عن التعرض للتلث ؛ وحديث أبي داود المذكور من حديث فروة بن مسيك قال : قلت يا رسول الله أرض عسنا يقال لها أرض أبيي (قرية إلى جانب البحر من ناحية اليمن) هي أرض ريفاً (كل أرض فيها ررع ونخل) وميرتنا (الطعام المجلوب من بلد إلى بلد) وإنها وبئة (أي كثيرة الوباء) ، أو قال : وبأؤها شديد ، فقال عليه السلام : دعها عليك فإن من القرف (ملابسة الداء ومدانة المرضى) التلث (الهلاك) . قال الخطابي وابن الأثير : ليس هذا من باب الطيرة والدوى ، وإنما هذا من باب الطب ، لأن استصلاح الهواء من أعين الأشياء على صحة الأبدان ، وفساد الهواء من أضرها وأسرعها إلى إسقام البدن عند الأطباء ، وكل ذلك يأذن الله ومشيه اه ، وقال العلامة السيد عبد الحى الكتاني محدث مراکش في كتابه التراتيب الإدارية : ومن العجب ما وقفت عليه في مکتوب السلطان أبي العباس المصور : كتب لولده أبي فارس وهو خليفته على مراکش بتاريخ ١٠١٩ في أمر وباء حدث إذ ذاك بسوس قال فيه ما نصه : والبطاقة التي ترد عليكم من سوس من عند أعمامكم أو ولد خالكم لا تقرأ ولا تدخل داراً يل تعطى لكتابكم وهو يتولى قرائتها ويمرّفكم مضمونها ، ولأجل أن كتابكم يدخل مجلسكم ويلبس مقامكم حتى هو لا يفتحها إلا بعد أن تُغْمَس في خل عقیف وتشر حتى تبيس وحيث يقرؤها ويمرّفكم مضمونها ، إذ ليس بآتيكم من سوس ما يوجب الكتمان عن كتابكم . وقد كانت — يشير إلى العزل

الصحي — وقعت المحاربة بين عالمي تونس . أبي محمد عبد الله الهامعي المالكي ،
والشيخ أبي عبد الله محمد بيرم الحنفي ، في إباحتها وحظرها ، تألف الأول رسالة
في الحرمة ، والثاني في الجواز ، مستدلاً على ذلك بمصوص من الكتاب
والسنة ، اهـ .

وأظن أن هذا القدر يكفي في نظر الشريعة للأمراض الروائية والمعدية ،
وأن كل عمل يرى فيه المصلحة فهو مندرج تحت حديث الصحيحين ، وما عرح به
ابن طرخان سبب التنبؤ .

وأما المرض العادي فليس فيه نص قضى يلزم الشخص بأمر الدولة بالتداوى ،
ولما الموجود الأمر بالتداوى وأن الرسول عليه السلام كان يتداوى . وفي طبقات
ابن سعد ص ١١٦ ج ١ من القسم الثاني عن عائشة : كان رسول الله صلى الله عليه
وسلم رجلاً مسقماً ، وكانت العرب تحت له فيتداوى بما تمت به العرب ، وكانت
العمم تحت له فيتداوى . وفي المواهب : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يراعى
صفات الاطعمة وطبائعها ، ويراعى استعمالها على قاعدة الطب ، فإذا كان في أحد
الطعامين ما يحتاج الى تحسين وتعديل لحرارته كسره وعذله ، وهذا أصل كبير
في المركبات والأدوية ، وإن لم يجد ذلك تناوله على حاجة وداعية من غير إسراف .
هذا هو الأصل في التداوى ، وهو واجب ديانة دفعا للهلاك عن النفس ، فإذا رأى
ولى الأمر أن شخصا ماترك مداواة نفسه وعرضها للهلاك ، فلا يظن أن روح
الشريعة تأبى أن يرغم ولى الأمر شخصا أو أشخاصا أو مجموعة على العلاج
وال مداواة إذا تحقق بذلك غرض صحيح للفرد أو الأفراد أو جماعة المسلمين .
وأقل ما في الأمر أن التداوى مباح : ولو أمر به ولى الأمر على وجه صحيح
ولغرض مشروع أصبح واجبا ، وعلى الشخص المأمور أن يطيع ، وأصبح
أمر ولى الأمر بهذا المباح واجبا كما يعلم ذلك على التفصيل من مراجعة ما كتبه
الفقهاء حول مباح أمر ولى الأمر بالمباح . ولا يزيد الإفاضة فيه فذلك مبحث
من السهل الرجوع اليه ومعرفة جملة وتفصيله .

ثم عاد الأستاذ مرة أخرى لمبحث مسألة رضاء المريض أو وليه بإجراء
الجراحة ، وتقل عبارة عن الشافعية في مسألة قطع السلعة من رأس عاقل بالغ ،

والنتائج التي تترتب على ذلك الفعل ، إلى آخر ما ذكر في عدد المحرم السابق ، ثم عقب على ذلك بقوله ، وواضح مما تقدم أن مسؤولية الطبيب إذا باشر العلاج بعير إذن تكون مسؤولية عمدية فيقتض منه متى كان القصاص ممكناً . ولم نجد في غير مذهب الشافعي تحديداً واضحاً لمعنى الضمان الواجب على الطبيب إذا أجرى جراحة بغير رضا المريض أو وليه ، وهل المنصود من الضمان القصاص أم الدية ، ومع ذلك فإننا نعتقد أن المقصود بالضمان القصاص ؛ لأن فعل الطبيب في هذه الحالات عمدى ، ولا يوجد ما يسوغه أو ما يقطع القصاص عنه .

أما أن الفقهاء من غير الشافعية لم يحددوا معنى الضمان الواجب فغير مسلم ؛ فقد نص الفقهاء من غير الشافعية على حكم الضمان ؛ فقد ذكرت هذه المسألة بالتفصيل في الزيلعي والهداية والدر المختار من كتب الحنفية . وهاك عبارة الدر : « ولا ضمان على حجام وبزاز أو قصاد لم يجاوز الموضع المعتاد ، فإن جاوز ضمن الريادة كلها إذا لم يهلك ، وإن هلك ضمن نصف دية النفس ، فلو قطع الختان الحشفة وبرئ المقطوع يجب عليه دية كاملة ، وإن مات فالواجب عليه نصفها » . وقد علق صاحب رد المختار على هذه العبارة بقوله ، لم يجاوز الموضع المعتاد أى وكان بالإذن ؛ قال في الكافي : عبارة المختصر ناطقة بعدم التجاوز وساكنة عن الإذن . وعبارة الجامع الصغير ناطقة بالإذن ساكنة عن التجاوز ، فصار ما نطق به هذا بياناً لما سكنت عنه الآخر ، ويستفاد من مجموع الروايتين اشتراط عدم التجاوز والإذن لعدم الضمان حتى إذا عدم أحدهما أو كلاهما يجب الضمان . اهـ طوري .

وعليه ما يأتي عن العمادية : ويريد بذلك ، الفرع الذي ذكره شارح الدر بقوله ، ولو شرط على الحجام ونحوه العمل على وجه لا يسرى لا يصح ، لأنه ليس في وسعه ، إلا إذا فعل غير المعتاد فيضمن . عمادية . وفيها : سئل صاحب المحيط عن قصاد قال له غلام أو عبد : أفصدي ، فقصده فصداً معناداً مات بسببه قال : يجب دية الحر ، وقيمة العبد على العاقلة لأنه خطأ . اهـ . قال ابن عابدين تعليقا

على قوله خطأ . أى من القتل الخطأ إذ لم يعتمد قتله ، والدليل عليه عدم مجاورة الفعل المعتاد . ١٥ .

فأنت ترى من هذه العبارات أن الضمان محدد ومعناه الدية ، وأن الضمان إنما يكون إذا تخلف أحد الشرطين لفيه ، وهما المذكوران في عبارة السكافي السابقة ، وهما عدم التجاوز والإدس ، وأنه إذا لم يوجد إذن أو وجد إذن غير معتبر — أى كلاً — إذن — كإدس الصبي والعبد وحصل موت بسبب الفصد ، فالدية فقط بشرط أن يكون على وفق الرسم لأنه خطأ في الفعل إذ لم يقصد قتله كما تعطيه عبارة المادة السابقة . وأوضح من هذا في هذا المعنى ما أجاب به صاحب المادة حين سئل عن فصد نائماً وتركه حتى مات من السيلان ، قال : يجب القصاص . قال الطهطاوى . أى لأنه قتله بمحدد أى وهو قاصد لقتله فكان عمداً .

ولعل الأخ المحترم يرى بعد ذلك أن الحمية قد وصحوا معنى الضمان عند عدم الإذن ، ويبنوا متى يكون موجبا للقصاص ومتى يكون موجبا للدية .

وبذلك ترى أنه لاخلاف بين الشافعية والحنفية ؛ لأن عبارة الشافعية إنما توجب الضمان في السلطة لأنه جرح لا يؤمن معه الهلاك ، فلذلك وجب القصاص ، وأصبح الحكم فيها كسأفة فصد النائم وتركه حتى ينزف ، التي أجاب بها صاحب المادة . والمجالة قد ذكروا مثل هذا أو قريباً منه : فقد ذكر في المعنى ج ٦ ص ١٢٠ عند قوله : « ولا ضمان على حجاج الخ ما نصه » ، وجملته أن هؤلاء إذا فعلوا ما أمروا به لم يضمنوا بشرطين : أحدهما أن يكونوا دوى حلق في صناعتهم ولهم بها بصرامة ومعرفة ، لأنه إذا لم يكن كذلك لم يحل له مباشرة القطع ، وإذا قطع مع هذا كان فعلاً محرماً فيضمن سرايته كالقطع ابتداء ، إلى آخر ما ذكره هناك . فبأن السراية كالقطع ابتداء إنما يكون بالقصاص إذا كان العمل من جاهل بالطب يعمل على غير الرسم . وقد ذكر المواق ج ٦ في شرحه على متن خليل في مذهب مالك عند قول المتن ، وختم ما سرى كطبيب جهل أو قصر ، ما نصه . من مات من سقى طبيب أو ختم الحاجم أو قعليه ضرراً لم يضمنه إن لم يخطئ في فعلهما ، إلا أن ينهاهما الحاكم عن القدوم على ذى غرر إلا بإذنه ، فن

خاله في ضمن ماله . هذا ظاهر السماع : وما كان بخطأ في فعله كسقيه ما لا يوافق المرض أو تزل يد الخائن أو يقطع غير الضرر المأمور به فإن كان من أهل المعرفة ولم يصر من نفسه فذلك خطأ تحمل عاقبته الثلث فصاعداً ، وإن غرم نفسه عوقب بالضرب والسجن . وفي كون أرش الجناية إلى الخطأ أو في ماله قولان : « أو بلا إذن معتبر » ابن الحاجب ، فإن كان جاهلاً به أو لم يؤذن له فلا ضمان كالخطأ ، وإذن العبد أن يحجمه غير مفيد . ولو أدت عبد في فصد أو حجارة أو ختان قال مالك : فإن أمره عبد أن يحتته أو يحجمه أو يقطع عرقه ففعل فهو ضامن ما أصاب العبد في ذلك ، أو فعله بغير إذن سيده ، علم أنه عبد أو لم يعلم .

وعبارة المالكية هذه كمبارة الحنفية ، ومعنى الضمان فيها واضح بمعنى الدية . ولم أجد للمالكية عبارة تشبه العبارة التي ذكرها صاحب العبادية من الحنفية وقال فيها بوجوب القصاص عند قصد القتل العمد بقصد أو نحوه .

والمهم في كل ما ذكرنا أن الضمان معناه واضح في كتب المذاهب التي بين أيدينا والتي عرضت لهذه المسألة ، لاخلاف بينها فيها ، حتى إن صاحب المغنى قال - في آخر العبارة التي أسلفنا نقلها - . فيضمن سرايته كالقطع ابتداء ، وهذا مذهب الشافعي وأصحاب الرأي ، لا نعلم فيه خلافاً .

ثم عرض القاضي الفاضل لمسألة الحالات التي تستوجب الإسعاف العاجل والتي لا يمكن انتظار الحصول على الرضا فيها لما في ذلك من خطر بليغ ، وعلق على ذلك بقوله : ولم نجد فيها رجعتا إليه من كتب الفقه الإسلامي من تعرض لهذه المسألة وبين حكمها ، ومع هذا فإننا نعتقد أن حكم الشريعة فيها هو ضرورة إعفاء الأطباء من المسؤولية عن أعمالهم التي يؤديونها في الحالة التي يستحيل فيها على المريض أن يبدى رأيه في العلاج .

قد عرض العلامة ابن القيم لهذه المسألة في مبحث « جريان العرف مجرى النطق » ج ٢ ص ٢٢ ، إذ قال بعد كلام طويل فيما جرى فيه العرف مجرى النطق : ومنها لو رأى شاة غيره تموت فذبحها حفظاً لمسايتها عليه كان ذلك أولى من تركها تذهب ضياعاً ، وإن كان من جامدى الفقهاء من يمنع ذلك ويقول : هذا تصرف في ملك الغير ، ولم يعلم هذا اليأس أن التصرف في ملك الغير إنما حرمه الله لما

فيه من الإضرار به ، وترك التصرف ما هـا هو الإضرار . ومنها : لو استأجر غلاما فوقعت الأكله في طرفه فتيقن أنه إن لم يقطعه سرت إلى نفسه فأت ، جاز له قطعه ولا ضمان . . . إلى آخر ما ذكره من العروع في هذا المبحث القيم .

وأظن المسألة الأخيرة نص في الموضوع : فالفاضل الفاضل يعلم أن إذن السيد واجب في أى عمل يراد إجراؤه للعلاء ، ومع ذلك سقط اعتباره لموضع العرف وللضرورة خوفا السريان ، فثله للشخص المريض الذى يحتم الحال أن يداوى بأى دواء أو يعمل له أى عمل وليس من الممكن الحصول على إذن من يملك الإذن ، والعرف يقضى بأن مداواة هذه الحال خير من الإهمال ؛ بل إن العرف جرى على لوم من يقصر لعدم الإذن ، وأخذ به بالمذمة لتراخيه في أمر كان من الواجبات ، وكان من المحتمل أن يفقد حياة يتم في ظلها من كانوا يعيشون في كنفها .

هذه مسائل في غاية الوضوح ، والفاضل الفاضل يعلم قيمة العرف ومقدار الأخذ به في الشريعة الإسلامية حتى مع الأمور المنصوص عليها . ولعل هذا النص من ابن القيم يكون موضع غناء للفاضل الفاضل ، فيرى أن قضاء الشريعة لم يحمدا في حالة كهذه ، بل — على القيص — رى ابن القيم من وقف في أمثال هذه المسائل باليس والجود .

وفي الحق إنى لاشكر للفاضل المحترم أن هباً لي فرصة التلاقى به عن طريق مجلة الأزهر ، فوق شكرى له الذى قدمته في المقال السابق أن عى بهذه الأبحاث الشيقة من ناحية الشريعة والقانون ، وإن كان في مقالاته التالية ما بدعونا لقاء مرة أخرى فساً كون جد سعيد بذلك ؛ فعسى أن يسير بمجده المقدر مداه ، والمحمود أثره . وفقه الله وأعانه لخدمة الشريعة الحققة على ضوء الأبحاث القيمة .

الاسلام والمسلمون

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد محمد المدني
المفتش بالأزهر

- ٢ -

جرت عادة الناس أن يرجعوا عظمة المسلمين حين كانوا أعره الى عملهم بشريعتهم ، وتمسكهم بدينهم ، وأن يرجعوا ضعفهم وذلمهم في العصور الأخيرة الى انصرافهم عن هذا الدين ، وهو أن هذه الشريعة عليهم . وإن هذا الحق ما فيه شك ؛ ولكن مثل هذا السبب عام ، أو هو يثير تساؤلا جديدا ، فيقال : وما سر انصرافهم عن الدين بعد أن كانوا به متمسكين ، وعليه حريصين ؟ وعندى أن السبب المباشر لضعف المسلمين هو تفرقهم واختلافهم بالآهواء والتزعات ، وتبادلهم سوء الظن فيما بينهم ؛ فكل طائفة قائمة في بلادها ، عاكفة على ما عدها ، تظن أنها هي وحدها التي على الحق ، وما سواها من المسلمين على الباطل ، ويسهل عليها من جراء ذلك أن ترى غيرها بالكفر أو الزندقة أو المروق ، أو كذا أو كذا ، مما يوسع الهوة ، ويزيد النار اشتعالا ؛ وما ما إلا من يذكر في تاريخه كيف غرس فيه منذ الصغر مبادئ الكراهية والخوف من بعض الطوائف ، والحذر والاحتياط منهم ، كما يغرس فيه الخوف والحذر من أهل الكفر على سواء . بهذا كره المسلمون بعضهم بعضا ، واستولى عليهم الجهل بأحوالهم ، وقست قلوبهم عما يصابون به فرادى ؛ فكل شعب حسبه أن يتمتع هو بشيء ولو يسير من مظاهر الحياة والسعادة ، ولا يفكر في الشعوب الأخرى التي هي بضعة من الأمة الإسلامية ، ولو مزقها الممزقون ، وأكلها الآكلون ؛ وذلك بأن عواطف الأخوة الإسلامية قد تهطلت وحل محلها البغضاء وسوء الظن .

ولعل قائلًا يقول : لقد كان هذا الخلاف بين المسلمين قائما في أول عهد الأمة الإسلامية ، ومع ذلك جئشوا الجيوش ، وفجروا الفتوح ، وبلغوا رسالة الإسلام الى أمم الأرض ، فلماذا لم يضعفهم الخلاف ، ولماذا لم يسقط دولتهم ؟ والجواب على ذلك سهل يسير : فإن هذا الخلاف الذى بكر على المسلمين منذ أول عهدهم هو الذى فعل فعله ، وأثر آثاره فى حالة الضعف والركود التى أصيبت بها الأمة الإسلامية ؛ غير أن الشعوب لا تموت فيما بين عام وعام ، أو فيما بين عشرات من السنين وعشرات ، وإنما تصاب بالمرض فتقاوم حينما من الزمن ، وتعضمها قوتها ومناعتها الى حين ، فإذا ضعفت هذه المقاومة أو غذى المرض وقوى وسعد ، تمكن ويجعل بآثاره السيئة : وهكذا كان حال المسلمين : أصيبوا بدهاء الخصام والتنازع فاستسلوا له ، بل قوروه وساعدوه على أنفسهم ، ومكواله فيما بينهم ، فظل يستشري ويتفاقم ، وظلت الأمة تضعف وتضعف فى شكل تدريجى لا يكاد يحس ، وكانت الأمم من حولها ضعيفة مهينة قد دأقت قوة المسلمين وعرفت بلاءهم وكفائتهم ، فلم تحدثها نفسها بانتهاز الفرصة ، وما كانت قادرة على انتهازها ، وظل التقاطع وسوء الظن ، والاهواء والمطامع ، ظل كل هذا يفعل فعله فى مشاركة حتى انتهى أمر الدولة الإسلامية على أيدي رجال الدولة الإسلامية ، ثم قويت الأمم الأخرى ، وأصبحت قادرة على الانتقام من المسلمين ، فأحكمت خططها ، وجمعت تسنل الخلافات القديمة ، وتذكى نيرانها ، وتعين كل طائفة على الأخرى باسم المحافظة على فكرتها أو عقيدتها ، أو ملكها وسلطانها ؛ ونظر المسلمون فإذا هم يجمعون الى الضعف الشتات والفرقة ، وإذا هم صيد سهل موات لكل صائد .

فالخلاف الأول هو البذرة الأولى فى أرض الإسلام ، هو السر فى انتهاء أمر المسلمين الى ما انتهوا اليه : ولو ظل المسلمون كما تركهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إخوانا متعاضدين متعاونين ، وعالجوا اختلاف الرأى فيما بينهم بمثل ما كان يعالج به أبو بكر وعمر وعثمان وعلى خلافتهم ، من تعليل المصالح العليا للإسلام والمسلمين على كل ما سواها ؛ ولم تقلب الخلافة الإسلامية ملكا

عضوداً ، همه توطيد السلطان ، والافراد بالحكم ، والتمتع بالذائد ، ونيان الجهاد وبت رسالة الإسلام - لو ظل المسلمون كما كانوا ، ولم يصادفهم ما صادفهم ، لغزو العالم كله ، ولأوصلوا دعوة الحق إلى كل ناحية من نواحي الأرض ، ولبلتغوا بذلك كلمة الله ، ووقوا العالم هذا الشر المستطير الذي لا يفيق منه إلا عليه ، ولا يتحرر منه إلا لينضع له .

يجب على المسلمين أن يخلفوا من أنفسهم أمة جديدة ، وأن ينسوا خلافاتهم الماضية ، وعصياتهم التي شنتهم وأضعفتهم ، وعطلت مواهبهم ، وأماتت فيهم زعة العلو ، وأقعدتهم عن التمسك بأهداب المجد .

يجب على المسلمين أن يعتصموا جميعاً بحبل الله ، وأن يذكروا أن الله امتنَّ على آبائهم في عهد الرسول الكريم بأنهم كانوا أعداء فألّف بين قلوبهم ، وكأوا على شفا حفرة من النار فأقذهم منها .

يجب على المصري أن يضع يده في يد العراقي والشامي والإيراني والافغانى والحجازى والبنينى والتركي والباكستانى والملايوى والالبانى وكل مسلم يؤمن بكتاب الله ويشهد أن محمداً رسول الله ، ويجب على هؤلاء جميعاً أن يصنعوا خلافاتهم ومطامعهم وراهم ظهرياً ، ويذكروا فقط أنهم جنود لله قد اشتري أنفسهم وأموالهم ، وحلهم رسالة هي خير رسالة وأشرفها وأجداها على الإنسانية . تلك هي الدعوة إلى الخير ، والإقناع بالحق ، وعبادة إله واحد لا شريك له ، والتمسك بأهداب المهاج القويم الذى يكفل لكل من تمسك به السعادة والأمن والطمأنينة والقرار .

إنهم إن فعلوا ذلك أقتنوا أنفسهم ، وأقتنوا العالم معهم ، وأثبتوا أنهم جديرون بميراث هذه البوة الإصلاحية ، والرسالة الشاملة . إن الأنبياء لا يورثون ديناراً ولا درهماً ، ولكن يورثون مبادئ الفضيلة والخير والبر ، ويحملون أتباعهم أمانة الحق والإيمان والإصلاح .

إن العالم اليوم يغلى في أثون من نار المطامع ، وترفرف عليه روح شيطانية مفتنة في الشر ، متدعة إلى الفساد ، بل إلى الهلاك والدمار ، ولا يصلحه إلا دين

يسوى بين الناس جميعا لا فرق بين أحرم وأسودهم ، ويجعل أخوة الإيمان بين المؤمنين هي الجنسية التي بها يكون التراحم والتعاطف والتعاون ، وبأمر يرد من خرج عليها الى دائرتها عن طريق التكافل والنصرة والعدل والتصفية ؛ وليس هذا الدين الذي تدعو اليه الآن ضرورة البشر بشدة وقوة إلا الإسلام .

ولا سبيل الى إقناع العالم بهذا الدين ، إلا بالمسلمين أنفسهم ، فإنهم حملة لوائه ومفاتيح كسوزه ، والقادرون على جلالة ونشر نوره ، ولن يكون ذلك إلا إذا اتحدوا حوله ، واتفقوا عليه ، وتمسكوا فيما بينهم بأهدابه ، ونسوا هذه الخلافات الفارغة التي لا طائل تحتها ، ولم يكلفهم الله بها ، بل نهام عنها ، وحذرهم منها .

وعلى قادة الفكر ، وأصحاب الرأي في العالم الإسلامي يقع العبء في إقناع المسلمين بهذا ، وفي تربيتهم عليه ، وغرسه في تاشئتهم ، وبنه في أرواحهم ، حتى ينسى الأفراد في كل طائفة أنهم على خلاف مع غيرهم من أرباب الطوائف الأخرى ، فلا يعرف الشيعي بجانب السني إلا أنه مسلم مع أخيه المسلم ، ولا يعرف النجدي مع أخيه النيني إلا أنهما أبناء كتاب واحد ورسول واحد ، كما لم يعد أحد يشعر بأنه شافعي والآخر حنفي ، أو مالكي والآخر حنبلي .

على قادة الفكر وأصحاب الرأي في العالم الإسلامي ، أن يوجهوا المسلمين وجهة أخرى عملية نافعة تهضمهم ، وتغير مافي نفوسهم ، ليغير الله ما بهم ؛ فقد طالما أوغلوا في الجدال في تفضيل فلان على فلان ، وتخطئة فلان وتصويب فلان ، وحب فلان وبغض فلان ، عن ذهبوا الى ربهم ، وأصبحوا في ذمة التاريخ ، ولم يعد لهم أثر في شئوننا الحاضرة ١ .

على قادة الفكر وأصحاب الرأي في العالم الإسلامي ، أن يتناولوا البحوث الجدلية ، والمعارف التي لا صلة لها بالعقائد في هدوء ويسر ، ودون تعنت ولا تعصب ، وأن يعلموا أن الخطأ فيها لا يبال من الدين والإيمان ، وأن الإصاية فيها ليست وقفا على فريق دون فريق ، وأن لكل إنسان أن يرى ما يرى ما دام مؤمنا بالله ورسالاته واليوم الآخر ، مصدقا لما جاء به الصادق الأمين .

بين الشريعة والقانون نظرات في توثيق المعاملات المالية

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد اللطيف السبي
المنش بالأزهر

— ٢ —

من وثائق الرسول :

وكما حدثنا القرآن الكريم في قصصه وفي تشريعه عن التوثيق في المعاملة ، حدثتنا السنة وكتب السير في غير ريبة عن توثيقات صدرت من النبي صلى الله عليه وسلم أو أقرها ، وقد عرف بعضها تاريخ معين ، ولم يعرف لآخرها تاريخ محدد ، على وجه الضبط . وقد ذكروا فيما يدل على عناية الرسول عليه السلام بالتوثيق أن الحصين بن نمير ، والمغيرة بن شعبة ، كما يفومان للنبي عليه السلام بكتابة المدائيات والمعاملات (١) .

ومن أسبق الوثائق المكتاية التي عُرف صدورها عن الرسول عليه السلام ، وثيقة تميم الداري ، إذ كانت قبل الهجرة وبقى أثرها حتى اليوم ؛ وفي هذا يقول الشيخ عبد الحى الكتاني ناقلًا عن ابن عساکر وغيره (٢) : « آخر مكتوب حفظه التاريخ جلد المكتوب فيه يمينه له عليه الصلاة والسلام الكتاب الذي أقطع به تميم الداري أرضاً بالشام ، وهو مكتوب مشهور معروف في العصور السابقة ، تكلم عليه أهل الحديث والتاريخ والفقه وغيره ، وذكر سياقا للقصة بالسند

(١) كتاب الأصاية ، تجارب الأمم ، السيرة الحلبية ، محاضرات ابن عربى ، جوامع السيرة .

(٢) كتاب التراتيب الادارية لعبد الحى الكتاني .

إلى أبي هدد الداري نصره ، قال أبو هدد : قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن ستة نفر ، وسألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقطعنا أرضاً من أرض الشام ، فقال رسول الله عليه السلام : حيث شئتم ، فقال تميم لقومه : أرى أن نسأله بيت المقدس وكورها ، فقال أبو هدد : هذا محل ملك العجم ، وكذلك يكون فيه ملك العرب وأحاف ألا يتم لنا هذا ، فقال تميم : بيت جرير وكورها ، فقال أبو هدد : هذا أكبر وأكبر ، فقال تميم : فأى شيء نسأله ؟ فقال أبو هدد : أرى أن نسأله القرى التي يقع بها — تل — مع آثار إبراهيم ، فقال تميم : أصبحت ووفقت . قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم تميم : أحب أن تخبرني بما كنتم فيه أو أخبرك ؟ فقال تميم : بل أخبرنا يا رسول الله زدد إيماننا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أردتم أمراً فأراد هذا غيره ، ونعم الرأي . قال : فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقطعة جلد فكتب لها كتاباً : نسختُه : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب ذكر فيه ما وهب رسول الله للداريين . إذا أعطاه الله الأرض وهب لهم بيت عينون ، وجيرون ، وبيت إبراهيم بمن فيهن أبدأ . شهد عباس بن عبد المطلب ، وجهم بن قيس ، وشرحبيل ابن حسنة وكتب ، إلى أن قال : ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم : انصرفوا حتى تجمعوا بأى قد هاجرت ، قال أبو هدد : انصرفنا ، فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة قدمنا عليه فسألناه أن يحدد لنا كتاباً ، فكتب لنا كتاباً نسخته : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى محمد رسول الله تميم الداري وأصحابه : إني أعطيتكم عينون ، وجيرون ، والرطوة ، وبيت إبراهيم برمنه وجميع ما فيه ، عطية بت ، وسميت ذلك لهم ولأعتاقهم من بعدهم أبدأ الأبد ، فن آذاهم فيها آذاه الله . شهد أبو بكر بن أبي قحافة ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب ، ومعاوية بن أبي سفيان وكتبه . »

ويرى هذا السياق من طريق أخرى عن ثور بن يزيد ، عن راشد بن سعد قال : « قدم تميم الداري ، وهو تميم بن أوس ، رجل من لخم ، فقال : يا رسول الله إن لي جيرة من الروم بفسطاطين لهم قرية يقال لها جرير ، وأخرى يقال لها بيت

عينون : إن فتح الله عليك الشام فهما لي ، فقال صلى الله عليه وسلم مما لك . قال : فاكتب لي بذلك ، فكتب له رسول الله الكتاب السابق .

ومن تمام الرواية الأولى عن أبي هند : فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وولى أبو بكر ، وتجه الجود إلى الشام ، فكتب لنا كتابا فسخطه ... ثم ذكر صيغة التوحيد التي صدرت من أبي بكر لأبي عبيدة بن الجراح ، رضى الله عنهما . وقد تناقل العلماء هذه الوثيقة في كثير من الكتب ، حتى صرحوا أن قطعة الجلد كانت من خف على بن أبي طالب . وهذا مما يثبت تأكدهم من صدق القصة ، وصرحوا بأن هذه الإقطاعية بيد ذرية تميم الدارى ، وهم كثيرون هناك بأرض الحليل حتى اليوم .

فهذه وثيقة كتابية في معاملة مالية صدرت من الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - لنفر من أصحابه قبل الهجرة ، ولكن في أى سنة ؟ لم يدسوا . ثم نجدت من النبي عليه السلام بعد الهجرة سنة تسع ، غضب غزوة تبوك ، كما ذكرنا .

ووثيقة ثانية كتبها النبي عليه السلام في غزوة الخندق ، ومروف أنها كانت في السنة الخامسة بعد الهجرة : كتبها لعينة بن حصن العزاري ، والحارث بن عوف المرعى ، وهما من رؤساء القبائل التي تحزبت على المسلمين : لحينما رأى النبي شدة الأمر وتألب الأحزاب على المسلمين ، دعا إليه هذين الرجلين ، لحاءاه حفية ، وعرض عليهما أن يقطعهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بأتباعهما من الأحزاب فقبلا ، وكتب الوثيقة لهما بذلك ، وقبل توقيعه عليهما أحضر سعد بن عبادة سيد الخزرج ، وسعد بن معاذ سيد الأوس ، واستشارهما في إنفاذ الصلح على ذلك ، فتكلم مع النبي عليه السلام فيما يحمله على ذلك ، فقال صلى الله عليه وسلم : والله ما أصنع ذلك إلا لأني رأيت العرب قد رمنكم عن قوس واحدة ، وكالوكم من كل جانب ، فأردت أن أكرس شوكتهم إلى أمر ما . فأشار سعد وسعد على الرسول ألا يفعل ، وقالوا بعد كلام طيب لا أطيل يذكره : لا نعطهم والله إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم ! فأمر النبي عليه السلام بتمزيق الصحيفة ، وقال للرجلين : أرجعا ، بيننا وبينكم السيف ! .

فهذه وثيقة أخرى كتبها النبي صلى الله عليه وسلم في السنة الخامسة ، وهم بتفويضها لولا ما رأى بعد المشورة أن الخير في إعمالها .

ووثيقة ثالثة كتبها عليه السلام لمولاه أبي رافع ، يثبت بها عتقه ، ونفسها : « بسم الله الرحمن الرحيم : كتاب من محمد رسول الله لغناه أسلم - وهو أبو رافع - : إني أعتقك لله عتقا مقبولا ، الله أعتقك وله المن على " وعليك : فأنت حر لا سبيل لأحد عليك ، إلا سبيل الإسلام وعصمة الإيمان ، شهد بذلك أبو بكر ، وشهد عثمان ، وشهد علي " ، وكتب معاوية بن أبي سفيان ، .

ووثيقة رابعة كتبها للعلاء بن خالد في معاملة مالية ، ونصها كما ذكر الترمذي قال : عن محمد بن بشار ، عن عباد بن ليث ، عن هب المجيد بن وهب ، قال : قال لي العلاء بن خالد بن هودة : ألا أقرأ لك كتابا كتب لي رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قلت بلى : فأخرج لي كتابا ، هذا ما اشترى العلاء بن خالد بن هودة من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم : اشترى منه عبدا - أو أمة - لاداء ولا غائلة ولا خبث ، بيع المسلم للمسلم ، - الغائلة : الإباق أو السرقة أو الزنا ، والخبث : بيع من له عهد مع المسلمين .

فهذه كذلك وثيقة أثبتت الرواة ولم يذكروا لها وقفا معينا على وجه التحديد ، وإنما ذكروا أن لإسلام العلاء هذا كان بعد فتح مكة وبعد غزوة حنين : إذ هو القائل فيما رواه عنه : قاتلنا رسول الله يوم حنين فلم يطهرنا الله عليه ولم ينصرنا .

وكذلك نص كتب السدة على أن النبي عليه السلام اشترى من يهودي طعاما - عشرين صاعا - بثمن مؤجل ، ثم رهن عند اليهودي درعه على ذلك الثمن . وفي ذلك ما روى الترمذي متصلا بابن عباس رضى الله عنهما قال : توفي النبي صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة بعشرين صاعا من طعام أخذه لأهله ،

فهذا توثيق بالرهن كما كان بالكتابة . وكذلك روى ابن ماجه أنه عليه السلام ضمن غيره في معاملات مالية ، وحكى ما رواه عن ابن عباس رضى الله عنهما ، أن رجلا لزم غريبا له بعشرة دنانير على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال العريم : ما عدى شيء أعطيك ، فقال : والله لا أفارقك حتى تقضيني أو تأتيني بحميل

- ضامن - فجره الى النبي صلوات الله عليه ، فقال له النبي عليه السلام : كم تستظره ؟ قال : شهرا ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما أحمل - أضمن - الخ ، .
وإن تكن هذه توثيقاته من نفسه عليه السلام ، فقد كانت لأصحابه توثيقات لم ينكرها عليهم ؛ ومن هذا القليل - وهو كثير - ما حكاه النعمان بن بشير من قصة أمه مع أبيه ، إذ رغبت أمه الى أبيه بشير أن يخص ولدها النعمان بشيء من عقاره ، فلما استجاب لرغبتها طلبت اليه توثيقا من نفسه بإشهاد الرسول على هذا التخصيص ، غير أن الرسول صلى الله عليه وسلم سأل بشيرا : هل كل ولدك أعطيت ؟ فقال بشير : لا ، فامتنع من الشهادة على هذا التصرف لما فيه من حرمان لبقية أولاده . ولم يكن الاستيثاق في ذاته موضع اعتراض من الرسول عليه السلام . وهذه قصة مشهورة .

فهذه صور من التوثيق في المعاملات ؛ بعضها بالكتابة ، وبعضها بالرمز ، وبعضها بالضمان ، وبعضها بالشهادة ؛ كما كانت للرسول في كثير من الشئون توثيقات بالحلف تجاوزت ثمانين موضعا ، على ما حكاه ابن قدامة الخليل وابن القيم ؛ كقوله : والذي نفسي بيده ، والذي بعثني بالحق . وقد مر بنا قوله لسعد وسعد : والله ما أصنع ذلك إلا لأنى رأيت العرب قد رمتمكم عن قوس واحدة . . . الخ .

فإذا أفادتنا تلك الأمثلة ونحوها مشروعية التوثيق لحكمة أجلاها قبل ، وسفصلها بعد ، فهي تفيدنا أن كل نوع منها على حدته ثابت عن الرسول عليه السلام ، ولا يضير ما عدم التحديد في كل منها للسنة أو الشهر ، وإنما يعوزنا التحديد أن لو كان هناك تعارض بين ما يثبت وينسى ، وليس في شيء مما ذكرنا تعارض ، ولا في شيء منها ريب ، ولم يكن يجمع هذا من محاولة الوصول الى معرفة الترتيب الزمني بين هذه التوثيقات في صدورهما عن الرسول ؛ غير أن الإطالة في ذلك لا تجدى الفارى كثيرا ؛ وحبه أن يقف بعد هذا المطاف على أن كل نوع مما ذكرنا ظل تشريعا قائما لم يفسخ منه شيء ، كما بقى التوثيق بالحلف والتوثيق بالبينه وبالإقرار ، وبالقراش ، لم يطل منها شيء ، ولم يكن الابتداع منها في شيء . قل هذه سبيل أدعو الى الله ، على بصيرة أنا ومن اتبعني ، وسبحان الله ، وما أنا من المشركين ، ولنا عود إن وفق الله سبحانه ؟

المحتسب في أيام الدولة الفاطمية

لحضرة الأستاذ الدكتور عطية مصطفى مشرفه

— ١ —

القضاء وإن سبق الحسبة في الظهور ، وكان منذ ولادته عظيم الشأن موفور الكرامة منتمياً بجلال الملك ومظهره ، لأنه يد صاحب التاج والصولجان - إلا أن الحسبة كانت وليدة عاطفة نبيلة في الهبة الاجتماعية أيضاً . لقد عاشا منذ ظهورهما سوياً ، وتوثقت الصلات المتينة والعلاقات الشريفة بينهما ، وتكونت منهما دعامة قوية لميكال العدالة ، تعنى الطريق وتنشر الضياء للفرد لانتباع المثل العليا . نعم يحتاج القضاء بطبيعته الى الأمانة والتدقيق في الحكم ، كما تحتاج الحسبة الى المروعة ؛ ولكن كل هذا لا يقلل من قيمتهما اذا اجتمعا معاً في يد واحدة ، كما كان يحدث أحياناً .

ووظيفة الحسبة من الوظائف الدينية الهامة ؛ لأن قوامها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وغرضها الإصلاح بين الناس الذي هو فرض على القائم بأمر المسلمين ؛ وهي مشتقة من قولك حسبك ، بمعنى اكف ؛ والمحتسب يكنى الناس مؤونة من يخسهم حقوقهم ، ويعمد عنهم الظلم ؛ وهي تستند الى الكتاب الكريم والسنة الشريفة ؛ فقد قال تعالى : « ولئن كن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » . وقال عز وجل أيضاً : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » . وقال عليه الصلاة والسلام : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » . وقال أيضاً : « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، أو ليعصمكم الله بعذاب من عنده » .

ولما كانت الحسبة كما رأينا أمراً بمعروف ونهياً عن منكر وإصلاحاً بين الناس ، وجب أن يكون المحتسب قسماً عارفاً بأحكام الشريعة الفراء التي سيأمر

ويبغى بتعاليمها، عميقاً عن أموال الناس، متصفاً بالاخلاق الفاضلة والصفات الحميدة، لا يكون قوله مخالفاً لعملة؛ لأن في انصافه بكل هذا وبغيره من الصفات الحميدة صوناً لعرضه، وتميزاً لهيبته، وبعداً له عن الشبهات؛ لذا كان المحتسب أيام الدولة الفاطمية من، وجوه المسلمين وأعيان المعدلين، فكان يراعى في اختياره التقوى والصلاح والورع، وحسن الإيمان بالله، حتى يملأ وظيفته الدينية الجليلة الشأن الرفيعة المنزلة؛ وأن يكون مسلماً حراً بالعملاً قادراً، وشيخاً رافقاً ولين القول، وطلاقة الوجه وسهولة الاخلاق، وأن يكون مواظباً على سنن الرسول صلى الله عليه وسلم من، قص الشارب، وتقليم الأظفار، ونظافة الثياب وتقصيرها، والتعطر بالمسك.

وكان يقرأ بحمله ويحلق عليه في المسجد الجامع على المنبر. وكان المحتسب إلى أول عهد الفاطميين سدياً، فأقاله جوهر قائد المماليك الذين اتفقوا على أن الفتح وعين مكانه رجلاً من المغاربة في ربيع الثاني سنة ٣٥٩ هـ (٩٦٩ م) هو سليمان بن عشرة. وكانت يد المحتسب موطنة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يحال بينه وبين مصاحبة أداها، يؤازره السلطان، إذا احتاج إلى المؤازرة، ويساعده إلى المظالم، إذا احتاج للمساعدة، وتقوم الشرطة، بتنفيذ أحكامه إذا لجأ إليها، ولم يكن عمله حسبة لوجه الله، بل كان يتقاضى ثلاثين ديناراً^(١) شهرياً. وكان ديوان المحتسب متصلاً بديوان القاضي، ويجلس بجامعي عمرو والأزهر. ولما كانت الحسبة من قواعد الأمور الدينية، فقد تولاهما في العصر الفاطمي بعض الأئمة، كالحاكم بأمر الله مثلاً، بأنفسهم، لعموم صلاحها، وجزيل ثوابها. ولقد تولى الحسبة الوزير بنفسه، كما تولاهما يعقوب بن كلثوم سنة ٣٦٣ مثلاً، وأسندت أعمال الحسبة أحياناً إلى، متولى الشرطة، بمصر والقاهرة، وإلى القضاة معظم أيام الفاطميين بمصر.

وكان المحتسب يتخذ لكل أهل صفة عريفاً عن شهرته بالقوى والصالح، خبيراً بصنائعهم، بصيراً بعتشهم وتدليسهم، مشهوراً بالثقة والأمانة، ليحبره عن سلمهم وبصائعهم، ويبلغ جودتها وردائتها، وأسعار أثمانها، ليوقف على كل صغيرة وكبيرة فيها. ولا عمرو فالتبني عليه الصلاة والسلام يقول ما معناه: استعينوا على

(١) يسلمى الدينار ٦٠ قرش تقريباً.

كل صنعة بصالح أهلها . ومع ذلك فقد اندس بين العرفاء بعض أصحاب الدم الخربة والرموس الخالية من الحكمة والتدبير ؛ فيحدثنا المقرئ (١) بأن عريفاً خنق على خباز من أرباب صنعه ووكّل به عوزين من الحسبة أغرماء عشرة دراهم ظلماً ، فلما مر قاضى القضاة استغاث الخباز به ، فأحضر المحتسب وأنكر عليه ما فعل بهذا الخباز ، فذكر أن العادة جرت باستخدام عرفاء في الاسواق على أرباب البضائع وأنه يقبل قولهم فيما يذكرونه ، فأحضر قاضى القضاة عريف الخبازين المنسب لهذا الضرر وصرفه عن العرافة بعد أن عوض المجنى عليه نقوداً .

أى أن المتظلم من المحتسب كان يلجأ إلى « قاضى القضاة » الذى كان له أن يحضر المحتسب ليحاسبه على فعله مع الرعية .

كما نستنتج كذلك من هذا النص أن العقوبة التى كانت توقع من المحتسب على المخالف ، كانت إما عيماً سواء بالنهى أو الوعد أو الإذار أو الردع والزجر والتعزير والتأديب بالسوط والدرّة وغيرها من أنواع العقوبات ، أو قدما بتوقيع الغرامات . وللمحتسب أيضاً مصادرة وإعدام الأشياء العاسدة والمحرمة ، وغلق الخانات ؛ فله أن يريق اللبن المعشوش ، وأن يحرق الطعام المحتكر بالنار ، وأن يكسر أوانى الخور ، وأن يرمى الطعام الفاسد على المزابل خارج البلد أو يعدمه .

وكان كمصاحب الشرطة ينفذ العقوبة بنفسه ؛ فإذا عثر مثلاً على شارب الخمر جلده بالسوط ثمانين جلدة موزعة على كتفيه وإليته ؛ وهكذا يفعل فى حدود الله الأخرى (٢) . وقد يأمر شاهد الزور بركوب دابة وهو مقلوب مسود الوجه .

ويقوم المحتسب النواب عنه بالقاهرة ومصر وسائر الأقاليم ليقوموا نيابة عنه بكل هذه المهام ؛ فكان كالنائب العام فى زماننا يدفع بوكالاته فى الجهات المختلفة لينوبوا عنه فيما يعرض لهم من أعمال ، ويختارهم من أصحاب « المعة والصيانة والنهضة والشهامة » لأنهم عيونه الذين بهم يتمكن من معرفة الاحبار وأحوال السوق ، وكان له أن يؤدبهم إذا أخطأوا ٢

(يتبع)

(١) كتاب إنانة الأمة بكشف الغمة ص ٩١ [٢] وعلى ذلك فقد اشترك مع صاحب الشرطة فى ذلك ، كما كان عمله أحياناً خليطاً من اختصاص « القاضى » و « قاضى المطالم » ، ولكن حكمه لا يتوقف على روع الدموى إليه لأنه واجب على كل مسلم قادر ولأنه لا ينظر إلا فى المسائل البسيطة الواضحة التى يظهر منها الحق جلياً .

طرف من مقاصد القصص القرآني

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ الطيب حسن النجار

المدرس بكلية أصول الدين

نزل القرآن الكريم ، على قلب رسول كريم ، تفجّر منه أنهار الحكمة ، وتسيل منه أسرار السكون وينابيع الرشاد ، ينير البصائر ، ويذكي القرائح ، ويرشد السالك ، ويهدي للتي هي أقوم .

يحمل بين تضاعيفه وثناياه ما يبدد حجب الظلمات المتكاثفة ، ويشرق على النفوس فتصفو وتسمو ، وعلى العقول فيذكرو جوهرها ويسفل ، ويتسع أفقها ويعظم ، ويؤيد النبي محمداً صلى الله عليه وسلم في دعواه أنه رسول رب العالمين .

أهاب بالخلق أن يعصموا بحبل الله المتين ، وأرشدوا إلى تجنب مواطن الزلل الذميمة ، وضع للحق أعلاماً لا تخفى ولا تشبه ، وبني له مناراً لا ينظم ولا ينهدم .

قَصَّ من قصص الأنبياء والمرسلين ومن أنبياء الأولين ما كشف الضاع وحسر اللثام عن العبرة التي تتألق في عقدها ، والعظة الحسنة التي تنهّدي بين سطورها ، فتضي على النفوس ألواناً من الصفاء واليمن ، والخير الذي يطارد الشر حتى يصصره ويحتل مكانه ، وعلى القلوب أشكالاً من الخصب والازدهار والمعارف التي تمصف بالجلل فتطوح به في القفار والمباهم . ولا غرابة أن تستحيل بعد ذلك مرآة صافية تترامى فيها الحكمة الشاردة ، والصور الطريفة .

ولما كانت القصص تحمل بين طياتها المعجائب والأسرار ، وتحتوي على المواعظ والحكم والفوائد والعبر ، اشتمل القرآن الكريم على الكثير منها .

فراياها لا تنفد عند حد ، ومقاصدها التي تهدف إليها لا يحصها عد ؛ فكلما كرت الغداة ومر المشي ، واستبحر العمران وزخر العلم ، ظهرت في الآفاق آيات بينات ، وأعلام شاهدة ، ومقاصد سامية ، ومصالح قيمة يدركها أولو الرأي السديد والبصيرة النافذة من ثناياها ومن بين آياتها .

وحسبها أنها تحكي أمورا كانت مجالا للاخذ والرد والقبول والصد ، وميدانا يتنافس فيه السابقون ويحجم عنه الخاسرون ؛ كانت لها نتائج وآثار وقعت بين

أناس شاهدوها وعرفوا أطوارها، وما كان لها من بالغ الأثر: ما بين طيب مستع، وما بين مر المذاق: ما بين جميل محمود وما بين قبيح مذموم: ما بين من كان ذا حظ عاثر ونجم آمل، وما بين من كان سعدة ييمونا وبجره لائحاً.

لحكاية مثل هذا بلا شك يصور المعقول في صورة المحسوس، ويبرز خفيات الأمور، ويكشف القباب عن الحقائق فتظهر سافرة ترشد على نفسها بنفسها لا يفتشها ما يحجب جبينها الوضاح.

لذلك كانت القصة أخت المثل في أنها أطف دريعة إلى تسخير الوم للعقل، وأقوى وسيلة إلى تفهيم الجاهل العي وقع سورة الجاحم الآبي: فهي تجعلك تعيش في ذلك الجو وبين تلك البيئة حتى كأنك فرد من أبناء ذلك العصر الذي وقع فيه المحكي: تشاهد ما يشاهدون، وتذكر ما يدركون، وتلمس بيدك نتيجة ذلك الأمر ومعبته، وتراه تحت مواقع نظريك ماثلاً بين يديك، تعرف خيره من شره، وأربه من شربه، وطيبه من غته، وصحيته من مريضه، وسليحه من سقيمه. وإن في ذلك لآثراً بالغاً في النفس، يهديها إلى رشدها، ويحجبها عن أخطائها، ويلهبها جوارها وهواها. ومن هنا يجدر بنا أن نورد طرفاً من مزايا القصص وفوائده، هي قل من كثير، ويسير من كثير.

فأنت إذا ما طرق سمعك قصة آدم عليه السلام، وعلت أطوار حلقه، وأنه خلق من صلصال من حمأ مسنون، ثم نفخ فيه الروح فصار بشراً سوياً يسمع ويبصر، ويدرك ويعلم ما يعجزه الملائكة الروحانيون، مع ما خلق عليه من جلال ووقار وجمال للصورة... فأنت إذ تسمع تلك القصة في ذلك القالب الساحر الذي أفرغت فيه، أخذت عليك حواسك ومشاعرك، وجعلتك تعيش بين كنفها وفي أحضانها: وإذ ذاك بلا شك تدرك أن هذه الآية لا تكون نتيجة الصدفة ولا الطبيعة، وإنما هي أثر من آثار قدرة حكيم، وفبض من فبوضات مدبر عليم، لا يشاركه في تديره سواه، تزه هن الند والشيء، وتفرد بالملك والتصريف. وكمن من آيات في القصص القرآني نصبها الله تعالى للاستدلال على كمال قدرته وتفرد بالالوهية.

وإذا ما استقصيت القصص القرآنية للأنبياء والرسل، عليهم صلوات الله

وسلامه ، وتبعتها ، رأيتهن قاطبة يدعون إلى توحيد الله وعبادته ، والإيمان
 باليوم الآخر ؛ فكل شريعة تأتي مؤيدة لما قبلها ، ومقررة ما دعت إليه من
 العقائد الصحيحة ، ومكارم الأخلاق وأمهات الفضائل ، قال الله تعالى :
 « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » .
 وقال الرسول صلوات الله عليه وسلم : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .
 وقال تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك
 وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » .
 أى شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ومن بعده من أرباب الشرائع
 وأول العرائم من مشاهير الأنبياء عليهم السلام . وتخصيص هؤلاء بالذكر
 إنما هو لعلو شأنهم ، وإلا فإنا نبي إلا وهو مأمور بما أمروا به من التوحيد
 ودين الإسلام ، وما لا يختلف باختلاف الأمم وتبدل الأعصار من أصول الشرائع
 والأحكام ، كما ينفي عنه التوصية ، لأنها معربة عن تأكيد الأمر والاعتناء بشأن
 الأمور به الذى بينه تعالى بقوله « أن أقيموا الدين » الذى هو توحيد الله وطاعته
 والإيمان بكتبه ورسله ويوم الجزاء . وسائر ما يكون به الإلزام مؤمرا . وإن
 فى التعبير بالإقامة ما يرشد إلى وجوب تحقيق أركان الدين ودعائمه على وجه
 الكمال والمحافظة عليه من أن يقع فيه زيغ أو انحراف . ثم نهى عن التعرق فيه
 بقوله « ولا تتفرقوا فيه » أى لا تكوبوا فرقا يخالف بعضكم بعضا فى الدين الذى
 هو عبارة عما ذكر من الأصول دون الفروع المختلفة حسب اختلاف الأمم
 باختلاف الأعصار ، كما ينطق به قوله تعالى « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » . وإن
 اتفاق جميع الشرائع فى الأحكام الاعتقادية مع تطاول الزمن وتبدل العصور
 لجدير بأن يعطيك صورة ناطقة بصدق رسل الله وأنبيائه وصحة ما دعوا إليه من
 التوحيد إخراجا للناس من الظلمات إلى النور ، ومن الضلالة إلى الهدى ، وصعودا
 بهم إلى مراتب المعرفة التى تتجهم من العذاب الآليم .

ولأنك ترى فى ثنايا القصص القرآنى ما قام به أنبياء الله ورسله من بذل
 منتهى وسعهم ، وتفانيهم فى ميدان الدعوة إلى الله وسيله ، لا يرجون من أهمهم
 جزاء ولا أجرا ؛ وإنما يلغون رسالة تحملوها ، ويؤدون أمانة اختيروا لها ،
 يتغنون رضوان ربهم ، ويرهبون سلطانه . فن قصة نوح عليه السلام

«ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله وما أنا بطارذ الدين آمنوا
إنهم ملاقو ربهم ولكني أراكم قوما تجهلون . ويا قوم من يصرني من الله إن
طردتهم ، أفلا تذكرون . »

وإن بذل الوسع والتفاني في سبيل الحق لمن أسمى المقاصد وأنبل الخلال
التي يحذر بكل دى لب سليم أن يتحلل بها ويتشع وشاحها .

تري في القصص القرآني مبلغ احتمال الانبياء الأذى وصنوف لمكاره ،
وسفاهة المعاندين : وما كان ذلك يشيهم عن تبليغ رسالة ربهم ويوهن من عزائمهم .
فن قصة نوح عليه الصلاة والسلام ، وقال الملائكة الذين كفروا من قومه
ما نراك إلا بشراً مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراد لنا بآدى الرأى وما نرى
لكم عليا من فضل بل نظكم كاذبين ، بل كان ذلك يزيدهم ثباتاً وجلادة وتسفيها
لأحلام المعاندين ، غير مباليين بما يلحقهم من ملات وشدائد ، ويحيط بهم من تكييل
وتعذيب . يتجلى ذلك فيما يحكيه الله عن سيدنا إبراهيم عليه السلام ، قال :
« أتعبدون من دون الله ما لا يفعلكم شيئاً ولا يضرهم : أف لكم ولما تعبدون
من دون الله أفلا تعقلون ، فكان من طغيان القوم وتعاليمهم في الظلم والفساد
ومن طمس البصيرة أن قالوا : حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . فأوهم
ذلك من عزيمته ولا ثناء عن المضي فيها يدعو اليه ، حتى ألقوه في نار تافى جمعوا
لها الأحطاب والوقود بكل ما أوتوا من قوة ، وأسعروها بيد أثيمة وقصد حيث
حتى امتدت ألسنتها واندلع لهيبها وتأججت جذوتها ، وأفمرت فاهما تلهم اليابس
والأخضر وثاقى على كل ما يقع في شباكها ويقف في طريقها ، لا ترحم صغيراً
ولا كبيراً ولا حجراً ولا مدراً بل يصطبغ ذلك بصبغتها ومطبخ بما هيته ، فيزيد
نارها ناراً وجذوتها تظلياً وتسميراً : ولكن حراسة الله وغنايته بمن له دعا
إلى عبادته وتوجيهه أحبطت أعمالهم ، وخيبت آمالهم ، فكانت برداً وسلاماً
على إبراهيم .

وإن في ذلك لتسلياً لخاتم النبيين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وحضناً على
الثبات والتجلد في سبيل نصرة الحق والدين ونصر الله وتأنيده للمخلصين من عباده

ما داموا في نصرة دينه ، وخذلان الطاغين وكيبتهم ما داموا في حمايتهم سادري :
 « ولما جاء أمرنا بجيا شعيا والذين آمنوا معه برحمة ما ، وأخذت الذين ظلموا
 الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين ، كأن لم يموتوا فيها ألا بُعْدًا لِلَّذِينَ
 كَانُوا يَعْبُدُونَ . »

يرشد القصص القرآني إلى مبلغ ما كان عليه أنبياء الله ورسله من الخلق الكريم
 والأدب العالي ، فتأسى بهم ، وتبجح سيئهم ، وتوسم خطاهم . فما هو ذا هود
 عليه السلام قد دعا قومه إلى توحيد الله وما فيه اليأس والخير لهم ، فقالوا له : « إنا
 لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين ، فأجابهم بقوله : يا قوم ليس بي سفاهة
 ولكني رسول من رب العالمين ، أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين . »
 فانظر كيف قابل سفاهتهم بحجة ، وطيشهم بكامل عقله ، وضلالهم بإسداء خالص
 الصبح لهم . وإن هذا ليهدي إلى التحلق بحلق الحلم وكظم العيظ ، ومقابلة السوء
 بالفضل والإحسان ، ولا يجعل النفس ثور وتسترسل عند إغضاها ؛ ولذلك يمدح
 الله تعالى نبيه بقوله : « وإليك لعل خُلُقٌ عظيم . » فيما رحمة من الله لنت لهم
 ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك . » فن اتصف بصفة الحلم
 ملك قلوب الناس وانقادوا له ، وأمن على نفسه من شرورهم ، وتيسر له الاستيلاء
 على مشاعرهم وتهذيب نفوسهم ، وتطهيرها من الأضغان والآفات .

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسان إحصان

يرشدا القصص القرآني إلى أنه لا دافع لقضاء الله ، ولا مانع من قدره ، وأنه
 تعالى إذا قصى للإنسان بخير فلن يستطيع أحد منع ذلك ودفعه ، وأنه تعالى
 هو الذي يلتجأ إليه عند الابتلاء والمحن ، وأن الصبر مفتاح الفرج . ينجلي ذلك
 بصورة واضحة لكل ناظر في سورة يوسف عليه السلام : طلب إخوته من أبيهم
 أن يرسله معهم يرتع ويلعب وهم له حافظون ، وفي الوقت نفسه قد أجمعوا أمرهم
 على التخلص منه ليخلو لهم حب أبيهم وإقباله ، ورغما من توجس أبيهم خيفة على
 يوسف أن يكيدوا له كيدا وقوله لهم : « إني ليجزئي أن تذهبوا به ، فقد أسله
 إليهم ، ووقع ما كان يخافه ويحذره . ألقوه في غيابات الحب في غير رحمة وشفقة ،

فأطلت عليه رحمة الله تَوَّسَّه في جبهه ، وتحميه من كل ما عسى أن يكون من بأس وضر ؛ وما إن التفطنته السيارة واعتز في بيت العزيز حتى ابتلى في ذلك البيت بامرأة العزيز ، فشغفها حبه ، ثم توعده قائلة : لئن لم يفعل ما أمره ليسجن وليكون من الصاغرين ، فلجأ الى الله وحده قائلاً : رب السجن أحب إلي مما يدعونني اليه ، وإلا تصرف عني كيدهن أصحب إليهن وأكن من الجاهلين .

حسن في السجن فأعز الله شأنه وأعلى قدره ، وتملك مصر بعد أن كانت تظنه عبدا لها ، وجعله على خزائن الأرض ، ومكن له فيها ، وآتاه الملك وعلمه تأويل الأحاديث . وكذلك مكنا يوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء ، نصيب برحمته من نشاء ، ولا نضيع أجر المحسنين ، وجمعه مع والديه وإخوته على ما أحب بعد طول المدة وبعد الشقة ، ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا ، وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا ، وإن في ذلك لعبرة لكل ذي لب ، وحكمة سامية ، وآية صادقة على أنه تعالى مالك الملك يؤتي الملك من يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، بيده الخير وهو على كل شيء قدير ، وأن الصبر مفتاح الفرج ، وأن مع العسر يسرا . لقد كان في قصصهم عبرة لأولئ الألباب ، ما كان حديثا يُفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء . وهدى ورحمة لقوم يؤمنون .

تقدير البيان

قال أحمد بن مطير : أنشدت عبد الله بن طاهر أياتا كنت مدحت بها بعض الولاة وهي :

له يوم يؤس فيه للناس أوس	ويوم نعيم فيه للناس أنعم
فيقطر يوم الجود من كفه الندى	ويقطر يوم البؤس من كفه الدم
فلو أن يوم البؤس لم يثن كفه	على الناس لم يصبح على الأرض محرم
ولو أن يوم الجود فرغ كفه	لبدل الندى ما كان بالأرض معدم

فقال لي عبد الله : كم أعطاك ؟ قلت : خمسة آلاف . قال : فقبلتها ؟ قلت : نعم ، قال لي : أخطأت ، ما ثمن هذه إلا مائة ألف !

اتق الله وتوكل عليه

لفضيلة الأستاذ الشيخ حسن حسين
المدرس بالأزهر

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تَطْعَمِ الْكَاثِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ، إِنْ أَقْبَلَ كَانَ عَلَيْكَ حَكِيمًا .
وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، إِنْ أَقْبَلَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا . وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ
وَكُنْ بِأَلَدًا وَكَلِيمًا . »

لما أمر الله سبحانه وتعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم في آخر سورة
السجدة بالإعراض عن الكافرين بقوله تعالى : « فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرِ لَهُمْ
مَتَّظِرُونَ ، نَاسِبٌ أَنْ يَفْتَحَ سُورَةُ الْأَحْزَابِ بِأَمْرِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالتَّقْوَىٰ ،
وَالْهَيِّ عَنْ إِطَاعَةِ الْكَافِرِينَ فَمَا يَعْرِضُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْاِقْتِرَاحَاتِ الَّتِي تَتَنَافَىٰ مَعَ
التَّوْحِيدِ وَمَعَ أَصْلِ الرِّسَالَةِ وَأَسَاسِهَا ، عَلَى مَا سِيرَ بِكَ فِي سَبَبِ زَوَالِ الْآيَةِ :
لِتَشَابَهِ الْمَقْطَعِ وَالْمَطْلَعِ . »

وجميع التَّدَاوَاتِ الصَّادِرَةِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ جَاءَتْ مَطْرُودَةً عَلَىٰ وَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ ، فَهِيَ مَنْصِبَةٌ دَائِمَةٌ عَلَىٰ وَجْهِهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالنَّبُوءَةِ وَالرِّسَالَةِ ، وَلَمْ يَصْدُرْ نَدَاءٌ وَاحِدٌ فِي الْقُرْآنِ بِاسْمِهِ أَصْلًا ، فَلَمْ
يَقُلْ « يَا مُحَمَّدُ » فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ مِنْهُ ، بَلْ قَالَ « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ » . « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ
لَمْ تَحْرَمْ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ » . « يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ » . . . الخ ،
تَعْظِيمًا لَهُ وَتَشْرِيفًا ، وَتَوْحِيدًا بِفَضْلِهِ وَرَفْعَةً شَأْنَهُ .

أما في الإخبار فقد ذكره باسمه ، ليعلم الأمة بأن محمداً هو الرسول ، في مثل
قوله تعالى « مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ » ، « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ » ، والدليل على ذلك أن
الإخبار التي لا يقصد بها التعليم لم يذكره فيها باسمه ، بل بوصفه بالنبوة والرِّسالة
كما هو شأن النداء ، في مثل قوله تعالى « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ » . وقال
الرسول يا رب « يَا أَيُّهَا الْأَوَّلِيُّ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ » الخ .

فالأخبار الواردة في القرآن قسيمان : قسم يراد به تعليم الأمة أن محمدا هو رسول الله لأجل أن يدعو بهذا الوصف تعظيما له وتأديبا في مخاطبته ، وهذا يذكر فيه اسمه صلى الله عليه وسلم صراحة ؛ وقسم لا يراد به التعليم لحكمه حكم النداء يذكر فيه وصفه بالنبوة والرسالة . . . أما النداء كله فهو بوصفه لا باسمه كما هلمت . هذا هو الشأن مع صلى الله عليه وسلم ؛ أما بقية الرسل عليهم الصلاة والسلام فقد ناداهم الله في القرآن بأسمائهم : يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد ، يا موسى أقبل ولا تخف ، يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض ، الخ ، دفعا للالتباس والإيهام ؛ إذ لو ناداهم بأوصافهم بالنبوة والرسالة لاشتبه ذلك بنداء محمد صلى الله عليه وسلم . على أنه لا يبعد أن يكون قد ناداهم في كتبهم بأوصافهم تعظيما لشأنهم كما فعل مع الرسول في كتابه ، فكلهم مصطفىون ، وكلهم أخيار ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . وكل ما أردت أن أبينه لك ، أيها القارئ الكريم ، إنما هو أسلوب القرآن في نداء الرسل ، فتكون على بينة من أمره .

ولا يذهب بك الظن أن هذه الآيات التي جعلناها موضوعا لهذا المقال سهلة الدلالة واضحة المعنى ، فهي تدل على أن الله تعالى أمر نبيه بالتقوى ، ونهاه عن إطاعة الكافرين والمنافقين ، وأمره كذلك باتباع الوحي ، وأن يفوض أمره إليه ، لأن الأمر وإن كان يبدو كذلك وأنه سهل يسير ، إلا أنه في الواقع جد خطير . فتعال معي لنفهم نداء البعيد في قوله تعالى : يا أيها النبي اتق الله .

فكلما يعلم أن الله تعالى أقرب إلى النبي وإلى جميع خلقه من جبل الوريد . فلماذا خولف الأسلوب ، ووردت الصيغة بنداء البعيد ؟ وليس هذا خاصا بهذا المقام ، بل هو عام في جميع نداءات القرآن ؛ إذ المنادى فيها كلها هو الله جل شانه ، سواء كان المنادى النبي والرسول ، أم المؤمنين أم الكافرين ، فالكل سواء من هذه الناحية . والجواب : أن مخالفة الأصل لأحد أمور أربعة ، أو لها كلها : (١) عظمة المنادى وهو الله عز وجل . (٢) عظمة المنادى وهو هنا النبي صلى الله عليه وسلم . (٣) الاهتمام بشأن المدعو له ، وهو هنا الأمر بالتقوى واتباع

الوحي والتوكل على الله والنهي عن إطاعة الكافرين والمنافقين ، أو لهذه الثلاثة جميعا ، فإن النكت البلاغية لا تنزاحم ، بل يجوز جمعها . (٤) غفلة المادى وعدم تنبيهه ، وهو لا يصح هنا أصلا ، ولا يصح تقريره ، حاشاء صلى الله عليه وسلم من ذلك ؛ وإذا كنا لا نستطيع تقريره في نداء المؤمنين في مثل قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم ، لرفعة شأن المؤمنين وبعدهم عن الغفلة ، فكيف يسد الرسل صلوات الله وسلامه عليه ؟ إنما يصح هذا في نداء الكافرين في مثل قوله تعالى : « يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون » . وإذا علمت ذلك سهل عليك تقرير المجاز في النداء ، فإن العلماء قد قرروا مجازيته : ذلك لأن « يا » حرف موضوع لنداء البعيد ، فإذا استعمل في نداء القريب كان مستعملا في غير ما وضع له فهو مجاز بلا نزاع ، ويكون المعنى المراد به هو نفس ما خولف الأسلوب لأجله ، أعنى عظمة المادى أو المادى الخ ؛ فهو مجاز مرسل ، أو استعارة تبعية . هذا ويرى بعض العلماء أنها موضوعة بالاشتراك اللفظي لنداء البعيد والمتوسط والقريب ، وعلى هذا الرأي تكون مستعملة في نداء القريب ، استعمال المشترك في أحد معانيه ، فتكون حقيقة ، وتكون القرينة معينة . وقد كثرت النداء في القرآن الكريم بهذه الصيغة « يا أيها » كثرة مستفيضة لما تضمنته هذه الصيغة - على اختصارها - من ضروب البلاغة والروعة والفخامة مما لا يوجد في غيرها . فقد اشتملت على خمسة أنواع من أم ما يقصد بلاغة :

- ١ - تكرر المادى ، فإن أى وإن كانت وصلة لنداء ما فيه أل لتعذر ندائه بغيرها ، فلا يقال يا النبي ، إلا أنه أعطى حكم المادى ، فكأن المادى ذكر مرتين .
- ٢ - الإيضاح بعد الإجماع ، فإن أى مبهم ، والنبي أوضحها .
- ٣ - اختيار لفظ البعيد للدواعى المتقدم ذكرها آنفا .
- ٤ - تأكيد معنى البعد بحرف التنبيه ، وتعويضا عما يستحقه لفظ « أى » من المصاف إليه .
- ٥ - اجتماع التعريفين : التعريف المستفاد من حرف النداء ، والتعريف المستفاد من « أل » في المادى ، وكلها مما يعنى به البلوغ ويقصده .

أرأيت متى أن الأمر ليس سهلاً يسيراً كما تصورت . ولعلك فهمت الآن أن هذه دراسات تفعلك في جميع مواضع الداء في القرآن الكريم .

وأعود بك إلى بيان معنى التقوى ، ومعالجة الإشكال الوارد عليها في هذا المقام : وحاصل الإشكال : أنه كيف يأمر الله تعالى نبيه بالتقوى مع أنه متصف بها فعلاً في أعلى درجاتها وأرفع منارها ؟ فلا يصح أن يكون المعنى على إنشائها لحصولها بالفعل وانصافه بها . قال العلماء : إن المعنى : دارم عليها واستمر ولا قطعها . والأمر بالدوام معبود في الأساليب العربية ، بل وفي القرآن نفسه ، فقد قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل ، فأنت ترى أنه وصفهم بالإيمان حيث أخبر عنهم بأهم آمنوا ، وهو لا يتم إلا إذا كانوا آمنوا بالله ورسوله والقرآن والكتب السماوية ، ثم أمرهم بعد ذلك بالإيمان بما آمنوا به : فالمعنى : داوموا واستمروا . وعندى أن هذا لا يقلع الإشكال من أساسه : لأن هذا وإن صح في شأن المؤمنين ، لا يصح في شأن الرسول صلى الله عليه وسلم لعصمته وعدم عصمته ، فهم يتصور منهم قطع الدوام فيكون أمرهم بالدوام مفيداً معنى تأسيسياً ، أما الرسول صلى الله عليه وسلم فلا يتصور فيه هذا أصلاً لأنه معصوم ، فأمره بدوام التقوى كأمره بإنشائها سواء ، فلا يكون الأمر تأسيسياً . ولذلك حرص بعض كبار المفسرين في هذا المقام على تفسير الأمر بالتقوى ، لا على معنى دوامها ، بل على الزيادة فيها ، والترقي في مدارجها .

ونص عبارة الألوسي : « وقيل الزيادة منها ، فإن لها باباً واسعاً ، وعرضاً عريضاً لا يبال مداه ، اهـ . أما الزمخشري في الكشف فقد جمع بين المعنيين في عبارة واحدة ، ونص عبارته : « اتق الله : واظب هل ما أنت عليه من التقوى ، واثبت عليه ، وازدد منه ، وذلك لأن التقوى باب لا يبلغ آخره ، اهـ .

ومعنى التقوى في الأصل : أن يتخذ العبد لنفسه من ربه وقاية ؛ وذلك يكون بإمتثال الأمور واجتناب المهيئات ، فتفسير العلماء لها بهذا تفسير بلازم المعنى ولها في الاصطلاح معان ثلاثة ، أشار القرآن الكريم لها : الأول : تقوى الشرك وذلك يكون بالإيمان ، وهي التي أشار لها القرآن بقوله « والزمهم كلمة التقوى » .

الثاني : امثال المأمورات واجتناب المنهيات ، وهذا المعنى هو المشهور والمتبادر في الذهن عند الإطلاق ، وقد أشار القرآن الى المعنيين في قوله تعالى في وصف المتقين في أول سورة البقرة : « هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون » .

الثالث : تقوى الله حق تقاته ، وهي التي أشار لها القرآن بقوله : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته » قالوا : وهو أرقى أنواعها لأنه ينصب على أن يصرف العبد جميع أعضائه الظاهرة والباطنة فيما يرضى الله . وهي تقوى خواص الخواص ، فينبغي حمل المعنى ها على هذا ، إذ من أحق به منه صلوات الله وسلامه عليه . وإيثار لفظ الجلالة ها ، اتق الله ، لتربية المهابة ليسارع المخاطب الى امتثال المأمور به .

« ولا تطع الكافرين والمنافقين » :

لما انفقت هذه الجملة الكريمة مع سابقتها في الإنشائية لفظاً ومعنى ، ناسب عطفها عليها بالواو (الوصل للتوسط بين الكالين) . والمعنى : لا تطع الكافرين من أهل مكة والمنافقين من أهل المدينة فيما طلبوه منك ، ولا تقبل لهم رأياً ولا مشورة ، وجانهم واحترس منهم فانهم أعداء الله ورسوله ، وأعداء المؤمنين ، لا يريدون لكم حيراً بل شراً وضيراً ؛ وذلك أن أبا سفيان بن حرب وعكرمة ابن أبي جهل ، وأبا الأعور السلمي من كفار مكة ، قدموا عليه صلى الله عليه وسلم في زمان المودعة التي كانت بينه وبينهم ، وقام معهم من مافق المدينة عبد الله ابن أبي سلول ، ومعتب بن قشير ، والجد بن قيس ، فقالوا الرسول الله صلى الله عليه وسلم : ارفض ذكر آلهتنا وقل لها ترفع وتشفع وتدعك وربك ؛ فشق ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين ، وهما يقتلهم ، فنزلت الآية الكريمة مامية النبي عن إطاعتهم . وهذه هي رواية الواحدى والتعللى . وأخرج ابن جرير عن الضحاك عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : إن أهل مكة منهم الوليد بن المعيرة ، وشيبة بن ربيعة ، دسوا النبي صلى الله عليه وسلم أن يرجع عن قوله على أن يعطوه شطر أموالهم ، وخوفه المنافقون بالمدينة إن لم يرجع قتلوه ، فنزلت الآية الكريمة . وقد ختم الله سبحانه وتعالى هذه الآية ببيان اتصافه بالعلم والحكمة بقوله :

« إن الله كان عليا حكيمًا » :

كالتعليل للأمر والنهي السابقين والتأكيد لوجوب امتثالها ، فأنه تعالى يعلم المصالح والمفاسد ، فلا يأمرك إلا بما فيه مصلحة ، ولا ينهيك إلا عما فيه مفسدة ، ولا يحكم إلا بما تقتضيه الحكمة البالغة ؛ والتأكيد بأن لشرف الحكم ، إذا اتصفه تعالى بالعلم والحكمة أمر مقرر ومسلم عند المخاطب صلى الله عليه وسلم . وإذا أضيفت « كان » إلى الله وصفاته كان معناها الدوام والاستمرار . و « عليا حكيمًا » مبالغا في العلم والحكمة ، وما قيل في العطف السابق يقال في عطف قوله تعالى : « واتبع ما يوحى إليك من ربك » .

على ما قبله ، فالجملته متفقة مع ما قبلها في الإنشائية لفظا ومعنى ، وهو من عطف العام على الخاص ، لأن ما يوحى إلى النبي أعم من الآية الآمرة بالتقوى الناهية عن إطاعة الكافرين . والمعنى : واتبع في كل ما تأتي وما تذر من أمور الدين ما يوحى إليك من الآيات التي من جملتها آية الأمر والنهي السابقة . وإيشار التعبير ما بلفظ « ربك » لتذكير النبي صلى الله عليه وسلم بأن الله الذي رياه على موافق كرمه ومصلحه تدريجيا حتى وصل إلى نهاية الكمال الممكن ، هو الذي أوحى إليه بهذه الآيات ، ففيه إنباض لسرعة الامتثال وتأكيده .

« إن الله كان بما تعملون خبيرا » :

إن الله الذي يوحى إليك خبير بما تعمل ، فروح إليك ما يصلح به عملك . فالخطاب له صلى الله عليه وسلم والجمع للتعظيم . والمعنى : يجب عليك أن تتبع ما يوحى به الله إليك ففي ذلك مصلحتك .

أو الخطاب للكفار والمناقضين ، ويؤيده قراءة « يعملون » بالياء . والمعنى : إن الله خبير بما يعمل الكفرة والمناقضون ، فيرشدك بالروح إلى ما يدع عنك كيدهم وشرم ومكرهم ، فعليك باتباع ما يوحى إليك .

« وتوكل على الله وكنى بالله وكيلا » :

فوض جميع أمورك إليه ، وأسندها إليه جل شأنه ، وكنها لتديره ، وكنى به حافظا موكولا إليه كل الأمور . هذا ، والتوكل على الله باب واسع من أبواب الإيمان ، تكفل ببيان علماء الصوف ، فمن أراد التوسع فيه فعليه بكتبهم . رزقا لله وإياكم تقواه وحسن التوكل عليه . إنه مميح مجيب .

١ - جورج ولهم هيجل

حياته - منهجه - مذهبه في النظام الطبيعي - العقل

لمحاضرة الأستاذ الدكتور أحمد فؤاد الأهواني

امتدت حياته إلى الستين ؛ إذ نشأ في النصف الأخير من القرن الثامن عشر عام ١٧٧٠ ، وتوفي عام ١٨٣١ في النصف الأول من القرن التاسع عشر . ولد في سترجارت حيث تلقى التعليم الأول ، وفي الثانية عشرة التحق بجامعة توننجب Tubingb يطلب اللاهوت ، فنال إجازتها سنة ١٧٩٣ وشهدت له الجامعة بالقدرة والدأب ، ولكنها وصمته بجهل الفلسفة . في الحق لم يكن له ميل إلى دراسة الدين بمقدار ما انصرف إلى الحضارة القديمة حتى أصبح حجة في الفكر اليوناني والروماني . وشغل منصب التدريس في بينا سنة ١٨٠٦ حيث أجز كتابه « ظواهر العقل » ثم في نورمبرج ، ثم في ميديبرج سنة ١٨١٦ - ١٨١٨ ، وأخيراً في برلين سنة ١٨١٨ - ١٨٣١ .

وكان متقلبا لم يثبت على مبدأ ؛ بدأ متدينا بل صوفيا ، وانهى حر الفكر ؛ وكان في شبابه متحمسا لتأيلون ، حتى لقد فرح لاتصاره في وقعة بينا ، ثم انتهى إلى أن يكون من أنصار بروسيا .

ويجمع المؤرخون على وعورة فلسفته . يقول برتراند رسل : إنه أصعب الفلاسفة فهماً . وكتب سترلينج Sterling « سر هيجل » Secret of Hegel يزعم أنه كشف الستار عن فلسفته ومذهبه ، ولكن الإجماع لا يزال منعقداً أنه لم يكشف شيئاً . ولا يزال فكر هيجل لغزاً من الألغاز . ويبدو أن مرجع ذلك إلى نزعة الصوفية في الشباب ؛ تلك النزعة التي صحت مدى الحياة ، حتى أصبحت آراؤه صياغة عقلية لما انكشف له في صدر حياته بطريق الذوق . والدليل على ذلك أن فهمه الأخير للمسيحية متأثر بدراساته الدينية الأولى . فهو يطلب الرجوع إلى المصادر الأولى لفهم آراء المسيح . ولقد كتب « حياة المسيح » فيها

كثير من حرية التأويل لتاريخ نبي المسيحية، مما يتعارض مع آراء رجال الدين السائدة في عصره؛ وأيده في موقفه صديقه شليج.

تعد فلسفة هيجل الذروة التي وصلت إليها المثالية الألمانية، تلك التي بدأها كانت ثم نشته وشليج: ومع أن هيجل وجه سهام النقد إلى كانت إلا أنه لولا ظهور كانت وفلسفته وآراؤه ما ظهر هيجل. كانت إذاً هو نقطة البداية في فلسفة هيجل. فلسفة كانت قامت تناقض هيوم، وفلسفة هيوم هي نهاية البداية في الاتجاه الفلسفي الانجليزي منذ لوك وبركلي. فقد تغير النظر إلى معنى «الجوهر» Substance في المدرسة الانجليزية. كان القدماء يمتقدون في وجود حقيقة ثابتة عند حاملا Substratum لمظاهر الكون، حتى إذا كنا مع هيوم رأينا أنه لا سبيل لنا في كشف هذا «الجوهر» الموجود خلف الأشياء، ومن ثم فلا حاجة بنا إلى البحث عنه. فنهض كانت يرد على هذا الشك وينت في «نقد العقل الخالص» الشروط الضرورية الموصلة إلى معرفة الحقيقة المطلقة. ثم أثبت وجود حقائق تختلف عن المظاهر، سماها «الشيء بالذات» Chose-en soi. ولم تعجب هذه المقالة أتباعه، فعدلوا في فكرة «الشيء بالذات» حتى انتهى هيجل إلى القول «بالمطلق».

جعل نشته الحقيقة في «الخير» والأخلاق، وجعل الكون مظهرًا للإرادة، وعدل عن الوجود. والفلسفة عنده هي الاعتقاد في أن الوجود عدم، وأن الواجب هو كل شيء. واعترض شليج عليه فقال: إن الشيء بالذات هو المطلق، وهو أصل الفكر والمعرفة والعلم، وإن التجربة أساس النظر، وإن النظر الفطري a priori هو منهج الفلسفة.

ورد هيجل على شليج فقال: إن المطلق الذي يذهب إليه كاتليل المظلم الذي يرى فيه جميع البقر أسود اللون. لقد رفض الشيء بالذات أو فكرة المطلق التي تظل خافية عنا أبدًا. بل لقد رفض القول بالحقائق السامية، وطالب بالبحث عن الحقيقة في الحال. أي أنه أخذ بيد المطلق من عالم الطلبة إلى عالم النور.

يذهب هيجل إلى أن الحقيقة من عمل العقل، وأن هناك وحدة في الكون على الرغم من اختلاف التجارب التي نحصلها عنه. ومهمة الفلسفة بيان أن الأشياء ثابتة ومعقولة حين تدركها في مجموع الحقيقة Totalite هذا المجموع أو الكل هو

الذى يسميه هيجل بالفكرة *idée* تارة ، وبالروح *esprit* تارة أخرى ، وبالطلق *absolu* تارة ثالثة . ولكى نصل الى فهم الاشياء يجب أن ندرسها فى علاقتها بعضها ببعضها الآخر . ويجب أن نأخذ فى بالنا دائماً أنه لا شئ يحدث فى عزلة بل الأحداث تسلسل على مر التاريخ وتتطور . معرفة الأحداث الماضية هى المفتاح الذى يلج به باب المعرفة الحاضرة . فالحقيقة فىض دائم متصل من التجارب ، وهذه التجارب المتصلة تخضع لنظام وقانون . أرز حقائق الكون هى ما فيه من نظام وقانون . وهذا التنظيم الذى يمسك أجزاء الكل هو الذى يميز الحقيقة . ومهمة الفلسفة أب تلم بأطراف التاريخ المتصل التطور حتى تدرك منه النظرة الصادقة ، وتحكم على الاشياء فى صلتها بالمجموع .

وهذا يقودنا الى البحث فى أمور ثلاثة :

منطق هيجل والجدل الخاص به ، ومذهب فى النظام الطبيعى ، ومذهب فى النظام الاجتماعى والطلق .

يبدو أنه يعنى بالطلق الميتافيزيقا : والمنطق عنده يختلف عما نعرفه عن هذا العلم . ويرى أن المحمول إذا ارتكاه على أنه يصف الحقيقة كلها ، كان متناقضاً . ولقد صنف كانت المحمولات فى مقولاته المشهورة ، ولكن هيجل يلغى جميع المقولات فلا يستبقى إلا مقولة واحدة إحاسية هى « الوجود ، المطلق . وجميع المنطق القديم يقسم القضية الى موضوع ومحمول ، ويجعل المحمول صفة للموضوع ، وبناء على ذلك فى نظر هيجل ، لا تكون العلاقة بين الموضوع والمحمول حقيقية ، لأنها تتطلب شيئين اثنين ، وهو لا يقر إلا « بالواحد » .

ولنضرب مثلاً فى الجدل : يقول « المطلق وجود محض ، وهو يزعم أنه لا يحمّل على المطلق أى وصف ، بل مجرد وجود الموضوع . ولكن الوجود المحض بعير كيف ليس إلا عدماً ، وهنا تنتقل الى القضية المتعادة *anti thèse* ، وهى « المطلق عدم » ، وننتقل من هاتين القضيتين الى المركب منهما أى من الوجود والعدم الى « الصيرورة » ، فالطلق هو الصيرورة .

كل مرحلة من مراحل الجدل تشمل إذن المراحل السابقة ، ولا تقوم إحداها بنفسها ، بل لها منزلتها فى المجموع أو الكل . ولن نبلغ الحقيقة إلا إذا نفذنا فى جميع مراحل الجدل ، فنعنى القضية وما يضادها ، والمركب منهما .

والمعرفة الكلية تجري في هذا الثالث . فهي تبدأ بالمدرجات الحسية : تلك التي لا نعرفها إلا الموضوعات الخارجية ، ثم تصبح بالكشك وتقد الحواس ذاتية محصة . وأخيراً تبلغ مرحلة المعرفة الذاتية التي لا يتميز فيها الذات عن الموضوع وأفضل انفسكر ما كان سيالا فياضاً متدفقا مداخل ، لا يفصل فيه فصلا حاسماً بين الحق والباطل والخطأ والصواب كما هو شائع معروف . لا شيء باطل على الإطلاق أو صحيح على الإطلاق ، فنحن نعرف أن الشيء خطأ من وجه فقط ، مثال ذلك : لوقنا : أين ولد سقراط ؟ فالجواب عن ذلك يكون صحيحاً لانه يدل على حقيقة جزئية ، أما بالنسبة الى الفلسفة فالحقيقة هي الكل ولا تعنى بالجزء . أما الصحيح فهو المطلق وحسب .

فإذا كان الأمر كذلك ، فليس من الصحيح الاعتقاد بأن الحقيقة هي الطبيعة أو هي العقل ، بحيث نخضع أحدهما لصاحبه ، بل الطبيعة والعقل شيء واحد ، وليس أحدهما متقدما على الآخر ، فالطبيعة هي المظهر المادى للعقل ، ومن هذا الوجه لا نميز بينهما . بذلك قرب هيجل بين عالم الحقيقة ، وعالم المظاهر ، بل واحد بينهما ، ولم يعد هناك داع للتمييز بينهما .

جملة القول . أن جدل هيجل الذي يلتمس الحقيقة في القضية وما يصادها والمركب منها ، هو الذي طبقه على كل ظاهرة في الحياة : في النظام الطبيعي ، وفي النظام الاجتماعي ، وفي النظام المطلق ، مما سوف نتحدث عنه .
النظام الطبيعي :

يعبر المثال أو العكر *idee* عن نفسه في الطبيعة كأنه مادة مختلفة الأحوال ، إنها (الفكرة) عملية ديباميكية لا أول لها ولا آخر ، ولو أن الجزئيات في عالم الطبيعة ترتبط بالزمان والمكان وتحقق وجودها فيها . الشيء بمجموع صفاته ، والمادة بمجموع أحوالها ، وهذا يتلاءم مع مذهب هيجل الذي يلقي الصفات على أنها محمولات لشيء معين . فالعقل يتشخص في عالم الحس ، وعالم الحس هو عالم العقل . وليس لنا أن نميز كذلك مبدأ محرّكا فاعلا يحدث الأشياء ، لأن جميع الأشياء ، واحد ، وهذا الواحد من عمل العقل الذي تطور خلال الأزمنة وامتد ونما لحقق ذاته الباطنة . لا شيء في الطبيعة يموت ، ولا شيء يفنى ، ولا شيء ليست له دلالة في مجموع الحقيقة . وإذا كان لنا أن نستقي فكرة الجوهر ، فلا بد

أن نعدل عن تصورهما امتداداً حاملاً للصفات . هذه الفكرة التي تسود أغلب الأديان ، والتي تفصل بين الخالق والمخلوقات ، وتجعل الله مبدعاً بمسكاً للكون ، ليست لها مكان في فلسفة هيجل ، ولا يمكن كذلك أن توجد نفس مفارقة في جوهرها وطبيعتها لسائر الأشياء : ليس في الكون إلا الطبيعة ، والطبيعة هي الكون المنظور .

والطبيعة كلّ تماسك الاجزاء ليس فيه جزء مفصل ، بل كل حادثة متصلة بغيرها على الرغم من سعة السلسلة التي تربط بينها وكثرة عددها وتقادم الزمن الفاصل بينها . كل حادثة هي ماض وحاضر ومستقبل من حيث إنها تتصل بأحداث ماضية وتنبئ عن أحداث مستقبلية ؛ فالطبيعة كل حيوى دائم التعبير ؛ وفي هذا الترتيب تصبح كل حادثة سبباً ومسبباً في آن واحد ، بمعنى أنها مسببة عن غيرها ، وسبب لما بعدها . مثال ذلك أن الدولة تقوم على أخلاق الشعب ، ويعتمد الشعب أخلاقه من الدولة ، أى أن الأسباب والمسببات متداخلة دائرة ، لا تجري في خط مستقيم ؛ وحيث كان الأمر كذلك ، وكانت الأسباب دائرة ، فقد حيل إلى هيجل أنه يستطيع أن يهرب من الحتمية Determinism التي يخضع لها العلم والمذاهب الفلسفية التي تدين بالسيئة . ليس إداً هناك حادثة هي العلة المصلحة في غيرها ، وليس في الطبيعة ونظامها إلا نسبية ، لأن المطلق لا يوجد إلا في النظام المطلق . ويتخذ الكون شكله خلال التطور المحسوس للعقل . نستطيع أن نقول : إن الكون مظهر للمطلق في نظام من الزمان والمكان . فكل شيء يشغل جزءاً من المكان ومدة من الزمان . فإذا برزت الأشياء الطبيعية اتخذت في نموها ثلاثة أنماط : النمط الميكانيكى Mechanism ، والطبيعى Physique ، والمعضوى Organique . تتطور الفكرة idea أول كل شيء فنخرج الاجرام السماوية المركبة في المادة والتي تخضع لمقاييس الكتلة والجاذبية والحركة ، وعلم الفلك هو الذى يختص بهذا المرحلة في التطور ، ثم تبرز الصفات المميزة للمادة ، وهى صفات متضادة تنفض إلى الانفصال والاتصال والجذب والدفع . هذه التغيرات الباطنة والظاهرة يختص بالفحص عنها علم الطبيعة والكيمياء ، وفي هذه المرحلة لا تزال الأشياء الطبيعية تحتاج في قوامها إلى غيرها : لأن الحياة لم تظهر بعد . ثم تنفض هذه التغيرات الكمائية إلى المرحلة الثالثة ، وهو العالم العضوى . هذه المرحلة

تمتاز بالحياة ، والذات Subject والموضوع Object ، وتبلغ الحياة العضوية أعلى درجاتها في الإنسان ، وقيل ذلك نجد مرحلتين حيويتين : النبات والحيوان ، أو عالم النبات وعالم الحيوان . أما الإنسان فإنه آخر ما تبليه الطبيعة ، ويمتاز الإنسان بالعقل ، والشعور بالذات ، والحرية ، ولا فرق بين العقل والشعور والحرية ، ولا بين ذات مستقلة ، وبين صفات تنصف بها هذه الذات . ليس هناك إلا أوجه من النشاط هي كل ما يبدو من الذات أو عين الذات ، ويصبح الإنسان ذرة من المطلق يشعر بذاته . على الجلة الوجود في الإنسان هو الشعور . فنحن نرى أن التطور في فلسفة هيجل يذهب من الأدنى إلى الأكل ماراً بالمرام ، وهذا على معنيين : معنى مطلق ، ومعنى خلقي ، فعلى المعنى المطلق الكمال في وحدة الكل بغير إجراء منفصلة ، كجسم الإنسان المتصل بالأعضاء ، أو كالعقل المفكر الذي يعد وحدة متهاكة في تفكيره .

وحيث قد بلغنا إلى الحديث عن الإنسان ، فلتنقل بعض فقرات من كتابه في فلسفة التاريخ ؛ يقول : « كل ما استخلصه الفلسفة من النظر إلى التاريخ هو فكرة العقل . هذا العقل هو السلطان الذي يحكم العالم . . . العقل هو جوهر العالم .

« هذا العقل ، أو الفكرة Idea ، هي الحق ، الأزلي ، القوة المطلقة . أما أن العقل ، أو المثال هو الذي يتجلى وحده في العالم فهذه هي القضية . .

وللعقل كذلك تاريخ ؛ ففي البدء كان خليطاً من الإحساسات تشبه ما يوجد عند الأطفال ، الذين لا يميزون العالم الخارجي ويمدون كل شيء ذاتياً . ثم يمي العقل ذاته فيميز بين ذاته وبين موضوعه ، فتتجمع الإحساسات وتكون الإدراكات الحسية الأشياء الخارجية ، ويرتقي العقل إلى مرحلة بلوغ المبادئ العامة والكليات . وكلما ارتقى العقل اكتشف الطبيعة ، وتبين أننا أجراء منها ، ويرى أنها نجد من نشاطه وتقف في سبيل أغراضه . لهذا كان من الواجب أن يدرج في حساب هذه الأمور الطبيعية ، وأن ينظم سلوكه طبقاً لما فيها من حدود . هنا نجد العقل الكلي صراعاً بين إرادات الناس ، ويتبدل هذا العقل الكلي عند ما يكشف الناس وجود آمال ورغبات ومصالح مشتركة ، فيقف الوعي الاجتماعي جنباً إلى جنب مع الوعي الذاتي ، ويتبين الفرد أن مصلحته في صالح المجتمع ، ويتبين الإنسان أنه كائن اجتماعي لا تحقق حرية إلا في المجتمع ؟
« ينتج »

حياتنا

لحضرة الأستاذ السيد .

تجوى الشكيات لا بردُ التعبات
حالي كعابسة الليلات باسمه
ما في ليالي إلا كلُّ عابسة
أصادحُ الروض أم رناتُ باكية
في دمع آسٍ من الشادي مُشاكلته
هي الحياةُ أمان بين لوعاتٍ
عن النجوم دموعٌ في ابتساماتٍ
حتى تضيء بأهاسي وأناقٍ
وطلعةُ الورد أم مُحر الجراحاتِ
ليلٌ بليل ، وآهاتُ بآهاتٍ ۱۱۱

يا طائر الحسن تهديه صباحتُه
شفتُ بالحسن مرأت فتواكبدى
لبت الجلال وكَم يَنصُونه لعباً
تُسائل الشعبُ حرثاتُ سَفكن به
ياشمس ، يا بدر ، حلا كلِّ جانحة
ما أجدد الحسن أن تبدُر فتواته
إلى القلوب فين ظلّ وسجاتٍ
ألا أدوق الأمان في غير مرآتٍ ۱۱۱
لدى الجلال يُناغى في السُّلوات
دمّ المغاف متى كُنَّ البغياتِ
ما أقتن الحسنُ بنواساً لمفكاةٍ
دلُّ المرياتِ في صون الأبياتِ

عشنا نعلل بالآداب آفةً
أستى من العلم يُنضى منه حامله
التبيلُ والجيد قتالان كوتهما
ما للزامة في واديك منزلةً
بعض الخداع فالذي يسوى مراحٍ
واحرق قلباه من بعض التعللاتِ
بعضُ الجهالات بل كلُّ الجهالاتِ
من التبذل حورٌ بين سجاتٍ
بضاعةً تلك فيه جددُ مُرجاةٍ
ولا النبالة إلا في الوجاهاتِ ۱۱۱

العلماء سفراء وقادة

لفضيلة الأستاذ محمود الشرقاوى

كان العلماء في العصر الذي أرخ له الجبرتي (١) يتميزون بميزتين : الأولى : حرصهم على كرامتهم ومكانتهم كرجال دين ، وتشددهم في أمور دينهم ، وزهادتهم في الدنيا وإغرائها ، وانصرافهم الى واجباتهم من إرشاد الناس وتعليمهم ، وإلقاء دروسهم على المجاورين ، في الأزهر ، لا يصرفهم عن ذلك شيء : والثانية : مكانتهم كوسطاء بين الشعب وحكامه تارة ، وبين الممالك بعضها وبعض تارة ، وبين الممالك و « الباشا » الذي كانت ترسله تركيا والياً لها على مصر تارة ثالثة .

ولعل بين هاتين الميزتين علاقة هي السببية والمسببية ، لى أن وجود الأولى كان سبباً لوجود الثانية .

ووجود هذه الصفات قد يكون صادقاً في المجموع وليس في الجميع ، وهذا أمر طبعى .

وفي هذه السنوات الطويلة وما تطوى عليه من أحداث ومن وقائع ، يندر أن نجد خلافاً بين هذه السلطات التي ذكرنا ، أو أن نجد شدة أو حمة يمتحن بها هذا الشعب المصرى — وكثيراً ما كانت الشدائد والمحن في حياة هذا الشعب في ذلك الزمن — إلا وكان شيوخ الأزهر هم الوسطاء في هذا الخلاف ، وهم السفراء عن هذا الشعب ، لرفع مابه من شدة أو حمة ، أو لتخفيف هذه المحن والشدائد على الأقل .

(١) من أوائل القرن الثاني عشر الهجرى الى قرب منتصف القرن الثالث عشر .

يقول الجبرتي في ذكر حوادث سنة ١٢٠٠ : إن الدولة العلية عند ما وصلت إليها أحبار مصر ، وفيها ما كان يقع على أهلها من ظلم إبراهيم بك ومراد بك وأتباعهما من المماليك ، أمر السلطان العساري حسن باشا بالشحوص إلى مصر وتخليصها من استبداد هؤلاء المماليك ، فلما علم الأمراء المماليك بمقدم هذا الغازي وما بعث من أجله ، اتفقوا على إرسال جماعة من العلماء والوجاقية إلى حسن باشا ، فتعين لذلك الشيخ أحمد العروسي ، والشيخ محمد الأمير ، والشيخ محمد الحريري ؛ ومن الوجاقية إسماعيل أفندي الخلوق ، وإبراهيم أغا الورداني ، وذهب معهم أيضاً سليمان بك الشايبوري ، وأرسلوا معهم مائة فرق بن ومائة قطار سكر وعشر بقج ثياب هندية ، وقفاصيل وعودا وغبرا وغير ذلك ، فسافروا في يوم الجمعة ثامن عشر رمضان ، على أنهم يجتمعون به ويكلمونه ويسألونه عن مراده ومقصده ويذكرون له امتثالهم وطاعتهم وعدم مخالفتهم ورجوعهم عما سلف من أفاعيلهم ، ويذكرونه حال الرعية وما توجه العن من الضرر والتلف . . . وفي ليلة الثلاثاء حضر المشايخ ومن معهم من ثغر رشيد ، فوصلوا إلى بولاق بعد العشاء ، وباتوا هناك ، وذهبوا إلى بيوتهم في الصباح فأخبروا أنهم اجتمعوا على حسن باشا ثلاث مرات ، الأولى للسلام فتقابلهم بالإجلال والتعظيم وأمر لهم بمكان نزلوا فيه ورتب لهم ما يكفيهم من الطعام الميأ في الإفطار والسحور ، ودعاهم في ثاني يوم وكلهم كلمات قليلة وقال له الشيخ العروسي : يا مولانا رعية مصر قوم ضماص وبيوت الأمراء مختلطة ببيوت الناس . . . الخ .^(١)

وفي هذه القصة التي نقلنا بعضاً منها بأسلوب الجبرتي نفسه ، يحسن أن نلاحظ أمرين : الأول أن أغلب وفد الوساطة بين المماليك والغازي كان من العلماء ، والثاني أن الذي تصدر للكلام عند مقابلة الوفد لحسن باشا كان هو الشيخ العروسي ، برغم وجود سليمان بك الشايبوري ، وكان من كبار أتباع المماليك . وقد رأينا فيما رويناه من هذه القصة أن الغازي حسن باشا أكرم وفد الوساطة هذا إكراماً كبيراً وفي بقية القصة يروي الجبرتي أن هذا الباشا حمل المشايخ رسائل إلى أهل مصر ليلغوها إليهم .

(١) ص ١١٥ — ١١٨ من الجزء الثاني من الجبرتي ، في حوادث شهر رمضان من سنة ١٢٠٠

وفي بعض الحوادث المثيرة التي كان يقع ظلها الصارخ على د أهل البلد ، كما يقول الجبرقي ، كان بعض هؤلاء العلماء لا يستطيع أن يكرن أقل ثورة من أهل هذا البلد ، ويأتي إلا أن يشاركهم هياجهم وثورتهم ، وعند ذلك كانت الجماهير التي هيجهما الغضب تندفع إلى داخل الأزهر متدفقة من كل صوب ، ثم يصعدون إلى ساراته ومآذه يصيحون ويدقون الطبول ، وكانت هذه إشارة الخطر .

يذكر الجبرقي من حوادث تلك السنة نصها أن أميراً من المهاليك ركب في جده إلى الحسينية فنهب داراً لرجل يسمى أحمد سالم الجرار ، وكان متولياً رئاسة دراويش الشيخ البيومي ، فثار الناس لذلك . . . وحضروا إلى الجامع الأزهر ومعهم طبول ، والنف عليهم جماعة كثيرة من أوباش العامة والجمعية ويأبئهم نيايت ومساوق ، وذهبوا إلى الشيخ الدردير فوثسهم وساعدهم بالكلام وقال لهم . أنا معكم ، نخرجوا من نواحي الجامع وقفلوا أبوابه ، وصعد منهم طائفة على أعلى المنارات يصيحون ويصرون بالطبول ، وانتشروا بالأسواق في حالة منكرة وأعلقوا الحوانيت ، وقال لهم الشيخ الدردير : في غد نجمع أهالي الأطراف والمحارات وبولاق ومصر القديمة ، وأركب معكم ونهب بيوتهم كما ينهبون بيوتنا ونموت شهداء أو يتصرنا الله عليهم .^(١) ثم يروي الجبرقي أن هذا الذي قاله الشيخ الدردير عند ما بلغ إلى إبراهيم بك الوالي بعث كتخداه والمستحفظان إلى الشيخ الدردير يرجوانه أن يكتب قائمة بالمتنوبات حتى ترد إلى صاحبها من حيث تكون .

ويذكر الجبرقي من حوادث شهر ذي الحجة من سنة ١٢٠٩ أن الشيخ الشرفاوى كانت له أراض في قرية بشرقية بليس ، فجاء أهل هذه القرية يشكون للشيخ أتباع محمد بك الاتني ، وأنهم ظلوم وطلبوا منهم من الأموال مالا طاقة لهم به ، فغضب الشيخ الشرفاوى وذهب إلى الجامع الأزهر وجمع المشايخ فأفعلوا

[١] ص ١١٠ من الجزء الثاني ، في حوادث شهر ربيع الأول من سنة ١٢٠٠

أبواب الجامع وأمروا الناس بفتح الحوائط والأسواق، وهذا ما نسميه الآن بالإضراب، ثم ركب المشايخ في اليوم التالي يتبعهم كثير من الناس، قصدوا بيت الشيخ السادات فامتلا بهم البيت، وكان بيت إبراهيم بك مجاورا لبيت السادات بحيث يرى تجصير الساس فيه، وقد عرف ما أعرضهم، فبعث إبراهيم بك من قبله أيوب بك الدفتردار إلى المشايخ. وقد روى الجبرتي في سياق القصة أن الشيخ الشرفاوى أرسل إلى إبراهيم بك هذا وإلى مراد بك بشكوى أهل شرقية بليس فلم يديا شيئا، وكاب هذا هو الذي دفعه إلى جمع المشايخ ودعوة الساس للإضراب.

قال الجبرتي. إن أيوب بك الدفتردار ذهب إلى المشايخ في بيت السادات وسلم عليهم ووقف بين يديهم، وسألهم عن مرادهم، فقالوا له. يريد العدل ورفع الظلم والجور وإقامة الشرع، وإبطال الحوادث والمكوسات التي ابتدعوها وأسدسوها. فقال: لا يمكن الإجابة إلى هذا كله، فإننا إن فعلنا ذلك ضاقت علينا المعاش والغقات. فقيل له: هذا ليس بعذر عند الله ولا عند الناس، وما الباعث على الإكثار من العفتات وشراء الممالك، والأمير يكون أميرا بالإعطاء لا بالاختصاص. فقال: حتى أبلغ، وانصرف، ولم يعد لهم بجواب، وانفض المجلس، وركب المشايخ إلى الجامع الأزهر، واجتمع أهل الأطراف من العامة والرعية، وباتوا بالمسجد، وأرسل إبراهيم بك إلى المشايخ يعرضهم، ويقول لهم أنا معكم، وهذه الأمور على غير خاطري ومرادى، وأرسل إلى مراد بك يخيفه عاقبة ذلك^(١)، ثم جرت بعد ذلك مفاوضات بين المشايخ وبين مراد بك حيث بعث هو إليهم يفادهم، ثم أرسل يطلب أربعة من المشايخ هينهم بأسمائهم، فذهبوا إليه. فلاطفهم واتمس منهم السعى في الصلح، ورجعوا من عنده وباتوا على ذلك تلك الليلة. وفي اليوم الثالث حضر الباشا إلى منزل إبراهيم بك، واجتمع الأمراء هناك، وأرسلوا إلى المشايخ، لحضر الشيخ السادات، والشيخ النقيب، والشيخ الشرفاوى، والشيخ البكرى، والشيخ الأمير، وكان المرسل إليهم رضوان كنتخدا إبراهيم بك، فذهبوا معه ومنعوا العامة من السعى خلفهم، ودار الكلام

(١) ص ٢٧٤ من الجزء الثاني من الجبرتي.

بينهم وطال الحديث ، وانحط الأمر على أنهم (أى المالك ١) تابوا ورجعوا
 واتهموا بمباشرته العلماء عليهم .^(١) ثم يذكر الجبرقي تفاصيل هذه الشروط ،
 ومنها أن يرسلوا غلال الحرمين ، وأن يصرفوا غلال الشون وأموال الرزق ،
 وأن يبطلوا رفع المظالم المحدثه والكشوفات والتغاريذ والمكوس ما عدا ديوان
 بولاق ، وأن يكفؤا أتباعهم عن امتداد أيديهم الى أموال الناس ، ويسيروا في
 الناس سيرة حسنة .^(٢) وكان القاضي حاضرا هذا الاتفاق ، فمكتب به حجة
 ختم عليها ابراهيم بك ومراد بك ، وقرئَ منَ عليها الباشا . وانجلت الفتنة ، ورجع
 المشايخ وحول كل واحد منهم وأمامه وخلفه جملة عظيمة من العامة وهم ينادون :
 حسب ما رسم سادتنا العلماء بأن جميع المظالم والحوادث والمكوس بطلالة من
 مملكة الديار المصرية ا وفرح الناس ،^(٣) .

وبعد أن روينا بشيء من التفصيل هذه القصة ، يحسن لنا أن نلاحظ
 أربعة أمور :

الأمر الأول . هو أن مؤلاء الفلاحين من أهل شرقية بليس جاءوا الى
 الشيخ الشرفاوى يشكون ظلما نزل بهم هم ، وقد يكونون من العاملين في أرض
 الشيخ نفسه حيث يقول الجبرقي : إنه كانت له . حصة . في هذه القرية ، ولكن
 الشيخ لم يجعل من ذلك مسألة خاصة به ولا بأهل هذه القرية ، بل رأى الفرصة
 مواتية للسمي في رفع الظلم عن أهل مصر جميعا ، فسمى سعيه الذي رأيناه وواقفه
 المشايخ على رأيه وسعيه ، فسماوا معه لرفع الظلم وإبطال الحوادث والمعارم عن
 الناس كافة .

الأمر الثانى : أن المشايخ اعتمدوا فأحسنوا الاعتقاد والاستفادة من شعور
 العامة ومن حسن رأيهم في مشايخ الأزهر ، فالمشايخ يسعون لرفع الظلم عن الناس ،
 والناس يحبون المشايخ ويشقون فيهم ، فيتبعونهم وينصاعون لأمرهم ، فهم يغفون
 أسواقهم ومناجرهم إذا طلب منهم العلماء ذلك ، وهم يتبعونهم حيثما ذهبوا ، فإذا
 طلب العلماء منهم أن يتركهم لمفاوضة المالك تركوهم .

(١) ص ٢٧٤ من الجزء الثاني أيضا

(٢) الصفحة السابقة والتي تليها .

(٣) ص ٢٧٥ من الجزء نفسه .

والأمر الثالث : خوف الممالك ، وم أهل البطش والجبروت ، من غضب مشايخ الأزهر ، حتى يصور الجبرقي مقابلة أيوب بك ، وهو واحد من كبارهم ، للمشايخ بأنه كان ، يذف بين أيديهم ويسألم عن مرادهم ، وحتى يتودد كبير من أكبر كبرائهم وهو إبراهيم بك إلى المشايخ فيرسل اليهم من يبلغهم أن هذه المظالم ليست على مراده وخاطره ، ، وحتى يبعث كبيرهم وسيدهم مراد بك إلى المشايخ فيلاطفهم ، ويلتمس منهم السعي في الصلح .

والأمر الرابع : هو سطوة الشيوخ وقوتهم واعتدادهم بأنفسهم ، حتى إنهم ليوقفون أيوب بك الدفتردار ومن ورائه أمداده وأسياده جميعا موقف التائب والزجر ، فيلومونهم على ، الإسراف في النفقات وشراء الممالك ، ثم يوجهونهم إلى أن ، الأمير يكون أميرا بالإعطاء لا بالأخذ ، .

ثم تأمل هذه النهاية التي ينهى بها الجبرقي هذه القصة ، وهي أن الممالك ، أهل البطش والجبروت ، ، تابوا ورجعوا ، والتزموا بما شرطه العلماء عليهم ، ١ . ونستطيع بعد ذلك أن نقدر مرور الناس واعتباطهم بسعي شيوخ الأزهر وتوفيقهم لرفع الظلم عنهم ، وعرفاتهم هذا الفضل وتقديرهم لأهله ، بهذه المظاهرة ، التي ساق الناس بعضهم بعضا إليها ، وكل جماعة منهم يحيطون بشيخ من المشايخ هاضمين منادين : لقد رسم الشيوخ وأقروا أنه لا ظلم ولا خوف بعد اليوم ١١ .

الفرس الأدهم

قال أبو سويد : شهد أبو دلف وقمة بدر ونحته فرس أدهم وعليه نضج الدم ، فاسترقفه أحد الشعراء وأنشده :

كم قد تجرعه الدون ويسلم	لو يستطيع شكا اليك الأدهم
في كل منبت شعرة من جلده	يمن ينمقه الحسام المخدوم
وكأما عقد النجوم بطرفه	وكأله بعري المجرة ماجم
رجعته أطراف الأسنه أشقرا	واللون أدهم حين حرجه الدم

قال أبو سويد : فأمر له بعشرة آلاف درهم .

اختلاف الرأي لا يبرز الجريمة

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد التواب
مفتش الوعظ والإرشاد بالأزهر

قال الله تعالى في محكم كتابه وهو أصدق القائلين : . ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم . .
'عنيت الأديان السماوية كلها بدعوة الناس إلى التفكير والطر ، والتبصر وموازاة الأمور ، واستخلاص العبرة ، وتمحيص الرأي . وفي ذلك تقدير لكرامة الإنسان ، وإكبار لموهبة العقل ، وإقرار لرجاحة التدبير والتفكير .

ولما كانت النظرة إلى الأمور لا تتركز في اتجاه واحد ، حتى من الرجل الواحد ، وهي من أجل ذلك تختلف تحديداً ، وترديداً ، وتختلف بعد ذلك رأياً ، وتذبذباً ، وحكماً - كان بديهياً أن يختلف الأكثر من الرجل الواحد ، في الرأي الواحد ، تبعاً لتفاوت المواهب ، وتغاير النظرات .

والرجل السليم الرأي ، القوي التفكير ، الذي يقدر رأى نفسه ، ويحترم كرامة البحث والتحصيل ، هو الرجل الذي يحترم رأى الناس ويقدر لهم حريتهم ، وإرادتهم : فإذا خالفوه ، أو جابهوه ، أوردوه بالسهة في الرأي ، والطيش في التبصرة ، وقف منهم موقف الكيس الفطن ، والحكيم المزن ، فناقش الرأي في إقناع أو اقتناع ، وهالك تبرز الحججة أو تدحض ، ويسطع البرهان أو يخبو ، وتنطق آية الحق صارخة بسمو المبدأ ، وجلال الرأي وخلوص العقيدة .

فأما أن يلتجئ المخالفون في الرأي إلى التذرع بالهوى ، فيعيشوا ، ويتأنوا ، وأما أن تأخذهم العرة البعيضة ، فيقتلوا أو يدمروا ، فذلك هو الخرق الملتبس ، والهوس الطاغى الآثم .

وإلا فتي يتميز الرأي من الرأي، غشه وسمينه، خاطئه وصائبه؟ ومتى يؤدي العقل عمله، ويؤتي المنطق ثماره، ويدفع البرهان زيف الهوى ونزغة الشيطان؟؟.

لا تضيقوا — أيها الناس — ذرعا بالرأي وإن كان على خلاف ما تحبون، بل محصوه، وقلبيوه، وضعوه في الموضع اللائق به، من احترام وتقدير، أو ازدراء وتنفية.

لكن الإجماع والجسرية، لا تنبض بأمة، ولا تضج شعبا.. اللهم لا، ولكنها تعطل منه العقل، وتمتل فيه الإرادة، وتجنبه الرشد والمواب.

انظروا إلى المثل العليا في القرآن لاحترام الرأي ولو كان واضح البطلان. فالدين لم يترك رأيا باطلا إلا ربه، وخطأه، لكنه لم يهدر دم صاحبه، ولم يزلزله عليه بيته، ويهدم معه أسرته.

قام محمد صلى الله عليه وسلم يدعو في وسط الجبال الدامية، ويشرق بنور النبوة في حالك الظلمة الصماء، يدعو إلى الله، وإلى التوحيد: وقام المشركون من حوله يدعون إلى الشرك، وإلى الأصنام: والعقل السليم، والحجة الدامغة، والرأي الرشيد بجانب محمد: وسفه القول وتماه التمسك، وانطاس العقل بحجاب المخالفين: أتري أمر القرآن بتقتيلهم، أو أهدر حقهم في الوجود، مع وضوح البطلان؟؟ لا: بل زيفهم، وسفههم، وتركهم لرأيهم، في طغيانهم يعمهون.

واسمعوا أيها الناس إلى قوله تعالى: «قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا، ولا يتحدنا بعضنا بعضا أربابا من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون، لم يقل القرآن: فإن تولوا وأعرضوا فاضربوهم، أو اقلوهم، أو حطموهم. ولكنه، كما سمعتم، يشير إلى أن ذروهم وسفههم، واتركوهم وضلالهم، وقولوا. اشهدوا بأنا مسلمون.

ويقول الله تعالى: «قل يا أيها الكافرون، لا أعبد ما تمبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد، ولا أنا عابد ما عبدتم، ولا أنتم عابدون ما أعبد، لكم دينكم وإلى دين،

فإيه تعالى يأمر نبيه أن يقول لم آخر المطاف : « لكم دينكم ولي دين » . أفرايتم كيف يعلم القرآن الناس ألا يتقاتلوا في اختلاف رأي ، ولا يتأثموا بالإجرام ، وإن خرج المخالفون بكفرهم وعنادهم حتى على الله وعلى دين الله ! .

اللهم إلا أن يكون من الكمار قتال ، أو صد عن سبيل الله ، فهذا يقول القرآن : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين » . وقاتلوا حيث تقتضونهم ، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم ، والقتل أشد من القتل ، ولا تقاتلوا عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ، فإن قاتلوكم فاقتلوا ، كذلك جزاء الكافرين . فإن اتهموا فإن الله عفو رحيم . وقاتلوا حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله ، فإن اتهموا فلا تعدوا إلا على الظالمين . .

هذه - أيها الناس - هي قضية العقل وقضية المنطق ، يدعها الدين بكتابه وسنته ، فيبين أن جريمة القتل ظلم صارخ ، وعدوان طاع . وقتة نكرام ، لا يبرها شيء من اختلاف الرأي ، في قليل ولا كثير .

قال تعالى : « ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها ، وغضب الله عليه ، ولعنه ، وأعد له عذاباً عظيماً » ، وقال تعالى : « ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق » .

وروى البخاري والحاكم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً » ، وعن الراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق » ، رواه ابن ماجه بإسناد حسن ، ورواه البيهقي والأصبهاني وزاد فيه : « ولو أن أهل سمواته وأهل أرضه اشتركوا في دم مؤمن لادخلهم الله النار » .

وروى ابن ماجه عن عبد الله بن عمرو قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوف بالكعبة ، ويقول : « ما أطيب وما أطيب ريحك ! ما أعظمك وما أعظم حرمتك ! والذى نفس محمد بيده لحرمة المؤمن عند الله أعظم من حرمتك ماله ودمه » . ! .

وروى النسائي والحاكم عن معاوية رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل ذنب عصى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافرا ، أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً » .

وعن أبي سعيد رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يخرجُ مُحق من النار يشكُم يقول : وكلت اليوم بثلاثة . بكل جبار عبيد ، ومن جمل مع الله إلها آخر ، ومن قتل نفسا بغير حق ؛ فيطوى عليهم فيقذفهم في حراء جهنم » .

ومن الجرم البالغ أن يعتقد هؤلاء المرفون في الجريمة أنهم غير آثمين لأنهم يدفعون عن الوطن ، أو يذودون عن العقيدة ، أو يعملون في حدود الدين . ولو أنهم صدقوا روح الوطن ، أو تمسكت العقيدة ، أو لا تنصر الدين ، فهل أفدنا من هذه الأحداث شيئا من ذلك ؟ ؟

أيها المسلمون :

لنصرة الوطن ، وتمكين العقيدة ، وإعزاز الدين ، طريق مرسومة ، وضحا القرآن ، وأرزها المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وليس من هذه الطريق قاب قوسين أو أدنى من تشجيع على الجريمة ، أو استغلالها ، أو الفرع بها ... فإنما يربح الوطن من تضامن القوى ، وتطامن النفوس ، وتكافل المزامم ، وإخلاص الية .

وإنما تتمكن العقيدة بالحجة البالغة ، وساطع البرهان ، وتجويد الرأي وتخمينه .

ويعتز الدين ، قبل ذلك كله ، وبعد ذلك كله ، بتثيت قواعده وتدعيم أركانه ، وتبيين تعاليمه الخازمة الحاسمة ؛ ففيها علاج أمراض النفوس ، وفيها تطهير نواحي المجتمع ، وبها يبلغ الناس ما يستشرفون إليه من عزة وسعادة ، ومن أمن وسلام .

« ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما » .

« من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .

المولد النبوى الكريم

الكلمة التى ألهاها فضيلة الشيخ محمد حسن دويش

وكيل معهد سوهاج

فى احتفال المعهد بالمولد النبوى

فى ليلة الثانى عشر من شهر ربيع الأول لعام الفيل ، والبشرية الهزيلة الشاحبة ترجع البصر الخاشع وتردد النظر الحائر ، تارة إلى القمر متوسلة ، وطورا إلى الآفاق مطلعة ، عليها تظفر بقبس من نور الأمل ، أو لمعة من لمع الحق تهتك حجب الغيب عن مكسور الأسرار وخبيء الأقدار ؛ فى وجفة الأسير الراح تحت أعباء السنين وجبروت الغاشمين ؛ والجزيرة العربية المنهوكة الجاهدة التى اجتاجتها أمواج المحن والشدائد فسريلت وهأذا وبجأها بسرايل من الدماء ، ولفحتها أعاصير العدوان والشحناء ، والفارات والثارات فصهرتها صهرا وصقلتها صفلا ، ومع ذلك تبقى أكرم عنصر وأصنى جوهر ؛ وبهذا التخصيص والبلاء يعمدها القدر المواتى ، ويسعفها القضاء الرحيم ، لأن تكون مقر الخلافة الجامعة والرسالة الخاتمة ، وأن تكون يثرب قلعة القيادة الحكيمة ، ومنارة الدعوة الجديدة ، تزحف منها جمعاقل العرب لتخليص البشرية من أصقار القرمس وأغلال الروم ، وتميض منها أنوار العلوم والمعارف لتحرير الإنسانية من أسر الأوهام وعبودية الحكام .

وهاهى ذى مكة بلد الله الحرام ، وفيها المثابة والأمان ، تهتف بها الهوائف وتنزل الأملاك من السماء ، وتطيف بها أرواح الأنبياء توضع بالتصريح والحمد ، وترتل للخالق آى الثناء والمجد ، وكلهم يتنافس فى استقبال الوليد العظيم .

وفى شعب بنى هاشم ودار عبد المطلب ، وفى حجرة آمنه بنت وهب ، وعند انبثاق الفجر - فاض نور طلعته صلى الله عليه وسلم على المشرق والمغرب ، حتى أضاءت له بصرى وقصور الروم ، كما أخبرت بذلك أمه وقابله .

وفي ذلك يقول عنه العباس :

وأنت لما ولدت أشرقت الآرض وضاء بورك الأفق
فتعن في ذلك الضياء وفي النور وسبل الرشاد تخترق

فيأله من حادث قلب أوضاع الكون ، وغير وجه التاريخ ، اضطربت له
التيجان ، وارتكس الإيوان ، وخنس الشيطان ، وروع الكاهن والموبدان ،
وسقطت شرفات ، وغاضت بحيرات ، ونحلت نار فارس ولم تحب من ألف عالم .
وبالك من ليلة خلق لما قلب الكون خفقات الأنس والمرح ، واعتزت لها
أعطاف الوجود هزات الارتياح والفرح ، اختفاء بخاتم الرسالة ، وبشرى بحامل
الواء وصاحب الشفاعة ؛ يبيأ إبليس وأجاده تعمهم موجة من المم والكآبة ،
وتفشام سحابة من الحنية والتدامة .

نم : فيالك من ليلة بعظائم الأحداث سافلة ، وفي تاريخ العالم فاصلة ، فصلت
بين عبادة الشيطان في بيوت الأصنام والآوثان ، وبين استئناف عبادة الرحمن
وتقديس الواحد الديان .

وليد لا كالولدان ، ثم غلام ليس من طراز العلان ، وفقى فاق جميع الفتيان ،
ثم كهل اكتملت فيه كل صفات الببل والجلال لدى جميع الكهلان ، وجمع الله
له ما تفرق من خلاق المجد والجلال في جميع الأزمان .

رفع ذكره في الدنيا ، وأعلى قدره في الآخرة ، وأخذ له البيعة والعهد
في الأزل على جميع الأنبياء والرسل بنصره والإيمان به إن أظلمهم سماؤه
واحتوأم زمانه .

دعوة أبيه إبراهيم ، وبشارة المسيح والكليم ، طبع بذكره الرهبان ، وتردد
وصفه على ألسنة الكهان .

ومما لا يتقصى منه العجب ، وكل أحواله صلى الله عليه وسلم عجب ، أن يخرج
من بطن أمه فيسقط بوجهه على الأرض ، ثم يرفع رأسه مشيراً بسبابته شاخصاً
بيصره إلى السماء ، كما حدثت بذلك أمه وقابلته الشفاء .

وفي ذلك يقول البوصيري :

رافعا رأسه وفي ذلك الرءى مع إلى كل سؤدد إيماء
رافعا طرفه السماء ومرى عين من شأنه العلو العلاء

وكانى بك يا رسول الله تأبى إلا أن تكون أول خطرة لك على أديم هذا
الوجود، هي بحمود الشكر لربك، والتوحيد لحالقك، والتوجه والاعتماد على سيدك،
فتقرر للعالم بتلك الحركة السريعة البريئة أصول رسالتك ورسوم شريعتك .

بلغ محمد الرسالة، وأدى الأمانة، وهو أعزل إلا من عتاد إلهي، وسلاح
فطري، ووثوق بدعوته وبقين بصرة ربه، ودرع من مواهب نفسية، وفيض من
شعائل خلقية، لم تتوفر لأحد غيره من الناس أجمعين؛ شهد بها خصومه وبجلها
التاريخ على صدقه آيات يينات ودررا لامعات، وحسبه ثناء عليه ما أوجز في
وصفه القرآن الكريم . « وإنك لعل خلق عظيم » .

نازل محمد خصومه في معسكرين . المشركين بمكة، وقد كانوا حراصا على
إنزاله عن دعوته وإخفاقه في رسالته، كادوا له ماوسعهم الكيد، ومكروا به مكرا
تزول منه الجبال؛ والمتافقين واليهود بالمدينة، وقد ساءوا له المؤتمرات،
وعقدوا من أجله المجالس، لإطفاء نوره وفض نصيره، فأحاطت بالمدينة جموعهم،
وخندقوا أمامها أحزابهم، ومع توافر العدد والامتراس في اللدد، ظهر عليهم في
جميع الميادين . ففي ميدان الحجاج والمقاولة روع قريشا بمعجز قرآنه، وقاطع يباه؛
وفي ميدان الكعكج واللقاء أوقع هؤلا وهؤلا، وكان له العلب؛ وفي ميدان
الحياة الاجتماعية كان لسجاياء وأخلاقه وسيرته النصر المطرد، والفوز الدائم .

راض نعوسا طالما ولغت في الدماء، وعاشت على الكراء، تحملت أحلافها،
وفسدت طباعها، فساس جماعها، وآلان شماسها، وصنى جرحها من القناص
والأرجاس، ووجهها لقيادة الشعوب وسيادة الأديا، فأصلحوا الفاسد، وقوموا
المعوج، ونشروا العالم من غيابات الحمجية والوحشية، الى ساسات الحضارة
والمدينة .

ولهذا يعتبر محمد صلى الله عليه وسلم أول من أرسى قواعد العدل
والنظام، ووضع أساس المثل العليا في بيا المجتمع الإنساني؛ وهو القائل:

«إنما بعثت لأتم مكارم الأخلاق» .

إن ذكرى ميلاد محمد صلى الله عليه وسلم حقت في ذم الأحرار الأوفياء من رجالات الفكر ، ودين في صيائر الاعزة من أساندة الديمقراطية الصادقة ، مهما تباينت محلم واختلفت منازعهم ، تنفاض منهم ليلة الثاني عشر من ربيع الأول من كل عام ، يردون الجليل لأمله ، ويذكرون الفضل لذويه . ألم تهجم جيوش محمد على معاقل الجبارين المتألهين الذين تعبدوا الناس ، وتملكوا جسامهم وعقولهم ، فدكنها ، وأراحتم من طغيان الجبهة ، وسفاهة القوة والحماقة ١٤ .

ألم تنزع دعوة محمد معايد الوثنية والمجوسية التي أفست الأرواح وأوقفت الأفكار ، ومهدت للبشرية أكاف المحبة والأخوة ، فتواصلت القلوب المتباعدة ، وتعاطفت النفوس المتافرة ، وأظلمت جميعا رواق العدل ، فامتلات الأرض أمنا وسلاما ، بعد ماملئت عسفا وإجراما ١٤ .

عرف الإسلام للعقول والأرواح قداسها ، وحفظ للأموال والأعراض حرمها ، فشرع الحدود والزواجر ، وأنزل الوامى والأوامر ، ونظم الأحكام والفرائض ، ونسق المعاملات الشخصية والعلاقات الاجتماعية : رفع قدر المرأة فصانها من الواد صغيرة ، وحفظها من الهوى بها كبيرة ، بعد ما كانت سلعة تورث وتوهب ، وجعلها شريكه للرجل في الحقوق والواجبات ؛ رغب ورهب ، وحذر وأبذر ، فطعم المحسن في زيادة حظه من الثواب ، وخشى المسىء صولة العقاب ، وبذلك ربط بين الحياتين ؛ وجمع بين السعادتين ، حى العقائد والأديان من الاضطهاد والإرهاب ، طورا من عسف أهل الأديان ، وطورا من قساة المشركين وعباد الأصنام .

وكان من أمر يختصر مع نبي الله دانيال ما كان ، وحادثة أصحاب الأخدود قد قصها علينا القرآن « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » . قدس حرية الرأى والفكر ، ودعا الى النظر في ملكوت السماء والأرض ، ففتح بذلك أمام العقول أبواب الفكر والتدبر ، وميادين الاستبطال والاستدلال ، فعرفت أن للعالم صانعا عظيما ، ومديرا حكيميا .

وشاد المعارج لسبحات الأرواح والأفهام ، ففتحت معاليق الأكوان ، وكسرت أصداف الأسرار ، فكانت عجائب الإبداع وغرائب الاختراع ، وصدق الله إذ يقول . . سنريهم آياتنا في الآفاق ، وقد كان ذلك قبل محمد على الأفكار جرماً محظوراً ، وإنما عند القوم كبيراً ، يستهدف صاحبه للتفتيل والتشريد والسجن والتعذيب ، وما قصة فتية الكهف يمين .

سوى الإسلام بين طبقات البشر ، وأزال الفوارق بين الأجناس ، ورفع الحدود من بين الأوطان ، فأصبحت الأرض كلها وطناً واحداً ، والعالم كله أسرة واحدة ، كالجسد الواحد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى . وثق بينهم برباط فطري واحد هو الدين ، وجمعهم على إمام واحد هو خليفة المسلمين ، ووجههم إلى معبود واحد هو الله رب العالمين .

فتباً بذلك للأفراد والحجرات على أساس ما توافر لهم من أسباب الأمن والاستقرار والتكافؤ في الحقوق والواجبات ، أن يشيدوا عمرانهم ، ويبتوا حضارتهم ، وبدأ ركب الإنسانية يسير في طريقه القاصد المستقيم .

هذا عرض سريع لبعض الواحي من عظمة محمد صلى الله عليه وسلم ، توحى بها هذه الليلة المباركة : ذكريات عبقة يفوح شذاها ، وتتأرجح رباها ، ترنيمات في فم الدنيا ، وحلى في جيد الزمن ، ومفخرة لبني الإسلام على جميع الأنبياء ، ومنقبة لدينه على جميع الأديان ، مجد باذخ اشتركت في تأنيله السماء ، وخطت صفحاته بدم الأحرار من الشهداء . ضيعة المسلون يوم أضاعوا حرمتهم ، وقصدوا شخصيتهم : وثرات خالد حافل بالجلال والعظائم فقدوه يوم قصدوا الملك والسلطان ، فأزلم الوجود عن صدره ، وأزالهم عن مكانهم ، فجالوا في أعنة الفتنة ، ودلفوا في أبواب الفرقة ، وتوزعتهم الأهواء ، فركضوا في مراغة الخزل ، وعاشوا على الذل والهون ، وقنعوا بالحقير والدون ، وراحوا يظهرن في صور المؤمنين وأشباه المسلمين :

أما الخيام فإنها كخيامهم وأرى نساء الحمى غير نساتهم

فسوا الله فأنسام أنفسهم ، وخلعوا دينه وشرعه فخلع عنهم مهابته وعزه ،

وخلط على عقولهم ، وانعكست معايير الأمور في أنظارهم ، فصارت الفضيلة رذيلة ، والخير همرا ، والفساد صلاحا .

استمزوا بغير قوة السماء فضاعوا على جنبات الأرض ، وتكالبوا على حطام الدانية فأضاعوا الدنيا والآخرة ، حتى طمع فيهم شذاذ الآفاق من اليهود الذين تنمطتهم لعنة الله ، ودعوة المسيح .

نهلوا من مناهل العرب ، وعافوا منهل الشرق المذبذبة ، بخرقهم نسابرات الإباحية ، وتحللوا من قومياتهم وتقاليدهم ، وانماعوا في غيرهم من الأمم ، وضربوا في يديهم الحياة حارين .

وما أحرام اليوم إن أرادوا محصا عما صاروا إليه ، ومنجاة عما يستهدفون له ، أن يقيفوا من يومهم ، ويثوبوا إلى رشدهم ، فيستخذروا من دينهم علاجا ، ومن هدى نبيهم مناجا ١ .

الشجعان

إن الشجاعة التي يتضاهل إزاء ذكرها الشجعان ، ما أظهره جنودنا بالفالوجة . فسابق ما أظهروه من البطولة عواما لبسالة جيشنا على مدى الأيام . وفي هذه المناسبة نذكر بعض ما كان يفشده أوائلهم من الشجعان قال واحد منهم :

أبت لي شيمتي وأبي تلادى	وأخدى الخلد بالثمن الربيع
واقدمى على المكروه نفسى	وضربى هامة البطل المشيع
وقولى كلما جشأت وجانست :	مكالك تحمدى أو تستريحي
لادفع عن مآثر صالحات	وأخى بعد عن عرض صحيح

ومثله قول قطرى بن الفجاءة من أهل القرن الإسلامى الأول :

وقولى كلما جشأت لنفسى	من الأبطال : ويحك لن تراعى
فإبك لو سألت حياة يوم	سوى الأجل الذى لك لم تطاعى

بَابُ الاسْتِئْثَارِ وَالْفَتَاوَى

ميراث القاتل خطأ

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتي :

رجل قتل زوجته وهي بنت عمه الشقيق قتل خطأ بدون قصد ؛ فهل يرث أم لا ؟ وما نصيبه في الإرث إذا كان يرث ، وأن لها أختا شقيقة وأولاد عم لأبيها ، فهل زوجها يرث أم لا ؟ وما نصيب أختها الشقيقة ، وما نصيب أولاد عم أبيها ؟

مرافق مع هذا حكم عقوبة زوجها القاتل .

محمد مصطفى عمار

كفر الشناورة مركز منيا القمح شرقية

الجواب :

الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان الى يوم الدين .

أما بعد ، فقد اطلعت اللجنة على هذا السؤال ، وعلى صورة الحكم الصادر من محكمة استئناف مصر في قضية النيابة العمومية رقم ١٩٢٥ منيا القمح سنة ١٩٤٧ ورقم ٤٤٥ سنة ١٩٤٧ كلى ، وقد جاء بهذه الصورة ما نصه : « وحيث إن المتهم عبد العزيز عبد الحميد خفاجي اعترف في محضرى البوليس والنيابة بأنه طلب من زوجته ربط الحمار فرفضت لجذبها من يدها فشتته وأمسكت بنخصيته ، ثم أرادت أن تفتح الباب وتخرج فضر بها بحمازية الطنبور ، وقدم المتهم للعمدة قطعة الخشب

التي استعملها في ضرب المجنى عليها ، وهي عبارة عن قطعة سميكة طولها ١٢٥ سم من شجر السنط تستعمل للطبور وتسمى عند الملاحين بحمازة الطبور .

• وحيث إن الكشف الطبي الظاهري على جثة المجنى عليها أثبت وجود تورم رمدي يشمل منطقة الجدارتين وما يحاورها من الصدغين ، ووجود جرح صغير شبه شق بقول ه سم بمقدم أسفل هذا التورم ، ومساحة التورم بأبعاد حوالى ١٥ سم من الجرح سطحي قاطع فقط في البشرة وبمض التسيج الخلوى السابق ذكرها ويمتد على القمة الى الجانب اليسارى بحيث اتسع مدى الاتكاب ، وظهر وجود كسر شرخى بالجدارى اليسارى بين أقرب جناح العظم الأسفنى وينعرج صاعدا بمقدم الجدارى الأيسر حتى يصل الى التدريرة التاجى ، وهناك كسر آخر يمتد بهيئة صاعدة على جناح العظم الأسفنى الأيمن من القاعدة حتى الجزء العلوى بجانب الجدارية بطول حوالى ٤ سم ، ووجد نزيف دموى على سطح المخ تحت الام الخنوبه ، وكسر الجانب اليسارى واصل الى جانب مقدمة الحفرة الوسطى اليسارية ، ونتيجة الصفة التشريحية أن إصابة المجنى عليها نبوية حسانين خفاجى بالرأس تحدث من المصادمة بأى جسم صلب راض أيا كان نوعه ، ومن الممكن أن تكون متخللة من الضرب بحمازة الطبور كما ظهر من التحقيق ، وأن الوفاة قد حدثت من كسور الدماغ والنزيف على سطح المخ ، مع ما صحب ذلك من ارتجاج دماغى وصدمة عصبية .

• وحيث إنه من جميع ما تقدم يكون قد ثبت للمحكمة ثبوتاً كافياً أن المتهم عبد الميز عبد الحميد خفاجى فى ليلة ١٩ / ٩ / ١٩٤٧ الموافق ٣٠ رجب سنة ١٣٦٦ بكفر الشاورة مركز منيا القمح مديرية الشرقية ضرب نبوية حسانين خفاجى عمداً بالدماغ على رأسها فأحدث بها الإصابات الميئة بالقرار الطبي التشريحي ، ولم يقعد من ذلك قتلا ، ولكن الضرب أفضى الى موتها ، وعقابه ينطبق على المادة ٢٣٦ من قانون العقوبات .

• وحيث إن المحكمة ترى لظروف القضية وملابساتها معاملته بالمادة ١٧ عقوبات • وبعد الاطلاع على المادتين المذكورتين حكمت المحكمة حضورياً بمعاينة عبد الميز عبد الحميد خفاجى بالحبس مع الشغل لمدة ستة واحدة .

وتفيد اللجنة بأن هذه الحادثة مما يطبق عليها قانون المواريث الجديد ،
لحصولها بعد وجوب العمل بهذا القانون ، وقد نصت المادة الخامسة منه على
« أن من موافق الإرث قتل المورث عمدا ، سواء أكان القاتل فاعلا أصليا أم شريكا
أم كان شاهدا زور أدت شهادته الى الحكم بالإعدام وتنفيذه إذا كان القتل بلا
حق ولا عذر ، وكان القاتل عاقلا بالغا من العمر خمس عشرة سنة ، وبعد من
الاعتذار تجاوز حق الدفاع الشرعى » .

فهل ما جاء فى هذه المادة يتناول هذه الحادثة ؟ قد يقال إنه لا يتناولها
نظرا الى أن القاتل لم يقصد قتل المجنى عليها كما جاء فى أسباب حكم المحكمة ، لكن
الذى يظهر أن ما جاء بهذه المادة يتناول هذه الحادثة ، لما نص عليه القضاء من
أن القتل العمد لا يشترط فيه قصد إزهاق الروح ، بل المناط أن يقصد القاتل
ضربه بآلة يقتل بها غالبا ، وفى مجرى العادة ؛ فناطقوا الحكم بمظنة قصد الإزهاق
المذكور ، فيدور الحكم على هذه المظنة ، ولا يطرأ الى تحقق ذلك القصد . وعلى
ذلك فعنى القتل العمد فى المادة المذكورة أن يأتى الشخص بعمل وحده أو بطريق
الاشتراك مع غيره يكون من شأن هذا العمل إزهاق الروح . وبهذا يعد هذا
القاتل قاتلا لمورثه عمدا بلا حق ولا عذر ، وهو عاقل بالغ من العمر أكثر من
خمس عشرة سنة ، ولم يكن فى حالة دفاع عن نفسه ، لأنه على فرض أنها أسكت
بخصيتيه كما قال المتهم ، فقد تركت هذا الإمساك وأرادت الخروج وحاولت فتح
الباب ، وقد علم من أسباب الحكم أن الآلة التى استعمالها فى الضرب آلة قاتلة
لا سيما إذا كان الضرب بها على الرأس كما حصل ، وعلى ذلك فترى اللجنة أن هذا
القاتل لا يرث المجنى عليها .

وإذا تقسم تركتها بين أختها وأولادهم أيها على الوجه الآتى :

لاختها النصف فرضا ، ولأولادهم أيها الباقي تعصيا بالسوية بينهم إذا كان
المم المذكور أبا شقيقا لجدها أبى أيها أو أبا من الأب ، وكان الأولاد ذكورا ؛
أما إذا كان المم أبا لجدها من الأم أو كان أولاده إناثا فلا شيء لهم ، وكان الميراث
كله لاخت المتوفاة فرضا وردا ، وهذا إذا لم يكن للمتوفاة وارث آخر . والله أعلم .

صحّة صلاة الجمعة بواحد مع الإمام

وجاء الى اللجنة أيضا الاستفتاء الآتي :

في بلادنا مدن صغيرة وقرى لا ترحل ، وهناك خلاف دائم على قدم وساق حول صحّة الجمعة في هذه البقاع ، من حيث قد ينقص العدد المشروط في بعض الأحيان ، فما من يصلي الجمعة دائما ، ومن يصلي الظهر دائما ، وكلنا شافعيو المذهب .
فرجو الإفادة .

سيد احمد سيح موسى الصومالي
الطالب بالأزهر

الجواب :

الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله . ومحبيه ومن تبعهم بإحسان الى يوم الدين .
أما بعد ، فقد ورد الى لجنة الفتوى سؤال من هذا القبيل ، وقد أجابت عنه بما يأتي :

• قد اختلف العلماء في العدد الذي تصح به صلاة الجمعة : فعند أبي حنيفة ومحمد يلزم لصحتها حضور ثلاثة رجال سوى الإمام . وعند أبي يوسف يلزم اثنان غير الإمام ، وهو رواية عن الإمام أحمد ، واختارها شيخ الإسلام ابن تيمية . وعند الإمام مالك يشترط حضور اثنى عشر رجلا غير الإمام من الموطنين في بلد الجمعة . وعند الإمام الشافعي وأحمد في المشهور عنه يشترط حضور أربعين رجلا .
وقد بحثت اللجنة المذاهب في هذا الموضوع فلم تجد دليلا يصح الاستناد اليه في اشتراط عدد مخصوص للجمعة . واللجنة قد اختارت مذهب من يقوله من الفقهاء بأن الجمعة تصح بواحد مع الإمام ، سواء أكان من يحصر لها من أهل العزبة نفسها ، أم من العزب المجاورة .

هذا والجمعة فرض عين على كل رجل ليس بصاحب عذر ، فمن تخلف عنها بغير عذر فهو آثم . والله أعلم .
رئيس لجنة الفتوى
عبد المجيد سليم

حيرة العالم وموقف رجال الدين

لفضيلة الأستاذ الشيخ أبو الوفا المراغي
مدير المكتبة الأزهرية

- ٣ -

سدر كثير من الناس عقب الحرب العالمية الأولى في غوايتهم ، وأطلقوا لشهواتهم العنان استرواحاً مما عانوه فيها من ويلات وما هههم من بأساء وصراء ، واستخفوا بالقيم الروحية وبأصول الفضائل التي توأطأت عليها الأديان ، وتعاوضوا عنها في المنازل والمدارس والمجتمعات ، ففسأ هذا الجيل وقلوبهم خاوية من العصائل ، وأفقدتهم هواء من المثل العليا للإنسانية السليمة ، وتأدت بهم تلك الحال الى ما هم فيه من فوضى في الأخلاق ، ومن بلاء في المعاش ، ومن حيرة في أمرهم كله ، وعنى ذلك السادة والقادة ، فرفوا يبصائرهم في هذا الظلام يتحسسون الإصلاح وينشدون العلاج ، فهدوا الى الأديان يسترشدون بهداها ، ويستصيئون بنورها ويستطبون عيها ، عسى أن تبرأ عليهم ، وتظلمهم محابب الأمن فتطمئن نفوسهم وتسكن قلوبهم .

تهدى الى الأديان كمعلاج لأمراض المجتمع البشري بعض رجال الاجتماع والتربية والقانون والفن وغيرهم ، فارتفعت أصواتهم بدعوة الشعوب الى ناس السلام في الأديان ، إذ أنه لا مقلد للبشرية مما هي فيه غيرها ، بعد أن فشلت في علاج أدوائها المذاهب والقوانين الوضعية . قال البرفسور الدكتور دافيد ماس أحد رجال الاجتماع الانجليز بصدد الكلام عن مشاكل الأسرة . : إن البحث الجدي قد أثبت أن السبب في فشل الزواج في حياتنا الحديثة إنما يعود الى التفسير في تعليم الدين للأطفال ، وذلك لأن التعاليم الدينية تبت في الفرد روح التمييز بين الخطأ والصواب ، وتشعره بضرورة الشرف واحترام العهود ، وتعوده

على الإيمان بما للفرد من حقوق نحو غيره ، . وقال أيضا . « إن التفسير في تعليم الدين ينشر الانانية في النفوس ، ويشجع الغيتات على إغراء الرجال المتزوجين وهجر زوجاتهم بدعوى الحب . ويرى أن تقرر الحكومات دراسة الدين كإداة أساسية في رياض الأطفال والمدارس الابتدائية .

ومن قبل ذلك دعا بعض رجال القانون بأمريكا إلى الرجوع إلى القوانين السماوية ، ليستمد منها بعض المواد التي تعالج الجرائم فنقض عليها أو تقلل منها . بعد أن فشلت التجارب في علاجها بالقوانين الوضعية . وأخيرا قام المواطن العالمي الأمريكي جارى ديفيز - وقد هاله الدمار والخراب في الحرب العالمية الأخيرة - يدعو إلى الوحدة العالمية ، أعنى أن يكون العالم كله وطنا واحدا له حكومة واحدة تسوسه وتوجهه ، لتزول الفوارق الجنسية والقومية التي كانت على الدوام من أقوى الدوافع إلى إثارة الحروب ، لأن الحروب إن هانت واحتملتها البشرية فيما مضى ، فلن تهون ولن تحتلها البشرية الآن ، بعد أن اخترع ما اخترع من مهلكات ذرية وغيرها ، مما تحمص الدول المتنافسة المتحضرة على الاحتفاظ بسريتها حتى يحين وقتها ، وتدعو الضرورة إلى استعاطها .

قام ذلك الأمريكي الفنان ذو الفكر الحر بدعوته هذه في مقر هيئة الأمم ، وحاول في جراءة المؤمن بفكرته أن يلفت نظر الهيئة إلى قلة الجسدوى في عملها ما دامت تعالج مشاكل الأمم بالروح التي تسودها الآن ، وأن الطريق الصحيح إلى ضمان السلام العالمي أن تُلغى الفوارق التي أشرنا إليها حتى لا تتأسى أمة على أمة ، ولا تطمع أمة في أمة ، بل يكون العالم كله أمة واحدة .

وقد لقيت هذه الدعوة ترحيباً صادقاً قوياً ، وبخاصة في الأمم التي كانت أشد تعرضاً لأخطار الحرب وأهوالها ، وأخذت تنمو وتزداد . وعندى أنها ستثمر وتشتد وتمتد ، وسيعتقها كثيرون ؛ فإنا من شخص عاصر هذه الحرب وشاهد أهوالها إلا ويتمنى بجدع الأنف أن تنجح هذه الدعوة ، وأن تفر عينه بسلام لا نهده أطباع الساسة والزعماء . وليس يعينى من هذا الحديث أن تنجح أو تفشل ، وإنما الذى يعينى منه ، والمبرة التي أستمدعها من سياقه ، أن هذه الدعوة تنفق وأهم تعاليم الإسلام من ضرورة إلغاء الفوارق الجنسية والقومية التي

تعتمد بها شعوب العصر . فالعالم في نظر الإسلام أمة واحدة ليس فيها شرق ولا غرب ، ولا عجمي ولا عربي : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم . . » وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأما ربكم فاعبدون . . . وللعالم في نظر الإسلام حكومة واحدة تقوم على الشورى الصادقة ، ويتساوى أمام قوانينها جميع الرعايا ، وينعمون في ظلها بالحرية والإخاء والمساواة . ذلك إحساس العدا على اختلاف ألوانهم وأجناسهم بحاجة العالم إلى الأديان بعد أن أرهقته المسألة من أمره عسراً ، وهو اعتراف بعمز السياسة والساسة عن علاج شئونه وتوفير أسباب أمنه واطمئنائه . وإنها لفرصة على رجال الأديان أن يتبلوها بعد أن تمأت لها وسائل النجاح ، وقربت الشدائد من الله ومن دين الله ، وبعد أن آمنت القلوب القاسية بأن لا ملجأ من الله إلا إليه . وليعلم هؤلاء أن الحديث باسم الدين سيكون غذا مألوماً بعد أن كان مستقلاً نايماً .

فهم : على رجال الأديان أن ينتهزوا هذه الفرصة ، يأخذوا مكان القيادة من هذه الشعوب الخائرة ، عسى أن تحول حالها ويبدأ بالها ويبدأ عيشها ، وعلى رجال السياسة أن يتخلوا عن مكان القيادة ، أو يفسحوا فيه لرجال الأديان ، وإن أبوا أخه واستكباراً فستدفعهم الشعوب عنه دفعا ، انتقاما لسلامهم الملوب ، وسعادتهم الضائعة . وسيحضر قوم رموسهم استخفافاً بهذا الحديث ، واتهاماً لصاحبه بالتمصب والطمع والغرور ؛ ولكن حسبنا قوة إيماننا به ، وحسن نيتنا فيه ، وحسبنا ما ستنته الأيام والحوادث من صوابه ونصديقه .

حجاب الحكم

قال أبو مسهر : أتيت أبا جعفر محمد بن عبد الله ، فحجبت فكتبت إليه :
إني أتيتك للتسليم أمس فلم تأذن عليك في الاستار والحجب
وقد علت بأني لم أرد ولا والله ما أرد إلا العلم والأدب
فأجابني أبو جعفر بقوله :

لو كنت كائيت بالحسنى لقلت كما قال ابن أوس وفيما قاله أدب
ليس الحجاب صدوداً عليك يا أملي إن السماء ترجى حين تحتجب

الالتزامات وأنواعها

في الفقه الإسلامي

للمفتي الاستاذ صالح بكير
المدرس بكلية أصول الدين

ونرجع الى الفقه الإسلامي ونستعرض أحكامه لنرى ما إذا كانت هذه المعاني موجودة به أم لا .

الالتزام بإعطاء شيء : وردت أحكام كثيرة في هذا المعنى ، نذكر بعضها منها على سبيل المثال : ففي البيع على مذهب الأحناف ، لو قال البائع : بعثك هذه السلعة ، وأشار الى سلعة موجودة في المجلس ، وقبل المشتري ، لزم على البائع تسليم تلك السلعة بعينها ، وليس له أن يعطي سلعة غيرها من جنسها .

وكذلك ورد ، إذا بئین وصف الثمن وقت البيع ، لزم على المشتري أن يؤدي الثمن من نوع النقود التي وصفتها .

وأبضا ، لو اشترى رجل من السوق شيئاً بدون أن يذكر تعجيل الثمن ولا تأجيله ، لزم عليه أداء الثمن في الحال .

وورد ، القبض ليس بشرط في البيع ، إلا أن العقد متى تم ، كان على المشتري أن يسلم الثمن أولاً ، ثم يسلم البائع المبيع اليه .

وأبضا ، إذا أحال البائع إنساناً بثمن المبيع ، وقبل المشتري الحوالة ، فقد أسقط حق حبه . وفي هذه الصورة يلزم على البائع أن يبادر بتسليم المبيع للمشتري .

وأبضا ، في بيع السبئية : ليس للبائع حق حبس المبيع بل عليه أن يسلم المبيع للمشتري على أن يقبض الثمن وقت حلول الأجل .

وكذلك ، إذا باع حالاً أي معجلاً ثم أجل البائع الثمن ، سقط حق حبه للبيع وعليه حينئذ أن يسلم المبيع للمشتري على أن يقبض الثمن وقت حلول الأجل .

ومن ذلك ، إذا بيع مال على أن يسلم في محل كذا لزم تسليمه في المحل المذكور .

الالتزام بفعل شيء : وكذلك الالتزام بفعل شيء وردت فيه أحكام كثيرة : من ذلك في مذهب الاحناف : ففى الإجارة على العمل ، يلزم الآجر أولاً تسليم المأجور ، وعلى الآجير إيفاء العمل فى الإجارة المطلقة التى عقدت من دون شرط التعجيل والتأجيل على كل حال ، يعنى إن كان عقد الإجارة على منافع الأعيان أو على العمل . . ومن ذلك ، من آجر داره أو حاوته وكانت فيه أمتعته وأشياؤه تصح الإجارة ويكون مجبورا على تخلية من أمتعته وأشياؤه وتسليمه ، وأيضا فى إجارة الدار ، أعمال الأشياء التى تخفى بالمنفعة المقصودة العائدة الى الآجر مثل تطهير الرحى على صاحبها ، كذلك تدمير الدار وطرق الماء وإصلاح منافذه ، وإنشاء الأشياء التى تخفى بالسكنى وسائر الأمور التى تتعلق بالبناء ، كلها لازمة على صاحب الدار ، وإذا امتنع صاحبها عن أعمال هؤلاء فليسأجر أن يخرج منها الخ . . وأيضاً ، إزالة التراب والزبل الذى يتراكم فى مدة الإجارة والتطهير عنهما على المستأجر . .

وفى إجارة الدابة ، لو اشترط إيصا حمل معين إلى محل معين وتعبت الدابة فى الطريق فالمسكارى مجبور على تحميله على دابة أخرى وإيصاله الى ذلك المحل . . الالتزام بالامتناع عن فعل شيء : أيضا وردت فيه نصوص كثيرة : منها من مذهب الاحناف : ففى بيع الوفاء ، إذا مات السائع فليس لسائر الغرماء التعرض للبيع وفاء مالم يستوف المشتري دينه . . ومن ذلك فى إجارة الدار ، ليس لمن استأجر داراً أن يفعل ما يورث الضرر والوهن للبناء إلا باذن صاحبها ، ومن ذلك ، من استأجر ثياباً على أن يلبسها لنفسه فليس له أن يلبسها غيره . . وأيضا ، لو استكرمت دابة الى محل معين فليس للمستأجر أن يذهب بتلك الدابة إلى محل آخر . .

وأيضاً ، من استكرى دابة إلى محل معين فليس له تجاوز ذلك المحل بدون إذن صاحبها ، الى آخر ذلك من النصوص .

ومن سرد هذه النصوص يتبين بكل جلاء أن الفقه الإسلامى متفق مع ما ذهب اليه التشريع الوضعى لأنواع الالتزامات .

المدن الفاضلة

لحضرة الأستاذ سعيد زايد

أمل تعلقت به بعض النفوس التي أحبت المجتمع وفكرت في غيره ، وحيال
سبحت فيه عقول الفلاسفة وهم الذين مجدوا العقل واستوحوا المنطق في
تفكيرهم ، وحلم تمنى الذين عاشوا فيه حيا أن يروه حقيقة واقعة متحققة بين
أفراد البشر ؛ وأعتقد أن كل من قرأوا عنه تمتوه كذلك .

ومن ذا الذي لا يتعنى أن يتطهر عالمه من الأدران والشوائب المادية
والروحية ، وأن تصفو نفوس أفرادهم وتطهر قلوبهم ، ويشيع الحب بينهم ، ويتحقق
التعاون ، ويعرف كل واحد مركزه ووظيفته التي تؤهلها له قواه الطبيعية
في المجتمع ؟ من ذا الذي لا يتعنى عالما خلا من البائس والمحروم ، والعاطل
والمريض ، والكاذب والسفيه ، وغير ذلك من النقااص والذائل ؟ وأخيرا من
ذا الذي لا يتعنى عالما يقرب من حنة الله التي وعدها المتقين .

ولكن ، هل كل ما يتمنى المرء يدركه ؟ سؤال تترك الإجابة عنه الى حين ،
بعد أن نستعرض باختصار آراء الفلاسفة الذين رسموا حدودا لهذه المدينة ،
وحددوا منهاجا لأفرادها ؛ ونقف قليلا عند من قال بها من المسلمين ، وهو
الفيلسوف أبو نصر الفارابي ، الملقب بالعلم الثاني .

حاول كثير من الفلاسفة تحقيق هذه المدينة : فلاسفة اختلفت بيناتهم
وعصورهم ؛ فدعا إليها أفلاطون ، والفارابي ، وتوماس مور في إنجلترا ، وكامبانيا
في إيطاليا وغيرهم ؛ وهم وإن اختلفت فلسفاتهم وتباينت الأشكال التي وضعها كل
منهم لمدينته ، إلا أنهم يتفقون جميعا في شدان السعادة الكاملة لأبناء المدينة .

كان أفلاطون أول فيلسوف إغريقي وضع مذهباً فلسفياً متناسق الأجزاء
متكامل الأطراف ، وأراد أن يتوج مذهب هذا بالقول بمدينة فاضلة يتحقق

فيها الخير ، وكان طبعيا أن يلجأ الى مذهبه الفلسفي يستقيهِ ويقم على أساسه مدينته ، فرأى أنه عد كلامه عن النفس قد قسم اتقوى التي توجد في الإنسان الى ثلاث الشهوانية ، ومركزها البطن ، وفضيلتها العفة ؛ والعنصرية ، ومركزها الصدر ، وفضيلتها الشجاعة ؛ والفكرية ، ومركزها الرأس ، وفضيلتها الحكمة أو التأمل ؛ وكأ أن الفرد لا ينصلح حاله إلا إذا تعلبت القوة العسكرية على القوتين الاوليين ، فكذلك الدولة أو المجتمع لا تستقيم أحواله إلا إذا تعلبت الطبقة الثالثة ، أي طبقة العلاسفة ، على الطيبتين الآخرين ؛ فهم الدين احتصمهم الله بحاسة سادسة ، فوق الحواس الخمس العادية ، وهي القدرة على إدراك الحقائق العامة ، وتفهم المعقولات الصرفة بطريق الإشراف ، أي من غير جهد ولا عناء . فالأرواح في رأيه كانت تعيش في عالم آخر غير عالم الحس هذا ، ولما هبطت الى الأرض نسيت ما كانت فيه ؛ وهذا يطبق على جميع الناس إلا الفلاسفة ، فإن أرواحهم قد تذكر هذه المعقولات إذا مر عليها ما يذكرها بها في العالم الحسي .

ولكن كيف يتسنى لنا تمييز أفراد كل نوع من أفراد بني البشر ، لتعرف الفيلسوف وتنصبه حاكما على المدينة ؟ يضع أفلاطون نظاما دقيقا بتدرج صاعدا من الطعولة الى السكولة ؛ فالطفل يربي في منزل أبويه الى سن السادسة ، وتشرف الحكومة على الموضع التي تتولى تربيته ، ثم يلحق الاطفال جميعهم بالمدارس الابتدائية ، وهي هذه على نوعين : مدارس موسيقى وآداب ، ومدارس مصارعة ؛ وبعد ذلك تأتي المدارس الثانوية ، وهي كلها مدارس ألعاب رياضية ، ويظل بها الشاب حتى سن الثامنة عشرة ، ثم يعمل اختبار عام ؛ فن دل على أنه وصل الى درجة رقي عقلي وخلقى لا يستطيع أن يصل الى أكثر منها ، يقف تعليمه في هذه السن ؛ ويتكون من هؤلاء الطبقة الاولى من طبقات المجتمع ، وهي طبقة العمال والصناع والزراع . أما الباقون فيلتحقون بالمدارس العسكرية لمدة سنتين كذلك ، ثم يجري بينهم امتحان ؛ فن دل على أنه وصل الى درجة رقي عقلي وخلقى لا يستطيع أن يصل الى أكثر منها ، يقف تعليمه عند هذا الحد ؛ ويتكون من هؤلاء طبقة الجود ؛ ومن يبقى بعد ذلك يلتحق بمدارس العلوم الرياضية لمدة عشر سنوات كاملة يتعلمون فيها الرياضة بطريقة نظرية صرفة لا بطريقة عملية ؛ وذلك

لمساعدتهم على الخوض في المعقولات الصرفة ، ثم يجرى امتحان بهم أيضا ؛ فمن تقف مداركه عند هذا الحد يقف تعليمه ؛ ويتسكون من هؤلاء طبقة صغار الفلاسفة ؛ ومن يتبقى بعد ذلك يلتحق بالمدارس الفلسفية ، ومدة دراستها خمس سنوات ، يدرس خلالها الفلسفة والمنطق وما إليها ، وفي هذه المرة لا يجرى امتحان ، فلا حاجة له عند هؤلاء ، فهم الذين سيكون في يدهم الحكم والسيطرة على الدولة حتى سن الخمسين ، وعليهم بعد ذلك أن يعتزلوا الحكم الى دراسة الفلسفة مستعينين بالتجربة في مدة حكمهم .

هذا هو نظام أفلاطون إذا أردنا أن نفشي مدينة فاضلة ، قبل أن نقول رأينا فيه ؛ نعرض نودجا آخر من التفكير الإسلامي في هذا الموضوع ؛ فرى الفارابي قد تأثر برأى فيلسوف الإغريق الى حد كبير ، مكيفا إياه بالشريعة الإسلامية ، ومتشبا مع مذهب الخاص في الفلسفة ؛ فنحن نعرف أن المعلم الثاني قد قسم مراتب الوجود الى اثني عشرة مرتبة ، منها ست مادية ، ومنها ست روحية ؛ والمادية هي الأجرام السماوية ، والعناصر الأربعة ، والمعادن ، والنبات ، والأجسام الحيوانية ، والأجسام الإنسانية ؛ والروحية هي علة العلل ، أو الكائن الأول ، أو الله ، والمقول التسعة المشرفة على الأجرام السماوية ، والعقل في الإنسان ، والعن الإنسانية ، والهيولى ، والصورة ؛ وهذه الثلاثة الأخيرة ليست روحية محضة ، لأنها متعلقة بالأجسام . والمهم هنا أن الفارابي يرى أن الكل ما عدا الله تعالى يجب أن ينبثق من الكائن الأول أو من علة العلل ، ويستمد حياته منه ، ويرجع إليه ويحتديه ؛ كذلك فيما يتعلق برئيس المدينة ، لا تكتمل سعادة الأفراد إلا إذا احتفوا حذوه وكانوا صورة منه .

يشترط الفارابي في رئيس مدينته شروطا تقربه من الانبياء ، فبعد أن يقرر أن الإنسان مدني بطبعه لأنه ليس فقط عضوا في قبيلة ، بل عضوا في المدينة والإنسانية جمعاء . يشعر بمناطفة الأخوة نحو جميع أفراد البشر — ينتقل الى الرئيس الذي يرد أن يجعله قائدا لهذا المجتمع الإنساني كي ترفرف عليه راية العدل والمساواة ، هو رئيس تجتمع فيه جميع الخصال الحميدة ، قوى الشخصية ، تام الأعضاء ، ذكي ، لبق ، قانع في المأكل والمشرب والتكاح ، غيبي ، لا يحب

لذاته ، صادق لا يكذب ، كبير النفس ، كريم ، عادل ، مبغض للجور والظلم ، قوى العزيمة ، شجاع لا يخاف ؛ وبالحلة فهو نبي تنقصه الرسالة ؛ فهمة الرئيس ليست سياسية محسب ، ولكنها خلقية أيضا ؛ فن الناحية السياسية هو الرئيس الأعلى لكل المدينة ، ووزرائه ومعاونوه ليسوا إلا منفذين لأوامره ؛ ومن الناحية الخلقية هو النموذج الذي يقلده المدنيون ، والمثال الذي يحتذونه ؛ ويصل الرئيس إلى مركزه هذا بالرياضات والمجاهدات والتأمل والظر ، وعلى جميع الأفراد أن يحذروا حذره ، ويرسموا خطواته ، فهو النموذج الأعلى للإنسان الكامل ، وعليه أن يحاول ما استطاع أن يصيغ جميع الأفراد بطبيعته هو .

هذا هو رئيس المدينة عند الفارابي ، وهذه هي الناحية السياسية التي تلتبس عند المعلم الثاني قدر كثرها جميعها في الكلام عن الرئيس ، فلم يمتن فيلسوف العرب بوصف نظام عام للحكومة توزع فيه الاختصاصات على وظائف مختلفة ، بل ركز "بجل" اهتمامه في الرأس معتقدا بأنها إذا صلحت صلحت بقية أعضاء البدن ، فاشتراط في رئيس مدينته أن يكون كاملا من جميع الوجوه ، وما دام كذلك فإنه لا بد أن يبغي الإصلاح وينشر العدالة والمساواة ؛ وإذا قلده الأفراد وساروا على نهجه فإن الخير لا بد أن يعم المدينة ، وينشر فوق ربوعها لواء الحق والطمأنينة .

ولقد أراد الفارابي أن يدعو إلى مجتمع إنساني يعم فيه العدل والمساواة والإخاء ، آخذاً هذه الفكرة من تعاليم الدين الإسلامي لا من أستاذه الروحي أفلاطون ، ولكنه عند ما رأى صعوبة تحقيق هذه الفكرة عدل عنها وقصر كلامه على مدينة محدودة ؛ ففصل فيها القول ودعا إلى التأخي والتآزر ليتكون منها جسم واحد تسرى فيه روح واحدة . وقد تسكلم في كتابه " آراء أهل المدينة الفاضلة ، في فصل القول في الصناعات والسعادات ، عن تقسيم العمل ، فوزع الأعمال بالنسبة إلى الطبائع ، ودعا إلى إعطاء كل شخص العمل الذي يتفق مع طبيعته لتستقيم الأمور . ومن الواضح أن لتقسيم العمل أثره من الناحية الاقتصادية ، فإدام كل شخص سيوجه إلى العمل الذي يتفق مع طبيعته ويسوله فإنه لا بد أن يعود ذلك بالإنتاج الوافر العميم على الوطن .

هذا هو ملخص رأى الفارابى فى المدينة الفاضلة . ولقد حاول الفيلسوف كامبانيلا الإيطالى فى أواخر القرن السادس عشر وأوائل السابع عشر الميلادى أن يرسم خططا لمدينة فاضلة فى كتابه . مدينة الشمس . مقتبسا بعض نظمه من أفلاطون ، كما حاول نفس المحاولة توماس مور فى المجملتها عند ما أراد أن ينشئ مدينة التى سماها . بالإيثوبيا . ، ويطول بنا المقام إذا نحن حاولنا أن ننبط آراءهم .

هذه آراء بعض الفلاسفة فى المدينة الفاضلة ، آراء فيها للخيال نصيب كبير . ومن عجب أنها صدرت عن قوم قدسوا العقل ووقفوا خدما عند عرابيه ، وأغلب الظن أن الذى أملى عليهم هذه الآراء إنما هو حب المجتمع والرغبة فى أن يعيش أفرادهم معيشة مثالية من جميع الوجوه ، يجلس كل منهم فى برجه العاجى ، وأمسك بقلبه ليسطر به فوق قرطاسه أسسا لمدينة فاضلة دون دراسة للمجتمع ، ودون تعرف لرغباته ، أو الوقوف على ما ياسبه من إصلاح ، وما يسير به رويدا رويدا نحو الكمال .

ولكن من الإنصاف أن نقول : إن أفلاطون بعد أن أثبت كلامه هذا فى كتابه . الجمهورية . عاد فعده فى كتابه . القوانين . عند ما صدمه الواقع المحسوس فى تجربته ، وأن الفارابى بعد أن قال بفكرة المجتمع الإنسانى الذى أخذها من الدين الإسلامى ، عاد فعده أقواله ، وتكلم عن مجتمع المدينة الذى ترتبط فيه العاصر بعضها ببعض ارتباطا دقيقا ، إذ توزع فيها الأعمال بحيث يعمل كل فرد العمل الذى يقاسب مع طبيعته ويتلاءم مع موهبه ؛ وبذلك تصبح المدينة كجسم الإنسان يودى كل عضو عمله فى دوره ؛ وبذلك أيضا يتحقق التضامن الجسمى . والفارابى فى قوله بتقسيم العمل إنما سبق الدلالة دوركيم زعيم المدرسة الفرنسية الاجتماعية فى هذه الفكرة .

وعلى كل حال فالمدينة الفاضلة حلم يصعب تحقيقه ، وستظل كذلك ما لم تخفف شيئا من غلواتها ، وينظر القائلون بها الى الواقع بعين مبصرة ، ويبنوا إصلاحهم بمقدار ما تسمح به ظروف المجتمع . ولقد صدق توماس مور حين سمي مدينته باسم . أوتيا ، وترجمتها الحرفية ، التى لا توجد فى أى مكان .

الجامع الأزهر

هذا كتاب قيم لا يتعدى عدد صحفه المائة والخسين صفحة، ولكنه جمع كل مايجب مرید الإلمام بتاريخ الأزهر والإحاطة به، فهو يذكّر عهد تأسيسه والغرض منه، والمواد التي كانت تدرس به إذ ذاك، ويتمشى مع القارىء شارحاً مينا، حتى يصل إلى عهده إبان الاحتلال الفرنسى، وما يليه من عهد المغفور له مؤسس الأسرة المالكة، ويذكر أسماء شيوخه إذ ذاك ويريك صورهم. ثم يمرج بك على ما كان يدرس به قبل نظامه الحديث، ويتطرق من ذلك إلى عهده الحديث، فيأنيك بالقانون الذى سن له فى عام ١٩٣٠ ثم قانون سنة ١٩٣٦، ويريك مراحل التعليم فى تلك الأثناء. ويضيف إلى ذلك ذكر المعاهد الدينية التابعة له، ويختم ذلك بالكلام على الشهادات التى كانت تعطى للمتخرجين فيه.

هنا يجب القارىء أن يعلم ماهية إدارة الأزهر، وشروط الالتحاق به وأجاس الطلبة، وعددهم وعدد معلمهم. ويلم يعموثة الى الخارج، ويدور كتبه، ويقسم الوعط والإرشاد، ومجلة الأزهر، ولجنة الفتوى، ووحدته الطبية، ومكتب البحوث والثقافة فيه، فيجد كل ذلك، وضماً على أكل وجه.

ويأتى بعد ذلك ذكر نفقات الأزهر وميزانيته، وما وقف عليه الحاكم بأمر الله. ولم يسع المؤلف بعد ذلك أن يعفل ذكر الملكين العظميين اللذين أوصلا الأزهر إلى الأوج الذى هو عليه الآن، وهما المغفور له الملك فؤاد الأول، وحسرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول. وختم الكلام بالإفضاء بآمال الأزهر.

هذا عمل لا يستطيع أن يقدره قدره إلا من بطلع عليه، فإنه يغنيه فى هذا الباب عن المطولات، فى عبارة طلية جذابة، وبيان أنيق أخاذ، ولا غرو فواضعه حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود أبو الميoun سكرتير عام الأزهر، وقد أعدّه وطبع منه آلاف من النسخ ليطلع عليه المهتمون بالأزهر من رواد المعرض.

العقل والدين

للاستاذ الكبير ولیم جیمس ، أشهر أعلام البسيكولوجيا في أمريكا بل في العالم كله ، كتاب دعاه : إرادة الاعتقاد ، وضعه بلغته الإنجليزية ، وقرأنا نحن ترجمته الفرنسية . وقد ترجم الجزء الأول منه حصرة الأستاذ النابغة الدكتور محمود حب الله وهو واحد من العلماء الذين أرسلوا إلى أوروبا لتكامل ثقافتهم الفلسفية ، وقد حصل منها على شهادة الدكتوراه ، وقد ترجم حضرته الجزء الثاني منه ، وهو الذي أمامنا الساعة لتتظرفيه ونكتب وأبنا عنه .

الكتاب يقع في نحو مائتي صفحة بالقطع المعتدل ، ومطبع طبعاً أنيقاً على ورق جيد . أما مادته فن أرفع المواد الفلسفية قيمة ، وهي العوامل الاختيارية والوجدانية ، وجهودنا العقلية التي تكون لأنفسنا العقائد التي يحيا بها حياة إنسانية ، وما يتصور ذلك من أحوال تساعد أو تعوق أو تعدل تلك العقائد . مضى الأستاذ ولیم جیمس وراء ما تؤديه إليه النفس من فعل الطبايع الوجدانية وما يضاف إليه من أثر الاختيار وأحكام العقل ، فأنفتحت أمامه مجالات للنظر والتفكير والبحث ، لا يعرف قوة تفاعلها في النفس إلا الذين عانوا ما تؤدي إليه إرادة الاعتقاد من ضروب الاستشكالات والحلول ، فيجدون بمطالعة هذا الكتاب دليلاً رشيداً يتنقل معهم في مآزقها ، ويؤتيهم بما يشبع نهمهم منها . فهذا الكتاب يعتبر معاون المفكر في العقائد ، والمشتغل بالوقوف منها على قرار يرضى به العلم وتوافق عليه الفلسفة في أرقى سالانها .

ولئن إذا أردت أن أسرد ما تعرض الأستاذ ولیم جیمس له من المجالات احتجت إلى مصحف كثيرة ، لحسبي ما ذكرته ، وحسبي أن أذكر أن مترجم هذا الكتاب هو الدكتور الأملی محمود حب الله ، فانه ابن مجدتها وفارس حلها . وقد حل هذه البحوث الطريفة بعباراته الطلية . وحاطها بألمعية الفوية ، أكثر الله لدينا من أمثاله .

• • •

لدينا كتب تعتبر غاية في القيمة العلمية أرجأنا تهريضها للعدد المقبل ، لتأخذ حصها من التقدير والإعجاب .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أحاديث الاستاذ الاكبر

مع السفراء والمفوضين السياسيين

لما تولى حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الاكبر الشيخ محمد مأمون الشاوي مشيخة الجامع الازهر ، زاره حضرات أصحاب السعادة سفراء الدول ومفوضوها السياسيون مهنيين ، راجين للازهر التقدم والازدهار على يديه ، وقد حدثت بينهم أحاديث تتعلق بالصلات الحسنة ، والعلاقات الطيبة ، تخطلها ذكر العلم والتعليم ، والازهر والطلبة الاجانب : فرأينا أن نأتي على ملخصات تلك الأحاديث إفادة للقراء بما دار فيها من بيانات أو بحوث علمية . وما نحن ندأ بها على ترتيب أوقات حدوثها .

مع سعادة سفير الهند :

زار المحرم السيد حسين سفير الهند حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الاكبر عقب تقلده منصب مشيخة الازهر ، مهناً ، ومقدماً نحياته وتحيات المسلمين في الهند : وقد رحب به حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الاكبر ، وشكر له نحياته الطيبة ، وقال السيد حسين : إنه زار مصر منذ عشر سنوات ، وسره أن يجد الازهر يأخذ نصيباً كبيراً من التجديد مع احتفاظه بتفاليده الدينية ، وود أن يكون الازهر في عهد شيخه الجديد أكثر تجديداً . وقال الاستاذ الاكبر :

« إن الازهر يسير على البرامج الذي وضع له منذ ذلك الحين ، وقد قطعنا شوطاً كبيراً في وصل الازهر بالحياة العامة ، وأصبح للازهر الحديث كنه ورسائله التي

تسائر تقدم الزمن والحصارة ، والأزهر - حريص على أن يبقى له طابعه المميز ، وهو أنه كعبة المسلمين ومحط آمالهم ، يمدون إليه من كل فج عميق ، لينهلوا من معارفه ويعودوا إلى بلادهم رسل سلام وحضارة وعلم .

« وإن بالأزهر ألقا وسبعمائة طالب من كافة البلاد الإسلامية ؛ كالحند ، وسيلان ، وجاوه ، والصين ، وجنوب أفريقيا ، وإندونيسيا ، وغيرها من البلاد الإسلامية . وليس من المحسرى شيء إن قال . إنه لولا الأزهر لما تقدمت اللغة العربية ، ولما بقيت العلوم الدينية وانتشرت » .

فقال السيد حسين . إن المسلمين في الهند ، بل الهند كلها تنظر للأزهر على أنه معقل الدين والعلم والثقافة ؛ وعلى أنه أقدم جامعة إسلامية يحد فيها اشرقيون عامة مصدراً للإلهام ومبعأً للثقافة ، ولذلك يحرص الهود على إيفاد البعثات إليه ليشتموا تعليمهم ، وإليه يود أن تعاود حكومة الهند بعد أن استقلت بأمر نفسها إرسال البعثات إلى الجامعة الأزهرية ، كما يأمل في الوقت نفسه أن ترسل الجامعة الأزهرية بعوثاً إلى الهند ، ليتحقق بذلك التعارف بين أهل الشرق جميعاً . وليكون هؤلاء المبعوثون رسل توحيد ومحبة وسلام .

فقال الأستاذ الأكبر . « إنه يسعدني أن تقوى الصلات بين مصر والهند ، وأن تقوم أواصر المحبة بين الشرقين جميعاً ؛ وإن الأزهر ليرحب بأبناء المسلمين من الهود ، وسيجدون عند ومودهم كل عون ومساعدة على تحقيق أهدافهم ، وإن من حسن حظ الأزهر أنه في تاريخه الطويل كان متمتعاً برعاية وعطف الأسرة العلوية السنية ، فسهل له ذلك كثيراً من الصعاب التي تعترض سبيله ؛ ويكفي أن يذكر ما لجلالة المعفّر له الملك فؤاد - طيب الله ثراه - من إياد على الأزهر ، ورعاية لأبناء المسلمين الواعدين إليه ؛ وما لجلالة الملك فاروق الأول من عطف سانع على أبناء الأمم الشرقية ، وتخصيصه لهم ما يستعيون به على طلب العلم من جيبه الخاص » .

فقال السيد حسين : إنه يشكر لجلالة الملك فاروق هذا العطف السامي ، وليس هذا غريباً على جلالته ، فقد أشرفت بمقابلة جلالته ، ووجدت من جلالته كل عطف ورعاية .

وسأل الأستاذ الأكبر السيد حسين عن المؤسسات الإسلامية في الهند بعد التقسيم : أما زالت على ما عرف عنها من نشاط في نشر تعاليم الدين وطبع المؤلفات النادرة في الفقه والتفسير والحديث ؟

فقال السيد حسين : إن تقسيم الهند قد فرق المسلمين الى فئتين ، فئة يبلغ تعدادها ٦٠ مليوناً يؤلفون حكومة الباكستان ، وفئة تبلغ الأربعين مليوناً هي التي تعيش في ظل حكومة الهند الحالية ؛ ومعظم المؤسسات الإسلامية والجامعات المشهورة كجامعة عليكرة كلها تقع في الهندستان ، وهي والحمد لله تقوم بنشاطها المعروف وأزید ، والمسلمون في الهندستان يتمتعون بكل حقوقهم كمواطنين .
ويكنى أن أذكر لعزيتكم أن وزير المعارف في حكومة الهند هو مولانا أبو الكلام آزاد ، العالم الإسلامي ، والزعيم المسلم الكبير .

وسأل الأستاذ الأكبر عما إذا كانت تسمح لمسلمي الباكستان بالالتحاق بالجامعات والمعاهد الإسلامية في الهند ، فقال سعادة السفير : إن حق الالتحاق ميسور لكل مسلم وهندي : لأن الجميع إخوة في الدين والوطن ، وإن فرقهم مؤقتاً التقسيم . وإن أول واجب للشعوب الشرقية أن تعمل على التكتل والوحدة لتنفذ صفواً واحداً أمام التيارات المختلفة التي تأتي من الغرب ، وليستعيد الشرق في حاضره ماضيه المجيد ، حيث كانت له السيطرة والتقدم والازدهار العلى .

فقال الأستاذ الأكبر : إن خير ما يسهل أن يجد العالم الإسلامي كله كتلة واحدة ، بل أكثر من ذلك أن ينتظم الشرق كله روحاً حبة وونام ، وديننا يدعونا الى حسن معاملة إخواننا في الوطن من غير المسلمين .

وهنا استأذن السفير من الأستاذ الأكبر مودعاً ، راجياً أن يعود مرة أخرى الى التحدث في الشؤون الثقافية والدينية التي تهتم مصر والهند .

نحن في دور انتقال علمي خطير ستكون له آثار حاسمة في تأييد الدين

نحن في دور انتقال خطير جداً في الناحية العلمية من مقررات حاسمة في العلوم الطبيعية، كان التشكك فيها يعتبر قصوراً في الفهم، ونقصاً في العقل، وشذوذاً في الطبع؛ بنى أشياءها عليها صرحاً من الفلسفة لا يحاول التغلب من أحكامها الصارمة إلا من استهدف لأن يُعَد من بقايا الجماعات البدائية، أو صحابا الأوهام الرجعية. كان قد استولى على نمثي العلوم الرسمية الغرور، حتى خيل لهم أن الكون على لانهيته ليس فيه أكثر مما تخيلوه فيه من النواميس والقوى الطبيعية، وأن كل ما هو كائن أو سيكون يمكن تحليله بتلك النواميس أو نواميس من جنسها آلياً، حتى سهل عليهم أن يتكروا الخالق وما عسى أن يكون في الكون من كائنات علوية. ولو كانوا وقفوا عند حد ما اكتشفوه، وقالوا لا علم لنا بما وراء ذلك، وأهدوا أنفسهم لقبول كل ما يجحد من المكتشفات التي تخضع لآساليبهم في البحث والتحقيق، لكانوا مطلقين في تصرفهم؛ ولكنهم قطعوا وجزموا بأن ليس ما وراء ما وصلوا إليه مرمى، وحاطوا مزاعمهم هذه بأسوار من شبه وتشكيكات، وأحياناً من سخریات لذاعة، أصبحت اليوم أصحابك لدى من يرجع إليها في كتاباتهم.

إن العلم الطبيعي الذي كانوا يقدسونه، ويدعون أنه قد تخلص من أدق ضروب النقد، وأنه قد صارت أصوله بدائه ومسلطات، أصبح اليوم في نظر العقل الجديد الذي صقلته المكتشفات الحديثة، عرضة لضروب من النقد تهدد كيانه، وتجعله في حاجة للتعديل والتنقيح، لا في الاتجاه الذي رسموه له، ولكن في اتجاه مضاد ليس بينهما لمحة من قرابة.

قد يشك بعض الذين تغمصوا الروح العلمية الحديثة من قرأنا فيما نقول، ويرموننا بمعادة العلم لصرامته في مهاجمة الاعتقاديين، ولكننا نؤكد أننا من أشد أنصاره، وأنه المعول الوحيد للإنسانية فيما يتعلق بتقدمها وسعادتها، بل وبدياتها

الحقة المنزهة عن التشبهات ، وأن من سلك طريقا غير طريقه ضل سواء السبيل .
ويمكن في هنا ، وقد تعرضت لهذا الموضوع ، أن أبين لك ماذا كان عليه العلم ،
وكيف اتخذ العلماء به ، وإلى أي حال آل في عهده الأخير ، وهو العهد الذي
يعتبر في نظر العلماء أرقى ما يُتخيل من العهود .

ونحن لأجل إثبات ما قدمناه نعرض على القراء ما انتهى إليه أمر أعلام
أشياءه ، وما حدث من الاكتشافات التي أدت بهم إلى أن يقفوا منه موقفهم
الذي نذكره ، لنثبت اقراءنا أننا في دور انتقال على لم يحدث في جميع أدوار
التاريخ له نظير . وقد ادخره الحق جل وهز للإنسانية حتى تبلغ أشدها ،
وتستطيع تحمل تبعاته .

فإلى القراء بيان ما أجلته هنا منقولا عن قطب من أقطاب العلم الرسمي نفسه ،
وهو مشهور شهرة عالمية ، فضلا عن أنه من الأفراد الذين تردد أسمائهم كثيرا
في المؤلفات العربية ، هو العلامة الاجتماعية الفرنسي (جوستاف لوبون) .
قال في كتابه (تحول المادة) :

« كان إذا اتفق أن فيلسوفا من المنصرفين إلى درس الموضوعات ذات
الحدود المبهمة ، والنتائج غير المحققة ، كعلم النفس والسياسة والتاريخ ، قرأ منذ
عدة سنين كتابا خاصا بالعالم الطبيعي ، كان يدهش من وضوح التحديدات فيه ،
ومحة البراهين ، وضبط التجارب : إذ كان يرى كل ما في ذلك الكتاب متسلسلا
بعضه يشرح بعضه الآخر بدقة ؛ وكان يرى أن بجانب كل ظاهرة طبيعية مهما
بلغت من التركيب تقيرا يبين غامضا .

« فإذا حل حب الاطلاع هذا الفيلسوف نفسه على أن يبحث عن الأصول
العامة لهذه العلوم المضبوطة إلى هذا الحد ، لا يتألك نفسه من بساطتها المدهشة ،
ومن عظمتها المبهمة . فيجد في قاعدة علم الكيمياء نظرية (الجوهر الفرد) الذي
لا يقبل الانقسام ، ويجد في قاعدة علم الطبيعة (القوة) التي لا تلتامى . ويرى
معادلات عليية ولدتها التجربة أو العقل المنحصر ، تشمل في نظريات صارمة ، الحاصر
الأساسية الأربعة للأشياء : وهي الزمان والفضاء والمادة والقوة . ويعرف
أن جميع الجواهر الوجودية من الكوكب العظيم الدائر في الفضاء دوراته الولوية

الأبدية ، الى ذرة الغبار الحقيرة التي يظهر أن الرياح تذروها اتفاقا ، تخضع كلها لنواميس سائدة عليها . . .

« فكان الفيلسوف المتقدم ذكره لا يسعه إلا الانحماض أمام هذه النتائج الغنمية معترفاً بأنه إن عدم اليقين في البيئة الفلسفية التي هو فيها ، فن الممكن الحصول على هذا اليقين في مجال العلم الطبيعي المحض .

« كيف يعقل أن يشك في ذلك ؟ أما كان يرى أن أكثر العلماء كانوا من الوثوق ببرايمينهم بحيث لا تتطرق أخف الشكوك اليهم ؟ وأنهم بتسلطهم على التيار المنحول للأشياء ، وعلى فوضى الآراء المتعيرة والمتناقضة ، يسكبون هذا الجو الصافي من الإطلاق الذي تتلاشى فيه جميع الشكوك ، وتشرق فيه أنوار الحقيقة النقية الأحذية بالابصار ؟ . .

« دامت هذه العقيدة في المقررات الكبرى للعلم العصري حافظة لقوتها الى أن حدثت في الأيام الأخيرة (مكتشفات غير منتظرة) ، قضت على الفكر العلمي أن يكابد من الشكوك ، ما يعتقد أنه قد تخلص منه أبد الأبدن . فان الصرح العلمي (تأمل) الذي كان لا يرى صدوه إلا عدد قليل من العقول العالية ، تزعر لجأه بشدة عظيمة ، وصارت المتناقضات والمحالات التي فيه ظاهرة للعيان بعد أن كانت من الخفاء بحيث تكاد لا تبلغها الظنون .

« أدرك الناس على عجل أنهم كانوا مخدوعين ، وأسرعوا يتساءلون عما إذا كانت الأصول المكونة للمقررات البقيية لمعارفنا الطبيعية لم تكن إلا فروضاً واهية ، تمجج تحت غشائها جهلا لا يسبر له غور . .

« تلك المكتشفات التي نومت بها آنفاً قد كشفت اللثام عن الظلمات التي بدأت تفضحها الكتب الحديثة . وبذلك دخل العلم نفسه في دور من الفوضى كانوا يظنون أنه قد سلم منه الى الأبد ، وأصبحنا ترى أصولاً كان يظن أنها ذات قاعدة رياضية محققة صارت موضوع نزاع بين العلماء الذين من وظائفهم تعليمها والدفاع عنها . .

« ومن حسن الحظ أنه لا شيء أكثر ملاءمة للترقي العلمي من هذه الفوضى .

فالوجود مفهم بمجهولات لا زامها ، والحجاب الذى يحجبها عما منسوج غالباً من الآراء الضالة ، انتهى .

هذا الانقلاب الضخم فى العالم العلمى يستتبع انقلاباً يمتثل به فى كل ما كان يشابه العلم أو يحاكيه . فكان العلم يشايخ المذهب المادى ويمده بالأدلة والاستشكالات ، وكان يحفى الدين ويصاوله بالشبهات والتشكيكات ، فإفادته اليوم من العرور الذى كان عليه ، وتطلبه المخرج عما كان فيه ، سيفتح عينه لكل ما كان يقدم اليه من الآراء المناقضة فلا يعيرها نظرة ، جز ما منه بأن كل ما خرج على مقرراته خارج على الحقائق البديهية ، فكان لا يكفيه أن يصدف عنها ، ولكن كان يرى أنصار الدين بالاعطاط العقلى ، وبالاشتغال بالأوهام والخزعبلات .

هذا الموقف الأخير من العلم سيكون له من الأثر فى كبت المتعطلسين ، وفتح المنكرين ، والتغلب على عناد المتصلبين ، من يدعون إدراك أسرار الوجود ، والإحاطة بكل ما فيه ، ما لا كان يمكن الوصول إليه بغير هذه الصدمة القاسية .

ونحن إن كنا سرربا لحدوث هذه الصدمة ، فقد كان ذلك ما لأمرين خطيرين : أولهما تيسير وصول العلم الى الحقائق الوجودية دون أن يعشها من عوارض الكبرياء ما يقلل من إشراقها ، ويحد من جمالها ؛ وثانيهما تخلق أهل بآداب العلم الصحيح ، وإيمانهم بأن الوجود أجل من أن يحيط بقواه السكائمة به عقل بشرى ، أو يلم بما سيفتح على الناس من آيات مبدعه خيال شعرى .

أجل إن العلماء فى الدور الذى ظهر ضعفه الآن ما كانوا ينكرون حدوث اكتشافات علمية جديدة ، نعم ولكنهم كانوا يقصرونها على المساديات ، وكانوا يجزمون بأن ليس وراءها شيء ، وكانت أعمالهم لوجودها لا تعدى الدائرة التى حصروا فيها عقولهم ؛ ولكن موقفهم اليوم يدع طريقاً مهيماً الى تبين ما عسى أن يكون وراءها ، وهذا كسب لطلاب الحقائق لا يستهان بتأثيره فى تجلياتها .

وستتابع الكلام فى هذه الناحية من التطور العلمى الذى نوه به ، لرى ما الذى أوجه من الاكتشافات ، وما سيؤدى اليه من الفتوحات .

محمد فريد ومجدي

المجاز والكناية في كتاب الله

القرآن والمفسرون

موازين الفهم في النصوص الشرعية

لمفضلة الأستاذ الكبير الشيخ حامد محسن

عضو جماعة كبار العلماء

النصوص الشرعية من حيث الثبوت والدلالة وفق ما يراه علماء الأصول تنقسم إلى أربعة أقسام . وقد أردت أن أبين تلك الأقسام ليكون الناس على بينة إذا أرادوا نظراً وتفهماً للنصوص الشرعية ، وأن تلك الموازين قد حررها أسلافنا استنباطاً من التشريع الإسلامي عن طريق الكتاب والسنة . وقد أردت من إيرادها أن يعلم الناس إذا أرادوا تصديداً أن يلتزموا تلك الحدود فيما يتقدمون . وإليك أقسام النصوص :

النص الشرعي من حيث الثبوت قطعي وظني . فن النصوص ما ثبت عن الشارع قطعاً ، ومنها ما ثبت عنه ظناً ؛ والثابت بطريق القطع منه ما هو قطعي الدلالة على معناه وهو ما لا يحتمل سوى معنى واحد ، ومنه ما هو ظني الدلالة وهو ما يحتمل أكثر من معنى . فالنص الثابت قطعاً هو القرآن الكريم من بانه إلى سبه ، ومنه الحديث المتواتر ، فإذا كانت الآية أو الحديث المتواتر لا يحتمل إلا معنى واحداً فذلك هو قطعي الثبوت والدلالة ؛ وهذا القسم من القرآن هو ما عبر عنه القرآن بالآيات المحكمات ، وهو ما سماه كذلك أم الكتاب . وإن هذا القسم لم يسم بأم الكتاب إلا لأنه حدد مبادئ الدين الاعتقادية والعملية تحديداً لا ينطرق إليه احتمال ؛ فكانت بذلك هي الأم والمرجع ، وهي المال في بيان معاني النصوص المحتملة أكثر من معنى ومعنى هذا أنه يجب ألا يحتمل النص المحتمل على أحد ما احتمله من معانٍ إلا إذا كان في داخل الدائرة التي يتكون محيطها من تلك الأصول والامهات ؛ فكل معنى يتجاوز به ذلك المحيط

يكون غير صحيح . وبهذا تعلم أن تأويل النص المحتمل بحمله على معنى من المعاني ، ليس فيه من خير ما دمت لم تتجاوز به الأصول والأمهات .

وإن آية المُلْك التي طرقت إليها احتمالاتك ، هي الحقيقة أنسب الاحتمالات بجلال الله وعظمة القرآن ، وأنسب منهما بسمو القرآن عن أن يؤول في مثل هذه الآية بأن ، رجوماً ، معناها ظنونا ، أي مصدر ظنون للجمعين .

وإني لا أشد التزاماً به للأمهات بما لو حمل على هذين المعنيين ؛ بل التفاوت بالغ بينها فتفاوتنا بين صحة وبطلان .

أما القسمان الآخران من أقسام النصوص فإنما يكونان في السنة غير المتواترة من صحيح وحسن ، إلى غير ذلك من ألقاب علماء الاصطلاح .

هذا وهناك موضع آخر لم أكن منه بسبيل حين كتبت في آية المُلْك ، ولكن سداً لخواطير غير صحيحة فسأعرض له ليكون القارئ على بينة مما نكتب في هذا الموضوع .

يقول الله تعالى : وما أرسلناك إلا كافة للناس ، مما هو مفيد استقصاء رسالته للناس من لدن أرسل إلى آخر هذه الحياة ؛ فإن محمداً صلى الله عليه وسلم هو خاتم الرسل والأنبياء . وإذا أنت قرأت المقالة التي دارت بين الله عز وجل وبين ملائكته المكرمين في شأن الخلافة في الأرض حين قال : إني جاعل في الأرض خليفة ، فهمت صريحاً أن ما وجه الله به إيثار آدم ودريته على الملائكة المظهرين هو أن آدم ودريته قد فطرم الله على فطرة خاصة ؛ يجمعون فيزرعون ، ويعلمون فينسجون ، ويأثمهم الحر والبرد فينبون ، ويتأفسون فيرفعون البناء ويشيدون ، ويشتهون الثمار فيمرسون ، وهكذا مما به عمارة الأرض ، وما هو متاف لطائف الملائكة ؛ فكانوا بذلك غير صالحين للخلافة في الأرض ، وإن سلك هو آدم الدماء ، وإن قدس الملائكة وسبحوا ؛ إن الله يعلم ما لا يعلمون .

وإذا أنت قرأت أول آية نزلت على الرسول بغار حراء ، وجدت الآية لم يذكر فيها إلا الإنسان : أقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم . كلا إن الإنسان ليطغى ، إلى آخره . وهكذا وهكذا . إن الإنسان لفي خسر ،

إلا الذين آمنوا... ، إن الإنسان لربه لكنود ، ، فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه ، ، يأبى الإنسان إنك كادح ، ، يأبى الإنسان ما غرك بربك الكريم ، ، ثم ، يحسب الإنسان أن لن يقدر عليه أحد ، ، يحسب الإنسان أن لن نجتمع عظامه ، ، إن الإنسان خلق ظلوا ، ، ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا ، إلى غير ذلك مما يطول ذكره .

ثم قرأ بعد ذلك في القرآن بعنوان الناس . : يأبى الناس اعبدوا ربكم ، : يأبى الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، : أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم ، : اقترب للناس حسابهم ، : يأبى الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شئ عظيم ، : يأبى الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، : إلى غير ذلك من نداء الناس ، وإمالة الأوامر والنواهي بهذا العنوان .

ثم قرأ : : يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ، : يا بني آدم لا يفتنكم الشيطان ، : يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوءاتكم ، مما هو واضح في أن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم إنما هي للنشر أصالة .

ولقد من الله على البشر بأن كان الرسول منهم ، لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، . وهكذا وهكذا من كل ما يؤيد أن المقصد الأول بالرسالة هم بنو الإنسان ، وأن غيرهم ممن لا يصلحون إمامة الأرض ، فإنما هم في إيمانهم تبع لبي الإنسان . وإنى سأعرض لهذا الموضوع في تفصيل أوفى من ذلك .

هذا وإن ما قد قررته في سورة المُلْك ، من أن الكواكب نفسها لا يرجع بها ، قد فطن له أوائلنا وحاولوا التخلص منه .

فهذا الإمام الرازى يقول : : فإن قيل جعل الكواكب زينة للسماء يقتضى بقاءها واستمرارها ، وجعلها رجوما للشياطين ورميم بها يقتضى زوالها ، والجمع بينهما متناقض . قلنا : ليس معنى رجم الشياطين هو أنهم يرمون أجرام الكواكب بل يجوز أن يفصل من الكواكب شغل ترمى الشياطين بها ، وتلك الشغل هي الشهب ، وما دلك إلا كقميس يؤخذ من نار والنار باقية ، .

وفي هذا القول من الإمام الرازى محاوله البعد عن القول بأن الكواكب

نفسها هي التي يرى بها الشياطين ، إذ ذلك لا يتصور وهي زينة وهدى وآيات كما قررنا في آية الملك .

وهذا الإمام البيضاوي يقول : « وما قيل إنه - أي الشهاب - بخار يصعد إلى الأنير فيشتعل فتخمين إن صح لم يتأف ذلك ، إذ ليس فيه ما يدل على أنه ينقض من الفلك ، ولا في قوله ، ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين » : فإن كل نير يحصل في الجو العالي فهو مصباح لأهل الأرض وزينة للسماء من حيث إنه يرى كأنه على سطحه ، ولا يعتمد أن يصير الحادث كما ذكر في بعض الأوقات رجما للشياطين تتصعد إلى قرب الفلك للتشعيع . »

من هذا ترى أن الإمام البيضاوي يميز أن يكون الشهاب النهابات أثيرية : يحاول بذلك البعد عن الرمي بنفس الكواكب ، ويثبت أن الشياطين حين تحاول تشعيعاً إنما تقرب من السماء فتحيطها بالتهابات الأثرية . كل ذلك منهم دفع لأن تكون الكواكب نفسها مرمياً بها ، لما فيه من إبطال الزينات ، وإطفاء المصابيح ، ومحو الآيات .

ثم تقرأ في تفسير الإمام الألوسي في آية الحجر ما يثبت فيه حين وردت إشكالات من قوله تعالى « هل ترى من فطور » أنهم لا يلتزمون أن الكواكب نفسها هي التي يرى بها ، وإنما هي شعل تهب في منطقة الأنير . خلق الله المحكم ، وحفظه الدائم ؛ وبذلك تبقى الكواكب كما جعلها الله : وبذلك تحفظ السماء من تلك المحاولات . وإذا كان العلم قد قال إن الكتلة الهوائية محدودة لا تصل إلى السماء ، بل إن ارتفاعها محدود قريب ، كانت المطفة التي بين الهواء والفلك هي الحصن الحصين ، والحرس المكين : « وجعلنا السماء سقفا محفوظا ، وهم عن آياتها معرضون » .

وإني لا أستلهم غير الله رشادا إلى الحق والمعونة ، حتى أعرض إن شاء الله للكتابة في آيات التسمع والحطف الثلاث ، والله الموفق ، والمهادي إلى سواء السبيل .

وفطته ونور بصيرته، وحنن أدبه وبلاغته، أن يصل الى مالم يصل اليه السالفون من وجوه التأويل، واستجلاء المعاني واللطائف التي لا تقف عند حد في آيات الكتاب العزيز . ولا شك أن المفسرين في كل عصر تناولوا كتاب الله بالشرح والبيان على قدر وسعهم، وبحسب ثقافتهم وبيئتهم وعصرهم؛ فهم ليسوا معصومين؛ وكل يؤخذ من قوله ويرد عليه في أدب واحترام وتقدير، ما دام القائل لا ينامض من القرآن، ولا يعتسف بما يوقعه في حرج، بإنكار نص من نصوصه، أو تأويل له بما يخالفه أو ينافيه.

وإني لا أعارض عل الأستاذ الكبير فيما ذهب اليه من تأويل الآية على النحو السابق، سواء أكان التأويل قريباً أم بعيداً، بل إنني أسأله عن نقطتين خطيرتين في مقاله، وما عداهما بما في ثناياه فلا أناقشه لأنه حين محتمل.

أولاً: كيف ينكر تسمع الشياطين لتخطف الخطفة من أخبار السماء وروى الله إياهم بالشهب مع أن النصوص القرآنية والاحاديث الصحيحة النبوية وردت بذلك صريحة؟ قال تعالى في سورة الحجر: «ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين. وحفظناها من كل شيطان رجيم. إلا من استرق السمع فأنبهه شهاب مبين.»

وقال تعالى في سورة الصافات: «إننا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب. وحفظا من كل شيطان مارد، لا يسمعون إلى الملائكة إلا على وبقذفون من كل جانب، دحوراً ولهم عذاب واصب. إلا من خطف الخطفة فأنبهه شهاب ثاقب.»

وقال في سورة فصلت: «وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا.»

وقال في سورة الجن، حكاية عنهم: «وأنا كنّا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً». وروى الإمام البخاري عن عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الملائكة تنزل في العنان فتذكر الأمر قد قضى في السماء فتسرق الشياطين السمع فتسمعه فتوجه إلى انكهاون فيكذبون مع الكلمة مائة كذبة من عند أنفسهم.»

وروى الإمام الطبري في تفسير قوله تعالى : « وجعلناها رجوماً للشياطين » : حدثنا بشر قال : حدثنا يزيد قال حدثنا سعيد عن قتادة : « واتخذنا السماء الدنيا بمصاييح ، الآية : إن الله جل ثنوه إنما خلق هذه النجوم ثلاث خصال : خلقها زينة للسماء الدنيا ، ورجوماً للشياطين ، وعلامات يهتدى بها . فمن يتأول منها غير ذلك فقد قال برأيه وأخطأ حظه ، وأضاع نصيبه ، وتكلف ما لا علم له به . هذا ما روى عن قتادة رضى الله عنه .

ونحب هنا أن نطمئن الأستاذ الكبير على عدم فناء النجوم ، فالعلم الحديث لا يمنع أن يفصل شهاب محرق من نجم دون أن يطلقه الجرم أو يزول من مكانه ، فلا يفتنى من فناء النجوم أو إبطال زيلتها .

فإذا يصنع الأستاذ الكبير في هذه النصوص ؟ ألم يكن الأجدر قبل ركوب هذا المركب أن تلاحظ هذه النصوص أو تحمل على وجه صحيح على الأقل ؟ وإنكار الص شيء ، وتأويله على وجه صحيح شيء آخر .

نعم قد أورد الإمام الرازي في تفسيره آراء لبعض الفلاسفة تنكر هذا التسميع على هذا القرار ، ولكنه فندها ورد عليها هو وغيره من المفسرين ، ولكنه يقوم إنكار بعض الناس لذلك من غير تأويل صحيح أمام هذه النصوص ؟ أمنا في فضيلة الأستاذ الكبير أن يبين هذا للناس بيانا شافيا قبل أن يلغظوا ويقولوا : إن الأزهر لا خير فيه لأنه لا يؤمن بنصوص القرآن .

ثانيا : كيف يقال : إن القرآن الكريم لم ينزل إلا للبشر فقط ولبنى آدم فقط ولم يحاطب به خلق آخر ولم يوجه إليهم به خطاب ؟ كيف هذا مع قول الله تعالى : « وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا ، فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين . قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم . يا قومنا أجبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويحرمكم من عذاب اليم . ومن لا يحب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين . » وقوله تعالى : « يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تغذوا من أقطار

السموات والأرض فانفذوا ، لا تغفدون إلا بإسقاط . فبأي آلاء ربكما تكذبان . .
أليس هذا خطاباً موجهاً إلى الإنس والجن ؟

وكما يتحدث الإنس بالقرآن يتحدث الجن معهم في قوله : « قل لئن اجتمعت
الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم
لبعض ظهيراً . .

ويقول الله تعالى في سورة الفرقان : « تبارك الذي نزل الفرقان على عبده
ليكون للعالمين نذيراً . .

وكيف يصح الأستاذ الكبير بسورة الجن : « قل أوحى إلى أنه
استمع نهر من الجن فقالوا إما سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشداً فأما
به ولن نشرك بربنا أحداً . . وقال حكاية عنهم : « وأما منا الصالحون
ومنا دون ذلك ، كنا طرائق قدداً . . وقال . . وأما ما المسلمون ومنا القاسطون
فمن أسلم فأولئك تحمروا رشداً . وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً . . وهل هذا
كله تمثيل ؟ وما الممثل ؟ وإذا فتحنا باب التمثيل على هذا النحو فلا نكاد نظفر بحقيقة
ولا واقع في القرآن ؛ فالجنة تمثيل ، والنار تمثيل ، وكل من يحدثنا به القرآن من
المعيات تمثيل ، وهكذا . وما الداعي إلى التمثيل في مثل ذلك ؟ وهل الحمل على الحقيقة
في ذلك مما يحمله العقل ويلج في إنكاره ؟ وإذا كان الأستاذ الكبير يعترف في
مقاله بأن الجن خلق معيب ها ولا نعرف عنه شيئاً ، فكيف يسوغ أن ينكر
ما نسب إليهم بمجرد الاستبعاد الخيالي ؟ أما لا أشك أن أستاذنا الكبير أخفى
على مقاله ثوباً فضفاضاً من حباله الرائع ، ولكن الخيال شيء ، والواقع
شيء آخر .

نريد في القريب العاجل بياناً وافياً للناس عن هذه المصوص قبل أن تطول
الاستهتار على العلماء ، ويتمموا الأثر بأشنع التهم التي تأتي على بنيانه وتهدم أركانه ،
وإننا لمنتظرون .

من روائع الحكم النبوية :

ان من البيان لسحرا

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ فكري ياسين
المدير المساعد لإدارة البحوث والثقافة بالآزهر

أخرج البخاري عن عبد الله بن عمر أنه قدم رجلا من المشرق ، خطبا ،
فمجب الناس لبيانهما ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن من البيان
لسحرا ، أو : إن بعض البيان لسحر » .

في شهر المحرم من السنة التاسعة للهجرة ، بعث النبي صلى الله عليه وسلم عينة
ابن حصن الفراري على رأس سرية في حسين فارسا ، ليس فيهم مهاجري ، ولا
أنصاري . إلى بني نعيم ، ليعروم ، فتوجه إليهم ، وكان يسير ليلا ، ويكن نهارا ،
حتى وصل إليهم ، وهجم عليهم ، وقد سرحوا مواشيهم : فلما رأوا الجمع ، ولوا
أمامهم ، فأخذ منهم عينة أحد عشر رجلا ، وإحدى وعشرين امرأة ، وثلاثين
صبيا ، ثم ساقهم إلى المدينة ، فأنزلوا في دار رملة بنت الحارث ، فلم يكن من بني
نعيم إلا أنهم تبادلوا الرأي فيما بينهم ، فقرروا على إرسال وفد فيه عدة من
رؤسائهم إلى المدينة ، وكان قوام هذا الوفد : عطاردة بن حاجب ، والزريقان
ابن بدر ، وقيس بن عاصم ، والأقرع بن حابس ، وقيس بن الحارث ، ونعيم
ابن سعد ، وعمر بن الأديم ، ورماح بن الحارث ، فلما قدموا المدينة ورأوا نساءهم
وذريعتهم ، بكوا إليهم ، وجاءوا إلى باب النبي صلى الله عليه وسلم ، فنادوا : يا محمد
أخرج إلينا : فخرج إليهم ، وتعلقوا به يكلمونه ، ثم جلس معهم في صحن المسجد .
ويقول ابن إسحاق : إنهم قالوا له : إنا جئنا لنفاخرك ، فأذن لناعرنا وخطيبنا ،

قال : نعم ، قد أدت لخطيبكم ، فليقم : فقام عطار بن حاحب ، فخطب ثم جلس ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لثابت بن قيس بن شماس : قم فأجبه ، فقام فأجابه بخطبة بليغة : ثم قام الزبرقان شاعر بني تميم ، وأشد شعرا مفاخر ، جاء في مطلعته . نحن الكرام ، فلاحى يعادلنا منا الملوك ، وفيما تنصب البيع فقام شاعر الإسلام حسان بن ثابت ، فأجابه على البديهة بفصيدة طويلة ، يقول في أولها :

إن الدوائب من فخر وإخوتهم قد بينوا سعة للناس قبيح
ولما فرغ حسان ، قال الأقرع بن حابس : إن هذا الرجل خطيبه أخطب من خطيبنا ، وشاعره أشعر من شاعرنا ، وأقوالهم أعلى من أقوالنا ، ثم أسلوا ، ورد عليهم النبي صلى الله عليه وسلم الأسرى والسبي ، وأجازهم فأحسن جوائزهم ، وهم الذين أنزل الله فيهم : « إن الذين ينافونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ، ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم ، والله غفور رحيم » . وأخرج البيهقي وغيره عن ابن عباس أنه لما جلس صلى الله عليه وسلم في المسجد مع وفد بني تميم ، جلس إليه الزبرقان بن بدر ، وعمرو بن الأهميم ، وقيس بن عاصم ، فنحى الزبرقان ، فقال : يا رسول الله : أنا سيد بني تميم ، والمطاع فيهم والمجاب ، أمنعهم من الظلم ، وأخذ منهم بمقوقمهم ، وهذا يعلم ذلك — وأشار إلى عمرو ابن الأهميم — فقال عمرو : إنه لشديد العارضة ، مانع لجانبه ، مطاع في أدنيه : فقال الزبرقان : والله يا رسول الله ، لقد علم مني غير ما قال ، وما معه من أن يتكلم إلا الحمد . فقال عمرو : أما أحسبك ؟ والله يا رسول الله ، إنه لثيم الحال ، حديث المال ، أحق الوالد ، مضيق في العشرة ! والله يا رسول الله ، لقد صدقت في الأولى ، وما كذبت في الثانية ، ولكني رجل إذا رضيت قلت أحسن ما علي ، وإذا غصبت قلت أقبح ما وجدت . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إن من البيان لسحرا .

وإذا كان هذا هو القدر الذي وقع من الزبرقان وعمرو ، وكان المتكلم إنما هو عمرو وحده في مراجعته الزبرقان ، فإنه لا يصح نسبة الخطبة إليهما — كما جاء في الحديث — إلا على طريق التجوز .

وجاء في جامع عبد الرزاق من مستند مجاهد أنه صلى الله عليه وسلم خطب خطبة في بعض الأمر ، ثم قام أبو بكر ، فخطب خطبة دونها ، ثم قام عمر ، فخطب خطبة دون خطبة أبي بكر ، ثم قام شاب ، فاستأذن النبي صلى الله عليه وسلم في الخطبة ، فأذن له ، فطول الخطبة ، فلم يزل يخطب حتى قال له النبي صلى الله عليه وسلم : هنية ! ثم قال : إن الله لم يبعث نبيا إلا مبلغا ، وإن تشقيق الكلام من الشياطين ، وإن من البيان لسحرا ، أو من البيان سحر . قال الحافظ أبو الخير السخاوي : هذه خلاف القصة الأخرى جزما .

والرجلان اللذان أشار ابن عمر في سياق الحديث إلى أنهما قدما من المشرق ، قال عنهما معظم الشراح : إسماعيل الزرقان وعمرو . والزرقان : اسم من أسماء القمر ، لقب به الحسن ، واسمه الحقيقي بن بدر بن امرئ القيس بن حلف ، ويجمع مع عمرو بن الأهيم في كعب بن سعد بن زيد مائة بن تميم ، فهما تميميان ، قدما في وفد بني تميم على النبي صلى الله عليه وسلم سنة تسع من الهجرة ، وكان من أمرهما ما سلف ذكره . والمراد من المشرق : جهة المشرق ، وكانت سكنى بني تميم من جهة العراق ، وهي في شرقي المدينة .

والبيان يأتي على ضربين : أحدهما ما تقع به الإمامة عن المراد بأى وجه كان ، والآخر ما دخلته الصنعة ، بحيث يروق للسامعين ، ويستميل قلوبهم ، وهو الذي يشبه بالسحر إذا خلب القلب ، وغلب على النفس ، حتى يحول الشيء عن حقيقته ، ويصرفه عن جهته ، فيلوح للناظرين في معرض غيره ، وهذا إذا صرف إلى الحق يمدح ، وإذا صرف إلى الباطل يذم .

والسحر في الأصل : مصدر سحر يسحر : إذا أبدى ما يندق ويخفى ؛ ويستعمل لغة في كل ما لطف مأخذه ، وخفى سببه ؛ ويراد به : الأمر الغريب الذي يشبه الخارق ، وليس به ؛ وهو يقال على معان كثيرة : فيطلق على الخداع والتخييلات التي لا حقيقة لها ، نحو ما يفعله المشعوذ بصرف الأبصار عما يفعله لحفة يده ، وما يفعله أصحاب الخيل بمعوثة الآلات المركبة على النسب الهندسية تارة ، وعلى صيرورة الخلاء ملاء تارة أخرى ، وبمعوثة الأدوية كالبارنجيات ، وما يفعله النمام من قلب الصديق عدوا والممدو صديقا ، بقول من خرف عائق للاسماع . ويطلق

على ما قالوه من الاستعانة في تحصيله باستجلاب معاونة الشيطان ، والتقرب إليه بارتكاب الفبايح : قسولا ، كالرق التي فيها أعاظ الشرك ، ومدح الشياطين واستخدامهم ؛ وعملا ، كعبادة الكواكب ، والتزام الجنابة ، وسائر الفسوق ؛ واعتقادا ، كاستحسان ما يوجب التقرب إليهم ، ومحبتهم إياه . ويطلق على ما يزعمون أنه من قوته يغير الصور والطبائع ، كالطير في الهواء ، والمشي على الماء ، وقتل النفس ، وقلب الانسان حمارا . ويطلق على الفصاحة في الكلام ، واللسانة فيه ، وحسن التوصل الى المطلوب ، والتدليل على المقصود باللفظ الرائق العذب ، لما فيه من الاستمالة والتأثير ، ويسمى السحر الحلال ، ومنه : إن من البيان لسحرا .

والجمهور من العلماء على أن السحر له حقيقة ، وأن الله يخلق عنده ما شاء . ويرى المعتزلة وجماعة من أهل السنة أن السحر لا حقيقة له ، وإنما هو تمويه وتخييل ، وإيهام لكون الشيء على ما هو به ، وأنه ضرب من الخفة والشعوذة ، كما قال تعالى في سحرة فرعون : « يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى » وقال : « سحرُوا أعين الناس » . وعلى ذلك ما يدعيه البعض من حديث الجن والشياطين ، والتأثير عليهم بالرقى والعزائم ، وما كان عليه أمر الكهان عند العرب في الجاهلية ، وما عليه حال بعض الناس من أنهم يكلفون أشخاصا بمعرفة أحبار الناس وأسرارهم ، ويلغونها إليهم ، ليخبروا بها أصحابها ، حتى يعتقدوا فيهم أنهم يعلمون الغيب ، أو أن الشياطين تخبرهم بالمغيبات .

أما ابن خلدون ، فإنه يعرف السحر في مقدمته بأنه : علم بكيفية استعدادات تقتدر بها النفوس البشرية على التأثير في عالم العناصر بغير معين ، ويقول عنه : إنه من العلوم المهجورة عند الشرائع ، لما فيه من الضرر ، وإن كتبه كالمفقودة بين الناس إلا ما وجد في كتب الأمم الأقدمين فيما قبل نبوة موسى عليه السلام ، مثل النبط والكلدانيين ، وإنه من العلوم المعروفة في أهل بابل من السريانيين والكلدانيين ، وفي أهل مصر من القبط وغيرهم ، وكان لهم فيه التأليف والآثار ، ولم يترجم لنا من كتبهم إلا القليل ؛ ولما ظهر بالمشرق جابر بن حيان ، تصفح كتب القوم ، واستخرج الصناعة ، وغاص على ذيلتها ، واستخرجها ، ووضع فيها غيرها من التأليف ؛ ثم جاء مسلمة بن أحمد المجرطي إمام أهل الأندلس

في التعاليم والسحريات ، فليخص جميع تلك الكتب ، وهذبها ، وجمع طرقها في كتابه الذي سماه « غاية الحكيم » ، ولم يكتب أحد في هذه العلوم بعده . وقد جعل ابن خلدون النفوس الساحرة على ثلاث مراتب : أولاها : المؤثرة بالهمة فقط من غير آلة ولا معين ، وهو ما يسمونه السحر . والثانية : المؤثرة بمعين من مزاج الافلاك أو العناصر ، أو خواص الأعداد ، وهو ما يسمونه الطَّلَسَّات . والثالثة : المؤثرة في القوى المتخيلة ، وهو ما يسمونه الشعوذة ، أو الشعبة . ثم عرض للخلاف في حقيقة السحر فقال : ولما كانت المرتبتان الأولىان من السحر لهما حقيقة في الخارج ، والمرتبة الأخيرة الثالثة ، لاحقيقة لها ، اختلف العلماء في السحر ، هل هو حقيقة ، أو إنما هو تخيل ؟ فالقائلون بأن له حقيقة ، نظروا الى المرتبتين الأولىين ، والقائلون بأن لاحقيقة له نظروا الى المرتبة الثالثة الأخيرة ، فليس بينهم اختلاف في نفس الامر ، بل إنما جاء من قبل اشتباه هذه المراتب .

وفي حكم السحر ، وحكم تعليمه وتعلمه ، وفي عقوبة الساحر ، خلاف كبير بين الفقهاء ، يطول ذكره لو تعرضنا له ، وليس هنا موضعه .

وأما قوله صلى الله عليه وسلم : « إن من البيان لسحرا » ، أو « إن بعض البيان لسحر » ، فإنه شك من الراوى في أى العبارتين صدرت عنه صلى الله عليه وسلم .

واختلف في المراد منه ، فحمله قوم على مدح البيان ، والحث على تحسين الكلام ، وتجنب الالفاظ ؛ روى عن عمر بن عبد العزيز أن رجلا طلب اليه حاجة كان يشعذر عليه إسعافه بها ، فاستمال قلبه بالكلام حتى أجزها له ، ثم قال : هذا هو السحر الحلال .

وذهب آخرون الى أن المراد منه الذم ، لانه ذم الكلام في التصنع ، والتكلف في تحسينه ليروق السامعين ، وليستميل به قلوبهم ، كما يفعل السحر ، حيث يحول الشيء عن حقيقته ، ويصرفه عن جهته ، فيلوح للناظرين في غير موضعه ، فكذلك المتكلم قد يحيل الشيء عن ظاهره ببيانه ، ويزيله عن موضعه بلسانه بإرادة التليس على السامع ؛ أو لأن من البيان ما يكسب صاحبه من الإثم ما يكتسبه الساحر بسحره ؛ أو لأن الرجل يكون عليه الحق ، وهو ألحن بالحجة من

صاحب الحق ، فيسحر القوم ببيانه ، فيذهب بالحق ، وهو عليه ؛ والدليل عليه قوله صلى الله عليه وسلم : « إنكم تختصمون إلى ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فأقضى له على نحو ما أسمع منه ، فن قضيت له بشيء من حق أخيه ، فلا يأخذه » ، وقوله : « إن أبغضكم إلى " الثرثارون المتفيهقون " » ، وإنما محمد البلاغة والفصاحة ما لم يخرج إلى حد الإسهاب والإطباب ، وتصوير الباطل في صورة الحق .

وقال الخطابي : إن هذا الحديث ليس ذما للبيان كله ، ولا مدحا له ، لقوله : من البيان ، فأتى بلفظة من التي للتبويض ؛ وكيف يذم البيان ، وقد امتن الله به على عباده ، حيث قال : « خلق الإنسان ، عله البيان » ؟ وقد اتفق العلماء على مدح الإيجاز ، والإتيان بالمعاني الكثيرة بالألفاظ اليسيرة ، وعلى مدح الإطباب في الخطابة بحسب المقام ؛ والإفراط في كل شيء مذموم ، وخير الأمور الوسط . وقال في شرح المشكاة : والحق أن الكلام إذا كان ذا وجهين ، فإنه يختلف بحسب المغزى والمقصد ، ومورد المثل على ما روى عنه عليه السلام في قصة البرقان وعمره ، كان استحسانا .

فعلى هذا يكون قوله : إن من البيان لسحرا ، خرج مخرج المدح للبلاغة ، والتفضيل للبيان .

(١) الثرة : كثرة الكلام وزديده ، وتفنيق : التوسع فيه وقطع .

أصلح الولاية

لما قدم رجال الكوفة إلى عمر بن الخطاب يشكون سعد بن أبي وقاص ، قال : من يمدني من أهل الكوفة ؟ إن وليتهم التي ضعفوه ، وإن وليتهم القوى لجروء . فقال له المغيرة : يا أمير المؤمنين إن التي الضعيف له تقواه وعليك ضعفه ، والقوى الفاجر لك قوته وعليه لجوره . قال : صدقت فأخرج اليهم . فلم يزل عليهم أيام عمر ، وصدرا من أيام عثمان ، وأيام معاوية ، حتى مات المغيرة .

بعض الخوف حزم

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد محمد المدني
المفتش بالأزهر

في الاخبار التي ذكرها الله تعالى في كتابه الكريم ، عن موسى الكليم صلوات الله وسلامه على نبيينا محمد وعليه ، تردد كلمة الخوف ، أو ما في معناها ترددا يلفت النظر ، ويشير بعض الأسئلة :

١ — فن ذلك ما أنبأنا الله تعالى به من أنه حين آنس من جانب الطور نارا ، وسمع كلام الله ، وأمره بإلقاء عصاه ، أدركه الخوف ، واضطربت نفسه اضطرابا شديدا ، حتى ولى مدبرا عن هذا المقام الكريم ولم يعقب ، فتأداه الله وطمأنه وأذهب عنه الروع : جاء في ذلك في سورة طه حيث يقول جل شأنه : قال ألقها يا موسى فألقاها فإذا هي حية تسمى . قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى ، وفي سورة النمل حيث يقول عز وجل : وألق عصاك ، فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى . لا تخف إني لا يخاف لدي المرسلون ، وفي سورة القصص حيث يقول الله تعالى ذكره : وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الأمنين .

٢ — ومن ذلك أنه حينما كلف الرسالة إلى فرعون وقومه أحسن منهما فرقا وخوفا ، وطلب من ربه أن يشد أزره بأخيه هرون ، وأبدى له جمل شأنه ما يشعر به في نفسه من خوف ووجل ، فطمأنه الله وثبته ، وبين له نعمه عليه في تاريخ حياته ، وأنه معه ومع أخيه ، ومن كان الله معه فلا يخاف شيئا : جاء ذلك في سورة طه حيث يقول الله عز وجل : اذهب إلى فرعون إنه طغى . قال رب اشرح لي صدري ، ويسر لي أمري ، واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي ، واجعل لي وزيرا من أهلي ، هرون أخى أشدد به أزري ، وأشركه في أمري ، وحيث يقول :

• اذهب الى فرعون إنه طغى ، فقل له قولا لينا لعله يذکر أو يخشى ، قالوا ربنا
 إنا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ، قال : لا تخافا إني معكما أسمع وأرى ،
 وفي سورة الشعراء حيث يقول • وإذ نادى ربك موسى أن اتت القوم الظالمين
 قوم فرعون ، ألا يتقون . قال رب إني أخاف أن يكذبون ، ويضيق صدرى ولا
 ينطق لسانى فأرسل الى هرون ، ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون قال كلا فاذهب
 بآياتنا إنا معكم مستمعون • وفي سورة القصص حيث يقول جل جلاله • قال رب
 إني قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون . وأخى هرون هو أفصح منى لسانا فأرسله
 معى ردءا يصدقنى إني أخاف أن يكذبون . قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل
 لك سلطانا فلا يسلطون عليك ، بآياتنا أتينا ومن اتبعك العالبون • .

٣ — ومن ذلك أنه حينما ألقى السحرة حبالهم وعصيمهم فى الجمع يوم الزينة
 أدركه الخوف ، ولعبت به الوسوس والاختيلة حتى احتاج الى أن يطمئنه الله
 ويسكن جأشه ، ويبين له أنه هو الغالب ، وأن آيته من الله قلن يصيره شيء :
 جاء ذلك عنه فى جملة الناس من شهود هذا اليوم ، إذ يقول الله عز وجل فى سورة
 الاعراف • قال ألقوا ، قلنا ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر
 عظيم ، وأوحينا الى موسى أن ألق عصاك فإذا هى تلقف ما يأمرون . فوقع الحق
 وبطل ما كانوا يعملون ، وجاء صريحا فى سورة طه حيث يقول الله عز وجل
 حكاية عنه : • قال بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيمهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ،
 فأوجس فى نفسه خيفة موسى ، قلنا لا تخف إنا أنزلناك من الأعلى ، وألقى ما فى يمينك
 تلقف ما صنعوا ، إنما صنعوا كيد ساحر ، ولا يفلح الساحر حيث أتى • .

٤ — ومن ذلك أن الله سبحانه وتعالى أبانا أنه طمأن موسى حينما أمره
 أن يشق البحر ويصرب لقومه طريقا فيه ، وأعلمه أنه عاصمه من أعدائه ، وحائل
 بينهم وبينه : جاء ذلك فى سورة طه حيث يقول الله عز وجل • ولقد أوحينا
 إلى موسى أن أسر بعبادى فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا ، لا تخاف دركا
 ولا يخشى ، ولولا ذلك لأدركه من الخوف ما أدرك أصحابه ، كما حدث الله عنهم
 فى سورة الشعراء إذ يقول : • فأتبعوهم مشرقين . فلما تراءى الجمعان قال أصحاب
 موسى إنا لمدركون . قال كلا إن معى ربي سيهدين • .

٥ — ومن ذلك ما أنبأنا الله به من أن موسى حينما ذهب يوفد قومه لميقات ربه وأخذتهم الرجفة ، خاف وخشى أن يكون ذلك سبباً في تكذيب الناس وقتلتهم ؛ وفي ذلك يقول عز شأنه في سورة الاعراف : واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا ، فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإني أرى ، أنهلكنا بما فعل السفهاء منا ، إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء .

٦ — ومن ذلك ما كان من أمره قبل الرسالة ، وهو في المدينة بين شيعته وعدوه ، وحين خرج منها بعد أن نصحه ناصحه ، وحين ورد مدين مراراً من تعقب الظالمين : وقد وصف الله ذلك في سورة القصص إذ يقول : فأصبح في المدينة خائفاً يترقب ، وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملا ياتمونك ليقتلوك فأخرج إلى لك من الناصحين ، وأخرج منها خائفاً يترقب قال رب نجني من القوم الظالمين .

وقد قص الله علينا حديثه عن نفسه بهذا الخوف فيما جاء في سورة الشعراء من قوله : ففرت منكم لما خفتكم .

• • •

لمادا عني القرآن الكريم بإبراز هذا المعنى ، وتصوير هذا الشعور الذي كان يشعر به موسى عليه السلام ، وهل في ذلك ما يمدح في قوة هذا الرسول الكريم ، ويطن في شجاعته وثبات جنانته ؟

للجواب على هذين السؤالين لابد لنا أن تبين الحالة التي كانت سائدة في زمان موسى عليه السلام من الظلم والطغيان ، والعسف والجبروت ، وأن نبين المعنى النفساني الذي تفرسه مثل هذه الحالة في نفس المصلح الحريص على مجاحه في دعوته ، وعلى إيقاد قومه بما يتخبطون فيه ؛ وقد بين لنا القرآن الكريم حالة القوم الذين أرسل إليهم موسى في كثير من المواضع ، فإدراكنا حالة من أشد الحالات سوءاً .

١ — فمن ذلك ما جاء في أول سورة القصص من قوله تعالى :

« طم . تلك آيات الكتاب المبين . تتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون . إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستعحي نسائهم إنه كان من المفسدين . وزيد أن نحن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون . »

فهذه الآيات الكريمة تبين لنا أن فرعون قد استبد بقومه أيما استبداد ، وهلا فيهم عن أن يكون ملوكا يرعاهم ويعرف لهم حقوقهم ، ويعمل ما فيه صلاحهم ، حتى زعم أنه إله يجب أن يطاع ، وأن يذاب له بالخضوع وقال : « أنا ربكم الأعلى ، و « إنا فوقهم قاهرون ، « وقومهما لنا عابدون ، و « لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين ، و « يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحا لعلني أطلع إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين . »

وتدلنا الآيات أيضا على أن فرعون قد فرق بين الرعية ، وشتت شملها ، وهذا أمر طبيعي في الشعوب التي تملك وتحكم بالطاعة المستكبرين ، لأنهم يتخذون بطانة تزين لهم ما هم فيه ، وتقرب منهم من يقرهم عليه ، وتبعد وتضطهد كل من حدثته نفسه بالتشكك فيه أو التساؤل عنه ، فيتقاطع الناس ، ويتحاسدون ويتباغضون ، ويكيد بعضهم لبعض ، ويحذر بعضهم بعضا ، وتكثر الدسائس والفتن ، والمظالم والظلمات .

وتدلنا الآيات أيضا على أن فرعون قد بلغ به الجبروت والطغيان حد التذبيح والتقتيل لأقوى عصرى الأمة دون ذنب لضحاياها ، والتسخير والاستخدام للعنصر الآخر ، وذلك هو تذبيح الأبناء ، واستحياء النساء ؛ فقد كان يستبقيهن لاستخدامهن في أعماله ولهو وجهه ؛ وحسبنا أن الله يمتنعه في هذه الآيات بقوله « إنه كان من المفسدين ، وفي غير هذا الموضع بقوله « إنه كان عاليا من المرءين ، واستكبر هو وجوده في الأرض بعير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون . »

ونحدثنا الآيات أيضا عما مضت به كلمة الله من إحداث انقلاب في تلك الأمة ، يُرْزَلُ فيه على الطاغين ، ويمكّن للمستضعفين ، ويُفضى على القوم

الظالمين ، ولا شك أن انقلابا كهذا لا بد أن يحدث في تطوراتهِ وبين يدي نتائجهِ هزات عنيفة ، وألوان من الفاسد والمتاعب والمظالم .

٢ — ومن ذلك أن قوم موسى أنفسهم ، الذين هم رعية فرعون كانوا أيضا ذوى طبيعة متمردة عاتية ، لا يذكرون النعمة ، ولا يوفون بالعهد ، ولا يؤمنون بالحق ، وقد حدثنا القرآن بأنهم عبدوا العجل ، وبدلوا قولا غير الذى قيل لهم ، وطلبوا رؤية الله جهرة ، وعثوا فى الأرض مفسدين ، واستبدلوا الذى هو أدنى بالذى هو خير ، وكانوا يكفرون بآيات الله ، ويقتلون الذين بغير الحق ، ويعبدون فى السبت الذى جعله الله عليهم ، وأن قلوبهم قاسية فهم كاللحجارة أو أشد قسوة ، وأنهم قالوا لن نؤمن بالله إلا أياما معدودات ، ونحن أبناء الله وأحباؤه ، ويد الله مغلولة ، وهزير ابن الله ، وأنهم أحرص الناس على حياة ، وأشد الناس عداوة للذين آمنوا ، فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه ، وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ، ، وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين ، .

فأمة هذا شأنها ، وتلك طبيعة أفرادها وجماعاتها ، وقد حكى هذا الصنف من الطغاة المستكبرين ، ماذا يكون شعور المصلح الذى يكلف فى شأنها برسالة تمحوها من طريق الشر الذى اندفعت فيه الى طريق الخير والصلاح ؟ ماذا يكون إحساسه وهو مكلف بأن يقلب وحوشا ضارية الى أناس " يأخذون أنفسهم بالفضيلة ، ويعرفون للحق قيمة ، ويؤمنون بالله وحده ؟

لقد كان كل ما يحيط بموسى عليه السلام شذوذا وفسادا ، وشرا وسوما ، حتى لقد صحبه ذلك منذ أول نشأته وهو طفل رضيع مهدد بالقتل كما كان يقتل لدائه ، وأوحى الله الى أمه فى شأنه بأمر عظيم خطير فوق القوى العادية للبشر ، وفوق الاحتمال العادى لأم مثلها وفى مثل ظروفها ؛ وفى ذلك يقول الله عز وجل : " وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين . فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا ، إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين . وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون . وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون

من المؤمنين، وقالت لاخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون . وحرمتنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون . فرددناه الى أمه كي تقرر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون . .

وهكذا عاش نبي الله في كنف عذراء الله ليقضى الله أمرا كان مفعولا . فن الواضح أن هذا الخوف الذي كان بارزا في حياة موسى ليس هو خوف الجبن والفرق ، فما أرسل الله نبيا جباناً ولا رعيدياً ؛ ولكنه خوف الحذر والحرص على مجاز الدعوة وبقاء عليها مرفوعاً خفافاً ، وليس من الحزم أن يستقبل المرء كبار الأمور باستهانة وعدم مبالاة ، فيؤخذ على غرة ، ويقطع عن سبيله قطع الفجأة ، ولكن الحزم اتخاذ الحيلة وتقدير الأمور بقدرها ، وحساب كل العوامل التي تحيط بالعامل وبالعامل ، حتى يكون التصرف على أساس سليم ، وقد يما قيل : من خاف سلم . وإذا كانت حياة المصلحين ليست ملسكا لهم فيجب عليهم أن يكونوا أحرص الناس عليها ، وأضنهم بها ، فإن ذلك وقاه لا لأشخاصهم ولكن لأقوامهم وأممهم ، ورسالتهم التي بها يؤمنون .

إسلام الهرمزان

لما أتى بالهرمزان أسيرا الى عمر بن الخطاب ، قيل له : يا أمير المؤمنين إنما هذا زعيم العجم وصاحب رئيسهم . فقال له عمر : أعرض عليك الإسلام نصحا لك في عاجلك وآجلك . قال : يا أمير المؤمنين إنما أعتقد ما أنا عليه ، ولا أرغب في الإسلام . فدعا له عمر بالسيف . فلما هم بقتله قال : يا أمير المؤمنين شربة ماء . فأمر له بشربة من ماء . فلما أخدها قال أنا آمن حتى أقربها ؟ فقال له أمير المؤمنين : نعم . فرمى بها وقال : الوفاء يا أمير المؤمنين نور أبلغ . قال صدقت ، لك التوقف عك ، وأنظر في أسرك . قال : الآن يا أمير المؤمنين أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله . فقال له عمر : ما أخرك ؟ قال : كرهت أن تظن بي أني أسليت جوعا من السيف !

بين الشريعة والقانون

نظرات في توثيق المعاملات المالية

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد اللطيف السبكي
المفتش بالأزهر

حكمة مشروعية التوثيق :

قلت إجمالاً : إن التعامل بين الناس ، ضرورة جبرية ، نشأت بشوء المجتمع ، وتطورت بتطوره ؛ وإن الإسلام نظر إلى المعاملة على أنها كذلك ، ولأنها فوق ذلك قوام الحياة الدنيا ، ووسيلة التأهب للحياة الآخرة ؛ فمضى بها الدين الإسلامي عناية لم يسبق إليها ، حتى لم يدع فيها نفرة لتشريع دجيل ؛ ولكن بعض أناس ، أو كثيراً من الناس ، مع ما يرون من دواعي التوثيق فيها ، ومع ما أوردنا من توثيقات الرسول عليه صلوات الله وسلامه ، في كثير من معاملاته - لا يزالون في أفق صيق ، من تقدير وجهة الشريعة ، فمارمت إليه من الدعوة إلى الاستيناف والتوثيق .

فلنقف مع هؤلاء يسيراً ، حتى إذا تبينوا الحكمة ، أكثر من قبل ، نبأ لهم أن يسايرونا بعد ، في متابعة الحديث :

(١) نظر الإسلام إلى أن المال محبوب إلى النفس ، وأن المرء ضنين بما في يده ؛ فهو يجمع في حوزته ما يستطيع جمعه ، محاولاً أن يشبع رغبته ، ولا يتحلّى عن شيء من ماله إلا ابتغاء منفعة أرجح وألزم لمصلحته ؛ ومن أجل ذلك وُسم بالطمع ، وعرف بالحرص ، ووصف بالشح ، وأنه يأكل التراث أكلًا لما ، ويحب المال حبا جما ، إلى آخر ما وصف به على لسان الشريعة ، من تكالب ونهم ، حتى احتيج في توجيهه للتخفيف إلى الترغيب ، والترهيب ، والتبديد عليه ،

بأنه يتقاضى عن أخراه وهي خير وأبقى ، وينصرف الى دنياه ومتاعها زائل لا يبقى . والإسلام الذى صور الإنسان بهذه الصورة الحققة ، يدعو الى التعاون ، والبذل فى سبيل الخير ، وسط يده فى تفريخ الكرب ، والى سهولة البيع والشراء ، والى الإحسان فى قضاء الدين والاقتضاء .

« رحم الله رجلا سمحا ، إذا باع ، وإذا اشترى ، وإذا اقتضى ، » . تلقت الملائكة روح رجل ممن كان قبلكم ، فقالوا : أعلمت من الخير شيئا ؟ قال : كنت أنظر الموسر ، وأنجاوز عن المعسر ، ^(١) فإذا كان التعامل مدعاة لا تنقل المال المضروب به ، من يد صاحبه ، قرضا ، أو معارضة ، فالخوف يقتضى طبعه غالب عليه ، ألا يعود إليه ماله : والشك يساوره أن يسلم له القرض : والحرص كامن فى نفسه ، كلما جدت له حاجة : والحذر مستول عليه إذا احتيج منه إلى معونة .

فما السبيل إلى الجمع بين طبع ضيق ، وشح مكين : وبين تنفيذ الدعوة الى تيسير فى المعاملة ، ولين فى العطاء ، وترويج للنافع ، وتعاون على الخير ؟ ذلك سؤال نستوحيه من شأن صاحب المال ، ولنتأمل فى الجواب عنه قليلا .

وإذا كان الجشع والطمع فى حق الغير ، آفة لازمة ، ونزعة متحكمة ؛ وإذا كان النسيان من طبيعة الإنسان ، والأموال عند الغير عرضة لأن تضيع ، بسبب من هذه الأسباب ، ومن وراء ضياعها تنازع يقضى على الروابط ، وفساد فى نظام المجتمع — فما السبيل الى صيانة الأموال من المطامع ، والإبقاء على روح التعاون والمودة ؟ . وذلك سؤال آخر نستوحيه من شأن الآخذ لمال الغير . وجواب السؤالين : أن سبيل هذا وذاك أن تكون بين الناس وثائق تدفع خوف صاحب المال المدفوع له مديئة أو معاوضة ، وتكف من طمع المدين ، والمستأمن على المال ، أو تذكره عند النسيان .

ففى التوثيق : تيسير على المضطر ، أن يصل الى معونة من الموسر ، فيقضى لباته ، ويدفع ضرورته ، ويتخلص من شدة إلى رخاء .

وفي التوثيق : طمأنة للموسر على ماله أن يحمده أو يماطل به ؛ فذاك واصل إلى بيته ، وزرع الشئ مأمونة من جانيه ؛ وهذا مطمئن على ماله ، والامر بالتعاون ناهض من جانيه ، ورقامية العيش وارقة على المدين والدائن ، والآخذ المعطى ؛ وكل ذلك بفضل التوثيق في المعاملات .

(ب) قد يرغب البعض منا أحيانا عن الآخذ بالتوثيق إثارا للمعاملات ، وخشية أن يكون الاحتياط بالتوثيق صافيا للودة ، أو اطمئنانا إلى وفاء صاحبه ، فيقرضه أو يبيعه بضمن مؤجل كله أو بعضه ، ولا يرى حاجة إلى الاستيثاق . وهذه اعتبارات لها قيمتها في العرف الأدبي ؛ ولكن الزمن حوّل قلب ، واليالي حبال بالمعائب ، وقد يحدث على الأيام ما يغير الوضع بين المرء وصاحبه ، فتكون الخصومة أو الطمع مدعاة للتجاهد ، ويكون التجاهد مذكيا للضعف ، وقاضيا على الأمل في رأب الصدع ؛ وإذا تكون الرغبة الأولى في المجاملة جاءت بنتيجة عكسية لما قصد منها .

وصدق النظر ، وحن التدبير للعواقب ، يلهمان المرء الحصيف أن يصون المودة بما يشوبها ، ويباعد بينها وبين ما يزعزعا ، ويدبرأ عنها ما تتعرض له من جراء المعاملات . ووسيلة ذلك أن تأخذ بما نصحتنا به الشريعة فيما أمرت به . أليس يقول النبي عليه السلام : « احترسوا من الناس بسوء الظن »^(١) ويقول في حديثه المشهور : « دع ما يريك إلى مالا يريك »^(٢) .

وقد نعلم أن كثيرا من أهل اليسار ، أعسروا وتغيرت حالهم بسبب إهمال التوثيق في معاملاتهم . وإذا كنا نرى من أهل عصرنا من يحاول - مع الآخذ بالتوثيق - أن يغفل من أداء الحقوق ، فينكر الوثائق أو يطعن عليها بالتزوير ، ويجمع من أرباب الفسوق شهودا يرف لهم من باطل القول ما يسهل عليهم أن يواطئوه على إنكار الحق ، وقد يتنادى فيحاول الوصول إلى القضاء يومئذ غير مشروعة طالما أن يصل إلى ضياع الحق على مستحقه ... أفلا يكون التوثيق إزاء هذه المحاولات ، ألزم وأولى بالرعاية ، من قصد المجاملات ابتداء ؟

وقد سلف القول : بأن بعض الشرائع الأولى ، أخذت بالتوثيق ، فيها أخذت به ، وكان ذلك تأييداً لما أدركته فطر الناس قديماً ، من شأن التوثيق حتى جعلوه عماداً في المعاملات ، ونظموا له قواعده . ونحن نرى قضائنا ، وعلماءنا ، يدكرون في بحوثهم ، في باب التوثيق ، تشريعات وضعية ، وينقلون عنها ، وأنت تقرأ هذه القول ، في كتب الشهورى باشا ، وكامل مرسى باشا ، وسواهما . وفي ذلك منقح بأن التوثيق في المعاملات ، ليس من الكليات ، ولا من مخترعات المشرعين ، وإنما هو احتياط أوجت به الفطرة ، وأخذت به الشرائع ، وقد عززه ونظمه ودعا إليه دين الفطرة - الإسلام .

(ج) وعلى التضيض من أولئك الدير يستهترون بالاستيثاق ، فريق آخر يشتد به الحرص والجمع ، فيأخذ بالتوثيق في غير هوادة ، ويتخذون الوثائق ، سبيلاً إلى الكسب ، فهم لا يقصدون منه الاطمئنان على المال ، ولا يتحفظون به من طغيان المطامع ، وإنما يشقون بها طريقاً إلى المنافع ، ولو كانت عظورة ، أو تقطعت بها الروابط ؛ فهم لذلك لا يترققون بالمدين في الاقتضاء ، ولا يُنظرون المعسر إلى ميسرة ؛ وليست الوثائق عديم إلا غلا في العنق ، يسحب به المدين إلى حيث لا يريد ، ولا ينبغي أن يراد به .

من أمثلة ذلك : أن تشجعي إحدى المؤسسات المالية على بناء بيت ، فتقدم ل من النقد ، ما احتاجه . وتفترض لهذا النقد ربحاً ربويًا ، يضاف إلى الأصل على أنه دين كله ، ثم يجعل الدين رهناً على العقار ، مقسطاً على نجوم متوالية ، هل أنى إذا تخلفت عن الوفاء في موعد منها ، أصبح البيت كله ، مملوكاً للتؤسسة التي أقرصتني ، وضاع ما أنفقته ، ولو كنت قاربت الوفاء بالدين كله . ولقد ترب هذا النوع من التعامل حتى أخذ به أفراد ، ومؤسسات ، يتمتعون إلى الإسلام ؛ كما نشأ هذا النوع حتى تغلغل في صفقات أهل الربح حين ابتاعهم للأرض الزراعية ، وتغلغل كذلك بين كثير من التجار ، وأصحاب المصانع ، مما يسمونه تأميناً ، وما هو إلا ضرب من المفامرة الجائرة ، يحبه إليهم طموحهم إلى التوسع في الكسب ، ثم تكون هذه التأمينات التي اصطنعوها هوة تبتلع ما بأيديهم ، فلا تبقى من حلاله ، أو حرامه .

فإن توثيق شرع لصيانة الأموال ، وحفظ العلاقات ، من توثيق وضع لاستغلال الضرورات ، والتهام الثروات ، ولوأدى الى تفاقم البعضاء ، وإهدار الدماء ؟

قد يقول قائل : كثيرا ما تنجح المعاملة من غير توثيق ، فلا يستنار به ليس دائما بضار ، وكثيرا ما تنجح المعاملة مع التوثيق الجاف ، فالتشدد في الاستيثاق ليس دائما بمعجز ولا ضار ، فأمر التوثيق وعدمه لا يستحق كل هذا التقدير .

وجوابا على ذلك : أن المعاملة المالية حينما تكون عارية عن الوثيقة ، تكون محفوفة بالخوف والقلق ، وقد تنتهي الى لقمة سائغة يستلذها الآخذ ، ويحس بالحسرة عليها المعطى .

وحينما تكون المعاملة موثقة في جفوة وضغط ، تكون محفوفة بالكراهية والاضغينة ، وبجاحتها قليل بالإضافة الى ما تجرأ به من نزاع وضياح ؛ وفي ساحات القضاء صور من المأسى تمثل هذا كله ، وتهرب الى الذهن ما يقع بعيدا عن العين في مجال الحياة .

ذلك تصوير مجمل لما يقع بين الناس ، ولعل فيه من الضوء ما يكشف عن حكمة التوثيق في نظر الشريعة ، وعلى نحو ما رسمت الشريعة .

وهو تصوير يتفق في حقيقته وحكمته ، مع وجهة القانون الوضعي في تحديده للغاية من التوثيقات . ومن شواهد ذلك ما يقوله العلامة الجليل كامل مرسى باشا في كتابه - التأمينات - وعبارته : « جعل القانون للدائن تأمينات تضمن تنفيذ الالتزام الذي هو دائن فيه ؛ وهي وسائل بها يتق الدائن خطر الإعسار المحتمل للمدين ؛ وبها يضمن المدين وجود الثقة التي بها يستطيع الحصول على الدين الذي يحتاج إليه . . . وكفى . . . ولنا عود إن وفق الله سبحانه »

تفسير سورة الليل

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الرحيم فرغل البيني
المدرس بكلية الشريعة

بسم الله الرحمن الرحيم :

«والليل إذا يغشى ، والنهار إذا تجلى ، وما خلق الذكر والأنثى ، إن سعيكم لشتى ، فأما من أعطى واتقى ، وصدق بالحسنى ، فسيره اليسرى ، وأما من بخل واستغنى ، وكذب بالحسنى ، فسيره اليسرى ، وما يعنى عنه ماله إذا تردى . إن علينا للهدى ، وإن لنا للأخرة والأولى ، فأنذرتكم نارا تلقى ، لا يصلها إلا الآشقى ، الذى كذب وتولى ، وسيجنها الاتقى ، الذى يؤق ماله يتزكى ، وما لأحد عنده من نعمة تجزى ، إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ، ولسوف يرضى .»

بيان مكان نزولها وآياتها :

هى سورة مكية ، وآياتها إحدى وعشرون .

بيان حكمة إزالتها :

حكمة الإزالة تتمحور في شئتين : (أولهما) الترغيب في البذل والإنفاق ، ووعد من فعل ذلك واتقى وآمن ، بتيسير أعمال الخير ، وتذليل أسباب البر .

و (ثانيهما) التنفير من البخل والإمساك ، ووعد من فعل ذلك واستغنى بماله وكذب ، بتيسير أعمال الشر ، وتهمة وسائل النفي .

ولما جاءت السورة بكل هذا لما يترتب على البذل - خصوصا في الملمات - من الأخذ بيد الضعيف ، وتخفيف كربة البائس ، والنهوض بالامة ، ورفعة شأنها ، وإعزاز جانبها ، ولما ينجم عن البخل - لاسيما في الثنابات - من شيوع البؤس بين الأفراد والجماعات ، وإضعاف شأن الامة ، والسير بها في طريق الفناء .

بيان سبب النزول :

قال القفال : نزلت هذه السورة في أبي بكر الصديق ، وإنفاقه على المسلمين ،

وفي أمية بن خلف وبخلة وكفره بربه ، إلا أنها وإن كانت كذلك فإن معانيها عامة للناس ، بدليل أنه تعالى قال فيها : « إن سميكم لشيء » وقال : « فأبذرتكم نارا تلقى » بصيغة الجمع : وبدليل ما روى عن علي كرم الله وجهه أنه قال : « خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة ، ففقدنا وقعدنا حوله ، فقال : « ما منكم من نفس مفروسة إلا وقد علم الله مكانها من الجنة والنار » ، فقلنا : يا رسول الله أفلا تتكلم ؟ فقال : « عملوا فكل ميسر لما خلق له ، فأما من أعطى واتقى الخ » ، فبان بهذا الحديث عموم هذه السورة .

بيان المعنى التفصيلي

« والليل إذا يغشى » :

« الليل » مقسم به . « إذا » ظرف بمعنى حين . « يغشى » يغطي بظلمته . ولم يذكر ما يغشاها الليل ويغطيه ، إما للعلم به ، وإما لإرادة التعميم . ولذلك قيل : إن الله تعالى يقسم بالليل حين يغطي الشمس ، والدليل قوله تعالى : « والليل إذا يغشاها » . وقيل : « إنه يقسم به حين يغشى النهار » ، والدليل عليه قوله تعالى : « يعشى الليل النهار » . وقيل : « إنه يقسم به حين يغطي كل ما يؤويه » ، والدليل عليه قوله تعالى : « ومن شر غاسق إذا وقب » أي ومن شر الليل إذا نشر ظلامه . وهذا الأخير أنسبها . ويشهد له حذف المعمول المؤذن بالعموم .

« والنهار إذا تجلى » :

« النهار » مقسم به . « إذا » ظرف بمعنى حين . « تجلى » ظهر وانكشف بطلوع الشمس ، أو ظهر بزوال ظلمة الليل .

بيان الحكمة في القسم بالليل والنهار :

بيان الحكمة في القسم بالليل والنهار نقول :

افتتح الله هذه السورة الكريمة بالقسم ببعض مخلوقاته على أن مساعي الناس مختلفة صفة ونوعا ، وأن جزاءهم عليها مختلف يسرا وعسرا . وكذلك جاء في مفتتح كثير من سور القرآن ضروب من القسم بأشياء من مخلوقاته ، على نهج ما جرت به عادة العرب الذين نزل الكتاب بلغتهم من توكيد الاخبار الغريبة على السامعين

بالإيمان . وما كان الله جل شأنه ليجتاح في تأكيد أخباره إلى القسم بما هو صنع قدرته ، فليس لشيء في الوجود قدر إذا نسب إلى قدره ، بل لا وجود لكائن إذا قيس إلى وجوده .

ولهذا قد يسأل السائل عن السر في القسم بهذه المخلوقات ، وعن الحكمة في القسم بها .

والجواب : أننا لو تتبعنا ما ورد من هذه الأقسام في كتاب الله فإننا نجد يرجع إلى أحد سببين :

(أولهما) : أن تكون هذه الأشياء المخلوف بها قد عظمت عند بعض الطوائف حتى خصموا لها وعبدوها من دون الله ؛ فيقسم الله بها ، ويذكر بجانب القسم بها بعض صفاتها التي تدل على تغيرها ، وأنها بصدد الفناء والزوال ، لينبه العقول إلى أن الحقيق بالالوهية لا يمتريه التغير ، ولا يحل به التبدل ، ولا يلحقه الأفول .

مثال ذلك : القسم بالشمس في قوله تعالى : « والشمس وضحاها ، الخ . فإن الشمس قد وجدت غفلة من عقول بعض الناس حتى عبدوها ، فأقسم الله بها ، وذكر بعد القسم بها ما يطرأ عليها من التغير والأفول مما لا يتفق مع شأن الإله المستحق للعبادة والتعظيم .

و (ثانيهما) : أن يكون المخلوف به أمراً جليلاً ، يدل على قدرة الصانع وعظمته ، ولكن بعض الناس غفل عن فائدته ، وعى عن حكته في خلقه ، أو ذهل عن موضع العبرة فيه ؛ فيقسم الله به ليلمت العقول إلى مظاهر قدرته التي غفل المخاطبون عن تدبرها ، والاستدلال بها على عظمة الخالق الكبير .

مثال ذلك : القسم بالليل والنهار في قوله تعالى : « والليل إذا يعشى ، والنهار إذا تجلى ، فأقسم الله بالليل حين يغشى الخلائق بظلمته ، لانه يأوى فيه كل حيوان إلى مأواه ، ويسكن فيه الخلق عن التحرك ، ويشاهم اليوم الذي جعله الله راحة لأبدانهم وغذاء لأرواحهم . وأقسم بالنهار إذا ظهر وانكشف ، لأنه الوقت الذي يتحرك فيه الناس لمعاشهم ، وتحرك فيه الطيور من أوكارها والهوام من مكانها .

وفي كل هذا آيات الله واصحات تدل على قدرته وعظمته ، ومن له سابقات
تذكر بحليل نعمته ، وتطلق الألسنة بحمده وشكره : كما قال تعالى : « وهو الذي
جعل الليل والنهار خلفه لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا » . وقال أيضا : « ومن
رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكتوا فيه ولتبتغوا من فضله ولكم تشكرون » .
ثم قال تعالى : « وما خلق الذكر والأنثى » .

وقول في بيان معناه : « ما » موصولة بمعنى الذي ، والدليل على كونها
موصولة قراءة ابن مسعود : « والذي خلق الذكر والأنثى » . والمراد بالذكر
والأنثى ، كل ذكر وكل أنثى ، فيشمل جميع ما فيه روح . والذي خلق الذكر
والأنثى هو الله سبحانه وتعالى ، فهو جل وعلا ، يقسم بذاته العلية الخالقة للذكر
والأنثى ، على أن مساعي الناس وأعمالهم مختلفة ، على ما سيأتي .

وعبر عن ذاته العلية بلفظ « ما » ، التي هي لغير أولى العلم ، دون لفظ
« من » ، التي هي لأولى العلم ، لإرادة الصفة ، فكأنه قيل : والقادر العظيم القدرة
الذي خلق كل ذكر وكل أنثى .

هذا ، والقسم بهذا العنوان : « وما خلق الذكر والأنثى » . يشعر باتصافه
جل وعلا ، بصفة العلم المحيط بدقائق المادة وما فيها ، لأن التخالف بين الذكر
والأنثى في الحيوان ، لا يعقل أن يحصل بمحض الاتفاق من طبيعة لا شعورها
بما تفعل ، كما يزعم بعض الجاحدين . فإن الأجزاء الأصلية في المادة متساوية إلى
كون الذكر أو كون الأنثى ، فتكوين الولد من عاصر واحدة ، تارة ذكرا ، وتارة
أنثى ، دليل على أن واضع هذا النظام عالم بما يفعل ، حكيم فيما يصنع ويصنع .
« إن سعيكم لثني » :

هذا هو جواب القسم ، أي المقسم عليه ، و « السعي » : العمل ، وهو مفرد
مضاف فيعم ؛ فالمراد منه الأعمال . و « ثني » : جمع شئيت بمعنى متفرق
ومختلف ؛ أي إن أعمالكم مختلفة . فآله سبحانه وتعالى أكد بالاقسام الثلاثة
المتقدمة ، ما تضمنته هذا الخبر من أن أعمال الناس مختلفة ، ومساعدتهم متفرقة ؛
وهذا الاختلاف في أمرين : اختلاف في نوع العمل وصفته ، كالإعطاء ، والمنع ،
والتقوى ، والفجور ، والتصديق بالحسن ، والتكذيب بها ؛ واختلاف في العاقبة ،

والجزاء : فته ما يسعد به الساعي ، ومنه ما يشقى به ، ومنه ما يكون ثوابه الجنة ، ومنه ما يكون عقابه النار .

والمعنى الإجمالي :

وحق الليل حين ينطى الخلائق بظلمته ، وينشئ الموجودات بحلته ؛ والهار إذا ظهر ضوؤه وانكشف نوره ؛ وقدرتى الخالقة لصنئ الذكر والأنثى ، المبدعة لهما على غير مثال وشبه - إن أعمالكم مختلفة ، وإن مساعيكم لتباعدة مفترقة ، بعضها هدى يوجب الجنان ، وبعضها ضلال يوجب النيران .

ثم فصل سبحانه وتعالى ذلك الاختلاف في نوع العمل وعاقبه فقال : فأما من أعطى واتقى ، وحقق بالحقى ، فسيره اليسرى ، وأما من بخل واستغنى ، وكذب بالحقى ، فسيره للعصى .

وقبل التسكلم على هذا التفصيل نذكر هنا سؤالاً وجوابه ، فنقول :
السؤال : كيف يقسم سبحانه وتعالى بالأقسام الثلاثة المتقدمة على أن أعمال الناس مختلفة ، ومساعيهم متفرقة ، مع أن ذلك أمر بديهي لا يحتاج إلى تأكيد بالقسم ، لأن كل من يتصف بالعمى ويدرك معنى الخطاب ، يعلم أن أعمال الناس متنوعة إلى تلك الأنواع التي ذكرناها ؟

والجواب : أن المقسم عليه هو الإجمال والتفصيل معاً . ولا شك في أن الوعد على الإعطاء والتقوى والتصديق بالحقى باليسرى ، والوعيد على البخل والاستغناء والتكذيب بالحقى باليسرى ، يحتاج إلى تأكيد ، فيكون التأكيد لمجموع الأحبار لا للأول فقط . ثم نشرع في بيان التفصيل فنقول : قوله : أعطى ، معناه : أعطى المال لسد حاجة المسكين حتى يقيم أوده ، ويسد هوزه ويبحث أمله ، أو بذله لإغاثة المعدم الكريم حتى يطرد سغبه ، ويقضى أربه ، ويحقق طلبه ، أو أنفقه للإغاثة على النفع العميم حتى يضع في بناء الوطن لبنة ، وقيم في تسيده دعامة ، ويرفع له في الخائفين راية .

وقوله : واتقى ، معناه اتقى محارم الله وكره الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، فوقى نفسه من ارتكاب شيء منها . وقيل : معناه : اتقى البخل ، بالبذل ، والإعطاء الكريم ، والسخاء .

وقوله : « وصدق بالحسنى ، معناه : صدق بالتوحيد ، والتبوة ، لأنه لا ينفع مع الكفر إعطاء مال ، ولا اتقاء محارم . كما قال تعالى : « وقد منا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً » ، فالحسنى صفة لموصوف محذوف ، والتقدير : وصدق بالحكمة الحسنى ، وهى كلمة الشهادة .

ومعنى « فسنيسره اليسرى » : فسنيسره لفعل الأسباب اليسرى ، أى السهلة . وهى أسباب الخير والرشاد ، والنجح والسداد : وذلك بإقباله على الطاعات ، وإعراضه عن المنكرات ، وعكوفه على الصالحات ، وكفه عن السيئات .

وقوله تعالى : « وأما من بخل واستغنى » الخ : معناه ، ما يأتى : « بخل » : أمسك ماله ، فلم يذله ، فى سبيل الخير . « استغنى » : أى بشهوات الدنيا عن نعيم العقبى ، أو عد نفسه غنياً عن الناس بما لديه من المال ، فلا يرى له حاجة إليهم ، فذلك لا يجد المرحمة فى قلبه لضعفائهم ، فيبذل ماله لدفع ضروراتهم ، ولا يحس بأنه عضو من جماعتهم ، فينشق من « الله » فيما يعود بالمنفعة عليهم . « وكذب بالحسنى » : أى كذب بالحكمة الحسنى ، وهى كلمة التوحيد . « فسنيسره للعسرى » : أى نهته لفعل الأسباب العسرى ، أى الشاقة ، وهى أسباب الشر والخسار ، والضياغ واليوار . وذلك بإقباله على المفاسد والمساوىء ، والذائل ، والمناكر ، والقواحش ، والخصائص .

والدليل على إرادة هذا المعنى من الآيتين ، قوله صلى الله عليه وسلم : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، أما من كان من أهل السعادة فسيصير لعمل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاوة فسيصير لعمل الشقاوة » ، ثم قرأ : « فأما من أعطى واتقى ، الآيتين .

ثم قال الله سبحانه وتعالى :

« وما يفتى عنه ماله إذا تردى » : ومعناه ما يأتى : « ما ، نافية ، أو استفهامية . « تردى ، هلك ، أو سقط . وتقدير الآية : إنا إذا يسرناه للعسرى ، ومات أو سقط فى جهنم ، لا يفتى عنه ماله شيئاً . أو فإذا يفتى عنه ماله الذى بخل به وتركه لوارثه ، ولم يصحبه منه شيء إلى الآخرة ، التى هى موضع فقره وساجته ، كما قال تعالى : « ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ، وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم » .

الدين والدولة

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الرحمن تاج
شيخ القسم العام للأزهر

نشرت صحيفة المصري الغراء بمعدد الأربعاء ٢ مارس سنة ١٩٤٩ مقالا للكاتب المصري المسلم الدكتور محمد صلاح الدين عنوانه «ملاحظتان على مشروع ضريبة الزكاة».

وقد ذكر الكاتب في صدر مقاله أنه يلوح له أن نصوص هذا المشروع في جملتها وفي الكثير من تفصيلاتها مستمدة من الشريعة الإسلامية . وأضاف إلى ذلك أن الأنبياء روت أن صاحب المعالي وزير الشؤون الاجتماعية قابل أخيراً حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر ، وأهما تباحثا في أمر هذا المشروع .

أورد هذا وذاك حضرة الدكتور ليقرر أن المشروع ديني ، وأن معالي الوزير يرجع به إلى رجال الدين . وهذا هو ما يبدى صاحب المقال خوفه منه كل الخوف ، ويخشى نتائجه أشد الخشية ، ومن أجله يوجه النقد إلى المشروع أو إلى معالي الوزير الذي يعمل بمجد على استصدار قانون للزكاة .

غير أنه قدم لهذا النقد مقدمة ذكية ألمعية ، وإن كانت قد أصبحت متداولة يصطبها اليوم الكتاب والخطباء حين يريدون النقد بالكتابة أو القول

أتى في هذه المقدمة الثناء الجميل على معالي الوزير ، وأبدى شديد إعجابه بهمة وعظيم نشاطه ، وما يبذله من جهود في تصريف شئون وزارته ، على رغم أنها وزارة ناشئة ضعيفة ينقصها - على ما يرى حضرة الكاتب - ضبط الاختصاص ، ولم تتوافر للوزير فيها أسباب النشاط وعوامل تيسير الإنتاج : من الموظفين والعمال ، والاعتمادات المالية الكافية .

أما الملاحظتان اللتان يوجههما حصرة الكاتب إلى المشروع أو إلى أصحابه فأولاهما : أن مسائل الضرائب هي من الأمور الفنية التي يجب أن تترك لجهة وهي وزارة المالية ، وأنه كان على وزير الشؤون الاجتماعية أن يحيل فكرة مشروع الزكاة بمجلتها وتفصيلها إلى وزارة الاختصاص .

وهذا نقد ليس علينا أن نبدي فيه أو نعيد ، بل نترك أمره لوزير الشؤون نفسه ؛ فإن شاء أقره واعترف بأنه قد تخطى بالمشروع مجلته وتفصيله جهة الاختصاص ، وتجاوز حدود ما هو من شؤون وزارته ، على ما قرر ذلك ورسمه صاحب الملاحظتين ؛ وإن شاء دفع هذا النقد بما يدفعه به كل منتصف منتصف . غير أنه ليس مفهوماً أن يقال بتحويل فكرة المشروع في مجلتها وتفصيلها إلى وزارة المالية .

فهل يريد الكاتب أنه ليس لوزارة الشؤون الاجتماعية من هذا الأمر إلا أن تفضي برغبتها في إنشاء ضريبة تسمى ضريبة الزكاة إلى وزارة المالية ، ثم تترك لهذه الوزارة القيام بكل ما يلزم في الجلة والتفصيل لاستصدار قانون بفرض هذه الضريبة ، وأنه ليس لها أن تقول كلمة واحدة ، لا في الجلة ولا في التفصيل تقرر بها الدوافع على التفكير في إنشاء هذه الضريبة ، أو توضح بها مواردها ، أو الوجوه التي تصرف فيها ، أو الشروط التي يلزم توافرها لإثبات القدرة على أدائها ، وأن هذا كله يجب أن يترك لوزارة المالية وزارة الاختصاص ؟

نظن أنه لا يوافق الكاتب على هذا أحد ؛ فإن صاحب الفكرة يتعين عليه أن يوضحها ويسدها بما يثبت وجهتها ، ويفصل أبوابها إن كانت ذات أبواب تحتاج إلى التفصيل ، وأن يبين الدوافع على التفكير فيها ، والفرض الذي من أجله يراد تعييدها ، ثم يسير بها في الطريق الذي يوصل إلى هذا التنفيذ .

ونحسب أن وزارة الشؤون الاجتماعية لم تصنع غير ذلك ؛ فقد وضعت الفكرة في قالب مشروع يطرح على بساط البحث والدرس كغيره من المشروعات ، ويعرض على رجال التشريع في المجلس النيابي ، فيمحصونه بالنقاش وتداول الآراء ، وهناك يكون للجنة المالية الضرورة رأيها فيه .

وإذاً لا يكون على وزير الشؤون هيب ، ولا يوجه إليه لوم ، ولا يكون متجاوزاً الحدود ، ولا متخطياً جهات الاختصاص حين يصع مشروعا يوضح به فكرته ، والأغراض التي أوحى بها ، ثم يرجع به إلى أهل الاختصاص من وزارة المالية وغير وزارة المالية .

إننا نلح من مقال صاحب الملاحظتين ، في جملة وتفصيله ، أنه غير راض عن إنشاء ضريبة تسمى فريضة الزكاة ولو كانت خفيفة ، على رغم أنه ينق كراهيته للضرائب مهما كانت ثقيلة ، وأنه يقصد بملاحظته إلى العمل على تطويع الفكرة من وزارة إلى وزارة ، والتنقل بها من لجنة إلى لجنة ، على نحو ما كان يصنع في عهود سابقة بالشئ غير المرغوب فيه ، فتنبخر الفكرة وتذهب مع الهباء .

وبعينا من مقال الكاتب ملاحظته الثانية التي يقول إنها أخطر من سابقتها ، من حيث إنها تتعلق بالموضوع وأساس التشريع .

نعم هي خطيرة وجد خطيرة ؛ وقد تكون أشد خطرا مما يتوهم الكاتب نفسه ؛ والقول فيها إما أن يكون إيمانا وتسليما وإذاعانا لأحكام الدين الإسلامي وحكمة تشريعه ، وإما أن يكون معاداة لهذا الدين ومحاولة للتدخل من قوانينه وأحكام شريعته .

يقرر الكاتب المصري المسلم أن مشروع الزكاة ، كما يظهر من اسمه ومن التفاصيل التي نشرت عنه والظروف المحيطة باستصداره يستمد حكمته وأحكامه من الدين الإسلامي الحنيف ، ثم يتبع ذلك بقوله : « وهنا يواجهنا بحث جد دقيق وخطير هو علاقة الدولة بالدين ، وعلاقة الدين بالسياسة ، ولا يخفى أننا في مصر نجري في حكمة واعتدال على فصل الدين عن أمور الحكم وخلافات السياسة ، وأن الحركة الوطنية أورتقا مبدأ جليلا ينبغى أن نعص عليه بالواجب ، وهو يقضى بأن الدين لله ، والوطن لجميع المواطنين » ، ثم يقول : « ولقد حاول البعض أخيرا خطط الدين بالسياسة ودعا إلى جعل القرآن الكريم أساساً للتشريع فما جنينا من هذه التجربة غير الشر المستطير الذي فغانى بأسه حتى الآن ،

هذه عبارات الكاتب بنصها وحروفها .

ونحن لا نريد هنا أن نعرض للمشروع ذاته ، ولا أن نتكلم عن مبلغ موافقته للشرعية الإسلامية أو مخالفته لأحكامها ، فأمر ذلك أهون مما نحن بصدده ؛ ومن السهل لإصلاح ما قد يكون في المشروع من خطأ ، وتدارك ما قد يكون فيه من نقص حين يبحث في جهات الاختصاص .

إنما نحن الآن بصدد أمر خطير ، وجدير أن تتحرك له الأقدام ونحتاج الخواطر ، ويضطرب له قلب كل مؤمن غيور على دينه غير حقيقية أصيلة غير كاذبة ولا مصطنعة ، غيور بأحكام هذا الدين لا كفخر من يطلعه ويحاربه ويؤذي أهله ! .

ذلك هو ما يقرره الكاتب : من أنه ما دام المشروع مستمداً حكمته وأحكامه من الدين الإسلامي فلا بد من الاصطدام بالعقبة والوقوع في المشكلة ، وهي علاقة الدين بالسياسة وبالدولة . فهو يرى أن صلة الدين بسياسة الرعية وشؤون الدولة عقبة صعبة ومشكلة بغيضة يجب تفاديها والحذر منها ، وينادى بلزوم فصل الدين عن شؤون السياسة والحكم ، ويدّعى أن الأمة الإسلامية في مصر تجري في حكمة واهتدال على هذا الفصل .

لكن الذي يعرفه ويعرفه الناس في مصر وفي غير مصر ، أن دين الدولة المصرية هو الإسلام ، وأب دستور الأمة المصرية قرر ذلك في صدر أحكامه ومبادئه .

والذي يعرفه الناس في مصر ، ولا يخفى على أحد من أهل العلم ، أن قانون المحاكم الوطنية الجديد قد استمد في كثير من مواده من أحكام الشريعة الإسلامية ، وأن أصحاب مشروعه افتتروا بكال الحكمة والاعتدال فيما اقتبسوه من هذه الأحكام . ولو كانوا من أهل الاختصاص في دراسة الشريعة الإسلامية وتفاصيلها أو استعانوا في بدء تكوين المشروع بأهل هذه الدراسة ، لعثروا على ما يريدون وأكثر ما يريدون ، ولوقفوا من آراء فقهاء الإسلام وأفكارهم وحرص بناتهم على الأسس الصالحة ، وقواعد الإسلام المكيّة ، ما يفخر به حقا أهل الحكمة والاعتدال ، وما تطمئن به العدالة ويستقر به الأمن والسلام .

والذى يعرفه الناس في مصر، ولا يخفى على أحد منهم، أن الدولة المصرية قررت أخيراً إلغاء البغاء، وقررت أيضاً تحريم الخمر وإن كان ذلك مقصوراً على بعض المواطنين، لكنه على كل حال خطوة طيبة في سبيل الأخذ بتعاليم الإسلام. والذى يعرفه الناس، ولا ينكره إلا مكابر، أن الأمة المصرية - على رغم عواصف الفساد والشر والفتنة التي تهب عليها من محيطات أجنبية عنها - لا تزال متمسكة بدينها، غفيرة به، في قدس وعرفان يزعان بها دائماً إلى تعرف أحكامه والاحتكام إلى قوانينه، وأن حاضرها في ذلك يبشر باستقامة مستقبلها على قواعد الشرع الإسلامى الحكيم.

ويعرف كثير من أهل العلم أن بعض الجامعات الأوروبية قد التفتت أخيراً في دراسات القوانين إلى الشريعة الإسلامية، وأنه قد أدخلت هذه الشريعة في منهج الدراسات المقارنة بين القوانين في المعهد الخاص الملحق بكلية الحقوق في باريس.

فهل يريد حضرة الكاتب أن يزعم أن الأمة المصرية المسلبة تنسكب طريق الإسلام وتنسكب لشريعته، على حين أن الأمم الأخرى تحب أن تتقبل من حكمه وأحكامه؟

لم يجرؤ أحد في مصر قبل هذا الكاتب على المناداة بفصل الدين عن شؤون السياسة والحكم: وما نظن أن أحدا يصدق في دعوى أن الأمة المصرية تجري منذ زمن على هذا الفصل، فهي دعوى شر، ودعاء إلى فتنة، والفتنة مآلها، فلعنة الله على من أيقظها.

شريعة الإسلام ليست إلا قوانين حكيمة سنّها الله لإصلاح المجموع الإنساني وإقامة شؤونيه على قواعد النظام والتعاون، ورعاية الحقوق، وهدم التفریط في الواجبات؛ نظمت علاقة الحاكم بالمحكومين، وعلاقة الناس بعضهم ببعض أفراداً وجماعات، ليس فيها شر يحذر، ولا في الاحتكام إليها عقبة تنق؛ وإنما هي نظام وقانون أسس ما عرفته الإنسانية من العظم والقوانين.

والشر المستطير الذى يشير إليه حضرة الكاتب مما لا تزال البلاد تقاسى آلامه حتى الآن - كما يقول - لم يكن نتيجة لتحكيم قوانين الإسلام، ولا للدعوة

إلى هذا التحكيم : إنما هو نتيجة الفرارة والجهالة والحق ؛ وأثر من آثار النهور وعدم التبصر . وهذا هو الذى يكرهه الإسلام ويحذر منه ويمقت أهله ؛ فإنه لا يمقت الإسلام جريمة مثل ما يمقت القتل والبني والعدوان ، كما لا يكره رذيلة مثل ما يكره الكذب والبهتان ؛ فكيف يفترى عليه بأن الشر المستطير كان أثرا من آثار الدعوة إليه ؟

ألا إنه لو دعى الناس إلى تعاليم الإسلام بحكمة ونعقل ؛ وبصروا بحكمه وأحكامه فى لين ورفق ، لما كان شر ، ولا كانت فتنة ، ولنجت الأمة سقما من الآلام التى تعانىها حتى الآن .

ثم لا ندرى ما ذا يريد الكاتب من كلمة « الدين لله والوطن للجميع » ، تلك الكلمة التى يتشبث بها ويوردها فى مقاله أكثر من مرة ، ويقول إنها مبدأ جليل يبنى أن بعض عليه بالتواجد ؟ هل يريد أن ينزلها على أساس الاختصاص الذى رسمه لوزارة المالية ووزارة الشؤون ، فلا يجعل لله حكما فى غير العقائد والعبادات وما يتصل بها من المواعظ والنصائح والإرشادات ، ولا يثبت لله أمرا ولا نهيا فى شأن من شؤون الحياة مما يرجع إلى المعاملات وضبط علاقات الأفراد والجماعات وما إلى ذلك مما يتعلق بنظام الدولة وسياسة الأمة ؟

أغلب الظن أن صاحب المقال لا يريد منها غير ذلك . لا ، بل إن مقاله ناطق به ، صريح فيه ؛ فإنه لم يجعل للإسلام مجالاً للعمل إلا فيما يرجع إلى تهذيب النفوس وتقويم الأخلاق وتحريك الهمم وبعث روح الوطنية ، فأما ما يرجع إلى السياسة والحكم وتنظيم المعاملات والفصل فى الخصومات وما إلى ذلك من شئون الدولة والأمة ، فالوطن المصرى ليس لأهله المسلمين وحدهم والدول المتعدية كلها تحرص فى هذا العصر الحديث على فصل السياسة عن الدين .

هذا هو الذى يعبه الكاتب من كلمة « الدين لله ، والوطن للجميع » ،

أما نحن فلم نفهم منها إلا ما يفهمه جميع المواطنين من مسلمين وغير مسلمين ؛ أن أهل الملل المختلفة فى مصر لم عقائدهم وعباداتهم وطقوس دياناتهم ؛ وأنهم إذا كانوا مختلفين فى هذه العقائد والعبادات فهم فى الوطنية وحقوقها ومواجبها سواء ؛ يجتمعون عليها أمة واحدة ، وكلية واحدة ، ويتعاونون فى الدفاع عن الوطن

والذود عن كرامته أهل الهلال وأهل الصليب ؛ لا يفرق بينهم في ذلك اختلاف العقائد والمذاهب ، ولا يميل أحد منهم بسبب عقيدته ودينه مع المعتدى على وطنه ولو كان من أهل ملته .

ونظن أن صاحب المقال لا يحجل الظروف التي ورد فيها ذلك المبدأ الجليل الذي يريد المض عليه بالواجب ، ولا يحجل أنه ورد في تلك الظروف كثير من الكلمات الحماسية ، وتحلى فيها كثير من المظاهر الرائعة الوطنية ، يوم كان يدعى الشيوخ مطارنة ، ويسمى المطارنة بالشيوخ ؛ ويوم كان يخلف هؤلاء وأولئك إلى المساجد والكنائس ، تلهب قلوبهم بالغيرة الوطنية ، وتدفعهم الحية القومية لتخليص البلاد من العدو الذي يجهد في تمزيق شملها وتفريق أهلها بدعوى حماية الأقلية المسيحية وحفظها من طغيان الأكثرية المسلمة .

هذا هو الذي نفهمه ويفهمه الناس من تلك الكلمة ؛ ولذا نأسف أشد الأسف لأن الكاتب قد أخطأ بها موطنها ، وأوردها في غير موردتها ، وجعل منها عتبة في سبيل الإصلاح ، وإنشاء قوانين لقتل الفقر والجمل ، والقضاء على الأمراض والعلل .

إذا كان قانون ضريبة الزكاة صالحا نافعا فإذا عسير الوطن أن تكون أحكامه مستغاة من تعاليم الإسلام ؟

وهل يليق بأنسان أن يبلغ به التعصب على الإسلام مبلغا ينفره من قانون تستقى أحكامه من شريعة هذا الدين ولو كان قانونا صالحا نافعا للأمة ؟

لقد مضى على المحاكم الأهلية في مصر رده طويل من الزمن كانت تحكم فيه بقانون اشتقت أحكامه من قوانين دول أوروبية ، ولم يمض أحد ما كان صالحا من هذه الأحكام ، ولم ينفر منها من أجل أنها استقيت من قوانين دول مسيحية ؛ وكل ما كان يحول بالخواطر من اعتراض أو نقد هو أنه لم تكن هناك ضرورة تدعو إلى تكوين قانون مصري — إلى التحط إلى تلك القوانين الأجنبية ما دام قانون الإسلام فيه الصلاحية الكاملة والكفاية الممتازة .

أما إذا كان الدكتور صاحب الملاحظتين إما ينفذ من مجرد تسمية هذه الضريبة زكاة ؟ فأهل الإسلام يسمونها الزكاة ، ويسمونها غيرهم كيف يشاء .

المحتسب

أيام الدولة الفاطمية

لمحاضرة الأستاذ الدكتور عطية مصطفى مشرفه

وكانت أعمال المحتسب متعددة مختلفة ، فكان ينظر في الدولة الفاطمية في الأسواق ، فإذا عثر على نقص المكيال أو بخس الميزان أو غش البضاعة بأي نوع من أنواع الغش ، وعظه وأذره بالعقوبة والتعزير ؛ فإن عاد إلى فعله مرة أخرى عززه بحسب مقدار جرمه . ، لذلك كان على المحتسب أن يكون عالماً بوزن القناطير والأرطال والمثاقيل والدرام ، خبيراً بكيثتها ومعرفتها المعرفة الجيدة حتى يؤدي عمله على أكل وجهه ، يتمدد عيار الصنح على حين غفله من أصحابها في الأسواق والدروب ، ويراقب صحة الموازين والمكاييل من وقت لآخر ؛ إذا وجد الموازين قدرة فعلية أن يأمر صاحبها بمسحها وتنظيفها من الأوساخ والأدهان خوفاً من أن يجمد فيها شيء فيضرب بالميزان .

وكانت للموازين والمكاييل دار خاصة بها ، هي دار العيار ، تعبر فيها الموازين والصنح والمكاييل ، وقد ظلت هذه الدار طوال عهد الدولة الفاطمية ثم الأيوبيه ، وكان ينفق عليها من بيت المال فيما تحتاج إليه من الأصناف ، كالعاس ، والحديد والحشب ، والزجاج ، وغير ذلك من المواد ، وأجر الصناع ، والمشارفين ونحوهم ، فكان يحضر المحتسب أو نائبه إلى دار العيار ، هذه ليمير المعمول فيها بحضوره ، فإن كان مضبوطاً أجازه وإلا أمر بإعادة صنعه حتى يصبح مضبوطاً ، ولا تباع الصنح والموازين والاكياال إلا بهذه الدار .

ومن منكرات الأسواق التي نيط بالمحتسب تعهدها ، أن يأمر أهل الأسواق بكنسها وتنظيفها من الأوساخ الملتصقة وغير ذلك مما يضر الناس ، ، وأن يمنع

« إرسال الماء من المرايب المخرجة من الحائط ، الى الطرق الضيقة ، فإن ذلك ينجس اشباب ويضيق الطرق ، وأن يمنع ترك مياه المطر والأوسال في الطرق من غير كسح ، أو رش الماء في الطرق بحيث يخشى من التزلق والسقوط ، . وغير ذلك من المنكرات .

وكان المحتسب أيام الدولة العثمانية ، هو المحافظ على الآداب العامة ، فيمنع كل من تطلع من الجيران من السطوحات والمنازل ؛ فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « من اطلع في بيت قوم بغير إذنه ، ففقه عينه ، فلا دية له ولا قصاص » ، كما كان يمنع أن يجلس الرجال على أبواب بيوتهم ، في طرقات النساء من غير حاجة ؛ فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « إياكم والجلوس في الطرقات » قالوا : يا رسول الله مالنا بد من مجالسنا نتحدث فيها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فإذا أبيتم إلا المجلس ، فأعطوا الطريق حقه » قالوا : وما حقه ؟ قال : « غض البصر ، وكف الأذى ، ورد السلام ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر » .

وكذا يمنع المحتسب النساء من جلوسهن على أبواب بيوتهن ، في طرقات الرجال ، أو أن يخلو رجل بامرأة غير جائز له شرعا الخلوة بها .

وكان عليه أن يتعمد الحمامات في كل يوم ، ويعزر كل من رآه من المستحمين بلا مثو .

وكان عليه أن يتفقد المواضع ، فلا يدع الرجال يحتلطون بالنساء ، بل يجعل بينهم ستارة ، فإذا انقضى المجلس ، خرج الرجال من طريق ، والنساء من طريق آخر^(١) . فإذا وقف أحد من الثبان في طريقهن عززه .

ونحن في حاجة قوية اليوم إلى محتسب يعزر كل رجل لا هم له إلا الجلوس في القهوة على فارعة الطريق ، ليغازل النساء أثناء سيرهن في الشوارع ،

(١) هذا النظام منع الآن في الحجاز ، فلمن في وقت الصلاة مكان مسرور في الحرمين ، وتقول المادة ١٦ من قانون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالحجاز : « ممنوع خروج النساء مزريات مطبرات . وكذلك مزاحمتن الرجال وحروجهن ليلا إلا لضرورة مع محرم » . وتنص المادة ١٨ منه على ما يأتي : « يمنع النساء من زيارة القبور ما عدا الحجرات النبوية الشريفة على أن لا يمتكن عندما » .

وإشباع نظره من كل ما يثير الشهوة في نفسه ؛ وكل امرأة لأعمل لها إلا معاينة الرجال ، والتبرج بالزينة ، لتلفت إليها الأنظار . وبذلك يغلق باب الشهوات ، فلا تطلق منه الفرائز البشرية .

وكان من واجب المحتسب أيضا : إنذار معلمى السباحة ، وقد كانوا مصدر أضرار خلقية ، بتحذيرهم من التفرير بأولاد الناس ، فن فعل من ذلك كله شيئا عزروه .
وعهد الى المحتسب إيقاف مضايقة الجمهور ، كاحتشاد الخنايل بأتقالمهم ، أو تجمع التوتية بقواربهم ، فكان يزيل كل ما يعوق المرور ، كبروز المصاطب والحوانيت بالأسواق ، وإلزام أصحاب المنازل المتداعية الى السقوط بإزالتها ، لما قد يتوقع من ضررها على السابلة .

وكان يناط بالمحتسب أيضا أيام الدولة الفاطمية ، أن يمنع الناس من احتكار الطعام ؛ فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « بقس العبد المحتكر إن أرخص الله الأسعار حزن ، وإن أغلاها فرح » . وقال أيضا : « الجالب مرروق والمحتكر محروم » ، و « من احتكر على المسلمين طعاما ضربه الله تعالى بالإفلاس والجدام » . وقال أيضا : « ما من جالب يجلب طعاماً الى بلد من بلاد المسلمين ، فيبيعه بسر يومه إلا كانت منزلته عند الله منزلة الشهيد » . وقال أيضا : « من احتكر طعاما على أمتي أربعين يوما وتصدق به لم يقبل منه » . وقال أيضا : « لا يحتكر إلا خاطيء » ، والخاطيء المذنب المعاصي . وقال أيضا : « من دخل في شيء من أسعار المسلمين ليغليه عليهم كان حقا على الله أن يقعده بعظيم من النار يوم القيامة » .

والاحتكار هو : احتباس الشيء انتظارا لفلائه . وقد رأينا أن النصوص الشرعية تحرمه . فكان المحتسب إذا وجد شخصا اشترى وقت الرخاء طعاماً من سائر الأقوات يريد احتكاره لتربص العلاء به وزيادة ثمنه ، ألزمه بيعه ، لأن الاحتكار للأقوات حرام ، والمنع من فعل الحرام من أخص صفاته ؛ فقد لعن النبي عليه الصلاة والسلام المحتكر ؛ فكان يلزم المحتسب التجار ببيع بضاعتهم بأثمان محددة .

وكان على المحتسب أن يفقد أحكام الدين وأوامر السلطان الخاصة بالصحة العامة والمعاملات التجارية والصناعية تفيذا دقيقا . فن كان يغش الناس في المطاعم والمشارب والملابس وغيرها ، يركبه جملا ويضع في يده جرسا يدهقه ويطوف به البلد ، ويجعله يصيح بأعلى صوته : لقد كذبت ، وما أنا ذا ألقى جزاء كذبي ،

لغويات

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد علي الحجار
المدرس بكلية اللغة العربية

هذا الأمر يرتبط بذلك

ترى هذا الاستعمال كثيرا ، ونجد فيه « ارتبط » فعلا لازما في معنى تعلق بالشئ واتصل به . والمعروف في اللغة استعمال هذه الصيغة واقعة متعددة في معنى ربط : تقول : ارتبط فلان فرسا . وفي أمثالهم : « استكرمت فاربط » وهو على حذف المفعول ، وقد نبه على هذا الخطأ منذ دهر ابن كمال باشا المتوفى سنة ١٤٤٩ في رسالة له صغيرة ، سماها « التنبية » على غلط الجاهل والبيه ، نشرها الأستاذ عبد القادر المغربي في مطبعة الترقى بدمشق سنة ١٣٤٤ : وهاك ما قاله في هذا الحرف : « قول الناس : فلان مرتبط بكذا » على الباء للفاعل خطأ ، والصحيح مرتبط بكذا على بناء المجهول : لأن ارتبط متعد ، كربط ، كما اتفقت عليه أئمة اللغة .

ومما يروع القاري إطباق الباس من قديم على هذا الخطأ في رأي ابن كمال باشا . وقد قدّرت في نفسى حين اطلاعى على كلامه أنه قد يكون لهذا الاستعمال وجه من الصحة وسند في اللغة وضرب من التخريج . وقد صدق حدسى : فتد رأيت في لسان العرب النص الآتي : « وارتبط في الخيل : فشب ، عن اللحياني » ونرى فيه ارتبط مضبوطا بالقلم بفتح الباء على بناء الفاعل ، واحتمال الخطأ في الضبط بعيد جدا ، وما يؤيد صحة هذا الصبط ، تفسير الفعل يشب اللازم المبنى للفاعل . والقاري يخرج من هذا بصحة هذا الأسلوب الذي درج عليه الباس والمؤلفون . وقد يقول قائل : إن الاستعمال العربي تمعية الارتباط بالحرف « في » كما في عبارة لسان ، وهي في مألوف الاستعمال تعدى بالباء ، فيقال : إن الخطب في هذا

سهل ، فالحروف تتبادل كثيرا ، لا سيما إذا روعي وجه من التضمنين ، وقد ضمن الارتباط معنى الاتصال ، فهذا وجه التعدية بالباء .

هذا ونرى في مستدرك التاج الص الآتي : « والارتباط : الاعتلاق ، نقله الطيبي عن الزجاج وأبي عبيدة ، وأغلب الظن أنه يريد بالاعتلاق اللزوم في معنى الاتصال ، فهو يريد إثبات الارتباط لازما ، فيكون فيه رد على ابن كمال باشا ، وإن كان الاعتلاق نفسه متعديا ؛ يقال : اعتاق المرأة : أحبها . ومثل هذا كلام الشيخ نصر المهوريني فيما كتبه على هامش الفاموس في طبعة بولاق ؛ إذ يقول : « ورد الارتباط في كلامهم بمعنى الاعتلاق كما في الطيبي ، قلنا عن الزجاج ، فلا عبرة بمن أنكره اعتمادا على أن المصنف لم يذكره » .

أيضا

تجرى هذه الكلمة في الحديث والكلام في معرض الإبانة عن تكرير الفعل ؛ تقول : زرتك أمس ، وسأزورك غدا أيضا ؛ ولا يكاد المتكلم يلحظ صلة هذه الكلمة بفعل ، وكأنما هي لفظه مترجمة لهذا المعنى الذي تستعمل هي فيه . غير أن اللغويين يردونها إلى فعل هو آض ، يبيض ، في معنى عاد ورجع ؛ تقول : آض فلان إلى أهله . وجاء في حديث الكسوف : إن الشمس اسودت حتى آضت كأنها تنسومة ^(١) ، وقال كعب يذكر أرضا قطعها :

قطعت إذا ما الآل ^(٢) آض كأنه سيف تنحى مرّة ثم تلتقي

وقال فرعان بن الأعراف التميمي في ابنه ^(٣) مازل :

لرئيت حتى إذا ما تركته أعا القوم واستنقى عن المسح شاربه
وبالحض حتى آض جمدا اعتظظطا ^(٤) إذا قام ساوى غارب الفعل عاربُه

(١) تنسومة : نوع من نبات الأرض فيها وفي غيرها مواد قليل .

(٢) الآل : السراب .

(٣) حبط في اللسان بالقلم بضم الميم . وفي فتح الميم : كما ينصبه إطلاقه . وروم من حبطه بضمها .

(٤) اعتظظط : الطويل والجهد .

ورجع المعنى الذى تستعمل فيه أيضا الى معنى الرجوع والعود غير عسير ولا متأبّ هلى من يريد . ففى المثال السابق حين تقول : زرتك أمس ، أخبرت بزيارته أمس ، فإذا قلت : وسأزورك غدا فقد رجعت الى الإخبار بالزيارة ، ولكن هذه الزيارة قدرتها فى الغد . ولأنها تفيد معنى العود والتكرار لا تقول : زرتك أمس وحج محمد أيضا ، كما أنها لا تستعمل فى الأمر الواحد . وقد أدرك العلماء من مواقعها فى الكلام حد استعمالها ، ومنهج استخدماها ؛ فيقول أبو البقاء فى كتابه ^(١) : « أيضا مصدر آض ؛ ولا تستعمل إلا مع شيئين بينهما توافق ، ويمكن استثناء كل منهما عن الآخر ، نخرج نحو جأى زيد أيضا ، وجاء فلان ومات أيضا ، واختصم زيد وعمرو أيضا ، فلا يقال شيء من ذلك ، . ووجه فساد المثال الأخير أن اختصام زيد وعمرو خبر واحد إذا الاختصام لا يكون من واحد ، فكان ملتحقا بالمثال الأول . وقال الأمير فى كتابته على المعنى فى ديباجة الكتاب : « وأيضا : مصدر آض إذا رجع ، حذف عامله وجوبا سماعا ، كما ذكره بعضهم ؛ والمعنى : أرجع رجوعا الى الإخبار . . . وإنما تستعمل بين شيئين متناسبين ، لا فى شيء واحد ، ولا نحو مات زيد وتزوج عمرو أيضا وكل منهما مستقل عن الآخر ، فلا يقال : اختصم زيد وعمرو أيضا ، . ويقول العطار فى كتابته على الأزهرية فى أواخرها عد الكلام هلى الجبل التى لها محل من الإعراب . « قال الشئى فى شرح ديباجة المعنى : « وكلمة أيضا لا تستعمل إلا مع شيئين بينهما توافق ، ويمكن استثناء أحدهما عن الآخر ، .

واستعمال أيضا فى المعنى المألوف لها لم أقف عليه فى المأثور من قديم الكلام . وفى فهرست ابن التديم فى مقالة الفلاسفة ^(٢) (الجزء السابع) أن أبا صالح بن هيد الرحمن كلفه الحجاج أن ينقل الديوان . يراد به حساب الخراج . من الفارسية إلى العربية ، فقال له مردانشاه بن زاذان فروخ : فكيف تصنع بدمويه وششويه ؟ قال : أكتب عشرا ونصف عشر . قال : فكيف تصنع بويد ؟ قال : أكتب : أيضا . قال : والويد : النيف والزيادة تزداد . هكذا يقول محمد بن إسحق صاحب الفهرست فى تبيان هذه الكلمة الفارسية . على أنى رجعت إلى من يحسن النظر

في معجم الفارسية فأخبرني بأن معنى « ويد » قليل . وكانت المراد بـ « يد » القليل
 ينضاف إلى العدد من العدد ، وهو لهذا زيادة ونيف . ورجوع هذا إلى معنى
 المادة « آض » أنك إذا أضفت شيئاً على ما قدمت فقد عدت إليه ورجعت ؛ وكان
 البيت ينظر إلى هذا المعنى الذي ابتدعه أبو صالح إذ يقول : « على ما رواء صاحب
 اللسان : « وتفسير أيضاً زيادة ، وترى أن هذا المعنى ليس هو ما يستعمل فيه أيضاً
 في ما لوف أمرها .

على أن هذا الكلمة وردت في استعمالها المعروف في شعر رقيق هو هذا :

رب ورقاء ^(١) هنوف في الضحى	دات شجر صدحت في قن
ذكرت إلها ودهراً صالحاً ^(٢)	وبكت حزناً فهاجت حزني
فبكائي ربما أرقبها	وبكائها ربما أرقني
ولقد تشكو فـأفهمها	ولقد أشكو فـأفهمني
غير أني بالجوى أعرفها	وهي أيضاً بالجوى تعرفني
أثرها بالبكا مولعة	أم مسقاها الين ما جرعي ^(٣)

وقد حرصت على أن أقف على قائل هذا الشعر فلم أظفر بما يثلج الفؤاد ،
 فترى هذه الآيات في كتاب الإحياء لحجة الإسلام العزالي في كتاب السماع
 والوجد ، وهو الكتاب الثامن من رُنع العادات ، يقول حجة الاسلام : روى
 أن أبا الحسين النوري كان مع جماعة في دعوته ، جرى بينهم مسألة في العلم ،
 وأبو الحسين ساكت ، فرفع رأسه ، وأنشدهم : رب ورقاء ، وساق الآيات
 السابقة ما عدا البيت الأخير ، ثم قال العزالي : فما بقي أحد من القوم إلا قام
 وتواجد ، ولم يحصل لهم هذا الوجد من العلم الذي غاضوا فيه ، وإن كان العلم
 جِداً وحقا . وظاهر أن أبا الحسين النوري تمثل بهذا الشعر وليس هو صاحبه .
 وزرني في « مواسم الأدب » ، ص ٧٢ من الجزء الثاني نسبة هذا الشعر إلى الشبل ،

(١) يريد حماسة لونها الورقة وهو لون الرماد .

(٢) في رواية اللوعة : ماضياً .

(٣) هذا البيت انفردت به اللوعة للصالح الصفدي

والشيلي هو الصوفي المشهور أبو بكر دلف بن جدر المتوفى سنة ٣٣٤ ، وأغلب الظن أن الشيلي كان له منه حظ القتل والإنشاد . ونجدها في : لوعة الشاكى ، ودمعة الباكي ، لحليل بن إبيك الصفدى المتوفى سنة ٧٩٤ ، وهى رسالة صغيرة مطبوعة ، ونقلها الدميرى صاحب حياة الحيوان فى ترجمة : ورقاء . . وفى كتاب : البلاغة الواضحة ، للأستاذ على الجارم بك عليه رحمة الله : ، وقديماً كره الأدباء كلمة : أيضاً ، وعدوها من ألفاظ العلماء ، فلم تجربها أقلامهم فى شعر أو نثر ، حتى ظهر بينهم من قال : رب ورقاء ، وساق الأبيات ، ثم قال : فوضع : أيضاً ، فى مكان لا يتطلب سواها ولا يقبل غيرها ، وكان لها من الروعة والحسن فى نفس الأديب ما يميز عنه البيان . وعسى أن يعثرنا الله فى مستقبل العمر على الجلية فى نسب هذه الأبيات .

ما هو الضوء ؟

نرى هذا الاستعمال تجريئ به ألسنة الناس وأقلامهم فى مقام الاستفهام والسؤال . وتشيع هذه العبارة فى أسئلة الامتحان التى توضع لاختبار الطلاب فى المدارس والمعاهد : فيقال : ما هو الضوء ؟ وما هو الفاعل ؟ وما هى العوامل التى أدت إلى سقوط الدولة الأموية ؟ وقد أفكر هذا الأسلوب وعيب من يستعمله ، ووجه تخطئته أن أداة الاستفهام : ما ، فيجب أن تدخل على المسئول عنه دون توسط ضمير ، فيقال : ما الضوء ؟ وما العوامل ... ؟ ودرجت كلية اللغة العربية على مراعاة هذا التصويب ، وتجنب الخطأ : وليس هذا بيدع منها ؛ فهى الحفيظة على سلامة اللغة وثقاوة العبارة .

وكان مبعث هذا الخطأ أن القوم حين يتكلمون على الاستفهام وأدواته يذكرون : ما هو ، فى السؤال عن حقيقة الشيء ، فظن أن : ما هو ، بكاملها ، أداة استفهام ، ولا يريد القوم هذا ؛ فإنما الأداة : ما ، وحدها ، وذكروا : هو ، لتصويرهم جملة السؤال ، وقد كنوا عن المسئول عنه بالضمير ، والضمير يعبر عنه الكوفايون بالكناية ، والقوم حين يمثلون يقولون : ما العنقاء ؛ وما الإنسان ؟ ولا يقولون : ما هى العنقاء ، وما هو الإنسان ؟

على أن الباحث لا يعدم وجهها في العربية لتصحيح هذا الأسلوب . وذلك أن يكون « هو » خبر « ما » والاسم الظاهر بعدها بدل منها ، وإبدال الظاهر من ضمير الغيبة سائق كثير حلّ يلّ .

وجاء في شعر للمعري في إلغائه له بالفعل « كاد » :

أنحوى هذا العصر ما هي لفظة جرت في لساني جرم وثمود ؟

حول مقال « كيف تكتب السيرة »

نشرت مجلة الأزهر (جزء ربيع الأول ١٣٦٨) مقالا بهذا العنوان لحضرة الأستاذ السيد ، أورد فيه الكاتب الجليل قصة ضباعة بنت عامر بن قُرْط ، ورغبة الرسول عليه الصلاة والسلام في نكاحها ؛ لما عهده فيها من قبل حين كان صغيرا ؛ من جمال وحسن بارع ، ثم إعراضه عنها حين أخبر أنها ليست كما عهد من قبل . وقد تضمنت هذه القصة أن الرسول عليه الصلاة والسلام رأى في صفرة هذه المرأة عارية حين كانت تطوف بالبيت لأمر اقتضى ذلك .

ولقد أحسن الأستاذ كاتب المقال نقد كتابة السيرة على هذا النحو المزرى بمقام النبوة ، وما لها من جلال ، وأبلغ في تنزيه الرسول عليه الصلاة والسلام عن هذا السفاسف الشائن والعمل البغيض . ولم يكن من أورد هذه القصة على هذا الوجه بمصيب وجه الحق فيما أتاه وخطته يده في هذا الحديث .

وإن هذا من الكاتب الجليل عمل مشكور جدير أن يثنيه الله عليه أحسن الثواب ، كفاه غيرته على مقام الرسالة ، وذأبه عن حياض النبوة .

وإني أود أن يسمح لي الأستاذ بالاشتراك في هذا البحث ، وأن يتقبل كلمة فيه عسى أن اكتب عن ينضح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ومقامه المنيف . وقد دفعني النظر في هذه القصة إلى تعرف مصدرها ونقدها من جهة الرواية بعد أن نقدها الكاتب من جهة الدراية ، إذ كان ما فيها لا يتفق مع ما عرف للأنبياء من عصمة وبعد عن السفاسف .

ومصدر هذه الرواية هو ابن الكلبي . وابن الكلبي هشام بن محمد بن السائب

ليس صاحب حديث ، وإنما هو صاحب سمر وخبر وتعمد لطرائف الروايات ، فلا عبرة بروايته في الحديث . وقد قال فيه أحمد بن حنبل ^(١) : هشام بن محمد بن السائب الكلبي من يحدث عنه ؛ إنما هو صاحب نسب وسمر . ويقول فيه ابن السمعاني ^(٢) : إنه يروى العرائب والمجانب والأخبار التي لا أصول لها .

ويقول أحمد زكي باشا عليه رحمة الله في تصديره لكتاب الأسماء لابن الكلبي : « على أن هناك فريقاً من العلماء - وهم أهل الحديث الشريف - لا يرون عن ابن الكلبي ، ولا عن نحائهم من التاريخيين والإخباريين ، لا شيء سوى أنهم تعرضوا لرواية الآثار دون أن تتوافر فيهم الشروط اللازمة فيمن يتصدر لإملاء الحديث . فلا عجب إذا رأينا هذا الفريق من العلماء يبحسون أولئك العلماء ويحطون من أقدارهم ، لأنهم أقدموا على تدوين الآثار مزوجة ببعض الأساطير والقصص . »

وأورد ابن هشام صاحب السيرة البيت لامرأة قالته وهي تطوف عارية :

اليوم يبدو بعضه أوكله وما بدا منه فلا أحله

فقال السهيلي في الروض الآنف : « ويذكر أن هذه المرأة هي ضباعة بنت عامر بن صعصعة ، ثم من بني سلة بن قشير . وذكر محمد بن حبيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبها ، فذكرت له عنها كثرة ، فتركها ، فقيل إنها ماتت كذا وحزننا على ذلك . قال المؤلف : إن كان صحيح هذا فما أحرمها عن أن تكون أما للمؤمنين وزوجاً لرسول رب العالمين إلا قولها : اليوم يبدو بعضه أوكله ، تكريمة من الله لثيابه ، وعلماً منه بغيرته ، والله أعلم منه ، ومحمد بن حبيب كابن الكلبي ، صاحب نسب وسمر ، ولكنه لم ينسق مع حب الغريب من الأخبار إلى ما وقع فيه ابن الكلبي . »

(١) تاريخ بغداد ج ١٤ ص ٤٦

(٢) أنظر تذكرة الحفاظ للذهبي

حيرة العالم وموقف رجال الدين

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ أبو الوفا المراغي
مدير المكتبة الأزهرية

يبدأ في كلماتنا السابقة ، تحت هذا العنوان ، ما يزدحم به العالم من مشاكل تهدده في أمه ، وتنقص عليه في حياته ، وترهقه المر من أمره ، وكيف أزعجت هذه الحال ساسته وقادته ، فأثمروا نهارهم ، وأسهروا ليلهم ، وكثروا قرائنهم ، وأجهدوا عقولهم ، عسى أن تهديهم إلى مسالك من الفرج تخفف عن الناس ما يثقلهم ويهبطهم ، وكيف فشلت مجهودات هؤلاء ، فرادى وجماعات ، في شفاء العالم من علته وأدوائه . بل إنها زادت على العلاج سوءاً ، واشتدت على المحاولة استعصاء . وأهملنا إلى أن هناك حركة في بعض الشعوب تهدف إلى العودة للعالم إلى تعاليم الدين ، تستمد منه العلاج ، وتلشد فيه الشفاء ، لينهض من كبوته ، ويأمن العناردون غايته ، ويستروح نسيم السلام ، بعد أن أخذت بتنافسه ريح الفلق والحيرة ؛ وأن قادة هذه الحركة ، من رجال الدين ، والفكر والاجتماع ، ممن حشكهم التجارب ، وصفلهم الحوادث . وقلنا إن هذا الاتجاه قد لقي قبولا ، وصادف ارتياحا ، ونحمت له بعض الشعوب .

وكان الظن أن يسير هذا الاتجاه في طريقه قُدُماً ، حتى يبلغ الغاية ويصیب الهدف .

ولكننا لم نأبث أن رأينا في الجوسجا من المعارضة تذر بشر قد يتعاقم خطره بين أنصار الاتجاه ومعارضيه ممن يتعمسون لمذاهب خاصة ، ويعملون جادين على التبشير بها والدعاية لها . بل قد أخذت هذه المعارضة تبدو في صورة من الصراع العنيف بين الفريقين في بعض الجهات ، وكان طبعياً أن يكون هناك صراع ، وأن يطول ذلك الصراع ويشد . فقد وجدت الدعاية المتطرفة هوى في نفوس كثيرين

من الناس في أمم كثيرة ، وآمنوا بها إيماناً قوياً ، بما وعدت به من آمال ، وبما توصلت به من مغريات تتصل اتصالاً شديداً بمواظفهم وقلوبهم ، وما أسرع ما تستجيب العواطف وتميل القلوب : وبما عليه العالم من حالات العوز والبؤس التي تمنحست عنها الحرب العالمية الأخيرة ، وكان الصراع أشد عنفاً في بعض الشعوب التي لا يزال للدين سلطان على قلوبها .

وبالأمس القريب قدم للمحاكمة في هنغاريا ، بعض رجال الدين ، بتهمة التآمر على سلامة الأمة ، وخيانة الوطن ؛ وهي اتهامات انفتحت لهؤلاء للتخلص منهم ، وبالتالي للتخلص من سلطانهم الديني الذي يمثلونه ، وقضت محاكم هنغاريا في شأنهم قضاء قاسياً ، أثار ثائرة الشعوب المسيحية ، ولكن دون أن يكون لهذه الثورة أثر إيجابي في إلغاء الحكم أو تخفيفه . ومن قبل ذلك مثلت هذه المسرحية القضائية في يوغسلافيا ، وستمثل في غيرها ، وما كان ذلك ، ولن يكون ، إلا مظهر من مظاهر الصراع بين دعاة الإصلاح الديني ودعاة المذاهب الاشتراكية المتطرفة .

وقد روت الصحف قرياً أن البابا عقد اتفاقاً سرياً يرى إلى قيام رجال الدين الكاثوليك بحملة هائلة ضد النظم الشيوعية في جميع أنحاء العالم ، وبصفة خاصة في النمسا والمجر ، ومنطقة الاحتلال الروسي في ألمانيا . وعقد مثل هذا الاتفاق مع رجال الدين الأرثوذكس ، وقد قام هؤلاء في المدة الأخيرة بدعاية واسعة النطاق ضد هذه النظم في بلغاريا ، ورومانيا ، ويوغسلافيا .

ومن حسن حظ هذا الاتجاه الذي كررنا الحديث عنه أن تجاوزت الصيحات في أنحاء العالم للعمل على إبحاحه تحت تأثير الهزات الاجتماعية السيفة التي أحدثتها الدعوات المتطرفة ، وبدأت بوادر نجاحه في بعض الجهات . فهناك في تركيا وفي مجلسها الوطني ثار جدل عيف حول بعض الشؤون الدينية الهامة التي تشغل بال الشعب التركي ، وأينا في أثنائه وفي نتائجه يقيظ الوعي الديني في الشعب التركي ، وفي بعض رجال مجلسه الوطني ، وقدرونا أن ذلك الوعي لا بد أن ينتهي بذلك الشعب إلى العاية التي تسميها له الشعوب الإسلامية ، والتي تميز له سابق مجده في المحافظة على الدين ورعاية علومه وفنونه .

وهما في مصر قطعت الفكرة في طريق النجاح شوطا كبيرا بفصل ما أبداه الشعب من وعي ديني غرسه وقام على رعايته علماء الأزهر قديما وحديثا ، وبفضل ما أشاعه جلالة الملك فاروق من روح ديني في نفوس الشبيبة المصرية ، وبفضل تلك البقطة التي أبداهها كبار رجال الدين في مصر ، وعلى رأسهم فضيلتنا الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر ، والأستاذ الكبير مفتي الديار المصرية ؛ يضاف إلى ذلك كله ما أبداه دولة رئيس الحكومة من غيرة دينية مهدت لهذا الانجاء سبيل النجاح .

وإنه لطيب لنا أن نقبس هنا من تلك المذكرة الخطيرة التي تقدم بها فضيلتنا الشيخين إلى دولة رئيس الحكومة في بيان ضرورة الأمة وبخاصة ناشئتها إلى الدين ، وأنه الوقاية الناجمة من خطر الأمراض الوافدة في بعض المذاهب الاشتراكية الحديثة .

قال الشيخان : إن في أهمال حفظ القرآن والتعليم الديني في المدارس وعدم جعله مادة أساسية يترتب عليها النجاح ، خطرا عظيما على الناشئة ، وإطفاء لذلك النور الذي أضاء فيما بين المشرق والمغرب في عهد الحضارة الإسلامية ، وتجريداً لأبناء المسلمين من ذلك السلاح القوي الذي يقيم شرور المبادئ المتطرفة والمذاهب الهدامة اللادينية ، وهو وحده النقية منها ، والعصمة من أخطارها ، وهو وحده الذي يفرس في النفوس حب الخير والفضيلة ، والخضوع للنظام ، والطاعة لله ، والبراءة من الشرور والآثام .

ومن مظاهر هذا النجاح ما قرره الحكومة من إلغاء البعاء الرسمي في المملكة المصرية ، وما قرره أو ما هو بسبيل أن تقرره من جعل الدين مادة أساسية في المدارس الابتدائية والثانوية ، والعناية بدراسته دراسة تكشف للناشئة عن أسرار ما جاء به من الفضائل والأخلاق التي تحدد علاقتهم بأسرهم ، وعلاقتهم بالناس عامة ، وتكشف لهم عن وجوب احترام حقوق الناس في أموالهم وأعراضهم وحررياتهم ، وما إلى ذلك مما هو سبيل السعادة في الدنيا والآخرة .

وهنا أحب أن ألفت نظر من عسى أن يكون هناك من معارض لهذا الانجاء الجديد - أعني الانجاء إلى الإصلاح من طريق الدين - بأن كل تعويق يقام في سبيل هذا الانجاء فهو شديد الخطر عميق الأثر في كيان الأمة ومستقبلها ، وأن كل معوق

فهو مجرم في حق نفسه وفي حق أسرته وأمه، فنحن إزاء فتنة إذا شئت نازها فلن نحمد حتى يعم خطرها، ولن تميز بين فريق وفريق، ولن يكون وقودها متاعاً أو مالا، ولكن سيكون وقودها العقائد الصحيحة والنظم الصحيحة، والعناصر الصالحة لمقومات الحضارة الصحيحة، ولا يقينا خطر تلك الفتنة إلا لتعاليم الدين ومبادئه. كما أحب أن ألفت نظر من عسى أن تكون قد أثرت فيهم الدعايات المنطرفة وخطفت أبصارهم ألوانها البراقة واعتروا بزخرف مبادئها، إلى أن كل ما سمعوه أو قرعوه فهو ظاهر لا حقيقة له، وأنه كسراب بغيمة يحسب الظمان ماء حتى إذا جاءه لم يجد شيئا. وأن تلك الدعايات ما هي إلا أدوية تحمل اسم الدواء وهي في واقعها سم زعاف تحمل ببيان الأثم، وتغوض كيائها، وتجعلها أوزاعاً متنافرة لا يربط بينها رباط من مصلحة أو خلق، وتعود بالعالم إلى حياة من القوضى في جميع النواحي، وبخاصة ناحية العلاقات الشخصية التي قضت الطبائع والشرائع باحترامها ورعايتها، وأن الخير الذي تبشر به وتدعو إليه ليس له من سمات الخير إلا اسمه، وأن الخير المحض فيما جاء به الدين وكفله الشريعة. وقد شوق إذ يقول مخاطباً سيد الكون عليه الصلاة والسلام، ومشيداً بقدر الشريعة وفضلها:

فرسنت بعدك للعباد حكومة	لا سوق فيها ولا أمراء
الله فوق الخلق فيها وحده	والناس تحت لوائها أكفأ
والدين يسر والخلافة بيمة	والأمر شورى والحقوق قصاء
الاشتراكيون أنت إمامهم	لولا دعاوى القسوم والضواء
داويت منتدا وداووا ظفيرة	وأخف من بعض الدواء الداء
الحرب في حق لديك شريعة	ومن السموم الناقعات دواء
والبر عندك ذمة وفريضة	لامنة ممنونة وحباء
جاءت فوحدت الزكاة سيله	حتى التقى الكرماء والبعلاء
أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى	فالكل في حق الحياة سواء
فلو أن إنسانا تخير ملة	ما اختار إلا دينك الفقراء

شعراء الازهر

شرح وإيضاح

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الجواد رمضان
المدرس بكلية اللغة العربية

لما كتبت عن الشاعر الفحل ، السيد الأستاذ حسن القاياتي ، في مجلة الازهر ، ما كتبت ، تعقبني الكاتب الكبير الأستاذ السيد عاني ، في عدد ذي الحجة ، فعدت عليّ أخطاء ، وأخذ عليّ مأخذ ، كنت عليّ أن أنفضها عن نفسي وقتئذ ؛ لولا صارف قاهر لوى يدي وعقلي ، عن العمل والتفكير في سواء ، وحال بيني وبين مجلة الازهر شهورا ثلاثة ، حتى لقيت بالأمس صديقا في يده عدد ربيع الثاني ، فتناولته منه علي شوق ، وقرأت فيه لفجر كتاب الازهر ، في عصر النهضة ، المرحوم الأستاذ عبد العزيز العشري ، كلمة في شعر الأستاذ السيد حسن القاياتي ، قدم لها بمقدمة ، عدتها حجة نصرت بها الأستاذ عاني عليّ ، نصرا مؤثرا ؛ فذكرني ذلك ما كنت قد نسيت ؛ ونبه مني ما كان عافيا ، وجعل معاودتي للكلام في هذا الموضوع ضربة لازب .

وللي القاري الكريم ، ما أخذه عليّ الأستاذ الناقد ، محمدا ، مردودا :

١ - رعم الأستاذ أني ناقصت ، إذ قلت : « إن شاعرنا القاياتي مضى بجزالة الأسلوب الشعري ونظامته ، وشرف المعنى ودقته ، بلا جدال ، وما أحاشي من شعراء النهضة الحديثة من أحد ، لا من الأحياء ولا من الأموات . . . » ثم عقدت مقاربة بينه وبين الأستاذ الشاعر عجم .

وشد ما ظلمني الأستاذ ، وقولتي ما لم أقل ؛ فإن المقارنة والموازنة بين الشعراء ، ليست في منطقة ما حملني علي الكتابة في موضوع « شعراء الازهر » ، مطافنا ، فأما لم أوازن بين السيد والأستاذ ، ولا فاضلت ؛ لأن المفاضلة تعتمد

النقد المفصل ، هل حين أفنى إنما عرضت عرضاً ، لا تفصيل فيه ولا نقد إلا بمعنى عام . وما ذكرت الشاعر غنيم إلا لأنه تلاقى والسيد في رثاء المغفور له شيخ الأزهر السابق ؛ فالتفصيل به أقوى إيضاحاً ، ولولا ذلك لذكرت البهاء زهير ، وإسماعيل صبرى .

وقد جرى الأستاذ في الخطأ هذا إلى عايته ، فزعمنى باقضت أيضاً ، إذ قلت :
 « إن السيد حسن يشيد من شعره هيكلًا من الصخر ، بعد أن قلت : « مضى بجزالة ،
 الأسلوب ونظامته » قال : « وأن يكون الملقن المتألق عند ما يقيم أعمودًا من نماذج
 الفن الرفيع ، يقف المشاهد عنده مأخوذاً مشدوهاً ، لا ذلك البناء الربيعى الذى
 « يشيد من شعره هيكلًا من الصخر ؛ فإن من مضى بجزالة الأسلوب ونظامته بين
 الشعراء « أحسن بخرائد الشعر ، أن تستحيل بين يديه إلى صخور » ١١

على هذا الوجه العاى ، فهم الأستاذ الناقد عبارتى « يشيد من شعره هيكلًا
 من الصخر » ولو وفق الأستاذ فعلم أن أحد قدامى النقاد قال فى جرير والفرزدق :
 الفرزدق ينحت من صخر ، وجرير يغرف من بحر ، وفُسرَت بأن الفرزدق يَمْضى
 بالجزالة والفحامة والروعة التى يمثُلها قوله :

فادفع بكفك — إن أردت بناءنا — تهلان ذا المضيات ، هل يتحلل ١٢
 وأن جريراً مضى بالسهولة والركة التى تتمثل فى قوله :

السم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح ؟

ولو وفق الأستاذ أيضاً فعلم أن البناء الربيعى لا يشيد من شعره هيكلًا
 من الصخر ، وإنما شاد الهيكلَ خالدة ماثلة ، بُنيت المجد من فراعين مصر .

أقول : لو وفق الأستاذ الى علم ما لم يعلم ، لكان له فى كلتى رأى آخر ، فإننى
 إنما قصدت بها أن شعر السيد ، سيد الشعر ، وأنه « مرممٌ ببنايات الهرم ، له ماله
 من « هندسة ، ومن قوة ، ومن جلال ، ومن خلود على وجه الزمان ! فأين أنت
 منى يا أستاذ ؟ أما لو فهم فهمك طالبٌ من طلبى لأسقطته فى الامتحان ؛ ولما
 كانت يدي لا تمالك ، فاغفر لى من فصلك ، ما أشتى به منك ، من امر الكلام !

ولاً ، فكيف أحتمل : « أن البناء الرقيق يشيد من شعره هيكلا من الصخر ،
وأن الشاعرين لا يوازن بينهما إلا إذا اختلفا مدرسة ١١٤

٣ — وزعم الأستاذ أنني تأثرت في حكي على شعر السيد حسن ، بشبهة
الجاهير ، وحكما الفطير ؛ قال : « فإن أمل ألا يؤاخذني الأستاذ في أن أخالفه
فيما انتهى إليه من حكم ، يبدو أنه تأثر فيه بشبهة الجاهير وحكما الفطير ،
فلاريب في أنه مؤمن ممي أن الجاهير لا تستطيع التعلفل في دقائق الفنون
الرفيعة عامة في أى عصر من العصور ، ولا في أى أمة من الأمم الخ .

وبعد شوط طويل في شجون الحديث ، قال : « والآن وقد وصلنا إلى هذا
المدى من البيان ، لا نعالى إذا قلنا : إن السيد بحق ، رائد جيله ، وطلعية مجديده ،
وشاعر البيان الاصيل ، وواصف الجمال الرائع ؛ وإن من الجناية على الذوق
الفنى لآبناء هذا الجيل أن يقال : إنه شاعر الخاصة ، ١ وخلاصة هذه العلطة
وغلطى أما ، أنني تأثرت بالجاهير فحكمت على السيد بأنه شاعر الخاصة . وأنا
أقول للناقد الكريم : إتنى لو تأثرت بالجاهير ، لحكمت بأن السيد ليس
بشاعر ؛ فالتأثر بالجاهير لا ينتج الحكم بأنه شاعر الخاصة ؛ هذه واحدة ! .
وأخرى ، وهى أن الفهم الذى جعل الرقيق عدلك بينى هيكلا ، فبما شعر
السيد ليكل من الصخر ، قدح في شعر السيد ؛ هو بعينه الفهم الذى جعلك تفهم
أن الحكم على السيد بأنه شاعر الخاصة ، جنابة على الذوق الفنى لآبناء هذا الجيل !
فالذنب — إداً — ليس ذنبى أنا ، ولا ذنبك أنت ؛ ولكنه ذنب الفهم ..

إنك يا مولاي — تسلم معى ، بل تقررصادقا ، أن الجاهير لا يستطيع التعلفل
إلى دقائق الفنون الرفيعة عامة في أى عصر الخ ، والسيد شاعر الفن الرفيع ، فهل
يسوغ المنطق أن نستنتج من هذا القياس : أن السيد شاعر العامة ؟

على أن وصف الشاعر بأنه ، شاعر الخاصة ، كما وُصف الفرزدق ، يصمد به
إلى الثريا ، فكيف ساغ لك — يا مولاي — أن تهبط بالسيد من حيث أريد
أن أنطح به السماء ١٤

إذا محاسنى اللاق أدل بها كانت ذنوبا ، فقل لى : كيف أعترض ؟

٣ — أخذ على الأستاذ الناقد ، أبى قلت إن الشاعر غيم يمثل الرقة التي تستوى الجاهير ، وإن السيد يمثل الجزالة التي ترضى الخاصة الخ ؛ وانتقل عن ذلك الى قوله : « وفي هذه المناسبة يجب أن نسأل الأستاذ عن الفرق بين الجزالة والرقة ؟ » وبعد تردد واستتاج ، قال : « فإذا وافق الأستاذ على هذه القضية ، وهي أنه ليس ثمة مانع من أن تجتمع الجزالة والرقة في واحد ، وأن كل جزل رقيق ، وبالعكس ، فإننا نكون قد وصلنا الى أن السيد قد جمع بين الغائتين ، وتفرّد بالحسينين ، بين شعراء المهضة الخ » .

فأما أن شعر السيد يمثل الجزالة فهي قضية لا يخامرها عدى ريب ، والحس أصدق دليل ؛ وأما جواب سؤاله عن الفرق بين الجزالة والرقة ، فإننى أقوله بالنص الحرفى من كتاب « المثل السائر » لابن الأثير ؛ قال : « والألفاظ تنقسم فى الاستعمال الى جزلة ورقيقة ، ولكل منها موضع يحسن استعماله فيه ؛ فالجزل منها يستعمل فى مواقف الحروب ، وفى قوارع التهديد والتخويف ، وأشياء ذلك . وأما الرقيق منها ، فإنه يستعمل فى وصف الأشواق ، وذكر أيام البعاد ، وفى استجلاب المودات ، وملايات الاستعطاف ، وأشياء ذلك . ولست أعنى بالجزل من الألفاظ أن يكون وحشياً متوعراً ، عليه عنجبية البداوة ، بل أعنى بالجزل ، أن يكون متيناً على عفويته فى المم ، ولدادته فى السمع . وكذلك لست أعنى بالرقيق ، أن يكون ركيكاً سفيفاً ؛ وإنما هو اللطيف الرقيق الحاشية اللام الملبس ، كقول أبى تمام :

ناعمت الأطراف ، لو أنها تُلْسَس ، أغنت عن الملاء الرقاق

وبهذا يعرف . (١) أن قدامى النقاد قرروا فرقا بين الرقة والجزالة . (٢) وأن الجزالة والرقة لا تجتمعان على موضع واحد . (٣) وأن قضية : « كل جزل رقيق وبالعكس ، قضية كاذبة . (٤) وأن العفوية التي نلصقها ونعترف بها فى غزل السيد لا تنافى الجزالة ، بل هى شرط فيها ؛ ولو سلمنا أنها رقة ، فهي من وصف الأشياء فى مواضعها . (٥) وأن وصف الشاعر بأنه رقيق الشعر كله ليس غفرا - فقد عيب الأندلسيون بأن رقة أشعارهم جعلتهم يهضرون فى المواقف التي تتطلب الجزالة والفخامة كوصف الحروب وما إليها ؛ وذلك أشهر من أن فطيل فيه .

أنا لا أخالف أبداً في عذوبة غزل السيد ولذاذته ، ولكن هذه العذوبة ،
كالمذوبة التي تجدهما في قول البدوي :

كسَّهَتْ مِثْلَيْهَا بِمِثْلِهِ ظَاهِرٌ يَحْتَالُ بَيْنَ أَسِنَّةٍ وَسُيُوفٍ
صَلَفٌ ، تَاهَتْ نَفْسُهُ فِي نَفْسِهِ لَهَا اثْنَى بَسَنَاتِهِ الْمُرْعُوفِ ۱۱۱
وفي قول عنتره :

ولقد ذكرتكَ والرماح نواهل مني وبيض الهند تقطر من دمي
فوددت قبيل السيوف لأنها لمعت كبارق قفرك المنبسم
بما تحس فرقا بينه وبين مثل قول الآخر :

قطرات النسيم تجرح خديه ولمس الحرير يدمى بنانه
ومثل :

ألا أيها النوام وبمحمكو هبوا أناشدكم هل يقتل الرجل الحب ۱۲
فرقا في الالفاظ ، وفي تلاحم النسيج ، وقوة الأسر .

وعلى الجملة ، إن الأحكام دائما ، وعلى وجه أخص في الأدب ، إنما تتبع
الاعم الأغلب ، والجزالة تسود أكثر قصائد السيد حسن .

فليعض الشاعر الفعل السيد حسن الفايقي بجزالة الأسلوب ؛ وليكن شاعر
المخافة ، وإن أبي الاستاذ العاني ، وظاهره الجن والإنس .

بقي بعد ذلك المقال الأخير ، وأهم ما يستوجب التعقيب منه مقدمته ؛
فقد تضمنت :

١ — أتى تخيرت الشاعر الفعل « غنم » ، واجتلبته اجتلابا ، للموازنة بينه
وبين السيد .

قال منشؤها : « ثم تخير الاستاذ عبد الجواد أن يجعل حديث الشاعر الفعل
الاستاذ محمود غنم الى حديث السيد حسن الفايقي ، لبعض المشابهة بينهما من
الجزالة والرقه — فيما يرى — فاجتلب ذكره معه اجتلابا ، ليسايره به ، ثم يباريه
بأدبه ، وضرب للموازنة المثل فاحتفل . أجل ، لقد عقد الاستاذ الموازنة والمباراة
بين الاديين الخ . »

وأنا لم أتحير غنيم ، ولم أجتلبه اجتلابا ، وإنما تهاضاني ذكره بالذات ، ما أسلفت من تلاقيهما في رثاء المعفور له شيخ الأزهر السابق ، مع اختلاف مذهبيهما ، حتى يكون المثال أتم انطباقا على القاعدة ، على حد التعبير الفقهي الأزهرى . كما أنني لم أوازن مطلقا ، بل إنني قلت : . وكنت أود أن يتفق الشاعران مذهباً شعرياً ، وأن تتحد قصيدتهما قافية ووزناً ، حتى أوازن بينهما . . . ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه ، وما يزال مقال على حبل الذراع ، فليراجعه من شاء ، وعند جبهة الخبر اليقين .

٢ — قال مفتوها : . لقد كان إذن رأى الأستاذ الشرى يشهد لنزعة الأستاذ العاني ويصر رأيه القائل بأن الجزالة والركة فرسا رهان في الإحسان ، وأن السيد حسنا حرئ وقد ذهب بجزالة حقة ، أن يذهب بالركة . . ورأى العلامة الشرى رحمة الله عليه ، لم يعرض للجزالة والركة على هذا الوجه ، وإنما قال — بعد أن قرر أن أدب السيد حسن صورة نفسه — : . يدلك على هذا من بيان السيد ، إن كنت عنجا فيه إلى بيان ، أنك تراه يتغزل ، وأكثر شعره في الغزل ، فيطلع عليك بأرق الكلام وأعذب ، حتى ليخيل إليك أنه لا يقول شعرا ، ولكنه ينفث شعرا ١١١ .

وهذا موضع اتفاق ، ولا فسكك لشاعر عنه : ولكن رقة العزل وحده كما قال الشرى ، لا تدفع غلبة الجزالة على غيره من الأغراض . والسلام ٥

النميمة

قال حكيم : حبسك من شر سماعة .

وقال الشاعر :

لعمرك ما سب الأمير عدوه ولكما سب الأمير المبلغ
وقال آخر :

لا تقبلن نميعة بلفتها وتحفظن من الذي أتاكها
لا تقشن برجل غيرك شوكة فتق برجلك رجل من قد شاكها
إن الذي أباك عه نميعة سيذب عنك بمثلها قد حاكها

مثل من علماء القرن الثاني عشر

مؤلف تاج العروس شرح القاموس

لمفضلة الأستاذ الجليل الشيخ منصور رجب

المدرس بكلية أصول الدين

عاش من العمر ستين سنة . اثنان وعشرون ما بين الهند مسقط رأسه وبين البلدان الإسلامية الأخرى ، وثمان وثلاثون قضاها في القاهرة مقبلاً بخان الساعة تارة ، وبعطفة العسال أخرى ، ثم بمزلبسوقه اللالا تجاه جامع محرم بالقرب من مسجد شمس الدين الحنفي . كناه السيد أبو الأتوار السادات بأبي العيـض . ذلك هو السيد محمد الشهير بمـرقـضى الحـسينى الزيدى . أصله من السادة الواسطية من قصبة بلجرام على حصة فراسخ من قوج وراء نهر جنج بالهند ؛ وقد ولد بها في سنة ١١٤٥ هـ ، وورد إلى مصر في سنة ١١٦٧ هـ ، وتوفي بها في سنة ١٢٠٥ هـ ، فدفن بقبر أعمده لنفسه بجوار زوجته زيدة عند المشهد المعروف بمشهد السيدة رقية يشكر من مصر . ولقد حزن على زوجته هذه حزناً شديداً ، فأعد على قبرها مقاما ومقصورة وستورا ، وفرشا وقاديل ، ولارم قبرها أياما كثيرة تجتمع فيها عنده الناس ، والقراء والمشدوز ، فيقدم لهم الأطعمة والثريد ، والقهوة ، ويشتري مكابا بجوار قبرها يعمره بيتاً صغيراً ويفرشه ويسكن به أمها وبيت به أحيانا ، فيقصده الشعراء بالمراقى فيقبلها منهم ، ويميزهم عليها ، ويرتبها معهم على طريقة مجنون ليلي ، فيقول :

أعاذل من يرزأ كرزنى لا يزل	كثيما ويهد بعده في العواقب
أصاب يد الين المثلث شمائل	وحاقت نظائى عايدات التواب
وكننت إذا ما زرت زبدا صحيرة	أعود إلى رحلى بطين الخقاب
أرى الأرض تطوى لي ويدنوبعيدها	من الخفرات البيض غر الكواعب
فتاة التدى والجود والحلم والحيا	ولا يكشف الأخلاق غير التجارب
فديت لها ما يستنم رداؤها	عميدة قوم من كرام أطايب

عليها سلام الله في كل حالة ويصعبه الرضوان فوق المراتب
مدى الدهر ما ماتت حامة أيكه بشجويثير الحزن من كل نادب

ثم يتزوج بأخرى يموت عنها ، فيدفن بجوار زبيدة : فتاة التدى والحلم
والجود والحياء .

اشتغل بطلب العلم أولاً بالهند ، ومن أساتذته فيها الأستاذ المحقق الشيخ
أحمد الدهلوى صاحب كتاب حجة الله البالغة في أصرار الدين والشرعية . وذهب
الى اليمن وأقام بزييد مدة طويلة حتى قيل له الزيدى واشتهر بذلك ، ثم إلى مكة
فأخذ عن مشايخ كثيرين منهم السيد عبد الرحمن العيدروسى ، قرأ عليه مختصر
السمد ، ولازمه ملازمة كلية ، وألبسه الحرقة ، وأجازته بمروياته ومسموعاته ،
وقرأ عليه طرفاً من الإحياء ، وهو الذى شوقه إلى مصر بما وصف له من
علمائها وأمرائها وأدبائها ، وبما فيها من المشاهد .

ورد مصر فكان أول من عاشره وأخذ عنه من علمائها السيد على المقدسى
الحنفى ، وحضر دروس أشياخ الوقت كالشيخ الجوهري ، والمملوى ، والحنفى ،
والبيدى ، والصعيدى ، والمدابغى ، وغيرهم . تلقى عنهم وأجازوه حتى أصبح
بجازاً من مشايخ المذاهب الأربعة الذين شهدوا له بعلمه وفضله وجودة حفظه ،
وكانت الإجازة فى ذلك الوقت تساوى الشهادة عندنا الآن ، واعتنى بشأنه اسماعيل
كتبخدا عزبان ، ووالاه بره حتى راج أمره ، وحسن حاله ، واشتهر ذكره عند
الخاص والعام ، وأبس الملابس الفاخرة ، وركب الخيول المسومة ، وكانت
سويقة اللالا مسكبه بعد عطفة العمال وخان الساعة فى ذلك الوقت عامرة
بالسكان الأكابر والأعيان ، فأحذقوا به ، ومحجب إليهم ، واستأنسوا به ، وواسوه
وهادوه ، وهو يظهر لهم العنى والتعفف ، ويعظمهم ويعبدهم ، وقد يرجعون من
عده بفوائد ورقى وتمائم ، ويميزهم بقراءة أوراد وأحزاب ، فيقبلون عليه من
كل جهة ، ويأتون إلى زيارته من كل ناحية ، وبلغ من أمر المغاربة حين ينزلون
مصر وهم فى طريقهم الى الحج أنهم كانوا يذهبون إليه ويزدحمون على بابه من
الصباح الى الغروب ، وكانوا يعتقدون أن من ظفر منهم بتميمة من الشيخ يرى
أنه قد قبل حجه ، وإلا فقد باء بالحجة والتدامة ، وتوجه عليه اللوم من أهل بلاده .

شرح في شرح القاموس وهو بمصر، وسماه تاج العروس، ومكث منقطعاً لهذا العمل الجليل أربعة عشر عاماً وشهرين، حتى آتته في عشرة مجلدات كوامل؛ وعند إتمامه أولم وليمة حاملة جمع فيها طلبة العلم وأشباه الوقت وأطلعهم عليه، فشهدوا بفضلته وسعة اطلاعه ورسوخته في علم اللغة التي كان يعرف بحوارها للتركية والفارسية، وكتبوا عليه تماريظهم ثراً ونظماً، ومن قروطه شيخ السكل في عصره - كما يحدثنا الجبرتي - الشيخ علي الصعدي، والشيخ أحمد الدردير، والسيد عبد الرحمن العبدروسي، والشيخ محمد الأمير، والشيخ أحمد البلي، والشيخ عطية الأجهوري، والشيخ محمد عبادة العدوي، والشيخ أبو الأنوار السادات، والشيخ عيسى البراري، والشيخ محمد الزيات، والشيخ عبد الرحمن مفتي جرجا، وغيرهم من الأفاضل. ولما أنشأ أمير اللواء محمد بك أبو الذهب جامعه المعروف بالقرب من الأزهر وأنشأ به مكتبة، طلب هذا الشرح فأخذه وعرضه عنه ١٠٠٠٠٠٠ درهم مائة ألف. وتقول بعض المصادر: إن ملك الروم استكتب منه نسخة، وسلطان دارفور نسخة، وملك القرب نسخة. وإذا كان الفيروز آبادي يقول عن كتابه - القاموس المحيط - إنه ألفه محذوف الشواهد، فإن الريدي شارح هذا القاموس قد أتى بكثير من الشواهد، واستدرك على المتن زيادات بلغت عشرين ألفاً - كما يقول السيد علي جودت ملتزم الطبع - زيادة على مواد المتن الأصلية البالغة ستين ألفاً، حتى استغرق مافي اللسان، والمحكم، والمخصص، والتنذيب، والعباب. وبهذه المناسبة أقول: إن بعض علماء اللغات أحصى عدد الكلمات في بعض اللغات المعروفة فذكروا أن كلمات اللغة الانكليزية لا تقل في عهدنا الحديث عن (٢٥٠) ألف كلمة، وتليها الألمانية (٨٠) ألف كلمة، فالإيطالية (٤٥) ألف كلمة، فالفرنسية (٣٠) ألف كلمة، ثم الأسبانية (٢٠) ألف كلمة.

أما اللغات الشرقية فأوسعها العربية، وهي تتألف من (٨٠) ألف كلمة، ثم الصينية ويستعمل فيها عشرة آلاف علامة بألف منها (٤٩) ألف كلمة مركبة، ثم التركية، وهي تحتوي على (٢٣) ألف كلمة.

وكانت قد اهتمت بطبع هذا الشرح جمعية اسمها جمعية المعارف بالقاهرة المعزية، فطبعت منه الخمسة الأجزاء الأولى، ولم يساعدها الزمان بإتمامه، حتى وفق الله تعالى له الغازي أحمد مختار باشا، فاستصوب طبعه من أوله ليكون على

نسق واحد، فتم طبعه في سنة ١٣٠٧ بجزء الله خير الجزاء. غير أنه يؤخذ على الطبعة أنها لم تكن مشكولة كما هو الشأن في كتب القواميس، وأقصى ما أرجوه في هذا الشأن أن يفيض الله للعربية من يطبع هذا الكتاب النعيس طبعة مشكولة. ولعل الأزهري وهو القائم على حفظ اللغة أن يكون له أثر في هذه الناحية. وفي رأي أن الأزهري ينبغي أن يعمل على إنشاء دار للفن والترجمة، تنشر بعض الكتب النادرة أو بعض المخطوطات النادرة، والمكتبة العربية أو الأزهري فقير إلى مصادر ترجم في تاريخ الأديان والمقارنة بينها، والأزهري الآن والمحدثه غنى بنواة تستطيع أن تقوم بهذا العبء من رجاله الذين درسوا في أوروبا. ولو أن فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشناوي يعمل على ذلك، لكلل عهده بفخار يسطره له التاريخ، والاحتفال بالعيد الألفي للأزهري خير مناسبة لافتتاح هذه الدار. والسيد محمد مرنطسي الحسيني الزبيدي تأليف غير هذا الشرح، قال عنها بعض المؤرخين: إنها تزيد على مائة كتاب ذكرها في برنامجها، منها شرح كتاب الإحياء للغزالي، وألفية السند في ألف وخمسمائة بيت، وشرحها في عشر كراريس.

ويحدثنا الجبرتي وهو رجل معاصر للشيخ، وكان يحضر غالب مجالسه، قال: ذهب إليه بعض علماء الأزهري وطلبوا منه إجازة، فقال لهم: لا بد من قراءة أوائل الكتب، واتفقوا على الاجتماع بجامع شيخون بالصليبة: الاثنين والخميس، تباعدا عن الناس، فشرهوا في صحيح البخاري بقراءة السيد حسين الشينخوني، واجتمع عليهم بعض أهل الحطة والشيخ موسى الشينخوني إمام المسجد وخازن الكتب، وهو رجل كبير معتبر عند أهل الحطة وغيرها، وتناقل في الناس سمى علماء الأزهري مثل الشيخ أحمد السجاعي، والشيخ مصطفى الطائي، والشيخ سليمان الأكرشي وغيرهم للأخذ عنه، فازداد شأنه، وعظم قدره، واجتمع عليه أهل تلك النواحي وغيرها من العامة والكابر والأعيان، واتمسوا منه تبيين المعاني، فانتقل من الرواية إلى الدراية وصار درسا عظيما، فعند ذلك انقطع عن حضوره أكثر الأزهري، وقد استغنى عنهم هو أيضا، وصار يميل على الجماعة بعد قراءة شيء من الصحيح حديثا من المسلسلات أو فضائل الأعمال، ويسرد رجال سنده ورواته من حفظه، ويتبعه بآيات من الشعر كذلك، فيتعجبون من ذلك لكونهم لم يعهدوه فيما سبق في المدرسين المصريين. وافتتح درسا آخر في مسجد

الحقن ، وقرأ الشاتل في غير الايام المعبودة بعد العصر ، فازدادت شهرته وأقبل الناس من كل ناحية لسماعه ومشاهدة ذاته لكونه على غير هيئة المصريين وشكلهم . ودعاه كثير من الاعيان إلى بيوتهم ، وعملوا من أجله ولائم فاخرة ، فيذهب إليهم مع خواص الطلبة والمقرىء والمستمل وكاتب الاسماء ، فيقرأ لهم شيئا من الأجزاء الحديثة كثنائيات البخارى أو الدارى أو بعض المسلات بحضور الجماعة وصاحب المنزل وأصحابه وأحبابه وأولاده ، وبناته ونسائه من خلف الستار ، وبين أيديهم مجامر البخور بالمعبر والعود مدة القراءة ، ثم يحتمون ذلك بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم على النسق المعتاد ، ويكتب الكاتب أسماء الحاضرين والسامعين حتى الفناء والصبيان والبيات واليوم والتاريخ ، ويكتب الشيخ تحت ذلك صحيح ذلك ، وكانت هذه طريقة المحدثين في الزمن السابق . ويقول الجبرتي بعد ذلك : كنت مشاهدا وحاصرا في غالب هذه المجالس والدروس ومجالس آخر خاصة بمنزله وبسكنه القديم بخان الساعة وبمركزنا بالصناديقية . . . الخ .

ولى هنا ملحوظتان اثنتان : الأولى : أن سلسلة الحديث انقطعت بين رجال الأزهر ، فهل لنا من ينظمها ثانيا على طريقة السلف ؟ ولعل الأزهر يعنى بهذه الناحية في تخصص المادة قسم الحديث عند افتتاحه . الثانية : أن كتابة أسماء الحاضرين في الدرس للتشريف ، فهل يعتبر بذلك أبنائ الطلبة ؟ وأقترح أن يعمل سجل للدواظين على الحضور يعتمد على الأستاذ آخر العام ، ويكون له شأن في حياة الطالب العملية بعد ذلك .

ولما بلغ مالا مزيد عليه من الشهرة وبعد الصيت وعظم القدر والجاه عند الخاص والعام ، وكثرت عليه الوفود من سائر الأقطار ، وأقبلت عليه الدنيا بمخاضها من كل ناحية - لزم داره واحتجب عن أصحابه الذي كان يلم بهم قبل ذلك ، إلا في النادر لغرض من الأغراض ، وترك الدروس واعتكف في بيته ، ورد الهدايا التي تأتيه .

أرسل إليه مرة أيوب بك المدفردار مع بحلة خمسين إردبا من البر وأحبالا من الأرز والسنن والعسل والزيت وخمسةائة ريال نقود وقبج كساوى ، فردها . وفعل مثل ذلك مرة مع سلطان المغرب ، فأرسل إليه السلطان بخطاب يلومه . ويقول الجبرتي : إنه قرأ هذا الخطاب وفيه يلومه أيضا على شرحه كتاب الإحياء ، ويقول له : كان ينبغي أن تشغل وقتك بشيء مافع غير ذلك فبجان مقسم الحظوظ !

أساليب الوعظ

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ إبراهيم علي أبو الخشب
المدرس بكلية الشريعة

قبل أن نتحدث عن أساليب الوعظ ، يجدر بنا أن نتحدث عن الهدف الذي
الذي يهدف إليه ، والغاية التي يقصدها . ومن البديهي أن الهدف من الوعظ
ليس سوى إثارة الشعور ، وتحريك العاطفة ، وتهيئة الأحاسيس ، لقبول
ما يدعوه به الداعية ، أو يعمله إلى الناس الواعظ ، ثم تكون الغاية - بعد ذلك -
الآخذ بالتي هي أقوم ، من اجتناب المنهيات ، وفعل المأمورات .

وقد تقبنا الأسلوب البياني في الكتاب والسنة والأدب العربي ، شعرا كان
أو نثرا ، فوجدناه يقسم لسمعة خاصة ، ويتلون بلون يمتاز به عن غيره من أساليب
التعبير ؛ ذلك هو التهويل المخيف ، والطنين المدوي ، والخيال الرائع ، والتصوير
الدقيق ، والصناعة التي هي أشبه بالفن منها بأي شيء آخر . والذي يتصدى لهذه
الهيئة لا يحتاج إلى العلم بقدر ما يحتاج إلى الباقة والذوق ، والفصاحة في الأداء ،
والمهارة في الزخرف الذي يجمّل به الثوب الذي يصفيه على الكلام .

وهذا هو القرآن الكريم لا يكتفى في وصف خيبة مسعى الكافرين ،
وضياع ما كانوا يصطمعون في الدنيا من معروف ، أو يحصلونه من مكارم ؛
لأنهم لم يؤسّسوا ذلك على الإيمان ، ولم يقيموا دعائمه على تصديق محمد صلى الله
عليه وسلم فيما يُلخّنه عن ربه ، وقد نسخ دينه الأديان ، وطُمست رسالته معالم
الرسالات السابقة : « ومن يتنغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه »
وزاء حين يعرض لهذا الوصف لم يكتف بالخبر المجرد حتى يحيطه بما يقيم قيامه
الفكر ، ويثير عجاجة الخيال ، بما يصاحب ذلك من صور شعرية جميلة . وانظر

اليه إذ يقول : أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الطمأن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ، ثم أرمهم بريشة القنان الصنع رجلا لفته حرارة الشمس ، وأضاءه طول المسير ، من كثرة تحببته في صحراء مترامية الاطراف ، مشقة المسالك ، موحشة المرامي ، مفرة السبل ، لا يأوى إليها طير ، ولا يفت فيها شجر ، ولا يبدو في هذه المظاهر كلها إلا للمان على مدى الطرف يظنه المكدود ماء ، فهو يُعذُّ السير ، ويواصل الخطو ، رجاء أن يلاحقه ، ولكنه لا يكاد يدنو منه إلا تبين له أنها الأوهام ، أو كاذبات الأحلام ، ثم لا يرزق بعد ذلك غاراً يأوى اليه ، أو جبلا يخو ظهره عليه . والفارق بين هذا المعتسف للصحراء وراء الماء ، وبين الكافر الآمل ، أن الكافر يلئب به الجزاء ، وتلح عليه الخاتمة الممقوتة ، ووجد الله عنده فوفاه حسابه .

وإليك مثلا من السمة المطهرة في الحديث : « الظلم ظلمات يوم القيامة » ؛ فهل نرى إلا أن الظالم حين تعوزه الحجة ، وتخونه مسارب الحجة ، وتوصد دونه الأبواب ، ويعيبه الجواب ، من فصل الخطاب ، قد أحاطت به الظلمات من كل ناحية ، وتكشفت له الخيرة من جميع جهاته ، والحق أبلغ ، والباطل للجلج ، وهو أشبه بالآية ، لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ؛ وكل هذا في مقابل وصف المؤمنين الذي كملت هدايتهم ، ولانت الدعوة مقادتهم ، فاستقاموا على الطريقة بكونهم : « يسمى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم » .

وكذلك كان الوعد يعتمد الترغيب والترهيب ، والوعد والوعيد ، ارتدع النفوس ، وترجع عن غيها الأفتدة ، وتنب إلى رشدتها القلوب ، فلا تسير إلا وراء العمل ، ولا تخطو خطوة دون أن تقدر العاقبة ، وترتب عليها ما ينجم منها من الخير والشر ، والفضيلة والرذيلة ، وربما عولوا في هذا على القصة المصنوعة ، والخبر المنسوج .

حكى عن إبراهيم بن آدم أن رجلا لقيه ، فقال : يا أبا إسحق ! أنا رجل مسرف على نفسي ، وقد أحبت أن تحدثني بشيء من الزهد لعل الله يلين قلبي وينوره . قال إبراهيم : إن قبلت مني ست خصال أو صيكت بها فلا يضرك ما عملت

بعدها . قال : وما هي ؟ فقال إبراهيم : إن أردت أن تعصيه فلا تأكل رزقه . قال : فإذا كان كل شيء من رزقه فن أين آكل ؟ فقال إبراهيم : يا هذا أفحسن بك أن تعصيه وأنت تأكل من رزقه ! . قال : لا والله ! . فقال إبراهيم : إذا أردت أن تعصيه فلا تسكن في بلده . قال : فإذا كان السهل والجبل ، والأرض والسماء ، كلها ملكه ؟ فقال إبراهيم : إذا أردت أن تعصيه فلا تجعله يراك . قال : فإذا كان يراني ولا يخفى عليه مكاني ! . فقال إبراهيم : إذا جاءك ملك الموت فاستمعه حتى تتوب . قال : فإذا كان لا يملك شيئا من تصديم أو تأخير ! . فقال إبراهيم : إذا كان الغد وذهبت بك الزبانية إلى النار فقل لا أذهب إليها ! . وكان ابن آدم في كل واحدة بعد أن يقطع عليه الطريق ، ويلزمه بالحجة يقول له : يا هذا أفحسن بك أن تعصيه ! وكان الرجل لا يسمعه إلا أن يقول : لا ، وفي النهاية دمعت عينه وقال له : يا إبراهيم حسي حسي ... !!

وفي كتاب : محاضرة الأبرار ، ومسامرة الأخيار ، لمحي الدين بن العربي : أن ملك الموت حينما يرى جزع أهل الميت ، ويستمع إلى ولولتهم ، وينزعج من صياحهم ، تأخذه الدهشة مما يفعلون ، والعجب لما يصنعون ، فيقول : والله لم أجدى إليه إلا مأمورا ، ولم أفعل به ذلك إلا مقهورا ، ولم أقبض روحه قبل نهاية الأجل ، والدنيا معدودة ، أيامها معدودة ، وأنفاسها غير مردودة ، وهي كلها طالت استعالت ، ومالت ثم غالت ، فسلام يبكي الصوم ، في ذلك اليوم ... !!

وربما كان السر في أن تكون أساليب الوعظ بهذا النمط ، وعلى هذه الشاكلة من البيان ، لأنها لغة العاطفة ؛ ولذلك يكون تأثير الواعظ على قدر ما يكون إخلاصه ، واحتسابه على الله ما يؤدي من واجب الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وما صدر عن القلوب ، يستقر في القلوب ، أما ما يجرى على اللسان ، فإنه لا يتجاوز الآذان !! .

العلوم الإسلامية التقليدية

وحاجة الباكستان إليها

لحضرة الأستاذ حسين بن الشيخ فيض الله الهمداني اليعبري

[فيما يلي نص الكلمة التي ألقاها الدكتور حسين فيض الله الهمداني الملحق الصحفي بسفارة الباكستان بالقاهرة في يوم الثلاثاء ٢١ ديسمبر ١٩٤٨ في الاجتماع الذي دعا إليه قسم الصحافة بمعهد الدراسات الشرقية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة . وقد رأس الدكتور بطرس عبد الملك أستاذ اللغات السامية الاجتماع الذي شهدته لفيف من رجال الدين والمنتمين والمتأدين]

لو قدر لي أن ألقى كلمتي هذه على بعض من المستمعين الغربيين لكان لزاما علي قبل أن أبدأ، أن أشرح المعنى المقصود من لفظة التقاليد ، لأنها كلمة ما عمت أن اخفت اليوم من التفكير الأوروبي بعد أن جرفها أمامه تيار المدنية ، وبعد أن أصبحت عبارة يطلقونها في مجال الذم والقدح .

ولكن عند ما أتحدث إلى قوم شرقيين يعرفون ما للتقاليد من معنى ، أراهم لست في حاجة إلى تبيان معنى هذه اللفظة ، أو المرمى الذي ترمى إليه ؛ ولو أن شيئا منها غامضا يحوم حول هذا اللفظ ويجعل من الصعب إمكان أن نعطيها تعبيرا محدودا صادقا . وعلى العموم فالمسألة مسألة تفكير ، ومسألة مستوى للقيم ، وأحيانا مسألة معيار أو مقياس للحكم والتقدير .

وكل مدنية لها طابعها الخاص وتقاليدها الموروثة التي تصنع قوتها ، وتسب على آدابها ألوانا غير تلك التي تتميز بها بقية الآداب ، والتي تظهر بوضوح في كل معالمها .

والثقافة هي التي تميز أي شعب متمدين عن أي شعب آخر، والتي تعطيه صفة يتعلل بها تبقى عالقة به ما بقي التاريخ؛ وهي التي تشيع في تفكيره ومرايمه؛ ذلك النوع الذي يغاير ويخالف غيره من التيارات الفكرية. ونحن إذ نسوق الكلام في هذا الصدد لا نعني بكلامنا الأمم في حد ذاتها، وإنما نعني به المدينيات؛ لأنها أوسع مجالاً وأحسن تعبيراً. فالمدينيات إذن هي الباقية؛ أما الأمم فتغيرة؛ وهي تأتي في المقام الأول؛ لأنها ليست إلا عبارة عن تشكيلات صغيرة، وجماعات سياسية مؤقتة هي في الأمم الاغلب تحت سيطرة مدنية أو أكثر من مدنية. والامة قد تتغير، وقد تتغير في أحيان كثيرة، وقد تتمحى بسرعة، بينما لا ينطبق هذا على المدينيات لأنها مظهر دائم وحياة دافقة، إن لم تكن متجددة، فهي ليست ميتة، وهي في أغلب الأوقات (ميتة) لا يمكن استبداله أو إحلاله محل آخر.

وعلى هذا يكون لكل مدنية ثقافتها الخاصة؛ وغالباً ما يكون لها كتاب يعتبر أساساً لها، وهو لا يعد ابتداء لهذه المدنية ولا مقدمة لها، ولكنه يعتبر المركز الذي تتبلور فيه قواعد هذه المدنية، والذي تشاهد وتحدد فيه بوضوح. وتطبيقاً لهذا كان لليسجيين الإنجيلهم، ولللسليين قرآنهم، ذلك الكتاب القيم الذي أوحى به الله عز وجل لئيه محمد سنوات الله عليه.

وقد يوجد الى جانب هذا الكتاب مجموعة من الكتب كتبها الرعيل الأول من العلماء والعلماء، والتي أصبحت على مر الزمن مراجع مقدسة يعترف بها رجال الدين ويؤمن بها جمهرة الناس. فإلى جانب الإنجيل توجد كتابات رجال الكنيسة، وإلى جانب القرآن توجد السنة، وهي عبارة عن أقوال النبي وصحابه التي جمعت وتوازرت حتى أصبحت ذخيرة للأجيال المقبلة، ولتحلف بعد السلف، وعلى هذا أسست تقاليد الإسلام، على القرآن والسنة، ومنهما انبثقت علوم الإسلام وظهرت، وكما كما أساساً لهذا فاهما سيظان كذلك طالما ظل نور الله يشرق على الإنسانية رحمة وهداية.

ونحن لانعني بذكرنا العلوم التقليدية، الاصطلاح العلمي الحديث المتداول بين الناس، ولكننا نعني بها المعنى العام القديم المتوارث لمجموعة المعارف ذات الدلالات الخاصة.

وعلوم الاسلام التقليدية خمسة ، هي : التفسير ، والحديث ، والفقه ، والكلام ، والتصوف .

فالتفسير هو العلم الذى يعالج كلام الله ، ويتقضى من المشتغل به علما بدخائل اللغة وتمكنه من جميع أبوابها ؛ فهو مطالب بأن يعرف معانى الكلمات واشتقاقاتها وإعرابها ، وكيفية تركيب الجمل ، الى غير ذلك . وإن الباحث فى هذه العلوم ليجد لذة فى دراسة اللغة العربية ؛ لأنها فضلا عن كونها لغة واسعة ، فإن المتعمق فيها يجد مجالاً كبيراً لدراساته ، وهى تتيح له كذلك فرصة لتوسيع مداركه وتشغيل عقله وفكره ، لكثرة ما فيها من مباحث وفصول . وقد أدت دراسة القرآن الكريم الى إنشاء علوم ؛ منها علم المعانى الذى يتمشى الى جانب تقاليد الإسلام ، ولو أن هناك علوماً أخرى لها علاقة شديدة بكل هذه الأبحاث ، مثل علم القراءات وعلم الكتابة ، إلا أننا لسنا فى حاجة الآن الى ذكرهما لبعدهما عن أغراضنا .

ولتفسير كتاب الله ينبغى على من يبرى له أن يكون ملماً علاوة على تعمقه فى علوم اللغة بشروح الأقدمين ، دارساً للمسائل التى أقدم عليها المجتهدون الأولون خاصة ؛ تلك الجماعة القديرة التى كانت تجمع وتلطف حول النبي ، والتي كانت تحفظ كلامه وأحكامه ، والتي كانت تنقل كذلك عن صحابته وعترته . ومن هنا ظهر علم الحديث الذى يتضمن دراسة كلامه صلى الله عليه وسلم ، وكذلك أفعاله هو وأنصاره وصحابته . ثم جمعها وتبويبها ، واستخراج المعانى السامية من مدلولاتها ومراميها .

والاسلام فى هذا يسهم بقطر وافر فى الاستقراء والبحث العلمى والتاريخى ، وقد سار التاريخ قبل الاسلام الى جانب الخرافة ، واندمج الواحد فى الآخر فى شكل إن ظهر للباحث جيلاً سهلاً إلا أنه كان أسراً ليس الى غيره . وقد خرج المسلمون من كل تلك العلوم والأبحاث مادة جديدة وعلماً آخر بنى على دعائم قوية من حرية البحث والاجتهاد فى التأويل هو علم النقد الخارجى ، الذى راحوا بواسطته يتقصون عن مصدر الحديث وعن نقله وعن طريق من حدث هذا النقل حتى يصلوا فى آخر الأمر الى الحقيقة فتطمئن قلوبهم . وكما أننا ندرس اليوم ونعالج العلم الذى نطلق عليه اسم علم النقد الداخلى ، فإن المسلمين

منذ قديم الزمن عرفوا قواعده وأصوله فعالجوه معالجة دقيقة ، وأسموه
« الناسخ والمنسوخ » .

ومن هذا يبين أن علوم الإسلام ماهي إلا علوم نشأت بطبيعتها ، وفي شكلها
الموزون المتناسق من الكتاب الكريم ، وقد بنيت على نصوصه وأحكامه التي
لا تقبل جدلاً ولا مفاشة ، وعلى هذا تكون كل هذه العلوم المختلفة مستنبطة
من القرآن الكريم ، وكلها تجري حسب طريق خاص تعمل وتساعد
الإنسان على شق طريقه في الحياة وتوجيه أعماله وتصرفاته في سهولة ويسر ، وفي
طمأنينة وسلام .

ومع هذا التناسق والتوازن في العلوم الإسلامية المستنبطة من القرآن الكريم
والسنة الشريفة ، فهي لم تغلق الباب أمام المسلمين ، ولم تؤد بهم الى مسلك واحد
ولا إلى نظرية واحدة غير متغيرة ، ولا إلى تفكير على نسق منتظم ، بل تركت
باب الاجتهاد مفتوحاً للتأويل والتخريج ، كما نرى في علمي الكلام والتصوف .

ويقارن علم الكلام بـ Scholasticism لأن علم الكلام يطبق العقل على
العقيدة ويقرب بينهما ، أما التصوف فهو العلم الذي يبحث عن الحقيقة في علاقة
الفرد بربه ، وعن تلك الاسرار العامضة التي ظلت مغلقة دون العقل البشري ،
والتي يحاول هذا العلم الوصول إليها عن طريق التجرد ، وكلا العلمين يقوم على
نظريتين مختلفتين من حيث النظر إليهما عن طريق علم ما وراء المادة ، هما :
نظرية الذرة Atomism ونظرية الوحدة Monism .

فنظرية الذرة فلسفة تقول بأن العالم مكون من ذرات صغيرة غير قابلة
للتجزئة (الجزء الذي لا يتجزأ) ولا يقصر الفائلون بهذه النظرية فرضهم على الفضاء ،
بل يتعدون بنظريتهم الى الزمن فيقولون بأنه جزء لا يتجزأ ، وعلى هذا تنبى هذه
النظرية نظرية الاستمرار والبقاء ، لأن العالم كله مكون من ذرات من الفضاء تبقى
لوحدة معينة من الزمن . وقد اتحد علم الكلام هذه الفلسفة موضوعاً لقاعدته .
وكثير من المشتغلين بهذه العلوم لا يزال يعتقد بوجودها إن لم يكن عملياً فمن
طريق الفرض والتخمين . وتطبيقاً لها تنبى نظرية السببية ، وتفسح للنظرية
الأخرى القائلة « بالخلق في كل وقت ، مكاناً آخر .

أما النظرية الأخرى فتقول بالوحدة الكاملة ، وتصر على أن العالم كله وحدة في نفسه ، وهذا ما يعالجه علم التصوف وما يتخذه له فكرة إن بعدت عن التحقيق المادى إلا أنها تقرب كثيرا من الفرض النظرى ، وتهتم هذه النظرية بنظرية السببية . ودراسة التغير والتبدل أمر أساسى بينما لا يعترف بهما علم الكلام .

وهنا لا يسع الباحث إلا أن يلمس التناقض الفلسفى البين الذى يتضمنه دين واحد . والحديث فى هذا الصدد يجرنا الى التحدث الى شيعة الإسلام ، خاصة الى هذا الجيل الذى يريد أن يتحرر من ربة التقاليد الموروثة والمعرفة القديمة ، يحاولا التوصل منها واعتناق ما يطلقون عليه اسم « الحرية الفكرية والتقدم الفنى » .

وقد تشعبت الآراء فى الحكم على تاريخ أوروبا منذ عصر النهضة ، ولكن الحقائق تدل على أن فصل الكنيسة عن الاهتمام بالشئون الدنيوية والتحلل من عبودية التقاليد كل هذا غير من نظرة الناس الى حقائق الحياة . وعند ما تحررت العلوم من رقابة الكنيسة وترك للباحثين حرية الدرس وإبداء الفكرة ، طفرت هذه العلوم الى أعلى ، وانفسح أمامها طريق القدر والجدل والنقاش . وإذا أضفنا الى هذا ظهور الوعى القومى ونهوض الفرد من السبات العميق والهوة الساحقة التى دفع اليها دفعا ، عرفنا مدى النجاح الذى أصابته المعرفة ، ومدى التقدم الذى وصل اليه العلم . وقد أدت كل هذه المعارف الى نشوء فكرة « الأمة » و « القومية » وراحت الدول يافس بعضها البعض الآخر ، وحيثما تحللت العرى التى تربط هذه الأمم بتقاليدها السابقة ، وراحت ترى فيها شبحا غيفا يغفل يديها ويضع القيود فى قدميها ، وعند ما بدأت هذه الأمم الأوروبية فى ابتعادها عن تقاليدها وبالتالى عن تنبعا أحكام دينها ، ابتدأت مدينتها المسيحية فى الزوال ، لأن المدنية تقوم على أسس ثابتة من الدين .

ولما بدأت الافكار الأوروبية هذه تتحول شيئا فشيئا الى عالم الدينيوية ، وأتيح لجمال الفكر والثقافة فى تلك القارة أن يتسع تدريجيا ، وأن يتخذ وجهاً متعددة مختلفة ، أصبح صعبا على الرجال ذوى الطوايا الطيبة أن يحتفظوا بذلك المستوى الاجتماعى الرفيع الذى كان يكفله تمسكهم بأهداب الدين ، ومن ثم

بالمدينة، كما ذهبت مساعيهم في سبيل ذلك وفي سبيل استقرار النظام والأمن العالمى
أدراج الرياح .

ونتيجة لهذه الانجازات الحديثة استطاع الأوروبيون أن يخلقوا هيئات
سياسية ، وهياكل قانونية ، لكنها كانت هيئات ينقصها الروح ، وتنقصها العقيدة ،
فهي كالجسم بلا روح .

ويخيل البنا أن الإسلام قد خطا خطوة نحو هذا السبيل ، ولكن الإسلام
منذ بدئه لم يضطهد العلماء ولم يضع القيود والعراقيل أمام البحوث العلمية ، كما أنه
لم يكن هناك كنائس تقف عثرة في وجه التقدم العلمى وفي أعمال الفكر وإبداء
الرأى ، بل على العكس من ذلك كان باب الاجتهاد مفتوحاً أمام العلماء ، ولكن ران
على أعين المسلمين سبات عميق بعد أن مر عليهم أجيال عدة زاهرة زاخرة بشتى
الفنون ومتنوع الحضارات ، وراحوا في غفلتهم يحلبون بثرات الماضى وبالمجد
الغابر ، بعد أن أوصدوا دون ذلك باب الاجتهاد والفكر ، وأصبح عملهم منصباً
فقط على شرح الكتب القديمة أو إضافة شرح الى شرح . والمكتب فى هذا
الباب كثيرة جداً تحاول أن تفسر وتعرف بالدين الإسلامى الحنيف ؛ ولكنها
— وهو أمر يؤسف له — ما كتبت إلا لتوضع على الرفوف ، وأصبحت بعيدة
التداول إلا عن تخصص بها وأصبحت شغله الشاغل ، وأصبحت أكثر من ذلك
كتبا عتيقة لا تمتشى مع مقتضيات العصر ، ولا تتوافق مع الانجازات الاجتماعية
أو الاقتصادية التى ظهرت فى القرن العشرين .

منتهى الجود

قال بكر بن العطار .

أقول لمرئاة الندى عند مالك	تمسك بجدوى مالك وصلاته
فتى جمل الدنيا وقاه لعرضه	فأسدى بها المعروف قبل عدااته
فلو خذلت أمواله جود كفه	لقاسم من رجوه شطرحياته
وإن لم يجز فى العمر قسم لمالك	وجاز له أعطاه من حسناته
وجاه بها من غير كفر يربه	وأشركه فى صومه وصلاته

الجنة للمرأة الصالحة

لفضيلة الأستاذ الشيخ كامل مجلان
المدرس بالأزهر

قال الله تعالى : « الذين توفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ، ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون » .

من أنعم الله علينا أن خلق لنا من أنفسنا أزواجا للسكن إليها ، وتطيب بها حياتنا ، ويبدأ بالناء ، وتقر أعيننا بالراحة إن تمينا ، وبالأطمئنان إن اضطررنا ، وبالرضا إن ضيقنا ، وبإشاعة الإثر إن خيمت الآلام ، وبالتعاون على إقامة الأسرة ، وتكوين البيت ، وتنشئة الأبناء .

بذلك جرت سنة الله ، ولن تغير لسنة الله تبديلا .

ولقد عُني الرسول صلوات الله عليه بتوجيه الناس كافة ، وأمنته خاصة ، إلى دعم حياة الزوجية ، وإقامتها على أوامر الأخلاق وروابط المودة ، وآيات الإخلاص ، وتبادل المحبة الصادقة الخالية من شوائب الأثرة الماسحة والاستغلال المرمق .

ومن يتبع توجيهات الرسول بمجدها مثالا عاليا ، وهديا يرشد الأزواج إلى نهائهم ، ما دامت سنة الكون في أنفسنا .

وإذا كانت حياة الأسرة أسست من أول يوم على (الزوجية) و (الزوج) ، والله جلّت حكته جعل تلك الرابطة من شعائر دين كرمه إلينا العدول عن تبعات الزواج والإنجاب وحفظ النوع . . . فإن الرسول وجه الزوجية إلى أدب الزوجية ، وأرشدنا إلى رعاية حقوق الزوج ، لأنها أداة العمة التي تتم على من يسهه الله للخير وعرفان حق (الزوجية) ، فوزقه امرأة صالحة نافعة .

روى عن رسول الله أنه قال : « خير ما يكنز الرجل المرأة الصالحة ، إذا نظر إليها سرته ، وإذا أمرها أطاعته ، وإذا عاب عنها حفظته في عرضها وماله ، وفي حديث آخر « الدنيا مناع وخير ما عابها المرأة الصالحة . » وبذلك كان على الزوجة أن ترعى الله في نفسها وزوجها ، وأن تبذل جهدها في أن تظل برداً وسلاماً ، وروحاً وريحاناً ، وأن تؤدي حق الله وحق زوجها ، فلا تنقل عليه في مطالبها ، ولا ترد له رغبة ما وسعها لإجابته ، ولا تهجم له ولا تعشى سره ، ولا تظهر حاجته ، ولا تهمل أمره ، ولا تجعل منه مورد مال تفقه على رغباتها الكسالية وتسند به دواعي ميلها إلى مظاهر البذخ والإسراف في الزينة الخارجة والمصرة بحفاظ الأنوثة .

والمرأة التي تبذل طاقتها في توفير الراحة لزوجها ، وإدخال السرور عليه ، وتخفيف أعباء الحياة ، ودفع المآزم عن نفسه ، ولا تكفه مالا طاقة له به من مال أو جاءه أو مظهر ، ولا تمصى له أمراً مادام لا ينجح إلى معصية أو تنذير - هي خير الزوجات ، وهي التي عابها النبي حين سئل : أي النساء خير ؟ فقال : « التي تسره إذا نظر ، وتطيعه إذا أمر ، ولا تخالفه في نفسها . »

فن واجب الزوجة أن تؤمن بأن أول الناس وأولام بالطاعة هو الزوج ، وأن حقه أعظم الحقوق .

سألت السيدة عائشة رضوان الله عليها رسول الله « أي الناس أعظم حقاً على المرأة ؟ فقال : زوجها ... »

فليس للزوجة أن تنسى ما جعل الله للرجل من قوامه ، وما مكن له من تصريف الأمور في شئونه وشئونها ، وشئون الأسرة والأولاد .

ولا تنافي طاعة الزوجة لزوجها ما لها من رأى في أمر حياتهما الزوجية ، فأمر البيت شورى ما تعلق العمل بالمرأة ، وما كان الخير معقوداً بأناملها الصاع ، وما دامت تبت الرحمة وتجري هلى الرفق والدراية والمباية بحالها وحال زوجها ومن لها عليهم الرعاية المنزلية .

وقد تعلقوا مسئولية الزوجة في بيتها على مسئولية الرجل في جوانب لا يحسنها الزوج ، وهي التي إن شامت جعلت المنزل جنة طيبة ، وإن تمردت ردت تلك الجنة

جاحا يمر المرء منه إن خلعت عنها رداء الشكر والرضا بما قسم الله وما وهب من حظ .

والله هو المعطى ، وهو الذى قسم معيشة الأزواج والزوجات ، فهم الغنى ، ومنهم الفقير ، ومنهم القوى ، ومنهم الضعيف ، ومنهم الجليل ، ومنهم القبيح .

وما على الزوجة إلا أن تكون مع زوجها راضية على الحالات جميعا . فان الرضا يرد الفقر غنى ، والضيق سعة ، والشدة رخاء ؛ وتلك آيات المودة ودلائل الإخلاص ، ومعاني الزوجية الصالحة التى أسسها الله على رعاية الحقوق ، والقيام بالواجبات .

أما الزوجة المتمردة على الواقع ، والتى لا ترضى بحظها وحظ زوجها ، وتشغل البيت بالآراء المخالفة ، والرغبات الزفة ، والميول المثيرة ، فهى الزوجة التى لا ي نظر إليها الله تعالى ؛ لأنها لم تقدر نعمة أنعمها المولى من رحمته ، ومن تهيئة الاستقرار لها فى ظل بيت ، وتحت راية علاقة تربحها من نظرات الناس إليها وهى عاطل من الزوج ، أو قعيدة فى بيت أهلها . أو عالة على ذويها ، أو كادحة عاملة ناصبة تشقى بحصيل قوتها ، آفة من مستقرها الجليل ، وعشا الهادئ ، وتكون البيت وتنشئة الأبناء .

روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا ينظر الله تبارك وتعالى إلى امرأة لا تشكر لزوجها وهى لا تستغنى عنه » .

ليس معنى طلب الطاعة من المرأة لزوجها أن تنساق وراء رغبات الزوج أيا كانت من الجروح ؛ فإنه « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » ، بل على الزوجة الطاعة فيما أحل الله . فإذا جح عن الاعتدال كان على الزوجة أن تقوم ما استطاعت حتى تجنى من وراء ذلك سعادة الدارين : الدنيا ، والآخرة ، وذلك هو الفوز العظيم . وبهذا العمل يكتب لها دخول الجنة متى أدت حقوق الله ، وكان حقا على « الضرور الرحيم » أن تدخل من أى أبواب الجنة شاءت .

قال عليه الصلاة والسلام : « أيما امرأة ماتت وزوجها راض عنها دخلت الجنة » .

العصر العظيم

في تاريخ العالم

لحضرة الأستاذ عمر طلعت زهران

وحدث نفس الأمر مع جوتامو ، الذي كان تنشيره قد مهد له التقدم الروحي السابق مبتدئاً ، بالعصر الفيدي Vedic Age ،^(١) ومنتهاً بمثل متعددة متباينة حلته على ترك منزله ، وقد تزايد عدد تلامذته منذ ألقى خطبته الأولى في بنارس ، وكان يحيط به خلق كثير من المؤمنين به كلها حل في مكان أثناء ترحاله من مكان إلى آخر ، كانوا يتركون دورهم وأهلهم ليتبعوه ، ولم يقتصروا على سماعه حسب ، وإنما غنوا من أكبر معاونيه في بناء الدين الجديد .

ورحب زردشت بحماية الملك له ، وإن انتشار النظرية الجديدة في إيران لخير مثل يضرب للنشاط الناقص . هن اشتراك عدد كبير من الناس فيه .

أما في اليونان فإن فيثاغوراس لم يكن معروفا معرفة الفيثاغوريين ، فكثير من المؤلفين تحدثوا عن المدرسة لا عن رئيسها ، لسبب واضح بسيط هو : صعوبة التحدث والتمييز بين ما عمله المؤسس وما قام به التلاميذ .

وعلى ذلك فعلينا ألا ننظر إلى كل من هذه النظريات العظيمة على أنها عمل فردى قام به فرد عظيم حسب . بل لعل من الأفضل أن ننظر إليها على أنها عمل

(١) نسبة إلى كلمة Vedas . وهي كتب الهدوس الأربعة المقدسة ، مكتوبة بالكتابة السريانية من وهي براما . وهي Rigveda أي كتاب الآلهة والشمس ، و Samaveda أي كتاب الأغاني والألحان ، و Yajurveda أي كتاب الصلاة ، و Atharaveda أي كتاب التعاويذ السحرية . ووضعت لها شروح أشهرها بوراناس Les Bouranas وسوتراس Les Soutras . والاسم من فيدا : ميداتا أي نظام الفلسفة الهندوسية المبني على تحديدات . والكلمة سنسكريتية : فدا : مرة ويعد : يعرف . [الحرب] .

لعصر عظيم . وعلى ذلك نصير المسألة التي تطلب حلا ، ليست عن تعاصر الحكام الأربعة العظام ، وإنما هي عن تعاصر أربعة عصور عظيمة كانت توجد معا في القرن السادس قبل الميلاد . فهل من الممكن أن نقبل أن مثل هذا الوجود في نفس الوقت — لهذه العصور العظيمة — يمكن تفسيره بأنه كان مجرد تصادف ، دون ترابط داخلي ؟ يجد المؤرخ نفسه — إذا اتبع وجهة النظر هذه — مضطرا إلى النظر إلى الأحداث الأربعة المحلية المنفصلة من وجهة نظر عامة باعتبار أنها : نواح أربع لوحدة أعظم ، لحادث عالمي واحد عظيم .

وليس نعد الحوادث المنفصلة الواحد عن الآخر — بأي حال — أمرا حاسما . فثمة أمثلة كثيرة من علم الآثار أو التاريخ [حفرية وتاريخية] تدل على وحدة الحوادث في أغلب أماكن الأرض البعيدة بعضها عن البعض . فالعصر الحجري الأخير في الشرق الأقصى لم يكن له نفس السمات ، فحسب ، التي كانت لنفس العصر في أوروبا ، ولكنه كان ، فوق ذلك ينتمي إلى نفس الوقت . ودخلت الزراعة ورعى الأغنام ، معا وعمليا ، في بلاد الصين وفي المغرب الأقصى من العالم القديم . كما أن الزراعة انتشرت في الصين في الألف الثاني قبل الميلاد ، وطبقت تطبيقا عمليا في إيران . وظهر البرونز في وقت واحد في أبعد أماكن الأرض بعضها عن البعض . بل إن المباني الحجرية الضخمة ^(١) بنيت على شواطئ الإطانيطيق ، والباسيفيكي في نفس الوقت تماما ، في أوائل الألف الثاني قبل الميلاد . أما الأسلحة والآلات الحديدية فقد ظهرت في أوروبا وفي الصين في نفس العصر ، في نهاية الألف الثاني ، أو بداية الألف الثالث قبل الميلاد . ومن الواضح أنه كانت توجد رابطة ما ، ربطت بين الناس في العالم القديم قبل عصر السكك الحديدية والتلفراف .

وعلى ضوء هذه الحقائق نجد أن تعاصر مصارع التقدم الروحي ليس محض اتفاق غريب ، ولكنه نتيجة طبيعية لتعاصر وقوع الحوادث ، ذلك التعاصر الذي ساد تاريخ الثقافة البشرية .

(1) Mehrins, dolmens, megalithic constructions.

ولذا افترضنا سبباً عاماً لأجل تعاصر النظريات الإنسانية الكبرى ، فإنه يمكن استكشافه في مجرى الحوادث التي حدثت معها . وأول حادثة كان لها أهمية عميقة عظيمة هي : استخدام الحديد ، ولم تبدو عظمة هذه الحادثة من الناحية المادية رائعة . ويجب أن نفترض أنه لم يكن ثمة شيء آخر كالحديد كان قائده سيمفونية ، هذه النظريات الكبرى . فإن انتشار الحديد قد سبب ثورة - ولا ريب - في الحياة القديمة . فانه إن كان البرونز - الذي سبق اكتشافه اكتشاف الحديد - نادراً ، وإن كانت الآلات الحجرية استعملت في كل مكان خلال عصر البرونز ، فإن الحديد الذي انتشر بسرعة ، والذي كان يسهل الحصول عليه ، قد حل مكان الحجر والبرونز معاً ، وصار الدعامة الحقة لحياة البشر المادية . وخلقت الأدوات الكثيرة الجميلة السهلة الموافقة لكل نواحي الحياة ، خلقت عصراً جديداً ، بحق ، في الثقافة المادية ، مؤثرة على كل أوجه العمل : الزراعة ، وقطع الأحجار ، والبناء ، والسفن ، والحرب . بل إن العمل بالآلات الحديدية قد زاد الانتاج وأثمر كثرة ورغاء ، وهي أمور لم تكن كلها معروفة من قبل . ونتج عن المحافظة على الحامات ، تنافس بين القوى المتبكرة في الروح البشرية . وعلى ذلك كان تماثل الثقافة المادية في العالم كله في العصر الذي تلا استعمال الحديد ، هو السبب الأول العام لتماثل الحياة الروحية .

من الغنى

قال رجل لابراهيم بن آدم يا أبا إسحق كنت أريد أن تقبل مني هذه الجبة كسوة . فقال له ابراهيم : إن كنت غنياً قبلتها منك ، وإن كنت فقيراً لم أقبلها منك . قال الرجل : فإني غني . قال ابراهيم بن آدم : وكم مالك ؟ قال الرجل : ألف دينار . قال ابراهيم : فأنت تود أنها أربعة آلاف . قال الرجل : نعم . فقال ابراهيم : فأنت تود أنها أربعة آلاف ؟ قال : نعم . فقال ابن آدم : فأنت فقير ! لا أقبلها منك !

كأفخوا الفقر

زكاة الزرع^(٥)

لفضيلة الشيخ فهم سالم المليجي
المدرس بمعهد القاهرة

المادة العشرون : إذا نتج للزارع من زرعه نصاب وهو ألف وستمائة رطل ، أو خمسون كيلة بالكيل المصرى ، وجبت عليه الزكاة .

المادة الحادية والعشرون . يشترط أن يكون الناح طعاما يقتات ويدخر .

المادة الثانية والعشرون : ذكر الفقهاء من الاطعمة التى تجب فيها الزكاة

الاصناف الآتية : القمح ، الذرة ، الشعير ، السُّلْتُ ، الدخن ، الارز ، العلى ، الفول ، البسيلة ، اللويا ، الحصى ، الترمس ، الجلبان ، الزبيب ، التمر ، الزيتون ، السمسم ، القرطم ، حب الفجل الاحمر ، اللوز ، الجوز ، الفستق .

المادة الثالثة والعشرون : إذا نتج من قمح وشعير وسلت القدر المتقدم ، من أحدهما أو جميعهما ، وجبت فيه الزكاة .

المادة الرابعة والعشرون : جميع أنواع الذرة جنس واحد يضم بعضها لبعض إذا بلغ من جميعها أو أحدها نصاب ، وجبت فيه الزكاة .

المادة الخامسة والعشرون : تضم القطاى السبع بعضها إلى بعض ، فإذا بلغت

جميعها نصاباً وجب فيه الزكاة ، وهى : الفول ، البسيلة ، اللويا ، الحصى ، الترمس ، العدس ، الجلبان .

المادة السادسة والعشرون : كل من الدخن والارز والعلس والذرة والزبيب والتمر إذا بلغ من كل على حدته نصاب وجبت فيه الزكاة وإلا فلا .

المادة السابعة والعشرون : فى السمسم والقرطم والزيتون وحب الفجل الاحمر الزكاة إذا بلغ من أحدها أو من جميعها نصاب .

(٥) بقية المقال المنشور فى عدد صفر من هذا العام .

المادة الثامنة والعشرون : أهمل الفقهاء بذر الكتان والقطن والخس فلم ينصوا على الزكاة فيه . وأستحسن وجوبها ، فإن العملة التي هي الاقنيات والادغار مطبقة عليها وهي مصلحة الفقير .

المادة التاسعة والعشرون : كل من التين والمشمش الخوى والهندي والقراصية فيه الزكاة إذا تم الصاب : لأنه يقتات ويدخر ، استجسانا ، لمصلحة الفقير .

المادة الثلاثون : ما يبيع قبل جفائه كالعنب والتين البرشومي والفول الاخضر والبلح تخرج الزكاة من ثمنه نقودا .

المادة الحادية والثلاثون : تخرج الزكاة من زيت ذوى الربوت أو منها إذا بيعت قبل العصر إن بلغ حبها نصابا ولو لم يبلغها ربتها .

المادة الثانية والثلاثون : ليس في الهواكة والخضروات زكاة لأنها لا تقوم بها البنية ولا تدخر ، كالبرتقال والتفاح والرمان والفناء والبطيخ ، إلا أن تكون عروض تجارة

المادة الثالثة والثلاثون : في الجوز واللوز والبندق والسوبر والفتق زكاة لأنها تقتات وتدخر كما قال الإمام (أحمد) .

المادة الرابعة والثلاثون : الزكاة التي تخرج من هذه الاصناف (العشر) أى عشرة في المائة إذا سقيت بالسيح بلا آلات . (ونصف العشر) إن سقيت بالآلات . وإذا سقيت عدة مرات بالآلات وعدة مرات بالسيح فالحكم للأغلب . وإن تساوى كان الواجب إخراج $\frac{7}{10}$ % .

المادة الخامسة والثلاثون : إذا عرس الزرع مع وجود زرع آخر متقدم عليه لذلك في الأرض ضم الناتج المتأخر الى المتقدم وأخرج من الجميع الزكاة إذا تمت نصابا واتحدا نوعا .

المادة السادسة والثلاثون : لا يسقط الدين زكاة زرع وماشية عن المدين إن ملك نصابا ولو أنه كراء الأرض المزروعة .

المادة السابعة والثلاثون : يشترط في إخراج زكاة الزرع حصاده وجفاف التمر والزبيب والتين والمشمش إلا إذا بيع أحصر كما تقدم .

فصل في زكاة الأنعام

المادة الثامنة والثلاثون : تجب الزكاة في الأنعام التي هي الإبل والبقر الصان والمعز . ولا تجب في غيرها من الدواجن كالطيور والأرانب ، ولا في الدواب كالخيل والخيول والبغال هند (مالك) .

المادة التاسعة والثلاثون : في كل خمس من الإبل (شاة) حتى تبلغ عشرين فقيها (أربع شياه) ، وفي خمس وعشرين (بنت مخاض) وهي التي طعنت في السنة الثانية ، وفي ست وثلاثين (بنت لبون) وهي التي طعنت في السنة الثالثة ، وفي ست وأربعين (حقة) وهي التي طعنت في الرابعة ، وفي سنين (جذعة) وهي التي طعنت في الخامسة .

المادة الأربعون : إذا حاز المالك ثلاثين من البقر والجاوس أو منهما معا فعليه (تبع) ، وهو ما أوفى سنة واحدة . فإذا حاز أربعين فعليه (ثنية) ، وهي ما تمت ستين وطعنت في الثالثة ، وفي كل ثلاثين تبع أو تبعه ، وفي كل أربعين ثني أو ثنية .

المادة الحادية والأربعون : إذا حاز المالك أربعين من الصان أو المعز أو منهما فزكاتها (شاة) بلغت عاما وطعنت في الثانية سالمة من العيوب . فإذا بلغت مائة وإحدى وعشرين ، فقيها (شاتان) وتؤخذ من الغلب منهما . فإن تساويا يتر غالب غنم البلد ، وإن تعدد الواجب أخذ من كل بحسبه .

المادة الثانية والأربعون : يشترط في زكاة الماشية تمام الحول كزكاة الذهب والفضة .

الباب الثاني في مصرف الزكاة

المادة الثالثة والأربعون : تؤخذ الزكاة من ملك نصيبا بالشروط السابقة . وتصرف كما يأتي :

أولا : الغدير . الذي لا يملك قوة عام ، ويحسب ما في حيارته من مواش وعقارات إذا بيعت لا تبقى بعهده عاما واحدا

ثانيا : المسكين : الذي لا يملك قوة يوم .

ثالثا : العاملون عليها : وهم الجبساء الذين يجمعون الزكاة من الأغنياء والكتاب والخالون والكيالون .

رابعا : المؤلفة قلوبهم : وهم الذين أسلموا حديثا وإن كانوا أغنياء إذا خيف ارتدادهم عن الإسلام .

خامسا : في الرقاب . أى يخصص قدر من مال الزكاة يشتري به عبيد ويعتقون ، ويعان منه المكاتبون للوصول إلى الحرية .

سادسا : الفارمون : وهم الذين في ذمتهم دين يمسر أداؤه .

سابعا : المجاهدون في سبيل الله : وينبئ أن يقيد بما إذا لم يكن له رصيد في بيت المال .

ثامنا : ابن السبيل : وهو المسافر الذى لا يجد ما لا يوصله إلى وطنه ، ولو كان غنيا يعطى ما يوصله إلى وطنه من مال أو راحلة .

المادة الرابعة والأربعون : يبدأ في صرف الزكاة بالفقراء والمساكين من كل بلد فيها أغنياء أخذ منهم الزكاة فإذا فاض عن فقراء البلد ينقل إلى ما يتقاربها .
المادة الخامسة والأربعون . يشترط في أخذ الزكاة أن يكون حرا مسلما ، غير هاشمي ، لا تجب نفقته على غنى .

المادة السادسة والأربعون : إذا كان مخرج الزكاة لا يكفيه ما بقي من ماله قوت عامه ، جاز له أن يأخذ من الزكاة كفايته بعد أن يخرج ما عليه من الزكاة ، ولا يجوز له إحرازها بحجة الفقر .

المادة السابعة والأربعون . لا تعطى الزكاة لمن يجب عليه نفقته كزوجة أو ابن صغير أو عاجز عن الكسب ، ولا تعطى الزوجة لزوجها زكاتها .

المادة الثامنة والأربعون : ينبغى أن تشكل في كل بلد لجنة من أهلها الصالحين المعروفين بالتقوى وقول الحق يرأسهم مندوب من موظفي الحكومة يشترط أن يكون عالما ، وتكون مهمة تلك اللجنة أخذ الزكاة من أغنيائها وأداؤها إلى فقرائها .

المادة التاسعة والأربعون : تشكل لجنة في كل حارة من حارات المدن على غرار اللجنة البلدية السابقة الذكر .

المادة الخمسون : تشكل لجنة على غرار اللجنتين السابقتين في كل قبيلة أو قرية من العرب سكان البدو .

المادة الحادية والخمسون : ينبغي أن يكون في كل بلد أو حارة أو قبيلة مصرف يخزن فيه ما زاد عن حاجة أهله للطوارئ التي تطرأ على الفقراء .

المادة الثانية والخمسون : لا بأس بالإتفاق على الملاجيء ودور العجزة التي تشرف عليها وزارة الشؤون الاجتماعية من مال الزكاة إذا فضل عن الفقراء المواطنين في أوطانهم ، وإلا فيسكتن بالإنفاق عليها من اعتمادات الحكومة لها في بيت المال .

المادة الثالثة والخمسون : لا تجب الزكاة الى بيت المال العام ثم يوزع على الفقراء منها : لأن ذلك عسير ويعسر معه إيصال الحقوق الى أربابها ، بل توزع في أماكنها ، كما تقدم .

المادة الرابعة والخمسون : تنفق الزكاة من الأموال المخصصة من الأعيان للفقراء على حالها ، فلا يتصرف فيها ببيع أو استبدال بحجة أنه أنفع للفقراء ، لئلا تمتد إليها يد الفساد .

المادة الخامسة والخمسون : تضعف الحكومة نظاما يعرف به مقدار ما يستخرجه الزارع من زرعه وما يملكه من مال أو مواش .

المادة السادسة والخمسون : تساعد الحكومة كل بلد لم تكف زكاة أغنيائها فقراءها بأمداد من المال حتى يستطيع الفقراء أن تشق سبلها في الحياة .

المادة السابعة والخمسون : تجميع الحكومة أموال أعيان الشعب جميعا في مصرف واحد لتمكن من إخراج زكاتها وتقرض المحتاجين منها قرصا حسنا بلا فائدة .

المادة الثامنة والخمسون : يفتح في كل بلد مصنع أو عدة مصانع من مال الأغنياء ليستعمل بها الفقراء العاطلون ويعطون أجرا ، والربح للأغنياء ، وتضمن الحكومة هذه الأموال وتناجزها لأربابها .

« وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم » .

الحضارة البشرية

مسيرها وأهدافها وأثر الحضارة الإسلامية فيها

لمضية الأستاذ الشيخ محمد عبد المنعم خفاجي

الأستاذ بكلية اللغة العربية

بدأ الإنسان حياته غريباً على الأرض ، حائراً في فهمها وكيف يعيش فيها ،
 مستخراً للأوهام وما هو أقوى منه من حيوان وإنسان ، وأخذ يتنقل من مرحلة
 إلى مرحلة ، ويرق بحياته وبعبسه خطوة خطوة ؛ وبعث الله إليه المرسلين
 والأنبياء يرشدونه ويهذبونه ، ويجعلونه أهلاً لأن يكون خليفة الله في أرضه ؛
 وختمت الرسالات برسالة محمد صلوات الله عليه ، وهي الرسالة التي كان لها أثرها
 العميق في الحياة والحضارة والرقى البشري العام .

على أن المعكرين كانوا يتجهون بمقبولهم إلى هدف مشترك هو التمكن
 للإنسانية والحضارة في الأرض .

وهكذا أظلل العالم حضارات متعددة خلال الأجيال القديمة ، فن حضارة
 صينية إلى حضارة هندية وفارسية وفرعونية ، إلى الحضارة الأغريقية .
 والرومانية ، ثم كانت الحضارة الإسلامية ، التي قامت على أساسها الحضارة
 الأوروبية الحديثة .

ولكل حضارة من هذه الحضارات ميراثها وخصائصها . وإن كان الطابع
 البارز للحضارة الإسلامية هو تقديس حرية الفكر ، وإعزاز حرية الإنسان
 وكرامته ، وتشجيع المعرفة والنظام ، والمساواة بين الناس جميعاً في ظللال إغاء
 شامل وعدل تام ، وروحانية جميلة ، واعتزاز بالمثل العليا والقيم الأخلاقية السامية .

ولقد استمدت الحضارة الأوروبية الحديثة من الحضارة الإسلامية أصولها الفكرية والعلمية العامة ؛ وسارت على ضوئها في ميدان الفنون والآداب والعلوم ، ثم بذلت في ميدان الابتكار والاختراع وكشف أسرار الكون وما أودعه الله فيه من قوى وخصائص ، مما شمل أثره العالم جميعه ، وأدى الى اكتشاف البخار والكهرباء والذرة وسواها من معجزات العقل البشري التي غيرت مجرى الحياة والحضارة ...

ومع هذا التقدم الإنساني العظيم فقد تنكرت الحضارة الحديثة للبادئ والأخلاق والدين والفضائل الإنسانية والمثل الرفيعة ، واعتزت بمبادئها الطاغية وحاربت الأمن والسلام ، وجعلت بعض الناس أعداء لبعض ، وقوت نزعات الطمع والاستبداد والاستعمار في نفوس الناس والأمم ؛ حتى أصبح العرب موطن المصادات بألوانها وعنفها كما كان الشرق موطن الروحيات بسحرها وجلالها حين كان منبع الحضارة العالمية ، ومهبط الإنسانية الأولى .

قضت الحضارة الأوروبية على التعاون الإنساني ، ومزقت الناس طوائف وأحزابا وجماعات ، وجعلت بعضهم حرياً لبعض ، واستباححت في سبيل التافس على الاستعمار أن تبتد بعض دولها البعض الآخر في حروب منظمة بالغة من المظاعة والعف والقسوة مالا يتصوره إنسان ، واستخدمت العلم سلاحاً جباراً للفتك والتدمير .

وهكذا رأينا في الحربين العالميتين الماحيتين أن الانسان يدمر آثار الحضارة بيده ، ويحبل المدن والمصانع والمتاجر والقصور ودور الثقافة ويرادها أطلالا بالية ، ويحرق بقباله دور الكتب والآثار والمخطوطات والمتاحف ؛ ويذهب بيده أرواح الملايين من شأن الجامعات وخرابها ، ومن المفكرين والباحثين وأقطاب البهضات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والأدبية ؛ ويحكم هذا الإنسان خلال الحرب إلى شرائع ونظم ومبادئ ، أقرب إلى نظام الغابة وشرعها ؛ وأصبح التراث الإنساني العالمي للأمم والحضارة مهددا بالدمار والفناء ، بعد أن ساهمت في تشييده وبنائه جميع العناصر والشعوب خلال الأجيال الطويلة ؛ ووقفت الحضارة بين مذهبين مختلفين .

الأول : مذهب متفائل يمجّد هذه الحضارة الراحنة ، ويرى أنها ثابتة قوية ،
تسير في طريقها لأداء رسالتها من إسعاد البشر والحياة .

والثاني : مذهب متشائم ، مشفق من مصير الحضارة راث لها والمستقبلها .
وبين التفاؤل والتشاؤم ، تنفّ الحضارة نفسها حيرى ترتقب المستقبل في خوف
وجزع وإشفاق ، فإما تقدم يرضى المتفائلين والممجدين ، وإما تمهقر يصدق قول
المتشائمين الذين يرون أن الحضارة قد تعرق في موج لجى في المستقبل القريب
خلال عاصفة هوجاء من الحرب الذرية المدمرة .

ولست من المتشائمين المشفقين على مستقبل الحضارة ، فسيعيش العالم ، وسينعم
بالمعيش في ظلال حضارة مشرقة زاهية ، وستكون هذه الآثار الدائمة التي شهدتها
الحياة نتيجة لإسراف الحضارة الحديثة في ماديتها وعنفها وطفانها وتجردها من
كل مقومات الحياة الروحية والأدبية ، سيكون ذلك كله باعثاً للفكرين على
أن يحولوا سير الحضارة ، وأن يتجهوا بها وجهة جديدة ، لتؤدي رسالتها العظيمة
في خدمة الحياة وإسعاد الإنسانية .

فالحضارة باقية ، ولكنها ستتحول وتطل في تبدل مستمر ، حتى تصل إلى
أسمى غاية ينشدونها المفكرون والمصلحون .

وهذه الرجات الشديدة التي امتحنّت بها الحضارة الحديثة ، هي نذير للناس
كافة بأن يتجهوا وجهة سامية نبيلة في حياتهم وتفكيرهم وعيشتهم وألوان اجتماعهم ،
وهي مذكرة لم يخطئهم الذي استعصى لإصلاحه والتجاء منه ، والذي جعل الحياة
جحيماً لا تطاق ، فحرم قتل فرد وأباح قتل أمة ، وحرم سرقة جنيه ، وأباح سب
الملايين من أموال الشعوب المتأخرة بطرق غير مباشرة ؛ وفادى بالمساواة ،
ثم قسم الناس إلى ألوان وأجناس وشعوب متقدمة وأخرى متأخرة ؛ وأحاط
حرية الإنسان بهالة من التدفيس ، ولكنه أسكرها على الأمم ، بل على الأفراد
حين يهب شعب بطالب بحريته .

بل إن هذه المحن الشديدة التي نكبت بها الإنسانية على يد الحضارة الحديثة
هي التي أبانت أفضل إجابة عن قيمة الحضارة الإسلامية ومزلتها في تاريخ العالم
وأثر مبادئها الحية في قيادة الإنسانية وتوجيه الحياة وإسعاد الناس والشعوب .

وبعد ، فلا بد من بقاء الحضارة ، والإنسان مصمم على بقائها . ولكن مع ذلك لا بد لها من أن تتحول إلى أهداف أسمى ، وتعمل لمبادئ أعظم ، وتؤمن بغايات أشرف من هذه الغايات التي سارت عليها خلال القرون الماضية والحاضرة ، والحضارة من غير شك في تحول مستمر ، وتقدم مطرد .

وإذا أردنا أن نتصور بعض الأهداف التي ستدركها الحضارة البشرية خلال المستقبل القريب ، كان لنا أن نقول إن العالم سيتحرر من كل ما قيد حريته وحد نشاطه ، وسيتلافى أخطائه الماضية ، وسيكمل النقص الذي شعر به وأحس بأثره وضرره عليه وعلى الناس :

(أ) فسيصبح بعد حين السلام العالمي حقيقة واضحة لا يحسرؤ إنسان أو زعيم أو أمة على أن تثن حرباً أو تعلو المدوان ؛ وسيخفت صوت القوة والسلاح ، ويحكم الناس إلى مبادئ العدالة والحق والمساواة والحرية . وهذا أول هدف سعى إليه الإسلام ومحمد رسوله الكريم .

(ب) وستتلاشى الروح القومية لتحل محلها العالمية والإنسانية ، ويعيش الناس في ظلال تعاون وتعارف كاملين ، ويتحقق أحد الأهداف العظيمة للإسلام ديننا الحلال ، وهو إلغاء العصيات والفوارق بين الأجناس والطبقات والمناصر ، والإيمان بزمامة إنسانية عامة ، وبالأخوة البشرية الكاملة .

وليس ذلك بعجيب بعد ما سمعنا عن فكرة : الحكومة العالمية ، التي يدعو إليها بعض المعكرين .

(ج) وستتحول المبادئ الاقتصادية المتنافسة المتحاربة إلى تعاون اقتصادي عام شامل ينظم جميع أمم العالم وشعوبه ، وذلك لخير الناس ومصلحة الشعوب ، وارتفاع مستوى الحياة في الأمم المتأخرة ؛ وذلك ما يحقق أهداف القرآن الحكيم ويطلق روحه واشتراكته العادلة .

(د) وستب النهضة العلمية في جميع أمم العالم وثبة عظيمة ، وتشترك فيها جميع العقول والأفكار مقسدة متأخية متعابة ، هدفها الحقيقة والبحث

والكشف والابتكار والتجديد في بناء الحضارة وعناصرها وتنظيمها والسمو بها ؛
وذلك أحد المعاهد السامية التي سارت إليها الحضارة الإسلامية .

(هـ) وستبنى الحضارة المقبلة على القيم الروحية والمثل العليا الحقة والفضائل
الإنسانية الكريمة قديماً ، مما جاء به الإسلام ، ووفق ما شرعه من مبادئ ومثل
وفضائل ، لا تزال موضع اعتزاز الانسانية ونظرها وكبرياتها .

(و) وستصبح حرية الإنسان والامم وحرية الفكر أمورا مقدسة ،
لا يمكن أن يفرط فيها إنسان أو يجترىء على العبث بها أحد ، وهذا هو أحد
النواميس العظيمة التي جاء بها الإسلام وكتابه الكريم .

وبعد ، فسيجد العالم نفسه في المستقبل القريب يعيش في ظلال ألوان
من التفكير والمبادئ هي بعينها ما شرعه الله وأرسل به محمد رسول الله إلى
الناس كافة . ولا يمكن لعقل أن يدرك مدى ما سيطرأ على حياة الناس من
تغيير ، تبعاً لتغير ألوان الحضارة وأسسها وأهدافها ، ولسيرها بأقصى سرعتها
في سبيل خدمة البشرية كافة . فذلك كله سيكون من المعجزات في تاريخ الحضارة
والانسانية . وما توفيق إلا بالله .

كلمات حكيمة

الناس مطبوعون على الخطأ ، ولكن الأغبياء مطبوعون على التمسك به .
من القبيح أن تمتنع من لذيذ الطعام لتصح أبداننا ، ولا تمتنع عن الفباح
لتصفو نفوسنا .
أكبر العيب أن نحب ما فيك مثله .

تقرير عن كتاب الفرقان

٢ - ومن ذلك أن المؤلف يمزو اختلاف القراء إلى اختلاف رسم المصحف ، وزعم أنه قد اتس على بعضهم رسم بعض الكلمات بالياء مكان الألف كقوله تعالى ، بحريها ، و ، موسى ، و ، يحيى ، و ، الضحى ، و ، يحيى ، و ، قلى ، و ، يعنى ، و ، نجل ، و ، الاشقى ، و ، الكبرى ، و ، ضحيا ، و ، تليها ، وأمثال ذلك ، فأراد أن يتوسط بين الألف والياء فأمال (ص ١٣٢) .

وهو يوم هذا أن قراءة الإمالة في هذه الكلمات ليس لها سند من تلق وسماع ومشافهة ، وليست لغة معروفة ، وإنما سندها الرسم فقط ، أى وهو غير حجة في داه ، لأن الصحابة قد تخطوا فيه ، على زعمه .

٣ - ومن ذلك أنه أوود ما رواه بعض العلماء في معنى حديث إن هذا القرآن نزل على سبعة أحرف ، وقال (في ص ١٣٩) :

« وقد زعم بعض القراء أن معنى حديث : « إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فافهموا ما ينسر منه ، هو القراءات السبع . وهذا القول إن دل على شيء فلا يدل إلا على سعة جهل قائله ، وقلة تبصرهم . قال أبو شامة : ظن قوم أن القراءات السبع الموجودة الآن هي التي أريدت في الحديث ، وهو خلاف إجماع أهل العلم قاطبة ، وإنما يظن ذلك بعض أهل الجهل . وقال مكى : من ظن أن قراءة هؤلاء القراء كسافع وعاصم وأمثالهم هي الأحرف السبعة التي في الحديث ، فقد غلط غلطا عظيما . »

وهو بهذا يوم أن القراءات لم ينزل بها القرآن ، وأنها شيء غير الأحرف السبعة التي أنزل الله عليها كتابه ، مع أن الإتيان — وهو في أغلب الظن كل ما لدى المؤلف من مراجع — يذكر هذه الرواية عن مكى ، ثم يتبعها بقوله ، أى قول مكى نفسه : « ويلزم من هذا أيضا أن ما خرج عن قراءة هؤلاء السبعة بما ثبت عن الأئمة غيرهم ، ووافق خط المصحف ، ألا يكون قرآنا ، وهذا غلط عظيم ، (الإتيان ص ١٠٩) . »

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أحاديث الاستاذ الاكبر مع السفراء والمفوضين السياسيين

استقبل حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الاكبر شيخ الجامع الازهر بمكتبه بالإدارة العامة قبل ظهر يوم ١٢ مايو سنة ١٩٤٨ سعادة سفير فرنسا المفوض ، وبعد أن تبادل التحية ، قال سعادة السفير : إن علاقة فرنسا الثقافية بمصر ترجع إلى عهد بعيد ، ويود أن تظل هذه الصلات العلمية قوية متينة ، ولاسيما مع الجامعة الأزهرية ، أقدم الجامعات ، ومركز الثقافة الإسلامية .

فقال الاستاذ الاكبر : إن حضارة فرنسا العلمية وأثرها في التقدم الثقافي أمر معروف ومشهور ، وإنه ليسر أن تتوطد الصلات الثقافية التي بدأت منذ عهد مؤسس الأسرة العلوية المكرمة بين مصر وفرنسا ، كما يسر على وجه خاص أن تقوى الروابط العلمية بين الثقافة الإسلامية وغيرها من ثقافات الغرب ؛ لأنه شديد الإيمان بالآثر الطيب الذي يحدثه تزاوج الثقافات ، وتبادل المعارف العلمية والأدبية .

فقال سعادة السفير : إن فرنسا ملوة علمية معنية بالدراسات الإسلامية ، تقوم على جماعة من المستشرقين ، وعلى رأسهم ماسينيون عضو مجمع قواد الأول لفئة العربية ، وهي شديدة الاتصال بالحركة العلمية والثقافية في مصر . وماسينيون معنى على الخصوص يعنات الأزهر العلمية ، ويود أن يزيد الأثر منها .

فقال الأستاذ الأكبر : إن الأزهر جد حريص على أن يتصل بالحياة العلمية في خارج مصر ، وأن يهيئ لطلابه الاطلاع على أحدث الأساليب في الكتابة والتأليف والبحث العلمي ، وقد وفق الأزهر بفضل توجيه المغفور له الملك فؤاد إلى إرسال بعوث من أبنائه إلى فرنسا وغيرها من الدول ، وقد أتم هؤلاء الآباء دروسهم في الجامعات الفرنسية ، وحصلوا على أرقى الشهادات ، وعادوا إلى مصر ، والأزهر يستفيد بهم في كلياته ، وما زال لنا في فرنسا مبعوثان لم يتأبأ بأبحاثهما بعد ، والأمل كبير بفضل رعاية جلالة الملك فاروق - حفظه الله - أن نواصل إرسال البعث إلى فرنسا ، وأن نرسل عددا آخر من أبنائنا في العام القادم ليتحقق ما نرجوه من دوام التبادل الثقافي بين فرنسا ومصر .

فقال سعادة السفير : إنه مرور بهذه الآباء ، ويرجو لمصلحة العلم أن تظل هذه الصلات الثقافية قائمة ، وأن يعمل الأزهر على نشر رسائل مبعوثيه باللغتين الفرنسية والعربية ، وأن يتبادلها مع الجامعات ، لتحقيق الفائدة المرجوة منها .

فقال الأستاذ الأكبر . إن تحت يده رسائل قيمة حصل بها مبعوثو الأزهر على درجة الدكتوراه ، وهو بسيله إن شاء الله إلى نشرها وتبادلها مع الجامعات العلمية ؛ وأكد لسعادة السفير أنه حريص على الصلة العلمية ، لما يحججه العلم من ورائها من عظيم الفائدة .

وسأل سعادة السفير عما قرأه في الصحف أخيرا من توجيه الأزهر بعوثه إلى البلاد الإسلامية والعربية لنشر العلم والدين . أم مشروع جديد قيد التنفيذ أم أن الأزهر بدأ فيه فعلا ؟ .

فقال الأستاذ الأكبر . إن اتصال الأزهر بالبلاد العربية والإسلامية اتصالا مباشرا عن طريق مبعوثيه لنشر العلم والثقافة الدينية ، توجيه كريم من توجيهات الملك الصالح فاروق ، الذي يحرص على أن تشمل البلاد العربية والإسلامية وحدة ثقافية وفكرية . وقد قام الأزهر فعلا على تنفيذ هذه الرغبة الكريمة ، وأصبح لنا في عواصم البلاد العربية من الحجاز إلى الشام والعراق وفلسطين ولبنان بعثات تعليمية مهمتها التعليم ونشر الثقافة ، ولم يقف بنا الأمر عند هذا الحد ، بل أرسلنا

بعثات أخرى إلى أفريقيا والصومال وجنوب إفريقيا، ونرجو أن نزيد إن شاء الله عدد هذه البعثات حتى تشمل رقعة العالم الإسلامي كله، لتحقيق بذلك الغاية التي نهدف إليها، وهي ربط العالم الإسلامي برباط الأخوة والثقافة.

وسأل سعادة السفير عما إذا كانت بلاد شمال إفريقيا والمغرب تدخل ضمن هذا المشروع.

فقال الاستاذ الأكبر: إننا لم نبعث بعد بعثات تعليمية إلى بلاد المغرب لصلتنا الوثيقة بهم تعليمياً منذ زمن بعيد؛ فإن كثيراً من أبنائهم قد تعلموا في الأزهر وحصلوا على شهادته، ورجعوا إلى بلادهم ليؤدوا فيها رسالة الأزهر العلمية والدينية؛ وفي الأزهر أساتذة من أبناء هذه البلاد، فضلاً عن أن جامع الزيتونة قد قام بدور على كبير في التعليم الديني. على أننا مع ذلك حريصون على الاتصال بهم وتبادل المناهج العلمية معهم، ونرجو أن تزداد هذه الصلات توطداً بيننا وبينهم.

وقال سعادة السفير: إن في المغرب علماء مبرزين، وإن الحركة الثقافية الدينية الإسلامية كانت وما زالت نشطة ومزدهرة في شمال إفريقيا.

فقال الاستاذ الأكبر: إن أبناء الازدهار العلمي تسره دائماً؛ فإن الأزهر - وهو معقل الدين الحنيف والدراسات الإسلامية - يحرص على أن يتمتع المسلمون في كل مكان بحرياتهم الدينية والثقافية.

وقال سعادة السفير: إنه يشكر للاستاذ الأكبر هذه المعلومات القيمة، ويرجو أن تدوم بينهما الزيارات. ثم استأذن في الانصراف، فودعه الاستاذ الأكبر شاكرًا.

الماديون وتعليل الموجودات

يعيب الماديون خصومهم الاعتقاديين بنهايتهم على الأخذ بالخيالات ، ويتفننون ما شاء لهم الهوى في نيزم بالألقاب : ولو رجعوا لأنفسهم وتناولوا مام بسيله من التعليلات التي يعللون بها الوجود ، لوجدوا أنفسهم أبعد من خصومهم تفلخا في مناه الخيالات ؛ وقد اتضح ذلك جليا في هذا العهد الأخير باعتراف قادتهم الأعلى .

لما كبر على الماديين الاعتراف بوجود حكمة أرلية أبدية تدبر الكون ، ورموا إلى بناء مذهب يمكن به تعليل الوجود وظواهره بالقوى الميكانيكية تحت قيادة النواميس الطبيعية ، بدؤوا اللجأ إلى أى مدبر آخر ، عولوا كل التعويل على النظريات الميكانيكية ، متخيلين أن هذه النظريات حقائق مطلقة لا قبل النقض . قال زعيم ملحدى القرن التاسع عشر (بوخر) في كتابه القوة والمادة : « إن الذين يقولون بوجود قوة خالقة خارجة عن المادة وفوق الطبيعة خلقت العالم من ذاتها أو من العدم ، يناقضون الأصول الأساسية للعلم الطبيعي المؤسس على التجربة والواقع » .

فإن قلت للماديين : بأى وسيلة تملكون الظواهر الطبيعية التي لا تحصى ، وحدثت الكائنات الحية من المواد الميتة ؟

أجابوك من فورهم : « نملأها بواسطة النواميس الطبيعية ، الجارية على أصول ميكانيكية لا تتخلف » .

فإن قلت لهم : فهل يعقل حدوث الإبداع مما لا يدري ما هو الإبداع ، وتولد الحياة والعقل من الجساد الميتة ؟ إذا وصلت بالماديين إلى هذا الجبال شعروا بالحرج الشديد ، وبدا عليهم ذلك من لحن كلامهم ، ومما يلجئون إليه من القروض التي لا يصح أن تصدر جزافا من رجال على جانب عظيم من العلم ، فأجابوك بما أجاب به شيخ الماديين وإمامهم (بوخر) في كتابه الذي مر ذكره فقد قال فيه :

، إن إدراك هذا السر يقتضى أن تعرف أن قوى طبيعية بل وعقلية (تأمل) تلازم جوهر المادة . هذه القوى العقلية تظهر في جميع الأحوال التي تجتمع فيها شروط ضرورية في المخ ، أو في المجموع العصبي حيث تكون عناصر المادة مؤلفة على شكل خاص ، ومتأثرة بحركة خاصة ، فتنتج منها ظواهر الشعور والفكر ، كما تنتج منها في أحوال أخرى ظواهر الجذب والدفع . ولقد قال شوبنهاور . ، إذا كانت المادة تستطيع أن تسقط فهي تستطيع أن تفكر . . نعم هي في شكل حجر تستطيع أن تسقط إلى الأرض ، وفي شكل عضلات تنقبض ، وفي شكل مادة عصبية حية توجد فيها خاصتا الشعور والفكر ، وتصير مدركة لذاتها . .

نقول نحن يصعب علينا جداً أن نعتبر هذا الكلام علياً ، لأنه عدوان صارخ على العلم ، وحروج معيب على تقاليد وأصوله . ولا أظن أن أشد العقول سذاجة يستطيع أن يعبر مثل هذا القول أقل اعتبار . هل يغيب عن مثل (بوخر) أن من الحشرات الأرضية أنواعا ليس لها مخ ، وهي تأتي للحصول على غذائها ، ولتحير الأماكن الصالحة لوضع بيضها ، والمواضع المناسبة لتمضية حياتها ، من التدبير والحكمة ما تقف العقول أمامه حائرة لا تدرى كيف تعمل حدوث ذلك من حشرة ليس لها مخ ولا حواس ، ولا حظ من الحياة غير أيام معدودة ؟ .

وإذا كان (بوخر) وإخوانه الماديون يسمحون لأنفسهم أن يكونوا من تعليلاتهم على هذه الشاكلة من التحيل والتظن ، فقد وصعومها في منزلة من السذاجة لا تتفق وما نحلوه لعقولهم من السمو والنزاهة عن الأوهام .

ثم إنهم يرون أن كل موجود في هذا الكون خالق بتدبير وإحكام ، وأودع خواص وصفات تجعله صالحاً لأن يكون جزءاً متمماً للإبداع الطبيعي العام ، فما هو العقل الذي أوجده على هذا النحو ؟ هل هي النواويس الطبيعية والحركات الميكانيكية ، وهي ليس لها مخ فلا يكون لها عقل ، أم خلقت انمافاً ؟ يخيّل إلى أن الماديّين لو بسطوا هذه المسألة على هذا الوجه لقالوا كما قال العلامة الكيماوى السير (وليم كروكس) ، وهو من كبار متبني حركات النواويس ، ومن رؤساء المجمع العلمى الملكى البريطانى . قال في خطبة له بذلك المجمع :

« من بين جميع الصفات التي عاينت في مباحثي النفسية ، وذلك لي طرق اكتشافاتي الطبيعية ، وكانت تلك الاكتشافات أحيانا غير متظرة ، اعتقادي الراسخ بجمل . وأكثر الذب بدرسون الطبيعة يستجيب أمرهم عاجلا أو آجلا إلى إهمالهم السكلي لجانب عظيم من رأس مالم العلى المرعوم ، لأنهم يرون أن رأس مالم هذا وهمى محض ، . منقول من مجموعة خطبه صفحة ٨ .

وقال في معرض آخر من تلك الخطبة :

« متى امتحنا من قرب بعض النتائج العادية للظواهر الطبيعية ، نبدأ بإدراك إلى أى حد هذه النتائج أو الدواميس محصورة في دائرة نواميس أخرى ليس لنا بها أقل علم ؟ أما أما فإن تركي لرأس مالى العلى الوهمى قد بلغ حدا بعيدا . فقد تقبض عتدى هذا السبج المنكبوتى للعلم ، كما هرب بذلك بعض المؤلفين ، إلى حد أنه لم يبق منه إلا كرة صغيرة تكاد لا تدرك .

« ولست بأسف من الحدود التي تضعها أمامنا الجهالة الانسانية ، بل إلى اعتبرها منشطا منقذا . إني أعتقد بأنى لست أنا ولا أحد سوى أهلا لأن يعين مقدما ما ليس بوجود في الكون . ولا أستطيع أما ولا أحد غيرى يستطيع أن يقول بأن شيئا بعينه لا يحصل حولنا في كل يوم من أيام حياتنا . هذه العقيدة تدع لي أملا مقويا بأن اكتشافا رئيسيا جديدا يمكن أن يحدث في مجال من المجالات ، في أقل الاوقات تفكرا فيه .

وقال في خطبة أخرى صفحة ٣٦ من مجموعة خطبه :

« الكون كله على ما ندركه ، نتيجة الحركة الذرية . وهذه الحركات الذرية تطبق كل الانطباق على قانون حفظ القوة ؛ ولكن ما نسميه تاموساً طبيعياً ، هو في الحقيقة مظهر من مظاهر الاتجاه الذي يعمل على موجه شكل من أشكال القوة . ونحن نستطيع أن نعمل الحركات الذرية كما نعمل حركات الاجرام المصممة ، ونستطيع أن نكشف جميع الدواميس الطبيعية للحركة ، ولستنا مع ذلك لا نكون أقرب ، كما عليه إلى حل أهم مسألة وهي : أى نوع من أنواع الإرادة والفكر يمكن أن يوجد خلف هذه الحركات الذرية ، مجبرين لهذه الحركات على اتباع طريق مرسوم لها من قبل ؟ وما هي العلة العاملة التي تؤثر من خلف هذه الظواهر

(وفي الأصل من وراء سنار المسرح) ؟ وأي ازدواج من الإرادة والفكر يقدّم الحركة الآلية الصرفة للذرات خارجاً عن نواحيها الطبيعية بحيث يحملها على تكوين هذا العالم المادي الذي نعيش فيه ؟ . انتهى

نقول . تأمل كيف انتهى القرن التاسع عشر نغمة رأى الماديين ، وسيادته على المتعلمين ؛ وكيف ابتدأ القرن العشرون باعتراف العلم بمعجز نظرياته عن تعليل حدوث أصغر ظاهرة طبيعية في الوجود . الفرق ظاهر بين الحالين ، فأين تلك الجرأة الطائشة على التعليل ، من هذا الاعتراف بالمعجز ، والاقترار بالنقص ، والتسليم بالقصور حتى عن الفهم ، بعد ما بلغ العلم هذا المدى البعيد من الاكتشافات ؟ إن هذه الاكتشافات نفسها هي التي أوجبت عليهم هذا الأدب العالي ، وكلما ازدادوا علماً سيزدادون تواضعاً .

فما أجدر الذين يلتصقون الطلاب علم الطبيعة أن يشفعوا دروسهم بتلقينهم هذا الأدب الجليل . وهو ليس بمحمّل لحسب ، بل هو واجب ، لأن الطالب يخيل إليه بعد دروس معدودة أنه فهم ماهية المادة و ماهية القوة ، ومعنى النواحي ، فيحيل إليه أنه سينتهي أمره بفهم كنه الوجود . وهو وهم قد يؤدي إلى أروم العواقب ، فقد دفع بالكثيرين إلى تهور الإلحاد ، وهو شر جميع الشرور .

نعم هو شر الشرور ؛ لأن الإنسان متى تشبع عقله بأنه كائن لا غنى له إلا أن يكون جنة هامة تدفن في الأرض وتستحيل إلى تراب ، فكيف طبعته على هذا المبدأ فيصبح لا يرى إلا وجوداً مجرداً من كل معنى ، كان الأولى به أن لا يكون ؛ فيصرف حياته وهو في حداثته في اللهو واللعب ؛ فإن غامرته الهمة أزاله بالشغل عنه أو بشيء من المواد المخدرة . فإذا أسنّ ورأى أن موته أصبح منه على قاب قوس ، ركبته من العلم ما يجعله كالحكوم عليه بالإعدام ، فيمضى شبحوخة مزعجة يزيد بها كراماً يتعاطى المخدرات أو بالخنوع لهم تنوء بحمله الجبال .

يقول : وما الحيلة ما دام هذا حظ الإنسان ، وما دام العلم يرضن عليه بالدواء ؟

نقول : العلم لم يرض على أحد بالدواء في أي عهد من عهوده ، وعلى قدر حظه منه ؛ بدليل العلماء الذين نبغوا في كل عصر لمداية الخلق ، ولكنه هو الذي كان يؤيد الإلحاد بلا دليل ، وكان يصرف كل ما يجره من الحق إلى أسوأ الاحتمالات حتى دان للانحرافات في سبيل نصرة الإلحاد ، وأنكر البدهيات في سبيل طمس معالم الحقائق كما سنبينه تفصيلاً ، إن شاء الله .

نحمر فريز وجري

المجاز والكناية في كتاب الله القرآن والمفسرون

لفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ حامد محسن
عضو جماعة كبار العلماء

ليكن ما تعرضت لإبطاله من أن الرمي بنفس النجوم قد اعترضه المفسرون ،
ولكن أليس كل ما عايناه أني أبطلت باطلا ؟ وذلك ما أنا حريص عليه كل الحرص
حتى تبقى للسماء زينتها ، ولآيات الله وضوحها . ولكن ماذا نصنع فيما قد كتبه
الإمام الألوسي في تفسير سورة الحجر ، صفحة ٢٨٢ نقلا عن ابن عباس قال :
« ونقل غير واحد عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال : إن الشياطين
يركب بعضهم بعضا إلى السماء الدنيا يسترقون السمع من الملائكة عليهم السلام
فيرمون بالكواكب فلا تخطئ أبدا ، فثم من تقتله ، ومنهم من تحرق وجهه ،
أو جبهه ، أو يده ، أو حيث يشاء الله تعالى ، ومنهم من تخبطه فيصير عولا فيفضل
الناس في البراري » . ألا ترى أن ابن عباس قد عثر بالكواكب ولم يعثر بالشهاب
كما يفيد أن الرمي بالكواكب أنصها ؟ وهلا يكفي ذلك لأن أعرض لبطلان
الرمي بالكواكب ؟ وماذا نصنع في تعبير قتادة إذ يقول : للنجوم ثلاث فوائد .
الزينة ، ورجم الشياطين ، والاعتداء بها . فيجعل رجم الشياطين بنفس النجوم .
ويقول الألوسي في صفحة ٢٨٥ في تفسير سورة الحجر ، أيضا : منفيّا عدم
التزام الرمي بالكواكب : « وإن قيل إنه بنفسه أي الكوكب ينقض ويرى
الشیطان ثم يعود إلى مكانه لظاهر إطلاق الرجوم على النجوم ، ونقول لم يرم
بالنجم مثلا ، فترى الألوسي ينسب إلى البعض القول بأن الرمي بنفس النجوم :
أليس ذلك كافيا في أن أعرض لإبطال أن يكون الرمي بنفس النجوم ؟ »

هذا أمر ، وهناك أمر آخر ، وهو أن آية الملك كما قلنا ليس فيها حديث عن
الخطف ، أو الاستراق ، أو التسمع ، ولكن فيها أن الضمير في قوله « وجعلناها »
عائد على المصاييع التي هي الكواكب ، فأحدى اثنين : فإما سلوك سبيل المجاز الذي
علاقته الكلية والبعضية ، ويكون المعنى وجعلناها نجومًا ، والمجاز حصوصا في القرآن
يجب أن يكون له أعظم الآثار البلاغية التي تعود على الأسلوب بالهجة والتعديد ،

وليس لسلوك سبيل المجاز هنا إلا إيهام غير المراد بادية ذي بدء ، خصوصاً وقد عبر عنها بالمصاييح مما يتعمى في جانبها تخييل الرى بها ، وإن كانت النهاية عند التأويل ألا يكون مرمياً بها بل يعضها ؛ ولما أن يبق الكلام على حقيقته ، وإذا ذاك فأى الأمور خير : ما أولنا به الآية من جعل الكواكب آيات على القدرة ، ودلائل على الألوهية ، وبراهين على العظمة ، أم ما حملت عليه من أنها يرمج الشياطين يعضها ، على ما سلكوا له سبيل المجاز ؟ وأى المعنيين خير أيضاً : أن تكون النجوم دلائل عظمة وآيات إيمان ، ومتزود يقين ، أم تكون مثار ظنون للجمعين على ما أولنا به الآية في الوجه الثاني ؟ وهل كونها مثار ظنون نعمة يمتن الله بها على الناس أيشكروه ، أم آية يلفت الله إليها الناس ليوحده ويقدسوه ؟ إنها ليست هذا ولا ذاك ؛ فأى المعانى خير في تلك المعانى الثلاثة ؟ اللهم إني لا أريد إلا تعظيم شأنك ، وتقديس آياتك ، والله العليم بذات الصدور .

أليس الأولى بآية الملك ، ولم يتحدث فيها عن خطف ولا استراق ، أن تنظم مع آية الأنبياء في سبط واحد ؟ آية الأنبياء ، وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون ، ، أليس ذلك أولى من نظمها في سلك آيات الحجر والصفاء والجن ، وهى في أسلوب غير أسلوبها ، ويهرك من بلاغة القرآن أنه لم يعبر في آية الحجر والصفاء والجن إلا بلفظ الشهاب ، على قبض مادكر في آية الملك من لفظ المصاييح التى هى الكواكب ، مما يتضح به مرق الاتجاه في آية الملك والاتجاه في تلك الآيات ؟ .

تقرأ القرآن فلا تكاد تظفر بسورة منه دون أن يكون فيها استعراء للأظفار وتلبيه للعقول إلى قراءة صحيفة الكون ، ليقرءوا فيها ماسطرته القدرة ، وما كتبه الحكمة من آيات جلاله وعزته ، ودلائل وحدانيته وحكمته : مرة تقرأ ذلك في أسلوب القسم ، وأخرى في أسلوب آخر .

اقرأ : والشمس وضحاها ، والقمر إذا تలాها ، والنهار إذا جتلاها ، والليل إذا يشاها ، والسماء وما بها ، ، ، والسماء والطارق ، وما أدراك ما الطارق ، الحجم الثاقب ،

اقرأ : إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، ويتفكرون في خلق

السموات والأرض، ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه ،، وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون .
اقرأ . ونحز لكم الليل والنهار والشمس والقمر، والنجوم مسخرات بأمره، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون .

اقرأ واقرأ بما هو كثير جداً من آيات لفتنا ودعوتنا إلى النظر فيما أقامه تعالى لنا من آيات ودلائل وحجج وبراهين على ما وجب له من صفات، وما كلفنا به من صفات .

اقرأ كذلك ما قبل آية الملك التي فسرناها من آيات، نحمدها أيضاً من قبيل ما يدهو العقول إلى النظر في آيات الله : ألا يكون هذا كله من البراءة القوية على أن تكون آية الملك في اتجاه تلك الكثرة من الآيات، دون أن تكون في اتجاه تلك الآيات الثلاث : آيات الخلق والستر والاستماع ؟ .

نعم : إن محمداً رسول الله قد أرسل على فترة من الرسل، وقد أظلمت الآفاق، وفسدت العقائد، وامتلات النفوس بالخرافات، وعبد الإنسان الإنسان، بل عبد الإنسان الأشجار والأحجار، بل عبدوا المعجول والأبقار . جاء محمد صلى الله عليه وسلم والحال تلك الحال، فكان أول مقاصد القرآن هو تطهير العقول من خرافاتها، وقاسم عقائدها، وتوجيهها إلى أفراد الله بالعبادة . وتوجيهه بالتقديس . قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما ألهمكم إله واحد .، والصفات صفاً، فالزاجرات زجراً، فالتاليات ذكراً، إن إلهكم لواحد، رب السموات والأرض وما بينهما ورب المقارن .

وكما حاول القرآن تطهير النفوس من الشرك في العبادة والتقديس، حاول تطهيرها من أن تشرك بالله غيره في صفاته كعلم الغيب مما اختص به نفسه اقرأ قوله : . وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو .، اقرأ ذلك وتدبر ذلك الأسلوب نحمد فيه ما يدعوك إلى السجود لإجلالنا اختص به القرآن من أساليب الإعجاز في تحديد ما يريد من إثبات معنى، وإقصاء شوائب الشك عنه . انظر إلى تلك الآية وهو لا يقول : وعنده الغيب، وإنما يقول . وعنده مفاتيح الغيب، مما يخيل إليك أن الغيب في خزان قد ضربت عليها أقفالها، وحفظت مفاتيحها، مما لا يتأتى لأسلوب آخر أن يصور حفظ الغيب تصوير ذلك

الأسلوب له . إلى غير ذلك من عقائد باطلة عالج القرآن النفوس لتطهيرها منها لتحل فيها أضواء العقائد الصحيحة التي تكون إنسانا صالحا لجوارقه في الآخرة ، وتلقى جزائه الحسن الذي يجرى به المتقين .

تلك سنة القرآن في تحديد المعاني ، وتخليصها من الشوائب ، في كل ما يريد أن يبقى به عقيدة ، أو يصور به صفة من صفاته .

اقرأ قوله : قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، اقرأ ذلك تجدد أسلوبا في التحدى يجارى به ما اعتاده العرب في تحدياتهم ، وما اعتاده الناس في مثل ذلك ، إذ تزام في تحدياتهم يقولون مثلا : لا الإنس ولا الجن ولا الدنيا كلها تدر على ذلك . . يقول الناس ذلك في تحدياتهم وهم يعلمون أنه لا الإنس ولا الجن ولا الدنيا ستحاول ذلك ؛ ولكنه أسلوب الكتابة من العجز الواضح .

هذا أسلوب في التحدى يلاغى القرآن .

وإليك أسلوبا آخر في التحدى بقدرته وقهره وإساحته ، وكون كل شيء في قبضته ، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، وأنه لا مهرب لشيء ولا ماص له من ميمته عليه وإساحته به ؛ يقول تعالى : يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا ، لا تنفذون إلا سلفا . . وهكذا من تحديات بالغة ، وذلك أسلوب غير أسلوب التكاليف والأوامر والواهي ، ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فإني أكثر الناس إلّا كفوراً . . وهكذا من كل ما هو برهان ساطع ، ودليل لامع على أن ذلك الكتاب تنزيل الله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، فما نطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى ، وما هو بقول شاعر ، قليلا ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن ، قليلا ما تدكرون . تنزيل من رب العالمين ، نزل به الروح الأمين على قلب سيد الأنبياء والمرسلين ، وما نزلت به الشياطين ، وما ينبغي لهم وما يستطيعون ، إنهم عن السمع لمعزولون .

سبحانك آيات بينات ، وفرقان بين الحق والباطل ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لا تنهى مجائبه ، ولا تغدو كوزة ، إن أسفله لمغدق ، وإن أعلاه لمثمر ؛ أما به سائلين الله تعالى أن يهدينا إلى الحكمة والسداد ، والهدى والرشاد إنه على كل شيء قدير ؟

المجاز والكناية في القرآن الكريم

القرآن والمفسرون

الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد محمد البحيري
المدرس في كلية اللغة العربية

مناقشة المقال الثاني في عدد جمادى الأولى سنة ١٣٦٨ من
مجلة الأزهر ، لفضيلة الأستاذ الشيخ حامد محسن عضو جماعة
كبار العلماء، تحت عنوان : المجاز والكناية في القرآن - القرآن
والمفسرون .

اكتفيت في تعقيب السابق بذكر النصوص القرآنية والاحاديث النبوية ،
وأقوال السلف التي تدل على تسمع الشياطين لأخبار السماء ، ورمى الله لإيها
بالشبه . واكتفيت كذلك بذكر ما يدل على أن القرآن فيه تبشير وإذار ووعيد
وعيد للإس والجن ، وطالبت الشيخ ببيان موقفه من هذه النصوص لتطمئن نفوس
تبلبلت ، وقلوب ساررها القلق من جراء مقاله السابق ؛ وبينت له خطورته وما
يحدثه من آثار سيئة في اليثبات المختلفة ، وما يجره من فتن واتهامات لا تحمد مغبتها .
والشيخ - والحمد لله - اعترف في حاشية هذا المقال الثاني بتسمع الشياطين
ورميهم بالشبه ، بعد أن ألح في إنكار ذلك ، ورتب على جوازه محالات باطلة
من نسبة العجز والسفه والعته لله تعالى ، حيث يقول : ' إن ذلك لا يصدر إلا من
سفيه أو معنوه . ورتب عليه كذلك بطلان زينة النجوم ومحوها من السماء ، من
الشبه التي أوردها الإمام الرازي في تفسيره ودحسها وفدحها كما هي عادته في إيراد
الشبه والرد عليها وإبطالها . والشيخ ينقل من هذه الشبه ويترك الرد عليها
بدعوى التجديد ، ويوسع المفسرين وهم في أجداثهم لا يستطيعون دفاعاً ، تمجيلاً
وما جهلوا ، وقائماً وما أثموا ، وتضليلاً وما خلوا ، بل هم مثقوا الدنيا علماء وأدبايدل
على رجاحة عقل ، وسداد رأي ، وسعة اطلاع على النصوص والتوفيق بينها وتفسير
بعضها ببعض ؛ لأن القرآن يفسر بعضه بعضاً ، والسنة مبيحة له ، ومذكرة تفسيرية
تشرح قوائمه ونصوصه .

واعترف كذلك برسالة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الإنس والجن بعد أن كرر وأكد بطريق الحصر بأن كل مافي القرآن إنما هو للإنس ولبنى آدم فقط ولو سلمنا جدلاً فقط ، ولا شك أن الرجوع إلى الحق فضل ، وليس عارا على الإنسان أن يخطئ ، ولكن العار أن يعرف خطأ ويستمر فيه . وقد كنت أود أن أقصر على ذلك وأطوى صحيفة النقاش لولا ما وجدته في هذا المقال من أمور وهم للمفسرين لا يرضى التحقيق العلمي عن السكوت عليها ولا يقبل المجاملة فيها . وعسى أن يفسح الشيخ من صدره لناقشه في هذه الأمور ، لينبج الحق ، ويفصح الصبح لذى عينين .

(أولاً) ما كنت أود أن يتشدد الشيخ كل هذا التشدد في الاستمساك برأيه في آية الملك : من أن الرجوم أدلة ترجم المعاندين من كفرة الإنس ، وبصرى غير رفيق على تجهيل المفسرين قاطبة فيما ذهبوا إليه . من أنها شبهت ترجم المسترقين من الشياطين . وعجيب جداً أن يعترف بذلك في آية الحجر وآية الصافات وآية الجن ويكره في آية الملك ويجعلها مع آية الأنبياء . وجعلنا السماء سقفا محفوظا ، في سلك واحد .

نعم ما كنت أحب أن يتشدد الشيخ في ذلك ، بل يذكره على أنه رأى له في الآية ، قريبا أو بعيدا ، خطأ أو صوابا ، تؤيده النصوص أو لا تؤيده ، وهذا كان من الخير له ؛ لأن هناك فرقا بين آية الملك وآية الأنبياء ، وهو فرق ظاهر يدركه المرئاض بكتاب الله ، والعارف بنصوصه .

فآية الأنبياء اقتضت على أن الله تعالى جعل السماء سقفا محفوظا بقدرته ، كما قال تعالى ، ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه . ولم ينص فيها على رجم شبهة للشياطين . وعلى هذا فآية الملك ليست من قبيلها ، بل من قبيل آية الصافات وما شاكلها من آيتي الحجر والجن التي اعترف الشيخ فيها بالاستراق والرجم . فآية الصافات : إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظا من كل شيطان مارد ، لا يستشعرون إلى الملائكة الأهل ويقتفون من كل جانب كدورا ، ولم يذاب واسب ، إلا من خطف الخليفة فأتبعه شهاب ثاقب . وآية الملك : ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير . فالسما زينت في الآيتين ، وسقطت من الشياطين بالرجم بالشبه ؛ وفيهما عهد لم ، ولم يذاب واسب ، وأعتدنا لهم عذاب السعير . ألا يرى الشيخ كيف اتسق نظام الآيتين على هذا النحو ؟ وكيف جمع بينهما على

وجه لا اعتساف فيه ولا تكلف ؟ وما رأى الشيخ في خلل اللغة والبلاغة والأدب غير مازع ؟ ما رأيه في الرعش ؟ فقد حمل في كشافه آية الصافات وآية الملك من قبيل واحد حيث قال في آية الصافات : وحفظا : هذا بما حمل على المعنى ، لأن المعنى إنا خلقنا الكواكب زينة للسماء وحفظا : وحفظا من الشياطين كما قال تعالى : ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين . لحمل آية الصافات على آية الملك في المعنى وجعل قوله تعالى : وحفظا ، مساويا لقوله تعالى : وجعلناها رجوما للشياطين ، في المعنى ، وأن من فوائد الجوزم رجم الشياطين بشمها حفظا للسماء . وما رأيه في ابن كثير الراوية المزعومة الذي يفسر القرآن بالمأثور ؟ فقد جعل آية الحجر والصافات من قبيل آية الملك . وجميع المفسرين على ذلك .

وكيف يعد الشيخ رجم الشياطين وزجرهم وحفظ السماء منهم من السفه والعبث وعجز القدرة عن منهم من غير شهب ؟ وهل هذا كلام يقال ؟ إنه كان قادرا على ألا يحلفهم ، وكان قادرا على أن يطهر الأرض منهم ، وكان قادرا على ألا يصلطهم على بني آدم . وهل ترك هذا بعد عجزاً بالنسبة لله تعالى ؟ ولم لا يكون ذلك من تمام الابتلاء ، ومن دلائل القدرة وعظم السلطان وبلغ الحكمة ؟ وإذا كان ذلك من دلائل القدرة ولا شك ، فكيف لا يصح عطف : وجعلناها رجوما للشياطين ، على : زينا السماء الدنيا بمصابيح ، فالتناسب المصححة للعطف أن كلا فعل لله تعالى ومن دلائل قدرته : ويألفها من مناسبة يرضاها علماء البلاغة جميعا .

وعجيب جدا أن يعد الشيخ ، وجعلناها رجوما للشياطين ، دوما عن آياتها معرضون ، من أجل التذيلية ، مع أن الجملة التذيلية تكون مؤكدة لمضمون جملة قبلها ، وتكون جارية مجرى المثل أو غير جارية مجراه ، كما هو معروف في مبحث الإطباب . والآيتان ولا شك من التأسيس لا من التأكيد ، فليستا من التذيل في شيء .

(ثانيا) يقول الشيخ : إن المعنى الذي كشفه ووصل إليه في آية : الملك ، ملازم للسماء منذ خلقها الله تعالى ، أما ما قاله المفسرون فلا ينتظم في سلك العطف مع سابقه ، إذ يكون حذف الشياطين قد جد عند الرسالة فقط ، حين يحاولون استراق السمع ، أما قبل ذلك فلا . ويقول : إنا نسأل المفسرين هل أرادوا بكون السماء محفوظة من استراق السمع أن ذلك الحفظ منذ خلقها الله تعالى أم هو جديد منذ أرسل محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فإنهم إن أرادوا الأول يكونوا ناقضوا أنفسهم

إذ ذكروا في مواضع آخر أن الحفظ طارئ عليه . ثم قال : وعلى العموم يجب علينا أن يكون بأيدينا حين نفسر القرآن مصاييح مغايزه .

وأنا قبل أن أناقش ما ذكره في هذا المقام أبادر وأقول : حقا يجب أن يكون بأيدينا حين نفسر القرآن مصاييح مغايزه ، ولكن ما مصاييح مغايزه ومقاصده إلا الإلزام بنصوصه ونصوص السنة المبينة له وأقوال الصحابة الذين تربوا في مهده الوحي ، ونخرجوا في مدرسة النبوة . ولا شك أن هذا يميزنا على فهم مقاصد القرآن وسرايمه ، وبغير ذلك نعتز ونعسف ، وتورط في الرأي الفطير ، ولا نعرف قبلا من دبير .

وأعود إلى مناقشة ما ذكره الشيخ هنا فأقول : إني أطمئن الاستاذ الكبير أشد الطمأنينة على أن المفسرين لم يقعوا في تناقض ، ومعاذ الله أن يقعوا فيه بعد تدرسهم بكتاب الله تعالى ورياضة أنفسهم بفهمه آمادا طويلا ، بعد أن نهلوا من اللغة وارتشفوا من الأدب ، وأخذوا قسطهم موفورا من علوم اللغة وعلوم القرآن على اختلافها . وغلاصة ما قالوه في الحفظ والرمي : أن الرمي كان قبل البعثة وبعدها ، فهو ملازم للسماء منذ خلقها الله تعالى ، غير أن الرمي اشتد وقويت حراسة السماء في زمن النبوة المحمدية على وجه تنبه له الإنس والجن ، كما في صحيح الأحاديث ، وكما هو مسطور في كتب التفسير ، والنصوص شاهدة على ذلك .

قال الله تعالى حكاية عن الجن : « وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشها . وأنا كما نعتقد منها مقاعد للسمع . فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا . » وألغت نظر الشيخ في هاتين الآيتين إلى قوله « ملئت » الآن ، وإلى قوله في سورة الصافات : « ويقذفون من كل جانب » . وروى مسلم في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما : « بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفر من الأنصار إذ رمى بنجم فاستنار ، فقال : ما كنتم تتولون في مثل هذا في الجاهلية ؟ قالوا : كنا نقول يولد عظيم ، أو يموت عظيم . فقال صلى الله عليه وسلم : فإنها لا يرى بها لموت عظيم ، ولا لحياة ، ولكن ربما إذا قصي أمرا تحدثت الملائكة حتى ينتهي الخبر إلى أهل هذه السماء ويخطف الجن السمع فيرقعون . » وهذا رأي غير صحيح يقول : إن الرمي حدث بعد النبوة ، ولكن المفسرين والمحدثين ردوه وأبطلوه . والقرطبي في تفسيره جمع بينه وبين رأي الجمهور بأن معنى حدوث الرمي حدوث شدته وقوته .

ومن العجيب أن اعتراض الشيخ هذا ذكره المفسرون والمحدثون وأجابوا عنه بما تقدم ، ولكن الشيخ يذكر اعتراضهم ويترك جوابهم ليقعهم في تناقض هم منه برآء ، وكانت الأمانة العلمية تقتضي أن يحقق الشيخ هذا المقام على النهج الذي بينته .
وبما سبق فنعلم أن الشيخ بنى رأيه في تفسير آية الملك وفي تحطئة المفسرين على أمرين :
أولاً : دعوى أن ما قاله المفسرون لا يلزم السماء منذ خلقت : وقد أمطنا اللثام عن ذلك بالأدلة .

ثانياً : عدم صحة عطف « وجعلناها رجوماً للشياطين » على « زيننا السماء الدنيا بصالح » وقد بينا أنه صحيح لوجود الجهة الجامعة المحققة للتاسب : لأن كلا فعل لله تعالى ومن دلائل قدرته ، والرجم ملازم للسماء منذ خلقت . إذاً فرأى الشيخ في تفسير آية الملك ثكل أدلته وفقد سده ، فاهارت دعائمه وتعرض بنيانه ، ولم يبق محل لطعته على المفسرين وتجريحهم من غير دلائل ولا شبه دليل ، والأمر فله .
(ثالثاً) : يذكر الشيخ الخلاف في حقيفة الجن وهل هم مكلفون ؟ ولا يظفر القارىء منه بجواب صحيح ، وكان الواجب ألا يتركه هكذا يشكك ويضطرب ، بل يذكر له رأى المؤمنين بالغيب في هذه المسألة . وخلاصة ذلك إجمالاً : أن الجن موجودون ولم يسكرو وجودهم إلا الزنادقة ، وقد دلت نصوص القرآن على وجودهم ، وتواترت بذلك الأخبار ، واستفاضت الآثار ، وليس في إنباتهم محال عقلي ، وهم مخلوقات غلب عليهم المنصر التارى كما دلت على ذلك آيات الكتاب العزيز ، وهم مكلفون كالإنس خلافاً للمشورية . قال ابن عبد البر : الجن عند جماعة المسلمين مكلفون مخاطبون . وقال الإمام الرازى في تفسيره : أطبق الكل على أن الجن مكلفون ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل إليهم . والقول بقبولهم في التكليف للإنس لا دليل عليه .

وبعد ، فهذه مسائل لا يكتفى فيها بالحدس ، وإنما مرجعها إلى النص الصحيح ؛ ففى أثبت النص شيئاً لا يحمله العقل وجب اعتقاده كما هي قاعدة السمعيات . قال تعالى : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » . جعلنا الله من المؤمنين بالغيب ، ونعوذ به أن تنورط فيما لا علم لنا به .

الاسراء والمعراج

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ فكري ياسين
مدير إدارة البحوث المساعد بالأزهر

جاء في صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال :
« أُتِيتَ بالبُرَاق ، وهو دابة أبيض طويل ، فوق الحمار ،
ودون البعل ، يضع حافره عند منتهى طرفه ، وركبته حتى أتيت
بيت المقدس ، فربطته بالخلفة التي يربط به الأنبياء ، ثم دخلت
المسجد فصليت فيه ركعتين ، فجاء في جبريل عليه السلام بإناء من
خمر ، وإناء من لبن ، فأخترت اللبن ، فقال جبريل عليه السلام :
اخترت الفطرة . ثم هرج بنا إلى السماء ، الحديث .

هناك حوادث إسلامية هامة ، كان تعدد الروايات فيها ، وكثرة القول
حولها ، سبباً في اختلاف الأقوال عنها ، واشتغاب الآراء بشأنها : ومن ذلك
حادث الإسراء والمعراج ؛ فلو أنه قد حلص من بعض ما ورد عنه من مزاعم
وأخبار ، لسلم من كثير مما أثير حوله من إشكالات وشبهات ، ولاستصاع
القارئ العادي أن يخرج عنه من قرأه بفكرة واضحة سريعة ، ولاستراح الباحث
المحقق من كثير من الجهد والعماء الذي يبذله في موازنة الروايات ، ومقايضة
الأقوال ، ليخرج منها بالرأى الصائب ، والقول السديد .

وإننا لذا كرون هنا — بعون الله تعالى — مباحثه وفصوله مضبوطة
محررة ، غالبة من الاستطرادات والزيادات ، مقتصرين على ما ثبت وصح من
الآثار والروايات ، مُلتصقين أقوال العلماء وأدلتهم في نجل وإفنية قصيرة ،
وعبارات شاملة يسيرة .

الإسراء كالأسرى : سُرَّ الليل خاصة ، فيكون أسرى وسرى بمعنى واحد .
وقيل : أسرى : سار ليلا ، وسرى : سار نهارا . وقيل : أسرى : سار من أول
الليل ، وسرى : سار من آخره . والعرب تقول : سرى فلان ليلا : إذا سار
بعضه ، وسرى ليلة : إذا سار جميعها ، ولا يقال : أسرى ليلا إلا إذا أوقع
سيده في أثناء الليل ؛ وإذا وقع في أوله يقال : أوج ، وقيل : إن أسرى ليست
من لفظة سرى يسرى ، وإنما هي من السراة ، وهي الأرض الواسعة ، فأسرى
نحو أجبَل وأثَمَّ ، وأسرى بعبده ، أى ذهب به في سراة من الأرض .

والمعراج : من هَرَجَ يهرُج ، إذا صعد . والمُروج : ذهاب في صعود ،
يقال : هَرَجَ مُرُوجًا وَهَرَجَانًا . مثى مثى المعارج ، أى الذاهب في صعود .
والمعراج : السلم ، والجمع معارج ومعارج ، كنفائح ومفاتيح . والمعارج :
المصاعد ، وسُميت بليلة المعراج لصعود النبي صلى الله عليه وسلم فيها إلى فوق
سبع سموات ، ولصعود الدعاة فيها أيضا ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : « وإليه
يصعد الحكم الطيب » .

واختلف السلف في الإسراء والمعراج على أقوال كثيرة ، أشهرها أربعة :

القول الأول : إنهما كانا في المنام ، ونقل ذلك عن الحسن ، وروى عن عائشة
ومعاوية ، وذكر ابن إسحاق عنهما أنهما قالَا : إنها كانت رؤيا حق . وعن عائشة
أنها قالت : لم تفقد بدنه ، وإنما أسرى بروحه تلك الليلة ، واستدل أصحاب هذا
القول بجملة أدلة :

منها : قوله تعالى « وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس » ، فلو كانت
الرؤيا في اليقظة لقال . الرؤية ، لأنه لا يسمى في عرف اللغة رؤيا إلا ما كان في النوم .
ومنها : حديث البخاري عن أنس بن مالك : « قد جاء فيه في رواية عن شريك :
« وهو نائم » ، وفي رواية أخرى عنه : « بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظ » ،
وجاء في آخره : « واستيقظ وهو في المسجد الحرام » .

القول الثاني : إن الإسراء والمعراج وقعا في ليلة واحدة في اليقظة بمسجد
النبي صلى الله عليه وسلم وروحه بعد المبعث . وهو مذهب الجمهور من السلف ،

وعامة المتأخرين من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين . وقد قالوا : إن عائشة كانت
إذ ذاك صغيرة ، ولم تكن قد تزوجت بالنبي صلى الله عليه وسلم بعد ، وإن معاوية
يؤمئذ كان كافراً ، وإن الرؤيا قد تكون بمعنى الرؤية في اليقظة أيضاً ، وأنشدوا
للراعي يصف صائداً :

وكبر للرؤيا ، وهش فؤاده وبشر قلباً ، كان جئاً بلبابه
وله لا حجة في حديث البخاري : إذ قد يكون النوم في أول وصول الملك
إليه ، وليس في الحديث ما يدل على أنه كان نائماً في القصة كلها : على أن رواية
شريك هذه قد أنكرها عليه العلماء ، ونهبوا على أنه قد قدم فيها وآخر ، وزاد
ونقص : قال الحافظ عبد الحق في كتابه ، الجمع بين الصحيحين ، بعد ذكره
رواية شريك . هذا الحديث بهذا اللفظ من رواية شريك بن أبي نمر عن أنس ،
وقد زاد فيه زيادة مجهولة ، وأتى فيه بألفاظ غير معروفة ، وقد روى حديث
الإسراء عن أنس جماعة من الحفاظ المتضين ، والائمة المشهورين ، كابن شهاب ،
وثابت البناني ، وقتادة ، فلم يأت أحد منهم بما أتى به شريك ، وشريك ليس
بالحافظ عند أهل الحديث .

واستدل الجمهور فوق هذا بعدة أدلة : منها أنها لو كانت رؤيا نوم ، لما
تعجبت منها قريش ، ولا استحالتها ، ولما افتش بها الناس ، حتى ارتد كثير من
أسلم ، ولما قال الكفار : يزعم محمد أنه أتى بيت المقدس ، ورجع الى مكة ليلته ،
والعير تطرد اليها شهراً مقبلة وشهراً مدبرة : وذلك لأن الناس قد يرى نفسه
في السماء ، وفي المشرق ، وفي المغرب ، ولا يستبعد أحد منه ذلك .

ومنها : شربه الماء من الإناء الذي كان مغطى عند القوم في طريقه الى بيت
المقدس ، وسؤالهم عند رجوعهم ، وإخبارهم بأنهم وضعوه على ماء ، ثم غطوه ،
وأنهم هبوا فوجدوه مغطى كما غطوه ، ولم يجدوا فيه ماء .

ومنها : إرشاده للذين ندبوا بعيرهم حين أضرهم حُسُّ البُرّاق ، حتى دلم عليه ،
وإخبارهم بذلك حين سئلوا عند عودتهم ، فقد قالوا : صدق والله ، لقد أنفَرنا
في الوادي الذي ذكره ، وندبنا لبنا بعير ، فسمعنا صوت رجل يدعونا إليه . حتى
أخذناه ، ولقد قال بعضنا : هذا صوت محمد .

ومنها : وعده لقريش بقدوم العير في يوم مخصوص ، فلما كان ذلك اليوم ، ولم يقدموا حتى قربت الشمس أن تغرب ، مدعا اقه ، غيبس الشمس حتى قدموا كما وصف : وهذا كله لا يكون إلا يقظة .

القول الثالث : إنه كان مرتين : إحداهما في اليوم قبل المبعث تقدمه وتوطئة وتيسيرا لما تضعف منه القوى البشرية ، والثانية في اليقظة بروحه وبدنه بعد المبعث . وقد ارتضى هذا القول جماعة من المحققين ، ووصفوه بأنه الحق ، وبه يحصل الجمع بين الأحاديث والأخبار . ويشهد له ظاهر القرآن : قال الخشعمي : " إن الله سبحانه يقول : " ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ما أوحى ، ثم قال : " ما كذب الفؤاد ما رأى ، فهذا نحو ما وقع في حديث أنس من قوله : فيما يراه قلبه ، وعينه نائمة . والفؤاد هو القلب ، ثم قال : " أفتبارونه على ما يرى ، ولم يقل . ما قد رأى ، فدلّ على أن ثم رؤية أخرى بعد هذه . ثم قال : " ولقد رآه نزلة أخرى ، أى في نزلة نزلها جبريل إليه مرة ، فرآه في صورته التي هو عليها عند صدره المنتهى ، ثم قال : " ما زاغ البصر ، ، ولم يقل : الفؤاد ، كما قال في التي قبل هذه ، فدلّ على أنها رؤية عين وبصر في النزلة الأخرى ، ثم قال : " لقد رأى من آيات ربه الكبرى ، ، وإذا كانت رؤية عين ، فهي من الآيات الكبرى ، ومن أعظم البراهين والعمر ، وصارت الرؤيا الأولى بالإضافة إلى الأخرى ليست من الكبرى ، لأن ما يراه العبد في منامه دون ما يراه في يقظته لا محالة .

القول الرابع : إن الإسراء كان في اليقظة ، والمعراج كان في المنام ، واحتج أصحابه بأنه لما أخبر قريشا ، كذبوه في الإسراء ، وشنعوا عليه فيه ، واستبعدوا وقوعه ، ولم يتمرضوا للمعراج ؛ وبأن اقه سبحانه وتعالى قال : " سبحانه الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، ؛ فلو وقع المعراج في اليقظة ، لكان ذكره أبلغ ، فلما لم يذكره مع كون شأنه أعجب ، وأمره أعرب من الإسراء بكثير ، دلّ على أنه كان مناما .

أما المكان الذي ابتدأ منه الإسراء ، فقد وقع الاختلاف فيه تبعاً للاختلاف في المراد من المسجد الحرام في قوله تعالى : « سبحان الذي أصرى بعبيده ليلاً من المسجد الحرام » ، فمن أراد المسجد المشهور بين الخاص والعام بعينه ، قال : إن الإسراء كان منه ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذ ذاك في الحجر : أخرجه الشيخان والترمذي والنسائي من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بيتا أنا في الحجر ، وفي رواية : في الحطيم ، الحديث : ومن أراد به مكة كلها ، قال : إن الإسراء كان من دور مكة وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذ ذاك في دار فاختة أم هانئ بنت أبي طالب : أخرجه النسائي عن ابن عباس ، وأبو يعلى في مسنده ، والطبراني في الكبير من حديثها أنه صلى الله عليه وسلم كان نائماً في بيتها بعد صلاة العشاء ، فأصرى به ، ورجع من ليلته ، وقص القصة عليها .

وكذلك اختلف في سنة الإسراء وفهره وليلته ، فقيل : إنه كان بعد النبوة بعشر سنين وثلاثة أشهر : وقيل : إنه كان سنة خمس أو ست من النبوة : وجزم بعضهم بأنه كان في السنة الثانية عشرة من المبعث : ونقل عن ابن حزم دعوى الإجماع على ذلك . وقيل : كان قبل الهجرة بسنة وخمسة أو ثلاثة أشهر ، ووقع في حديث شريك السابق ذكره ، أنه كان قبل أن يوحى إليه : وقد خطأ غير واحد . أما شهره ، فقيل : كان في شهر ربيع الأول : وقيل : في شهر ربيع الآخر : وقيل : في شهر رمضان : وقيل : في شوال : وجزم في الروضة بأنه كان في شهر رجب . وأما ليلته ، فقيل : إنها ليلة السابع والعشرين من الشهر ، وكانت ليلة السبت ، وقيل : ليلة الجمعة ، وقيل : ليلة الاثنين ، وقيل : ليلة سبع عشرة من ربيع الأول ، وقيل : ليلة السابع والعشرين من ربيع الآخر .

• • •

البراق - يضم الباء الموحدة - : اسم الدابة التي ركبها النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء ، وهي مشتقة من البرق ، لسرعته : وقيل : سمي بذلك لشدة صفائه وتلك وبريقه : وقيل : لكونه أبيض : وقيل : يحتمل أنه سمي بذلك لكونه ذا لونين : يقال شاة براقاء ، إذا كان في خلال صوفها الأبيض طاقات سود .

ووصف في الحديث بأنه أبيض؛ وقد يكون من نوع الشاة البرقاء، لأنها معدودة في البيض. وذكر الوصف بالنظر للفظ البراق، أو باعتبار كونه مركوباً. وقد جاء في وصفه وهيئته وعظمه وكيفية سيره كلام كثير، والله أعلم بحقيقة كل ذلك، وحسبنا ما وصفه به الحديث، وما ذكره عنه من أنه كان يضع رجله عند منتهى ما يرى بصره.

وبيت المقدس : هو المسجد الأقصى الوارد ذكره في القرآن الكريم في أول آية من سورة الإسراء، ووصفه بالأقصى، لبعده بالنسبة إلى من بالحجاز، أو لبعده عن الاقذار والنجاسات. والمقدس فيها لعتان مشهورتان إحداهما بفتح الميم، وإسكان القاف، وكسر الدال المخففة؛ والثانية بضم الميم وفتح القاف والدال المشددة. أما من شددته، فعناه البيت المطهر؛ وأما من خففه، فلا يخلو إما أن يكون مصدراً، أو مكاناً؛ فإن كان مصدراً كان كقوله تعالى: «إليه مرجعكم» ونحوه من المصادر، وإن كان مكاناً فعناه بيت المسكان الذي جعل فيه الطهارة، أو بيت مكان الطهارة. وتطهيره لإخلاؤه من الأصنام وإبعاده منها. وقال الزجاج: البيت المقدس: المطهر، وبيت المقدس: أي المكان الذي يطهر فيه من الذنوب، ويقال فيه أيضاً: إلباء.

والحلقة : هي حلقة باب مسجد بيت المقدس، وفيها لعتان : أفصحهما وأشهرهما إسكان اللام؛ وحكى الجوهري وغيره فتحها، وتذكير الضمير في قوله: يربط به، باعتبار معنى الحلقة، وهو الشيء؛ وفي ربط البراق الأخذ بالاحتياط في الأمور، وتعاطي الأسباب؛ وهذا لا يقدح في التوكل إذا كان الاعتماد على الله.

وقد تعددت الروايات بشأن الصورة التي وقعت بها صلاة الركعتين؛ ففي رواية: فدخلت أنا وجبريل بيت المقدس، فصلى كل واحد منا ركعتين؛ وفي رواية: ثم دخلت المسجد، فعرفت النبيين من بين قائم وراكع وساجد، ثم أقيمت الصلاة، فأمنهم؛ وفي رواية: فلم ألبث إلا يسيراً، حتى اجتمع ماس كثير، ثم أذن مؤذن، فأقيمت الصلاة، فقمنا صفوفًا فنظر من يؤمننا، فأخذ

يبدى جبريل ، فقدمى . فصليت بهم ؛ وفى رواية : فلما أتى النبي صلى الله عليه وسلم المسجد الأقصى قام يصلى ، فإذا النبيون أجمعون يصلون معه .

وأما اختياره اللبن على الخبز ، فالظاهر أن اللفظ الذى وقع فى الحديث جاء هنا مختصرا ؛ فقد بين فى رواية أخرى أنه صلى الله عليه وسلم قيل له : اخترأى الإناءين شئت ، فألم اختيار اللبن .

والفطرة : المراد بها الإسلام والاستقامة ، والمعنى : اخترت علامة الإسلام والاستقامة . وقد جعل اللبن علامة ، لكونه سهلا طيبا طاهرا سائعا للشاربين ، سليم العاقبة ، أما الخبز ، فإنها أم الخبائث ، وجالبة لكثير من الشر فى الحال ، وفى المآل .

قال الحديث بعد ذلك : ثم عرج بنا إلى السماء ؛ والظاهر من هذه العبارة أنه استمر على البراق حتى عرج إلى السماء ؛ ولكن الذى جاء فى غير هذه الرواية من الأحبار أن العروج لم يكن على البراق ، وإنما كان على المعراج ، وهو السلم ، أو الحرقة ، أو المصعد ؛ وقد وقع مصرّحاً به فى كثير من الأحاديث ؛ وكل ما اختلفوا فيه وصفه ونوعه . ثم ساق الحديث بعد هذا بقية القصة ، وذكر ما وقع لها فى السموات السبع ، وما كان من استقبال الأنبياء والملائكة ، ومن رَفَعه إلى سدرة المنتهى ، ومن فرض الصلوات . والحديث طويل ، يحتاج شرحه إلى عدد كبير من الصفحات ، فنتصر على هذا القدر ، وهو كافى فى تحقيق أصل الفكرة من الكلام على حديث الإسراء والمعراج .

سباسة الحجاج

كتب الوليد بن عبد الملك إلى الحجاج بن يوسف يأمره أن يكتب إليه عن الطريقة التى يتبعها فى حكمه ، فأجابه بقوله :

إنى أدنيت السيد المطاع فى قومه ، ووليت المجرى الحازم فى أمره . وقلدت الحراج الموفر لأمانته ، وقسمت لكل خصم من نفسى قسما أعطيه حظا من لطيف عنايتى وفطرى ، وصرفت السيف إلى النصف المسىء ، والثواب إلى المحسن البرىء ، بخلاف المريب صولة العقاب ، وتمسك المحسن بحظه من الثواب .

أبو الأنياء

لقضية الأستاذ الجليل الشيخ محمد محمد المدني

المفتش بالأزهر

كست عرصت في بعض ما كتبه على صفحات مجلة الأزهر ، الغراء إلى ناحية بارزة في سيدنا إبراهيم الخليل صلوات الله عليه وعلى سيدنا محمد ، وهي قوته في الحجاج ، وتمكنه من ناحية المنطق السليم في الاستدلال ، وأخذ على مفاظه كل سبيل يطمع في أن يتخلص إليها ، أو يمر منها ؛ وضربت لذلك بعض الأمثلة من كتاب الله جل ثناؤه فيما أنبأنا به عن حليته الكريم .

واليوم أحاول أن أنظر في ناحية أخرى من النواحي البارزة في تلك الشخصية القوية ، وهي ناحية الاتهام العملي ، والابحاث المبني على العزم المصمم الذي لا يعرف التردد ، ولا يفسده الفتور ولا الضعف .

لم يكن إبراهيم نظرياً غصب ، يعرف الحق وينطوي عليه في نفسه ، غير أنه بما حوله ، ولا مكثرت بمن يخالفه ، وإنما كان مقداما على ما يعتقد أنه الصواب ، جريئاً في إغاضه والعمل عليه ، مهما صادفه في سبيل ذلك من صعاب ؛ كان ذلك دأبه حين يريد الاقتناع ، وكان دأبه بعد أن يقتنع .

فأما حين يريد الاقتناع ، فإنه يعطى نفسه حرية غير محدودة في التأمل والتطلع ، ويتصفح كل النواحي التي قد يبرز منها ظل من الضعف أو التزلزل ، لا يخاف تهمة ، ولا يتجلبج عن سؤال ، ولا يقصر في استقصاء .

ولكي يتبين لنا ذلك نقول : إن بعض الذين يطرون في المسائل يستولى عليهم الخوف العمى من طرق بعض نواحيها ، ويخجل إليهم أن هذه النواحي حرم مقدس لا يجوز القرب منه ، فضلاً عن اقتحامه والحوص فيه ؛ وهم في ذلك إما ملبثون لنقطة من نقاط الضعف في نهوضهم ، وإما خائفون من مصادمة لمعلوم آخر ، أو لشخص ، أو لشيء منهم التي فيها يعيشون ، أو نحو ذلك ؛ فترى الواحد منهم يدخل في بحثه مترلاً ضعيفاً يقدم رجلاً ويؤخر أخرى ، ويشيح بوجهه عما عسى أن يعترض سبيله ، ملاحظاً بعض الاعتبارات التي ذكرنا ، فينتهي أمره إما إلى

اعتناق عقيدة غير صحيحة في نفسها ، وإما إلى اعتناق عقيدة صحيحة في ذاتها ، ولكنها متزولة لديه ما تزال تعاوده فيها الشكوك ، وتعمّره الهواجس ، أو عامضة عليه ما يزال منها في ظلام وإبهام .

وكثير من الذين يؤمنون بالمسائل النظرية ، والمعارف الفكرية ، يعيشون ويموتون وفي أنفسهم من بعضها بعض الشيء ، وإن كانوا لا يجهرون بذلك ، ولا يحبون أن يعرف عنهم ولو أن كل مفكر قادر على البحث والطرق كلف نفسه خطة الوضوح والإقدام والتثبت والثقة بنفسه ، والتوثق مما يقوله القائلون ، والإخلاص للحق حسب غير مصور بصورة معينة تفرضها البيئة ؛ لم تربط كثير من المعارف الفكرية ، وانغلبت بعض النظريات من الإيجاب إلى السلب ، أو من السلب إلى الإيجاب ، وتبخرت بعض الموروثات التي يصل الأمر في الاعتزاز بها عند قوم دون آخرين إلى حد المناقشة عليها ، والمخاربة فيها .

وإبراهيم - عليه الصلاة والسلام - كان قوياً في معالجة قلبه ، لكيلا يظنى أهل عقله ، وكان لا يعبأ بأى اعتبار من الاعتبارات التي تصرف الضعفاء عن النظر الصحيح ، أو تلويهم عن تعرف الحق ، أو نفت في عضدهم حتى يظنوا إليه ظانها كما يغمز في مشيه البعير .

لم تزل قضية إحياء الله تعالى للوحي أمراً عجيباً حتى مع الإيمان بقدرة الله ، وسبق إنشائه لكل ما في الوجود ومن في الوجود ، ولم يزل أهل الشكوك ، والعابدون للطبيعة والمادة يثيرون بها على الناس شبها ، ويتوصلون بها إلى إنكار الحياة الأخرى وما فيها من جزاء على الخير بالخير ، وعلى الشر بالشر ؛ وقد أراد إبراهيم مع إيمانه بالله وثقته بقدرته أن يرى من أمرها رأى العين ، وهو يمثل في هذا التطلب كل متطلع إلى معرفة الحق ، حريص على اجتلائه ، فطلب من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى . وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى ، قال : أولم تؤمن ؟ قال : بلى ولكن ليطعن قلبي ؛ قال : نأخذ أربعة من الطير نصّرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعيًا ، واعلم أن الله عزيز حكيم . . ومن نافلة القول أن نذكر أن إبراهيم لم يكن متردداً في الإيمان بقدرة الله إيماناً طبعه الله عليه ، ويسره له ، وصاغه على نهجه من لدن كان فقي يتنازع قومه على الأصنام حتى يحطمها ، ويدعو أباه إلى التوحيد ، ويجادل المشركين على الحق المبين ؛ ولكنه طلب صورة أخرى من صور اليقين بعد الإيمان

بالقدرة ، وتطلع إلى ما يتطلع اليه المرء العادى الذى ليس نبياً ولا مؤيداً بوحى ،
فسأل : كيف يحيى ، ولم يسأل : هل يحيى ، لأن : كيف يحيى ، إذا نجحت كانت
أكبر دليل على صدق : يحيى ، وكانت لكل من يأتى بعده ومن يفكر بمثل عقله
نبراساً مضيقاً ، وآية واضحة : فهو فيها يتحدث باسم العقل ، متلق للجواب باسم
العقل ، متمتع بالطمأنينة والرضى باسم العقل ، فكأنه فى ذلك نائب عن الإنسانية
المفكرة كلها فى أهم قضية من قضايا العقل .

ليس كل الناس يجرؤ على هذا الطلب ، وليس كل الناس يرضى بأن يداع عنه
أنه يتطلب علماً محسوساً ، وشاهداً ملموساً على قدرة الله الذى آمن به ؛ ولكن إبراهيم
يطلب ويجرؤ ويدعوه ليهصل الى : الاطمئنان ، ويسد على كل من تحدته نفسه
بالشك منافذ الشيطان . فذلك مثل واضح من أمثلة اتجاهه العملى فى أمر ما يعتقد .
ومثل آخر يتجلى لنا فى صبيحه حين تدرج بقومه إلى إبطال رأيهم وميراثهم
الذى ورثوه عن آبائهم فى تأليه الكواكب من شمس أو قمر أو سواهما . وفى ذلك
يقول الله عز وجل : « وكذلك يُرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ،
وليكون من المؤمنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكباً ، قال هذا ربي ؛ فلما أفل قال :
لا أحب الآفلين ، فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي ، فلما أفل قال لن لم يهتدى
ربى لا كون من القوم الصالحين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر ،
فلما أفلت قال : يا قوم إني برئ مما تشركون . »

هذا الأسلوب جذبر بكل إعجاب وتقدير ، كما هو جذبر بالتأمل والنظر ،
وفى بعض ما يقوله الناس تفسيراً للقرآن الكريم أو بيانا لقصصه أن إبراهيم كان
أول الأمر منحيراً لم يستقر له فى أمر الألوهية قرار ، وأنه تنقل من تأليه كوكب
إلى تأليه آخر حتى انتهى إلى أن هذه الكواكب كلها لا تصالح آلهة ، وأن الله
هو الإله الحق ؛ ويؤمنون ذلك بأن الله قدّم بين يدي ذلك أنه يُرى إبراهيم
ملكوت السموات والأرض ليكون من المؤمنين ؛ أى أنه تعالى يريد أن يكون
إيمان خليله إيمان اليقين لا إيمان التلقين ... وليس ذلك بصحيح ؛ فما كان
إبراهيم يتمتع ولا مضطرب فى أمر الألوهية ، ولكنه واثق مطمئن القلب ثابت
اليقين ؛ يد أنه لم يشأ أن يقول لقومه باللسان والسمتين : إن ما أتم عليه هو
الباطل ، ويكتفى بهذا القول ، بل حاكمهم إلى العمل وملازمة الفعل بعد أن

حاجتهم وناقشهم بطريق المنطق والعقل ، ليتبين لهم عمليا ضلالهم وما هم عليه من الجبل والخيوط ، فقال : تعالوا نعيد هذه الآلة ، فلعل أنا المحطى . المنجى على الحق ؛ فلفت بذلك أنظارهم ، وسد منفذا عما عسى أن يقوله المفترون من أن إيمانهم تلقيني كإيمانهم بما يؤمنون ، وانتهى الأمر به إلى أن زيف لهم هذه الآلة المزعومة واحدا بعد واحد ، لأنه لفت أنظارهم إلى ما يلابسها مما يناق الربوبية ، فهي تغيب وتختصر ، وتنفخ وتظهر دون أن تملك لما أجريت عليه من مسة تبديلا أو تحويلا ، ودون أن تهدي متبهما إلى الخير والرشاد . وكيف يكون إبراهيم شاكيا متحيرا وهو برمز لقومه في أثناء تظاهره باعتقاد القمر ، لأن لم يهتدي ربي لأكون من القوم الضالين ، فقد تضمن هذا القول البارع قاعدة هي أن الإله الذي يعتقد هو الذي يهتدي ، وتضمن أن هناك قوما ضالين منحرفين عن جادة الحق وسواء السبيل ، وفيه تليح إليهم ؛ وظاهره مع هذا كله يحتمل أن يكون المراد به القمر ، وأن هذا الرب لا يهتدي فلا يكون جذرا بالآلوهية . وقد صورت لنا هذه الآيات الكريمة تلك الصورة الرائعة ، تصورا بارعا ، قيدأت بذكر حال إبراهيم وكأنه يشد مثره ، ويعقد خصره ، ويتطلع إلى السماء باحثا مقبلا ، بل إلى الوجود كله ، حتى يعثر على هذا التجم العجيب اللامع المتلألئ ، فيراه في عالم غير عالمه ، وعلى حالة غير حاله ، فيتوجه إليه بالإيمان والإذعان ، ويقول : هذا ربي . حتى إذا أسفل وغاب بدت عليه دلائل النحر والحيرة والفجعة ، وعاد يبحث وينقب ، فتوجه إلى القمر تارة ، وإلى الشمس تارة أخرى ، وهو في كل مرة بُفجأ في الظاهر بما لم يكن يعلم ، ويفاجئ في الحقيقة بما يعلم ، ثم رفض ذلك كله ، وواجه بالحقيقة قومه قائلا : « يا قوم إني بريء مما تشركون . إني ونسبت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين » .

فهذه أيضا إحدى عمليات إبراهيم وهو بصدد إيصال الحقيقة إلى قومه ، وتكوين معتقد سليم في نفوسهم ؛ فهل ترى يستطيع كثير من الناس أن يقتحموا في سبيل الإيمان حصنا من حصون الكفر والضلال في صورة المذعنين المؤمنين الراضخين لما يرضخ إليه أصحابه ، ليخرجوا منه بعد قليل ، وقد قوضوا بنيانه ، وصعدوا أركانه ؟ .

والى العدد القادم إن شاء الله ، فنستوفي بقية الحديث ؟

بين الشريعة والقانون

نظرات في توثيق المعاملات المالية

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد القليل السبكي

المفتش بالأزهر

١ - المعاملات التي شرع لها التوثيق .

أتيت فيها مضى على كثير من وجوه الحكمة في مشروعية التوثيق . وأظنني الآن أصبحت آمناً من تجاهل أناس لقدر التوثيق ، أو تعافلهم عن تقديره على الوجه الصحيح .

وأصبحت كذلك مطمئناً إلى الخوض معهم في توسع من القول ، حتى أقف بهم عند غاية محدودة من هذا المطاف .

ولعل مما يشغف إليه القاريء أن يعرف الحكم التكليفي المتعلق بالتوثيق ، ولكر الاختيار هندی أن أرجئه الدخول في ذلك حتى أتهى من تحديد وصفي للمعاملات التي شرع لها التوثيق ، وأنني من ذكر الوسائل التي يكون بها الاستيناق ، وحينئذ يكون الحكم بعد تصور القاريء مجارياً لقواعد المنطق ، ومسايراً للعقول .

(١) لم يكن التوثيق في اعتبار الشارع مطلوباً ولا سائفاً في كل ما يسمى عند الناس معاملة ؛ وإنما هو في المعاملة التي اعترفت بها الشريعة ، وسوغتها وسيلة لتبادل الأموال والمنافع ، حتى يكون التوثيق مبنيّاً على أصل صحيح ؛ إذ هو تصرف مشروع فلا يمكن أن يلتحق بغير مشروع . ومن القواعد المشهورة أن المبنى على الفاسد فاسد ، أو أن الفاسد لا يبنى عليه صحيح . وعلى ضوء ذلك تكون المعاملات الباطلة بمنزل عن رعايتها بطلب التوثيق فيها ، بل الشارع يزوج عنها ، ويدعو إلى التوصل منها .

وسواء أكانت المعاملة باطلة لأنها لم يشرع بأصله ، أو لأنها لم يشرع بوصفه ، فلا تعلق لها بموضوعنا . فلو أن مسلماً باع نخراً أو خنزيراً لمسلم آخر فقد تعامل في غير مال محترم ، وذلك غير مشروع بأصله ، ومهما بلغ الثمن حالاً أو مؤجلاً

فلا موضع هنا للتوثيق ، لأنها معاملة محظورة لا تنكسب حقاً ؛ وقس على ذلك كل معاملة في محظور . ولو أن شخصاً باع جملة الثارد غير المقدور على تسليمه ، أو باع مالا مقصوباً من سواه ، أو باع سمكاً في ماء غير محوز ولا مرثى فيه ، أو باع في ساعة النداء للجمعة ، فذلك بيع لم ينشأ بوجوبها ؛ ولو لا ما فيها من مافع لصحت ، ولكنها على هذا الحال لا تكون محلاً للتوثيق الذي هو أثر من آثار صحة العقد . ولو أن إنساناً استأجر عبداً أو شخصاً لعمل غير مشروع ، كدار ليجعلها مأخوذة ، أو استأجر رجلاً أو امرأة للعداء ، أو استأجر باغياً ليرتكب جرماً على حسابه ، فكذلك لا موضع للتوثيق هنا ، ولا يثبت بعمل من هذه الأعمال حق في الأجر ، لفساد العقد في مثلها من كل نفع محظور . . . وقد سبق لنا ذكر حديث . المسلمون على شروطهم إلا شرطاً حرم حلالاً أو أحل حراماً ، وهو مما يشهد بإهدار كل معاملة مخالفة للمشروع بسبب أنها شر محض ، أو بسبب أن وجه المصلحة فيها معدوم ، أو صئيل بجانب ما فيها من مفسدة . وإذا وقع التوثيق في شيء من قبيل ما ذكرت فلا يملك أحد المتعاقدين به ما آل إليه من ثمن أو مشمن ، بل كل شيء على ملك صاحبه ، والتوثيق فيها مهمل لا يصحح ما وقع فإدائه . على أن فساد المعاملات قد استفاض واستشرى حتى أصبح من باطلها ما يخيل للناس أنه مشروع ومفروع من تأوله بنقد أو تزيف . ومن أمثلة هذا بيع المجهول ، فقد يتناع تاجر بضاعة غير حاضرة ولا معروفة برؤية ولا بوصف ضابط لما يجري فيه بيع السلم ، بل اكتفاء ببيان كميتها وثمنها ، وبعد تقدير ربح يرضيانه ، وهو كما حدثني تاجر ، نوع مما يعرف (بالبيع على العاتورة) وهو وإن أجازته القانون غير صحيح في نظر الشريعة . ويجمع كل هذه الصور وأمثالها عموم الخطر في قوله سبحانه . يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ، وقول النبي صلى الله عليه وسلم . من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد . - باطل - وقوله عليه السلام . على اليد ما أخذت حتى تؤديه . إذ المعنى ما أخذته من غير طريق مسوغة لأخذه .

هذا بجانب سلبى من وصف المعاملات التي يأخذ الناس فيها بالتوثيق وليست محلاً ولا صالحة للتوثيق .

أما حينما تصح المعاملات باستيفائها للشروط الفقهية ، فتكون سيلاً إلى تملك

العين ومنها في المبيعات ، وسيلا الى استحقاق الأجرة والمنفعة في الإجازات ، وتكون محلا للتوثيق وتبنى عليه آثاره . قال سعيد بن جبير رضى الله عنه في تفسير قوله تعالى « وأشهدوا إذا تباعتم » : يعنى أشهدوا على حقوقكم إذا كان فيها أجل أو لم يكن فيها أجل ، فأشهد على حقك على كل حال ٥١ .

وكلام سعيد بن جبير هذا يساعد على القول بأن الاستيثاق مشروع في المؤجل وغير المؤجل من المبيعات وسائر المعاملات والحقوق ، سواء أكانت مشروعية لإيجاب أو نديب ، على خلاف بين العلماء ، وسيأتى تفصيله . وكذا يقول الجصاص في قوله تعالى « إذا تدايتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه » : يلتزم سائر عقود المدائيات التي يصح فيها الآجال ٥١ .

ويتلخص من هذا أن التوثيق الذي أذنت فيه الشريعة ودعت إليه يكون في الدين المأذون في تأجيله ، كما يكون في البيع وفي سائر الحقوق على ما سلف من كلام سعيد بن جبير . وقد يقال : إذا كان البيع مجزأ وليس فيه تأجيل يخشى من ورائه تجاحد أو نسيان ، فما وجه توثيقه بالإشهاد أو سواء ؟ وجواب ذلك أن التوثيق لضمان العهدة ، وهو ضمان الدرك على ما يسميه الفقهاء ؛ ومما أن المبيع مضمون على ذمة البائع ، وأن الثمن مضمون على ذمة المشتري ، فإذا ظهر أن شيئا منهما مستحقا لغير بآذله كان بآذله ضامنا له بتعويض الآخر ؛ فيضمن البائع ما باعه إذا ظهر ملكا لغيره ، وكذلك المشتري إذا ظهر الثمن غير مملوك له ؛ فالتوثيق هنا لدرء ما يتوقع من الضرر . وبهذا ظهرت حكمة الله تعالى في إطلاق الأمر من قوله سبحانه « وأشهدوا إذا تباعتم » ، وظهرت كذلك وجاهة كلام ابن جبير في القول بالإشهاد على الحقوق على كل حال .

في القانون :

وهذا الذي قلنا من توقف صحة التوثيق على صحة التعامل في نظر الشريعة مما يأخذ به القانون المدني المصري . وفي هذا يقول سعادة كامل مرسى باشا في كتابه التأمينات ص ٤٨ : « وهذا الضمان لا يكون صحيحا إلا إذا انصب على التزام صحيح ، فتكون باطلة كغالة الالتزام المستحيل ، أو المخالف للقانون أو الآداب ، والذي لا سبب له ، أو له سبب مخالف للقانون والآداب ، والالتزام الذي يقع بالإكراه » . وكذا يوافقنا القانون في أن الالتزام الصحيح الذي ينصب عليه التوثيق يحصل ما كان مسببا عن عقد ، أو عن إتلاف ، أو غصب .

وفي هذا يقول أيضا كامل مرسى باشا في ص ٤٩ ، وتصح كفالة جميع الالتزامات ، سواء أكانت ناتجة عن العقود ، أم عن أشياء العقود ، أم عن الجرائم المدنية ، أم عن القانون ٨١ . . . وشبه العقد مثلوا له بمن يلتزم بعمل لغيره على أن يأخذ أجرته ، فذلك شبه عقد ، وضمان هذا العمل جائز ؛ وكذا شبه الجريمة مثلوا له بمن يتعدى بغير قصد - ص ٩٣ الالتزامات للسبوري باشا .

موافقات ومعارقات :

ومع أن الشريعة والقانون توافقا في العناية بالتوثيق ووسائله التي سنوضحها بعد ، وتوافقا على أن الغرض منه صيانة الحقوق وضبط المعاملات والبدء بها عن التأثير على الروابط ، فيهما معارقات أخرى تقتضيها طبيعة كل من التشريعين .

١ - منها : أن نظم التوثيق في الإسلام وضعت كما سلف القول بحفاة أن تدب الفوضى من هذا الباب إلى نظام المجتمع ، فضمنت للناس في قواعد التعامل والتوثيق ما يدفع عنهم كل حرج ، وأفسحت في هاتيك القواعد لاحترام العرف الصحيح ومراعاة الضرورات بالقدر الذي لا يهدم أصل النظام ، ولا يعود عليه بالنقص في صورة من صورته ؛ فلم يمد في المعاملات بعد تكييفها بما كيّفها الشريعة قصور عن مقتضيات الحياة وما يجد فيها من شئون .

وإن توقف أحيانا نظام المعاملات المشروعة عن مسايرة الجديد فذلك لإحجام الباحثين به عن التردّد منه ، أو لقصور المدارك عن التطبيق ، لا لقصور في نفس التشريع ؛ ومن ذلك نفهم مطمئنين أن التشريع الديني مهيمن على المعاملات بإطراده .

أما القانون فإنه مستمد من التجارب ، وسائر وراء الحاجة الوفتية ، ولا يتسع لتقرير كل طارئ يعرض للناس بعد ، فهو مسلم به في الحاضر ، وقد لا يسلم به في المستقبل ؛ ومن أجل ذلك يتأثر بالعادات ويضيق بالجديد ، ويقف من حين إلى حين عن مسايرة التطور ، حتى يلجأ المشرعون إلى تغييره أو تعديله ؛ وإذن هيمنة القانون على المعاملة هيمنة وقتية رهينة دائما بتطور الحياة الجماعية ، والحياة في تطورها لا تسلك سبيلا واحدة ، ولا تثبت على لون واحد ؛ والقانون المدني يستوحيا فيجيز اليوم ما كان يحظره بالأمس ، ويستتبع الآن ما قد يستحسنه غدا ، وسيظل هكذا في ذبذبة كان يغنى عنها تشريع الإسلام لودرسوه والزموه .

٢ — ومن المعارف أن النظام اذني في المعاملات، وإن كان تشريعاً مادياً في جوهره وأعرافه، امتاز برعايته للجانب الخلقى، فهو يعتمد على الضمير، ويرى في المرء روح الخشية، ويأذيه أن يحاسب نفسه، وألا يطاوع ميوله فيستحل حق غيره بما لديه من وثائق قد يملها غير صادقة، ويصارحه بأن القضاء له على أخيه لا يحمل له ما لا يكون حقه باطناً، ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون، والى عليه السلام يقول: إنكم تختصمون إلى وعل بعضكم يكون الحن حجة من بعض — أنصح وأقربى — فأقضى له بشيء من حق أخيه، فن قضيت له بشيء من مال أخيه فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار.

ففي تلك الآية وهذا الحديث إشعار للناس بأنه مع الوثيقة التي يطمئن إليها القاضي لا يفلت الإنسان من رقابة الدين. ومن هنا يقول الفقهاء: القضاء ملزم لا مثبت. أما القاون فلا يتبع شعايا الناس، بل يقنع بالوسائل الظاهرة، ومهما جاز من خطأ القاضي بالنظر الواقع، فهمة القاون واقفة عند ذلك الحد.

٣ — ومن المعارف أن الدين لم يكفه أن عرج على الجانب الخلقى أو أيقظ الضمائر، ونفّر من الجور فحسب، بل نصب أمام أعين الناس أهدافاً أخروية، وسلك بهم سبل الترغيب والترهيب، ورتب لهم أجرية من المؤوبة لمن سار على هدى الشريعة، أو العقوبة لمن اشتط في المعاملة وحاد عن تعاليم الدين. قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث، فاتقوا الله يا أولى الألباب لعكم تعملون، والى عليه السلام يقول: كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به. أما القاون فمأينه بالاحية الشككية للمعاملات، فهو ينظر إلى الصحيح وغير الصحيح من حيث المسئولية المدنية، وما يكون مقبولا قضاء وما لا يكون، حتى ليعترف أحياناً بما لاتراء الشريعة بحال، فهو يميز بين الحر والخنزير، ويميز التوثيق في تلك المعاملات وأمثالها، وفيما يترتب عليها من حقوق، ويتسع للقضاء فيها، أو ينهض لتمكين الطالب من المطلوب.

هذه مثل من وجوه الفرق بين التشريعين، وإلها لا أكثر من ذلك، ولكننا نرجع عن تتبعها إلى بيان الوسائل المشروعة للتوثيق، مهتدين بالكتاب العزيز والحديث الشريف، والكلام بقية إذا شاء المولى سبحانه.

موقف المشركين في مكة من القرآن الكريم

ورد القرآن على ما تمسكوا به من شبه

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الرحيم العدوي
شيخ معهد فواد الأول بأسبوط

—

وقف كفار مكة من محمد عليه الصلاة والسلام ومن كتابه الذي جاء به من عند الله لهداية البشر موقف المعاند المكابر، وأخذوا يتمسكون بشبه واهية وتعلات لا ثبات لها: تواطأوا على الخطأ، وتمالأوا على الكذب، ونصبوا لتقدير الأمور ميزاناً من باطل التقاليد والعادات، وأقاموا من الرأي الفطير حكماً أوصد على الحق باباً، وضرب على الصراط المستقيم حججاً؛ فمكر محصور وطرف حسير، إنما في وكر الحرص على مبدأ الأسلاف، والعرض على التنازع على الموروث من الآباء، حتى لترى الواحد منهم يخشى أن يفتح الله عليه بالرأي الوجيه والعكر الصائب، ويروعه أن يرى ذمّه يستير ويدكوا، وقربحته تدر ونسخو، وبعد حرية النظر جرماً، وإطلاق الفكر في حيز المعقول إثماً، ويزججه أن يرى الأمم يتبدد جهلها ويمو عليها، والأرض يكثر نورها ويزيد حيوورها. وما سبت الأمم برذيلة شر من هذا، ولا ابتليت بمحنة أخطر على حياتها منها. ولقد كانوا في كل ذلك يتمسكون بشبه واهية، وتعلات لا ثبات لها.

وقد تولى القرآن الكريم الرد على كل ما استندوا إليه من شبه، وعولوا عليه من مفتريات، فاعامت تلك الإباطيل وتلاشى أثرها، ولم يبق لهم إلا العناد والجحود مع وضوح الحق وزوال الشكوك والريب، فارة كانوا يقولون عن القرآن: إن هذا إلا إفك زائر، وأغاثته عليه قوم آخرون، فيقول القرآن: فقد جاءوا ظلماً وزوراً، ومرة يقولون: أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً، فيقول القرآن: قل أنزلني الذي يعلم السر في السموات والأرض، إنه

كان غفورا رحيمًا ، وطورا يقولون ، ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا ، أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها ، وقال الظالمون إن تبعون إلا رجلا مسحورا ، فيقول القرآن الكريم ، افطر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا . تبارك الذي إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا ، بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا ، ويقول أيضا ، وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ، وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون ، وكان ربك بصيرا . ، وحبا يقولون لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ، فيقول القرآن في الرد عليهم ، لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا . ، وآية يقولون ، لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ، يعنون بالقريتين مكة والطائف ، فيقول القرآن ، الله أعلم حيث يجعل رسالته ، أي فليست مقاييس العظمة وموازين السعادة ما تعرفون من كثرة المال ، وما اعتدتم من وفرة الثراء . وحبا آخر يقولون ، لولا أوتى مثل ما أوتى موسى ، فيقول القرآن ، أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل قالوا سمحرا تظاهروا وقالوا إنا بكل كاهنون . ، وطورا يقولون ، لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ، فيقول القرآن ، كذلك أنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا . ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا ، ويقول ، ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون ، والمراد بتوصيل القول إزال القرآن عليهم متواصلا بمضه إثر بعض حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة ، أو متتابع الوعد والوعيد والقصص والعبر .

أنكروا نزول القرآن منجما على حسب الوقائع أو جوازا لسؤال أو ردا هل استغناء ، وقالوا هلا سلك القرآن سلك الكتب السماوية واتبع سنة التوراة في نزولها جملة ، فإن ذلك التدرج في النزول هو موضع ريبه ومثار شكها وحيرتنا ؛ فبين الله الحكمة في نزول القرآن منجما متتابع النزول بأن في ذلك تثبيتا لقلب الرسول ومن معه من المؤمنين ، حتى لا يهن في دعوته ، ولا يضعف في أده رسالته ، وثبتت الرسول والمؤمنين بمثل الآيات الكريمة كآية . وإن كان كبر عليك

إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ، وآية ، لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين ، وآية ، فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ، وآية ، ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون ، وآية ، أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ، مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معهم متى نصر الله ، ألا إن نصر الله قريب ، وآية ، إنك لا تهتدى من أحببت ، ولكن الله يهدي من يشاء ، وقد أرشدكم الله سبحانه وتعالى لحكمة نزول القرآن مجبا ونوعا ، فهو يبين لهم في آية ، ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون ، حكمة هذا التوسيل والتجسيم ، وهي أن تدرج القرآن في النزول ، ووصل بعضه ببعض فيه فائدة عظيمة لهم ، هي أن تدبر الآية بعد الآية والسورة بعد السورة ، لا يحتاجون في الإيمان واليقين إلى مزيد فكر أو نظر ، بل إلى مجرد التدبر . فلو أنهم سمعوا القرآن وتدبروه لما رأيت منهم إنكارا ولا اعتادا . ولقد بلغ من أحدهم وهو الوليد بن المغيرة أن يقول بمجرد سماع القرآن : إن له الخلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وما يقول هذا بشر ؛ فقالوا . صبأ الوليد ، نفث ضياع الرياسة وهو سيد تقيف ، فقال : أغلب الظن أنه سحر . فنزلت فيه الآيات ، درق ومن حلقت وحيدا ، وجعلت له مالا معدودا ، وبين شهودا ، ومهدت له تمجيذا ، ثم يطمع أن أزيد ، كلا إنه كان لآياتنا عيدا ، سارقه تصودا . إنه فكر وقدر يقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ، ثم نظر ، ثم عس وبسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال إن هذا إلا سحر يؤثره ، إن هذا إلا قول البشر ، سأصليه سقر ، وما أدراك ما سقر ، لا تبق ولا تنذر ، الخ .

ومن الحكم في نزول القرآن منجيا : رحمة الله بعباده ، لأنهم كانوا قبل الإسلام في إباحة مطلقة ؛ فلو نزل القرآن جملة واحدة لقتل عليهم التكاليف فنفر قلوبهم عن قبول ما فيه .

ومن الحكم أيضا : أن الله قدر أن يكون في القرآن ماسخ ومسوح ؛ لأنه كتاب الخلود الذي يسير الزمن ويمشي مع كل تطور ، وذلك لا يتأتى إلا في نزوله مفرقا منجيا .

ومن الحكم أيضاً : أن تعجيب القرآن أبليغ في التحدى ، وأقوى أثراً في الإعجاز . فالقرآن معجزة الرسول الكبرى ، وقد تحدى به العرب وهم أهل اللسن والفصاحة ، البلاغة طوع أمهم ، والبيان ملك قيادهم ، ملكوا زمام الفصاحة ، وعالجوا كل فن من فنونها ؛ حماسه وغرابة ، وهجوا ومدبحاً ورثاء ، ووصفاً ؛ وإذا بالقرآن ينجوهم ببلافته الرائعة ؛ فقد وجدوا أمامهم كلاماً يحكم السج رصين الديقاجة ، متين الأسلوب لا تنبو فيه كلمة عن موضوعها ، ولا يمتري أسلوبه تخاذل أو وهن ؛ فلو نزل القرآن جملة وتحداهم الرسول به وهو عمد النسق بعيد المرام والغايات ، لكان لهم من العذر ما يلبس الحق بالباطل ، ولقالوا إن عجزنا عن معارضة ليس لوهم في بلاغتنا أو ضعف في بياننا ، ولكن صدقت عنه نفوسنا لعلولة ... فزول مفرقا لتزول شبيهم وتنقصى تعلاتهم . وكان النبي يعريهم بتحدى القرآن ويشير فيهم الخفاصة لمعارضته . فإحجامهم عن ذلك مع انفساح المدة وتراخي الزمن أعظم آية على عجزهم ، وبرهان على أن بلاغة القرآن ليست في تناول قدرتهم ، وإلا فما بالهم يحجمون لو كانوا قادرين ! .

وهناك حكمة أخرى في نزول القرآن مفرقا ، تليها علينا ظروف المسلمين في بدء الدعوة الإسلامية ، وتهدينا إليها دراسة أحوالهم في ذلك الحين : فقد كانوا أميين لا يعرفون القراءة ولا يسطرون في قرطاس ، ونشأ الإسلام بينهم وهم قليل العدد مضطهدون مستضعفون ليس لهم من قوة السلطان ما يحميهم من صولة أعدائهم ، ولا من الأموال ما يمكنهم من تنظيم معاهد العلم والعرفان ، ولا من فراع الوقت وعدوه البال ما يمكنهم من التوفر على حفظ ذلك الكتاب وفهمه ، بل أحاطت بهم المحن والشواغل من كل صوب ، فكانوا مضطرين إلى السعي لتحصيل القوت ، وإلى مقاومة أعدائهم . وظلوا بمكة ثلاثة عشر سنة وسيف الإرهاب والظلم مصلت فوق رؤوسهم ، حتى اضطروا إلى الهجرة نحو المدينة عن أوطانهم وديارهم ، للفرار بعقيدتهم ، والنجاة بدينهم ، ولم تسكد تستقر بهم الحال في المدينة حتى عصمت بهم الدسائس والعتن ، وتمحزبت عليهم العرب ، فكانوا مضطرين للدفاع والذود عن الحياض ، فكانت معارك وغزوات استنفدت كثيرا من قواهم ، وكانت حياتهم طوال تلك المدة حياة مكافحة وجهاد ومقاومة وجلاد ، فلم يكن من اليسور وهذه

ظروف حياتهم أن يتفرغوا لحفظ كتاب عظيم كالقرآن لو نزل جملة واحدة ؛ فكان ضروريا أن تنزل الآيات ممدودة حتى يستطيعوا حفظها وفهمها ليكونوا أساندة العالم في الفقه والتشريع ، وفي كل نواحي الحياة .

وهناك حكمة أخرى يعرفها من درس طبائع الشعوب ، وتطورات الأمم في نهضاتها : فقد كانت العرب إذ ذاك عريقة في الوثنية ، متعصبة لها إلى أقصى حدود العصية ، محلة في أخلاقها وعاداتها ، تشد البات وتقتل الأولاد خشية الإملاق ، وتعامل بالربا الفاحش ، وتأثى المسكرات سرا وجهرا ، وترث المرأة كما يورث المتاع ، وتكره الفتيات على البغاء ابتغاء عرض من المال ، وكانت إلى جانب ذلك تفتك بها الأمراض الاجتماعية وتمرق شملها ، وتقطع المودة فيما بينها . أمة هذه حالتها ، هل من الميسور نقلها من تلك الفرائز والطباع دفعة واحدة وفي عشة أو ضخاما ، وهم يقولون إن الطفرة في الأمم بحالة ، أم الحكمة تقتضي نزول القرآن تدريجيا ليصلح من حالها ، ويشذب ما فسد من أخلاقها وعاداتها الفنية بعد الفينة .

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد قدر لهذه الأمة الامة التي ترعى الشاء والإيل أن تسود العالم وتملك زمام العمران في هذا الوجود ، وأن تغير خريطة الدنيا ، فهل من الحكمة أن تصل إلى هذه السيادة بدون مؤهلات واستعداد ؟ حال أن تصل إلى ذلك إلا بعد أن يلقنها القرآن مبادئ الشورى ، وقواعد السلم والحرب ، ونظم المعاهدات والمخالفات ، وقوانين السياسة والاقتصاد ، ويهديها إلى جيل الأخلاق ، ويرتب لها نظام الأسرة القوية ، ويمهد لها سبيل التعامل في الأمم الراقية الناهضة .

هذه هي جملة القول في حكمة نزول القرآن منجها ، وبها يتجلى أن ما تمسك به المشركون من تلك الشبه أو هي من بيت العسكوت ، أو هو كسراب ببيعة يحسبه الظلمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجد شيئا ؟

الامانة العلمية

وموقف علماء الاسلام منها

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ أبو الوفا المرافي

مدير المكتبة الازهرية

عنى الإسلام بالامانة عناية شديدة ، لمكانها من تنظيم الامة واستقرار شئونها وتوفير الثقة بين أفرادها وجماعاتها ؛ والثقة في الامم أساس نهوضها وحماد رقيها . وما اضطربت أحوال الناس وسامت علاقات الامم إلا بالعدم الثقة بينهم ، وتوافر سوء الظن فيهم ؛ لهذا عزم القرآن على رعايتها ، وأكدت السنة احترامها ؛ قال تعالى : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها ، وإذا حكمت بين الناس أن تحكموا بالعدل » . وقال عليه الصلاة والسلام « لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له » .

وعنى الإسلام عناية خاصة بالامانة العلمية ، لاثرها في استقرار الأديان والعلوم وحفظ حقوق العلماء والاعتراف بسبقهم وفضلهم إذا حدث عنهم أو اقتبس منهم ، نحت القرآن وحشت السنة العلماء على التزامها ، وأخذت نفس بها ، واصطغتها في شئونهم العلمية : حديثاً ، ورواية ، وتأليفاً ، وكتابة ؛ وكانت سيرة علماء المسلمين في الميدان العلمى مفخرة من معاصر التاريخ في الامانة العلمية ، يزهى بها العلم ، ويزدهى بها المتصفون من العلماء قديماً وحديثاً . وإياها لعمر الحق الدستور العلمى الراقى الذى يجب أن ينضج لقواعده العلماء ، لتبرا نفوسهم وتبرا أعمالهم من شبهات انتدليس والكذب والسرقة . وإن الإنسان لياخذه العجب من امانة علماء المسلمين والتزامهم الدقة فيما يروون ويكتبون . وقد دفعتم تلك الامانة الى أن يضعوا لها البراهج ، ويؤلفوا فيها الكتب ، ويصطنعوا لها القواعد ، ليسلم لهم شرفهم العلمى ، وتسلم مؤلفاتهم من آفات الادعاء والتدليس . وقد كان العالم يدفعه شرفه العلمى وحفاظه عليه أن يرذل الأيام والأسابيع في طلب التثبت من كلمة وقعت له ولم يكن قد سمعها من قبل ، أو حديث روى له من طريق لم يرو بها . ولئن كانت تلك الامانة

في أولها دينا يدين العالم به ، فقد كانت فيما بعد دينا وشرقا عليا يشين العالم أن يعرى منه .

وأساس تلك الإمامة من القرآن قوله تعالى : « إن تتبعون إلا الظن وإن الظن لا ينفى من الحق شيئا » وقوله تعالى : « ولا تخف ما ليس لك به علم » وقوله تعالى : « وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لذُبِينته للناس ولا تكتُمونه » ومن السنة قوله عليه الصلاة والسلام : « إن كذبا على ليس ككذب على أحد ؛ من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » إلى آيات وأحاديث كثيرة توجب التزام الإمامة في العلم رواية وتعلما وتعلما .

وقد كانت أعمال النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وأعمال الخلفاء من بعد وأعمال العلماء بعد أولئك جميعا ، تفصيلا وتطبيقا لهذا الدستور العلي : تطبيقا يدمش لدقته الناظر في رياض سيرهم العاطرة . وأول تطبيق عملي ما وقع للخلفاء في جمع القرآن ؛ فقد روى أن أبا بكر رضى الله عنه لما كلف زيد بن ثابت كتابة القرآن وجمعه قال زيد : « والله لو كلموني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن » . وبلغ من أمانه زيد رضى الله عنه وحيطته وحذره واستشعاره ثقل الإمامة العلية التي وضعت على عاتقه أنه لم يقبل شيئا مما كتب من القرآن حتى يشهد شاهدا عدلان أنه كتب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد قرأ حكيم بن هشام آية من القرآن بقراءة لم يسمعها عمر بن الخطاب فأخذ بثوبه حتى انتهى به إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فأمره الرسول أن يرسله ، ثم استقرأهما وقال في قراءة كليهما : هكذا أنزلت ، وقال : « إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فأقرموا ما تيسر منه » .

واصطبح التابعون ومن بعدهم من علماء المسلمين هذا الدستور العلي في الحديث وغيره من العلوم . ويطول الحديث في استقصاء الشواهد على أمانة هؤلاء وتشنهم ، وما كانوا يعملون من جهود في هذا السبيل وأي أمانة وأي فضل نقدره لهؤلاء العلماء . وقد كان أحدهم يرحل في طلب الحديث الأيام والشهور ليستوثق من صحته حتى يبرأ من العمدة في روايته وتعليقه .

عن مالك أن سعيد بن المسيب قال : « إن كنت لاسير الليالي والأيام في طلب الحديث » .

وحدثوا أن أبا أيوب رحل من المدينة إلى عقبة بن عامر بمصر ، فلما قدم أخبروا عتبة بن رباح ، قال : حدثنا ما سمعته من رسول الله في ستر المسلم ، لم يبق أحد ممنعه غيري وغيرك . قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من ستر مسلماً على خزية - بالزاي المعجمة : الذنب يستحيا منه - ستره الله يوم القيامة » . فأتى أبو أيوب راحلته فركبها وانصرف إلى المدينة وما حل رحله . ومن التثبت العنوي والتحرز من الخطأ فيه اقتصادهم في الفتوى حتى بما يعرفون . وعن البراء رضى الله عنه قال : « أدركت عشرين ومائة من الأنصار من أصحاب رسول الله يُسأل أحدهم عن المسألة ما منهم من رجل إلا ود أن أخاه كفاه » . وقال الإمام أحمد رضى الله عنه : « من عرض نفسه للفتيا فقد عرضها لأمر عظيم ! إلا أنه قد تلجى - إليه الضرورة - قيل له : فأبى أفضل . الكلام أم السكوت ؟ قال : الإمساك أحب إلي . قيل له : فإذا كانت الضرورة ؟ لجعل يقول : الضرورة الضرورة ! . وقال : الإمساك أسلم . ولعلم الحق أنه يوقع عن أمر الله ونبيه ، وأنه موقوف ومسئول عن ذلك » .

وقد حملت الأمانة العلمية أما داود السجستاني صاحب السنن أن يقول عن أبيه أبي بكر : إنه كذاب ، كما رأى فيه .

وكان طائفة من علماء الحديث بحرقون كتبهم تورعاً عن أن يأخذ الناس عنهم ما عدوه من سيئات أنفسهم فيستدوه إليهم . وقد يكون فيه الباطل والموضوع والمنكر وما لا يعرفه إلا صاحبه . ومنهم من كان يفضل كتبه لأنها جلود . ومن أغرب ما جاء عنهم أن بعضهم أوصى أن تدفن كتبه معه ، فدُفنت

وفي كيفية الثبوت والاحتياط في الأمانة العلمية وضع العلماء علم الرواية أو مصطلح الحديث ، وهو علم واسع الأطراف ضاف الذبول والخواشي ، بين فيه ما ينبغي في الحديث ليكون مقبولا ومعتدا به ، وما ينبغي في الراوى ليكون ثقة يعتمد على حديثه وروايته . ولهم في تسميم الرواية والراوى وبيان منازلهم ووزن مراتبهم العلمية الممتع المعجب .

وهنا أبادر فأتى عن ظن القارى أن تلك الأمانة إنما التزموها في القرآن وفي الحديث وعلومها لمكان ذلك من الدين - وللدين وعلومه سلطان على

النفوس — بأن تلك الامانة إنما كانت نصب أعينهم في كل ما عالجوه من العلوم. وفي تاريخ اللغة والنحو والصرف وغيرها شواهد ناطقة بدقة علماء المسلمين وأمانتهم. وكانوا لا يروون اللغة والنحو إلا بأسانيدهما، وكانوا يرحلون الى البوادي ويطوفون بها للتفل والاستيثاق والتثبت.

وظلت الامانة العلمية رائد علماء المسلمين إلى عهد قريبة. ولقد أدركنا من شيوخنا من كان يتحرج أن يطمس على ما يصادفه من خطأ في الكلمات، ويؤثر أن يشير عليه بعلامة، ويكتب في مقابلها على الهامش: لعل الصواب كذا. ذهاباً منه إلى احتمال أن يكون هناك وجه من التأويل الصحيح لظاهر هذا الخطأ. وكانوا يحرصون كل الحرص على أن ينسبوا كل قول إلى صاحبه اعترافاً بالفضل وتقصياً من المسئولية، ولهم اصطلاحات خاصة بذلك.

هذه الامانة بسيرة بتاريخ الامانة العلمية ونظر علماء المسلمين إليها، وهي من المغاخر التي سبقت بها الحضارة العلمية الإسلامية، وقد اصطنعها أخيراً العلماء الاجاب مع تعديل في وسائلها، فظن بعض أهل العلم خطأ أنها منهج أجنبي مستحدث، ولكنها في الواقع منهج ثقافي إسلامي قديم.

وقد اعترى الامانة العلمية ما اعترى الناس والزمان من فساد، وصار بعض العلماء والمؤلفين لا يبالي بما ينقل، ولا يتحرى وجه الصواب فيه، ويحاول جامداً أن يجتلس من العليله ممرات قرائتهم، وذوب قلوبهم وعصارات أكبادهم، ناسياً ذلك إلى نفسه كذبا، وطلباً للشهرة، والتماساً للمالة والربح الحرام، وصار لصوص العلم أشد خطراً من لصوص المال والمتاع. وطلب بعض العلماء حمايتهم من هؤلاء اللصوص، فاضطرت حكومات كثيرة لوضع قوانين تحفظ للمؤلفين حقوقهم في مؤلفاتهم وتعاقب المعتدين عليها، وهيئات أن يقوم الوازع القانوني مقام الوازع الفسي.

وإنه لا ماز كل العار أن يستلك بعض العلماء في سلك اللصوص وقطاع الطريق، وينتظم الجميع قانون العقوبات، ولكنه سلطان المادة الفاهر، وظروف الحياة القاسية، قضى على الفضائل حتى في نفوس بعض العلماء.

لو بنير الماء حلقى شرق كنت كالغصان بالماء اعتصاري

تفسير سورة الليل

فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الرحيم فرغل البليقي
المدرس بكلية الشريعة

قال تعالى : « إن علينا الهدى ، وإن لنا للآخرة والأولى » :

بيان وجه الربط :

وجه الربط : أن الله سبحانه وتعالى ، لما عرف المخاطبين ، فيما تقدم ، أن أعمالهم مختلفة ، ومصاعيم متفرقة ، وبين ما للمحسنين من التيسير اليسرى ، وما للمسيئين من التيسير للعسرى - أخبرهم هنا بأن عليه بمقتضى حكمته بيان الهدى من الضلال .

بيان المعنى التفصيلي :

« الهدى » هنا بمعنى الاهتمام ويقابله الضلال . وكلمة « علينا » تفيد الوجوب . و« الله تعالى لا يجب عليه شيء » فالمراد الوجوب بمقتضى الحكمة . و« الآخرة » الدار الآخرة . و« الأولى » دار الدنيا .

والمعنى الإجمالي : إن علينا بموجب قضائنا المبني على الحكم بالجنة ، حيث خلفنا الخلق للعبادة ، أن نبين لهم طريق الاهتمام من طريق الضلال ، ليمتثل أمراً بسلوك الأول ، ونهياً بالكوس عن الثاني ، وقد فعلنا ذلك بما لا مزيد عليه ، حيث بيانا حال من سلك كلا الطريقين ترغيباً وترهيباً . وإن لنا ملك كل ما في الدنيا والآخرة ، فلا ينبغي اعتدائكم ، كما لا يضرنا ضلالكم ، بل نفع ذلك وضرره عائدان عليكم . « فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها » . وإنما قدم الآخرة في الذكر مع أنها الآخرة في الوجود ، ليأدر إلى تأكيدها وأنها كائنة لا محالة إذا جاء وقتها وحصر أوائها .

ثم قال تعالى : « فأنذرتكم نارا تطفى ، لا يصلاها إلا الآشقي » الذي كذب وتولى .

هذا متفرع على كون الهدى عليه سبحانه وتعالى ، فكأنه قال : إن بيان طريق الهدى علينا ، فينبأ بالإذار والتخويف والتحذير والتهديد . و« الإنذار » هو التخويف . والمخطاب لأهل مكة الذين كذبوا وأعرضوا ، وخالفوا وعاندوا .

ومعنى « تظلى » تتوقد وتتلهب وتتوهج . وأصله تظلى ، فحذفت منه إحدى التائين . ومعنى « يصلها » يدخلها أو يتماهى مرها .

والمراد به « الاثنى » الكافر ، فإنه أشقى من الفاسق ، ويفصح عن ذلك وصفه بقوله تعالى : « الذى كذب وتولى » .

وقد استشكل المفسرون ماها الحصر فى قوله تعالى : « لا يصلها إلا الاثنى » من حيث إنه يقتضى أنه لا يدخل النار إلا الكافر ، أما المؤمن العاصى فلا يدخلها أصلاً ، لأنه ليس داخلها فى عموم الاثنى الموصوف بما ذكر ، مع أن قوله تعالى بعده : « وسيجنها الاثنى » يقتضى بمفهومه أن غير الاثنى ، أعنى التقي فى الجملة ، وهو المؤمن العاصى لا يحبسها بل يصلها . فهو مخالف لما استفيد من الأول . والجواب : أن معنى لا يصلها إلخ - لا يدخلها دخولا مؤبداً إلا الكافر . أما الفاسق فيما أن لا يدخلها إن عفى عنه ، وإما أن يدخلها دخولا مؤقتاً .

المعنى الإجمالى :

إن بيان طريق الاهتداء من طريق الضلال علينا ، هيداء لكم حيث خوفناكم بالنار التى لا يلازمها على الدوام إلا الكافر الذى كذب محمداً ، وأعرض عن طاعة ربه ، وأمن فى عتوه وبغيه .

ثم قال تعالى : « وسيجنها الاثنى » الذى يؤرق ماله يترك ، وما لأحد عنده من نعمة مجزى ، إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ، ولسوف يرضى .

المعنى :

سيبعد عن النار ويصرف عنها ، المبالغ فى اتقاء الكفر والمعاصى ، الذى يصرف ماله طالباً أن يكون عند الله ذاكياً نامياً ، لا لرباه ولا سمعة ، ولا لمقابلة نعمة وصلت إليه يريد مكافأتها ومحازاتها ، ولكنه أنفق وأعطى ، وتصدق ، وبذل لطلب رضا ربه وقصد غفران ذنبه . والله لسوف يرمى ذلك الاثنى الذى أنفق وبذل ، بما يعطاه من الثواب العميم ، والاجر العظيم . فهو وعد كريم بئيل جميع ما يبتغيه على أكمل الوجوه وأجملها ، إذ به يتحقق الرضا .

والله سبحانه وتعالى أعلم بأسرار كتابه . ولستغفر الله العظيم

الركن الشرعي للجريمة

في الشريعة الإسلامية وفي القوانين الوضعية

سريان القانون على الزمان
لحضرته الأستاذ الدكتور أحمد محمد إبراهيم
قاضي محكمة سمالوط

أوضحنا فيما تقدم أن التشريعات الحديثة تفتى بأنه لا جريمة ولا عقوبة إلا بصح ، ولا يكفي العقاب أن ينص المشرع على الجريمة وعلى عقوبتها ، بل لابد من أن يكون النص ساريا على زمان الجريمة ، أى على الوقت الذى ارتكبت فيه الجريمة ؛ فإذا ارتكب شخص فعلا ما ولم يكن المشرع يعاقب عليه وقت ارتكابه ، فلا يجوز عقاب هذا الشخص إذا صدر بعد ذلك قانون يعاقب على الفعل المذكور ؛ وذلك لأنه لم يكن معاقبا عليه وقت ارتكابه .

ونحن نرى أن الشريعة الغراء تستلزم أن يكون النص ساريا على زمان الجريمة ؛ ولا أدل على ذلك من قوله سبحانه وتعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرّم ، ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة ، أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياما ليدوق وبال أمره ، عفا الله عما سلف ، ومن عاد فينتقم الله منه ، والله عزيز ذو انتقام ، وقوله ، ولا تتكفروا ما نكح آبائكم من النساء إلا ما قد سلف ، وقوله ، وأن تجمعوا بين الاختين إلا ما قد سلف ، فهذه الآيات قاطعة في أنه سبحانه وتعالى لا يؤخذ عباده عما وقع بخلاف الأحكامها قبل نزولها والعمل بها .

وإن الرّاجع الى كتب الفقه الإسلامى يجد أن الفقهاء قد تعرضوا لمبدأ سريان القانون على الزمان ، وحنوا العمل به ؛ فهم يستلزمون لإمكان عقاب

الجاني ، وإقامة الحد عليه ، أن يكون عالماً بالتحريم ، أى عالماً أن الفعل الذى ارتكبه حرم ، وهو لا يكون كذلك إلا إذا وجد نص يعاقب عليه - كما هو تعبير التشريعات الحديثة - أما إذا كان جاهلاً بالتحريم فلا شيء عليه : لأنه سبحانه وتعالى يقول : « لا نذكركم به ومن بلغ » فإن الحجة على من بلغته السذاجة لا من لم تبلغه ، وقد قال تعالى : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » وليس في وسع أحد أن يعلم ما لم يبلغه لأنه علم غيب ، وإذا لم يكن في وسعه فهو غير مكلف به . وقد ذكر الفقهاء أنه يكفي للعقاب علم الجاني بالتحريم ، ولا يشترط أن يكون عالماً بالحد ، لأنه متى علم أن الفعل حرام فقد وجب عليه أن يمتنع عن ارتكابه ، فإذا أقدم عليه رغم علمه بالتحريم فقد حقه عليه العقاب ، علم بالحد أو لم يعلم به . وإذا ادعى الجاني أنه لم يكن يعلم بالتحريم فإن الفقهاء أجازوا قبول دعواه إذا كان قد نشأ بعيداً عن دار الإسلام ، أو كان قريب عهد بالإسلام . وقد اختلف الفقهاء في قبول الادعاء بمجهل تحريم الزنا ، فذهب بعضهم إلى قبول هذا المقرر ، ويستدلون في ذلك إلى ما رواه سعيد بن المسيب قال . ذكر الزنا بالشام ، فقال رجل : زينت البارحة . قالوا ما تقول ؟ قال : ما علمت أن الله حرمه : فكتب بها إلى عمر : فكتب : إن كان يعلم أن الله حرمه فحدوه ، وإن لم يكن يعلم فأعلموه وإن عاد فارجموه . ويستشهدون أيضاً بما روى من أن جارية سوداء رفعت إلى عمر رضي الله عنه وقيل إنها زنت ، تخفقها بالدرة خفقات ، وقال أى لكاع ا زينت ! (الكع اللثم والمرأة لكاع) . فقالت من شواش بدرهمين - تخبر بصاحبها الذى زنى بها ، ومهرها الذى أعطأها - فقال عمر : ما تروين ؟ وعنده على وعثمان وعبد الرحمن بن عوف : فقال على رضي الله عنه . أرى أن ترجها ، وقال عبد الرحمن : أرى مثل ما رأى أخوك . فقال لعثمان : ما تقول ؟ فقال : أراها تستهل بالذى صنعت لا ترى به بأساً ، وإنما حد الله على من علم أمر الله عز وجل ، فقال : صدقت .

وقد رأى بعض آخر من الفقهاء أنه لا يقبل من الجاني قوله إنه كان يجهل حرمة الزنا ، لأن الزنا حرام في كل ملة ودين^(١) .

[١] المحل ج ١١ ص ١٨٨ و المتن ج ١٠ ص ١٥٦ و الشرح الكبير ج ١٠ ص ١٢٠ ،
 ابن عابدين ج ٣ ص ١٥٤ ، الاقناع ج ٢ ص ٢٢٠ ، إمامة الطالبي ج ٤ ص ١٤٢ ، ١٥٠ ، المذهب
 ج ٢ ص ٢٨٥ .

والقاعدة التي نستخلص من أقوال الفقهاء هي أنهم جعلوا إقامة الشخص بين المسلمين قرينة على أنه يعلم الحرام من الحلال في الدين، لأنه وهو بين المسلمين يعلم بالاستفاضة ما حرم وما حل، وقد استعاضت عن ذلك البول الحديثة بجعل نشر القوانين في الجريدة الرسمية قرينة على العلم بها، وليس في هذا ما يخالف أحكام الدين؛ لأن فقهاء الشريعة كثيراً ما يقرنون الحكم بعلامة ظاهرة واضحة تعميماً له ومنعاً من الدخول في تفاصيل كل حالة؛ ومن ذلك أنهم جعلوا البلوغ دليلاً على كمال العقل مع أن أحوال البشر متفاوتة في صفة كمال العقل، فأقام الشرع اعتدال الحال بالبلوغ عن عقل، مقام كمال العقل في بانه لإزام الخطاب عليه، تيسيراً على العباد. ثم صار صفة الكمال الذي يتوهم وجوده مثل هذا الحد ساقط الاعتبار، وتوهم بقاء النفس بعد هذا الحد كذلك، لما عرف أن السبب الظاهر متى قام مقام المعنى الباطن تيسيراً، دار الحكم معه وجوداً وعدماً^(١).

وبما هو جدير بالذكر في هذا الصدد أن أحد علماء الدين في العصر الحاضر رجح أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يتم الحد على أصحاب حديث الإفك، واستند في ذلك إلى أن ما حصل من أهل الإفك سابق على تشريع حد القذف، فلا يصح أن يؤخذوا به؛ لأنه لم يكن قائماً وقت ارتكاب جرمهم، ولعله لو كان قائماً قبل هذه الحادثة لمعهم من ارتكاب ذلك القذف، ولم يحصل منهم ما يوجب إقامته عليهم؛ ولا شك أن الحدود زواج قبل أن تكون جوارب (أي كفارة لمن تقام عليه). فإذا لم يحصل الزجر بها قبل تشريعها لم يكن من العدل أن يؤخذ بها من ارتكب شيئاً قبلها، بل لا بد من الزجر بها أولاً ثم يكون العقاب بها ثانياً^(٢).

ذكرنا أن القانون الجنائي لا يسرى على الماضي، ولكن التشريعات الحديثة تستثنى من ذلك حالة صدور قانون يبيح الفعل الذي ارتكبه الجاني أو يخفف العقاب عليه، وذلك إذا صدر هذا القانون قبل الانتهاء من المحاكمة. والعلة في ذلك هي أن المشرع بإباحته الفعل أو تخفيف عقوبة مرتكبه قد راعى صالح المجتمع، ويجب أن يستفيد من ذلك الجاني الذي لم يصدر عليه حكم نهائي بعد. ونذكر

[١] الأملية وهو أرضها ص ٥٤ وقد ذكر هذا النص نقلاً عن الإمام حاطب الدين التتقي.

[٢] التقاضي الكبير في الإسلام للشيخ عبد المتعال الصبيحي ص ١٧.

على سبيل المثال نص المادة الخامسة من قانون العقوبات المصرى : فهى تقضى بأنه يعاقب على الجرائم بمقتضى القانون المعمول به وقت ارتكابها .

ومع هذا إذا صدر بعد وقوع الفعل وقبل الحكم فيه نهائيا قانون أصحح للنهم ، فهو الذى يتبع دون غيره .

وإذا صدر قانون بعد حكم نهائى يحمل الفعل الذى حكم على المجرم من أجله غير معاقب عليه ، يوقف تنفيذ الحكم وتنتهى آثاره الجنائية .

غير أنه فى حالة قيام إجراءات الدعوى أو صدور حكم بالإدانة فيها ، وكان ذلك عن فعل وقع مخالفا لقانون ينهى عن ارتكابه فى فترة محددة ، فإن انتهاء هذه الفترة لا يحول دون السير فى الدعوى ، أو تنفيذ العقوبات المحكوم بها .

وقد أفاض علماء القانون فى بحث معنى القانون الأصح للنهم ، وفرقوا فى عدم سريان القانون على الماضى بين القوانين التى تقرر فصوصا موضوعية ، والقوانين التى تنظم إجراءات التقاضى ، واعتبروا — بصفة عامة — أن القوانين الموضوعية هى التى لا تسرى على الماضى . أما قوانين الإجراءات فتسرى على الوقائع التى ارتكبت قبل العمل بها ، وذلك على تفصيل ليس هنا مجال ذكره .

وإن الأحكام التى يذكرها علماء القانون فى هذا الخصوص ليس فيها ما يتنافى أحكام الشريعة ، وهى أحكام قائمة على تفسير النصوص مع مراعاة النظام القضائى للدولة ، وجميعها ليس فيها ما يناق الأصول العامة للشريعة ، ويمكن الأخذ بأصلح الآراء وتطبيقها مع النصوص الشرعية بغير تعارض بينها ، خصوصا وأن المبدأ الأصلى — وهو سريان القانون الأصح للنهم على الماضى — هو من أحكام الشريعة . نجد ذلك الحكم واضحاً فى قوله تعالى : « أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم ، هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ، علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم ، فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم ، وكالوا واشربوا حتى يبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، ثم أتموا الصيام الى الليل ، ولا تبأشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد ، تلك حدود الله فلا تقربوها ، كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون » . وسبب نزول هذه الآية كما نقله القرطبى عن الطبرى ، أن عمر رضى الله عنه رجع من عند النبي صلى الله عليه وسلم وقد سمر عنده ليلة ، فوجد

امرأته قد نامت ، فأرادها ، فقالت له : قد عمت ؛ فقال لها : ما نمت ، فوقع بها .
وصنع كعب بن مالك مثله ، فعدا عمر على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أعتذر
إلى الله وإليك ، فإن نفسي زينت لي فواقعت أهلي ، فهل تجحد لي من رخصة ؟
فقال : لم تكن حقيقاً بذلك يا عمر . فلما بلغ بيته أرسل إليه فأنبأه بعذره في آية
من القرآن .

وأوضح من الآية السابقة وسبب زوالها أن عمر بن الخطاب وكعب بن مالك
ارتكبا أمراً محرماً ، وهو مباشرتهما زوجتهما في وقت غير جائز فيه ذلك ، ثم أجاز
الله سبحانه بعد ذلك هذا العمل في مثل ذلك الوقت ، ولم يطلب من أتى هذا الفعل
قضاء أو كفارة ، بل تاب عليهم وعفا عنهم ، لأنه سبحانه لا يؤاخذ عباده على
ما صار مباحاً بعد أن كان حراماً ، وليس العفو في مثل هذه الحالة إلا ما سماه
علماء القانون تطبيق القانون الأصح للثبتم .

البلاغة

كان خالد بن صفوان ، وهو من البلغاء المعدودين ، والخطباء المشهورين ، يروى
عنه أنه قال : لا تكون بليغاً حتى تكلم أمتك السوداء في الليلة الظلماء ، في الحاجة
المهجة ، بما تسكلم به في نادى قومك . وإنما اللسان عضو إذا مرنته مرناً ،
وإذا تركته كان كاليد تحننها بالممارسة ، والبدن الذى تهويه برفع الحجر وما أشبهه ،
والرجل إذا عودت المشى مشى .

وقال محمد كاتب إبراهيم ، وكان شاعراً راوياً وعلامة ، قال : سمعت أبا داود ،
وجرى شيء من ذكر الخطب ، وتمييز الكلام ، فقال : تلخيص المعاني رفيق ،
والاستعانة بالعريب عجز ، والتشادق في غير أهل البادية نقص ، والنظر في عيوب
الناس عى ، ومس اللحية هلك ، والخروج مما بى عليه الكلام إسهاب .

الرياسة الدينية العامة

١ - الشيخ محمد عبد الله الخرشى

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ مصور رجب منصور
مدرس الاخلاق بكلية أصول الدين

تمهـ المادة السادسة من المرسوم بقانون رقم ٢٦ لسنة ١٩٣٦ بإعادة تنظيم الجامع الأزهر بأن ، شيخه هو الإمام الأكبر لجميع رجال الدين ، والمشرف الأعلى على السيرة الشخصية الملائمة لشرف العلم والدين بالنسبة إلى أهل العلم وحلة القرآن الشريف ، سواء أكانوا متمينين إلى الأزهر أم غير متمينين إليه .

ولما لهذه الرياسة من خطر في الشرق والغرب ، وكنا على أبواب الاحتفال بالعيد الألفي للأزهر ، رأيت مساهمة مني في تجلية بعض نواحي هذا المكان المقدس أقدم جامعة موجودة على ظهر الأرض : رأيت مخلصاً ما بجا ليل ووصح نهار وما رساُ حبشي ، أن أكتب في هذه الناحية ، راجياً أن يكون جهدي هذا الصئيل الذي سأقدمه لمكان له الفصل كل الفضل على ، راجياً أن يكون للخير وفي سبيل الخير .

وكنيت قد كتبت في مجلة الأزهر في العام الماضي حينما حظرت لي فكرة أن نستعد لهذا العيد الخالد إن شاء الله ، كتبت في التاريخ العلي للأزهر ، ولكن بدا لي بعد ذلك ما جعلني أحتفظ بهذا الموضوع لمحاضرة أو محاضرتين في أيام العيد ، فهذه ناحية أخرى تستحق العناية والتفكير ، وهي من جملة ما يؤهلنا للبلوغ بالعيد كاله المنشود ، وأحب أن أقدم لبحثي بقول الشاعر الحكيم . لا ينبغي أن ينجعل المرء حين يقول كنت على خطأ ، فليس قوله هذا إلا كقوله بعبارة أخرى إنني اليوم أعقل عما كنت قبل اليوم . هذه كلمة أو من بها أو على الأقل أسوس نفسي على الإيمان بها : فنعاون على الحق في ذلك كنت له شاكرًا . لذلك سيتسع صدري لكل نقد ، شاكرًا لصاحبه أنعمه : غير أنني مع ذلك أشعر أو يجب أن أشعر أني حر الفكر ، لي أن أجاري ، ولي أن أخالف .

فبعض الأزاهر لا عطر فيه وبعض الأراهر زاه وعاطر

وإذا تتبعنا تاريخ هذه الرياضة على هذا النحو تقريبا ، نراها تتبدى من العصر التركي .

فأول شيخ تولى مشيخة الأزهر هو الشيخ محمد عبد الله على الخرشى المالكي المتوفى سنة ١١٠١ هـ . نسب إلى قرية من قرى مديرية البحيرة اسمها ، أبو خراش . وهذه القرية يقول عنها المرحوم على مبارك باشا في خطبته (١) : إنها بقسم شبراخيت واقعة في بحرى الكوكبة بنحو ستائة متر ، وفي قبلى ، محلة نابت ، بنحو ثمانمائة متر ، وأبنيتها باللبن ، وبها جامع ضريح ولى عليه قبة ، وفي مشرقها ضريح سيدى عطية ، وبها أبعادية لمصور باشا بن أحمد باشا يكن ، وفيها لعمدتها محمد عمر دوار ومضيغة وزراعة مقسمة نحو ألف فدان ، وبها بستان نصر ، وأكثر أهلها مسلمون .

والشيخ الخرشى هذا ترجمه الشيخ على الصعيدى العدوى في حاشيته على شرحه الصغير لمن خليل ، فقال : هو العلامة الإمام ، والقُدوة الهام ، شيخ المالكية شرقا وغربا ، قدوة السالكين عجميا وعربيا ، مربى المريدين ، كهف السالكين ، سيدى أبو هدا الله محمد بن عبد الله بن على الخرشى ، ونسب عصبته بأولاد صباح الخير ، انتهت إليه الرئاسة في مصر حتى لم يبق بها في آخر عمره إلا طلبته وطلبة طلبته ، وكان متواضعا غفيا ، واسع الخلق ، كثير الأدب والحياء ، كريم النفس ، جميل المعاشرة ، حلو الكلام ، كثير الشفاعات عند الأمراء وغيرهم ، مهيب المنظر ، دائم الطهارة ، كثير الصمت ، كثير الصيام والقيام ، زاهدا ورعا ، متقشفا في مأكله وملسه ومفرشه ، ولا يصلى الصبح صيفا ولا شتاء إلا بالجامع الأزهر ، ويقضى بعض مصالحه من السوق بيده ومصالح بيته في منزله . يقول من عاشره : ما ضبطنا عليه ساعة هو فيها غافل عن مصالح دينه أو دنياه ، وكان إذا دخل منزله يتسم بشملة صوف يضاء ، وكانت ثيابه قصيرة على السنة المحمدية ، واشتهر في أقطار الأرض ، كبلاد الغرب والشام والحجاز والروم واليمن ، وكان يغير من كتبه من خزانة الوقف بيده لكل طالب ، مع السهولة إثارة

لوجه الله تعالى ، ولا يمل في درسه من سؤال سائل ، لازم القراءة سيما بعد شيخه
البرهان اللقاني وأبي الضياء على الأجهوري . وكان أكثر قراءته بمدرسة الإقباوية .
وكان يقسم متن خليل نصفين : نصف يقرؤه بعد الظهر عند المنبر كتلاوة القرآن ،
ويقرأ النصف الثاني في اليوم الثاني ؛ وكان له في منزله خلوة يتعبد فيها ، وكانت
الهدايا والنذور تأتيه من أقصى الغرب وغيرها فلا يمسك منها شيئاً بل أقاربه
ومعارفه يتصرفون فيها .

أخذ العلوم عن عدة من العلماء الأعلام كالعلامة الشيخ على الأجهوري ،
وخاتمة المحدثين الشيخ إبراهيم اللقاني ، والشيخ يوسف الفيثي والشيخ
عبد المصطفى البصير ، والشيخ إسحاق الشافعي ، والده الشيخ عبد الله الحرشي . وتخرج
عليه جماعة حتى وصل ملازموه نحو مائة ، منهم العارف بالله الشيخ أحمد
اللقاني ، والشيخ محمد الزرقاني ، والشيخ علي اللقاني ، والشيخ شمس الدين اللقاني ،
والشيخ داود اللقاني ، والشيخ محمد النفراوي ، وأخوه الشيخ أحمد ، والشيخ
الشبراخيتي ، والشيخ أحمد الفيوي ، والشيخ إبراهيم الفيوي ، والشيخ أحمد
الشرقي ، والشيخ عبد الباقي القليبي ، والشيخ علي المجدولي . ولما توفي في صبيحة
يوم الأحد السابع والعشرين من شهر ذي الحجة سنة ١١٥١ دفن مع والده بقرب
مدفن الشيخ العارف بالله سيدي محمد البوقري بوسط تربة المجاورين .

يقول : وقبره مشهور ، وما رأيت في عمري أكثر خلفاً من جازته إلا جنازة
الشيخ سلطان المراحى ، والشيخ محمد البابلي .

وله مؤلفات ، منها شرحه الكبير على متن خليل ثمانية أجزاء ، وشرحه
الصغير على تحليل أيضاً أربعة أجزاء ، وله جزء في الكلام على البسملة نحو أربعين
كراسة ، وغير ذلك .

هذا هو الشيخ محمد الحرشي أول شيخ من أئمة الأزهر تولى هذه الرياسة
الدينية العامة . وبهذه المناسبة أقول : إن مصر أول ما عرفت من مذاهب العقاب
عرفت مذهب مالك ؛ فلقد دخلها به عبد الرحيم بن خالد بن يزيد بن يحيى مولى حـجـ .
توفي بالاسكندرية سنة ١٦٣ ، في أيام اليث بن سعد ، واشتهر بمصر هذا المذهب ،

ولم يزل مشتهراً حتى قدم محمد بن إدريس الشافعي في سنة ١٩٨ . أما مذهب أبي حنيفة فلم يكن أهل مصر يعرفونه كما يعرفون مذهب مالك والشافعي . والحنابلة لم يسمع عنهم بمصر إلا في القرن السابع .

وكان الثغاف الناس في ذلك العصر حول مذهب مالك والشافعي أكثر من الثغافهم حول مذهب أبي حنيفة ، حتى إن مدرسة محمد بك أبي الذهب قبيل عصر الشيخ الحرشي بقليل لما وظف بها المدرسون وكانوا ستة عشر مدرسا ، كان منهم سبعة من شيوخ الشافعية ، وستة من شيوخ المالكية ، وثلاثة من شيوخ الحنفية .

وكان الإفناء في ذلك الوقت لا يقتصر على مذهب بعينه ، بل كان لكل مذهب مفتى . وكان المفتون يجلسون بعد دروسهم لإفادة الناس ، فكان بجامع محمد بك ثلاثة أماكن يرسم جلوس ثلاثة من المشايخ المفتين ، فقرر الشيخ أحمد الدردير مفتى المالكية ، والشيخ عبد الرحمن العريشي مفتى الحنفية ، والشيخ الكفراوي مفتى الشافعية .

وكان الأزهر يتولى شئونه أول عهده رجل يسمى مشرف . وفي عهد المماليك كان يتولى أمره رجل من كبار الموظفين يسمى ناظراً . منهم الأمير الطواقي يهادر المقدم على المماليك السلطانية ، ولي نظره في سنة ٧٨٤ هـ وهو الذي أجبر مرسوم السلطان الملك الظاهر برقوق الخصاص بحمل أبناء الأزهر أسرة واحدة يرث بعضهم بعضا إذا مات أحدهم ولم يكن له وارث شرعي . ومنهم الأمير سوروب القاضي حاجب الحجاب ، ولي نظره سنة ٨٩٨ . أما تلك الرياسة الدينية العلمية فعرفها الأزهر في العهد التركي بلقب « شيخ الأزهر » . ولقد توالى على هذه الرياسة منذ إنشائها حتى الآن ثلاثون شيخا ، أولهم الشيخ الحرشي هذا .

ويشغل الرياسة الآن حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشناوي مد الله في عمره ، وجعله للأزهر سنداً

من طرائف القرآن الكريم

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الغنى عوض الراجحي
مبعوث الأزهر لتدريس علوم الدين بكلية المقاصد الإسلامية في لبنان

الكتب التي توافها الناس تكون عادة مقسمة الى أبواب ، كل باب يتناول طائفة من المسائل لا يتناولها الباب الآخر ، فإلى طالب الحقيقة في كتاب من هذه الكتب إلا أن يظن أين ذكرت هذه الحقيقة ، وفي أى الأبواب ، فيعمد إليها حيث هي فيدرسها دون حاجة تحدوه نحو الأبواب الأخرى .
لكن كتاب الله المنزل وإن كان مقسما الى سور فإن السورة الواحدة غالباً لم تكن مخصصة لحقيقة واحدة ، والحقيقة الواحدة قد لا تذكر في سورة واحدة وإنما تذكر في عدة سور ، فعلى طالب حقيقة في كتاب الله أن يجرب أن لا يقتصر على طلبها في موضع واحد ، فإنها قد تكون في هذا الموضع متحجبة بحجاب من الإجمال واحتمال التأويل ، بينما هي في موضع آخر تفر فتبدو واضحة لا تحتمل التأويل . وقد تتكشف في موضع عن إحدى جهاتها ، بينما هي في المواضع الأخرى تتكشف عن جميع جهاتها . وذلك مظهر من مظاهر تكرار المعنى الواحد في أكثر من سورة بعبارات تختلف لاختلاف المقام إيجازاً وإطاباً وتقديماً وتأخيراً وذكرًا وحذفًا ونحو ذلك ، وهو بالتالي عامل من العوامل التي تحفز الهمم إلى حفظ كتاب الله على وجه الإحاطة به ، بحيث لا يذكر بعضه وينسى بعضه :
فيؤمن ببعضه ويكفر ببعضه .

لنأخذ مثلاً : مسألة كسالة استراق الشياطين السمع ورجيمهم بالشهب ؛ فإنها ذكرت في أربع سور قد تكون في سورة منها محتملة للتأويل الذي ينفي هذه الحقيقة ويستبعداها على حكمة الله ودقة نظامه في ملكه ، بينما هي في سورة أخرى لا ينطرق إليها شيء من الشك وقبول التأويل . فقد جاءت في سورة الملك على هذه الصورة : ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين . .
وجاءت في سورة الصافات على هذه الصورة : إنا زينا السماء الدنيا برينة

الكواكب وحفظا من كل شيطان مارد، لا يسمعون الى الملا الأعلى ويُذَفون من كل جانب دحورا ولم عذاب واصب، إلا من خطف الخطفة فأتيمه شهاب ثاقب، . وجاءت في سورة الشعراء على هذه الصورة . وما نزلت به الشياطين وما ينبغي لم وما يستطيعون إنهم عن السمع لمعزولون . ثم جاءت في السورة نفسها على هذه الصورة . هل أنبئكم على من نزل الشياطين ؟ نزل على كل أفك أثيم . يُلقون السمع وأكثرهم كاذبون ، وجاءت في سورة الجن على هذه الصورة . وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا . وأما كنا نقعد منها مقاعد للسمع ، فمن يسمع الآن يحد له شهبا رَصدا .

لست الآن بصدد شرح هذه الآيات التي تجلو هذه الحقيقة ، فكتب التفسير والحديث فيها ما يشق ويكفى ؛ لكنني الآن بصدد أن أقول . إن هذه الحقيقة قد توجه إليها استعارات^(١) مجردة عن دليل مقنع ، وتشكيكات معزرة بأقيسة غير تامة ، وقد يقوم في طريق تصديق العقل بها بعض الصعوبات والاعتراضات ؛ لكننا يعد هذا كله ، وقبل هذا كله ، ومع هذا كله ، لا نستطيع أن نتق حقيقة جاءت في كتاب الله بمثل هذا الوضوح ، وما هانت حقائق كتاب الله العزيز حتى يعمد الى إنكارها بمثل هذه السهولة ، وليس يصح في كتاب الله شيء إذا لم تصح فيه هذه الحقيقة . وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار الى دليل

ثم لنأخذ مثلا آخر ، ولتكن مسألة استغفار إبراهيم لآبيه : هذه المسألة التي وردت في عدة سور على أساط مختلفة ، فقد حكيت المدة بها من إبراهيم لآبيه في سورة مريم حيث يقول : سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان من حفياء ، وورد تنفيذ هذا الوعد وتحقيقه في سورة الشعراء حيث يقول : رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين ، واجعلنى من ورثة جنة النعيم ، واعفر لى إنه كان من الضالين ، وورد بيان الحامل لإبراهيم على هذا الاستغفار في سورة التوبة حيث يقول الله : وما كان استغفار إبراهيم لآبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه صدوقه تبرأ منه ، إن إبراهيم لأواه حليم . وورد استنأؤه من التأمى بإبراهيم في سورة الممتعة حيث يقول تعالى : قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم

(١) راجع مجلة الأزهر عدد ربيع الثانى ١٣٦٨ مقال الجواز والكنية في القرآن لفقيه الشيخ

والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم وما تعبدون من دون الله كعبوا بهم
وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا باقه وحده إلا قول إبراهيم
لأبيه لا استغفر لك وما أملك لك من الله من شيء .

لست الآن بصدد شرح هذه الآيات وتفسيرها ، فذلك شيء يجب الفراغ
منه قبل التصدي لمثل هذه الدراسة المقارنة التي تنجم عنها إشكالات لا يكاد
يتعرض لها المفسرون ، وذلك كمثل ما عسى أن يقال في هذه المسألة بالذات :
كيف حكيت العدة من إبراهيم لأبيه مؤكدة نارة في قوله في سورة الممتحنة
لاستغفرن لك ، غير مؤكدة نارة أخرى في قوله في سورة مريم : سأستغفر
لك ربى . مع أن الحكاية المحكى واحد ٢ . وجواب ذلك بتجوز التعدد في المحكى
وعدة إبراهيم لأبيه مرتين ، إحداهما مؤكدة والأخرى غير مؤكدة ، فجاءت الحكاية
على نمط المحكى حذوك الشيء بالشيء ؛ وتجزى أن يكون المحكى لا تعدد فيه
بل هو شيء واحد تعنت الحكاية في إبرازه على طريقتين لاسباب أن الحكاية للمعنى
للاختصاص اللفاظ ، وحكاية المعنى يعترف فيه من التصرف مالا ينفرد
في حكاية اللفظ ، والعبارتان على درجة كبيرة من القرب في معنى التوكيد ، فلأن
كان الوارد في سورة الممتحنة مؤكدا باللام ونون التوكيد ، فإن الواقع في مريم
فيه التأكيد بحرف السين التي إن دخلت على وعد أو وعيد أفادت التوكيد (١)
وقوله في سورة الممتحنة : وما أملك لك من الله من شيء . في نوع تضيف
لهذه العدة مجبور بقوة التوكيد في قوله : لا استغفرن لك . وقوله في سورة مريم
: سأستغفرن لك ربى . فيه نوع ضعف في توكيد هذه العدة مجبور بقوة الرجاء
في قوله : إنه كان في حفياء .

وقد يقال أيضا : ما مال قوله تعالى في سورة التوبة : إن إبراهيم لأواه حلیم ،
مع قوله تعالى في سورة هود : إن إبراهيم لأواه حلیم ، فقد جاء لفظ
حلیم في سورة هود مقدما على لفظ أواه ، وعكس الأمر في سورة التوبة مع
زيادة لفظ منيب . والجواب عن ذلك أن الكلام في سورة هود في شأن جدال
لإبراهيم مع الملائكة الداهيين لهلاك قوم لوط ، فكان يجادلهم رجاء لمهالهم

(١) مثل ذلك ابن هشام في كتابه معنى اليبس عن قلامة الخنثى وأ كثره من الشرح
والاستفهام . واجمع إن شقته .

لإيمانهم وبجنانهم من الهلاك ، ولم يثنه عن هذه المجادلة إلا بعد أن قالت له الملائكة : يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإسهم آتيتهم عذاب غير مردود ، فكان ذلك منه حلياً وسعة صدر وكظم غيظ ، فوقع لفظ حلیم مقدماً وتأخر لفظ أواه . أما في سورة التوبة فكان الكلام في بيان الحامل لإبراهيم على الاستغفار لآليه ، فقيل له : لموعدة وعدها إياه ، وعزز ذلك بوصف إبراهيم بأنه أواه رقيق القلب كثير التضرع إلى الله ، فتقدم لفظ أواه وتأخر لفظ حلیم . أما اختصاص سورة هود بلفظ ميب ، فالإجابة معناها الرجوع ، وكأن إبراهيم حيث كان ميباً إلى الله راجعاً إليه بالطاعة ظن أن قوم لوط يفعلون مثله فيرجعون عن كفرهم وينجون من العذاب ، فكان اختصاص هذا المقام بهذا اللفظ من إصابة المخر بمكان .

وبعد ، فهذان مثالان في كل منهما نط لعديد الفوائد التي تحققها من وراء هذه الدراسة المقارنة لآي الكتاب الإسطاة التامة بأطراف المسألة بعد جمع آياتها ، ثم التقصى عن أسرار الإعجاز باقتراق النظم فيما يتفق في جوهر المعنى ، مراعاة للسياق في كل موضع .

لقد درج المفسرون الأقدمون على تفسير القرآن ملتزمين ترتيب السور والآيات ، وهذه طريقة إن كان لها بعض المزايا ، فإنها كثيراً ما أوقعت المفسرين في آفة التكرار من غير فائدة ، وإحالة بعض المواضع إلى بعض ، والتأخر أحياناً بين ما قالوه في موضع وما قالوه في آخر ، ثم السكوت عن إشكالات ما كان ينبغي السكوت عليها . وإذا كان ذلك كذلك فإدنا علينا - نحن المتأخرين - لو جربنا ذاك النوع من الدراسة ذات الموضوع التي يعتمد فيها إلى المقارنة والتحليل ؟ .

لقد قدر لي أن أطلع في مكتبة كلية أصول الدين على رسالة تقدم بها صاحبها ليل شهادة العالمية من درجة أستاذ ، فإذا هي في موضوع ، تشابه النظم في قصص القرآن الكريم ، وإذا هي تفضطلع بما يقرب من ربع القرآن تدرسه على هذا النحو من الدراسة المقارنة التحليلية ، كل قصة على حدة ، بل كل مرحلة في قصة ، بل كل مفارقة في مرحلة . حبذا لو أتم صاحبها دراسة القرآن كله على هذا النمط ، فكان منه تفسير جديد في باب ، طريف في موضوعه ، جدير بالشر والافتاء .

سلطان القرآن

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ إبراهيم على أبو الحشب
المدرس بكلية الشريعة

إن الأمور حينما تلتفها النفوس بالدهش والغرابة ، والطرافة والجدة ، يدعوها ذلك - في كثير من الاحايين - إلى لخصها ، وإدانة النظر فيها ، والتأمل بها ، والربط بينها وبين ما تعودته ، وألفت أن تراه ، سواء في عالم الحس أو عالم الفعل . فإذا كانت من تلك الأشياء التي تتجاوز طوق قدرتها المعتادة ، وجهدها المألوف ، لم تلبث أن يجعلها منها في ساطع التقدير والإعجاب ، والقداسة والاحترام .

والعرب لم يكن لها من تراث تباهى به ، ولا غر يقنافس عليه الأفراد ، وتعتز بنيله الجماعات سوى الكلام المصقول ، والمنطق الرائع ، والتفكير السديد ، في حكمة شاردة ، أو مثل منقأ ، أو بيت نادر ، أو خطبة يفصل بها الخطيب حصوة محترمة ، أو نزاعاً قائماً . وربما بلغ اعتزازهم بالقول ، ومكاثرتهم باللسن ، أن يقيموا الأسواق يشهد بها المحكمون ، ويؤوه بخبرها المفضلون . ولم يكن لهم من هم - في أول عهدهم بالقرآن - إلا أن يتأملوا الآيات ، ويفتقروا بالحجج البينات .

ولقد بلغ من أمرهم في ذلك أن ترك الشعراء القريض على الرغم من أنه كان ألزم ما يكون إليهم ، يستنزلون به القليم ، ويهزؤون الكريم ، ويدفعون عن الحسب ، وينفودون عن المرض ، ويحمون الذمار ؛ واشتغل خاضعتهم وعانتهم بهذا الحدث الجديد ، لآلانه سفه أحلامهم ، وحضر آلهتهم ، ونمى عليهم ذلك السلوك المرذول ، والعيش المزدرى . ولكن لأنه نمط من اللغة ، ومعيار من معايير النطق ، حاروا في تكيفه ، واضطربوا في الحكم عليه ؛

فهو من ناحية يتمتع من قلوبهم ، ويستق بدلائهم ، ويجرى في مضارهم ، ويمشي على ستمهم ، وينهج نهجهم ، لأنه يلسان عربي مبين ؛ ومن ناحية أخرى بديع اللفظ ، يحكم النج ، حصيف المعنى ، ظاهر الروعة ، تتشابه أعجازه جهادية ، وتتماثل كلماته بمعانيه ؛ ومع ذلك فهو على خلاف السجع الذي يحكوونه ، والمرسل الذي يلوكونه ، والحر كله يفوح من أردابه ، ويشع من بنيانه ، ويلاحق حروفه ، ويداخل صفوفه ؛ فلا تقرأ منه آية إلا لمست أنه مثنى تقشعر منه الجلود . وأحسست أنه معاني تدوب من جلالها الكبود .

وما أما في هذه الكلمة بصدد أن أتحدث عن بلاغة القرآن ، ومزلتها في عالم اليان ؛ فإن هذا من الحديث المعاد ، واللفظ المجوج . . . إنما أحب أن يقارن الناس - بذلك - بين رسالة محمد صلى الله عليه وسلم والرسالات السابقة ، إذ كانت تموت بموت أصحابها ، أو تقف عند الحد الذي تركوها واقفة إليه . أما الدعوة الإسلامية فإنها شرفت وغربت ، وأنجدت وأتهمت ، وعلا صوتها فوق المنارات والصوى ، والأعلام والرب ، إلى جانب أن الإيمان بها ، والتعصب لها ، جرى في القلوب مجرى الدم ، وسرى منها في مسرى الروح . فهل هنالك سبب يصح أن يرجع إليه لتليل الفارق أو الفوارق ، والدعوة تتشابه لأنها لا تخرج عن توجهه النظر إلى الخالق المدبر ، وإفراده بالعبادة ، دون مشاركة أحد معه ؟ . وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله . .

والمدعوون - كذلك - في كل جيل وقيل لا يتنازون عن كونهم أبناء آدم وبنات حواء ، يؤمنون ويكفرون ، ويذعنون ويجهلون ، ويشرح الله صدورهم ، أو يضلهم ويعمي أبصارهم .

والداعي نشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق . وكل ما هالك أنه سبحانه يختاره اختياراً يجعله موضع الثقة ، وموطن الاطمئنان ، ثم يؤيده بالمعجزة تجري على يديه لتكون بمثابة قوله : صدق عبيدي في كل ما يبلغه عني ولم يحفل واحد من هؤلاء من محيفة توازره ، وكتاب يتضمن تعاليمه ، إلا أنها لم يكن في قراءتها ، والتعبد بتلاوتها ، ما يصل بها إلى سلطان القرآن ، إلى أئمة العرب ؛ ذلك الذي حول قساوتهم إلى رحمة ، وغلظتهم إلى لين ، وطيشهم إلى حلم ،

وفرقتهم إلى جماعة ، وضلّاهم إلى هدى ، وحربهم إلى سلم ، وعدوانهم إلى محبة ، ووثيقهم إلى توحيد ، وفرديتهم المستبدة ، إلى ديمقراطية عادلة ، تحارب الظلم وتضرب على أيدي الظالمين . والذي يقول : إن له الخلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، لم يقلها إلا وقد استولى على مشاهره ، واستفاد أحاسيسه ، ووصل من إعجابه إلى قرار مكين .

وأبو بكر رضى الله تعالى عنه يوم كان يقرأ منه ما يقرأ ، فتبجح الحفاظ في نفوس قريش ، لأنها تحشى الفتنة على صيانتها ونسائها ، كانت أدرى الناس بمبلغ ما يكيد لهم به ، جزاء ما حاولوا إخراجه من مكة ، وأرادوا إيلامه بمطاردته من بلد أقله أرضها ، وأظلمه سماءها ...

وعمر حين ساوره الكفر الأعمى ، والعناد الظالم ، فأخذه جهله ، وقاده ضلاله ، ليؤذى أخته وزوجها كفاء ما اقترفا من صبوة عن دين الأشياخ ، وشرعة الطواغيت ، لولا تلك الرقى التي مسته من سورة طه ، فادى : أن محمد لأعلن على يديه الإسلام ، إنما كان يقوده من القرآن سلطان لا يدفعه عنه الدافعون ، أو يحمله عن نفسه المحولون ... وكذلك كل قارئ لا يحجب عن القرآن حجاب ...

ولعل في الآية : ومن الليل فتعبد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا ، ما يؤيد هذه الدعوى ، فإن التدبر الذى يكون عن استجمام ذهن ، وفراغ بال ، وهندوه خاطر ، واتجاه قلب ، لا بد أن يعود الإنسان منه العزم المنشود ، والظفر المطلوب .

ولذلك رأينا جبريل يتعبد صلى الله عليه وسلم بقراءته في رمضان حيث يكون سمو النص ، وصفاء الروح ، والفرغ لعالم المكوث .. وربما كان الحديث : اقرءوا القرآن ما تلتفت عليه قلوبكم ، ينحو إلى هذا القصد ، ويعلن للقارئ هذه الهداية المستقيمة ، والقول الفصل ٤

بلاغة الرسول صلى الله عليه وسلم وأثرها في لغة العرب

أفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الحميد محمود المسلوت
المدرس في كلية اللغة العربية

انتقلت لغة العرب بعد الإسلام من حياة إلى حياة، وتبدلت أوضاع الكلام وسمات القول من مظهر إلى مظهر ومن حال إلى حال، وأخذت ثوبا قشيبا نفذت به من الاسماع إلى القلوب، واستطاعت أن تميز الأثمة فتؤثر فيها تأثيرا عجيبا. ذلك بما أفاضه عليها القرآن من طرائق التعبير وحسن صوغ الكلام، وبراعة القصد إلى الهدف، والاحتيايل إلى الغرض حتى تدخل على القلوب والعقول والاحاسيس دخول المأنوس به المرغوب فيه. ثم بما كسبته من أسلوب الرسول صلوات الله عليه، وبيانه الساحر، وحكمه البالغة، وبلاغته النيرة، وقدرته العاققة على الاحتراع والتشويق من الالفاظ، وتصور المعاني بأروع الصور، وابتداع الاخيلة التي لم تعرف في كلام العرب، وظلت بعده من الحسات التي ينسج الناس على منوالها، ويدبجون كلامهم على مثالها، دون أن يقتربوا من حدها، أو يسابقوها في طلق.

أجل: كانت بلاغة الرسول الأكرم مضرب المثل وحديث الناس وموضع الدهش، ومحل الإعجاب من كل من سمعه، وأنصت إلى ألفاظه تفيض عذوبة وتقطر رقة، وأصغى إلى معانيه تطل منها أروع الحكم وتنبعس من خلالها أجمع الأمثال، حتى لقد عجب من ذلك البليغ المنطيق الساحر البيان العذب اللسان على ابن أبي طالب، فقال: يا رسول الله نحن بنو أب واحد ونراك تكلم وفود العرب بما لا نعرفه، فن عليك؟ فقال صلوات الله عليه. أدبني ربي فأحسن تأديبي. وقال له صفيه وصديقه أبو بكر. لقد طعت في العرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت الذي هو أفصح منك، فن أدبك؟

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعتر بما متعاهقه من صفاء الفريضة ، ونقاء الفطرة ، وخلابة المطلق ، ورجاحة الفسك ، وبجاجة الأسلوب ، فيقول :
 « أما أفصح العرب يد أرى من قریش ونشأت في سعد بن بكر » .

والحكمة البالغة ، والمعبرة الكريمة في ذلك ، أن الله تعالى قد اختاره لرسالته ، واصطفاه لدعوته ، وأرسله إلى الناس كافة مبشرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله يأذنه وسراجا منيرا : يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعززوه ونصروه ، واتبعوا النور الذي أنزل معه ، أولئك هم المفلحون .

وسفارة بين الخالق والمخلوق لا جرم تعتمد على البيان الخلاب والمطلق الجذاب ، والقول المختير الفائق ، والكلام المذهب الذي تملك به النفوس ، وتؤسر الآلباب .

وهذا هو موسى : أرسله ربه إلى بني إسرائيل فطلب منه أن يشد أزره ويقوى ظهره ويفلج حجته ويسدد دعوته بأخيه هرون ، وأخى هرون هو أنصح مني لسانا : أرسله معي رددا يصدقني إن أخاف أن يكذبون ، وتمنى على ربه وهو صفيه وكليمه أن يطلق لسانه ويفتح بيانه ويحل عقده ويفك حبسه ، فقال : « واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي » .

وهذا نبي الله داود : أقاض الله عليه الحكمة ومجده فصل الخطاب ، وأمن عليه بذلك فقال : « وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب » .

وإذا كان العرب أمة البلاغة وأئمة الفصاحة ، فعنو لهم أزمة القول ونصاع أئمة الكلام ، ويهتفون برائع الخيال فينقاد لهم عصيه ، ويروض شامسه ، ويستذل أيثه ؛ وإذا كان الكلام صاعته التي بها يفاخرون ويقباهون ، فلا بد أن يكون الرسول الذي يرسل إليهم يلبسهم عن ربهم ، ويهدم عقائدهم الباطلة ومذاهبهم الزائفة ، ويغير ما ألفوا من عادات وما ورثوا من تبايد ، لا بد أن يكون بيانه أسمى من بيانهم ، ومعطفه أروع من منطقهم ، وخطابه أجل أثرا وأعظم قدرا وأعلى شأنًا من خطابه .

ومن هنا كان تأييد الله لنبيه ومصطفاه محمد صلى الله عليه وسلم بمعجزة القرآن ، ومعجزة البيان : فلندع الآن الكلام عن الأولى حتى يهيم أوانها ، إن شاء الله .

أما بيانه صلوات الله عليه فكان السحر الخلال والضياء اللامع ، يشرق من طبع مذهب مصقول ، وخلق في البلاغة عريق أصيل ، وفطرة قوية موهوبة ، تساندت في بنائها أقوى العوامل ، وتعاونت على إذكائها أبهى المؤثرات : إذ نشأ وتقلب في أمصح القبائل ، وأصحها لهجة ، وأخلصها منطقاً ، وأعذبها بياناً ، وأرفعها جناحاً ، وأقومها سليقة .

كان ، ولده في بني هاشم ، وهم ذروة قريش سلاسة لسان وسحاحة بيان . وأخواله من بني زهرة ، ورضاعه في سعد بن بكر ، ونشأته في قريش ، وتزوج خديجة وهي من بني أسد : وكل هذه قبائل خصها الله بمرق في فصاحة الكلام عريق ، وسبب من أسباب البلاغة وثيق . وكان هذا التوافق المعجيب الغريب ، وهذا التماسك في الميلاد والاسترخاع والمنشأ والمزوج ، إهداء من الله لنبيه ، وتقويماً من ملكته ، وتهذيباً لسليقته ، وتدعياً لفطرتة ، حتى يفقهوا قوله ، ويعقلوا دعوته .

كان صلى الله عليه وسلم ، فصيح المنطق ، سمح البيان ، سلس الأسلوب ، قوى العبارة لامع الروق ، رائع الحكمة ، موفق المثل ، موفق اللفظ ، مشرق المعنى ، يحس المرء لكلامه حلاوة العسل ، ويحمد فيه لذة لاتعد لها لذة ، إذا تكلم خفت الأصوات وأنصت الآذان وخشعت الجوارح ، وامتلأت القلوب بجلال العبارة وسمو الموعظة .

وهذه أول حطبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين وقف بمكة يدعو قومه إلى الله ، يعدم ويبشرهم ، ويحذرهم وينذرهم ، ويدعوهم إلى نبذ الفواحش ما ظهر منها وما بطن : قال : « إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس ما كذبتكم ؛ ولو غررت الناس ما غررتكم ؛ والله الذي لا إله إلا هو إني لرسول الله إليكم حقا وإلى الناس كافة ؛ والله لقوم كما تاملون ، ولتمش كما تستيقظون ، ولتحاسن بما تعملون ، ولتعجزون بالإحسان إحساناً ، وبالسوء سوءاً ؛ وإنها الجنة أبداً أو النار أبداً ، وإنكم لأول من أُنذرين يحيى عذاب شديد . »

فهذه كلة الخير بأمرار العوس الذى يعرف كيف يمتلكها بحكته، ويسنولى عليها بموعظته، وبوجهها إلى الخير الذى يريده، والسعادة الأبدية التى يدعو إليها. واستمع أيها القارئ الكريم إلى هذا الحديث الشريف، فإنك ستحس من حلاوة وقمة وجمال لفظه ودقة مبناء وروعة معناه، وصدق تصويره وحسن تحديده للمعنى، ما يملأ نفسك طرباً، ويفعم قلبك نشوة.

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من تديهما إلى تراقيهما. فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت أو وفرت على جلده حتى تخفى بنائه، وتنفو أثره؛ وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزقت كل حلقة مكانها، فهو يوسمها فلا تنسع.»

فهذا تصوير محكم رائع لحال المنفق وحال البخيل لا تكاد النفس تفتش معه عجباً. تصوير لقوة الطبيعة لدى السخى التى تستبين بكل عقبة، وتعلب على كل صعوبة، وتثور ثورتها الماتية على القيود والحدود والحواجر حتى تحطمها أعف وتحطم، ثم لا يزال صاحبها يسحو ويذل ويفرق ويتصدق حتى تلسل الطبيعة ونفاد وتمتاد البذل والعطاء، وتللس صاحبها فتحنى كل ما فيه من عيب وتمحوكل ما يد عنه من سيئة، إن الحسرات بذهبن السيئات، ذلك ذكرى للداكرين.

أما البخيل فكلما أراد أن يخرج من طبيعته كرت وضائقته، وأحضرتة كل أسباب الشح والكود، فلا يستطيع أن يقدم خيراً، أو يطالع المجتمع الذى يعيش فيه بحسنة.

فهل هناك تصوير أروع وأمتع وأبدع من هذا التصوير؟

والرسول صلى الله عليه وسلم يصف حالة من حالات الناس تفشو في مجتمعاتهم، وتشيع بينهم في بعض الأحياء كما يشيع الوباء الفاتك والمرض القاتل: حالة الاستهتار بحدود الله، والاستهانة بأداب الدين، والخروج على الأوضاع الصحيحة، والتبجح بما يسمونه حرية، فيقول:

«مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الدين في أسفلها إذا استسقوا من الماء

مروا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا . فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً . .

فهل هناك أبلغ من هذا في الدعوة إلى الصرب على أبدي العائنين بالحدود المنهكين للحرقات الناعشين أعراض الحصنات العافلات ؟ .

ولو أردنا أن نستعرض ألواناً أخرى من كلامه صلى الله عليه وسلم لما اتسمت لها هذه الصفحات ، ولكننا نكتفي بما قدما من أمثلة حية رائعة على بلاغته وإحاطته ورقته .

يقول المرحوم الأستاذ الراجسي : لقد رأينا هذه البلاغة النبوية قائمة على أن كل لفظ هو لفظ الحقيقة لا لفظ اللغة : فالناية فيها بالحقائق . ثم الحقائق هي تختار ألقاظها اللغوية على مازلها ، وبذلك يأتي الكلام كأنه نطق للحقيقة المعبر عنها ، ومعلوم أنه صلى الله عليه وسلم لا يتكلف ولا يتعمل ، ولم يكتب ولم يؤلف ، ومع هذا لا تجد في بلاغته موضعاً يقبل التقيح ، أو تعرف له رقة من الشأن كأنما بين الألفاظ ومعانيها في كل بلاغته مقياس وميزان . .

ومن هنا ترى أن بلاغة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأسلوبه وقوة بيانه وشدة إقناعه وعلو شأنه في اللغة - هي المبح التي يهبها خالق الإنسانية لمن يختاره ويؤثره في سفارة إلى الإنسانية ، وكما عصمه الله من لدن طفوك من الرجس والدنس ، وحفظه من شرور الجاهلية و- وآنها ، كذلك عدل لسانه وقوم بيانه وأردف مطلقه ، وأفاض عليه من لده قوة بيانية يستطيع بها أن يناضل عن دعوته وينافح دون رسالته . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، وكان فضل الله عليك عظيماً .

وفي المقال التالي إن شاء الله نتحدث عن أثره صلوات الله عليه في لغة العرب . .

تفسير الكشاف للزمخشري

عود على بدء

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود النواوي

وكيل معهد فؤاد الأول بأسبوط

كنت في عدد سابق فصلاً عن تفسير الكشاف أشرت فيه إلى بعض مزاياه وما سبق به المفسرين ، وأنه مؤسس على علوم البلاغة ، جامع لكثير من أشاتات الفنون ، في غزوة أسلوب ، وغزارة مادة ، ووجازة لفظ . وسأحاول في هذا المقال أن أجول بالفقاري الكريم بعض الجولات بتحليل بعض بحوثه تحليلًا عابراً ؛ ولعل أهم ما يعنى القارئ قيمته من ناحية البحوث البلاغية التي هي ضالة كثير من طلاب التفسير للكتاب الكريم ، والتي قلنا إن الزمخشري أسس عليها تفسيره ، وللمعشري حقاً في ذلك المصهار قصص سبق في أسلوبه الخلوب وإيجازه المسعف وإيضاحه الموثق ؛ وستجد في أم الكتاب أولى سور القرآن الكريم تنفا تير لك السبيل ، وتفتح لك الباب إلى الذوق السليم .

هذا التقديم في بسم الله ^(١) وتقدير المحذوف متأخراً ، ولماذا قيل في سورة اقرأ : « اقرأ باسم ربك » على ما سطر المتأخرون في أحوال متعلقات العمل ، وإن خالفه السكاكي في مسلكه مع موافقته على أصل القاعدة التي هي الاهتمام والعناية . وها نشير إلى أن سيوييه هو منير هذا البحث فيما بلغه علنا ، وقضى على أثره الشيخ في دلائل الإعجاز ، ثم الزمخشري فن بعده من أئمة هذا الفن . وها يتكلم الزمخشري في تقدير المتعلق ، وأنه أقرأ أو أتو ، وببسط بعض البسط مما فسح مجال البحث للتأخرين في مبحث الإيجار بالحدف ، ودلالة الدليل على المحذوف . وكذلك عرض الزمخشري للتقديم في إياك نمبد ، وأن الغرض منه الاحتصاص

(١) ١٠ ص : كشاف .

كما في . أمعير الله تأمروني أعيد - أغير الله أبغى ربا^(١) وسبق الشيخ عبد القاهر إلى إسهاب البحث في هذا المقام في دلائل الإعجاز ؛ وقد بحث الزمخشري في قاعدة التقديم وطرق بها كثيرا من آي الذكر الحكيم ، ومن ذلك التقديم بعد النفي كقولك : ما أما قلت هذا الشعر .

فيرى الزمخشري أنه يفيد الاختصاص وإن لم يكن الخبر فعلا ، خلافا لما نص عليه الشيخ في دلائل الإعجاز ، قال في قوله سبحانه ، وما أنت علينا بعزير^(٢) . وقد دل إيلاء الضمير حرف النفي على أن الكلام واقع في الفاعل لا في المفعول ، كأنه قيل : وما أنت علينا بعزير بل رهطك هم الاعزة علينا ، ولذلك قال في الجواب : أرهطى أمر عليكم من الله ، ولو قيل : ما عززت علينا ، لم يصح هذا الجواب .

فالزمخشري يقول دل إيلاء الضمير حرف النفي على الاختصاص ولا يفيد بالخبر الفعلي ، ولكن الشيخ يقول : وقد يقدم ليفيد تخصيصه بالخبر الفعلي إن ولى حرف النفي ، فينص إضافة الاختصاص بالخبر الفعلي وحده ؛ والزمخشري أصوب نظرا ، وأقوى بصرا من الشيخ في هذا كما ترى .

ويقول الامام الزمخشري في : « وما هم بمؤمنين »^(٣) . إن فيه من التركيد والمبالغة ما ليس في غيره ، وهو إحراج دواتهم وأنفسهم من أن تكون طائفة من طوائف المؤمنين ؛ وأسهب في المقام بما يحوم حول المبالغة والتأكيد في إثبات المطلوب دون تمرير على ناحية الاختصاص . فهو يرى كالشيخ عبد القاهر أن التقديم قد يفيد تأكيد الحكم وتقويته . ومجال البحث في هذا يطول ، والخلاف بين الشيخ والامام والسكاكي منسوط في شروح السعد وفي كتاب الإيضاح وغيره . ولكنني أردت أن أنه إلى مادة الكشف ، وأنها مرجع لا يستغنى عنه باحث في البلاغة ، وتركيز يعوزه كثير من التردد في مطالعته . وقد تعرض الزمخشري لهذه الناحية في قوله تعالى . « لا ريب فيه »^(٤) . وبين سر المعالجة في الأسلوب بين لا ريب فيه ، ولا فيها غول ، في وجازة ولطف . وقد ذكر ذلك القوم في كتبهم في بحث تقديم المستند على المستند إليه ، وأظن الشيخ عبد القاهر لم يذكره مكتفيا

[١] ١٠٠ ص ٨ كشف [٢] ١٠٠ ص ٤٥١ [٣] ١٠٠ ص ٢٤

[٤] ١٠٠ ص ١٥

بالبحث العام والقاعدة الكلية للتقديم . وفي هذه المناسبة أقول : إن كثيرا من بحوث الزعخشري لم يذكره عبد القاهر في كتابه . كما أن كثيرا من بحوث الشيخ لم يعرض له الزعخشري ؛ فيصاحب البلاغة وممارسها حاجة ماسة إلى كل منهما لا يعنى واحد عن الآخر ، وقد يطرد بنا القول بقول : إن أكبر الظن أن الزعخشري لم يطلع على ما كتب الشيخ عبد القاهر ، لأن قرب العهد كأنه لم يمكن من نشر كتب الشيخ حتى يطلع عليها ذلك المفسر العظيم .

والالتفات مما عرض له الزعخشري في تفسير « إياك نعبد »^(١) ، وبين سره ونكتته العامة ونكتته الخاصة ، وذكر أن في آيات امرئ القيس :

تطاول بلك بالاثمد وبات الخلى ولم ترقد
وبات وبات له ليلة كائلة ذى العسائر الأرمد
وذلك من نيا جاني وخبرته عن بني الأسود
ثلاث الالتفات في ثلاثة آيات .

والظاهر من بحثه أن السكاكي تابع له في أن الالتفات أهم مما إذا كان في الأسلوب الأول أو الثاني ؛ وأما طريقة جمهور هؤلاء القوم ، فإن الالتفات لا يكون إلا باعتبار الثاني ومخالفته للأول ، فليس ، بلك ، التعاتيد جمهورهم ، ولكنه الالتفات عند الزعخشري والسكاكي ، ولعل الذى دفع بهم إلى ذلك معنى الالتفات اللغوي .

على أن الحق أن في تعليل الزعخشري ما يؤيد رأى الجماعة ، فقد قال إن ذلك على عادة اقتنائهم ، وإن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان أحسن نظرية لنشاط السامع الخ . فللقوم عذرهم ، وهذا اصطلاح لا يحتمل المشاحة .

وقد تعرض له الزعخشري في غير ذلك الموضع من الكشاف كقوله في سورة يونس ، وهو يفسر « حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم »^(٢) : إن الفائدة في صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة المبالغة ، كأنه يذكر لغيرهم حالهم ويعجبهم منها ، ويستدعى منهم الإنكار والتوبيخ . وهى إشارات لطيفة تتفق معانى من التدقيق لبدائع الأساليب والالتفات وإن لم ين به الشيخ عبد القاهر ، مردد في كتب المتقدمين والمتأخرين ،

على تنوع بحثه وتعدد اصطلاحاته ، ومع جمال موقعه من أهل اللسان .
وللمعشرى في كتابه هذا كثير من بحوث البلاغة الفينة على اختلاف
فنونها وجزئيات مُثلها في عدة مناسبات من كتابه ، ولكتا بصدده ضرب المثل
ليستدل بجزئى على كلّى ، وبقليل على كثير .

وله نواح تتصل بذلك فتحت الباب للفسرين في تلس الفروق اللطيفة
في إثارة كلمة على كلمة ، والموازنة بين جملة وجملة ، في نحو : يعلمون ويشعرون ،
وفي نحو : أفلا يبصرون ، أفلا يسمعون .

كما أن له جولات في مسائل النحو والصرف والفصوص على دقائقها .
فألقه : اسم لا صفة ، وهو مشتق من أله إذا تحير ^(١) .

والرحمن : فعلان ، وما الفرق بينه وبين الرحيم ؟ وهو : نوع من الصرف
مع أنه ليس فعلان فعلى ، مع توجيه كل ذلك .

والحمد : منصوب ياضمار فعله كالمصادر التي تصبها العرب شكراً وعجباً ، ولكنه
عدل عنه ، وما سبب ذلك ؟ وهنا استطراد إلى الفرق البلاغى بين الجملة الفعلية
والجملة الاسمية .

والعالمين : جمع ، وليس اسماً لعامل ولا هو صفة ^(٢) . وإضافة اسم الفاعل
في : مالك يوم الدين ، حقيقية ، ولماذا ؟ ^(٣) وإيا : ضمير منفصل ولو اوحده
حروف لأعمل لها من الإعراب .

والفعل أبداً خبر لا خبر عه إلا في كلام هجر فيه جانب اللفظ إلى جانب المعنى كما
في : « أنذرهم » ^(٤) والعرب يعلمون في مواضع من كلامهم مع المعانى ميلاً بيناً كما
في قولهم : لئلا تكل السمك وتشرب اللبن ، معناه لا يكن منك أكل السمك وشرب اللبن .
والهمزة وأم : تسليختا عن معنى الاستفهام وتجردتا لمعنى الاستتواء كما في
هذه الجملة السريمة . قال سيبويه : جرى هذا على حرف الاستفهام ، كما جرى على
حرف النداء قولهم : اللهم اغفر لنا أيتها العصابة .

والصفة لا تقدم على موصوفها بخلاف الحال : وبذلك يقع الفرق بين

« وجعلنا فيها لجاجا سبلا ، وقوله ، لتسلخوا منها سبلا لجاجا ، من ناحية اللفظ . وهذا يتبعه فرق معنوي بين الحال والصمة . وهنا أيضا تشرف البلاغة على تطبيق النحو . ولعمري لقد أساء التعريق الفاحش بين علوم اللغة العربية على طريق التدقيق الفلسفي ، ووزع الناس بين موادها توزيعا متعيا . وقد كان النحو والبلاغة معاً في كلام الأوتل يتصل الطالب بكليهما معاً ، كما في كتاب سيويه . ولهذا عرف عبد القاهر البلاغة بأنها توحي معاني النحو فيما بين الجمل ؛ والزحشرى يقول . إن الحال لا تتقدم على صاحبها المجرور في تفسير قوله تعالى : « وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ، خالصة مصدر مؤكد ، ولا يجوز أن تكون حالا لأن المجرور لا يتقدم عليه حاله ^(١) .

وهكذا تنقل من روضات ألف تنأق يفنن في ذلك التفسير الموجز المفصل . فلو شئت سلكت بك في تلك الحدائق الغناء . . . ولكن حسي أن أنير لك سبيلها ، وأوجهك الى سلوكها . وإليك لواجد متاعاً وأنساً ونشاطاً جاً ، بين ثقافات مختلفة حتى تنتهي الى ما يريد العربي للغة من صلاح وقصوم ، والمسلم لنفسه من وقوف على أحكام الكتاب الكريم وبيان مذاهب الأئمة في الاستدلال عليها ، لم يتخل من شرح أسباب نزول تعريبك عن وجوه التأويل ، وتفصيل قراءات تختلف بها المعاني بعد اتفاقها على ما يمع الناس ويهديم ^(٢) مع شرح لاصول العقائد وأدلة الفرق المختلفة ، وقد يتحيز لمذهب الطائفة المدلية أحياناً ، لكنه قد يخرج من المعركة كشيئا كاسفاً باله قليل الرجاء .

وقد يكون في ذلك ما يؤخذ على الزحشرى ، وقد نبه الى ذلك ابن خلدون في مقدمته ، ولكن ذلك لا يمنع من العوص على درره ، ولا يحول دون الاتفاع بمزاياه ، ولا سيما أن فيما كتب ابن المنير عليه ما يحول دون الاغترار بقوة أسلوبه . على أنه كثيراً ما كان له من التمزيع والتعنيف ما جاوز به الحد في الحمل عليه ، إلا أنه كثيراً ما بنوه بمعلمته ولطف مأخذه .

وبعد ، فاعلى قد وفيت الامام بعض حقه من التوجيه الى كنوز علمه وأدبه ، لاقف القلم الى حين عنه ، ثانياً عانه الى سواء . وحبنا الله ونعم الوكيل .

(١) ص ٢١٢ - ١٠ (٢) يرى أن الزحشرى أحياناً يسلك مسالك الجراء وقراءات ونصيره بالقبول والرفض بعض الرأي أحياناً .

التعويض في الفقه الاسلامي

محاضرة الأستاذ صالح بكير
المدرس بكلية أصول الدين

لم يتعرض الفقه الإسلامي للتعويض كظاهرة عامة كما جرى ذلك في التشريع الوضعي ، وإنما ذكر الفقه الإسلامي التعويض في كثير من الأحكام الجزئية بإفظ الضمان . ونحن نسرد بعض هذه الأحكام الواردة في مذهب الاحناف ونحاول قدر طاقنا أن نستخرج منها ما يمكن اعتباره قاعدة عامة للتعويض .

فن ذلك : لو حدث في المبيع عيب عند المشتري ثم ظهر فيه عيب قديم فليس للمشتري أن يرده بالعيب القديم بل له المطالبة بقصان الثمن فقط . مثلاً : لو اشترى ثوب قاش ثم بعد أن قطعه وفصله بروداً اطلع على عيب قديم فيه ؛ فيما أن قطعه وتفصله عيب حادث فليس له رده على البائع بالعيب القديم ، بل يرجع عليه بقصان الثمن فقط .

فن الواضح أن المطالبة بقصان الثمن ليس في الواقع إلا تعويضاً في مقابل العيب القديم ، ولهذا نظير في التشريع الوضعي .

وأيضاً : إنه إذا ما وجد مانع الرد فليس للبائع أن يسترد المبيع ولو رضى بالعيب الحادث ، بل يصير مجبراً على إعطاء قصان الثمن ، حتى إنه بهذه الصورة لو باع المشتري المبيع بعد اطلاعه على عيب قديم فيه ، كان له أن يطلب قصان الثمن من البائع ويأخذه منه . مثلاً : لو أن مشتري الثوب فصل منه قميصاً وخاطه ثم اطلع على عيب قديم فيه فليس للبائع أن يسترده ولو رضى بالعيب الحادث بل يجبر على إعطاء قصان الثمن للمشتري . ولو باع المشتري هذا الثوب أيضاً لا يكون بيعه مانعاً من طلب نقصان الثمن ، وذلك لأنه صار ضم الخيط الذي هو من مال المشتري مانعاً للرد ، وليس للبائع في هذه الحالة استرداد المبيع غشياً ، ولا يكون بيع المشتري جبا وإسكاً .

وورد في البيع الفاسد : إن البيع الفاسد يفيد حكماً عند القبض ، يعني أن المشتري إذا قبض المبيع يأخذ البائع صار مالكاً له ، فإذا ملك المبيع يما فاسداً

عند المشتري لزمه الضمان . على معنى أن المبيع إذا كان من المثليات لزمه مثله ، وإن كان قيميا لزمته قيمه يوم قبضه . . وورد أيضا على أن ، الضمان هو إعطاء مثل الشيء . إن كان من المثليات ، وقيمته إن كان من القيميات . . فهذا الحكم قد حدد مقدار التعويض بأنه قيمة الشيء ، أو مثله .

وورد في كتاب الإجارة ، ليس للأجير الذى ليس لعمله أثر كالحال والملاح أن يحبس المستأجر فيه . وبهذا الحال لو حبس الأجير المال وتلف في يده بضمن ، وصاحب المال في هذا غير إن شاء ضمنه محولا وأعطى أجرته ، وإن شاء ضمنه غير محول ولا يعطيه أجرته . . وعلى هذا لو فرضنا أن تاجرا بالقاهرة كلف شخصاً بشحن بضاعة إلى لندن وقيمة هذه البضاعة في القاهرة ١٠٠٠ جنيه ، وقيمتها يوم وصولها إلى لندن ٢٥٠٠ جنيه ؛ فحينئذ لو حبس الشاحن هذه البضاعة بعد وصولها إلى لندن وتلفت لزمه الضمان . والتاجر في هذه الحالة غير بين أن يطالب بقيمتها محملة أى مشحونة وهى ٢٥٠٠ جنيه ويدفع إليه أجرة شخصه ، وإن شاء طالبه بمبلغ الـ ١٠٠٠ جنيه ولا يدفع إليه أجرته .

وبما ورد أنه ، لا يلزم المستأجر رد المأجور وإعادته ، ويلزم الأجران بأحده عند انقضاء الإجارة . مثلا : لو انقضت إجارة دار يلزم صاحبها الذهاب إليها وتسليمها . كذلك لو استؤجرت دابة إلى المحل العلقى يلزم صاحبها أن يوجد هناك ويتقدمها ، فإن لم يوجد هناك ولم تسلمها وتلفت في يد المستأجر بدون تعديه ولا تقصيره لا يصح . هذا الحكم يفيد أن الضمان يشترط فيه حصول تعدى أو تقصير .

وبما ورد في الوديعة ، الوديعة إذا لزم ضمانها فإن كانت من المثليات تضمن بثلمها ، وإن كانت من القيميات تضمن بقيمتها يوم لزوم الضمان . . هذا الحكم يفيد كما قلنا سابقا أن مقدار الضمان هو القيمة أو المثل ، وأن التقدير يكون يوم لزوم الضمان بقطع النظر عما طرأ بعد ذلك من زيادة أو نقصان في المال .

وورد في العصب ، يلزم رد المال المقصوب عينا وتسليمه إلى صاحبه في مكان العصب إن كان موجودا . وإن حادى صاحب المال العاصب في بلدة أخرى وكان المال المقصوب معه فإن شاء صاحبه استرده هناك ، وإن طلب رده

في مكان الغصب بمصاريف نقله ومؤونة رده على العاصب ، وهذا الحكم يفيد لزوم التعويض فيما إذا ترتب على فعل الشخص ما يوجب دفع مصاريف ونفقات ، لأنه المنسب في ذلك .

وورد ، كما أنه يلزم أن يكون العاصب ضامناً إذا استهلك المال المعصوب فكذلك إذا تلف أو ضاع بتدبيره أو بدون تدبيره يكون ضامناً أيضاً . فإن كان من القيميات يلزم العاصب قيمته في زمان العصب ومكانه ، وإن كان من المثليات يلزم إعطاء مثله . وهذا الحكم يفيد أن سبب الضمان هو العصب ، وإنما لزوم الضمان يكون بتلف المال ، ولذا يستد تقديره إلى زمن السبب ومكانه بقطع النظر عما طرأ على المال بعد ذلك من زيادة أو نقصان في قيمته . ولذا نص على أنه إذا تناقص سعر المعصوب وقيمه بعد العصب ، فليس لصاحبه أن لا يقبله ويطالب بقيمته التي كانت في زمان العصب . ولكن إذا طرأ على قيمة المعصوب نقصان بسبب استعمال العاصب يلزم الضمان . مثلاً . إذا صنف الحيوان الذي غصب ورده العاصب إلى صاحبه يلزم ضمان نقصان قيمته . كذلك إذا شقق أحد الثياب التي غصبها وطرأ بذلك على قيمتها نقصان فإن كان النقصان يسيراً يعني لم يكن بالعا ربعة قيمة المعصوب فعلى المفاصب ضمان نقصان قيمته . وإن كان فاحشاً أعني إن كان النقصان مساوياً لربع قيمته أو أزيد فالمعصوب منه بالخيار ، إن شاء ضمنه نقصان القيمة ، وإن شاء تركه للعاصب وأخذ تمام قيمته .

وورد أنه ، إذا زلق أحد وسقط على مال آخر وأتلفه ضمن ، وهذا الحكم يفيد أن التبعة ليست شرطاً في وجوب ضمان المتلف ، بمعنى أن قصد الإضرار وتعمده ليس شرطاً في وجوب الضمان .

وورد ، لو أتلف أحد مال غيره على زعمه أنه ماله يضمن ، وهذا الحكم يفيد أن الخطأ في الاعتقاد ليس مادماً من وجوب الضمان .

وورد ، إذا أتلف صبي مال غيره يلزم الضمان من ماله ؛ وإن لم يكن له مال ينتظر إلى حال يساره ولا يضمن وليه ، هذا يفيد أن وجوب الضمان ليس متوقفاً على التكليف ، بل الواجب للضمان هو العمل المأدب .

وورد في القواعد الكلية ، الضرر يزال . ورتبوا على هذا ضمان المثلثات . .
وأیضا ، الاضطرار لا يبطل حق الغير . ويتفرع على هذا ضمان قيمة أو مثل
ما أتلّف ولو كان الفاعل مضطرا . .

ومن ذلك ، الأجر والضمنان لا يجتمعان . فإذا استأجر أحد دابة وهلكت
بلا تعد لا يضمن سوى الأجرة ، وإذا غصب دابة فهلكت يضمن قيمتها
ولا أجرة عليه ، وكذلك ، المباشر ضامن وإن لم يعتمد . فن أتلّف مال غيره
بغير وجه شرعي يضمنه مطلقا سواء تعدد ذلك أو لم يعتمد حيث كان مباشرا
ذلك بنفسه . ومن ذلك أيضا ، أن الفعل يضاف إلى الفاعل لا للأمر مالم يكن
مجبرا . فلو قال إنسان لآخر أتلّف مال فلان ففعل كان الضمان على المأمور
مالم يكن المأمور مجبرا شرعا . . وأيضا ، إذا اجتمع المباشر والمتسبب يضاف
الحكم إلى المباشر . وعلى هذا لو حفر رجل بئرا في الطريق العام وألقى أحد
حيوان شخص في ذلك البئر ضمن الذي ألقى الحيوان ولا شيء على حافر البئر . .

وغير هذا كثير من الأحكام التي تضافرت على وجوب الضمان الذي هو
عين التعويض في التشريع الوضعي .

فيمكننا حينئذ مما ذكر من الأحكام السابقة أن نستخلص قاعدة التعويض
في فقه الأحناف بشكل موجز ، وهي أن الضمان أو التعويض واجب متى توافرت
الشروط الآتية .

(١) أن يكون هناك فعل غير مشروع كان سببا أو ترتب عليه تلف
أو هلاك أو نقصان المال .

(٢) نية التعمد أو القصد ليست شرطا في وجوب الضمان . والخطأ
في الاعتقاد لا يرفع مسئولية الضمان .

(٣) يقدر الضمان بالقيمة أو المثل في زمان ومكان الفعل الموجب له .
وعلى هذا لا يجب الضمان فيما فات من منفعة أو فائدة كما ذهب إليه التشريع الوضعي .
ويتضح بجلاء أن نظرية التعويض في فقه الأحناف هي تطبيق للنظرية المسادية .

هيجل

مذهبه فى النظام الاجتماعى والمطلق - أثره

- ٢ -

لمحاضرة الأستاذ أحمد فؤاد الأهوانى

فإذا أصبح الفرد واعيا بوجود المجتمع والإنسانية ، وما فيها أعمال عامة ومصالح مشتركة تبرز فى صورة المؤسسات الاجتماعية والمظلمات المختلفة ، أدرك أنه جزء من هذا الكل الأكبر ، وأدرك أنه يجب عليه أن يوجد بين نفسه وبين المجتمع ، حتى يطلب الكمال ويدد النقص . ولكى يصبح الإنسان كائنا اجتماعيا يتلاءم مع نوااميس المجتمع الذى يعيش فيه فإنه يجب أن يكون كائنا أخلاقيا وعقليا . moral and rational .

وعلى الإنسان أن يفهم المؤسسات الإنسانية من حيث قد برزت فى عالم المحسوسات . ولا يكون ذلك بالخبرة بل بالجدل الذى يبين بوساطة طبيعة العقل Reason أنه لا شئ يحالف ذلك يمكن حدوثه فى التاريخ . فالظر الى أحداث التاريخ الماضية فظر خارجى سطحي يمر الظاهر ، والواجب أن تنفذ الى باطن المؤسسات لمعرفة علة وجودها ، والضرورة التى تخضع لها .

وأول ما يظهر من تحقق العقل فى صورة خارجية هو الحق Right . ليس الحق صفة باطنة فى الطبيعة البشرية ، وليس هناك ما يسمى بالحق الطبيعى على المعنى السائد المعروف . ويذهب هيجل الى أن الحق ينشأ فى شعور الناس من الصراع بين مصالح الأفراد . فالحق هو الذى يميز النظام الاجتماعى . ذلك أن إنسانية الإنسان لا تتحقق إلا بالنسبة لأفراد آخرين . وفى المجتمع وحده يجد الإنسان الظروف التى يبرز فيها نفسه والتى فيها يحقق حريته . ويتمتع الإنسان بحريته مع

غيره من الناس في المجتمع ، ولا يستطيع أحد أن يستمتع بالحرية والحق على الإطلاق . فإذا كل إنسان حق ، فعليه واجب ، ومن واجبه احترام حقوق الآخرين . وعندما يشعر الإنسان بنفسه ، وبحقوقه ، وواجباته ، تظهر شخصيته ويصبح شخصا Person .

ويسبر الحق عن نفسه بطريق الملكية Property . فكل إنسان يريد أن يحقق وجوده ، وأن يستمتع بحقوقه يجمع الثروة ويستغلها ويستمتع بها . ولكل إنسان الحق في هذا الجمع والكسب كما يشاء ، وأن يقل الملكية والثروة كما يهوى . كل ما في الأمر يجب عليه ألا يتعارض مع حقوق الغير . ولما كانت الملكية هي طريق التعبير عن الذات ، وكانت الحرية قبل كل شيء مطلوبة وممدوحة ، فالملكية مقدسة . ويمكن نقلها بالإرادة عن طريق العقود . فالعقد أساس في النظام الاجتماعي يسير جنباً إلى جنب مع الحق والملكية .

هذا لا يعني أن جميع الناس لهم من الحقوق ما يوازي أملاكهم ، فالاختلاف بين الناس يتطلب الاختلاف في الملكية . وتخضع الملكية للالتزامات نصيب في آخر الأمر القوانين التي تفرضها الحكومة

ومع وجود الحقوق واحترامها المتبادل لا يزال يوجد صراع بين الناس على الأملاك والعقود . هناك أناس لا يحترمون كلهم ولا يوفون بالعهود والمواثيق ويعتدون على حقوق الغير . ومن ثم ينشأ الباطل والشر . وعقاب المعتدين ليس العرض منه تقويم صاحب المدوان ، بل إثبات الحق في القانون .

ولا ريب في أن الفرد في بدء تعقله يرى في القانون شيئاً قد فرض عليه فرضاً ، وأن القانون منافي لمصالحه الخاصة . وقد يخضع بالخوف ، ولكنه يشور ثورة داخلية . وإلى أن يذهب عنه الخوف ويعرف معنى الخضوع للقانون لن يبلغ السلوك الخلق . لن يكون الإنسان أخلاقياً إلا إذا انضمت إرادة المجتمع مع إرادة الفرد . تبرز الأخلاق عند ما يكشف الأفراد في المجتمع بإرادتهم أن خضوعهم للقانون هو المحقق للحرية . أي عد ما يحل ضمير الفرد محل ضمير المجتمع ، أو يتحد الضمير الفردي والاجتماعي ، ويشيع الضمير الذاتي في الموضوعي .

ذلك أن العقل لم يميز بين المجتمع والفرد ، فالمثل واحد فيهما ، وليس الفرد علة المجتمع أو المجتمع علة الفرد .

القوانين تصف البنية الخارجية للمجتمع ، والأخلاق تصف البنية الداخلية . فالأخلاق تبرز موضوعيا في المؤسسات الاجتماعية والأسرة والحياة الاجتماعية المدنية والدولية . ويجب على الإنسان أن يتبين موقفه وموضعه من هذه المجتمعات التي يترتب بعضها على بعض . الدولة هي المؤسسة الأخلاقية الأولى ، وهي تقوم على الأسرة . لهذا كان الزواج واجبا عقليا لكل شخص . فإذا نظرنا إليه من وجهة اجتماعية فهو أخلاقى ومقدس . وإذا طلب الزواج للثمة فقط فهو مناف للأخلاق .

الأسرة على كل حال مؤسسة ماقصة ، ولو أنها أفضل من العزلة . وأفرادها مقيدون حتما ، ومصالحهم تهدف إلى صالح الأسرة كلها . وموضعها الحقيقي أن تكون جزءا في مجتمع أكبر ، تقول عنه المجتمع المدني . وكما أن الفرد ناقص بنفسه ، كذلك الأسرة ماقصة إذا ابتعدت عن المجتمع .

وفي الدولة يسمو العقل على جميع المصالح الخاصة . ويحقق الإنسان الخير الأسمى وحرية الصحيحة عند ما يوحد بين ذاته وبين خير المجتمع والإنسانية . فإذا لم يستطع أن يفعل ذلك كان على الدولة أن تخرجه عليه ، فإذا لم يخضع فعليها أن تتخلص منه ، وأن تضحي به في سبيل الصالح العام .

الدولة هي مجموع أجزائها وشيء آخر ، لأن الكل أعظم من مجرد مجموع الأجزاء . إنها تشخص المطلق ، وهي لهذا السبب مطلقة .

ولا يمكن أن تكون الدولة الصالحة جمهورية أو ديمقراطية ، لأن هذين لا يمثلان أى وحدة في المصالح ، كما يشيع فيهما عدم النظام والاضطراب . وفيهما مكان عظيم للصالح الفردى . ويدل التاريخ على أن مثل هذه الدولة لم تكن مستقرة . أفضل الحكومات هي الملكية المقيدة . وأفضل مثال لذلك في زمن هيجل هي حكومة إنجلترا ، ولو أنه يمترض عليها بحملة اعتراضات . فتقسيم وظائفها لا يهدف إلى الوحدة والعمل المشترك ، بل يهدف هذا الانقسام إلى المراقبة التي تضبط الأمور

سلياً . فهي حكومة غير صالحة ولو أنها في جوهرها أفضل نظام ظهر حتى عصره . ويمكن التغلب على الصعوبات في النظام الانجليزي إذا تركزت السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية في يد رجل واحد . بذلك يلتصق العقل سبيله ، ويحقق وجوده في الملك . وواجب الملك الأول أن يحفظ مصالح الدولة ، ويعمل على رقيها . ويجب أن يتوفر أكبر قسط من الحرية : الحرية في الرأي والخطابة والصحافة .

لا توجد دولة أعلى من هذه الدولة الوطنية . وليس هناك من سبيل إلى منظمة عالمية من حيث لا يمكن الاحتفاظ بالأجزاء الكثيرة في تماسك . هناك دول كثيرة ومصالح متضاربة ، وأغراض شخصية لا تيسر هذه الوحدة . يجب أن تكون كل دولة المجتمع النهائي المطلق ، ويجب أن تفهم ويعمك عليها وتنظم في ضوء التاريخ المشترك واللغة المشتركة والتقاليد المشتركة التي كونت هذه الدولة .

والاعتماد على الدولة الأخرى ليس له ما يبرره إلا إذا كان في ذلك تحقيق للعقل . يرى هيجل أن الدولة إذا حققت العكس idea أفضل من غيرها من حيث الثقافة والقوة فعلى الدولة الأخرى أن تنصم إليها .

وسوف ينتصر العقل ، ويوحد بين جميع الشعوب في مجتمع واحد . أما الدول التي تعبر عن المثال idea فإنها تفعل ذلك إلى حد ما ، ثم إن الطريق إلى أن يكون العقل موضوعياً يتحقق في صورة الانضمام أكثر من طريق التعاون بين الدول . وهذا يقودنا إلى فكرة هيجل عن الروح العام خلال التاريخ . هذا التطور يجري خلال الصراع المستمر . كل عصر ، وكل دولة ، هي تعبير عن العقل في درجة من درجاته ، وسقوط الدولة دليل على نقصها في التعبير عن المطلق . أو الفكرة المطلقة . وبذلك تترك الطريق لغيرها مما يحقق الفكرة . والدولة المنتصرة هي الدولة الأفضل . لا ريب إذن في التاريخ الذي وقع هو الوحيد الممكن الوقوع والافضل . وكلما تقدم التاريخ ، وتماقت الدول أصبحت الفكرة idea أوضح . وكل دولة فهي مؤقتة ، وفي الوقت المناسب تتحلل عن نفسها لغيرها . ليس التاريخ إذا تماقت الحوادث ، وليست كل حادثة سبباً في غيرها ، وليس لنا أن نفهم تماقها بالعلية المحتومة ، بل عن طريق تحقق العقل الفلق الذي يريد

أن يبرز نفسه. والتاريخ معنى باطنى، وهذا المعنى الباطن هو قصة العقل الذى يبرز بطريق البشر.

ابتدا التاريخ فى آسيا، وسوف ينتهى فى ألمانيا، وذلك فى نظر هيجل. ثم انتقل غربا من آسيا، وكلما انتقل تقدم فى الروح. بذلك كانت طموحة التاريخ فى آسيا، وبلغت الشباب فى اليونان والرومان، والنضوج فى ألمانيا. وعندئذ لن يتقدم بعد ذلك فيما يختص بالدولة، وعلى الروح أن تتحقق فى المطلق فى درجة أعلى من المرتبة الاجتماعية.

وعندئذ يجد النظام الاجتماعى نفسه مكانه الصحيح فى النظام المطلق. وهذا التوحيد الأخير يحدث فى ميادين الفن والدين والفلسفة.

النظام المطلق :

ومظاهر الروح العليا تمتد الى ما هو أبعد من النظام الاجتماعى. ومهما تسمو الدولة فإنها تظل محدودة من جميع النواحي بالاشياء الطبيعية. ولكى تبلغ الروح الحرية التامة، فإنها تلتبس التعبير عن نفسها فى عالم الفن والدين والفلسفة. وهذه كلها لا تعرف الحدود المفروضة، إنها تعبر عن نفسها فى جميع البلاد وجميع الشعوب وتسمو على الدول والمصور، وإذا كان الإنسان قد وحد نفسه بالنظام الاجتماعى فهو الآن يلتبس توحيد نفسه بالروح المتحقق فى الفن والدين والفلسفة، وفى هذه الميادين يقل التضاد بين الذات والموضوع، أو ينمى الفرق بينهما شيئا فشيئا، حتى إذا بلغت الروح أقصى حياتها اقدمت هذه الفروق، وسبيل ذلك تطور التاريخ نحو المطلق. وأخيرا حيث قد ظهرت الطبيعة والدولة بينى العقل فوقها المراحل الثلاثة للحرية. ولم يكن ممكنا أن تظهر هذه المرتبة الثالثة بدون ظهور الطبيعة والدولة.

واليك نص أقوال هيجل :

« كان الإنسان قبل كل شيء فرداً (عقلا شخصيا) مطلقا على نفسه فى الآخرة الفطرية. ثم خرج عن نفسه، وعرف نفسه فى غيره من الناس، وكون الجماعة والمجتمع والدولة (العقل الموضوعى). وأخيرا يعود الإنسان الى نفسه يجد فى

أعماق نفسه مثال الفن أى الجبل ، ومثال الدين أى الله ، ومثال الفلسفة أى الحقيقة ، وفى تحقيق هذه المثل الثلاثة يضحي العقل المطلق .

ويوازن رسل بين الدور الذى تلعبه الدول عد هيجل وبين الطبقات عند ماركس . ونحن نوافقه على هذا رأى .

ونترك الحديث عن الفن ونضرب المثل بالدين . عندما يتعمق الفرد فى التجربة الدينية يشعر أنه بعيد عن الأشياء ، ويقطع علاقه بها ، ويصل بين نفسه وبين العالم الأرحب ، وحيث لا التعبير عن الشعور الدينى يتحرر من الماديات المفروضة على الفنى ، فان العقل البشرى يصبح قادراً على توحيد نفسه بالعقل الكلى الذى يبرز فى التجربة الدينية ، وهذا يحدث تدريجياً . فى أول الأمر كان الإنسان فى خوف من الطبيعة وانحى أمامها ، وكان التميز بينه وبين العالم ماحوظاً . وعلى مر الزمن . وثق الإنسان بنفسه ، ورأى فى الطبيعة مظاهر يجدها فى نفسه ، وأصبحت عبادته أكثر روحية ، وفى الوقت نفسه أقرب الى التشبيه والنسج . ثم أحس بعد ذلك أنه ليس غريباً فى هذا العالم ، وذلك كلما ارتفع عنده الوعي ، وأدى به الخيال الى الاعتقاد أنه فى مكانه اللائق فى هذا العالم ، ولا يتم ذلك إلا إذا عا الفوارق بين الواحد والكثير ، بين المحدود واللا محدود ، وبين ذاته وبين المطلق .

وقد اجتمع الإنسان حول هذه الفكرة خلال التاريخ ، وبلغها فى المسيحية . جميع الأديان غير مقنعة وقصة ماعدا المسيحية ^(١) . لقد كانت الأديان ضرورية لبروز المسيحية وتحققها . كانت انحلالاً للروح ، ولقد جمعت المسيحية ما فيها من قيم واحتفظت بها . ولو أن الإنسان قد وصل الى فكرة المطلق خلال التجربة الدينية ، إلا أنه فعل ذلك بطريق الشعور والخيال أكثر من العقل . أما الخطوة الأخيرة فى بلوغ المطلق فهو من عمل العقل . فبواسطة العقل نسمو الى الإيمان ، ويبلغ الإنسان اكتماله ونضوجه بأن يعرف أن جميع الأشياء وحدة واحدة ، محسوسة الظاهر ، روحية الباطن .

وأخيراً مات هيجل ، وظهر جدل عظيم حول آرائه ، بل بين صفوف أولئك الذين يمتدنون فى أنه إمام الفلسفة فى ألمانيا .

[١] يقول هذا لاه مسيحى ويقول المسلم مثل قوله عن الاسلام والعمره بالدليل وحكم التاريخ .

بعض هذا الجدل نشأ عن غرض فلسفته ، ونشأ البعض الآخر عن هذه المبادئ الأولية الميتافيزيقية التي يقول بها ، ولم يرض عنها أصحاب المنهج العلمي . ولم يقبل بعض المفكرين منه تفسيره للتاريخ ، وأن تغير الحوادث كان كله نحو الخير والأفضل .

وأدى قوله بأنه لا فرق بين الدين والفلسفة الى نزاع كبير بين المفكرين . واتخذ تلامذته من أنصار اليسار مثل سترادس ونيرباخ وماركس واملز من هذا القول دليلا على أنه يتنحى عن الدين على حساب الفلسفة .

ولقد مال هذا الفريق شيئا فشيئا نحو العلم والطبيعة والمادة ، ففسروا العالم تفسيراً علمياً طبعياً مادياً .

ويعد ماركس بحق تلميذ هيجل . أخذ عنه طريقته في الجدل ، وحذا حذوه فيها ، ولم يقبل منه أن الحقيقة هي . الروح ، هذه الفكرة الروحية الباعثة لتطور التاريخ ، واستبدل بها . المادة ، فهي القوة المحركة في التاريخ .

حماسة

كان عمرو بن معد يكرب من شجعان العرب : قال يصف نفسه .

أعادل هـدق بدني ورعى	وكل مقلص سلس القياد
أعادل إنما أفنى شبابي	إجانبى الصريح إلى المسادى
مع الأبطال حتى سل جسمى	وأفرح عاتق حمل النجاد
ويبقى بعد حلم القوم حلمي	ويبقى قبل زاد القوم زادي
فلو لاقيتي للقيت ليشا	مصورا ذا ظبا وشبا حداد
ولاستيقنت أن الموت حق	وصرح شحم قلبك عن سواد
أريد حياته ويريد قتلي	عذرك من خليلك من مراد

بَابُ الْأَسْئَلَةِ وَالْفَتَاوَى

مسألة ميراثية

تقدم الى لجنة الفتوى بالأزهر سؤال من فضيلة الأستاذ الشيخ أمين محمود خطاب المدرس بمعهد القاهرة تضمن أنه حصل بينه وبين أحد العلماء نزاع في مسألة ميراثية، وهي:

«متوفى ترك أمًا، وجدًا لآب، وأختًا شقيقة، وأختًا لآب، .

فهو يرى على مذهب زيد بن ثابت رضي الله عنه، أن للأم السدس فرضًا .
والباقي يقسم مناصفة بين الجدة والأخت الشقيقة .

أما الأستاذ الآخر فيرى أنه على مذهب زيد يكون للأم السدس، وللأخت الشقيقة النصف، وللجد الثلث .

وطلب من اللجنة بيان الصواب في ذلك على مذهب زيد .

الجواب

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد، فتفيد اللجنة بأن مذهب زيد رضي الله عنه في مسألة توريث الجدة مع الإخوة الأشقاء والإخوة من الآب، أنه لا يخلو الحال: إما أن يكون مع هؤلاء ذو فرض أولاً، فإن لم يكن معهم ذو فرض كان الجدة ما هو خير له من المقاسمة وتلك جميع المال، وأنه يعتد بالإخوة والأخوات لآب مع الإخوة والأخوات لآب وأم في مقاسمة الجدة، فإذا أخذ الجدة نصيبه رد الإخوة والأخوات لآب جميع ما أصابهم على الإخوة والأخوات لآب وإن كان هؤلاء

ذكورا أو محتاطين ؛ فإن كن إناثا فقط أخذن من الباقي بعد الجدد إلى تمام الثلثين ؛ وإن كانت واحدة أخذت إلى تمام النصف . ومعنى هذا أنه إذا كان ما خص الإحسوة من بنى الأعيان والمولات النصف فأقل بالنسبة الشقيقة الواحدة ، أو الثلثين فأقل بالنسبة للشقيقتين فأكثر ، استقل به بات الأعيان واحدة أو أكثر على هذا التفصيل ؛ ولم يكن لبنى المولات أو بنات المولات شيء .

وعلى كل حال ليس للإخوة أو الأخوات لأب حظ إلا فيما يبقى بعد النصف الذى تستحقه الشقيقة الواحدة ، وذلك مما يقع ، أو بعد الثلثين الذين تستحقهما الشقيقتان فأكثر وهو لا يقع ، كما صرح به الفقهاء .

أما إذا كان مع الجدد بنى الأعيان وبنى المولات ذو فرض فإنه يكون لصاحب الفرض فرضه ، ثم يكون للجد ما هو خير له من أمور ثلاثة : سدس جميع المال ، وثالث الباقي بعد فرض صاحب الفرض ، والمقاسمة ، ثم يدخل به المولات مع بنى الأعيان فى المقاسمة إضرارا بالجد ، إلى آخر ما قلناه من الأحكام فى الحالة الأولى .

ومن مذهب زيد فى الحالين أنه يجعل الأخوات الشقيقات أو لأب عصبية بالجد إلا فى المسألة المسماة بالأكدرية ، ولا مقتضى لياها هنا .

وعلى ما قدمناه يكون للأم فى المسألة المستفتى عنها السدس فرضا لوجود عدد من الأخوات ، والباقي يتم تقصيا بين الجد والأخت الشقيقة والأخت لأب ؛ فيكون للجد نصف الباقي ، والنصف الآخر للأختين . وترد الأخت لأب ما أصابها على الأخت الشقيقة ، فيكون نصيب الأختين جميعه للأخت الشقيقة لأنه أقل من نصف التركة الذى هو مقدار فرضها ، وهذا هو ما تنفذه عبارات شرح السراجية ، والترتيب ، والمبسوط للرخسى ، والشثورى على الرعية مع حاشيته للباجورى .

أما ما جاء فى شرح السراجية من قوله : لكن حظ الأخت لأب وأم إذا كانت واحدة لا يزداد على نصف المال ولا ينقص عنه مع وجود بنى المولات فتأخذ مقدار فرضها كاملا ، فتمناه . ليتفق مع سابق الكلام ولاخه من هذا

الكتاب، ولينفق أيضاً مع ما جاء في الكتب السابقة — أن نصيب الأخت الشقيقة الواحدة لا ينقص عن النصف بسبب وجود بنى المملات معها، وإن كان ينقص عن النصف بسبب آخر بأن يكون نصيب الأخت الشقيقة المنفردة أو التي معها أخت أو أكثر من الأب أقل من النصف بمقتضى مقاسمة الجدة.

ويوضح ذلك ما جاء في شرح الشنقورى من قوله: «وإن لم يكن في الاستثناء ذكر فإن كانتا شقيقتين فلهما إلى الثلثين، ولو فضل شيء لكان للإخوة لأب». وقوله بعد ذلك: «وإن كانت شقيقة واحدة فلهما إلى النصف». فإن بقى بعد حصة الجدة، والفرض — إن كان — نصف المال أو أقل فهو للأخت الشقيقة ولا شيء للإخوة للأب، وقد علق الباجورى على قوله: «فلهما إلى الثلثين»، فقال: «أى فلأختين الشقيقتين الأخذ إلى الثلثين». وإنما قال إلى الثلثين لأنهما قد ينقصان عن الثلثين فلا يلزم أن يكمل لهما الثلثان، بل تارة يكملان لهما، وتارة ينقصان. ثم علق على قول الشارح في الواحدة: «فلهما إلى النصف»، فقال: «أى فلأخت الشقيقة الأخذ إلى النصف، ويأتى فيه نظير ما تقدم في قوله إلى الثلثين، اهـ». يريد أنه لا يلزم أن تأخذ الأخت الشقيقة النصف، بل قد تنقص عنه كما في مسألتنا

ومن هذا يتبين صحة ما قلنا في فهم عبارة السيد في شرح السراجية.

وخلاصة القول: أن مذهب زيد في مسألتنا هو ما قلناه من أن للام السدس فرضاً لوجود عدد من الأخوات، والباقي نصفه للجدة، ونصفه الآخر للأخت الشقيقة تعصياً، ولا شيء للأخت من الأب. فليس نصيب الجدة في هذه المسألة ثلث التركة، بل نصيبه على مذهب زيد ما قلناه، وذلك خمسة أسهم من اثني عشر سهماً تنقسم إليها التركة، وللأخت الشقيقة خمسة أسهم، وللأم سهان. وبما ذكرنا يعلم ما طلب إلى اللجنة بيانه. والله أعلم.

رئيس لجنة الفتوى

عبدالمجيد سليم

مقومات العدالة الاجتماعية في القرآن

لفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد شامين

« إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون . »

الإنسان كائن اجتماعي بفطرته لا تستقيم له الحياة إلا في جماعة من نوعه ، ليتعاون مع أفرادها على تحصيل تكاليف العيش المختلفة الكثيرة ؛ ولهذا لم يوجد نوع الإنسان في هذا السيار الأرضي إلا في جماعات متحدة ، وأمم مؤتلفة ، وطوائف متعاونة ، يعمل فيها الكل لمنفعة الكل ، وتحمي مصلحة الجميع من الجميع . والحاجة كانت ولا تزال أول عوامل الاجتماع الإنساني ، وانتلاف الأفراد في أشكال قبائل ودول وشعوب .

وإن أردت مثلاً يوضح لك مدى ما بين الفرد والمجموع من الاحتياج والترابط ، فانظر إلى شيء ما من حاجات الحياة الضرورية ، وليكن ثوبك مثلاً ، ير أن هذا الوقاء الذى يستر جسدك ويقيه غوائل الحر والبرد قد ساهم في إعدادة لك خلق كثير وكثير جداً الزراع غرسوا شجرته ، والصناع أمدوا الزراع بأدوات الحسرت والزراعة المتنوعة ، ثم قام البهال بجنى مادته الأولية ونقلها إلى المصانع حيث تعاون الغزالون والفاساجون والفصارون وما إليهم من الأيدي العاملة على تحويل خاماته إلى أقمشة تداولنها محال التجار بالبيع والشراء ، وأخيراً قام لك الخياطون بمياكته وكذا ، لم يصلك ثوبك إلا بعد أن تعاون على إنتاجه طوائف شتى وأرباب حرف مختلفة . وكذلك الحال في سائر الأحوال . ورغيف الخبز الذى يمسك عليك رمق الحياة مثل ثوبك الذى يسترك ، والدواء كالكساء والغذاء . وكل حاجات العيش إنما ينالها الفرد بعمل المجموع . ولقد نوه الشاعر العربي الحكيم بهاته السنة الاجتماعية الخالدة حين قال :

الناس للناس من بدو وحاضرة بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

إذن ما كانت غلات المزارع ، ولا منتجات المصانع ، ولا ما تحفظه الخزائن والمصارف من الذهب والفضة بأثر مجهود شخصي ولا نتيجة عمل خاص ، لكنها نتائج جهود جماعية ، وثمرة كفاح مشترك ؛ ومن ثم تعلقت بها حقوق الأيدي التي أنتجتها ؛ كل على قدر عمله ، وقضى ربك أن يؤتي كل ذي حق حقه لا يبخل منه شيئاً ، ولا يظلم قتيلاً .

وعلى تلك السنة الراحة تأسست الماركسية الحديثة وكل الفلسفات والمذاهب الاشتراكية والشيوعية ؛ فإنها في مجملها فكرة اقتصادية تنفي بأن يكون استهلاك كافة المنافع والسلع جماعياً ، لأن إنتاجها دائماً جماعياً ، ولكنها حقيقة لم تحمل من شائبة الخطأ الجائر ؛ لأن الشيوعية تهدف بناء على ذلك إلى محو الفوارق الاقتصادية بين سائر الأفراد والطبقات ، وتجعل المساواة المطلقة المحل الحاسم لكافة المشاكل الاجتماعية ، وتحاول تحقيق ذلك الحلم بأساليب شاذة ومكلفة كالحد من الاستقلال الشخصي ، وتحميد الملك وفرض الضرائب ، وتأميم المرافق والصناعات الكبرى ، وأحياناً بالأساليب الدامية والانقلابات العامة ، واستئصال طبقة البرجوازية بالحديد والبار . وفاتهم أن بعض الصواب في الخطأ لا يجعله صواباً ، وأن أرباب الأيدي العاملة ليسوا سراسية فيما يؤدون من المجهودات ؛ لأنهم بالضرورة بين قوى وضعيف ، وعامل وخامل ، ونشيط وكسول ، وأن محاولة المساواة المطلقة الدائمة محارلة فاشلة لتعديل سنن كونية محال تعديلها ، وأن التفاوت بين الناس ناموس حكيم يدفع الدوع دائماً إلى المنافسة والكفاح والتطور ؛ وإنما العدالة الخفة ما قضى بها القرآن من تعادل الأجور مع الأعمال وتكافؤ الحقوق والواجبات . فليس كل فرد في الهيئة الاجتماعية من الحقوق والمزايا مثل ما يؤدي من الأعمال . أما المعيار الضابط لهذا التعادل الواجب بين الأعمال وأجورها فرده إلى ظروف العيش ومقتضيات الزمان والمكان الدائمة التغير ، وما يراه أهل الحل والعقد من قادة الأمة الأماء ؛ فما يرونه من الأسعار والأجور كعيباً بتحقيق التعادل وكفاية العامل فهو العدل المعروف في القرآن ، لا ما يشذ به الاحتكاريون الظلمة الذين لا يفرقون بين السلع وبين الأيدي التي تنتجها ، كأن الجميع بضاعة خلقت للاستهلاك ، ولا يحاولون المنطرون من أصحاب النزعات اليسارية والآراء القوضوية

فهؤلاء وهؤلاء في نظر الاسلام سواء . ولقد نامض الإسلام في بدايته جشع الاحتكاريين وبجل تاريخه في أجماد الخليفة الاول الصديق أبي بكر تلك الحرب التي شنها على مانعي الزكاة الذين بعثوا نزعة الاحتكار البغيضة بجمع الزكاة وحقوق الفقراء ، كما حدد التاريخ للخطبة الثالث هيمان بن علفان أنه حال بالحزم والعزم بين مبادئ الاسلام الاشتراكية وبين الانحراف والتطرف يوم قام الصحابي الزاهد أبو ذر الغفاري بحركته المتطرفة .

ذلك بأن القرآن قد شرع الزكاة لعمان العيش للعاجزين ومن لا يفي كسبه بماجابه ونفقائه ، وأفسح المجال حراً ، وهياً الفرص الطيبة للعاملين المجدين وأرباب المواهب والكفايات للإنجاج النافع والإراء والامتلاك بالوسائل المشروعة العادلة ، وأقر التفاوت الاقتصادي والأدبي الناجم عن تفاوت العاملين في القوى والملكات وحسن التدبير ، واعتبر ذلك من أهم عوامل الاجتماع والترابط بين أفراد المجتمع ، نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات لينخذ بعضهم بعضاً سخرياً ، ورحمة ربك خير مما يجمعون .

ولقد رأى الاستاذ العقاد في كتابه (الفلسفة القرآنية) أن القرآن بهذا قد اعترف صراحة بنظام الطبقات ، وليس كذلك ؛ إذ لا يلزم من تسليمه بالتفاوت الاقتصادي العادل إقراره لنظام الطبقات ، وإنما يصح ذلك لو أنه ميز الفقراء على الأغنياء بخصائص أو امتيازات ، أو جعل الناس بين أشرف ورعاع كما كان الحال في أوروبا المسيحية قبل النهضة ، أو كما هو الحال اليوم في المستعمرات الأوروبية وفي بعض دول أمريكا ، ولا سيما الولايات المتحدة التي تعد الآن الممارسة الآمنة على تقاليد الرجعية والاستعباد ، بفضل قوانينها التي فرقت بين رعاياها باختلاف ألوانهم ، فجردت السود من أبسط الحقوق الإنسانية ، فلا يؤخذ الأبيض بجميرة القتل إذا أزهق روح الأسود ، وما زالت قوانين بعض الولايات هناك تدين بالأشغال الشاقة سنوات عديدة من بزواج الأمريكية البيضاء وهو من سلالة السود ، أو ثبت أن في دمه نسبة معينة من العنصر النجسي ، أو مثل ما دهمت إليه النازية الجرمانية من تقسيم الجنس البشري طبقات ودرجات في مقدمتها الجنس الآري المتفوق .

إن القرآن لا يفرق بين الأسود والأبيض، ولا يفاضل بين الأحساب والأنساب ولا يعترف بالتفريق العنصري ولا بنظام الطبقات، وإنما كافة الخلق عنده سواء، أصلهم واحد وعائيتهم واحدة، وتصرفهم في الحياة نواويس وسنن واحدة، ولهم إله واحد؛ وما أوتوا من ميزات واختلفوا به من فضائل فإنما ترعهم عند الله بمزيد الثواب، وعند الناس بالتقدير والمحبة. يأبى الناس لما خلقواكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير.

ولقد كان مما أودعه نبي الإسلام في دمة التاريخ، واستحفظ عليه قادة الأمة يوم خطب خطبة الوداع، هاته الفاعدة الاجتماعية المثلى. يأبى الناس إن ربكم واحد، وإن أبائكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أبيض ولا لأبيض على أحمر فضل إلا بالتقوى. ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد... الخ..

وصفوة القول أن العدل القرآني يسمي كياه الصحيح بثلاثة أركان.

(أ) تكافؤ الحقوق والواجبات (ب) المعادلة التامة بين الأعمال وأجورها (ج) المساواة المطلقة بين الأفراد في سائر الحقوق والمزايا؛ وإن كان ثمة عاجز أو ضعيف أو ناقص الكسب فقد وسعه الأصل الثاني من مقومات العدالة الاجتماعية القرآنية، وذلك هو الإحسان المفروض لجبر النقص الاقتصادي عند الطبقات الفقيرة والمسكوبة.

ومن حكمة الله أنه لم يسكل أمر الإحسان إلى عاطفة الرحمة عند الأغنياء حتى يتعرض للذنب أو العقدان إذا طغت المسادية وسرت رغبة الجشع والاحتكار بين أصحاب الأموال، بل جعل منه نمسيا جريا واجب الأداء، وناط بالحكومة الشرعية جبايته طوعا أو كرها، وما أوفى الزكاة نصمان مستقبلي الفقير وسد الفراغ.

فقيا نفل المزارع من الحاصلات والثمار، وفيما تدخر المصارف من الذهب والفضة، وما يتداول التجار من السلع والبضائع، وفيما يستخرج الحفر والتقيب من النفائس والكوز، وفيما يستام بلا كلفة من النعم والماشية - في كل أولئك حق معلوم للسائل والمحروم. وإن الرجل ليعجز عن البر يمينه فلا يعفيه من تبعته

إلا الصدقة على الفقراء . ويظاهر الرجل من زوجه أو يعجز عن أداء صومه فلا يتحلل من عهده إلا بإطعام المساكين ؛ وصوم رمضان معلق بين السماء والأرض لا يرفع إلا بركة المطر ... الخ .

فانظر كيف عالج الإسلام الفقر علاجاً ناجماً حكيماً لا عصف فيه ولا شذوذ .
هناك شائعة خاطئة يروج لها المتسخطون الحيارى المتلسسون الإنقاذ والعلاج هند ماركس ولينين ومشرعي الغرب : هي أن جبر النفس بتطبيق قانون الزكاة مما تتأدى به نفوس الفقراء ، كأنهم يعتبرون الزكاة لو ما من المسألة والتسول ... والخطأ هنا مردوج : إذ نحن لا نطالب بتنفيذ الزكاة لجبر النفس عد العامل المظلوم أو الأجير المستبد ؛ فاشرعت الزكاة لذلك ، ولكنها معروضة لكفاية العجزة والناقصين والمكويين لحسب . ولا بد لإنصاف الأجراء . والنهوض بالأيدي العاملة من تعديل نظام المعاملة بين المال وأصحاب رؤوس الأموال تعديلاً إسلامياً ناجماً . ومن البديهي كذلك أن أداء حقوق الزكاة أهون على النفس من التشريعات المالية والضرائب التصاعدية ، وما إليها من الحلول الوضعية الفاصرة .
وشتان بين عى يؤدي من فضل ماله عن طيب خاطر وهو يعلم أنه لئله كالتقليم للشجرة يعود عليها بالخصب والنماء ، وأنه حصانة لماله وطهرة لنفسه ومرضاة لخالفه ، وبين من يؤذيها راغماً لحكم التشريعات وغلبة بعض الطبقات والأحزاب على بعض . وهذا السر العساقى فى الزكاة هو الذى أوجب تقديم أهل قرابة النبي على من - واه - رعاية لحمة الدم وكرامة المحتاج . فإذا استقام نظام الحياة بين العى والفقير بالعدل والإحسان ، فقد أمس الفقير على مستقبله ، كما أنه القرآن على عرضه وحرمنه بتحريم الفحشاء ، وصان عقول الكافة من النزعات الخبيثة ، والنزعات الهدامة التى هى المنكر المنهى عنه ، إذ أر كل بدعة لم يصح فى العقل برهانها ، وكل خرافة ثبت مصادها وبطلانها ، فهى مما يسكره الدين القويم والعقل المستقيم ؛ ولكى لا يستغل الحكام والقادة حماية القيم والمثل العليا للمجتمع فى الحجر على الحريات وتضييق النشاط المشروع ، ختم القرآن مقومات العدالة الاجتماعية بتحريم البنى ، وما هو إلا تجاوز القسط بأفراط أو تفريط . وهذا فن من الإنجاز فى بلاغة القرآن الكريم ، وهناك فن آخر هو اجتماع كافة المقومات الأساسية

للعادلة في آية واحدة ابتداء فيها بالعدل والعدل أساس الملك ، وقوام المجتمعات الراقية السعيدة ، وما تلاشت روح العدل في أمة إلا وسرت فيها تيارات الضغينة والحقد ، واستنفدت طاقتها الحيوية في التناحر الداخلي والنزاع الطائفي والحزبي بدل استغلالها في نواحي الانتاج والتنمية والهدنة . والنتيجة الطبيعية لذلك هي انحلال الأمة وتدهاى عناصرها ، وذلك من أبرز عوامل الضعف في المجتمعات الإسلامية اليوم . وإذا كان انعدام الرقابة الإسلامية على أساليب المعاملة بين الأغنياء والفقراء لديا قد أمكن الأغنياء من تضخيم الثروات وتعظيم الإنتاج بتسخير الفقراء في المصانع والمزارع بالقسوة والاحتكار ، فقد تدهورت به الكثرة الساحقة من سواد الشعب ، وأفقد الأمة مناعتها الدينية ضد الفوضى والفساد والهدامة .

فهل آى للمصلحين من قادتنا وكبرائنا أن يلتزموا العلاج الحاسم من ديفنا وحضارتنا العظيمة ، أم يظل هؤلاء المرضى في حيرتهم وضلالهم وبين يديهم الدواء يتداولونه ولا يتناولونه !.

• سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يقين لهم أنه الحق ، أرم يكف برك أنه على كل شىء شهيد . . .

كلمات

قيل لعبد الله بن الحسن . إن فلانا غيرته الولاية . قال من يلى ولاية يراها أكثر مه تغير لها ، ومن ولى ولاية يرى نفسه أكبر منها لم يتغير لها .

ولما عزل عمر بن الخطاب المغيرة بن شعبه عن كتابة أبى موسى ، سأله أعن عجز أم خيانة يا أمير المؤمنين ؟ فأجابه : لا عن واحدة منهما ، ولكننى أكره أن أحل فضل عثك على العامة !.

ولقى عمر بن الخطاب أبا هريرة فقال له : ألا تعمل ؟ (يريد ألا تلى عملا من أعمال الحكومة) . فقال أبو هريرة : لا أريد العمل . فقال أمير المؤمنين : قد طلب العمل من هو خير منك يوسف عليه الصلاة والسلام : قال أجعلنى على خزان الأرض إنى حفيظ عليم .

الاسلام والرق

The spirit of Islam :

By

Aineer Alia Syed .

مترجمة عن :

روى عن النبي - صلى الله عليه وسلم أنه قال ما معناه : أما عن الارقاء
فأطعموهم كما تطعمون أنفسكم ، واكسوهم كما تكسبون أنفسكم .

ويرى البعض أن الرق يشبه تعدد الزوجات من بعض الوجوه : فقد ظهر
بين جميع الأمم كما ظهر فيها تعدد الزوجات سواء سواء ، غير أنه لم يلبث أن
اندثر نتيجة حتمية لتقدم التفكير الإنساني ، وتفهم الجنس البشرى لمعنى العدالة .
وجاء الرق كما جاء تعدد الزوجات كذلك نتيجة طبيعية للهوى والكبرياء . ولكنه
يختلف عن التعدد في أنه أمر نفر منه الفطر السليمة منذ بدائه .

وفي العصور الأولى التي لم تبلغ الإنسانيه فيها درجة يمكن معها تقدير
حقوق الإنسان ، ويوم أن كانت القوانين أوامر رسمية يصدرها فرد أو فئة
قليلة لحساب الكثرة العظمى ، وحين كانت إرادة القوى قانون الحياة وعامل
هدى للأحلاق ، في هذه الأيام شرع عدم المساواة بين الناس اجتماعيا وطبيعيا
وعقليا يأخذ صورة العبودية ، وبدأ في الحياة نظام من شأنه أن يجمع الرئيس
سلطة مطلقة على من دونه .

وإن الاسترقاق لأمر معروف منذ خلق الإنسان ، ولقد نمت جرائمه حتى
مع تقدم المدنية وشعور الناس بعدم الحاجة إلى بتماته . وعرف اليهود والإغريق
والرومان وقدماء الألمان الرق ، ومارسوه كما مارسه العبرانيون .

أما المسيحية - كنظام وعقيدة - فلم تُبد من جانبها نفوراً ضد الرق، ولم تعمل بأية صورة على تحريره ولا بتحفيف أثره السيء، بل على التقيض من هذا فرضت على العبد الخضوع المطلق لمشيئة سيده. وكان الأرقاء كالأشياء يحركها الإنسان كيف يشاء ١.

وتفشى الرق بين الرومانيين الذين كان لهم الحق في أن يمنحوا الأرقاء الحياة أو يحرمهم منها. وعلى الرغم مما أدخل على النظم والقوانين من تعديلات بدافع من إنسانية البراطرة وحكمتهم، فكان لزاماً على العبد أن يخضع خضوعاً تاماً لأوامر سيده. وكان من حق كل وجه من وجوه الإمبراطورية وعظماؤها أن يمتلك آلافاً من الأرقاء الذين كانوا يسامون صنوف العذاب، لأنهم الاضطهاد والأسباب

ولقد تمت العبودية وظل السيادة الوثنية، وحرّم على الأرقاء الزواج واعتبر بينهم غير قانوني، وحرّم بينهم وبين الأحرار كذلك. والويل لمن يقدم عليه منهم. وندكر على سبيل المثال هنا أن المرأة الحرة كان جزاؤها الإعدام إن هي تزوجت من عبد، أما هو فتشعل فيه النيران حياً ويترك حتى يقضى. ونتيجة لهذا النظام تعشت بين الوثنيين والأرقاء عادة المعاشرة الزوجية التي لا ترتبط بقوانين ١.

تلك هي حال الرق في العالم قديماً. ولقد فشلت المسيحية في إلعائه أو مساعدته، واستخدمت الكنيسة نفسها الأرقاء، ووافقت في صراحة تامة على نظام العبودية، واهتم الأوروبيون بالرق وعملوا جاهدين على تشجيعه لكيلا يقوم مع وجوده عوز أو سلب في البلاد، كما يزعمون ١

وأخيراً جاء الإسلام غير معترف بتمييز الجنس على جنس ولا بلون على لون، فكل الناس عند الله سواء، وكان المؤدس الأول في الإسلام والمقرب المحبوب من النبي - عليه أفضل الصلاة والسلام - عبداً أسود. وكان في ظهور هذا الدين العظيم القضاء المبرم على نظم العبودية. وأنذر الرسول - صلى الله عليه وسلم - أتباعه كثيراً مطالباً إياهم أن يمنحوا الأرقاء حقوقهم، دأكرأ لهم أن هذا خير أعمال الإنسان قبولاً عند الله.

وأوصاهم بتأمين الأرقاء من استردادهم لحریتهم نظیر ما يتقاضونه من أجور منهم ، ويتركهم يسهون وراء الكسب الذى يحقق أملهم فى عتقهم على شريطة أن يكون هذا حقاً هدفهم ، وفى هذا يقول الله سبحانه وتعالى : « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاؤهم إن علمتم فىهم خيراً ، وآتوهم من مال الله الذى آتاكم . »

وأوصى — صلى الله عليه وسلم — كذلك بتقديم الأموال للأرقاء ليشتروا بها حریتهم ، وجعل درجة الرحمة عند الجزاء ، مساوية لدرجة التواصى بالجيران وأبناء السبيل والانباء ، وحرم استغلال الأقوياء لضعفهم ضد الضعفاء .

ومن تعاليم الإسلام استرداد العبد لحریته إن جاء هارباً يرجو حماه ، وأما الطفل الذى تلده امرأة من الأرقاء فله من الحقوق ما لا يسه ، وفى مكة العبد أن يعقد بينه وبين سيده اتفاقاً على تحريره من ربقة العبودية ، وليس للسادة أن يكلفوا عبيدهم فوق طاقتهم ومالا يتفق والعدل ، وليس لهم كذلك أن يحاطبهم بما تتألم منه نفوسهم وينهى الإسلام عن أن يحال بين الأم وطفلها ، وأن يفرق الأخ عن أخيه ، والابن عن أبيه ، والزوج عن زوجته ، والقريب عن القريب ، ونال الأرقاء من الحقوق وبلغوا من المنزلة فى ظل الإسلام ما ينهض دليلاً على سماحة هذا الدين العظيم ، وما هو ، زيد ، معتوق رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمد إليه الرسول بقيادة الجيوش ، ويعمل تحت إمرته قواد من أعرق الأسر ، دور تأقف مهم أو ضجر . وشرف أبو بكر رضى الله عنه ، أسامة بن زيد ، بقيادة الجيش فى الحملة التى سارت لملاقاة الإغريق . وما كان قطب الدين ، أول ملوك دله فى الإمبراطورية الإسلامية فى الهند إلا عبداً .

ولم يكن الرق الذى سمح به فى الإسلام شيئاً مذكوراً بالنسبة لما كان عليه فى المسيحية حتى العصور الحديثة . وليس مستغرب أن يصبح العبد اليوم فى الإسلام وزيراً خطيراً فى غده . وله أن يتزوج من ابنة سيده ، ولا يشين هذا السيد أن يوافق على مثل هذه الزيجة . وكل حكم العبيد من ممالك ، وكل أقاموا من أسرات .

وفي الحق فلا يعرف الإسلام من أنواع الرق إلا نوعاً واحداً هو
الرق الذي يأتي عن أسرى الحرب ، ولم تكن عادة شراء الأرقاء بمعرفة
زمن الأربعة الأوائل من الخلفاء الراشدين .

وها نحن الآن في زمن يسمح لنا بأن نرفع فيه الصوت مدوياً ضد العبودية
وممارستها على أية صورة كانت وتحت ستار أية تسمية تنكرت . وجدير بنا -
والحالة هذه - أن نتأدى بالحرية والمساواة والإعلاء بين كافة البشر ؟

أهل الشر

قال النبي صلى الله عليه وسلم : شر الناس من اتقاء الناس لشره . ومثل
شبيب بن شبة عن خالد بن صفوان فقال : ليس له صديق في السر ، ولا عدو
في العلانية .

وقال الأحف بن قيس : رب رجل لا تغيب فوائده وإن غاب ، وآخر لا يسلّم
منه جليبه وإن احترس .

وأشد العتي :

في صديق يرى حقوق عليه	فأفلات وحقه الدهر فرضا
لو قطعت البلاد طولا إليه	ثم من بعد طولها سرت عرضا
لرأى ما فعلت غير كثير	واشهى أن يزيد في الأرض أرضا

وقال صالح بن عبد القدوس :

تجنب صديق سوء واصرم حباله	وإن لم تجد عنه محيضا فداره
ومن يطلب المعروف من غير أهله	يمحده وراء البحر أو في قراره
ولله في عرض السموات جنة	ولكنها محصورة بالمكاره

الاحتفال بذكرى المغفور له

الملك فؤاد الاول

في كلية الشريعة

احتفل الأزهر حيوا الى الساعة الحادية عشرة ونصف من يوم الخميس ٢٨ إبريل في قساء كلية الشريعة التابعة الجامعة الأزهرية بذكرى المغفور له الملك العظيم فؤاد الاول ملك مصر والسودان ، فكان احتفالا مهيأ اجتمع فيه ألوف من العلماء والوجهاء وكبار الموظفين والطلاب ، وما انتصفت الساء الواحدة حتى أقبل حضرة صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء ابراهيم عبد الهادى باشا نانبا عن جلالة الملك المعظم ، وبعد تناول القهوة نهض حضرة صاحب الفضيلة وكيل الجامع الأزهر الشيخ عبد الرحمن حسن فألقى كلمة رائعة لخص فيها من تاريخ الملك فؤاد ما يجب أن يعرف له من جلاتل الأعمال ، وما ينبغي أن يعرفه كل مصرى ، وفاة البيت المالك بحقه عليه ، وقد أصمى الجمهور هذه الكلمة معجبا ببيانها ، مرتاسا الى سماعها .

ثم تلاه ثلاثة من نجباء الثلاث الكليات انتخبوا من سنة عشر ناجعا استحقوا أن يمحوا الجوائز التى رصدها لهم المغفور له الملك فؤاد ، فألقى كل منهم كلمة ذكر فيه من مناقبه ما وسعه الوقت في عبارات طلية ، وفقر عذبة .

ثم شرع حضرة صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء نائب جلالة الملك في توزيع المكافآت على سنة عشر طالبا من طلاب الجامعات الثلاث ، تفوقوا على أقرانهم فاستحقوا أن يمتازوا بهذه الجوائز تنشيطا لغيرهم ، وعاقبة خير لجهادهم . وقد كان الحاضرون يرجون أن يروا حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشناوى شيخ الجامع الأزهر حاضرا هذا الاحتفال ، ولكنه اضطر أن يمتذر عن الحضور بسبب ما يشكو من وعكة ، شفاه الله منها .

وإنا في هذه القرعة نبشر حضرات القراء أن فضيلته قد اجتاز أشد أدوار المرض بسلام ، ولم يبق إلا أن يلازم الدار أيا ما أخرى استعادة للقوة أكل الله له نعمة الصحة .

التشريع الجنائي الاسلامي

مقارنا بالقانون الوضعي

بين يدي الساعة كتاب غم ضخم يقع في أكثر من ثمانمائة صفحة بالمقطع الكبير ، ألعه القاضي الفاضل عبد القادر عودة ، قال في فاتحته بعد البسملة والحمدلة :
 ، وبعد : فهذه دراسات في التشريع الجنائي الاسلامي مقارنة بالقوانين
 الوضعية ، وفقى الله فيها إلى إظهار محاسن الشريعة ، وتفوقها على القوانين
 الوضعية ، وسبقها إلى تقرير كل المبادئ الإنسانية ، والظريات العلمية
 والاجتماعية التي لم يعرفها العالم ، ولم يبتدئها العلماء إلا أخيراً .
 ، وسيرى القارئ مصداق هذا القول بين دفتي هذا الكتاب ، وأرجو
 أن لا ينتهي من قراءته إلا وقد أصبح يعتقد بما أعتقد ، وهو أن الشريعة
 الإسلامية هي شريعة كل زمان ومكان . والحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنا
 لنهتدي لولا أن هدانا الله . .

ثم شرع حضرة القاضي الفاضل في بسط ما أجمله في هذه الكلمة ،
 على موجب ترتيب يعتبر غاية في حسن التقسيم ، وجمال التبويب . فذكر أولاً
 مدى المقارنة بين الشريعة والقانون الوضعي . والمذاهب الشرعية المقارن بها ، وعلة
 الاختصار على المذاهب الأربعة ، ولعة البحث والفقهاء والشراح . ولماذا بدأ بالقسم
 الجنائي ، وكيف دفع لدراسة الشريعة ، وكيف انتهت الشريعة بعدم الصلاحية ، ووجه
 الخطأ في قياس الشريعة بالنانون ، ونشأة القانون ونشأة الشريعة الخ الخ مما
 يأخذ بعضه بأيدي بعض من الموضوعات ليكون القارئ على بينة مما يقرأ ، و
 على علم بما يقارن ، ولم يدع بما تحجب معرفته في هذا الموطن حاجة في نفس مستزيد .
 والذي لمسناه في هذا الكتاب أنه يفيد في فهم الشريعة الإسلامية لمن يريد
 أن يلم بها بما لا يستطيعه من كتبها ، فإن هذه صفت للشغلين بتدريسها ،
 والكتاب الذي بين أيدينا وضع للوصول إلى بيان واضح يفهم المشتغل بالدراسة
 الفقهية وغير المشتغل بها ، فهو من هذه الوجهة من أنفع الكتب في تعميق العلم
 بأسرار الشريعة ، وخاصة العلم بتفوقها على غيرها من الشرائع .

فقد قدم لقاضيا الفاضل من الثناء ما هو جدير به ، ومن الإعجاب والتقدير
 ما يستأهله فضله . أكثر الله من أمثاله في الابهين العيورين .

مقاتل الطالبين لأبي الفرج الأصفهاني

إن أبا الفرج الأصفهاني على بن الحسين يعد من أعلام الأدب العربي في القرن الرابع الهجري، قد جلى في ميدانه فبلغ الغاية مما يلغى الموهوبون . اشتهر بكتابه المشهور بالأغاني الذي عمرت به دور الأدب في القرون التي تلت عهد ميلاده إلى يومنا هذا ؛ فلا غرو أن يذل نابعة من نبغاء كلية اللغة بالأزهر جهداً مشكوراً في شرح وتحقيق كتاب من أشهر كتبه هو (مقاتل الطالبين) ، لأنه كما يقول ذلك النابغة وهو الأستاذ السيد أحمد صقر : « كنز من كنوز الأدب والتاريخ ، ترجم فيه أبو الفرج ليف وماتين من شهداء الطالبين ، فأحسن الترجمة ، وصور بطولتهم تصويراً أعاداً يختلب الألباب ، ويمثلك المشاعر ، وذكر فيه من خطبهم ورسائلهم وأشعارهم ومحاوراتهم ، وما قبل فيهم وبسبهم من روائع الشعر والنثر ما لا تحده مجموعاً في كتاب سواه ، إلا أن يكون مقولاً عنه ، أو ملخصاً عنه ، فهو خير كتاب أخرج للناس في تاريخ الطالبين وأدبهم ، يجد فيه العلماء طلبتهم ، والأدباء صالتهم ، ويجد فيه القاصون منهم مادة خصية لاتناهم الفنى . وهو من أنفس الكتب التي تعذو العقول والقلوب والأرواح جميعاً » انتهى .

وقد صدق ما بغتنا الأستاذ السيد أحمد صقر ، فهو من أثرى الكتب الأدبية بالمواد النافعة ، وأحفظها بالطرف النادرة .

ها لا أرى مندوحة من الإعراب عن إعجابي ببيان الأستاذ في الشرح ، وبسعة صدره في التحقيق ، فقد كلف نفسه تعباً مرهقاً يندر أن يتطال إلى مثله شارح ، أو يتكلفه محقق ؛ ففصلاً عن أنه لم يفض الطرف عن أية صغيرة أو كبيرة مما يستدعي البيان والتحقيق والتبسط ، لم يشفق على نفسه من لزوم ما لا يلزم لخدمة قرائه ، ومن أدعى ذلك للإعجاب به ، والثناء عليه ، ما تكلفه من تعيين جميع المصادر التي فيها ذكر لمن يترجم له من الأدباء وغيرهم ، فلا تشك في أن هذا الإحصاء وحده قد أخذ من وقت الأستاذ ما لا يقدره إلا من عانى مثله ، وخاصة في المؤلفات العربية .

الخلاصة : أننا حيال كتاب جليل القدر ، غرير النفع ، يعتبر ثمرة يافعة من ثمرات كلية اللغة العربية الأزهرية . فترجو لمؤلفنا النابعة حافلة بالإفادة ، حالية بالإجادة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عيد جلوس حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم (فاروق الاول)

وافق يوم الجمعة ٦ من شهر مايو لسنة ١٩٤٩ عيد جلوس حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم فاروق الاول، فاحتفلت به الامة المصرية بأمرها، وفي مقدمتها وزرائها وقادتها وعلماؤها وكبار موظفيها وطلبة جامعاتها ومدارسها، فكان عيداً عاماً تبادل فيه الناس التهنات، وتذكروا فيها لجلالة الملك من الأبدى اليضاء على العلم والعلماء وعلى مرافق البلاد جمعاء، وما أظهره جلالته في جميع المناسبات من العواطف الكريمة، والميول البيلة، والتشجيعات الجليلة، مما يعد منها ولا تعد. وقد اتفق حدوث العيد بعد المعرض العام حيث شاهد الناس، في صورة مصغرة، جميع ماتم من ضروب التقدم في صنوف الزراعة، ومختلف الصناعات، فكان شاهداً محسوساً على ما جد في سني ملكه السعيد من الترقيات الأدبية والمادية، مما لم يتفق مثله في عهد من العهود. فتقدم لجلالته بالتهنئة والإجلال، راجين لجلالته عمراً مديداً، وتأييداً مجيداً، ولبلاد في عهده رفياً مطرداً، وازدهاراً متواصلاً.

أحاديث الأستاذ الأكبر مع السفراء والمفوضين السياسيين

استقبل حضرة صاحب العvisلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشناوي شيخ الجامع الأزهر سعادة القائم بأعمال المفوضية العراقية صباح يوم ١٨ مايو سنة ١٩٤٨ بمكتبه بالإدارة العامة، وقد قدم سعادة الوزير الى فضيلة الأستاذ الأكبر تحياته قائلاً: إنه كان يود منذ مدة طويلة أن يتشرف بالمقابلة ولكن ظروفه

السياسية لم تمكنه من القيام بهذا الواجب في حبه، وإله نهر فرصة فراغه من أعمال اللجة السياسية للجامعة المصرية وسارع الى رفع تحياته وتحيات مسلي العراق للأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر، الذي يمثل العراقيون به، ويرون فيه معقل الحضارة العربية والتعاليم الإسلامية.

فشكر له الأستاذ الأكبر هذه العواطف الكريمة وقال: إنه يتبع بسرور زائد حركة النهضة والتقدم العلى في العراق، وإله معجب بالسرعة التي تتدرج فيها العراق مدارج المعرفة والثقافة.

فقال سعادة الوزير: إنا في كل خطواتنا نستوحى ما فعله الأزهر وترسم خطاه، فللأزهر مكانة ملحوظة في نفوسنا، وتقدير كريم يبننا، ونحن نعتبر الجامعة الأولى: للسلمين في جميع بقاع العالم، وأنا شخصيا تربطني بالأزهر صلتان: الأولى: أي عربي مسلم، والثانية: أي ابن شيخ من علماء الدين تربي وتعلم في الأزهر. فقال الأستاذ الأكبر: إن العرب كلهم إخوة، وكلهم مهمما بتعددت أوطانهم تجمعهم العروبة ويوحدهم الدين.

فقال سعادة الوزير: إن البلاد العربية محتاجة الى توجيه الأزهر في إذكاء الرابطة الروحية: لأن تذكير الشعوب العربية بالروحانيات يقضى على خيلافاتهم المذهبية والطائفية والسياسية، وفي هذا كل الفائدة لهذه الشعوب، وبودي أن أقترح على فضيلتكم أن تبشروا من وقت لآخر ببعوث من رجال الأزهر تطوف البلاد العربية والشرقية لتذكّر الناس بالله وتهديهم الى سواء السبيل، فالعالم كي يسوده السلام يحتاج الى القوة الروحية ليمود الى أحضان الدين بعد أن حطمت المادية. فقال الأستاذ الأكبر: إن الأزهر يضطلع بمهمة خطيرة هي إحياء العمود الديني وحفظ اللغة والدين، وواجه في هذه الأيام التي حطمت فيها المادية قوى البشرية وتركها تهاول للقلق والخوف، أن يعمل على أن يعيد القلوب مطمئنتا، وللنفوس سكينة، بدعوة الناس الى أحضان الدين، والممل بكتاب الله وسنة نبيه. وقد أحسن الملك الصالح فاروق الأول - حفظه الله - بعظم الفائدة التي بحسبها الأزهر والدين إذا وجهت إلى العالم العربي والإسلامي بعثات دينية تقوم بالهداية والإرشاد، فأمر حفظه الله بأن تعمم البعثات الدينية في جميع البلاد العربية، لتكون أداة وصل بين ثقافة الأزهر وثقافة هذه الشعوب؛ وقد قام الأزهر فعلا

بإرسال البعثات الى العواصم العربية ، وهي تعمل هناك بنشاط وجد أرجو أن يكون لها الأثر الطيب الذي نفعده لها .

وفضلا عن ذلك فقد أمر جلالة الملك فاروق الأول بأن تفتح أبواب الأزهر لاستقبال أبناء المسلمين الذين يرغبون في تلقي العلم في الأزهر ، وأمر أن تكون نفقات تعليمهم وإقامتهم على الجيب الخاص ؛ وهي مئة للقاروق فجمعت لإقبال طلاب البلاد الساتية على طلب العلم في الأزهر ، حتى بلغ تعدادهم ما يقرب من ألف وسيمائة طالب ؛ والأزهر الى جانب ذلك بفضل هذا التوجيه الحكيم معنى بالشعوب البدائية التي لم تصل اليها هداية الله بعد ؛ فهو يرسل بعوثه الى جنوب وشرق إفريقيا ، داعية الناس الى كتاب الله ، وعادية لهم الى الصراط المستقيم . وقال سعادة الوزير : إن هذا العمل جليل سيذكره العرب والمسلمون في أقطار الأرض بالحد والنساء للملك الصالح ، فاروق الأول ، الذي يعمل دائما لخير الإسلام والعروبة ؛ وإن العراقيين جميعا ليحملون لجلاله كل حبة وولاء ؛ وإني لادعو للأزهر بالتوفيق في هذه المهمة السامية ، وأرجو الله أن يكمل عمل فضيلتكم في خدمة العلم والدين بالنجاح والفلاح .

وسأل سعادة الوزير عن أبنية الأزهر الجديدة وأغراضها .

فقال الأستاذ الأكبر : إن هذه الأبنية الجديدة هي جزء من برنامج واسع لمباني الأزهر : كلياته ومعاهده ومكتبته وقاعة احتفالاته وإدارته ومساكن طلابه ، وهو مشروع عظيم استهدف به المعفورة الملك المعظم فؤاد الأول طيب الله ثراه أن يجعل مباني الجامعة الأزهرية تصارع في الفخامة والعظم أحدث الجامعات . وقد حرص على أن تظل هذه المباني الى جانب الجامع العتيق ليربط حاضر الأزهر بماضيه ومستقبله الزاهر ، في ظل الملك فاروق الأول ، شيل فؤاد العظيم . وقال الأستاذ الأكبر : إن للعراق بعثات من أبنائها المجددين تتعلم في الأزهر ، وقد تخرجت بعثة قبل ذلك ، وأغلبها تعمل في العراق اليوم على سق تعاليم الأزهر . فقال سعادة الوزير : إن هذه البعثة تعمل في العراق ، والمأمول أن تظل هذه الصلة العلية بين الأزهر والعراق ، وأن تهر على مر الأيام .

وهنا استأذن سعادة الوزير في الانصراف ، فودعه الأستاذ الأكبر شاكرًا

كلمة الازهر

في ذكرى المغفور له الملك فؤاد الاول

ألقاها حضرة صاحب المصيلة الأستاذ الكبير الشيخ عبد الرحمن حسن
وكيل الجامع الازهر

حضرة صاحب العزة مندوب حضرة صاحب الجلالة الملك

أيها السادة :

في مثل هذا اليوم من سنة ١٩٣٦ ، استأثرت رحمة الله بالمغفور له عاهل مصر
الملك فؤاد الاول - طيب الله ثراه - بعد أن رفع شأن أمته ووطنه ، وأخذ مصر
من براثن الاستعمار ، وقاد شعبها الوفي الأمين الى موطن العزة والكرامة . وفي
الحق أن تاريخ الملك فؤاد حافل بالاعمال المجيدة التي تحلده له في صفحات المجد
أعظم الاكبرى وأطيب الأثر .

بعد أن أتم الأمير أحمد فؤاد علومه ، ودرس فنون الحرب ، وتنقل في ربوع
أوربية تنقلات هرف فيها أحوال شعوبها ، واتصل ببعض ملوكها وقادة الرأي
فيها - عاد الى مصر ليعمل لرفعة شأن أمته ووطنه بما وهبه الله من العلم والمعرفة ،
وقوة العقل وراجع الرأي ، ولم يدحر في ذلك وسعا .

كانت الجامعة المصرية أمنية وطنية ، وفكرة قومية ، تظهر حينئذ تخبوا لما تلاقى
من الصعوبات ، ولكن الأمير أحمد فؤاد جعلها حقيقة واقعة ، حيث عمل على إيجادها ،
وتولاها بقوة نفسه ، ورعاها حق رعايتها بما آتاه الله من قوة وحبر وجلد .

وقد تمكن بما كان له من سابق الصلة ببعض الملوك وقادة الرأي في أوربية من
إحضار كبار العلماء للتدريس فيها ، وإرسال بعوث من الطلاب ليتعلموا في الجامعات
كي يعودوا رجالا عاملين ، وليكونوا قوة ومجدا للوطن ، وقد دعها وقواها
على السير الى الامام بما أرصد لها من الإعانات ، وبما وقفته لها ساكنة الجنان
المغفور لها الاميرة فاطمة إسماعيل ، وقد كان هذا من آثار سعيه ، وقوة عزمه .

كذلك أنشأ عدة جمعيات مأمعة ذات شأن عظيم لمصر ، كجمعية الاقتصاد السياسي ،
والإحصاء والتشريع ، ومشغل الصناعات البات ، ودعم وتولى إدارة جمعيات أخرى
كالجمعية الجغرافية التي أنشأها مؤسس عظمة مصر المغفور له ساكن الجنان

الحديوي إسماعيل ، وجمعية الهلال الأحمر ، وجمعية الإسعاف ، وغير ذلك من المؤسسات العلمية والخيرية ذات الأثر السافع للبصريين ولمصر ومظهرها بين الأمم .
 وفي ٩ أكتوبر سنة ١٩١٧ لبي الأمير أحمد فؤاد داعي الوطن ، وتولى عرش مصر باسم السلطان فؤاد الأول ، بعد أن نهيأت الظروف مرتين ليكون ملكاً على شعبين آخرين ؛ ولكن الله تعالى استبق لمصر ابنها البار الذي امتزج بها ، ودرس أحوالها ، وعرف حاجاتها وأدواءها ، وعمل لرفعها ، ليحمل بقوة إيمانه أعباءها وهي أشد ما تكون حاجة إليه ، وليقود شعبها إلى مواطن الخير وبر السلام .
 أعلنت الهدنة ، ووجدت الحركة الوطنية مخرجاً إلى الظهور ، فغداها السلطان فؤاد ، ونفخ فيها من قوة نفسه روحاً قوية نشطة أحس معها القادة أنهم وسلطانهم قوة واحدة ، ووحدة لا يمكن للعاصب أن يحد فيها مفداً .
 فكان من آثار هذه القوة : قوة الأمة التي رعاها السلطان فؤاد ودبر أمرها بالحكمة والكياسة - أن اضطرت الحكومة الإنجليزية إلى تغيير سياستها إزاء مصر ، فأصدرت تصريحها المعروف في ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ ، وهو الذي أعلنت فيه انتهاء الحماية على مصر ، وأن مصر دولة مستقلة ذات سيادة ... الخ .
 نجح السلطان فؤاد فيما وطى نفسه عليه منذ تولى عرش مصر من إلغاء الحماية وتخليص مصر من الاستعمار ، وجعلها دولة مستقلة ذات سيادة .
 وكان يوماً مشهوداً ، يوم أعلن هذا الاستقلال في ١٥ مارس بالتطابق السامي الذي وجهه إلى شعب مصر الكريم ، وأعلن فيه إلى العالم أجمع أن مصر منذ اليوم دولة منتمة بالسيادة والاستقلال ، وأنه اتخذ لنفسه لقب صاحب الجلالة ملك مصر .
 وقد اعترفت الدول بهذا الاستقلال ، وصدر الدستور ، وافتتح الملك فؤاد البرلمان في ١٥ مارس سنة ١٩٢٤ ، وشعرت مصر بشخصيتها ، وتبوأ مكانها من الدول مرفوعة الرأس ، وتولت الأمة شئون نفسها ، وسارت الحكومة مسترشدة بأراء ملكها العظيم وحسن تديره ، بخطى واسعة في إصلاح أمور المملكة في شتى مراقفها ، وكانت خطى محدودة موفقة .
 وقد شمل الإصلاح أمور الصحة العامة ، والري ، والزراعة ، والصناعة ، والتشريع والقضاء ، والتعليم . وتقدم التعليم في عهده الزاهر تقدماً عظيماً في جميع مراحلها ، فارتفعت نسبة المتعلمين من ٦ ٪ إلى ١٨ ٪ حسب إحصاء سنة ١٩٣٧ وهي السنة التالية لسنة وفاته - رحمه الله . أما نسبة التعليم بين الذكور فقد ارتفعت إلى ٢٦ ٪ .

وكان لجلالته عاية خاصة بالتعليم الدينى ، وتبلغ رسالة الإسلام الى الامم ،
تعرف ما فيه من خير وصلاح ؛ ولهذا عى بإصلاح الأزهر ودعمه بالأسس
الصالحة التى ترتفع بالتعليم فيه الى المستوى الذى يساير النهضة العامة ، كى يقوم
برسالته على خير الوجوه وأفضلها .

وكان أول مظهر من مظاهر اعزازاه بالأزهر ، تلك الزيارة الكريمة التى
كانت عقب توليه العرش وأغدق فيها الخير العظيم على طلاب الأزهر حيث تبرع لهم
بألف جنيه . وفى ١٠ يونيه سنة ١٩١٨ صدر أمره الكريم بترتيب جوائز سنوية
للتالبيين الأولين اللذين يحوزان قصب السبق فى امتحان العالمية ، وهى الجوائز التى
توزع اليوم بمسابقة هذه الذكرى على الأول والثانى من طلاب الكليات الثلاث .

وكما نال هؤلاء شرف استحقاق هذه الجوائز ، سيكون المنفوقين من إخوانهم
حريجي الإجازات شرف الهدية الملكية التى تفضل حصرة صاحب الجلالة
مولانا الملك فاروق الأول - أعزه الله - بإهدائها إليهم ، وهى صورته الكريمة .
أصدر المغفور له الملك فؤاد عدة قوانين ومراسيم لإصلاح الأزهر فى شتى
النواحي ، وقد خطا الأزهر خطوات موفقة ناجحة فى طريق التحصن اللذين صدرا
سنة ١٩٢٣ بالتخصص فى علوم الفقه والأصول والتفسير والحديث والتوحيد
والمطوق والوعظ والإرشاد واللغة العربية والتاريخ الإسلامى والفضاء الشرعى .
وقد كان لهذه القوانين أثر ظاهر فى إقدام العلماء على التأليف والبحث العلمى
المستقل . وفى نحو اثنتى عشرة سنة من عهده الزاهر الزاخر بالعلم والبحث
والتأليف أحمى أكثر من خمسمائة مؤلف .

وقد كان التأليف قبل هذه القوانين نادرا برغم الجوائز المعزية التى كانت
مرصدة على المؤلفين من العلماء .

وفى سنة ١٩٣٠ صدر القانون الشامل للإصلاح حيث أنشئت به الكليات ،
ونظم به الأزهر تنظيميا جامعا ، وأدخلت فيه اللغات الأجنبية وبعض اللغات
الشرقية ، وهو تنظيم سائر فيه الأزهر بروح العصر ، مع الاحتفاظ بالتراث الفكرى
الإسلامى ، والعناية بفهم ما فيه من كسوز وذخائر .

كان من آثار هذه النهضة المباركة فى الأزهر ، فى عهد الملك فؤاد ، طيب الله
ثراه ؛ تلك النهضة الإصلاحية التى غذتها ورباها ونماها - أن تضاعف عدد
الحريجين من العلماء فى هذا العهد السعيد .

وقد تخرج في عهده أكثر من ٤٣٠٠ عالم، منهم ٢٩٧ من البعث الإسلامية، وتخرج ٢٧٩ من العلماء المتخصصين في العلوم والفنون المختلفة .
كذلك هني جلالة - أكرم الله مثواه - بإرسال بعوث من العلماء إلى جامعات أوربة للتزود من العلم، وإرسال بعوث أخرى إلى بعض البلاد الأجنبية لنشر الثقافة الإسلامية، وإرشاد الناس إلى ما في الإسلام من هدى ونور . وقد توالى بمد ذلك البعث ، واتصل الأزهر بالجامعات ، وساهم في المؤتمرات الدينية والقانونية ، وكان له في ذلك عظم .

وفي الحق أن المغفور له الملك فؤاد الأول كان شديد الاهتمام بأمر الأزهر اهتماما لا يقف عند حد . ولو ذهبنا تعدد مآثره في الأزهر من إنشاء وتجهيد وتخصيص مئات الآلاف من الجنيحات لإنشاء مباني ورفع ميزانيته من واحد وسبعين ألفا إلى مئات الآلاف من الجنيحات وغير ذلك من الشؤون ، لما وسعنا هذا المقام . وإنما يطيب في هذا المقام أن أشير إلى أن جلالة - أعز الله ذكراه - كان شغوفاً بأن تكون المنشآت الدينية ومعاهد العلم على أعظم جانب من العناية والعظمة التي تناسب عظمة الإسلام ومجد الإسلام .

ومن مظاهر ذلك معهد فؤاد الأول بأسبوط ، ومعهد الزقازيق ، ومباني الأزهر التي تشمل الكليات وقاعة المحاضرات والمكتبة والإدارة ومساكن الطلاب ، ومسجد أبي العباس بالإسكندرية ، والمسجد الكبير بمصر الجديدة ، ومسجد الفتوح ، ومسجد الطباخ : فقد أمر أرحم الله مثواه بأن تكون من الطراز الأول ، ومثلاً أعلى في الفخامة وفن العبارة ، فكان ما أراد .

وما هو ذا حصرة صاحب الجلالة مولانا الملك فاروق الأول - أهزه الله - يتولى برعايته السامية لإتمام ما تبقى من منشآت الأزهر ، وهي تسيير في عمارتها سراعاً ، وسقتهى في القريب يادس الله .

رحم الله الملك فؤاد الأول ، وأزل عليه صحائب الرخوان ، وجعله في أعلى عليين مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . وليحى الملك فاروق الأول ذخراً للأمة ، ومجداً للوطن ، وحنى للعروبة والإسلام .
والسلام عليكم ورحمة الله .

العلم والاحاد

نعود اليوم لموضوعنا بالأمس لأنه من الشؤون الأولية التي تجب العناية بها على المهتمين على العقائد، ولأن الجمّاء العفّير من الدين فتتّهم النظريات المادية يعتقدون أن هذه المسألة قد مرّغ منها . وجمدوا على ما علق بعقولهم عنها ، ولم يكلفوا أنفسهم مناقشتها الحساب باعتبار أن أثر هذه العقيدة الأولية أكبر من آثار جميع المسائل الفلسفية ، لكثرة فعلها في الفية الإنسانية . ويجهلون أنه لا يصدر كتاب حديث في الأصول الأولية إلا ويتعرض لها إيجاباً أو نفياً ، فهي لا تزال ولن تزال جديدة مادام للإنسان عقل يدرك ، وفكر ينق ويثبت ، ومادام للأصول الأولية تأثير بالغ في تشكيل الشخصية الإنسانية .

لقد اشتغل به جميع كبار الفلاسفة ، ورجلة العلماء ، ولا يزال أخلافهم يشتغلون به ، وإننا لو استعرضنا ما دبو به من أقوالهم لرأى من ذلك قرائنا عجباً . قال العلامة الفلكي الكبير (كاميل فلاماريون) الفرنسي في مقدمة كتابه (الموت وغامسته) :

« مؤدى النظرية الميكانيكية للوجود أن مجموع الأشياء هي الثمرة المحزنة للمركبات المجردة عن الشعور ، وأن الخليقة أصلها عناية محضة فأصبحت شيئاً يذكر بالتدريج ، ثم انتهى أمرها بالتحلل بفكر وإدراك . أليس يستطيع إنسان أن يتخيل تمليلاً أشد استحالة من هذا التعليل ! »

ثم مضى الأستاذ الفلكي الكبير يسرد مواطن الإبداع في الخليقة دحضاً لنظرية العناية المطلقة والخطب فيها ، فقال في مقدمة كتابه المذكور :

« إن الطبيعة الغامضة قد وصفت في كل شيء قسطاً من العقل . وإسها لنظهر متممة بحيل لا تخاطر ببال على وجه عام . فما معنى عرسها حب الزينة والتبرج في البنت ، وهي العاطفة التي تفودها لأن تصير امرأة ، وأن تتحمل أن تسبق النوع بواسطة جسمها الرقيق ، وأن تتكبد آلام الأومة وهي راضية مستبشرة ؟ وما هو العشق ، هذه الأحبولة المحبوبة ؟ وما هي الآلام القلبية ، وما هي العاطفة ، أليست لهجة الطبيعة الصامتة يسمعها كل من له أذان ؟ .

« وما معنى تعاون عصفورين لبناء عش ، وتغذية الذكر لانشاء وهي جائحة على البيض ، وإيتائهما بالطعام لصغارهما الجياع ؟ .

« وما هي الدجاجة وفراخها ؟ أنفكرت قط في أول خفقة للقلب حدثت في بيضة وفي طفل ، أحملت قط تنقيح الزهور ؟ وإذا لم ترفي كل هذا نظاما عقليا ، وغرضا ، وبرنامجا ، ومقصدا عاما ، وعاية ، وتدييرا يتسلط عليا جميعا ، وإذا لم ترد أن ترى في (الحياة) الغاية العليا لنظام الديابات ، فإنك لا تزيد أن ترى الشمس في رابعة النهار ١ .

« الى أية غاية تسوقا هذه القوة الخفية ؟ إننا لا ندرى ذلك . وبينما الحياة تفرص عليا قوايتها يدفع هذا الكوكب الذي تسكه في الفضاء سرعة (١٠٧٠٠٠) كيلو مترا في الساعة . وهو نفسه الموبة في يد القوى الفائلة للجموع الأرضي والحركات الأربع عشرة المختلفة . فمن درة مفكرة على كرة متحركة تعتبر جزءا من مليون من حجم الشمس ، وهذه الشمس تعتبر جزءا من مليون من حجم النجم (كانبوس) ، وهو نفسه يعتبر ذرة في مجموعتنا الكوكبية الضخمة . وهذه المجموعة ليست إلا عالما عاظا يعرف آخرى لا تنتهى الى حد . فما أوسع هذه اللاهية ، وما أعجب هذه الحركات ، وما أدعى هذه الدرجات من السرعة للحيرة !

« يظهر أن القوة ملازمة للذرة المادية ، لأنه لم تصادف قط ذرة ساكنة ، وكل كائن حي ليس به قوة مدبرة لا يستطيع أن يعيش ، بل يسقط متحطبا كبناء ترك وشأنه . »

وختم الاستاذ كاميل فلامريون موضوعه هذا بقوله :

« يظهر أن الشك لا يستند إلا على جهلنا ليس إلا . فقد كان بطليموس (الفلكي الكبير) لا يجد شيئا أصح من القول بأن الأرض متحركة ، ولا أدنى منه للاستفراق في الضحك ١١ ،

ثم عاود العلامة فلامريون هذا الموضوع في فصل آخر من كتابه المذكور ، فقال :

« توجد قوة عقلية تدبر ، وهي صامتة ومنسلطة ، إلهامات الحشرات ، ضامنة وجودها واستمرارها ؛ كما تدبر ميلاد عصفور وتطور الحيوانات العليا ، وفيها

الإنسان نفسه ، فهي هذه الحركة التي تقوم الدودة لأن تستجيب الى عجينة مائعة لا شكل لها داخل شرنقتها ، ثم تنقلب الى فراش . وهي هي التي تخرج من جسم الوسطاء الروحانيين هيولى تستجيب الى أعضاء حبة وقتية ، ولكنها حقيقية . وهذه الحركة توجد التجعدات الوقتية من طريق التولد الذاتي .

• إننا لؤكد بأن الوجود بمجموعة حركات ، وأن فيه قوة غير مرئية مفسكرة تدبر الديارات والذرات ، أما المادة فعليها الطاعة والالتقياد .

• إن تحليل الأشياء يدل على تأثير عقل مدبر فيها ، وهذا العقل العام في كل شيء يدبر كل ذرة ، وكل جزيء ، وهما في ذاتهما لا يلبسان ولا يوزنان ، ومن الصعوب بحيث لا يريان ، يؤلفان بتجمعهما القائم على أصل الحركة ، الأشياء المرئية والسكائات . وهذا العقل العام المدبر لا يقبل العناء فهو أبدى لا يزول ، ثم قال .

• المذهب المادى ضال وناقص وغير موف بالمراد ، فليس في وسعه أن يفسر لنا شيئاً تفسيراً مقبلاً . فإن عدم التسليم بوجود شيء غير المادة المستمعة بخصائص ، من القروض التي لا تقاوم التحليل العلمى . والتابعون للفلسفة الحسية ضالون كذلك ، فانه توجد براهين حسية على أن الافتراض القائل بأن المادة متسطة على كل شيء ، ومدرة لكل شيء بخواصها ، بمنزل عن الحقيقة . فإنهم لم يحملوا بوجود هذه الحركة العاقلة الى تمد السكائات والجمادات .

• وإننا نستطيع أن نقول مع الدكتور (جوايه) Geley بأن العوامل الرسمية تعجز عن حل المسئلة الفلسفية العامة المتعلقة بالارتقاء ، وهي خروج الأكثر من الأقل ، .

هذا ما كتبه العلامة العالمى الفلكى الكبير (كاميل فلاريون) في أحدث كتاب له ، وهذا مصداق لقولنا إن هذه المسئلة تبقى جديدة ما دامت توجد عقول تسبغ نظرية الملحدن ، وتطمئن اليها .

والذى يدفع العلماء والفلاسفة لدوام المناقشة في هذه المسئلة هو أن السلب والإيجاب فيها تأثيرين خطيرين على الشخصية الإنسانية ، كما سبق لنا يياه ، فإن العقل إذا ساغ له أن يعتقد بأن هذه الشخصية فانية ، انحلت في نظره جميع الربط الأخلاقية ، والقيود المنصوية ، وزال الوازع له عن الإسفاف في المطالب

المادية ، فتحلل من جميع الالتزامات الادنية . فأصبحت متجهة الى عرض واحد وهو أن يحصل لنفسه وذويه أكبر قسط من السعادة المادية ، فإن عزت من الطرق الشريفة ، لم يجد ما يمنعه عن الوسائل الخسيسة . وليس هذا كل ما في الموضوع ، فإن الشخصية الإنسانية تنكشف تحت تأثير عقيدة الفناء ، وتتضاءل ولا تبلغ المدى الذي قدر لها من الترقى العقلي والروحي ، مما لا يدور في خلد أحد . فإن الذين يظنون ، أن مانحن فيه من العلم والوسائل إن لم يكن غاية ما تستطيعه القدرة الإنسانية فهو قريب من عايتها ، جد مخمطين . فإن هذا المحصول الذي وصلنا اليه ومنه تحليل المادة وإحالتها الى قوة ، يشعر بقرب عهد يظفر الإنسان فيه إلى مستوى أرفع مما عليه الانسانية اليوم . ولو أضفنا الى هذه الفتوحات العلمية ، الفتوحات النفسية ، لتبين لنا أمام الانسانية غاية بعيدة لا يمكن تحديدها من الرق والسعر ، وربما كان منه الاتصال المباشر بالعالم الروحاني على مثل ما كان عليه عليه العباد المتريعين ، وهذا لا تكون الانسانية كما يتخيله بعض الماديين بمجموعة من لابسى المسوح ، ولكنها إنسانية تليق باسمها ، وتتفق ومثلها العليا .

وعليه فلن يقف ضرر انتشار المذهب المادى على اسوداد قلب صاحبه ، ويأسه من الحياة مع شدة حرصه عليها ، ولكنه يتعداه الى وضع حد لما يصل اليه من الترقى المادى والروحي ، بسبب إنكاره العالم العلوى ، فلا يصل الى ما بعد غايته التى وصل اليها بشيء يذكر ، ويكون هو بصيق نظره سبب وقوفه دون الغاية التى خلقت له ، ولكن هيات ، فإن الاكتشافات التى توالى فى عالم الروح والى ستوالى أيضا بقوة لا تغالب ، ستعطر جباه الماديين للازواء فى نظرياتهم أو لمشاركة الانسانية فى نعيمها المعجل : والوجه الثانى هو الذى سيكون ، فانه لا يستطيع أحد أن يقف أمام هذه الحقائق الساهرة المتواترة ، ولا الفتوحات العلمية المتوالية الباهرة ؟

محمد فريد وجدي

من ذخائر السنة :

البيئة واليمين

لفضيلة الاستاذ الجليل الشبح فكرى ياسين
المدير المساعد لإدارة البحوث والثقافة بالأزهر

أخرج البيهقي وغيره ، وجاء بمضمون الصحيحين ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « لو يُعطى الناس بدعوائهم لا دعى رجل أموال قوم ودماهم ، لكن البيئة على المدعى ، واليمين على من أنكر » .

هذا الحديث يعتبر قاعدة من قواعد الشرع ، وأصلا من أصول الأحكام ، ومرجعا من مراجع القضاء ، وفيصلا عد التنازع والخصام . ومما يشهد بعظمته ، وعظيم أثره ما قاله بعض العلماء من أن : فصل الخطاب ، في قوله تعالى : « وآتيناها الحكمة وفصل الخطاب » . هي . البيئة على المدعى ، واليمين على من أنكر .

ولقد صُدر الحديث بعبارة حكيمة جامعة ، تمدد كالشروطية والتهديد لما ذكر بعد الاستدراك في آخره ، فإن الناس لو تركوا وشأنهم ، وألقى لهم الحبل على العارب ، ووكلوا إلى أخلاقهم ونفسياتهم ، وأبيع لهم أن يدعوا ما شاموا ، وأجيبوا إلى ما يدعونه بهجرد دعوائهم بلا بيئة ، لعمت الفوضى ، وانتشر الفساد ، وضاعت مصالح العباد ، وأهدرت الحقوق ، واستبيحت الأموال ، وسفكت الدماء ، واستولى الفجار على ما يحبون ويشتهون من شئون الأخيار ؛ فكان واجبا كل الوجوب أن يؤخذ الناس بالعدل ، وأن يحكموا بالشرائع والقوانين ، وأن يساسوا بالأنظمة القضائية الدقيقة ، حتى توضع الأمور في نصابها ، وحتى تجري أحوال الناس في نهجها القويم ، وطريقها المستقيم .

ترد الدعوى لعمى بمعنى الادعاء والدعاء ، قال تعالى : « فإكان دعوائهم إذ جاءهم بأسنا » ، وقال : « وآخر دعوائهم أن الحمد لله رب العالمين » . - وهي عرفا : قول

بحيث لو سلم لاوجب لقائه حقا ولا تسمع إلا إذا كانت ملزمة، وكان المدعى به معلوما محققا بنحو ذكر جنسه ونوعه وقدره وصفته، فلر قال : لى عليه شيء، لم تسمع دعواه ؛ وكذا لو قال : أظن أن لى عليه كذا : ولذلك كله تفصيل محله كذب المروع .

ورجال : جمع رجل ، وهم ذكور بنى آدم ، أو الباعون منهم ؛ فإن قبول بهم النساء ، أريد الأول ؛ وإن قبول بهم الصبيان أريد الثانى ؛ وذكرهم لا لإخراج النساء ، بل لأن الدعوى غالبا إما تصدر منهم ، أو من باب الاكتفاء بأحد القبيلين ، كسر ابيل تفيكم الحر . ويؤيده رواية . لادعى باس . وأنى بصيغة الجمع ، للإشارة إلى إقدام غير واحد على ذلك .

وقوم . اسم جمع ، وشذ جمعه على أقوام ، وقيل : هو يخص الرجال ، لقوله تعالى : لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ، ولا نساء من نساء ، فذكر من دليل ظاهر على أن القوم لم يشملن ، وبه صرح زهير فى قوله .

وما أدرى ولست إخال أدرى أقوم آل حصن أم نساء

وقيل : هو يعم الفريقين ، إدم المراد فى نحو قوله تعالى : كذبت قوم نوح . وأما حكمة التعبير برجال ، ثم قوم ، فبناء على أنه يهمهما أن الغالب فى المدعى أن يكون رجلا ، إذ المرأة لا يليق بها حضور مجالس الحكم ، والمدعى عليه يكون رجلا أو امرأة ، فراعى فى التعابير بينهما الغالب فيهما ؛ وبه على ترادفهما ، تكون المعايير للتفنن فى العبارة ، أو دفعا لكراهة تكرار أحدهما .

وقد تمت الأموال على الدماء مع أن الدماء أهم ، وأعظم خطرا ، لأن الخصومات فى الأموال أكثر وأغلب ، إذ أحدها أيسر ، وامتداد الأيدي إليها أسهل ، ومن ثم زى العصاة بالتمدى فيها أضعاف العصاة بالقتل .

وكلمة . لكن ، وإن لم تأت لفظا على قاموسها من وتسوعها بين نفي وإنابات ، نحو ما قام زيد لكن عمرو ، حتى يصح معنى الاستدراك الذى هو مؤداهما ، إلا أنها ما جارية عليه تقديرا ؛ إذ المعنى : لا يعطى الناس بدعواهم المجردة ، لكن بالبينة وهى على المدعى .

والبيئة : فعيلة ، من البيئات ، وهي الدلالة الواضحة ، عقلية كانت أو محسوسة ؛ قال تعالى : « أفن كان على بيئة من ربه » ، وقال : « لهلك من هلك عن بينة » ، ويحيى من حي عن بينة » ، وقال : « جاءتهم رسلهم بالبينات » . - وقريب من هذا المعنى ما قيل من أن البيئة : هي كل ما يبين صحة دعوى المدعى ، ويشهد بصدقه . وسمى الشاهدان بيئة ، لقوله عليه السلام : البيئة على المدعى ، واليمين على من أنكر . واختلف الفقهاء في تفسير المدعى والمدعى عليه ، ف قيل . المدعى . فمن يطلب أمراً خفياً ، على خلاف الأصل والظاهر ، والمدعى عليه بخلافه . وقيل : المدعى : هو من عريت دعواه من مرجح ، والمدعى عليه هو من اقترنت دعواه به . وقيل : المدعى : هو الذي يحكى وسكوته من الخصمين ، والمدعى عليه : هو الذى لا يخفى وسكوته منهما . وقيل غير ذلك .

واليمين : أصله الجارحة ، واستعماله في وصف الله تعالى في قوله : « والسماوات مطويات بيمينه » ، على حد استعمال اليد فيه . واستعير اليمين لليمين والسعادة ، وعلى ذلك قوله تعالى : « فأما إن كان من أصحاب اليمين » ، فسلام لك من أصحاب اليمين . . واليمين في الحلف مستعار من اليد ، اعتباراً بما يفعله المعاهد والمحالف وغيرهما ، وقولهم : يمين الله بإضافته إليه ، إذا كان الحلف به ، والمحالف هنا : هو كل من توجهت عليه دعوى لو أقر بمصونها لزمته اليمين ما لم تجر إلى فساد .

ومعنى قوله . البيئة على المدعى . أنه يستحق بها ما ادعى ، لأنها واجبة يؤخذ بها ، ومعنى قوله : « واليمين على من أنكر » ، أنه يبرأ بها ، لأنها واجبة عليه ، يؤخذ بها على كل حال .

وإنما كانت البيئة على المدعى ، واليمين على من أنكر ، لأن جانب المدعى ضعيف لدعواه بخلاف الأصل ، وجانب المنكر قوى لموافقته الأصل في براءة ذمته ، إذ هو المعبود ؛ والبيئة حجة قوية ، لبعدها عن التهمة ، واليمين حجة ضعيفة لقربها منها ؛ فجعلت الحجة القوية - وهي البيئة - في الجانب الضعيف ، وهو جانب المدعى ، وجعلت الحجة الضعيفة - وهي اليمين - في الجانب القوى ، وهو جانب المنكر ليتعادلا .

وقد نُعبر في جانب البينة بالمدعى ، وفي جانب اليمين بمن أنكر ، مع أنه كان يمكن أن يؤتى باسم الفاعل فيهما ، فيقال : على المدعى وعلى المنكر ، أو بمن فيهما فيقال : على من ادعى وعلى من أنكر ، لأن المدعى يذكر أمراً خفياً ، والمدعى عليه يذكر أمراً ظاهراً ، ولا شك أن الموصول — لاشتراط كون صلتة معهودة — أظهر من المعروف ، فأعطى الحق للخبى ، والظاهر للظاهر . ويحتمل أن يقال : إن في المدعى ضرباً من التعريف المعسوس ، لظهوره وإقدامه على الدعوى ، فأتى فيه بلام التعريف المناسب له ، والمنكر فيه ضرب من الإبهام والتكبير ، لاستخفافه وتأخيرده ، فأتى به بمن ، إذ فيها إبهام شبيه بحاله .

• • •

يدل الحديث بعد هذا على كثير من أحكام القضاء ، ونظام النظر في الخصومات : ولا بأس في أن يكون شيء منها موضع خلاف بين أصحاب المذاهب الفقهية : فإن هذا يرجع إلى طبيعة الاجتهاد ، وإلى طريقة كل مجتهد ومنعاه في استنباط الأحكام من الأدلة ، واستخلاصها من النصوص . وإما نسوق إليك طرفاً مما يتعلق منها بالحديث الذي معنا ، ومما تغير إليه دلالاته المختلفة :

من الفقهاء من ذهب إلى أن البينة على المدعى أبداً ، واليمين على المدعى عليه أبداً ، وطرّدوا ذلك في كل دعوى ، حتى في القسامة ، ورأوا ألا يقضى بشاهد ويمين : واستدلوا في المسألة الأولى بما صحّ عدمه من رواية سعيد بن عبيد ، وفي المسألة الثانية بحديث . شاهدك ، أو يمينه . ومنهم من رجح أقوى المتداعيين وجعل اليمين في جانبه ، وخرج على هذا القسامة ، والحكم بالشاهد واليمين ، ورأى أن قوله : اليمين على من أنكر ، عام مخصوص ، لاستثناء صورته ثبت بالنص ، يكون الحلف فيها على المدعى ، كما في القسامة واليمين مع الشاهد ، ويمين أمين ادعى نحو تلف أو رد على من اتهمته .

والجمهور من الفقهاء على أن مدعى الدم والمال ، لا بد له من بينة تدل على ما ادعاه ، ويدخل في عموم هذا من ادعى على رجل أنه قتل مورثه ، وليس معه إلا قول القتل عد موته : جرحنى فلان ، فإنه لا يكتفى بذلك ، ولا يكون بمجرد لو ثأ : وخالف البعض لجعلوه لو ثأ ، يقسم معه الأولياء ، ويستحقون الدم .

واختلف الفقهاء : هل يستحلف في جميع حقوق الآدميين ، أولا يستحلف إلا فيما يقضى فيه بالسكول ، أولا يستحلف إلا فيما يصح بدله ، أولا يستحلف إلا في كل دعوى لا يحتاج فيها إلى شاهدين ؟ . وكذلك اختلفوا في المؤمن هل عليه يمين أولا ؟ ، وأما حقوق الله تعالى ، فقال أجمع : لا يستحلف فيها بحال ، وقال آخرون : يستحلف إذا اتهم .

وأجمعوا على استحلاف المدعى عليه في الأموال ، واختلفوا في غيرها ، فذهب البعض إلى وجوبها على كل مدعى عليه في حد ، أو طلاق ، أو نكاح ، أو عتق ، أخذوا بظاهر عموم الحديث : وقال البعض : يحلف على الطلاق والنكاح والعتق ؛ وذهب آخرون إلى أنه لا يستحلف في الحدود والسرقة .

ومن حلفه القاضى أو نائبه بالله تعالى ، اعتبرت نية القاضى واعتقاده ، فلا تنفعه التورية ، ولا التأويل ، ولا تدفع عنه إثم اليمين الغموس ؛ وكذا لو وصلها باستثناء أو شرط . ولا يجوز لشافعى ادعى عليه عد حتى بشعة الجوار أن يحلف على قبحها اعتبارا باعتقاده ، لما أن العبرة باعتقاد القاضى ، ومن ثم نعد حكمه بها عليه ظاهرا وباطلا ؛ أما من حلف بغير الله فتعتبر نية الخالف ، فتنفعه التورية ، والاستثناء إن نواه قبل تمام يمينه ، وليس للقاضى تحليف بطلاق أو عتق ، فإن فعل ، عزله الإمام .

وإذا حلف المنكر ، أو سكل المدعى عن اليمين المردودة ، انقطع النزاع ، فللمدعى بعد ذلك إقامة الدية ، ويحكم له بها ، وإن كان قد قال : لا بينة لي حاضرة ، ولا عانة ، أو كل بيعة لي كادية . والكلام على صفة اليمين ، والسكول ، وما يتعلق بهما تفصيل طويل في كتب الفقه ، فليرجع إليه من أراد .

وكان بعض المتقدمين يحلف الشهود إذا استراب في شهادتهم ، وقد دل القرآن الكريم على ذلك عد الارتياب في شهادتهم في الوصية في السفر : قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم ، أو آخران من غيركم ، إلى قوله : « فيقسمان بالله إن ارتبتم لا نشتري به ثمنا ولو كان ذا قربى ، ولا نكتم شهادة الله » . وهذه الآية — كما قال عنها المستدلون بها — لم ينسخ العمل بها عند جمهور السلف ، وقد عمل بها

أبو موسى ، وابن مسعود ، وأفتى بها على وابن عباس ، وهو مذهب كثير من الأئمة المجتهدين .

وقالوا في اللقطة إذا جاء من وصفها : إنها تدفع إليه بغير بينة بالاتفاق ، لكن منهم من يقول : يجب دفعها بذكر الوصف المطلق ، ومنهم من يقول : يجوز الدفع إذا غلب على الظن صدقه ، ولا يجب .

ومما يستفاد من الحديث أيضا أنه لا يقبل قول الإنسان فيما يدعيه بمحض دعواه ، وإن غلب على الظن صدقه ، بل يحتاج إلى بينة ، أو تصديق المدعى عليه ، فإن طلب يمين المدعى عليه ، فله ذلك . كما يستفاد منه أن اليمين تتوجه على كل من ادعى عليه حق ، سواء كان بينه وبين المدعى اختلاط أم لا ، بخلاف ما ذهب إليه طائفة أخرى من الفقهاء من أن اليمين لا تتوجه إلا إذا وجد بينهما اختلاط ، لئلا يتبدل السفهاء مقام الأكابر بتحليفهم مرارا في اليوم الواحد .

وهذا ليس يبعد على مكاييد المتقاصين وتدابيراتهم ، وحيلهم وأحاييلهم : ولذا يجب على القضاة أن يلتفتوا إلى كل ذلك ، وأن يكونوا مثال اليقظة والانتباه ، والدقة والحذر : والعدالة والنزاهة ، وأن يضعوا أنفسهم وضعا لا يتطرق إليه أي شك ، ولا تحوم حوله أية شبهة ، وأن يستعينوا بكأنتهم وفطنتهم وحسن تخلصهم على رد ما عساه قد يراد بهم من إيقاعهم فيما يخالف العدل ، وتوريطهم فيما يباين الحق ، وجرمهم إلى التأثير على ذمهم وضمايرهم بأي مؤثر .

ومن أطرف ما قيل في هذا الصدد : أنه كان في زمن بني إسرائيل ثلاثة قضاة ، سمى الله ملكا ليعتقهم ، فوجد رجلا يسقي بقره على ماء ، وخلصها بعجلة ، فدعاها الملك ، وهو راكب فرسا ، فتبعتها العجلة ، فتغاضوا إلى القاضي الأول ، فدفع إليه الملك درة ، وقال له : أحكم بأن العجلة لي ، فقال له : وكيف أحكم ؟ فقال : أرسل الفرس والبقرة والعجلة ، فإن تبعت الفرس ، فهي لي ، وأرسلها ، فتبعت الفرس ، لحكم له بها : ثم احتضما إلى القاضي الثاني ، لحكم لذلك كذلك بعد أن أخذ درة أخرى : ولما جاء دور القاضي الثالث ، وأراد الملك أن يقدم له درة كزميليه ليحكم له ، فإن القاضي : إني جائش !! ، فقال الملك : سبحان الله !! أبيض الرجال ؟ فقال القاضي : سبحان الله !! أتلد الفرس بعجلة ؟ وحكم بها لصاحبها .

مستولية الاطباء

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد العزيز المراغي
إمام حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم

متابعة لما سبق لي نشره تحت هذا العنوان أقول :

عند ما أثار القاضي الفاضل في (بحث مستولية الأطباء) مسألة الحالات التي تستوجب الإسماعف العاجل والتي لا يمكن انتظار الحصول فيها على الرضا لما في ذلك من خطر بليغ - علق على ذلك بقوله . . . ولم يجد فيما رجعنا إليه من كتب الفقه الإسلامي من تعرض لهذه المسألة وبين حكمها ، ومع هذا فإننا نعتقد أن حكم الشريعة فيها هو ضرورة إعفاء الأطباء من المستولية عن أعمالهم التي يؤدونها . وقد علقنا في مقال مضى على هذا التعليق من الباحث المحترم أن قلنا له رأى ابن القيم الذي يمكن أن يكون فيصلا في موضوعنا ، ذكره في مبحث جريان العرف مجرى الطلق ، قال في آخره . . . ومنها لو استأجر غلاما فوقعت الأكلة في طرفه فتبين أنه إن لم يقطعه مروت إلى نفسه فأت جاز قطعه ولا ضمان . . الخ ما أسلفته في المقال السابق . وإلى وإن كنت أرى ما ذكره الحافظ ابن القيم فيصلا في الموضوع ، لأن إذن السيد واجب في كل عمل يراد إجراؤه للعلام ، كما يعلم من تتبع تلك الأحكام في الشريعة الإسلامية ، فإن أسوق للسيد نصوحا أخرى واضحة لا لبس فيها ، مفصلة لإجمالها :

قال ابن حزم في كتاب المحلى ج ١٠ ص ٤٤٤ مائنه : من قطع يدا فيها أكلة أو قلع ضرسا وجعة أو متأكدة بغير إذن صاحبها (وفي الهامش : وفي نسخة بغير إرادة) قال أبو محمد : قال الله تعالى : . . وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، وقال تعالى : . . فن اعتدى عليكم فاعتصموا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، فالواجب استعمال هذين النصين من كلام الله تعالى ،

فينظر ! فإن قامت بينة أو علم الحاكم أن تلك اليد لا يرجى لها برء ولا توقف ، وأنها مهلكة ولا بد ، ولا دواء لها إلا القطع ، فلا شيء على القاطع . وقد أحسن !
لأنه دواء وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمداواة . وهكذا القول في الصرس إذا كان شديد الألم ، فاطعاً به عن صلاته ومصالح أموره ، فهذا تعاون على البر والتقوى . . عن يحيى بن أسامة بن شريك ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تداووا فإن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء غير داء واحد . قالوا : وما هو يا رسول الله ؟ قال : الهرم .

قال علي : فيمن دارى أحوال المسلم كما أمره الله تعالى على لسان نبيه عليه الصلاة والسلام ، فقد أحسن ، قال الله تعالى : « ما على المحسنين من سبيل » ، وأما إذا كان يرجى للآكلة برء أو توقف ، وكان الصرس يتوقف أحياناً ، ولا يقطع شعله عن صلاته ومصالح أموره فعلى القاطع والقالع القود : لأنه حينئذ متعمد ، وقد أمر الله تعالى بالقصاص في القود .

هذه عبارة ابن حزم تجيب قاضينا الفاضل عما سأل عن وجوده في الشريعة ولم يجده .

ومثل هذا أو أصرح منه عبارة ذكرها شراح مختصر خليل عند قوله : وترك مواساة وجبت بخيط ونحوه لجائفة ، يعنى إذا جرح إنسان جرحاً يخشى منه الموت سواء أكان جائفة أفضت لجوفه أو عبر جائفة واقتضى الحال خياطته بفتلة خيط أو حرير ، وجب على من كان معه ذلك ، إذا كان مستغنياً عنه حالا أو مآلاً أو كان معه الإبرة ، وكان مواساة المجروح بذلك ، فإن ترك مواساته بما ذكر ومات فإنه يضمن ؛ ومحل الضمان ما لم يكن المجروح منفوذاً في القتال ، وإلا فلا ضمان بترك المواساة ، وإنما يلزم الأدب بتركها ، ويضمن دية الخطأ إن تأول في المنع ، وتكون على عقلته والمانع واحد منهم ، وإلا يتأول في المنع بل منع عمداً قاصداً قتله ، اقتصر منه ، وهذه هي الطريقة المستمدة . وقال اللخمي : لا فرق بين التأويل وعدمه ، وأن على المانع الدية في الحالين .

هذه عبارة المالكية ، وهي تدل على المقصود الدلالة التي لا يبق بعدها مجال لسائل في أمثال هذه المسائل . فالعالم بحكم مهنته قادر على المواساة ، وقادر على إنقاذ

المريض بالعملية الجراحية التي لا يحتمل المأم فيها انتظار ولى الأمر ليؤخذ منه إذن ، أو ينتظر إفاقة الجريح ليؤخذ منه الإذن ، فيجب عليه المواساة بما يظهر من جبر كسر ، أو وصل جرح بخيط أو غيره ، وله بعد ذلك كما يقول المالكية - ثمن ما واصل به من خيط وما بعده مما جرى مجراه إن وجد الثمن عند المضطر ، وإلا لم يلزمه حتى ولو أيسر بعده .

وما ذكر في هذه العبارة من خيط الجائفة والجرح يقاس عليه كل ما يستدعي الحال عمله لإنقاذ حياة مريض يشك في حياته لو لم تعمل له هذه العملية على النحو الذي رآه الأطباء أو قرره أهل الخبرة . ويقاس عليه على رأى ابن حزم كل ما يستدعي الموقف عمله لإنقاذ حياة مريض بل ولو كان لتخفيف ألمه كقلع ضرس يعوقه عن صلاته ويمنعه من القيام بواجباته . وبين نص المالكية ونص ابن حزم مجال لأن نستنبط منه كل ما يريد باحث أن يستنبطه في هذا المقام من ناحية المسئولية وعدمها والرجوع فيها إلى أهل الخبرة ومسايرة قواعد الفن ، والرجوع إلى أهل البصيرة في تقدير الآتباع - بالتميز الطبي - وثن ما يستدعيه الأمر من غرفة عملية وثن خيط ولوازم العملية من مبدئها إلى نهايتها .

وأظن القاضي الفاضل يشاركني الرأي بعد ما أسأفت من ثلاث المنالآت في هذا الموضوع ، أن الشريعة الإسلامية عبية بما يشاء ويشاء كل باحث مصنف أن تسعف من راعها لينتقي غلة أو يقع ظمأ من الناحية العقبية والتشريعية . وثن ذلك أمر حين يسير هو التمس بالمعاصي في سبيل استئثار حبلها ، والرضا بركوب الجراح من صعبها ، ليدنو معروفة غير منكورة ، وطائفة حقة غير مزورة .

وأختم هذا الحديث بما ختمت به سابقه بالرجاء إلى الفاضل الأخ بأن يريدنا بحثاً ، وأن لا يرضى على القراء بتقيجة ما وصل إليه من نصوص وآراء في الشريعة المظهرة ؛ وغربة الآراء خير سبيل لتفتيتها . وللى أترك القلم إلى لقاء . والسلام .

أبو الانبياء

عضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد محمد الهدني
المفتش بالأزهر

—

وأما إقدام الخليل عليه الصلاة والسلام على ما يمتد أنه الصواب ، وجراته على تنفيذ العمل عليه مهما صادفه في ذلك من صعاب ، فقد تجلّى ذلك في حياته كلها :

لم يحامل إبراهيم في الحق أباه ، ولم يحامل ابنه ، حتى يحامل أحداً من الناس : ذلك موقفه الرائع مع أبيه وهو يوجه إليه الدعوة إلى الإيمان حارة قوية في أسلوب يهز القلوب ، ويحرك الدواطف ، فيقول : يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يعنى عنك شيئاً ؟ يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فأتبعني أهدك صراطاً سوياً ، يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن خصياً ، يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتسكون للشيطان ولياً .

وجه إبراهيم نداءه إلى أبيه على هذا النحو ، وبدأه على عادته في الخطاب والحجاج بدليل عقلي لم يصغه في مقدمات عليية ترهق السامع ، وتثقل فؤاده ، ولكنه صاغه في لفظ سهل واضح كوضوح معناه : لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يعنى عنك شيئاً ؟ إن العاقل لا يدين بالعبادة ، ولا يعرف الخضوع القلبي إلا لمن اتصف بالعلم والقدرة ، فإذا عبد ما لا يسمع ولا يبصر ، فقد عبد جاهلاً بمنّا في الجهل ، منقطعاً عن أسباب العلم والإدراك ؛ وإذا عبد ما لا يعنى عنه شيئاً وليس له في أمره تصرف ، وليس له قدرة على إحسانه بخير أو شر ، فقد عبد عاجزاً ، وألزم نفسه سخافة تجر إلى سخافات ، وضلالة تدعو إلى ضلالات ؛ ولذلك يقول إبراهيم في موضع آخر : أتتخذ أصناماً آلهة ؟ إني أراك وقومك في ضلال

مبين ، ويقول لقومه : هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون . ! .
ويوازن لهم بين الله القادر الفاعل المتصرف وبين ما يعبدون من هذه التماثيل :
« أفرأيتم ما كنتم تعبدون ، أنتم وآبائكم الأقدمون ، فإيهام عدولهم إلى الرب العالمين ؛
الذي خلقني فهو يهدين ، والذي هو يطعمني ويسقين ، وإذا مرضت فهو يشفين ،
والذي يمتلئ ثم يحيين ، والذي أطعم أن يعفر لي خطيئتي يوم الدين . » ذلك هو
الإله الحق الجدير بأن يعبد ويدعى ، لا هذه الأحجار التي ليست جدرة حتى بأن
توصف بالجبل .

فلما زلزل إبراهيم على أبيه ، وجابهه بهذه الحقيقة ، طمع في أن يكون قلبه
الغافل قد تنبه ، ووعيه النائم قد استيقظ ، وأصبح في حاجة إلى من يهديه السبيل ،
ويأخذ يده إلى الصراط المستقيم ، فقال له : يا أبت ها هذا بين يديك ، إني قد
جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطا سويا . وهي جرأة من إبراهيم
وقوة قلب ، لا يدركها إلا من عرف أن الآباء يوم كانت تقاليد الخلق الكريم
قائمة بين الناس ، كانوا للأنباء سادة وقادة ، وكانوا موضع الإجلال والتفديس
والمنابة ، وموضع الاقتفاء والاتباع في كل شيء ، وأن ذلك قد أفشى بأهل
الجاهلية إلى الكفر تقليدا واتباعا : « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم
مقتدون » . فلا شك أن ابننا يسمع آباء ما أسمعه إبراهيم لأبيه ، ويطلب منه
أن يقلب ما ألف منه ، وما ألف جميع الآباء من جميع الأنباء ، فيتخذ هو قدوة
وإماما ، ويتبعه لينقذه من ضلاله وتخبطله ، لا شك أن ابننا يفعل ذلك في وجه
أبيه لجرى ذو قوة وإقدام .

ولا يكتفى إبراهيم بذلك ، ولكنه يرتب عليه في وجه أبيه أيضا أنه إن خالف
الحق بعد ما تبين فليس وراء الحق إلا الضلال ، وإن لم يعبد الرحمن فقد عبد
الشيطان ، ومن عبد الشيطان فقد ابتعد عنه عن سبيل الخير ، وتعرض لعذاب
من الله يمسه فيرديه . بكل ذلك واجه إبراهيم آباءه ، فلما لم يجد منه إلى دعوة الحق
استمعا ، بل وجد منه إصرارا واستكبارا ، أعلنه وقومه في غير تردد أنه معزلم
وما يدعون من دون الله ، داع ربه ، راج ألا يكون بهذا الدعاء شقيا : وهكذا
كان إبراهيم عمليا في دعوه ، عمليا في هجرته وعزله .

ولم يكن هذا آخر عهده بمجاهدة الباطل ، ومجاهدة الشرك حتى يقال : فني قد
يئس غفارت قواء وركن الى الفرار ، ولكنه خطا في الله والحق خطوة عملية
أخرى ما أعظمها وما أروعها ! إنه سن للأبطال خطة الإقدام وتحدي الباطل
في أمع صروحه ، وأعز مواطنه ؛ وذلك ما يفصه الله علينا في سورة الأنبياء
إذ يقول : ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين ؛ إذ قال لآبيه وقومه
ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ، قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ، قال : لقد
كتمت أنتم وآباؤكم في ضلال مبين ، قالوا أجمعنا بالحق أم أنت من اللاحقين . قال
بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين وتافه
لا كيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين . فجعلهم جذادا إلا كبيرا لهم لعلمهم إليه
يرجعون . قالوا من فعل هذا بأهتنا ؟ إنه لمن الظالمين . قالوا سمعنا فني يذكرهم
يقال له إبراهيم . قالوا فأتوا به على عين الدس لعلمهم يشهدون . قالوا أنت فعلت
هذا بأهتنا يا إبراهيم ؟ قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون .
فرجعوا الى أنفسهم فقالوا لاسمكم أنتم الظالمون . ثم نكسوا على رءوسهم لقد علمت
ما هؤلاء ينطقون . قال أتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا ولا يصركم أف
لكم ولما تعبدون من دون الله ، أفلا تعقلون . قالوا سرقوه وانصروا آلهتكم إن
كنتم فاعلين . قلنا يا ماركوني بردا وسلاما على إبراهيم وأرادوا به كيدا فجعلناهم
الآخرين .

ألا إن هذه لفصة البطولة والفداء التي لا تعرف البشرية مثلها إلا من هؤلاء
الذين اجتباهم الله ومدام وفضلهم على العالمين ؛ قصة في كل طرف من أطرافها
عبرة . وفي كل فصل من فصولها مفخرة خالدة . فيها العلم والرشد ، فيها الجبرادة
والإقدام ، فيها الحجة والبرهان ، فيها إنذار الباطل الذي يعي واسكبر ، فيها
ثقة الحق بربه وإن كان قليلا ضعيفا ، واضطراب المبطل وحيرته وإن كان كثيرا
قويا ؛ فيها تحرير العكر من سلطان الأوثان ، فيها غزو الشرك في عقر داره . فيها
تحدي الظلة الجيلة العتاة والتعرض لعنهم في سبيل الله ، فيها اتهام ، فيها تحقيق ،
فيها دفاع ، فيها سحرية من المتهم بمن يحاكمه ، فيها استخذاء الجبل أمام العلم ،
والباطل أمام الحق ، ثم فيها عجيبة هذا وإصرار ذاك ، ثم فيها ثبات الداعي

وعدم نزوله، وانتهازه كل فرصة تناح لتوكيد دعوته، وتأييد فكرته، ثم فيها خاتمة النصر للمؤمنين برعاية الله وعنايته ولو كره الكافرون ١.

فأى ثبات هذا وأى هزم ١٩

وإذا كان الله عز وجل قد قص علينا هذه القصة الرائعة التي تصور لنا جهاد إبراهيم الباطل في صورته العملية . فقد قص علينا صورة أخرى يتمثل فيها جانب آخر من البطولة في جهاد النفس والعاطفة لا يستطيعها إلا من ربط الله على قلوبهم ، وأراهم منه ما جعلهم لا يرون سواء ، وأداقهم من لذة الصلة به ما أنساهم كل لذة وراهما .

وقد جاءت هذه القصة الثانية عتب تلك القصة الأولى في سورة الصافات إذ يقول جل شأنه بعد ذكر إجماع خليله من جحيم الظالمين : « فبشرناه نغلام حلیم ، فلما بلغ معه السعی قال یا بنی إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى ، قال یا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين . فلما أسلما وتكلم للجبین وتادبناه أن یا إبراهيم قد صدقت الرؤیا إنا كذلك بحری المحسنين . إن هذا هو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظیم ، من ذا الذي يسمع هذا البأ العظيم ولا يمتلئ قلبه إيماناً بهذا البی الكريم ؟ أب بار شفیق یعتقد أنه مأمور من الله بذبح أعز الناس الیه ، وأقربهم الی قلبه : بذبح ابنه ولذذة كبده ، وهو ابن ليس كسائر الأبناء : ابن قد بلغ معه السعی ، وكله الله بالعقل والحلم ، وزينه بالطاعة والامثال : فلا یتردد ولا يتقاعص عن إبعاد أمر به ، بل یصارح ابنه في وجهه بما هو مأمور به ، ویطلعہ على اعزامه المعنى في تحقیقه ، یتلقى الابن هذا الأمر الإلهی بالطاعة والخضوع والصبر ، ویقول بلسانه لآیه : یا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين . وحينئذ یسلم الأب والابن أمرهما الی الله وبشرعا في التنفيذ : هذا بصبره وامثاله ، وذاك بحبله وسكينته ، فإذا الأرض والسماء يشهدان أعظم فداء وأعظم بلاء : يشهدان شیخا کبیرا یصرع للجبین غلاما صغیرا ، ویشرع علی عقه أذانه صابرا محنسیا ، مؤمنا ممتلا : فإذا اهتزت الأرض والسماء لذلك فقد اهتزتا - ورب العرش - لعظیم من الأمر جلل ١



هذا هو خليل الله إبراهيم في ناحيته العملية ، وإن له نواحي أخرى جدير
بالذين يدرسون النفوس والأخلاق والعقول أن يدرسوها ، ليعلموا أي نبي هذا
الذي يصفه الله في موضع واحد — وهو خالقه وبارئه — بعشر صفات جلائل
تكفي كل واحدة منهن لو انفردت بإثبات العظمة والسمو ؛ إذ يقول جل جلاله
: « إن إبراهيم كان أمة ، قانتا لله ، حنيفا ، ولم يك من المشركين ، شاكرا لأنعمه ،
اجتباها ، وهدها إلى صراط مستقيم ، وأنبياء في الدنيا حسنة ، وإنه في الآخرة لمن
الصالحين ، ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا ، وما كان من المشركين » .

الرزق

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن روح القدس نفث في روعي أن نفسا
لم تموت حتى تستوفى رزقها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب » .
وقال الحسن . بن آدم : لست بسابق أجلك ، ولا ببالغ أملك ، ولا مغلوب
على رزقك ، ولا بمرروق ماليك ، فعلام تقتل نفسك ؟
قال ابن عبد ربه صاحب العقد :

لست بقاض أملي ولا بعاد أجلي
ولا بمغلوب على الرزق الذي قدر لي
ولا بمعطى رزق غيـرى بالشقاء والعمل
فليت شعري ما الذي أدخلني في شغل

وقال آخر :

سيكون الذي نفسي غضب المرء أم رضى

وقال محمود الوراق :

من كان ذا مال كثير ولم يقع فذاك الموسر المعسر
وكل من كان قنوعا وإن كان مقل فهو المكثر
الفقر في النفس وفيها الغنى وفي غنى النفس الغنى الأكبر

طرف من مقاصد القصص القرآني

لفضيلة الاستاذ الجليل الفخيم الطيب حسن النجار
المدرس بكلية أصول الدين

يتبين في المقال السابق بعضاً من مزايا وفوائد القصص التي وردت في القرآن الكريم. والآن نعرض لبعض آخر فنقول .

قصص عليا كتاب الله الذي لا ينطق إلا بالحق ، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ما كانت عليه الأمم السالفة من اتخاذهم أرباباً من دون الله تصرم ولا تفهم : « وقالوا لا تنفرون آلهتكم ولا تفرون وقد آولاً وسواعاً ولا يعفون » ويعفون ونسراً ، أي قال رؤساء قوم نوح لسفلةهم وقرائهم : لا تتركوا عبادة آلهتكم على الإطلاق ، ولا تتركوا عبادة ود ولا سواع ، ولا يعفون ويعفون ونسراً^(١) وهي أسماء أصنام كانت أكر أصنامهم وأعظمها عندهم قالوا ذلك لما دعاهم نوح عليه السلام إلى عبادة الله ليلاً ونهاراً بلا فور ولا توان . وما كان ذلك يزيدهم إلا فراراً عن طاعة الله وعدم استجابة إلى دعائه . وكلما دعاهم جعلوا أصنامهم في آذانهم أي سدوها لئلا يسمعوا كلامه عليه السلام ، واستعشوا ثيابهم كراهة النظر إلى وجه من ينصحهم في دين الله ، وأصرروا على كفرهم واستكبروا استكباراً .

وكم كان لسيدنا إبراهيم عليه السلام مع قومه من مواقف حيال الأصنام : كان يقيم لهم الأدلة على سوء صنيعهم وسفاهة أحلامهم في عبادتها ، نارة في لين وأدب عال . إذ قال لآبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يقضي

(١) ود : صنم على صورة رجل . وسواع على صورة امرأة . ويعفون على صورة أمه . ويعفون على صورة مرس . ونسراً على صورة نسر .

هناك شيئاً . يا أبت إني قد جئت من العلم ما لم يأتك فأتبعني أهدك صراطاً سوياً .
يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً . يا أبت إني أخاف أن
يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً .

وتارة في شدة وعف وتبكيك . وإذا قال إبراهيم لآله أترأون أن تأخذوا
آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين .

وتارة كان يقيم الدليل المادي على عجز آلهتهم حتى عن الدفاع عن أنفسها
فيلقهم بالحجر .

أقدم عليه السلام ليعطن أصنامهم بعد أن يذهبوا إلى عيدهم ، ليعلمهم جذاذا
وقطعا إلا كبير الأصنام علمهم يرجعون إليه فيسألوه عن الذي كاد آلهتهم هذا
الكيد ، وإذا ذاك يدركون أن العاجز عن الطق والحركة لا يصح في العقل أن
يكون موضع احترام وإجلال ، فضلا عن أن يعبد من دون الله . وقد حكى
الله سبحانه وتعالى ذلك بقوله . وثناقه لا يكيد أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين .
لجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون .

ولكن النفوس الخبيثة لا يكبح جماحها ، ولا تبنيها عن غيا نصح ولا إرشاد .
ولما كانت الأصنام سبب البلاء وأساس فتنة الناس ، كان من الخير أن نتعرف
أصل نشأتها ، وكيف كانت لها قداسة واعتبار في نفوس الناس حتى تعبد من دون
الله وهي من صنع أيديهم وسوء صنيعهم ، لا تلك نعمنا ولا ضرا ، ولا حول لها
ولا قوة ، ولما كان القلوب قد ختم عليها بطائع من السواد فأفقدتها الوعي والمشاعر ،
قد تملكها الشيطان وجثم على موافقها فأعدها الإدراك والحس ، فإنها لا تعي
الابصار ولكن تعي القلوب التي في الصدور .

يروي كتاب الأصنام لأبي المنذر أن ودا وسواعا ويغوث ويعوق وسرا
كانوا قوما صالحين ماتوا في شهر ، فخرج عليهم أقاربهم ، فقال رجل من بني قاييل :
هل لكم أن أعمل لكم خمسة أصنام على صورهم غير أني لا أقدر أن أجعل فيها
أرواحا ؟ قالوا : نعم . ففعل لهم خمسة أصنام على صورهم ونصبها لهم ، فكان الرجل
يأتي أعياه وعه وإن عمه فيعظمه ويسعى حوله ، حتى ذهب ذلك القرن الأول ، ثم
جاء قرن آخر فمطموهم أشد من تعظيم القرن الأول ، ثم جاء القرن الثالث

فعبدهم، وعظم أمرهم واشتد كفرهم، فبعث الله إليهم إدريس عليه السلام نبيا فدعاهم إلى الله فكذبوه. فرفعه الله إليه مكانا عاليا، ولم يزل أمرهم يشتد حتى كان عهد نوح عليه السلام، فدعاهم إلى الله فكذبوه، فأمره الله أن يصنع الفلك، ثم كان الطوفان فمذوف بها إلى أرض جُذَّة. قال ابن الكابي: وكان لعمر بن لحي (وهو من العرب) رثى من الجن، فقال أنت تحف جدة، تجد فيها أصناما معدة، فأوردها تهامة ولا تهاب، ثم ادع العرب إلى عبادتها تحباب. فعملها إلى تهامة ودعا العرب إلى عبادتها، فكان ود لكب، وسواع لذييل، وبنوت المدحج، وإموق لمراد، وفسر لخير؛ فكان أول من غير دين اسماعيل عليه السلام، فصب الأوثان، وسبب السانية، ووصل الوصيلة، وبحر البحيرة، وحى الحامى^(١) عمرو بن ربيعة، وهو لحي بن حارثة. انتهى.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى ذلك في صدد الرد والإبطال لما ابتدعوه فقال: «ما جعل الله من بحيرة ولا سانية ولا وصيلة ولا حام، ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب، أى ما شرع الله ذلك ولا أمر به، ولكن الذين كفروا ينحرمهم ما حرموا يخلفون على الله الكذب في نسبتهم هذا التحريم إليه.

وقد قاتل عمرو بن لحي جُرهما حتى أجلاهما عن السكبة. ونفاهم من بلاد مكة، ثم نصب القمائل حول السكبة، فدانت لها العرب، وعبدها وأكثروا منها، فنهزم من اتخذ منها، ومنهم من نصب حجرا ثم طاف به كطوافه بالبيت، وسموها الانصاب، بحرون ويذبحون عندها ويتقربون إليها؛ فلما بعث الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم، وأنهم بتوحيد الله وعبادته وحده. قالوا: أجعل الآلهة لها واحدا؟ إن هذا لشيء عجيب. وكان أقدم أصنامهم مائة؛ ثم اللات، وكانت صخرة مربعة يلت السوق عندها يهودى، ثم الحزى، وهى التى ورد ذكرها في

(١) إذا تجعد الفلاة حبة أبطل آخرها ذكر بحروا أذنبا أى شفعوا وحرموا ركوبها وعبدها، ولا تطرد عن ماء ولا عن مرعى، وكان الرجل يقول: إذا سمعت من مفرى أو برات من مرضى فأتقن سائمة، وجعلها كالبحيرة في تحريم الاتصاع بها، وإذا ولجت الفلاة أتقن وذكرها، قالوا: وصلت أعظامها، فلا يذبح الذكر لأهلهم، وإذا تجعد من صلب أفضل عشرة أبطل قالوا: قد حرم ظهره، فلا يركب ولا يحمل عليه، ولا يبتغى من ماء ولا مرعى.

القرآن بقوله : « أفرايتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الاخرى ، ألستم الذكور وله الاتى ، تلك إذا قسمة ضيزى ، إن هى إلا أسماء سميتوهما أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان . »

فلما كان يوم فتح مكة دخل النبي صلى الله عليه وسلم المسجد الحرام والاصنام منصوبة حول الكعبة ، فجعل يطمئن بسية قوسه فى عيونها ووجوهها ، ويقول : جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ثم أمر بها فكشفت ، ثم أخرجت فخطمت . وفى ذلك يقول راشد السلى :

قالت هل إلى الحديث فقلت لا يابى الإله عليك والإسلام
أو ما رأيت محمداً وقيله بالفتح حين تكسر الاصنام
رأيت بور الله أضفى ساطعا والشرك بعنى وجهه الإظلام

ثم بعث النبي صلى الله عليه وسلم عام الفتح عليا إلى مناة فهدمها ، وبعث المعيرة ابن شعبة إلى اللات فهدمها ، وبعث خالد بن الوليد إلى العزى فقال « انت بطن نخلة فإليك نجد ثلاث سمرات فاعضد الاولى ، فأناها فعضدها ، فلما جاء إليه عليه السلام قال . هل رأيت شيئا ؟ قال لا ، قال فاعضد الثانية ، فأناها فعضدها ، ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال هل رأيت شيئا ؟ قال لا ، قال فاعضد الثالثة ، فأناها فإذا هو بحبشية نافذة شعرها واضعة يديها على عاتقها وخلفها دُبيرة وكان سادنها ، فلما نظر إلى خالد قال :

أعزاه مُشدى شدة لا تكذبى على خالد ألقى الخمار وشمى
فإنك إلا تقتلى اليوم خالدا تبوقى بذل عاجلا وتنصرى
فقال خالد يا عزى كفى منك لاسبعائك إني رأيت الله قد أهانك

ثم ضربها ففارق رأسها وعصد الشجرة وقتل دبيرة السادن ، ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فقال : تلك العزى ولا عزى بعدها للعرب ؛ أما إنها لن تعبد بعد اليوم .

وقد جاء فى مسلم ما يشهد لأصل نشأة الاصنام : فعن عائشة رضى الله عنها أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، كنيسته رأياها بالحشة

فيها تصاوير ، فقال الرسول عليه السلام : إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فأتى بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور : أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة .

فاسم الإشارة في قوله (أولئك) راجع إلى أصلهم وصفهم لا إلى نفس القوم الذين عدتهم الصور . وأصل أغراضهم في هذا التصوير هو الاتقاس بين يصورونه بعد موته ، فلما جاء من بعدهم بسوا أغراضهم فعبدوها من دون الله . والمراد بالتصاوير في الحديث : التماثيل والإشارة في قوله : أولئك شرار الخلق ، لمن نحت وعبد ، فإن كانت لمن نحت فقط فيكونون شرارا بتصويرهم ، لحديث وعبد المصورين .

فأنت ترى مع تطاول الزمن كيف تنوسى العرض الأصلي ، وتمكن الشيطان من التسلط على نفوس من جاءوا بعد الأولين فأوحى إليهم أنها آلهة تنفع وتضر وهي خليفة أن تعبد .

ولما يئس النفس أسى ولوعة ، ويدى القلوب ويذيب النفوس حسرات ، أن نرى في هذا العصر ، عصر النور والمعارف ونصج العقول ، الأمم الإسلامية تجارى أم الغرب فترمز لأبطالها وزعمائها بتماثيل تنخذها من محاسن أو برز أو حجارة منحوتة ، وتنفق في سبيلها الكثير من أموالها ، والعظيم من مجهودات صاعها ، ثم تقيمها في الميادين العامة والمتنزهات ، حتى يقع عليها نظر كل غاد ورائح ؛ تهدف بذلك إلى تخليد ذكرى من كان له ماض مجيد وعمل جليل ، مكافأة له على ما بذل من تصحية في سبيل وطنه ، أو ما ظهر منه من فضل ونبوغ وإذكاء لقرايح النشء الحديث ، فيرسمون خطى قادتهم وزعمائهم السابقين . وما دروا أن التاريخ يعيد نفسه ، فيأتى ذلك اليوم الذى أتى على من قبلهم فتتأسى الأجيال المقبلة العرض الأصلي وتتخذ هذه التماثيل أربابا من دون الله . وما أحوج الأمم الإسلامية إلى تلك الأموال لتنفقها في سبيل مشروع وعمل نافع يعود على الفرد والمجتمع بالخير تسديه عوز المعوزين ، وتدفع به غائلة الفقر الذى تنجم عنه الأمراض التى تناب الكثيرين وتودى بحياتهم . لو أنها استعاضت عن تلك التماثيل بمستشفيات وملاجىء ومصانع ، وأطلقت عليها أسماء من تريد تخليد أسمائهم

لكانت قد أسدت اليهم معروفا . وأحسنت اليهم أيما إحسان ، ولكانت قد أنقذت أباءها من الأمراض التي تنخر في أجسامهم ، وأعدتهم إعدادا صالحا يجعلهم يضطلعون بما يستند اليهم في حزم ومضاء عزيمة ، وينهضون بشعوبهم عن جدارة وصدق وإخلاص ، فتحيا بهم البلاد وتسمد ، وتفتح أمامها الى اليمين واليسار كل مسلك . ولكانت قد قضت على الأيدي العاطلة ، وأكثرت من الأيدي العاملة ، فتقل الجرائم ويسود الأمن والرخاء . ولكانت قد غرست في نفوس النشء المباني القوية ، وسلكت بهم سبيلا غير ذي عوج . فإذا هي فعلت ذلك وغير ذلك من كل ما له اثر محمود كانت قد اتفقت بالعظة الحسنة ، ووضعت يدها على المقصد الأسمى ، وأصاب المهدف الذي تهدف اليه ذكرى قصة التائبين ، فتصيا طلال النعمة ، ويرفرف عليها علم العز والمنعة ، فتعيد للإسلام شاح مجده ، وتحيطه بسياج من المهابة والإجلال .

« يتبع »

حياة العزلة

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « استأنسوا بالوحدة عن جلساء السوء . . . وقال : « خيركم الاتقياء الاصفياء الذين إذا حصروا لم يعرفوا ، وإذا غابوا لم يفتقدوا . . . وقال أيضا : « لا تدعوا حظكم من العزلة فإن العزلة لكم عبادة . . . وقال ابراهيم بن آدم . فر من الناس فرارك من الأسد . وقال ابن عريز . إن استطعت أن تعرف ولا تعرف ، وأن تال ولا تال ، وأن تمشي ولا يمشي اليك ، فافعل . وقال أيوب السخيتي : ما أحب الله عبدا إلا أحب أن لا يشعر به . وقيل للعنابي : من تجالس اليوم ؟ قال : من أبصق في وجهه ولا ينضب . فقيل له : ومن هو ؟ فأجابهم : الحائط . وقال دجيل .

ما أكثر الناس لابل ما أقلمهم الله يعلم أني لم أقبل فتندا
أنى لا فتح عيني حين أفتحها على كثير ولكن لا أرى أحدا
وقول نحن : يميل الى أن بعض هذا كثير .

تفسير سورة الاعلى

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الرحيم فرغل البلي
المدرس بكلية الشريعة

بسم الله الرحمن الرحيم

« سبح اسم ربك الاعلى ، الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى ، والذى
أخرج المرعى ، فجعله غثاء أحوى ، ستقرئك فلا تنسى ، إلا ما شاء الله ، إنه يعلم
الجبهر وما يخفى ، ويسرك لليسرى ، فذكر إن نعمت الذكرى ، سيذكر من يخشى ،
ويتجنبها الأشقى ، الذى يصلى النار الكبرى ، ثم لا يموت فيها ولا يحيى ، قد أفلح
من تزكى ، وذكر اسم ربه فصلى ، بل تؤثرون الحياة الدنيا ، والآخرة خير وأبقى ،
إن هذا لى الصحف الأولى ، صحف إبراهيم وموسى . »

هى سورة مكية على المشهور ، وآياتها تسع عشرة آية بلا خلاف .
وحكمة إزالتها تنحصر فى شيئين :

(أولها) إنذار من أعرض عن دعوة الرسول وتجنبها ، بإصلاؤه النار
الكبرى التى لا يموت فيها ولا يحيى .

و (ثانيها) تبشير من تزكى بقبولها وعمل بموجبها ، بالفلاح والفوز ،
والخير والنجح .

وما ذاك إلا للتفجير عن المخالفة والعناد ، والكفر والضلال ، والكبر
والإعراض ؛ والترغيب فى الامتثال والاستجابة ، والإيمان والطاعة ،
والإذعان والانقياد .

وقد مهدت السورة لذلك بالامر بتسبيح اسم الرب وتزويه ، وتقديسه
وتمجيده ، واصفة له - جل وعلا - بأنه مصدر الإيجاد والإحكام ، والإبداع
والإنقان ، والتقدير والهداية ، والرزق والإنعام ؛ ليذف الناظرون على دلائل
وجوده ، وآيات تفرده .

وقد مهدت له أيضا بأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالتذكير والتبليغ ،
والصح والإرشاد ، بما ينده الله في قلبه من آيات الكتاب التي وعده الله بأن
يحقق له وعيها إلا ما شاء نسخه منها ؛ ليقيم الحجة ، وبني الرب ، ويقطع المعذرة .

بيان المعنى التفصيلي

• سبح اسم ربك الأعلى ، التسبيح ، التزينة والتفديس . و اسم الرب ، هو
ما يدل على صفاته التي يعرف بها : كالعالم ، والقدير ، والحكيم ، والخبير . والخطاب
في الآية الكريمة لكل من يتأق خطابه ، عن يتوجه اليه التكليف والإلزام .
و المعنى . نزه أيها المكلف اسم ربك عن كل ما لا يليق به ، فلا تزد به
معنى لا يتناسب مع عظمة المولى وكبريائه ، ولا تذكره إلا وأنت خاشع ،
ولا تذكره في موضع لا يليق بجلاله ، ولا تطلقه على غيره زاعما أنه يشاركه
أو يساويه . وإنما أمرنا بتسبيح الاسم دون تسبيح الذات للإشارة إلى أن منتهى
ما نصل إليه عقولنا أن نعرف الصفات بما يدل عليها ، أما الذات فهي أعلى
وأرفع من أن تتوجه إليها عقولنا إلا بمقدار ما نلاحظ من هذه الصفات التي تقوم
عليها الدلائل .

و ، الأعلى ، صفة الرب ، والمراد بالعلو : العلو بالقهر والافتقار ، والعظمة
والجبروت ، لا العلو بالمكان ، لاستحالة عليه سبحانه وتعالى . وإنما جيء بهذا
الوصف ، لأنه مشعر باستحقاقه سبحانه وتعالى للتزينة والتسبيح المأمور به ،
وكأنه قيل سبح اسم ربك لأنه الأعلى الذي غلبت قدرته ، وقهر سلطانه ، والذي
تفرد بالعمة والكبرياء .

الذي خلق فسوى :

جاء بهذه الآية وبما بعدها للاستدلال بما تضمنته من آثار القدرة ،
على وجود الرب سبحانه وتعالى ، وهي واقعة في جواب سؤال مقدر ، وكان
سائلا قال بعد الأمر بالتسبيح . الاشتغال بالتسبيح إنما يكون بعد معرفة الرب
والاعتقاد بوجوده ، فما الدليل على ذلك ؟ فأجيب بها .

هذا ، والاستدلال على وجود الرب سبحانه وتعالى بالخلق والهداية هو
الطريق المعتمد عند أكابر الأنبياء ، كما حكى عن إراهيم عليه السلام وقد أراد

أن يستدل على وجود الرب فقال : « الذي خلقني فهو يهدين » ، وكما حكى أن
فرعون لما قال : « فن ربك يا موسى » قال موسى : « ربنا الذي أعطى كل شيء
خلقهم ثم هدى » . وإنما وقع الاستدلال على وجود الرب بهذه الطريقة ، لأن
عجائب القدرة وغرائب آثارها فيها أكثر ، ومشاهدة الإنسان لها وإطلاعه
عليها أتم ، فلا جرم كانت أقوى في الدلالة . ومفعول « خلق » محذوف ،
وكذلك مفعول « سوى » ، والتقدير : خلق الكائنات وسواها ، أى عدلها .

والمعنى . إن المسأور بتسبيح اسمه وتزبيحه ، هو الذى خلق الكائنات
وسواها ، أى أوجدها على نظام كامل لا حلل فيه ولا فساد ، ولا تفاوت
ولا اضطراب ، كما يرى فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار .
«والذى قدر فهدى» :

مفعول « قدر » و « هدى » محذوفان أيضا . والتقدير : قدر المنافع ، وهدى
لإنسان .

والمعنى : والذى أوجد المنافع فى الكائنات ، ونصب الأدلة على وجوده
فى المخلوقات ، وهدى الإنسان بما غرس فيه من الفهم والمعرفة ، والعلم والإدراك ،
الى استخراج تلك المنافع والفوائد من الموجودات ، وإلى الاعتناء بما ركب
فيها من الدلائل والآيات ، على وجوده وتفرده ، وعظمته وقدرته ، وجبروته
وكبريائه . ورحم الله القائل :

وفى كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

«والذى أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى» :

« المرعى » : الكلاًّ الأخضر الذى ترعاه الحيوانات .

« الغثاء » : ما يبس من النبات فقذف به السيل على جانب الوادى .

« الأحوى » : المسود من التقدم .

و المعنى . وهو الذى أنبت النبات غضا طريا يرف ، فجعله بعد ذلك يابسا
بعد الطراوة ، أسود بعد الخضرة ، فانيا بعد الوجود . أفلا يدل هذا على وجوده
وتفرده ، وقدرته وعظمته .

ثم قال الله تعالى :

« سقرتك فلا تنسى ، إلا ما شاء الله ، إنه يعلم الجهر وما يخفى » .

بعد أن أمر الله المكلف بتسبيح اسمه سبحانه وتعالى ، وأرشده إلى دلائل وجوده في الكائنات ، شرع بعد نبيه صلى الله عليه وسلم بأنه سقرته كتاباً لا ينسى منه إلا المنسوخ ، فيه إرشاد المكلفين إلى معرفة ربهم ، وهدايتهم إلى ما يغرس التوحيد في قلوبهم ، ويعلم شمس الحق في نفوسهم .

بيان سبب النزول :

قال مجاهد ومقاتل : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه القرآن أكثر تحريك لسانه أثناء الإتيان بحافة أن ينسى ، وكان جبريل عليه السلام لا يكاد يفرغ من آخر الوحى حتى يتكلم هو بأوله ، فقال تعالى « سقرتك فلا تنسى ، أى سنعلك هذا القرآن حتى تحفظه . ونظير هذا قوله تعالى : « ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحيه » .

والمعنى : إنا سنشرح صدرك ، ونحد ذاكرتك ، حتى تحفظ بمجرد سماعتك ، ثم لا تنسى بعده أبداً من قوة الحفظ والإتيان ، إلا ما شاء الله أن تنساه ، عما رفع حكمه وتلاوته : ليكون عدم النسيان لك آية تدل على صدقك ، مضافة إلى ما في تضاعيف الكتاب من الآيات البينات ؛ ولتكون تلك الآيات الباقية ، والأحكام الخالدة عدة لك في دعوتك ، تير بها الطريق ، وتهدى بها السيل ، وترشد بنورها من ألقي السمع وهو شهيد .

وقوله تعالى : « إنه يعلم الجهر وما يخفى » تأكيد للوعد بالإقراء مع استثناء المنسوخ .
و « الجهر » هو ما ظهر من الأقوال . و « الخفى » هو ما استتر منها .

والمعنى : إنه تعالى يعلم جهرتك بالقراءة وإسراك بها مع جبريل عليه السلام ويعلم ما دعاك إليه من محافة النسيان ، فلا تخف فإنه يكفيك ما تخاف .

ثم قال تعالى : « ونيسرك لليسرى » .

« التيسير » التسهيل والتذليل ، والمراد به هنا التوفيق . والخطاب في الآية للرسول صلى الله عليه وسلم . و « اليسرى » الطريقة السهلة .

والمعنى : سنوفئك توفيقاً مستمراً للإحاطة بأحكام الشريعة السمحة التي يسهل على النفوس قبولها ، ولا يصعب على العقول فهمها ، ولا يصدف عنها إلا من سكن الحقد قرارة نفسه ، وأكل الحسد شراسيف قلبه ، وملك العناد زمام عقله .

« فذكر إن نفعت الذكرى » :

« التذكير ، الوعظ والإرشاد . و « الفاء » لترتيب التذكير على التيسير اليسرى . وليس الأمر بالتذكير في الآية الكريمة مشروطاً بنفع الذكرى ، بل في الكلام مقابل محذوف . والتقدير : فذكر إن نفعت الذكرى وإن لم تنفع . والدليل على هذا المحذوف قيام الإجماع على عموم بعثته صلى الله عليه وسلم ، وعلى أن الواجب عليه أن يذكر من ينفع ومن لا ينفع . وإنما اقتصر على ما ذكر اكتفاء به ، لدلالته على مقابله ، كما في قوله تعالى « سراويل نقيم الحر ، أى والبرد . والمعنى : قدم على وعظ الناس وإرشادهم ، وتنبههم وتذكيرهم بعد ما استقام لك الأمر من إقرانك الوحي وإحاطتك بأحكام الشريعة السمحة ، سواء أكان من الناس إصاخة وافتناع ، أم كان منهم شماس وإعراض .

« سيدكر من يخشى » :

لما ذكر سبحانه وتعالى الأمر بالتذكير في قوله : « فذكر » . بين في هذه الآية وتالياتها من ينفع بالذكر ومن لا ينفع .

والمراد بهذا الصف الذى ينفع بالذكر ، الصف المتوقف فيما جاء به الرسول ، السليم من المكابرة والعماد إذا ظهر الحق ، ووضع الدليل . وذلك أنه يتأمل فيما يذكر به ، وليس له هوى ينفيه عن القبول ، ولا رغبة تدفعه إلى الجحود ، وحيتئذ يظهر له وجه الصواب فيه ، ويتبين عده أنه الحق الذى لا يجوز إلا الإقبال عليه .

والمعنى . سيعط وينفع بتذكيرك عن كذب من يخشى الله في الجملة بما يستعمله من النظر في أمر ما تذكره به ، حتى يقف على حقيقته فيؤمن ويطيع . « ويتجنبها الأشقي ، الذى يصلى النار الكبرى . ثم لا يموت فيها ولا يحيى » :

« يتعجبها » : يترك الذكرى ويتعاماها .

« الأشقي » : الكافر المصر على الجحود والمعاد .

« النار الكبرى » : أى العظمى ، هى نار الآخرة ، أما الصغرى فهى نار الدنيا .

والمعنى : إن المعاند الجاحد هو الذى لا يلتفت إلى الذكرى ولا يتمتع بها ،

لأن شقاءه قد غلبه ، وإعراضه عن نور الشريعة قد حجب به ، فهو أشقى الأشقياء
فى الآخرة بما يصلاه من النار العظمى التى لا يموت فيها فيستريح ، ولا يحيا
حياة تنعمه .

ثم قال الله تعالى . . « قد أفلح من تركى » وذكر اسم ربه فصلى . .

لما ذكر سبحانه وتعالى وعيد من أعرض عن النظر فى الدلائل ، والتأمل
فى الآيات ، أتبعه بذكر الوعد لمن ترك نفسه من أذناس الكفر ، وأضرار الشرك .

بيان المعنى التفصيلي :

« أفلح » فاز ونجا . « تركى » تطهر من الشرك .

« ذكر اسم ربه » . استحضر معرفة الله بذكره وأسمائه وصفاته .

« صلى » أدى الصلوات الخمس ، كما روى عن ابن عباس .

وعلى هذا تكون الآيتان مشيرتين إلى مراتب أعمال المكلف الثلاثة .

(١) إزالة العقائد العاسدة عن القلب ، وهى التى أشار إليها قوله : « تركى » .

(٢) استحضار معرفة الله تعالى ، وهى التى أشار إليها قوله : « وذكر اسم ربه » .

(٣) الاشتغال بحمدته تعالى ، وهى التى أشار إليها قوله : « فصلى » .

والمعنى الإجمالى : قد فاز فى الدارين ، من طهر قلبه من لوثة الشرك ،

وعرف ربه ، فأمن بوجوده ، وأذعن لكبريائه ، وتفانى فى خدمته بأداء
الواجبات ، والوقوف عند الحدود والأحكام .

ثم قال تعالى : « بل تؤثرن الحياة الدنيا ، والآخرة خير وأبقى »

وقد جرى به تقييما وتوبيخا لمن لم يتمتع بالذكرى وتعاماها ، وأعرض عن

الدعوة وجاهاها .

والخطاب في . تؤثرون ، الجاحدين المعاندين ، وكلمة . بل ، للإحتراب من مقدر ينساق اليه الكلام ، كآته قيل لثريان ما يؤدي الى الفلاح من التزكية والذكر والصلاة : وأتم أيها المعاندون الجاحدون لا تفعلون ذلك ولا تفكرون فيه ، بل تؤثرون الحياة الدنيا . وإشار الحياة الدنيا ، هو الاطمئنان إليها ، والعمل لها ، والرضا بما فيها ، وجسود الآخرة ، وعدم التفكير فيها ، وترك السعي لها . وجملته . والآخرة خير وأبقى ، مؤكدة للتفريع والتوبيخ .

والمعنى : أتم أيها المعاندون الجاحدون لا تطهرون أنفسكم من دنس الشرك ، ولا تعرفون خالفكم وبارئكم ، ولا تدعسون لأوامره وتكاليفه ، بل رضيتم بالحياة الدنيا وآثرتموها ، واطمأنتم اليها وعلمتم لها ، وجحدتم الآخرة وما فيها ، مع أن الآخرة خير منها ، لما فيها من السعادة الجسدية والروحانية ، والدنيا ليست كذلك : وأبقى منها لأنها دائمة خالدة ، والدنيا زائلة فانية ، والباقي خير من الفاني .

ثم قال تعالى : . إن هذا لفي الصحف الأولى ، صحف إبراهيم وموسى ، .

الإشارة في . هذا . إلى ما تضمنه قوله تعالى : . قد أفلق من تركي وذكر اسم ربه فصلي ، الى قوله تعالى . . والآخرة خير وأبقى . .

وقد أراد الله بهذا أن يؤيد الحق الذي أوحاه الى نبيه يائبات أنه هو بعينه الحق الذي ذكر في صحف إبراهيم وموسى . وذلك أن قوله تعالى : . قد أفلق من تركي ، إشارة الى تطهير النفس من العقائد العاسدة ، وقوله : . وذكر اسم ربه ، إشارة الى تكميل الروح بمعرفة الله تعالى ، وقوله : . فصلي ، إشارة الى تكميل الجوارح بطاعة الله ، وقوله : . بل تؤثرون الحياة الدنيا ، إشارة الى الزجر عن التفتات الانسان إليها ، وجعلها كل بعينه ؛ وقوله : . والآخرة خير وأبقى ، إشارة الى الترغيب في ثواب الله ، وابتغاء الدار الآخرة .

هذا ، وقوله : . صحف إبراهيم وموسى ، لم يذكر على سبيل الاستقصاء ، وإنما ذكر على سبيل المثال ، لأن هذه الدعاء مذكورة في صحف جميع الانبياء التي منها صحف إبراهيم وموسى ، وإن اختلفت الصور وتعددت المظاهر . والله أعلم ؟

المجاز والكناية في كتاب الله

القرآن والمفسرون

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد محمد البحيري

المدرس بكلية اللغة العربية

هل نسي الشيخ ما كتبه في عدد ربيع الثاني سنة ١٣٦٨ من مجلة الأزهر
أو هو يتناساه ؟

يقول الأستاذ الكبير في عدد جمادى الآخرة إن الذي أسكره وتعرض
لإبطاله هو الرى بنفس الجوم لأنه يترتب على ذلك بطلان زينتها ومحوها من
السماء ويقول في عدد رجب . ليكن ما تعرضت لإبطاله . من أن الرى بنفس
الجوم قد اعترضه المفسرون ، ولكن أليس كل ما هالك أنى أبطلت بإطلا
وذلك ما أما حريص عليه كل الحرص حتى تبقى للسماء زينتها .

وأنا أقول للشيخ : إن رى الشياطين بنفس الجوم على المعنى الذى فهمه من
زوالها وبطلان زينتها لم يقل به أحد من المفسرين ، لا من السالفين ولا من الخلفين ،
وليس هذا موضع نزاع بين أحد من الناس وبده ، ولست أدري على من يرد
الشيخ إذا ؟ وما هو الباطل الذى يريد إبطاله ويترتب عليه المفسرون ؟ وإنما
موصوع النزاع الذى أثار القاش والرد هو إنكار ما تدل عليه نصوص من
القرآن والسنة لا تقبل جدلا ولا تأويلا .

وذلك هو ما أخذه على الشيخ في عدد ربيع الثاني في نقطتين خطيرتين :

(١) إنكار النسم والحطف والرى بالشبه التى نص عليها آيات الكتاب
العزيز والآحاديث الصحيحة وأقوال السلف والخلف .

(٢) إنكار أن في القرآن تبشيرا وإذارا ووعدا ووعدا لغير بنى آدم
ما يتضمن عدم تكليف الجن وعدم رسالة الرسول إليهم .

هاتان القطعتان الخطيرتان هما موضوع النزاع ، لا الرى بنفس النجوم وإبطال زينتها ، وإن كان الشيخ سى ذلك فأما أذكره بنص ما قاله فى هاتين القطعتين فى العدد المذكور ، وأعيده على سماع القارىء وبصره ، حتى يعرف الموضوع ولا يلتبس عليه الأمر .

قال الشيخ فى صفحة ٢٩٧ من هذا العدد : « فكيف إذا نسيخ لأنفسنا تصور أن الشياطين تحاول التسمع إلى ما يجرى فى السماء من تدبير فلا يردما إلا أن تحذف بالشبه ، وفى ذلك ما فيه من تهوين لحرمه واستهانة بمكان قصره ونزول بدوئه إن صح فى الأذهان ما يصورون عن دواوين ملوك الأرض ، فكيف نبيح لأنفسنا هوان مكان قصره والنزول به إلى هذا الحد ، ولا يكون للسماء من إعتان حلقها ومحكم صنعها وجلال صانعها رادع للشياطين عن تلك المحاولات . »
أليس هذا إنكاراً للتسمع والرى بالشبه مطلقاً فى آية « الملك » وفى غيرها من الآيات ؟

ويقول فى نفس الصفحة : « وأما ثانياً فإنه مع ترى فى هذا المعنى من تحاف للحكمة وتناف للإعتان قد بناء المفسرون على حيال باطل وخطأ آثم فلا مساواة حتى يكون هناك كلام وخطاب تسمع إليه الشياطين لتحطف من ذلك خطفة تلذعها قبل وقوعها لتهدم من ذلك ما خطه الله بنفسه من علم الغيب . »
أليس فى ذلك أيضاً إنكاراً للتسمع والخطف مطلقاً ، وإبطالاً لـ « فى آية » الملك ، وفى غيرها من آيات الحجر ، والصفات ، والجن ، لأنه يبطل التسمع من حيث هو تسمع ، والرى بالشبه من حيث هو رى بها ، والخطف من حيث هو خطف .
ولا شك أن هذا كله وردت به النصوص الصريحة من القرآن والأحاديث وأقوال السلف ، كما بينت ذلك فى الرد الأول على الشيخ .

وأما من القطعة الثانية الخطيرة ، فقال فى صفحة ٣٧٣ من نفس العدد : « وبجمل ذلك أن القرآن إنما هو للبشر أنزل على واحد منهم ، فكل ما فيه من وعد ووعد ، وإنذار ونبشير ، إنما هو للناس ، إنما هو لبني آدم ، ولو سلم على سبيل الجدل فقط أن منه ما هو موجه لخلق آخر لأبى نظم القرآن أن يضم إقحاماً على هذا الوجه الذى يمس فى قوة بلاغة القرآن . »

أليس هذا إنكاراً صريحاً لتكليف الجن مطلقاً لأنهم غير مبشرين وغير منذرين؟ ويلزم من ذلك نفي تكليفهم ، مع أن نصوص القرآن ونصوص السنة وإجماع السلف والخلف يدل على أنهم مكلفون ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم مرسل إليهم .

هذا هو موضع النزاع بيننا وبين الشيخ . فإن كان الشيخ نفي ذلك فيها أبداً ذكره ، وأنا مستعد لإبطال ما ذهب إليه ثانياً كما أبطلته أولاً ، وأنا على استعداد لأعيد النقاش جذعاً في هذا الموضوع حتى يتبين الحق ، وما أسعدني بذلك لأنني أبتغي وجه الله وأرجوه حسن المثوبة ؛ وإن كان الشيخ يريد أن يتناساه ويعني عليه فما أجل أن يصرح بذلك ويبينه لينتهي الخلاف في هذا الموضوع ؛ وإن كان لديه تأويل مقبول لهذه النصوص ، أو حجة ناهضة بحق بها الحق فليستصل بذلك ، وسيراني أول من يعترف الحق ويرحب به ويرزجى الثناء موفوراً على من يبينه .

هذا ، ولا يفوتني أن أمدى ما لاحظته على مقال الشيخ في عدد رجب سنة ١٣٦٨ ، ويتلخص فيما يأتي .

أولاً : يقول الشيخ إن ابن عباس قد عبر بالكواكب ولم يعبر بالشهاب في قوله : « فيرمون بالكواكب » ، مما يفيد أن الرمي بالكواكب أنفسها ، وهذا يكتفي بذلك لأن أعرض لبطلان الرمي بالكواكب . ثم يقول : « وماذا تصنع في تعبير قتادة إذ يقول : للنجوم ثلاث فوائد : الرينة ، ورجم الشياطين ، والامتداه بها ، فيجعل رجم الشياطين بنفس النجوم . أليس ذلك كافياً في أن أعرض لإبطال أن يكون الرمي بنفس النجوم » .

إذاً فالشيخ يرد في مقالاته من أول ما كتب إلى الآن على ابن عباس وفتادة ، واحصررت خصومته للفرسين في ابن عباس حبر الامة وترجمان القرآن الذي دعا له الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله : اللهم قبه في الدين وعلمه التأويل ؛ وفي فتادة رضي الله عنه . وما كنت أود أن تكون خصومة بين الشيخ وبين هذين الإمامين الجليلين في غير محل الخصومة ، وهل هما حقيقة اللذان عناهما الشيخ في مقال ربيع الثاني من المفسرين ، فكمالهما ما كمال من ألوان

التضليل والتأنيب والخيال الباطل ، ويريد أن ينق من أجلها أفق القرآن من جهام الاضاليل ونقع الابطال ؟ وهل ابن عباس وقتادة أخطأ كل منهما الصواب وضل الطريق في فهم كتاب الله تعالى ، والشيخ يصحح أخطاءهما ، ويبطل ما اقترياه على القرآن ؟ وفيه أخطأ ابن عباس ؟ أفي قوله : فيرمون بالكواكب . وهل هذه العبارة تدل من قرب أو من بعد على أن الكواكب تنهار وتزول من مكانها بالرمي فتبطل زيتها وتمحى من السماء محو ؟ وهل ابن عباس غفل عن الآيات الأخرى التي تنص على أن الرمي بالثهب (وهو حجر الامة) أو أن عبارته محمولة على معنى الآيات الأخرى ؟ وهل قول قتادة : للنجوم ثلاث فوائد : الزينة ورجم الشياطين والاهتداء بها ، قول باطل يستحق التفتيد ، وهو الذي حمل الشيخ على أن يكتب ما كتب ؟ وهل معنى قوله من فوائد النجوم رجم الشياطين ، أن النجوم تزول من السماء بالرجم وتبطل زيتها ؟ وبم تكون الزينة وبم يكون الاهتداء إذا في قول قتادة وقد أثبتهما فائدتين للنجوم ؟ وهل قتادة يتناقض هذا التناقض ويهار بمثل هذه السرعة ؟ وهل ذلك بقوله أحد أو يفهمه فاهم ؟ ولو طعن الشيخ في الرواية عنهما لمكان محتملا وغير مكشوف ، ولكن بشرط أن يجرى الطعن في السد على قاعدة الجرح والتعديل ، والشيخ لم يبين ذلك ، فالشيخ يريد الرد على ابن عباس وقتادة ، وقد عرفنا قيمة هذا الرد من الوجهة العلمية والعقلية .

ثانيا . يفاضل الشيخ بين المجاز الذي أراده المعسرون في قوله تعالى : وجعلناهم رجوما للشياطين ، لعلاقة الجرئية ، وبين المعنى الذي أراده من أن الرجوم أدلة ، ويقول . إن المعنى الذي سلكه أولى مما سلكه المعسرون . وأما أقول . إن الذي سلكه المعسرون في الآية تؤيده الآيات الأخرى وتدل عليه آية الملك دلالة ظاهرة : أما معناه فبعيد عن الآية كل البعد ، وحمل لها على خلاف ظاهرها من غير ضرورة .

ويقول . إن آية الملك أولى بها أن تسلك مع آية الأنبياء في سمط واحد ، وذلك أولى من نظمها في سلك آيات الحجر والصافات والجن . وهذا لا دليل عليه ، وقد بينت ذلك في مناقشة المقال الثاني للشيخ ورددت عليه بما فيه الكفاية . على أنني أقول للشيخ : سلنا جدلا فقط أن ما سلكه في آية الملك أولى مما سلكه

المفسرون ، وسلمنا جمد لا فقط أن الأولى نظم آية الملك مع آية الانبياء دون أخواتها من آيات الحجر والصافات والجر : فهل هذه الأولوية تبرر طعن الشيخ على المفسرين على النحو السابق ؟ وهل تبرر تضليلهم وتأييدهم واتهامهم بأنهم ألقوا بالآفاق القرآني جهام الأضاليل ونقع الأباطيل ؟ .

ثالثا : أما ما ساقه الشيخ من الآيات الدالة على قدرة الله تعالى وعظمته وأن آية الملك في اتجاهها ومن قبيلها ، لا من قبيل الآيات الثلاث . آيات الخطف والاستراق والاستماع ، ففعل نظر ، وهل هذه الآيات الثلاث لا تدل على قدرة الله تعالى وعظمته حتى لا تحمل عليها آية الملك وتكون في اتجاهها ؟ إنها تدل ولا شك على أن مخلوقا مهما بلغ في القوة وعظم في الخلق والتكوين لا يستطيع أن يفلت من قدرة الله تعالى وعقابه الصارم : ورجم الشياطين بالشهب من أدل الدلائل على ذلك ، ومظهر من مظاهر عظمة الله وسلطانه . وأسأل الله تعالى التوفيق لصالح العمل ، وأن يجنبنا جميعا الزلل ، إنه ولي التوفيق ، وهو حسبى ونعم الوكيل .

المدار على العقل

دخل كثير الشاعر على عبد الملك بن مروان ، فقال له أمير المؤمنين : أدت كثير؟ فقال : نعم . فاقتمعه وقال : تسمع بالمعدي خير من أن تراه .
فقال كثير : يا أمير المؤمنين كل إنسان عند محله ربح الفناء ، شاح البناء ، على التناء ، وأشد يقول :

تري الرجل التحيف فتزدره	وفي أثوابه أسد مصور
بغات الطير أطولها رقبا	ولم تطل البزاة ولا الصقور
فما عظم الرجال بزين	ولكن زينهم حسب وخير
ويعجبك الطير إذا تراه	فيخلف ظنك الرجل الطير ^(١)
وقد عظم البعير بغير لب	فلم يستغن بالعظم البعير
يقوده الصبي ^(٢) بكل أرض	ويصرعه على الجنب الصغير

فقال عبد الملك : فأنله الله ما أطول لسانه ، وأمد عنانه ، وأوسع جانه !
إني لأحبه كما وصف نفسه .

(١) الطير من الناس : ذو المنظر (٢) قرد الهابة بمعنى قارعا .

اعجاز القرآن

والتحدى به، ومعارضة العرب له

لفضيلة الأستاذ الجليل « السيد »

حديثان كريمان عن الدين ، وعن رسالة النبي الأمين : محمد بن عبد الله ،
صلوات الله وسلامه على محمد .

أما هذان الحديثان ، فهما حديث الإعجاز القرآني ، وأنه آية النبوة ، وحجة
الرسالة ؛ وحديث التحدي به ، وأنه دمج العرب بإحسانه ، وأخسرهم بنبيانه ؛
وهما الحديثان الطيبان ، يصدع بهما العلم حجاب الشك عن النبوة ، وتشرق
دلالة الدين حجة .

أجل : إن القرآن معجزة البيان ، آية النبوة المحمدية ، قرينة بذلك عين
السحر العربي ، طيبة نفس المجتمع البياض ، لا التمحُّل فيه ولا الدهوى .

يبد أن ما في نظم الدليل - كما يقول علماء المنطق - على الإعجاز القرآني ،
وعن التحدي به ، من خطائية وشاعرية في مسحة ، تطأطئ من قدر الرواية ، وتمد
في حياة الأمل والتشهي أن يضي عليه العلم والغد نظرة مقوِّمة ، حتى إذا عدله
التفاف ، وأشرقت حجة ، قام في الأفق برداً ، ولدين نحية .

يقول العلماء في نظم دلائل الإعجاز القرآني : إن القرآن أبين الكتب ، وأنفع
الإبانات ، وإن كتاباً مثله يحمله سيد نبيل عربي أمي كمحمد ، سماوى اللهجة ،
ملائكى الروح ، لم يخرجه التنقيف العلمى ، ولا نشأته الجامعات ، والعلوم III ،
يفهق كتابه بالحكمة والسداد ، ويتدفق تشريعاً واجتماعيات ؛ إن كتاباً كهذا
خليق بأن يحتمس في بيان السياء ، وأن يتلقى لأول عهده ، وهو مبلول بريق سامله
الرسول الأمين ، بالتصديق والتقبل .

هذا نظم الدليل على الإعجاز القرآني. يده أم دليل يطيب لنا أن يمح العلم عليه يسد الصقل ، وأن يلعبه حلة أخرى من الوجاهة حالية ترف .

ذلك : أن كل فرسان الإبانة في الجاهلية ، وطلبة الإسلام ، وكل رجالات الخطابة والسن ، أشباه سبحان وال ، وقس بن ساعدة ، إنما كانوا - ولا سواء - كالنبي الكريم محمد بن عبدالله ، صلوات الله عليه ، لا يتلو واحد منهم كتاباً ، ولا يحطه يمينه !!! ، فليست الامية إدن بمناعة ، واحد المفسحين ، وسيد الأيتام محمداً ، أن يتعجر خاطره الخصب ، أو تنزل عارسته الميمنة ، بكتاب جزل معجز المقالة ، يحرس القالة !!! ليس من عداقه ، وحاشاه !

لقد كان عجباً ، بل نكراً ، أن يقال : إر، صدق الرسالة ، وقيام الإعجاز في القرآن ، إنما كانا لموضع الامية في محمد صلوات الله عليه !!! وهل حثى عبوة الإبانة بالإحسان ، حتى سالت بسحر كسحر العيون ، إلا الاميون !!! .

هذا على أن لحديث المعارضة - ولا كفران للتاريخ - فضلة من البرهان ، وسؤراً من البينة : ذلك أن العرب حين صدعهم التحدى بالكتاب المنزل ، فأخذ بهم المعجز ، حميت أنوفهم ، من الضاصرة ، بل من الدلة ، حتى نهّدوا إلى الحرب والضرب !!! وسلوا السيوف والآسة ، وأغمدوا الآلثة !!! ولو ملسكوا المعارضة القديرة ، لأجدهم البيان ، عن الطعان !!! ، ورجعوا بصرة المبين ، موفورين .

أجل : إنه لو صدقت الانباء عن هذه الدعوة إلى المعارضة والدياري ، وأهم تبلدوا كل البلد عن المعارضة ، لسكان أجمل بالعرب ، وأندى على كيد العروبة الجزلة ، أن يتلقوا تحدى النبي صلوات الله وسلامه عليه ، بطراز من التجويد ، ولو كان طرازاً وأصح القدر ، نازل القيمة ، دون هذا السفساف الصفيق من النفيق !!! .

أما حديث الحثي بالقرآن ، وعجز العرب عن ممارسته ، فإن الكتاب المنزل نفسه يتحدث عن إعجازه ، وأنه لا يجاري ولا يُبارى ، حيث يقول : « وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبداً ، أنزلنا سورة من مثله . ويستعنى خصوم الرسالة اللئيم بمحمده جهد الإداع ، حتى ليقول قائلهم ، « الوليد بن المغيرة ،

وهو المدَّرةُ المبيِّن عن القرآن من مِثَالَةِ مُحَمَّدٍ سَائِدَةً : « وَاِنَّهُ لَقَدْ سَمِعَتْ مِنْ مُحَمَّدٍ أَتْفَافًا كَلَامًا ، مَا هُوَ مِنْ كَلَامِ الْإِنْسِ ، وَلَا مِنْ كَلَامِ الْجِنِّ ، وَإِنْ لَهُ الْخَلَاوَةُ ، وَإِنْ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةُ ، وَإِنْ أَعْلَاهُ لَمُنْمَرٌ ، وَإِنْ أَسْفَلُهُ لَمُغْدِقٌ ، وَإِنَّهُ يَمْلُؤُ ، وَلَا يُبْذَلُ ١١١ » .

على أنه قد يذهب رأيٌ وَاحِدٌ متحلفٌ ، إلى أن حمد الكتاب المنزل لطرأه ، وَبَعَثَهُ لِيَايِهِ بِالْإِعْجَازِ ، إِنَّمَا هُوَ حَدِيثُ بَشَاشَةٍ وَغِبْطَةٍ ، كَحَدِيثِ كُلِّ مُعْتَبِدٍ بِقُدْرِهِ - غير الله - مُعْتَبَرٌ بِمَقَالِهِ ، مَزْمُونٌ بِبَيَانِهِ ، يُتَخِيلُ ، وَلَا يُسْتَقْبَلُ ، وَيُؤَكَّدُ ، وَلَا يُسْتَوْقُ ، لَا يَمُودُ إِلَى تَحَدُّدٍ ، وَلَا يُنْدَبُ إِلَى تَجَدُّدٍ ، وَمَا قَفَّةُ ١١١ ، بَلْ يَتَرَيْنَ ، بِأَنَّهُ أَحْسَنُ ، تَعَالَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ ، وَصَانَ قُرْآنَهُ .

ذلك : إلى أنهم يقولون ، بل يقولون : إنه لم يُخَسِّرِ النَّبِيُّ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَلَا صَحَابَتَهُ الْمُطَهَّرِينَ ، - فَمَا أَبْلَغَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْإِنْبَاءِ - حِفْلٌ مُعَارَضَةٌ ، وَاعْتِدَادٌ لِلْمَقَاوِلِ السَّابِقِينَ ، لَا مِنْ صَدِيقِهِ ، وَلَا مِنْ عَدُوِّهِ ، وَلَا التَّقِيَّ بِهِمْ وَلَا بِهِ نَادٍ حَاشِدٌ لِلتَّحْدِي بِإِعْجَازِ الْقُرْآنِ ، يَضْرَعُهُمْ بِالْحُجَّةِ فَيُجِيبُونَ ، وَبِتَحْدَاهُمْ فَيُعَارِضُونَ أَوْ يُتْبَلِّدُونَ ، أَوْ يَقُولُ لَمْ : تَعَالَوْا إِلَى مَسَاجِلَةٍ بِالْيَاسِ ، فَإِنَّمَا مُعَارَضَةٌ جَزَلَةٌ تُسَوِّى لَسَنَكُم بِالْقُرْآنِ ، أَوْ إِخْفَاقٌ فَايْمَانٍ .

أما الذى يُسَلَفُ لَهُ الْعِلْمُ رَأْسُهُ حَيَاءٌ مِنَ الْعَقْلِ وَالْمَنْطِقِ ، فَذَاكَ مَا أَطْبَقُوا عَلَى دَعْوَاهُ مِنْ أَنْ مُعَارَضَةَ الْعَرَبِ لِلْقُرْآنِ قَدْ وَقَعَتْ ، وَلَكُمُّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهَا وَقَعَتْ فَتُكْشَفُ عَنْ بَلَاهَاتٍ مُرَّةً ، وَقَالَ عَيْرُ حُرَّةٍ ١١١ .

زعموا أن مسيلة الكذاب ، متى التامة ، قال هذه المقالة في مضاهاة القرآن ومساماته ، ولست أعلم جَدَّ الْعِلْمِ ، أَمْحَى لَهُ أَمَ لغيره ؟ ، قال :

« يَا ضَفْدَعُ بِنْتُ حَفْدَعَيْنِ ، نَقِ ، لَمْ لَا تَتَّقِينَ ؟ ، لَا الطَّيْنَ تَشْرِبِينَ ، وَلَا الْمَاءَ تَمْنَعِينَ ، لَنَا نَصْفُ الْأَرْضِ ، وَلَقَرِيشُ نَصْفِهَا ، وَلَكِنْ قَرِيشًا قَوْمٌ لَا يَنْصَفُونَ . » .
زعموه قال هذا ، ومِثْلُهُ مِنَ الْعَرَبِ أَسَاطِينُ الْيَاسِ ، فَرَسَانُ الْخَلِيَّاتِ ، وَلَيْسَ بِصَحِّهِ فِي رَأْيِ الْعَقْلِ أَنْ يَدْرُ مِثْلَ هَذَا السَّفَافِ الْحُثَيْسِ مِنْ عَرَبِيٍّ ١١١ ، لَقَدْ عَقَمَتْ إِذْنَ الْعَرَبِيَّةِ ، وَحَقَّتْ الْمَدِينَةُ ١١١ .

لقد كان خليقا بالعرب - وقد شهدوا بهذا البيان القرآن في المحجر - أن يستنصروا

بقرانهم، ويستسقوا بيا نهم الروى العذب، حتى ينهل بقول ساحر، إن لم يطلع
حجة وغلبا، أشرق سحر أعجبا ١١١.

هذان هما الحديثان عن إنجاز القرآن، وعن التحدى به، ومعارضة العرب له؛
فل تقوم إذن صفة الأمية في النبي صلوات الله عليه، دليلا على صدق النبوة؛
لأن مثله - زعموا - ليس من الأيضاء؛ ذلك أن الأمية ليست بمناعة النبي - في كل
البلغاء من الأميين - أن يُبين.

أما قومة المعارضة، وشدة المعارضة البيانية، فإنه لا شيء أقرّ للعيون،
ولا أطيب للنفوس، أكثر من أن ينهض حجة التاريخ، ويبر خُبر البيرة،
بأن النبي صلوات الله عليه، ندب العرب كافة، من كل ميمن مفصاح، وقريشاً
خاصة، إلى مقابلة في البيان، ومصالوة في متركه، فتبذل كل عربي وأكدي،
ثم ترعى.

بنا الآن، وأزهر الشرق والإسلام، أزهر العلم والمدنية، بصحّ خلية
نحل، بالعلم والفضل، أن يصقل الأزهر، أو يزن حديث الإنجاز هذا بلون
من الصقل، وزنة من العقل، وأن يقوّم حديث المعارضة، وشدة المعارضة،
ثم يلغى تهيق الضفادع، فليس بسائح ١.

تق لا شيء شيوخ محارب وما خلطها كانت تريض ولا تبرى

الآمل

قيل: الآمل رفيق مؤنس، إن لم يملك فقد أهلك.

وقال شاعر:

مَنْ إِنْ تَكُنْ حَقًّا تَكُنْ أَحْسَنَ الْمَى وَلَا فَقْدَ عَشْنَا بِهَا زَمْنَا رَغْدَا
وقال آخر:

رفعت عن الدنيا المى غير حبها فلا أسأل الدنيا ولا أستريدها
وقيل لأعرابي: ما أمتع لذات الدنيا؟ فقال: عازحة الحب، وعادة الصديق،
وأمانى تقطع بها أيامك، وأنشد:

عليني بموعده وامطلي ما حييت به
ودعيني أفوز من لك بنجوى تطلبه

الشعر والاسلام

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الجواد رمضان
المدرس بكلية اللغة العربية

العرب أمة سامية ، والشعر أقدم آداب الساميين ؛ ويرى بعض العلماء أن العرب أسبق الأمم الى قرص الشعر ؛ لما قبل من أن « سفر أيوب » الذي ورد في التوراة ، نظمه عربي في نحو القرن العشرين قبل الميلاد ، ثم ترجم الى العبرانية ، و«عد من الاسفار المقدسة ، وضاع أصله العربي ، كما ضاعت أصول كثير من الترجمات (١) » .

وأقدم الشعر ، الشعر الديني ، المتعلق بالآلهة وأعمالهم ، كما في إلياذة هوميروس ، ومهابرة الهند ؛ ومن هذا القبيل بعض الأشعار العبرانية ، كسفر داود ، ونشيد الاناشيد . والمطلون أن العرب في جاهليتهم ، نظموا الأشعار الدينية ، وشاعلوا بها أصنامهم واستعطفوها وصلوا إليها ؛ ولكن سقوط ماتهم هذه ضاعت في طوايا الاجيال لعدم تدوينها ، وما بقى على الزمن منها أغصى الرواة في الإسلام عن حفظه لتعلقه بالوثان ؛ فقد نهى الرسول الأعظم صلوات الله وسلامه عليه عن رواية ما يتعلق بما هو دون ذلك ؛ جاء في الإصابة عن محمد بن سلة أنه قال . كما يروما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا حسان ، أنشدني من شعر الجاهلية ؛ فأنشده قصيدة الأعشى التي عجا بها علقمة بن علاثة ومدح عامر بن الطفيل ؛ فقال : يا حسان ، لا تعد تنشدني هذه القصيدة ؛ فقال : يا رسول الله ، تنهى عن رجل مشرك مقيم عند قيصر ؟ فقال : إن قيصر سأل أبا سفيان عنى ، فتناول منى ، وسأل علقمة ، فأحسن القول ؛ فأت أشكر الناس للناس ، أشكرهم لله تعالى ١٥ .

(١) يرى بعض علماء لغات ، أن سفر أيوب أكثر الاسفار شهرا بالعربية من جهة ألفاظه وملائمة الصحراوية ، ومرجع ذلك الى الجوارى في الوطن والسكن .

وقصيدة الاعشى ، هذه ، هي التي مطلعها :

علقم ، ما أنت إلى عامر الناقص الأوتار والواز
والتي تمثل على بن أبي طالب كرم الله وجهه في خطبته الشفقية المشهورة
بقوله فيها :

شنان ما يومى على كورها ويوم حيار أخى جابر
وروت كتب السيرة أنه صلى الله عليه وسلم نهى عن رواية قصيدة أمية
ابن أبي الصلت في رثاء قتلى بدر من المشركين ، لما فيها - إلى الإشادة بذكرهم - من
نبيل لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورضى عنهم . ومطلع هذه القصيدة :

ألا بكيت على الكرام بنى الكرام أولى الميادح
كبكا الحيام على فروع الأيلك في الفصن الصوادح

وكما كان العرب أسبق الأمم إلى فرض الشعر ، كانوا أقوى الأمم شاعرية ؛
فإن ما أثر من أشعارهم ، ومن عرف من شعرائهم ، فيما لا يتجاوز قرناً ونصف قرن
مع ضياع الأكثر ، لا نظير له في غيرها من الأمم . وقد أعادها على نبوء هذا
الشرف الأعلى ، ما طبعهم الله عليه ، من رقة الإحساس ، ورفق الشعور ؛
وما تجبججوا فيه ، من اتساع الأفق ، وانفساع الرقعة ، وما فعموا به من صفاء
الجو ، وكثرة الفراغ ، مما يساعد على إطالة التأمل ، وإمعان النظر في الطبيعة ،
وما كان في طبيعة حياتهم من مافسات تبعث الحروب ، وتهيج المشاعر ؛ إلى ما هو
معروف من أن اللغة العربية ، لغة شعرية ، لما فيها من أساليب الكناية والجاز
والمرادفات التي تعين على القافية ؛ ولذلك انتشرت الشاعرية بين كل المنكلمين بها
وإن لم يكونوا عرباً ، ونبع في الشعر العربي شعراء أصلهم من الروم والترك
واليهود والنزج والهنود . في الشرق والغرب ، كثيرون .

والناظر في اثر الجاهلي ، يطالع منه :

١ - أمثال مشورة بينها كثير مما تصح نسبته إلى العرب في جاهليتهم ،
وبينها كثير مما حمل عليهم حملاً . والضليع النواقة يستطيع التفرقة بين النوعين
بأسر النظر .

٢ - وقصص ، انفق معناه أو كاد يتفق ، وافق الرواة ، أو - بالحرى -
اختلفوا في أساليب روايته ، مقاربين مرة ، ومباغدين أخرى . وقد قيل لبعض
أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما كنتم تتحدثون به إذا خلوتكم
في مجالسكم ؟ قال : كنا نقاشد الشعر ، وتحدث بأخبار جاهليتنا ، ولعل أيام العرب
كانت أخصب الموضوعات القصصية . وفي سيرة ابن هشام وغيرها : أن النصر
ابن الحرث اشترى كتباً أعجمية ، فكان يحدث منها ، وكان يقول لاهل مكة .
يحدثكم محمد بأخبار عاد وثمود ، وأنا أحسن حديثاً منه : هلوا إلى أحدثكم
بأخبار رستم وإسفنديار والأكاسرة .

٣ - وحطابة : ولعل أشهرها وصل إليها ، وأجدره بالظر ، حطبان ،
إحدهما خطبة قس بن ساعدة الأيادي ، والآخرى خطبة المأمون الخارثي ؛
والحطبان - وإن اختلفنا أسلوباً - فقد تلاقنا موضوعاً ، إذ أنهما كلتيهما تبشرا
بميلاد نبي وإشراق دين جديد .

فأما الكتابة ، فلم يكن للجاهليين منها حظ : ذلك بأن الكتابة الفنية ، تعتمد
الكتابة الخطية ، وإلما دخل الخط بلاد العرب في عهد متأخر ، أيام حرب
ابن أمية جد معاوية بن أبي سفيان ، ومن هنا نجم قول ابن خلدون : إن اختلاف
رسم المصحف الإمام عما تقتضيه قواعد الرسم ، لم يكن إلا لعدم إجادة العرب
لذلك القواعد ، لأن الخط والرسم صناعة من الصناعات الحصرية ، ولا حظ
للعرب في الصناعات ؛ وكما تعتمد الكتابة الفنية على الكتابة الخطية ، كذلك
تعتمد المنطق ، أى الأساليب العقلية ، وذلك لول من ألوان الحضارة .

ولم تصبح الكتابة عرية ، إلا حين أصبحت صناعة في أواخر الدولة
الأموية ، حينما عربت الدواوين على يد جبلة بن سالم ، كاتب الخليفة هشام
ابن عبد الملك ومولاه .

٤ - وصيغ كُتبان ، وهو فن من فنون القول ، يقصد فيه إلى إحداث
أبلغ الأثر في نفوس السائلين ، بالإغراب ، والتزام السجع ، واحتمال الوجوه
المتعددة من المعاني ؛ كما يفعل متعاطو ما يشبه هذه المهنة في عصرنا الحاضر .

إذا نظرنا نظرة عامة الى فنون النثر الجاهلي ، لم نجد له من المنزلة الادبية ، ومن الجمال الفني ، ما يسوي به إلى منازلة القرآن الكريم في ميدان البيان العربي ؛ فيتحدى أصحابه إليه ؛ فالأمثال - على فصاحتها وإيجازها - تكاد تكون مركوزة في الطباع ، لا يختص بها عرب ، دون عجم ، ولا جاهل دون عالم ، ولا رجل دون امرأة ؛ وقد رويت الأمثال مفردة ، ومجمعة في صورة خطب ، كما في خطب أكرم بن صبيح وغيره ؛ فلم يكن لها ذلك المقام .

والنقص - على ما عرفنا من نماذجه كقصص الزباه ، والغريين ، وأيام العرب ونحوها - لا يتضمن شيئاً من الحوادث غير العادية ، والروايات التي تمثل على مسرح الحياة من أمثالها الكثير ، وأسلوبه يصطرب بين الضعف والقوة بما يدل على أنه قد عملت فيه الرواية ، وتعاورته الآلة .

وجمع الكهان - على الاعتراف بالقصد إلى أسلوبه - فيه تسخير المعنى للفظ ، وجعله تابعاً له ؛ وإنما جعلت الألفاظ للدلالة على المعاني ، إلى ما فيه - كما قلنا - من الإبهام والعموض ، والنقل على الأسماع ؛ ولذلك أنكر الرسول صلى الله عليه وسلم على من قال : « أتدري من لا شرب ولا أكل ، ولا صاح فاستهل ، فقال له : « استجاعة كسجع الكهان ؟ » .

فأما الخطب ، فلا ريب أنه كان لها حظ غير قليل من السمو والعناية ، وإن كان ما نقل إليها - على الشك في أكثره - لا يرتقى إلى قوة الدليل على هذا السمو ؛ بيد أن ما ورد من لجوء الأشراف إليها بعد إسفاف الشعراء إلى التكسب بالشعر ، ومن النهضة الخطابية الرائعة في صدر الإسلام ، التي لم تخرج العادة بحدوث أمثالها بلا إرهاص ، ما يظاھر هذا الدليل ؛ ومهما يكن من شيء فإن منزلة الخطابة عند نزول القرآن تنطامن عن أن تبلغ بأصحابها إلى أن يتحدثوا إلى القرآن .

ولعل هذه الواحي الضعيفة في فنون النثر الجاهلي ، هي التي جعلت العرب يرمون الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه شاعر ، والقرآن الكريم بأنه قول شاعر ، ولم يقولوا مثلاً : إنه خطيب أو قاص^(١) .

القرآن ليس شعراً ، وليس ثراً أيضاً ؛ فقد قال البلاغاني ^(١) : « من وجوه إعجاز القرآن أن نظمته على تصرف وجوهه ، واختلاف مذاهبه ، خارج عن المعبود من نظام جميع كلامهم ، ومباين للألوف من ترتيب خطابهم ، وله أسلوب يختص به ، ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد ؛ وذلك : أن الطرق التي يتقيد بها الكلام البديع المظلوم ، تنقسم إلى أعريض الشعر على اختلاف أنواعه ، ثم إلى أنواع الكلام الموزون غير المقفى ، ثم إلى أصناف الكلام المعدل المسجع ، ثم إلى معدل موزون غير مسجع ، ثم إلى ما يرسل إرسالاً ؛ وقد علينا أن القرآن خارج عن هذه الوجوه ، ومباين لهذه الطرق الخ . »

وإذا كان القرآن ليس ثراً ، كما أنه ليس بشعر ، فلماذا نرى نفي الشاعرية عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، والشعرية عن القرآن الكريم ، يستبد بالنعانية ، ويستأثر بالاهتمام ١٩ وكيف ساخ للعرب أن يسموا النبي صلى الله عليه وسلم شاعراً ، والقرآن شعراً ؟ ولماذا لم يقولوا : خطيب أو قاص مثلاً ١٩

يقول البلاغاني ^(٢) : « قد علمنا أن الله تعالى نفي الشعر عن القرآن وعن النبي صلى الله عليه وسلم ... فقال : وما هو بقول شاعر ؛ وهذا يدل على أن ما حكاها عن الكفار من قولهم إنه شاعر وإن هذا شعر ، لا بد من أن يكون محمولا على أنهم نسبوه في القرآن إلى أن الذي أنام به هو من قبيل الشعر الذي يتعارفونه ... أو يكون محمولا على ما كان يطلق الفلاسفة على حكايتهم وأهل القفظة منهم في وصفهم إياهم بالشعر لدقة نظرهم في وجوه الكلام ، وطرق لهم في المطلق الخ . »

ويرى بعض الباحثين أن الشعراء في الجاهلية كانوا هم أهل المعرفة ، يعنون بذلك أنهم كانوا أعلم أهل زمانهم ^(٣) .

وتطلع زهير بن أبي سلمى ، وأممية بن أبي الصلت ، وكلاهما شاعر ، إلى أن يكون النبي المنتظر ؛ وأسقط في يدهما لما ظهر النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وقال : كنت أرجو أن أكونه .

وجاء في سيرة ابن هشام : أن الطفيل الدوسي قدم مكة ورسول الله بها ،

(١) وإن قالوا : أساطير الأولين اكتنبا فإن مرد ذلك ليس إلى السمو لياتي ، بخلاف الشعر .

(٢) ٢٨ - (٣) بحر الأحلام .

لخذره رجال من قريش من سماع البى ، حتى لا يتأثر بقوله : قال الطفيل : فازالوا
بى ، حتى أجمعت ألا أسمع منه شيئا ، ثم قلت فى نفسى : وائسكل أى ١ والله
لأنى رجل لبيب شاعر ، ما يخفى على الحسن من القبيح ، فما يمنعنى من أن أسمع من
هذا الرجل ما يقول : فإن كان الذى يأتى به حسنا ، قبلته ، وإن كان قبيحا ،
تركته ١٢ . .

وفى حديث الوليد بن المعيرة حين قالت قريش للنبي صلى الله عليه وسلم
إنه شاعر : لقد عرفت الشعر ورجزه وهرجه وقريضه ، فما هو به . .

والشعر فى الأدب الجاهلى ، هو الفن الوحيد الذى نقل إليها الكثير الطيب
منه ، على ما كان عليه فى الجاهلية : معناه وأسلوبه فرسا رهان ، فى الاهتمام
والعناية ، وفى التميز والجودة ، وفى النوق والجدال : وفى الفصاحة والبلاغة :
وفى كل ما تتسامى إليه الطاقة البشرية من البيان الرفيع .

لهذا عنى المسلمون أول ما عنىوا ، فى إنبات الإعجاز ، بالشعر الجاهلى ،
ينقدونه نقد الصيرفى الحاذق ، ويحلون محاسنه ، ويكشفون مساويه ، ويوازنون
بينه وبين القرآن الكريم فى النظم ، وفى المعانى .

ولهذا ، لجأ ابن عباس إلى الشعر الجاهلى فى الإجابة عن أسئلة نافع بن الأزرق
- إن صح هذا الحديث - .

ولهذا قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه :

« عليكم بدويانكم لا تضلوا ، قالوا . وما ديواننا ؟ قال : « شعر الجاهلية ،
فإن فيه تفسير كتابكم ومعانى كلامكم . » وذلك أنه قرأ وهو على المنبر ، قوله
تعالى : « أفأمن الذين مكروا السيئات ، إلى قوله : أو يأخذهم على تخوف ، ثم قال
للصحابة رضوان الله عليهم : ما تقولون فيها ؟ وغرضه السؤال عن التخوف :
فسكتوا ؛ فقام شيخ من هذيل ، فقال : هذه لغتنا ، التخوف : التقص . فقال
عمر : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال نعم ، قال شاعرنا أبو كبير ، يصف ناقة :

تَحْسَوْنَ الرِّحْلَ مِنْهَا تَمَكُّنًا قَرِيبًا^(١) كما نخوف عُودَ النِّبَةِ السَّنَنُ

ولهذا ، عن الباقر في كتابه ، إيجاز القرآن ، بشرح معلقة امرئ القيس ،
وقدما نقدا مفصلا ، ويان فضل بيان القرآن عليها ، ووجه مرمى المشركون
رسول الله صلى الله عليه وسلم به ، من أنه شاعر وأن القرآن شعر ، بأن الشاعر
يفطن لما لا يفطن له غيره ، وإذا قدر على صنعة الشعر ، كان على ما دونه
.. في رأيهم وعندهم .. أقدر ، ففسروه إلى ذلك لهذا السبب .

وحسب الشعر شرفا ، أنه كان سلاحا من أسلحة الجهاد في سبيل الله ، يحمل
لواءه شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وشيخ شعراء الإسلام ، حسان
ابن ثابت ، ويحسدو في ظلاله كعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة : رضى الله
عنهم أجمعين .

• • •

وبعد ، أفلا يسوِّغ لي كل أولئك أن أقول : إن الشعراء ، هم الذين تصداهم
القرآن إلى أن يأتوا بمثله ، وإن من سواهم من العرب كانوا لهم تابعين ؟

الدنيا

غرى الناس بدم الدنيا ، وكان أولى بهم أن يذموا ضرورهم ، فإنها وإن كانت
محبة بنعيمها ، فهي واعظة بأحداثها ، ولكن الإنسان كثيرا ما يتجاهل الحقائق ،
فيقع في البوائق . وقد أصاب أبو العتاهية في قوله .

كلما نكرنا الملامة للدنيا وكل بحبها مفتون
والمقادير لا تألها الأوهام لطفنا ولا تراها العيون
وغير الفتى وفي كل يوم حركات كأنهن سكون
وقال مبكثا وقد أصاب :

قد أجمع الساس على ذمها وما إن ترى منهم لها تاركا

(١) يصف ناقه أثر الرسل في سنامها ما كنه وتمنعه كما يقتضيه الفن أى المبدع أو القديم عود
النبتة الذى يحمل منه القوس .

مفردات فلسفية

لفضيلة الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

اللمعة ، باعتبارها أداة للخطاب والفهم : كائن حتى له أعضاء من الألفاظ والمفردات والتعابير ، كما لكل كائن حتى آخر أعضائه المختلفة الخاصة به . وهذه الألفاظ وما إليها ، في دلالة كل منها على معنى خاص أريد منها ، يتألف ما يبال كل حتى من تغير وقوة وضعف قد ينهى أحيانا بالموت .

ومن الخطأ الواضح أن نمتد أن اللفظ له معنى واحد لا يعدوه ، يراد به ويدل عليه في الأزمان والبيئات المختلفة ، وفي كل نواحي العلم والمعرفة . هذا الثبات وعدم الحركة ، على نحو معين من الأسماء والأوضاع ، أيا كان طبيعة هذا النحو أو الوضع ، ليس من أمارات الحياة ، بل من أمارات الموت وعلامته ؛ فربما كان أهم خاصة من خصائص الحياة الحركة والتغير من حال إلى حال .

وكان من هذا ، أن يجد اللفظ الواحد متعدد معانيه وتحتاف ، تابعة في ذلك اختلاف البيئة من الزمان والمكان . كما أن اللفظ الواحد ، في البيئة الواحدة زمانا ومكانا ، قد يدل على معان متعددة حسب تعدد فروع المعرفة التي يدخل فيها .

كل هذا واضح لا خفاء فيه ، ولا أراي بحاجة لضرب الامثال الكثيرة له ؛ وإذاً ، فلنكتف منها بالقليل .

١ — لفظ . خليفة . : يطلق في الأصل على كل من خلف غيره في شيء ما . ولما جاء الإسلام ، ولحق الرسول الكريم بربه ، صار هذا اللفظ لا يطلق إلا على خلفائه دون سواهم .

٢ - لفظ « كاتب » : معروف أن المراد به هو من يكتب شيئاً أى شيء ،
لنفسه أو لغيره . إلا أنه تعبر في دلالاته حتى صار في فترة من فترات ضعف الدولة
الإسلامية بمعنى الوزير . والآل ، صار معناه العالم المحدث . ذا الأسلوب الجيد .

٣ - و « الحاجب » : كان - ولا يزال - يدل على من يحجب غيره من السادة
أن يصل إليه كل من يريد . إلا أنه في زمن ثما من الماضي كان له أيضا معنى
الوزير .

٤ - و « الحكومة » : معناه في الجاهلية الفصل فيما يكون من حصومات
والفصاء فيها ، وبمثل هذا جاءت في القرآن في سورة النساء : « إن الله يأمركم أن
تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » ؛ فلا
وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما
قضيت . - إلا أن هذا الحرف صار يدل الآن على ما نعرف من الحكومة
السياسية التي تدير بلاداً من البلاد .

٥ - و لفظ « الخط » : معناه في القاموس : الأرض التي تزلها لم يزل بها
نازل قبلك . لكنها استعملت فيما بعد ، لعلاقة غير ظاهرة ، بمعنى المصعب ؛ ومن
ذلك قول ابن خلدون : « الرزارة أم الخطط الإسلامية والرب الملوكية » .

• • •

وقد يترتب على عدم معرفة اختلاف اللفظ الواحد في مدلوله ، بسبب
اختلاف الزمان والمكان والكاتب المستعمل له ، من سوء الفهم والعلاق المعنى
شيء كثير ينأهل ما أن نسمع سماع تقدير وإجابة لكونه فوشوس حكيم الصين
حين كان يقول في إلحاح بوجوب تحديد الألفاظ . ولعل أئمن ما خلف لنا سقراط
من نرات فلسفي هو محاولته الباجعة في تحديد المعاني والمعاني السكينة

وإذا كان تحديد الألفاظ والتعابير ، وبخاصة ما كان منها اصطلاحياً ، واجبا
في أنواع المعارف الذاتية بين الناس المسألوفة كثير ألهم ، فإن هذا التحديد أوجب
فيما يتصل بالفلسفة وما إليها بسبيل : ذلك ، بأن كثيراً من الناس ، حتى ممن يرون
أنهم بلغوا من الثقافة حظاً وافراً ، يمرون بكثير من الالتاظ والمصطلحات

في الفلسفة والمذاهب الاقتصادية والسياسية التي نقرأ كثيراً عنها هذه الأيام ، دون أن يعرفوها على التحديد ؛ ولهذا يكتفون منها بمعرفة عامضة عدوها خير منها ؛ وقد يزيد في الأمر أنه يكاد يكون لكل فيلسوف اصطلاحات خاصة به تتطلب معجماً لضبطها وتحديد ما .

لذلك كله رأيت من الخير أن أقف جانباً من وقتي على تحديد بعض المفردات الفلسفية ، ثم أضعها تنتشر وتذيع بين الناس عن طريق مجلة من المجلات العلمية التي تعنى بالدراسات الجدية . ولعل هذه البحوث تجعل إلى حد ما من مجلة الأزهر إن تفضلت بإداعتها ، مجلة جامعية بالمعنى الصحيح

وهذا العمل ، على ما به من نصب وما يتطلب من جهد ، أخذت نفسي به ورُضتْها عليه ، وعند الله الجزاء . وحسبي أن أذكر أنني قد أفضي أياً ما في تحديد طائفة قليلة من تلك المفردات ؛ أفضيها في بحث وتقيب ، وتجوال بين المعاجم الفلسفية ، العربية منها والغربية ، حتى يستقيم لي أخيراً الأمر ويظهر وجه الصواب . وسبيلي أو خطتي . مقارنة ما قاله الفلاسفة والمفكرون المسلمون في تحديد المصطلح ، بما كان من ذلك من إخوانهم الغربيين . بذلك ، فيما أعتقد ، يصبح المصطلح واضحاً محدوداً ، وقريب التناول حتى لمن لم يشد شيئاً من الفلسفة ، وإن كان كل إنسان هو — كما يقال — بطبيعته وبما هو إنسان . فيلسوف .

وعما دنا الأول في المعاجم الأجنبية معجم لالاند La lande في طبعته الأخيرة عام ١٩٤٧ ، الذي عاونته فيه كثير من أعلام الفلسفة والفكر من الأمم المختلفة . وفي الناحية العربية نعول كثيراً أولاً على كتابات فلاسفة الإسلام أنفسهم ، ثم على أصحاب المعاجم المعتبرة ، مثل : التعريفات للجرجاني ، ومفاتيح العلوم للخوارزمي ، وكشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي .

والآن نمشي إلى ما قصدنا ، في خطي بفضل الله ثابت وإن كانت وثيدة ؛ وبالله العون ، ومنه التيسير والسادد .

حول ميراث القاتل

لمحاضرة الأستاذ الدكتور أحمد محمد إبراهيم
قاضى محكمة سيالوط الوطنية

نشرت مجلة الأزهر الغراء بعدد جمادى الأولى سنة ١٣٦٨ فتوى للجنة الفتوى بالجامع الأزهر، ذكرت فيها أن الرجل لا يرث زوجته إذا ضربها بجازية طيور، متى ترتبت وفاتها على هذه الإصابة ولو كان لم يقصد قتلها؛ وقد كسفت جريمة الزوج بأنها قتل عمد عدوان، لما نص عليه الفقهاء من أن القتل العمد لا يشترط فيه قصد إزهاق الروح، بل المناسط أن يقصد القاتل ضربه بآلة يقتل بها غالباً، وفي مجرى العادة؛ فإطاعوا الحكم بمطالبة قصد الإزهاق المذكور، فيدور الحكم على هذه المظنة، ولا يظنر إلى تحقق ذلك القصد.

ورى - قبل التعرض لمناقشة الفتوى - أن نبين معنى القصد الجنائي في القانون المصرى، وفي الشريعة الإسلامية، وكيف يثبت هذا القصد:

يفرق القانون المصرى بين ثلاثة أنواع من الجرائم يترتب عليها موت المجنى عليه، وهذه الجرائم هي: القتل العمد، والضرب المفضى إلى الموت، والقتل الخطأ. ومعياري التفرقة بين كل جريمة من هذه الجرائم هو قصد الجاني، ففي جريمة القتل العمد لا بد من أن يقصد الجاني قتل المجنى عليه؛ أما إذا قصد مجرد الاعتداء عليه ونشأ عن ذلك وفاته فإن الجريمة تعد جريمة ضرب أفضى إلى موت؛ وإذا كان لم يقصد الاعتداء عليه إطلاقاً ونشأت وفاة المجنى عليه بإهمال أو خطأ من الجاني فإن الجريمة تعتبر قتلًا خطأ. ونذكر فيما يلي نصوص قانون العقوبات المصرى في هذا الموضوع.

م ٢٣٠ - كل من قتل نفساً عمداً مع سبق الإصرار على ذلك أو الترصد يعاقب بالإعدام.

م ٢٣٦ - كل من جرح أو ضرب أحداً عمداً أو أعطاه مواد ضارة ولم يقصد من ذلك قتلاً ولكنه أفضى إلى الموت، يعاقب بالأشغال الشاقة أو السجن من ثلاث سنوات إلى سبع. وأما إذا سبق ذلك سبق إصرار أو ترصد فتكون العقوبة الأشغال الشاقة المؤقتة أو السجن.

م ٢٣٨ — من قتل نفساً خطأ أو تسبب في قتلها بعير قصد ولا تعدد بأن كان ذلك ناشئاً عن رعونة ، أو عن عدم احتياط وتحرز ، أو عن إهمال وتقریط ، أو عن عدم انتباه و"توق" ، أو عن عدم مراعاة وإتباع الواثق ، يعاقب بالحبس أو بغرامة لا تتجاوز مائتي جنيه مصرى .

وقد اختلف فقهاء الشريعة في بيان أقسام جريمة القتل ؛ فذهب أبى حنيفة أن القتل ينقسم الى عمد وشبه عمد ، وخطأ وما جرى مجرى الخطأ ، وقتل بالتسبب . وفى مذهب أحمد والشافعى ينقسم الى عمد وشبه عمد وخطأ . وفى مذهب مالك وعند أهل الظاهر ينقسم الى عمد وخطأ . ولما كان هذا البحث لا يتسع لبيان المقصود من معنى كل قسم وشرح أحكامه ^(١) فإننا نكتفى ببيان معنى القصد الجنائى فى القتل العمد لمعرفة هل يشترط لاعتبار القتل عمداً أن يقصد الجانى إزهاق روح الجنى عليه ، أم يكفي أن يعتدى عليه عمداً فيموت بسبب هذا الاعتداء ؟ . يبدو من الرجوع الى كتاب حجة الله البالغة أن القصد الجنائى فى جريمة القتل هو نفس القصد الجنائى بالمعنى المفهوم فى القانون المصرى ؛ فهو يعرف القتل العمد بأنه هو الذى يقصد فيه إزهاق الروح بما يقتل غالباً ، ولكن المسألة ليست بهذه السهولة ، فإن الراجع إلى كتب الفقه يجد أقوالاً متضاربة ، بل وإن التضارب موجود فى كتب المذهب الواحد .

ففى مذهب أبى حنيفة يعرف صاحب الهداية القتل العمد بقوله : العمد ما تعدد ضربه بسلاح أو ما جرى مجرى السلاح ، وفى ابن عابدين : وقال فى المجتبى إن قصد القتل ليس بشرط لكونه عمداً وعبارة الجوهرة : العمد ما تعدد قتله بالحديد . وجاء فى البدائع : يجب أن يكون القاتل متعمداً فى القتل قاصداً إيائه ، وأن يكون القصد عمداً محضاً ليس فيه شبهة العدم ، فيخرج العمد بضربة أو ضربتين على قصد القتل أنه لا يوجب القود .

وإذا رجعنا إلى مذهب مالك وجدنا فى شرح الدردير الكبير : أن العمد هو أن يقصد الجانى ضرب الجنى عليه بمحدد أو مثقل ، وإن بقضيب وسوط ونحوهما بما لا يقتل غالباً ، وإن لم يقصد قتلاً ؛ وهذا إن فعله لعداوة أو غضب بغير تأديب ؛

(١) من أراد معرفة معنى كل قسم فليرجع الى كتابنا : القصاص فى الشريعة الاسلاميه ، من ص ٢٦ الى ص ٧٩ والى المراجع الذى أشرنا إليها .

وأما إن كان على وجه اللاب أو السأديب فهو من الخطأ إن كان بحو قضيب لا بنحو سيف . ثم يأتي بعد ذلك في نفس الكتاب ما يناقض ما تقدم إذ يقول : « وكالضرب في وجوب القصاص الخنق ومنع الطعام أو الشراب إذا قصد الموت فأت المجنى عليه ، فإن كان القصد مجرد التعذيب فالدية » . وعلق على هذا الدسوق في حاشيته فقال : تقدم أن قصد القتل ليس شرطاً في القصاص ، وحيث أنه يقتصر بمنع الطعام أو الشراب ولو قصد بذلك مجرد التعذيب .

وعند أحمد عرف القتل العمد في الشرح الكبير بأنه : قتل الإنسان بما يوجب على الظن موته به . ومع ذلك عرف المؤلف نفسه شبه العمد بأنه قصد الجناية بما لا يقتل غالباً فيقتل ، إما لقصد المدوان عليه ، أو لقصد التأديب له ، فيسرف فيه ، كالضرب بالسوط والعصا والحجر الصغير أو بلكز اليد . . فهو شبه عمد إذا قتل لأنه قصد الضرب دون القتل . وجاء في كشف القناع أنه يشترط في القتل العمد القصد ، فإن لم يقصد القتل فلا قصاص . وفيه أيضاً وفي شرح المنتهى أنه لا قصاص إن لم يقصد القتل أو قصده بما لا يقتل غالباً .

وفي مذهب الشافعي : جاء في كتاب المهذب أن القتل العمد هو قصد الإصابة بما يقتل غالباً . وجاء في متن أبي شجاع أن العمد هو أن يعمد إلى ضربه بما يقتل غالباً ويقصد قتله بذلك الشيء . وجاء في شرح ابن قاسم الغزوي وحاشية الباجوري عليه . أن الراجع عدم اشتراط قصد القتل .

وعند أهل الطاهر : العمد هو الضرب بما قد يمت من مثله وقد لا يمت من مثله . وإذا كانت النصوص الفقهية متضاربة على النحو السابق بيانه ، فهل من الممكن أن نستخرج قاعدة عامة في هذا الموضوع ؟ الذي يلوح لنا هو أن قصد القتل لا بد من توافره لتتام جريمة القتل ، عند أحمد والشافعي وأبي حنيفة . وسبب الاختلاف المذكور في كتب الفقه ناتج عن بحث كيفية إثبات القصد الجاني . وعند مالك وأهل الظاهر : لا يلزم أن يكون الجاني قد أراد قتل المجنى عليه ، بل يكفي أن يكون هناك اعتداء سبب وفاة المصاب حتى يمكن وصف القتل بأنه عمد . ويستثنى في مذهب مالك حالة قتل الوالد لولده : ففي هذه الحالة لا بد من توافرية القتل . والسري في هذا الاستثناء هو أن الإمام مالكا يخالف جمهور الفقهاء في إيجابه القصاص على الوالد إذا قتل ولده .

بين الشعر البدوي والشعر الحضري

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ حامد عوف

المدرس بكلية اللغة العربية

تري رب الشوية والبعر لا يطالع من دواوين الشعر غير ما يظلمه الزهر
النصر ، ولا يتذوق من معانيه سوى ما توحى به الطبيعة السافرة ، ولا يسمع من
أوران العروض غير ما ترّجعه الكبر وان في أعاريدها ، وما تردده الصوادح على
أفنانها ، وتهمج ريب الفلا بسمه الريح ، وتغريه خطرة النسيم العليل ، فيتغنى
بما تمليه عليه القرعجة الصافية ، ويرسله شعرا كريما .

أجل : إنه لا ينطبع في مخيلته سوى صفحة الغدير النخيل ، فتجري على لسانه
شعرا زلالا سائغا للشاربين ، ولا يرى غير الأزامير الغضة فيقطف من قريحته
على مثالها ، فينظمه شعرا فاتنا ؛ ولا يشق إلا الهواء الطلق ، فيرسل معه روحه
يسبح في فضائه ، إذ ليس ثم من يدون نغماته الحارة سوى الأثير . هذا إذا طرب .

فإذا عجب فالسما والصحراء سفراء البديعان ، وحسبه منهما محققين حاويين
كل فن من قريض النجم المتألق ، والأفق المترامى الأطراف ، فيودعه صدره ،
ثم يخرج منه أنفاسه شعرا زاهرا نيا .

وإذا ما غضب ، فحسبه الخنجر والحسام أستاذين يثنان فيه روح الشجاعة
والخماس ، ويودعانه لبيب الحمية ، والقوة الإرادية ، فيبرز قلبه الصلد الآبي ،
ويجعله شعرا رهيبا قويا .

ذلك هو شاعر الفطرة ، وابن الطبيعة الكريم ؛ فهو لا يقول إلا ما يرى ،
ولا ينظم إلا ما يحس ، لا يعرف سوى الشجر والحجر ، ولا يستظل بعير الخيام
والوبر ، ولا يشهد غير الوحش والإبل ، ولا يرى سوى الرمل والطلل ،

ولا يعمد من العراش غير كشيان الرمل ، ولا من المطايا سوى متون العيس ،
ولكنه — مع ذلك — يدرك فيما يرى ويلس ما لا يدركه ابن لندن وباريس .

أين هذا من الحضري الذي يكب على الأسفار ليل نهار ، باذلاً نفسه في حفظ
القصائد - القديم منها والحديث - ويحيد ياتقان فون البلاغة والأدب ، ويلوك
لسانه جامدا بتفاعيل العروض ، ويتعب قريحته طوال الأيام ينمق الالفاظ
متكلفا ، وينظم من غير أن يهجه منظر بهيج أو يفجسه حادث أليم : بل ينظم
لغيره كشيئا كان أو طروبا ، فتراه يبسط أساربر وجهه تارة ، ويتطب جبينه
أخرى ، فيذيب روحه ، ويلفظ كبده قطعاً يصوغها قوافٍ واهيات ١ .

تراه يصف لك السماء في الليلة البلاء وهو جالس إلى مكتبته في غرفته لا يرى
مشهدا ولا يشهد رواءها : أترأه يوفيا حقها من الوصف ؟

وزأه بنحس فيمثل القراع في حومة الوغى ، وهو لا يعرف عن ذلك
سوى ما يرويه الراوون ، أو ما تحليه عليه الأنباء ، وقد يكون جبايا يفرق من
صغير الصافر ؟

وتراه يتعزل ويشئب ، وهو "بعد" ما شفه وجد ، وما اتأبته لوعة ،
وما شق الهوى إليه طريقا ، وهكذا . . .

فليت شعري أيبكون مثل هذا شعرا مبعثا من روح كوكيم ؟ كلا . . .
إنها الالفاظ محبرة ترسلها التفاليد ، وهي لعمري لا تشف عن شعور حاج صاحبه
فطرب وأطرب ، أو بكى فأبكى .

وكم يستبكي الدمن والأطلال الدارسة ، ويذكر أيامها الخوال ، وهو رهن
الدور أو القصور ، لم يشجه الريع المحبل . وكم يصف الذلول ويترنم بها حادياً ،
وهو بعد لم يتنم سنامها ، ولم يقد زمامها . فهل شعره إلا فتود مزيفة ، لا تليث
أن يقدحها صيارفه الأدب ، مبدؤها ورامم ظهرها ٢ ؟

أما البدوى ، فيقف أمام الربوع الخاوية ، والأطلال العافية ، فيجيبها ويتاجها
من قلب كليم ، ويتوجع عندها نادياً ، ثم يتخيل لمن يمي نشيده أنه يصف روضة
غناء زاهية بأزواع الازاهير ، ذات الطيور الصوايح ، تردد ألحان ذبالك

الشويعر . هذا موقفه على الدمة . ويعازل ابن الفطرة محبوبته فيكاد شعره فيها
يسيل رقة وعدوبة .

والإفاداء يعجبا مثلا في المملقات العربية ، ونحن في زمن يختلف كثيرا
عن زمن الجاهلية ؟ فأى جمال في وصف امرئ القيس لحادثته مع عذيرة
وصواحبائها في دارة جلجل إذ يقول :

الأرب يوم لى من البيض صالح ولا سيما يوم بدارة جلجل
ويوم عقرت للمذارى مطبقى فيأعجبا من كورها المتحمل
إلى أن قال :

ويوم دخلت الخدر حدر عذرة قالت لك الويلات إنك مُرجلى
تقول وقد مال الغيظ بنامعا عقرت بعيرى يا امرأ القيس فأنزل
فقلت لها سبرى وأرخى زمامه ولا تبعدينى من جنائك المعلق الخ
وأية روعة فنية في وصف زهير للهوارج قد ظلمت فيها النسوة ، وأهن سرن
عن يمين القبان والحزن ، وأن هذه القبان كثيرا من الأصدقاء والأعداء ،
حيث يقول :

تبصر خليلى هل ترى من ظمائن نحملىن بالعلياء من فوق جرثم
جعلن القبان عن يمين وحزنه وكىم بالقبان من عمل وعمرم
علون بأنماط هتاق وكلة وراود حواشيا مشاكبة الدم
وأى أناقة ولطف في منظر واد موحش فقر قد عبرته ناقة موقنة الخلق ،
سريعة الجرى ، كما يقول النابغة :

ومهمه نازح تقوى الذئاب به نأى المياه عن الورد مقفار
جاوزته بعنداة متاقلة وصر الطريق على الأحران مضجارا الخ
وأية رشاقة وبراعة في وصف واقعة عمرو بن كلثوم مع ابن عند الملك ؟
وغيرها و غيرها .

ولماذا نهم بدرس هاتيك القصائد اليوم وقد مات الكثير من ألفاظها ،
وسدل الستار على معظم المناظر والأماكن التي قيلت فيها ، وأنشئت من أجلها ؟

هل فعجب لغير تلك المواطنف التي تمثل لنا أخلاق الإنسان الفطرية ،
والتي يشترك فيها ابن الجاهلية القديمة ، وابن المدنية الحديثة على نسب متعارفة ؟
أما الحضري فهو : على ما يرى من الرياحين الميحاء ، والمصنوعات الشماء ،
والأنهار الجارية ، والأشجار الفارعة ، ذات القطوف الداية ؛ على ما يشاهد من
البواخر تمحور عباب البحار ، والقطارات تطوى فسيح اليبس ، والطائرات تسبح
في مجارى الأفلاك ، والغائصات تغوص في مساح الأسماك ؛ على ما يسمع من
تضاعيف الأوتار الناعمة ، والألحان المشجية ؛ على ما يرى ويسمع ، ويلس ،
ويشم ، ويذوق ، لا يستطيع أن يجارى البدوى الساذج في ميدان الشعر والشعور .
وهل أذاك حديث ابن الجهم إذ خاطب الخليفة مادحا فقال :

أنت كالكلب في حفاظك الود وكالتيس في قراع الخطوب
أنت كالدلو لا عدماك دلوا من كبير الدلى طويل الذنوب

فهزأ به الحاضرون ، واعتذر عنه المتوكل الخليفة العباسي بأنه بدوى لم يشاهد
غير ما ذكر ، ثم لما تمدن أنشأ قصيدته التي يقول في مطلعها :

عيون المها بين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

لا جرم أنك ترى على البيتين السابقين مسحة العباهة التي تشف عن بلادة
ناظمهما ، لا سيما في تشبيه الخليفة بالكلب أولا ، وبالتيس ثانياً ؛ ولكن ابن الجهم
نظر الى الحقيقة عينها ، فترك التكلف جانباً تمشياً مع طبيعته وسذاجته ، وسدح
المتوكل يا خلاص من ضمير طاهر ، إذ أنه أحرز الكلب صفات لو انصف بها
الممدوح لكان غاية الغايات .

وكثيرا ما يصف الشعراء مدوحهم بالأسد ، وهو غاية الوصف بالشجاعة ،
وليت شعري . أى فرق بين التشبيه بالسبع ، والتشبيه بالكلب ؟ أرايتك لولا
العادة واعتقاد المسلمين بجاسة هذا الحيوان الوفي الألوف لعد خيرا من ذلك
الوحش الضارى الذى يفخرون بالتشبيه به ؟

والبيتان - على ما مبهما من الضعف - لا يبخسان حق ناظمهما ؛ فإن القرينة
التي أرسلهما هي التي أنشأت القصيدة الرائية المذكور مطلعها سابقا .

المعرض والازهر

للتاريخ

لقضية الأستاذ الجليل الشيخ أبو الوفا المراغي

مدير دار الكتب الأزهرية

أقامت المملكة المصرية في عام ١٩٤٩ معرضها الزراعي الصناعي العام السادس عشر، وتفضل حصرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم فاروق الأول بافتتاحه في أول مارس من هذا العام، كما تفضل بزيارته مرة ثانية. ودُعي الأزهر للاشتراك فيه برصحه أقدم جامعة علمية إسلامية، فلي الدعوة، وأنشأ له قسماً خاصاً ولكنه كان صغيراً نظراً لضيق المكان الذي أقيم عليه المعرض. وقد تفضل

هذا ولم يكن ابن الجهم منفرداً بما ذكرنا عنه، بل ذلك شأن أكثر شعراء البادية: لا ينفلون إلا عن الطبيعة، ولا يظلمون غير حديث العاطفة.

وهل يؤبه لغير تلك الطبيعة التي لا تنفك تمل علينا من حديثها ما لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟

تأنك هما العاطفة الشعرية والطبيعة الإفسانية، كانتا ولا تزالان مصدراً من مصادر الجمال يمنحونا إلى الغابر القديم، حنو المرصعات على القطيم.

ولهذه العاطفة — كما قلنا — فعلها في كل الأمم حتى التي سارت شوطاً بعيداً في مضمار الحضارة؛ ولذلك نرى الغربي الحديث يهتم بشعر الأقدمين، ويترنح بجمال العاطفة فيهم.

وعلى الجلة: إذا نظرت إلى الشعر العناني أو الوجداني، وحللت أسباب الجمال فيه؛ ذلك الجمال الخالد الذي يمازج النفس، ويشير العاطفة — وجدته راجعاً إلى العواطف القطرية المشتركة بين الأمم في مختلف العصور؛ وإن لنا في الشعر العربي منه ما تفاخر به على مدى الأعوام والدمور.

جلالة الملك وشرف الأزهر بزيارة هذا القسم، وكان في استقباله به فضيلة الاستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر ووكيل الجامع الأزهر، وأبدى جلالة اغتباطه بما شاهده فيه، وتفضل حفظه الله فشمّل بعطفه السامى البعوث الاسلامية الوافدة الى الأزهر، فأمر بتحسين حالتهم المالية فوراً، فنفذت المشيخة هذه الإشارة الكريمة. وقد أشرف على إعداد هذا القسم فضيلة وكيل الجامع الأزهر بالاشتراك مع فضيلة سكرتير الجامع الأزهر، وكان لإعداد هذا القسم على الطريقة الآتية :

١ — ألف فضيلة الاستاذ الشيخ أبو الميoun السكرتير العام للجامع الأزهر نبذة قيمة ألم فيها بتاريخ الجامع الأزهر، وأفاض بوجه خاص في بيان وجوده الإصلاح التى تمت في الثلاثين سنة السابقة لتاريخ المعرض، وطبعت تلك النبذة بمطبعة الأزهر، ووزعت في المعرض وغيره، وترجمت الى اللغة الانكليزية لتكون مرآة للأزهر في نظر العلماء الاجانب .

٢ — اشتركت مكتبة الأزهر في الإعداد للمعرض، ورأت أن تعرض بعض المخطوطات النادرة القديمة من المصاحف وغيرها، وكان الاتجاه أن تعرض بعض المخطوطات في الفنون التى يظن بعض الناس أنها غريبة عن الثقافة الأزهرية كالطب والفلك والجبر وغيرها من الفنون، وقد عرض قليل من الكتب في هذه العلوم نظراً لضيق المكان .

٣ — رقى اشتراك الكليات والمعاهد في هذا المعرض، بعرض نشاط العلماء العلى الممثل في مؤلفاتهم، وقد بحثت بعض مؤلفاتهم، وبخاصة رسائل العلماء الحاصلين على درجة الأستاذية، واختيرت بعض رسائلهم لعرضها بالمعرض .

٤ — رقى عرض ما يمثل نشاط طلاب الأزهر الرياضى بالمعرض، وعرضت صور تمثلهم في ميدان هذا النشاط .

• — بعد البحث فيما ينبغي عرضه بالمعرض، استقر رأى على عرض الاشياء الآتية :

(١) ديوراما صورة مجسمة، للدينة الأزهرية تشمل الجامع الأزهر، والإدارة العامة، قاعة المحاضرات، إحدى الكليات الثلاث .

(٢) خريطة للقارات الخمس والجامع الأزهر تخرج من متارته الكبرى
سبعم مائة بألوان أربعة : (أ) اللون الأخضر للسهم الخارج من المنارة الى
البلاد الواقعة منها طلاب البعث لتعلم في الأزهر . (ب) اللون الأحمر للسهم
الخارج من المنارة الى البلاد الواقعة اليها علماء من الأزهر لتعلم فيها . (ج) اللون
البنفسجي للسهم الخارج من المنارة الى مراكز المبعوثين من علماء الأزهر لنشر
الثقافة الإسلامية والعربية فيها . (د) اللون الأصفر للسهم الخارج من المنارة
الى مراكز الثقافة والمعاهد التي يشرف عليها الأزهر ويمدها بمقرته .

٣ — صوربعوث الطلاب وهي من الملايو ، الهند ، إندونيسيا ، القوقاز ،
العراق ، الكردستان الشرقي ، سوريا ، تركيا ، الحبشة والصومال والايترية
والجبرت ، أوغندا ، جنوب السودان دارفور ، سنار ، شمال السودان ، طرابلس
الغرب ، تشاد ، السنغاليين ، من سيراليون وغيرها .

٤ — رسم يائي بين أولا : عدد العلماء بعد تنظيم الامتحانات بأول قانون
سنة ١٢٨٨ هـ سنة ١٨٧٢ م إلى سنة ١٩٤٨ .

ثانيا : عدد الطلاب من سنة ٩٨٨ م إلى سنة ١٩٤٨ م

ثالثا : ميزانية الجامع الأزهر والمعاهد الدينية من سنة ١٨٩٢ إلى سنة ١٩٤٨

رابعا : المتخرجين في إجازة التدريس من كلية اللغة العربية ، وفي إجازة القضاء
الشرعي من كلية الشريعة ، وفي إجازة الدعوة والإرشاد من كلية أصول الدين ،
وفي العالمية من درجة أستاذ .

٥ — بيان بهنضة البحث العلمي والتأليف في عهد المغفور له الملك فؤاد
الأول ، يشتمل على ١٧٠ مؤلفا مخطوطا موضح به اسم الكتاب واسم مؤلفه ،
وقد عرض منها خمسة كتب وضع في وسطها صورة للمغفور له الملك فؤاد .

٦ — بيان بهنضة البحث العلمي والتأليف في عهد حضرة صاحب الجلالة
الملك فاروق الأول ، يشتمل على ١١٦ مؤلفا مخطوطا موضح به اسم المؤلف واسم
مؤلفه ، وقد عرض منها أربعة كتب وضع في وسطها صورة لحضرة صاحب
الجلالة الملك فاروق الأول .

٧ — صورة لحضرة صاحب الجلالة الملك فاروق وهو يستمع في ذكرى جده محمد علي بمسجد القلعة .

٨ — صورة بعض شيوخ الأزهر الراحلين وكبار علماء الأزهر ، وصورة حضرة صاحب الفضيلة شيخ الأزهر الحالي ، وبياتها كالاتي :

صورة للرحوم الشيخ سليم البشري ، صورة للرحوم الشيخ محمد أبو الفضل الجيزاوي ، صورة للرحوم الشيخ محمد الاحمدى الظواهري ، صورة للرحوم الشيخ محمد مصطفى المراغى ، صورة للرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق ، صورة لحضرة صاحب العvisلة الاستاذ الاكبر الشيخ محمد مأمون الشناوى شيخ الأزهر الحالي . وأما صور كبار العلماء الأزهر ففى : صورة للرحوم الشيخ محمد عبده ، وصورة للرحوم الشيخ حسن الطويل ، صورة للرحوم الشيخ محمد بحيت المطيى .

٩ — مرصد فلكى أهداه المغفور له إسماعيل باشا الفاسكى سنة ١٣٩٦ هـ سنة ١٨٩٨ م إلى الجامع الأزهر ، ويستعمل كوسيلة إيضاح فى دراسة العلك لطلاب الأزهر .

١٠ — المصاحف :

(أ) مصحف شريف مكتوب بقلم ثلث كتبه على برأمر حاجب سنة ٧٣٣ هـ ووقفه الأمير أفبنا الاوحدى على مدرسته بجوار الأزهر سنة ٧٤٠ هـ ، ويمتاز هذا المصحف بأشتاله على مباحث علمية تتعلق بالقرآن الكريم ، ففیه بيان بهدد جلالات القرآن العظيم ، وسوره ، وحروفه ، ومجدهاته ، وبيان اصطلاحات القراء وغير ذلك .

(ب) ربعة قرآن كريم ، مجرأة ثلاثين جزءا ينقصها الجزء الاول والتاسع والعشرون ، وخطها قديم ، وفى أول كل جزء منها صفحتان مذهبتان ، وقفها المقر السبق أفبنا على مدرسته بالجامع الأزهر ، المكتبة الأزهرية الآن ، التى انتهى من بنائها سنة ٧٤٠ هـ وقد وضعت فى صندوق أثرى باسم السلطان الناصر محمد ابن قلاون .

(ج) مصحف شريف مكتوب بالخط الكوفى من أوائل القرن الرابع الهجرى على رق غزال .

(د) مصحف شريف بالقلم الثلث ، وأسماء السور فيه وفواصل الآى محلاة بالذهب ، وعدد أوراقه ٤٣١ ورقة .

١١ - غريب الحديث لابن سلام : وهو العلامة الفقيه المحدث أبو عبيد القاسم بن سلام البعدادى المولود فى هراة سنة ١٥٧ هـ - سنة ٧٧٤ م ، والمتوفى بمكة المكرمة سنة ٢٢٤ هـ سنة ٨٣٩ م روى عنه أنه قال : « إني جمعت كتابي هذا فى أربعين سنة ، وربما كتبت أستفيد الفائدة من الأفواه فأضعها فى موضعها ، فكان خلاصة عمرى » كتب سنة ٣١١ هـ .

١٢ - فوار - مجموعة رسائل السيوطى ، وهو الإمام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد بن سابق الدين الحنظيرى السيوطى الشافعى المولود سنة ٨٤٩ هـ سنة ١٤٤٥ م والمتوفى سنة ٩١١ هـ سنة ١٥٠٥ م كتبها بخط يده فى جملة فنون من أهمها : رسالة فى الطب ، وتصدير ألقاء يوم جلوسه للتدريس لنيل الإجازة العلمية ، بجامع شيخوه بالقاهر سنة ٨٦٧ هـ وقد كان فى الثامنة عشرة من عمره .

٦ - اقتدب اثنان من العلماء بمساعدة بعض الخدم لإرشاد الزائر الى ما يحتاجون اليه من المعلومات فى القسم الخاص بالأزهر طوال مدة المعرض . وقد ذكر المسدويان أن معروضات الأزهر لقيت ارتياحا وقبولا من زائري المعرض ، وخاصة الطليقات المنققة منهم .

٧ - نجح القسم الخاص بالأزهر فى المعرض نجاحا باهرا ، حتى قال بعض المسئولين : إن معروضات الأزهر ، وما كان فيها من طرافة ، ولها من القيمة التاريخية والعلمية ، كانت من أهم المعاصر فى نجاح المعرض العام .

وقد نال الأزهر جائزة من جوائز الشرف الممتازة التى وزعت بالمعرض ، تقديرأ لقيم المعروضات وبجهود العارضين .

بَابُ الْأَسْبَلَةِ وَالْفَتَاوَى

نقل الدم وحاسة البصر

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتي :

أتشرف بأن أطلب بيان حكم الله تعالى في هاتين المسألتين ، وذلك لاهمية ذلك جدا عندنا في تونس :

١ — نقل الدم للمسلم المريض المحتاج له من شخص غير مسلم .

٢ — الانتفاع بجوهر من عين شخص متوفى لرد بصر شخص آخر حي .

وبما أنني على نية العودة قريبا الى وطني تونس ، وبما أنني كلفت بهذا الاستفتاء من كثير من المسلمين هناك أصحاب الرأي ، لذلك أرجو التفضل بإفادتنا في ذلك ، وأن يكون الجواب قريبا لاحله معي للأهلين هناك . ولفضيلتكم ولحضرات الأعضاء خالص الإجلال . والسلام عليكم ورحمة الله ؟

مصطفى بوشوشة

الجواب

الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان الى يوم الدين .

أما بعد ، فقد اطلعت اللجنة على هذا الاستفتاء ، وتفيد بأن الله تعالى قال في كتابه الكريم : « إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله ، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه » ، وقال سبحانه في آية أخرى : « فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم » ، وفي آية أخرى : « وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه » .

وهذه الآيات الكريمة تفيد أنه إذا توقف شفاء المريض أو الجريح وإنقاذ حياته على قتل الدم إليه من آخر ، بألا يوجد من المباح ما يقوم مقامه في شفاؤه وإنقاذ حياته - جاز نقل هذا الدم إليه بلا شبهة ، ولو من غير مسلم . وكذلك إذا توقفت سلامة عضو وقيام هذا العضو بما خلقه الله له على ذلك ، جاز نقل الدم إليه ؛ أما إذا لم يتوقف أصل الشفاء على ذلك ولكن يتوقف عليه تعجيل الشفاء فنصوص الشافعية تفيد أنه يجوز نقل الدم لتعجيل الشفاء ، وهو وجه عند الحنفية ؛ فقد جاء في الباب الثامن عشر من كتاب الكراهية من الفتاوى الهندية ما نصه : « يجوز للعليل شرب الدم والبول وأكل الميتة للتداوى ، إذا أخبره طبيب مسلم أن شفاؤه فيه ولم يجد من المباح ما يقوم مقامه ، وإن قال الطبيب : يتمجل شفاؤك ، فيه وجهان . ١٠ »

وحلاصة هذا : أنه إذا تحقق توقف حياة المريض أو الجريح على نقل الدم جاز بنص القرآن ، أما إذا توقف تعجيل الشفاء لحسب ، فيجوز على أحد الوجهين عند الحنفية ، ويجوز على مذهب الشافعية ، وهذا مفيد بلا شبهة بما إذا لم يترتب على ذلك ضرر فاحش بمن يقتل منه الدم .

وبيق الكلام فيمن يعمل ويعتمد على خبره من الأطباء ، أيجوز الاعتناء بذلك على طبيب غير مسلم ، أم لا يجوز ؟

فظاهر مذهب الحنفية والشافعية والحنابلة أنهم يفتنون الطبيب الذي يعمل على خبره في مثل ذلك بكونه مسلماً ، والمالكية يرون الاعتماد على غير المسلم حثيثاً إذا لم يوجد طبيب مسلم ، وبعض العلماء لا يرون وجوب كونه مسلماً حتى في حالة وجود الطبيب المسلم . وهذا ما تختاره اللجنة وتفتي به ؛ لأن المدار على ما يوجب غلبة الظن ، وهذا يتوافر كثيراً في غير المسلم بالتجربة كما يتوافر في المسلم .

فقد جاء في صفحة ٢٠٨ من الجزء الثالث من كتاب بدائع الفوائد ، لشيخ الإسلام ابن القيم الحنبلي مانصه : « في استئجار النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله ابن أريقط الدبلي هادياً في وقت الهجرة ، وهو كافر ، دليل على جواز الرجوع إلى الكافر في الطب والكحل والأدوية والكتابة والحساب والعيوب ونحوها ، ما لم يكن ولاية تتضمن عدالة ، ولا يلزم من مجرد كونه كافراً ألا يوثق به

في شيء أصلاً، فإنه لا شيء أخطر من الدلالة في الطريق، ولا سيما في مثل طريق الحجرة .

وقال ابن مفلح الحبلى في كتاب الآداب الشرعية صفحة ٤٦٢ من الجزء الثاني تمثلاً عن شيخ الإسلام ابن تيمية ما نصه : « إذا كان اليهودى أو النصراني حبيراً بالطب ثقة عند الإنسان جاز له أن يستطب ، كما يجوز له أن يودعه المال وأن يمايله ، كما قال تعالى . ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بضنطار يؤده إليك ، ومهم من إن تأمنه بديار لا يؤده إليك . . الآية . وفي الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم لما هاجر استأجر رجلاً مشركاً هادياً خريئاً (ماهراً) واتمعه على نفسه وماله . وكانت حزاعة عيبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم مسلمهم وكافرهم (العيبة موضع السر) . وقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر أن يستطب الحارث بن كارة وكان كافراً ، وإذا أمكه أن يستطب مسلماً فهو كما لو أمكنه أن يودعه أو يعامله فلا ينبغي أن يعدل عنه . وأما إذا احتاج إلى اتیان الكتابي أو استناباه فله ذلك ، ولم يكن من ولاية اليهود والنصارى المنهى عنها . . الخ . »

وبهذا علم الجواب عن السؤال الأول ، وهو جواز نقل الدم من مسلم أو غير مسلم على حسب ما فصلنا .

وأما الجواب عن السؤال الثاني : فقد أجاز كثير من متأخري علماء الشافعية جبر المكسر من عظم إنسان حتى يعظم إنسان ميت إذا لم يمكن جره بغيره . (تراجع حواشى تحفة ابن حجر وتقرير الشيخ الشريفي على ابن قاسم على المهجة) .

وقياساً على هذا ترى المهجة جواز نقل جزء من عين الميت لإصلاح عين الحى إذا توقف على ذلك لإصلاحها وقيامها بما خلقها الله له .

هذا هو ما تفتى به اللجنة . والله الهادى إلى سواء السبيل .

رئيس اللجنة الفتوى

عبد المجيد سليم

الرجولة في الدين

نفضية الأستاذ الجليل الشيخ ابراهيم على أبو الخشب
المدرس بكلية الشريعة

ربما دار بخلد بعض الناس أن الرجولة هي الرجولة في الدين وفي غير الدين ، لأن القيم الأخلاقية ، والمعايير الأدبية ، لا تختلف بالاعتبار ، ولا تقيان في نظر الدساتير ، خصوصا إذا كانت من الصفات الإنسانية المحمودة ، والموارض الدائية التي لا تأبأها الطباع ولا تنفر من مصاحبتها النفوس . وفي الحق أن الإسلام هذب كثيرا من الأوصاف ، وشذب غير قليل من العادات ، وانتقل بسلوك الناس انتقالا يكاد يجعله متباينا كل التباين أو بعضه ، إذا ما قيس حاله القديمة بحاله الجديدة ، وقورنت أنماطه فيما بعد بأنماطه قبل ذلك

فالرجولة في نظر الشطار والصوص ، ليست هي الرجولة في نظر من يحبون المسألة ، ويميلون إلى المودعة ، ويكفون رعباتهم وجهودهم فوق ما تطيق ، لإيصال السعادة إلى من يجاورهم في المسكن ، ويماشرون في البيته . ويشاطروهم هواء السماء ، ومياه الدأما . وكذلك كانت الرجولة في الجاهلية ، والحروب همهم ، والفتك دأبهم ، وإزهاق الأرواح ديدهم ، يباهون بماعة الكلأ ، وحماية الوحوش ، فإذا استرعى في أرضهم دخيل ، أو اصطاد من بريتهم أجنبي ، عدوا هذا تطاولا على حوزتهم ، واستباحة لدمارهم : والويل لمن تحدته هواجسه أن يبال منهم ، أو يدخل عليهم : ووقاتهم إلى سجلها التاريخ ، وتضمنتها بطون الكتب ، لم تخرج في جللتها وتفصيلها ، عن كونها انتصار للإباء ، واحتفاظا بالشسم ، ودفاعا عن الجانب ، وعصبة للكرامة ، وصيانة للرجولة التي هي أئمن ما يمتلكون .

وليس معنى هذا أننا نفرم على ما كانوا يفعلون ، أو نمدحهم على ما كانوا يأتون ، ولكننا — فقط — نكشف عن ناحية من نواحي تلك الكلمة في فترة

من فترات الزمن حيث كانت تاجا من تيجان الشرف ، وحلية من حلي الفخار ،
وشعارا من شعارات المجد ، بصرف النظر عن الجاهلية والإسلام . وحينما يتجلى
لك أن محمدا صلى الله عليه وسلم جاء إلى العرب برجولة من طراز آخر سجدوا له
وآمنوا به ، تعلم إلى أى مدى كان هذا الدين يحتضن الرجولة ، فيذر بذرها ، وينمى
غرسها ، ويتعهدا بالرى والصون ؛ ولعل أبرز مظاهر هذه الصفة ، وأجنى نعمت
يستطيع الإنسان أن يجدها ، تلك الفضيلة ما يقرؤه القارىء في آية : كونوا قوامين
بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ، ؛ لأن الرجولة تعتمد
الحق أولا وقبل كل شيء ، والله سبحانه وتعالى خلق السموات والأرض بالحق ،
وأقامهما على الحق ، وجعل عمارة الدنيا بالحق ، وتكررت في القرآن كلمة الحق ،
وسمى الله نفسه الحق ، ولافضيلة من الفضائل ، ولا مكرمة من المكارم ، للرجولة
فيها مدخل ، ولما إليها انتهاء ، إلا وأنت واجد الحق قوامها ، والصدق عمادها .

وعمر بن الخطاب رضى الله عنه لم يكذب يعلن إسلامه ، ويرى انزواء المسلمين
بدينهم ، وإخفاءهم بعقيدتهم ، حتى قال : يا رسول الله ألسنا على الحق وهم على
الباطل ؟ ولما قال له النبي صلى الله عليه وسلم : نعم ، قال له : علام نرضى الدنية
إدس ؟ ! وكان هذا مبدأ انتفاع المسلمين برجولته ، ومطلعا من مطالب استجابة
دعوة صفوة الخلق ، اللهم أهر الإسلام بأحب الرجلين إليك . ثم تلا ذلك
موقعه في الهجرة وغيرها من المواقف الخالدة المشهودة . . . وإذا كان أمير
ميزات الرجولة غي النفس ، وترفعها عن الداييا ، فقد علما أنه كان يقول : إذا
رأيت في أعوجاجا فقوموه بسيوفكم . وكذلك كان غيره من الخلفاء يقول مثل
هذا القول : وهو مظهر من مظاهر الرجولة في أحسن صورها ، وأبهج مآظرها ،
لأن الثقة بالنفس ، والاعتزاز بها ، مكانة لا يسمو إليها الرجال إلا حين يبلعون
من المجد الغاية ، ويشارفون من السؤدد النهاية .

وإذا ما تطرق الخلل إلى هاتين الناحيتين والعياذ بالله ، رأيت . مركب
النقص . يحمل عمله ، فيعري بالفساد ، ويسوق إلى الملق والرياء ، ويحمل على
الكذب ، ويزين للناس الرذيلة ، في ألوان متعددة ، وأشكال مختلفة ، وهناك
تكون الرجولة عندهم من أبغض الأشياء ، وأحق الصفات .

وقد تطلق اللغة المُسولة على ما يقابل الرجولة ، وهي كلمة تجمع في تباين حروفها صفات اللؤم ، وخصال الشر ، ومعاني الدناءة . فعدام الشرف ، وفقد المروءة ، ونقص الذوق ، وبليد الحس - ليس برجل ، ولا فيه من المزايا والاعتبارات ما يقربه بعض الشيء من حدود هذه التسمية ، قليلا ولا كثيرا .

وإذا كانت كلمة الإنسان ترادف كلمة الرجل ، فذلك لأن الرجولة أُنس وألفة ، ومودة ورحمة ، وحن وعطف ، ورقة ولين ، وتعاون في الخير ، وتضافر على الإصلاح ، لتصير الحياة في نظر الأحياء ، حنة عرضها السموات والأرض . . . ولذلك فإن الناظر في كتاب الله بحمد في تكاليفه كلها ، ينتهي بالعباد إلى هذه النهاية التي تجعلهم ملائكة تمشي على قدمين ، فلا حقد ولا حسد ، ولا لؤم ولا رياء ، ولا كراهية ولا بغضاء ، ولكن يكون المؤمن المؤمن كالبنان يشد بعضه بعضا .

ويحيل إلى أنه ليس طريقا ولا جديدا أن أحاول في هذا البحث إثبات أن الرجولة اسم لما تضمنته تعاليم الدين وتكاليفه ، وأنها لم تخرج عن كونها امتثال ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم : فإن قوله تعالى : من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، بمثابة الفیصل في ذلك كله ، لأنه سبحانه لم يذكر المؤمنين بعنوان الرجولة في معرض كونهم صدقوا ما عاهدوا الله عليه إلا ومقصده الإشعار بعلة التسمية . . . وهي تحديد صحيح للرجولة كما يراها الدين . . . ولولا أننا صرنا إلى زمن متعوس ، وجيل منحوس ، تبدل فيه الأوضاع ، وتنعكس الحقائق ، وتحرف المقاييس ، لما رأينا من يسمى اللصوص ، أو يطلق على قطاع الطرق ، ويخلع على الممرورين الخنق ، ألفاظا لا يناسب شرفها مع وضاعتهم ، ولا يتلاءم سموها مع انحطاطهم ، وسوء انحدارهم ، وقبيح تدليهم . . .

فهل نعيد النظر ، ونحقق الحق ، ونبطل الباطل ، ونعلم أن الرجولة أبعد الأشياء مثالا ، وأندر المعقولات مثالا ؛ اللهم إلا في فلسفة الحكماء ، وخيال

الصفراء !!!

الابتداع

أصله ومضاره

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ حسن عبد الله المشد
المدرس بكلية أصول الدين

دفعني إلى الكتابة في هذا الموضوع واجب هو من أقدم الواجبات الدينية،
والصقها بوحدة المجتمع الإسلامية . وليس شيء ألصق وأمر بهذا
الواجب من المحافظة على الخليفة البيضاء ، من ميكروب البدع والخرافات المحدثه
باسم الدين ، والتي أتت على العقائد فأضعفتها ، والعبادات فأفسدتها ، والعادات
فصارت الأمة بها شيئا وجماعات . فعمدنا أولا إلى بيان أصل الابتداع والدافع
إليه ، ومنشئه والحامل عليه ، مع ذكر أمثلة من عناصره الهدامة .

أما فروع البدع التي فشا أمرها واستفحل خطبها ، فسوافيك بها تباعا
إن شاء الله .

اعتصم المسلمون في أول أمرهم بحبل الله المتين ، واتبعوا هدى كتاب الله
الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؛ فكانوا أمة واحدة في عقيدتها ،
صحيحة في عبادتها ، سليمة في عاداتها . وبذلك هابت جميع الأمم جانبها ، ورحبت
وحديثها ، بفضل اتباعهم هديا واحدا ، وطريقا واحدا ؛ هو ذلك الكتاب
الحكيم ، الذي مترك حلالا لإيئنه ، ولا حراما لإلحادده ، ولا مصلحة من مصالح
الدنيا والآخرة إلا وهو بها كفيل .

وما زال أمر المسلمين كذلك حتى تهاونوا في أمر دينهم ، والسير على سنة
نبيهم ، فهناك تسلط الشيطان على أهل الهوى والضلال ، فسولت لهم نفوسهم

الخبيثة أن يتدعو أمورا لسوما على العامة باسم الدين ، موهمين التيسير على عباد الله وعدم التمسير ؛ وهي أمور لا تمت الى الدين بسبب ، ولا تصل اليه بدليل ، بل لا هدف لهؤلاء الضالين المضلين إلا أن يعيثوا بدين الله فيحلوا حرامه ويحرموا حلاله . وأنى لهم ذلك والله يقول : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » . وكيف يسع هؤلاء أن يتدعوا ويحدثوا لعباد الله ، ورب العباد الواحد الأحد ، الذى هو أعلم بمصالح من خلق ، قد أكل لهم الأمر ، وأنتم عليهم العمدة اليوم أكلت لكم دينكم وأنتمت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا . فإلم بأن هؤلاء الدخلاء على الدين أن يكفوا عن ابتداعتهم وخرافاتهم ١١ وألم بأن للسليبي عامة أن يرجعوا فيما اشبه عليهم الى كتاب الله وسنة رسوله ، فالخلال بين والحرام بين ١

وإليك أيها المسلم الغيور المثل الأعلى في ذلك ، والحد الفاصل بين دين الله القويم ، وبين البدع والخرافات ، كي تكون على بينة من أمر دينك :

جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أصحابه إذ خط خطا مستقيما أمامه على الأرض وقال : هذا سبيل الله ، وخط خطوطا عن يمينه وخطوطا عن شماله وقال : هذه السبل المتفرقة وعلى كل سبيل منها شيطان يدعو . ثم قرأ عليه الصلاة والسلام قول الله تعالى : « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » .

سبحانك ربى ما أجل نعمك وأعظم سلطانك أحلفت الخلق بقدرتك ، وأنعمت عليهم بدينك القويم وهديك المستقيم ، فضلا منك ونعمة ، لم تركهم هملا يعملون بمعير نظام ، ويسرون على غير ثياب ، تملئ عليهم شهواتهم ، وتوحى إليهم عقولهم وأهوائهم ، فإن العقول متفاوتة والأهواء متعايرة ، يستحسن الشخص اليوم ما يستقبحه غدا ، ويستحب هذا ما يهواه الآخر ، كل له غرض يسعى ليدركه . « ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله » .

منفضل سبحانه وتعالى على عباده برسل هادين ، وما زالت الرسل عليهم الصلاة والسلام يرسلهم الحق إلى الخلق مبشرين ومنذرين ، حتى حتم رسالة الجميع برسالة

سيد العالمين ، وأرسل عليه ذلك الدستور الحكيم الذي حث على العزيمة بعد ما رجمها ، ونهى عن الرذيلة بعد أن بين حدودها ، بطرق بديمة الأسلوب ، واحدة العاية ، ترجع جميعها إلى هدى الله تعالى في قوله : « وأن هذا صراط مستقيم فاتبوه » . صراط يدعو إلى العدل في كل شيء ، وينتهي بالعباد إلى سعادته في دنياه وآخرته ؛ يدعو إلى العدل بينك وبين ربك ، وبينك وبين نفسك ، وبينك وبين عباد الله . أما عدلك بينك وبين ربك ، فسلامة عقيدتك في أن الله تعالى وحده هو الذي خلقك فسواك فعدلك . لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم . كما أن يده سبحانه وتعالى ملكوت السموات والأرض ، إذا أراد شيئا قال له كن فيكون . وعند ذلك تسلم عقيدتك ، ويمسح إيمانك ، إذ قد علمت أن قلوب الخلق بيد الله يصرفها كما يشاء ، وذلك قوله تعالى في الحديث القدسي : « أنا الله ملك الملوك ، قلوب العباد بيدي ألقها كيف أشاء » .

وأما عدلك بينك وبين نفسك ، فاستمالك جميع فم الله عليك فيما خلقت لأجله . وأما عدلك بينك وبين عباد الله ، فسلامتهم من إيدائك ، كل المسلم على المسلم حرام : دمه ، وماله ، وعرضه .

صراط الله يدعو إلى الرحمة في كل شيء . فالراحمون يرحمهم الرحمن ، متبعا أيها المسلم الكريم في كل ذلك ما رسمه لك الحق وبينه على لسان رسوله الأمين ، غير مجترى على دين الله بإحداث البدع والخرافات أو اتباعها ، وغير متعد حدود الله تلك حدود الله فلا تعتدوها ، فلا تحدث بدعا تنسبها إلى الدين بتحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم ، فستوجب بهذا وزرين ، وتستحق بذلك عقابين : « من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » . وتكون بذلك أيضا قد فتحت الباب لفساد العباد في عقيدتهم وعبادتهم وعاداتهم ، وعددت الطرق باسم الدين ، وهالك تفرق كلمة المسلمين ، وتضعف شوكتهم ، وتعمل وحدتهم ؛ وذلك قوله تعالى ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله .

وحقا إن تأملت وفكرت فيما عليه حال المسلمين الآن من ضعف في الإيمان ونقص في العقيدة واضطراب في الوحدة ، وجدت كل هذا يرجع إلى التمسك والعمل بأمور ابتدعت باسم الدين ، وخرافات أحدثت باسم الدين ، والدين من كل هذا براء ؛

حتى أصبحت عقائد الناس كما ترى، وعبادتهم كما تشاهد، وعاداتهم كما هو واقع ؛ كل هذا شياطين من الإنس ابتدعوا في الدين ما ليس منه ، ودعوا للعمل به موهمين التيسير وعدم التعسير، أو وجدوا آباءهم كذلك يفعلون ، فأباحوا وأوجبوا ، وأحلوا وحرموا ، حتى أصبح الكثير منهم يفهم أن هذه الخرافات من الفرائض والواجبات ، ونسوا تحذير الحق في قوله : « ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين . إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون . » . يأمر الشيطان أهل البدع والضلالة بأن يقولوا على الله تعالى ما لا علم لهم به ، من تحليل ما حرم ، وتحريم ما أحل ، والقول على الله تعالى بغير علم ، اعتداء على حق الربوبية بالنشرع ، وهذا من أقبح ما يأمر به الشيطان .

أليس من البدع الهدامة والقول على الله تعالى بغير علم ، زعم المبتدعين الصالحين أن الله تعالى وسطاء بينه وبين خلقه ، لا يفعل سبحانه وتعالى شيئا إلا بواسطة ، فحولوا بذلك وجه عباد الله عنه ووجهوها إلى عبيد ضعفاء لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ، ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا ؛ ويدعون غيره تعالى وهو يقول : فلا تدهوا مع الله أحدا . .

نحن لا نمس كرامة الأولياء بسوء ، فالكرامة شيء ، والبدع شيء آخر . وأليس من القول على الله تعالى بغير علم ، ما زادوه في أنواع العبادة وأحكام الحلال والحرام عما ورد في الكتاب والسنة ، والعلماء يقولون : كل من زاد في الدين عقيدة أو حكما من غير استناد إلى كتاب الله أو كلام المعصوم فهو من الذين يقولون على الله تعالى ما لا يعلمون .

وهذا قليل من كثير من البدع التي فشا أمرها واستفحل خطبها ، كزائرات القبور وما يأتيه من الخرافات والبدع باسم الدين . كذلك تشييع الجنازة على الوجه المعروف ؛ وأنواع البدع التي يندى لها جبين الإسلام كثيرة ، لكنني قصدت بهذا المقال بيان أصل الابتداع وبعض عناصره الصارة بوجه عام ، ليكون كقاعدة تفهم منها فروع البدع التي سوا فيك بها كما وعدت إن شاء الله ، رجاء أن تلفت الأمانة لهذا الرباء المستفحل ، والمرض الذي أصابها في عقيدتها وعبادتها من البدع والخرافات . أذاقنا الله حلاوة الاتباع ، ووقنا شر الفضول والابتداع .

المحتسب أيام الدولة الفاطمية

المختصة الأستاذ الدكتور عليه مصطفى مشرفه

وكان على المحتسب أن يأمر المجانين أن تكون أوعية الماء نظيفة ذات غطاء، وكان يراقب غسل المعاجن ونظافتها، ويحمل المعجان ملثما حتى إذا عطس أو تسكلم لا ينزل شيء من بصاقه أو محاطه في المعجين، ويأمره بشد عصاية يعضها على جبينه لئلا يهرق فيقطر منه شيء، ويأمره بحلق شعر ذراعيه حتى لا يسقط منه شيء في المعجين، وأن يياشر نخل الدقيق جيدا، ويكلف شخصا وقت يحمله أن يمسك ييده مذبة ليترد بها الدباب هنه، وكان عليه أن يأمر الفرانين بإصلاح المداخن وتنظيف بلاط الفرن بالكس من وقت لآخر وإزالة اللباب المحترق والشرر المتطاير والرماد المتناثر، لئلا يلصق بالحطب الجديد منه شيء، وأن يحبرهم على رفع سقائف أفرانهم، وأن يجعلوا في سقوفها منافس واسعة لتسرب الدخان، وأن يكفسوا بيت النار في كل تعميرة.

وكان عليه أن يأمر الجزارين بعدم شد الحيوانات المعدة للذبح من رجلها جراً عيباً، وألا تذبح بسكين غير حادة، ولا يشرع في السلخ بعد الذبح حتى يبرد الشاة ويخرج منها الروح، وألا تذبح البقر الحوامل، لأن في ذلك تعذيباً لها، وأن يمنع الناس من تحميل الدواب أو السفن أكثر من طاقتها، كما يفعل رجال قلم المرور اليوم؛ فقد نهى النبي عليه الصلاة والسلام عن ضرب الهائم بدون سبب وأن تحمل فوق طاقتها وقال: رأيت صاحبة السكب في الجنة، وهي امرأة مرت بكلب تلتظ على بئر فلم تجد ما تستقي له فربطت خفها بخمارها واستقت له فسقته فغفر الله لها بذلك، وقال عليه الصلاة والسلام: رأيت صاحبة الهرة في النار وهي امرأة ربطت هرة لها وتركها لا تطعمها ولا تدعها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت فعذبها الله بذلك، وروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه ضرب جمالا لأنه حمل جملة مالا يطيق.

وأمر المحتسب في الدولة الفاطمية الجزارين بوضع ذيول المعيز معلقة فوق لحومها حتى تباع بأكملها، ليرى المشتري أن ما يشتريه إنما هو لحم معز فلا يقع العش في المبيعات، وأن يذبخوا الحيوانات في المذبح لا على أبواب دكاكينهم لئلا يتلوث الطريق بالدم والروث.

وكان يأمر من يعدون الطعام بغسل مواضعهم ، ويأمرهم ببطانة أو انهم ، وعدم المش فيما يقدمونه للرعية ؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول ، من عشنا فليس منا . وكان يأمر الطهاين ألا يخلطوا ، ردى الحنطة بجديدها ، ولا عثيفها بجديدها ، لأن في ذلك تدليسا على الناس ، وغربة الغلة من الزراب وتفتيتها وتظفيتها من الطين ومن الغبار قبل طحنها ، وألا يخلطوا دقيق العسلة بدقيق الخرص أو القول ، فمن وجده فعل شيئا من ذلك أنكر عليه فعله وأدبه . وكان يأمر الثوائين ألا يشربوا إلا ، البهائم اللطاف البلدية السمان الجذعان في السن . وكان يلزم الثنائيين (١) أن يدقوا اللحم على القرم النظيفة ، ويكون بجانب من يدقها رجل يمسح مذبذبة يطرد الذباب عنها ، ويلاحظ عدم غشها بلحوم الممرز أو الإبل أو غيرها . وكان يباشر الكبوديين فلا يجعلهم يخلطون كبود (جمع كبذ) المميز أو البقر بكبود الضأن ، وألا يخلطوا البانت مع الطرى (الغض) فإذا بات عند أحد منهم شيء عرضه عليه في الصباح ليراه ويأذن له يبيعه وحده .

وكان المحتسب يأمر الطباخين بتغطية أو انهم وحفظها من الذباب ، وألا يخلطوا لحوم الممرز بلحوم الضأن ، ولا لحوم الإبل بلحوم البقر . وكان يلزم الحلوانيين أن تكون الحلوى تامة النضج ، وأن يمسح عنها الذباب بالمذبة ، كما يلزم الشرايين أن يستعملوا الماء النظيف ، وأن تكون معهم المذبة دوماً لطرد الذباب ، ويلزمهم بغسل مواضعهم في كل يوم وتغطيتها . كذلك كان يلزم البابين بتغطية أو انهم ، وأن لا يشربوا اللبن ، وأن يغسلوا القصارى والمواضع جيداً قبل استعمالها .

وكان عليه أن ينهى الباعين عن خلط البضاعة الرديئة بالجيدة ، إذا اشترى كل واحدة على انفراد بسعر ، ويأمرهم ألا يستعملوا لمسح أو عثيم إلا الخرق الطاهرة النظيفة ، وأن تكون المذبة في أيديهم يذبون بها على البضاعة طول النهار ، وكان يأمرهم ببطانة أثوابهم وغسل أيديهم وآبئتهم ، ومسح موازينهم ومكاييلهم .

وكان يأمر الزبائن ألا يمسوا الخبز أو شيئاً من المأكولات بأيديهم وهي قادرة حتى يغسلوها غسلاً جيداً . وكان يمنع الخياطين من أخذ بطانة شخص لإعطائها لآخر . وكان عليه أن يمنع بيع النجش (وهو أن يزيد في السلعة من

لا يريد شراءها) وأن يمنع قسرية الدابة اللبون ، ويمنع العقود المحرمة ؛ مثل عقد الربا وعقد الميسر ، كبيع الغرر ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن بيع العرر كبيع السمك في الماء والطير في السماء . وبالجملة كان عليه منع كل أنواع التدليس . وكان عليه أن يمنع الكيميائيين من غش الجواهر والعطر والطيب وغيرها ، وأن يأخذ على الأطباء والصيدلة عهد ، أبصراط ، الذى استخلف فيه متعلم صناعة الطب أن يكون ملازماً للفضيلة ، فلا يعطى أحداً سماً ، ولا يذكر للنساء الدواء الذى يسقط الاجنة ، ولا للرجال الدواء الذى يقطع النسل ، وأن يهض بصره عن المحارم عند دخوله على المرضى ، ولا يفتش الأسرار .

وكان على المحتسب مراعاة أحكام الشرع ؛ فكان يتفقد المقابر فإذا سمع نائحة أو نادية منعها وعزرها ، لأن النوح حرام ، إذ يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه لعن النائحة والمستمعة . وكان على المحتسب أن يمنع النساء من زيارة القبور ؛ لأن النبي عليه السلام يقول : « لعن الله زائرات القبور » ، وكان له أيضاً حمل المماطلين في دفع ديونهم على دفعها ، وأن يأمر العامة بالصلوات الخمس في مواقيتها ، وبمعاقب من لم يصل بالضرب وبالحبس ، لأن من حفظها وحافظ عليها حفظ دينه ، ومن ضيعها كان لمن سواها أضيع . وكان يأمر الناس بصلاة الجمعة وأداء الأمانة وقول الصدق . وكان يشرف على الجوامع والمساجد ، فيأمر بكفها يرمياً ، وتنظيفها من الأوساخ ، ونفض حصيرها من العبار ، ومسح حيطانها وغسل فناديلها ، ووقيدها في كل ليلة . وكان يأمر بعلق أبوابها عقب كل صلاة ، وصيانتها من الصبيان والمجانين ، ومن يأكل أو ينام فيها ، وغير ذلك من الأشياء التى أتت الأحاديث النبوية بتنزيه المساجد عنها . وكان عليه أن ينفذ الحكومة الفاطمية إلى الخطر الذى يحصل للمساجد من التصدع والانحيار بسبب عدم ترميمها وحمايتها من غشيان الباعة والمتطفلين .

كذلك عهد إلى المحتسب بأن يأخذ من أهل الذمة الجزية ، وأن يراعى التزام أحكام المسلمين ، فلا يقاتلوا مسلماً ، ولا يسبوا ، ولا يزنوا بمسلة ، ولا يحاولوا تغيير مسلم ، أو يحولوا دون إسلام نصراني ، ولا يذلوا أحداً على عورات المسلمين ، ولا يشبهوا الخمر والخنزير ، فإذا فعلوا شيئاً من ذلك أو من غيره ، انتقضت ذمتهم وعزوم ؟

[يبيع]

(١) المجتمع والسياسة

في الأدب المصري الحديث

تقدير للمصادر

تعريب فضيلة الأستاذ
نور الدين شريبه
خريج كلية اللغة العربية
بجامعة الأزهر

بحث للمشرق الإنجليزي
الأستاذ ج. هيورث دن
J. Heywarth Dunne
الأستاذ بجامعة لندن

الأستاذ ج. هيورث دن من أعلام المشرقين الإنجليز،
اشتغل بتدريس العربية في جامعة لندن، منذ سنة ١٩٢٨
حتى سنة ١٩٤٨، وهو الآن أحد أعضاء معهد الشرق
الوسط Middle East Institute، أصدر كتابه :
« مدخل لتاريخ التربية في مصر الحديثة Introduction
to the History Education in Modern Egypte
Vol. I سنة ١٩٣٩ .

إن الآثار الأدبية الحديثة، في الأدب العربي؛ بل والآثار التاريخية، قد
تجاهلها الباحثون تجاهلاً شديداً، ولم يتخذوها مصدراً من مصادر بحثهم في التطورات
الاجتماعية الحديثة في مصر.

وذلك راجع إما إلى قلة الاهتمام، الذي توليه لترجمة الكتب العربية للغات
الأوربية؛ وإما إلى التقليد الاتباعي، الذي جرى عليه البحث العربي، في الإنتاج
العربي، من اعتبار الإنتاج المعاصر، أدباً رخيصاً.

والاهتمام بالأدب العربية القديمة له أعظم الأهمية دون ريب. ولكن ينبغي
ألا يصرّفوا التركيز في هذه الناحية عن أن هناك جديداً ينبثق في الأدب العربي؛
مرتكزا إلى حد ما على العامة؛ التي عدت ولها أكبر قيمة أدبية واجتماعية.

ولهذا الأدب الحديث أهمية فائقة ، عند المعنيين بشئون الشرق الأوسط ؛ إذ هو بمثابة المفتاح للظهور الحضارى عند العرب الحديث . ولا بد للشاهد الغربى من أن يبق محايذا عند نظره فيه ، فلا يتعرض لطبيعته ، ولا لما يشتمل عليه بالاستحصان .

والنصف الأول من القرن التاسع عشر ، ليس به مصادر عربية واسعة لدراسة الأحوال الاجتماعية والسياسية . ولكن هناك أثرأ واحدا ، لا يستطيع باحث فى تاريخ مصر الحديثة ، أن يهمله ؛ ألا وهو : حوليات ، عبد الرحمن الجبرتى^(١) وهذا الكتاب ، الذى يقع فى أربعة مجلدات ، يحتاج حقا إلى أن يعاد طبعه بالعربية ؛ خاصة وأن هناك أصولا مخطوطة هديده ، يمكن الحصول عليها ، تشتمل على مباحث أغفلت فى الطبقات السابقة ؛ بسبب ما فيها من تحامل على محمد على . وقد نقلت ، الجمعية المصرية ، هذا الكتاب الى الفرنسية^(٢) . وهو جدير كذلك بأن ينقل إلى الإنجليزية ؛ لأنه يسرد ، فى تفصيل ، الأحداث التاريخية فى مصر ، منذ سنة ١٦٨٩ حتى وفاة المؤلف سنة ١٨٣٢ . وإذا درس الانسان الجبرتى ، أضحى فى مقدوره أن يحدد بناء الحياة الاجتماعية ، والادنية ، والثقافية ، والاقتصادية ؛ لعامة المصريين ، وللطبقات الحاكمة ، والعلماء . ولقد استفاد الجبرتى من كتاب عصره ، ومن الشعراء ، ومنهم من كانوا ينتقدون أسلوب الحياة المصرية ، خلال أيام الاضمحلال هذه . وأحد هؤلاء الشعراء ، الذين حظوا بمنزلة سامية عند الجبرتى ، حسن البدوى الحجازى ، المتوفى سنة ١٧٩٨ ، الذى يهيم نقده لمعادات الناس الدينية والاجتماعية - لو كان فى متناول اليد^(٣) . للباحث

(١) عبد الرحمن الجبرتى : مجانب الاحبار فى التراجم والآثار ، طبع لأول مرة سنة ١٨٧٩ بالقاهرة فى أربعة أجزاء . وطبع مرة ثانية سنة ١٨٨٤ ، وطبع للمرة الثالثة أيضا على هامش كتاب الكامل لابن الأثير سنة ١٩٠٥ .

(٢) نقل الى الفرنسية الأساتذة : شفيق منصور بك ، يكنى ، وعبد العزيز كعبيل بك ، واسكندر صحرى ، فى تسع مجلدات ، وطبع بالقاهرة سنة ١٨٨٨ - سنة ١٨٩٦ تحت عنوان :

"Nerveilles Biographiques et Historiques".

(٣) لم يضم ديوان مستقل أشعار حسن البدوى الحجازى . ولكن الجبرتى يستشهد بها فى مواضع عديدة ، فى كتابه . أنظر مثلا : ج ١ ص ٣٠ ، ج ١ ص ٧٥ - ٨٣ ومن الترجمة الفرنسية : ج ١ ص ٧١ ، ١٨١ ، ١٩٥ .

أن يستغنى عما كتبه الرحالة والمشاهدون الأوروبيون ، الذين وفدوا إلى مصر ، في القرن السابع عشر والثامن عشر ، وكافت معلوماتهم قاصرة ؛ ورغم ذلك فقد اتخذت كتاباتهم مصادر أصيلة .

و ، حوليات ، الجبرتي لا يتقدم عليها غيرها في الأهمية ؛ حتى نصل مع الزمن إلى موسوعة^(١) على باشا مبارك ، التي طبعت سنة ١٨٨٧ سنة ١٨٨٨ م . وما تقع على مؤلف دقيق .

وعصر محمد علي يقدم لنا أول مطبعة مصرية ، وقد أقيمت في بولاق - أحد أحياء القاهرة - سنة ١٨٢١ م ولا تزال إلى اليوم المطبعة الرسمية . ولنا حاجة إلى أن نطيل الوقت عند هذا الحديث ، وحسبنا أن نذكر أنها أخرجت للناس ثلاثة وأربعين ومائتي كتاب ، أكثرها مترجم عن اللغات الأوروبية بين سنة ١٨٢٢ سنة ١٨٤٣ ؛ منها خمس وعشرون ومائة كتاب بالتركية ، وأحد عشر ومائة كتاب بالعربية ، وستة كنب بالفارسية ، وقاموساً إيطالياً واحداً . وليس لهذه المجموعة كلها أهمية أدبية ، وإن كانت التراجم العربية للكشب العلمية لها بعض الفائدة من الناحية اللغوية والفيلولوجية .

والمؤلفات العربية ، التي طبعت بها ، إنما طبعت نلية لأمر محمد علي ؛ لتستعمل في المدارس التي أنشأها لتكون جزءاً مكملًا ، في أداة الحرب التي أنشأها . فإن يكن بينها شيء ذو قيمة ، فقد تكون اللآلئ في ركام الحصباء .

ولم يحطم تشابه هذه القائمة المرحقة من المترجمين غير الشيخ رفاعه بدوي ورافع الطهطاوي . وهو يتحدر من أسرة عريقة ، في صعيد مصر . وقد ربي تربية إسلامية صحيحة ، في داره ، وفي الأزهر . ونشر له ما يقرب من ست وثلاثين كتاباً ، ولكن مؤلفه الذي يسترعى انتباهنا ، هو رحلته إلى باريس^(٢) . وقد

(١) على باشا مبارك : المخطط التوفيقية الجديدة ، نشرت بالقاهرة سنة ١٨٨٨ في حشرين مجلداً . ولعل مبارك أنما عشر مؤلفاً آخر مطبوعاً .

(٢) رفاعه بدوي ورافع الطهطاوي : تخليص الأمير إلى تلخيص باريس ، طبع بالقاهرة لأول مرة سنة ١٨٣٤ م وللمرة الثانية سنة ١٨٤٨ ، وللمرة الثالثة سنة ١٩٠٥ .

كتبها بعد إقامته هناك إماما لأول بعثة مصرية كبيرة ، نزلت فرنسا سنة ١٨٢٦ وبقيت إلى سنة ١٨٣٩ . وإذا صرفنا النظر عن قيمة هذا المؤلف السيكولوجية ، وأنه يبين موقف هذا المسلم تجاه مجتمع ، يختلف أشد الاختلاف عن مجتمعه ؛ فإن له فائدة اجتماعية ، من حيث إنه مجموعة من الملاحظات ، قام بها أول مسلم أقبل بأرقى الأقطار الأوروبية حضارة أتم اتصال . ورفاهة يملؤه الإعجاب بفرنسا : بعلومها ، وفنونها ، ومدارسها ، وجامعاتها ، ومكتباتها ، ومتاحفها ، ومستشفياتها ، وبين الفرق بين مسيحي فرنسا ، ومسيحي مصر ، الدين يرميهم بالنبأ والقذارة . وهو يثني على الصناعة الفرنسية ، ويقابل بينها وبين الخمول المصري . ويعجب بالصحافة ، والدستور الفرنسي ، ونظام الحكومة . وهو - حين يؤلف كتابه لزملائه الأزهريين - لا ينسى أن يستشهد بين آونة وأخرى بآيات من القرآن وبالأحاديث . ويتقد بعض العادات الاجتماعية الفرنسية الخاصة ، وخاصة ما تعلق منها بسلوك السيدات ، وقد حاله استبعاد الفرنسيات لرجالهن وخضوعهم لهن ، كما أن آراءهم في الدين قد صدمت رفاة .

والكتاب لا تفحص الدعايات التي تجذب البسمة إلى وجه القارئ . فثلا مما يبعث على ذلك ، سذاجة المؤلف ، عند دعوته حول (نار) المدفأة - وهي مكان تتركب في البيت الفرنسي - إذ لم يستطع أن ينسى مدلول هذه الكلمة (نار) عند المسلم . وقد اطمأن باله اطمئنانا كبيرا ، حين وجد أن الكتب الفرنسية عالية من الشروح والحواشي . والكتاب جدير أن ينقل إلى الإنجليزية لقيمته التاريخية ، ودقته من الناحية الإنسانية . ومنزلة رفاة في الأدب العربي الحديث ، كمرلة (لومونوزوف - Lomonosov ^(١)) في الأدب الروسي وقد ترجم رفاة مؤلفات عن الروسية ، خدمة لمحمد علي ، وإستجابة لطلبه .

وبانحلال بناء محمد علي ، في أواسط القرن التاسع عشر ، أبطأ أخذ مصر بأساليب الحضارة العربية ؛ حتى كان عهد إسماعيل باشا (١٨٦٣ - ١٨٧٩) حين حظي التعليم منه بعناية فائقة . فأعيد فتح المدارس وتنظيمها ، تحت إشراف

(١) ميخيل فاسيليتش لومونوزوف أديب وشاعر روسي ولد في (شولوجوري Chomogori)

سنة ١٧٩١ م وتوفي سنة ١٧٩٥ م . (العرب)

على باشا مبارك ، قرين رفاعة . وحوالى هذا الوقت ظهر أثر جمال الدين الافغانى فى حياة مصر ، الادبية ، والدينية ، والسياسية . وكان الافغانى قائد حركة (الجامعة الاسلامية Past-Islamism) وأبا النهضة الروحية فى العالم الإسلامى . والحق أنه لا يزال أثره ملموسا إلى اليوم . ولقاومة حركة الافغانى ، ظهرت حركة أزهريّة مناهضة ، بزعيمها أمثال (عليش) و (الباجورى) . وقد تصدر لقيادة جماعة الإصلاح ، الشيخ محمد عبده ، تلميذ الافغانى المكي : والشيخ العباسى ، شيخ الأزهر وابن الشيخ محمد المهدي ، وهو شيخ ذو أثر واضح فى عهد محمد على ، وقد كان من قبل قبطيا .

ونرى خلال هذا العصر طلائع الصحافة العربية ، ولا تزال بعض الصحف التى كانت تصدر يومئذ ، تظهر ، وهى من خير الصحف . وفى هذا العصر نمت مدرسة منجسة من المترجمين المصريين والسوريين ، الذين كان لهم وللجهود الصحافية أثر واضح فى تقريب المصريين من التفكير الغربى . وأخيرا ، وليس آخرأ ، نمت فى هذا العصر أيضاً طبقة من الساخطين ، تمثل فى ضباط الجيش ، وعلماء الدين ، والمفكرين الذين لم يرضهم سير الأمور فى مصر : والذين شجعوا الفلاحين المعورين المرهقين بالضرائب ، على أن يجأروا بالشكوى مما يحسون . وهذا السخط العام - خلال عصر إسماعيل باشا - عبر عنه بطرق مختلفة . وأحد المبرزين ، من أبطال الدفاع عن الفلاح المسكين (جيمس سانوا Gamis Sanua) وهو يهودى مصرى ، اشتهر بلقب (الشيخ أبو بضارة زرقاء) . ومن غرائب التاريخ أن يكون يهودى صدر الطلبة ، فى حركة البعث السياسى والاجتماعى فى مصر . وقد بدأ سانوا حياته مؤلفا لمسرحيات المأساة ، وأصدر فعلا اثنتين وثلاثين رواية فى اللغة العربية . فلما اشتعل بالسياسة عطفت شهرته فى هذا الميدان على كل ما قام به على المسرح . وكان فى عمله على أتم التعاون مع جمال الدين ، ومحمد عبده : ومساعدتهما بدأ يصدر سنة ١٨٧٧ صحيفة القديّة ، التى كانت تحمل لقبه^(١) . ولما كانت هى الأولى من نوعها ، فقد صارت أنموذجا

(١) تغير اسم هذه الصحيفة ، هى : (أبو بضارة) و (الحدوى) و (الوطن المصرى . ولأبى بضارة ثلاث مؤلفات أخرى مطبوعة ، انشا عن رحلته ، وثالث كتاب أدبى .

نسجت على منواله الصحف التي صدرت بالعامية ؛ وكانت مع ذلك خيرها . وكل عدد من أعدادها كان يشمل هجمات عنيفة على الحكومة ؛ فلما بلغ وصفها لحياة الفلاح المريرة حدا لم تحمله الحكومة ، نفى أبو نضارة . فتابع إصدار صحيفته في باريس ، حيث نال شهرة فائقة ، وهي بلاريب ، شهرة ما كان لبناها لو ظل في مصر . وانتشرت الصحيفة في العالم الإسلامي ؛ وصارت لسان الحركة الوطنية المصرية ، وحركة الجامعة الإسلامية التي يعضو تحت لوائها جميع الثائرين من المسلمين . وجمال الدين ، ومحمد عبده - وقد نميا كذلك من مصر - وغيرهم من مسلمي تركيا ، وفارس ، وشمال افريقية ، ومن يعطف على قضيتهم من الأوروبيين مثل (ولفرد شكوتون Wilfrid Leawen Blunt) كل هؤلاء اتخذوا طريقهم الى باريس ، يشجعون ويصحون ، وقد أنشأ هذا اليهودي جهة من الطلائع ، فظلمت جهود الثائرين من المسلمين ، وأمدتها ؛ إذ كان له يد في معاونة (الثورة العرابية) في مصر ، و (الحركة المهدية) في السودان ، وحركة الشيبية التركية . ومع ذلك فقد استقبله سلطان تركيا وشاه إيران ، وكرموا على عمله في سبيل الإسلام . وكان الحصول على نسخ (أبو نضارة) عميرا جدا ، ولكن قراءتها جديرة بما يندل في سبيلها من جهد ومال .

وفي أيام أبي نضارة ، والصحافة المحلية ، بدأت تظهر مدرسة من الكتاب : جعلت همها أن تهيم اللغة العربية ، حتى تستطيع أن تعبر عن الأفكار الجديدة التي نجمت عن الاتصال بالعرب ، وتمدنا كتاباتهم ، صحيفة نلر صحيفة ، بأمثلة من العربية المترجمة كلمة لكلمة ، من لغة أوروبية مع رعاية طليعة لتقاليد العربية . وعلى تابع السنين ، وبعد أن رقى المصريون الصحافة : ظهر أسلوب في اللغة العربية أكثر طواعية ومرونة من اللغة القديمة .

وقد جرى إفلاس البلاد ، في عهد اسماعيل باشا ، والإشراف الثنائي - الانجليزي الفرنسي - على المالية المصرية سنة ١٨٧٩ ، إلى الثورة العرابية ، أعمود كل الثورات العربية التي أعقبتها ، وإلى الاحتلال الانجليزي لمصر سنة ١٨٨٢ . وقد سادت الصلات التي قامت بين مصر وبريطانيا العظمى ، التفكير السياسي المصري ، منذ ذلك الحين .

« يتبع »

مدرسة النقد الادبي

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ عبد السلام أبو الجاسر
المدرس بكلية اللغة العربية

مقاييس النقاد :

ابتدع النقاد مقاييس كثيرة جعلوها ميزان المفاضلة بين الشعراء ، وليس هنا موضع تفصيلها ، ولكن لا بأس بذكر بعضها بإيجاز حتى نقبين مدى اختلاف الآذواق الفنية ، ونرى أن كثيراً منها لا علاقة له بالجمال الفني في الشعر ، وأن بعض الأغراض العلمية وجهت النقد الأدبي وجهة غير سليمة ، وأن العقيدة الدينية والحواسيس السياسية كان لها أثر كبير في بعض الحالات ، كما كان للتعصب جانب عظيم من هدم الإنصاف وسوء التقدير .

فأبو عمرو بن العلاء تعصب للشعر القديم تعصباً أعمى ، وكان يعد أمثال جرير والفرزدق محدثين ، ويقول : لقد كثرت هذا المحدث حتى هممت أن آمر صبيانا بروايته . وحكى الأصمعي أنه جلس إليه عشر حجج (في بعض الروايات ثمانى حجج) فما سمعه يحتاج بيت إسلامي (ص ٧٣ عمدة ، ص ٢٥٦ بيان ، ص ٢ الشعر والشعراء) . وقد تبعه الأصمعي في اعتناق هذا المبدأ ، وهو الذي قال في بشار : هو خاتمة الشعراء ، واقفه لو لا أن أيامه تأخرت لفصلته على كثير منهم (ص ١٤٣ أغاني دار الكتب) ، وكذلك كان ابن الأعرابي ، فكان كل من الثلاثة يقدم القديم عن عصره على المتأخر (راجع حججهم في ذلك ص ٢٦٢ من الفصاحة) .

والذي وجههم هذه الوحمة — هو حاجتهم في الشعر إلى الشواهد ، وقلة تقصيرهم بما يأتي به المولدون ، ثم صار ذلك منهم لاجحة (١ ص ٧٣ عمدة) .

وكلام ابن حرفة القيرواني يشعر بأن التقدم في الزمن له أثر كبير في الحكم النقدي، حيث قال عن ابن دراج القسطلي: «شاعر ماهر عالم بما يقول»، تشهد له المقول بأنه المؤخر في العصر، المقدم في الشعر، (ص ٢٩ أعلام الكلام).

وعلى العكس من هذا نرى أبا علي الحاتمي والثعالبي وابن خلدون يفضلون شعر المتأخرين على شعر المتقدمين، ويرون أن الشعر تدرج في الرقي بحسب أزمانه (ص ٣ ص ١٦ زهر الآداب، ص ٩ ص ٣ بيمة الدهر، ص ٥٧٩ مقدمة ابن خلدون).

وبعض النقاد جعل القدرة على الإطالة أساس المفاضلة، ورأى آخرون عكس هذا وعبّروا الكهيت على الإطالة (ص ١٦٢، ١٦٣ عمدة).

ولقد كان للسياسة والعامل الديني أثر واضح في النقد الأدبي، وطالما تأثر النقاد بهما فأنحرفوا عن طريق الفن الصحيح. وسرى فيما بعد مثلاً للنقد المتأثر بالدين والسياسة، ومن جعل العامل الديني أساساً في تقويم الشعر عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فإنه لما سمع قول حميم عبد بن الحساس:

عميرة ودع إن تجهرت غاديا كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا
قال له: لو كان شعرك مثل هذا لأجزتك. وكان السيد الجبري من أجود الناس شعرا، ولكن هجر الناس شعره، لأنه سب بعض الصحابة وأزواج النبي صلى الله عليه وسلم (ص ٧ ص ٢٢٩ أغاني دار الكتب، ص ٢ ص ١٣٥ بيان).

وقد جعل بعض النقاد شعر الزهد خيرا كله، وشعر الهجاء شرا كله (ص ٩ ص ٩٨ عمدة) وهو بلا شك متأثر بالدين والأخلاق، وبهذه النظرة قال أبو دلالة المنصور: أشعر بيت قاله العرب قول الشاعر (ص ٢ ص ١٦ عمدة):

ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتماعا وأقبح الكفر والإفلاس بالرجل
وقال أبو عمرو الشيباني: لولا ما أخذ فيه أبو نواس من الآراقات لاستحيينا بشعره (ص ٩٢ قد الثر). وانتقد أبو دلف قول الشاعر:

لا يمنعك خفض العيش في دعة نزوع نفس إلى أهل وأوطان
تلقى بكل بلاد إن حطت بها أهلا بأهل وجيرانا بجيران

يقوله : هذا ألام بيت قاله العرب (١ ص ١٩٢ ديوان المعاني) لأنه ضد حب الوطن ، وهذا مقياس خلق .

وبعض النقاد يرى أن أساس المفاضلة هو الجمع بين القطع والرجز والقصيد ، ويصف الشاعر الذي يجمع بينها بالكامل كالفرزدق وأبي نواس (١ ص ١٩٤ عمدة) . وقال الخطيب : لولا الجشع لكنت أشعر الماضين ، أما الباقون فأنا أشعرهم (١ ص ٧٩ عمدة) .

وقال أيضا : خير الشعر الحولى المضح (١ ص ١٧٦ بيان) . وأشد ابن الأعرابي في هذا المعنى (١ ص ٧٢ بيان) :

وربما يدرس شعرا لا قرآن له قد كان ثقفه حولا فما زادا
وفضل بشار عند ذلك إذ يقول :

فهذا بديه لا كتجير قائل إذا ما أراد القول زوره شهرا

وهناك فريق يرى أن فضيلة الشاعر معرفته بوجوه الإغراق والغلو ، ويرى الحذاق من النقاد أن خير الكلام الحقائق ، فإن لم تكن فما قاربها وناسبها (٢ ص ٥٧ عمدة) والمبرد من هذا الرأي وابن رشيق يؤيد سابقه (٢ ص ٥٨ عمدة) . وابن شبرمة يفضل بعض الآيات لأنها أبكار (١ ص ٢٨ ديوان المعاني) . وأغرب الآراء قول بعضهم : خير المدح ما كان بتفضيل شخص على آخر (١ ص ٤٣ ديوان المعاني) .

هذه آراء مختلفة ، عرضتها مع طولها بعض الشيء ، لا بين إلى أي حد تفاوتت نظرات النقاد واضطربت وسارت في نهج دى عوج ، وأنهم لم يقفوا عند ميزان واحد يقيسون به أقدار الشعر ومنازل الشعراء .

وهناك فريق منهم يحصر الموازنة بين الشعراء أو الآيات الشعرية في جانب خاص ؛ فابن رشيق يرى أن طريقة بن العبد أفضل الناس واحدة وهي المعلقة (١ ص ٨٤ عمدة) . وأبو ذكوان يعد بائية الباعة الاعتدالية التي أولها :

أتاني أبيت اللعن أنك لمنى وتلك التي أهتم منها وأنصب

أفضل من جميع الشعر (١ ص ١٧ ديوان المعاني) . ويقول أبو بكر الصولي
في قصيدة المثل ابن أميل التي أولها :

هو المهدي إلا أن فيه مشابة صورة القمر المنير

لوقلت إنه لا يمد شاعرا إلا بها ما أبدت (ص ٨٩ جمع الجواهر) . وقال
بعضهم : أشعر الناس في الرقيق راشد بن إسحاق المعروف بأبي حكيمة الكوفي
بقصيدته التي أولها (٣ ص ٧٥ زهر الآداب) :

ومستوحش لم يس في دار غربة ولكنه من يحب غريب

أما نظرهم إلى الآيات الفردية بالنسبة للشعر كله أو لبعض أبوابه ، فعلى
غرار نظراتهم السابقة في خصوصها للأذواق المختلفة والتقديرات الخاصة ؛ ولذا
جاءت أحكامهم النقدية كثيرة التباين . والمثل في ذلك كثيرة مثورة في كتب
الآداب .

ومع هذا التفاوت الشديد نرى أنه من الممكن التماس عذر لهؤلاء النقاد ،
ولو كانت أحكامهم خاطئة ، لأن مصدر أكثرها اختلاف الأذواق أو سوء
التقدير ، ولكن الذي لا يمكن اغتنامه هو تلك العصبية الجامحة التي جعلت بعض
النقاد يستحسنون الشعر لذاته ، فإذا عرفوا أنه لشاعر يفضونه انقلب الحس سوءا
والجمال قبحا .

ومن هؤلاء ابن الأعرابي ، وكان شديد العصبية على أبي نواس وأبي تمام
[١ ص ٢٨٨ زهر الآداب ، ص ٨ ، ١٠ موازنة ، ص ١٧٦ صولي] ، ودعبل
عدو الأخير [ص ٨ موازنة] والحاتمي والمهلبى والصاحب بن عباد وابن لنكك
خصوم المتنبى (ص ٩٩ ، ١٠٠ بتيمة ، ص ٣١٤ وساطة) وكذلك كان أبو العلام
شديد العصبية على ابن هانئ (ص ٩ وفيات الأعيان) مع أنه وصفه بالإجادة
في الشعر (ص ١٥٤ رسالة العفراء) ، ومثله السرى الرقاء المتحامل بشدة
على الخالدين (ص ١٠٣ بتيمة) . ولولا خوف الإطالة لذكرت مثلا كثيرة لهذه
النظرات الطائشة .

ومن الأسف أن كثيرا من هؤلاء المتعصبين من يشار إليهم بالبنان في التاريخ

الأدبي، ومن ثم مكانة عند الأدباء. قال ابن المعتز: وهذا الفعل من العلماء مفروط في القبح لأنه يجب ألا يدفع إحسان عمن عدوا كان أو صديقا، وأن تؤخذ الفائدة من الرفيع والوضيع (٢ ص ٢٥١ تاريخ بغداد).

وبما يعزى الأدباء عن هذه الأخطاء، أن هناك رجالا من أساطين النقد صدقوا ما عاهدوا الله عليه، ولزموا جادة الإنصاف، واتبعوا سبيل الرشاد، فبسطوا للحق أرديتهم، ووطأوا للعدل أكفاهم، وعنت لسلطان النزاعة وجوهم، لجملوها مبتعاهم، والحكم على أساسها عايتهم، ورفعوا للمدرسة النقد أعلاما خفاقة، وأقاموا لها صرحا عاليا تباهى به الأجيال، وتماخر بعظمته الآجال.

وفي مقدمة هؤلاء بشار والمبرد والبحتري والجاحظ وابن قتيبة وقدامة ابن جعفر والحسن بن بشر الآمدي والقاضي الجرجاني وأبو منصور الثعالبي وابن سنان الخفاجي وابن رشيق.

واقف اتفقوا تقريرا على مقياس واحد جعلوه أساس المفاضلة بين الشعراء والأدباء، ومعيار الموازنة بين القصائد والآيات الشعرية والآثار الثرية.

ذلك هو قوة الشاعرية والإجادة في الشعر أو النثر لفظا ومعنى، وإن كانت عباراتهم مختلفة في التعبير عن معنى الجودة الشعرية كما سيأتي.

كذلك أجمعوا على أن الشعر لا يكون جيدا إلا إذا وافق عمود الشعر العربي، وخلا من العيوب الشعرية، التي ستكلم عنها فيما بعد، إن شاء الله.

الفرصة

قال عمرو بن العاص لمعاوية: والله ما أهدى يا أمير المؤمنين! أنشجع أنت أم جبان؟ فقال معاوية:

نشجع إذا ما أمكنني فرصة وإن لم تكن لي فرصة لجبان

وقال الأحف بن قيس: إن رأيت الشر يتركك إن تركته فاركه.

الذكرى الثالثة

لوفاة الامام الدجوى

لفضيلة الامتاز الشيخ أحمد يوسف الدجوى

المراقب بمعهد القاهرة

فى مساء الثلاثاء ٤ صفر سنة ١٣٦٥ هـ الموافق ٨ يناير ١٩٤٦ م صدرت الى بارئها روح الإمام الربانى المعفور له فضيلة العلامة الشيخ يوسف الدجوى عضو جماعة كبار العلماء ، الذى عاش أعواما مباركة قضاها فى الاعمال الصالحة ، ونشر العلوم النافعة ، والدعوة الى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، والجهاد فى سبيله بقلبه ولسانه وماله ، إذ كان مفسر الأزهر ومحدثه ، بل فيلسوفه وكاتبه وخطيبه ، كما أنه رحمه الله كان موضع ثقة الجماهير الإسلامية فى شتى الاقطار ، تتوارد إليه استفتاءاتهم من جميع الجهات ، وتصلهم مقالاته النافعة بمجلة الأزهر وغيرها من المجلات والمصحف العربية والافرنجية ؛ كما أن مؤلفاته الممتعة سارت بها الركبان الى سائر أنحاء العالم .

فنها كتاب سبيل السعادة الذى ألفه عام ١٩١٢ م فى فلسفة الاخلاق الدينية وأسرار الشريعة الإسلامية ، والرد على الطبيعيين ، وقد قرظه إمام اللغة المرحوم الشيخ حمزة فتح الله بكلمة طويلة منها . أحسنت يا شيخ الدين ، وأدبت فرض الكفاية عن علماء المسلمين ، وشفيت السقام ، ورويت الأوام . .

ومن مؤلفاته رحمه الله الجواب المليف فى الرد على مدعى التحريف فى الكتاب الشريف ، أخرجه عام ١٩١٣ م رد فيه على القر الإنكليزى (كولد ساك) الذى طعن القرآن الكريم ونقص من شأن الإسلام ، فأنى الشيخ على مزاعمه فهدمها من أسبها ، وظل يتابع حملاته على كتاب هذا القس حتى صودر .

ومن مؤلفاته النادرة : رسالة فى تفسير قوله تعالى ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، لم يتقيد فيها بما قاله المفسرون ، بل ذهب فيها كل مذهب ، وتصرف فيها

كل متصرف ، ودعا فيها علماء المسلمين شرقا وغربا للاجتماع والتشاور لاستبط
أسرار القرآن قبل أن يتهديم الخطر .

ومنها المحاضرة السلطانية التى ألقاها بالأزهر الشريف وقت زيارة المغفور له
جلالة مولانا الملك أحمد فؤاد الاول ، وقد أعجب بها جلالاته رحمه الله .

ومنها رسالة فى علم الوضع ، أخرجها عام ١٩١٧ م وقد نالت الجائزة الاول
من لجنة فحص الكتب العلمية .

ومنها مذكراته فى الرد على كتاب الإسلام وأصول الحكم ، وكتاباته فى
السلطات الحاضرة ، وقد طبع هذه الكلمات علماء دمشق ونشرت هناك .

ومنها صواعق من نار فى الرد على صاحب المنار .

ومنها هداية العباد إلى طريق الرشاد : جمع فيه من محاسن الدين الإسلامى الشيء
الكثير ، وقد انفرد فيه بأشياء لم يسبقه بها غيره .

ومنها كتاب رسائل السلام ورسل الإسلام ، انتهى من تأليفه عام ١٩٢٢ م
على أثر تكليف مشيخة الأزهر له بإحراجه بمناسبة اعتناق الألوف المؤلفة من
أهل أوروبا وأمريكا ، الدين الإسلامى ، وقد ترجمته مشيخة الأزهر باللغة الانكليزية
وطبع بالمطبعة الأميرية ، وأرسل إلى الجهات الثانية .

وقد وجهت صحيفة الأهرام العراء فى نهاية عام ١٩٣٩ م نصحتها وإرشادها
الى زعيمى دول المحور هتلر والسوئورموسولى باتباع ما جاء بهذا الكتاب
والعمل بالتماليم الموجودة بين دفتيه ، إذ أنها تدعو للوئام والسلام . ولا يفوتنا
أن نذكر فى هذه العجالة ما كان يقوم به من المحاضرات العلمية فى تفسير آى الذكر
الحكيم ، وحديث البى الكريم ، عقب صلاة الفجر بالرواق العباسى بالأزهر ،
وكان جلة العلماء ، ومثقفو الطلبة حريصين على تلقى هذه المحاضرات ، للارتشاف
من منهل الإمام الكوثر العذب ، يادهم إليها ، سمادة السيد المجددى ، وزير
الأفغان المعوض بمصر .

وقد كتب بعض المستشرقين ، عند استماعه هذه المحاضرات ، مقالات بمحة ،

نشرت بها صحف فرنسا بعنوان (سبىسروباكون ، فى الأزهر الشريف) الخ .

أما ناحيته العملية ، فتتمثل فيما قام به من تأليف الجمعيات الإصلاحية
الدينية ، التى منها جمعية النهضة الإسلامية لمهاضة المبشرين الذين استقرى مساهم ،

وعم صرهم حتى ضجت البلاد من شرهم، فكانت جمعية موقفة أدت واجها خير أداء، وانتشرت فروعها في جميع الأندلس، فوقفت هذا التيار الجارف .

ومنها الجمعية العظمى لمساعدة مكوي حرب الأناضول، بمناسبة الحسب الركية اليونانية، وأسندت رئاستها إليه أول مرة، وبمناسبة تأسيسه لها أرسل إليه الخليفة عبد المجيد كتاب شكر وثناء وتقدير .

ولم يقتصر نشاط الشيخ على ما تقدم، بل لم يلبه الجهاد العلني عن الجهاد الوطني، فكانت له مواقف المشهورة في أهداف البلاد الوطنية، ومن تلك المواقف احتجاجه لدى العميد الإنكليزي على اعتقال المرحوم الزعيم الخالد سعد زعول وصحبه المجاهدين المخلصين، إذ قال: «عجبا لسياسكم العتيقة كيف يفوتها أن شدة الضغط تولد الانفجار»، وأن تهلم الأشجار لا يزيدنها إلا تهيجا ونماء، وأن النفوس الإنسانية متى امتلأت شيء استعديت الموت في سبيله، ولا تظنوا يا جناب اللورد أن هذه احتجاجات تفوه بها اللسان، وإنما هي قلوب متأججة وأرواح مشتعلة وأعصاب متنبهة؛ فاعملوا إناء عاملون، ولا يأس من روح الله إلا القوم الكافرون». وقد نشرته الصحف في حينه .

ومن مواقفه التي تشهد له بالفخر والأريحية السامية والإقدام والشجاعة؛ ذلك الكتاب الذي رفعه إلى جلالة ملك الإنكليز طالبا به تخفيف حكم الإعدام الذي صدر على شاب من شباب الأزهر (وهو الشيخ محمد الشافعي البنا) وقد استجيب طلبه. كما أن الأستاذ الإمام كان محاضرا بمنازا تدهوه الجمعيات الإسلامية لإلقاء محاضرات علمية اجتماعية .

ولو أننا تبينا مواقفه الحميدة وأعماله الحميدة لضاق المقام عن ذكرها . فتمكثف الآن بالإشارة إليها، إذ أن الإمام الراحل في غنى عن التعريف .

له شهد الأنام بكل فضل وما أغنى النهار عن الشهود وليس بدعا في الشيخ رحمه الله أن يبلغ هذا الكمال في العلوم والمعارف والدعوة إلى سبيل الله، والوقوف هذه المواقف الوطنية المشرفة، إذ هو من سلالة الحسن بن علي رضي الله عنهما، لجده رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وياحبدا لو اهتمت الجهات المختصة بتخليد ذكره تقسمي قاعة المحاضرات الأزهرية باسمه، كذلك ضاحية حربة النخل التي كان يسكنها إلى أن لقي ربه. فذلك أقل ما يجب له، رحمه الله .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

احاديث الاستاذ الاكبر مع السفراء والمفوضين السياسيين

العلاقات بين الحبشة ومصر

استقبل فضيلة الاستاذ الاكبر شيخ الجامع الازهر بمكتبه بالإدارة العامة قبل ظهر يوم ١٢ مايو سنة ١٩٤٨ سعادة وزير الحبشة المفوض، وبعد أن قدم الوزير تحاياهم للأستاذ الاكبر، وحب به فضيلته، متمنيا له طيب الإقامة في مصر، فشكر الوزير للأستاذ الاكبر ترحيبه، وقال إنه سعيد ببقائه في مصر المضيفة التي رحبت به ووسعته حين كان في المنفى إبان أزمة بلاده.

فقال الأستاذ الاكبر: إن مصر والحبشة أختان، تجمعهما روابط تاريخية، وصلات دينية، فأخوانا أقباط مصر تربطهم بالحبشة روابط وثيقة.

فقال سعادة الوزير: إنه إلى جانب هذه الصلات فإن بيتنا صلة خالدة هي صلة النبوة لنهر النيل العظيم: فالنيل يربط أثيوبيا بمصر منذ عهد ممحيق، وقد حرصت الأختان على مر الأيام، على توثيق هذه الصلات، وأعتقد أنه بفضل عاملينا العظيمين: جلالة الملك فاروق، وجلالة هيلا سلاسي أمبراطور الحبشة، ستقوى هذه الروابط الخالدة وتشتد.

فقال الأستاذ الاكبر: إن هذا هو خير ما يرجوه، فلاحباش في نفوس المسلمين ذكرى طيبة، منذ عهد الرسول صلوات الله وسلامه عليه: فقد أكرم الجاشي حينذاك وفادة المسلمين، وأحاطهم بالعتاية والرعاية، ولن ينسى المسلمون للجاشي العظيم هذه المأثرة، وهم على ثقة أن جلالة الإمبراطور هيلا سلاسي سيعتزم خطى سلفه الكبير، من حسن الرعاية للمسلمين، والحرص على مصالحهم، والتحكين لهم من حرية العبادة، ومن الوصول إلى حقهم في وظائف الدولة

التي هم شطرهما الحيوى . وود الأستاذ الأكبر أن تكون علاقات المسلمين
ياخوانهم المسيحيين وغيرهم في الحبشة ، قائمة على أساس العدالة والمساواة في الحقوق
والحرريات .

فقال سعادة الوزير : إن حكومة الحبشة الحاضرة تولى المسلمين كل عناية
ورعاية ، وإنما لا تفرق في المعاملة بين أحد من رعاياها ، بل كلهم لديها متآخون
لا فضل لأحد منهم على الآخر ، وهى لا تقيم للفروق الدينية وزنا في تقديرها
للمواطنين ، بل كلهم لديها سواء ، المسيحيون منهم والمسلمون والأقباط .

فقال الأستاذ الأكبر : إنه يسره أن يكون ذلك هو رائد حكومة جلالة
الإمبراطور ، وإنه عظيم الثقة في جلالة الإمبراطور ، وحسن توجيهه ، وحرصه
على أن يتمتع شعبه مسلموه وأقباطه ومسيحيوه بالمساواة الكاملة كموطنين مخلصين
لوطنهم وجلالة إمبراطورهم . ثم قال : إنه تلقى أخيرا بضع شكاوى تقول
إن المسلمين غير متمتعين بحقوقهم في ولاية الوظائف العامة ، وهم يكوّنون نصف
الشعب الأثيوبي ، وإنهم لا يعاملون على قدم المساواة مع إخوانهم من أبناء
الديانات الأخرى ، فوددت أن أنهر هذه الفرصة لالفت نظر سعادة الوزير
إلى هذه الشكاوى ، لأعلم رأيه فيها ومبلغها من الصحة ، ولأرجوه أن يبلغ حكومة
أثيوبيا أملى في أن يكون للمسلمين من الرعاية ما يمكن لهم من حقوقهم في المساواة
مع غيرهم .

فقال سعادة الوزير : إنه عظيم الاغتياب أن أطلعه الأستاذ الأكبر على هذه
الشكاوى ، فقد أتاح ذلك له الفرصة لأن يقرر باسم حكومته أن شيئا من هذا
لا يحدث إطلاقا ، وأنها لا تفرق بين أحد بسبب مذهبه الدينى ، وأنها تعامل
المسلمين على قدم المساواة مع غيرهم ، والحكومة جد حريصة على رعاية حقوق
المهاجرين من المسلمين إلى الحبشة ، فبالها بمواطنيها ، ويكفى أن يسأل الأستاذ
الأكبر الجاليات الإسلامية من الحجاز والشام وغيرها المقيمة في الحبشة عن
مبلغ رعاية الحكومة الأثيوبية لمصلحتهم ، وأعتقد أنهم سيعطون الأستاذ الأكبر
صورة صادقة عن سياسة المساواة وعدم التميز لأحد بسبب دينه ، التى تتبعها
حكومة أثيوبيا ، ورجا سعادة الوزير لى يتأكد الأستاذ الأكبر من سياسة

المساواة وعدم التحيز التي تتبعها حكومة أنبوريا نحو رعاياها المسلمين ، أن يرسل وقد آمن يثق بهم إلى الحبشة ليطلعوا على الأحوال هناك ، وليروا بأعينهم مبلغ تحافى هذه التقارير من واقع الأمر .

أما عن الوظائف العامة فإن للمسلمين عددا منها ؛ إذ منهم محافظون وقضاة ونواب وشيوخ ، وترجع قلتهم نسبياً إلى أن المسلمين مع بعض الطوائف المسيحية يأفنون من الالتحاق بالمدارس المدنية ، ولا يقبلون على الدراسات المدنية التي تعتبر ضرورة لمن يلون الوظائف العامة ، وهم دائماً ينظرون إلى هذه المدارس نظرة الشك والارتباب في أنها تعمل على تحويل أبنائهم عن دينهم . وأما المتعلمون منهم فكلهم يشغلون وظائف في الدولة ، وبودي أن أعلم حاله واحدة حرم فيها متعلم مسلم من ولاية الوظائف العامة بسبب دينه .

فقال الأستاذ الأكبر : إنه يشكر لسعادة الوزير هذا البيان ، ويثق بحسن نيات جلالة أمبراطور الحبشة ، ويرجو أن تفسح الحكومة مدارسها المدنية لأبناء المسلمين ، وإنه بدوره كشخص للجامع الأزهر سيوجه نداء لأبنائه المسلمين في الحبشة ليقبلوا على المدارس المدنية ، ليتعلموا ما يؤهلهم للحياة العامة والوظائف الكبرى ، إذ أن ديننا الحنيف لا يمنعنا إطلاقاً من الدراسة والظر والتعلم ما دام ليس في مناهج الدراسة ما يمس عقائدها أو يتعرض لها .

وقال الأستاذ الأكبر : إن الأزهر دائماً يرحب بأبناء المسلمين الراغبين في العلم ، وإنه بفضل الرعايا الملكية السامية التي يوليها جلالة الفاروق لأبناء البعوث الإسلامية ، على استعداد لقبول الطلاب المسلمين من الأجباش ليعاون على رفع مستواهم العلمي .

فقال سعادة الوزير : إن روحاً جديدة بدأت تنفذ إلى صفوف المسلمين وغيرهم ، فبدأوا يعدلون عن تعصبهم ضد المدارس المدنية ، وإن نصيحة من الأستاذ الأكبر لا شك سيكون لها أثرها في زيادة الإقبال على المدارس ، ليتحقق بذلك للجميع المعرفة والمساواة .

فشكره الاستاد الأكبر هذا الشعور الطيب ، ورجاء أن يرفع تحياته وأطيب
أمانيه لجلالة الامبراطور هيللا سلامي ، مع رغبته الخالصة في أن يكون المسلمون
دائما محل رعايته .

فوعده الوزير بإبلاغ حكومته كل ملاحظات الاستاذ الأكبر ، كما وعد برفع
تحياه الى جلالة الامبراطور المعظم .

واستأذن الوزير في الانصراف فودعه الاستاذ الأكبر شاكرًا .

نصيحة لمسلمي الحبشة

وبهذه المناسبة يوجه الاستاد الأكبر الى إخوانه وأبنائه المسلمين في أثيوبيا
نصيحة خالصة : أن يقبلوا على تعلم كل ما ينفعهم في دنياهم ، ويمكن لهم من التقدم
العلمي والرفق والحضارة ، ويناشدوهم أن يقبلوا على تعليم أولادهم في المدارس المدنية
ما دامت مناهجها ودراساتها لا تمس عقائدهم ولا تعرض لأصول دينهم ، وليعملوا
أن دينهم الحنيف يدعو الى الدرس والتأمل والنظر والتسلح من المعارف بما يمكن
لهم أن تكون كلمة الله هي العليا .



في عيد الجالوس الملكي

نشرنا في العدد الماضي كلمة حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الكبير
الشيخ عبد الرحمن حسن وكيل الجامع الأزهر في ذكرى المغفور له
الملك فؤاد . وننشر هنا نص كلمة فضيلته التي أذاعها في عيد جلوس
حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول في مساء ٩ مايو سنة ١٩٤٩

أيها المستمعون الكرام :

في إحدى المناسبات السعيدة قال حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق
أعزه الله :

« إن الملك لا يستمد سعادته من انتشار ظله على الأرض ، ولكن يستمد
هذه السعادة من تمكين محبة في القلوب . وإني لأحد الله أن وجدت في كل قلب
من قلوبكم عرشاً أعتز به وأفتديه . »

وإنه من يمن الطالع على الأمة أن تجد في مليكها كل آمالها ، وأنه الوطني
الأول الذي يعتز بجبا ، ويعمل لرفاهيتها وسعادتها .

والأمة تذكر لجلالته تلك الكلمة الخالدة التي قالها أعزه الله لو قد مصر
الذي كان مسامراً لمفاوضة إنجلترا في سنة ١٩٤٦ ، وهي قوله :

« أتمتعون مبلغ حرصى على إسعاد شعبي ، ففى فرغتم من هذه المهمة
السياسية الكبرى فأبى وائق من تعاونكم على تنفيذ برنامج الإصلاح الاجتماعى
للتبويض بالشعب ورفع مستواه . فمن زغب فى أن نوصل الى العامل والفلاح
بأيدينا ويقلوبنا هذا القدر من العناية الإنسانية ، فتشمر نفس الشعب بالرضا ،
وبقيمتها الوطنية . »

وكان جلالاته فى مقدمة العاملين لرفعة شأن الفلاح ورفع مستواه ، حيث أشرف
بنفسه على تنفيذ برنامج الإصلاح فى مزارعه تناول أمور الصحة والتعليم ، ورفع
مستوى المعيشة .

وأهاب بالقادرين من الأمة أن يعملوا ويعاونوا في سبيل الإصلاح الاجتماعي، وشجعهم بما أوتى من حكمة وسداد، فاستجاب الكثيرون منهم لدعوته وحداناً وجماعات، وكان لاستجابتهم أثر ملحوظ في شتى الخدمات الاجتماعية المتعددة النواحي. وأنشئت هذه وحدات صحية واجتماعية، كما أنشئت ملاجئ ومصحات ومبرات في جهات متعددة من القطر.

وتنفيذا للإرادة الملكية السامية قام مجلس الوزراء والمجلس الأعلى لشئون العمال والفلاحين بدراسة التشريعات التي تؤدي إلى النهوض بالريف وأمله، ثم وضع برنامج للخدمات الصحية والزراعية والثقافية والاجتماعية لينفذ في عشر سنوات، وقد بديء في تنفيذه في إحدى مناطق مديرية المنوفية (مركز منوف).

وتحقيقاً لرغبته السامية أعدت وزارة المالية برنامجاً لبيع الأراضي الحكومية الصالحة للزراعة في مختلف أنحاء القطر لصغار الزراع، وتخصيص جانب من هذه الأراضي لتوزيعها على المعدمين، على أساس خمسة أفدنة لكل أسرة، ومسكن محلي، وإعانة مالية لشراء الماشية والتقاوى، لكي يمكن استثمار هذه الأراضي فور توزيعها، وقد وضعت لهذا التوزيع قواعد تتضمن الرفق في الثمن وتبسيطه على آجال طويلة يصبح بعدها المنفع مالكا للأرض.

وقد خصصت المجموعة الأولى للتوزيع على المعدمين، وسميت منشأة فاروق، تيمناً باسمه الكريم، وهي مكونة من ثلاثة آلاف فدان موزعة على أربع قرى تقيم بها خمسمائة وسبع وتسعون أسرة، وعدد مساكنها ستمائة واثان وعشرون مسكناً.

وقد تفضل جلالة الملك حفظه الله بافتتاح هذه المنشأة، وتوزيع الاطيان والمساكن بالقرعة على أهلها في ٢٦ مارس سنة ١٩٤٨.

وفي ناحية من نواحي النشاط الاجتماعي أشار جلالة يافاه مدينة العمال بإمبابه، وقد تمت عمارة قسم منها، والباقي يسير الى التمام.

أما التعليم فقد اتسع نطاقه بما لا يقاس في جميع مراحلها، لا فرق في ذلك بين ما يقوم به الأزهر والمعاهد الدينية، وبين ما تقوم به وزارة المعارف.

وكان للتوجيهات السامية أثر ظاهر في نشاط الأزهر وقيامه برسائه في شتى الواحي . فقد عيت مشيخة الأزهر بنشر الثقافة الدينية والعربية في كثير من البلاد في أنحاء العالم .

ففي المملكة العربية السعودية بعث من العلماء : في المدينة ومكة والرياض والطائف وعيزة ، وبعث أخرى من العلماء في الكويت والعراق ولبنان والخرطوم وجوبا وملكال بالسودان وأسكرة بأريتريه وجزر الفليين بالحيط الهادي ، وبعث في المركز الثقافي بلندن ، ومنتوب ثقافى بكراتشى بالباكستان ، ولا تزال المشيخة توالى الاتصال ببعض الحكومات لإرسال بعث أخرى من العلماء .

وللأزهر بعث من العلماء يتعلمون في جامعات أوروبا للتزود من العلم واللغات الأجنبية .

وللأزهر عناية خاصة بأبنائه الوافدين إليه من البلاد في أوروبا وآسيا وإفريقية ، وهم الآن زهاء ألف طالب ، وقد شملتهم الرعاية الكريمة السامية ، فظمت أمورهم بلائحة ، وأنشئت لهم مراقبة خاصة للإشراف عليهم والعمل على راحتهم ، ورعت لمن لا يعرفون العربية منهم دروس خاصة تمهيدا لإلحاقهم بالأقسام النظامية ، وأسكن كثير منهم في مساكن خاصة مؤثثة ومزودة بالماء والور ، وجملت لهم رواتب شهرية لتيسير معاشهم في مصر .

وقد أشار جلالة أمة الله بتسميتهم البعث الإسلامية ، وكابوا يسمون العرباء . وهم على الدوام ملحوظون برعاية جلالة ، وموضع عطفه وره ، وموضع التكرم من مشيخة الأزهر وإخوانهم الطلاب المصريين .

ونمض قسم الوعظ والإرشاد بأعباء الرسالة الاجتماعية المؤكولة إليه في محاربة الجهل ، وفي نشر الثقافة الدينية بين أفراد الأمة من الرجال والنساء .

وقد خص النساء بدروس عامة دورية في أماكن أعدت لمن في كثير من بلاد القطر يبلغ فيها المستمعات أسبوعيا عشرات الآلاف . وكان لهذا المجهود أثر طيب في رفع مستوى المرأة المسلمة ، ليكون البيت الإسلامى قوى الدعامتين الأركان .

وقد تعاون قسم الوعظ مع مصلحة الفلاح في وزارة الشؤون الاجتماعية؛
قام بنشر الثقافة الدينية في زيارات دورية للمراكز الاجتماعية وجميعات
الإصلاح الربني .

وأتصل بمراكز العمال ونظم لهم محاضرات دينية لتوجيههم الوجهة الصالحة،
وعاون وزارة الصحة في محاربة الأمراض، كما ساعد رجال الأمن وركز جهده
في المناطق التي كان من صالح الأمن نشر الوعظ فيها .

وتحقيقاً للرغبة السامية أنشئت للأزهر وحدة طبية من الطراز الأول لتسهيل
سبل العلاج على الطلاب من الأمراض المختلفة، وفيها تصرف لهم الأدوية مجاناً .
كذلك أنشئ للطلاب في المعاهد والكلية صندوق للخدمات الاجتماعية ساهمت
فيه وزارة الشؤون الاجتماعية بمبلغ وفير، وقد أفاد منه الطلاب فوائد جمة، وكان
مثلاً طيباً ومظهراً حسناً للتضامن الاجتماعي بين الطلاب .

وفي هذا العهد السعيد، عهد الفاروق أعزه الله، أنشئ معهد في شبين الكوم،
ومعهد فاروق الأول بضا، ومعهد أمير الصعيد بسوهاج، وقسم للقراءات والتجويد
بكلية اللغة العربية . وتعد العدة الآن لافتتاح معهدين في المنية والمنصورة . وقد
نظم الأزهر عشرة من المعاهد الحرة، وهو يعمل على دعمها والنهوض بها إلى
مستوى أرفع .

وفي الأزهر حركة قسوية نشطة في التأليف والبحوث العلمية أساسها الرغبة
الصحيحة في نشر العلم والدين .

وجلالته حفظه الله يتم ما أمر به والده العظيم - طيب الله ثراه - من إقامة
منشآت الأزهر العظيمة، حيث حالت وفاته دون إتمامها، وهي تسير قُدماً
إلى الأمام .

وفي عهده السعيد وإرشاداته السامية تقرر مشروع كبرى خزان أسوان،
واتخذت مصر مركزها كشريكة في المشروعات الكبرى لأعلى النيل، وسيكون
لهذه المشروعات بعد تنفيذها أكبر الأثر في رقي البلاد الاقتصادي .

ولجلالة الملك أعزه الله عناية كبرى بالجيش؛ حيث عمل على تقويته بالسلاح
والمعدات، وكان منه موضع القلب الباطض القوي النشط، فسار إلى فلسطين وهو

يرسم خطى قائده الأعلى في رفعة مصر وعظمة مصر في تاريخها المجيد، في فتوحات محمد هلى الكبير، وبطلها ابراهيم باشا.

وقد حقق الله فيه الامل، فأبلى في ميدان المجد والشرف بلاء حسنا يحلده أعظم الذكرى. وسيكتب التاريخ ما امتاز به من ضروب البسالة والشجاعة والصبر والجلد، مما كان مضرب المثل، وأشد بذكرة الأعداء، بلاء الأصدقاء.

وقد عاد الى الوطن مرفوع الرأس شاخ الذرى، بما قام به نحو وطنه، ونحو مليكه في ميدان الجهاد لله والوطن.

أعز الله الملك، وجعله مجدا وعزا للوطن، وذخرا وملذا للعروبة والإسلام

والسلام عليكم ورحمة الله ٩

الماديون يتخبطون في فلسفتهم فهم يؤلهون الأثير

الحال في عقيدة المسلمين هو الموجود الذي لا أول لوجوده ، ولا آخر لبقائه ، خلق الموجودات ومنتعها بما تصلح به البقاء والاستمرار حتى تصل إلى غاية ما قدره لها من كمال ، على مقتضى نظام تقصر الأفهام عن إدراك سموه ، وقد تعالى جل وعز عن أن تدركه الأبصار ، أو تقف على مدى حكته العقول ، أو تصل إلى حقيقته البصائر : وأعلم العارفين به هم الذين يعترفون بالمعجز عن إدراك كنهه ، وقد تواضعوا على كلفة حكيمة في هذا الموضوع منسوبة إلى أبي بكر أول المسلمين من الرجال ، وهو قوله : « كل ما خطر ببالك ، فاقه بخلاف ذلك » ، ولم يقلها الصديق باعتبار أنها فلسفة ، ولكنه عبر بها عن قوله تعالى : « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما » .

هذه عقيدة المسلمين منذ نزول القرآن ، وهي هي العقيدة العلمية الصحيحة التي لا يمتريها تعديل ولا تحويل حتى تقوم الساعة ، بل إلى أبد الآبدين ، ودمر الداهرين .

ولكن جماعة الماديين الذين برأحت بهم الكبرياء ، وطوّحت بهم النظريات الجوفاء ، وقد شعروا بالحاجة إلى عبارات يستقون بها عجزم ، ومختلفات يسترجعون بها سلطانهم ، فقد أتوا بمجديد زعموا به أنهم يوفقون بين المتيقنين للعقيدة بآفه وبين النافين لها ، فزعموا أن الأثير يصلح أن يقال عنه إنه الله ، وهذا قول زاد مذهبهم ضعفا ، وماديتهم تضعضعا .

فما هو هذا الأثير قبل كل شيء ؟

الأثير عنصر طبعي فرض وجوده فرضا للحاجة إليه . وذلك أننا نرى الكواكب والشموس ليلا في السماء ، فعلى أي حامل يأتيها منها ذلك الضوء ؟ إذا

قبل الهواء فقد ثبت أن الهواء محيط بالكرة الأرضية على بعد نحو خمسة وعشرين كيلو مترًا ثم ينقطع . فلا بد من افتراض وجود سيال مائي للكون تسبح فيه جميع الأجرام ، ويجب أن يكون لا وزن له ، لأنه لو كان له وزن لما أطاق تحمله شيء . فالهواء وطبقته لا تتجاوز خمسة وعشرين كيلو مترًا يقع منه على كل سنتي مربع من الأرض ما يساوي عمودًا من الزئبق طوله ستة وسبعون سنتيمترًا ، فما ظنك لو كانت طبقته ملايين الكيلومترات ، بل ما لاحد له منها ، لأن الوجود لا احد له ؟

لما حار العلماء في هذا الأمر افترضوا أن السيل المائي للكون ، والذي تسبب وجوده تصل إلينا جميع الأشعة الكوكبية ، يجب أن يكون لا وزن له . ففردوه بقولهم : الأثير سيال مائي للوجود كله ، لا يتخلو منه مقدار ذرة في الأرض ولا في السماء ، لا وزن له ولا مسام ، وهو غاية في الطاقة ، ولا يقبل الضغط . في عهد القول بوجود الأثير وهو القرن التاسع عشر ، كان العقل البشري قد برم بنظرية الجوهر الفرد الذي لا يقبل الانقسام لعدم إساءة العقل لها ، فأفس في السيل الأثيري مخرجا له من ذلك ، فتخيل أن الذرة المادية حركة زويعية في الأثير ، وبانضمام بعض هذه الزوايع إلى بعض آخر منها تتألف المادة ، وإنما تنوع بتنوع درجات تلك السرعة ، ونظام تألف وحداتها .

فالأثير بكل هذه الاعتبارات هو في نظر العلماء الطبيعيين : الماوجود المطلق الذي لا أول لوجوده ، ولا آخر لبقائه ، مصدر كل وجود ، ومستقر كل قوة ، ومستودع كل إبداع .

وقد سر أئمة الطبيعيين لهذا التطور العلى ، وعلقوا عليه الآمال الضخام ؛ فقد ذكره كبير من كبرائهم وهو الأستاذ (هيكيل) الألماني المدرس بجامعة (يينا) فقال في كتابه (وحدة الوجود) :

« إن هذا الترقى في إدراك الأثير يكسب فلسفة وحدة الوجود قوة عظيمة ، ذلك لأن الآراء الضالة التي كانت تقول بوجود الفراغ ، وبأنثير المواد بعضها في بعض من بعد قد زالت الآن . وهذه اللانهاية الوجودية ، وإن كانت المادة لا تشغلها كلها فإنها برمتها مشغولة بالأثير ، ثم قال :

• نعم إن نظرية الأثير إذا أخذت كقاعدة للإيمان يمكننا أن نعطينا شكلاً معقولاً للدين . ذلك إذا جعلنا إزاء هذه الكتلة الجامدة الثقيلة أى المادة ، ذلك الأثير الشامل لجميع الاحياز الوجودية ، المتمتع بالحركة ، الذى هو الإله الخالق . ، وقد أيد الأستاذ (هيكل) رأيه هذا برأى الأستاذ (خلينجر) الالمانى الذى أبداه فى خطابه ألفاها فى التنبورغ من ألمانيا ثقل عنه قوله :

• أن أحقر مظهر من مظاهر الطبيعة غير الآلية ، وأكبر مجلى من مجالى الحياة الآلية ، يمكن أن يعمل وجودهما على السواء بفعل قوى طبيعية واحدة ، ولما كانا من ناحية أخرى يشتركان فى الصدور من الأصل الاصيل المتوحد الذى يملأ الوجود اللانهائى ، وهو الأثير ، فيمكن اعتبار هذا الأثير (إلهاً عاماً) ويكون نتيجة ذلك هو الحكم بأن الاعتقاد بالخالق يتفق والعلوم الطبيعية .

نقول : بقى بين المتدينين والعلماء الطبيعيين خلاف كبير فى الصفات التى يصفون بها الأثير ، التى يصفه بها المتدينون . الفرق أن هؤلاء يعتقدون أن خالق الكون ومدبره علم حكيم مرید غتار ، ولكن العلماء الطبيعيين الذين يرفعون الأثير لدرجة الألوهية لا يعترفون للأثير بهذه الصفات ، فيكون الخلاف بين المذهبين بعيداً ، ولا أدرى كيف إذا جردوا الأثير من هذه الصفات يستطيعون أن يعملوا وجود المادة بعد أن لم تكن موجودة ، وبلوغ الكائنات من التنوع والتناسب والإبداع الى هذه الدرجة التى لا غاية بعدها ؟ وكيف يعملون وجود العقل البشرى وليس فى الوجود ما يستمد وجوده منه ؟

كل هذه المعضلات لا يمكن أن يحلها افتراض وجود الأثير إلا إذا ألحقوا به كل هذه الصفات المطلقة التى أدركها العقل البشرى لواجب الوجود نفسه .

يتبين مما مر كله أن العلماء الماديين طائفتان طائفة تنكر وجود إله مدبر للكون تدرك كنهه ، تقول ، يصرف الشؤن العالمية بعلم وحكمة مطلقين ، وهؤلاء هم الكثيرة الساحقة فيهم ؛ وطائفة أخرى وهى قلة من المفكرين يذهبون لنأليه الأثير توفيقاً بين العقول المتنافرة بسبب هذه المسألة ، ولكن مسعاهم كما ترى لم يصادف نجاحاً ، فن الحمال أن يسلم عاقل بأن موجوداً مجرداً عن الإدراك والعلم المطلقين يستطيع أن يدبر الوجود على نحو هذا النظام البديع ، وأن يوجد كائنات

تدرك نفسها وتدرك الوجود التي هي فيه ، وترقى في معارفها ووسائلها حتى أحدثت تطورا عظيما في حياة الإنسان كان لا يعلم به إلا القدماء .

الخلاصة : أن العقيدة الإسلامية هي العقيدة الوحيدة التي ستقود إليها الفلسفة الطبيعية ، وهي أن الوجود لها علما قادرا ، لا أول لوجوده ، ولا آخر لبقائه ، يدبر الكائنات ويربها ، ويتولى الموجودات ويكملها ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما ، فهذه العقيدة على هذا النحو تنهض العلم ، وتنقذ الفلسفة الخفة ، وتمكن الناس شرور الانتقام والتحالف ، وتدفع للعلم حريته في البحث في الموجودات ، وتسخيرها للإنسان أن تصطدم بالدين ، أو أن يحتمك بما يسمونه بالمقررات اللاهوتية التي لا تستند إلى شيء غير مازينه الأهواء النفسية ؟

محمد فريد وجدي

حلم

اشتهر معاوية بن أبي سفيان بالحلم والعفو ، فكان يقابل بالإحسان والعطف من يبد منه الطيش والنزق ، فيما يروى أنه دخل عليه أبو مسلم الخولاني ، وكان قد أصر الحقوق السوية لأمثاله ، فقال له : والله ما هذا المال من كدك ولا من كد أميك ولا من كد أمك . فدخل معاوية ولبث هنيهة ، ثم خرج فقال : لقد كلني أبو مسلم بكلام أغضبني ، وقد سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : الغضب من الشيطان والشيطان من النار فاستعينا على النار بالماء . وقد دخلت فتوضأت ، ولقد صدق أبو مسلم : ليس هذا المال من كدي ولا من كد أبي ولا من كد أمي ، قوموا إلى عطاتكم يرحمكم الله .

وقدم عقبة الأزدى على معاوية ودفع إليه رقعة فيها هذه الآيات :

معاوي إننا بشر فأصبح فلنا بالجبال ولا الحديد
أكلتم أرضنا لجردتموها فهل من قائم أو من حصيد
أنطمع بالخلود إذا هلكتنا وليس لنا ولا لك من خلود
فهبنا أمة هلكت ضياعا يريد أميرها وأبو يريد

فدعا به فقال : ما جراك علي ؟ قال : نصحتك إذ غشوك ، وصدقتك إذ كذبتك . فقال : ما أظنك إلا صادقا وقضى حوائجه .

من ذخائر السنة

ليلة القدر

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ فكري ياسين
المدير المساعد لإدارة البحوث والثقافة بالأزهر

جاء في حديث متفق عليه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
« من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً ، غُفر له ما تقدم من ذنبه » .

تفاضل الليالي والأيام بما يقع فيها من حوادث جسام ، وآيات عظام ،
ويتميز بعضها عن بعض بما يخالطها من جليل الذكريات ، وجميل المناسبات .
وليلة القدر تعدّ في مقدمة الليالي الفاضلة إن لم تكن أفضلها ، لما مُنحِت
به من نزول القرآن الكريم ، ووقوع هذا الحادث الإسلامي الخطير ؛ ولذلك
كان جديراً بالمسلمين أن يتلقوها بما هي خليفة به من عناية ، وأن يولوها ما هي
أهل له من اهتمام وتقدير ، وأن ينشروا عنها من البحوث والدراسات ما يتفق
وجلال الذكريات التي وقعت فيها .

والفرص في الحديث الذي معنا من قيام ليلة القدر ، هو إحياؤها بأي نوع
من أنواع الطاعات والعبادات ، كالصلاة ، وقراءة القرآن ، والذكر . وأما قوله :
« إيماناً واحتساباً » فإن معنى الأول : التصديق بوعد الله بالثواب على ذلك ، ومعنى
الثاني : التحض في العمل لطلب الاجر ، لا قصد آخر من رياء ونحوه . وظاهر
قوله : « غفر له ما تقدم من ذنبه » يتناول جميع الذنوب من كبر و صغار . وقال
النووي : المعروف عند الجمهور أنه يختص بالصغار . وعزاء بعضهم لاهل السنة .
وقيل : يجوز أن يخفف من الكبار إذا لم يصادف صغيرة .

والكلام بعد هذا على ليلة القدر كثير النواحي ، جم المباحث ، ضافي الذبول .
ولنا متخبرون ما هنا ما هو أخرى بالمعرفة ، وأولى باليأس :

١ — ليلة القدر :

الليل : ما يقابل النهار ، ويقال : ليل وليلة ، وجمعها ليال وليال .
 وقيل : أصل ليلة : ليلة ، بدليل تصغيرها على ليلة وجمعها على ليال .
 والقدر : مصدر قدرت أقدر قدرا ، والمراد به ما يمضيه الله تعالى من
 الأمور ، والقدر والقدر واحد ، إلا أنه بالتسكين مصدر ، وبالفتح اسم : قال
 الواحدى : القدر فى اللغة بمعنى التقدير ، وهو جعل الشيء على مساواة غيره
 من غير زيادة ولا نقصان .

واختلفوا فى تسمية هذه الليلة بليلة القدر ، فقيل : لأن الله يظهر فيها لللائكة
 الموكلين بالحوادث الكونية ما قدره وقضاه فى كل تلك السنة من رزق ومطر ،
 وإحياء وإماتة إلى مثل هذه الليلة من السنة القابلة . وهذا القول اختيار الجمهور
 من عامة العلماء ، وذلك بخلاف ما يكون فى ليلة الصف من شعبان ، فإنهمذكروا
 أنه يكون فيها تهيّيرات أخرى .

وقيل : سميت بذلك ، لأن لها عظمة وشرقا بين الليالى ، وهذا نحو قولهم :
 فلان قدر عند فلان ، أى منزلة وشرف ؛ وذلك إما أن يكون راجعا إلى نزول
 القرآن فيها ، أو إلى أن فاعل الطاعات بها يصير ذا قدر وشرف ، أو إلى أن الطاعات
 نفسها لها فى تلك الليلة قدر زائد ، وشرف زائد . ويقرب من هذا المعنى ما نقل
 عن أبي بكر الوراق من أنها سميت ليلة القدر ، لأنه نزل فيها كتاب ذو قدر ،
 على لسان ملك ذى قدر ، على أمة لها قدر .

٢ — وجودها وتحديد زمنها :

اختلف العلماء فى وجود ليلة القدر ، وفى تحديد زمنها ، على أقوال كثيرة ،
 بلغ بها بعضهم ثيفا وأربعين قولا . وإما ذاكرون منها هنا ما هو بعيد عن
 مبالغات الرواة وزياداتهم ، فقيل : إنها كانت مرة ثم انقطعت ، وإنها رفعت
 أصلا ورأسا ، ونُسب هذا القول إلى الروافض والشيعة ، أما الجمهور من العلماء ،
 فتفق على أنها باقية لم ترفع ، ولكنه يختلف بعد ذلك فى أنها هل هى دائرة فى
 كل السنة ، أو أنها محصورة بشهر رمضان ؟ فالأكثر على الثانى ، واحتجوا
 بقوله تعالى : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن » ، وقوله : « إنا أنزلناه
 فى ليلة القدر » فوجب أن تكون هذه الليلة فى شهر رمضان ، لئلا يلزم التناقض .

وقد اختلفوا بعد هذا في تعيين ليلتها من رمضان ، فالأكثر على أنها في العشر
الاولى ، لكثرة الأحاديث الصحيحة الواردة في ذلك ، والجمهور من هذا
الأكثر على أنها في أوتار هذه العشر : وإلى أنها في ليلة السابع والعشرين من
شهر رمضان ذهب جمع عظيم من أهل العلم ، واستندوا في ذلك إلى أحاديث
وآثار كثيرة ، منها ما صح من رواية أحمد ومسلم وأبي داود والترمذي وغيرهم
من أنه قيل لأبي بن كعب : إن هداية بن مسعود يقول : من قام السنة أصاب
ليلة القدر ، فقال أبي : والله الذي لا إله إلا هو إنها لي رمضان ، يحلف ما يستي ،
وواقه إني لأعلم أي ليلة هي : هي الليلة التي أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم
بقيامها : هي ليلة سبع وعشرين .

وكما استند أصحاب هذا القول إلى هذا الحديث وغيره ، استأنسوا كذلك
لقولهم هذا بعدة تعللات وتحلات ، استبطوها من أمارات وقرائن مختلفة ،
ونسبوها إلى ابن عباس رضي الله عنه ؛ ولكن بعض أهل العلم قد وصفوها
بأنها ضعيفة ، وقالوا عنها : إنها من مباح التفسير ، وليست من صميم العلم .

٣ - إخفاؤها :

ذكروا أن الحكمة في إخفاء ليلة القدر وإلهاؤها ، هي أن يجتهد من يطلبها
في العبادة في غيرها ، وأن يتوفر المهال في كل الليالي على الطاعة وكثرة الأدعية
ليصادفوها ، كما كان دأب السلف الصالح ، وقالوا : إن الله أخفى رضاءه في الطاعات
ليرغبوا في الكل ، وأخفى غضبه في المعاصي ليحترزوا عن الكل ، وأخفى وليه
فيما بين الناس حتى يعظموا الكل ، وأخفى الإجابة في الدعوات ليبالغوا في كل
الدعوات ، وأخفى الاسم الأعظم ليعظموا كل الأسماء ، وأخفى الصلاة الوسطى
ليحافظوا على الكل ، وأخفى قبول التوبة ليواظبوا على جميع أقسام
التوبة ، وأخفى وقت الموت ليخاف الإنسان في كل الأوقات ، فكذا أخفى
هذه الليلة ليعظموا جميع ليالي رمضان .

٤ - علاماتها :

جاء في بعض الأخبار ذكر علامات كثيرة ليلة القدر : فمن ذلك ما روى
من حديث عبادة بن الصامت : إنها ليلة بلجة صافية ، كأن فيها قرأ ساطعا ،
ساكنة ، لا برد فيها ولا حر ، ولا يتفق لكوكب أن يرى به فيها حتى يصبح ،

وإن أمارة الشمس فيها أن تخرج وليس لها شعاع ، مثل القمر ليلة البدر ، ولا يحمل الشيطان في صبيحتها أن يخرج معها يومئذ .

وبعض العلماء يحمل هذه العلامات وغيرها على ليلة قدر من شهر رمضان مخصوص كالمتعين ، لعدم اطرادها ، وعدم أغليتها .

وقال بعضهم : إن هناك علامات تظهر حقاً لمن وقعت له ليلة القدر ، أو وفق لها ، كأن يرى كل شيء ساجداً ، أو يرى أن الأشجار تسقط إلى الأرض ثم تعود إلى منابتها ، أو يذوق المياه المالحة فيجدها عذبة ، أو يرى الأنوار ساطعة في كل الامكنة حتى المظلمة ، أو يسمع كلاماً ، أو خطاباً من الملائكة ، أو يستجاب دعاؤه .

واختار الطبري أن ذلك كله غير لازم ، وأنه لا يشترط لحصولها رؤية شيء ولا سماعه ، وأن الإنسان قد تصادفه ليلة القدر ولا يقع له شيء من هذه العلامات ، ولا من غيرها .

ومع وجاهة كلام الطبري ، فيظهر أن المسألة مسألة استعدادات نفسية ، ومؤثرات دينية ، وأخيلة يولدها في الإدراك شدة التأثر بالاحاسيس والمشاعر التي تكونها في النفس عوامل خاصة تصاحبها في الغالب أثناء النشأة الدينية ، فيصدر الإنسان حكمه على ما يقع له من هذه العلامات بحسب قوة تأثره وضعفه .

● فضلها وأفضليتها :

فصل هذه الليلة عظيم ، وشرفها لا يسكر : وحسنا دليلا على هذا نزول القرآن الكريم فيها ، وقول الله تعالى : « ليلة القدر حير من ألف شهر ، تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر ، سلام هي حتى مطلع الفجر » ، وقوله : « فيها يفرق كل أمر حكيم » .

وأما أفضليتها ، فقد روى عن كعب أن الله تعالى احتار الساعات ، فاختر ساعات أوقات الصلاة ، واختار الأيام فاختر يوم الجمعة ، واختار الشهور فاختر رمضان ، واختار الليالي فاختر ليلة القدر ، فهي أفضل ليلة في أفضل شهر .

ونقل عن بعضهم أن أفضل الليالي ليلة مولده صلى الله عليه وسلم ، ثم ليلة القدر ، ثم ليلة الإسراء والمعراج ، ثم ليلة عرفة ، ثم ليلة جمعة ، ثم ليلة النصف

من شعبان ، ثم ليلة العيد . ولكن الذى عليه الجمهور من العلماء ، والذى تقتضيه أكثر الأحاديث والأخبار الواردة فى ذلك أن أفضل الليالى هى ليلة القدر .

٦ — ما يحدث فيها :

أجل القرآن الكريم ما يحدث فى ليلة القدر فى قوله : « تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر » سلام هى حتى مطلع الفجر . . وقيل : إن الملائكة تكون فى الأرض فى تلك الليلة أكثر من عدد الحصى ، وإن الله يقبل التوبة فيها من كل تائب ، وإنه تفتح فيها أبواب السماء ، وإنها من غروب الشمس إلى طلوعها . وقد أكثر الرواة والمفسرون فى هذا الباب إكثاراً عظيماً ، وأتوا فيه بالعجب العجيب ، ونحن لا نستطيع أن نجاريهم فى إيراد كل ما ذكروه ، بل نكتفى بذكر طرف يسير منه ، ونقول مع صاحب روح المعاني : نسال الله صحة هذه الأخبار . فقد روى أن جبريل ينزل إلى الأرض ، ومعه كثير من الملائكة ، فيركزون الويهم فى أربعة مواطن : عند الكعبة ، وعند قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، وعند مسجد بيت المقدس ، وعند مسجد طور سينا ، ثم يتفرقون ، فلا يبقى دار ، ولا بيت ، ولا سفينة ، فيها مؤمن أو مؤمنة ، إلا دخلته الملائكة ، فيسبحون ويقدسون ويهللون ، ويستغفرون لامة محمد صلى الله عليه وسلم .

وروى أن جبريل يقسم تلك الليلة ما ينزل من رحمة الله ، حتى يستغرق أحياء المؤمنين ، فيقول : يارب بقى من الرحمة كثير ، فما أصنع به ؟ فيقول عز وجل : قسم على أموات أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فيقسم حتى يستغرقهم ، فيقول : يارب بقى من الرحمة كثير ، فما أصنع به ؟ فيقول سبحانه وتعالى : قسم على الكفار فيقسم عليهم ، فن أصابه منهم شيء من تلك الرحمة مات على الإيمان .

٧ — دعاؤها :

قال العلماء : يستحب فى هذه الليلة الاجتهاد فى الطاعة ، والإكثار فيها من قراءة القرآن ، وسائر الأذكار ، ويستحب أن يكثر فيها من الدعاء بمهمات المسلمين ، فهو شعار الصالحين ، وعباد الله العارفين . وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قلت يا رسول الله ، إن علمت ليلة القدر ما أقول فيها ؟ قال : قولى : اللهم إنك عفو تحب العفو ، فاعف عني .

آيتان

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد محمد المدني
المعش بالآزهر

سألني سائل عن قوله تعالى : «ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلامٌ والبحرُ
يُمَدُّ من بعده سبعة أبحر ما تُفِدَّتْ كُتُبَاتُ اللَّهِ ، إن الله عزيز حكيم . ما خُلِفُكُمْ
ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ، إن الله سميع بصير ، فقال : هاتان آيتان كل منهما
ذيلت بوصفين لله تعالى : فذيلت الأولى بقوله : «إن الله عزيز حكيم ، وذيلت
الثانية بقوله : «إن الله سميع بصير ، ، ولو كان الأمر بحسب ما يدرك من الظاهر
لكان التذييل الأول للآية الثانية ، والتذييل الثاني للآية الأولى ؛ وذلك لأن
الآية الأولى تصف لنا حقيقة تتعلق بعلم الله الواسع ، وكنائه التي لا تغد ،
فالتذييل بالعزة والحكمة لا يلتقي في الظاهر مع هذا المعنى ، وإنما يأتي في مجال
التحدث عن قوة الله وقدرته ، وماله جل علاه من تصرف فيما خلق على نظام
متقن محكم ، لكل شيء فيه وزنه وقدره ، ويوضح ذلك ما جاء في غير هذا
الموضع من القرآن الكريم من مثل قوله تعالى : « قال لقد أُرِيتُ من الطير ،
فَصُرَّ مِنْ إِلَيْكَ ، ثم اجعل كل على جبل ممن جزأ ، ثم ادعهم يأتيتك سعيًا ، وأعلم
أن الله عزيز حكيم ، : فالأمر هنا أمر الحديث عن قوة الله وقدرته وإتقانه
لما خلق ، وذلك مظهر من مظاهر العزة والحكمة ؛ وكذلك الشأن في قوله تعالى
« إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردين ، وما جعله
الله إلا بشري ، ولطمئنن به قلوبكم ، وما الصبر إلا من عند الله ، إن الله عزيز
حكيم ، : وفي قوله : « ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم ، وفي قوله
« وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله
ألف بينهم ، إنه عزيز حكيم ، : وفي قوله : « إن الذين كفروا بآياتنا سوف

فصلهم نارا، كلما نصيحت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها لينذوقوا العذاب، إن الله كان عزيزاً حكيماً، إلى غير ذلك من المواضع الكثيرة التي دبل الكلام فيها بهذين الوصفين، وكلها في مجال القدرة الإلهية، والتدبير الموافق للحكمة.

أما لو جاء التذييل في هذه الآية بقوله: «إن الله سميع بصير، لكان فيما يبدو منطقياً مع المعنى، لأن صفة السمع وصفة البصر كلاهما صفة كشف، فافقه جل جلاله يسمع كل شيء، ويبصر كل شيء، ومن كان كذلك كان واسع العلم لا يتغدى عليه، ولا تنتهى كلماته: وقد جاء التذييل بهذين الوصفين في القرآن الكريم في مجال التحدث عن العلم الواسع المحيط، ومن ذلك قوله تعالى: «إن الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس»، «إن الله سميع بصير». يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، «قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما، إن الله سميع بصير»، «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل، إن الله نعماً يعظمكم به، إن الله كان سميعاً بصيراً»، «يعلم خاتمة الآعين وما تخفى الصدور، والله يقصى بالحق، والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء»، «إن الله هو السميع البصير».

ذلك ما يبدو من حيث الظاهر في الآية الأولى، وما يدعو إلى السؤال عن السر في تذييلها بقوله: «إن الله عزيز حكيم، دون قوله مثلاً: «إن الله سميع بصير».

أما الآية الثانية فالأمر فيها داع إلى مثل هذا السؤال أيضاً؛ لأن الحديث فيها عن قدرة الله على الخلق ابتداءً، والبعث بعد الموت، وأن سائر الخلق بجانب هذه القدرة في المبدأ والمعاد كنفوس واحدة، فامعنى التذييل هنا بقوله: «إن الله سميع بصير»، «ومثلاً كان التذييل بقوله مثلاً: «إن الله عزيز حكيم»، أو «قوى عزيز»، أو نحو ذلك؟

هذا هو السؤال، وقد أجبت عنه بما خلاصته:

إن التذييل في كل آية من هاتين الآيتين الكريمتين جاء في موضعه، وطابق المعنى تمام المطابقة: أما في الآية الأولى. فإن الحديث ليس عن سعة العلم وإحاطته بكل شيء، وإنما هو عن القدرة والتصرف: ذلك بأن

«كلمات الله» هنا ليس المراد بها ما يقوله الله من الكلام، وإنما المراد بها تصرفاته في خلقه، وتدبيراته في ملكه؛ وإنما سميت التصرفات كلمات لأنها مسببة عن أمر تكويني يصدره الله للكائنات، وهو ما يعبر عنه القرآن بلفظ «كن» في مثل قوله تعالى: «إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون» وقد سمي الله عيسى «كلمة» بهذا المعنى، في مثل قوله: «يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم»؛ ووصف نصره لبني إسرائيل بقوله: «وتمت كلمة ربك الحسى على بنى إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصع فرعون وقومه» ووصف قضاءه في الأزل بقوله: «وتمت كلمة ربك لأملان جهنم من الجنة والناس أجمعين» والمعنى على هذا أيضاً في مثل قوله: «ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا» ولا مبدل لكلمات الله، «لهم الشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة» لا تبديل لكلمات الله، «ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون» فالكلمات في هذا كله بمعنى السنن، والتصرفات الإلهية.

وكما جاءت «الكلمة» و«الكلمات» في القرآن الكريم بهذا المعنى، جاء «القول» وما تصرف منه كذلك؛ ومن ذلك قوله تعالى: «ولكن حق القول منى» «لحق عليهم القول» «لقد حق القول على أكثرهم» «ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها قالتا أتينا طائعين» فقضاهن سبع سموات في يومين، وأوحى في كل سماء أمراً، وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً، ذلك تقدير العزيز العليم.

فإذا ظهر أن «الكلمات» في قوله تعالى: «ما فتدت كلمات الله» بمعنى تصرفاته في خلقه بقدرته وتدبيره على مقتضى الحكمة، كان التذييل بقوله: «إن الله عزيز حكيم» منطقاً تمام الانطباق، وكان المعنى على آتم ما يكون من الوضوح.

وأما الآية الثانية، وهي قوله تعالى: «ما خلقكم ولا بشكم إلا كنفس واحدة» إن الله سميع بصير، «فإن التذييل فيها منطق أيضاً» وبيان ذلك أن هذه الآية جاءت في سورة لقمان، وقد بدئت هذه السورة بقوله تعالى:

«التم، تلك آيات الكتاب الحكيم، هدى ورحمةً للحسين، الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون، فأشعر هذا البدء أنها ستهتم بالحديث من الآخرة والساعة، وقد اهتمت به، فذكرت أن من الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً، أولئك لهم عذاب مهين». وذلك هو استهزاء الكافرين بالآخرة، وكفرهم بما أعد لهم فيها من الجزاء، ثم ذكرت المؤمنين فيشرتهم بجنات النعيم: «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم، خالدين فيها، وعد الله حقاً». وفي المقابلة بين مصير هؤلاء وأولئك تحقيق لأمر الساعة عليهم وإن أنكروه: «ثم ذكرت خلق الله للسموات والأرض وأن الله خلق الأولى بغير عمد، وألقى في الثانية رواسي حتى لا تميد، وكان الغرض من ذلك بيان قدرة الله، وأن أمر البعث ليس بشيء في جانب هذه القدرة التي يشاهدون آثارها: ثم عرضت السورة لوصية لقهار لابنه، وكان فيها حديث عن قدرة الله أيضاً، حيث يقول: «يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض، يأت بها الله». ثم عادت بعد ذلك إلى ذكر تلك الطائفة المجادلة المنكرة، حيث تقول: «ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، لئيب أنهم إنما يجادلون عن جهل واستكبار، لا عن بصيرة وعلم، ثم تمضى في بيان آثار قدرة الله وقوته، حتى إذا وصلت إلى موضع الآية التي نحن بصددنا، ذيلتها بتهديد هؤلاء الذين يشترون لهو الحديث، ويجادلون في الله بغير علم، ويضابلون الأمر باتباع ما أنزل الله، بالإصرار على ما وجدوا عليه الآباء، فكان الله يقول لهم: تلهوا بالحديث الباطل ما شئتم، وجادلوا في الله عن جهل كما تعودتم، فإن الله سميع لما تقولون من إنكار البعث، والخوض في شأنه خوض المكذبين المستعظمين».

وبهذا يبدو: أن التذليل ليس لمعنى القدرة على الخلق والبعث، وإنما هو لمعنى إنكارهم، وجدالهم وما يفيضون فيه من الأحاديث رداً لعقيدة البعث، وكفراً بأمر الآخرة، وهو بهذا منطبق تمام الانطباق، واضح تمام الوضوح؟

بين الشريعة والقانون

نظرات في توثيق المعاملات المالية

لعضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد اللطيف السبكي
المفتش بالأزهر

وسائل التوثيق :

وبالنظر في الوسائل المؤدية للغاية المنشودة من التوثيق ، نرى بعد الاستيعاب الممكن أن وسائل التوثيق التي عرض لها القرآن الكريم ، أو ورد ذكرها في السنة ، ودارت على ألسنة الفقهاء ، هي : الكتابة ، الإشهاد ، الرهن ، الضمان ، الكفالة ، الإقرار ، اليمين ، الشاهد واليمين ، القرائن . وإذا تعاضتا عما هنالك من فروق ستعرض لها بعد ، أمكن أن نضيف إلى هذه الوسائل وسائل أخرى ، كاللحجر على مال المدين ، والحبس ، والملازمة له .

ومع أن هذه الأمور وردت كلها في محيط واحد ، هو محيط الحقوق والمدائبات ، فهي مختلفة المنزلة من حيث اتصالها بالحق المنشود .

وإذا كان الفقهاء أفاضوا أو أجعلوا في الكلام على كل منها ، فالنظر الصائب يميز بين بعضها والبعض الآخر ، وذلك : أنا نجد بعض هذه الوسائل تؤدي غايتها باعتبارها مثبتة للحق : كالكتابة ، والبيعة ، والإقرار ، واليمين ، والقرائن . ونجد بعضها يؤدي غايتها باعتباره تأمينا للحق الثابت بإحدى تلك الوسائل : كالرهن ، والضمان ، والكفالة ؛ ونجد بعضها ثالثا يؤدي غايتها ، باعتباره تنفيذيا لاستيفاء الحق : كاللحجر ، والحبس ، والملازمة .

فإذا اجتمعت هاتيك الوسائل في العرض العام الذي قصد من تشريعها ، وهو ضبط المعاملات ، وصيانة الحقوق المالية من الضياع ، فالتفريق من حيث

الخصائص التي ميزت بعضها عن بعض يجعل فريقاً منها غير داخل في موضوع التوثيق .

وفي ضوء هذا يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام : الأولى : وسائل تفيد إثبات الحق لصاحبه قضاء ، ونفني عليها صحة المطالبة ، وإقامة الدعوى ، وهي : الكتابة ، والإقرار ، والبيعة ، واليمين ، والشاهد مع اليمين ، والقرائن .

القسم الثاني : وسائل شرعت لتأمين الحق والتمسك من استيفائه ، وهي : الرهن ، والضمان ، والكفالة .

والقسم الثالث : وسائل لتنفيذ استيفاء الحق عند التخلف عن أدائه ، وهي : الحجر على مال المدين ، والحبس ، والملازمة .

وغير خاف أن الحق الذي لا تعززه وسيلة من الوسائل الست الأولى ، لا يرقى إلى الثبوت قضاء من تلقاء نفسه ، ولا ينهض إلى تأمينه برهن ، أو ضمان ، أو كفالة ، ولا يقضى استيفاءه بواسطة حجر ، أو حبس ، أو ملازمة .

فلتكر الوسائل الست الأولى مما يشمله البحث التفصيلي فيما يأتي .

وإذا ثبت الحق بمعونة وسيلة من هذه الست صلح لأن يحتاط له ، وأن يؤخذ به الرهن العيني ، أو الضمان الشخصي ، أو الكفالة ؛ فتكون هذه الثلاث لتقوية الإثبات ، ولضمان الحق من الموات بسبب إفلاس المدين ، أو نكوله ، أو عدم التمكن من لقائه حين الحلول ؛ فلتسكن هذه الثلاث مع الست الأولى مما يشمله البحث كذلك .

ومع أن هذه الثلاث لضمان الحق الثابت ، كما قلنا ، فقد أجازها بعض الأئمة كالإمام أحمد ، في الدين قبل ثبوته ، لاعتبارهم أن الضمان إما هو لزمة المدين في كل أو في بعض ماتحملته أو تتحمله ، فليس حتماً أن تكون ذمة المضمون مشغولة فعلاً بالدين المضمون ، والضمان توثيق عندهم في المستقبل كما هو توثيق في الحاضر . أما الحجر ، والحبس ، والملازمة ، فإنما يؤخذ بها في دين فرض ثبوته ، وحان أو ان استيفائه ، ولكن حال دون التمكن منه حائل طارئ .

وما دام البحث الذي أخذنا فيه ، وقطعنا من مراحل ذلك الشوط ، هو بحث

التوثيق لإثبات الحقوق وتأمينها ، لا بحث استيفائها ، فوضعنا سابق بطبعه على أوان الحجر أو الحس ، والملازمة ؛ إذ بحثنا في الابتداء ، والثاني في الانتهاء . والاول أساس ، والثاني مبنى عليه . فلتترك هذه الثلاث لمن يتصدى لبحث استيفاء الحقوق ، فإن الحديث عنها أخرى به ، وألصق بموضوعه .

وقد أوضحت كتب المذاهب أن الثلاث الأخيرة للاستيفاء لا للتوثيق ، فليرجع من شاء إلى كتابي البدائع ، وابن عابدين ، ليعرف من الاول الحجر والحس ، ويعرف من الثاني الملازمة ؛ وليرجع كذلك من شاء إلى معنى المحتاج للشافعية ، وإلى معنى الحابطة ، وإلى بداية المجتهد ، وضع الجليل ، وبصرة ابن فرحون للمالكية .

هذه نظرة من نظرانا إلى وسائل التوثيق عند الفقهاء .

ونظرة أخرى في وسائل التوثيق عند رجال القانون تكشف عن توافق يكاد يكون تاما بين ما أسلفت وبين ما يقولون . ولدينا شاهداً على ذلك ما يقوله السنهوري باشا في أول كتابه (الموجز في النظرية العامة للالتزامات) ، فقد أوضح هذا العالم القانوني في أول كتابه (ص ٢) . أن الحق في المعاملات يسمى حقاً إذا نظر إليه من جهة الدائن ، ويسمى التزاماً إذا نظر إليه من جهة المدين . وذلك توجيه طيب لاعضاضة فيه .

ثم انجى المؤلف الخطير في صفحة ٦٥٣ من الكتاب نفسه إلى بيان الطرق المعتمدة بها في إثبات الحق من الالتزام ، فذكر . الكتابة ، والإقرار ، واليمين ، والشهادة ، والفرائض ، والمعاينة

ثم أوضح لنا ثانياً أن القانون يعتبر الثلاث الأولى أقوى إثباتاً حتى سميت هدم : ذات القوة المطلقة ، وسميت الثلاث الأخيرة : ذات القوة المقيدة .

والتمييز بين الوسائل من ناحية أيها أقوى من الثاني لا يضيرها من ناحية الغرض العام الذي اشتركت فيه (التوثيق) ؛ وإنما هي مقارنة فنية يتمثل فيها التحليل القانوني للوصول في تمييز الامر إلى أقصى ما يمكن .

ولعل فقهاء الإسلام لا يابون ذلك ، ولا ينافيه منهجهم ، وإن لم يبسطوا

القول في هذه التفصيلات كما يفعل الآخرون ، فلكل عصر مطالبه ، ولكل جماعة نهجها في التأليف والتنسيق .

والذى يلحظه القارىء فيما استشهدت به من كلام السنهورى باشا (لدعوى أن بين الشريعة والقانون توافقا يكاد يكون تاما) أن هذا العالم الضليع لم يذكر في تلك الوسائل الشاهد مع اليمين ، على حين أنه ذكر المعاينة بين ما ذكر ، مع أن الفقهاء يذكرون الأولى من هاتين ، ولا يذكرون الثانية ، فكأن الاعتبار القانونى بخالفا بترك شيء وإثبات آخر ؛ فهل الأمر كذلك ؟ والجواب عن هذا أن الشاهد مع اليمين معتبر فى القانون وسيلة لإثبات الحق ، كما هو معتبر فى الشريعة ، وقد تحدث ههنا السنهورى باشا . كما تحدث عن الوسائل الأخرى (ص ٩٩٤) تحت عنوان : اليمين المتزمة ؛ وعرفها بأنها اليمين التى يوجهها القاضى لاستكمال أدلة الخصم حينما يراها القاضى ناقصة فلا يستطيع رد الدعوى لاقرانها ببعض الأدلة . كالشاهد الواحد ، ولا يستطيع إجابة الخصم إلى مدعاه ، لأنه لم يقدم دليلا كاميا . ثم قال : اليمين المتزمة لا توجه إلا لخصم قدم دليلا ناقصا ، وهى توجه لأى واحد من الخصمين ... الخ .

ذلك شاهدى على اعتبار القانون للشاهد مع اليمين ، إحدى وسائل الإثبات .
فالقانون والشريعة هنا سواء .

أما المعاينة التى يعتبرها التشريع المدنى من وسائل الإثبات ، فقد فسرهما الأستاذ السنهورى باشا بأنها معاينة تقوم بها المحكمة فى انتقالها إلى محل النزاع . ومعاينة أخرى ههنا تقوم بها الخبراء حينما يقتضى الأمر ذلك .

وظاهر من هذا أن المعاينة بنوعها يدعو إليها غرض الأدلة المدلى بها من الخصمين أو من أحدهما ، فهى لإزالة اللبس ، والتأكد من صدق هذا أو ذاك فى وثائقه ؛ ونتيجتها ترجيح ما تقدم به أحد الخصمين من الوسائل المذكورة ؛ فليست فى حقيقتها مستقلة ، وإنما هى ذريعة للترجيح لحسب ، ولذلك يعتبرونها من المرافعات . وقد صرح الأستاذ الجليل السنهورى باشا بذلك (ص ٦٥٥) وعدل عن الإسهاب فيها ، لأن موضوعها فى غير الإثبات والالتزامات .

فأنت ترى من هذا أن التشريع الديني والمدني على توافق يكاد يكون تاما ، كما أسلفت لك ، فليس في دعوى هذه موضع لما عسى أن يلحظه القارىء .

ولكن مدخلا آخر قد ترد علينا الشبهة من قبيله ، هو أن المنقول في حديثي عن مؤلف السهوري باشا لم يعرض لأمور أخرى لها وثيق الاتصال بالموضوع وهي : الرهن ، والضمان ، والكفالة ، والحجر ، والحبس ، والملازمة ؛ فاقديرهم لهذه الوسائل إلى جانب الوسائل الآتفة ؟

والجواب : أن رجال القانون الذين تهيات لها مراجعة كتبهم يعنون بتبسيط أبحاثهم التي يتناولونها ، ويميزون كل نوع بعنوان يخصه ، وإن كان مشمولا مع غيره بعنوان عام .

وكذلك فعل الأستاذ السهوري باشا ، إذ قصر بحثه على مصادر الالتزام ، وعلى طرق الإثبات للحق (الالتزام) أى على الأسباب الأولى التي ينشأ منها الحق ، وهي كما عند الفقهاء : المقدر والفعل والنسب ؛ وعلى الوسائل التي يأخذ بها اقتضاء في إثبات الالتزام ، وهي الكتابة وما إليها من بقية الأمور الست الآتفة .

ولما كانت الوسائل الثلاث : الرهن ، والضمان ، والكفالة ، ليست في حقيقتها للإثبات ابتداء ، وإنما هي لتقوية الإثبات المستفاد من غيرها ، لم تكن في صلب موضوعه الذي قصدى له .

وسكونه عنها لا يبعدها عندهم عن موضوع التوثيق ، ولا يدل على بعدها في نظر بعضهم . لذلك نرى هذه الثلاث موضوع كتاب ضخيم ألفه فيها الأستاذ الكبير كامل مرسى باشا ، بعنوان : التأمينات الشخصية والعينية .

ففي صفحة ٥ من مطلع هذا الكتاب يقول مؤلفه الجليل : « جعل القانون ثلثان تأمينات تضمن تنفيذ الالتزام الذي هو دائن فيه ، وهي وسائل بها يتيق الدائن خطر الإعصار المحتمل للدين ، وبها يضمن المدين وجود الثقة التي بها يستطيع الحصول على الدين الذي يحتاج إليه . »

ثم في صفحة ١٣ تحت عنوان . التأمينات التزامات تابعة ، يقول : « الالتزام الخاص بالتأمينات التزام آخر غير الالتزام الاصيل ، ولكنه تابع للالتزام الاصيل الذي أعد التأمين لصيانته ، وليس له وجود ذاتي مستقل عنه . »

كذلك تحت هذا العنوان نفسه بين أن التأمينات هي عقود الضمان ، وأنها تنوع الى عقود كفالة ، ورهن حيازي ، ورهن تأميني ، على ما هنالك من تمييز وتفصيل يشبه الى حد ما ، ما في الفقه الإسلامي ولا يعد عنه في الموضوع ، وسنعرض لتفصيله بعد .

وأما الحجر ، والحبس ، وملازمة المدين ، فلم أر لها ذكرا عندم في وسائل الإثبات ، ولا في التأمينات ، وإنما ذكروا بعضها في وسائل التنفيذ لاستيفاء الحقوق ، كالحجر على المدين حين تغليسه ، وكالحبس في دين النفقة على الزوجة ، وأجرة الحضانة والرضاع (ص ١٣ - من كتاب التنفيذ لأحمد قنعة بك ، وعبد الفتاح السيد بك ، مادة ٣٤٣ أهلى وشرعى ، ٧٦٧ جنايات) .

وعلى أى حال فليست هذه الثلاث في وسائل الإثبات ، ولا في وسائل التأمين .

وتكون النتيجة لهذه المقارنة ، أن وسائل التوثيق فيما اتبها اليه مع التشريع المدنى ، نفع ، هى . الكتابة ، الإقرار ، البيعة ، اليمين ، القرائن ، الرهن ، الصيان ، الكفالة ، الشاهد واليمين . ولنا عود إن وفق الله سبحانه .

الخطيئة

قدم الخطيئة الشاعر المشهور بالهجاء إلى عبسة فقال أعطنى . فأنصرف عنه وخرج الخطيئة مغضبا . فلام عبسة بعض أصحابه وحذروه من مغبة رده . فأرسل وراءه من رده إليه وقال له : لقد كتمنا نفسك كأبك الخطيئة . قال هو ذلك ، وأجله ، ثم أمر وكيله أن يمضى به إلى السوق ويشتري له كل ما يشير إليه مهما غلا ثمنه . فكان يتخير عليظ الديباج وما إليه حتى استوفى حاجته وأمسك . فقال له وكيله : زد ما شئت فقد أمرنى عبسة أن أسط يدى بالنفقة . فقال : لا حاجة لى بعير هذا . ولم تمض أيام حتى بلغ عبسة أنه قال فيه :

سئلت فلم تبجل ولم تعط طائلا فسيان لاذم عليك ولا حمد
وأنت امرؤ لا الجود منك سبحية فتعطى وقد يعدى على النائل الوغد

حول ميراث القاتل

لمحاضرة الأستاذ الدكتور أحمد محمد إبراهيم

قاضي محكمة سمالوط الوطنية

إثبات القصد الجنائي

القصد الجنائي كأي ركن من أركان الجريمة يثبت أمام المحاكم الوطنية بكافة طرق الإثبات، وغالباً ما تستخلص المحاكم نية القتل من كون الآلة المستعملة قاتلة، ومن كون الاعتداء في مقتل؛ ولكن لا يكفي القول بأن الآلة قاتلة وأن الاعتداء في مقتل لوصف القتل بأنه عمد، بل لابد من أن يثبت أن قصد الجاني كان قتل المجنى عليه، وهو ما تستطيع المحكمة الوصول إليه من ظروف كل حادثة على حدة. ونذكر فيما يلي حكيين حديثين لمحكمة النعش المصرية قررت فيهما ذلك صراحة، وقد قالت في الحكم الأول:

« متى كان الدفاع عن المتهم بشروع في قتل قد تمسك بأنه لم يقصد بإطلاقه العيارات النارية التي أطلقها قتلاً، بل كان قصده فقط فض المشاجرة التي كانت قائمة بإرهاق المتشاجرين، وأن المجنى عليه وهو لم تكن له علاقة بالمتشاجرين، بل كان وجوده عند مكان الحادث مصادفة، وكان واقفاً على جزء مرتفع من الأرض فأصيب وحده عفواً دون قصد ولا تعمد بمقذوف إحدى تلك العيارات التي أطلقت في الهواء، وكانت المحكمة لم تورد فيها أورده للاستدلال على إدانة هذا المتهم بالشروع في القتل العمد أي دليل على أنه صوب سلاحه إلى شخص المجنى عليه قصداً وأطلق المقذوف عليه بالذات، بل كان ما قاله في ذلك هو أنه أطلق المقذوف نحو فريق من المتشاجرين مما لا يثبت قول الدفاع ولا يثبت لعدم تعيين التحوية المذكورة وعدم تحديد مداها بالنسبة إلى ذوات أشخاص الفريق المشار إليه،

وكان المجنى عليه أيضا هو وحده الذى أصيب فى الحادث من تلك المقتدوفات على الرغم من تعدد العيارات ووفرة عدد أفراد الفريق الذى أطلقت بحوم ؛ فهذا الذى ذكرته واستدلته به على عدم صحة دفاع المتهم وعلى ثبوت نية القتل فى حقه ، من أنه أطلق العيار على المجنى عليه وأصابه فى مقتل ، لا يكون له ما يبرره من واقعة الدعوى ، ويكون الحكم بذلك قاصر اليان متعبا نقصه ، نقض ٢٥ فبراير سنة ١٩٤٦ .

وجاء فى الحكم الثانى . : إذا كانت المحكمة حين تحدثت عن نية القتل لم تقل سوى أنها ثابتة من استعمال المتهم مسدسا صالحا للاستعمال وهو آلة قاتلة بطبيعتها ومغشوش بمقتدوف نارى ، ثم تصويب المسدس وهو على هذه الصورة على المجنى عليه وإطلاقه على عضده الأيسر وهو جزء واقع فى منطقة خطيرة من جسم الإنسان يترتب عليه قتل المجنى عليه ، فذلك لا يكتفى فى إثبات هذه النية ، إذ أن استعمال آلة قاتلة لا يكتفى وحده لأن تتخذ دليلا على نية القتل ، إذ يجوز أن يكون القصد منه مجرد الإيذاء ، وإطلاق المسدس على عضد المجنى عليه لا ينهض دليلا على وجود هذه النية ، لأن العصد ليس بمقتل ، نقض ١٣ مايو سنة ١٩٤٦ .

وإذا انتقلنا إلى فقه الشريعة لمعرفة طريق ثبوت القصد الجنائى ، وجدنا أنه فى مذهب أبى حنيفة تقوم الآلة مقام القصد ، ففى كانت الآلة قاتلة (على النحو المبين فى موضعه من كتب الفقه)^(١) يعتبر القتل عمداً ، لأن العمد هو القصد ولا يوقف على القصد إلا بدليل ، ودليله استعمال القاتل آله ، فأقيم الدليل مقام المدلول ؛ لأن الدلائل تقوم مقام المدلولات فى المعارف الظنية . والحال كذلك فى مذهب الشافعى ، ففى كانت الآلة قاتلة اعتبر القتل عمداً وإلا فهو شبه عمد . ونعتقد أنه فى مذهب أحمد يثبت القصد مستقلا عن الآلة المستعملة ، وإن كان نوع الآلة ومكان الإصابة مما يستعان به على تعرف قصد الجانى . وقد ذكرنا أنه عند مالك يعتبر القتل عمداً متى أدى الاعتداء إلى القتل ، وكانت الآلة قاتلة ؛ واستثنوا من ذلك الأب إذا قتل ابنه فلا بد فى هذه الحالة من أن يظهر بوضوح من أفعال الأب أنه يقصد قتل ابنه ، كأن يضجعه ويذبحه مثلا ، أما إذا كانت الآلة غير قاتلة غالبا فيعتبر القتل خطأ إن كان الاعتداء على وجه اللعب أو التأديب ، فإن كان عداوة فهو عمد .

(١) انظر يان ذلك فى كتابنا « القصاص » ص ٤١ وما بعدها .

والآن وقد بينّا معنى القصد الجنائي في جريمة القتل العمد في الشريعة والقانون ، فما هو المعنى الذي قصده المشرع عندما نص في المادة الخامسة من قانون المواريث على أنه ، من موانع الإرث قتل المورث عمداً ، سواء أكان القاتل قاتلاً أصلياً ، أم شريكاً ، أم كان شاهد زور أدت شهادته إلى الحكم بالإعدام وتنفيذه ، إذا كان القتل بلا حق ولا عذر ، وكان القاتل عاقلاً بالغاً من العمر خمس عشرة سنة . وبعد من الاعتذار تجاوز حد الدفاع الشرعي ، الذي نراه في هذا الصدد هو أن المشرع قصد القتل العمد بمعناه المعروف في قانون العقوبات ؛ والذي يدل على ذلك أن المشرع لم يأخذ حكم هذه المادة من مذهب معين ، بل جمع من كل مذهب حكماً ، وأن الاصطلاحات الفنية التي وردت في هذه المادة هي اصطلاحات مأخوذة من قانون العقوبات المصري ؛ فعن الفاعل والشريك ويان الاعتذار التي تمنع من تطبيق هذا الحكم ، كل هذا يمحض في مدلوله لتصوص قانون العقوبات المصري ؛ وإن نص المذكورة الإيضاحية للقانون يؤكد هذا الرأي ، فقد ورد فيها :

ب - . « خولف مذهب الحنفية وأخذ بمذهب مالك فيما يأتي :

١ - في القتل بالتسبب ، فصار القتل العمد مانعاً سواء أباشر القاتل القتل أم كان شريكاً فيه أم نسب فيه .

٢ - في القتل الخطأ ، فلم يعتبر مانعاً .

ج - يدخل في القتل العمد المباشر من أجهز على شخص بعد أن أنفذ فيه آخر مقتلاً من مقاتله فإنها يتمتعان من إرثه . ويدخل في القتل بالتسبب الأمر والدال والمحرض والمشارك والريثة (وهو من يراقب المكان أثناء مباشرة القتل) وواضع السم وشاهد الزور الذي بنى على شهادته الحكم بالإعدام .

د - على أن القتل العمد لا يمنع في كل الأحوال . والأحوال التي لا يكون فيها مانعاً من الإرث هي الأحوال الآتية :

(١) القتل قصاصاً أو حدّاً .

(٢) القتل في حالة من حالات الدفاع الشرعي عن النفس أو المال عما هو

منصوص عليه في المواد ٢٤٥ و ٢٤٩ ، ٢٥٠ من قانون العقوبات .

(٣) قتل الزوج زوجته والزاني بها عند مفاجأتهما حال الزنا - م ٢٢٧ عقوبات .

(٤) تجاوز حد الدفاع الشرعى - مادة ٢٥١ عقوبات .

٥ - قصد باشرط كون القاتل عاقلاً إخراج ما يأتى :

(١) الجنون والعاهة العقلية - مادة ٦٢ عقوبات .

(٢) ارتكاب القاتل القتل وهو فى عيوبة ناشئة عن ضاقير أيا كان نوعها ، إذا أخذها قهراً عنه أو على غير علم بها - مادة ٦٢ عقوبات .

ومما يؤيد وجهة النظر التى نقول بها أنه كان مفهوما لدى المشرع أن القتل بعذر الذى لا يمنع من الميراث هو قتل الزوج زوجته والزاني بها عند مفاجأتهما حال الزنا ؛ ولذا فقد رأت أقلية لجنة الشؤون التشريعية بمجلس النواب تعميم الحكم الخاص بعدم منع الزوج من الإرث ، إذا قتل زوجته عند مفاجأتهما متلبسة بالزنا مع بعض محارمها كالآب والابن والاخت ، ولكن اللجنة رأت بأعلية الآراء الموافقة على بقاء المادة كما هى . وإن قصر العذر على الزوج هو من صنع المشرع المصرى بخلاف حكم الشريعة فهى تساوى فى ذلك بين الآب والزوج والاخت^(١) .

وإن القول بتعرف بية الجاني مسقلة عن الآلة المستعملة فى القتل ليس فيه ما يناق أحكام الشريعة ، ويقول صلى الله عليه وسلم : إنما الأعمال بالنيات ، ولا يجوز القول بتعرف البية من الآلة لحسب ، فكثيراً ما يرتكب القتل الخطأ بآلة قاتلة ، ولا بد لمعرفة هل القتل خطأ أم عمد من معرفة قصد الجاني عندما اعتدى ؛ فإذا أطلق شخص هياراً نارياً قتل آخر فمن الواجب معرفة هل كان يقصد قتل المجنى عليه ، أم أنه أطلق العيار قاصداً قتل حيوان فأصاب المجنى عليه ؛ وإن تعرف المجنى عليه هذه النية أمر مستقل لا علاقة له بنوع الآلة المستعملة ؛ وإذا أجزنا معرفة هذه البية من الظروف المحيطة بالحادث فليس هناك ما يمنع إذن من تعرفها بعيدة عن القرينة القاطعة المستمدة من نوع الآلة ، فى حالة تعدد الاعتداء ، واستظهار ما إذا كان الجاني يقصد القتل أم مجرد الاعتداء .

(١) راجع مؤلفنا ، تفصيص ، والمراجع التى أشرنا إليها .

وإن هذا الرأي الذي نقول به سبق أن قال به صاحب كتاب تكملة فتح القدير، واعترض على إقامة الآلة مقام القصد؛ وهذا نص ما قاله به تعليقاً على ما جاء في الهداية: «لأن العمد هو القصد ولا يوقف على القصد إلا بدليله وهو استعمال الآلة القاتلة فكان متعمداً فيه عند ذلك»؛ «أقول فيه بحث، وهو أن هذا القدر من التعليل يشكل بما إذا استعمل الآلة القاتلة في القتل الخطأ، كما إذا رمى شخصاً بسهم أو ضربه بسيف يظنه صيداً فإذا هو آدمي، أو يظنه حرسياً فإذا هو مسلم، وهذا من نوع الخطأ في القصد؛ وكما إذا رمى غرضاً بآلة قاتلة فأصاب آدمياً، وهذا من نوع الخطأ في الفعل؛ فإن استعمال الآلة القاتلة الذي جعل دليلاً على القصد قد تحقق هناك أيضاً مع أنه ليس بعمد بل هو خطأ محض على ما نصروا عليه قاطبة. فإن قلت المراد باستعمال الآلة القاتلة في التعليل المذكور استعمالها لضرب المقتول لا استعمالها مطلقاً، فعباً إذا رمى غرضاً فأصاب آدمياً لم يكن استعمالها لضرب الآدمي بل كان لغرض آخر - قلت. هذا التأويل إنما يفيد في نوع الخطأ في الفعل دون نوع الخطأ في القصد، فإن استعمالها فيه أيضاً لضرب المقتول، لكن الخطأ في وصف المقتول. فإن قلت: المراد استعمالها لضرب المقتول من حيث هو آدمي، لا استعمالها لضربه مطلقاً، وفي نوع الخطأ في القصد لم تتحقق الحيثية المذكورة - قلت: كون الاستعمال من هذه الوجهة أمر مضمور راجع إلى الية والقصد، فلا يوقف عليه كما لا يوقف على العمد، فلا بد من دليل خارجي يذكر في التعليل المزبور. كما أنه لو كان مدار كون القتل عمداً مجرد استعمال الآلة القاتلة كما هو الظاهر من التعليل المزبور، لما كان نقول صاحب الوقاية وكثير من أصحاب المتون: القتل العمد ضربه قصداً بما يفرق الأجزاء كسلاح ومحدد من خشب أو لينة أو نار - وجه. إذ يلزم إذ ذاك أن يكون قيد: قصداً، زائداً بل لثراء لعدم الوقوف عليه بالغرض إلا باستعمال الآلة القاتلة وهو ضربه بما يفرق الأجزاء فيكنى ذكره، بل لما كان قيد: تعمد، في الكتاب (يقصد الهداية) أيضاً في قوله: فالعمد: ما تعمد ضربه - وجه، بل كان ينبغي أن يقال: فالعمد ما ضربه بسلاح أو ما جرى مجرى السلاح. فتدبر.»^(١)

ويخلص مما تقدم أننا نخالف لجنة الفتوى فيما ذهبت إليه من إقامة الآلة مقام القصد ؛ فإن هذا كثيراً ما يؤدي إلى عقاب الجاني بعقوبة القتل العمد مع أنه لا يعتمد قتل المجنى عليه ، ولا توقع هذه العقوبة إلا لأن الجاني في ساعة غضبه وثورة نفسه لم يجد أمامه آلة يعتدى بها سوى آلة تعتبر في ظاهرها قاتلة ، في حين أنه لم يقصد قتل المجنى عليه ، إذ لم يقصد إلا مجرد الاعتداء الخب ، بل ولعل الجاني يكون أول نادم على النتيجة التي ترتبت على اعتدائه ، لأنه لم يقصدها .

وإن الشريعة الفراء ترتب الحكم على العمل مقترناً بآنية ، لا على واحد منهما فقط ؛ وعلى ذلك فإذا كانت واقعة الدعوى كما ثبتت لمحكمة الجبايات هي أن الجاني ضرب زوجته ضرباً أفضى إلى موتها ولم يقصد من ذلك قتلها ، إذا كان هذا هو النابت فإن هذه الجريمة لا يترتب عليها حرمان الزوج من ميراث زوجته لأنها ليست قتلاً عمداً . ٢

الشعر الفحل

كان جرير عبلاً من أعلام الشعر في القرن الإسلامي الأول ، وزيد أن نورده أحياناً له في مدح أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ، ليرى الفاريء صورة للفول الجزل في ذلك العهد ؛ قال :

كم باليامة من شمشاء أرملة	ومن يقيم ضعيف الصوت والنظر
من يمدك تحكفي فقد والله	كالفرخ في العش لم ينهض ولم يطير
يدعوك دعوة ملهوف كأن به	خبلاً من الجن أومساً من البشر
خليفة الله ماذا تأمرن بنا	لسنا اليكم ولا في دار منتظر
ما زلت بمدك في هم يؤرقني	قد طال في الحى إصعادي ومنحدرى
لا ينفع الحاضر المجهود باديها	ولا يمسود لنا ياد على حضر
إنا لرجو إذا ما التيت أخلفنا	من الخليفة ما ترجو من المطر
أنى الخلافة أو كانت له قدرا	كما أتى ربه موسى على قدر
هذى الأرامل قد قضيت حاجتها	فمن حاجة هذا الأرامل الذكر

لغويات

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد علي النجار
المدرس بكلية اللغة العربية

اشتريت خمسة كتب ، وبعث الستائة قلم ، وأخذت الألف دينار

يكثر هذا في الكلام في التحدث بالعدد . ولا يرضى النحويون هذا ولا يجيزونه ، وينكروا الجري في هذا السنن والبصريون يرون رأيا واحدا لا يعدلون عنه ، على هدى ماتم لهم من استفراء كلام العرب ، وما يستوجه مزاج لساهم ؛ فيوجبون في مثله تعريف الجزء الأخير ، فيقال : اشتريت خمسة الكتب ، وأخذت ألف الدينار ، وبعث ستائة القلم . ويوردون قول الفرزدق في يزيد بن المهلب :

وإذا الرجال رأوا يزيد رأيهم مُخَضَّع الرقاب تواكس الأبصار
ما زال مذ عقدت يده إزاره فسيما ، فأدرك خمسة الأشبار
يدنى كتاب من كتاب ثلثي للطنن يوم تجاول ويغوار
فهذا هو السماع عن العرب . ومن جهة الطر والقياس يذكرون أن العدد المصاف كغيره ، إما يعرف بتعريف المضاف إليه ؛ فإذا أردت تعريف كتاب رجل قلت : كتاب الرجل ، وإذا أردت تعريف حب الرمان بنسبه إليك قلت : هذا حب رماني .

ويجيز الكوفيون مع هذا وجها آخر ، وهو تعريف الجزآن ؛ فيقال : خمسة الكتب ، والألف الدينار ، والست المائة ؛ وقد شبهوه من جهة القياس بالحسن الوجه . ويذكر الكسائي منهم أنه سمع عن العرب خمسة الأثواب . ولقد سئل أبو القاسم الزجاجي ^(١) : كيف الاختيار في تعريف ثلاثمائة

درهم؟ فقال : « لا يجوز أصحابنا البصريون أجمعون في هذه إلا إدخال الألف واللام في الاسم الأخير المنخفض : فيقولون : ما فعلت ثلاثمائة درهم ، وأربعمائة الدينار ؟ وكذلك كل عدد فسر بمنخفض مضاف إليه ، فتعرفه بإدخال الألف واللام في المضاف إليه : نحو قولك : خمسة الأتواب ، وخمسة الثلبان ، وثلاثمائة درهم ، وألف الدينار . هذا هو القياس في تعريف كل مضاف : أن يعترف المضاف إليه : قال ذو الرمة — أنشده ميبوه — :

وهل يرجع التسليم أو يكشف العمى ثلاث الأتاني والديار البلاقع

ولم يقل الثلاث الأتاني . وقال الفرزدق — أنشده أبو عمر الجرمي — :

ما زال مذ صفت يداه إزاره فسما فأدرك خمسة الأشبار

والكوفيون يجيزون ما فعلت الخمسة الأتواب والعشرة الدراهم والخمسة الجوارى ، والثلاث المائة درهم . فيجمعون بين الألف واللام والإضافة . وكان الكسائي يروى عن العرب أنها تقول : هذه الخمسة الأتواب والمائة درهم : قال : شهبوه بقولهم : هذا الحسن الوجه ، والكثير المال ؛ وليس مثله : لأن قولك : هذا حسن الوجه ، مضاف إلى معرفة ، ولم يتعرف : لأن إضافته غير محضة ، فلما أردت تعريفه أدخلت عليه الألف واللام فعرفته بهما . وإنما تقول الكسائي في ذلك على السماع ، ولم يكن ليروى — رحمه الله — إلا ما سمع . ولكن ليس هذا من لغة الفصحاء ولا من يؤخذ بلغته . وليس كل شيء يسمع من النوادر والشواذ يجعل أصلاً يقاس عليه . أخبرني أبو العباس المبرد ، قال : أخبرني أبو عثمان المازني ، قال : أخبرني أبو عمر صالح بن إسحق الجرمي ، قال : أخبرني أبو زيد الأنصاري أن قوماً من العرب يقولون : هذه العشرة الدراهم ، والخمسة الأتواب ، فيجمعون بين الألف واللام والإضافة . قال : وليسوا هم فصحاء . وقد حكى أيضاً الأحفش سعيد بن مسعدة هذه الحكاية عن بعضهم وردها . قال : وليس بما أخذ بها ^(١) ، وقد جاء على وفق مذهب الكوفيين ما في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة ^(٢) ، « وأنصرف بالآلف الدينار راشداً » .

(١) من الأشباه والنظائر ج ٢ ص ٤٨ من الطبعة الهندية الثانية .

(٢) ٤٧ ص ٣١٦ على هامش فتح الباري

وجاء في باب الاستعانة باليد في الصلاة قوله : فقرأ العشر الآيات خواتيم سورة البقرة .

وأعود بعد هذا إلى ما اعتاد الناس من قولهم : الخشة كُتِبَ ؛ فقد رأيت أن هذا لا يميزه بصرى ولا كوفى . وهذا على أنه ورد في كلام بعض الفصحاء من العلماء . ففى طبقات^(١) الشعراء لابن سلام الجعفى : « وجعلنا أصحاب المراتى طبقة بعد العشر طبقات » . وقد بدا أنه تعبير قديم جرى عليه الكتاب واستساغوه . وإنى أميل إلى القول بجوازه ؛ فقد ورد فى الحديث فيها رواه البخارى عن أبى هريرة فى « باب الكفالة فى القرض والديون بالآبدان وغيرها » من كتاب البيوع فى حديث طويل : « فأتى بالآلف دينار » وجاء فيه فى باب الاستعانة باليد فى الصلاة : « ثم قرأ العشر آيات خواتيم سورة آل عمران » . وذلك فى رواية ابن مالك فى شواهد التوضيح . وصحيح البخارى قد تضاعف الناس على ضبط روايته وتحقيقها ، فاليفين بتملكنا أنه قيل هكذا فى عصر البخارى ، وقد يكون قبله . والرواية له علماء بالمرية لا يسكتون على ما يتجافى عنها فى الحديث . وقد أحس النحاة أمام مثل هذه النصوص ضيقا مما قرروه فى قواعدهم إذ كان لا يسأرها ولا يقاردها ، فعمدوا إلى التأويل والتخريج ؛ فيقول ابن مالك : « وفى وقوع دينار بعد الآلف ثلاثة أوجه : أحدها — وهو أجودها — أنه أراد : بالآلف ألف دينار ، على إبدال ألف المضاف من المرف بالآلف واللام ، ثم حذف المضاف — وهو البدل — لدلالة المبدل منه عليه ، وأبقى المضاف إليه على ما كان عليه من الجر ؛ كما حذف المعطوف المضاف وترك المضاف إليه على ما كان عليه قبل الحذف فى نحو ما كل سوداء تمر ، ولا يضاء شحمة .

وفى باب الاستعانة باليد فى الصلاة : ثم قام قرأ بالعشر آيات ويحمل أيضا على البدل على أن المراد : فقرأ العشر عشر آيات ، ثم حذف البدل ، وبقي ما كان مضافا إليه محرورا . ومن حذف البدل المضاف لدلالة المبدل منه عليه قول الراجز :

الآكل المال اليتيم بطرا يا كل مارا ، وسيصل سقرا

(١) ص ٤٨ من طبعة أدبية . (٢) ج ١ ص ٢٦٦ على هامش فتح البارى

أراد : الآكل المال مال اليتيم . ومثله قول الشاعر :

المالُ ذى كرم تسمى عماده ما دام يئذه فى السر والعلن

أراد : المال مال ذى كرم .

الوجه الثانى : أن يكون الأصل : جاء بالآلاف الدينار ، والمراد بالآلاف الدنانير ، فأوقع المفرد موقع الجمع ؛ كقوله تعالى : « أو الطفل الذين لم يظهروا على هورات النساء » ، ثم حذف الآلف واللام من الخط .

الوجه الثالث : أن يكون أراد الآلف مضافا إلى دينار . والآلف واللام زائدتان ، فذلك لم ينمنا من الإضافة . ذكر جواز هذا الوجه أبو على الفارسي ، وحل عليه قول الشاعر :

تولى الضجيج إذا تلبه موينا كالافحوان من الرشاش المستقر
قال أبو على : أراد : من رشاش المستقر ، فزاد الآلف واللام ، ولم يمنا من الإضافة ، (١) .

والذى يتينا من هذا ورود هذا الأسلوب من قديم ، وأخذ الكتاب به ، فلا علينا أن يجيزه . قال أبو حيان فى الارتشاف : « فأما الثلاثة أثواب بإضافة ذى اللام إلى نكرة فيمض الكتاب يجيز ذلك » . ويقول الشهاب الخفاجى فى حواشيه على درة الغواص : « وهل يصح أن يقال : الآلف درهم بتعريف المضاف فقط ؟ حكى ابن عصفور جوازه وهو قبيح ، لإضافة المعرفة إلى النكرة . وقال ابن سعيد فى حاشيته على الأشموني : « وإن أجازته (أى نحو الآلف دينار) قوم من الكتاب ، على ما نقل ابن عصفور » .

الفهرس والفهرست

وقع السؤال عن جليئة الأمر فى هذا اللفظ : هل يقال فهرس أو فهرست ؟ . وقد دعا إلى هذا السؤال أنه يرى فى الكتب والمصنفات هذان الحرفان . والفهرس يستعمل الآن فى أكثر الحال فى إجمال ما فى الكتاب من مسائل وأبواب ، ومكانها

(١) انظر شواهد تخريج وتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح ص ٣٨ - وقد طبع فى الهند

من الكتاب . وقد يراد به الكتاب تذكر فيه أسماء الكتب ، كما يقال : فهرس دار الكتب المصرية ، وفهرس المكتبة الصادقية بتونس . واللفظة فارسية دخلت العربية من قديم ؛ فقد تحدث عنها الليث تليذ الخليل في كتاب العين ، فهو يقول فيها — على ما جاء في اللسان ، نفلا عن تهذيب الأزهري — : « الفهرس : الكتاب الذي تجمع فيه الكتب » . وقول العلماء : إنه في الفارسية فهرست . وكذلك هي في المعاجم الفارسية الحالية على ما أخبرني به الثقات في هذا الشأن . وأصحاب المعاجم اللغوية يقتصرون على الفهرس ، كما رأيت في عبارة الليث ، وقد تابعه في ذلك صاحب القاموس ، فهو يقول : « الفهرس — بالكسر — الكتاب الذي تجمع فيه الكتب ، وهذا لأن الفهرس على وزن الأبنية العربية ، فهو كزبرج ، فنم كان الفهرس هو المستساغ عندهم المقبول ؛ فقد أدخل على اللفظة الفارسية تعبير بمحذف التاء ليكون في بناء اعتاده العرب وألفوه . ولكننا نرى الفهرست يستعمل في اللسان العربي ؛ فهذا كتاب فهرست ابن النديم محمد بن إسحق المتوفى سنة ٣٨٥ ، وترى عالم المشرقيات كراوس ينشر في باريس سنة ١٩٣٩ رسالة لليروني ، يذكر فيها فهرست كتب محمد بن زكريا الرازي ، ونرى الخوارزمي صاحب مفاتيح العلوم يذكر في كتابه في أوله هذا العنوان : « فهرست أبواب الكتاب وفصوله » ، وزاه في ص ٣٩ من هذا الكتاب يقول : « الفهرست : ذكر الأعمال والدفاتر تكون في الدبوان ، وقد يكون لسائر الأشياء » . فنرى من هذا أن لفظة الفهرست صحيحة قبلها العلماء واستعملوها ، فلا يسعنا تحفظاتها وإنكارها ، فإن قال قائل : ولكنها ليست على منهج الأبنية العربية ؟ فالجواب أن الذي أدخل العربية قد يتأوله التعبير فيجعل على منهج الأبنية العربية ، وقد يقر على بائه الأصلي . وهذا سيؤيده يقول في كتابه ^(١) : « وأعلم أنهم مما يغيرون من الحروف الأعجمية ما ليس من حروفهم البتة ؛ فربما ألحقوه ببناء كلامهم ، وربما لم يلحقوه » .

ويقول أيضا في هذا الموطن : « وربما تركوا الاسم على حاله إذا كانت حروفه من حروفهم ، كان على بنائهم أو لم يكن ؛ نحو خراسان ، ومُحَرَّم والكركم » .

وقد أورد خراسان لما ليس من بناء كلامهم : إذ ليس من أوزان الاسماء في العربية فعالان .

ويخرج القارىء من هذا المرض الى أن الفهرس والفهرست كلاهما جائز في الاستعمال ، وإن كان الفهرس أعرب وأجرى على المزاج العربي . وجمع اللفظين كلهما فهارس .

وبما يذكر هنا أنه قد اشتق من الفهرس فعل ، فقالوا : فتهرس المكتب فهرسة . فص عليه صاحب القاموس .

وقد قلت : إن هذا التعريب قديم ، والظاهر أنه يرجع الى عهد الاحتجاج ؛ فقد كان هذا اللفظ معروفا في زمن الليث في العصر العباسي الأول ، وهو إذ أدخلها في كتابه العين كان يرى أنها من الشهرة بحيث أصبحت في عداد الالفاظ العربية التي تحتاج الى بيان . والله أعلم ؟

الرأى

أمر الله رسوله بالاستشارة في الامور فقال : « وشاورم في الامر » . ولا ينبغي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان مؤيدا بالوحى ، وإنما أمره بالاستشارة إكبارا لامرأه ، وتقديرا لخطرها .

مما يروى من بركات الاستشارة أن بنى ثقيف لما همت بالارتداد بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم استشاروا عثمان بن أبي العاص ، وكان مطاعا فيهم . فقال لهم : « لا تكونوا آخر العرب إسلاما وأولهم ارتدادا » ، ففهمهم الله برأيه .

فيل لرجل من عبس : ما أكثر صوابكم ! . فقال . عن ألف رجل وفينا حازم واحد فنحن نشاوره ، فكأننا ألف حازم .

قال شاعر :

الرأى كالليل مسود جوانبه والليل لا ينجلي إلا بإصباح
فاضمم مصايح آراء الرجال الى مصباح رأيك تزدد ضوء مصباح

مفردات فلسفية

فلسفة

لمحاضرة الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

وعضو خبير في العلوم الفلسفية بالمجمع الفقري الملكي

من المعروف أن كلمة « فلسفة » معناها في الأصل : محبة الحكمة ، ثم صار يراد منها شيء آخر غير هذا الميل والانعطاف لاسمى ضروب المعرفة ، وذلك بعامل اختلاف الزمن أو اختلاف الفيلسوف ، وهذا الشيء الآخر هو ضرب أو ضروب من المعرفة نفسها .

١ — هي عدد البعض المعرفة العقلية ، أو العلم ، بأعم معاني الكلمة ، وهكذا استعملها أرسطو في كتابه : « ما بعد الطبيعة » . وهي بهذا المعنى تقابل التاريخ الذي يعتمد على العقل والرواية ، كما تتميز تماما عن الدين ؛ من جهة أن الفلسفة تعتمد على العقل والتجربة ، بينما الدين أساسه الوحي والإيمان . La foi . وهذا المعنى للفلسفة نجده زمنا طويلا لدى الفلاسفة المحدثين . وبهذا الإطلاق الواسع العام تشمل « الفلسفة الأولى » ، أو الإلهيات ، و« الطبيعة » ، التي هي بمجموع العلوم الطبيعية ، و« الأخلاق » ، التي تعالج ما نسميه اليوم العلوم الأخلاقية .

و« ديكارت » ، الفيلسوف الفرنسي المعروف يصدر عن هذا الفهم حين يذكر في كتابه : « مبادئ الفلسفة » أن الفلسفة شجرة أصلها الميتافيزيقا ، (ما بعد الطبيعة) ، وجذعها الفيزيقا أو الطبيعة ، وفي القمة منها الأخلاق .

ب — مجموعة الدراسات التي تمثل درجة عالية من التعميم Généralité ، والتي تهدف إلى أن ترد فرعا من فروع المعرفة ، أو المعرفة الإنسانية كلها ،

إلى قليل من المبادئ أو الأصول التي يقوم عليها علم من العلوم . ومن ثم يقال مثلا : فلسفة التاريخ ، فلسفة القانون ، فلسفة الفقه .

وهذا المعنى هو ما لحظه د أوجست كونست ، حين يقول في كتابه : « دروس الفلسفة الوضعية » : « ومن ثم يكون لنا ثلاثة أنواع من الفلسفة ، أو ثلاثة أنواع من النظم العامة للتصورات أو المفاهيم الكلية لمجموع ظواهر العالم . »

ج — الدراسات الخاصة بالعقل من جهة ما يتميز به عن موضوعاته ، ومن جهة أن المراد به هو ما يقابل الطبيعة *La nature* . وبهذا المعنى نطلق الفلسفة بصفة خاصة على :

(١) الدراسة النقدية لما تواجهه العلوم مباشرة من مسائل ومبادئ تضعها وضعا . وذلك مثل أصول معارفنا ، ومبادئ اليقين ، والوقائع التي يرتكز عليها بناء العلوم الوضعية ، وقد المعاني أو الأفكار *idées* المنظمة للإدراك الإنساني . ومن ذلك تكون الفلسفة ، أو هذا الضرب منها ، متميزة تماما عن العلوم في أنها لا تخضع مطلقا للتجربة ، ولا تطمع أن تصل في تلك المشاكل ونحوها إلى حلول عامة يعترف بها الجميع . كما أنها تكون قريبة من الفن ، بمعنى أن يكون لكل متفلسف آراؤه الخاصة في هذه المشاكل .

(٢) دراسة العقل أيضا ، ولكن من ناحية ما يصدره من أحكام قيمية . وإذا ، تكون بهذا المعنى متركزة في العلوم الأخلاقية ، أو المعيارية ، الثلاثة ، وهي : الأخلاق ، والمنطق ، والجمال .

وبهذا المعنى (ج) هل تشمل الفلسفة علم النفس ؟ ذلك موضع مناقشة حتى هذه الأيام .

د — استعداد مُخَلَقٍ يقوم على النظر لأمور هذا العالم من عل ، وعلى السمو فوق مستوى المنافع الخاصة ، وعلى احتمال أرزاء الحياة بصبر جميل وبشاشة صدر .

هـ — مذهب أو نظام لفهم الكون والحياة ، انتهى إليه فيلسوف بعينه : ومن ثم يقال فلسفة ديكارت ، فلسفة الفارابي ، مثلا .

و — مجموعة التفكير الفلسفي ، أو المذاهب الفلسفية ، لعصر من العصور ، أو لامة من الامم : فلسفة العصر الوسيط ، فلسفة اليونان ، مثلا .

ملاحظات

١ — من الناحية التاريخية

كان ، سقراط ، يصف نفسه بأنه فيلسوف ، يريد أنه يحب أو صديق الحكمة بالمعنى الأخلاقي . وبعد سقراط نجد ، أفلاطون ، تلميذه يستعملها كثيرا . وإن كان يريد منها معنى أوسع بكثير عما كان يريد أستاذه .

وهذا المعنى الواسع الذي رصيه أفلاطون للفلسفة رصيه أيضا اكينوقراط Xenacrate ، وزينون Zénon ، وسائر المدرسة الرواقية من بعد . وم جميعا يحملون الفلسفة أقسامًا ثلاثة : نظرية المعرفة (المطلق) ، الفلسفة الطبيعية ، (الفيزيكا) ، والأخلاق .

وهكذا ترى المعنى (د) كان موجودا في عصر سقراط ، وعاش طوال العصر القديم اليوناني — الروماني . والمعنى (ح) ، بقسميه : ١ ، ٢ وجد لدى أفلاطون متحدا بالمعنى (د) . والتمييز بين الفلسفة والعلم ، وعلى الأقل الرياضيات ، كان موجودا على الأخص عند فيلسوف الأكاديمية (أفلاطون) ، ومن الممكن التحقق من ذلك من كتابه : « الجمهورية » ، مثلا .

ونعتقد ، لهذا ، أن أفلاطون حدد على وضع أحسن المعنى آراءه لكلمة فلسفة ، أي أحسن مما فعل أرسطو الذي يجعل معناها واسعا حتى يشمل كل نوع المعرفة العقلية (المعنى ا) .

والتمييز بين الفلسفة والتاريخ نجده واضحا جدا لدى أفلاطون ، كما نجده معروفا بعده أيضا . أما التمييز بين الدين ، كما نعرفه الآن ، وبين الفلسفة ، فلا يرجع في تاريخه لأكثر من المسيحية وعصر آباء الكنيسة .

والفرقة التي نعرفها اليوم ، بين الفلسفة والعلوم الطبيعية ، لا ترجع إلا بعد من آخر القرن الثامن عشر وفاتحة التاسع عشر . إنه نحو هذا العصر نجد المعنى (ب) يختلف بوضوح عن المعنى (أ) . ومن ثم نجد شاتوبريان (١٧٦٨ - ١٨٤٨ م) يقول : نحن نغنى هنا بالفلسفة دراسة كل نوع من العلم ، وذلك في كتابه : « عبقرية المسيحية » .

والتعبير : « فلسفة التاريخ » ، أحدثه فولتير ، ثم انتقل من فرنسا إلى ألمانيا . ففي رأى الكاتب العبقري العظيم يراد بكلمة « فلسفة » في هذا التعبير (المعنى ب) . وعند هيجل يراد بها معنى (ب) و (ح) معاً .

٢ — من الناحية النقدية

الفكرة الأساسية ، أو المعنى الكبير لكلمة « فلسفة » ، هو على ما اعتقد . هكذا يقول الأستاذ يارودي . بذل المجهود لتأليف أو التركيب الكلي Synthèse totale . أليست الفلسفة تصوراً أو فهماً للكون في مجموعه ، أو للأشياء والموجودات في عمومها ، فيما يختص بالظواهر الخارجية الكونية والعقل معاً باعتبار ما بين هذين الطرفين (الظواهر والعقل) من علاقات متبادلة ؟ ذلك حق في رأيي ، وإذاً يكون معناه أن الفلسفة — في مقابل العلم البحت الخالص — ليست مطلقاً مجرد معرفة لنوع أو أنواع مختلفة من الأفكار ؛ ولكنها معرفة مصحوبة بعودة بالنفس لنفسها وأصلها وشروطها ومنهجها وحدودها وقيمتها . وهذا ما لا يكون دون محاولة نعرف بها مكانة هذا الصرب المعرفة بالنسبة إلى سائر المعارف الأخرى .

والفلسفة هكذا ، تكون مفصورة — في رأى يارودي — على نظرية المعرفة وحدها ؟

« البحث يقية »

عن معجم لالاند الفلسفي .

من طرائف القرآن الكريم

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الغنى عوض الراجعى

مبعوث الأزهر بكلية المقاصد الإسلامية

في صيدا ، لبنان

من خلال هذا العنوان الذى سبق أن فطرنا به إلى طرائف كثيرة في هذا القرآن العجيب ، نريد أن ننظر إلى قصة موسى والعبد الصالح (١) لننظر إليها لا من حيث الشرح لمفرداتها والسرود لحوادثها ، واستنباط العبر والعوائد من وراء سوقها في القرآن ؛ فذلك نوع من الدراسة لا يكاد يستصحب على من شرب عن الطوق في التعليم إحرازه وتحصيله .

لننظر إليها إذن من حيث نوع آخر من الدراسة قد يجد القارئ فيه شيئا من المتعة مع الجدة . لننظر إليها من حيث المعاني التى هي واحدة أو كالواحدة لكنها تذكر في أكثر من موضع بعبارات مختلفة وتراكيب يغير بعضها بعضا ؛ الأمر الذى راح البعض يعزوه إلى أن قصص القرآن ما هو إلا عمل أدبي وحيك فني يعتمد على السبك والإخراج أكثر مما يعتمد على الصدق والوقوع في الخارج ، بينما راح بعض آخر يعزوه إلى ضعف بلاغى أو تلفيق خيالى أو ضلال في تلمس الحقائق .

فإذا كان ذلك كذلك ، وكان هذا التكرار مع الافتراق لا إلى ذلك ولا إلى ذلك ، وإنما هو لاستمرار تعلق بإعجاز القرآن وبلاغته ، مع عدم المجافاة للحقيقة والواقع الخارجى ، وكنا نريد أن ننزع في بيان ذلك منزع التمهيل بعد الإجمال (٢)

[١] راجع الكهف من الآية ٦٠ إلى الآية ٨٣ .

[٢] راجع في أعداد سابقة من هذه المجلة مقالات و نقاشه الطام في القرآن الكريم ، .

فبنا في سبع مفارقات نتناول بالدرس والتحليل ما عسى أن يسأل عنه من هذا القبيل في هذه القصة .

المفارقة الأولى : في الحديث عن الحوت في الآية ٦١ ، فالتخذ سبيله في البحر سرباً ، وفي الآية ٦٣ ، واتخذ سبيله في البحر عجبا ، فما الذي أوجب «سرباً» ثارة ، و «عجبا» أخرى ، وكون كل حيث كانت ؟

والجواب : أنه اختلاف بغير تناقض للتفنن والتوزيع بإبراز المعنى الواحد بأكثر من طريقة مع تحصيل أسرار ودقائق تحصل من وراء ذلك . فالسبيل والسرب في الآية الأولى مفعولاً الاتخاذ ، والفعل مسلط عليهما كسكل مفعولين أول وثان . أما «عجبا» في الآية الثانية فالأشبه أنها صفة ، والتقدير فالتخذ سبيله في البحر اتخذاداً عجبا ، أو سبيلاً عجبا . ولما كانت «سرباً» اسماً ، وكانت «عجبا» صفة ، وكان الاسم على ما علم من العربية بالضرورة مقدماً على الصفة ، كان وقوع المقدم في المقدم ، والنسأل في النسأل من الجودة بمكان .

المفارقة الثانية : في قوله تعالى الآية ٧١ ، فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق أهلها ، مع قوله تعالى في الآية ٧٤ : فانطلقا حتى إذا لقيا غلاما فقتله ، قال أقتلت نفساً زكية بغير نفس ، فالتحارق للسفينة والقاتل للغلام هو العبد الصالح ، والمنكر عليه فعله هو موسى ، وكان الثاني قد قال للأول : « هل أتبعك على أن تعلمن مما علت رشداً » فقال له : « إنك لست تستطيع معي صبراً » وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً » ، فقال موسى « ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمراً » . ولما كان جواب إذا دائماً محط الفائدة المرموق بالذكراؤلا وبالذات ، كان الظاهر أن يقع إنكار موسى على العبد الصالح جواباً لإذا في الآيتين ، لأن السياق يهدف إلى بيان ذلك منه بعد ما كان بينهما من حوار ، فما باله وقع جواباً لها في الآية الثانية دون الأولى ؟

والجواب : أنه لما كان الإنكار الأول في الآية الأولى في الجولة الأولى حين خرق السفينة ، اكتفى بإيقاع الحرق جواباً لإدا ، وجعل إنكار موسى بعده على سبيل الاستئناف كأنه مما يتساح فيه لأول مرة ، ولكن لما كان الإنكار الثاني في الآية الثانية في الجولة الثانية حين قتل الغلام وكان موسى بعد إنكاره خرق

السفينة قد عابه العبد الصالح بقوله ، ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا ، فقال له موسى ، لا تأخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عبرا ، - كان هذا الإنكار الثاني من موسى أشد غرابة لا يكاد يتساح فيه لثاني مرة ، فاستشراف النفس وتطلعها اليه وترقبها له ، أكثر من سابقه ، فكان وقوعه دونه جوابا لإذا من الفصل بين المقامات وإصابة المحازة بمكان . . ألا يرى كيف وقع جوابا لإذا في الآية الثالثة في الجولة الثالثة في قوله تعالى : ، حتى إذا أتيا أهل قرية استطاعا أهلها فأبوا أن يضيّفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا ، وكيف كان ذلك بعد سابق اعتذاره عن الإنكار الثاني ، وقوله للعبد الصالح ، إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا .

المفارقة الثالثة : في حكاية قول العبد الصالح لموسى الآية ٧٢ ، ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا ، ، وقوله له مرة أخرى الآية ٧٥ ، ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا ، ، فإن الآية الثانية تزيد على الآية الأولى كلمة لك ، فهل من سر لهذه الزيادة ؟

والجواب : أن المقالة الأولى كانت عند الجولة الأولى عند الاستنكار الأول من موسى بخصوص خرق السفينة ، فكانت موقية بالعرض ؛ أما الثانية فكانت في الجولة الثانية عند الاستنكار الثاني من موسى بخصوص قتل الغلام بعد سابق اعتذاره عن الاستنكار الأول ، فناسب فيها هذه الزيادة لتوكيد المعنى وتقوية الخطاب بالعتاب .

المفارقة الرابعة : في حكاية قول موسى للعبد الصالح في خرق السفينة : ، لقد جئت شيئا إمرأ ، مع قوله له في قتل الغلام ، لقد جئت شيئا نكرا ، . فالإمر في الأولى ، والنكر في الثانية . وإذا علمنا أن قتل الغلام بغير ذنب أشنع وأبشع من مجرد خرق السفينة الذي قد يفضى إلى الفرق وقد لا يفضى ، وأن لفظ السكر أدل على المنكر المستصح من لفظ الإمر ، أدركنا تناسب كل لفظ بموقعه .

المفارقة الخامسة : في حكاية قول العبد الصالح لموسى في خرق السفينة : ، فأردت أن أعيها ، ، وفي قتل الغلام ، فأردنا أن يدلها ربهما خيرا منه زكاة

وأقرب رُحماً ، ، وفي إقامة الجدار لليتيمين ، فأراه ربك أن يلبنا أشدهما ويستخرجنا كنزهما . فالإرادة الأولى مستندة إلى العبد الصالح المتكلم ، والثانية إلى الضمير ، ناه ، والثالثة إلى الرب مع أن الجميع من فعل العبد الصالح ، فهل من حكمة لهذه التفرقة ؟^(١)

والجواب : أن إسناد الإرادة الأخيرة إلى الرب لاها تعلقت بفعل حسن لا مصدر على الأصل والحقيقة إلا من الله المتكفل بصلاح الأبناء لحق الإباء ، مع ما تفسره لفظة الرب من الترية ، ومناسبة الترية لحال اليتيمين . أما إسناد الإرادة الأولى للعبد الصالح المتكلم فلاها تعلقت بفعل الإغاية للسفينة ، والإغاية وإن كانت في الحقيقة من الله ، وهي أمر حسن باعتبار الإغاية منه ، إلا أنه تحوشى إسنادها إلى الله ، وأسندت إلى العبد الصالح المتكلم ، مراعاة للفظها وظاهر الحال . أما إسناد الإرادة الوسطى إلى ضمير ، ناه ، فلأن القتل أشنع الثلاثة ، فأراد أن يدل على أنه لم يفعله إلا لرسوخ قدمه في علوم حكمه الله وأسرار قضائه وإرادته ، فعبّر بالعبارة المشعرة بهذه المعاني فقال : أردنا ، بإدماج إرادته في إرادة الله .

المفارقة السادسة : في حكاية قول الخضر لموسى : « سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا » ، ثم قوله له بعد تأويل هذه الأفعال وبيان الحكمه فيها : ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبرا ، بحذف التاء من فعل الاستطاعة في الآية الثانية بعد وجوده في الآية الأولى ؛ فهل من سر لوجود حرف التاء تارة دون أخرى ؟ والجواب من وجهين لا ترى أحدهما إلا أوجه من الآخر .

الأول : أن هذه الأفعال قبل تأويلها ثقيلة على النفس لجمل سرها ، وبعد تأويلها تجدد النفس لها حفة ووضوحا ؛ فإذا علم أن الحذف أخف من الذكر كما هي القاعدة العربية ، وأن اللفظ الذي لا حذف فيه وقع أولا عند الحديث عن هذه الأفعال قبل تأويلها ، وأن اللفظ الثاني الذي وقع فيه الحذف وقع ثانيا عند الحديث عن هذه الأفعال بعد تأويلها — أدركنا أن ذلك من وضع الاتقل في الاتقل والأخف في الأخف .

(١) لا نكاد نستقيم لك هذه الفقرة حتى تكون القصص بين يديك تمنين ما نعيم إليه من الآيات ونستحضر من المساني ما يجب أن تكون قد اقتربت منه لتبدأ هذه الفقرة .

الثاني : أن عالم المجهول أصل بالنسبة للإنسان^(١) والذكر أصل بالنسبة للحذف ، فوَقَّعت اللفظة التي لاحذف فيها في الحديث عن الأفعال قبل علم أسرارها ، ووقَّعت اللفظة ذات الحذف في الحديث عن الأفعال بعد علم أسرارها ، فكان ذلك من وضع الأصل في الأصل والفرع في الفرع^(٢) .

المفارقة السابعة : في ذكر بلدة اليممين أول الأمر بعنوان القرية الآية ٧٧ مع ذكرها في ثاني الأمر بعنوان المدينة الآية ٨٣ ، هل من سر لهذه المفارقة ؟

والجواب : أن المدلول واحد في ذاته ، لكنها عتوت بالقرية أول الأمر في سياق بيان مجملها ، لأن البخل في القرى أشنع كما قيل : شر القرى من ضيع القرى ، ، وعتوت بالمدينة في ثاني الأمر في سياق خوف ضياع اليممين ، ولعل في المدن أكثر منه في القرى .

تذييل هام :

هذه الدقائق البلاغية التي كانت من أجلها هذه الانترافات ، كثير منها في آيات تحكى أفعال أشخاص كوسى والعبد الصالح وغيرهما كثير في كثير من قصص القرآن ؛ فهل من حكيمة عنهم هذه الأقوال كانوا يراعون هذه الدقائق في كلامهم — عربيا أم غير عربي ؟ أم لم يكونوا يراعونها وإنما ابتدعها القرآن ؟ أما على الأول فيلزم قيام الإعجاز بكلام المحكى عنهم فلا يكون القرآن المعجز ؛ وأما على الثاني فيلزم عدم تحرى الصدق في القصص وحكاية ما لم يكن بحال . هذا إشكال يلجج به البعض ، وليس يثبينا عن الأخذ في تنفيذه والإجابة عليه إلا إرجاؤه الى مقال تال وقريب ٢

(١) والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تفكرون . سورة النحل الآية ٧٨ .

(٢) في مقال سابق شرحا كيف يشار الى المعاني في القرآن برؤية الأنفاط وهيئة تراكيها .

من نوادر المخطوطات

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ أبو الوفا المراغي
مدير المكتبة الأزهرية

من المصاحب العلمية التي عرفها العرب ، وعرفها المسلمون قديما : تخصيص الموضوعات العلمية الهامة بكتب خاصة ، أو رسائل خاصة ، قلم أطرافها وتجمع شتاتها ، وتوفر على المطالع والدارس غناء الطلع وتوزيع المجهودات في غيرها من المراجع ، ويعلم الباحثون مقدار هذا الغناء ، والتاريخ العربي والإسلامي حافل بالعلماء الذين خصصوا كثيرا من الموضوعات العلمية برسائل خاصة ، سواء في ذلك الموضوعات اللغوية والفقهية والفلسفية .

فلأصمعي كتاب في الحيل ، وكتاب في الإبل ، وكتاب في البهات والشجر ؛ وجمال الدين السيوطي بضع مئات من الرسائل في موضوعات علمية مختلفة ضمن مؤلفاته التي قدرت بأربعمائة مؤلف ؛ وللعلامة ابن تيمية جملة من الرسائل في مجلدين ؛ وللعلامة الفقيه ابن عابدين جملة من الرسائل في مجلدين ، عدا موسوعاته الفقهية المعروفة ؛ والفيلسوف ابن سينا كثير من الرسائل في الفلسفة وعلم الكلام . وقد اصطنع هذا المنهج العلمي بعض الجامعات الأوروبية حديثا ، وظن بعض أهل العلم خطأ أنه منهج أجنبي مستحدث ، ولكنه في الواقع منهج قفاقي إسلامي قديم دعت إليه الأسباب التي أشرنا إليها ، وساعد على اتهاجه سبب آخر هو سعة اطلاع هؤلاء العلماء ومقدرتهم العلمية على ما يعالجون من الموضوعات .

وقد جاء على هذا المنهج العلمي كتابنا الذي نتحدث عنه ، وهو كتاب البعث ، لابن أبي داود السجستاني ، وهو كتاب جمع فيه مؤلفه الأحاديث التي رويت في موضوع البعث وما يتقدمه من مواقف الاختصار ، والموت ، وهذاب القبر ، وما يتصل به من نتائج هي الجزاء بالجنة لمن أحسن ، والجزاء بالنار لمن أساء وظلم . وعدة أحاديث الكتاب واحد وثمانون حديثا أكثرها ورد في صحاح السنة ، وبخاصة

صحيح البخاري ومسلم ، ومؤلفه هو الإمام أبو بكر عبد الله بن أبي داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد الأزدي السجستاني ، اختلف نقدة الحديث في ثقته وصدقه ، وأكثرهم على أنه ثقة صدوق حافظ ، إلا أن أباه أبا داود قال : ابني عبد الله كذاب . وذكر ابن عدي عنه أنه معروف بالطلب ، وعامة ما كتب مع ابنه وهو مقبول عند أصحاب الحديث : وأما كلام أبيه فإدري إيش تبين له منه ؟ وقال النيسابوري : سمعت ابن أبي داود يقول : حدثت بأصبهان من حفظي بسة وثلاثين ألف حديث الزموني الوم في سبعة أسابيع ، فلما رجعت وجدت في كتابي خمسة منها على ما حدثتهم ؛ وكان يعرف الطب والنجوم ؛ ولد سنة ٢٣٠ هـ ورحل به أبوه ، وتوفي آخر سنة ٣١٦ هـ .

وإنه لمن المفار العلية لعلماء المسلمين ، تلك الأمانة العلية التي أخذوها بها أنفسهم خشية الله وتقديرا للأمانة وقيامًا بواجب الدين والعلم ؛ هذه الأمانة التي حملت أبا داود رضي الله عنه ، أن يقول عن ابنه مؤلف هذا الكتاب : إنه كذاب ، ولم تمنعه عاطفة النبوة — ومكانتها من قلوب الآباء وميزلتها كما نعلم — أن يقول في ابنه ما رأى . فله هؤلاء العلماء ، وفقه أماتهم وإخلاصهم .

وبالمسكنة الأزهرية من هذا الكتاب نسحتان كلتاهما قديمة . إلا أن إحداهما أقدم من الأخرى ، ولعلها أقدم نسخ الكتاب في العالم ؛ فعلى هامش بعض صفحاتها كلمة تحتل أن تقرأ : كتبه مؤلفه أو سمعه مؤلفه . ولا يبعد هذا الاحتمال في المخطوط القديمة كما يعرف ذلك من عاتى قراءتها . وإذا صح ذلك كان تاريخ هذا المخطوط أواخر القرن الثالث ؛ فقد توفي المؤلف سنة ٣١٦ هـ كما ذكرنا في ترجمته . وعدد أوراقها ١٨ ورقة من القطع الصغير ، وعليها كثير من السماعات (أعنى شهادة الشيوخ بأن تلاميذهم في الحديث قرءوا هذه الأحاديث عليهم ، وسموها شيوخهم منهم) شملت أكثر حواشي النسخة ، وشملت خمس ورقات من آخرها ، وتختلف تواريخ تلك السماعات ، بعضها كان في القرن الرابع ، وبعضها في القرن الخامس ، وبعضها في السادس ، وبعضها في السابع ، وبعضها في الثامن ، وقد طوقت هذه النسخة في بلاد كثيرة ، حتى استقرت أخيرا بالقاهرة بالمسكنة الأزهرية ، فبعض سماعاتها كان بدمشق بالمدرسة الأمية والمسجد الجامع ، وبعضها كان بحلب

وبعضها كان بجبل قاسيون ، وبعضها بجامع قلعة الكرك ، وبعضها كان بالقاهرة بمدينة الملك الصالح وبغيرها من المساجد والمدارس . وهذه صورة لسماع منها :
« قرأ عليّ جميع هذا الجزء معارضا بأصل سماه من أبي المنجا بن التي بسماحه
حاضرا من سعيد بن البا بسنده الفقيه الاجل الفاضل شمس الدين أبو البركات أحمد
ابن موسى بن نصر الحولي ، فسمعه مجد الدين عمر بن ابراهيم بن ابراهيم بن عثمان
المرصفاوي ، وصح ذلك في يوم الاحد سادس عشرين جمادى الآخر من سنة أربع
وستين وستائة بظاهر القاهرة . وكتبه أحمد بن محمد بن عبد الله الظاهري ، عفا
الله عنه » .

واحتمافا بصورة هذه المخطوط ، طلبت من الأستاذ مرمى بك قنديل مدير
دار الكتب الملكية أن تأخذ دار الكتب صورتين فوتوغرافيتين تحتفظ منها
بنسخة ، وتحفظ المكتبة الأزهرية بالثانية ، وقد فعل ذلك مشكورا .
والى بسيل أن أصحح ذلك الكتاب ، وأشرحه شرحا موجزا يكشف عما
خفى فيه ، ويفنى بعض الغناء عن الرجوع الى غيره . وعسى أن يمنحني الله العون
والتوفيق ٩

التواضع

قال ابن السبائك لميسى بن موسى : تواضعك في شرفك ، أكثر من شرفك .
وقال عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين : أفضل الرجال من تواضع
هن رفعة ، وزهد عن قدرة ، وأنصف عن قوة .
وقال ابن قتيبة : لم يقل في التواضع بيت أبدع من قول الشاعر في بعض
خلفاء بني أمية :

يفضي حياء وينصى من مهابته فلا يكلم إلا حين ينسم

المجاز والكناية في القرآن

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود النواوي
وكيل معهد فؤاد الأول بأسبوط

نحت هذا العنوان كتب فضيلة أستاذنا العلامة الشيخ حامد محسن ، هذه
بحوث ، وهو — وفقه الله — حريص على التوجيه إلى حرية الرأي والتخلص
من قيود الجود ؛ ونحن نحمد له ذلك الاتجاه ، ونسأل الله له التوفيق ، حتى
نكون في حدود ما رسم الدين ، وحتى لا نتورط في تكلف ، إن الله لا يحب
المتكلفين .

لقد أثار بحث فضيلته في آية الملك : « ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح ،
وجعلنا رجوما للشياطين » ؛ أثار ذلك البحث ضجيجا ، وأحدث صخبا كثيرا ،
وأجال بعض الأعلام في المناقشة والجدل ؛ وقد رأيت أن يكون لي شرف المساهمة
في بعض تلك الجولات ، وأن أهرض لأم ما يعني الناظر في الآية الكريمة
في نظر العقل ، ونظر الدين ، ونظر البيان العربي ، مرسلا نفسي على بصيرتها ، مع
توخى غاية الإيجاز خشية الزلل أو الشطط ، من غير استقصاء في البحث ، تمشيا
مع أدب الإسلام في المقالة .

١ — لا يظهر وجه التافي بين استراق الشياطين للسمع ، وكون الله سبحانه
متقن الخلق ، بحكم الصنع ، فالله سبحانه بديع السموات والأرض ، والله سبحانه
خالق سبع سموات طباقا ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت ، وهو سبحانه رفع
سمكها فساواها ، وأغطش ليها وأخرج ضحاها ، والأرض بعد ذلك دحاها ،
أخرج منها ماءها ومرعاها ، والجبال أرساها ، متاعا لكم ولأنعامكم ؛ كل هذه
وسواها مظاهر إقنان الخلق وإحكام الصنع ؛ فهل محاولة استراق السمع تنافي
شيئا من ذلك ؟

لو كان الأمر كذلك لما اعترف به فضيلته في تفسير الآيات الأخرى التي وردت في هذا المعنى كآية الحجر ، وآية الصافات ؛ لكن فضيلته قد اعترف به ، ولم يحاول تأويله ؛ إداً فحالة استراق السمع متمشية مع الأحكام والدقة ، ولكن الله سبحانه دبر أمر الخلق بمقتضى علمه على غاية الحكمة ونهاية الدقة ، وأعطى كل شيء خلقه ، ومسر كل ما خلقه له ؛ فاللائكة عباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول ، وهم بأمره يعملون ، منهم من يدبر الأمر ، ومنهم من يحمل العرش ، ومنهم ومنهم ...

والشياطين أشرار مفسدون ، ولهم سلطان في الإغواء إلا على عباد الله المخلصين . والشیطان هو الذي أقسم بين يدي الله لا يغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين . وهو الذي يقول بين يدي الله سبحانه : لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتكن ذريته إلا قليلاً ، والله سبحانه ما حال دون ذلك ، ولا أوصد الباب في وجهه ، لهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حى عن بينة ، ولكنه فسح له مجاله لأنه - كما قلت - يسر كل كائن لما حاق له ، فطاعته بقوله : اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاءً موفوراً ، واستغفر من استطعت منهم بصوتك ، وأجلب عليهم بخيلك ورجلك ، وشاركتهم في الأموال والأولاد وعدم ، وما يعدم الشيطان إلا عروراً .

وإذا فالاستراق سبيل من سبل الإغواء التي ينتل بها الله عباده ، ليضل المزهزع فيؤمن بالكاهن ، ويذعن له ، وليتدى الثابت فيسلم وجهه إلى الله وحده . وماذا كان لاستراق السمع من أثر في إتقان الصنع ، وإحكام النسيج ؟ وهل كان بالله سبحانه من حاجة إلى حملة العرش ، وأن يرمى الأرض بالجبال ؟ .

ليس كل ما يحول بالذهن أو يتصل بالإدراك يحكم في نظام الله ، وإلا لكان كثير مما جاءت به الأديان من السماء مثارا للشكوك ، وموضعاً للريب ، ولكننا نؤمن بكل ما جاء من عند ربنا ، ولا نتبع ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله . إن كل تأويل لا ينصره الدليل الحق المبصر ، فهو رد ، وإنما التأويل الصحيح ما نصبت عليه القرائن وقامت عليه الدلائل . فأما أن شبهة تعرض أو خاطراً يحول فليس منا بسبيل ؛ فإن الله سبحانه مراداً من كلامه يعوزه كثير من الحيلة والحذر . لقد أنكر بعض العلماء وقوع المجاز في القرآن ، منهم ابن القيم في بعض كتبه ،

واشترط في بعض منها شروطاً تجعله عزيزاً كل المزة ، وكل ذلك ليسوا باب الضلال ، ويحولوا دون الاحتيال ؛ ولقد غلب بعض الناس في أمره ، فكانوا أضرب على الدين من أولئك ، وكان منهم الباطنية المارقون ، ولكن قوما مدام الله للحسن ، فأولوا ما لم يستطيعوا تحقيق ظاهره ، وفسروا الالفاظ بما تدل عليه القرائن دلالة راشدة ، فكانوا وسطاً عدولاً .

ولإذ لم يكن ذلك الاستراق ولا الرمي بالشبه محالاً ، وقد اعترف به أستاذنا كما قلت ، فما الحافز إلى صرف اللفظ عن ظاهره ، وإلباس الثوب غير لابسه ؟ .

٢ — ويقول فضيلة الأستاذ : إن المفسرين بنوا مقالهم على خيال باطل هو أن الله سبحانه يجرى تديره على نظام الدواوين وما فيها من أخذ ورد . ونحن نعلم أن المفسرين بنوا مقالهم على ما ورد به النقل الصحيح من الكتاب والسنة عن الاستراق . وكيف يستطيع المفسرون أن ينقولوا في شئون الله أو يظنوا به حاجة إلى الشورى ، وهو بكل شيء عليم ؟ معاذ الله .

وهل انحصر أمر الاستراق فيما كان عن شورى وأخذ ورد ؟
جاء في حديث مسلم بسنده إلى ابن عباس ، أن الله سبحانه إذا قصى الأمر في السماء يقول الذين يلون حملة العرش : ماذا قال ربكم ؟ وهكذا حتى يبلغ الخبر السماء الدنيا فتختلف الجن السمع .

وهذا الحديث ونحوه وإن لم يصل إلى درجة اليقين ، فإننا بسبيل أن ندفع عنه وصمة الرد والتكذيب ، فإنه من الأحاديث الطيبة التي يعمل بها في الأحكام الشرعية ، فلا أقل من أن يؤخذ بما يؤدي إليه ، وهو الظن الراجح ؛ فكيف إذا اعتضد بالكتاب الكريم وجاء ياباً وتفسيراً لبعض آيه ؟ وإليه لا ينهض في مثل هذا أن نقول إن العقل لا يسوغه ؛ فإن كل ما لم يقم الدليل الصحيح على محالته فإنه جائز ، والجائز إذا أخبر الصادق بوقوعه فهو مقبول .

٣ — يقول فضيلة الأستاذ : إن سورة الملك ، رعى إلى غاية واحدة هي نفث الأنظار إلى بديع آيات الله ، وما في السموات والأرض من أدلة وبراهين على قدرته ... الخ .

والواقع أنك إذا فطرت في السورة الكريمة فبى أغراض عدة ومقاصد جمة ، فهى كما قال السيد آيات وحجج ؛ وهى أيضا وعيد وتهديد ، وللذين كفروا برهم عذاب جهنم وبئس المصير . إذا ألقوا فيها ... ، وهى وعد وتحضيض ، « إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير » . وهى امتنان وحث على الشكر : « قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والابصار والأفئدة ، قليلا ما تشكرون » « قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتكم بماء معين » ... وهكذا .

ولعل من باب الاستطراد أن نقول إن هذا الكتاب الكريم ، قد امتاز فى ربط الشيء بالشيء للملازمة ، وذكر المعنى بجوار المعنى لملازمة ، وإن خرج عن الغرض تمشيا مع تجديد النشاط والاستطراف بتعدد الأغراض ، حتى ربما وقع فى أثناء القصة الواحدة خروج باعتراض أو نذيل ، يا بى آدم قد أردنا عليكم لباسا يوارى سوءاتكم وريشا ، ولباس النفوس ذلك خير ، ذلك من آيات الله لعلمهم يذكرون . « وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلمهم يرجعون » . « ولا تؤمنوا إلا لمن نبع دينكم ، قل إن الهدى هدى الله ، أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم .

وكل ذلك وأمثاله من البلاغة التى يتفاوت بها الظلم ويدذب بها الموقع ، ولا سيما إذا كان فى مثل أسلوب الكتاب الكريم . فلئن قال قائل : إن السورة الكريمة ترى الى غاية واحدة لم يجمع ذلك من مزج تلك الغاية ببعض ما يلابسها أو يتصل بها . وهل وصف النجوم بأنها رجوم للشياطين يعد كل البعد عن وصفها بأنها زينة للسماء ، ونور فى الأجواء ؟ إنها نور مضوء ، وإنها نار محرقة ؛ إن الموصوف شيء واحد هو النجوم ، وإن الصفات لمتأخذة متجاوبة كما ترى .

وهل هناك ما يمنع أن يكون الرجم بها من آيات الله ، والأدلة على عظم قدرته وواسع تصرفه ونهاية عزته ، وما نرسل بالآيات إلا تخويفا ، وهل اتسع المجال لربط إعداد عذاب جهنم للكافرين بما قبله ، وضاق عن ربط الرجم بالنجوم بجعلها زينة مضية ؟

(٤) يقول فضيلة الأستاذ : إن مما لا يستسيغه العقل أن يفهم أن النجوم التي هي زينة وبرهان على قدرة الله يرى بها المستمعون إلى السماء ، لأن ذلك مما يخيل السفه ، ومما يجافي الحكمة ويؤذن بالمعجز . الخ ما يدور حول هذا المعنى .
ونحن نرد من جهة العقل والنقل .

أما العقل فإنه لا يفهم السفه في هذا ، لأنه لا يستطيع أن يقصر تصوره على فهم أنها للربة خلقت .

لم لا يجوز أن تكون مخلوقة أيضا لغير ذلك ؟ وأى عجز في أن يستعمل الله بعض مخلوقاته فيما شاء من أمره ؟ ولماذا نصر نبيه صلى الله عليه وسلم بالعبا ، وأهلك عادا بالدبور ، وقد أرسل الرياح لواقع ، وأرسل الرياح مبشرات ؛ بل وربما كان ذلك من آيات القدرة الإلهية ، وسطة السلطان كما قلنا . إنه ليس لجوأم فيكون عجزا ؛ إنما هو إلى ربطه الأسباب بالمحييات أقرب . فالله يهلك ما شاء من شاء : يهلك بالصواعق ، ويغنى بالريح العاتية ، وقد أرسل على أصحاب الفيل حجارة من سجيل فجعلهم كعصف ما كور . وقد يرفع القرية إلى السماء ثم يقلبها ، والمؤتفكة أهوى ، فحشاها ما غشى . . وكل ذلك لحكم يعلمها الله ومن عبده الله . ومن الحق علينا أن نتسع له عقائدنا ، وأن نؤمن به : كل من عند ربا .

ولعل هذا الشيطان المفسد يناسبه أن يقتل بهذا الصف العظيم ، ولا سيما إذا كان منه قريبا . وهذه النجوم كثيرة عدد الحصى لانفى ، وذلك من آيات الله .

ثم ما بال هذا القرآن الذي أنزل للهداية والتوجيه الحكيم يصرع الشيطان كما ورد في بعض الأحاديث الصحيحة ؟ إنا نؤمن بكل ما جاء على الوجه الذي به جاء ، ما دام أنه لم يتم على محالته دليل ملزم .

وأما النقل : فهو ما جاء في آيات الاستراق ، كما قدمت . فهل من السفه والمعجز ما تفيد الآيات الكريمة إفادة واضحة صريحة ، ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين ، وحفظناها من كل شيطان رجيم ، إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين . . . وحفظنا من كل شيطان مارد ، لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب . . . الخ .

إن في كلام الشيخ ما يفيد الإيمان بظواهر هذه الآيات ، وهو ما نصر به المفسرون هذه الآية ، وهذا أقربيه ؛ فإن القرآن يفسر بعضه بعضا ، ولا سيما إذا كان محققا لما يفيد اللفظ بأصل الوضع .

هـ - قبل أن أختم ما أردته اليوم ، أستطيع أن أعيد التفام في شأن المجاز الذي عول فضيلته عليه ؛ ذلك أنه ليس من السهل كما قلت آنفا أن يصار إلى المجاز ولو لشبهة تعرض ؛ فالأصل كما يعلم السيد أن يحمل اللفظ على حقيقته وأصل معناه لأنه الذي يسبق إلى الذهن عند العالم بالوضع ، اللهم إنه إذا وجدت قرينة تمنع من صحة إرادة المعنى الأصلي للكلمة فلا يحبس من المعير إليه اضطرابا .

وقد بينت أنه ليست هناك قرينة مافعة من إرادة المعنى الأصلي ، بل هناك ما يدعو إلى القول به .

على أننا إن صرح أن نقبل استعارة الرجوم لمعنى الإحرام والإلزام كقولهم : أقمه حجرا ، فإننا نعتبر أن من اللحن بالحجة والتبويه بحسن السبك أن يقال : إن الشيطان مجازي معنى الإنسان الكافر مهما عاهد واعد ، وأنخذ من دون الله الند . فإن من جمال الاستعارة وقوة أثرها أن يلاحظ في الوصف المشترك ، القوة والدقة التي تصل إلى حد الشهرة ، حتى يسبق المعنى إلى ذهن البايغ كأنه حقيقة . ولهذا أنكروا على ابن الأحنف استعمال الجنود في معنى بخل العين بالدمع للسرور ؛ لأنه اشتهر في معنى البخل حال الحزن . ولذا قالوا إن هناك ألفاظا تستعمل بناء على الشهرة في معان كالبدل للصحيح لا للجناد مثلا ، والأسد للشجاع لا للتوحش ، والصفر للجان ، والدنس للحادع ، وهكذا .

فليس كل مشاركة في وصف مسوغا للتشبيه فصلا عن الاستعارة التي هي أحق بأن يراعى فيها جهات الامتياز في الوصف المبرر لنقل اللفظ من المعنى الحقيقي إلى المجازي .

واعتقد أن لفظ الشيطان يدل على معنى أخص خصائصه الإغواء والإفساد والاحتيال لذلك ، لا الكفر والعناد ؛ فهو إنما يستعار لذلك . وفي القرآن الكريم : شياطين الإنس والجن يوسى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ، ولعله إذا استعير لمؤمن أو مسلم فيه خبث وتمرد ، كان ذلك أقرب من استعارته لكافر معها تعتد .

هذا إذا حمل لفظ الكناية في كلام الشيخ على الكناية اللفظية الصادقة بالمجازة وهو الاشبه ببحث الشيخ ، والأليق بكلامه ، ولا سيما بعد أن صرح مرارا بمنع المعنى الحقيقي ؛ والكناية من شأنها ألا تمنع المعنى الحقيقي ، فأما إذا حملت الكناية على المعنى الاصطلاحي الذي هو إطلاق المألوم وإرادة اللازم ، فإنه على مشاركته المجاز في أنه يشبه التعقيد المعنوي ، يرداد نبوا من جهة أن اللزوم فيه بعيدا جدا ، إذ لا يلزم من المعنى الحقيقي وهو رجم الشياطين ، ذلك المعنى المقصود وهو إقامة الحجج على المعاندين ، ولا هو مقصود في الكلام ولا يدل عليه أسلوب الشيخ ، حفظه الله . فكيف إذا ضمنت إلى ذلك منع جواز المعنى الحقيقي ؟ هذا يحمل ما ينبغي الآن من المناقشة مع أستاذنا الجليل . ولعل لي عودة للكلمة إذا دعا الداعي . وأستغفر الله وأتوب إليه ، إنه لا حول ولا قوة إلا به .

يريد الظهور

قال مالك بن أنس : حطب أبو جعفر المنصور حمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس اتقوا الله . فقام إليه رجل من عرض الناس فقال : أذكرك الله الذي ذكرتنا به يا أمير المؤمنين . فأجابه أبو جعفر : سمعاً لمن ذكر بالله ، وأعوذ بالله أن أذكر به وأساء فتأخذ في العزة بالإثم ، لقد ضلكت إدين وما أنا من المهتدين ؛ وأما أنت فواقه ما الله ردت بها ، ولكن ليقل قال فعوقب فصبر ، وأهون بها لو كانت . وأنا أحذركم أيها الناس أختها فإن الموعظة علينا زلت ، ومنا أخذت . ثم رجع إلى موضعه من الخطبة .

نقول : إن الحلم الذي أظهر أمير المؤمنين المنصور مما لا يؤثر إلا عن شرفاء النفوس ، وكبار العقول ، فذكر به في مواطن الكرامة ، وتكلف مثل الإمام الجليل مالك بن أنس قرواه عنه .

وقد أعجبا قول أبي جعفر المنصور : وأنا أحذركم أيها الناس أختها . فإن محي الشبهة إذا أنسوا عدم المواخذة اندفعوا إلى الإكثار من هذه المقاطعة ، وليس هذا من الأدب المطلوب في شيء .

قواعد بلاشواهد

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ علي محمد حسن العمادي
مبعوث الأزهر بالمعهد العلمي بأم درمان

تبني دراسة البلاغة على الشاهد العربي الفصيح . هكذا كانت منذ بدأ العلماء يبحثون في هذه العلوم ، فكان يسألك عملهم أن ينظروا في مآثور العرب نثرهم ونظامهم ، يحللون ويشرحون ويستنتجون ، فإذا تكاثرت الشواهد ، وتوافرت النصوص ، استنطاعوا بعد البسط والموازاة أن يخلصوا الى قاعدة ؛ وكان مقصدهم من دراسة البلاغة في مبدأ الأمر — كما هو معروف — الوصول الى سر إعجاز القرآن الكريم . ومع أنهم كانوا يحومون حول كلام العرب ، ويستخلصون منه ، كانت مرجعهم الاصيل ، وقطب الدائرة عندهم شيئاً آخر ، يلجئون اليه ، حين يعي التعليل ، ويعز الدليل ؛ ذلك المرجع الذي يسع كل رأى ، ويصير كل قول ، ويُلْتَجَد اليه عند ضيق النفس ، وخرج الصدر : هو ، الذوق . . فهو الحكم في فصاحة الكلام وبلاغته ، وهو المهادى الى قوة الاسلوب وركته ، بل كان الذوق مرجع الإعجاز نفسه في رأى بعض علمائهم ؛ ولكن الكاتبين في علوم البلاغة احتاطوا حين رجعوا بلاغة الكلام ومصاحته الى هذا الاصل المرن ، فقالوا إن من الذوق الاصيل العطرى وهو ذوق العرب المُختص ، ومنه المكتسب ، وهو ذوق المتحرسين بكلام العرب ، المطيلين النظر فيه ، المتفقهين لاساليه ومعانيه ، حتى تتكون عندهم من إتقان الدراسة وطول الدربة ، ملكة يضاهون بها ملكة العرب الذين خلص لسانهم ، وسلست ملكاتهم ؛ ولا اعتداد بغير هذين من الأدواق .

ننظر فيما كتب عبد القاهر فجده يذكر الكلمة في موضوعين مختلفين ،
ويُتميل بين موقعيها ، ويخلص من ذلك إلى أن الكلمة صالحة في هذا الموضوع ،
متناسبة ملائمة مع أخواتها ، وأنها نفسها نائية جاسية في الموضوع الآخر ؛ فإذا
طلبت إليه الدليل لم يجد عنده الجواب ، وإنما تنلسه في الذوق . يقول في دلائل
الإعجاز بعد الحديث عن تفاضل الألفاظ ، وأن الفضيلة إنما تثبت لها في ملائمة
معنى اللفظة لمعنى التي تليها ، قال : « وما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك
وتؤنسك في موضع ، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر ، ومن
أعجب ذلك لفظه الشيء ، فأنك تراها مقبولة حسنة في موضع ، وضعيفة مستكرهة
في موضع ؛ وإن أردت أن تعرف ذلك فانظر إلى قول عمر بن أبي ربيعة :

وكم مالى عيبه من شيء غيره إذا راح نحو الجرة البيض كالدمى
وإلى قول أبي حية النخري :

إذا ما تقاضى المرء يوم وليلة تقاضاه شيء لا يميل التقاضيا
فإنك تعرف حسنها ومكانها من القبول ، ثم انظر إليها في بيت المتنبي :
لو الفلك الدوار أبغضت سعيه لعوقه شيء عن الدوران
فإنك تراها تثقل وتضؤل بحسب تليها وحسنها فيما تقدم .

نعم هو يحيل هذا التفاضل على ملائمة معنى الكلمة لمعنى التي تليها ؛ ولكن
كيف كان هذا التلاؤم في هذا الموضوع ؟ وما هي القوارق الدقيقة بين وضع
الكلمة في المسكنين ؟ ذلك مالا يحدثنا عنه الشيخ العلامة ، وما لا نعرف سبيلا
إليه إلا الذوق . على أن الشيخ عبد القاهر يصرح في غير موضع من كتبه بضرورة
الرجوع إلى الذوق ، وجعله الحكم الأول والأخير ، وما لم يوجد الطبع المساعد ،
والمملكة الموازية فانك لا تستطيع أن ترجع في هذا العلم إلى أصل يعتمد عليه .
قال في الدلائل (ص ٢٢٥) . « واعلم أنه لا يصادف القول في هذا الباب موقعا من
السامع ، ولا يجد لديه قبولا ، حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة ، وحتى يختلف
الحال عليه عند تأمل الكلام ، فيجد الأريحية تارة ، ويعرى عنها تارة أخرى ، وحتى
إذا عجبته عجب ، وإذا نبهته لموضع المزية انتبه . » ثم يرى أن من تساوت عنده

الحالات كلها ، قلنا يجدى معه كلام ، فهو بمنزلة من عدم الإحساس بوزن الشعر والذوق الذى يعتمد عليه فيه .

وفى موضع آخر يطيل الحديث عن الذوق ، ويرى أنه الأساس فى الأكثر من الكلام ، فقد شبهة على من عدم الذوق ، ويقول : كيف يصير المعروف مجهولاً ، ومن أين يتصور أن يكون للشيء فى كلام مزية عليه فى كلام آخر بعد أن تكون حقيقته فيها حقيقة واحدة ؟ ثم يقول : ولما نستطيع فى كشف الشبهة فى هذا عنهم ما استطعناه فى نفس النظم ، فليس الداء فيه بالهين ، ولا هو بحيث إذا رمت العلاج منه وجدت الإمكان فيه مع كل أحد مسعفاً ، والسعى منجهاً ؛ لأن المزية التى تريد أن تعلمهم مكانها ، وتصور لم شأنها ، أمور خفية ، ومعان روحانية ، وأنت لا تستطيع أن تحدث السامع علماً بها حتى يكون ميباً لإدراكها ، ويكون له ذوق وقريحة ، والبلاء والداء العياء أن هذا الإحساس قليل فى الناس . وعنده أن رد خطأ المخطئ فى العلوم التى لها أصول معروفة ، وقوانين مضبوطة ، أمر ميسور ، ولكن رد خطئه فى علوم البلاغة من الصعوبة بمكان ؛ وكيف وأصلك الذى تزدحم إليه استنباد القسائح ، وسبر النفوس وفليها ، وما يعرض فيها من الأربعية عندما تسمع ١٩

ومن العلماء الذين صرحوا برد إعجاز القرآن إلى الذوق أبو يعقوب يوسف السكاكى ؛ يقول بعد أن يتحدث عن سبب الإعجاز ، وبعد أن يذكر وجوهاً أربعة : يخصمها ما يجده أصحاب الذوق من أن وجه الإعجاز هو أمر من جنس البلاغة والفصاحة ، ولا طريق لك إلى هذا الخامس إلا طول خدمة هذين العليين . يعنى المعانى والبيان . بعد فضل إلهى من هبة يهبها بحكمته من يشاء ، وهى النفس المستعدة لذلك ، فكل ميسر لما خلق له ؛ ولا استبعاد فى إنكار هذا الوجه من ليس معه ما يطلع عليه ، فلكم سبحانه الذيل فى إنكاره ، ثم ضمنا الذيل ما إن نكره .

غير أنهم كانوا يرون مع ذلك أن الذوق لا بد أن يعطل ، وأنه ليس يكفى أن تقول إن هذا الكلام فصيح بشهادة الذوق ، وتسكت ، فإن الباب حينئذ يتسع ، ولا يعرف الأصيل من الدخيل ، ولا يكون فرق بين العالم والجاهل ؛ وحسب المعانى لهذه العلوم من الشر أن يكون غاية ما لصاحبه منه حين يسأله

عن آية من كتاب الله ، ووجه الحجة فيها ، أن يحمله على نفسه ؛ وليس هؤلاء الذين يزعمون أنه لا سبيل إلى معرفة العلة في قليل ما تعرف المزية فيه وكثيره بأحسن حالا من أولئك الذين فقدوا الذوق والإحساس الذي يعتمد عليه في إدراك المزية . يقول عبد القاهر (الدلائل ص ٣٣) : جملة ما أردت أن أبينه لك أنه لا بد لكل كلام تستحسنه ، ولفظ تستجده ، من أن يكون لاستحسانك ذلك جهة معلومة ، وعلة معقولة ، وأن يكون لنا إلى المباشرة عن ذلك سبيل ، وعلى صحة ما ادعينا من ذلك دليل .

وعلى هذا الأساس وضع كتابي ، وحلل وعلل ، ونفذ إلى أسرار ، واكتشف خفايا ، ثم تراء لا ينبغي يتحدث عن ضرورة إعادة النظر ، وإعمال القرينة . والحق أن هذا المسلك هو المسلك الصحيح إذا تعاضنا عن تصريحه بإمكان معرفة العلة في كل شيء ، فإدنا نبحت في البلاغة لتصل إلى معرفة سر الإعجاز ، ثم لتصل إلى معرفة السرى من الكلام والوضيح منه ، غير منهج لذلك أن نضع كلام العرب بين أيدينا ، وتدرس هذا الكلام ، ونطيل فيه النظر ، ثم نخلص إلى وضع القاعدة إن أمكن ، وإلا ألقينا السلاح ، وحكمتنا الذوق ، كما فعل هذا العالم الجليل .

غير أن الذين جاءوا بعده حاولوا عند تععيد هذه العلوم أن يلتزموا لكل شيء علة ، فأسرفوا . أوجب عبد القاهر أن يلتزم لكل كلام تستحسنه علة ، ولكنه كثيرا ما كان يقف مكتوف اليدين ، ويكتفي بأن يقول هذا من أروع ما يقال ، وهو معنى نبيل ، وما أحسن قول الأول . . . إلى غير ذلك من هذه التعابير التي لا ضابط فيها ؛ ومع ذلك فقد كان أسلم من كتبوا في البلاغة ، وأقربهم إلى المنهج السليم ، ولو أن كل الباحثين بعد عبد القاهر جعلوا منهجهم هذا لكأنت البلاغة الآن من الدراسات الممتعة ، ولكن الذي حدث أن السكاكي أراد أن يستخرج للبلاغة قواعد من كلام علماء البلاغة لا من كلام العرب ؛ وهذا مفتاح المسألة — كما يقولون — فكان يرسم صورة القاعدة ثم يضيف إليها ما يمكن أن يفترسه العقل ، ومالت به الطريق كثيرا في التعليقات ؛ فإنه استخرجها من منطقته ، ولم يستخرجها من أساليب الكلام ، وجاء العلماء بعده فجعلوا من أكبر مهمهم شرح هذه التعليقات ، والزيادة عليها ، ولم يمكن — كذلك — كلام العرب أكبر

مهم ، وإنما كان النظر المنطقي ، والتقسيم العقلي ، هو المرجح ، وكان من نتيجة ذلك ما أظن أنه السبب في ضعف علوم البلاغة ، بل هذا المنهج هو الذي بتفرض علوم العربية بصفة عامة إلى الدارسين ، أعنى بهذا المنهج الاعتماد على المثال دون الشاهد ، وأشرح ذلك فأقول :

نفرض أن العلماء كلهم حاولوا أن يستخرجوا قواعد البلاغة من كلام العرب ، وأن يبحثوا في قواعد ما على هذا الضوء ، فلا تذكر قاعدة إلا بشاعدها ، ولا يناقش تحليل من التعليقات إلا بين يدي طائفة من الكلام الفصيح ، وأن تستبعد الأمثلة ، فلا يذكر في كتاب من الكتب مثال إلا حين يراد النص على قياس ، أو يقصد بيان خطأ تركيب من التراكيب : أما القواعد فتبنى كلها على الشواهد الصحيحة ؛ أقول لو كان الأمر كذلك لكانت علوم البلاغة - كما كان يجب - أمتع العلوم ، وأحبها إلى النفوس ، وأسلمها تصعيدا ، وألطفها مدخلا . وليس أدل على ذلك من أن هذه العلوم بصورتها الراهنة ضيقة الظل ، خشنة الملمس ، وحررة المسالك ؛ والسرف في ذلك أن لارائحة للأدب فيها ، وأنها محشوة بالأمثلة التي تفسد الذوق ، وتسمج على الطبع ؛ فأنت تقرأ في الفصل الواحد أكثر من خمسين مثالا لا تبعث كثيرا عن ضرب زيد عمرا ، وأكرم خالد بكرا ، فترى نفسك في جفاف أدبي ، فإذا أخذت في الأسلوب رأيت المنطق والفلسفة وما شئت من ركة وتعميد .

وأنا الآن بصدد شيء واحد هو خطر الأمثلة ، على دراسة البلاغة . أقول : إن باب الأمثلة فسيح ، وباب الافتراضات واسع ، وقائدة المتعلم جد قليلة من هذه الدراسة ، وكما كان في الأمثلة متبع فقد أطلوا التعليقات ، وكان في كثير منها تعسف . ولذا كرر على ذلك مثالا واحدا من أمثلة كثيرة :

رأيا الشيخ عبد القاهر يدعو إلى معرفة العلة في كل كلام تستعسه ، وينادي بذلك في كل موضع ، ولكنه يحتاط لنفسه فيرى أن بعض ما تستعسه لا يمكن أن يسعفك فيه غير الذوق ، وعلى ذلك نجده في حذف المبتدأ لم يذكر علة واحدة . ولكنه لجأ إلى الكلام السبالي ، فإنه ساق أيانا من الشعر في هذا الموضع ثم علق عليها قائلا : « فتأمل الآن هذه الآيات ، واستقرها واحدا

واحدا ، وانظر إلى موقعها في نفسك ، وإلى ما تجده من اللطف والظرف ، إذا أنت مررت بموضع الحذف منها ، ثم قلبت النفس عما تجده ، وألطفك الظرفيا تحس به ، ثم تكلف أن ترد ما حذف الشاعر ، وأن تخرجه إلى لفظك ، وتوقعه في سمعك ، فإنك تعلم أن الذي قلت كما قلت ، وأن رب حذف هو قلادة الجيد ، وقاعدة التجويد .

أما السكاكي لجاء يذكر في هذا الموضع تعليقات كثيرة لا يثبت للبحث منها غير القليل ، فما ذكره :

(١) تخيل العدول إلى أقوى الدليلين ، وشرح هذا الكلام بطول . ولكن من الحق أن تعلم أن هذا معنى لا ظل له في نفس السامع ولا في نفس المتكلم ، وأنه يمكن أن يقال في كل مرء يطق به مطلق ، وهو بعد لا يرمان على إمكان قصده إلا إذا عرضنا متكلما يحذف المنطق . وسامعا يحذفه كذلك ، وكلاهما يريد أن يعث . ولقد أعجبنى كل الإعجاب ما ذكره صاحب الطراز بعد أن أشار إلى توجيه الشيخ عبد القاهر لإفادة كل عموم السلب أو سلب العموم ، قال بعد ذلك : « ولقد وقفت على كلام لغيره من علماء البيان في تقرير هذه القاعدة بناء على قانون المطلق ، ونزله على منهاج السالبة المهمة والمعدولة ، فأورث فيه دقة وأكسبه حوشة وغموضا من جهة أن مبنى علم البيان وعلم المعاني على معرفة اللغة وعلم الإعراب ، فلا ينبغي أن يمزج بعلم لم يحظر للعرب ولا لاحد من علماء الأدب على بال . »

(٢) صون لسانك عنه (٣) صونه عن لسانك (٤) اختبار قلبه السامع (٥) اختبار مقدار قلبه . وهذا كله لا يدخل في حساب البليغ ، وإنما يدخل في حساب المقترض ، ومن يريد أن يمتنع الكلام .

وقد يبدو في كلامهم من غير قصد ما يدلنا على أنهم إنما يعطون لفظ الناظر - الآن - فتعليهم في هذا الفصل ما تابع الاستعمال الوارد على تركه ، أو بانواع الاستعمال الوارد على ترك نظائره كقولك مررت بمحمد المسكين ، إنما هو تعطيل لفظك بهذا المثال وشبهه ، ونحن لا نريد هذا ، وإنما نريد أن نعرف لماذا حذف العرب المسند إليه في التعت المقطوع للدح أولئذم أو للترحم ، فأنا بصفي

بلاغيا ، لا يهمنى أن أصحح لك فطقتك ، وإنما يهمنى ، أن أعرف لماذا فطقت العرب هكذا .

على أن شغفهم بالأمثلة ، وانسياقهم في تيارها ، جعلهم في كثير من الأحيان يقدّمون المثال ويشرحون عليه القاعدة ، ثم يقولون ومنه كذا ، ويذكرون آية من القرآن أو بيتا من الشعر : وكان الأجدر بهم أن يطرحوا المثال ، ويعملوا معتمد على الشاهد ؛ وما النفع من ذكر الأمثال غير أنه يهضم من ذوق الطالب ، ويبعد عن الربط بين القاعدة وشاهدها . ولعل الأدهى من ذلك أن المحدثين من المؤلفين حين يضعون التمرينات يعتمدون الى الأمثلة من (إنشائهم) وبطبيعة الحال يصوغونها على حذو الأمثلة التي ذكرها القدامى ، ولو أن هؤلاء المؤلفين حرصوا على أن تكون تمريناتهم - على الأقل - من الشواهد الفصيحة لكان في ذلك منفعة للدارسين ، ولكن أنى لهم ، وبعض القواعد بلا شواهد !

وقد يقول قائل : إن التعليلات غير معتد بها ، فاي نفع منها ضرر . وأقول : إن ذلك يمكن أن يقال في غير البلاغة ، أما في البلاغة فالتعليل هو بيان لسر الحسن في التعبير : فلو أن السركان غير مستساغ ولا مقبول ، لفقد الكلام كل حسنه ، فلا علة حيثئذ إلا الذوق .

ومن تمام القول في هذا الموضوع أر ، تقول : إن علماء البلاغة قد سلكوا في بعض الأحيان مسلك علماء النحو : فهم تارة يستشهدون بشطري بيت ، وتارة بيت لا ثاني له ، مع أنه لا يتم معناه بالثاني ، وكان المدي أمامهم فسيحا ، ولكنهم حصروا العاية في أنفسهم ، وهي أنهم يحروون القواعد ويهملون الشواهد !

وبعد : فهذه دعوة لإصلاح البلاغة - ولو مؤقتا - وتتلخص في نبذ الأمثلة جملة وتفصيلا والاستعاضة منها بالشواهد ؛ وبذلك تبعث الحياة في هذه العلوم من جهة ، ويستغنى عن كثير من كلام القوم من جهة أخرى . وبإيجاز لو سلك علماء النحو ، وعلماء التصريف هذا المسلك ؟

الرقعة والجزالة في علوم البلاغة

لحضرة الأستاذ السيد العفاني

كانت مجلة الأزهري تفضلت فنشرت لي في عدد ذي الحجة من سنة ١٣٩٧ هـ مقالا عن « السيد الفاياتي » مناسبة ما كتبه عنه الأستاذ الجليل عبد الجواد رمضان في عدد شعبان من نفس السنة ، ناقشت فيه الأستاذ الحكم الذي أصدره على شعر السيد ، وعرضت في سياق الحديث الى الرقعة والجزالة في البلاغة العربية ، وقلت : « اللهم إن كانت الجزالة هي المنة في النظم ، مع عذوبته في القم ، وحسن وقعه على السمع ؛ وكانت الرقعة هي اللطافة في التعبير مع بعده عن الإسفاف والضعف ، مع سلاسته وحلوه من التعقيد ؛ فإنه ليس ثمة فرق يذكر بينهما ، سوى ما يدركه السامع الخبير بذوقه ، من حيث وضع الالفاظ في مواضعها ، وأداء كل منها لل معنى الذي حمله ، وارتباطه بما قبله وما بعده . . . ص ٩١٣ ، ٩١٤ من المجلة . وانتهيت من ذلك الى القول بأنه ليس ثمة مانع من أن تجمع الرقعة والجزالة في واحد ، ويثبت على ذلك قضية « إن كل جزل رقيق وبالعكس ، سوى ما تلمحه المناسبات الخاصة من ضرورة استعمال أسلوب الجزالة البحث ، أو أسلوب الرقعة البحث . وطلبت الى الأستاذ ، وهو ابن بحدة ذلك الميدان ، أن يبين لنا الحد الفاصل بين كل منهما . . . »

هذه خلاصة ما فكرت في المقال المذكور ، الى جانب ما عرضت له من دراسة لشعر « السيد » من حيث مكائده الفنية ، وتحليله بمقدار ما أسدق المجال . وكنت أترقب أن يتفضل الأستاذ فيبدي رأيه فيما طلبت اليه ، وأن يسمم في إجملاء موضوع دقيق لم يعرض له الأولون — سوى ابن الأثير فيما أذكر — بما هو أمل له من عاية . ولكن مضت شهور قبل أن يتفضل الأستاذ بإبداء رأيه فيما طلبت ، وبعد أن نشرت مجلة الأزهري في عدد ربيع الثاني من سنة ١٣٩٨ كلمة لعالم

فاضل ذيلها برسالة للنفوس له الأستاذ عبد العزيز البشري تؤيد ما ذهبت إليه مجلة ، وفي شعر السيد القياقي بالذات : ثم ظهر عدد جمادى الآخرة ، وإذا هو يشمل مقالا للأستاذ عبد الجواد تعقبني فيه والمرحوم الأستاذ البشري ، وقد نبهني الى ذلك كله صديق ، إذ كنت عن ذلك كله في شواغل عدة لم تدع لي وقتا للطالعة ؛ فقلت : إذن ظفرت بضالك ، وأندت المشتغلين بالدراسات الادبية شيئا جديدا ، فلا شك أن الأستاذ جلالنا في ذلك قولة العلم الصراح ؛ فلما وقفت على المقال فرحت به أكثر ، ذلك أنه خصني بثلاث صفحات ونيف ، حشاها بما شاء له قلبه المطواع من لوم وتهكم ، وتصيد للمعالطات ، ليسوخ لومه وتهكمه ، وليدافع عن حكمه مجرد دفاع ، كذلك المحامي الذي لا يهجم إلا كسب القضية ، وإني لأعده على كل قول كثير :

لئن ساءني أن تلثني بمساءة لقد سرتني أني خطرت (يبالكا)

وأما القضية التي كان يجب أن يقصد اليها ، فلم تستغرق منه سوى أربعة أسطر ، أصدر فيها حكمه قاطعا جازما ، بأن الجزالة والرقه لا يجتمعان على موضع ، وأن قضية . كل رقيق جزل وبالعكس ، قضية كاذبة ، بعد أن نقل لنا قول ابن الأثير بالحرف .

وإني لأدع كل ما يتصل بشخصي ، فإن ميدان الأدب مسباح كيدان الرياضة ، منتفلا إلى منافسة ما أورده ابن الأثير ، وما فهمه منه الأستاذ . وهذه خلاصته : « ولست أعني بالجزل من الالفاظ أن يكون وحشا متوعرا ، عليه عنجية البداوة ، بل أعني بالجزل أن يكون متينا على عذوبته في الفم ، ولذا ذته في السمع ؛ وكذلك لست أعني بالرقيق أن يكون ركيكا سفيفا ، وإنما هو اللطيف الرقيق الحاشية ، التامم الملس . . . وهذا مضمون ما قلته في مقال السابق ، واستتجت بمساء على هذين التعريفين - عدا احتراز الإسفاف - القضية السككية ، كل جزل رقيق وبالعكس ، إذ أن المثانة لا تنافي الرقة ولا نعومة الملس ، مادام اللفظ مستعملا في موضعه الذي لا يحيد عنه لأداء معنى من المعاني ، كما أن العذوبة ، وخفة الوقع على السمع التي اشترطها في تعريف الجزالة ، هي اللطافة ورقة الحاشية ، التي ذكرها في تعريف الرقة . أما الاحتراز من الإسفاف ، فإنه ليس شرطاني الرقة وحدهما

بل هو شرط في الكلام البليغ مطلقاً . وما كنت أظن أن هذا موضع خلاف ، ولكن الأستاذ الجليل - فحما الله بعلمه - يخالف في ذلك ، ويتمنى بستم الفهم ، وعامية الفكر ، حتى لو فهم مثل طالب عدده لاسقطه في الامتحان ١ .

وأنا إذ أحمده على نعمة البلادة ، أعرض القضية على رجال الفن ، ليحكموا أبياً أصبح استنتاجاً ، وأصدق حكماً ؛ وأزيد على ذلك ما ذكر أن ابن الأثير - وهو في ذلك سباق ، إذ وضع هذين الحدين - زاد على ذلك فيما أذكر ، إذ هو ليس تحت يدي ، فنبه إلى أن للجزالة مواضع تحتمها والركة مواضع تحتمها ، وساق على ذلك مثلاً وصف البار والجنة من آخر سورة الزمر : ومعنى ذلك أن المناسبات هي التي تحتم استعمال ألفاظ معينة في نظم معين يترتب على ارتباطها الحكم عليها بالجزالة أو الركة بحسب الصورة التي يكونها استعمال هذا التركيب في ذهن السامع . وما دام شرط الفصاحة أنها حلوص الكلمة من الغرابة ومن تنافر الحروف ومخالفة القياس ، فإنها تكون جزلة رقيقة معاً ، وبالعكس ؛ إذ أنها إن خرجت عن شرط من هذا بأن كانت متنافرة الحروف أو غريبة أو غير لذيدة على السمع ، فإنها تكون خرجت مطلقاً عن نطاق الفصاحة ، ومن ثم لا تكون جزلة ولا رقيقة بل ولا بليغة . وعلى هذا يكون ابن الأثير لم يرد أن يضع حداً فاصلاً بين الحالتين ، وإنما أراد أن ينبه إلى ضرورة الحاسة الفنية - أي الذوق - عند الكاتب والشاعر والسامع جميعاً ، وهذا ما أشرت إليه في مقال السابق .

وأزيد الأستاذ توضيحاً فأقول : إن بعض الباحثين المحدثين يذهب إلى أن الجزالة والسهولة والعدوبة والركة والدقة والحفة والقوة والسلاسة والرصانة والصاعة والوصوح والصدق والطلاوة والحلاوة والروثق والمائية والطبيعة والسبك والحبك والشرف والسمو والجمال ... والجلال إلى آخر هذه النعوت المتداخلة ، لا تعين حداً ولا تبين مزية ، وأنها إذا حقت وعرفت لا تخرج عن صفات ثلاث جامعة هي : الأصالة والوجازة والتلاؤم .

ومعنى الأصالة أن يكون الأسلوب الإنشائي أو النظم الشعري عتار اللفظ مطابقاً لمعناه صادق الدلالة على ما وضع له ، واضحاً لا غوض فيه ؛ لكن وضوحاً فنيا يترأى خلال النقاب الشفاف والعمق الصافي . ومعنى الوجازة : امتلاء اللفظ ،

وقوة الحبك ، وشدة التماسك . ومعنى التلاؤم أو الموسيقية أن تكون الكلمة مؤلفة الحروف حلوة الجرس . وذلك كله شرط في فصاحة الكلام مطلقاً نظماً وثرأ . ومن ذلك تكون قضية « كل جزل رقيق وبالعكس » صادقة في ذاتها وليست كاذبة .

والغريب أن الأستاذ بعد أن أصدر حكمه القاطع بكذب القضية ، استدرك في نفس السطر ، بأن المدحوبة التي نلّسها ، ولعترف بها في شعر السيد ، لا تنافي الجزالة ، بل هي شرط فيها ؛ ولو سللنا أنها رقة ، فهي من وضع الأشياء في مواضعها ، إلى أن انتهى إلى قوله « أنا لا أخالف أبداً في عدوبة غزل السيد ولذاذته ، ولكن هذه المدحوبة كذلك التي نجدتها في قول البدوي :

شبهت مشيتها بمشية ظافر يختال بين أسنة وسيف
صلف ، تناهت نفسه في نفسه لما اثنتي سنانه المعروف
وقول عنتره :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل متى ويبض الهدد تخطر من دمي
فوددت تقيل السيوف لأنها برقت كبارق ثفرك المتبسم

بما تحس فرقا - وهو فرق السمو والجلال - بينه وبين قول الآخر :

خطرات النسيم تجرح خديه ولمس الحرير يدمى بنانه ،

يا سبحان الله ! يحكم الأستاذ بكذب القضية في أول السطر ويقضه في آخره ، ويحاول أن يطلع علينا بنوع جديد من الرقة ، لسننا ندرى ما هو ، إلا أن يكون مما اجتمعت فيه الرقة والجزالة معا ، وهو ما أنكره في السطر الذي قبله ، إذ يقرر أنهما لا يجتمعان على موضع ! . وإن لم يكن فن أي نوع يكون هذا وفي أي معمل أعيد ؟ أما لا أقدم شواهد جديدة ، لحسي قول ذلك البدوي شاهداً على صدق قضيتي ، فإن الصورة التي أبدعها خياله لمحبوته ، صورة رائعة حقاً ، متزعة من عقلية فارس معجب بمنظر البطولة ، لجعل محبوبته جليلة مهيبة كذلك الفارس المتصمر ، لا تلك الصورة الشائبة المريضة التي يتغزل بها علماء البلاغة ويتابعهم الأستاذ في جملها ، والتي تتمثل في قول القائل « خطرات النسيم الخ » ، فإن الصورة التي أراد أن يكون عليها محبوبه من الترف جسده أولى أن يعالج في مستثنى

من ذلك المرض ، الذى يتهرى منه الجسم المريض ، الذى يدهو للشفقة والرتاء ، لا للحب والفرل .

إنى أعيد الأستاذ أن يكون متمسكا بتلك الشواهد الوهمية ؛ فإنها تكاد تبلغ حد الإسفاف ، ويجب أن تتخذ أمثلة من شواهد حية نابضة قوية اللفظ والمعنى كشمس ذلك البدوى وشعر هترة .

أما ما أخذه الأستاذ على من أننى لم أعلم أن القدامى من النقاد قالوا إن الفرزدق ينعت من صخر ، وجريرا يعرف من بحر ، وفسره بأن الفرزدق يمضى بالجزالة والقنامة والروحة ، وجريرا يمضى بالسهولة والركة ، فإنى أقول للأستاذ : إنى أعلم ذلك والحمد لله ، ولكنى أعلم أيضا أن ذلك كناية عن أن الفرزدق ليس صاحب طبع فى الشعر ، وإنما هو صعب متكلف ؛ ومن ثم جاء كثير من شعره غريبا خشنا وإن لم يقصد إلى ذلك ، وأن جريرا صاحب طبع يعرف من بحر فنه وخياله ، ومن ثم تأتته المعاني سهلة مطواعة ، والألفاظ عذبة مستساغة فى غالب شعره وإن لم يقصد إلى ذلك . هذا ما أعرفه وأفهمه من قوله أولئك النقاد القدامى ، وفوق كل ذى علم عليم .

وفى هذه المناسبة يحكى أن مغرباً قصد إلى البهاء زهير ليتعلم منه الركة ، فقال له البهاء : ليس ذلك بالتعلم ، وإنما هو يادمان المطالعة وإعمال الفكر فى تراكيب كلام البلغاء ، ولكن سألقى عليك صدر بيت واجتهد فى تكميله وهو : يا بان وادى الأجرع . فجاءه المغربى من الغد وقال : أتمت وهو :

يا بان وادى الأجرع سقيت غيث الأدمع

إذ اتجه تفكيره إلى أن البان شجر وهو يحتاج للسقى ، وحيث المقام مقام ذكر الغرام المستلزم لكثرة الدموع ناسب أن يقول ما قال ، فقال له البهاء . هلا قلت .

يا بان وادى الأجرع هل ملكت من طرب معى

فصفق المغربى وقال : ذلك لا يتأتى لمثل .

ومن هذا كله يتبين ما قرأناه من ضرورة الذوق الفنى للشاعر والكاتب ، والحاسة الموهوبة ، والبصر بقواعد البلاغة ، لمراعاة مقتضى المقام .

والآن أكتفى بهذا القدر الذى سمحت به الظروف العاجلة ، حتى لا أثقل على القراء ، واثقه ولى التوفيق .

كف الأذى

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد عبد التواب
مفتش الوعظ العام بالأزهر

قال الله تعالى في محكم كتابه : « والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير
ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً » .

وروى عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر
ما نهى الله عنه » .

تحذير حكيم من الله عز شأنه ، وتوجيه سام من رسوله صلى الله عليه وسلم ؛
فإن الله جلّت قدرته ، وهو من بيده ، وفي سلطانه ، وتحت قهره ، ملكوت
السموات والأرض ، يدعو الناس جميعاً إلى نذ الشر ، وإطراح الأذى ، وإغلاق
باب الفتنة : فيحبر في منطق سليم ، وصراحة قوية ، أن الأذى في نواحيه كلها
غرم لا خير فيه ، وعيب بفيض يثقل كواهل الأشرار ، فلا يحمل عنهم
أوزارهم نصير ولا ظهير .

وناهيك بمن يحمل إثم الباطل ، فيتخبط به في غير هدى ولا رشاد ،
وبمن يشعل جذوة الشر ، وينفخ فيها حتى تلتهم الأخضر واليابس ، ويشيع
في الناس عوامل الفساد والإفساد - كيف يسوقه أذاه وعنته وبهتانه إلى موارد
الهلكة في الدنيا ، وإلى دركات الهوان يوم يقوم الناس لرب العالمين .

لم يخلق الله هذا العالم ، ولم يسخر له كل ما في السموات وما في الأرض ،
ولم يسبح نعمه ظاهرة وباطنة ، ليقوم الناس بالبغي والعدوان ، ويعتصروا في الكيد
والبهتان ، وليقطعوا حلات التوثق وروابط الائتلاف ، ولينحلوا من مسكة العقل
وسلطان الضمير ؛ ولكن ليتعاونوا في هذه الدنيا على نشر مبادئ الخير ، وتحصيد

أشواك المداوة والبغضاء، وليقدموا على مائدة الحياة أشهى ألوان البر والمرحة،
والحب، والإيثار، فتكون سعادة الدنيا في تذوق حلاوة الفضل والبهل
والعدل والإحسان.

إن بسطت يده معروفها صاغتها أيادي العرفاء، وإن نطق لسان بمحمد
جاوبته ألسن الشكران؛ وكذلك إن امتدت يده بسوء غلتها البيئة أو قطعها؛
وإن تسلط لسان بشر همدته الأمة أو عطلته.

هالك لا يجمع بالآثم شره، ولا يمنح لذمة يكسب خبثها، ويتفياً شررها.
وهناك يُصعد البرة الاختيار أبصارهم وبصائرهم، فيشارفون مطالع البر في
آفاقها، ويساجلون بالأعمال الطيبة أيامهم وأرطانهم وعشائرهم، فلا تجد إلا بذلاً
يدفع ألم الجوع، ويمسح ذرف الدموع، ولا تجد إلا دلالة على الهدى تبصر الناس
بما يسمعون به وينشطون له، ولا تجد إلا وشائج ترابط، ونفوساً تتحاب،
وأما يؤيد بعضها بعضاً، تأييد الولاء والصرة، ويحمد بعضها لبعض عون البر
ودفع الشر، وحفاظ الألفة، وجمال المكرمات؛ وذلك مظهر التضامن والتضامن
والتعارف، لذى أراد الله من هذا العالم، وفي هذه الحياة: «يأبها الناس
إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله
أتقاكم، إن الله عليم خبير».

فطوبى لمن كف أذاه، وبذل خيره، وأعان الناس على حاجاتهم، وفتح
أبواب البشر والبر والمسة يدخل على البائسين منها ما يشبع مسغبتهم، ويُطفيء
حرقتهم، ويسد حاجتهم.

روى الطبراني في الأوسط عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «سئل
رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الأعمال أفضل؟ قال: إدخالك السرور على
مؤمن، أشبهت جوعته، أو كسوت عورته، أو قضيت له حاجة».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
«من أصبح منكم اليوم صائماً؟ فقال أبو بكر رضي الله عنه: أنا، فقال: من منكم
أطعم اليوم مسكيناً؟ فقال أبو بكر: أنا، فقال: من تبع منكم اليوم جنازة؟ فقال
أبو بكر: أنا، فقال: من عاد منكم اليوم مريضاً؟ فقال أبو بكر: أنا، فقال رسول الله
عليه وسلم: ما اجتمعت هذه الخصال قط في رجل إلا دخل الجنة».

وفي قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، ما يوضح أن المسلم وإن أدى جميع الفرائض ، والواجبات ، والنوافل في نفسه ، لا يكون كامل الإيمان إلا إذا شاع أثر ذلك الإسلام فيمن حوله ، فلم الناس من أدى لسانه ، في الغيبة ، والذيمة ، وشهادة الزور ، وإفراء الكذب والإجحاع .

وإلا إذا شاع أثر ذلك الإسلام فيمن حوله ، فلم الناس من أدى يده في الأخذ والإعطاء ، والبيع والشراء ، والغضب ، والسرقة ، والقتل والضرب ، وكل ما يتعلق بذلك من أثر الظلم ، والطغيان ، والعدوان . فإذا كف المسلم أذاه ، وإذا سلم منه الناس ، وإذا هجر الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وجانب المنكرات ، ونأى عنها ، وحافظ على دعاء الناس ، وأعراضهم ، وأموالهم ، فقد استكمل الإيمان ورضى عنه الرحمن ، وسعد بعاجلته ، ونعم في آخرته .

« للذين أحسوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم فتنن ولا ذلة ، أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون » .

الحشيرة

قال الأحف بن قيس سيد بني حيفة ، وهو الذي قيل فيه : إذا غضب غضب له مائة ألف سيف ، لا يسألونه مم غضبت . قال - من فسدت بطائته كان كمن غص بالماء فلا مساع له ، ومن خانته ثقاته فقد أتى في مأته .
قال شاعر :

كنت من كربتي أفر إليهم فهم كربتي فأين القرار
قال ابن عبد ربه : وأول من سبق إلى هذا المعنى عدى بن زيد في قوله للنعمان
ابن المنذر ملك الحيرة :

لو بغير الماء خلق شرق كنت كالغصان بالماء اعتصاري
وقال آخر في هذا المعنى :
إلى الماء يسى من ينص بريقه قفل أين يسى من ينص بماء

من ذكرياتي في الازهر

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ منصور رجب
المدرس بكلية أصول الدين

وساد مسجد المؤيد الصمت ، وارتفعت الجباه ، وشخصت الابصار إلى شيخ جليل وقور يتبوع في مشيته ، غير أنه يمسك طرفي جبهته حذاء صدره بكلتا يديه . يقف تطوقه طائفة من الشيوخ وقد فرعهم كأنه بينهم على دابة ، فينادي من مكتوب يطرق فيه رأسه ثم يرفع وجهه شبراً إلى حلقة من حلقات الطلاب المنتثرة في المسجد قائلاً : تفضل — يذكر اسم الشيخ — هؤلاء أباؤك . فيدخل الشيخ الحلقة ، ويجلس على مقعد خشبي ظهره إلى عمود من عمدا المسجد ، والطلاب أمامه في شكل دائرة . قلت لصاحبي : ما قصة هذا الشيخ ؟ فقال : إنه فضيلة الشيخ محمد شاکر شيخ القسم الأول النظامي للآزهر ، يوزع الاساتذة على الفصول . يقترب منا فيتبين الفتى الجمع ، فيهره مظهر شيخ وضيء متجمل في لبسه ومشيته ، فيتمى الفتى في نفسه . أن يكون هذا الشيخ نصيب فصله ، غير أن أميته لم تتحقق ، فيدخل الحلقة شيخ آخر على العكس من ذلك الشيخ الوضيء المتجمل . يجلس الشيخ فيقبل الطلاب عليه يلتمسون يديه ، فيباركهم بالدعوات الطيبات ، وتمضي فترة فيها تعارف ونصيحة ، ثم يسمع الفتى من الشيخ أول درس له في تاريخ حياته العلمية بالآزهر .

ترى ماذا يكون موضوع هذا الدرس ؟ إنه قصة ابراهيم مع أبيه آزر ومناظرته له في إثبات التوحيد وإبطال القول بالشركاء والانداد . ثم يأخذ الحديث إلى قول ابراهيم لآبيه . « إني أراك وقواً مَكَّ في ضلال مبين » ، فيتساءل الشيخ : كيف يشافه الولد أباه بهذا الجفاء ؟ ومشافهة الولد أباه بالجفاء لا تجوز ؟ . ثم يأخذ في الجواب عن اعتراض قد يقال ، فيقول : إن القول عام يشمل الاب الكافر والمسلم في قوله تعالى : « وقصى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً » . وقوله : « فلا تقل لها أف ولا تهرما » ، ثم يأخذ في تهوية الاعتراض

الظاهر فيقول : أولا نرى أنه تعالى لما بعث موسى عليه السلام إلى فرعون أمره بالرفق واللين معه فقال : « فقولا له قولاً لنا لعله يتذكر أو يخشى » وأن الدعوة مع الرفق أكثر تأثيراً في القلوب من التعليظ . فإنه يوجب التفسير والبعد عن القبول ٤ . ولهذا يقول الله تعالى لمحمد صلوات الله عليه : « وجادلهم بالتي هي أحسن » ثم يعود الشيخ فيقول ، رابئاً بكلتا يديه على كرسيه ، متحفزاً لحركة يغير فيها وضع رجله ، كاشحاً بيسراه كم جبهته وقفطانه عن يمينه : فكيف يليق إبراهيم مثل هذه الخشونة مع أبيه في الدعوة ١٤ وكيف يتمشى هذا وقد وصف الله إبراهيم بالحلم في قوله . « إن إبراهيم لحليم أواه » ٤ وكيف يليق بالرجل الحليم مثل هذا الجفاء مع الأب ١١١٩ وينتهي المطاف بأن يأخذ الشيخ في الجواب فيقول : إن آزر ما كان والد إبراهيم بل كان عماله . ويؤيد هذا أن العرب قد تسمى العم أبا : ألم تسمعوا قول محمد صلوات الله عليه : « ردوا على أبي » يعني العم العباس ٤ ثم يقف الشيخ ليجلس على كرسيه قائلاً . ويمكن أن يقال : إن آزر كان والد أم إبراهيم . وهذا قد يقال له الأب : ألم ترموا قول الله تعالى : « ومن ذريته داود وسليمان وإيوب ويوسف وموسى وهرون » وكذلك نجمزى الحسين . وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين . فجعل عيسى من ذرية إبراهيم مع أن إبراهيم كان جدًا لعيسى من قبل أمه .

وينتهي الدرس بأن يندق باب المسجد من الداخل بمطرقة دقتين .

وتنمضي أيام ويجلس الطلاب يذاكرون ما قرره الشيخ لدرس الغد ، ويتلاقون في جلساتهم وغدوهم ورواحهم يتذاكرون ما قيل ، ويستعيدون ما سمعوا من الشيوخ . ويأتي طالب من طلاب ذلك الشيخ الوسيم الوضيء المتجمل ، فيسأل الفتي في أروجه إعراب السئلة ، فيستعرب الفتى هذا السؤال ويعتذر بأنه لم يسمع بعد هذه المسألة ، فيضحك الطالب ويستغرق في الضحك ، ويتلو قول النور الاجهوري :

إن ينصب الرحمن أو يرتعنا فالجر في الرحيم قطعاً منعاً
وانفُجّر فأجز في الثاني ثلاثة الأوجه خسد ياني
فهذه تضمنت تسماً مع وجهان منها فادر هذا واستمع

ويقول متهماً كيف لم تسمع بعد هذه المسألة وهي في أول شرح الكفراوي

على الأجرومية المقرر تدرسيها ١٤ فيحزن الفتى ، ويذهب في اليوم الثاني إلى شيخه غضبان أسفا ، فيحكي له القصة ويطلب منه أن يعرف هذه المسألة ، فيحتد الشيخ كعادته عند السؤال في أغلب الأحيان ، ويقول قولوا لمن يسألكم : إن شيخنا جاهل بهذه التسعة الأوجه ويقرأ الفاتحة كما درج الناس ؛ أما هذه الأوجه وأن الأول منها يتمين قراءة ويجوز عريية والستة بعده تجوز عريية لافراءة والوجهان الآخران ممتعان عريية وقراءة ، فهذا كلام إن فهمته ، فلا يجوز أن أشوش أذهانكم به ، ثم يأخذ كعادته ينتقد هذه الطرق التعليمية ، وينتقد هذه الكتب ، مرددا كلمة أستاذه الإمام الشيخ محمد عبده : إن عيب الأزمهر في كتبه ، وينتهي الدرس لا بأن يثق الباب بمطرقته دقتين ، بل بأن يطوى العلم المرفوع على عمود من عمد المسجد ، فقد استبدل هذا العلم بندق الباب . ولعل وزارة الأوقاف هي التي رأت ذلك حرصا على الآثار وحفظها من هذا العبث ، ورأى ذلك معها القائمون بالامر ، فقاديا من فكرة الناقوس ؛ فقد رأوها أخذت تسعى إلى الأزمهر ، وينتهي الدرس والشيخ مترسل في نقده وعن في تجهيله ، فتأق الطلاب على صوته المرتفع ، ويتحلقون حلقات عدة حول حلقة الدرس ، ولا تزال هذه عادتهم يتوجهون من دروسهم بعد انتهائها إلى هذا الشيخ الجريء حتى ينتهي الامر بنقل الشيخ بفعله إلى قبة المسجد على يسار الداخل من بابه الكبير .

وتعرض للشيخ شبهة في إعراب آية من آي الكتاب العزيز ، فيرسلها مع الفتى إلى شيخ بجواره يسأله عن إعراب هذه الآية ، ويساور الطلاب الشك في قدرة الشيخ ، فيستطرد يؤدبا بأدب المعلم ، ويستكتبنا تلك الحكمة ، لا يتعلم العلم مستمع ولا مستكبر ، ويتطلق في الكلام يقول : ينبغي ألا يستكف الإنسان من التعلم من هو دونه في سن أو نسب أو شهرة أو دين ، وينبغي ألا يمنعه مانع من الاستفادة ما لا يعرفه ؛ فقد كان كثيرون من السلف يستفيدون من تلامذتهم ما ليس عندهم ؛ وبفيض في قول عائشة : نعم النساء نساء الأنصار لم يتمتعن الحياة أن يتفقهن في الدين ، وكان كثيرا عليه رحمة الله ما يردد علينا هذه الكلمة : سأل حكيم تلميذا له - وكان قد أعاد عليه المسألة - أهمت ؟ فيقول التلميذ : نعم . فيقول الحكميم : لا أرى آثار الفهم عليك ، فيقال له : وكيف ذلك ؟ فيقول : لا أراك مسرورا والدليل على الفهم السرور .

أداء الواجب

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد كامل الفقى
المدرس بمعهد القاهرة

أداء الواجب أمر يفرضه الدين ، وتوحى به الفضيلة ، ويمحض عليه الذوق الرفيع ، والإحساس النبيل ، والخلق الكريم . ومهما تصف الرجل بالعظائم ، وتنعت بالكالات ، فأبلغ أوصافه أن تقول : إنه يعرف الواجب . ومن تخلى عن الواجب واتصف بكل فضيلة فهو من الرجولة خال ، ومن الشرف سخواء : ولئن تقل في المرء : إنه رجل الواجب ، فذلك أرفع ألقابه ، وأجمل ما سما به . وذلك أن للمرء حقاً ، وعليه واجبا ، وعلى هذا الأساس تدور الشرائع والأخلاق والقوانين . وحضك على غيرك واجب عليه لك .

على المرء واجب نحو ربه . أن يعبد كآه يراه ، وأن يطيع فيما أمر ، ويتكبر عما نهى .

وعلى المرء واجب نحو نفسه : أن يسمو بها إلى الكمال ، ويخلق بها في سماء المكارم .

وهل المرء واجب نحو غيره : أن يؤدي للناس كل ما تتطلب إليه نفسه ، وأن يعاملهم بما يجب أن يعامل به . وفي ذلك يقول الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم : لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه .

وإنما احتفل الشرع بتأدية الواجب ، لتكون الأسرة الإسلامية وطيدة البناء ، شديدة التماسك ؛ فلا تصفو العلاقات إلا بأداء الواجب ، ولا تسود المحبة إلا برعايته ؛ ومن ثم يصح أن يسمى المؤمنون إخوة كما وصفهم الله بقوله : إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم .

وأن يحمل الرسول صلى الله عليه وسلم المؤمنين كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى .

وأن يراهم - في حديث آخر - كاليد الواحدة متكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم .

ومن حرم الشرع على أداء الواجب حرّم العيبة كيلا يتصدع بناء المسلمين ، وجعل من اعتاب أخاه كن أكل لحمه ميتا ، وقال لأصحابه فيما أحذم به من التربة العالية والتوجيه الكريم : لا يبلغني أحد منكم عن أحد من أصحابي شيئا فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر .

كما حرم النسيمة لتظل أخوة المسلمين كاملة ، وقلوبهم متعانة ، وأفئدتهم متلاقية . فشرع الله في ذلك شرعه الحكيم ، حيث قال : يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم مادمين . ومن احتفال الشرع بأداء الواجب نهى أيضا عن التقاطع والتدابير ، والتخاذل والتحاسد . وبين النبي صلى الله عليه وسلم ذلك في قوله : لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تبدابروا ، وكونوا عباد الله إخوانا .

وسوء الظن لما كان في كثير منه تفريق للعلائق ، وتمزيق للصلات ، فحذر الله منه فقال : إن بعض الظن إثم . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إياكم وسوء الظن . ومن بدّرت له من أخيه بادرة سوء ، أو اعتدى عليه مبتد بسب أو شتم أو مجافاة ، كان عليه أن يعتذر من إثمه ، وأن يقطع عن جرمه ، وعلى المُساء إليه أن يقابل ذنب أخيه بالصفح ، وأن يسدل على تأثم ستارا من المعو . فن عفا وأصلح فأجره على الله . . وأن تعفوا أقرب للتقوى .

ومن أبغض الأمور إلى الله ، أن يذم المؤمنون المتخاصم . وأن يطيلوا فيما بينهم التقاطع ، ولا يحمل لامرئ مسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال .

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم على مثال من الاخلاق رسمه الله له ، ورباه به باري الفضائل والمسكارم ، حتى امتدحه الله وأثنى عليه فقال : وإليك لعل خلق عظيم . . وكان من دعائهم حلقه ، أن يجري على ما هو للبيعة سبب . وللصفود داع ، وللتضامن محقق ! فكان يعود المريض ، ويحامل المسلمين ياتباع جنازتهم ، والصلاة على موتاهم ، ويصل الأرحام ، ويقرب البعيد ، ويقبل الهدية ولو من الرقيق لما فيها من التواضع والتواجد ، ويقول : تهادوا تحابوا . .

وكما تحضرت الأمم وارتقت درجات الكمال فيها، رعت الحقوق، وقدرت الواجبات، وجعلت المجاملات السياسية شيئاً مفرراً، تفرضه السياسة، ويرعاه العرف، وكان حتماً على كل دولة أن ترضى واجبها مع صاحبها. فبالألبان بالواجب بين أخوين مسلمين، وعضوين كريمين من أعضاء الجماعة الإسلامية التي أظلمها الله بهداه وزكاهما محمد صلى الله عليه وسلم بشرعه. ؟

إن من يفرط في الواجب، ويفضى عن المجاملة، فهو خطر من الإحساس الكريم، متجرد من التبل، مظهر نفسه في صورة الساقط الذي لا تكليف عليه. على الرجل الكامل الرجولة، أن يبنى أخاه فيما ينال من رفعة، أو يصل إليه من مجد؛ وعلى الرجل الكامل الرجولة، أن يقاسم أخاه المكروه إن نزل به، وأن يجاهد معه في احتمال خطوبه، فلا يزال يعزبه ويواسيه، حتى يخف الخطب عن نفسه، ويشعر مع مجاملته ببرد وسلام.

أما الذين لا يحفون للواجب، ولا يطربون للمجاملة في شق ألوانها، فهم عارون من النبالة والفضيلة، جذيرون بأن يطرحوا من المجتمع ظهرياً، وألا يكون لهم عند الناس وزن، ولا عند الله مقام.

من جاملك فجامله، ومن هناك فبهته، ومن واساك فواسه، ومن أعانك فأهه، ومن سع اليك فاسع إليه، ومن تقدم إليك رويداً، فامض إليه مسرعاً، وإذا حيتت بتحية غنى بأحسن منها أو مثلها أو ردها، فإن ذلك من خلق المأثم، وشيمة الحر، وطبع الكريم.

إن أكثر الناس أداء للواجب أكثرهم حظاً من احترام الناس، وأوفاهم قسطاً من صفاء الأخوة، وأوفرهم نصيباً من حب الله، وفي الحديث المرفوع: «أحب الناس إلى الله أكثرهم تحبياً إلى الناس، ويقول الشاعر:

وجه عليه من الحياء سكية وحبة تجرى مع الأنفاس
وإذا أحب الله يوماً عبده ألقى عليه حبة للناس

وقد قال داود عليه السلام لابنه داود: يا بني لا تستقل عدواً واحداً، ولا تستكثر ألف صديق، وفي الآثار: «المرء كثير بأخيه، وأنشد ابن الأعرابي:

لعمرك ما مألُ القتي بذخيرة ولكن إخوان الصفاء الذخائر؟

تفسير القرآن

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ إبراهيم على أبو الخشب
المدرس بكلية الشريعة

لا يفتأ القرآن الكريم — في غير ما موضع — يصف نفسه بأنه بلسان
عربي مبين ، وأنه آيات بينات ، يسرها الله سبحانه وتعالى للذكر ، وتضمنها
الموعظة الحسنة ، والهداية الواضحة ، حتى لا يضل معها سار ، ولا يتخبط
مسترشد ، ولا يتمتر مدج .

وإذا كانت فصاحة الأساليب ، وم سموها الى المستوى الرفيع ، والافق
البعيد ، رهناً بكونها تجري على نمط خاص من التأليف ، ولون ما من ألوان
التراكيب ، فإنه مع خلوه من التعمُّل ، وبعده عن الصنعة ، وعدم اشتباهه
على شيء مما يلتزمه أرباب البيان ، ورجالات اللسن ، تفتزع دون شأوه
الأنوف ، وتفتل قبل أن تصل إليه الشيوف ، ويبقى هو الذي تنطلع له
الانظار ولا تدركه كما يجب أن يكون ، وتوائب حوله الافكار ثم يعتريها
من الإعياء السكون .

وربما كانت هذه أغرب نواحي إعجازه : لأن المتأمل فيه يرى أنه لا يتجاوز
طوق العامة ، ولا يستعصى عن متناول الأوساط من الناس ؛ فهو أشبه بما يقول
البلاغيون عنه : إنه يدخل الآذان بلا استئذان . وكلام هذا شأنه لا يستغلق
على الأفهام ، أو يستعجم على الأئدة ، أو يتأني على الطالبين ، وإلا لكان
تكليف الله إيانا بما احتواه من تكاليف ، فوق ما في وسعنا أن نلتزمه ، وهو
تعالى أكرم من أن يرهقنا من أمرنا عسرا .

ونحن حينما زاه يوصينا بتلاوته ، يرشدنا إلى ترتيبه وقراءته على مكث .
والمتريل : حسن الأداء بحيث يستوفى النطق حقه من المد والقصر ، والإدغام

والفن ، والإظهار والإخفاء ؛ وذلك بعض معاني التجويد الذى يأثم القارىء بتركه ، ولا يتأتى للإنسان أن تفتح له آفاق الكتاب بدونه . وهى فى الواقع موسيقى تعين على الفهم ، وتساعد على تذوق المرمى الذى يهدف إليه اللفظ ؛ ولذلك يجد الواغل فيه برفق أنه كلما سار تكشفته له أسرار ، وتبدت أنواره ، وظهرت دقائقه ، واجملت حقائقه .

ولم يزد النبي صلى الله عليه وسلم على أن كان خلقه القرآن ، يتعبد بالتلاوة ، وبواله بالتنظيم ، مع جبريل عليه السلام فى رمضان ، أو وحده فيما عدا ذلك . وهكذا كان أصحابه رضوان الله عليهم ، وما كان يحظر على أحد رأياً ، أو يمنع اجتهداً ، أو يقف فى وجه مشرب إلى معرفة . وتفسيره الذى تناقله المسلمون لم يعد آيات يحمل مفرداتها ، ويبين ما يصح أن يمتدح بعض ألقاها من ترخيم أو قلب ؛ وفى هذا دليل على أن المسألة ليست من المشاكل . وقد دعا لابن عباس أن يفقه الله فى الدين ، ويعلمه التأويل ، وبلغ من شأنه بعد ذلك أن سماه المعاصرون له : ترجمان القرآن ، فإذا كان عنده من ثقافة جعلته بهذه المثابة إلا أنه يتلقى الوافدين على البيت الحرام ، ويستمع إلى الغريب من ألقاظهم ، والندر من تراكيهم ، ليكون ذلك معينه الفياض إذا ما جتد له التأويل .

ولم يعرف المسلمون أن القرآن تسدل بينهم وبينه الحجب ، ونحوهم بينهم وبينه الأسداف ، إلا حين توزعت كلتهم ، وتفرقت أهواؤهم ، وتنازعوا أمرهم ، وصاروا يخذمون به المآرب ، ويناصرون على حساب الشهوات ، وكل يجد ضالته المشوذة ، ورغبته المأمولة ، وسلوكوا به فى سبيل ذلك طريقاً عوجاً ، بعنوان النجاس والكناية ، أو الإجمال والتفصيل ، والعموم والخصوص ، واتخذوا من هذا وهذا ميداناً للنشازة الممقوتة ، والتعصب المزدول ، وبلغ الحال ببعض من أهل الحرف والصناعات أن يجعلوا من كتاب الله الكريم ميداناً لعلومهم التى يدرسونها ، وفنونهم التى تخصصوا فيها ، وصار لكل جماعة تفسير ، تطلب عليه نزعتها ، وتظهر فيه ميزتها ، وانتهت القبة بفريق سماها أنفسهم المتصوفين إلى أن يقولوا : إن لكلام الله ظاهراً وباطناً . وكان مثل هذا الكلام سبباً من أسباب ترتيب بعض الناس أحكاماً وتكاليف على ما يسمى ظاهراً وباطناً ، وجعلهم الأمة

فما يختص بالتزام الأوامر طبقات وشيعاً وأحزاباً ، وهو أشبه بما كما نسمعه في المسيحية القديمة وغيرها من الأديان التي تطرقت إليها أيدي اللاعبيين من القساوسة الذين جعلوا العقائد تجارة واحتكاراً ، ليس من حق غيرهم أن يعرفها ، أو يقف على أسرارها ، ليكون لهم وحدهم حق التحريم والتحليل ، والنهي والأمر ، والترغيب والترهيب .

وما كنت أظن أن يبقى لتلك الخرافة ذبول عند بعض المتسمين بسماهات أهل العلم من المسلمين ، إذ يزعمون أن في كتاب الله ما لا تصل إلى فهمه القرائح ، أو تستطيع أن تدركه الأفئدة ، أو تهتدى إلى معرفته الفطن ، مستلدين بقوله : « منه آيات محكمات هن أم الكتاب ، وأخر متشابهات ، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ، ابتغاء الفتنة ، وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله » . و يرون أن الوقوف إلى هذا الحد من أوجب الواجبات ، وإلى هنا تكون سدة المنتهى ، وأن الكلام يسأنف من « والراحمون في العلم يقولون آمنا به » .

ولقد كنت أحسب أن هذه المسألة لا يعرض لها المفسرون إلا من قبيل الرياضة الذهنية فقط ، كما يفترض النحاة للكلمة وجوها من الإعراب ، وكما يقلب علماء المعاجم اللفظة على مصادر من الاشتقاق متنوعة . ولكي دهشت إذ رأيت « الراغب الأصفهاني » في مقدمته يقول : فصل : هل في القرآن ما لا تعلم الأمة تأويله ؟ وعليت حيثئذ أن الله يتلى الأمم بعلانها كما يتلىها بجهلائها ، وأن الفتنة نجى من طريق العلم أكثر من مجيئها من طريق الجهل ، وهكذا يجنى الفلج في الدين ، سواء من ناحية الإفراط أو التفريط ، والزيادة أو النقصان ؛ مع أن النبي صلى الله عليه وسلم يوم قال لأمته : « تركت فيكم أمرين لن تضلوا معهما : كتاب الله وسنة رسوله » لم يكن يقصد إلى مهم ، أو يرى إلى مستغلق ، أو يشير إلى مشتبهِ المعالم ، متحير المسالك . . وإلا لكان ذلك هو الضلال المبين الذي نعا به « لن » « الزمخشري » ، ودينه الخفيفة اليصاء ، والمحجة الواضحة ، ولا يكون الدين هكذا وهو يدعو إلى التخبط ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

تاريخ من أمهله التاريخ

الجزار

الشاعر المصري

(١٦٠١ - ١٦٧٩ هـ)

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ يوسف البيومي

المدرس بكلية اللغة العربية

«ومكنا عدت عواذى الزمن على آثار هذا الشاعر المطبوع في عصر الصنعة، فلم يعد بأيدينا من شعره إلا هذه المقتطفات المشورة في تسليما كتب التاريخ والتراجم، وهي قليل لا ياسب مكانة الشاعر ولا يرضى فضول الباحث، وهأنذا أرى أثرية المجهود وأزج غبار الزمن العاشم عن سيرة (الجزار) ومكانته في عصره، فلعل بهذا أَرْضَى الشاعر في قبره، وإن لم أنسِه قسوة دهره وأمله، في حياته، وبعد مماته..»

من هو الجزار؟

هو يحيى بن عبد العظيم بن محمد بن يحيى بن محمد بن علي، جمال الدين أبو الحسين الشاعر المصاحب، المصري الدار والمولد والمنشأ والوفاة، المعروف بالجزار.

مولده ونشأته الأولى وثقافته :

ذكر ابن كثير في تاريخه أنه ولد في حدود مئة سنة بعد الهجرة، بعدها بسنة أو سنتين. وذكر ابن تقي بردي في النجوم الزاهرة والمتل الصافي أن مولده سنة ١٦٠١ هـ وكذلك ذكر السيوطي بحسن المحاضرة وابن إياس في تاريخه، وعلاء الدين البهائي في مطالع البدر.

وهنا تعجم التراجم فلا تفصح عن نشأته الأولى وثقافته ، وكل ما ذكر في هذا السيل ما رواه ابن تغري بردي من أنه روى عن أحمد بن الحباب ، وأن الدمياطي روى عنه ، وأنه كان عنده فضيلة ومشاركة جيدة ، وأن له تصانيف ذكر منها : فوائد الموائد ، الذي عمل عليه بعضهم ، علائم الولائم .

والذي يظهر لي أن ثقافة الجزائر كانت عادية ، وأن شاعريته الفطرية ، وروحه المرححة الفكهة ، وسيلان طبعه الشاعر - كل هذا حجب إليه الشعر فانصرف إليه ومجس ما عداه : بل إن ذلك كان السبب في انصرافه عن حرفته الأولى وحرفة آباته وهي الجرارة .

يدلك على ذلك أن ابن تغري بردي يذكر أنه كان يتزيا بزي الكتاب ويكثر من مصاحبتهم ؛ ومعنى هذا أنه لم يصل إلى درجة الكتاب وثقافتهم ، وإلا كان قد حظي بمعونة من اتصل بهم من رجال الديوان وكبار الكتاب بإحدى وظائف الدرج على الأقل . أما ما ذكره ابن تغري بردي من أن له مشاركة جيدة فإنما يعني به أنه كان ذا ذوق وفهم ، واطلاع على بعض العلوم والفنون . ثقافته إذن ثقافة عادية غير واسعة ولا تامة ؛ أما شاعريته فقصوية وفطرية ، وهي موضع دراستنا فيما يأتي هنا قريبا .

هل كان الجزائر يحترف الجرارة ؟

للجزائر أشعار كثيرة في هذه الحرفة (الجزارة) ، ويدل ظاهرها على احترافه إياها ، فهو يذكر أنه يعمل في اللحم للعشاء ولا ينال منه العشاء ، وأنه جزار وهم من بئر . ويقول لمن يسأل عن أهله : إنه يسأل عن قوم كرام ترجيهم بنوكلب ، وتخشاهم بنو مجل . إلى غير ذلك مما سنفيض فيه عند الكلام على فقره وبؤسه ؛ فهل نفهم من هذا أنه جزار يحترف الجرارة ؟ قد يكون لنا أن نفهم ذلك ، كما قد يكون لنا أن نفهم أن الجزائر لعب آتاه من آباته أو بعضهم ، وأنه وجد في لقبه مجالا للتورية - وهو بما مفتون يتلص لها الالفاظ والمناسبات - فأكثر من ذكر ذلك في شعره ، وأطال فيه كما فعل غيره من شعراء عصره في ألقابهم .

ولكن الذي نراه ونستطيع أن نجزم به مطمئن ، أن الجزارة حرفته وحرقة آياته من قبله ؛ أما أنها حرقة آياته فذلك على ذلك قوله :

ألا قل لذي يسأ ل عن قومي ومن أهلى
لقد نال من قوم كرام الفرع والاصل
يرغبون دم الانما م في حزن وفي سهل
وما زالوا لما يبدو ن من بأس ومن يذل
يرجيم بنو كلب ويخشام بنو عجل

وأما أنها حرفته فلاه أكثر القول فيها ، وقد عودنا الصدق في شعره ، فهو لا يعبر إلا عما يحسه ، ولكنها كانت حرفته مبدأ حياته ثم انصرف عنها «» وكان انصرافه عنها مبكرا ، لأنه نظم الشعر صغيرا وفطر عليه وليدا ، كما سيأتى نذكر ذلك قريبا وتدلل عليه .

فالجزارة إذن حرقة شاهرنا وحرقة آياته من قبله ، والجزار كان يحترف الجزارة في مبدأ حياته ، فهو إذن كان بها خبيرا طوال حياته وإن لم يزاولها فيما بقى من هذه الحياة .

حياته ومجونه :

الجزار ما جن بفطرته ، حلو النادرة ، لطيف المحاضرة ، سمير أنيس ، متودد الى الناس ، لم يهج أحدا من شعراء عصره ؛ ثم هو شاعر قدير عذب التركيب منجمله ، غواص على المعاني ، فصيح الالفاظ ؛ كل هذه الصفات دفعت الى الحياة التي حييها وسهلتها له : حياته كانت بين أندية الادب ، ومجالس الانس والطرب ؛ حياة للجسم فيها متاع ، وللروح فيها أنس ولذة .

ففى حياته يمدح الملوك والأعيان والأدباء ، ويعيش على جوائزهم ومنعمهم ، لا يحمل هم غده إن نال اللذة والمتاع في يومه ، فهو مبذر لا تكاد خلكه تدأبدا ، وهو على ما يؤخذ من ظاهر شعره مسرف على نفسه ، لا يرعوى عن قيحة ولا يدفع نفسه عن شهوة .

(١) وقد ذهب الى ما ذهب اليه صاحب شذرات الذهب فقد ذكر أنه كان جزارا ثم ارتزق بالمدح

وقد عاش الجزار عيشة ماجة لاهية ينتهب اللذة ، ويختلس الفرصة للثقة ، لا يفكر في العواقب ولا يخشاه ، فأسرف وبذر في صحته وماله ، وفي قوته وكرامته .

وقد نجم عن هذا التبذير ذلكم الفقر الذي ناء به وضع منه وسخطه في مبدأ أمره ، ثم راض عليه نفسه ورضيه مترجدا قائما في آخر حياته ، كما نجم عن إسرافه في الشهوات وإهماله في الذات أيام فنوته وشبابه عزوف عن صفات الحياة وإقلاع عن لذائذها ، وإقبال على الاستقامة والصلاح والرضى ، والاطمئنان الى القضاء في مشييه وقبيل مماته .

عطلة مجلة الأزهر

لمجلة الأزهر عطلة سنوية مدتها شهران تختارهما من الشهور التي تشتد فيها الحر ، وقد اتفق وقوعها هذه السنة كسابقتها في رمضان وشوال ، ثم تستأنف صدورهما ، إن شاء الله .

العصر العظيم

لحضرة الأستاذ عمر طلعت زهران

ويمكننا أن نتبع تأثير الحديد على الحياة الروحية تبعا دقيقا : يظهر هذا التأثير بوضوح في ميدان السياسة . كان البرونز ، كعدن ، غير ممكن الحصول عليه لصنع أدوات للاستعمال اليومي ، وإنما كان يستعمل للزينة وصنع الأسلحة . وكان الحصول على سيف برونزي - في تلك الأيام القديمة - كالحصول على سيف من الفضة أو الذهب في أيامنا هذه ، لا يحصل عليه إلا الأثرياء الأقوياء . وكان امتلاك سيف برونزي - من ناحية أخرى - هو منبع الثروة والقوة ؛ إذ أن مالكة يكون فريد نوعه . ومن هنا كانت البرونز عاملا من عوامل عدم التساوي الاجتماعي والسياسي ، ومن عوامل بناء أرسقراطية بين سكان الولايات المختلفة في الوطن الواحد ، أو بين الغزاة أو الإمبراطوريات الكبرى في العالم . وعلى عكس البرونز ، انتشر الحديد منذ بدء استعماله وحار الحصول عليه سهلا ، فكان كل فرد يستطيع الحصول على سيف من الحديد ، وتستطيع كل مدينة أن تنشئ لها قوات مسلحة . وعلى ذلك كان تأثير الحديد عكس تأثير البرونز ، إذ كان عاملا من عوامل المساواة والديمقراطية .

وبجانب ذلك ، نجد أن صناعة الحديد والصناعات الجديدة ، والتجارة الجديدة بالآلات والأسلحة الحديدية ، خلقت أسس الثروة والانتعاش الاقتصادي للندن التي بدأت تظهر في كل مكان بكثرة . ولم تجد أية مدينة ، بعد أن صارت مركزا لصناعة وتجارة الحديد ، صعوبة في مد مواطنيها بأحسن الأسلحة . وقد مكّنهم ذلك من أن يتصلوا في سبيل استقلالهم ، حتى ضد الإمبراطوريات الكبيرة . فإن كانت هذه الإمبراطوريات قد ظهرت في عصر البرونز ، فإن عصر الحديد قد بدأ بانحلالها وبقيام عدد كبير من الدولات ، ويمكننا أن نسميه - بحق - عصر

« الاستقلال السياسى Age of Particularism » . وكان هذا الاستقلال واضحاً أشد الوضوح فى اليونان حيث كانت كل مدينة دولة مستقلة كل الاستقلال . وبلغ عدد هذه الدويلات — التى لم تكن مستقرة — ما يزيد على المائة ^(١) . ولم تكن الأحوال السياسية فى اليونان شاذة ، بل كانت هى القاعدة فى هذا العصر . أما فى الشرق الأدنى الذى كانت قد وحدته — فى عصر البرونز — امبراطوريتا بابل ومصر طوال الألف الثانى قبل الميلاد ، فقد نشأت فيه فى النصف الأول من الألف التالى ، بعد ظهور الحديد مباشرة ، جمهوريات فى مدن فينيقيا ، وجمهوريتان يهوديتان هما اسرائيل ويهوذا ، ثم عدد لا يحصى من الدويلات : لكل مدينة حاكمها ودستورها وأنظمتها الإدارية ، وثقافتها وعقائدها ، ومياسنها الخارجية الخاصة ^(٢) .

أما فى الهند ، فى أيام الفيذا ، وأيام جوتامو ، فقد كانت البلاد تنقسم الى عدد كبير من الدويلات المستقلة . وكانت توجد بين جبال الهمالايا ونهر نيرادا ست عشرة دولة كبيرة ، وليس لنا أن نحصى عدد المدن والجماعات النصف المستقلة ^(٣) .

(١) كان عدد الدويلات الاغريقية القديمة بما فيها مدن آسيا الصغرى وإيطاليا وناق المستعمرات يزيد على المائة . وأشار أرسطو فى كتابه « بوليطيكا » إلى أكثر من مائة دولة مستقلة . أما مجموعه من المساهم فقد احتوت على ١٥٨ دستوراً لمدن مختلفة .

(٢) جاء فى كتابات دارا على صخور بيهستون Behistun Darius أنه كان مضطراً لزيادة حكمه . لكن ثبت دعائم ملكه — إلى أن يخوض تسع عشرة معركة وأن يأمر تسعة ملوك . وتضمنت هذه الحملة فكرة قوية عن قوة الاستقلال السياسى فى إيران . ويجب أن نعود إلى أن سياسة كبرى — سلف دارا العظيم — كانت هى حماية الأقاليم ذات الحكم الذاتى ، إذ كان يرى إلى قيام حكومة أقطاعية ، وكانت سياسته هذه أقوم من سياسة دارا المركزية ، التى تضرر مثوله مما حل بغارس من مصائب فيها بعد .

(٣) اقتبس أريان Arrian فى الانديكا Indica : الفصل السابع من تقرير ميجا ستينس MEGASTHENES أنه كان يوجد بالهند ١١٨ شعباً . ويمكن القول بأن جعلها — إن لم تكن كلها — كانت مستقلة . ويقيم ، لأول وهلة ، من مصادر غزو الاسكندر لهند [ديودوراس — بلوتارك — كوينتوس كورتيوس — أريان] أن الاسكندر قابل فى الهند عنصرين هينين سياسيين مستقلين على الأقل ، على الرغم من أن حملته قد تجاوزت بالكاد نهر السند ، ولم تصل إلى الأقاليم الكبيرة . وكان كل شعب ، بل وكل مدينة ، فى الأقاليم التى دخلها بحكومة حكم ذاتيا كاملاً ، وكان لكل دستورها ، وكانت تفرم الحرب والسلم بنفسها بحرية تامه . وإذا كان لياق الهند من هذا النظم السياسى فإن عدد ولاياتها يقدر — ولا حرج — بالمئات .

أما أروع الأمثلة لهذا الاستقلال السياسى فنجده فى الصين : فعلى الرغم من أن الصين كانت فى الألف الثانى قبل الميلاد ، مثلها مثل جنوب شرق آسيا ، موحدة فى امبراطورية كبيرة تحكمها يد قوية من الاسرتين الاوليين ، نرى أن الاسرة الثالثة تشو Chou . كانت تحكم فيما بين سنة ١٢٢٢ الى سنة ٢٢٢ ق م حكما اسيميا ، فلم تكن هناك سلطة مركزية على الإطلاق ؛ فكان كل إقليم ، بل كانت كل مدينة صغيرة أو كبيرة مستقلة تماما . وتمطينا رحلات كنفشيوس فى سبيل العثور على دسالم دكى . أوضح صورة لهذا الاستقلال السياسى ، كانت توجد ست عشرة دولة هامة قوية ، بينما يقدر بعض المؤرخين عدد الدويلات بمائة وخمسين دولة .

وهكذا انقسم العالم القديم كله ، بعد استخدام الحديد ، من شواطىء الاطلنطى الى شواطىء الباسيفيى ، انقسم الى أقاليم صغيرة تكون مدنا مستقلة . ولم يكن هذا الاستقلال أبدا ، قبل ذلك أو بعد ذلك ، أقوى مما كان عليه فى هذا العصر . ففى تشابه هذا النظام السياسى الذى ساد العالم كله يوجد السبب الثانى لتشابه الحياة الروحية .

ويجب أن تبين بتأكد ، أن التقسيم والاستقلال السياسى لم يكن بأية حال عقبة عاقت التقدم الروحى ، بل على العكس من ذلك ، كان عاملا فعالا فى تقدم الثقافة بجميع أشكالها . ويكفى أن نشير الى أن عصر الثقافة الأعرىقية ، التى كانت فى نفس الوقت خاصة كل التخصص ومبتكرة ، إنما كان بحق ، حقبة مزدهرة فى تاريخ البشرية . وكان تراث المدن الفيزيقية الصغيرة أعلى بكثير من تراث الامبراطوريتين الاشورية والميدية معا . وظل تأثير الولايات اليهودية على قَدَر البشرية باقيا الى الآن ، تأثيرا جوهريا يزيد عن تأثير كل امبراطوريات العالم القديم . وقد نشأت كل النظم الفلسفية والمفائد الدينية فى الهند فى عصر الاستقلال . وبتناز عهد حكم أسرة تشو ، فى الصين بازدهار العلوم وعظمتها ، وتقدم العلوم ، والقيام بالأعمال العظيمة . أما السبب فى هذا التأثير العظيم للاستقلال على التقدم الروحى فيمكن أن نرجعه الى تنافس الدويلات بعضها بعضا ، وإلى الفرصة المتاحة لمقارنة نظم حكومات الولايات المختلفة ، وعلى الأخص الى مقارنة الحريات التى كان يتمتع بها الافراد داخل ولاياتهم .

محمد رسول الله

لحضرة الاستاذ عبد المنعم الصايف
المفتش بالأزهر

A Brief Sketch of the Life
of the Prophet of Islam.

By
President of the Anjuman.

مترجمة عن :

ولد محمد صلى الله عليه وسلم ستة وخمسة وأحدى وسبعين ميلادية ، وكانت بلاد العرب وقتئذ لا تمارى في عبادة الأوثان التي ضاقت الكعبة بها على ستمها ، والكعبة هي المركز الروحي لهذه البلاد ؛ على أن كل أسرة كان لها أصنامها الخاصة بها غير مكتفية بما في الكعبة منها . ومن بين ما عبده العرب الأبحار وأكوام الرمال والأشجار . وعلى الرغم من تأصل عبادة الأوثان في نفوسهم فقد أشار « بوزورث سمث » في كتابته عنهم بأنهم ماديون ، وقد تعنوا بالطعام والشراب في أشعارهم ؛ وما كانوا يمتقون في الحياة بعد الموت ، ولا يحفلون بمسئولية أعمالهم ، وآموا بالآرواح الشريرة وعزروا إليها ما يتناهم من علل وأسقام . وانتشرت الجهالة في البلاد وأخذ ذو المسكاة يتفاخر بجهله بين من هم دونه من الأفراد . وما كانت بلاد العرب لتعرف لها دستورا . وتفشت الرذيلة وانعدمت كل رابطة إنسانية في هذه البلاد .

أما الأغاني والأشعار ، وهي مليئة بالمعش والاستهتار ، فقد كانت تفسد وتردد في المجتمعات ليل نهار . وشاعت في العرب الفاحشة ، وما كان هناك من عقاب رادع لمركبها . وتعددت بيوت الدعارة وغصت بالمعاهرات ، وكانت هذه وتلك من المسائل التي لا تلقى من العرب انتقادا . وبلغ مركز المرأة الدرك الأسفل كما يقول « بوزورث سمث » وغدت كالمحتاج تورث ولا ترث ، ولئن يرثها حق التصرف المطلق فيها ، وكان له أن يبنى بها ولو كانت زوجا لآيه من قبل .

وظلت بلاد العرب بلا حكومة شرعية وقوانين مرعية ، وقامت القوة بين الناس مقام القانون . وعلى الرغم من أن العرب كانوا يقتمون الى جنس واحد ويتكلمون بلغة واحدة فقد كانوا أكثر أمم الأرض تفرقا . واستمر التضال بين القبائل . ولاتفه الأسباب وأدى الملاسات نشبت بين الأسر حروب طاحنة . أما الأراامل واليتامى فلم يلقوا من مواطنهم عطفًا ولا ماصرة ، وعومل الأرقاء معاملة نابها طبايع الحيوانات ، بله الشر .

بين هذه الظروف جميعها ولد محمد صلوات الله عليه يقيا ، وحرم عطف أمه وهو في السادسة من عمره . وينتمى عليه الصلاة والسلام إلى أنبل أسرة في قريش . وكان كبقية مواطنيه أميا لا يعرف الكتابة والقراءة ، واشتغل برعى الأغنام حيا من الدهر ، وتلك مهنة لا يبدى التأفف منها أنبل العرب محتداً ، واشتغل بالتجارة شابا ، وكان في معاملاته صادقا ، ووصفه جل شأنه بقوله : « وإنك لعلى خلق عظيم » . ولقبه قومه « بالصادق الأمين » لطهارة يده ومثانة خلقه وحبه للحق والأمانة ، ومع أنه نشأ في بلاد دينا عبادة الأوثان فقد شب كارها لها ، ولم يحدث قط أن سجد لاحدها . قال تعالى : « ولا أنا عابد ما عبدتم » . وعاش محمد صلى الله عليه وسلم في مدينة كان الخرفيا شيئا مألوفا ، ومع هذا لم تمس الخرشفتيه أبدا . ولم يتنوقها أبو بكر الصديق قط ، ورأى أهل مكة في الميسر ميدانا للثقة النفسية ، ولم يحدث أن شاطرهم النبي صلى الله عليه وسلم فيما ذهبوا اليه . وشب عليه الصلاة والسلام في أمة مولعة بالحروب ولعبا بالخمر ، ولكنه كره الحروب وكره الخمر ، وفي هذا يقول « سير ويليام مور » : « ومع أن محمدا يبلغ الآن من العمر عشرين عاما فلم يظهر بعد ميله للحروب » .

ولم شغل صلى الله عليه وسلم في التجارة حبا في الثراء ، ولكن عونا لعمه أبي طالب ، وفي هذا يقول سير ويليام مور « لم يطمح محمد أن يكون غنيا ولم يبد نشاطا في حياته يرجو من ورائه أن يكون لمجرد الثراء ثريا » .

وتفرد حياة النبي بميزة نادرة ، وخاصة في مثل بلاد العرب ، وفي ذلك الحين ، وقد امتاز بحبه لمساعدة الفقراء والعطف على الأراامل واليتامى وماصرة الضعفاء والأرقاء وذوى الحاجة ، وإكرام الضيف ، وحب ذوى القربى . قال تعالى : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم »

ولم يقاس النبي وحده - عن طيب خاطر - الصعاب الجسام في مكة ثلاثة عشر عاما ، ولكن قاسى أتباعه من الآخرون نفس العنت بنفوس مطمئنة وقد امتدحهم لهذا ، سير ويليام مورير ، وهو كاتب تنلى نفسه عداوة للمسلمين فقال : لقد صبر المؤمنون على الأذى بروح قوية وآثر مائة رجل وامرأة أن يهاجروا من ديارهم إلى الحبشة عن أن يرتلوا عن دينهم الذى ارتضوه ، كما هاجر عدد غير قليل مع النبي نفسه تاركين مكة الحبيبة إلى نفوسهم وكعبتها المقدسة التى لا يعتزون بغيرها .

وليس هناك من مصلح كمحمد كان في مكنته أن يقوم بهذا الإصلاح الشامل في حياة أمة تقطن مثل هذه البلاد الفسيحة الأرجاء ، وتبلغ درجة التأخر فيها هذه الدرجة التى كانت عليها هذه الأمة .

لقد كانت عبادة الأصنام متأصلة في النفوس ، وتجرى من العرب مجرى الدم ، واستولت الخرافات على عقولهم ، وكان لها أثر بالغ في تصرفاتهم وحياتهم . وقام اليهود والمسيحيون بدعايات واسعة النطاق ، ومحودات كبيرة مئات السنين ، تساعدهم وتشد أزرم مواردهم الهائلة ، يريدون إحداث تغيير في حياة العرب ، ولكنهم باءوا بالفشل وبقيت البلاد - على الرغم من جميع المحاولات - يلاذا تجهل أصول الدين ومبادئ الأخلاق .

وجاء محمد صلوات الله عليه فاستطاع أن يتهمد البلاد بإصلاح شامل في ثلاثة وعشرين عاما . وغدا العرب يعتبرون عبادة الأوثان وغيرها من الأشياء التى درجوا على تهديسها عارا يسوء إلى الإنسانية ، فأبادوها واختفت الخرافات . وظهر دين الحق الذى يتفق مع العقل ، وأحس كل عربي بإلهام ورغبة يحيش بها صدره لعمل كل خير وإصلاح لأزمته ووطنه لحسب وإنما للإنسانية جمعاء . وصار الأعرابي الذى كان يفتخر بجبله محبا للمعارف والعلوم . قال « مرشفيك » : « لم يستطع أحد أن يهدى أمه ويصلح أمرها بالسرعة التى استطاع بها محمد ، أن يوجه قومه إلى اعتناق الإسلام .

وقال « كنت أوف بوليفليير » : « إنه لحق علينا أن نقول : إنه ليس هناك من تاريخ له أن يفخر بما بين حياته من أحداث تفوق حد التصور في حيواتها ، وفيما تعدته من الدهشة ، أكثر من تلك تصطدم بها في حياة المسلمين الأولين وتبهم العظيم ، تلك الأحداث التى تبدو فيها الشجاعة والعزيمة والشعور الجليل المتبادل بين القواد والجنود .

ويزعم غير المسلمين أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نشر الإسلام بعد السيف والله تعالى يقول : لا إكراه في الدين ، والواقع أن القرآن ما يدل على أن العقيدة مرجع اختيارها للإنسان نفسه ، وإذا أبي واستكبر وتمسك بأهذاب الباطل فقد ضل سواء السبيل . قال تعالى : إما هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً . . . وقد أمر الله رسوله بمقاتلة أعداء الدين لأحبا في إكراههم على اعتناق الإسلام وإنما ليقيم حرية الأديان على أساس متين ، وليضرب على أيدي الظالمين بالاضطهاد الديني ، وليزود عن جميع البيوت التي يذكر فيها اسم الله ، وفي هذا يقول جل علاه : الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز . . . وقال تعالى : وقاتلوم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير . . .

ويبدو من هذا جلياً الحكمة في الإذن للمؤمنين بمقاتلة أعداء دينهم . فالغرض من القتال هو حفظ الجماعة من الاضطهاد وبطش الظالمين . ونلاحظ أن الأمر بالقتال أتبع بوقفه إن كف الباغي عن عدوانه وبطلته : قال تعالى : فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين ، وقال تعالى : فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم . . . وليس هناك من مثل واحد يذكر للدلالة على أن محمداً أرسل حلة واحدة يحمل فيها أمة بالقوة على اعتناق الإسلام . كما أنه ليست هناك من حادثة واحدة سأل النبي فيها إنساناً أن يؤمن به وسامه العذاب بسبب ذلك ضماناً لفوزه بأمنيته . نعم لم يحدث قط شيء من هذا ، بل على القبيض منه عمل الكافرون جاهدين على ارتداد المسلمين عن دينهم ؛ ويبدو ذلك واضحاً في قول الله سبحانه وتعالى : ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا . . .

ولقد اعترف أشد الناس عداوة لمحمد صلى الله عليه وسلم بأنه لم يكذب قط ولم يتطرق اليأس ولا القنوط إلى قلبه أبداً . وحدث مرة وكان النبي يومئذ حاكماً للديانة أن جاءه يهودى يطلب دمه ويسبه ، فاعاظ لذلك عمر رضي الله عنه ، ولكن النبي نهره ، وقال : كنت أنا وهو أحوج إلى غير هذا منك . تأمرني بحسن القضاء ، وتأمره بحسن التقاضي . . .

وهكذا يصرب النبي صلوات الله عليه أحسن الأمثال على خلقه العظيم ؟

الجانب الالهى من التفكير الاسلامى

سبق لنا أن عرضنا صورة مصغرة لهذا المؤلف الثمين عند صدور طبعته الأولى منذ نحو سنة ، واليوم نعود إلى الكلام عنه وقد وصلنا طبعته الثانية ، وحق لنا أن نقابل هذه الطبعة بما قابلنا به الأولى من الحفاوة والإعجاب ، وحق لنا أيضا أن نوجه إلى حضرة الأستاذ الأسمى مؤلفه النابغة الدكتور محمد البهى أستاذ الفلسفة بالأزهر بعض ما يستحقه من الإجلال والإكبار .

قال مؤلفه الفاضل . إن موضوع هذا الكتاب قد لا يكون جديدا على قراء الفلسفة الإسلامية لأنه يتعلق بالله ، ولكن مهج البحث فيه ربما كان جديدا . ونحن نقول : إنه لجديد كل الجدة ، ويتمتع اطموح الفكر كل الامتاع . لأنه لم يدع موضوعا مما يمت لهذا الموضوع بصلة إلا أتى به ، أو أشار إليه ، ووفاه حقه من التحليل والبيان ، فشكرا له بقدر ما بذل فى وضعه من تمحيص ، وأفق فى إعداده من وقت .

الأخلاق فى الفلسفة الحديثة

لفيلسوف (اندريه كريسون)

العلامة اندريه كريسون أحد أساطين الفلسفة من رجال الفكر البارزين فى العالم ، له مؤلفات كثيرة ذات قيمة عالية ، منها هذا الكتاب الذى نحن بسيله اليوم ، أراد بوضعه إعانة محبي الفلسفة على الاستقساس بالجانب المعلى منها ، وهو لا يتقص خطرا عن الجانب النظرى ، لجاء كتابه فى الأخلاق بحثا عظيم القيمة فى تاريخ الأخلاق منذ شرع سقراط يمهّد السبيل لجعل فكرة الخير والشر موضع العناية من الفلسفة . فقد اشتمل على تاريخ البحث الأخلاقى فى عهدين طويلى : عهد قدماء الفلاسفة الأخلاقيين ، وعهد الفلسفة الحديثة . وقد أقرّد الأستاذ أندريه كريسون لكل من هذين المبدىن سفرا خاصا ، لجاء عمله هذا متمما للبحث الخلقى على ما يتفق والترقى المعلى الذى وصلنا إليه فى العصر الراهن .

قام بفضل هذا العمل العظيم بقسمه الى اللغة العربية المدرسان البارزان في كلية أصول الدين : الدكتور عبد الحليم محمود والاساذ أبو بكر زكري ؛ وهو عمل يمكن وصفه بأنه من ضروريات نهضتنا الفكرية الحالية ، لأن مسألة الاخلاق والاصل الذي ترتكز عليه ، وقيمتها في حياة الانسان ، كلها مجالات للبحث والنظر تعرض كل حين للأفكار ، وكثيرا ما يتفق أن المعرض لها لم يستوعب كل ما يجب استيعابه مما قاله الفلاسفة في هذا الموضوع ، وما انتهى اليه جهدهم في إبراز جميع نواحيه ، فيجىء تحليله ناقصا ، وممرءا قريبا ، فلا يستوفى المقام حقّه ، ويبقى القارىء متشوقا لما يشفيه من هذا المطلب الجليل وأين هو ؟ فنحن إذزاء هذه الاعتبارات لا نستطيع توفية مترجميه الفاضلين من الثناء ، ولا القيام بحقيبهما من الإعجاب ، وانا لآرجو لهما التوفيق الى أمثال هذه التحفة القيمة من ثمرات القرائح الناضجة ، والعقول النيرة .

تعلييل الأحكام

عرض وتحليل لطريقة التعلييل وتطوراتها

في عصور الاجتهاد والتقليد

إن هذا الكتاب الحافل كان طلبة الكثرين من الذين يعنون في أحكام الشريعة الإسلامية من غير علمائها الرسميين ، فصدوره يشفى صدور جمهور من باحثينا الاجتماعيين ، ويد فراغا عظيما في المطبوعات الشرعية . وللكتاب مزية أخرى وهو أنه يُرى رأى المين سماحة الشريعة الإسلامية ، وبعد نظرهما ، واستيعابها لجميع الحاجات الادبية والمادية للإنسان ، ولما تحتاج اليه الجماعات من الأواصر والربط . وقد عنى حضرة صاحب الفضيلة الاساذ المحترم الشبيخ محمد مصطفى شلي مؤلفه المدرس بكلية الشريعة ، بلفت نظر القارىء في جميع المواطن الى سماحة الشريعة الإسلامية .

والكتاب محرر بعبارة بليغة ، ولهجة موفقة ، فلا يمل القارىء من تلاوته ، مهما طال به الوقت ، وهذه خصوصية ثمينة لبعض المؤلفين . فنثنى على همة الاساذ المؤلف ، ونشكر له عمله القيم ، زاده الله توفيقا .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحديث الديني

الذي ألفه حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر

شيخ الجامع الأزهر في قصر رأس التين العامر

في ٤ من رمضان ١٣٦٨

الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد
النبي الكريم ، وعلى آله وأصحابه أجمعين . قال الله تعالى وهو أصدق القائلين :

« قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ، الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ الْقَوْلِ
مُعْزِضُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ، إِلَّا عَلَى
أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ، فَمَنْ أَتَى ذَلِكَ فَأُولَئِكَ
هُمُ الْعَادُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ
يَحْفَظُونَ ، أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ، الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . »

قال الفاروق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « كان النبي صلى الله
عليه وسلم إذا أنزل عليه الوحي يسمع عند وجهه كدوى النحل ، فأنزل عليه يوما
فلينا ساعة ثم سرى عنه ، فاستقبل القبلة ورفع يديه وقال : اللهم زدنا ولا تنقصنا ،
وأكرمنا ولا تهنا ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، وأرضنا

وأرض عنا . ثم قال : أزل على عشر آيات من أقامهن دخل الجنة . ثم قرأ : قد أفلح المؤمنون ... حتى ختم عشر آيات .

وهذه الآيات العشر جمعت خلال الخير ، وخصال البر ، واشتملت على أمهات الفضائل وجلائل الأعمال ، وهي مناسبة تمام المناسبة لآخر السورة التي قبلها وهي سورة الحج ، إذ يقول الله تعالى : يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم ، وافعلوا الخير لعلكم تفلحون . وجاهدوا في الله حق جهاده ، هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ، ملة أبيكم إبراهيم ، هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ، ليكون الرسول شهيدا عليكم ، وتكونوا شهداء على الناس ؛ فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم ، فنم المولى ونعم النصير .

ففي خواتيم سورة الحج كان الرجاء من الله بالملاح والعوز والرغبة في توقع الإجابة ، فجاء أول سورة المؤمنين مجيبا رغبتهم ، وعحققا رجاءهم ، ومبشرا لهم بحصول ما كانوا يتوقعون .

وهذا المعنى مستفاد من كلمة قد ، الداخلة على الفعل الماضي ، فإنها في مثل هذا التركيب تكون جوابا لمستخبر يتوقع الفعل الذي بعدها ويرجوه .

وأفلق : فاز بالمرام ونجا وسعد وظفر ، وقد عبر بالماضي وأكد بقدر فقال : قد أفلق ، للدلالة على أن فوز هؤلاء المنتصفين بهذه الصفات ونجاتهم وسعدهم وظفرهم ، كل ذلك حاصل لا محالة .

والمؤمنون : المتصفون بالإيمان ، والإيمان : هو التصديق الجازم ، المقتضى بإذعان النفس وقبولها واستسلامها ، بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد بيئت السنة النبوية ما يجب الإيمان به ؛ قال الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « بيننا نحن عبد رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يُرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فأسند ركبته إلى ركبته ، ووضع كفيه على خذي ، وقال : يا محمد أخبرني عن الإسلام . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت

إليه سيلا . قال : صدقت . فمجيئاً له يسأله ويصدق . قال : فأخبرني عن الإيمان . قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره . قال : صدقت . قال : فأخبرني عن الإحسان . قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك . ثم قال لي : يا عمر أتدري من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم .

قال تعالى : والذين هم في صلاتهم خاشعون :

الخشوع : الخوف والتدلل والخضوع . والخاشعون في الصلاة هم الخاضعون لله الخائفون منه ، الذين يحشونه بقلوبهم . وإن من خواص الصلاة الصبر ، وتقي الجزع ، والهي عن الفحشاء والمسكر ؛ فالصلي الحقيقي هو البار الحقيقي الذي لا يترك الحق لأجل شهوة ، وهذا هو أثر صلاة الخاشعين .

وإن في تقدم وصف المؤمنين بالخشوع في الصلاة على سائر ما سيذكر بعد ، توبها بشأن الخشوع في الصلاة ؛ قال الله تعالى : إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ، وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة وما رزقاهم ينفقون ، أولئك هم المؤمنون حقا ، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم .

قال تعالى : والذين هم عن اللغو معرضون :

اللغو : هو الباطل ، واللبو ، وما لا يحمد من القول والفعل . والإعراض : الترك ، ومن ذلك ألا يتم الشخص على أخيه ولا يفتابه ، ولا يقول فيه ما يؤذيه ، ولا يرضى بشيء من ذلك .

عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر ، فأصبحت يوماً قريباً منه ونحن نسير ، فقلت : يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار . قال : لقد سألتني عن عظيم وإنه يسير على من يسره الله عليه : تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت ، ثم قال : ألا أدلك على أبواب الخير ؟ الصوم جنة ، والصدقة تطفى الخطيئة كما يطفى الماء النار ، وصلاة الرجل في جوف الليل شعار الصالحين ، ثم تلا : تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً

وبما رزقناهم ينفقون . فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ، ثم قال : ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ، ؟ فقلت بلى يا رسول الله ، قال : رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد ، ثم قال : ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ ، قلت بلى يا نبى الله . فأخذ بلسانه وقال : كف عليك هذا ، فقلت : يا نبى الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فأجاب بقوله : وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد السهم ، ! . وإذا كان كف اللسان لازما في جميع الأوقات فهو ألزم في الصيام : يقول النبي صلى الله عليه وسلم : قال الله تعالى : كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به ، والصيام نجنة ، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب ، فإن سابه أحد أو قاتله فليقل : إني امرؤ صائم ، والذي نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ! . الصائم فرحتان يفرحهما : إذا أفطر فرح ، وإذا لقي ربه فرح بصومه ، وقال صلى الله عليه وسلم : من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه .

قال تعالى : : والذين هم للزكاة فاعلون :

الزكاة في الإسلام : نظام مالى اجتماعى حدد العلاقة بين الاغنياء والفقراء ، فأوجب في أموال المسلمين التى تحتل المواساة مقدارا معيناً يؤخذ من أغنيائهم فيرد على فقرائهم . والزكاة : نظام اقتصادى يكفل العدالة الفردية والعدالة الاجتماعية ، وهو نظام وسط بين مذهبين متغالين يمثلان طرفي الإفراط والتفريط : رأسمالية قاسية جامدة ، وشيوعية إباحية ملحدة .

غلت : الرأسمالية ، في تقديس المادة وجمع المال وعبادة الدرهم والدينار ، وغلت : الشيوعية ، فيما سمته العدالة الاجتماعية ، وتظاهرت بالعطف على الفقراء فألغت الملكية الفردية وحرمت المجد من كده وتعبه ، وحاربت السن الكونية في طبيعة الوجود . فتذبذبه الخليفة يوجد في الناس القوي والضعيف ، والكسوب والماعول ، والعالم والجاهل ، والناهب والحاتل ، والصحيح والمريض ؛ ويعتقد أن تفاوتهم في الصعاع يتفاوتون في الفنى والفقير ، والرزق والكسب ، وفي المعيشة ومتع الحياة ؛ فنحاول التسوية بينهم فقد حارب الطبيعة ورأى المستحيل ، وغالط

سنة الله في خلقه . يقول الله تعالى : « ولا تمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ؛ للرجال نصيب مما اكتسبوا ، وللنساء نصيب مما اكتسبن ، واسألوا الله من فضله ، إن الله كان بكل شيء عليما » ويقول عز وجل : « والله فضل بعضكم على بعض في الرزق ، فما الذين فضلوا برأدي رزقهم على ما ملكت أيماهم فهم فيه سواء ، أفبمنعة الله يمحذون » . ويقول سبحانه : « أم يسمون رحمة ربك ، نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ، ورحمة ربك خير مما يجمعون » .

لا شك بعد هذا في أن الشيوعية ما هي إلا إباحية مطلقة ، ولا دينية مغلقة ، بخلاف العدالة الاجتماعية . فليتدبر المسلمون ذلك ، وليعرفوه ، وليحذروا كيد الكائدين ؛ وليعلموا أن نظام الصدقة العامة ، والمواساة المشروعة في الإسلام نظام يكمل العدالة الاجتماعية بأقصى معانيها متى أحسن العمل به ، وقام كل مسلم بواجبه .

فها هي ذى مظاهر المواساة في الإسلام واضحة جليلة في الزكوات المفروضة ، والكفارات الواجبة ، والصدقات المتنوعة .

قال الله تعالى : « لن نملأوا البر حتى تنفقوا مما نحبون ، وقال عز شأنه : « وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين » وقال جل وعلا : « مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبئت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة » والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم » وقال سبحانه : « يأبى الذين آمنوا أن أنفقوا من طيبات ما كسبتم وبما أخرجنا لكم من الأرض ، ولا يميموا الحديث » . « تنفقون ، ولستم بأخذيذ إلا أن تنفقوا فيه ، واعطوا أن الله غني حميد » . « وقال جل وعلا : « إن تبدوا الصدقات فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم » . « وقال عز من قائل : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ،

والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون . وقال تعالى : ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم ؛ حلمهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم . وقال صلى الله عليه وسلم : ما من يوم يصبح الناس فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقا خلفا ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكا تلفا . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أطعم جائعا أطعمه الله من ثمار الجنة ، ومن سقى مؤمنا على ظمأ سقاه عز وجل يوم القيامة من الرحيق المختوم ، ومن كسا مؤمنا عاريا كساه الله من خضر الجنة . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس بالخير ، وكان أجود ما يكون في رمضان .

اللهم وفقنا وإخواننا المسلمين إلى صالح الأعمال ، حتى نال كمال رضاك . اللهم زدنا ولا نقصنا ، وأكرمنا ولا تهنا ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، وأرضنا وارض عنا .

اللهم اشمل بعونك ورعايتك ، المؤيدة بكلمتك ، المخلص في طاعتك ، مولانا صاحب الجلالة الملك الصالح الموفق ، فاروقا الأول .

اللهم كما أحسن إلى دينك وكناتك فأحسن إليه ، وانصره نصرا مؤزرا ، اللهم أحبه حياة طيبة مباركة تتم بنفعها العباد والبلاد .

اللهم يا واسع الفضل والإحسان نسألك أن تتفقد برحمتك ورضوانك الراحل الكريم ، مولاي الملك العظيم صاحب الجلالة المعفوره الملك ، فزاد الأول . اللهم اجعله في أعلى عليين مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

اللهم وفق رجال حكومة جلالة الملك إلى ما فيه الخير العميم ، إلك سميع مجيب . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الحديث الديني

الذي ألقاه حصرة صاحب العضيلة الأستاذ الكبير
الشيخ عبد الرحمن حسن وكيل الجامع الأزهر
في قصر رأس النين العامر مساء ١٨ رمضان سنة ١٣٦٨

بسم الله الرحمن الرحيم . قال الله تعالى :

« وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ
وَعَدُوَّكُمْ وَأَخْرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لِاتَعْلَبُونَهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُ ، وَمَا تَفْقَهُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
يُوفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلُمُونَ . وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ
السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَبْلَ اللَّهِ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ
بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَالْفَتْحَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، لَوْ أَهْمَمْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا آَلَفْتَ بَيْنَ
قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ آَلَفَ بَيْنَهُمْ ، إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . »

ما تشتمل عليه الآيات من الأحكام

- (١) نافضو العهد وما يجب نحووم . (٢) بذ العهد عند توقع الحياة .
- (٣) وجوب إعداد الأمة كل ما تستطيعه من قوة لقتال أعدائها . (٤) فرق
الفرسان وأثرها في الحرب . (٥) الحرب الإرهابية وأثرها في حماية المسلمين .
- (٦) الاتفاق في سبيل الله - أثره في تكوين الأمة - الجزاء عليه . (٧) الإسلام
دين السلام - طلب السلم خداعاً - اتلاف القلوب وأثره في قوة الأمة - تفرق
الكلمة وأثره .

معنى المفردات

« تفقههم » : أى تعلّمهم وتظفر بهم . « فشرّد بهم » : أى نكل بهم « يذّكرون » : أى يحذرون أن يقضوا العهد . « وأعدوا » : الإعداد : اتخاذ الشيء لوقت الحاجة . « رباط الحيل » : يعنى حبسها واقتناؤها ، أو هو اسم للخيل التى تربط فى سبيل الله ، فهو فعال بمعنى مفعول . « وإن جنحوا » : الجنوح الميل ، ومنه قيل للأضلاع جوانح لأنها مالت على الحشوة . « والسلم والسلام » : هو الصلح ، والسلم مؤنث كقابلة « الحرب » . « وقرأ الأعشى وأبو بكر وابن محيصن والمفضل » : السلم ، بكسر السين ، والباقون بالفتح . « يندعوك » : أى يظهرون السلم ويبطنون الغدر والخيانة . « حسبك الله » : حسب تستعمل بمعنى الكفاية التامة أى كافيك أمرهم من كل وجه .

التفسير

فى الآيات السابقة على هذه الآيات ذكر فريضان من كانت يدهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم عهود ومواثيق . فنكثوا العهد وتكررت خيانتهم أوجب الله ضربهم والتسكيل بهم نكالا يفرق غيرهم من خلفهم حتى لا يجرؤ معاهد على الخيانة ونقض العهد ، وهم الذين ذكّرهم الله تعالى فى قوله « الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لا يتقون » . فإما تفقههم فى الحرب فشرّد بهم من خلفهم لعلمهم يذّكرون .

وفريق صاروا غير مأمونين ، وخيانتهم متوقعة ؛ وهؤلاء أمر الله بقطع طريق الخيانة عليهم بإعلامهم بفسخ العهد حتى يكوّنوا على علم بأنهم أصبحوا فى حالة حرب مع المسلمين ، ولكن لا تجوز مفاجأتهم بالحرب قبل إعلامهم بفسخ العهد . وقد ذكّرهم الله فى قوله « ولما تخافن من قوم خيانة فأنبذ إليهم على سواء » ، إن الله لا يحب الخائنين .

بعد هذا بين الله للمسلمين ما يجب أن يكونوا عليه من القوة والمعة حتى لا يجرؤ أمثال هؤلاء على الخيانة والاستهزاء بعهودهم ، ولا يجرؤ غيرهم على انتهاك حرّامات المسلمين ، فقال « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » ، وهو أمر من الله تعالى للمسلمين بأن يستعدوا لأعدائهم من هؤلاء وغيرهم بكل ما يستطيعون

من قوة . وهو أمر عام لا يختص بزمان ولا بفريق من الناس ؛ لأن الآية محكمة والأمر فيها أبدي دائم .

ولفظ القوة عام في كل ما يتقوى به على حرب العدو ، وكل ما هو آلة للحرب والجهاد ، من الحصون والقلاع ، وأسلحة البر والبحر والحواء ، على اختلاف أنواعها وأشكالها ، بحسب الأمانة والأمكنة المختلفة ، ومصانع الدخيرة والأسلحة المختلفة ، وكل ما يهيئ في صلاحية الأمة للحرب كإنشاء معاهد لتعليم فنون الحرب ، والإشراف على الصحة العامة ، وتقوية الأجسام ، وغير ذلك مما يحمل الأمة بخوفة مرهوبة الجانب ، وكل ذلك بحسب استطاعة الأمة والقدرة على القيام به .

والرباط في الآية : اسم للخيل التي تربط في سبيل الله ، وخص بالذكر الاستعداد بالخييل مع أن قوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » يشملها ، لتوجيه النظر إلى أهمية الخيل في الجهاد ، وأن لها شأنًا عظيمًا في المرافقة بها في الثغور وحدود البلاد ، لسرعة حركة الفرسان ، وقدرتهم على الكر والفر إذا دهم الوطن عدو على غرة .

ولا يزال لفرق الفرسان شأن عظيم في الحروب برغم المخترعات الحديثة من المدرعات وغيرها .

وقوله تعالى : « ترهبون به عدو الله وعدوكم » ، إعلام من الله تعالى للمؤمنين بأن الاستعداد للحرب بكل ما تستطيعه الأمة من قوة هو لإرهاب أعداء الله الذين يعملون على تعطيل الدعوة إلى دينه ، وإرهاب أعداء المؤمنين الذين يكيدون لهم ويتربصون بهم الدوائر ؛ لأن هؤلاء الأعداء إذا علموا أن المسلمين نشيطون في دعوتهم إلى دين الله ، وأنهم في ديارهم متأهبون للحرب ، ومستكملون آلاتها ومعداتها ، خافوهم ورهبوهم ، فلا يقدمون على مهاجمتهم أو قتالهم ؛ فالقصد الأصلي من التأهب للحرب هو حماية الدعوة إلى دين الله ، ودفع العدوان عن المسلمين . أما التعدي على الآمنين المسلمين فليس من مقاصد الإسلام ولا مما يجيزه الإسلام . يرشد إلى هذا قول الله تعالى « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » ، أي لا تبدءوا بالعدوان ولا تعتدوا في القتال

يقتل غير المحاربين من العجزة والشيوخ والنساء والصبيان ومن إليهم من لا يحملون السلاح ولا يُمدون الأعداء بالرأى في الحرب .

اختلف المفسرون في المراد بالآخرين في قوله تعالى : « وآخريهم من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم » على أقوال ، ورجح الرازي وابن كثير ما قاله مقاتل وهب الدين بن زيد بن أسلم أنهم المنافقون ؛ وقد كانوا موجودين بين المسلمين كما جاء في قوله تعالى : « ومن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم » والمعنى حينئذ : استعدوا أيها المسلمون بكل ما تستطيعون من قوة ليرهبكم أعداؤكم المعروفون لكم ، وأعداؤكم الذين لا تعرفون أنهم أعداء وهم المنافقون .

وذلك لأن المنافقين في ظاهر حالهم من المسلمين ، وفي الباطن بخلاف ذلك ، ومن عادتهم تدس الفتنة ليجتالوا على إشاعتها وإلقاء الإفساد فيها بين المسلمين ، فإذا شاهدوا قوة المسلمين وما لهم من كثرة آلات الحرب ، وما أعدوه من العيون والرصد لتتصرف حال الأعداء ، خافوا وأقلعوا عن هذه الأفعال الذميمة حتى لا ينكشف أمرهم ، وقد صاروا لا مطمع لهم في أن يغلب المسلمون مع وجود هذه القوة .

والمنافقون وإن كانوا في الحقيقة أعداء للمسلمين ، بل هم شر على الأمة من أعدائها الظاهرين ، ولكن تسمير الآية بهم وحدهم لا يظهر مع عموم قوله « وآخريهم من دونهم » لأن الآخرين من غير هؤلاء الأعداء المعروفين يشمل الأعداء المستخفين ، ومن لم يعرف من أمرهم شيء وقت نزول الآية ، ولهذا فالراجع حمل الآية على العموم . فقد عُرف أنه بعد أن ظهرت قوة المسلمين بعد واقعة تبوك أقبلت وفود القبائل من قلب الجزيرة وأطرافها يعنون لإسلامهم إعظاماً لهذا الدين الذي تدين به وتحميه أكبر قوة في جزيرة العرب ، ومن غير هؤلاء من قبل الدخول تحت سلطان المسلمين مع خراج يؤديه ، وبعض من هؤلاء هؤلاء لم يكونوا معروفين بأنهم أعداء أو غير أعداء .

ولما كان الإعداد للحرب يحتاج إلى البذل والإنفاق ، قال الله تعالى : « وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يُؤف إليكم وأنتم لا تظلمون » وهو حصص من الله

للمؤمنين على الإتيان في سبيل الله، ووعد منه تعالى بأن ما ينفقونه في هذا السبيل قل أو أكثر يُجْزَوْنَ عليه في الدنيا والآخرة جزاءً وافياً .

أما جزاؤهم في الدنيا فهو ما يصيبهم من حيراتها مع حفظ أمتهم من العدوان الذي قد يمتد أثره إذا كانت الأمة ضعيفة إلى التهلكة . ويشير إلى هذا قول الله تعالى « وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ، وَالْمَعْنَى كَأَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ وَضَى اللَّهُ عَنْهُ ، لَا تَهْلِكُوا أَنْفُسَكُمْ بِأَيْدِيكُمْ بِتَرْكِ الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُغْلِبَ عَلَيْكُمُ الْعَدُوُّ . » . وأما جزاؤهم في الآخرة فقد بينه الله في قوله « مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ ، وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . » .

وقال (١) « رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نعر الجنة : صائت الذي يحتسب في صاعته الخير ، والذي يجهز به في سبيل الله ، والذي يرمى به في سبيل الله . » .

وقول الله تعالى « وَمَا تَنْفَقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، يَكُنْ فِي الْإِنْفَاقِ فِي وَجْهِهِ الْخَيْرُ الَّذِي تَفِيدُ الْأُمَّةَ ، فَالْتَمِذْ الْفَقْهَ أَوْ كَثُرَتْ . » فالإتيان لدفع المراض والفقر والجهل عن الأمة لإتيان في سبيل الله : لأنه يكمن الأمة من إعداد جيش قوى يقدر على الدفاع والدرد عن حماها . والإتيان لإنشاء مصانع للذخيرة وآلات الحرب لإتيان في سبيل الله ، وكل نفقة تفيد الأمة في حيوياتها وقوتها هي نفقة في سبيل الله .

ولما بين الله تعالى ما يجب أن يكون عليه المسلمون من القوة التي ترهب أعداءهم ، خاطب النبي صلى الله عليه وسلم بقوله « وَإِنْ جُنَحُوا (٢) لِلْإِسْلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا » .

(١) رواه البيهقي عن عتبة بن عامر « ترمذ ج ٢ ص ١٧٠ » .

(٢) قال ابن عباس ومجاهد وزيد بن أسلم وعطاء الخراساني وهكرمة والحسن وقتادة : إن هذه الآية منسوخة بآية براءة « قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَقَالِ ابْنُ كَثِيرٍ : لَا يَنْسَخُ شَيْءٌ الْأَمْرَ بِقِتَالِهِمْ فِي سُورَةِ بَرَاءَةِ إِذَا امْكَيْ ، أَوْ إِذَا كَانَ الْعَدُوُّ كَثِيفًا فَأَمَّا تَجُوزُ مَهَادَتُهُمْ كَمَا فِي آيَةِ « وَإِنْ جُنَحُوا » . » . ونقل الطبري عن قتادة أنها منسوخة بقوله « قَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ » . وقيل أن الآية منسوخة لأن الآية التوبة في بني قريظة وهم أهل الكتاب وقد أدان الله بميثاق أهل الكتاب ظهير الجزية « أَمَّا « قَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ » ، فَقَدْ عُنِيَ بِهِ مُشْرِكِي الْعَرَبِ . » .

والصواب عندى أن آيات سورة التوبة - هذا ما كان منها خاصاً بأهل الكتاب - خاصة بالمشركون ، وهؤلاء كانوا حراماً على العقيدة الإسلامية . وهي أساس الدولة . لهذا وجبت محاربتهم بلا مهادنة حتى يزول الوثنية . أما الآية هنا صامدة فيبقى عدام ، فلا نسخ .

وتوكل على الله ، . واخضعه الله بالخطاب في هذه الآية لأنه هو القائدُ الأهلِي
للمؤمنين ، والمرجعُ الأعظمُ في أمورهم في حالة الحرب والسلام .

والمعنى : إذا كنت في قتال مع أعدائك أو حالة حرب دون قتال ، ومالوا
إلى السلم والمصالحة فأجههم إلى ذلك وأقبل منهم ، فالإسلام دين السلام . وتوكل
على الله بتفويض أمرك إليه ، والركون إلى أنه عون لك على السلامة .

، إنه هو السميع العليم ، المطلع على ظاهريهم وباطنيهم ولا يخفى عليه من أمرهم .
ما يخفى عليك .

والتوكل على الله لا يمنع من الاستعداد وطلب الأمور من أسبابها ؛ لأن الله
تعالى نظم هذا الوجودَ ورتب فيه الأسباب والمسببات ، والمؤمن المتوكل على الله
هو الذي يطلب الأمور من طريق أسبابها الظاهرة ، ويستمد من الله العون
والسداد في الوصول إلى الغاية ، وقد كان ذلك هدى الرسول صلى الله عليه وسلم
في غزوة بدر . وإذا لم يعرف المؤمن الأسباب أو لم يهتد إلى معرفتها فإنه فيما
يقصد إليه يفوض أمره إلى الله ، ويطلب منه السلامة ، وأن يهيئه له من الأسباب
ما يجنبه طريق الزلل .

وإذا طلب الأعداء السلم ولكن ظهر من حالهم أنهم يخادعون وأنهم إنما
يقصدون من السلم الاستعدادَ وجمعَ القوى حتى تحين الفرصة فيفتزروها ، فلا
يجابون إلى ما طلبوا ، لأنه إذا كان ظهور خيانة المعاهدين يدعو إلى نبذ عهدهم
ومحاربتهم كما في الآية السابقة ، فإنه يكون أول ألا يقبل من الأعداء عهد يتطوى
على الغش والخداع .

أما إذا طلبوا السلم ولم يظهر للسليين أنهم يخادعون ، فهذا هو الذي هنأه الله
بقوله ، وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله ، وهو تصريح بما أشير إليه
في قوله ، وتوكل على الله . يعنى أنه تعالى كافيك خداعهم إياك ، لأنه متكفل بإظهار
دينه على الأديان ، وأن يحمل كلته العليا وكله أعدائه السفلى ، هو الذي أيدك بنصره
وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم ، وهى نعمة عظمى لك من الله تعالى جمع لك فيها
بين النصر الرباني وتسخير المؤمنين لك حيث ألف بين قلوبهم ، وجمعها على الإيمان
بك ، وجعلهم أمة واحدة متآلفة متعاونة على طاعتك ومناصرتك ومؤازرتك ،

بعد أن كانوا أعداء ، وبينهم لَحْنٌ وأحقاد متوارثة ، وحروب كادت تأتي عليهم .
 لو أنفقت مافي الأرض حبيما ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله الذي بيده
 ملكوت كل شيء ، ألفت بينهم ، بهدایتهم الى نور الإيمان ، وبمزمه وحكته جعلهم
 أمة واحدة قوة لهذا الدين ، إنه عزيز حكيم .

وفي هذه الآية إرشاد من الله تعالى الى أن ائتلاف قلوب المؤمنين وانساق
 كلمتهم على خير الجماعة الإسلامية ركن أساسي في بناء الجماعة الإسلامية وقوتها
 وعزتها . أما التنازع واختلاف الكلمة وتفرق القلوب فهو مدعاة للفشل والخيبة ،
 وقد أذن الله تعالى به المؤمنين في قوله ، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ،
 أي تذهب قوتكم فيظهر عدوكم عليكم .

اللهم إياك نعبد وإياك نستعين ، اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين
 أنعمت عليهم .

اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ، ولا تنزع منا صالح ما أعطيتنا .

اللهم إنا نسألك وأنت العلي القدير أن تحفظ حضرة صاحب الجلالة مولانا
 الملك ، فاروقا ، الأول .

اللهم أنت تعلم أنه قد أوفى على العاية في الحسدب على أمته ، وجاهد بنفسه
 وماله في سبيل مجدها وعزتها ، وأما الطريق للعالمين ، فكان للشيوخ قوة ،
 وللشباب حكمة ورشدا ، يقودهم إلى الخير ، ويوجههم إلى طريق الفلاح .

اللهم إنك تعلم أنه لم يدخر وسعاً في سبيل مجد العروبة ، وأنه هو مؤبراسها
 الذي تستضيء به إذا ادلهمت الأمور ، واضطربت الغايات .

اللهم اجزه على ما عمل ويحمل خير الجزاء ، ووفقه لصالح الأعمال وأمناسها
 بركة ، واجعله للإسلام عزاء ، وللعروبة قوة ، وللأمة نفرا ومجدا .

اللهم ألفت بين قلوبنا حكومة وشعبا ، واجمع كلمتنا على خير مصر ، إنك نعم
 المولى ونعم النصير .

وزير المعارف الرجعي لكل سؤال يابئين جواب

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمود أبو العيون
السكرتير العام للجامع الأزهر

نشرت الأهرام ذات يوم من أغسطس الماضي أن معالي
وزير المعارف حذف تعليم الرقص التوقيعي من المدارس ، وعاقب
بعض المدرسات بالفصل ، ومنع بعض الطالبات الجامعيات
من رحلتهم إلى أسبوع إيطاليا الرياضي مع الطلبة الجامعيين ،
وكذلك منع البعثات النسوية إلى أوروبا . ولم يمض يومان حتى
تطوعت إحدى السيدات فنقدت هذا القرار بقدا لاذعاً ،
واتهمت وزير المعارف بالرجعية . وبعد نشر مقالها يومين صدر
الأهرام وفيه مقال تحت عنوان (وزير المعارف الرجعي) لفضيلة
الأستاذ الجليل الشيخ محمود أبو العيون سكرتير عام الأزهر ،
لا نستطيع أن نصفه بأقل من أنه أحسن ما يمكن أن يقال
في هذا الباب . فقد امتاز بحمال الديباجة ، وبلاغة العبارة ،
والإبداع في الأداء . هذا فضلاً عن أنه يرى إلى غرض اجتماعي
خطير يجب التنويه به ، وتبني كل ما يقال فيه . ولذلك آثرنا
أن ننقله ليقى ذخراً علياً وأديباً مدى الدهر .

وما هو ذا بنصه :

وزير المعارف رجعي وآثم ، لماذا ؟ لأنه ، أولاً - فصل مدرسته بجرة قلم ،
وبدون تحقيق ؛ وثانياً - حرم فتيات جامعيات من حقهن في الاشتراك مع الطلاب
في رحلة الجامعيين إلى أسبوع إيطاليا الرياضي ، وأخرجهن من الركب في اللحظة
الآخيرة ، كما استقر رأيه على منع الرحلات والبعثات النسوية إلى أوروبا ، رياضية
كانت أم دراسية ؛ وثالثاً - لم يكتف معالي وزير التربية بهذا الحرمان يعاقب به

المصربات في ميدان الثقافة الخارجية ، بل أمر بجمع دروس الرقص التوقيعى الرياضى في مدارس البنات .

هذه هى الأخطار الجسيمة التى تورط فيها وزير المعارف ، وهذه هى الرجعية القائمة التى ارتكبتها وزارة التربية الوطنية والتعليم ، والوزارة التى يسميها الرجال « وزارة المعارف » ، كذا قيل ١ .

هذه هى الرجعية ، وهذه هى محنة المرأة فى عهد أحمد مرسى بدر وزير المعارف . هذه هى السابقة الخطيرة التى كان يجب عليه أن يراجع نفسه فيها قبل الإقدام عليها .

واسوءناه فى أى بلد نعيش ؟ وإلى أى دين ننسب ؟ إننا نعيش فى مصر ، ومصرُ بلد شرقية محافظة ، لها تقاليدها الصالحة ، وعاداتها القديمة المحببة ، ولا يزال فيها حياءٌ موفور ، وحقائق طيب موروثة ؛ وننسب إلى خير دين سماوى ، رسالته تطهير البشرية عن أوحاش الحياة وشروط المجتمع ، وتربية النفوس ، وتنقية الضمائر على أساس العقل الصحيح .

هذا هو البلد الذى نعيش فيه ، وهذا هو الدين الذى ندين به ونعتقه ؛ فإذا كان الله قيض لوزارة التربية الإسلامية رجلا يفهم رسالة الدين ، وهى تربية الخلق ، وصيانة العرض ، وحماية الفضيلة ، ويعمل على تطهير المؤسسات العلمية للناشئة من عوامل الفساد ، ويقضى على عناصر التدهور والانحلال - إذا قيض الله لهذا البلد ، ولهذا الدين مثل هذا الوزير المصلح الغيور ، نقول : إنه رجلى وآثم ... !

أحمد وزير المعارف إلى فصل المدرسة التى رقصت أمام طلبة الهندسة فى القطار المسافر بغير تحقيق من مراقب التعليم ؟ أ منع اشتراك الفتيات الجامعيات مع الطلبة الجامعيين فى الرحلة إلى أسبوع إيطاليا الرياضى ارتجالا ، وبدون رجوع إلى تقارير الوزارة فى مثل هذه الرحلات ، وجايتها على أخلاق الفتيات الناشئات الغريات ١٤ .

ثم هل حرّم ذلك الوزير الحازم البعثات النسوية إلى أوروبا عبثا ، أو قوة واقتدارا ؟ لا ورب الكعبة ! ولا أريد فى هذا المقال ، ولا ينبغى أن أذكر شيئا مما تضمنته تقارير مكاتب البعثات فى الخارج من بعض الوقائع ، مما يشين ويعرّ .

ولا يصح في الاذعان أننا نرى فوهات الخطر فاغرة أمامنا ، ثم تقدم عليها طواعية واختيارا لتتدبى في بواقها ومهلكاتها ؛ لاي شيء ؟ للتقليد العربي حسبنا وإذا أحجنا ، وإذا فصحننا ، وإذا قلنا الحق ، قالوا : رجعيون ، وعنة للمرأة قاسية ، والرجال يظلمون النساء ، وسمة المرأة في الميزان ، وكرامة المرأة في خطر ، ثم الرقص التوقيعى ، وقصته لا تنتهى ولا تفرغ ١..

في وزارة صدق باشا الاول أنشئ معهد التمثيل الاول ، وكان في برنامجه الرقص التوقيعى ، فاعترضنا على هذا النوع من الرقص في جريدة الاهرام الفراء ، فكان بيننا وبين بعض رجال وزارة المعارف حينذاك فضال وكفاح في عهد وزارة مراد سيد أحمد باشا ، وروى في ذلك العهد إحساننا على مجلس تأديب ، لانا هيجنا الرأى العام على وزارة المعارف بجريدة الاهرام ؛ وانتهى بتقليد حلى عيسى باشا وزيرا للمعارف ، فقصى بحجة قلم على معهد التمثيل ، بما فيه الرقص التوقيعى ، فاسترحنا واستراحت ركابنا ١.

انقل الرقص التوقيعى إلى مدارس البنات ، وأقيمت له معارض رياضية سنوية تتخللها الفضاخ والمناقص ، وصراخ المتدينين ، واحتجاج دوى العيرة على تلك الفضاخ والمناقص ، حتى جاء السنهورى باشا ، وصرح لنا بأنه لا يقام في عهده عرض رياضى للبنات ، ووفى بعهده ، فكان ذلك من محاسن عهده .

وأبواب الرياضة البدنية كثيرة ، فلم تمسك بالرقص التوقيعى بذاته ، ولم يصور وزير المعارف بهذه الصورة الرجعية القائمة ١٢ لأنه ألفاه ؟

علوا البنات ما شتم من الرياضة داخل المدارس ، ولا تخرجوهن إلى الشارع ، فهناك الخطر كل الخطر .

ونحن لا يسعنا إزاء هذه الخطوة الموقفة من معالى الوزير العاضل إلا أن نرجى له عظيم شكرنا واعتباطنا ؛ وإلا أن نرجوه مخلصين أن يستمر في هذه الحملة المطهرة حتى تعود الأمور إلى وضعها الذى يرضاه الدين ، ويقره العقل السليم .

هل في الاحاد مادة للبقاء

ليس للملحدين دليل يعتمدون عليه

قلبنا مذهب الملحدين على كل وجه فلم نصادف فيه مادة للبقاء ، فهو ليس يعتمد على العقل ولا على الحس ولا على الشعور . فالعقل يأباه لأنه ينفي الموجد ، والعقل المجرد يقرر أن كل موجود لا بد له من موجد . ولأجل أن يتخلص المادى من هذا المأزق الحرج ، يزعم أن الكون لا أول له ، وليس به حاجة لموجد يوجده ، منكرنا هنا حصة العقل أيضا من ضرورة تعليل وجود كون متوحد الكائنات والقوى ، ومتباين الموجودات والنواميس ، وآخذ في الارتفاع والتكامل ، ووجد من الأزل بعير أن يكون له صانع مدبر يوجده ويديره .

هنا يكر علينا المادى فيشهر علينا سلاحنا نفسه قائلا : وكيف تدركون وجود صانع على ما تصفونه من العظمة والقدرة والإبداع من الأزل ، ألسنا وإياكم سواء في هذا الأمر ؟

نقول : لا ، والنوارق يفتنا لا تقدر ، وإليك البيان :

فما دمتم تشعرون بضرورة وجود شيء بدون موجد من أزل الآزال ، فالعقل لا يستطيع أن يتصوره جمادا ، لأن الجماد ميت ، لا حراك به ، ويبقى على ما هو عليه حتى تغيثه قوة تحركه ، وأين هي وليس في الوجود غيره ؟

ولكن العقل يستطيع أن يتصور وجود إله أزل أبدي لا يدرك كنهه العقل ، ولا تحد قدرته بحد ، يوجد المادة ويتصرف فيها على ما يقتضيه علمه وتديره وحكمته ، وهو متصف بجميع صفات الكمال ؛ ثم هو إن كان لا يدرك كنهه بالعقل فذلك لأنه قوى مرتبة الموجودات .

فالإدراك إذا اضطر أن يبحث في أصل الوجود ، وهو مضطر إلى ذلك كل الاضطرار بحكم تركيبه الأدبي ، فلا معدى له عن إعطاء حق الوجود الأول ،

لموجد لا حدة لقدرته ، ولا نهاية لسلطانه ، يقدر أن ينشئ كل هذه المخلوقات ،
لا لمادة تراه مجردة من العقل والإرادة والاختيار !

وإذا أضفت إلى هذا أنه لا توجد أدلة تسند الإلحاد إزاء آلاف من الأدلة
التي تثبت الإيمان ، أدركت أن الإلحاد نقص حلقى في الإنسان ، أى أن صاحبه
يميل إلى النقي بطبيعته ويكره أن يعتبر من زمرة المؤمنين . وكما يوجد هذا النوع
من المرض الأدبى في الإنسان ، يوجد نوع آخر أكثر شيوعاً وهو عدم الاهتمام .
هذا النوع يشاهد في أكثر الناس وخاصة في هذه الأيام التي كثر فيها الاهتمام
بالأعمال المعيشية والمزاحات . ومؤلاً أقل خطراً من سابقهم وإن كانوا يصرون
أنفسهم من حيث لا يدرون : فإن الإنسان مهما انقسمت له الحياة ، فإنها قد
تجهم له في بعض الأدوار ، إما لمرض يصيبه أو يصيب بعض ذويه ، أو لازلة
تحيق به فتفقده ماله وجهه وتضييق في وجهه المتداح . فهل تظن أن في العالم شيئاً
يمكن أن يسلبه فيها أصابه من هذه المسكاره غير اللجأ إلى موجد ، والاستئناس
بذكره ؟ ولكك لا تستطيع أن تقوم طبيعته بشيء من هذا مهما بالغت له
في الموعظة . وهو على أية حال يكون خيراً من الملحد الذي إن أصابته كارثة
لا يرى أيسر لديه من إزهاق نفسه برصاصة تخترق فؤاده ، أو تحرق عنه .

كل ما في صميم الإنسان من قوى ، وما يحيط به من عوامل خارجية ، وما هو
مدفوع إليه من الغايات البعيدة ، وما هو ممنوبه من المتاعب الأدبية والمادية ،
يدل على أنه خلق ليكون متديناً ، ومتديناً معناه ذا عقيدة يعتصم بها حيال الكوارث
التي تصيبه في حياته الدنيوية القصيرة الأمد ، ولذلك لا يوجد الإنسان حيث
يكون إلا متديناً ، ولا يزال في عصر الشكوك متديناً ، ولن يزال متديناً . أما الذين
جانبوا الدين تحت أى عنوان كان فشواذ ، وهم شواذ حتى في إلحادهم . وقد استنجد
العلامة الدكتور (ووقى) في كتابه (هل الإلحاد ممكن) L'athéisme ؟
est-il possible ؟ من ذلك أن الإلحاد سيزول شيئاً فشيئاً . فقال :

« الإلحاد آخذ في الزوال شيئاً فشيئاً على نسبة التطور العقلى للإنسان . لأنه
لا يستطيع البقاء بعد أن تبين أن الأصول التي كان يستند إليها أصبحت عديمة
القيمة ولا تعتمد على قواعد أدبية . وليس مجرد حكمتنا بعدم وجود شيء ،

بدون تقديم الأدلة على ذلك ، يتمتع من وجوده . والتفكر في وجود خالق للكون وساجة الإنسان للاعتقاد ، هما فطريان في الإنسان ، ويفخران العقول والقلوب معا ، وإن القادة من الكفرة عينا يحاولون طمس الدين ، وإبعاده عن المدارس ، وعن الدولة ، ولن يستطيعوا التغلب عليه ؛ بل تراه يعود ويسود رغما عن كل هذه الموانع ؛ لأنه متصل بصميم الطبيعة الإنسانية .

ثم عقب الدكتور المؤلف على هذه العبارة بقوله :

« كل عقل منطقي ، صحيح النظر ، وقويم المحاكاة والحكم ، لا يستطيع أن يحدد وجود قدرة عليا خلقت الوجود ونظمته . »

« والمحددون أنفسهم يعترفون بذلك . وهذا الأستاذ (لوداتك) Le Dantec^(١) يعترف بذلك ويصرح علنا بأنه ليس لديه أى دليل فلسفي أو علمي يجعله على الإلحاد . وأنه ملحد بفطرته ، دون أن يعلم لها هو كذلك . ويجبور أن يكون ذلك أمر ورائي . »

« ويزيد على ذلك فيعلن على رموس الأشهاد بأنه ليس له أى دليل على عدم وجود الخالق ، فكتب يقول في كتابه (الإلحاد) L'atéisme

« أنا ملحد على نحو ما أنا (بروتوني)^(٢) ، كما قد يكون الإنسان أسمر أو أشقر دون أن يكون له دخل في أنه كذلك . وليس لدى من دليل أقدمه على أن الإلحاد خير من شيء غيره ، لأنني لم أعرف قيمة ذلك الشيء ولم أذوقه . »

عقب الدكتور (ووتي) على هذا الاعتراف في كتابه (هل الإلحاد ممكن) بقوله :

« من المحال إعطاء تصريح أبلغ من هذا على وهي الأساس الذي يقوم عليه الإلحاد . وبما يجعل لهذا الاعتراف قيمة أنه صادر من أشهر خصوم الإيمان الذين نبغوا في القرن العشرين . »

(١) العلامة (لوداتك) من أعلام علم الحياة ومدرسه بجامعة باريس .

(٢) بروتوني أى من أهل بريطانيا وهي مقاطعة في فرنسا . وفي إنجلترا مقاطعة كبيرة بهذا الاسم ، ولذلك سميت القرية الانجليزية بريطانيا العظمى .

ثم عقب الدكتور (ورنى) على هذا التصريح المكتوب بقوله :

« إننا لا نستطيع أن نحسن غائمة القسم الأول من كتابنا هذا إلا إذا قلنا الكلمات التى ألقاها (فيكتور هوجو) فى الجمعية التشريعية التى عقدت فى ١٥ يناير من سنة (١٨٥٠) ياربر ، قال :

« توجد كارثة فى زماننا هذا ، وكنت أريد أن أقول (شبه كارثة) ، ألا وهى الميل إلى حصر كل اعتبار فى هذه الحياة وحدها . والحقيقة أنه يافناح الإنسان بأن هذه الحياة الأرضية المادية هى الفرض الاسمى من الوجود ، والنهاية التى ليس بعدها مرى ، تتضمن جميع متاعب العيش ، وتعظم سائر تكاليفه ، وتصبح فكرة العدم غير ممكنة الاحتمال ، ويتقلب الألم وهو ناموس إلهى موصل إلى الكمال ، ناموساً من اليأس موصلاً إلى النار . وقس على ذلك جميع الشؤون الاجتماعية .

« فالذى يخفف الجهاد ، ويشرف العمل ، والذى يجعل الشخص قوياً متسامحاً عاقلاً صبوراً شجاعاً جريئاً ، وفى الوقت نفسه متواضعاً وهظيماً جديراً بالحرية ، هو ما يترامى له على الدوام من حياة أبدية آكل ، يتألق نورها خلال غياهب هذه الحياة .

« فواجبنا جميعاً أن نوجه الرؤوس نحو السماء ، وأن نلفت جميع الأرواح إلى حياة بعد هذه الحياة ، يتقرر فيها العدل ، ويجازى كل هلى ما كسبت يده .

« فلنقل بأصرح المبارات ولنرفع الصوت عالياً ، بأن أحداً لا يتألم ظلماً ولا تغير فائدته . فإذا كان مساك العالم المادى التوازن ، فإن مساك العالم الأدبى هو العدل ، ثم إلى الله مصير الأمور . »

محمد فريد وجدى

من الأدب العربى

وبعد ، فلو كان المفكر الكبير فيكتور هوجو الفرنسى حياً ، لاستشهد فى هذا الموطن بقول الشاعر العربى :

إذا كان غير الله فى عدة الفنى أمته الرزايا من وجوه الفوائد

خطبة في حجة

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ فكري ياسين
مراقب البحوث والثقافة المساعد بالأزهر

—

أخرج مسلم من حديث جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم خطب الناس في حجة الوداع، فقال: «إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا. ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة؛ وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث؛ ورب الجاهلية موضوعة، وأول ما أضع، ربانا: ربا عباس ابن عبد المطلب، فإنه موضوع كله، فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحلتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وقد تركت فيكم، ولن تضلوا بعده إن اعتصمتم به، كتاب الله؛ وأنتم تسألون عني، فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت، وأديت، ونصحت. فقال بأصبعه السبابة، يرفعها إلى السماء، وبسكنها إلى الناس: اللهم اشهد، اللهم اشهد - ثلاث مرات - .

• • •

لا خلاف بين العلماء في أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يحج بعد ما هاجر من مكة إلى المدينة سوى حجة واحدة وهي حجة الوداع، ولا خلاف بينهم كذلك في أن هذه الحجة كانت في السنة العاشرة للهجرة .

فبعد أن مكث النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة تسع سنين لم يمحج خلالها ، اعترم في السنة العاشرة الذهاب إلى مكة لأداء الحج ، فأعلم الناس بذلك ، وأشاع بينهم ، ليتأهبوا له ، ويتعلبوا المناسك والأحكام ، ولتنتشر دعوة الإسلام ، وتبلغ القريب والبعيد .

وفي يوم السبت لست بقين من ذي القعدة - على أصح الأقوال - خرج من المدينة نهاراً ، بعد أن صلى الظهر بها أربعاً ، وخطب الناس خطبة عليهم فيها الإحرام وواجباته وسنته ، وقد خرج معه خلائق لا يحصون ، فكانوا من بين يديه ، ومن خلفه ، وعن يمينه ، وعن شماله مد البصر ، وقد قدم البعض يتسعين ألفاً ، وقدم آخرون بأربعة عشر ومائة ألف ، وساروا حتى بلغوا ذا الحليفة ، فزلوا بها ، وأقاموا فيها ليلتهم ، وأحرموا منها .

وفي اليوم الرابع من ذي الحجة بلغ الحبيج مكة ، فدخلها النبي صلى الله عليه وسلم نهاراً من أعلاها ، من الثنية العليا التي تشرف على الحجون ، ولما دخل المسجد ، عمد إلى البيت فاستلم الحجر الأسود وقبّله ، وطاف بالبيت سبعاً ، فلما كان يوم التروية - وهو اليوم الثامن من ذي الحجة - توجهوا إلى منى وباتوا بها ، وعندما طلعت الشمس ، سار النبي صلى الله عليه وسلم إلى عرفة ، فوجد القبّة التي أمر بها ، قد ضربت له بعمرة (وهي قرية شرقي عرفات) فزل بها ، حتى إذا زالت الشمس أمر بآفته الله صواء ^(١) ، فوضع عليها الرحل ، ثم سار حتى أتى بطن الوادي من أرض عرفة ، فخطب الناس وهو على الراحلة خطبة عظيمة ، قرر فيها قواعد الإسلام ، وهدم فيها قواعد الشرك والجاهلية ، على نحو ما أثبتناه من حديث جابر في صدر هذه الكلمة .

وقد قال النووي عن هذا الحديث : إنه حديث عظيم مشتمل على جمل من العوائد ونمائن من مهمات القواعد ، وهو من أفراد مسلم ، لم يروه البخاري في صحيحه ، ورواه أبو داود كرواية مسلم .

(١) قصواء - بفتح القاف وبالد : الناقة التي تلحظ طرف أدها ، وقيل : المقطوعة الأذن عرضاً ، وقصوى بضم القاف وقصر - كما جاء في بعض الكتب - تحريف وحطاً .

وقال عنه القاضي عياض: وقد تكلم الناس على مافيه من الفقه، وأكثروا، وصنف فيه أبو بكر ابن المنذر جزءا كبيرا، وخرج فيه من الفقه مائة وثلاثة وخمسين نوعا، ولو تقصى لزيد على هذا القدر قريب منه.

وفي الحق أن هذه الخطبة — وخصوصاً النص الذي أخرجه ابن إسحاق — لم تتضمن فروعا من الفقه حسب، بل تضمنت كثيرا من أصول التشريع، وضروب الإصلاح، وفنون السياسة، وشئون الاجتماع، وتعرضت من قريب ومن بعيد لكل ما يتصل بمصالح الناس في معاشهم وفي معادهم: فهي تقرر — كما جاء في رواية ابن إسحاق — تحريم المحرمات التي اتفقت الملل كلها على تحريمها، وهي الدماء والأموال والأعراض، وتشبهها في حرمتها بحرمة يومهم وشهرهم وبلدهم، وكان ذلك أمرا مسلما به عندهم: وتخبر أنهم سيلفون ربهم، وأنهم مسئولون عن أعمالهم، وأنهم مطالبون بأداء الأمانة إلى من انتتمهم عليها، وأن أمور الجاهلية كلها موضوعة، وأن رباها باطل، ودماها مهددة: وتنبئ بياس الشيطان من عبادته في أرضهم هذه، وبطمعه في محقرات أعمالهم، ومستصغرات أمورهم: وتحذروهم من على دينهم: وتحدث إليهم عن النسيء، وزيادته في الكفر، واستدارة الزمان، وعدة الشهور، وبيان الحرم منها وغير الحرم: وتوصيهم بالنساء حيرا: وتبين لهم الحق الذي لهم وعليهم، والظروف التي يباح فيها للرجل تأديبين: كما توصي بالاعتصام بكتاب الله، وسنة رسوله: وتخبرهم أنهم لن يضلوا ما داموا معتمدين بهما: وأخيرا تطالبهم بالسمع والفهم، وبمعرفة أن المسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين جميعاً إخوان، وأنه لا يحل للأخ من أخيه إلا ما أعطاه إياه عن طيب نفس منه، وتأمرهم بالابتعاد عن الظلم.

فأنت ترى من كل هذه المبادئ والتعاليم، والوصايا والإرشادات، والحكم والأحكام التي اشتملت عليها هذه الخطبة، أنها يصح أن تعتبر بحق وثيقة إسلامية هامة، وأن تعد من أرق الوثائق، وأجمعها لأحكام الدنيا والدين.

وإن المتنبع للسنة الصحيحة الواردة في حجة الوداع، يجد أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقتصر في هذه الحجة على هذه الخطبة وحدها، بل إنه لما رجع إلى منى

خطب الناس خطبة بليغة أعلمهم فيها بحرمة يوم النحر، وتحريمه وفصله عند الله، وحرمة مكة على جميع البلاد، وأمرهم بالسمع والطاعة لمن قادم بكتاب الله، وبأخذ مناسكهم عنه، وبألا يرجعوا بعده كفارا يضرب بعضهم رقاب بعض، وبالتبليغ عنه، وقال لهم: اعبدوا ربكم، وصلوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأطيعوا صاحب أمركم، تدخلوا جنة ربكم. وأنزل المهاجرين عن يمين القبلة، والأنصار عن يسارها، وفتح الله له أسماع الناس، حتى سمعها أهل منى في منازلهم. وكذلك لم يقتصر صلى الله عليه وسلم على الخطب وحدها، بل كانت هناك أيضا الإجابات الكثيرة على الأسئلة التي كانت توجه إليه، والبيانات المتعددة التي كان يبين فيها الأعمال والمناسك، وما يتعلق بها من تقديم وتأخير وتعميل وتسهيل، وترتيب، وغيرها. وهكذا لم تنقض هذه الحجة حتى كان النبي صلى الله عليه وسلم قد أرى الناس مناسكهم، وأعلمهم ما فرض الله عليهم من الموقف، ورى الحجار، والطواف بالبيت، وما أحل لهم من حجهم، وما حرم عليهم.

وقد سميت «حجة الوداع»، لأن النبي صلى الله عليه وسلم وعدع الناس فيها وبعدها، ولأنها كانت آخر حجة له. وسميت «حجة الإسلام»، لأنه لم يخرج من المدينة بعد فرض الحج غيرها. وسميت «حجة البلاغ»، لأنه بلغ فيها الشرع في الحج قولاً وفعلاً. وسميت «حجة التمام والكمال»، لأن الله أكمل للناس فيها أمر دينهم، وأتم عليهم نعمته. ويشهد لهذا أنه صلى الله عليه وسلم لما وقف في ديل الجبل عند الصحرات، ونزل عليه قوله تعالى: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً». وأخذ يتلوها، مسمعه أبو بكر فيبكي، لأنه فهم أن النبي صلى الله عليه وسلم قد تمت رسالته، ودنا أجله.

عرض الحديث فيها عرض له، إلى بيان حرمة سفك الدماء وأخذ الأموال بالباطل؛ وشبه ذلك في التحريم بيوم النحر، وبذى الحجة، وبمكة؛ لأنهم كانوا يعتقدون أنها محرمة أشد التحريم، لا يستباح منها شيء؛ وفي تشبيه هذا مع بيان حرمة الدماء والأموال تأكيداً لحرمة تلك الأشياء التي شبه بتحريمها الدماء والأموال، وهذا من تشبيه ما لم تجز به العادة بما جرت به العادة، كما في قوله

تعالى : « وإذ تلقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة » ، إذ كانوا يستنشقون دماءهم وأموالهم في الجاهلية في غير الأشهر الحرم ، ويحرمونها فيها ، فكأنه قال : إن دماءكم وأموالكم محرمة عليكم أبدا كحرمة يومكم وشهركم وبلدكم .

ثم أشار الحديث بقوله : ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع ، إلى إبطال أفعال الجاهلية وردّها ، وعدم تمويل الرسول عليها ، وبدأ من ذلك بإهدار الدماء ، وأولها دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، وكان هذا الابن طفلا صغيرا يحبو بين البيوت ، فأصابه حجر في حرب كانت بين بني سعد ، وبني ليث بن بكر ، فقتله ، واحتلفوا في أمم هذا الابن ، والمحققون والجمهور على أن اسمه إلياس . ثم ثي يابطال الربا ، وأول ما أبطل منه ربا عمه العباس ، والمراد به القدر الزائد على رأس المال ، كما قال تعالى : « وإن تبتم فلكم رموس أموالكم » . ولقد كان هذا الصنيع من الرسول صلوات الله وسلامه عليه صنيعا حكيما ، لأن الذي يدعو إلى الإصلاح ، ويتصدى للأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ينبغي أن يطالب بذلك نفسه وأهله أولا ، ثم يطالب به غيره بعد ذلك ؛ فإن هذا أقرب إلى قبول دعوته ، والإذعان لفكرته ، خصوصا عند من قرب عهده بالإسلام .

ولم يغفل الحديث في هذا المقام أمر المرأة ، والتنيه على كثير من شئونها ، وبيان ما لها وما عليها من حقوق وواجبات ، فحث على مراعاة حقها . وأوصى خيرا بها ، وأمر بمعاشرتها بالمعروف ، وأوجب نفقة الزوجة وكسوتها ، وضمن كل ما فيه كفايتها ومصاحتها ، وأشار إلى أنها هي أيضا مطالبة نحو زوجها بالإحلاس له ، والأمانة في عشرته ، والابتعاد بها عن مواطن الزلل ، وموارد التلذذ ، وصيانتها عن كل شبهة تدخل على نفسه الوسوس ، وكل رية تسبب له الشكوك والأوهام ، فلا يحل لها أن تستحل بالرجال ، ولا أن تأذن لأحد يكرمه الزوج في دخول بيته ، والجلوس في منزله ، سواء كان المأذون له رجلا أجنبيا أو امرأة ، أو أحدا من عارم الزوجة ، ولا يصح لها أن تأذن إلا لمن صلت أو ظنت أن الزوج لا يكرمه ، لأن الأصل تحريم دخول منزل الإنسان حتى يوجد الإذن في ذلك منه ، أو ممن أذن له في الإذن في ذلك ،

أو عرف رضاه بإطراد العرف في ذلك ونحوه ، ومتى حصل الشك في الرضا ، ولم يترجح شيء ، ولا وجدت قرينة ، لا يحل الدخول ، ولا الإذن .

وقال القاضي عياض : كانت عادة العرب حديث الرجال مع النساء ، ولم يكن ذلك عيباً ، ولا رية عدهم ، فلما نزلت آية الحجاب ، "نہوا عن ذلك" .

وليس المراد الزنا في قوله : ولکم علیہن الا "یوطئن فرشکم أحداً نکرهونه" ، لأن الزنا يوجب حدّها ، وهو حرام مع من يكرهه الزوج ومن لا يكرهه .

وقد أباح الشارع للزوج تأديب الزوجة بالضرب الغير المبرّح إن فعلت شيئاً من ذلك ، والضرب المبرّح : هو الشديد الشاق .

والصحيح أن المراد بكلمة الله في قوله : واستحلّمت فروجهن بكلمة الله : إمباحه الله ، والكلمة هي قوله تعالى : فاسکروا ما طاب لکم من النساء ، وقيل : المراد قوله تعالى : فامساک بمعروف أو تسریح بإحسان ، وقيل : المراد كلمة التوحيد ، وهي لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فإنه لا تحل المسلمة لغير المسلم ، وقيل : المراد بالكلمة الإيجاب والقبول ، ومعناه على هذا الكلمة التي أمر الله تعالى بها .

ثم عتّب الحديث ذلك كله ، ببيان أن النبي صلى الله عليه وسلم ، قد ترك بين المسلمين أمراً عظيماً ، لو تمسكوا به ، واحتدوا بهديه ، واعتصموا بحبله ، وساروا على مقتضى أحكامه وحكمه ، لمز شأهم ، وقوى سلطانهم ، وعلت كلمتهم ، وتحققت هدايتهم ، وظلوا في مأمن من الفتن والضلالات ؛ وذلك الأمر هو القرآن الكريم ، كتاب الله الحكيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

وقد اختتم الحديث بسؤاله لهم عن موقفهم منه ، ومقالم فيه ، وشهادتهم بشأنه حين يسألون عن ذلك ، فلب قالوا له : نشهد أنك قد بلغت الرسالة ، وأديت الامانة ، ونصحت في كل ما جئت به قولاً وفعلًا ، أشار بإصبعه السبابة ، يقلبها ويردها ، فيرفعها الى السماء نارة ، ويخفضها الى الناس أخرى ، ثم استشهد الله عليهم ثلاث مرات ، وأمرهم أن يبلغ الشاهد منهم الغائب .

الكتاب والميزان

هما سر الحياة

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد محمد المدني

المفتش بالأزهر

قال الله تعالى : في سورة الشورى . « الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان ، وقال في سورة الحديد : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط » .

وهاتان الآيتان الكريمتان يتحدثان عن شأن من شئون الله تعالى في هذا الكون ، لولاه ما استقر نظامه ، ولاتمت عمارته ، ولأدرك الفساد ، وطواه الفناء ؛ ذلك هو سنة الله في إنزال الكتاب والميزان .

وقد اختلفت أقوال المفسرين في معنى الميزان ؛ فمنهم من فسرهُ بالحقيقة اللغوية لهذا اللفظ ، فذكر أن المراد به هو تلك الآلة التي تعرف بها مقادير الأشياء ؛ ونسب هذا القول الى الحسن والضحاك وقادة ، وقد رويوا في تأييد ذلك أن جبريل عليه السلام نزل بالميزان فدفعه إلى نوح عليه السلام وقال : « مر قومك بزنوا به ؛ كما رويوا في شأن الحديد الذي جاء ذكره في قوله تعالى : « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » ما ورد من أن آدم نزل من الجنة ومعه خمسة أشياء من حديد : السندان ، والكائتان ، والمقعدة ، والمطرقة ، والإبرة .

ولا ينبغي أن هذا وقوف عند معاني الالفاظ المفردة ، وإهمال للبنى التركيبية الذي جاء على المؤلف في كتاب الله عز وجل ، وفيما عرف من كلام العرب .

ومنهم من فسر الميزان بالعدل الذي شرعه الله ، وأمر به ، وجعله سبباً في استقامة الأحوال ، وبقاء الملك ، واطمئنان كل ذي حق على حقه ؛ وفي ذلك

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : بالعدل قامت السموات والأرض . .
وهذا هو قول الحسين بن الفضل ، ورجعه كثير من المفسرين .

ولا شك أن لكل من الميزان الذى هو آلة التقدير والمعادلة ، والميزان الذى هو العدل والقسطاس المستقيم ، شأنه فى نظام الحياة ، وما تستقر عليه أحوال الناس ؛ ولكن التعبير القرآنى فى هاتين الآيتين اللتين سقناهما يوحى بأن معنى آخر أجمل من ذلك وأسمى وأبعد فى نظام الكون أثراً هو المراد ؛ فالآية الأولى تقول : الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان ، والكتاب كما يقول العلماء : جنس أريد به سائر الكتب السماوية التى أنزلها الله على رسله ليشرح لهم الدين ، ويبين لهم الحق ، ويأخذهم بالمنهج القويم الذى به يسعدون ؛ ولا شك أن البشر ما كانوا يستطيعون أن يستقلوا بإدراك الخير والشر والحق والباطل والصالح والفساد ؛ لأن العقول تختلف ، والآهواء تتضارب ، والأزمان والبيئات تتفاوت ، وقد يكون الخير فى نظر قوم شرراً فى نظر آخرين ، وقد يرى بعض الناس شيئاً من الأشياء حقاً أو صلاحاً ، ويراه غيرهم باطلاً أو فساداً ، فلم يكن بد من هداية إلهية يقف أمامها العالم واقفاً مطمئناً راضياً لا يتجالحه فى صحتها شك ، ولا يزلله عنها تغير زمان أو مكان ، أو تقلب حال بعد حال .
فألمة يأنزال الكتاب ، وإرسال الرسالات الإلهية الى بنى الإنسان ، منة عظيمة ؛ لأنها منة بتركيز الحياة على أسس ثابتة ، ومقاييس عادلة ، لولاها لظل بنو آدم فى عمية من أمرهم ، وتخبط فى شئونهم ، وتداول بين المذاهب البشرية التى لا تسلم من الاغراض والآهواء والاختلاف .

وإذا كان الأمر كذلك ، كان من البعيد أن يذكر مع هذا المعنى الجليل ، والشأن الخطير ، شأن الميزان بمعنى آلة التقدير ، وأن يسلط فعل : أنزل ، على الميزان بهذا المعنى كما سلط على الكتاب ؛ ومهما قال القائلون فى فوائد الميزان ونفعه للناس فى معاملاتهم وأخذهم وعطائهم ، وتحقيقه للعدل بينهم ، ونفيه للظلم والحيف ، فإن ذلك لا يمكن لأن يفرضه الله بالكتب والرسالات الإلهية فى الذكر ، ويعبر عنهما جميعاً بما يفيد أنهما منته صدرها ، ويتدبيره وعمله كاملاً .

أما التفسير الثاني، وهو تفسير الميزان بالعدل، فإن كان المراد بالعدل التسوية بين الناس في الحقوق والواجبات ومنع الخيف والظلم، فذلك شأن عظيم، وتشريع حكيم، له أثره في حياة الناس ومعيشتهم آمين مطمئنين؛ ولكنه على ذلك معنى ضيق بجانب هذا التفسير القرآني: فالعدل شرعة أمراً لله بها، وواجب على الناس اتباعها، كسائر ما تضمنه الكتاب من الشرائع والأحكام والمأمور، وليس يمكن أن نقول: عطف الخاص على العام أو نحو ذلك بما يلجأ إليه لتصبح أصل الكلام، وتكلف الدفاع عن معنى معين، أو أن نقول كما قال أصحاب هذا القول أنفسهم بأن معنى الميزان على هذا التفسير هو القرآن؛ فكأنه قال: أنزل الكتب السماوية وأنزل القرآن، بيانا لعظم شأنه واختصاصاً له بالذكر والتبويه على نحو ما قيل في عطف جبريل وميكال على الملائكة في قوله تعالى: «من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين».

وإن كان المراد بالعدل أمراً أبعد من ذلك هو الذي ينبغي أن يفهم من الحديث الذي ساقوه، وهو العدل الإلهي الصادر من الله بمعنى معادلة الأشياء وإعطاء كل شيء خلقه، وتوفية كل مستحق ما استحقه، فذلك هو المعنى الصحيح الذي ينبغي أن تحمل عليه الآيتان ويفسر به الميزان. يبان ذلك أن الميزان الذي أنزله الله هو التقدير المعلوم لكل شيء على حساب موافق للحكمة لا زيادة فيه ولا نقصان، وقد قامت السموات والأرض بهذا الميزان؛ فالسموات قد ضبط أمرها، وقد شأنها بضابط إلهي من صنع الله الذي أتقن كل شيء، وليس لأحد من الخلق فيه شأن؛ والأرض كذلك أنشأها الله، وهياً أسباب الحياة فيها، وقدّر فيها أقواتها، وأثبت فيها من كل شيء موزون، أي مقدر حسب الحكمة، ووفقاً لحاجة سكانها، وكل ذلك بفعل الله وحده، ولو احتل شيء من ذلك واضطرب الميزان فيه، لما بقيت الدنيا طرفة عين. وإنما مثل هذه الدنيا من سمائها وأرضها وهوائها وبحارها وجميع ذراتها، ما علقناه من أمرها وما خفي، كمثل بناء مناسك له قوانين تضبطه، وموازين تحكمه، عليها بقاؤه، وباختلالها أو أحدها يكون اضطرابه ثم فناءه. ولما كان هذا الميزان من صنع الله وليس لأحد فيه شأن قتل أو جل؛ قال الله

تعالى : « أنزل الكتاب بالحق والميزان » ليفهما أن الكتاب والرسالات الإلهية أمر تقصى به حكمة الحكيم ، ورحمة الرحيم ، وهى منه صادرة ، وإلى الناس نازلة ؛ كذلك الميزان والتقدير الذى دبرته عليه الكائنات ، وقامت به الأرض والسموات هو منه وبه ، ولولاه ما كانت الدنيا .

وكما يقال هذا فى الآية الأولى ، يقال فى الآية الثانية ، وهى قوله تعالى : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان » فهى تحدث عن نعمة الله فى اصطفاء فريق من خلقه يعهد إليهم بالرسالة إلى الناس ، ويهيئهم لهذه الرسالة بما يطعمهم عليه من الصفات العالية ، ويؤيدهم بالبينات ، ليعلم الناس صدقهم ، ويؤمنوا بهم ، وهو مع ذلك لم يتركهم لما منحهم من صفات وهياهم عليه من طبائع شريفة ، ولكنه أنزل مع إرسالهم الكتاب وأنزل الميزان . وقد يفسر الإيزال حين يعنى إلى الكتاب بمعنى الإيحاء ، وحين يعنى إلى الميزان أو الحديد بمعنى التهيئة والإنشاء كما فى قوله تعالى : « أنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج » ، ومهما يكن من شيء فقد جمع الله بين إيزال الكتاب ، وإيزال الميزان ، فلا ينبغي أن تفهم الميزان على معنى يضيق عما أسلفنا من التفسير والبيان .

الكتاب والميزان إذن هما أساس الحياة ، وفطرة الله التى فطر عليها هذا الخلق ، وبرأ بها هذا الكون ؛ وبعبارة أخرى : لا قوام للعالم إلا بالرسالات الإلهية التى جاد الله بها على خلقه هداية لهم وتعلية ، وأخذاً بأيديهم إلى السعادة والهناء ، كما لا قوام له إلا بهذا الميزان المتعبط ، والتقدير السليم المحكم الذى قدر الله به جميع ما خلق ، وصان به الكون من الزوال والخلل والاضطراب ، وقد يلتقى مع هذا المعنى قوله تعالى فى آية أخرى : « أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » . إذا فسر بأنه منح كل شيء فى هذا الكون خواصه ومزاياه على تقدير حكيم ، ووزن سليم ؛ فلماذا خصائصه بميزان وتقدير ، وللهواء خصائصه بميزان وتقدير ، وللجود فى مختلف أنواعه خصائصه ، وللحيوان خصائصه ، وللشمس والقمر وللنجوم خصائصها ... إلى غير ذلك مما خلق الله ، ثم هدى الناس إلى الحق والخير والجمال بما بعث فيهم من رسل ، وأنزل عليهم من كتاب .

أما بعد ، فإن الكتاب أمر ونهى ، وتحريم وتحليل ، ووعظ وتذكير ، وترية للروح ، وإرشاد إلى المثل الطيبة ، والأخلاق الفاضلة ، وتنفير من الرذيلة ، وحث على الفضيلة ؛ والميزان هو مظهر الحكمة الإلهية ، والتدبير الرباني ، فيما نرى من غنى وقدر ، أو صحة وسقم ، أو ذكاء وغباء ، أو جمال وقبح ، أو سعادة وشقاء ؛ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولكنه وزع الحظوظ ، وقسم القسم ، وخالف بين خلقه من الأشياء والأشخاص والامكنة والازمنة ، ففضل ماشاء على ماشاء ، ورفع بعضهم فوق بعض درجات ، ولن يصلح أمر هذه الحياة إلا بالكتاب والميزان ، فكل نظام من الظم البشرية يقوم على أساس الرضوخ لها ، والاعتراف بهما ، والوقوف عند حدودهما ، والرضا بحكمهما ، فهو نظام ناجح باق لأنه موافق للطبيعة والفطرة ، غير معاند لسنن الله التي أقام عليها هذا الكون ؛ وكل نظام يرفض هذين أو أحدهما ، ولا يرضى بهما أساساً له ، يحاول أن يخرج على شرائع الله ، وأن يتعدى حدود الله ، أو يحاول أن يطنى في الميزان ويعدل بزعمه أمر الله ؛ فهو نظام زائف مزلول لا بقاء له ، ولا حياة ، ولن يستقر معه قرار الناس ، ولو أيدته القوة ، ودعاه الدعاة ، فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض .

آداب عيادة المرضى

اعتل الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي ، فكان إسماعيل بن صبيح الكاتب إذا أنه عانداً لم يزد على السلام عليه ، والدعاء له ، ويخفف في الجلوس ، ثم يلقى حاجبه ، فيسأله عن حاله ومأكله ومشربه ونومه ، وكان غيره يطيل عنده الجلوس . فلما أفاق الفضل من علته ، قال : ما عادتني في علتي هذه إلا إسماعيل بن صبيح . كان معاوية إذا أراد صرف جلساته قال لهم : إذا شئتم . . . وكان ابنه يزيد يقول : على بركة الله . وكان عبد الملك بن مروان يضع الخبزتان من يده . وعادة الملوك اليوم إذا أراد أحدهم صرف الجالسين عنده ، قام فيودعونه ، ويصرفون .

نظرات في توثيق المعاملات المالية

بين الشريعة والقانون

أفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد اللطيف السبكي
المفتش بالآزم

— — —

التوثيق الكتابي

قال الله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَعْتُمْ بَيْنَ إِلَى أَجَلٍ مَسْمُومٍ
فَاكْتُبُوهُ... الآية » .

تعتبر هذه الآية الكريمة مفتاح الكلام ، على التوثيق في الدين وحكمه في
نظر الشريعة .

وقديما شحذ العلماء لها أقدامهم ، وأفرغوا فيها جهودهم ، ومع ذلك لانزال
الأنهام فيها بين أخذ ورد ، لعدم استقرار الأولين ضد رأى قاطع .

وقد عرضت الآية للدين وتوثيقه من نواح عدة ، فذكرت كتابة الدين ،
وعدالة الكاتب ، وعدالة المملئ ؛ وذكرت الاستشهاد على الدين ، وعدالة الشهود ،
وما يتصل بذلك من الإثبات على البيع ، وما يستثنى توثيقه ... الخ .

وقصدي في هذا الصدد أن أوازن بين آراء العلماء في حكم الكتابة أولا ، وأن
أركن إلى ما أطمئن إليه من وجوه الرأى ، بعد توجيهه ما استطعت ، تاركا تفصيل
الكلام على الشهادات والشهود إلى موضوعه .

قال القرطبي رحمه الله : وقال ابن عباس : هذه الآية نزلت في السلم خاصة ؛
ومعناه : أن سلم أهل المدينة كان سبب الآية ، ثم هي تناول جميع المداينات إجماعا ..
ثم زاد فقال : وحقيقة الدين عبارة عن كل معاملة كان أحد العوضين فيها نقدا
والآخر نسيئة ؛ وذكر شواهد من الشعر العربي يزيد بها تفسيره للدين بما ذكر .
فالذي يفيد كلام القرطبي أن أهل المدينة كانوا يتعاملون بالسلم ، وهو كما نعلم

يشتمل حتماً على الأجل في الثمن . والظاهر أن الخلاف كان يقوم بين المتعاملين ويحدث بينهم ما يباه الإسلام من تنازع . فرقاً بالناس أقرم الدين على هذا النوع المعهود بينهم ، وفظمه لهم بما يكفل الغرض المرجو منه ، فأمرهم بكتابتها والاستشهاد عليه ، على نحو ما أوضحت الآية .

غير أن الحكمة التي اقتضت كتابة دين السلم تنوفر في غيره من الديون ؛ لذلك جاء لفظ الدين عاماً في السلم وفي غيره ، ومن هنا عزم العلماء في مفهوم الدين ، حتى كان إجماعاً على ذلك ، كما يحكي القرطبي ؛ وهذا التعميم مصداق القاعدة المشهورة لدى المفسرين : العبرة بعموم اللفظ ، لا بخصوص السبب .

ثم انتقل القرطبي بعدما سلف إلى تفسير قوله تعالى : فاكتبوه ، لجعل ضمير المفعول عائداً على المذكور من الدين والأجل مماً ، وجعل الأمر بالكتابة يتناول الإشهاد على الدين في الكتاب ، وعلى هذا بأن الكتابة من غير إشهاد لا تكون حجة . وكان القرطبي في غنى عن هذا ؛ لأن الإشهاد مأثور به صراحة في قوله سبحانه : : واستشهدوا شهيدين من رجالكم

ثم قال القرطبي : في قوله تعالى : : فاكتبوه ، إشارة ظاهرة إلى أنه يكتبه بجميع صفته الميئنة له ، المعربة عنه ، للاختلاف المتوهم بين المتعاملين ، المعرفة للحاكم بما يحكم به عند ارتقاهما إليه . ٥١ .

لخاض ما ذكره القرطبي : كتابة الدين وأجله مع الإشهاد على الكتاب ، وتضمنيه جميع الصفات التي تدفع ما يخشى من خلاف ، وتبشر الحاكم طريق الحكم فيه .

وقد عرض القرطبي بعد ذلك لتعريف الأمر بالكتابة ، وبيان حكمها شرعاً في توثيق الديون ، فذكر أن الأمر للوجوب عند بعض العلماء ، وأنه على ظاهره لم يصرفه صارف ، ويكون التوثيق الكتابي عند هؤلاء واجباً ، كما أن الإشهاد على البيع واجب عديم . ثم ذكر رأي الجمهور بحمل الأمر على التدب ، وانتصر له بقوله : وهذا هو القول الصحيح (ص ٣٨٣ ج ٣) .

ولم يذكر القرطبي عن أحد الفريقين تحريفاً بين الدين الخطير وغيره ،

وهذا يؤذن منه ومنهم بأن الكلام على الدين عامة . ويتفق معه في كل ذلك كلام الجصاص إذ يقول : « إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى » : ينتظم سائر عقود المدائنات التي يصح فيها الآجال . وكرر هذا الكلام مرة أخرى ، ومثل بقوله : « فن اشترى داراً أو عبداً بألف درهم إلى أجل » ، كان مأموراً بالكتابة والإشهاد بمقتضى الآية . ثم تناول الجصاص قوله تعالى : « تداينتم بدين » ، فذهب إلى أن لفظ « تداينتم » مشترك لفظي بين معنيين : فهو يحتمل معنى تجازيتم من المجازاة ، ومعنى تعاملتم بالدين ؛ ويرى أن لفظ « بدين » جاء لدفع الاشتراك ، وقصر اللفظ على المعاملة بالدين . ثم عرض الجصاص — كما عرض القرطبي — لبيان حكم الكتابة والإشهاد في توثيق الدين ، ففرض في الآية احتمالين .

أحدهما : أن تكون الأوامر الثلاثة في قوله تعالى : « فاكتبوه » ، واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، وأنشدهوا إذا تباينتم ، محمولة على الوجوب ، حتى نسخ ذلك الوجوب بقوله سبحانه : « فإن أمن بعضهم بعضاً ، فليؤد الذي أؤتمن أمانته » ، فإن في هذا الجزء الأخير تحليلاً عما كان واجبا .

الاحتمال الثاني : أن تكون الأوامر الثلاثة نزلت مع الجزء الأخير دفعة واحدة ، فلا نسخ إذن ، لما هو معسوف من أن الناسخ لا يجتمع مع منسوخه في زمن واحد . وعلى تسليم هذا الاحتمال في نظره لا تكون الأوامر الثلاثة مفيدة للوجوب ، لاقرانها بما يصرفها عنه إلى الدب ، وذلك الصارف هو قوله عز شأنه : « فإن أمن بعضهم بعضاً ... الآية » .

وخرج الجصاص من هذين الاحتمالين إلى أن تاريخ النزول غير معروف ، حتى يجزم بأحد الوجهين ، ثم رتب على عدم العلم بتاريخ النزول وجوب الحكم بورود السكك دفعة واحدة ، إذ قال : فلم يرد الأمر بالكتابة والإشهاد إلا مقروناً بقوله تعالى : « فإن أمن بعضهم بعضاً » الخ .

وانتهى إلى نتيجة حتمية في اعتباره ، وهي أن الأمر بالكتابة والإشهاد نذوب غير واجب .

وعدى أن الجصاص في أسلوبه متهافت على القول بالدب ، وأن منهجه

في القول لا يصل به إلى نتيجه ، إذ أن الجمل بتاريخ النزول ، لا يستلزم الحكم بنزول الكل دفعة واحدة ، لقيام الاحتمال أن تكون مفرقة في نزولها ، حتى لو كان الجمل بتاريخ النزول مستلزماً لما يقوله ، لما تحتم أن يكون الجزء الأخير . فإن أمن بعضكم . صارفاً للأمر عن الوجوب ، بل يظل الأمر في كل منها على الأصل فيه ، ويكون الجزء الأخير منتجاً إلى ناحية غير ناحية الكتابة والإشهاد . فلا يكون صارفاً ولا ناسخاً لما نفيه الأوامر الثلاثة من الوجوب ، فلا وجه لتحكم الجصاص فيما رآه .

ذلك موقف القرطبي والجصاص ، من التوثيق الكتابي وحكمه ؛ وقد حذا حذوهما كثير من المعسرین : كابن كثير ، والالوسي ، وكذلك جمهور الفقهاء من علماء المذاهب .

وذهب آخرون إلى القول بالوجوب ، ومنهم ابن جرير الطبري في تفسيره ، وانتصر لهذا الرأي في قوة . وعليه من الفقهاء مذهب الظاهرية ، وجنح إليه وارتصاه الأستاذ المرحوم الشيخ محمد عبده ، ولكل من القريئين أدلة يستند إليها فأدلة الجمهور ثلاثة : الأول ما تقدم نقله عن القرطبي والجصاص ، وموافقهما من قوله تعالى : فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي أؤتمن أمانته . فإن مناه عندهم إن توفرت الظمأة بينكم وأتمن بعضكم بعضاً من غير توثيق : فلي المؤتمن أن يؤدي أمانته التي في عهده ، ولا يتحتم التوثيق الكتابي ولا غيره ؛ فإن فرضنا الآية نزلت مفرقة كما هو أحد الاحتمالين ، فالوجوب المسفاد من أولها منسوخ بآخرها ، فلا تفيد حيث أنه أكثر من النذب . ويؤيد هذا القهم عندهم ما روى عن أبي سعيد الخدري ، ووافقه عليه آخرون ، فقد صرح أبو سعيد في صدد هذا يقوله : صار الأمر إلى الأمانة ، ثم تلا قوله تعالى . : فإن أمن بعضكم بعضاً ، الآية (ص ٤٨٩ ج ١ جصاص ، ص ٣١١ ج ٤ مفتي ابن قدامة) . وإن فرضنا الآية نزلت دفعة واحدة فقد بين آخرها أولها من أول الأمر ، بأنه للنذب .

الدليل الثاني للجمهور . أن النبي صلى الله عليه وسلم اشترى من أعرابي فرساً لجنده الأعرابي حتى شهده له خزيمة بن ثابت ، واشترى من رجل سراويل ، ولم يقل أنه أشهد في شيء من ذلك .

دليلهم الثالث : أن الصحابة كانوا يتبايعون في الأسواق ، فلم يأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم بالإشهاد ، وأن التعامل بالدين مما يكثر ، فلو كان الكتاب والإشهاد واجباً ، لكان فيه أولاً حرج ، والحرج منى شرعاً بنص القرآن ؛ وثانياً : كان يقلل لنا عن مصي ، فضلاً عن أن فضاه الأمصار متفقون على أن ما أمرنا به في آية الدين من الكتاب والإشهاد والرهن ، من قبيل الإرشاد إلى مافيه الحظ والصلاح للدين والدنيا (ص ٨٣ ، جصاص ، ص ٣١٩ ج ٤ معنى) .

وكذلك استدل القائلون بالوجوب بثلاثة أدلة :

الأول : أن الأمر ورد صريحاً بكتابة الدين والإشهاد عليه ، والاصل في الأمر الوجوب ، ما لم يرد ما يصرفه إلى التنب ، وحيث لم يوجد صارف له هنا فالوجوب مقطوع به عندهم .

الثاني : أن السنة وردت بذلك ؛ فقد روى أبو بردة عن أبي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ثلاثة يدعون الله فلا يستجيب لهم : رجل كانت له امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها ، ورجل أعطى ماله سعيها وقد قال تعالى : ولا تؤتوا السفهاء أموالكم ، ورجل له على رجل دين لم يشهد عليه ، (صفحة ٣٤٤ ج ٨ المحلى) .

ووجه الدلالة في هذا أن الحرمان من قبول الدعاء نقمة ، والنقمة لا تكون إلا على معصية .

الدليل الثالث : ما روى من الآثار ؛ فقد روى مجاهد أن ابن عمر رضي الله عنهما كان إذا باع بقدر أشهد ، وإذا باع بسبيته ، كتب وأشهد (ص ٣٤٤ ج ٨ المحلى) .

تلك خلاصة الأدلة للقائلين أولاً بالتدب في التوثيق ، ثم للقائلين ثانياً بالوجوب ؛ وكلها لا تسلم من المناقشة فيما بينهم ، وهي مناقشة مع طولها لم تحسم الخلاف ، ولا أرى في ذكرهما إلا تطويلاً في اللجاج ، إذ لم تنته بأحد الفريقين إلى رأى الآخر ، ولم تزل المسألة بحاجة إلى الاجتهاد بين مذهبيهما ، وترجيح ما يتضح صوابه ومعقوليته ، أو الاتجاه إلى رأى ثالث . وهذا يقتضى بحثاً آخر . ولعلنا نوفق إليه إن طال بنا الأجل .

طرف من مقاصد القصص القرآني

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ الطيب حسن النجار
المدرس بكلية أصول الدين

يقص علينا كتاب الله الذي لا ينطق إلا بالحق ، من مواقف موسى عليه السلام في سبيل دعوته ، وتبليغ رسالته ، وتأيد الله له بالمعجزات الباهرات - الشيء الكثير ؛ فمن ذلك حين قال له فرعون : « إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين ، فألق عصا » فإذا هي ثعبان مبين ، ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين ، فأبى فرعون ، وجمع في غوايته ، وأسكر الواقع ، وأبرز ذلك في صورة تأثير سخط القبط على موسى ، ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ، ولسى ما قدمت يداه . ثم ادعى أنه يعارضه بمثل ما أتى ، فجمع السحرة وأدواتهم ، وأتى في الموعد المضروب بينهما ، فأسدى موسى عليه السلام خالص النصح ، وحذرهم عذاب الله وغيظه ، فأحفظهم ذلك ، وأثار غيظهم ، فأخذوا يتشاورون في كيفية المعارضة ، وأسروا النجوى بقولهم : هذان ، أى موسى وهرون ، ساحران يريدان أن يخرجاك من أرض مصر ، ويذهبا بذهبكم الذي هو أفضل المداهب وأمثلها ، فأجمعوا كيدكم وارموا عن قوس واحدة ، ثم اتوا مصطفين ، ليكون ذلك أدخل في استجلاب الرهبة ، وأوغل في إدغال الذعر ، فإذا كان ؟

ألقوا جبالهم وعصيمهم ، في ضمرة النهار ، وحشد من الناس ، بعد أن لطخوها بالزئبق ، فصارت تنساقط ألثة الشمس عليها ، تهتز وتضطرب ، حتى خيل إلى موسى عليه السلام أنها حية تسمى ، وليس من شك في أن هذه الحالة المفاجئة ، توقع في الرعب والخوف ؛ ولكن الله سبحانه وتعالى أبده بروح من عنده ، وطمأنه وأمره أن يلقى عصاه ، فألقاها فإذا هي ثعبان يفرقاه ، ويلتهم جبالهم ، وعصيمهم ، حتى يأتي على آخرها !

أدرك السحرة إذ ذاك أن هذه آية من آيات الله ، وليست من باب السحر لا من قرب ولا من بُعد ، فسجدوا لله ، وآمروا به عن إخلاص في العقيدة . قال الأخفش . قد ألفوا حبالم وعصيم للكفر والجحود ، ثم ألفوا رءوسهم بعد ساعة للشكر والسجود . فأعظم الفرق بين الإلغاءين ، فتوعدهم فرعون بالتكيل والعذاب الآليم ، فأعاروا لذلك أهمية ، وقالوا : « إنا آمننا برينا ليعفر لنا خطايانا ، وما أكرهنا عليه من السحر ، والله خير وأبقى » .

وقد حكى الله ذلك بقوله : « ولقد أريناه آياتنا كلها ، فكذب وأبى ، قال أجبنا لنخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى ، فلأتيلك بسحر مثله ، فاجعل بيننا وبينك موعداً لا تخلفه نحن ولا أنت مكاباً سُوى ، قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشُر الناس صبحي ، فتولى فرعون فجمع كيدهم ثم أتى ، قال لم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كديبا ، فُصحكم بعذاب ، وقد غاب من اقترى . فتأزعروا أصرم بينهم وأسروا النجوى ، قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ، ويذهبا بطريقتكم المثلى ، فأجمعوا كيدكم ، ثم اتوا صفا ، وقد أفلح اليوم من استعلى . قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى ، قال بل ألقوا ، فإذا حبالم وعصيم يخيل إليه من سحرهم أنها تسمى ، فأوجس في نفسه خيفة موسى ، قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى ، وألقى ما في يمينك تلقفاً ما صنعوا وإنما صنعوا كيدُ ساحر ، ولا يفلح الساحر حيث أتى ، وألقى السحرة سجداً ، قالوا أما رب هرون وموسى . قال آمتم له قبل أن آذن لكم . إنه لكبيركم الذي علمكم السحر ، فلا تقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ولا تصلبكم في جذوع النخل ، ولتعلمن أننا أشد عذاباً وأبقى ، قالوا لن نؤثر على ما جاءنا من اليات والذى فطرنا ، فاقض ما أنت قاض ، وإنما تقضى هذه الحياة الدنيا . »

فأنت ترى كيف صورت هذه القصة باطلهم بصورة أمارت به اللثام ، وكشفت ستره ، وجعلته بنادى على نفسه بنفسه : إنه تمويه وتضليل ، ليس له ثوب يحميه ، ولا أصل يعتمد عليه ، وأبرزت الحق في ثوبه الصحيح ، ومحايله التي تهدى إليه ، وقد ثوقت عراه ، واشتدت قواه ، بسلطانه القوى المتين .

أفادت هذه القصة أن الباطل إن وجد له أنصاراً وأهواناً ، فهو أمام الحق لا تثبت له قدم ، ولا يجبر وُهيته ، ولا تقوى له شكيمة وعزيمة ؛ فهؤلاء هم السحرة قد أجمعوا كيدهم ، وأحكموا أمرهم ، رجاء أن ينالوا الأجر والحظوة الكبرى لدى فرعون ، ولكم هم لما انبلجت لهم الحقيقة ، وقام الحق على أقدامه ، ثابت الوطناء ، مشيد الأركان - ألقوا السلاح ، وخروا لله سجداً ، وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقاً .

وأفادت أن العقيدة السليمة ، إذا رحمت في النفوس ، وحلت في القلوب ، لا ترحمها كوارث الأعداء عن مكانها الذي حلت به ، وبسطت رواقها عليه ، ولا يزعجها إبراق ولا إرعاد ، ولا فصل دى القوة والسلطان ؛ فهؤلاء هم السحرة ، توعدهم فرعون بالقتل والصلب ، وليس عذاب أنكى وأشد وأعنف من ذلك ، فما وهوا وما ضعفوا وما استكانوا ، بل استهانوا بكل هذا واستعدوه ، ولم يتحولوا عما اعتقدوه ، وفي ذلك تنبيه وإرشاد إلى وجوب تعرف الأمور على حقيقتها ؛ والتسك بالحق متى استار سبيله ؛ والافتداء بهؤلاء الذين مالوا الدرجات العلى .

أرشدت هذه القصة إلى أن الشعوذة - وإن أشبهت المعجزة في الصورة - لكن ما يجره الله سبحانه وتعالى على أيدي أنبيائه ورسله ، تأييداً لدعوتهم ، وتصديقاً لرسالتهم ، لا سبيل إلى أن يأتي الإنس والجن بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ، وإن في ذلك لبياناً شافياً ، وحداً فاصلاً ، بين متشابهات الأمور ، فيأمن من هداه الله التي هي أقوم ، ونصره بما هو خير وأنفع ، العثار وزلات الأقدام ، وأن يأتي ربه مجرمًا .

ولذلك اقتضت حكمة الله البالغة أن تكون المعجزة التي يؤيدها رسله ، من جنس ما حذق فيه القوم المرسل إليهم ، وبرعوا فيه ، حتى إذا ما تعدهم الرسول وعجزوا ، كان ذلك أدعى إلى الإيمان والتصديق ، لئلا يكون للناس على الله حجة .

ومن هنا نستطيع أن ندرك الحكمة في إنزال الله ملكين بيابل - هروت وماروت - يعلمان الناس السحر ، وهي : من علم السحر وعرفته ، تيسر له أن يفرق بينه وبين المعجزة ، فيأمن السقوط والوقوع بين برائن المشعوذين ، الذين يزعمون أنهم رسل من عند الله .

وتوضيحاً لذلك نقول : قال الله تعالى : « واتَّبِعُوا مَا تَسْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مَلِكٍ سُلَيْمَانَ ، وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ، وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ، يَعْلَمُونَ النَّاسَ السَّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ ، يَبَابِلَ : هَارُوتَ وَمَارُوتَ ، وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ ، حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ ، فَلَا تَكْفُرْ ، الْآيَةُ .

يذكر الله سبحانه وتعالى بذلك نوعاً من قبائح اليهود ، وهو اشتغالهم بالسحر ، وتمتعهم فيه ، واتباعهم كتب السحرة ، التي كان يقرؤها عليهم المتمردون من الشياطين في عهد ملك سليمان . قيل كانت الشياطين تسترق السمع ، ويضنون إلى ما سمعوا أكاذيب يلقونها إلى السكينة ، وهم يدومونها ويعلمونها الناس ؛ وفشا ذلك في عهد سليمان عليه السلام . حتى قيل إن الجن تعلم الغيب ، وكانوا يقولون : هذا علم سليمان ، وما تم له ملكه إلا بهذا العلم ، وبه سحر الإنس والجن والطير والرج . وقد نزه الله سبحانه وتعالى ساحة سليمان من ذلك ، وكذب من افترى ذلك وعزاه إليه ، بقوله : « وما كفر سليمان ، وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ، بِاسْتِعْمَالِ السَّحْرِ وَتَدْوِينِهِ ، وَتَعْلِيمِهِ النَّاسَ ، إِغْوَاءً وَإِضْلَالًا . وَيَعْلَمُونَ النَّاسَ كَذَلِكَ مَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ يَبَابِلَ : هَارُوتَ وَمَارُوتَ ، وَهُمَا مَلَكَانِ أُنْزِلَا لَتُعَلِّمَ النَّاسَ السَّحْرَ ، تَمْيِيزاً بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَعْجَزَةِ ، لِأَنَّ السَّحْرَةَ كَثُرَتْ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ ، وَاسْتَبْطَطَتْ أَبْوَابُ غُرْبَةٍ مِنَ السَّحْرِ ، وَكَانُوا يَدْعُونَ التَّبَوَةَ ، فَبَعَثَ اللَّهُ هَذَيْنِ الْمَلَكَائِينَ لِيُعَلِّمَا النَّاسَ أَبْوَابَ السَّحْرِ . حَتَّى يَتِمَّ كُنُوزُهُ مِنْ مَعَارِضَةِ أَوْلَئِكَ الْكَذَّابِينَ ، وَلِإِظْهَارِهِمْ أَمْرَهُمُ النَّاسَ

ولما كان هذا يلزمه أن يكون الله سبحانه وتعالى هو المنزل للسحر ، وكيف يضاف إليه ما ينهى عنه ويترعد عليه بالعقاب ؟ وهل السحر إلا الباطل المموء ، وأن الملائكة تتعاطى تعليمه ، وهو كفر ، لقوله تعالى : وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يَعْلَمُونَ النَّاسَ السَّحْرَ ، فَلَا يَصِحُّ أَنْ تتعاطاه ، وأنه كما لا يجوز في الأنبياء أن يبعثوا لتعليم السحر ، فكذلك في الملائكة بطريق الأولى — لما كان ذلك ، رأى بعض العلماء أن (ما) في قوله تعالى : « وما كفر سليمان ، وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ، بِاسْتِعْمَالِ السَّحْرِ وَتَدْوِينِهِ ، وَتَعْلِيمِهِ النَّاسَ ، إِغْوَاءً وَإِضْلَالًا . وَيَعْلَمُونَ النَّاسَ كَذَلِكَ مَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ يَبَابِلَ : هَارُوتَ وَمَارُوتَ ، وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ ، حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ ، فَلَا تَكْفُرْ ، الْآيَةُ .

على الملكين سحر ، ولم يعلمه أحداً حتى يقولوا إنما نحن فتنة وإبلاء فلا تكفر ، بل ينهاه عنه أشد النهي ، ويحذران منه . (وفي هذا مقال لنا بصدد الآل) .

وإنك ترى من بين ثنايا هذه القصة مع ما اشتملت عليه من جمال التصوير حينما تناولها أو تتلى عليك ، كيف تنقش في الذهن وتطبع في النفس مغبة أمر السحر ، وعاقبه التي تذر بالحسرة والخسرة المبين .

وبعد : فالسحر إظهار أمر غارق للعادة من نفس سريرة خبيثة ، بمباهرة أعمال مخصوصة يجري فيه التعليم والتعلم . وبذلك يفارق المعجزة والكرامة . لذلك كان رأى جمهور العلماء في شأنه أن له حقيقة ثابتة في الخارج ، وأن له تأثيراً في القلوب بالحب والبغض ، وباللقاء الشرور ، حتى يحول بين المرء وقلبه ، وذلك بإدخال الآلام ، وعظيم الأسقام ، وكل ذلك مدرك بالحس والمشاهدة ، وإنكاره عناد ومكارة .

وترى المعتزلة أنه لا حقيقة له ، وإنما هو تمويه وتخيل ، وبمجرد إرادة ما لا حقيقة له ، بدليل قول الله تعالى : يحيل إليه من سحرهم أنها تسمى .

وغير خاف أنه أمر ممكن في نفسه ، ومشمول لقدرة الله تعالى : لأنه الخالق لكل شيء ؛ والساحر ما هو إلا كاسب ؛ وأن قول الله تعالى : ويتعلون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه ، وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله . - واضح الدلالة في أنه أمر ثابت ، وأن له حقيقة في الخارج .

وقد روى ابن عباس وعائشة رضي الله عنهم أن النبي صلى الله عليه وسلم سحر ، وتولى ذلك ليبد بن الأعصم اليهودي وبناته ، ومن النافعات في العقد : قال أبو عبيدة : النعائات في قول الله تعالى : ومن شر النفاثات في العقد ، من بنات ليبد بن أعصم اليهودي ، سحرن النبي صلى الله عليه وسلم .

وهذا لا يفتى إلى القدح في نبوته عليه السلام ؛ لأن الله سبحانه وتعالى ما كان يسلط عليه شيطانا إنسيا ولا جنيا ، يؤذيه فيما يتعلق بنبوته وعقله ، وأما الإضرار به من حيث بشريته ومدته فلا بعد فيه ؛ لأنه يعرض له من حيث بشريته ما يمرض لسائر البشر من الصحة والمرض والموت والأكل والشرب .

ألا ترى إلى أن رباعيته قد كسرت في غزوة أحد ، ولم يقدح ذلك فيما ضمنه الله سبحانه وتعالى له من العصمة بقوله : « والله يعصمك من الناس » : بل في ذلك دلالة ظاهرة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم وصحة معجزاته ، وكذب من نسب إلى السحر والسحابة لأن سحر الساحر عمل فيه واعتراه نوع من المرض ، ولم يعلم أن ذلك ناجم عن السحر وأثر من آثاره ، حتى دعا ربه ، فنزل جبريل فأخبره بموضع السحر ، وبين سحره . ولو كان ما يظهره الله من المعجزات الخارقة للمعادن من باب السحر - على ما زعم أعداؤه - ما اشتبه عليه الأمر ، وتوصل إلى دفعه من عنده : وهذا دليل من دلائل صدقه ، وآية كبرى من آيات نبوته ، صلى الله عليه وسلم ، وهذان إلى الحق وسيله القويم ؟
يتبع

قراء القرآن

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « سيكون في أمتي قوم يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، هم شر الخلق والخليقة » .
وقال عليه الصلاة والسلام : « إن الزبانية لأمرع إلى فساق حملة القرآن منهم إلى عبدة الأوثان ، فيشكون إلى ربهم ، فيقول : ليس من علم كي لا يعلم .. »
وقال الحسن : حملة القرآن ثلاثة نفر : رجل اتخذته بضاعة ينقله من مصر إلى مصر يطلب به ما عند الناس ، ورجل حفظ حروفه ، وضيع حدوده ، واستند به الولاية ، واستطال به على أهل بلده - وقد كثر هذا الضرب من حملة القرآن - لا كثرهم الله عز وجل ! ورجل قرأ القرآن فوضع دواءه على داء قلبه ، فسر ليله ، وهملت عيائه ، وتسربل الخشوع ، وارتدى الوفاء ، واستشعر الحزن ، ووالله لهذا الضرب من حملة القرآن ، أقل من الكبريت الأحمر ! بهم يبقى الله الغيث ، وينزل النصر ، ويدفع الأعداء .

فلسفة (تنبيه)

لفصيلة الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى
المدرس بكلية أصول الدين

إذا جئنا إلى التراث الإسلامى ، الذى نركه لنا أصحاب المعاجم والمعكرون
والفلاسفة المسلمون ، لنعرف معنى كلمة « فلسفة » ، وما صدقها ، نرى أنهم كثيرا -
وبخاصة أول عهدهم بالتأليف - كانوا يستعملون كلمة « حكمة » وحكيم ، فى معنى
فلسفة وفيلسوف . ولعل مرجع هذا أن كلمة « حكمة » وردت فى القرآن على
معنى أنها أشرف ما يؤتيه الله الإنسان من خير ، وكذلك كانت كلمة فلسفة لدى
الأقدماء من اليونان تدل على أشرف علوم .

وبعد أن قرأ المسلمون كتب فلاسفة اليونان التى نقلت إليهم ، أيام الخليفة
المأمون ، ومن قبله أيضاً أيام الأمويين ، ووقفوا على تراثهم العظيم فى سائر
نواحي التفكير ، أخذوا يكتبون فى الفلسفة ، وبدؤوا بلا ريب بتعريفها ؛ ومن
هذه التعاريف ، فى جملتها ، نستطيع أن نتحقق أن الفلسفة بقيت فى معناها ومدلولها
لدى المسلمين على ما كانت عليه لدى اليونان ، وأنه لم يكن من حط فلاسفة
الإسلام أن أعطوا للفلسفة معانى جديدة كالتى تراها لها فى أوروبا ، وبخاصة
فى العصر الحديث .

١ - فالكندى ، كما نقل ابن نباتة المصرى فى كتابه : « مرجع العيون » ،
يذكر أن الفلسفة ثلاثة علوم ، لأن المعلومات ثلاثة . علم المحس ، وهو ذوات
الحيولى ، وهذا هو العلم الطبيعى ؛ وما يتصل بالحيولى - وإن كان يفرد بذاته ،
وهو علم الرياضيات - فإن المرء يستطيع أن يتصور بذهنه العدد مجرداً عن

المعدود؛ وما لا يتصل ألبتة بالهوى، أى لا فى الواقع، ولا فى التصور، وهو علم الربوبية.

وفى رسالته الى المعتصم بالله العباسى، فى الفلسفة الاولى، نشر صديقنا الدكتور الاهوانى، يذكر الكندى، أن أهل الصناعات منزلة وأشرفها مرتبة صناعة الفلسفة، التى حدثها علم الاشياء بحقائقها بقدر الطاقة الإنسانية...

ومن هذا وذاك، نرى الكندى يتابع أرسطو فى جعل الفلسفة معرفة كل أنواع العلوم، وفى تقسيمها الى نظرية وعملية.

٢ — ثم جاء الفارابى يذكر فى كتابه «الجمع بين رأيي الحكيمين»، أن الفلسفة هى العلم بالموجودات بما هى موجودة. وفى كتابه «التنبيه على سبيل السعادة»، يقسم الفلسفة الى نظرية، وهى علم التعاليم (أى الرياضيات)، والعلم الطبيعى، وما بعد الطبيعيات؛ وإلى مدنية، وهى علم الاخلاق؛ وإلى سياسية، وهى علم السياسة التى يساس بها أهل المدن.

على أنه فى رسالته: «ما ينبغي أن يُتقدم قبل تعلّم فلسفة أرسطو»، نراه يوشك أن يقصر الفلسفة على ما بعد الطبيعيات، أى على الفلسفة الإلهية وحدها. (يراجع ص ٩٣ من الرسالة المذكورة طبع المطبعة السلفية بمصر).

٣ — وإخوان الصفا الذين ظهرت رسائلهم الفلسفية فى القرن الرابع الهجرى، يقولون (٩٠: ٣٣ طبعه مصر ١٩٢٨ م): «الفلسفة أولها حجة العلوم، وأوسطها معرفة حقائق الموجودات بحسب الطاقة الإنسانية، وآخرها القول والعمل بما يوافق العلم». وهى عندهم أربعة أنواع: الرياضيات، المنطقيات، الطبيعيات، والإلهيات.

ومن هنا نجد أنهم لا يقسمون الفلسفة إلى نظرية وعملية كما صنع الفارابى، ومن حذا حذوه من بعده؛ ثم إنهم، فى تعداد أنواع الفلسفة الإلهية، تراهم يجعلون الاخلاق نوعاً منها.

٤ — والخوارزمى - وإن لم يكن من الفلاسفة - إلا أن كتابه «مفاتيح العلوم»، يعتبر مقدمة لأبد منها لدراسة العلوم الإسلامية. فى هذا الكتاب يرى

أن معنى الفلسفة علم حقائق الأشياء ، والعمل بما هو أصح ؛ وإذن تكون نظرية وعملية .

والجزء النظري ثلاثة أقسام ؛ وذلك — كما يقول بحروفه ص ١٣٢ من طبعة أوربا — أن منه ما الفحص فيه عن الأشياء التي لها عنصر ومادة ، ويسمى علم الطبيعة ؛ ومنه ما الفحص فيه عما هو خارج عن العنصر والمادة ، ويسمى علم الأمور الإلهية ؛ ومنه ما ليس الفحص فيه عن أشياء لها مادة ، لكن عن أشياء موجودة في المادة ، مثل المقادير والأشكال والحركات ، وما أشبه ذلك ، ويسمى العلم التعليمي أو الرياضي

والفلسفة العملية ثلاثة أقسام أيضا ؛ أحدها تدبير الرجل نفسه أو واحداً خاصاً ، وهذا علم الأخلاق ؛ تدبير الخاصة ، ويسمى تدبير المنزل ؛ والثالث تدبير العامة ، وهو سياسة المدينة والأمة والملة . وأقول : إن هذا القسم الثالث هو ما يصح أن نسميه اليوم « فن الحكم » .

ه — وابن سينا في هذا السبيل لا يكاد يخرج عن الفارابي ، إلا أنه يريد به بالتوضيح والتفصيل لما يريد بيانه .

ففي رسالة الطبيعيات من مجموع رسائله المعرفة المنشورة بمصر والقسططينية يذكر أن الحكمة : استكمال النفس بإدراك الحقائق النظرية والعملية على قدر الطاقة .

والحكمة النظرية هي الطبيعة التي موضوعها الموجود ذو المادة من حيث ما يتغير ويتحرك ، والرياضية ، وموضوعها محالط للمادة ، وإن كان من شأنه أن يجرده ذهن عنها وعن التغير ؛ ثم الفلسفة الأولى ، وموضوعها ما وجوده مستغن عن المادة والتعبير مطلقاً ، والفلسفة الإلهية جزء منها ، وهي معرفة الربوبية .

أما الحكمة العملية ، فهي الحكمة المدنية أو السياسية ، والحكمة المنزلية ، والحكمة الخلقية .

وفي الكلام عن الفن الثاني عشر من كتاب الشفاء في الإلهيات ، وذلك عشر مقالات ، يذكر في الفصل الأول من المقالة الأولى أن العلوم الفلسفية

تنقسم الى النظرية والعملية ، ثم يبين أن ما بعد الطبيعة ، التي هي القسم الثالث من أقسام الفلسفة النظرية ، تشمل الإلهيات وغيرها ، وسميت بالإلهية أحيانا باسم أشرف موضوعاتها ، وتسمى أيضاً بالفلسفة الأولى .

بعد ذلك يتبين أن الشيخ الرئيس يرى أن الفلسفة بالحقيقة هي الفلسفة الأولى ، وهي التي تقيد تصحيح مبادئ الفلسفة الطبيعية والفلسفة التعليمية أو الرياضية ، ثم المسائل الإلهية . وهذا يكون ابن سينا قريبا جداً من شيخه الفارابي ، في أن الفلسفة بالحقيقة هي الفلسفة الأولى ، أو ما بعد الطبيعة ، التي أهم موضوعاتها المسائل الإلهية .

وفي سبيل توضيح أن الفلسفة الأولى تقيد تصحيح مبادئ الفلسفات الأخرى ، يذكر ابن سينا في الفصل الثاني من تلك المقالة الأولى . أن موضوع العلم الطبيعي هو الجسم من جهة ما هو موضوع للحركة والسكون ؛ وأما من جهة ما هو موجود ، ومن جهة ما هو جوهر ، ومن جهة ما هو مؤلف من الهيولى والصورة . ذلك ونحوه ، من مسائل ما بعد الطبيعة أو الفلسفة الأولى . وكذلك العلم الرياضى موضوعه إما مقدار أو عدد ، مجرد في الذهن عن المادة ، أو مأخوذ في الذهن مع مادة ؛ وأما إثبات المقدار والعدد بما هما موجودات ، وكيف وجودهما ، سواء كان كل منهما مجرداً أو في مادة . ذلك ونحوه ، من مباحث علم ما بعد الطبيعة .

• • •

وأخيراً ، بعد استعراض تعاريف الفلسفة في القديم والحديث ، وفي الشرق والغرب ، في هذه المقالة والمقالة التي سبقتها ، وبعد استغلال علم النفس وعلم الأخلاق وعلم الاجتماع . نستطيع أن نقرر أن الفلسفة هي التفكير الحر في الإله والسكون ، أو هي معرفة حقائق الموجودات وعللها التي تنتهي لعلة أولى لكل الموجودات ، ما نرى منها ، وما لا نرى .

لغويات

الكتب للمكتب أو موضع تعليم الصبيان

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد علي النجار
المدرس بكلية اللغة العربية

وقع السؤال عن الكتب للموضع تعليم الصبيان . وهو استعمال شائع من قديم ، ويجمع على كُتَّاب . والذي دعا الى الشك في عريته أنه على صيغة جمع السكاتب ، وليس على صيغة المكان كالمكتب والمدرسة . والرأى أن الكتاب في هذا المعنى عربي تقوم عليه الشواهد اللغوية . فقد جاء في كتاب العين (١) : « والمكتب والكتاب موضع تعليم الكتاب » وقوله الكتاب يريد الكتابة . والعين ينسب الى الخليل بن أحمد المتوفى سنة ١٧٥ هـ ، أو الى تلميذه الليث ، وهو أقدم كتاب في اللغة ، وتراه سجل هذا المعنى للكتاب ، وفي هذا دليل على أن هذا المعنى كان متعارفاً للكلمة في أيام مؤلفه ، وهو قريب من عصر الاحتجاج ، ويغلب على الظن أنه كان معروفاً قبل ذلك . وقد تبع (٢) صاحب العين الأزهرى والجوهري والصاعاني فأثبتوا للكتاب المعنى المشهور . وخالف عن هذا أبو العباس المبرد المتوفى سنة ٢٨٥ هـ فأنكر أن يكون الكتاب لموضع التعليم ، وإنما الكتاب هذه لا يعدون أن يكون جمع كاتب . والمبرد في هذا متأثر بمزاجه اللغوي ، ونظره القياسي ؛ فالكتاب صيغة جمع كالصُوم والقوام ، فلا تكون للمكان . وتراه يقول في هذا : « (٣) والكتاب : للصبيان ، ومن جعل الموضع الكتاب فقد أخطأ ، وهذا صحيح بحسب الوضع الأصلي ، ولكن الشيء قد يطلق على ماله علاقة به ، وقد يشيع هذا في اللغة حتى يلتحق بالحقيقة . فالكتاب — وأصله للصبيان — يطلقون في المكتب — يطلق على المكتب نفسه لعلاقة المحلية أو المجاورة ، كما

(١) القصص لابن سيده ، ج ١٣ ص ٤ . (٢) راجع شرح القاموس . (٣) انظر اللسان .

يقال : حضرت من مشيخة الأزهر ، أى مقر شيوخ الأزهر وديوانهم ، وهذا سائح مقبول . وإذا صح هذا الإطلاق وثبت السائح به تبين ضعف رأى المبرد ، وكنا فى سعة من الرغبة عنه . وقد نجح المبرد صاحب القاموس فرد على الجوهري إثباته للمعنى الذى نتحدث عنه للكتاب ، وجعله مما غلط فيه ، والمجد مولع بتخطئة الجوهري ، فلا غرابة أن يسارع الى هذا ، وهو يجد فى رأى المبرد دعامة وسندا .

والباحث يحمد نصوصا كثيرة ورد فيها الكتاب لموضع التعليم فى العصر العباسي الأول لا سبيل إلى دفعها . فقد قال الشافعي^(١) رضى الله عنه - كانت وفاته سنة ٢٠٤ - : كنت - وأنا فى الكتاب - أسمع المعلم يلقن الصبي الآية فأحفظها أنا ، وفى الأغاني^(٢) عن إسحاق الموصلى : أن أباه إبراهيم الموصلى أسلم إلى الكتاب فكان لا يتعلم شيئا ، وفيه^(٣) أيضا : أن على بن جبلة لما نسا أسلم إلى الكتاب . وذكر الجاحظ فى البيان^(٤) والتهيين أن من أمثال العامة : أحق من معلم كتاب ، فأما ذكر الكتاب بعد العصر العباسي الأول ، فجاء منه قول البسائي :

نسى الزمان لقد أتى بعجاب ومحا فتون الفضل والآداب
وأنى بكتاب لو انبسطت يدي فيهم رددتهم إلى الكتاب
والبسائي هو أبو الحسن على بن محمد ، روى عنه أبو بكر الصولى ، وكانت وفاته سنة ٣٣٢ هـ ، وله ترجمة فى ابن خلكان .

فأما الكتاب قبل العصر العباسي فتضافر القول على أنه كان أيضا يطلق على موضع التعليم . فقد جاء فى مسند^(٥) الإمام أحمد بن حنبل فى حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : قرأت من فى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين سورة وإن زيد بن ثابت له ذؤابة فى الكتاب ، وعن عمر^(٦) بن عبد العزيز أنه سأله رجل عن الأهواء فقال : عليك بدين الصبي الذى فى الكتاب ودين الأهرابي ، ودع ما سواه . وجاء الكتاب فى حديث فيه مقال ؛ فقد أورد الزعشمى فى الكشف فى آخر تفسير سورة الفاتحة - وتبعه البيضاوى - الحديث

[١] معجم الأدباء ج ١٧ ص ٢٨٤ . [٢] ج ٥ ص ٥٢ . [٣] ج ١٨ ص ١٠١

[٤] ج ١ ص ٢٠٨ من الطبعة الثانية . [٥] ج ١ ص ١٠٥ .

[٦] حاشية الباجورى على كفاية الدوام فى علم الكلام ص ٢٢ .

الآتي : « وعن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن القوم ليعث الله عليهم العذاب حتماً مقضياً ، فيقرأ صبي من صبيانهم في الكتاب الحمد لله رب العالمين ، فيسمعه الله تعالى فيرفع عنهم بذلك العذاب أربعين سنة ، وكتب السيد الشريف على هذا ما يأتي : « (في الكتاب) بضم الكاف وتشديد الباء - يطلق على الكنية ، وعلى المكتب أيضاً ، وهو المراد هنا . وخطأ المبرد لإطلاقه على المكتب ، وردّ بقل الليث إياه . فإما أن يكون حقيقة بالاشتراك ، وإما أن يكون مجازاً : لأنه موضع المكتتاب بمعنى الكنية جمع كاتب ، ويقول الثعالب في كتابته على اليمصاوي : « وحديث حذيفة أسنده الثعلبي ، وقال العراقي . إنه موضوع ، وقيل : إنه ضعيف ، وكانت وفاة الثعلبي المفتر - وهو أبو إسحق أحمد بن محمد بن إبراهيم - في سنة ٢٧٧ هـ كما في ابن خلكان .

التربية النسوية ، الثقافة النسوية

ينطق الناس في هذه الأيام النسوية بفتح السين ، وهو نسبة إلى النسوة ، فكان حق النسب أن يقال فيه النسوية بسكون السين كما في المنسوب إليه . وترام يقولون : التعليم المنهني ، والظن أنهم ينطقون بسكون الهاء على الأصل . وقد جرى حديث في نطق العامة النسوية بفتح السين ، وبحث في القاموس وجه لتصحيح هذا الاستعمال ونسويته . وحدث حديث أيضاً فيما جاء في فقه المالكية من البلد العنوي أي الذي فتح عنوة ، فقد ذكر بعض الفضلاء أن الالة جرت على أن يقال العنوي بفتح النون على حين أنها ساكنة في المنسوب إليه . وبما جاء من ذلك ما في متن الشرح الكبير في فصل عقد الجزية . للعنوي أربعة دنانير أو أربعون درهماً ، قال في الحاشية : قوله للعنوي أي على العنوي وهو نسبة إلى العنوة وهي القهر والعلبة . وجاء في الحاشية : « والجزية العنوية ما لزم الكافر من مال لأمه باستقراره تحت حكم الإسلام وصونه . »

وقد وجدت لذلك صاغاً في مذهب يونس بن حبيب المتوفى سنة ١٨٣ هـ ، وهو شيخ سيويه . فهو يميز هذا التغيير في النسب ويقول في النسبة إلى عمرو

عُزْرَى ، وإلى عُزْرُوَة عُزْرَى ، وإلى قُدْوَة - بالكسر في إحدى لغاتها - قُدْوَى . وهكذا يفعل يونس في الثلاث المعتل اللام المختوم بـ تاء التأنيث ، سواء أكان من بنات الياء أم من بنات الواو ، فيقول في النسبة إلى الغُثَيَّة : الغُثَوَى ، وإلى الدُّمَيَّة الدُّمَوَى ، وإلى الظُّبَيَّة : الظُّبَوَى ، ويعتمد في هذا على ما سمع من العرب ؛ فقد قالوا في القرية : قُرَوَى ، وفي النسب إلى بني زُرَيَّة - حتى من العرب - زُرَوَى ، وفي النسب إلى البَطْنِيَّة ^(١) بَطْرَوَى . ويوافق بعض الصرفيين يونس في بنات الياء لا الواو ، ويحتج لهذا بأن السماع إنما ورد في بنات الياء كما سبق لك في هذا المقال . وبأن الفتح يفضي إلى قلب الياء واوا فيقال في ظبية : ظبوى ، وهذا أخف من ظبي لما فيه من توالي الأمثال وهذا نستكرمه العرب ، فأما في بنات الواو فلا يفضي الفتح إلى هذه الثمرة ، لوجود الواو في المنسوب إليه . وأول من سلك هذا المسلك الخليل ابن أحمد في تعليقه على رأى يونس ؛ فقد كان يعذره في بنات الياء خاصة ويحيز قوله ، ويذكر سيويه عنه احتجاجا لهذا القول على أثر اقتناعه بما سمع عن العرب ، فهو يقول إن العرب لو صاغت فعلة بكسر العين - من الغزو لقالوا غزيرة ، ولو سكنت العين تخفيفا لقبيل غزيرة أيضا ولم ترجع الواو . فكانت فعلة - بسكون العين - سواء هي وفعلة في هذا ، فيحمل أحدهما على الآخر في الأحكام اللسانية ، وإذا نسبت إلى غزيرة قلت : غزوى ، فكذلك إذا نسبت إلى غزيرة قلت : غزوى . وتراه ينزع في هذا الرأى إلى قياس دقيق في العربية لا يهتدى إليه إلا مثل الخليل ، وهل للجيل مثيل . فهذا ما يوافق فيه الخليل يونس ، وهى بنات الياء . فأما بنات الواو فلا يحيز الخليل فيها الفتح ، وهو يقول - كما في الكتاب : - لا أقول في عُزْرُوَة إلا عُزْرَوَى . . ولا أقول في قُدْوَة إلا قُدْوَى . . ولا أقول في عُزْرُوَة إلا عُزْرَوَى . .

هذا وسيويه لا يحيز هذا في كلا النوعين ، ويوجب تسكين العين ، ويقضى بالشدوذ على ما جاء بالتحريك ، كالعُزْرَوَى والزُرَوَى والبطَوَى ، وتراه يقول

(١) يقول الرضى في شرحه الحافية : البلية لقبيلة من العرب . ويذكر صاحب اللسان عن ابن سيده : إنه لم ينف لما حل معنى ، واستظهر أن يكون حيث من أبطح لمة في أبطاح .

في الكتاب^(١) . وحدثنا يونس أن أبا عمرو كان يقول في ظبية : ظبي ، ولا ينبغي أن يكون القياس إلا هذا ، فتراه لا يذهب إلى ما ذهب إليه الخليل من تسويغ رأى يونس في ذى الياء ، وإن كان يشدد الكير عليه في ذى الواو ، ويذكر أنه مخالف لما سمع عن العرب ، فقد قالوا في حروء - وهم حي من العرب - جرؤى بكون العين ، ولم يقولوا : جرؤى .

ولنا أن نعتد رأى يونس في هذا المقام ، فقد كان يونس نحوياً جليلاً يشهد حلقته فصحاء الأعراب وفهماء العلماء . فأما التحريك في بنات الياء فقد سمعت حجة من القياس والسماع على ما سلف لك . وأما التحريك في ذى الواو - وهو ما يعيننا في هذا البحث - فبالحمل على النوع السابق ، ولأن في التحريك من إطلاق اللسان ما ليس في التسيكين . فإن قال قائل : ولكن العرب لم تحرك على التحريك في هذا الضرب كما جرت في ذى الياء بل جرت على خلافه إذ قالوا في جرؤه جرؤى ، قلت . إن أبا عبيد^(٢) حكى عن العرب جرؤى في النسب إلى جرؤة ؛ وقال : هو من نادر المعدول .

وبعد هذا لنا أن نطعم إلى صحة ما جرى الناس عليه من قولهم النسوية بفتح السين ، والنسوى في النسبة إلى النسوة . والله أعلم .

حماسة

قال ابن بركة الحمداني :

كذبتم وبيت الله لا تأخذونها مراعاة بما دام للسيف قائم
مى تجمع القلب الدكى وصارما وأنفا حميا تجتنبك المظالم
وقال عمرو بن معد يكرب يصف صبره وجلده في الحرب :
أعاذل عدى بدنى ورعى وكل مقلص سلس القياد
أعادل إنما أفتى شباني لإجابى الصرخ الى المنادى
مع الأبطال حتى سل جسمى وأفرح عاتق حمل التجاد
ويبقى بعد حلم القوم حلى وبغنى قبل زاد القوم زادى

سياسة المنزل

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ أبو الوفا المراغي
مدير المكتبة الأزهرية

إن الزواج وتكوين الأسرة شركة بين الرجل والمرأة طويلة المدى بعيدة الأمد ، ولا تثمر هذه الشركة ثمرتها إلا في جو من التعاون والتفاهم ، وبروح من الإخلاص والنشاط ، وشعور بتحقيق معنى المشاركة بينهما ، وقد يهد لهذا كله أن يعلم الرجل أنه بعد الزواج أصبح شخصا آخر ألقيت على كاهله مسؤوليات الأسرة وتبعات الحياة الزوجية ، وأصبح مسئولاً بحاسب من الله ومن الزوج ومن الجماعة ، وأن المرأة بين يدي الإسلام شريكة الرجل ، لها من الحق ماله ، وعليها من الواجبات ما عليه . ولا فضل إلا أن يقوم الرجل بما لته من قوة الجلد وبسطة اليد واتساع الحيلة ، فيل رياستها ، فهو بذلك وليها ، يحوطها بقوته ، ويذود عنها بدمه ، ويفق عليها من كسب يده ؛ فأما فيما سوى ذلك فهما في السراء والبأساء على السواء . وأن تعلم المرأة أنها في بيت زوجها غيرها في بيت أبيها ، فهي في بيت أبيها طفلة - وإن كبرت - مستجابة الرعية ، يفضي لها عن القذى ، ولا تُسأل بالأذى ، لا تشعر بمسئولية ، وتأخذ فسطا من الحرية ؛ أما بيت زوجها فهي عضو عامل تتعاضد بمسئولياتها ، وتحدد بحكم الأحوال حرياتنا .

وقد در العرية حين أوصت ابنتها ليلة الرفاف ، فقالت : : أي بنية : إن الوصية لو تركت لفضل أدب ، تركت لذلك منك ، ولكنها تذكرة للعامل ، ومعونة للعاقل ؛ ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لعنى أبوها وشدة حاجتهما إليها ، كنت أغنى الناس عنه ، ولكن النساء للرجال خلقن ، ولهن خلق الرجال . أي بنية : إنك فارقت بينك الذي فيه خرجت ، وعشك الذي فيه درجت ، إلى رجل لم تعرفه ، وقرين لم تأليفه ، فكفوني له أمة يكن لك عبدا ، واحفظي له خصالا عشراً ، يكن لك ذخرا :
١ . أما الأولى والثانية . فالخشوع له بالقناعة ، وحسن الطاعة .

« وأما الثالثة والرابعة : فالتفقد لموضع عينه وأنفه ، فلا تقع عينه منك على قبيح ، ولا يشم منك إلا أطيب ريح .

« وأما الخامسة والسادسة : فالتفقد لوقت مامه وطلعاه ، فإن تواتر الجموع ملهبة مغضبة .

« وأما السابعة والثامنة : فالاحتراس بماله ، والإرعاء على حشمه وعياله ؛ وملاك الأمر في المال حسن التصدير ، وفي العيال حسن التدبير .

« وأما التاسعة والعاشرة : فلا تعصين له أسرا ، ولا تفشين له سرا ؛ فإنك إن خالفت أمره أو غرت صدره ، وإن أفشيت سره لم تأمنى غدره . ثم إياك والفرح بين يديه إن كان زحاحا ، والترح بين يديه إذا كان فرحا ؛ فإن الخصلة الأولى من التقصير ، والثانية من التكدير . وكوني أشد ما تكونين له إعظاما ، يكن أشد ما يكون لك إكراما ، وأشد ما تكونين له موافقة يكن أشد ما يكون لك مرافقة .

« وأعلى أنك لا تصلين إلى ما تحبين حتى تؤثرى رضاه على رضاك ، وهواه على هواك ، فبها أحييت أو كرهت ، والله بخير لك .

بهذه الوصاة الرائعة تصورت العربية لابنتها المسئولة التي تستقبلها في منزلها الجديد ، وواجباتها نحو زوجها . وفي الحق أنه تصوير رائع ، ودستور عملي كفيل أن تسعد به الزوجة والزوج ، وتسعد به الأسرة . وقد أقر الإسلام قواعد هذا الدستور العامة ، وجاءت آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية وأعمال النبي صلى الله عليه وسلم وأعمال الصحابة مؤكدة هذا الدستور مبينة له . وفي القرآن الكريم « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما أنفقوا من أموالهم ، وفيه أيضا : « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة » .

وعن النبي صلى الله عليه وسلم : « لو كنت امرأة أحدنا أن يسجد لأحد لامرت المرأة أن تسجد لزوجها » . وعن علي كرم الله وجهه ، أنه قال لأعبد : ألا أحدئك عني وعن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت أحب أهلها إليه ؟ قال : بلى . قال : إنها جرت بالرحى حتى أثرت في يدها ، واستفتت بالقرية حتى أثرت في نحرها ، وكفست البيت حتى اعبرت ثيابها ، فأقني النبي صلى الله عليه وسلم بخدم ، فقلت لها : لو أنيت أباك فسلته خادما ؛ فأتته فوجدت عنده أحداثا فرجعت ، وأناها من الغد

وأن يمينها في شئون المنزل إن لم يكن لها خدم ، وأن يعدل بينها وبين غيرها من الزوجات إن كان له زوجات - إذا قال الفقهاء ذلك ، واستشهدوا له بما جاء في القرآن وما ورد في السنة ، فلا يقصدون تحديد واجبات الزوجة وحقوقها ، وإنما يقصدون بذلك ضرب الأمثال فقط ، لأن ما يجري بين الزوجين من شئون الأسرة لا يمكن حصر جزئياته ، فكان من إعجاز القرآن إجماله في قاعدة عامة تلائم كل عصر وكل بيئة . فما تعرفه البيئات الغنية مثلاً أن الراديو من ضروريات الحياة ولوازم المنزل ، فإذا طلبته الزوجة من الزوج كان طلبها وجيهاً لا إهات فيه ، وكذلك إذا طلبت سيارة أو تليفوناً أو أن تصطاف في مصيف كذا ، أما إذا طلبته زوجة من البيئات المتوسطة أو الدنيا ، كان طلبها ظاهراً للإعات جديراً بالرفض .

فأسس سعادة الأسرة ودوام هائتها أن يقدركل من الزوجين أحوال الآخر ، وهذا ما يجمعه قوله تعالى : « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف » ، والرجال عليهن درجة . .

النابغة

بلغ النابغة الذبياني الشاعر المشهور أن النعمان بن المنذر ملك الحيرة قد رضى به ولامه : فخطبى النابغة مغبة هذا اليوم ، فليس وراه في حكمهم إلا أن يأمر بضرب عقه على طريقة أهل الجاهلية ، فأنشأ هذه الأبيات الأربعة ، ولم يقل أحد قبله ولا بعده أحسن منها في معناها ، وهى :

أناى أبئت اللعن أنك لمئى	وتلك التى تصطك منها المسامع
فبت كائى ساورتى ضئبة	من الرقتى فى أنيابها السم ناعم
كلعتى ذنب امرئ وتركته	كذى العريكوى عره وهو رافع
فإنك كالليل الذى هو مدركى	وإن خلت أن المتأى هنك واسع

اليد العليا

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ إبراهيم على أبو الحشب
المدرس بكلية الشريعة

من حِكَمِ النبوة الخالدة ، وروائعها الشاردة ، وآياتها اليديات ، وعظائنها
البالغات ، وفصاحتها العالية ، وبراعتها السامية ، قوله صلى الله عليه وسلم ، فيما
يرفقه به القلوب النائمة ، والأفكار الواجدة ، لتسلك السنن السوى ، والصراط
المستقيم : « اليد العليا خير من اليد السفلى » . وكثير من الناس ربما سَمَرُوا
بهذه الجملة فلم يلقهم منها سوى أنها كلمات تسجد لها جبابرة العقول ، وأساطين
البيان ، وهو أسلوب لا يتأني على من ألهمه الله الحكمة وفصل الخطاب ، وأدبته
ربه فأحسن تأديبه ، وتحدى به البشر ، كما تحدى بكتابه القَوِيُّ والقُدْر ، ولئن كان
هنالك بعد الذى نزل به الروح الأمين من آيات ، أو وراء سحره من معجزات ،
فهى تلك التى دِيعمرها قلب متصل بحلال خالقه ، ويصقلها لسان نزل عليه القرآن
بحقائقه ، فهى وإن لم تكن من الوحي ولكنها جاءت من سيئه ، وإن لم يكن لها
منها دليل فقد كانت هى من دليله ، عكمة الفصول حتى ليس فيها عروة مفصولة ،
مخدوفة الفصول حتى ليس فيها كلمة مفصولة . وأنماطه فى الحديث ، ومنهجه فى
الكلام ، لا يخرج عن كونه بياناً فى الذروة ، وتعبيراً فى أسمى مراتب السمو ، إلا
أنه إذا كان ترغيباً أو ترهيباً ، ووعداً أو وعيداً ، وإغراء أو تحذيراً ، كان له طنين
ودوى وصخبٌ وعجيج ، وروعة تقشاد بجامع القلوب ، وتمتلك أزيمة الأفتدة ...
ولكن هل يلحون المعنى ، مثلاً ينطقون بالمبنى ، وهل يستشفون مغزاه ،
 ويفهمون مرماه ؟ أكبر الظن أن يقول قائلهم إنه حثٌّ على التصديق على الفقراء
وامتداد يد المعونة إلى المحتاجين ، وتفريج كربة المكروبين ، والمسح بأصابع
العطف والإحسان على قلوب المسكودين من البائسين والمعوزين . والمعنى إذا
تصور تعاليه بالإعطاء ، وتساميه باليدل ، وترفده بكونه صاحب المنّة ، دفع عفو ما
ينفق عن طيب خاطر ، وراحة ضمير . ولأنه قد أحصرت الأتفس الشح ؛ والناس

ليسوا كلهم سواء في الإحساس بضرورة المجتمع ، يعيشون فيه ، ويتبادلون وأفرادهم المصالح ، وكان مما لا بد منه أن يخاطبوا هذا الخطاب الذي يُرَقِّقُ من قسوة قلوبهم وغلظة أقدتهم ، وجفوة طباعهم ، ونحجر عواطفهم ؛ وهكذا يبلغ الحال بالتصوير العالي ، من رياضته للشامس ، وتذليله للفاقر ، وتسكينه من جماع الصعب الآرن ؛ ولا حرج على فضل الله الذي صنع رسوله على عينه ؛ أن يؤيده بجوامع الكلم ، ورائع الحكم . وإذا كان المؤمنون في توادم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحلمى والسر ، وإذا كان المجتمع هو الفرد الدائر — كما يقولون — وإذا كان العضو من الجسد يضر بالجسد كله حين لا تنافيه المقادير بما يقوم به من زاد وشراب وهواء ، فكذلك الفقير المعدم إذا لم تتشقق له ما تمس إليه ضرورة بقاءه في الحياة من مؤن وحاجات .

والتعاون والبذل والتصدق والمعروف بين الناس ضرورة اجتماعية أكثر منها شيئاً آخر ؛ ولذا جاء في الحديث ، إنك لن تمفق نفقة تفتى بها وجه الله إلا أجرت عليها حتى ما تجعل في في امرأتك . إلا أن بعض المتخلفين يرى أن الدين الذي يحض على الصدقة ، ويأمر بالإحسان إلى الفقراء ، يغرى بالكسل ، ويشجع على البطالة ، ويسوق أهله إلى التواكل ، وهو إلى جانب هذا يستذل الأفراد بما يريقون من ماء وجوههم في السؤال ، وسقوط هممتهم بالاستجداء ، وهو ما يتنافى مع القضية . ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً .

وفي الحق أن الإسلام لا يرضى بالخنوع ، ولا يستسيغ الذلة ، ولا يغرى بإهدار الكرامة ، وسقوط الهمة ، ولا يحب لأهله أن يختاروا الدون من الخنوط ، والخسف من الأمور ، والبخس في القيم والأقدار . وفيه العزة ورسوله وللمؤمنين . والبر بالفقراء ، والبذل للبائس الملهوف ، والتصدق على أرباب الحاجات ، أشبه بحلال كالحرام ، ومباح كالحظوظ ، وهو صلى الله عليه وسلم لا يد أن يكون بكلمة . عليا وسفلى ، يلوح الى تغيير هؤلاء الدين تقعد بهم عزائمهم ، وتوهم أقذارهم ، وتسقط بهم قوامهم ، فلا يصيرون بالجهد والعمل ، والسعى والاكتساب ، والدأب والتحصيل ، في مستوى المعطى لا الآخذ ، والبازل

لا المستجدي ، وفي عليا الدرجات لا في الحضيض من المكائات ، ولأن يأخذ أحدكم حبله فيحنطب فيبيع خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه . وصح عند الفقهاء أنهم يكرهون أن يأخذ الفقير أكثر من حاجته . . . ويمدح الله سبحانه وتعالى المترفعين عن الطلب ، المتسامين عن مد أيديهم للأخذ ، إذ يقول : يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ، ، ويعلم الرسول أمته - جزاء الله عنها خير الجزاء - العفة والزهد ، وطرح هذا المتاع الزائل فيما يقول : ليس الغنى عن كثرة العرض ، إنما الغنى غنى النفس ، وكذلك فيما يقول : لغدوة في سبيل الله أو روحنة خير من الدنيا وما فيها .

ولا يقولن قائل : إني أدعو الى مذهب جديد في التربية الاجتماعية ، والنظم العمرانية ، فهذا هو ما يدعو إليه صميم الدين ، لأنه لم يرشد المتصدق الى الإخفاء بحيث لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ولا يقول : قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أدى ، إلا وهو معترف بما ينال العاق من ذلة ، ويلحقه من خرى :

ما اعتاض باذل وجهه بسؤاله عوضاً ولو نال الغنى بسؤال

وخير كل الخير للشعب الذي يسمو للنهوض ، ويتطلع للمجد ، أن يوجه المتعطل إلى العمل ، والمعوذ إلى طريق الكسب ، والمريض إلى الصحة ، والجاهل إلى العلم ، حتى لا يصبح فيه عضو أشل ، ولا فرد سبود . والاحد بيد المجتمع نحو الرقي أحسن من الاخذ بيد الفرد نحو سد العوز ، وديمق الغاقة .. ولذلك فإننا حين نحارب في الأمة الأعداء الثلاثة : الجهل والفقر والمرض ، نكون قد عالجنا الأدواء من أصولها ، واجتئنا العلة من جذورها .. وهذا هو الأخرى فيما أعتقد ، خصوصاً وقد اكتشف كثير من الناقدين أن معظم المتسولين يظهرون الفقر وهم أغنياء ، ويطلبون وهم غير محتاجين ، ويتحدثون السؤال صناعة .. ونحن أمام هذا الاشتباه الذي صيرنا لا نستطيع التمييز بين المحترف المتكبر ، وبين اللبيب الأسيف ، لنا العذر إذا لم نجب الصريح ، ونلب دعوة الداعي . هداانا الله يهديه ، وجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه !!

إيساغوجي

لحضرة الاستاذ الدكتور أحمد فؤاد الأهواني

١ — معنى اللفظ — عنوان الكتاب .

إيساغوجي : لفظة يونانية Eisagoge ، مركبة من مقطعين : eis ومعناه : إلى ، ثم agein يؤدي أو يفضى . والمقصود من يؤدي ، أو يفضى ، أو يقود إلى : المدخل . هذا هو المعنى المأدب المحسوس ، ثم نقل إلى المعنى المحقول أى المقدمة أو القدر .

ولما ترجم العرب الكتب اليونانية أدرجوا كثيراً من ألفاظها بنصها ، وعرفوا معانيها وما تدل عليها . فنحن نجد أرمطيقا ، وجومطريقا ، وأناطوطيقا ، وموسيقى ، وغير ذلك مما نقرؤه في كتب المتقدمين . فلما تأخر الزمن عرفت بعض هذه الألفاظ ، وبقي بعضها الآخر كما هو ، ونحت بعضها الثالث . عربوا أرمطيقا بالحساب ، وجومطريقا بالهندسة ، وأناطوطيقا بالتحليل ، وبقيت موسيقى كما هي مع تغيير النطق بما يلائم طبيعة اللسان العربي ويتفق مع فصاحة العرب ، ويباعد بينهم وبين عجمة الأعاجم . ونحتت ألفاظ أخرى كالقلسفة : فإن أصلها فيلوسوفيا ، كما هو معروف .

إيساغوجي إذاً من هذه الألفاظ اليونانية التي دخلت اللغة العربية واحتفظت بأصلها اليوناني ، مع اختلاف النطق وانقلاب الجيم غينا ، وهما حرفان في المخرج متقاربان .

ولارب في أن أبا عثمان الدمشقي ، وأبا علي عيسى بن إسحاق زرعة ، ويحيى بن عدى ، ممن نقلوا وشرحوا إيساغوجي في القرن الثالث والرابع الهجري . كانوا يعرفون هذا الاصطلاح اليوناني وأن معناه المدخل أو المقدمة إلى المنطق ؛ لأنهم كانوا يعرفون اليونانية أو السريانية ويقولون عنها ، وكأولهم المشتغلين بهذه العلوم ، المشتهرين بها .

فلما انقضى زمن النقل، وترجمت الكتب من اليونانية والسريانية إلى العربية، لم يسع علماء المسلمين إلى تعلم لغة الإغريق ومعرفتها، حتى إذا تقدم العهد بالعلم بها، أو لولا معنى هذه اللفظة اليونانية تأويلا يوغل في الإغراب ويدعو إلى العجب، كلما بعد العهد وتقدم الزمن.

وهذا شيء من طبيعة كل لغة، لأن اللغات كانت حية تخضع لما تخضع له الحياة من سنة الكون والفساد والنشأة والموت.

يضطرب تأثير الدين الأبهري من علماء القرن السابع في معنى إيساغوجي فيقدم لنا أربعة مدلولات، لم يرجع أحدهما على الآخر إلا لو قلنا إنه يختار الأول لأنه ابتداء به وقدمه. وهذه المعاني بحسب ترتيبها هي:

أولا: معناه الكليات الخمس: الجنس، والنوع، والفصل، والخاصة، والعرض العام.

ثانيا: وقيل معناه المدخل، أي مكان الدخول في المنطق.

ثالثا: يُسمى ذلك به، باسم الحكيم الذي استخرجه ودونه.

رابعا: وقيل باسم متعلم كان يخاطبه معلمه في كل مسألة بقوله: يا إيساغوجي الحال كذا وكذا.

وجاء المتأخرون فاشتغلوا في التأويل، وذهب بهم التخمين كل مذهب؛ قال: الشيخ الحقاوي من المتأخرين ^(١) إن اسم الحكيم أرسطوطاليس، ولم يمض قرن من الزمان حتى نهض الشيخ هليش ^(٢) يحقق معنى هذا اللفظ مع جملة باللغة اليونانية، فجاء بالعجب، وما يشبه الملح والفكاهات قال: «إيساغوجي مركب من ثلاث كلمات في لغتهم: إيسا، ومعناه أنت، وأغو، ومعناه أنا، وأكي - بالكاف - ومعناه ثم بفتح المثناة، أي اجلس أنت وأنا هناك نبحث في الكليات الخمس.

(١) ألف حاشيته ١١٧١ هجرية - . المطلع على من إيساغوجي في المنطق - حاشية المفتاوى - ٦٨
صفحة مطبوعة مطبوع الخاوي - ١٣٥١ هـ. [ص ١١] .

(٢) حاشية الشيخ هليش على إيساغوجي - ١٢٤ صفحة - المطبعة الوهية - ١٢٨٤ هـ [ص ٢١]

ثم نقله المناطقة بعد الكاف جيا ، وحذف همز الكلمتين الأخيرتين ، للكليات الخمس .

ثم زاد في التحقيق فقال : « والمشهور أن إيساغوجي اسم لوردة ذات أوراق خمس ، فنُقِل للكليات للشابهة في الحسن . »

ويبدو أن المسلمين في هذا العصر قد أخذوا في سبيل النهضة الحقيقية ، وعادوا إلى الطريق الصحيح والمنهج السليم ، فمن رى الشيخ محمد شاكر وكيل الجامع الأزهر يؤلف من أربعين عاماً الإيضاح لمثن إيساغوجي ويقول : « هي كلمة يونانية معناها الكليات الخمس ، ولغرايتها عن اللغة العربية اشتهر هذا الكتاب بها حتى صارت كالعلم عليه : فيقال : إيساغوجي ، ويراد به الكتاب بأكمله ، لا هذا الفصل وحده . »^(١)

ولاريب في أن فهم الشيخ شاكر أدنى إلى العقل من يقول إن إيساغوجي يعنى « وردة » ، أو « أنت وأنا وثم » ، وما إلى ذلك من التخييط والتخليط والإغراب . والصواب ما ذكرناه في صدر هذا الكلام ، والمقصود : المقدمة أو المدخل ، كما قطن إلى ذلك الأجهري في أحد معانيه .

وكانت عادة المتقدمين أن يؤلفوا « المداخل » إلى العلوم ، مثل المدخل إلى الموسيقى المنسوب إلى السكندی ، والمدخل إلى الرياضة ، وهكذا .

٢ - المؤلف :

ليس مؤلف إيساغوجي كما زعم بعض المتأخرين - أرسطو ، وإنما هو :
فريريوس الصوري^(٢) .

ولد في مدينة صور في ساحل الشام عام ٢٣٣ بعد الميلاد ، وانصل بأفلوطين في روما عام ٢٩٣ حيث أخذ عنه ، واضطلع بنشر مذهبه ، فكتب « المدخل إلى المعقولات » اعتمد فيه على تاسوعات أفلوطين لبيان طبيعة النفس والعالم المعقول .

(١) الإيضاح لمثن إيساغوجي - للشيخ محمد شاكر - الطبعة الثانية - ٨٦ صفحة - مطبعة النهضة

١٩٢٦ م [ص ٢٣] .

[٢] انظر يوسف كرم - تاريخ الفلسفة اليونانية - الطبعة الثانية ص ٢٩٨ ، ١٣١ .

Brehier : Hist de la Phil. Periode Hellenistique P. 471-472.

وقد جنح به ذوقه الشخصى نحو الزهد، قال إلى المذهب الفيثاغورى،
وألف كتاب، الامتناع عن أكل اللحم، يدافع فيه عن النباتيين.
وهو مؤرخ كذلك، له كتاب «حياة فيثاغورس»، و«تاريخ الفلاسفة»،
ذكر أخبارهم إلى أفلاطون.
ويعد شارحاً لأرسطو. ذكر القفطى أن له شرحاً على السماع الطبيعى،
وقاطيفوراس، وبارى أرمنياس، وكتاب الاخلاق.
وله المدخل إلى مقولات أرسطو، المعروف باسم إيساغوجى.
وتوفى عام ٣٠٥ بعد الميلاد.
والاجماع منعقد بين سائر المؤرخين على أن شهرة فرغوريوس هى فى كتابه
إيساغوجى الذى لقى حظاً كبيراً من التأثير فى المنطق عند المسيحيين والمسلمين
على السواء، خلال العصر الوسيط.

إيساغوجى

٣ - التراجم والشروح :

وأول من شرح إيساغوجى من فلاسفة المسيحيين بوتيوس Boetius وله
فى روما حول ٤٧٠ بعد الميلاد، وتوفى ٥٢٥. طلب العلم فى روما أولاً ثم فى أثينا،
واتصل بملك القوط تيودريك Theodoric، واتهم بالمؤامرة على حياته
فاعتقل وبجن، ثم نفي.

وله آثار كثيرة فى الفلسفة، أشهرها فى المنطق.

نقل إيساغوجى إلى اللاتينية وشرحه :

وشرح من كتب أرسطو المنطقية : المقولات، والمباراة، والتحليلات الأولى،
والثانية، والجدل. وبذلك أصبح بوتيوس رأس المناطقة فى «مستهل العصر الوسيط»،
وحاول أن يشرح أرسطو بحسب فلسفة أفلاطون، ذلك لأنه كان ينبغ شرح
فرغوريوس^(١).

[١] انظر يوسف كرم - تاريخ الفلسفة الأوربية فى العصر الوسيط ص ٥٩ - ٦١ - و

Gilson : La Philosophie au Moyen age, P. 471-472.

كانت المشكلة المظيعة في المنطق هي السكليات ، التي دار حولها الجدل خلال العصر الوسيط .

ويبدأ هذا الجدل من عبارة وردت في إيساغوجي ، يقول فيها : إنه بعد أن يدرس الأجناس والأنواع ، فسوف يبحث هل هذه الأجناس والأنواع حقائق تقوم بنفسها خارج العقل ، أو أنها مجرد تصورات في الذهن . وإن كانت حقائق خارجية فهل هي جسمية أو لا جسمية ؟ وإن كانت لا جسمية فهل هي مفارقة للمحسوسات أو لا توجد إلا في المحسوسات . على أن فرفوريوس أبي في إيساغوجي ، لأنه كتاب وضع للبندنيين ، أن ينظر في هذه المشكلة المويضة المتصلة أوثق الاتصال بما بعد الطبيعة .

وإذا كان فرفوريوس قد أثر أن يتجنب هذه المشكلة ، فلا يميل ناحية أرسطو أو ناحية أفلاطون ، فإن بوتيوس قد اتجه وجهة أرسطو . هذا ما كان من شأن إيساغوجي في الفلسفة المسيحية الغربية ، أو مانا إلى طرف منه لبيان أثر ذلك الكتاب في الغرب .

وتحدث عن أثره في الشرق ، وكيف انتقل إلى المسلمين :

أقدم ما نجده في كتب التاريخ عن ترجمة عربية لإيساغوجي هو لأبي عبد الله ابن المقفع ، أول من اعتنى بترجمة الكتب المنطقية لأبي جعفر المنصور . ترجم كتب أرسطوطاليس المنطقية الثلاثة وهي كتاب قاطيغوراس ، وكتاب باري أرميناس ، وكتاب أناطوليفيا . وذكر أنه ترجم إيساغوجي تأليف فرفوريوس الصوري ، (١) .

فإن صح ذلك يكون ابن المقفع قد نقله عن الفارسية ، وتكون كتب أرسطو وغيرها من الكتب اليونانية قد نقلت إلى الفارسية .

والثابت أن كتب الفلسفة اليونانية نقلت إلى السريانية ، ومنها وعن اليونانية نقل إيساغوجي قسطنطين لوقا ، إذ يذكر القفطلي أن له ، المدخل إلى المنطق ، . والكندى له كتاب ، المدخل المنطق المستوفى ، ، وكتاب ، المدخل المختصر ، .

ويذكر صاحب كشف الظنون أن أبا العباس أحمد بن محمد بن مروان السرخسي المقتول سنة ٢٨٦ له مختصر لإساغوجي .

وتأتي بعد ذلك طبعة أخرى في القرن الرابع الهجري قامت بالتعليق على إساغوجي وشرحه ، منهم أبو نصر الفارابي ، له كتاب « تعليق إساغوجي على فرفوريوس » ، ومتى بن يونس ، وله « تفسير كتاب إساغوجي لفرفوريوس وهو المدخل إلى المنطق » .

ومن تلامذة هؤلاء يحيى بن عدي « نزيل بغداد » انتهت إليه رئاسة أهل المنطق في زمانه ؛ قرأ على أبي بشر متى بن يونس ، وعلى أبي نصر الفارابي .

ثم نجد من تلامذة يحيى بن عدي ، الحسن بن سوار المعروف بابن الخمار ، بغدادى فاضل منطقي ، له كتاب تفسير لإساغوجي مشروح ، وكتاب تفسير لإساغوجي مختصر .

ومن الطبيعي أن يعرض أبو علي بن سينا في أوائل القرن الخامس لإساغوجي عند الكلام على المنطق . وله في صدر الشفاء ، في الجزء الخاص بالمنطق ، وهو لم يطبع بعد ، شرح طويل ، ولو أنه يعارض فرفوريوس في بعض المواضع ^(١) .

وقامت لابن سينا مدرسة على يد شرحه ، منها مدرسة الفجر الرازي المتوفى سنة ٩٠٩ والذي وقف نفسه على فلسفة ابن سينا واحتصرها وشرحها وعارض بعض مسائلها .

ونفرت عن طريق الرازي مدرسة كبيرة ، كما يحدثنا ابن العبري في تاريخه إذ يقول : « وفي هذا الزمان في حدود سنة ٦٣٣ ، كان جماعة من تلامذة الإمام غفر الدين الرازي سادات فضلاء ، أصحاب تصانيف جليلة في المنطق والحكمة ، كزين الدين الكشي ، وقطب الدين المصري بخراسان ، وأفضل الدين الخوننجي بمصر ، وشمس الدين الحشروشاهي بدمشق ، وأثير الدين الأهرى بالروم .

السلسلة متصلة إذن من الكندي إلى الفارابي ، ومن الفارابي إلى ابن سينا ، ومن ابن سينا إلى الرازي ، ثم إلى أثير الدين الأهرى .

وإذا كانت الارزاق حظوظاً مقسومة ، فالكتب كذلك حظوظ . وكان من حظ الأبهري أن يشتهر في القصر السابع بكتابه عن إيساغوجي ، أو كما يقول حاجي خليفة ، والمشهور المتداول في زماننا هو المختصر المنسوب إلى الفاضل أبي البركات المفضل بن عمر الأبهري المتوفى في حدود سنة ٧٠٠ .

وله شروع وحواشي ، منها :

شرح حسام الدين السكاكي المتوفى سنة ٧٦٠ . ومن الحواشي حاشية البردعي ، وعليها حاشية ليحيى بن نصوح بن إسرائيل . ومن حواشي شرح الحسام حاشية يحيى الدين النالجي ، وحاشية الشرواني ، وحاشية لمولانا قريظة أحمد المتوفى ٨٥٤ . وحاشية الفاضل الأبيوردي ، وحاشية لبعض المنطقيين .

ومن شروع إيساغوجي شرح الفاضل العلامة شمس الدين محمد بن حمزة الصاري المتوفى ٨٣٤ - وهو شرح دقيق بمزيج لطيف ، وعلى هذا الشرح حواشي أيضاً أدقها وألطفها حاشية الفاضل الشهير بقول أحمد بن محمد بن خضر . وعلى هذه الحاشية تعليقات توجد في الهوامش . ومنها الفرائد السنية ، والفوائد الفارسية لأبي بكر بن عبد الوهاب الحلبي . ومن الحواشي على شرح الفنازي حاشية برهان الدين بن كمال الدين المسماة بالفوائد البرهانية .

ومن الشروح شرح خير الدين التليسي . وشرح الشيخ شهاب الدين أحمد ابن محمد الشهير بالأيدي . وشرح الشريف نور الدين علي بن إبراهيم الشيرازي تلميذ الشريف الجرجاني المتوفى بالمدينة سنة ٨٩٢ هـ . وشرح مصلح الدين مصطفى ابن شعبان السروري المتوفى ٩٦٩ هـ . وشرح الشيخ زكريا بن محمد الانصاري الفاهري المتوفى سنة ٩١٠ هـ . وشرح الفاضل عبد اللطيف المعجمي ، وأهداه إلى السلطان علاء الدين . وشرح أبي العباس أحمد بن محمد الآمدي . وحكيم شاه محمد بن مبارك القزويني المتوفى ٩٦٦ هـ . وشرح خير الدين حصر بن عمر العطوف المتوفى سنة ٩٠٠ هـ . وشرح محمد بن إبراهيم بن الحبلي الحلبي ، وهو على تصورات ، ومن شروحه مطالع الأفكار .

ونظم إيساغوجي لور الدين علي بن محمد الأشموني في حدود ٩٠٠ هـ .

ونظم الشيخ عبد الرحمن بن سيدي محمد ، وسماء السلم المنورق ، ثم شرحه .

ونظم الشيخ إبراهيم الشبيري المتوفى سنة ٩٢٠ هـ . وهو تانية ، ثم شرحها .
 نقلنا إليك هذه الشروح والحواشي الكثيرة عن كشف الظنون ليقين لك
 الخط الغريب الذي ناله متن إيساغوجي لأثير الدين الأبهري .
 ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، لأن حاجي خليفة لم يذكر إلا الشراح حتى
 القرن العاشر ، ثم ظهرت في مصر على ما نعلم ، حواشي على شرح الانصاري
 لمتن إيساغوجي ، منها حاشية يوسف الحفناوي ٩١٧١ هـ . وحاشية حسن العطار
 سنة ١٢٣٦ هـ وحاشية محمد عليش المالكي سنة ١٢٨٣ هـ . وشرح محمد شاكر
 سنة ١٣٢٥ هـ .

الشكر

قال عبد الله بن عباس : لو أن فرعون مصر أسدى إلى بدأ صالحه
 لشكرته عليها .

وقال حكيم المسلمين : إذا قصرت يداك عن المكافأة ، فليطل لسالك بالشكر .
 وسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة رضي الله عنها تنشد أبيات
 زهير بن جناب :

ارفع ضعيفك لا يجر بك ضعفه يوما فتدركه عواقب ما جنى
 يجر بك أو يثني عليك فإن من أتى عليك بما فعلت فقد جزى

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : صدق يا عائشة ؛ لا شكر الله من لا يشكر الناس .
 وأنشد الرائي :

إذا أنا لم أشكر على الخير أهله ولم أذم البخس القيم المذمما
 ففيم عرفت الخير والشكر باسمه وشق لي الله الماسع والفما

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

لفضيلة الأستاذ الشيخ علي عبد المنعم عبد الحميد
المدرس بالأزهر

روى مسلم في صحيحه عن أسامة بن زيد قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتدلق^(١) أفتاب^(٢) بطنه ، فيدور بها كما يدور الخمار بالرحى ، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون : يا فلان ، مالك ألم تكن تأمر بالمعروف^(٣) ونهى عن المنكر^(٤) ؟ فيقول : بلى لقد كنت آمر بالمعروف ولا آتبه^(٥) وأهيى عن المنكر وآتبه^(٦) . »

• • •

الدار الآخرة أمر لا ريب فيه . زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا ، قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنفون بما علمتم ، وذلك على الله يسير . والديا تحمل في حوادثها دلائل فسادها ، وبراهين زوالها . وقد أجمع العقلاء منذ القدم على أنه لا بد من حياة تلو هذه الحياة ، فيها يجد المرء جزاء ما قدم من خير ، وما اكتسب من إثم . فمن يحمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره . وما أنكر ذلك إلا من كانت أفكاره فجفة ، ومعلوماته بدائية ، مارقت في سلم المعرفة درجة واحدة .

(١) اندلق الشيء : خرج من مكانه ، والليل : اندفع ، واللبف : انسل بلا سل أو شق جفته تخرج منه . والمراد هنا : أن أمعاءه تخرج بسرعة .

(٢) الأفتاب : الأمعاء ، واحداً قتب (بكسر الهمزة) ويطلق أيضاً على ما استدار من البطن .

(٣) المعروف : كل ما أمر الفاعر باتباعه وهو ما ليس بمنكر ، والمنكر كل ما نهى الشارع

عنه وحظره .

(٤) أى لا أتبه (ع) أى أتبه .

واقه سبحانه وتعالى خبير بحلقه كل الخبيرة ، عالم بالجزئيات والتفصيلات ؛ فهو إذا وصف العلة فقد أوفى على القصد ، وإذا دل على الدواء فهو العليم الحكيم ؛ جعل ذلك الرب البصير ، الحياة التي نحيهاها على ظهر البسيطة مجازاً ومسلماً إلى الدار الباقية ، كما جعلها مزرعة ، ووكّل إلى كل صنف من الناس نوعاً من المزروعات يقومون عليه ، ويمملون جاهدين على تسميته ، والمحافظة عليه ، وأخبر أن لكل عامل أجراً يقل ويكمل حسب العمل وكفاءة العامل ، واختار قوماً يتولون مراقبة التنفيذ لأوامره ، ومعهم موازين دقيقة يعرفون بها المجيد ذا المهمة الوثابة ، من المهمل المتكاسل المتراني ، وأمرهم بتوجيه الزراع على اختلافهم ، كما أمرهم بمراقبتهم .

هؤلاء الهداة هم الرسل والأنبياء ، عليهم صلوات الله وسلامه ، وأتباع الرسل والأنبياء . فالأولون يؤدون مهمة التأسيس ، مهمة البناء القادة ، وأتباعهم المتلاحقون يتولون حراسة الفكرة وهي نبتة صغيرة ، ويتعهدونها حتى تنمو وتزدهر وتوثق أكلها كل حين يأذن ربها ؛ فلو أن وارفى مجد الإسلام حافظوا على ميراثهم ، وحفظوا وصايا قائدهم الأول صلى الله عليه وسلم ، لسموا ونشروا راية هدايتهم خفاقة عالية على ربوع الكون وجميع أصقاعه ، وأراحوا العالم من حروبه المتلاحقة ، وبعضائه المستمرة ، ولأناروا دياجيرهم ، وأضاءوا خنادقهم .

وكانى بالرسول الكريم كان يعرف ماسيصير إليه أتباعه بعد أن يفتح الله عليهم الدنيا ، وبعد أن تفرغ لهم الأرض كوزها ، من إهمال وتقصير في أمر الدعوة ، وإحماد الشعلة المضئنة في أيديهم ؛ كأنه صلى الله عليه وسلم كان يعرف ذلك ، فحذر عاقبته وأنذر وكلامه على خلق الله بالعذاب الشديد والعقاب الاليم إن أهملوا أو توانوا ، وأوصى وأطال في وصاياه بمتابعة العمل للقول ، وموافقة فعل الناصح لصحه ، ووضع أسس ذلك في سيرته بين أصحابه المعاصرين له . فقد كان يقول لهم دائماً اعملوا كما ترونى أعمل ، وأخذ عنه ذلك صحابته ، فكانوا يحاسبون أمراءهم إذا رأوا منهم حيدة في عملهم عن قولهم ولو ظاهراً ، حتى إن رجلاً في عهد عمر ابن الخطاب رضى الله عنه قال له : لانسع لك ! وقد وقف بخطيبهم ، فقال عمر : لماذا لا تسمع ؟ فقال الرجل : لأنك ميزت نفسك عنا ولبست قبضين ، وقد

أعطيت كل واحد منا قيصا واحدا مما آفاه الله عليك من الخراج ، فقال عمر
رضوان الله عليه : قم يا عبد الله بن عمر ؛ فقام مألوه : لمن هذا القميص الذى أرتدى ؟
فأجابه عبد الله . هو لى يا أمير المؤمنين وقد سمعت لك بارتدائه لخروق أصابت
قميصك ١ . فقال عمر لصاحبه : أسمعتم مقالة عبد الله ؟ قال نعم ؛ الآن قل نسمع لك ١
وفى احتكام على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، واليهودى إلى القاضى شريح ،
مثل أعلى لزاهة الحاكم وقوة إيمانه بقوانين العدالة ، وشدة يقينه بمراقبة أحكام
الحاكمين ، فهو لا يحشى إلا الله ، ويحشى أن يقال له إذا جار : أين أنت يا شريح
من قول الله تعالى : إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم
بين الناس أن تحكموا بالعدل .

مضى هؤلاء ، وخلف من بعدهم خلف أضاعوا النصيح القويم ، واتخذوا
العلم والتعليم والهداية والإرشاد حرقا يطلبون لها أجرا ، ولا يجمعون بين
أقوالهم وأفعالهم ؛ فهم كالمرضى بعلة خاصة يصف دواءها لمرضى آخر بها ،
ولا يداوى نفسه منها ، فغيره سينجو ، وهو سيهلك لا محالة ؛ هذا إن صدق
الآخر قوله ، أما إذا كذبه بشاهد من عمله فقد قضى على نفسه ، وعلى غيره ؛
فهو جان جنائتين ، ومرتكب لإثنين ؛ فلا عجب أن يحى يوم القيامة عالم لم يعمل
بعده ويطرح فى النار ، وتفعل به الأفاعيل ؛ ولا عجب أن يتساءل أهل النار
ويسألونه عن سوء مقلبه وقبح مصيره ، وهو الداهى إلى الخير فى الدنيا والآخرة
على الفضيلة فى الدار العاجلة ؛ وإذا عرف أهل النار علة قدومه إليهم ، ووفوده
عليهم ، ومشاركته لهم فى جحيمهم — وهو إهماله العمل بما علم — حينئذ يزول
عجبهم ، وينقطع تساؤلهم ، وينقص استنكارهم لمآله وسوء منقلبته .

هذا ، ونظرة فيما نحن فيه من إحن وعن ، وبلاء وعذاب ، وتقهر وتدهور ،
مع كثرة المرشدين إلى طرق الإصلاح ، ووفرة الداعين إلى الرشاد — تربك صدق
ما كان يخافه النبي العظيم على أمته من ترك العمل والاكتفاء بالقول ...

فإنراه وشاهده من تأخر فى أحوال المسلمين خاصة ، والشرق عامة ، ناشئ
من أنهم مُنُوا يقوم يقولون ما لا يفعلون ، يرشدون إلى النافع فى خطبهم ،
ويطعمون الجبانع ويكسون العارى فى أحاديثهم الخاصة والعامة ؛ ولكن إذا

جئت تبحث عن الآثار العملية ، يؤت بالحياة ، ورجعت خاوي الوفاض حتى من "خفى حنين ١. وهذا يربى في أبناء الأمة روح الاستهتار بما يسمعون ، ويجعلهم كلما رأوا ناصحا أو سمعوا وعدا ولم يجدوا تنفيذا قالوا : تلك شفتنة نعرفها من أخزم ١ ورددوا قول القائل :

وغير ذى تقى يأمر الناس بالتقى طيب يداوى والطبيب مريض

وقالوا مع أبى المتاهية :

وصفت التقى كأنك ذر تقى وريح الخطايا من ثيابك تسطع

وقد قلنا إن السابقين الأولين كانوا يحافظون على أن تكون أفعالهم طبق أقوالهم ، ويرون في مخالفة ذلك الفساد الظاهر ، والخطر الداهى على كيان الأمة ، خلقيا واجتماعيا وعمرانيا ؛ فأما خلفا فبانتشار الكذب بين الناس ، وتعودهم الغشاق ، ومخالفة ما يفعلون لما يقولون ؛ وهذا يودى بالمجتمع العام ، حيث لا يثق شخص بآخر ، ولا يركن إلى عدته ، يل ويستريب فى كل حديث ، ولا يصدق مقاله أبدا ؛ وبذلك تنعطل مصالح العباد ، ويمع الفساد . . .

من أجل ذلك شد رسول الله صلى الله عليه وسلم التنكير غاية التشديد على الذين تخالف أفعالهم أقوالهم ، وأوعدهم بعذاب الله لهم فى الدار الآخرة ، فقال عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام : أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينصحه الله بعلته . . وروى حماد بن سلة عن على بن زيد عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليلة أسرى بي مررت على ناس تقرض شفاهم بفاريض من مار ، فقلت : يا جبريل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء الخطباء من أهل الدنيا يأمررون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب ، أفلا يعقلون . .

فالهم اجعلنا من إذا قالوا فعلوا ، وإذا علموا عملوا ، وإذا سمعوا القول اتبعوا أحسنه ؛ وألقى الهداية فى قلوب ولاية الأمة الإسلامية ، وحب العمل لما يرفع عن المسلمين إصرهم ، ويزيل إحهم وبلاءهم ، ويوائم بين مختلف طبقاتهم وميئاتهم ، فقد قلت وقولك الحق « وإذا سألك عبادى عني فإني قريب ، أجيب دعوة الداع إذا دعان ، فليستجيبوا لي ولؤمنوا بي لعلمهم يرشدون . .

سياسة القول

لمضية الأستاذ كامل مجلان

المدرس بالأزهر

— — —

يظننا عصر السرعة، وبحيا ممجّلين خاضعين لمطالب (الآلة) السابحة في مدارج الأفلاك، والمساخرة في مساجح الأسماك؛ ومصارنا تصرفها أقدار القوى المسيطرة على جهود العبقریات الخلاقه المتحصرة، والمفتنة في وسائل الخير والشر .
وصاحب البيان وحامل اليراعة تأخذه بوارق وخواطف تلك الحياة إذا تصدى للتعبير وتصوير خوالجه، فيطلق عقال قلبه، وبجباب القيود، مؤثرا السهولة العابرة، حتى لينزلق الى مزق من القول المهلهل، ولحقه الضحلة التي تعد في الهشيم والعصف المأكول .

فإذا تلعت الى حصاد القلم وجدها لا تمسك نفسها نائضا، ولا ربحا خالدا، وحظها من البقاء على مجادة الزمن حظ الذي الرخيصة التي تلهي الولدان بإدا طاف بها يوم أو يومان تأثرت وانقرط تماسكها وانجلى عفتها .

ويشق الأسف على القلب الذي أشرب حيا (البلاعه العرية) وتملا من روائع الكلم الساحر والقول الفصل، والإيجاز المحشود في قوة فاعة وإبصاح مشرق وصفاء متخل قدمن انصدق وأبط مروجدان صارخ بالآلم والآمل، تفرق فيه خاطرات النفس في سرائها وضرائها، في حبها وبغضها، في شدتها ورسائها، في حرجها وسلبها، وعند ذلك لا يسهه إلا الدم وإلا عض الآامل وتقلب الكف أسفا على ما فرط في جنبه، وإهدار بات فكره، باخراجها في أبواب بالية تمشي على استحياء، إن كتب لها أن تحيا قليلا، وإلا وثبتت عرائس فكره في مهدها .

وأحسب أن الرجوع الى بلاغة القول وسياسة التعبير الذي يلخص المعاني في رفق، يحذف العضول ويقرب البعيد؛ أحسب أن تلك السياسة هي المراد الذي

يحمد فيه السياسى مشتهاه ومنفذه ومخلصه ، ويحمد المصرح فيه نجاهه ووقاية من الزلل والشطط ، ويحمد فيه المحارب مجتأ يخفى بين طبائمه خططه أو يكشف عما ينصره من وحي الرعب والإخافة للعدو الرابض .

أحسب أننا فى حاجة الى العودة الجميلة ، والركون الى الحق وهو فضيلة .

أحسب أن التعبير الجليل عن مبتكرات الفكر وموانخ الرأى وبوادر الإجابة ، هو الراجع فى يدى من يرون كفى التساهل فى حق التعبير والتجوير ، والتجوير والتوق والتبصر عند التأثير والتسطير ، وإلا فما لهذه الحصاراة تفر الرمز فى أدهما ، ونحب التجميل والترقيش والتزيين فى تماثيلها وحساواتها وحلها .

فطرة النفس التى برأها الله عليها ، وهى إطالة الوقوف حول الحق ، وتطلب المعرفة وراء الغامض وملء الدين من فن الجمال وطلاوة الخطاب ، والنهات على الشيق الجذاب .

وحظ اللسان ونصيب الحافظة ، من سائر المثل ، وتعليق الحكمة ، وتزويد المأثور ، وانتقاء الشارد - كل ذلك لا ينكر ولا يكابر فيه : وكأنى بالمعطرة تلتقى مع حاجات السرعة وعصرها الذى نسينا فى رحمته تراثنا خلفه لنا القدامى موائد شبيهة صرقتا عنها زيف الطعوم المتكالبية ونظريات مجلوبة .

فهلأ رجعتنا وتبصرنا . لست أدري ، غير أنى أتمثل قول الشاعر :

حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفى البداوة حسن غير مجلوب

ومالى وشيطان الشعر وأنا فى معرض القول المأثور من التعبير المنشور قد يسمقى ، وربما يرضيك أن أروى ما قاله ابن المجاك ، الضائق بسياسة عصره فى عهد معاوية حين سئل : كيف تركت الناس ؟ قال : تركتهم بين مظلوم لا ينتصف ، وظالم لا يقبى .

وأدق منه وأولى بساستنا أن يخذوا أو يتأثروا ، إجابة (شيب) لما كان عند باب (الرشيد) ، فوجه اليه سائل :

كيف رأيت الناس ؟ قال : رأيت الداخل راجيا ، والخارج راضيا . .

ومن الإجابات المصورة في إيجاز حياة شعب بأسره ، ومفيد لمستفسر عن أى الخطوات يضرب على أبواب مستقبل غامض وحرب موفية وكفاح مسلم ورغبة حافزة — من الإجابات ما روى عن الفرزدق حين سأله الحسين بن علي في أمر مسيره الى (العراق) وعن أهواء الناس هناك ؛ لقد أوجز وقدم تقريراً دونه أية إطالة وأى إطناب :

« القلوب معك ، والسيوف عليك ، والنصر في السماء ، !

ولست بناس مقام الإيجاز ولا موضع الإطناب ، ولا بغافل عن ضيق الناس بالتمرس لتحصيل وسائل القول البليغ ، والتعوء الفصيح ، والكتابة الخالدة .

ولكنى أجد ربح الأسف من كل حامل قلم إذا رجعت وراجع نفسه : كم تذهب نفسه حشرات على أن لم يكن زاد في حسن الصياغة ، وترث وإن تأخرت (عجالات الآلة) التي خبت بالوريفات فأرغته على أن يلاحق دوراتها . وما أعجله عن إتقان فنه إلا حب العيش أوجب الشهرة .

فيذا التمس لهذا وذاك وأمثالها عذرا فالحؤولاء الذين أتمموا من المجد وإن كان زائفا ، ما لهم لا يغمسون أقلامهم في مداد ومدد يمدم بالخلود ، ويسعفهم بالبقاء ما تفرقت الآراء واحتربت الأفكار وقابت الكتب ونشرت الصحف .

ليت ! وهل ينفع شيئا ليت ؟

ليتى كنت مع البلاء فأفور فوزا عظيما حين أسدد الرأي وأحدد الهدف ، وأنفذ بسلطان القول ، ثابتا والتعبير الجميل ؟

سـ

لما كان عمر بن عبد العزيز بالحجاز ، أعطى رسالة من جرير ، فقال : مالي وللشعر ! فلما قيل له إنها رسالة عن أهل الحجاز ، قال : فهاتها ، فإذا فيها :

كم من ضرير أمير المؤمنين لدى	أهل الحجاز دهاء البؤس والضرر
أصاب السة الشهباء ما ملكت	يمينه خضاه الجهد والكبر
ومن قطع الحشا عاشت خبأة	ما كانت الشمس تلقاها ولا القمر
لما اجتلتها صروف الدهر كارهة	قامت تنادى بأعلى الصوت يا عمر

دين الله الاسلام منبع الشرائع

لحضرة الأستاذ فظام الدين عبد الحميد

اقتضت إرادة الخالق — جل وعلا — إيجاد الوجود، وشاءت مشيئته خلق النوع البشرى مزوداً بأنواع من الملكات والفرائز والهدايات والقوى، يستعين بها على سلوك مسلك الحياة واجتياز عقيبتها على صوره اللازمة؛ وكان أعظم هداية زوده بها وأكثرها ضرورة له هو هداية الدين. وكانت حكيمته السامية قاضية بأن يصطفى من بنى آدم أنفسهم أناساً غلبت قوتهم الروحية على ماديتهم غالباً يمكنهم من أن يكونوا وسطاء عن طريق الوحي بينه — سبحانه وتعالى — وبين بين البشر لإبلاغهم أوامره، ورسلاً إلى أقوامهم ومعلمهم ينجون لهم ما يوافق مصلحتهم، ويشرعون ما تقتضيه ظروفهم، على ضوء دين الله الأوحيد الموحى إليهم جميعاً، والمقطور عليه نفوسهم ونفوس البشر جميعاً؛ حيث إن البارئ تعالى قد فطر النفوس على الدين العطري، ويسر لها اكتناه حقيقته، لو رفعت عن بصيرتها ستار العماية، وأزالت عنها حجاب الضلالة.

ولئن لو دققنا أطوار حياة الملحد المسكر الذى لا يرى لغير المادة سلطاناً، ولا لغير المحسوسات وجوداً، ولا لغير الصدق عللاً وأسباباً؛ وفتشنا عن خبايا نفسه فى شتى الظروف والمسابات، للسنّا عنده ما يؤيد هذا القول، ولعثرنا عنده على جذور لهذا الدين توجهه للقيام ببعض أعمال البر والخير، وهى السبب المباشر لكل ما يأتى من عمل إنسانى. وإنى ألتبس مصداق بعض قولى هذا فى هذه الآية الكريمة الآتية التماساً قوياً: «أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون».

ولئن نرى الملحد المسكر يعزو سبب ما يقوم به من معروف إلى دافع الوجدان أو الضمير أو الإنصاف أو الرحمة؛ ولكننا لو فاجأنا هذا النوع

من الإنسان المحدث ، وطلبنا منه أن يفسر لنا مدلول هذه الأسماء تفسيراً مادياً يرفع عنه النقاب ، ويبين المصدر المبعث منه هذا الذي يسميه تارة وجداناً وتارة ضميراً ، ومرة إنصافاً وأخرى رحمة ، لبُهِت من حراجه المأزق ، ولشدته شائخاً إليك لا يحير جواباً .

والشيء الذي يكاد يراحم البديهة عندي : هو أن مدلولات هذه الأسماء هي بعض مدلول كلمة الدين الحقيقي الفطري ، أو هي فروع متفرعة من دوحه هذا الدين القويم ، أصلها شيء واحد ، وغذاؤها من نبع واحد .

فهذا الدين الفطري بالرغم من أنه متأصل في النفوس ، وبالرغم من أن النفوس قد جبلت عليه ، نرى بعض العميان الذين طعت ماديتهم على روحيتهم طغياناً طمس عندهم معالم الاهتداء إلى نور اليقين ، وأخفى عنهم سرج الوصول إلى الحق المدين ، يحاولون عبثاً التحرر من سلفانه ، ويغنون ظلمة الانسلاخ من دائرته . لذلك كان من آثار عنايته ، تعالى ، أن يرسل إلى مختلف الأمم في مختلف الظروف رسلاً موحياً إليهم ديه الأوحاد . ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ، فمنهم من هدى الله ، ومنهم من حقت عليه الضلالة ، يجردهم مع بنى البشر عهد العطرة ، ويخلو بهم صداً الأوهام والخرافات عن جوهر الدين في القلوب ، ويجرد بهم أذهانهم مما تعلق بها من الترهات وأسباب النقص والفساد ، ويظهر بهم نعوسهم مما طرأ عليها من أدران الزيف والضلال ، ويدعوهم إلى ديه الأقوم . فأقم وجهك للدين — الحق الخالي عما ابتدعته الأمم ، وأوجدته الأعراض ، من الشوائب التي لا تمت بصلة إلى الدين — حنيئاً ، فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم — وحده — ولكن أكثر الناس لا يعلمون . فهذه الآية الكريمة دليل واضح على أن الدين فطرة ، وأن الباري ، تعالى ، قد فطر الناس على هذه الفطرة : وهذه الفطرة عبارة عن الدين القيم الذي لا يمتريه التغير والتبديل . وهذا الدين هو دين الإسلام ، دين جميع الأنبياء والمرسلين ، أي دين استسلام الوجه له سبحانه وتعالى ، والالتقياد والخضوع له وحده ، والاستعانة به ، وطلب جميع المآرب منه وحده : إياك نعبد ، وإياك نستعين ، وحده فقط دون أحد سواك ، لكمال ألوهيتك ، وإياك نستعين ، وحده فقط أيضاً دون أحد من الكهنة والرؤساء

وشيوخ الطرق والأولياء ، ودون شيء من المفابر والأشجار والأحجار ،
لكمال ربوبيتك .

هذا وإن الإنسان المتجرد عما ورث من العقائد والآراء ، الخالي الذهن
عن كل ما يحيط بمائلته ومجتمعه وبيئته من الشعائر والطقوس والأوهام ،
لو فكر ساعة بذهن ثاقب في ساعة من ساعات التجلي ، وفي وقت من أوقات
يقظة الضمير ، وفي فترة من فترات صفاء الفكر والقلب ، عن السر المحيط بهذا
الكون ، وعن الواهب للوجودات الوجود والحركة والنظام ، وعن العلة
الاصلية المحركة لدقائق الأمور وجلالاتها ، لانبجلى أمامه كل غموض ، ولانكشف
لديه الحق الواضح الأبلج ، ولاهتدى بعقله وأدرك بأن هذا الارتباط الكلي بين
أجزاء الكون الواسع العجيب لا يمكن أن يعزى الى مجرد الصدفة ، وبأن
الكون بمجموعه يهيمن عليه صاحب قوة مدبرة جبارة لا نهائية ، أوجد الوجود
من العدم ، منصف بصفات الكمال ، منزه عن صفات النقص ؛ تقصر عن درك
ذاته الكريمة الالهام ، وتفضل عن اكتناه ماهيته العقول ، وهب الخلق وأوجد
ما به يكون كمال الوجود ؛ ولاهتدى بتفكيره الى أن هذا الواهب للوجود النظام
المتقن لا يعقل أن يترك البشر وشأنهم دون أن يرسل إليهم رسلاً مع ما تستوجبه
عدائه ، وما تستلزمه حكمته ، وما تقتضيه ظروف البشر أنفسهم من الأوامر
والنواهي والإرشادات ليقتظم سير الحياة ؛ ولاهتدى أيضاً الى أنه لا يمكن للعدالة
الإلهية أن تترك المحسن دون ثواب ، وأن تترك المسيء دون عقاب ؛ ولالهم
بأن ثواب الصالحين المحسنين المستلزمين أوامر هذا الخالق ، والمتجنبين نواهي ،
وعقاب الطالحين المسيئين المخالفين أوامره والمقدمين على نواهي ، يتحقق في يوم
لاريب فيه ، يوم تبيض فيه وجوه وتسود فيه وجوه ، وذلك هو يوم القيامة ، يوم
الحساب والعدالة ، يوم الفرز الأكبر . أليس من واجبه إذن أن يتوجه بقلبه الى
هذا الخالق عابداً ، ويسلم وجهه لهذا الباري طائئماً ، ويستمد ويطلب العون
والتوفيق من هذا الرب وحده ، ويمثل أوامره ويتجنب نواهي ؟ بلى وربى ! .

فكل هذا الذي يتجلى لثاقب الذهن المفكر ساعة إشراق النفس ويقظة القلب
وصفاء الروح ، المتجرد عن كل ما يعكر صفو الفطرة ، هو الدين الحقيق القيم ،

دين الفطرة الذى فطر عليه النفوس جميعا ، دين استسلام الوجه له سبحانه وتعالى استسلاما يثبت له ، تعالى ، كمال الألوهية والربوبية .

نعم : الإسلام دين الفطرة ، هو دين جميع الأنبياء . قال تعالى : « إن الدين عند الله الإسلام » ، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بنيا بينهم ، ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب . فهذه الآية الكريمة نص صريح على أن الدين الحقيقى المقبول عند الله هو الإسلام ، وأن أهل الكتاب ما سادوا عن الحقيقة وما اختلفوا فى الدين إلا من بعد أن أفهموا بالحقيقة ، وأعلموا ماهية الدين ، بنيا بينهم . وقال تعالى : « ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم خنيفاً » وقال : « إن الدين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً - فى دين الله يعادى بعضهم بعضاً ، ضالين عن المحجة البيضاء - لست منهم فى شيء » ، إنما أمرهم إلى الله ثم ينبتهم بما كانوا يفعلون ، وقال تعالى : « وما أزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه - وهو بيان حقيقة دين الله وروحه الذى لا يقبل التغير والتبديل والتعدد - وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » ، وقال جل شأنه : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين - الدين المعروف الموحى إليكم جميعاً - ولا تفرقوا فيه - ملأنا تخاصم بعضهم بعضاً ، وتعنخوا للفرق والإحن والبغضاء والمداوات أبواباً - كبر على المشركين ما تدعوم إليه ، الله يجتبي إليه من يشاء ، ويهدى إليه من يئيب » . فهذه الآيات الكريمات ، والحكم العاليات ، براهين واضحة وصحح ساطعة على أن دين الله واحد لا يقبل التعبير والتبديل والاختلاف : فهو يقرر شيئاً واحداً على لسان كافة الأنبياء والمرسلين ، ويرمى إلى غاية واحدة ، ويستهدف هدفاً واحداً عند جميعهم .

أما الذى قبيل التعبير والتبديل ، وتغير وتبدل ، فهو الشرائع فقط ؛ إذ كان لكل رسول وكل إليه أمر تجديد هذا الدين ، بين فترات وأخرى ، شريعة خاصة متميزة عن باقى الشرائع تحمل صبغة تنواعم والعصر الذى أنت فى ، وطبيعة الملة التى جاءت إليها ، والعقلية والظروف والأحوال السائدة آنذاك ، حتى تواجه المشاكل بالحلول المعقولة ، وتتكفل قضاء مصالح الناس المتشابهة بالطرق

المقبولة . وكان العمل بمقتضى تعاليم شريعة من الشرائع قاصراً في حدود مدة معينة من الزمان ، تفسخ أحكامها أحكام شريعة لاحقة ، سائلة في محلها من حيث وجوب العمل بمقتضاها .

ولقد أرسل الله سبحانه وتعالى من الأنبياء والرسل من شاء أن يرسل ، وبديل من الشرائع وغير ما شاء أن يبدل ويغير ، إلى أن أرسل خاتم المرسلين محمد بن عبد الله عليه أفضل صلاة وأكمل سلام ، ليدعو إلى دين الله القويم ، فدعا إلى فطرة الإسلام ، ودعا إلى الأصول الجوهرية المنزلة على الأنبياء والمرسلين جميعهم بأمرة تعالى القائل له : قل يأهل تعالوا إلى كلة سواء يفتنا وبينكم ، ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأما مسلمون ، والقائل له : قل للذين أوتوا الكتاب والأمين أأسلمتم ، فإن أسلموا فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ ، والله بصير بالعباد .

نعم أتى الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، داعياً إلى فطرة الإسلام ، دين جميع الأنبياء والمرسلين ، بدليل ما استشهدت بها من الآيات ، وبدليل ما ساستشهد بها من الآيات ، وبدليل ما تركت الامتثال بها من الآيات ؛ ومعه الشريعة المنة الخالدة التي تسمى هي أيضاً بشريعة الإسلام ، الشريعة التي لم تختص بزمان دون زمان شأن ما سبقتها من الشرائع ، ولم تتعين في قوم دون قوم ، أو ملة دون أخرى ، أو جنس دون جنس شأن ما سبقتها من الشرائع ؛ لأنها في كليتها كالدين لا يعترها السخ والزوال ، فهي باقية بقاء الأرض والسموات ؛ لما فيها من الأصول العامة ما يحقق لها الحياة الأكمل في كل زمان ومكان . فخرنيات مسائلها وأحكامها في تطور مستمر حسبما تتطلبه الأحوال وتقتضيه الظروف والمقتضيات ، وبمعة في السير نحو التجديد سيراً لا ينالها الخور والكلال ؛ ولأنها شريعة غذاؤها من فطرة الإسلام ، واستمدادها مدى الله ؛ ولأنها الجامعة لروح جميع الشرائع ، والمحيلة بأطراف جميع الشرائع ، والمجمع الذي تلتق عنده كافة الشرائع .

فهذه الشريعة تلزم معتقها الإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين ، ويكتمهم ، وبما أوتوا به من الشرائع ؛ وتحتم عليهم إجلال هؤلاء الرسل والأنبياء واحترامهم ، وإجلالا واحتراما يضاهيان ما يحملون في قلوبهم من الإجلال والاحترام لرسولهم

محمد بن عبد الله ، عليه الصلاة والسلام ؛ وتقرر بعدم وجود فرق بين هؤلاء الهداة الذين قادوا البشرية كل في وقته وزمانه نحو الكمال والسعادة . قال تعالى : « إن الدين يكفرون بآله ورسله ، ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ، ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ، أولئك هم الكافرون حقا ، وأعدنا للكافرين عذابا مهينا » . وقال جل شأنه : « قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » ، وقال تعالى : « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرنا لك ربنا وإليك المصير » .

وإن تعدد الشرائع يقتضى لها — للشرائع — تعدد الأسماء ، ويقبل الاختلاف في التسمية ، فسمى هذه مثلا بالشرعة الصرائية ، وتلك بالشرعة اليهودية ، وهذه بالشرعة الإسلامية . . الخ .

أما وحدة الدين فلا تقبل التعدد في التسمية ، فهي تلزم وحدة الاسم ، لذا يلزم أن نسمى الدين باسمه المسمى به في اصطلاح الوحي الموافق لفطرة الفطرة . أما إذا قلنا الأديان السماوية ، أو قلنا الدين المسيحي أو الدين اليهودي ، فالتسمية في هذه الحالة لا تكون على حقيقتها ، وإنما تكون على سبيل الاستعارة ، أو تكون من قبيل إطلاق الخاص على العام . ولذا أجيز لسمى أن ألقب هذا المعنى من قوله تعالى : « وقالوا كبروا هوداً أو نصارى تهتدوا » ، قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين . . ولا أرى لدى مانعاً من أن ألقب أيضاً من قوله عليه الصلاة والسلام : « كل مولود يولد على الفطرة » ، إنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه . . الفطرة هي الدين ، والدين هو الدين الحقيقي ، دين الله الإسلام .

فكل مولود يولد خالي الذهن والعمر عن كل ما ابتدع من العقائد ، وما التصق بالدين من الآراء . . فهو يماركز فيه من القوى والفرائض ، وبما زود به من الهدايات ، مهتد بهداية الدين الفطري ، ومطبورع عليها ، ولكن البيئة والعائلة ، وفيها الأبوان ، هي التي تعلق سراج هداية هذا الدين الفطري

في نفسه ، وتمكر نبع الإسلام في قلبه ؛ فتبعده عن الحقيقة أيما إبعاد ، فتصرفه موحية إليه أن الدين المقبول هو الدين النصراني ، وكل ما تقرره النصرانية يقبل من دون مناقشة ؛ أو تهوده موحية إليه أن الدين هو الدين اليهودي ، وكل ما تقرره اليهودية وما يأتي به الكهان من الشعائر والطقوس هو من صلب هذا الدين ؛ أو تمجسه ، تنجسه ، موحية إليه أن المجوسية هي الدين الحق الكامل وأن معتقبيها هم المهتدون الفائزون وغيرهم ضالون غاسرون . فيتشأ المولود ، ماقتا كل لحظة غير نحلته ، وكل فرقة لا تنتمي إلى جماعته ، وكل عقيدة تخالف عقيدته ، فيحارب الدين باسم الدين ، ويأقئ باسم الدين من المنكرات ما أتى الدين لمحاربتها واجتثاث جذورها في المجتمع ، ويزيد ويعقد المشاكل والعقبات الحائلة دون السير الإنساني نحو الحناء والكمال ، ويرتكب من الأعمال المستهجنة ما تستوجب تأصل أسباب العداوة والبغضاء والشقاق والتفرقة بين بني البشر قرونا وقرونا . ولو أن رجال الدين في كل فرقة ومحلة أرادوا وأحبوا أن تدرك الإنسانية المثل الأعلى في معيشتها ، وتجردوا عن أهوائهم الشخصية ، وعقلوا ماهية الدين وكسبه ؛ لبذوا كل سبب من أسباب الشكر والعداوة والتفرق ، ولتآلفت نفوسهم وتوحدت قلوبهم ؛ ولتصافوا وتصالخوا واجتمعوا على مائدة واحدة يلتصقون على ضوء دين الله الواحد ما يتكفل منه العيش البشري وسعادته وأخوته على بساط الرحمة والصدقة والكمال .

قلة الكرام

قال أبو تمام :

ولقد يكون ولا كريم تاله حتى تخوض إليه ألف لثم
وقال ابن أبي حازم :

وقالوا لو مدحت فتي كريماً فقلت : وكيف لي بفتي كريم
بلوت ومر بي خمسون حولاً وحسبك بالمجرب من علم
فلا أحد يُمدُّ ليوم مولد ولا أحد يعود على عديم

الازهر

وجفر النهضة القومية الحديثة

لمحاضرة الأستاذ أحمد عز الدين خلف الله

المدرس بمعهد طنطا

لقد سجل التاريخ للازهر بحروف من نور ، ولا يزال يسجل له ، الصفحات الذهبية ، في تاريخ مصر خاصة ، والعالم الإسلامى عامة . ويكفى القول بأنه لا توجد دار علم ، قدمت لبلادها من الخدمات الدينية ، والثقافية ، والعلمية ، والاجتماعية وغيرها ، كما فعل الازهر . وإن تھصى هذه الخدمات ، ومعرفة ما قام به الازهر في سبيل حفظ التراث الإسلامى أغنى من أن يعرف ، وأوسع من أن تسمعه صفحات ؛ وستجده بالبحث إلى ناحية جديدة قلما طرقها القلم ، وهى مواقف الازهر المجيدة في كبح جماح الطغاة والمستبدين ، وكيف كان علماؤه يقفون كالصخرة في وجه هؤلاء ليردوا إليهم صوابهم ، ولو لزم ذلك تضحية كل نفيس وعال ، ولم يكن معهم من سلاح سوى إيمانهم بأهم يعملون للمصالح العام ، وكان صدقهم سبباً في نجاحهم في كثير من مواقفهم الكريمة .

في سنة ١٢١٩ هـ كان والى مصر (خورشيد باشا) يعمل ما في وسعه للتخلص من أقوى شخصية في مصر في ذلك الوقت ، وهو (محمد علي باشا) ؛ وطلب من الحكومة العثمانية إرسال جيش لتهدئة الحالة في البلاد ، فأجابته طلبه .

وبينما كان محمد علي باشا يطارد المماليك في الصعيد ، وصلته الأخبار بأن جيشاً عثمانياً في طريقه إلى القاهرة ، فلم يفت عليه غرض الوالى الذى كان يتحين الفرص للتخلص منه ؛ لذا رفض يديه من معارك المماليك وقفل راجعاً إلى القاهرة .

ولما سمع الوالى برجوعه جن جنونه إذ كان معنى ذلك أن محمد على باشا قد فطن إلى نواياه وهو يحاول أن يستعد للأمر قبل وصول الجيش العثماني . رأى الوالى أن يلجأ إلى العلماء لبؤلهم ضد محمد على باشا ، وكان هؤلاء هم قادة الراى العام وأى كفة يضمون إليها يمدون الشعب من حولهم . لجمعهم وطلب منهم إما أن يعملوا على إرجاع محمد على باشا إلى الصعيد لقتال المماليك ، أو أن يطلبوا منه معادرة القطر المصرى ؛ وطلب منهم أن يبقوا عنده فى القلعة كرهائن حتى ينفذوا ما أراد . اعتذر له العلماء بأنهم لا يستطيعون إعطائه رأياً حاسماً ، إذ أن زعماء أمثال الشراقوى والبكرى والمهدى غائبون عن القاهرة ، وأشاروا عليه أن يؤجل ذلك إلى حين حضورهم ، فوافق على ذلك بشرط أن يبيت فى القلعة كل ليلة اثنين من العلماء فى الضريحانة كرهينة . لم يكن غرض الوالى بخفاف على العلماء الذين كانوا يعلقون آمالهم بمحمد على باشا الذى برهنت الحوادث على أنه الشخصية الوحيدة التى يمكنها إنقاذ البلاد من الخراب المحقق الذى تسرع نحوه نظراً لسوء تصرفات المماليك والولاة ، ولم يكن سكوتهم حتى ذلك الحين عن جبن ، إنما كانوا ينتظرون الفرصة الملائمة لإعلان رأيهم فى صراحة ؛ ولم تلبث هذه الفرصة أن أتت .

فضائع الجيش العثماني الجديد :

وصل هذا الجيش إلى القاهرة فى أواخر سنة ١٢١٩ ، وكان عبارة عن ثلاثة آلاف من الجنود الدلاة ، وقد دخلوا القاهرة دحول الظافر المنتصر ، فارتكبوا من العظائع ما يقشع لها البدن ؛ إذ أخرجوا الناس من منازلهم ، ونهبوا دورهم ، وحجزوا نساءهم ، وكانت هذه الأعمال سبباً كافياً لإثارة الشعب الذى لجأ إلى العلماء ليضعوا حداً لهذه الحالة السيئة ؛ فتوجه هؤلاء إلى الوالى وأجبروه على إصدار أمر بعدم تعرض الجند لاحد . ولكن الجند لم يطيعوا للوالى أمراً ؛ فعاد العلماء إلى الاجتماع مرة أخرى ، فوعدهم بترحيل الجند عن القاهرة فى مدى ثلاثة أيام .

العلماء يتدخلون لحل الأزمة بين الوالى والشعب :

انتهت الفترة التى حددها الوالى لجلاء الدلاة ، ولم يرسل منهم سوى النصف ،

ورفض النصف الثاني الخروج حتى تدفع رواتبهم، وتمادوا في فسادهم. استوحى الأهالي العلماء لعمل شيء في سبيل حمايتهم من عبث الجنود، فاتفق هؤلاء على عقد مؤتمر عام في دار المحكمة الكبرى (بيت القاضي) يوم ١٢ صفر سنة ١٢٢٠ هـ وما إن ذاع نبأ هذا الاجتماع بين الأهالي حتى يجموا في صبيحة هذا اليوم إلى ساحة بيت القاضي ليرقبوا الحالة من كسب، وبين منادات الجماهير الهائجة انعقد المؤتمر، وأرسل العلماء إلى والي لينتدب وكلاء عنه ليشهدوا قرارات المؤتمر، فأرسل إليهم سعيد أغا الوكيل وبشير أغا وعثمان أغا والدفتردار، وفي هذه الجلسة التاريخية حرر العلماء بياناً بمطالب الشعب تلخصها فيما يلي :

أولاً : لا تفرض ضريبة من اليوم إلا إذا أقرها العلماء والأعيان .

ثانياً : تجلو الجنود عن القاهرة وتنقل حامية المدينة إلى الجيزة .

ثالثاً : لا يسمح بدخول أى جندي إلى المدينة حاملاً سلاحه .

رابعاً : أن تعاد المواصلات فوراً بين القاهرة والوجه القبلي .

وبعد الفراغ من تحرير هذه المطالب أعطوا صورة منها لكل من القاضي ووكلاء والي الذين وعدوا بالرد عليها في اليوم التالي ثم انصرفوا لتبليغها إلى الحاكم .

كان خورشيد باشا رجلاً عنيداً، فبدلاً من أن يحاول تهدئة الحالة أرسل يستدعي العلماء وقيب الأشراف إلى القلعة للتشاور في الأمر، وكان قد أعد كتيلاً لاغتيالهم في الطريق، ولولا حيلة السيد عمر مكرم لنفذ ما أراد، ولكن قيب الأشراف حذر العلماء من استجابة دعوة والي، إذ أنه لا ينبغي سوى التخلص منهم بدلاً من بحث الحوادث والوصول إلى حل ملائم .

انتخاب محمد علي باشا والياً :

اعتبر والي هذه القرارات بمثابة إعلان للتمرد، كما أن العلماء ووكلاء الشعب اعتبروا أن عدم إجابة والي لطلباتهم بمثابة تخليه عن الحكم .

فاجتمع مؤتمر عام في دار المحكمة الكبرى في ١٣ صفر سنة ١٢٢٠ لبحث الموقف، واتفقت الكلمة على عزل خورشيد باشا، وتوجه أعضاء المؤتمر من

العلماء، والأعيان تبعهم الجماعير إلى دار محمد علي باشا لإخياره بقرارهم، فلما سمع هذا نبأ عزلم خورشيد باشا سالمهم، ومن تريدونه والياً؟، فقالوا له: لا نرضى إلا بك والياً بشروطنا، لما توسع فيك من العدالة والخير،.

تردد محمد علي باشا في قبول هذا الانتخاب الفريد من نوعه في تاريخ مصر، ثم قيل أخيراً. فنهض السيد عمر مكرم والشيخ الشرفاوى شيخ الأزهر والبهاء خلعة الولاية، وكان ذلك في عصر يوم الاثنين ١٣ صفر سنة ١٢٢٠، وأمروا أن يمدى به والياً على مصر في أنحاء المدينة.

كان هذا الانقلاب من الحوادث الفريدة في تاريخ مصر، فقد قام العلماء والأعيان ورؤساء الطوائف بصفهم ممثلي الشعب بانتخاب الرجل الذي يصلح للحكم، وبذا وضعوا حدا لهذه الفوضى التي لم تشهد مصر لها مثيلاً، وقد تم هذا الانتخاب بالرغم من فرمان السلطان الصادر بإسناد ولاية جده الى محمد علي باشا، وبالرغم من تأييد الحكومة التركية لخورشيد باشا، كما جاء دليلاً على استقلال مصر نهائياً عن الدولة العثمانية.

الاصطدام مع خورشيد باشا:

لم يكن خورشيد باشا بالرجل الذي يستسلم بسرعة، وعند ما قابله وفد من العلماء لإبلاغه قرارات المؤتمر وإقناعه بقبولها حقناً للدماء، أجابهم بقوله: «إني مولى»^(١) من طرف السلطان فلا أعزل بأمر من الفلاحين، ولا أزل من القلعة إلا بأمر السلطنة،.

رأى العلماء أن يتصلوا بمستشارى الوالى، وهما عمر بك وصالح أغا، لعلهما يقنعاه بضرورة احترام «ما اجتمع»^(٢) عليه رأى الجمهور من عزل الباشا، وأنه لا ينبغي مخالفتهم، لما يترتب على ذلك من الفساد العظيم وخراب الإقليم،. فطلب مستشارا الوالى سداً شرعياً منبثاً لعزله، فـا كان من العلماء إلا أن اجتمعوا يوم الخميس ١٦ صفر بدار المحكمة الكبرى، وحرروا محضراً في شكل سؤال

وجواب على نحو الفتاوى ، وقام بتحريره الشيخ محمد المهدي ، ووقعوا عليه جميعاً ثم أرسلوه إلى الوالي . وفي ٢٥ صفر نزل عمر بك من القلعة فقابله السيد عمر مكرم ودار الحديث بينهما بصدد المحصر ولكنهما لم يتفقا على شيء .

أخذ خورشيد باشا يستعد للحرب ويحصن القلعة ، كما قام محمد علي باشا والعلماء بمحاصرته لإجباره على النازل ، وكانت الأوامر خلال الحرب تصدر باسم السيد عمر مكرم والعلماء ، واستمرت الحرب بجمالا حتى ١١ ربيع الثاني سنة ١٢٢٠ الموافق ٩ يولييه سنة ١٨٠٥ .

إقرار ولاية محمد علي باشا على مصر :

كان عيب الولاية أنهم يخفون الوقائع عن السلطنة خوفاً من عزلهم ، وما إن وصلت أخبار مصر إلى السلطان حتى أصدر فرما بتولية محمد علي باشا واليا على مصر ، حيث رضى بذلك العلماء والرعية ، وأن خورشيد باشا معزول عن ولاية مصر . . وكان وصول فرمان مبطلا لحجة خورشيد باشا في عدم تنازله ، ولكنه بالرغم من ذلك أصر على المقاومة حتى أجبر أخيراً على الخروج من القلعة يوم ٩ جمادى الأولى سنة ١٢٢٠ الموافق ٥ أغسطس سنة ١٨٠٥ . ومن هذا التاريخ بزغت شمس تاريخ مصر القومي ، ناشرة دفء الحرية وضياء النهضة في ربوع البلاد .

يقول الجبرتي . انتصر محمد علي باشا بالسيد عمر مكرم النقيب والمشايخ والقاضى وأهل البلدة والرعايا . . ويقول قولاً بل « ولا جدال » في أن المطالب التي فرضها الشيوخ على خورشيد باشا تدل على ما كان يحيش بصدد من الإحساس بالحرية ، وما يشعرون به من الحاجة إلى أخذ الضمانات الكافية التي تكفل مراقبة الحكومة . ولقد كان هذا الشعور إلى ذلك العصر مجهولاً في الشرق ، وإذا كانت أنظار الشعب قد اتجهت في تلك الآونة إلى محمد علي باشا ، وأجمعت آراء زعمائه على تقليده سلطة الحكم ، فما ذاك إلا لأن محمد علي باشا قد دعا إلى مبادئ الحرية ، وأعلن في كل لحظة دفاعه عن حقوق الشعب ومصالحه . ٩

عيد الفطر في الاسلام

لمحاضرة الاستاذ أحمد صلاح الدين عبد الرحمن

جرت عادة المسلمين منذ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على الاحتفال بعيد الفطر المبارك ، وكانت مظاهر هذا الاحتفال في عصر صدر الإسلام تبتدىء في صلاة العيد وتزاور المسلمين وإدخالهم السرور على قلوب الفقراء والمعوزين ، كما كان المسلمون يسارعون إلى أعمال البر في هذه المناسبة الجليلة ، ويتقربون إلى الله بمختلف أنواع الطاعات والقربات .

لكن لما اتسعت رقعة البلاد التي يرفرف عليها العلم الإسلامى ، وانفضى كثير من الممالك والشعوب تحت لواء هذا الدين الحنيف ، ولما اختلط المسلمون بغيرهم من رعايا البلاد التي قمعوها وتبادلوا وإياهم العلوم والمعارف ، ولما شاع الترف والرخاء في الدولة الإسلامية وخاصة منذ اعتلى العباسيون أريكة الخلافة - بدأت الاحتفالات بعيد الفطر تتخذ مظهرا جديدا وتم على نحو آخر لم يكن مألوفا من قبل .

ففي العصر العباسى مثلا كانت مظاهر الإسلام تتجلى في الاحتفال بعيدى الفطر والأضحى في مختلف البلاد الإسلامية ، وخاصة العواصم الكبرى مثل بغداد ودمشق وبيت المقدس ، وكان الاحتفال بعيد الفطر يبلغ الذروة من الروعة والأبهة في البلاد التي يكون الشعور الإسلامى فيها قويا مثل طرسوس التي كان يتوافد إليها غزاة المسلمين من أنحاء الدولة الإسلامية ، كما ترد إليها تبرعات من لا يستطيعون الخروج للغزو بأنفسهم ، ولعل سبب حرص المسلمين على إظهار الأبهة الإسلامية بأجلى مظاهرها في الاحتفال بالأعياد في طرسوس ، وغيتهم في إبراز قوتهم وتجليتها أمام أعدائهم من الروم في هذه البلدة الواقعة على حدودهم ، والتي كانت تعتبر من الثغور الإسلامية المهمة .

وكانت المدن الإسلامية الكبرى تسطع في أرجائها الأنوار في ليالي العيد، وتتجاوب في جنباتها أصوات المسلمين بالتكبير والتهليل، وتزدحم الأنهار بالزوارق المزينة بأهلي الزينات، وتتلألأ الأنوار الحافظة للابصار من قسور الخلافة، وكان الناس يلبسون الطيالة السود تشبهاً بخلفائهم العباسيين، كما كان بعضهم يتخذ بدل العمام قلائس طويلة مصنوعة من القصب والورق مجللة بالسواد كذلك، ويلبسون بدل الدروع دراعات كتب عليها: فسيفيكهم الله وهو السميع العليم.

[حضارة الإسلام في دار السلام ص ٢٢] .

وكان الخلفاء يعملون على استرضاء رعاياهم بما يذلونه لهم في هذه المناسبات الدينية من العطايا والأرزاق والهبات، وبما يقيمونه من المآدب والحفلات، وما يمدونه من الأسطة التي يدعون إليها الخاص والعام.

وكانت روعة الأعياد وأبتها تعكس في شعر الشعراء المعاصرين، كما يتضح من هذه القصيدة التي نظمها أبو إسحق الصافي يهني فيها عضد الدولة بن بويه أحد سلاطين بني بويه في بغداد بعيد الفطر، ومنها:

ياماجدا يده بالجود مفطرة	وفوه من كل حجر صائم أبدا
أسعد بصومك إذ قضيت واجبه	نسكا ووفيته من شهره العددا
واسحب بذأ العيد أذبالا مجددة	واستقبل العيش في إنطاره رغدا
واندم بيومك من ماض قررت به	عينا ومنظر يفصى إليك غدا
وفز بعمرك بمدودا وملكاك مو	طودا ونل مهما الحد الذي بعدا

[يقيمة الدهر للتحالي ج ٢ ص ٢٥٢ .

على أن الدولة الفاطمية كانت تحتفل بالعيدين احتفالا يفوق الوصف . والسبب في ذلك راجع الى أنها كانت جده حريصة على أن تطيع الشعب المصري بطابعها الخاص، وأن تصوع عقليته وروحه وتفكيره وحياته العامة والخاصة وفقا لماهجها ورسومها، ولهذا اتخذت الحياة الاجتماعية في هذا العصر مظهرا من البذخ والترف قل أن نجد مثله في عصر من العصور الإسلامية، فلقد كانت مواكب الفاطميين وأعيادهم وحفلاتهم الرسمية ومآديهم الفخمة وبذلهم الماثور - مناسبات مشهورة تثير من حولها الإعجاب والروعة، كما كانت مثار المرح والبهجة العامة بين الأهالي

ولا زالت آثار من هذه التقاليد الفاطمية تتضح في عصرنا هذا في كثير من نواحي حياتنا الاجتماعية.

وقد كان الخليفة الفاطمي يخرج في صبيحة يوم الفطر من باب خاص في قصره، يسمى باب العيد، إلى المصلى في موكب نظم وعليه الثياب البيض الموشحة ويتنظم القوم له صفين من باب القصر إلى المصلى، فيدخل من شرقها إلى مكان يستريح فيه قليلا، ثم يخرج محفوقا بحاشيته إلى المحراب، والوزير والقاضي وراعه فيصلون بالناس صلاة العيد بالتكبيرات المسنونة، فإذا فرغ منها وسلم صعد المنبر لخطابة العيد، ووقف أسهل المنبر الوزير وقاضي القضاة، وصاحب الباب، وغيرهم من كبار الموظفين ورجال الدولة، ثم يصعد هؤلاء إلى المنبر كل حسب درجته ويقفون عن يمين الخليفة وشماله، ثم يخطب خطبة بليغة مناسبة لل مقام، فإذا فرغ منها نزل أفراد الحاشية من على المنبر حتى إذا خلا منهم نزل الخليفة ودخل المسكن الذي خرج منه فلبث قليلا ثم يعود إلى قصره في الهيئة التي أتى فيها إلى المصلى. وقد قال المسبحي في وصف أحد هذه الموكب:

« وفي يوم العيد ركب العزيز بأفقه لصلاة العيد وبين يديه الجنائب والقياب الديباج بالحلى، والعسكر في زيه من الأتراك والدبلم والعزيرة والإخصدية والكافورية، وأهل العراق بالديباج المنقل والسيوف والمناطق الذهب، وعلى الجنائب السروج الذهب، والسروج بالعبر، وبين يديه الفيلة عليها الرجال بال سلاح والزرافة، وخرج بالمظلة الثمينة بالجواهر ويده قضيب جده عليه السلام صلى على رسنه وانصرف، [الخطوط ٣٧٣ ص ٣٧٣]. »

وبمناز عيد الفطر بأبه كان يقام فيه سحاطان حافلان في قصر الخليفة. أما أولهما فينظم أثناء الليل بالإيوان الكبير قبالة مجلس الخليفة، ويبلغ طوله ثلاثمائة دراع في عرض سبعة أذرع، وتشر عليه أنواع الفطائر وصوف الخاوى الشبيهة بما صنع في دار العطرة الخلافة: فإذا صلى الخليفة الفجر عاد إلى محله وفتحت أبواب القصر على مصاريعها، وأخذ الناس يهرعون إلى السحاط يلتمسون ما عليه من شهي الاطعمة، ومنهم من يحمل معه ما يستطيع حمله يأكله في يومه أو يذخره لغيره أو يبيعه إذا لم تكن به إليه حاجة. فإذا برغت الشمس خرج الخليفة في موكبه السابق الإشارة إليه لصلاة العيد.

وأما ثاني الصباطين فيقام في قاعة الذهب أثناء خروج الخليفة لصلاة العيد ، فإذا عاد من الصلاة وجد الصباط معدا فيجلس في مجلسه وأمامه مائدة من فضة يقال لها المدورة ، عليها أواني الذهب والفضة ، حافلة بكل ما لذ وطاب من ألوان الطعام ، وقبالة هذه المائدة صباط ضخم يتسع لخمسة مائة مدعو ، وقد نثرت عليه الأزهار والرياحين ، وصف فوقه الأطباق ^(١) والصحون الحافلة بصوف النواء والطيور ، والمترعة بالألوان الفاتقة من الحلواء المائعة والطباخة المشفقة ؛ ويعمل بدار الفطرة الخلافية قصران من حلوى في كل واحد سبعة عشر قنطارا فيوضعان في طرفي الصباط ، ويجلس إلى ذلك الصباط المهاتل رجالات الدولة وعظماؤها وذوو الرأي فيها ، فيتناولون من تلك الأطعمة الشهية ما شاءوا ، ويأخذون بأسباب الفرح والسرور ، وعد الظفر يفض المجلس وينصرف الناس .

هذا وصف سريع يصور لنا كيف كان سلفنا يتخذون من هذا العيد موسماً للبر والخير والإحسان إلى الفقراء ، وإن كان في بعض أعماطهم كثير من الترف والإسراف المنهي عنه . وقضاه الله لإحياء ليالي هذا العيد وأيامه بما يناسب وهذه المناسبة الدينية السعيدة ، إنه سميع مجيب الدعوات .

مكانة الشعر

قال أبو تمام الطائي :

إن القوافي والمساعي لم تزل	مثل النظام إذا أصاب فريدا
هي جوهر نثر فإن ألفته	في الشعر كان قلائداً وعقودا
من أجل ذلك كانت العرب الأولى	يدعون هذا سودداً مجسودا
وتدعاه عندم الملى إلا على	جعلت لها غرر القصيد قيودا

[١] يروي المفريز أن هذا الصباط كان يشتمل على واحد وعشرين طبقاً في كل طبق واحد وعشرون ثوباً ممشوياً وفي كل من الدجاج والفراريج والحمام ثمانية وخمسون طائراً ، وبعد ختم تلك الأطباق بالصحون الخفية التي في كل واحد منها سبع دجاجات . . . [مخطوط ٢٠ ص ٢٢٩]

المجتمع والسياسة

في الأدب المصري الحديث

نقله إلى العربية
نور الدين شريعة
مخرج كلية اللغة العربية بالجامعة الأزهر

بمجه للشرق الانجليزي الأستاذ
ج. هورث I. Heyworth Dunne
الأستاذ بجامعة لندن

اشتمل العهد الذي يقع بين سنة ١٨٨٢ و سنة ١٩١٤ ، على كتاب عديدين ذوى أهمية ، لا يرجع إلى مؤلفاتهم إلا نادرا ؛ مع أنه يجب أن ندرس دراسة دقيقة إذا أراد المرء أن يعرف معرفة حققة ، كيف كان رد الفعل السياسى والاجتماعى الذى نشأ عن هذا الصدام القوى بالغرب .

ومن بين هؤلاء (سليم النفاش) ، أحد أفراد الجالية السورية ، التى استوطنت مصر ، وحسبت مواهبها على خدمه القصبة المصرية . وكتابه الضخم (مصر للمصريين) ^(١) المطبوع سنة ١٨٨٤ لا غنى عنه لمن يكتب عن الناحية السياسية فى هذا العهد . ففيه كثير من المعلومات لا توجد فى غيره ؛ وقليل ممن تصدروا للدفاع عن الفلاح ، فعلوا كما فعل (النفاش) .

ولم يتقدم كاتب كتب عن مشا كل المصريين الدينية ، والسياسية ، والاجتماعية والثقافية ، على جمال الدين الافغانى ، ومحمد عبده — وقد تحدثنا عنهما عند الكلام على عصر إسماعيل باشا — وكتابتهما فى متناول قارىء (العروة الوثقى) ^(٢) ، وفى الجزء الثانى من تاريخ الشيخ محمد عبده ، الذى جمعه الشيخ رشيد رضا ^(٣) أحد تلاميذه . والعروة الوثقى مكتوبة ماحوطة ، وقد طبعت عدة مرات .

[١] سليم النفاش : مصر المصريين . الاسكندرية سنة ١٨٨٤ فى تسعة أجزاء .

[٢] جمال الدين الافغانى ومحمد عبده : العروة الوثقى . بيروت سنة ١٩١٠ . القاهرة

سنة ١٩٢٨ ، سنة ١٩٣٣ .

[٣] رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الامام ٣ مجلدات . القاهرة سنة ١٩٠٨ - ١٩٣١ .

وقد جمع الشيخ على يوسف مقالاته عن هذه المشاكل ، وطبعها سنة ١٨٩٠ ، بعنوان (مختارات المؤيد)^(١) وكان على يوسف شخصية سياسية هامة في عصره ؛ فهو صديق للحدوبى ، ورفيق وثيق الصلة بجمال الدين الافغانى ، ومحمد عبده . وظهر كذلك ، خلال العقدىن الاخيرىن ، من القرن التاسع عشر ، عدد كبير من الصحف والنشرات ؛ قام عليها كتاب انغمسوا فى الحياة السياسية السرية فى مصر . وأحد مشاهير هذه المدرسة عبد الله الديم ؛ وقد كان ، فى الحقيقة ، زعيما سياسيا ، ومبيجا نخشى الحكومة بأسه . ومن أبرز مؤلفاته (الأستاذ)^(٢) وهو وثيقة نادرة عن دراسة مصر . فإذا صرفنا النظر عن عمله السياسى ، وجدنا أنه اشتهر بالشعر والخطابة . وكان أحد رموس الثورة العرابية العاملين ، ونفى من مصر مرات عديدة ؛ وفى النهاية مات فى القسطنطينية سنة ١٨٩٦ .

واجتمع لهذا العصر حشد من الصحف ، التى تكشف عن مقدرة المصرى العاتقة ، فى تهيئة ذكائه وهجره لإنشاء الرسائل السياسية . والكثرة العالبة من هذه الصحف ، وهى جديدة أن تقرأ ، كان يفسرها رجال وهوا حياتهم للسياسة الهدامة ، وكأوا على استعداد لبدل حياتهم فى ذلك^(٣) .

وكتاب محمد عمر (حاضرمصرىين)^(٤) المطبوع سنة ١٩٠٢ هو لون آخر

[١] على يوسف : مختارات المؤيد . القاهرة سنة ١٩٠٦ . وقد أفضل معجم مركبى لطبوعات العربية هذا الكتاب .

[٢] عبد الله الديم ، الأستاذ ، القاهرة سنة ١٨٩٢ . ولديهم مؤلفات أخرى ، مثل : سلامة القديم ، فى مجلدين ، القاهرة سنة ١٨٩٧ . ، كان ويكوف ، القاهرة ١٨٩٢ . المسامير ، القاهرة ، لم يأت تاريخ طبعه ، المقالات ، القاهرة سنة ١٩١٠ . وهذه المؤلفات ضرورية لدراسة العهد الكرومرى سنة [١٨٨٧ — ١٩٠٧] .

[٣] وهذه أمثلة قليلة ، ذكر منها تاريخ صدورهما : محمد توفيق : حمارة متنى ٢٢ فبراير سنة ١٨٩٨ . محمد الجار ، الأورغول ، أول سبتمبر سنة ١٨٩٤ . حسين توفيق : الأوتوب سنة ١٩٠٦ . محمد توفيق : الموقودة ، ٢ مايو سنة ١٩٠٥ . محمد حمدي ومحمد هلال الايارى ، الزمان ، ٧ نوفمبر سنة ١٨٩٨ . غزل السات ، لا يعلم صاحبها ، فبراير سنة ١٨٩٩ . المهدي ، لا يعلم صاحبها ، ٨ يوليو سنة ١٨٩٨ . اقيلىوف ، لا يعلم صاحبها ، ١٠ مايو سنة ١٩٠٤ . عبد الرحمن الهندى ، عفرية الحارة ، ٥ مايو سنة ١٩٠٦ .

[٤] محمد عمر . حاضرمصرىين . القاهرة سنة ١٩٠٢ .

من الدراسة الاجتماعية . والمؤلف يحلل - في تفصيل - نظام المصريين السياسى ، والاجتماعى ، وأسباب تأخرهم ، كما يقول المؤلف ، فى تكملة عنوان كتابه . ولا يزال الكتاب يقتبسون الكثير من ملاحظاته ، كما لا تزال الصحف تنشر بعضها . ويبدو أنه واحد من مدرسة المعجبين بأوروبا فى مصر . فهناك كتاب فتحى زغلول (سر تقدم الإنجليز السكوتيين)^(١) . وكتاب أمين فكرى ، الذى يقع فى ثمانمائة صفحة ، وقد صدر سنة ١٨٩٢ ، بعنوان (إرشاد الألبا الى محاسن أوروبا)^(٢) . وكان من أشد الناس حماسة لهذه المدرسة ، مصطفى فهمى باشا ناظر النظار فى عهد اللورد كرومر . وقد اشتهر بأنه إنجليزى النزعة^(٣) .

فإذا تخطينا ذلك الى الجانب اللاهى ، فى الوقت السابق ، على سنة ١٩١٤ ، بدالنا أن الرواج المتزايد ، مضافا اليه إقصاء المصريين عن النشاط السياسى والاقتصادى فى مصر ، قد ساعدا على الانغماس فى التسلية الاجتماعية .

وقد شهد هذا العصر نمو مدرسة الموسيقى المصرية ، التى بدأها عبده الحامولى ، ونماها تسمية عليية كامل الخملى ، الذى ألف كتابين عن هذا الموضوع^(٤) وقد غنى ذلك بدوره مدرسة من مشاهير الشعراء والمفكرين ، تجمع حولها تدريجيا مجتمع عكف على تسلية نفسه^(٥) . وكان الجانب الأكبر من هذه التسلية ،

(١) فتحى باشا زغلول : سر تقدم الإنجليز السكوتيين ، القاهرة سنة ١٨٩٧ ، طبعة ثانية سنة ١٩٠٨ .

(٢) أمين باشا فكرى : إرشاد الألبا الى محاسن أوروبا ، القاهرة سنة ١٨٩٧ . ومن مؤلفاته الحملة أيضا : الآثار الفكرية والقاهرة سنة ١٨٩٧ .

(٣) اشتهر مصطفى فهمى باشا بأنه إنجليزى النزعة ، حتى قبل عنه أنه كان يرسل ملابسه الى انجلترا كل أسبوع لتكوى بها ، بواسطة شركة [P. & O. Cleamer] وما هو جدير بالملاحظة أنه زوج ابنته لستد زغلول باشا ، أى الحركة الوطنية فى مصر .

(٤) كامل الخملى : الموسيقى الشرقية ، القاهرة سنة ١٩٠٤ . نيل الأمانى فى هروب الأمانى . القاهرة لم يذكر تاريخ طبعه .

(٥) حير الجماهير التى تغنى أنان هذا العصر هو كتابا محمود حدى لبلالاق : المثنى المصرى . القاهرة سنة ١٩٠٤ وطبعات أخرى . مفرح الجنس اللطيف . القاهرة سنة ١٩٠٤ ، وطبعات أخرى . وكتاب عبد المتعال منصور نزعة الماشق الوهمان فى الأغاني والأنشيد والألحان ، فى جلدتين ، طبع القاهرة سنة ١٩٠٩ .

يحدث فى (مسرح ألف ليلة وليلة) ، بيد أن التشجيع الذى أولته كثير من الشخصيات البارزة ، لهؤلاء المغنين ، كان له أظهر الأثر فى تقدم الموسيقى والفناء . ولقد اعتاد قادة المجتمع أن يتسابقوا فى إجزال العطاء للموسيقى أو المغنى . وحسبنا أن تذكر حسن الآلافى ، وذكرياته - التى جمعها فى ثلاثة مجلدات - عن ملاهى القاهريين ، وحياتهم الليلية ، التى لم يكن يعرفها غير طوائف معينة من المصريين ^(١) ؛ حسبنا أن نذكره لنعرف مبلغ ما قدمه هؤلاء المكرمون للناحية الأدبية .

كان حسن بوهيمى الزعفة ، جمع حوله (الكتاب ، Sitterateurs) و (الشعراء الأدبائية) وأرباب الملح ، وهلم جرا . وكان لهم ناديهم الخاص ، خلف دار الكتب المصرية (المكتبة) الذى كان يسمى ، فى شيء من الدعاية والاستفزاز (المزاج غانة) .

ومن بين أصدقاء حسن المقرين ، محمد البابل ، أحد مشاهير أرباب الملح فى مصر . وقد طبع أحد أبحاثه بمجموعه ^(٢) تصم نوادره . كما كان من بين أصدقائه محمد رشاد ؛ ومحمد الموبلى ، والشاعر الشهير حافظ إبراهيم . وهؤلاء جميعا قد ابتدعوا طريقة فى فطق العربية ، طبعها الزعيم الوطنى سعد زغلول باشا .

وهناك نوع آخر من الأدب، كثيرا ما أهمل شأنه ؛ وهو ، من بعض الوجوه ، دراسة خاصة ؛ إذ أنه كتب فى لغة عامية ، ذلك هو الزجل ، الذى يحوى ما هو جذير بالمصريين من عبقرية ، وحب نادرة ، وسحر . وهذه المدرسة هامة من الناحية الاجتماعية ، أهميتها من الناحية اللغوية . فمن طريق هذا الأدب يستطيع المرء أن يعرف فلسفة الشعب معرفة دقيقة ؛ فليس هناك مرآة أصدق من مرآة الزجل . وعزت صقر ، مثلا ، يصور الحياة الاجتماعية والسياسية حتى الحرب العالمية الأولى . ولغته منيرة ، ولكن الجميع يفهمونها ويحبونها . وصورته

(١) حسن الآلافى : زرع القوس ومضحك القوس ، ثلاث مجلدات ، القاهرة سنة ١٨٨٩ -

سنة ١٨٩٢ .

(٢) محمد البابل : البابل ، القاهرة سنة ١٩٦٣ .

عن الحياة في منطقة الأريكية بالقاهرة صورة صادقة، وقد كانت الأريكية حينئذ مركز المقاهي والحانات وحياة الليل. فلما وقعت حادثة دنشواي سنة ١٩٠٦، وجه زجلا إلى اللور كرومر (Eord Cromer) يعتبر نموذجا لذلك الصرب من الأدب، يستطيع الإنسان أن يدرك منها رغبة المصري في تعزية نفسه بهذا الصرب من الشعر؛ ما دام محروما من حريته السياسية. فهذا الشعر، عنده على الأقل، يضعه على قدم المساواة مع كرومر العظيم! وله زجل آخر يوجهه إلى بني إسرائيل، وآخر عن الحرب الروسية اليابانية؛ وآخر عن الطيارين الأتراك، الذين أسقطهم البريطانيون. وديوانه (١) جدير أن يدرس، لما يفيضه من لذة، ولوصفه الحياة المصرية (٢).

فأما العهد الذي ولى الحرب العظمى الأولى، فقد حفل بمادة جديدة للدراسة. وكان ظهور مدرسة جديدة، من مؤلفي الروايات والأقاصيص — وهيكلي طليعتهم — ذو أهمية خاصة. وقد ظهرت أولى قصصه (زينب) (٣) سنة ١٩١٤، ولكنه لم يجرؤ — أول الأمر — أن يعلن أنه مؤلفها، لأن الوسط الجديد كان في طور التجربة. وعالج هيكلي كثيرا من المشكلات المتصلة باستعمال العربية الدارجة للتعبير عن الحوار المكتوب.

والمأزني مؤلف آخر من مؤلفي هذا العصر. وقصته (إبراهيم الكاتب) (٤) ثورة مدعومة على استعمال العامية. وإذا كان هيكلي يمدد بدراسة اجتماعية قيمة، عن الحياة في الأوساط الريفية، فإن المأزني يصف المجتمع الأدبية والفكرية، التي كان يحيا فيها (٥).

(١) عزت صفير: ديوان، القاهرة سنة ١٩٣٣.

(٢) ونظم هذه المدرسة مؤلفين آخرون، ومؤلفات أخرى، مثل عثمان جلال: الأربع روايات، القاهرة سنة ١٨٩٠، وله غير ذلك سبع مؤلفات في الأدب، والمترجمات، والخواص الزجلية. محمد النجار، ولم تجمع أزهجه الشهيرة في ديوان. حفي ناصف، تاريخ الأدب، القاهرة سنة ١٩١٠. محمد باشا صدقي، وأشعاره مبثورة في الصحف والمجلات. محمد توميق (أنظر ما كتب عنه من قبل). إمام السيد، الذي لم تجمع مؤلفاته. سيد درويش، وكثير من أغانيه موجودة في دواوين مختلفة.

(٣) محمد حسين هيكلي: زينب، القاهرة سنة ١٩١٤، القاهرة ١٩٢٩ طبعة ثانية، وله كذلك: في أوقات الفراغ، القاهرة سنة ١٩٢٥.

(٤) إبراهيم عبد القادر المأزني: إبراهيم الكاتب، القاهرة سنة ١٩٣٠، وله كذلك: صندوق الدنيا، القاهرة سنة ١٩٢٩.

الوساطة الروحية

بين يدي كتاب يُدعى (الوساطة الروحية) لو ظهر في أمة تعنى بالبحوث الجديدة ، وتتم بما يصدر فيها قيا غير ذى عوج ، لغدت طبعته الأولى في أيام ، ثم تلاها غيرها متتابعة مرات كثيرة ، لما اشتمل عليه من جديد المباحث ، وطريف المطالب ، وما فتح فيه للعقول من مجالات مجهولة للنظر ، ومواطن خفية للحقائق العليا . فهذا النوع من المؤلفات ، وخاصة إذا لم يكن لواضعها اتصالات صحفية ، يبقى مجهولا في بلاد ما لا يلتفت إليه أحد ، وإذا نُوه به كان ذلك في عبارات تشف عن عدم الاطلاع على موضوعه ، فيتلاشى كل ما قيل فيه ولا يعلق منه شيء بالأذهان .

إن الفتوحات الروحية التي ظهرت في سنة (١٨٤٦) في أمريكا ثم ما لبثت أن انتقلت منها إلى أوروبا ، لا تزال موضع اهتمام العلماء والباحثين إلى اليوم ، بل تضاعف الاهتمام بها إلى حد لم يسبق له مثيل لأي موضوع على آخر ، لأنه يتعلق بالشخصية الانسانية وما ينتظر لها بعد موت الجسد ، وللناس الحق في الاهتمام بها إلى هذا الحد ، بل لا أكثر منه ، نظرا لتعلقها بالبقاء بعد الموت بقاء غير محدود .

إن أوروبا اليوم تدعى أنها كما وصلت إلى كشف مجاهل العالم الارضى ، فلم يبق فيه موطئ لقدم مجهولا ، أنجحت كذلك بعد محاولات مجهدة في سنين كثيرة ، في الاتصال بعالم الروح ، فأمكن التخاطب بين الموتي والاحياء ، أولا بالطرق والافتاق على أسلوب التعام به ، ثم بواسطة وسيط من البشر تتولى على أداة صوته فتكلم به بينما يكون هو في غيبوبة ، وفي هذه الحالة يجيء صوتها كصوته لوحدة الاداة الصوتية ، ثم توصلت لإعطاء صوتها بواسطة حنجرة تصعبها من المادة الكوية للضرورة الوقتية فيجيب صوتها على ما عهده الناس لم يتغير . وجريا على هذا الزقى تأتي أرواح فتكلم الناس في الراديو مسمعة صوتها للعالم كله فيعرفها من كان يعرفها به . وقد أعلن اليوم في الاحرام أن جمعية البحوث الروحية المصرية ستقوم بعمل هذه التجربة في الراديو المصرى فيسمع الناس أصواتا يعرفونها لموتاهم ، وفي ذلك ثقة روحية لا تقدر في جلالة ثمراتها الادبية .

أعود لحديث الكتاب الذى بين يدي ، فأقول : هو كتاب يقع فى أربعمائة وثلاثين صفحة ، بالقطع المتوسط وبالحرف الصغير ، تناول موضوع المباحث الروحية من أول نشوئها فوقها حقها من التفصيل والتحصيص ، ثم أخذ ينتقل من دور الى دور لتلك المباحث حتى أتى عليها جميعا فى بيان رائع ، ودقة علمية ، يحوط ذلك كله وفق بالفارى ، وشعور بما تتطلبه طبيعته من الدلالات العلمية والتجريبية فيؤتيه بها خلاصات سائفة ، ومصاصات صافية . وقد اضطررتى حسن تبويب هذا الكتاب ، أنا الذى قرأت فى موضوعه عشرات من الكتب غير مئات من الرسائل والمقالات ، الى قراءته كله ، وهى مقطرة كتابية وتأليفية لم نعهدها كثيرا فى مؤلفاتنا العربية . والذى زادنى إعجابا بهذا الكتاب أنه لم يترك وجهها من وجوه الدفاع ، ولا لونا من ألوان التدليل ، إلا أتى به فى أحسن قالب وأوجه ، ثقة من مؤلفه أن العبارة بالبرهان القاطع لا بالثرثرة بالأقوال المعادة .

إن كاتب هذا الكتاب يقول إنه كتبه بهداية بعض الأرواح العليا له ، وإنهم كانوا يتعمقونه له ، أما هو نفسه فلا يستطيع أن يكتب فصلا واحدا منه . أما شهادتى أنا للكتاب فى جملة فنى أنه يصح أن يكون مفخرة لعالم عظيم من علماء هذا العصر . أما اسم الذى كتب اسمه عليه فهو حصرة عبد اللطيف أفندى محمد الدمياطى رقم ١٩ بخان الخليل .

وأكثر ما أعجبنى فى هذا الكتاب تلخيصه سريان الحركة الروحية فى الأوساط العلمية من لدن الاساتذة (مير) و (ميس) والمشتري الكبير ادموندس رئيس الكونجرس الأمريكى ، الى أيامنا هذه فى إنجلترا وأمريكا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا وسائر ممالك أوروبا . وقد تبعت فيه هذه الحركة تبعا استقرائيا فوجدت الكتاب قد وفاهما حقها الى درجة توجب الإعجاب والإكبار .

بلى هذا فى القيمة العلمية للكتاب ما نشره عن الطب الروحاني ، والعلاج النفساني ، فإيه من خير ما يكشف للقارىء علاقة الروح بالجسم ، وحضوع الأمراض للإشعاعات الروحية . وقد أتى المؤلف على عدد من كبار المعالجين المحدثين ، وما قاموا به بخير البشرية ، واحتراف الحكومة بذلك وتقديرها له .

فهرس

المجلد العشرين

(لسنة ١٣٦٨ هـ - ١٩٤٩ م)

صفحة	بقلم	الموضوع
		(١)
٧٨٧	فضيلة الأستاذ محمد المدني	آيتان
٧٤٨	حسن المشد	الابتداع
٧٦	عبد الجواد رمضان	إبراهيم محمد السيد بجا
٢٢٦	عبد الله المراغى	ابن حزم
٤١	أبو الوفا المراغى	أبو ذر الغفارى
٣٦٤، ٨٢	عبد الحميد المسلوت	أبو طالب
٦٩٣، ٩٠٠	محمد المدني	أبو الأنبياء
٥٧٠، ٤٨١ } ٧٦٩، ٦٧٢ }	أحاديث الأستاذ الأكبر
	احتفال الأزهر بالعام الهجرى
٥	كلية الأستاذ الأكبر
	احتفال الأزهر بذكرى الملك فؤاد
٦٧٦	كلية فضيلة وكيل الأزهر
٤٥٥	فضيلة الأستاذ محمد عبد التواب	اختلاف رأى لا يبرر الجريمة
٢٦٩	أخلاق المصطفى
١٥٥	أحمد شامى	أخلاق الرسول - نواحي الإعجاز فيها
١٠٥	عبد الرحيم العندوى	الإخلاص
٨٤٦	محمد كامل الفقى	أداء الواجب
٥٨	دكتور محمد والى خان	الإرادة الإنسانية

الموضوع	بقلم	صفحة
الأربعينيات - جمعها	فضيلة الأستاذ فكرى ياسين	٢١٥
الأزهر وجزيرة البهجة القومية	حضرة الأستاذ أحمد عز الدين	٩٤٥
أساليب الوعظ	فضيلة الأستاذ إبراهيم أبو الخشب	٥٥١
الاستواء على العرش	لجنة الفتوى	١٤٥
الإسماء والمعراج	فضيلة الأستاذ فكرى ياسين	٥٩٣
أسرار القرآن الكريم	أحمد الشرباصى	١٦٣
أسرار الفصل والوصل	أحمد محمد سلو	٧٨
الإسلام والمبطلون	محمد المدنى	٤١٨ : ٣١٠
الإسلام والرق	حضرة الأستاذ عبد المصطفى الصايغ	٦٦٦
الاعتراف بالجيل	فضيلة الأستاذ عبد الرحيم العدوى	٣٦
إنجاز القرآن	السيد	٧١٦
الإعلان عن السلعة	إبراهيم أبو الخشب	٣٦٩
الالتزامات وأنواعها	صالح بكير	٤٧٢
الإلهاد - هل فيه مادة للبقاء ؟	حضرة صاحب العزة مدير المجلة	٨٨١
الأمانة العلمية	فضيلة الأستاذ أبو الوفا المراضى	٦١٤
الامر بالمعروف والنهي عن المنكر	على عبد المنعم	٩٣٩
إن من البيان لحرأ	فكرى ياسين	٤٩٦
إسباغوجى	الدكتور أحمد فؤاد الاموانى	٩٢٣
(ب)		
البعوث فى الإسلام	فضيلة الأستاذ طه الساكت	١٣
البقاء - إلهاء	٣٨٩
كلية فضيلة الأستاذ الأكرم
بلاغه الرسول	فضيلة الأستاذ عبد الحميد المسلول	٦٣٦
بيان مشيئة الأزهر فى جريمة الاغتيال	...	٢٥٨
البيعة واليمين	فضيلة الأستاذ فكرى ياسين	٦٨٤

صفحة	بقلم	الموضوع
(ت)		
١١١، ١١٦ } ٣٢٠-٥٢٢١ }	فضيلة الأستاذ العلي بن النجار	تحويل القبلة
٦٥	فتوى دار الإفتاء	التطوع للجهاد في فلسطين
٦٤٦	فضيلة الأستاذ صالح بكير	التعويض في الفقه
٨٤٩	د إبراهيم أبو الخشب	تفسير القرآن
٥٤٩، ٢٤٨	د محمود الواوي	تفسير الكشاف
٣٣٧	د عبد الرحيم فرغل	تفسير سورة البقرة
٦١٨، ٥١٣	د د د د	تفسير سورة الفيل
٧٠٤	د د د د	تفسير سورة الأعلى
٤٣٦	د حسن حسين	التقوى والتوكل
(ج)		
١٦٧	فضيلة الأستاذ كامل مجلان	جارة العار
٨٥٢	د يوسف اليوى	الجارر الشاعر المصرى
٦٥٠، ٤٤٢	دكتور أحمد فزاد الالهوانى	جورج وللم هيجل
(ح)		
١٣٠	فضيلة الأستاذ محمد المدنى	حديث الفطرة — عود إليه
٨٦٥	حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكرم	الحديث الدينى
٨٧١	د د د د وكيل الأدمر	الحديث الدينى
٣٠٣	د فكرى ياسين	الحديث — منزله في الإسلام
٥٧١	د عبد المنعم خفاجى	الحضارة البشرية
٣٧٧	د صالح بكير	حقوق الدائن قبل المدين
٤٤٨	د د السيد	حياتنا — قصيدة

الموضوع	بقلم	صفحة
الحياة الإنسانية	فضيلة الأستاذ عبد المقيم خفاجي	١٧٧
الحياة لا ينبغي أن تضيق	د منصور رجب	٢٦٨
حيرة العالم	د أبو الرضا المراعي	٥٣٦ ١٤٦٩
(خ)		
خصائص الالتزام	فضيلة الأستاذ صالح بكير	٢٦٤
خطبة في حجة	د فكري ياسين	٨٨٥
الخوف والحزم	د محمد المدني	٥٠٢
(د)		
الدجوى — ذكرى	فضيلة الأستاذ أحمد الدجوى	٧٦٦
دعائم الاستقرار في التفسير القرآني	د محمد المدني	٢٠
دور انتقال على حطير	حضرة صاحب العزة مدير المجلة	٤٨٤
دين الله الإسلام	حضرة الأستاذ نظام الدين عبد الحيد	٩٣٨
الدين والدولة	فضيلة الأستاذ عبد الرحمن تاج	٥٩٩
(ر)		
الرجل العالمى — من هو منهما	حضرة صاحب العزة مدير المجلة	١٩٢
الرجولة في الدين	فضيلة الأستاذ إبراهيم أبو الحبيب	٧٤٥
الرحمة	د عبد الرحيم العسوى	٣١٤
الرضا بالقضاء والقدر	د علي رفاعي	٧٠
الرقعة والجزالة	حضرة الأستاذ السيد العناني	٨٢٥
الركن الشرعى للجرعة	د أحمد محمد إبراهيم	٦٢٠ ١٣٤
الروح - ثبوتها عليا	حضرة صاحب العزة مدير المجلة	٣٩٢
الرياسة الدينية	فضيلة الأستاذ منصور رجب	٦٢٥

الموضوع	بقلم	صفحة
(س)		
سلطان القرآن	فضيلة الأستاذ إبراهيم أبو الحشب	٦٣٣
سياسة المنزل	أبو الوفا المراسي	٩١٦
سياسة القول	كامل مجلان	٩٣٥
السيد حسن القاياتي	عبد العزيز البشري	٣٦٠
السيد الجرجاني	علي محمد حسن	١٢٣
السيرة النبوية - كيف تكتب ...	السيد	٢٧٥
السيرة النبوية - حول مقال ...	محمد النجار	٥٣٥
(ش)		
الشركة في الموائج - فتوى	لجنة الفتوى	٢٥٢
الشريعة والقانون	فضيلة الأستاذ عبد اللطيف السبكي	٢٢٦ ٤ ٢٢٦ ٦٠٤ ٤ ٥٠٨ ٨٩٦ ٤ ٧٩٦
شعراء الأزهري	عبد الجواد رمضان	٥٤٠ ٤ ٣٦
الشعر والإسلام		٧٢٠
الشعر البدوي والحضري	حامد عوني	٧٣٣
الشعر في العهد الأيوبي	رياض ملان	١٧٣
(ص)		
الصراع بين الواجب والعاطفة ...	فضيلة الأستاذ أحمد شاهين	٣٧٢
صلاة الجمعة يوحد مع الإمام ...	لجنة الفتوى	٤٦٨
الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم		١٤٥
(ط)		
طرائف القرآن	فضيلة الأستاذ عبد الفتى الراجحي	١٢٩ ٤ ١٢٩ ٨١٣
طرق البخاري - جمعها	حضرة الأستاذ فؤاد عبد الباقي	١٨٢
طهارة العرض	فضيلة الأستاذ إبراهيم أبو الحشب	٢٧٢

الموضوع	يقلم	صفحة
(ع)		
العالم يتعد النهايات المطلقة ...	حضرة صاحب العزة مدير المجلة	٢٩٢
العدالة - مقوماتها ...	فضيلة الأستاذ احمد شامين	٦٦٠
العدالة في الإسلام ...	د احمد علي منصور	١٦٩
العصر العظيم ...	حضرة الأستاذ عمر طلعت زهران	١٨٦ & ٧٤ ٥٧٣ & ٢٨١ ٨٨٦
عصه الدين الابهى ...	فضيلة الأستاذ علي محمد حسن	٣٥١
علماء الأزهر - نظرم إلى الشعر	د محمد كامل الفقى	٢٨١
العلماء سفراء وقادة ...	د محمود الشرقاوى	٤٤٩ & ٥٤
العلم والإلهاد ...	حضرة صاحب العزة مدير المجلة	٦٨٠
العلوم الإسلامية التقليدية ...	حضرة الأستاذ حسين المهدانى	٥٥٤
عيد الجلوس الملكى	٦٧٣
عيد الجلوس الملكى
كلية فضيلة وكيل الأزهر	٧٧٣
عيد الفطر فى الإسلام ...	حضرة الأستاذ احمد صلاح الدين	٩٥٠
عيد الميلاد الملكى
كلية فضيلة الأستاذ الأكبر	٣٨٥
(ف)		
فاتحة السنة العشرين ...	حضرة صاحب العزة مدير المجلة	٣
فلسفة ...	فضيلة الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى	٩٠٧٠٨٠٩٠٧٧٧
فلسفة القرآن والحياة الآخرة ...	د محمد يوسف الشيخ	٢٣٨ & ٢٣٢
(ق)		
القصص القرآنى - مقاصده ...	فضيلة الأستاذ الطيب النجار	٩٠١٠٦٩٨٠٤٣٠
قواعد بلا شواهد ...	د علي حسن الميارى	٨٢٨

صفحة	بـ	الموضوع
		(ك)
٥٦٦ / ١٥٩	فضيلة الأستاذ فهد سالم المليجي	كافوا الفقر
٨٩١	• • • محمد المدني	الكتاب والميزان
٨٤٠	• • • محمد عبد الثواب	كف الأذى
		(ل)
٥٢٩ / ٢٤٧	فضيلة الأستاذ محمد علي النجار	لذويات
٩١١ / ٨٠٣	• • • فكري ياسين	ليلة القدر
٧٨٢		
		(م)
٨٥٠	حضرة صاحب العزة مدير المجلة	الماديون وتعليل الموجودات ...
٧٧٨	• • •	الماديون يتخطون في فلسفتهم ...
٢٩٦ / ٢٩٦	فضيلة الأستاذ حامد محسن	المجاز والكنية في كتاب الله ...
٥٨٤ / ٤٨٨	• • • محمد محمد البحري	المجاز والكنية في كتاب الله ...
٧١١ / ٥٨٨ / ٤٩٢	• • • محمود التواوي	المجاز والكنية في القرآن ...
٨٢١	• • • نور الدين شريعة	المجتمع والسياسة
٩٥٤ / ٧٥٥	دكتور عطيه مصطفى مشرفة	المحتسب في الدولة الفاطمية ...
٧٧٢ / ٥٢٦ / ٤٢٧	فضيلة الأستاذ حسن حسين	محمد رسول الله
١٩٧	• • • عبد السلام سرحان	محمد رسول الله
٢٧٨	حضرة الأستاذ عبد المنعم العايغ	محمد رسول الله
٨٥٩	فضيلة الأستاذ منصور رجب	محمد المرقضي الزبيدي
٥٤٦	• • • عبد السلام سرحان	مدونة النقد الأدبي
٧٦١ / ٨٧	حضرة الأستاذ سعيد زايد	المبدن الفاضلة
٤٧٤	فضيلة الأستاذ كامل مجلان	المرأة الصالحة لها الجنة
٥٦٠	لجنة الفتوى	مسألة ميراثية
٦٥٧	دكتور أحمد محمد إبراهيم	مسئولية الأطباء
٣٣٤ / ٢١٣ / ٤٦	فضيلة الأستاذ عبد العزيز المراغي	مسئولية الأطباء
٦٩٠ / ٤٠٧ / ٤٢٠	• • • محمد علي التجار	مسئولية الأطباء
٥٠		

صفحة	بفلم	الموضوع
١١٦	» منصور رجب	المشولية الأدبية
١٠١	حضرة صاحب المزة مدير المجلة	المسلمون في المعترك العالمى
٦٠	فضيلة الأستاذ صالح بكير	المعاملات في الشريعة الإسلامية
٩	حضرة صاحب المزة مدير المجلة	معترك الفلسفات
٧٣٧	فضيلة الأستاذ أبو الوفا المراغى	المعرض والأزهر
...	...	معهد جسيدي في المنصورة
٩٧	...	كلمة فضيلة الأستاذ الأكبر
١٤٣	فضيلة الأستاذ إبراهيم أبو الحشب	المصلح الاجتماعى
٦٦	فضيلة الأستاذ عبد المتعال الصميدى	مقاصد القرآن - تشابها
١٢١	» حامد عرنى	المقياس الأدبى للشاعر
١٣٨	» عبد المنعم النمر	من أين لك هذا
٨٤٣	» منصور رجب	من ذكرياتى في الأزهر
٤٠٩	» فكرى ياسين	من هدى النبوة
٦٠٩	» عبد الرحيم العدوى	موقف المشركين من القرآن
٤٥٩	» محمد حسن درويش	المولد النبوى الكريم
٤٦٥	لجنة الفتوى	ميراث القاتل خطأ
٧٩٧، ٧٣٠	دكتور احمد محمد إبراهيم	ميراث القاتل
...	...	ميلاد الرسول
٢٨٩	...	كلمة فضيلة الأستاذ الأكبر
٣٣١	فضيلة الأستاذ أبو الوفا الراغى	الميلاد المحمدى
(ن)		
٢٣٠	فضيلة الأستاذ سليمان دنيا	نظرية السيبة
٧٤٢	لجنة الفتوى	نقل الدم وحاسة البصر
٨١٨	» أبو الوفا المراغى	نوادير المخطوطات
(ى)		
٩٢٠	فضيلة الأستاذ إبراهيم أبو الحشب	اليد العليا